صفوة التفاسير

تفسير للقرآن الكريم، جامع بين المأثور والمعقول، مستمد من أوثق كتب التفسير
«الطبري، الكشاف، القرطبي، الألوسي، ابن كثير، البحر المحيط» وغيرها
بأسلوب ميسّر، وتنظيم حديث، مع العناية بالوجوه البيانية واللغوية

المجلّد الأول

تأليف

محمّد علي الصّابوني

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
مكة المكرمة - جامعة الملك عبد العزيز

دار القرآن الكريم

بيروت




بسم الله الرحمن الرحيم

صفوة التفاسير

قال الله تعالى: "إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم"

"وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين"..
"الإسراء"

وقال عليه الصلاة والسلام:
"أشراف أمتي حملة القرآن" "الترمذي"

"من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول الم حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف." "البخاري"

إقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه"
"البخاري"

إلى كل مؤمن ومؤمنة..
يبتغي السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة..
أهدي كتاب الله وتفسيره..
ليكون عوناً على فهم القرآن والعمل به..
وقد قال عليه الصلاة والسلام:
"تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وسنتي". "متفق عليه"

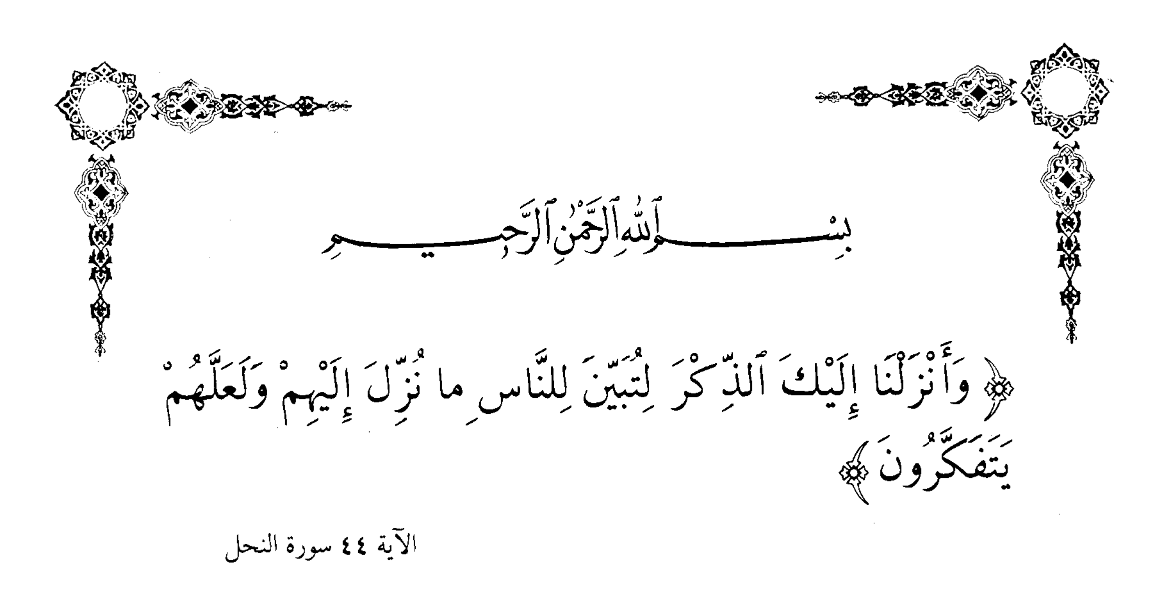
السيد حسن عباس شربتلي




الطبعة الرابعة
(منقحة)

١٤٠٢ هـ = ١٩٨١ م

طُبع على نفقة
المحسن الكبير
معالي السيد حسن عباس الشربتلي
وجعله وقفاً لله تعالى
فجزاه الله كل خير
يُوزع مجاناً ولا يُباع



بسم الله الرحمن الرحيم

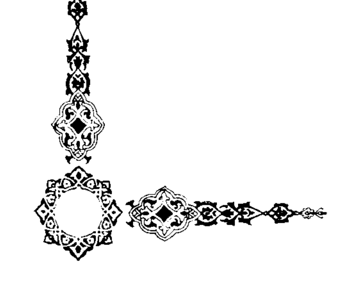
﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

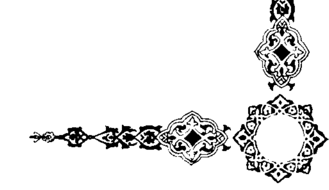
الآية ٤٤ سورة النحل

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ ٱلَّذين أُوتُوا الكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾

الآية ١٨٧ سورة آل عمران

« صَدَقَ اللهُ العَظِيم »





بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

الحمد لله الذي شرّفنا بخدمة كتابه المجيد، وحبّب إلينا السهر على العناية بطباعته، ونشر علومه وتراثه وهديه، ويسّر لنا الصعاب في سبيل ذلك، والصلاة والسلام على خير عباد الله ورسله الأبرار، سيّدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، ومن عمل بهدْي الكتاب والسنة إلى يوم الدين.

وبعد، فقد سبق أن قدمنا للقراء الكرام، وللمكتبة القرآنية، من تأليف فضيلة الشيخ محمد علي الصابوني، كتاب «روائع البيان في تفسير آيات الأحكام» بمجلدين، و«مختصر تفسير ابن كثير» بثلاثة مجلدات كبيرة، لاقى كل منهما وما يزال ترحيب وتقدير العلماء، وإقبال طلبة العلم، والشباب المثقف، لما امتازا به من وضوح في العبارة، وتجنب التعقيد والإطالة، ودقة في اختيار أصح الأقوال المعتمدة، في تفسير كتاب الله العظيم.

ويسعدنا في مستهل القرن الخامس عشر الهجري أن نقدم للقراء الكرام، عملاً جديداً جليلاً لفضيلة الشيخ الصابوني هو «صفوة التفاسير»، وهو بحق اسم على مسمى، جمع فيه المؤلف صفوة ما حوته أمهات التفاسير المعتمدة، ونسق بين أطيب ثمارها وأزهارها، بأسلوب واضح مبسط، ونهج علمي جامعي، يغني طلاب العلم والمعرفة عن العودة إلى المراجع الكبيرة، وبذل الجهد الشاق في البحث والتقصي عن المعنى المطلوب، كما اختصر الطريق للشباب الإسلامي المثقف، ممن لا صبر لهم على المطولات، ولا تشفي غليلهم المختصرات المكثفة.

وأترك القارىء الكريم، يتعرف على مزايا هذا التفسير الجديد الجليل، من خلال مقدمة المؤلف الفاضل، التي يعرض فيها منهجه في «صفوة التفاسير»، الذي جاء ثمرة جهود دائبة، وصبر طويل، وعمل متواصل، دام أكثر من خمسة أعوام كاملة، قضاها المؤلف بالغوص في بحار من المراجع وأمهات التفاسير، دون كلل أو ملل، حتى جمع صفوتها وزبدتها، جَمْعَ الذوّاق الخبير المتمكن، وقد أعانه الله تبارك وتعالى على ذلك، وبسط له البركة في وقته وصحته، وأيده بالتوفيق، حتى أتم هذا العمل الموفق الكبير.

ويسرنا أن نقدمه للقراء الكرام، بثوب قشيب، وطباعة أنيقة، وإخراج بديع، كما عودناهم في سائر مطبوعاتنا القرآنية، بعد أن بذلنا فيه جهداً كبيراً، استغرق أكثر من عامين من العمل الجاد، في التصحيح والمراجعة والتدقيق والترتيب، ليكون خلواً من أخطاء الطباعة، محاولين بلوغ أقصى ما نقدر عليه من الكمال البشري، نسأل الله جلَّ جلاله، أن يتقبل منا، وينفع به، ويجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم، والحمد لله رب العالمين.

بيروت في غرة ربيع الأول ١٤٠٠ هـ
الموافق: ١٨ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٠ م

محمد سليم الطرابلسي

كلمة سماحة الدكتور عبد الحليم محمود

شيخ الجامع الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين وبعد :

فقد أطلعني الأخ الأستاذ محمد علي الصابوني على شيء من كتابه الجديد « **صفوة التفاسير** » وهو كتاب تحرى فيه المؤلف ذكر أصح الآراء في تفسير كتاب الله تعالى مع الاختصار والسهولة ، وإذا كان اختيار المرء قطعة من عقله ، فإنه لا شك أن المؤلف وفق توفيقاً كبيراً في الاختيار من أمهات كتب التفاسير التي رجع إليها على علم وبصيرة .

وليس هذا هو الكتاب الأول للمؤلف في موضوع القرآن فقد سبق أن اختصر كتاب « **تفسير ابن كثير** » وكان اختصاره لهذا الكتاب العظيم مفيداً نافعاً خلا من كل تعقيد .

ولقد اختص آيات الأحكام في القرآن الكريم بمؤلف مستقل سماه : « **روائع البيان في تفسير آيات الأحكام** » ، وهو كتاب يبين الأحكام في المرجع الأول لها وهو الكتاب الكريم .

وسبق أيضاً أن ألف في علوم القرآن الكريم تحت عنوان : « **التبيان في علوم القرآن** » ، وها هو يتوج كل هذه الدراسات بكتاب نفيس هو زهور رائعة لكثير مما أنتجته قرائح أسلافنا رضوان الله عليهم في التفسير .

ونرجو الله سبحانه له التوفيق وأن يهدي سبحانه لكتابه ويهدي به إنه سميع قريب مجيب .

عبد الحليم محمود

شيخ الجامع الأزهر

مكة المكرمة ٢٧ صفر ١٣٩٦ هـ

٢٧ فبراير ١٩٧٦ م

كلمة سماحة الشيخ عبد الله بن حميد

رئيس مجلس القضاء الأعلى

الرئيس العام للاشراف الديني على المسجد الحرام

الحمد لله وحده ، وبعد بناء على طلب الأخ فضيلة الأستاذ الشيخ محمد علي الصابوني المدرس بجامعة الملك عبد العزيز كلية الشريعة والدراسات الاسلامية بمكة المكرمة أن أكتب تقريظاً لكتابه « **صفوة التفاسير** » بعد أن قرأ عليَّ بنفسه بعض المواضع من هذا الكتاب ولم يتسع الوقت لسماعه كله .

فقد أجاد المؤلف وأفاد فيما سمعته من كتابه جزاه الله خيراً ، كما اجتهد في جمعه واختار أصح الأقوال وأرجحها في تفسير كتاب الله وجمع في هذا التفسير بين المأثور والمعقول ، بأسلوب واضح ، وطريقة حديثة سهلة ، يذكر بين يدي السورة خلاصة للمقاصد الأساسية لها . يوضح معاني الكلمات وبيان اشتقاقها . والمناسبة بين الآيات السابقة والآيات اللاحقة ، ويبين السبب الذي نزلت من أجله الآيات . يبدأ بتفسير الآيات دون وجوه الإعراب ، ويذكر الفوائد التي لها علاقة بالآيات والمستنبطة منها ، ويوضح بيان الصور البيانية والنكات البلاغية .

نسأل الله لنا وله التوفيق والسداد وأن يعم النفع بهذا الكتاب ويجزي المؤلف على ما بذل من جهد .

والله الموفق وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم . . .

عبد الله بن حميد

رئيس مجلس القضاء الأعلى

الرئيس العام للاشراف الديني على المسجد الحرام

٧/ ٤/ ١٣٩٧هـ

كلمة سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي

رئيس ندوة العلماء بلكنهو - الهند

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله وصحبه أجمعين ، وبعد :

فقد كان الاتجاه العلمي السائد في عصور التأليف الإسلامي الأولى هو الاستيعاب الشامل لكل ما قيل ورُوي في الموضوع ، فكانت كتب المؤلفين في التفسير ، والحديث ، والسيرة ، والتاريخ أشبه بموسوعات علمية . وإن كانت لهذا الاتجاه والأسلوب الشائع فوائد أعظمها صيانة هذه الثروة العلمية من الضياع ، وتمكين القارىء من اختيار ما هو أوفق وأقرب إلى ذوقه فقد أحدث مشكلة - خصوصاً في هذا العصر - وهي أن الطالب المبتديء والمتوسط يحار في اختيار أقرب الأقوال إلى الصواب ، ويتشتت ذهنه فلا يرسخ فيه قول واحد ويجد نفسه في غابة ملتفة من الأقوال والآراء والمذاهب ، ولذلك مال كثير من المؤلفين في كل عصر إلى الانتقاء من هذه الكتب الموسوعية ، واختيار أقرب الأقوال وأقواها ، فكانت لهذه الكتب فائدة عظيمة وفضل كبير على طلبة العلم .

وكان هذا العصر من أحوج العصور إلى هذا الأسلوب من التأليف لقصر الوقت وضعف الهمم وتشتت الأذهان ، لذلك كان صديقنا الفاضل فضيلة الشيخ محمد علي الصابوني موفقاً كل التوفيق في وضع كتابه « صفوة التفاسير » فقد وفّر على طلبة علم التفسير وقتاً طويلاً وأخذ بيدهم إلى ما هو عصارة دراسته وخلاصة التفاسير ، لا يقدر على ذلك إلا من توسعت دراسته وسلم ذوقه وحسنت ممارسته لفن التدريس ، فاستحق بذلك شكر طلبة العلم والمشتغلين بفن التفسير جزاه الله خيراً وأثابه وتقبل عمله .

مكة المكرمة
٩/٤/١٣٩٦ هـ

أبو الحسن علي الحسني الندوي

كلمة معالي الدكتور عبد الله عمر نصيف

مدير جامعة الملك عبد العزيز

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على عبده ورسوله نبينا الأمين، محمد بن عبد الله المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين..

وبعد:

فإن أشرف ما يقدّمه الباحثون، وأسمى ما يسعى إليه المؤلفون، في بحوثهم وتآليفهم، ما كان في خدمة القرآن العظيم، وعلومه الجليلة الزاهرة.. وشرف الإنسان بشرف الرسالة التي يحملها، والغاية التي يسعى من أجل تحقيقها.. وليس ثَـمَّةَ جُهدٌ يُضاهي جُـهْد العلماء، فإنهم مشاعل النور والضياء، في كل زمانٍ ومكان، ولهذا رفع الله قدرهم، وأعلى شأنهم بقوله جلَّ ثناؤه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُوْنَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُوْنَ؟ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوْا الأَلْبَابِ﴾. وإن هذا العمل الجليل، الذي قام به فضيلة الأخ العزيز الشيخ محمد علي الصابوني أستاذ التفسير وعلوم القرآن بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة، من استخلاصٍ لمجموعة من تفاسير القرآن الكريم، لعددٍ من جهابذة الأئمة المفسِّرين، لتكون في متناول العلماء وطلاب العلم على حد سواء، لهو توفيقٌ من الله سبحانه وتعالى للمؤلف، فقد مكَّنه جلَّ وعلا من تقديم هذه الكنوز العظيمة، في سِفْرٍ واحد هو «صفوة التفاسير» ليسهّل على الباحثين مهمة الاطلاع والفهم لكتاب الله عزَّ وجل. والله أسأل أن يثيب فضيلة المؤلف على عمله، وأن ينفع به المسلمين، وأن يجزيه عنهم خير الجزاء إنه وليُّ ذلك والقادر عليه، والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

جدة: ١٥ صفر ١٤٠٠ هـ

الموافق: ٣ يناير ١٩٨٠ م

د. عبد الله عمر نصيف

مدير جامعة الملك عبد العزيز

كلمة سعادة الدكتور راشد بن راجح

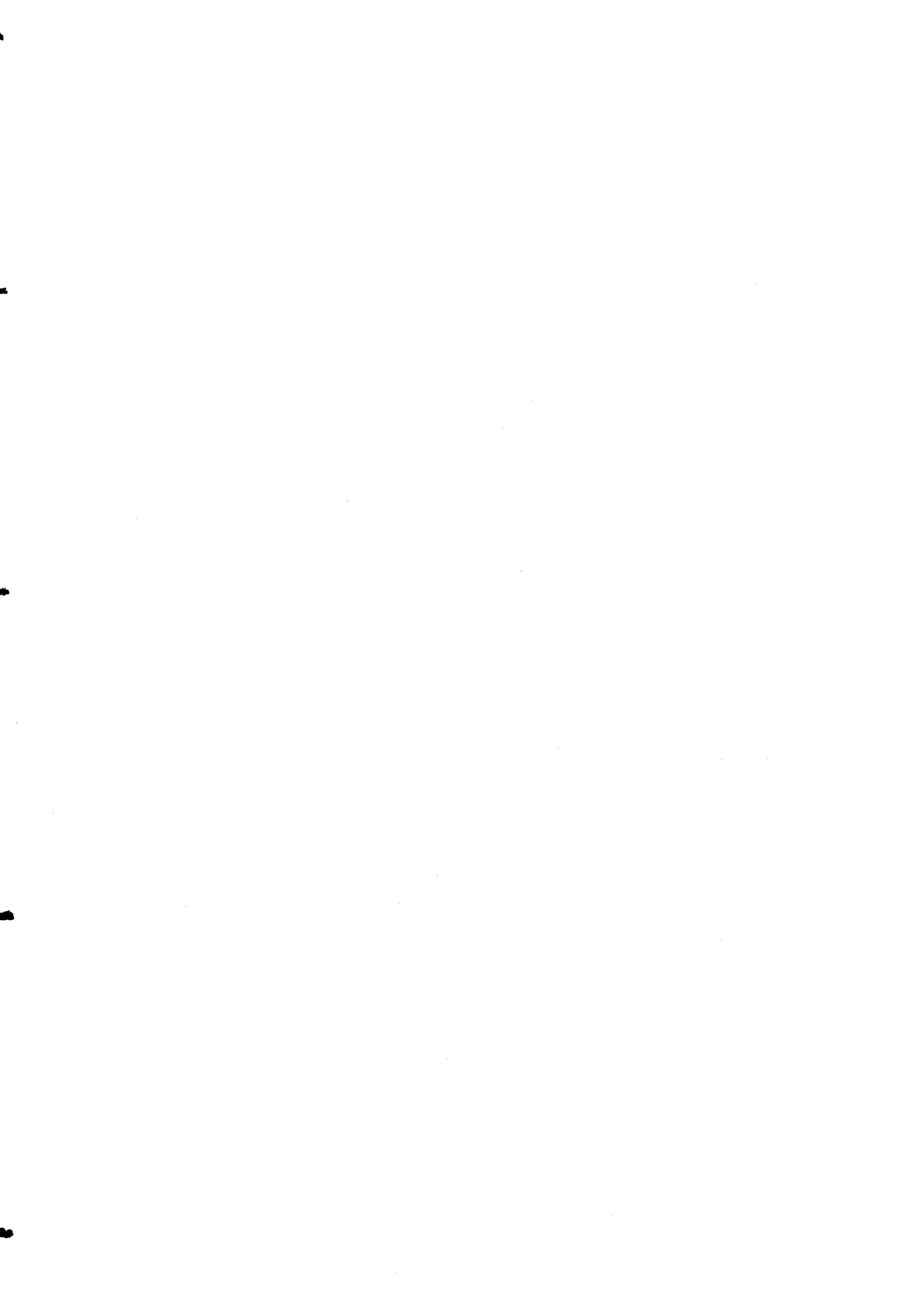
عميد كليّة الشّريعة والدّراسات الإسلاميّة بمكة المكرّمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ، لقد اطلعت على كتاب « صفوة التفاسير » لفضيلة الشيخ الفاضل الأستاذ محمد علي الصابوني وقرأت بعض صفحاته فألفيته كتاباً ثميناً حوى خلاصة ما قاله أئمة المفسرين ليسهل فهمه على طلبة العلم بأسلوب مبسط وعبارات ميسرة وإيضاحات جيدة مع العناية بالجوانب اللغوية والبيانية . . فهو بذلك كتاب جيد يستحق الطبع والنشر لتعم الفائدة . جزى الله مؤلّفه خير الجزاء ونفع به الإسلام والمسلمين ، إنه ولي ذلك والقادر عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل .

كتبه الفقير إلى عفو مولاه راشد بن راجح الشريف عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة .

مكة المكرمة ١٥/ ١٠/ ١٣٩٦ هـ .



كلمة فضيلة الشيخ عبد الله خيّاط

خطيب المسجد الحرام

كتاب صفوة التفاسير

كنت أجد في نفسي رغبة ملحّة لتفسير للقرآن الكريم في متناول طالب العلم ، يجمل ما تفرق في كتب التفسير المعتبرة ، ويغنيه عن المراجع المطولة ، ويعطيه فكرة واضحة عن لغة القرآن ، وسبب النـزول ، وييسر له المعاني فيكون زاده وعدته ، فكان كتاب « صفوة التفاسير » هو الضالة المنشودة والحلقة المفقودة ، إذ قد عني مؤلفه فضيلة الشيخ محمد علي الصابوني بكل ما أشرت إليه مما حقق الرغبة ، ولبى الحاجة .

والله أسأل أن ينفع به ويأجر مؤلفه على ما بذله من جهد وتضحية ، وصلى الله على خير خلقه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

وكتبه الفقير إلى الله عبد الله خياط خطيب المسجد الحرام في اليوم الخامس والعشرين من شهر شوال سنة ١٣٩٥ هجرية .

كلمة فضيلة الشيخ محمد الغزالي

رئيس قسم الدعوة وأصول الدين بكلية الشريعة بمكة المكرمة

الحمد لله أهل التقوى والمغفرة ، والصلاة والسلام على منار العلم والهدى في الدنيا والآخرة .

وبعد :

فإن الثقافة القرآنية تحتاج إلى قلم سهل العبارة ، فياض الأداء ، بعيد عن المصطلحات الفنية ، والمناقشات الفلسفية ، همه الأكبر إبراز السياق السماوي ، والوصول به إلى نفوس الجماهير دون تكلف أو التواء .

وقد نجح فضيلة الشيخ محمد علي الصابوني في تحقيق هذه الغاية، إذ يسَّر تفسير الكتاب العزيز، وجمع في تفسيره جملاً من أقوال الأئمة تتضمن خلاصات علمية وأدبية جعلته غنياً بالحقائق ، والحكم النافعة . وقد لاحظنا أن الشيخ محمد علي الصابوني قرن في تفسيره بين كثيرٍ من مأثورات السلف واجتهادات الخلف ، أي أنه جمع بين المنقول والمعقول ـ كما يقولون ـ فيستطيع القارىء أن يرى أمامه اللونين معاً ، وأن ينتفع بخير ما في الطريقتين .

كما لاحظنا أن التفاسير الأخرى قد تجنح إلى أحد الطرفين ، فإما إيجاز شديد وإما إطناب لا يطيقه العصر ، ولكن الشيخ محمد علي الصابوني ـ جزاه الله خيراً ـ استطاع أن يتوسط في مسلكه العلمي فأفاد وأجمل كما ابتعد عن الشطط الذي وقع فيه البعض حين جازف بذكر نظريات علمية أو أحاديث نبوية لا بد في سوقها من التثبت والتمحيص .

نفع الله به وشرح الصدور له وجزاه عن الأمة كل خير .

محمد الغزالي

رئيس قسم الدعوة وأصول الدين بكلية الشريعة بمكة المكرمة

في ٦/ ٤/ ١٣٩٦ هـ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدّمة

الحمد لله الذي أنار قلوب عباده المتقين بنور كتابه المبين ، وجعل القرآن شفاءً لما في الصدور وهدى ورحمةً للمؤمنين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وأشرف المرسلين ، سيدنا محمد النبي العربي الأمين ، الذي فتح الله به أعيناً عُمياً ، وآذاناً صُمّاً ، وقلوباً غُلْفاً ، وأخرج به الناس من الظلمات إلى النور ، صلاة وسلاماً دائمين إلى يوم البعث والنشور ، وعلى آله الطيبين الأطهار ، وأصحابه الهادين الأبرار ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين ، وبعد :

فلا يزال القرآن الكريم بحراً زاخراً بأنواع العلوم والمعارف ، يحتاج من يرغب الحصول على لآلئه ودرره ، أن يغوص في أعماقه ، ولا يزال القرآن يتحدَّى أساطين البلغاء ، ومصاقيع العلماء ، بأنه الكتاب المعجز ، المنزَّل على النبي الأمي شاهداً بصدقه ، يحمل بين دفتيه برهان كماله ، وآية إعجازه ، ودليل أنه تنزيل الحكيم العليم : ﴿نَزَلَ به الروحُ الأمينُ. على قَلْبِكَ لِتكُونَ مِنَ المُنْذِرينَ. بلسانٍ عَرَبي مُبين﴾ .

وعلى كثرة ما كتب العلماء وألفوا ـ وعلى كثرة ما تحويه المكتبة الإسلامية من أسفارٍ ضخمة ، وكتب نفيسة ، خدم بها العلماء كتاب الله الجليل ـ يبقى القرآن زاخراً بالعجائب ، مملوءاً بالدرر والجواهر ، يطالعنا بين حينٍ وآخر ، بما يبهر العقول ويحيّـر الألباب ، بما فيه من الإشراقات الإلهية ، والفيوضات القدسية ، والنفحات النورانية ، بما هو كفيلٌ لتخليص الإنسانية ، من شقاء الحياة وجحيمها المستعر . . وكلُّ علمٍ شاط واحترق إلا « علم التفسير » فإنه لا يزال بحراً لُجّياً ، يحتاج إلى من يغوص في أعماقه ، لاستخراج كنوزه الثمينة ، واستنباط روائعه وأسراره ، ولا يزال العلماء يقفون عند ساحله ، يرتشفون من معينه الصافي ولا يرتوون . . ومن ذا الذي يستطيع أن يحيط علماً بكلام ربِّ العزة جلَّ وعلا ، وأن يدرك أسراره ، ودقائقه ، وإعجازه ! وأن يزعم أنه أوفى أو وصل إلى درجة الكمال !!

إنه الكتاب المعجز ، الذي سيظل يمنح الإنسانية ، من علومه ومعارفه ، ومن أسراره وحِكَمِه ، ما يزيدهم إيماناً وإذعاناً بأنه « المعجزة الخالدة » للنبيّ العربي الأميّ محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وأنه تنزيل الحكيم الحميد .

وإذا كان المسلم قد اضطرته الدنيا ليشغل وقته في تحصيل معاشه ، وضاقت أيامه عن الرجوع إلى التفاسير الكبيرة ، التي خدم بها أسلافنا - رضوان الله عليهم - كتاب الله تعالى ، تبياناً وتفصيلاً لآياته ، وإظهاراً لبلاغته ، وإيضاحاً لإعجازه ، وإبرازاً لما حواه الكتاب المجيد من تشريع وتهذيب ، وأحكام وأخلاق ، وتربية وتوجيه . . فإن من واجب العلماء اليوم أن يبذلوا جهدهم لتيسير فهمه على الناس ، بأسلوب واضح ، وبيانٍ ناصع ، لا حشو فيه ولا تطويل ، ولا تعقيد ولا تكلف ، وأن يُبرزوا ما في القرآن من روعة الإعجاز والبيان ، بما يتفق وروح العصر الحديث ، ويلبي حاجة الشباب المثقف ، المتعطش إلى التزود من علوم ومعارف القرآن الكريم .

ولم أجد تفسيراً لكتاب الله عز وجل - على ما وصفتُ - رغم الحاجة إليه ، وسؤال الناس عنه ، ورغبتهم فيه ، فعزمتُ على القيام بهذا العمل ، رغم ما فيه من مشقةٍ وتعب ، واحتياجه لوقتٍ لا يُتاح في هذا الزمان ، مستعيناً بالله الكريم ، متوكلاً عليه ، سائلاً إياه أن يعينني على إتمام هذا الواجب ، وأن يوفقني لإخراجه بشكلٍ يليق بكتاب الله تعالى ، يعين المسلم على فهم آيات القرآن ، والتزود من بيانه ، ما يزيده إيماناً ويقيناً ، ويدفعه إلى العمل الجادّ الموفق إلى مرضاة الرب جل وعلا .

وقد أسميت كتابي «صفوة التفاسير» وذلك لأنه جامع لعيون ما في التفاسير الكبيرة المفصَّلة، مع الاختصار والترتيب ، والوضوح والبيان ، وكلي أملٌ أن يكون اسمه مطابقاً لمسمَّاه، وأن تستفيد منه الأمة الإسلامية ، بما يوضّح لها السبيل الأقوم ، والصراط المستقيم .

وقد سلكت في طريقي لتفسير الكتاب العزيز الأسلوب الآتي :

أولاً : بين يدي السورة ، وهو بيان إجمالي للسورة الكريمة وتوضيح مقاصدها الأساسية .

ثانياً : المناسبة بين الآيات السابقة والآيات اللاحقة .

ثالثاً : اللغة مع بيان الاشتقاق اللغوي والشواهد العربية .

رابعاً : سبب النزول .

خامساً : التفسير .

سادساً : البلاغة .

سابعاً : الفوائد واللطائف .

وقد مكثت في تأليف هذا التفسير خمس سنوات ، أواصل فيه الليل بالنهار ، وما كنت أكتب شيئاً حتى أقرأ ما كتبه المفسرون في أمهات كتب التفسير الموثوقة ، مع التحري الدقيق لأصح الأقوال وأرجحها ، وإنني أشكر المولى جلَّ وعلا أنْ سهَّل لي هذا العمل ، فقد كنت أشعر أنَّ الزمن يُطوى لي ، وكلٌّ ذلك ببركات جوار البيت العتيق الذي أكرمني الله وشرفني بجواره ، منذ أن انتدبت للتدريس بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة عام ألف وثلاثمائة وإحدى وثمانين من هجرة سيد المرسلين .

والله تعالى أسأل أن يسدد خطاي ، ويجزل لي الثواب يوم المآب ، فما عملتُ إلا أملاً بنيل رضاه ، راجياً منه أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم ، ويبقيه ذخراً لي يوم الدين ، وأرجو ممن قرأ فيه فاستفاد أن يخصني بدعوة صالحة تنفعني يوم المعاد ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

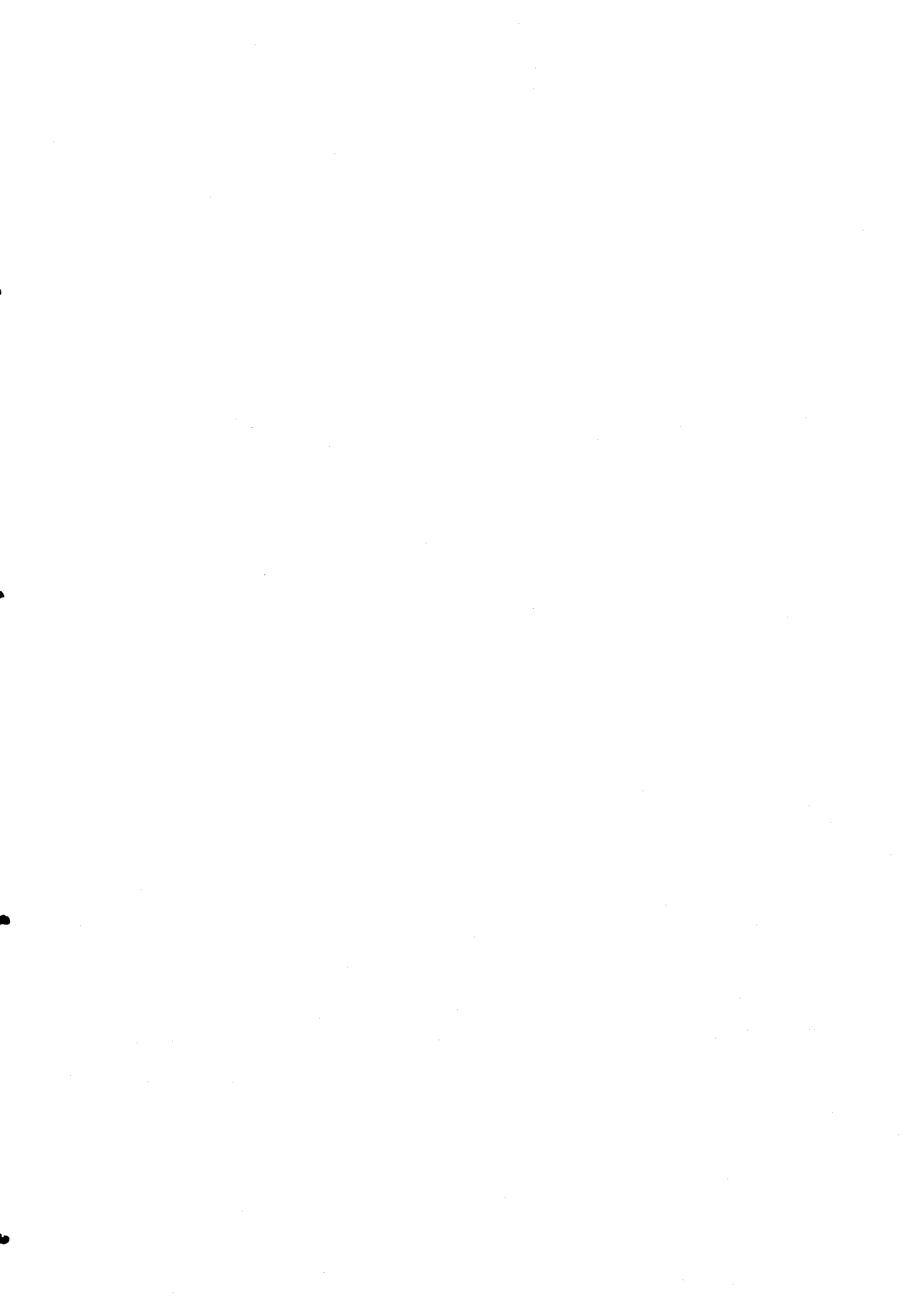
مكة المكرمة ـ غرة ذي الحجة ١٣٩٩ هـ

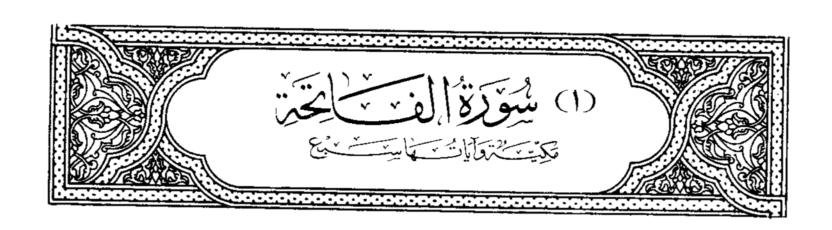
وكتبه الفقير إلى عفو ربه

محمد علي الصابوني

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية

مكة المكرمة ـ جامعة الملك عبد العزيز





أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

تفسير الاستعاذة المعنى : أستجير بجناب الله وأعتصم به من شر الشيطان العاتي المتمرد ، أن يضرني في ديني أو دنياي ، أو يصدني عن فعل ما أُمرت به ، وأحتمي بالخالق السميع العليم من همزه ولمزه ووساوسه ، فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله رب العالمين . . عن النبي ﷺ أنه كان إذا قام من الليل ، استفتح صلاته بالتكبير ثم يقول : (أعوذ بالله السميع العليم ، من الشيطان الرجيم ، من همزه ونفخه ونفثه)(١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير البسملة: المعنى : أبدأ بتسمية الله وذكره قبل كل شيء ، مستعيناً به جلَّ وعلا في جميع أموري ، طالباً منه وحده العون ، فإنه الرب المعبود ذو الفضل والجود ، واسع الرحمة كثير التفضل والإحسان ، الذي وسعت رحمته كل شيء ، وعمَّ فضله جميع الأنام .

تنبيه : ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ افتتح الله بهذه الآية سورة الفاتحة وكل سورة من سور القرآن ـ ما عدا سورة التوبة ـ ليرشد المسلمين إلى أن يبدءوا أعمالهم وأقوالهم باسم الله الرحمن الرحيم ، التماساً لمعونته وتوفيقه ، ومخالفةً للوثنيّين الذين يبدءون أعمالهم بأسماء آلهتهم أو طواغيتهم فيقولون : باسم اللات ، أو باسم العزى ، أو باسم الشعب ، أو باسم هبل .

قال الطبري : « إن الله تعالى ذكره وتقدست أسماؤه ، أدَّب نبيّه محمداً ﷺ بتعليمه ذكر أسمائه الحسنى أمام جميع أفعاله ، وجعل ذلك لجميع خلقه سنّةً يستنّون بها ، وسبيلاً يتبعونه عليها فقول القائل : بسم الله الرحمن الرحيم إذا افتتح تالياً سورة ينبىء عن أن مراده : أقرأ بسم الله ، وكذلك سائر الأفعال »(٢) .

---

(١) أخرجه أصحاب السنن . (٢) جامع البيان للطبري .

تفسير سورة الفاتحة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

بين يدي السورة :

هذه السورة الكريمة مكية وآياتها سبعٌ بالإجماع ، وتسمى « الفاتحة » لافتتاح الكتاب العزيز بها حيث إنها أول القرآن في الترتيب لا في النزول ، وهي - على قصرها ووجازتها - قد حوت معاني القرآن العظيم ، واشتملت على مقاصده الأساسية بالإجمال ، فهي تتناول أصول الدين وفروعه ، تتناول العقيدة ، والعبادة ، والتشريع ، والاعتقاد باليوم الآخر ، والإيمان بصفات الله الحسنى ، وإفراده بالعبادة والاستعانة والدعاء ، والتوجه إليه جلَّ وعلا بطلب الهداية إلى الدين الحق والصراط المستقيم ، والتضرع إليه بالتثبيت على الإيمان ونهج سبيل الصالحين ، وتجنب طريق المغضوب عليهم والضالين ، وفيها الاخبار عن قصص الأمم السابقين ، والاطلاع على معارج السعداء ومنازل الأشقياء ، وفيها التعبد بأمر الله سبحانه ونهيه ، إلى غير ما هنالك من مقاصد وأغراض وأهداف ، فهي كالأم بالنسبة لبقية السور الكريمة ولهذا تسمّى « أم الكتاب » لأنها جمعت مقاصده الأساسية .

فضلها : أ - روى الإمام أحمد في المسند أن « أبيَّ بن كعب » قرأ على النبي ﷺ أم القرآن فقال رسول الله ﷺ : (والذي نفسي بيده ما أُنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها ، هي السبعُ المثاني والقرآنُ العظيمُ الذي أوتيتُه) فهذا الحديث الشريف يشير إلى قوله تعالى في سورة الحجر ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾ .

ب - وفي صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال لأبي سعيد بن المعلّى : (لأعلمنّك سورة هي أعظم السور في القرآن : الحمد لله رب العالمين ، هي السبعُ المثاني والقُرآن العظيم الذي أوتيتُه) .

التسمية : تسمى « الفاتحة ، وأم الكتاب ، والسبع المثاني ، والشافية ، والوافية ، والكافية ، والأساس ، والحمد » وقد عدّدها العلامة القرطبي وذكر أن لهذه السورة اثني عشر إسماً .

اللغة : ﴿الحمد﴾ الثناء بالجميل على جهة التعظيم والتبجيل مقروناً بالمحبة وهو نقيض الذم وأعمُّ من الشكر ، لأن الشكر يكون مقابل النعمة بخلاف الحمد ﴿الله﴾ اسم علم للذات المقدسة لا يشاركه فيه غيره ، قال القرطبي : هذا الاسم ﴿الله﴾ أكبر أسمائه سبحانه وأجمعها ، وهو اسم للموجود

الحق ، الجامع لصفات الإلهية ، المنعوت بنعوت الربوبية ، المنفرد بالوجود الحقيقي لا إله إلا هو سبحانه ﴿ربّ﴾ الربّ : مشتق من التربية وهي إصلاح شئون الغير ورعاية أمره قال الهروي : « يقال لمن قام بإصلاح شيء وإتمامه : قد ربَّه ومنه الربانيون لقيامهم بالكتب »[١] والربُّ يطلق على عدة معان وهي « المالك ، والمصلح ، والمعبود ، والسيد المطاع » ﴿العالمين﴾ العالم : اسم جنس لا واحد له من لفظه كالرهط ، وهو يشمل : الإنس والجن والملائكة والشياطين كذا قال الفراء ، وهو مشتق من العلامة لأن العالم علامة على وجود الخالق جل وعلا ﴿الرحمن الرحيم﴾ صفتان مشتقتان من الرحمة ، وقد روعي في كلٍ من ﴿الرحمن﴾ و﴿الرحيم﴾ معنى لم يراع في الآخر فالرحمن بمعنى عظيم الرحمة لأن « فَعْلان » صيغة مبالغة في كثرة الشيء وعظمته ولا يلزم منه الدوام كغضبان وسكران ، والرحيم بمعنى دائم الرحمة لأن صيغة فعيل تستعمل في الصفات الدائمة ككريم وظريف فكأنه قيل : العظيم الرحمة الدائم الإحسان .[٢]

قال الخطابي : الرحمن ذو الرحمة الشاملة التي وسعت الخلق في أرزاقهم ومصالحهم وعمَّت المؤمن والكافر ، والرحيم خاص بالمؤمن كما قال تعالى ﴿وكان بالمؤمنين رحيماً﴾ ، ﴿الدين﴾ الجزاء ومنه الحديث (كما تدين تُدان) أي كما تفعل تجزى ﴿نعبد﴾ قال الزمخشري : العبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل ولذلك لم تستعمل إلا في الخضوع لله تعالى لأنه مولي أعظم النعم فكان حقيقاً بأقصى الخضوع[٣] ﴿الصراط﴾ الطريق وأصله بالسين من الاستراط بمعنى الابتلاع كأن الطريق يبتلع السالك قال الشاعر :

شحنّا أرضهم بالخيل حتى تركناهم أذلَّ من الصّراط

﴿المستقيم﴾ الذي لا عوج فيه ولا انحراف ﴿آمين﴾ أي استجب دعاءنا وهي ليست من القرآن الكريم إجماعاً .

التفسير : علمنا الباري جلّ وعلا كيف ينبغي أن نحمده ونقدسه ونثني عليه بما هو أهله فقال ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾ أي قولوا يا عبادي إذا أردتم شكري وثنائي الحمد لله ، اشكروني على إحساني وجميلي إليكم ، فأنا الله ذو العظمة والمجد والسؤدد ، المتفرد بالخلق والإيجاد ، رب الإنس والجن والملائكة ، ورب السموات والأرضين ، فالثناء والشكر لله رب العالمين دون ما يُعبد من دونه ﴿**الرحمن الرحيم**﴾ أي الذي وسعت رحمته كل شيء ، وعمَّ فضله جميع الأنام ، بما أنعم على عباده من الخلق والرزق والهداية إلى سعادة الدارين ، فهو الرب الجليل عظيم الرحمة دائم الإحسان ﴿**مالك يوم الدين**﴾ أي هو سبحانه المالك للجزاء والحساب ، المتصرف في يوم الدين تصرّف المالك في ملكه ﴿يوم لا تملك نفسٌ لنفسٍ شيئاً والأمر يومئذٍ لله﴾ ﴿**إيَّاكَ نعبد وإيَّاك نستعين**﴾ أي نخصُّك يا الله بالعبادة ، ونخصك بطلب الإعانة ، فلا نعبد أحداً سواك ، لك وحدك نذلُّ ونخضع ونستكين ونخشع ، وإيَّاك ربنا نستعين على طاعتك ومرضاتك ، فإنك المستحق لكل إجلال وتعظيم ، ولا يملك القدرة على عوننا أحدٌ سواك ﴿**إهدنا الصراط المستقيم**﴾ أي دلنا وأرشدنا يا رب إلى طريقك الحق ودينك المستقيم ، وثبتنا على الإسلام الذي

---

(١) القرطبي ١/ ١٣٣ . (٢) كشف المعاني تفسير ابن جماعة . (٣) الكشاف ١/ ١١ .

بعثت به أنبياءك ورسلك ، وأرسلت به خاتم المرسلين ، واجعلنا ممن سلك طريق المقربين ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ أي طريق من تفضّلت عليهم بالجود والإنعام ، من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين ، وَحَسُنَ أولئك رفيقاً ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ أي لا تجعلنا يا ألله من زمرة أعدائك الحائدين عن الصراط المستقيم ، السالكين غير المنهج القويم ، من اليهود المغضوب عليهم أو النصارى الضالين ، الذين ضلوا عن شريعتك القدسية ، فاستحقوا الغضب واللعنة الأبدية . اللهم آمين .

البَـلاَغَـة : ﴿الحمد لله﴾ الجملة خبرية لفظاً إنشائية معنىً أي قولوا « الحمد لله » وهي مفيدة لقصر الحمد عليه تعالى كقولهم : الكرم في العرب . ٢ ـ ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ فيه إلتفات من الغيبة إلى الخطاب ولو جرى الكلام على الأصل لقال : إيّاه نعبد ، وتقديم المفعول يفيد القصر أي لا نعبد سواك كما في قوله ﴿وإيّاي فارهبون﴾ ٣ ـ قال في البحر المحيط : وفي هذه السورة الكريمة من أنواع الفصاحة والبلاغة أنواع :

الأول : حسن الافتتاح وبراعة المطلع .

الثاني : المبالغة في الثناء لإفادة « أل » الاستغراق

الثالث : تلوين الخطاب إذ صيغته الخبر ومعناه الأمر أي قولوا الحمد لله .

الرابع : الاختصاص في قوله ﴿لّله﴾ .

الخامس : الحذف كحذف صراط من قوله ﴿غير المغضوب عليهم﴾ تقديره غير صراط المغضوب عليهم وغير صراط الضالين .

السادس : التقديم والتأخير في ﴿إيّاك نعبد﴾ .

السابع : التصريح بعد الإبهام ﴿الصراط المستقيم﴾ ثم فسره بقوله ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ .

الثامن : الالتفات في ﴿إياك نعبد وإيّاك نستعين﴾ .

التاسع : طلب الشيء والمراد به دوامه واستمراره في ﴿إهدنا الصراط﴾ أي ثبتنا عليه .

العاشر : السجع المتوازي في قوله ﴿الرحمن الرحيم * الصراط المستقيم﴾وقوله﴿نستعين * * الضّالين﴾ .[١]

(١) البحر المحيط لأبي حيان ١/ ٣١ .

الفوائد: الأولى : الفرق بين ﴿الله﴾ و﴿الإله﴾ أن الأول اسم علم للذات المقدسة ذات الباري جل وعلا ومعناه المعبود بحق والثاني معناه المعبود بحقٍ أو باطل فهو اسم يطلق على الله تعالى وعلى غيره .

الثانية : وردت الصيغة بلفظ الجمع « نعبد ونستعين » ولم يقل « إياك أعبد وإياك أستعين » بصيغة المفرد وذلك للإعتراف بقصور العبد عن الوقوف في باب ملك الملوك فكأنه يقول : أنا يا رب العبد الحقير الذليل ، لا يليق بي أن أقف هذا الموقف في مناجاتك بمفردي ، بل أنضم إلى سلك المؤمنين الموحّدين فتقبل دعائي في زمرتهم فنحن جميعاً نعبدك ونستعين بك .

الثالثة : نسبَ النعمة إلى الله عز وجل ﴿أنعمت عليهم﴾ ولم ينسب إليه الإضلال والغضب فلم يقل : غضبتَ عليهم أو الذين أضللتَهم ،ذلك لتعليم العباد الأدب مع الله تعالى ، فالشر لا ينسب إلى الله تعالى أدباً وإن كان منه تقديراً « الخير كله بيديك والشر لا ينسب إليك » .

خاتمة
في بيان الأسرار القُدسيّة في فاتحة الكتاب العزيز

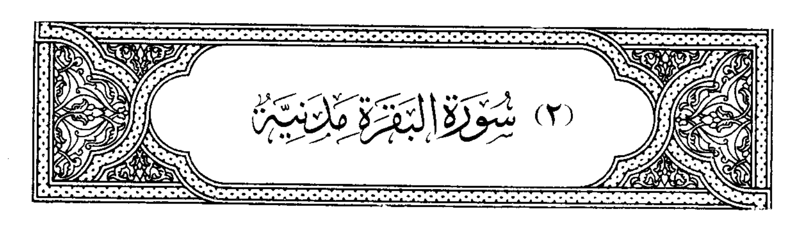
يقول شهيد الإسلام الشيخ حسن البنا في رسالته القيمة « مقدمة في التفسير » ما نصه : « لا شك أن من تدبَّر الفاتحة الكريمة رأى من غزارة المعاني وجمالها ، وروعة التناسب وجلاله ما يأخذ بلبه ، ويضيء جوانب قلبه ، فهو يبتدىء ذاكراً تالياً متيمناً باسم الله ، الموصوف بالرحمة التي تظهر آثار رحمته متجددة في كل شيء ، فإذا استشعر هذا المعنى ووقر في نفسه انطلق لسانه بحمد هذا الإله ﴿الرحمن الرحيم﴾ وذكّره الحمد بعظيم نعمه وكريم فضله ، وجميل آلائه البادية في تربيته للعوالم جميعاً ، فأجال بصيرته في هذا المحيط الذي لا ساحل له ، ثمّ تذكر من جديد أن هذه النعم الجزيلة والتربية الجليلة ، ليست عن رغبةٍ ولا رهبة ، ولكنها عن تفضل ورحمة ، فنطق لسانه مرة ثانية بـ ﴿الرحمن الرحيم﴾ ومن كمال هذا الإله العظيم أن يقرن الرحمن بـ « العدل » ويذكّر بالحساب بعد الفضل فهو مع رحمته السابغة المتجددة سيُدين عباده ويحاسب خلقه يوم الدين ﴿يوم لا تملك نفسٌ لنفسٍ شيئاً والأمر يومئذٍ لله﴾ فتربيته لخلقه قائمة على الترغيب بالرحمة ، والترهيب بالعدالة والحساب ﴿مالك يوم الدين﴾ وإذا كان الأمر كذلك فقد أصبح العبد مكلفاً بتحري الخير ، والبحث عن وسائل النجاة ، وهو في هذا أشد ما يكون حاجة إلى من يهديه سواء السبيل ، ويرشده إلى الصراط المستقيم ، وليس أولى به في ذلك من خالقه ومولاه فليلجأ إليه وليعتمد عليه وليخاطبه بقوله ﴿إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين﴾ وليسأله الهداية من فضله إلى الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم بمعرفة الحق واتباعه ، غير لمغضوب عليهم بالسلب بعد العطاء ، والنكوص بعد الاهتداء ، وغير الضالين التائهين ، الذي يضلون عن الحق أو يـريدون الوصول إليه فلا يوفقون للعثور عليه ، آمين . ولا جرم أن « آمين » براعة مقطع في غاية الجمال والحسن ، وأي شيء أولى بهذه البراعة من فاتحة

الكتاب ، والتوجه إلى الله بالدعاء ؟ فهل رأيت تناسقاً أدق ، أو ارتباطاً أوثق ، مما تراه بين معاني هذه الآية الكريمة ؟ وتذكر وأنت تهيم في أودية هذا الجمال ما يرويه رسول الله ﷺ عن ربه في الحديث القدسي (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ماسأل . .)الحديث وأدم هذا التدبير والإنعام ، واجتهد أن تقرأ في الصلاة وغيرها على مكث وتمهّل ، وخشوع وتذلّل ، وأن تقف على رؤوس الآيات ، وتعطي التلاوة حقها من التجويد أو النغمات ، من غير تكلف ولا تطريب ، واشتغال بالألفاظ عن المعاني ، فإن ذلك يعين على الفهم ، ويثير ما غاض من شآبيب الدمع ، وما نفع القلب شيء أفضلُ من تلاوة في تدبرٍ وخشوعٍ »[1] .

« انتهى تفسير سورة الفاتحة »

* * *

(١) مقدمة في التفسير ص ٥٩



سورة البقرة جميعها مدنية بلا خلاف ، وهي من أوائل ما نزل ، وآياتها مائتان وثمانون وسبع آيات

بين يدي السورة

* سورة البقرة من أطول سور القرآن على الإطلاق ، وهي من السور المدنية التي تُعنى بجانب التشريع ، شأنها كشأن سائر السور المدنية ، التي تعالج النظم والقوانين التشريعية التي يحتاج إليها المسلمون في حياتهم الاجتماعية .

* **اشتملت** هذه السورة الكريمة على معظم الأحكام التشريعية : في العقائد ، والعبادات ، والمعاملات ، والأخلاق ، وفي أمور الزواج ، والطلاق ، والعدة ، وغيرها من الأحكام الشرعية .

* **وقد تناولت** الآيات في البدء الحديث عن صفات المؤمنين ، والكافرين ، والمنافقين ، فوضّحت حقيقة الإيمان ، وحقيقة الكفر والنفاق ، للمقارنة بين أهل السعادة وأهل الشقاء .

* **ثم تحدثت** عن بدء الخليقة فذكرت قصة أبي البشر « آدم » عليه السلام ، وما جرى عند تكوينه من الأحداث والمفاجآت العجيبة التي تدل على تكريم الله جل وعلا للنوع البشري .

* **ثم تناولت** السورة الحديث بالإسهاب عن أهل الكتاب ، وبوجه خاص بني إسرائيل « اليهود » لأنهم كانوا مجاورين للمسلمين في المدينة المنورة ، فنبهت المؤمنين إلى خبثهم ومكرهم ، وما تنطوي عليه نفوسهم الشريرة من اللؤم والغدر والخيانة ، ونقض العهود والمواثيق ، إلى غير ما هنالك من القبائح والجرائم التي ارتكبها هؤلاء المفسدون ، مما يوضح عظيم خطرهم ، وكبير ضررهم ، وقد تناول الحديث عنهم ما يزيد على الثلث من السورة الكريمة ، بدءاً من قوله تعالى﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ﴾ . إلى قوله تعالى﴿ وإذ ابتلى إبراهيمَ رَبُّه بكلماتٍ فأتمهنّ ﴾ .

* **وأما بقية** السورةالكريمة فقد تناولت جانب التشريع ، لأن المسلمين كانوا في بداية تكوين « الدولة الإسلامية » وهم في أمسّ الحاجة إلى المنهاج الرباني ، والتشريع السماوي ، الذي يسيرون عليه في حياتهم سواء في العبادات أو المعاملات ، ولذا فإن جماع السورة يتناول الجانب التشريعي ، وهو باختصار كما يلي :

« أحكام الصوم مفصلة بعض التفصيل ، أحكام الحج والعمرة ، أحكام الجهاد في سبيل الله ، شئون الأسرة وما يتعلق بها من الزواج ، والطلاق ، والرضاع ، والعدة ، تحريم نكاح المشركات ، والتحذير من معاشرة النساء في حالة الحيض إلى غير ما هنالك من أحكام تتعلق بالأسرة ، لأنها النواة الأولى للمجتمع الأكبر» .

* ثم تحدثت السورة الكريمة عن « جريمة الربا » التي تهدّد كيان المجتمع وتقوّض بنيانه ، وحملت حملة عنيفة شديدة على المرابين ، بإعلان الحرب السافرة من الله ورسوله على كل من يتعامل بالربا أو يقدم عليه ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تُبْتُم فلكم رءوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون﴾ .

* وأعقبت آيات الربا بالتحذير من ذلك اليوم الرهيب ، الذي يجازى فيه الإنسان على عمله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفسٍ ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ وهو آخر ما نزل من القرآن الكريم ، وآخر وحي تنزَّل من السماء إلى الأرض ، وبنزول هذه الآية انقطع الوحي ، وانتقل الرسول ﷺ إلى جوار ربه ، بعد أن أدى الرسالة وبلّغ الأمانة .

* وختمت السورة الكريمة بتوجيه المؤمنين إلى التوبة والإنابة ، والتضرع إلى الله جلَّ وعلا برفع الأغلال والآصار ، وطلب النصرة على الكفار ، والدعاء لما فيه سعادة الدارين ﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ وهكذا بدأت السورة بأوصاف المؤمنين ، وختمت بدعاء المؤمنين ليتناسق البدء مع الختام ، ويلتئم شمل السورة أفضل التئام ! !

التسمية : سميت السورة الكريمة « سورة البقرة » إحياءً لذكرى تلك المعجزة الباهرة ، التي ظهرت في زمن موسى الكليم ، حيث قُتل شخص من بني إسرائيل ولم يعرفوا قاتله ، فعرضوا الأمر على موسى لعله يعرف القاتل ، فأوحى الله تعالى إليه أن يأمرهم بذبح بقرة ، وأن يضربوا الميت بجزءٍ منها فيحيا بإذن الله ويخبرهم عن القاتل ، وتكون برهاناً على قدرة الله جل وعلا في إحياء الخلق بعد الموت ، وستأتي القصة مفصلة في موضعها إن شاء الله .

فضلها : عن رسول الله ﷺ أنه قال (لا تجعلوا بيوتكم مقابر ، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة) أخرجه مسلم والترمذي . وقال ﷺ : (اقرءوا سورة البقرة ، فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا يستطيعها البطلة) يعني السحرة . رواه مسلم في صحيحه .

قال الله تعالى ﴿الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه . . إلى . . وأولئك هم المفلحون﴾

من آية (١) إلى نهاية آية (٥).

اللغة : ﴿ريب﴾ الرَّيْبُ : الشك وعدم الطمأنينة يقال : ارتاب ، وأمرٌ مريب إذا كان فيه شك وريبة قال **الزمخشري** : الريبُ مصدر رَابَه إذا أحدث له الريبة وهي قلق النفس واضطرابها ، ومنه

ريب الزّمان لنوائبه[١] ﴿المتقين﴾ أصل التقوى مأخوذ من اتقاء المكروه بما تجعله حاجزاً بينك وبينه قال النابغة :

سَقَـطَ النَّصيفُ ولَـمْ تُرد إسقَاطَه فتَنَـاولَتْـه واتَّقَتْـنَـا بالـيَـدِ

فالمتقي هو الذي يقي نفسه مما يضرها ، وهو الذي يتقي عذاب الله بطاعته ، وجماعُ التقوى أن يمتثل العبد الأوامر ويجتنب النواهي ﴿الغيب﴾ ما غاب عن الحواس ، وكل شيء مستور فهو غيب كالجنة والنار ، والحشر والنشر قال الراغب : الغيبُ ما لا يقع تحت الحواس[٢] ﴿المفلحون﴾ الفلاح : الفوز والنجاح قال أبو عبيدة : كُلُّ من أصاب شيئاً من الخير فهو مفلح[٣] وقال البيضاوي : المفلح : الفائز بالمطلوب كأنه الذي انفتحت له وجوه الظفر[٤] ، وأصل الفلح في اللغة : الشَّقُ والقطع ومنه قولهم « إنَّ الحديد بالحديد يُفْلَح » أي يُشقُّ ، ولذلك سمي الفلاح لأنه يشق الأرض بالحراثة ﴿كفروا﴾ الكفر لغة : ستر النعمة ولهذا يسمى الكافر كافراً لأنه يجحد النعمة ويسترها ، ومنه قيل للزارع والليل كافر قال تعالى ﴿أَعْجَبَ الكفار نباته﴾ أي أعجب الزُّرَّاع ، وسُمي الليل كافراً لأنه يغطي كل شيء بسواده ﴿أنذرتهم﴾ الإنذار : الإعلام مع التخويف فإن خلا من التخويف فهو إعلام وإخبار لا إنذار ﴿ختم﴾ الختم : التغطية على الشيء والطبعُ عليه حتى لا يدخله شيء ، ومنه ختْمُ الكتاب . ﴿غشاوة﴾ الغشاوة : الغطاء من غَشَّاه إذا غطاه ، ومنه الغاشية وهي القيامة لأنها تغشى الناسَ بأهوالها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

التفسير : ابتدأت السورة الكريمة بذكر أوصاف المتقين ، وابتداء السورة بالحروف المقطعة ﴿الٓمٓ﴾ وتصديرها بهذه الحروف الهجائية يجذب أنظار المعرضين عن هذا القرآن ، إذ يطرق أسماعهم لأول وهلة ألفاظٌ غير مألوفة في تخاطبهم ، فينتبهوا إلى ما يُلقى إليهم من آياتٍ بينات ، وفي هذه الحروف وأمثالها تنبيهٌ على « إعجاز القرآن » فإن هذا الكتاب منظومٌ من عين ما ينظمون منه كلامهم ، فإذا عجزوا عن الإتيان بمثله ، فذلك أعظم برهان على إعجاز القرآن . يقول العلامة ابن كثير رحمه الله : إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور بياناً لإعجاز القرآن ، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله ، مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها ، وهو قول جمع من المحققين ، وقد قرره الزمخشري في تفسيره الكشاف ونصره أتم نصر ، وإليه ذهب الإمام « ابن تيمية » ثم قال : ولهذا كلُّ سورة افتتحت بالحروف ،

(١) الكشاف ١/ ٢٧ (٢) مفردات القرآن للراغب (٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة/ ٢٩ (٤) البيضاوي ١/ ١٠

فلا بدَّ أن يذكر فيها الانتصار للقرآن ، وبيانُ إعجازه وعظمته مثل ﴿الم * ذلك الكتاب﴾ ﴿المص * كتابٌ أُنزل إليك﴾ ﴿الم * تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ ﴿حم * والكتابُ المبين * إنَّا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين﴾ وغير ذلك من الآيات الدالة على إعجاز القرآن .[1] ثم قال تعالى ﴿ذلك الكتابُ لا ريب فيه﴾ أي هذا القرآن المنزل عليك يا محمد هو الكتابُ الذي لا يدانيه كتاب ﴿لا ريب فيه﴾ أي لا شك في أنه من عند الله لمن تفكر وتدبر ، أو ألقى السمع وهو شهيد ﴿هدى للمتقين﴾ أي هادٍ للمؤمنين المتقين ، الذين يتقون سخط الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، ويدفعون عذابه بطاعته ، **قال ابن عباس** : المتقون هم الذين يتقون الشرك ، ويعملون بطاعة الله ، **وقال الحسن البصري** : اتقوا ما حُرِّم عليهم ، وأدَّوْا ما افترض عليهم . . ثم بيَّن تعالى صفات هؤلاء المتقين فقال ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ أي يصدقون بما غاب عنهم ولم تدركه حواسهم من البعث ، والجنة ، والنار ، والصراط ، والحساب ، وغير ذلك من كل ما أخبر عنه القرآن أو النبي عليه الصلاة والسلام ﴿ويقيمون الصلاة﴾ أي يؤدونها على الوجه الأكمل بشروطها وأركانها ، وخشوعها وآدابها **قال ابن عباس** : إقامتُها : إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع[2] ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ أي ومن الذي أعطيناهم من الأموال ينفقون ويتصدقون في وجوه البر والإحسان ، والآية عامة تشمل الزكاة ، والصدقة ، وسائر النفقات ، وهذا اختيار ابن جرير ، وروي عن ابن عباس أن المراد بها زكاة الأموال ، **قال ابن كثير** : كثيراً ما يقرن تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال ، لأن الصلاة حقُّ الله وهي مشتملة على توحيده وتمجيده والثناء عليه ، والإنْفاقُ هو الإحسان إلى المخلوقين وهو حق العبد ، فكلٌ من النفقات الواجبة ، والزكاة المفروضة داخل في الآية الكريمة[3] ﴿والذين يؤمنون بما أُنزل إليك﴾ أي يصدقون بكل ما جئت به عن الله تعالى ﴿وما أُنزل من قبلك﴾ أي وبما جاءت به الرسل من قبلك ، لا يفرّقون بين كتب الله ولا بين رسله ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾ أي ويعتقدون اعتقاداً جازماً لا يلابسه شك أو ارتياب بالدار الآخرة التي تتلو الدنيا ، بما فيها من بعثٍ وجزاءٍ ، وجنةٍ ، ونار ، وحساب ، وميزان ، وإنما سميت الدار الآخرة لأنها بعد الدنيا ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾ أي أولئك المتصفون بما تقدم من الصفات الجليلة ، على نور وبيان وبصيرة من الله ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ أي وأولئك هم الفائزون بالدرجات العالية في جنات النعيم .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ المجاز العقلي ﴿هدى للمتقين﴾ أسند الهداية للقرآن وهو من الإسناد للسبب ، والهادي في الحقيقة هو الله ربُّ العالمين ففيه مجاز عقلي .

٢ ـ الإشارة بالبعيد عن القريب ﴿ذلك الكتابُ﴾ للإيذان بعلو شأنه ، وبعد مرتبته في الكمال ، فنُزِّل بُعْد المرتبة منزلة البعد الحسي .

٣ ـ تكرير الإشارة ﴿أولئك على هدى﴾ ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ للعناية بشأن المتقين ، وجيء بالضمير ﴿هم﴾ ليفيد الحصر كأنه قال : هم المفلحون لا غيرهم .

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٢٧ . (٢) اقتبسنا التفسير من الطبري وابن كثير وتفسير الجلالين . (٣) مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٣٠ .

٤ ـ التيئيس من إيمان الكفار ﴿سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ فالجملة سيقت للتنبيه على غلوهم في الكفر والطغيان ، وعدم استعدادهم للإيمان ، ففيها تيئيس وإقناط من إيمانهم .

٥ ـ الاستعارة التصريحية اللطيفة ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ شبَّه قلوبهم لتأبّيها عن الحق ، وأسماعهم وأبصارهم لامتناعها عن تلمح نور الهداية ، بالوعاء المختوم عليه ، المسدود منافذه ، المغشّى بغشاء يمنع أن يصله ما يصلحه ، واستعار لفظ الختم والغشاوة لذلك بطريق الاستعارة التصريحية [١] .

* * *

المناسَبَة : لما ذكر تعالى صفاتِ المؤمنين في الآيات السابقة ، أعقبها بذكر صفات الكافرين ، ليظهر الفارق الواضح بين الصنفين ، على طريقة القرآن الكريم في المقارنة بين الأبرار والفجار ، والتمييز بين أهل السعادة وأهل الشقاوة « وبضدها تتميز الأشياء » .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

التفسير : ﴿إنَّ الذين كفروا﴾ أي إن الذين جحدوا بآيات الله وكذبوا رسالة محمد ﷺ ﴿سواءٌ عليهم﴾ أي يتساوى عندهم ﴿أأنْذرتَهم أمْ لم تُنْذِرهم﴾ أي سواءٌ أَحذرتهم يا محمد من عذاب الله وخوفتهم منه أم لم تحذرهم ﴿لا يؤمنون﴾ أي لا يصدقون بما جئتهم به ، فلا تطمع في إيمانهم ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ عن تكذيب قومه له . . ثم بيَّن تعالى العلة في سبب عدم الإيمان فقال ﴿ختم اللهُ على قلوبهم﴾ أي طبع على قلوبهم فلا يدخل فيها نور ، ولا يُشرق فيها إيمان **قال المفسرون** : الختمُ التغطيةُ والطبعُ ، وذلك أن القلوب إذا كثرت عليها الذنوب طمست نور البصيرة فيها ، فلا يكون للإيمان إليها مسلكٌ ، ولا للكفر عنها مخلص كما قال تعالى ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾ [٢] ﴿وعلى سَمْعِهم وعلى أبصارهم غِشَاوَة﴾ أي وعلى أسماعهم وعلى أبصارهم غطاء ، فلا يبصرون هدى ، ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون ، لأن أسماعهم وأبصارهم كأنها مغطَّاة بحجب كثيفة ، لذلك يرون الحقَّ فلا يتبعونه ، ويسمعونه فلا يعونه **قال أبو حيان** : شبَّه تعالى قلوبهم لتأبيها عن الحقِّ ، وأسماعهم لإضرابها عن سماع داعي الفلاح ، وأبصارهم لامتناعها عن تلمح نور الهداية ، بالوعاء المختوم عليه ، المسدود منافذه ، المغطَّى بغشاء يمنع أن يصله ما يصلحه ، وذلك لأنها كانت ـ مع صحتها وقوة إدراكها ـ ممنوعة عن قبول الخير وسماعه ، وتلمح نوره ، وهذا بطريق الاستعارة [٣] ﴿ولهم عذابٌ عظيم﴾ أي ولهم في الآخِرة عذاب شديدٌ لا ينقطع ، بسبب كفرهم وإجرامهم وتكذيبهم بآيات الله .

* * *

(١) انظر تلخيص البيان للشريف الرضي ١/ ٣ والبحر المحيط لأبي حيان ١/ ٥١ . (٢) انظر ما كتبه العلامة ابن كثير حول معنى الختم ففيه تحقيق وتفصيل جميل . (٣) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ١/ ٥١ .

قال الله تعالى ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر . . . إلى .. إن الله على كل شيء قدير﴾ من آية (٨) إلى نهاية آية (٢٠) .

المناسبة : لما ذكر تعالى في أول السورة صفات المؤمنين ، وأعقبها بذكر صفات الكافرين ، ذكر هنا « المنافقين » وهم الصنف الثالث ، الذين يُظهرون الإيمان ويُبطنون الكفر ، وأطنب بذكرهم في ثلاث عشرة آية لينبه إلى عظيم خطرهم ، وكبير ضررهم ، ثم عقَّب ذلك بضرب مثلين زيادة في الكشف والبيان ، وتوضيحاً لما تنطوي عليه نفوسهم من ظلمة الضلال والنفاق ، وما يئول إليه حالهم من الهلاك والدمار .

اللغة : ﴿يُخادعون﴾ الخِداع : المكر والاحتيال وإظهار خلاف الباطن ، وأصله الإخفاء ومنه سُمي الدهرُ خادعاً لما يخفي من غوائله ، وسُمي المِخْدع مَخْدعاً لتستر أصحاب المنزل فيه ﴿مَرَض﴾ المرض : السُّقْم وهو ضد الصحة وقد يكون حسياً كمرض الجسم ، أو معنوياً كمرض النفاق ومرض الحسد والرياء ، **قال ابن فارس** : المرضُ كلُّ ما خرج به الإنسان عن حد الصحة من علةٍ ، أو نفاق ، أو تقصير في أمر ﴿تفسدوا﴾ الفساد : العدول عن الاستقامة وهو ضد الصلاح ﴿السفهاء﴾ جمع سفيه وهو الجاهل ، الضعيف الرأي ، القليل المعرفة ، بمواضع المنافع والمضار ، وأصل السَّفه : الخِفَّة ، والسفيه : الخفيف العقل **قال علماء اللغة** : السَّفه خفةٌ وسخافة رأي يقتضيان نقصان العقل ، والحِلْمُ يقابله[1] ﴿طغيانهم﴾ الطغيان : مجاوزة الحد في كل شيء ومنه ﴿إنا لما طغى الماء﴾ أي ارتفع وعلا وجاوز حده ، والطاغية : الجبار العنيد ﴿يعمهون﴾ العَمَه : التحير والتردُّد في الشيء يقال : عَمِهَ يَعْمه فهو عَمِه **قال رؤبة** : « أعمى الهدى بالحائرين العُمَّه » **قال الفخر الرازي** : العَمَهُ مثل العمى ، إلا أن العَمَى عام في البصر والرأي ، والعَمَه في الرأي خاصة ، وهو التردد والتحير لا يدري أين يتوجه[2] ﴿اشتروا﴾ حقيقة الاشتراء : الاستبدال ، وأصله بذل الثمن لتحصيل الشيء المطلوب ، والعرب تقول لمن استبدل شيئاً بشيء اشتراه قال الشاعر :

فإن تزعميني كنتُ أجهلُ فيكم فإني اشتريتُ الحلمَ بعدكِ بالجهل

﴿صمٌّ﴾ جمع أصم وهو الذي لا يسمع ﴿بُكْمٌ﴾ جمع أبكم وهو الأخرس الذي لا ينطق ﴿عميٌ﴾ جمع أعمى وهو الذي فقد بصره ﴿صيِّب﴾ الصيِّبُ : المطر الغزير مأخوذ من الصَّوْب وهو النزول بشدة قال الشاعر « سقتكِ روايا المُزْن حيثُ تصوب » ﴿الصواعق﴾ جمع صاعقة وهي نارٌ محرقة لا تمر بشيء إلا أتت عليه ، مشتقة من الصَّعْق وهو شدة الصوت ﴿السَّماء﴾ السماء في اللغة : كلُّ ما علاكَ فأظلَّك ، ومنه قيل لسقف البيت سماء ، ويسمى المطر سماءً لنزوله من السماء قال الشاعر :

إذا سقط السماء بأرضِ قومٍ رعيناه وإن كانوا غِضابا

---

(١) انظر تهذيب اللغة ، والصحاح ، والقاموس . (٢) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢/ ٧١ .

﴿يخطف﴾ الخَطْفُ : الأخذ بسرعة ومنه ﴿إلا من خطِف الخطفة﴾ وسُمي الطير خُطّافاً لسرعته ، والخاطف الذي يأخذالشيء بسرعة شديدة .

سَبَبُ النُّزول : قال ابن عباس : نزلت هذه الآيات في منافقي أهل الكتاب منهم « عبد الله بن أُبي ابن سلول، ومعتب بن قشير ، والجد بن قيس » كانوا إذا لقوا المؤمنين يظهرون الإيمان والتصديق ويقولون : إنّا لنجد في كتابنا نعته وصفته[1] .

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾

التفسير : ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله﴾ أي ومن الناس فريق يقولون بألسنتهم صدَّقنا بالله وبما أنزل على رسوله من الآيات البينات ﴿وباليومِ الآخر﴾ أي وصدَّقنا بالبعث والنشور ﴿وما هم بمؤمنين﴾ أي وما هم على الحقيقة بمصدقين ولا مؤمنين ، لأنهم يقولون ذلك قولاً دون اعتقاد ، وكلاماً دون تصديق **قال البيضاوي** : هذا هو القسم الثالث المذبذب بين القسمين ، وهم الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، وهم أخبث الكفرة وأبغضهم إلى الله ، لأنهم موَّهوا الكفر وخلطوا به خداعاً واستهزاءً ، ولذلك أطال في بيان خبثهم وجهلهم ، واستهزأ بهم وتهكَّم بأفعالهم ، وسجَّل عليهم الضلال والطغيان ، وضرب لهم الأمثال[2] ﴿يخُادعون اللهَ والذين آمنوا﴾ أي يعملون عمل المخادِع بإظهار ما أظهروه من الإيمان مع إصرارهم على الكفر ، يعتقدون ـ بجهلهم ـ أنهم يخدعون الله بذلك ، وأن ذلك نافعهم عنده ، وأنه يروج عليه كما قد يروج على بعض المؤمنين ، وما علموا أن الله لا يُخْدع لأنه لا تخفى عليه خافية **قال ابن كثير** : النفاق هو إظهار الخير ، وإسرارُ الشر وهو أنواع : اعتقادي وهو الذي يخلّد صاحبه في النار ،وعملي وهو من أكبر الذنوب والأوزار ، لأن المنافق يخالف قولُه فعلَه ، وسرُّه علانيته ، وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية لأن مكة لم يكن بها نفاق بل كان خلافه[3] ﴿وما يخدعون إلا أنفسهم﴾ أي وما يخدعون في الحقيقة إلا أنفسَهم لأن وبال فعلهم راجع عليهم ﴿وما يشعرون﴾ أي ولا يحُسّون بذلك ولا يفطنون إليه ، لتمادي غفلتهم ، وتكامل حماقتهم ﴿في قلوبهم مرضٌ فزادهم الله مرضاً﴾ أي في قلوبهم شك ونفاق فزادهم الله رجساً فوق رجسهم ، وضلالاً فوق ضلالهم ، والجملةُ دعائية **قال ابن أسلم** : هذا مرضٌ في الدين ، وليس مرضاً في الجسد ، وهو الشك الذي دخلهم في الإسلام فزادهم الله رجساً وشكاً[4] ﴿ولهم عذابٌ أليم بما كانوا يكذبون﴾ أي ولهم عذابٌ مؤلمٌ بسبب كذبهم في دعوى الإيمان ، واستهزائهم بآيات الرحمن . . ثم شرع تعالى في بيان قبائحهم ، وأحوالهم الشنيعة فقال ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض﴾ أي وإذا قال

(١) تفسير الفخر الرازي ٢/ ٦١ . (٢) تفسير البيضاوي ١/ ١١ . (٣) و(٤) مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٣٣ .

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾

لهم بعض المؤمنين : لا تسعوا في الأرض بالإِفساد بإِثارة الفتن ، والكفر والصدِّ عن سبيل الله **قال ابن مسعود** : الفسادُ في الأرض هو الكفرُ ، والعملُ بالمعصية ، فمن عصى الله فقد أفسد في الأرض **﴿قالوا إنما نحنُ مصلحون﴾** أي ليس شأننا الإِفسادُ أبداً، وإنما نحن أناسٌ مصلحون، نسعى للخير والصلاح فلا يصح مخاطبتنا بذلك **قال البيضاوي** : تصوَّروا الفساد بصورة الصلاح ، لما في قلوبهم من المرض فكانوا كمن قال الله فيهم ﴿أفمن زُيِّن له سوءُ عمله فرآه حسناً﴾ ولذلك ردَّ الله عليهم أبلغ ردٍّ بتصدير الجملة بحرفي التأكيد **﴿ألا﴾** المنبهة و**﴿إنَّ﴾** المقررة ، وتعريف الخبر ، وتوسيط الفصل ، والاستدراك بعدم الشعور[١] فقال **﴿ألا إنهم هم المفسدون ولكنْ لا يشعرون﴾** أي ألاَ فانتبهوا أيها الناس ، إنهم هم المفسدون حقاً لا غيرهم ، ولكنْ لا يفطنون ولا يحُسون ، لانطماسِ نور الإيمان في قلوبهم **﴿وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس﴾** أي وإذا قيل للمنافقين : آمنوا إيماناً صادقاً لا يشوبه نفاقٌ ولا رياء ، كما آمن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ، وأخلصوا في إيمانكم وطاعتكم لله **﴿قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء﴾** الهمزة للإِنكار مع السخرية والاستهزاء أي قالوا أنؤ من كإيمان هؤ لاء الجهلة أمثال « صهيب ، وعمار ، وبلال » ناقصي العقل والتفكير ؟ ! **قال البيضاوي** : وإنما سفَّهوهم لاعتقادهم فسادَ رأيهم ، أو لتحقير شأنهم ، فإن أكثر المؤمنين كانوا فقراء ومنهم موالي كصهيب وبلال[٢] **﴿ألا إنهم هم السفهاءُ ولكنْ لا يعلمون﴾** أي ألا إنهم هم السفهاء حقاً ، لأن من ركب متن الباطل كان سفيهاً بلا امتراء ، ولكن لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل ، وذلك أبلغ في العمى ، والبعد عن الهدى . أكّد ونبَّه وحصر السفاهة فيهم ، ثم قال تعالى منبهاً إلى مصانعتهم ونفاقهم **﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا﴾** أي وإذا رأوا المؤمنين وصادفوهم أظهروا لهم الإيمان والموالاة نفاقاً ومصانعة **﴿وإذا خَلَوْا إلى شياطينهم﴾** أي وإذا انفردوا ورجعوا إلى رؤسائهم وكبرائهم ، أهلِ الضلالِ والنفاق **﴿قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون﴾** أي قالوا لهم نحن على دينكم وعلى مثل ما أنتم عليه من الاعتقاد ، وإنما نستهزىء بالقوم ونسخر منهم بإظهار الإيمان ، قال تعالى رداً عليهم **﴿الله يستهزىء بهم﴾** أي الله يجازيهم على استهزائهم بالإمهال ثم بالنكال **قال ابن عباس** : يسخر بهم للنقمة منهم ويُملي لهم كقوله ﴿وأُملي لهم إن كيدي متين﴾ **قال ابن كثير** : هذا إخبار من الله أنه مجازيهم جزاء الاستهزاء ، ومعاقبهم عقوبة الخداع ، فأخرج الخبر عن الجزاء مخرج الخبر عن الفعل الذي استحقوا العقاب عليه ، فاللفظ متفق والمعنى مختلف[٣]، وإليه وجهوا كل ما في القرآن من نظائر مثل ﴿وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها﴾ ومثل

---

(١) البيضاوي ١/ ١٢ . (٢) البيضاوي ١/ ١٢ . (٣) يسمى هذا النوع عند علماء البيان « المشاكلة » وهو أن تتفق الجملتان في اللفظ وتختلفا في المعنى كقوله :

قالـوا اقتـرحْ شيئـاً نُجِـدْ لَكَ طَبخَه ... قلـتُ : اطبخـوا لـي جبَّـةً وقميصـاً

﴿اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ﴾

﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه﴾ فالأول ظلم والثاني عدل ﴿ويَمُدُّهُم في طُغْيانِهِم يَعْمَهُون﴾ أي ويزيدهم - بطريق الإمهال والترك - في ضلالهم وكفرهم يتخبطون ويترددون حيارى ، لا يجدون إلى المخرج منه سبيلاً لأن الله طبع على قلوبهم وأعمى أبصارهم ، فلا يبصرون رشداً ولا يهتدون سبيلاً ﴿أولئكَ الَّذينَ اشترَوُا الضَّلالةَ بالهُدَى﴾ أي استبدلوا الكفر بالإيمان ، وأخذوا الضلالة ودفعوا ثمنها الهُدى ﴿فما ربحتْ تجارتُهم﴾ أي ما ربحت صفقتُهم في هذه المعاوضة والبيع ﴿وما كانوا مهتدين﴾ أي وما كانوا راشدين في صنيعهم ذلك ، لأنهم خسروا سعادة الدارين ، ثم ضرب تعالى مثلين وضَّح فيهما خسارتهم الفادحة فقال ﴿مثلُهم كمثل الذي استوقد ناراً﴾ أي مثالهم في نفاقهم وحالهم العجيبة فيه كحال شخص أوقد ناراً ليستدفىء بها ويستضيء ، فما اتقدت حتى انطفأت ، وتركته في ظلام دامس وخوفٍ شديد ﴿فلما أضاءت ما حوله ذهبَ الله بنورهم﴾ أي فلما أنارتْ المكان الذي حوله فأبصر وأَمِن ، واستأنس بتلك النار المشعة المضيئة ذهب الله بنورهم أي أطفأها الله بالكلية ، فتلاشت النار وعُدم النور ﴿وتركهم في ظلماتٍ لا يبصرون﴾ أي وأبقاهم في ظلماتٍ كثيفة وخوف شديد ، يتخبطون فلا يهتدون قال ابن كثير : ضرب الله للمنافقين هذا المثل ، فشبههم في اشترائهم الضلالة بالهدى ، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى ، بمن استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها ، وتأنس بها وأبصر ما عن يمينه وشماله . . فبينا هو كذلك إذْ طفئت ناره ، وصار في ظلام شديد ، لا يبصر ولا يهتدي ، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى ، واستحبابهم الغيَّ على الرشد ، وفي هذا المثل دلالةٌ على أنهم آمنوا ثم كفروا ، ولذلك ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات الشك والكفر والنفاق لا يهتدون إلى سبيل خير ، ولا يعرفون طريق النجاة[1] ﴿صمٌ﴾ أي هم كالصُمِّ لا يسمعون خيراً ﴿بكمٌ﴾ أي كالخرس لا يتكلمون بما ينفعهم ﴿عميٌ﴾ أي كالعمي لا يبصرون الهدى ولا يتبعون سبيله ﴿فهم لا يرجعون﴾ أي لا يرجعون عمَّا هم فيه من الغي والضلال ، ثم ثنَّى تعالى بتمثيل آخر لهم زيادةً في الكشف والإيضاح فقال ﴿أو كصيّبٍ من السماء﴾ أي أو مثلهم في حيرتهم وترددهم كمثل قومٍ أصابهم مطر شديد ، أظلمت له الأرض ، وأرعدت له السماء ، مصحوبٍ بالبرق والرعد والصواعق ﴿فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرقٌ﴾ أي في ذلك السحاب ظلماتٌ داجية ، ورعدٌ قاصف ، وبرقٌ خاطف ﴿يجْعلونَ أصابِعَهمْ في آذانِهمْ من الصَّواعِقِ﴾ أي يضعون رءوس أصابعهم في آذانهم لدفع خطر الصواعق ، وذلك من فرط الدهشة والفزع كأنهم يظنون أن ذلك ينجيهم ﴿حَذَرَ المَوْتِ﴾ أي خشية الموت من تلك الصواعق المدمرة ﴿واللَّهُ محيطٌ بالكافِرينَ﴾ جملة اعتراضية أي والله تعالى

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٣٦ .

﴿مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠﴾

محيط بهم بقدرته ، وهم تحت إرادته ومشيئته لا يفوتونه ، كما لا يفوتُ من أحاط به الأعداء من كل جانب ﴿يكادُ البرْق يَخْطَفُ أَبْصارهُمْ﴾ أي يقارب البرقُ لشدته وقوته وكثرة لمعانه أن يذهب بأبصارهم فيأخذها بسرعة ﴿كلّما أضاءَ لَهُم مَشَوْا فيه﴾ أي كلما أنار لهم البرق الطريق مشوا في ضوئه ﴿وإذا أَظْلَمَ عليْهِمْ قاموا﴾ أي وإذا اختفى البرق وفتر لمعانه وقفوا عن السير وثبتوا في مكانهم . . وفي هذا تصويرٌ لما هم فيه من غاية التحير والجهل ، فإذا صادفوا من البرق لمعة ـ مع خوفهم أن يخطف أبصارهم ـ انتهزوها فرصة فَخَطَوْا خطواتٍ يسيرة ، وإذا خفي وفتر لمعانه وقفوا عن السير ، وثبتوا في أماكنهم خشية التردي في حفرة ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم﴾ أي لو أراد الله لزاد في قصف الرعد فأصمهم وذهب بأسماعهم ، وفي ضوء البرق فأعماهم وذهب بأبصارهم ﴿إن اللهَ على كل شيءٍ قدير﴾ أي إنه تعالى قادر على كل شيء ، لا يعجزه أحدٌ في الأرض ولا في السماء، قال ابن جرير : إنما وصف تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع ، لأنه حذَّر المنافقين بأسه وسطوته ، وأخبرهم أنه بهم **محيط** ، وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم **قادر**[1] .

البــلاغــة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

أولاً : المبالغة في التكذيب لهم ﴿وما هم بمؤمنين﴾ كـان الأصل أن يقول : « وما آمنو » ليطابق قوله « من يقول آمنا » ولكنه عدل عن الفعل إلى الاسم لإخراج ذواتهـم من عداد المؤمنين وأكده بالباء للمبالغة في نفي الإيمان عنهم .

ثانياً : الاستعارة التمثيلية ﴿يُخادعون اللهَ﴾ شبَّه حالهم مع ربهم في إظهار الإيمان وإخفاء الكفر بحال رعيةٍ تخادع سلطانها واستعير اسم المشبَّه به للمشبه بطريق الاستعارة .

ثالثاً : صيغة القصر ﴿إنما نحن مصلحون﴾ وهذا من نوع « قصر الموصوف على الصفة » أي نحن مصلحون ليس إلاَّ .

رابعاً : الكناية اللطيفة ﴿في قلوبهم مرض﴾ المرضُ في الأجسام حقيقة وقد كنى به عن النفاق لأن المرض فسادٌ للبدن ، والنفاق فساد للقلب .

خامساً : تنويع التأكيد ﴿ألا إنهم هم المفسدون﴾ جاءت الجملة مؤكدة بأربع تأكيدات ﴿ألا﴾ التي تفيد التنبيه ، و﴿إنَّ﴾ التي هي للتأكيد ، وضمير الفصل ﴿هم﴾ ثم تعريف الخبر ﴿المفسدون﴾ ومثلها في التأكيد ﴿ألاَ إنهم هم السفهاء﴾ وهذا ردٌّ من الله تعالى عليهم بأبلغ ردٍّ وأحكمه .

---

(١) تفسير الطبري ١/ ٧٩

سادساً : المشاكلة ﴿الله يستهزىء بهم﴾ سمّى الجزاء على الاستهزاء استهزاءً بطريق المشاكلة وهي الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى .

سابعاً : الاستعارة التصريحية ﴿اشتروا الضلالة بالهدى﴾ المراد استبدلوا الغيَّ بالرشاد ، والكفر بالإيمان فخسرت صفقتهم ولم تربح تجارتهم فاستعار لفظ الشراء للاستبدال ثم زاده توضيحاً بقوله ﴿فما ربحت تجارتهم﴾ وهذا هو الترشيح الذي يبلغ بالاستعارة الذروة العليا[1] .

ثامناً : التشبيه التمثيلي ﴿مثلُهم كمثل الذي استوقد ناراً﴾ وكذلك في ﴿أو كصيّب من السماء فيه ظلمات﴾ شبه في المثال الأول المنافق بالمستوقد للنار ، وإظهاره الإيمان بالإضاءة ، وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار ، وفي المثال الثاني شبَّه الإسلام بالمطر لأن القلوب تحيا به كحياة الأرض بالماء ، وشبَّه شبهات الكفار بالظلمات ، وما في القرآن من الوعد والوعيد بالرعد والبرق . . الخ[2]

تاسعاً : التشبيه البليغ ﴿صمٌ بكمٌ عميٌ﴾ أي هم كالصم البكم العمي في عدم الاستفادة من هذه الحواس حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً .

عاشراً : المجاز المرسل ﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم﴾ وهو من إطلاق الكل وإرادة الجزء أي رؤوس أصابعهم لأن دخول الأصبع كلها في الأذن لا يمكن .

الحادي عشر : توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات ، وهذا له وقع في الأذن حسن ، وأثر في النفس رائع مثل ﴿لهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾ ﴿إنما نحن مصلحون﴾ ﴿ويمدهم في طغيانهم يعمهون﴾ الخ وهو من المحسنات البديعية[3] .

الفَـوَائِـد : الأولى : الغاية من ضرب المثل : تقريب البعيد ، وتوضيح الغامض حتى يصبح كالأمر المشاهد المحسوس ، وللأمثال تأثير عجيب في النفس ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ .

الثانية : وصف تعالى المنافقين في هذه الآيات بعشرة أوصاف كلها شنيعة وقبيحة تدل على رسوخهم في الضلال وهي (الكذب ، الخداع ، المكر ، السَّفه ، الاستهزاء ، الإفساد في الأرض ، الجهل ، الضلال ، التذبذب ، السخرية بالمؤمنين) أعاذنا الله من صفات المنافقين .

---

(١) قال الزمخشري : وهذا من الصنعة البديعية التي تبلغ بالمجاز الذروة العليا انظر الكشاف ١/ ٣٥ .

(٢) قال الفخر الرازي : والتشبيه ههنا في غاية الصحة ، لأنهم بإيمانهم أولاً اكتسبوا نوراً ، ثم بنفاقهم ثانياً أبطلوا ذلك النور ، ووقعوا في حيرة عظيمة لأنه لا حيرة أعظم من حيرة الدين لخسران نفسه أبد الآبدين . الرازي ٢/ ٧٣ (٣) ذكرنا الأمثلة البلاغية على سبيل المثال لا الحصر ، ليتذوق القارىء بعض روائع القرآن ، وإلا فكلام الله معجز وفيه من الروائع البيانية ، والصور البلاغية ، ما يتذوقه ويعجز عن وصفه اللسان .

الثالثة : حكمة كفه عليه الصلاة والسلام عن قتل المنافقين مع أنهم كفار وعلمهﷺ بأعيان بعضهم ما أخرجه البخاري أن النبيﷺ قال لعمر : (أكره أن يتحدث العرب أن محمداً يقتل أصحابه)[١] .

لطيفــة : قال العلامة ابن القيم : تأمل قوله تعالى ﴿ذهب الله بنورهم﴾ ولم يقل : « ذهب الله بنارهم » مع أنه مقتضى السياق ليطابق أول الآية ﴿استوقد ناراً﴾ فإن النار فيها إشراقٌ وإحراق ، فذهب الله بما فيها من الإشراق وهو « النور » وأبقى ما فيها من الإحراق وهو « النارية » ! ! وتأمل كيف قال ﴿بنورهم﴾ ولم يقل بضوئهم ، لأن الضوء زيادةٌ في النور ، فلو قيل : ذهب الله بضوئهم لأوهم الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل ! ! وتأمل كيف قال ﴿ذهب الله بنورهم﴾ فوحَّد النور ثم قال ﴿وتركهم في ظلمات﴾ فجمعها ، فإن الحقَّ واحد هو صراط الله المستقيم ، الذي لا صراط يوصل سواه ، بخلاف طُرُق الباطل فإنها متعددة ومتشعبة ، ولهذا أفرد سبحانه « الحقَّ » وجمع « الباطل » في آيات عديدة مثل قوله تعالى ﴿يخرجونهم من الظلمات إلى النور﴾ وقوله ﴿وجعلَ الظلماتِ والنور﴾ وقوله ﴿وأَنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتَّبِعُوه ولا تَتَّبِعُوا السبُلَ فَتفَرق بكم عن سبيله﴾ فجمع سبل الباطل ووحَّد سبيل الحق[٢] .

* * *

قال الله تعالى :﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم . . . إلى .. وهم فيها خالدون﴾ من آية (٢١) إلى نهاية آية (٢٥).

المنَاسَبَة : لما ذكر تعالى الأصناف الثلاثة « المؤمنين ، والكافرين ، والمنافقين » وذكر ما تميزوا به من سعادة أو شقاوة ، أو إيمان أو نفاق ، وضرب الأمثال ووضَّح طرق الضلال أعقبه هنا بذكر الأدلة والبراهين على وحدانية ربِّ العالمين ، وعَرَّف الناس بنعمه ليشكروه عليها ، وأقبل عليهم بالخطاب ﴿يا أيها الناس﴾ وهو خطاب لجميع الفئات ممتناً عليهم بما خلق ورزق ، وأبرز لهم « معجزة القرآن » بأنصع بيان وأوضح برهان ،ليقتلع من القلوب جذور الشك والارتياب .

اللغَــة : ﴿خلقكم﴾ الخلق : الإيجاد والاختراع بلا مثال ، وأصله في اللغة التقدير يقال : خلَق النعل إذا قدَّرها وسوَّاها بالمقياس ، وخلق الأديمَ للسقـاء إذا قدَّره قال الحجـاج « مـا خلقـتُ إلا فريتُ ، ولا وعدتُ إلا وفيتُ » أي ما قدرت شيئاً إلا أمضيته ، ولا وعدت بشيء إلا وفيت به . ﴿فراشاً﴾ الفراش : الوطاءُ والمهاد الذي يقعد عليه الإنسان وينام ﴿بناءً﴾ البناء : ما يُبنى من قبةٍ أو خباءٍ أو بيت ﴿أنداداً﴾ جمع نِدّ وهو الكفء والمثيل والنظير ومنه قول علماء التوحيد « ليس للّـهِ نِدٌّ ولا ضِدٌّ » قال حسان :

أتهجـوه ولسـتَ له بنـدٍّ فشرُكمـا لخيركمـا الفِـداء[٣]

---

(١) ذكرها ابن كثير كذا في المختصر ١/ ٣٣ (٢) نقلاً عن محاسن التأويل للقاسمي . (٣) القرطبي ١/ ٢٣٠ .

وقال الزمخشري : « النِدُّ : المثل ولا يقال إلا للمخالف المناوىء قال جرير : أتيماً تجعلون إليَّ نداً ؟»[١] ﴿وقودها﴾ الوَقُود : الحطب الذي توقد به النار قال القرطبي : الوَقود بالفتح الحطب ، وبالضم مصدر بمعنى التوقد[٢] ﴿أُعِدَّتْ﴾ هيئت ، وأعددنا هيأنا قال البيضاوي : ﴿أُعِدَّتْ﴾ هُيِّئت لهم وجُعلت عُدَّة لعذابهم[٣] ﴿وبشر﴾ البشارة : الخبر السارُّ الذي يتغير به بشرة الوجه من السرور ، وإذا استعمل في الشر فهو تهكم مثل ﴿فبشرهم بعذابٍ أليم﴾ ﴿أزواج﴾ جمع زوج ويطلق على الذكر والأنثى ﴿اسكنْ أنتَ وزوجك الجنة﴾ فالمرأة زوج الرجل ، والرجل زوج المرأة قال الأصمعي : لا تكاد العرب تقول زوجة ﴿خالدون﴾ باقون دائمون .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾

التفسير : يقول تعالى منبهاً العبادَ إلى دلائل القدرة والوحدانية ﴿يا أيها الناسُ اعبدوا ربكم﴾ أي يا معشر بني آدم اذكروا نِعَم الله الجليلة عليكم ، واعبدوا الله ربكم الذي ربَّاكم وأنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئاً ، اعبدوه بتوحيده ، وشكره ، وطاعته ﴿الذي خلقكم والذين من قبلِكم﴾ أي الذي أوجدكم بقدرته من العدم ، وخلق من قبلكم من الأمم ﴿لعلكم تتقون﴾ أي لتكونوا في زمرة المتقين ، الفائزين بالهدى والفلاح قال البيضاوي : لما عدَّد تعالى فِرَق المكلفين ، أقبل عليهم بالخطاب على سبيل الالتفات ، هزاً للسامع ، وتنشيطاً له ، واهتماماً بأمر العبادة وتفخيماً لشأنها ، وإنما كثر النداء في القرآن بـ ﴿يا أيها﴾ لاستقلاله بأوجهٍ من التأكيد ، وكلُّ ما نادى الله له عباده من حيث إنها أمور عظام من حقها أن يتفطنوا لها ، ويقبلوا بقلوبهم عليها وأكثرهم عنها غافلون حقيقٌ بأن يُنادى له بالآكد الأبلغ[٤]، ثمَّ عدَّد تعالى نِعَمه عليهم فقال ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشاً﴾ أي جعلها مهاداً وقراراً ، تستقرون عليها وتفترشونها كالبساط المفروش مع كرويتها ، وإلا ما أمكنكم العيش والاستقرار عليها قال البيضاوي : جعلها مهيأة لأن يقعدوا ويناموا عليها كالفراش المبسوط ، وذلك لا يستدعي كونها مسطَّحة لأن كروية شكلها مع عظم حجمها لا يأبى الافتراش عليها[٥] ﴿والسماءَ بناءً﴾ أي سقفاً للأرض مرفوعاً فوقها كهيئة القبة ﴿وأنزلَ من السَّماءِ ماءً﴾ أي مطراً عذباً فراتاً أنزله بقدرته من السحاب ﴿فأخرجَ بِهِ من الثَّمرات رِزْقاً لكم﴾ أي فأخرج بذلك المطر أنواع الثمار والفواكه والخضار غذاءً لكم ﴿فلا تجْعَلوا لِلَّهِ أنداداً وأنْتُمْ تَعْلمون﴾ أي فلا تتخذوا معه شركاء من الأصنام والبشر تشركونهم مع الله في العبادة ، وأنتم تعلمون أنها لا تخْلُق شيئاً ولا تَرْزق ، وأنَّ الله هو الخالق الرازق وحده ، ذو القوة المتين قال ابن كثير : شرع تعالى في بيان وحدانية ألوهيته بأنه هو المنعم على

---

(١) الكشاف ١/ ٧٢ . (٢) القرطبي ١/ ٢٣٨ . (٣) البيضاوي ١/ ١٨ (٤) البيضاوي ١/ ١٦ .

(٥) نفس المرجع السابق والصفحة ورأيُ الإمام البيضاوي صريح في كروية الأرض قبل أن يدور روّادُ الفضاء حولها في هذا العصر .

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾

عبيده بإخراجهم من العدم ، وإسباغه عليهم النِّعَم ، والمرادُ بالسَّماء هنا السحاب ، فهو تعالى الذي أنزل المطر من السحاب في وقته عند احتياجهم إليه ، فأخرج لهم به أنواع الزروع والثمار رزقاً لهم ولأنعامهم ، ومضمونه أنه الخالق الرازق مالكُ الدار وساكنيها ورازقهم ، فبهذا يستحق أن يُعبد وحده ولا يُشرك به غيره[١] . ثم ذكر تعالى بعد أدلة التوحيد الحجة على النبوة ، وأقام البرهان على إعجاز القرآن فقال ﴿**وإن كنتم في ريبٍ ممَّا نزَّلنا على عبدنا**﴾ أي وإذا كنتم أيها الناسُ في شك وارتياب من صدق هذا القرآن ، المعجز في بيانه ، وتشريعه ، ونظمه ، الذي أنزلناه على عبدنا ورسولنا محمدﷺ ﴿**فائتوا بسورةٍ من مثله**﴾ أي فأتوا بسورةٍ واحدةٍ من مثل هذا القرآن ، في البلاغة والفصاحة والبيان ﴿**وادعوا شهداءكم من دونِ الله**﴾ أي وادعوا أعوانكم وأنصاركم الذين يساعدونكم على معارضة القرآن غير الله سبحانه ، والمراد استعينوا بمن شئتم غيره تعالى **قال البيضاوي** : المعنى أُدعوا للمعارضة من حضركم أو رجوتم معونته من إنسكم وجِنكم وآلهتكم غيرَ اللهِ سُبحانه وتعالى ، فإنه لا يقدر أن يأتي بمثله إلا الله[٢] ﴿**إن كنتم صادقين**﴾ أي أنه مختلق وأنه من كلام البشر ، وجوابُه محذوف دلَّ عليه ما قبله ﴿**فإن لم تفعلوا**﴾ أي فإن لم تقدروا على الإتيان بمثل سورةٍ من سوره ، وعجزتم في الماضي عن الإتيان بما يساويه أو يدانيه ، مع استعانتكم بالفصحاء والعباقرة والبلغاء ﴿**ولن تفعلوا**﴾ أي ولن تقدروا في المستقبل أيضاً على الإتيان بمثله ، والجملةُ اعتراضيةٌ للإشارة إلى عجز البشر في الحاضر والمستقبل كقوله ﴿لا يأتون بمثله ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظهيراً﴾ أي معيناً **قال ابن كثير** : تحداهم القرآن وهم أفصح الأمم ومع هذا عجزوا ،و﴿ لن ﴾ لنفي التأبيد في المستقبل أي ولن تفعلوا ذلك أبداً ، وهذه أيضاً معجزة أخرى وهو أنه أخبر خبراً جازماً قاطعاً ، غير خائفٍ ولا مشفق أنَّ هذا القرآن لا يُعارضُ بمثله أبد الآبدين ودهر الداهرين ، وكذلك وقع الأمر لم يُعارض من لدنه إلى زماننا هذا ، ومن تدبّر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفية ، من حيثُ اللفظ ومن حيثُ المعنى ، والقرآنُ جميعه فصيح في غاية نهايات الفصاحة والبيان عند من يعرف كلام العرب ، ويفهم تصاريف الكلام[٣] ﴿**فاتقوا النار**﴾ أي فخافوا عذاب الله ، واحذروا نار الجحيم التي جعلها الله جزاء المكذبين ﴿**التي وَقُودُها الناسُ والحجارةُ**﴾ أي اتقوا النار التي مادتُها التي تُشعل بها وتُضرم لإيقادها هي الكفار والأصنام التي عبدوها من دون الله كقوله تعالى ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حَصَبُ جهنم﴾ **قال مجاهد** : حجارةٌ من كبريت أنتُن من الجيفة يعذبون بها مع النار ﴿**أُعِدَّتْ للكافرين**﴾ أي هُيِّئت تلك النارُ وأُرصدت للكافرين الجاحدين ، ينالون فيها ألوان العذاب المهين .

ثم لما ذكر ما أعدَّه لأعدائه ، عطف عليه بذكر ما أعدَّه لأوليائه ، على طريقة القرآن في الجمع بين

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٣٨ . (٢) البيضاوي ١/ ١٧ . (٣) مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٤١ .

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾

الترغيب والترهيب ، للمقارنة بين حال الأبرار والفجار فقال ﴿**وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ أي وبَشِّرْ يا محمد المؤمنين المتقين ، الذين كانوا في الدنيا محسنين ، والذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿**أنَّ لهم جناتٍ تجري من تحتِها الأنهار**﴾ أي بأن لهم حدائق وبساتين ذاتِ أشجار ومساكن ، تجري من تحت قصورها ومساكنها أنهار الجنة[1] ﴿ **كُلَّما رُزقوا منها من ثَمَرةٍ رزْقاً**﴾ أي كلما أعطوا عطاءً ورُزقوا رزقاً من ثمار الجنة ﴿**قالوا هذا الَّذي رُزقْنا من قبلُ**﴾ أي هذا مثلُ الطعام الذي قُدِّم إلينا قبل هذه المرة **قال المفسرون** : إن أهل الجنة يُرزقون من ثمارها ، تأتيهم به الملائكة ، فإذا قُدّم لهم مرةً ثانية قالوا : هذا الذي أتيتمونا به من قبل فتقول الملائكة : كلْ يا عبد الله فاللونُ واحدٌ والطعم مختلف[2] قال تعالى ﴿**وأُتوا به متشابهاً**﴾ أي متشابهاً في الشكل والمنظر ، لا في الطعم والمَخْبر **قال ابن جرير** : يعني في اللون والمرأى وليس يشبهه في الطعم **قال ابن عباس** : لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا في الأسماء ﴿**ولهم فيها أزواج مطهَّرة**﴾ أي ولهم في الجنة زوجاتٌ من الحور العين مطهَّرات من الأقذار والأدناس الحسية والمعنوية **قال ابن عباس** : مطهَّرة من القذر والأذى **وقال مجاهد** : مطهَّرة من الحيض والنفاس ، والغائط والبول والنخام ، وورد أن نساء الدنيا المؤمنات يكنَّ يوم القيامة أجمل من الحور العين كما قال تعالى ﴿إِنّا أَنْشأْناهُنَّ إِنْشاءً فجعلناهُنَّ أَبْكاراً * عُرُباً أَتْراباً﴾ ﴿**وهم فيها خالدون**﴾ أي دائمون ، وهذا هو تمام السعادة ، فإنهم مع هذا النعيم في مقام أمين ، يعيشون مع زوجاتهم في هناءٍ خالد لا يعتريه انقطاع .

البَــلاغَـــة : ١ ـ ذكر الربوبية ﴿اعبدوا ربكم﴾ مع إضافته إلى المخاطبين للتفخيم والتعظيم .

٢ ـ الإضافة ﴿على عبدنا﴾ للتشريف والتخصيص ، وهذا أشرف وصفٍ لرسول الله ﷺ .

٣ ـ التعجيز ﴿فأتوا بسورة﴾ خرج الأمر عن صيغته إلى معنى التعجيز ، وتنكيرُ السورة لإرادة العموم والشمول .

٤ ـ المقابلة اللطيفة ﴿جعل لكم الأرضَ فراشاً ، والسَّماء بناءً﴾ فقد قابل بين الأرض والسماء ، والفراش والبناء ، وهذا من المحسنات البديعية .

٥ ـ الجملة الاعتراضية ﴿ولن تفعلوا﴾ لبيان التحدي في الماضي والمستقبل وبيان العجز التام في جميع العصور والأزمان .

---

(١) جاء في الحديث أن أنهار الجنة تجري في غير أُخدود .

(٢) ذهب بعض المفسرين الى أن معنى قوله ﴿هذا الذي رزقنا من قبل﴾ أي في الدنيا ، وهذا قول مرجوح والصحيح ما روي عن ابن عباس وغيره أن هذا في الجنة وأنه ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء .

٦ - الإيجاز البديع بذكر الكناية ﴿فاتقوا النار﴾ أي فإن عجزتم فخافوا نار جهنم بتصديقكم بالقرآن .

* * *

قال الله تعالى ﴿إن الله لايستحيي أن يضرب مثلاً . . إلى . . وهو بكل شيء عليم﴾

من آية (٢٦) إلى نهاية آية (٢٩).

المناسبة : لمّا بيّن تعالى بالدليل الساطع ، والبرهان القاطع ، أن القرآن كلام الله لا يتطرأ إليه شك ، وإنه كتاب معجز أنزله على خاتم المرسلين ، وتحداهم أن يأتوا بمثل سورةٍ من أقصر سوره ، ذكر هنا شبهة أوردها الكفار للقدح فيه وهي أنه جاء في القرآن ذكر (النحل ، والذباب ، والعنكبوت ، والنمل) الخ وهذه الأمور لا يليق ذكرها بكلام الفصحاء فضلاً عن كلام ربّ الأرباب ، فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة ، وردَّ عليهم بأنَّ صغر هذه الأشياء لا يقدح في فصاحة القرآن وإعجازه ، إذا كان ذكر المثل مشتملاً على حِكَمٍ بالغة .

اللغة : ﴿لا يستحيي﴾ الحياء : تغير وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به ويذم ، والمراد به هنا لازمه وهو الترك ، **قال الزمخشري** : أي لا يترك ضرب المثل بالبعوضة ترك من يستحيي من ذكرها لحقارتها[1] ﴿فما فوقها﴾ فما دونها في الصغر ﴿الفاسقين﴾ أصل الفسق في كلام العرب : الخروج عن الشيء ، والمنافق فاسق لخروجه عن طاعة ربه ، قال الفراء : الفاسق مأخوذ من قولهم فسقت الرطبة من قشرها أي خرجت ، ويسمى الفاسق فاسقاً لخروجه عن طاعة الله ، وتسمى الفأرة فويسقة لخروجها لأجل المضرة[2] . ﴿ينقضون﴾ النقض : فسخ التركيب وإفساد ما أبرمته من بناءٍ ، أو حبلٍ ، أو عهد قال تعالى ﴿ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها﴾ وقال ﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾ أي فبنقضهم الميثاق ﴿عهد﴾ العهد : المَوْثق الذي يعطيه الإنسان لغيره ويقال عهد إليه أي أوصاه ﴿الميثاق﴾ العهد المؤكد باليمين وهو أبلغ من العهد . ﴿استوى﴾ الاستواء في الأصل : الاعتدال والاستقامة يقال : استوى العود إذا قام واعتدل ، واستوى إليه كالسهم إذا قصده قصداً مستوياً ، وقال ثعلب : الاستواء : الإقبال على الشيء[3] . ﴿فسواهن﴾ خلقهن وأتقنهن وقيل معناه : صيّرهن.

سبب النّزول : لما ذكر الله تعالى الذباب والعنكبوت في كتابه ، وضرب للمشركين به المثل ضحكت اليهود وقالوا : ما يشبه هذا كلام الله ، وما أراد بذكر هذه الاشياء الخسيسة ؟ فأنزل الله الآية[4] .

---

(١) الكشاف ج ١ ص ٨٥ . (٢) التفسير الكبير للرازي ج ٢ ص ١٤٧ .

(٣) الصاوي على الجلالين ج ١ ص ١٩ ، والكشاف ج ١ ص ٩٢ .

(٤) القرطبي ج ١ ص ٢٤٤ والصاوي ج ١ ص ١٧ .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

التفسير : يقول تعالى في الرد على مزاعم اليهود والمنافقين ﴿**إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما**﴾ أي إن الله لا يستنكف ولا يمتنع عن أن يضرب أيَّ مثلٍ كان ، بأي شيءٍ كان ، صغيراً كان أو كبيراً ﴿**بعوضة فما فوقها**﴾ أي سواء كان هذا المثل بالبعوضة أو بما هو دونها في الحقارة والصغر ، فكما لا يستنكف عن خلقها ، كذلك لا يستنكف عن ضرب المثل بها ﴿**فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم**﴾ أما المؤمنون فيعلمون أن الله حق ، لا يقول غير الحق ، وأن هذا المثل من عند الله ﴿**وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً**﴾ ؟ وأما الذين كفروا فيتعجبون ويقولون : ماذا أراد الله من ضرب الأمثال بمثل هذه الأشياء الحقيرة ؟ قال تعالى في الرد عليهم ﴿**يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً**﴾ أي يضل بهذا المثل كثيراً من الكافرين لكفرهم به ، ويهدي به كثيراً من المؤمنين لتصديقهم به ، فيزيد أولئك ضلالة ، وهؤلاء هدىً ﴿**وما يضل بهِ إلا الفاسقين**﴾ أي ما يضل بهذا المثل أو بهذا القرآن إلا الخارجين عن طاعة الله ، الجاحدين بآياته ، ثم عدّد تعالى أوصاف هؤلاء الفاسقين فقال ﴿**الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه**﴾ أي ينقضون ما عهده إليهم في الكتب السماوية ، من الإيمان بمحمد ﷺ من بعد توكيده عليهم ، أو ينقضون كل عهد وميثاق من الإيمان بالله ، والتصديق بالرسل ، والعمل بالشرائع ﴿**ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل**﴾ من صلة الأرحام والقرابات ، واللفظ عام في كل قطيعة لا يرضاها الله كقطع الصلة بين الأنبياء ، وقطع الأرحام ، وترك موالاة المؤمنين ﴿**ويفسدون في الأرض**﴾ بالمعاصي ، والفتن ، والمنع عن الإيمان ، وإثارة الشبهات حول القرآن ﴿**أولئك هم الخاسرون**﴾ أي أولئك المذكورون ، الموصوفون بتلك الأوصاف القبيحةهم الخاسرون لأنهم استبدلوا الضلالة بالهدى ، والعذاب بالمغفرة ، فصاروا إلى النار المؤبدة ﴿**كيف تكفرون بالله**﴾ استفهام للتوبيخ والإنكار والمعنى كيف تجحدون الخالق ، وتنكرون الصانع ﴿ **وكنتم أمواتاً**﴾ أي وقد كنتم في العدم نُطفاً في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات ﴿**فأحياكم**﴾ أي أخرجكم إلى الدنيا ﴿**ثم يميتكم**﴾ عند انقضاء الآجال ﴿**ثم يحييكم**﴾ بالبعث من القبور ﴿**ثم إليه ترجعون**﴾ للحساب والجزاء يوم النشور . ثم ذكر تعالى برهاناً على البعث فقال ﴿**هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً**﴾ أي خلق لكم الأرض وما فيها لتنتفعوا بكل ما فيها ، وتعتبروا بأن الله هو الخالق الرازق ﴿**ثم**

استوى إلى السَّماء﴾ أي ثم وجّه إرادته إلى السماء ﴿فسواهن سبع سموات﴾ أي صيّرهن وقضاهن سبع سموات محكمة البناء وذلك دليل القدرة الباهرة ﴿وهو بكل شيء عليم﴾ أي وهو عالم بكل ما خلق وذرأ ، أفلا تعتبرون بأن القادر على خلق ذلك ـ وهي أعظم منكم ـ قادر على إعادتكم ؟ ! بلى إنه على كل شيء قدير .

البَلاَغَة : ١ ـ قوله ﴿لا يستحيي﴾ مجاز من باب إطلاق الملزوم وإرادة اللازم ، المعنى : لا يترك فعبّر بالحياء عن الترك ، لأن الترك من ثمرات الحياء ، ومن استحيا من فعل شيء تركه[1] .

٢ ـ قوله ﴿ينقضون عهد الله﴾ فيه (استعارة مكنية) حيث شبه العهد بالحبل ، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو النقض على سبيل الاستعارة المكنية .

٣ ـ قوله ﴿كيف تكفرون بالله﴾ هو من باب (الالتفات) للتوبيخ والتقريع ، فقد كان الكلام بصيغة الغيبة ثم التفت فخاطبهم بصيغة الحضور ، وهو ضرب من ضروب البديع .

٤ ـ قوله ﴿عليم﴾ من صيغ المبالغة ، ومعناه الواسع العلم الذي أحاط علمه بجميع الأشياء ، قال أبو حيان : وصف تعالى نفسه بـ (عالم وعليم وعلام) وهذان للمبالغة ، وقد أدخلت العرب الهاء لتأكيد المبالغة في (علاّمة) ولا يجوز وصفه به تعالى[2] .

الفَوَائِد : الأولى : قال الزمخشري : التمثيل إنما يصار إليه لما فيه من كشف المعنى ، ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب ، فليس العظم والحقارة في المضروب به المثل إلا أمراً تستدعيه حال المتمثَّل له ، ألا ترى إلى الحق لما كان أبلج واضحاً جلياً ، كيف تمثَّل له بالضياء والنور ؟ وإلى الباطل لما كان بضد صفته كيف تمثّل له بالظلمة ؟ ولما كان حال الآلهة التي جعلها الكفار أنداداً لله تعالى ليس أحقر منها وأقل ، لذلك ضرب لها المثل ببيت العنكبوت في الضعف والوهن ﴿كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً﴾ وجعلت أقل من الذباب وأخسَّ قدراً ﴿لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه﴾ والعجبُ منهم كيف أنكروا ذلك وما زال الناس يضربون الأمثال بالبهائم والطيور ، والحشرات والهوام ، وهذه أمثال العرب بين أيديهم سائرة في حواضرهم وبواديهم[3] .

الثانية : قدّم الإضلال على الهداية ﴿يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً﴾ ليكون أول ما يقرع أسماعهم من الجواب أمراً فظيعاً يسوءهم ويفتُّ في أعضادهم ، وأوثرت صيغة الاستقبال إيذاناً بالتجدد والاستمرار ، أفاده العلامة أبو السعود[4] .

الثالثة : قال ابن جزي في التسهيل : وهذه الآية ﴿خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء﴾ تقتضي أنه خلق السماء بعد الأرض ، وقوله تعالى ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ ظاهره خلاف

---

(١) أفاده الزمخشري . (٢) البحر المحيط ج ١ ص ١٣٦ . (٣) الكشاف ج ١ ص ٨٣ . (٤) إرشاد العقل السليم ج ١ ص ٦٠ .

ذلك ، والجواب من وجهين : أحدهما أن الأرض خلقت قبل السماء ، ودحيت بعد ذلك فلا تعارض ، والآخر تكون ﴿ثمَّ﴾ لترتيب الأخبار[١] .

* * *

قال الله تعالى ﴿وإذ قال ربك للملائكة . . إلى . . وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾

من آية (٣٠) إلى نهاية آية (٣٣) .

المناسبة : لما امتنَّ تعالى على العباد بنعمة الخلق والإيجاد وأنه سخر لهم ما في الأرض جميعاً ، وأخرجهم من العدم إلى الوجود ، أتبع ذلك ببدء خلقهم ، وامتنَّ عليهم بتشريف أبيهم وتكريمه ، بجعله خليفة ، وإسكانه دار الكرامة ، وإسجاد الملائكة تعظيماً لشأنه ، ولا شك أن الإحسان إلى الأصل إحسان إلى الفرع ، والنعمة على الآباء نعمة على الأبناء ، ولهذا ناسب أن يذكّرهم بذلك ، لأنه من وجوه النعم التي أنعم بها عليهم .

اللغة : ﴿إذ﴾ ظرف زمان منصوب بفعل محذوف تقديره : اذكر حين أو اذكر وقت ، وقد يصرح بالمحذوف كقوله تعالى ﴿واذكروا إذ أنتم قليل﴾ قال المبرد : إذا جاء « إذْ » مع مستقبل كان معناه ماضياً نحو قوله ﴿وإذْ يمكر بك﴾ معناه إذْ مكروا ، وإذا جاء « إذا » مع الماضي كان معناه مستقبلاً كقوله ﴿فإذا جاءت الطامة﴾ و﴿إذا جاء نصر الله﴾ أي يجيء[٢] . ﴿خليفة﴾ الخليفة : من يخلف غيره وينوب منابه ، فعيل بمعنى فاعل والتاء للمبالغة ، سمي خليفة لأنه مستخلف عن الله عز وجل في إجراء الأحكام وتنفيذ الأوامر الربانية قال تعالى ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾ الآية ﴿يسفك﴾ السفك : الصب والإراقة ولا يستعمل إلا في الدم قال في المصباح : وسفك الدم : أراقه وبابه ضرب ﴿نسبّح﴾ التسبيح : تنزيه الله وتبرئته عن السوء[٣] ، وأصله من السَّبْح وهو الجري والذهاب قال تعالى ﴿إنَّ لك في النهار سبحاً طويلاً﴾ فالمُسَبِّح جارٍ في تنزيه الله تعالى ﴿ونقدّس﴾ التقديس : التطهير ومنه الأرض المقدسة ، وروح القدس ، وضده التنجيس ، وتقديس الله معناه : تمجيده وتعظيمه وتطهير ذكره عما لا يليق به وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده (سبُّوحٌ قدُّوس ربُّ الملائكةِ والرُّوح) ﴿أنبئوني﴾ أخبروني والنبأ : الخبر الهام ذو الفائدة العظيمة قال تعالى ﴿قل هو نبأ عظيم﴾ ﴿وتبدون﴾ تظهرون ﴿تكتمون﴾ تخفون ومنه كتم العلم أي اخفاؤه .

---

(١) التسهيل في علوم التنزيل ج ١ ص ٤٣ . (٢) القرطبي ج ١ ص ٢٦٢ .

(٣) روى طلحة بن عبيد الله قال سألت رسول الله ﷺ عن تفسير سبحان الله فقال : (هو تنزيه الله عز وجل عن كل سوء) القرطبي ج ١ ص ٢٧٦ .

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾

التفسير : ﴿وإذْ قال ربك للملائكة﴾ أي اذكر يا محمد حين قال ربك للملائكة واقصص على قومك ذلك ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ أي خالق في الأرض ومتخذ فيها خليفة يخلفني في تنفيذ أحكامي فيها وهو آدم أو قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن ، وجيلاً بعد جيل ﴿قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها﴾ أي قالوا على سبيل التعجب والاستعلام : كيف تستخلف هؤلاء ، وفيهم من يفسد في الأرض بالمعاصي ﴿ويسفك الدماء﴾ أي يريق الدماء بالبغي والاعتداء ! ! ﴿ونحن نسبح بحمدك﴾ أي ننزهك عما لا يليق بك متلبسين بحمدك ﴿ونقدس لك﴾ أي نعظّم أمرك ونطهّر ذكرك مما نسبه إليك الملحدون ﴿قال إنِّي أعلم ما لا تعلمون﴾ أي أعلم من المصالح ما هو خفيٌ عليكم ، ولي حكمة في خلق الخليقة لا تعلمونها ﴿وعلّم آدم الأسماء كلها﴾ أي أسماء المسمّيات كلها قال ابن عباس : علّمه اسم كل شيء حتى القصعة والمغرفة ﴿ثم عرضهم على الملائكة﴾ أي عرض المسميات على الملائكة وسألهم على سبيل التبكيت ﴿فقال أنبئوني﴾ أي أخبروني ﴿بأسماء هؤلاء﴾ أي بأسماء هذه المخلوقات التي ترونها ﴿إن كنتم صادقين﴾ أي في زعمكم أنكم أحق بالخلافة ممن استخلفته ، والحاصل أن الله تعالى أظهر فضل آدم للملائكة بتعليمه ما لم تعلمه الملائكة ، وخصّه بالمعرفة التامة دونهم ، من معرفة الأسماء والأشياء ، والأجناس ، واللغات ، ولهذا اعترفوا بالعجز والقصور ﴿قالوا سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علمتنا﴾ أي ننزهك يا ألله عن النقص ونحن لا علم لنا إلا ما علمتنا إياه ﴿إنك أنت العليم﴾ أي الذي لا تخفى عليه خافية ﴿الحكيم﴾ الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة ﴿قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم﴾ أي أعلمهم بالأسماء التي عجزوا عن علمها ، واعترفوا بتقاصر هممهم عن بلوغ مرتبتها ﴿فلما أنبأهم بأسمائهم﴾ أي أخبرهم بكل الأشياء ، وسمَّى كل شيء باسمه ، وذكر حكمته التي خلق لها ﴿قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض﴾ أي قال تعالى للملائكة : ألم أنبئكم بأني أعلم ما غاب في السموات والأرض عنكم ﴿وأعلم ما تبدون﴾ أي ما تظهرون ﴿وما كنتم تكتمون﴾ أي تسرون من دعواكم أن الله لا يخلق خلقاً أفضل منكم . روي أنه تعالى لما خلق آدم عليه السلام رأت الملائكة فطرته العجيبة ، وقالوا : ليكن ما شاء فلن يخلق ربنا خلقاً إلا كنا أكرم عليه منه[١] .

---

(١) مختصر ابن كثير ج ١ ص ٥٢ وأبو السعود ج ١ ص ٦٩ .

البَـلاَغَـة : ١ ـ التعرض بعنوان الربوبية ﴿وإذْ قال ربك﴾ مع الإضافة إلى الرسول عليه السلام للتشريف والتكريم لمقامه العظيم وتقديم الجار والمجرور ﴿للملائكة﴾ للاهتمام بما قُدّم ، والتشويق إلى ما أُخّر .

٢ ـ الأمر في قوله تعالى ﴿أنبئوني﴾ خرج عن حقيقته إلى التعجيز والتبكيت [١].

٣ ـ ﴿فلما أنبأهم بأسمائهم﴾ فيه مجاز بالحذف والتقدير : فأنبأهم بها فلما أنبأهم حذف لفهم المعنى .

٤ ـ ﴿ثم عرضهم﴾ هو من باب التغليب لأن الميم علامة الجمع للعقلاء الذكور ، ولو لم يغلّب لقال ﴿ثم عرضها﴾ أو عرضهن .

٥ ـ إبراز الفعل في قوله ﴿إني أعلم غيب السموات﴾ ثم قال ﴿وأعلم ما تبدون﴾ للإهتمام بالخبر والتنبيه على إحاطة علمه تعالى بجميع الأشياء ، ويسمى هذا بالإطناب .

٦ ـ تضمنت آخر هذه الآية من علم البديع ما يسمى بـ « الطباق » وذلك في كلمتي ﴿تبدون﴾ و﴿تكتمون﴾ .

الفَـوَائِـد : الأولى : قال بعض العلماء : في إخبار الله تعالى للملائكة عن خلق آدم واستخلافه في الأرض ، تعليمٌ لعباده المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها .

الثانية : الحكمة من جعل آدم عليه السلام خليفة هي الرحمة بالعباد ـ لا لافتقار الله ـ وذلك أن العباد لا طاقة لهم على تلقي الأوامر والنواهي من الله بلا واسطة ، ولا بواسطة مَلَك ، فمن رحمته ولطفه وإحسانه إرسال الرسل من البشر .

الثالثة : قال الحافظ ابن كثير : وقول الملائكة ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها﴾ الآية ليس هذا على وجه الاعتراض على الله ، ولا على وجه الحسد لبني آدم ، وإنما هو سؤ ال استعلام واستكشاف عين الحكمة في ذلك ، يقولون : ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ؟[٢] وقال في التسهيل : وإنما علمت الملائكة أن بني آدم يفسدون بإعلام الله إياهم بذلك ، وقيل : كان في الأرض جنٌ فأفسدوا ، فبعث الله إليهم ملائكة فقتلتهم ، فقاس الملائكة بني آدم عليهم[٣] .

الرابعة : سئل الشعبي : هل لإبليس زوجة ؟ قال : ذلك عرسٌ لم أشهده ؟ قال : ثم قرأتُ قوله تعالى : ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني﴾ فعلمت أنه لا يكون له ذرية إلا من زوجة ، فقلت : نعم[٤] .

---

(١) أفاده أبو السعود . (٢) مختصر ابن كثير ج ١ ص ٤٩ . (٣) التسهيل لابن جزي ج ١ ص ٤٣ . (٤) محاسن التأويل ج ٢ ص ١٠٤ .

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾

المناسَبَة : أشارت الآيات السابقة إلى أن الله تعالى خصّ آدم عليه السلام بالخلافة ، كما خصّه بعلم غزير وقفت الملائكة عاجزة عنه ، وأضافت هذه الآيات الكريمة بيان نوع آخر من التكريم أكرمه الله به ألا وهو أمر الملائكة بالسجود له ، وذلك من أظهر وجوه التشريف والتكريم لهذا النوع الإنساني ممثلاً في أصل البشرية آدم عليه السلام .

اللغَة : ﴿اسجدوا﴾ أصل السجود : الانحناء لمن يُسجد له والتعظيم ، وهو في اللغة : التذلل والخضوع،وفي الشرع : وضع الجبهة على الأرض ﴿إبليس﴾ اسم للشيطان وهو أعجمي ، وقيل إنه مشتق من الإبلاس وهو الإياس ﴿أبى﴾ امتنع ، والإباء : الامتناع مع التمكن من الفعل ﴿استكبر﴾ الاستكبار : التكبر والتعاظم في النفس ﴿رغداً﴾ واسعاً كثيراً لا عناء فيه ، والرغد : سعة العيش ، يقال : رغد عيش القوم إذا كانوا في رزقٍ واسع قال الشاعر :

بينما المرء تراه ناعماً يأمن الأحداث في عيشٍ رغد

﴿فأزلهما﴾ أصله من الزلل وهو عثور القدم يقال : زلت قدمه أي زلقت ثم استعمل في ارتكاب الخطيئة مجازاً يقال : زلّ الرجل إذا أخطأ وأتى ما ليس له إتيانه ، وأزله غيره : إذا سبّب له ذلك[1] ﴿مستقر﴾ موضع استقرار ﴿ومتاع﴾ المتاع ما يتمتع به من المأكول والمشروب والملبوس ونحوه ﴿فتلَقَّى﴾ التلقي في الأصل : الاستقبال تقول خرجنا نتلقى الحجيج أي نستقبلهم ، ثم استعمل في أخذ الشيء وقبوله تقول : تلقيت رسالة من فلان أي أخذتها وقبلتها ﴿فتاب﴾ التوبة في أصل اللغة الرجوع ، وإذا عديت بعن كان معناها الرجوع عن المعصية ، وإذا عديت بعلى كان معناها قبول التوبة .

التفسير : ﴿وإذ قلنا للملائكة﴾أي اذكر يامحمد لقومك حين قلنا للملائكة﴿اسجدوا لآدم﴾ أي

(١) مختصر الطبري ج ١ ص ٤٢ .

سجود تحية وتعظيم لا سجود عبادة ﴿فسجدوا إلا إبليس﴾ أي سجدوا جميعاً له غير إبليس ﴿أبى واستكبر﴾ أي امتنع مما أمر به وتكبر عنه ﴿وكان من الكافرين﴾ أي صار بإبائه واستكباره من الكافرين حيث استقبح أمر الله بالسجود لآدم ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ أي اسكن في جنة الخلد مع زوجك حواء ﴿وكلا منها رغداً﴾ أي كلا من ثمار الجنة أكلاً رغداً واسعاً ﴿حيث شئتما﴾ أي من أي مكان في الجنة أردتما الأكل فيه ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ أي لا تأكلا من هذه الشجرة قال ابن عباس: هي الكرمة ﴿فتكونا من الظالمين﴾ أي فتصيرا من الذين ظلموا أنفسهم بمعصية الله ﴿فأزلهما الشيطان عنها﴾ أي أوقعهما في الزلة بسببها وأغواهما بالأكل منها هذا إذا كان الضمير عائداً إلى الشجرة، أما إذا كان عائداً إلى الجنة فيكون المعنى أبعدهما وحوّلهما من الجنة[1] ﴿فأخرجهما مّمّا كانا فيه﴾ أي من نعيم الجنة ﴿وقلنا اهبطوا﴾ أي اهبطوا من الجنة إلى الأرض والخطاب لآدم وحواء وإبليس ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ أي الشيطان عدوٌ لكم فكونوا أعداء له كقوله ﴿إن الشيطان لكم عدوٌ فاتخذوه عدواً﴾ ﴿ولكم في الأرض مستقر﴾ أي لكم في الدنيا موضع استقرار بالإقامة فيها ﴿ومتاع إلى حين﴾ أي تمتع بنعيمها إلى وقت انقضاء آجالكم ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات﴾ أي استقبل آدم دعواتٍ من ربه ألهمه إياها فدعاه بها وهذه الكلمات مفسّرة في موطن آخر في سورة الأعراف ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ الآية ﴿فتاب عليه﴾ أي قبل ربه توبته ﴿إنه هو التواب الرحيم﴾ أي إن الله كثير القبول للتوبة، واسع الرحمة للعباد ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً﴾ كرر الأمر بالهبوط للتأكيد ولبيان أنَّ إقامة آدم وذريته في الأرض لا في الجنة[2] ﴿فإما يأتينكم منّي هدى﴾ أي رسول أبعثه لكم، وكتاب أنزله عليكم ﴿فمن تبع هداي﴾ أي من آمن بي وعمل بطاعتي ﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي لا ينالهم خوف ولا حزن في الآخرة ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾ أي جحدوا بما أنزلت وبما أرسلت ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي هم مخلدون في الجحيم أعاذنا الله منها.

البلاغة: أولاً: صيغة الجمع ﴿وإذ قلنا﴾ للتعظيم، وهي معطوفة على قوله ﴿وإذ قال ربك﴾ وفيه التفات من الغائب إلى المتكلم لتربية المهابة وإظهار الجلالة.

ثانياً: أفادت الفاء في قوله ﴿فسجدوا﴾ أنهم سارعوا في الامتثال ولم يتثبطوا فيه، وفي الآية إيجاز بالحذف أي فسجدوا له وكذلك ﴿أبى﴾ مفعوله محذوف أي أبى السجود.

ثالثاً: قوله ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ المنهي عنه هو الأكل من ثمار الشجرة، وتعليق النهي بالقرب منها ﴿ولا تقربا﴾ لقصد المبالغة في النهي عن الأكل، إذالنهي عن القرب نهي عن الفعل بطريق أبلغ كقوله تعالى ﴿ولا تقربوا الزنى﴾ فنهى عن القرب من الزنى ليقطع الوسيلة إلى ارتكابه.

رابعاً: التعبير بقوله ﴿مما كانا فيه﴾ أبلغ في الدلالة على فخامة الخيرات مما لو قيل: من النعيم أو

(١) (٢) وهذا ما ذهب إليه السيوطي والمحلي في تفسير الجلالين، والأول اختيار الطبري.

الجنة ، فإن من أساليب البلاغة في الدلالة على عظم الشيء أن يعبّر عنه بلفظ مبهم نحو ﴿مما كانا فيه﴾ لتذهب نفس السامع في تصور عظمته وكماله إلى أقصى ما يمكنها أن تذهب إليه .

خامساً : ﴿التواب الرحيم﴾ من صيغ المبالغة أي كثير التوبة وواسع الرحمة .

الفـوائـد : الأولى : كيف يصح السجود لغير الله ؟ والجواب أن سجود الملائكة لآدم كان للتحية وكان سجود تعظيم وتكريم لا سجود صلاةٍ وعبادة ، قال الزمخشري : السجـود للـه تعـالى على سبيل العبادة ، ولغيره على وجه التكرمة كما سجدت الملائكة لآدم ، ويعقوب وأبناؤ ه ليوسف[١] .

الثانية : قال بعض العارفين : سابق العناية لا يؤ ثر فيه حدوث الجناية ، ولا يحط عن رتبة الولاية ، فمخالفة آدم التي أوجبت له الإخراج من دار الكرامة لم تخرجه عن حظيرة القدس ، ولم تسلبـه رتبـة الخلافة ، بل أجزل الله له في العطية فقال ﴿ثم اجتباه ربه﴾ وقال الشاعر :

وإذا الحبيبُ أتـى بذنـبٍ واحدٍ جـاءت محاسـنـه بألـف شفيـع[٢]

الثالثة : هل كان إبليس من الملائكة ؟ الجواب : اختلف المفسرون على قولين : ذهب بعضهم إلى أنه من الملائكة بدليل الاستثناء ﴿فسجدوا إلا إبليس﴾ وقال آخرون : الاستثناء منقطع وإبليس من الجن وليس من الملائكة وإليه ذهب الحسن وقتادة واختاره الزمخشري ، قال الحسن البصري : لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين ، ونحن نرجح القول الثاني للأدلة الآتية : ١ ـ الملائكة منزهـون عن المعصية ﴿لا يعصون الله ما أمرهم﴾ وإبليس قد عصى أمر ربه ٢ ـ الملائكة خلقـت من نور وإبليس خلـق من نار فطبيعتهما مختلفـة ٣ ـ الملائكة لا ذرية لهم وإبليس له ذرية ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني﴾ ؟ ٤ ـ النص الصريح الواضح في سورة الكهف على أنه من الجن وهو قوله تعالى ﴿إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾ وكفى به حجة وبرهاناً[٣] .

* * *

قال الله تعالى ﴿يا بني إسرائيل . . إلى . . واركعوا مع الراكعين﴾
من آية (٤٠) إلى نهاية آية (٤٣).

المنـاسـبة : من بداية هذه الآية إلى آية/ ١٤٢/ ورد الكلام عن بني إسرائيل ، وقد تحدث القرآن الكريم بالإسهاب عنهم فيما يقرب من جزءٍ كامل ، وذلك يدل على عناية القرآن بكشف حقائق اليهود ، وإظهار ما انطوت عليه نفوسهم الشريرة من خبثٍ وكيد وتدمير حتى يحذرهم المسلمون ، أما وجه المناسبة فإن الله تعالى لمّا دعا البشر إلى عبادته وتوحيده ، وأقام للناس الحجج الواضحة على وحدانيته ووجوده ، ثم ذكّرهم بما أنعم به على أبيهم آدم عليه السلام ، دعا بني إسرائيل خصوصاً ـ وهم اليهود ـ إلى الإيمان بخاتم

(١) الكشاف ج ١ ص ٩٥ . (٢) البحر المحيط ج ١ ص ١٤١ . (٣) انظر التحقيق المفصل في كتابنا « النبوة والأنبياء » .

الرسل وتصديقه فيما جاء به عن الله ، لأنهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة ، وقد تفنّن في مخاطبتهم ، فتارة دعاهم بالملاطفة ، وتارة بالتخويف ، وتارة بالتذكير بالنعم عليهم وعلى آبائهم ، وأخرى بإقامة الحجة والتوبيخ على سوء أعمالهم وهكذا انتقل من التذكير بالنعم العامة على البشرية في تكريم أبي الإنسانية ، إلى التذكير بالنعم الخاصة على بني إسرائيل .

اللغــة : ﴿إسرائيل﴾ اسم أعجمي ومعناه : عبد الله وهو اسم ﴿يعقوب﴾ عليه السلام ، وقد صرَّح به في آل عمران ﴿إلا ما حرَّم إسرائيل على نفسه﴾ الآية ﴿أوفوا﴾ الوفاء : الإتيان بالشيء على التمام والكمال ، يقال أوفى ووفّى أي أداه وافياً تاماً . ﴿تلبسوا﴾ اللَّبْس : الخلط تقول العرب : لبَسْتُ الشيء بالشيء خلطته ، والتبس به اختلطَ ، قال تعالى ﴿ولَلَبسْنا عليهم ما يلبسون﴾ وفي المصباح : لَبِسَ الثوب من باب تعب لُبساً بضم اللام ، ولَبَسْتُ عليه الأمر لَبْساً من باب ضرب خلطته ، والتبس الأمر : أشكل . ﴿الزكاة﴾ مشتقة من زكا الزرع يزكو أي نما لأن إخراجها يجلب البركة ، أو هي من الزكاة أي الطهارة لأنها تطهر المال قال تعالى ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾ الآية

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

التفسيـر : ﴿**يا بني إسرائيل**﴾ أي يا أولاد النبي الصالح يعقوب ﴿**اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم**﴾ اذكروا ما أنعمت به عليكم وعلى آبائكم من نعم لا تعد ولا تحصى ﴿**وأوفوا بعهدي**﴾ أي أدّوا ما عاهدتموني عليه من الإيمان والطاعة ﴿**أوف بعهدكم**﴾ بما عاهدتكم عليه من حسن الثواب ﴿**وإياي فارهبون**﴾ أي اخشوني دون غيري ﴿**وآمنوا بما أنزلت**﴾ من القرآن العظيم ﴿**مصدقاً لما معكم**﴾ أي من التوراة في أمور التوحيد والنبوة ﴿**ولا تكونوا أول كافر به**﴾ أي أول من كفر من أهل الكتاب فحقكم أن تكونوا أول من آمن ﴿**ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً**﴾ أي لا تستبدلوا بآياتي البينات التي أنزلتها عليكم حطام الدنيا الفانية ﴿**وإياي فاتقون**﴾ أي خافون دون غيري ﴿**ولا تلبسوا الحق بالباطل**﴾ أي لا تخلطوا الحق المنزل من الله بالباطل الذي تخترعونه ، ولا تحرفوا ما في التوراة بالبهتان الذي تفترونه ﴿**وتكتموا الحق**﴾ أي ولا تخفوا ما في كتابكم من أوصاف محمد عليه السلام ﴿**وأنتم تعلمون**﴾ أنه حق أو حال كونكم عالمين بضرر الكتمان ﴿**وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين**﴾ أي أدوا ما وجب عليكم من الصلاة والزكاة ، وصلوا مع المصلين بالجماعة ، أو مع أصحاب محمد عليه السلام .

البـلاغـة : أولاً : في إضافة النعمة إليه سبحانه ﴿نعمتي﴾ إشارة إلى عظم قدرها ، وسعة

بِـرِّها ، وحسن موقعها لأن الإِضافة تفيد التشريف كقوله ﴿بيت الله﴾ و﴿ناقة الله﴾ .

ثانياً :قوله﴿ولا تشتروا بآياتي﴾ الشراء هنا ليس حقيقياً بل هو على سبيل الاستعارة كما تقدم في قوله ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾ .

ثالثاً : تكرير الحق في قوله ﴿تلبسوا الحق﴾ وقوله ﴿وتكتموا الحق﴾ لزيادة تقبيح المنهي عنه إذ في التصريح ما ليس في الضمير من التأكيد ويسمى هذا الإِطناب أضعف من سواه .

رابعاً : قوله ﴿واركعوا مع الراكعين﴾ هو من باب تسمية الكل باسم الجزء أي صلوا مع المصلين أطلق الركوع وأراد به الصلاة ففيه مجاز مرسل .

خامساً : ﴿وإِيَّاي فارهبون﴾ و﴿إِياي فاتقون﴾ يفيد الاختصاص .

فـائـدة : قال بعض العارفين : عبيد النّعم كثيرون ، وعبيد المنعم قليلون ، فالله تعالى ذكّر بني إسرائيل بنعمه عليهم ، حتى يعرفوا نعمة المنعم فقال ﴿اذكروا نعمتي﴾ وأما أمة محمدﷺ فقد ذكّرهم بالمنعم فقال ﴿فاذكروني أذكركم﴾ ليتعرفوا من المنعم على النعمة وشتان بين الأمرين .

* * *

قال الله تعالى ﴿أتأمرون الناس بالبر . . إلى . . ولا هم ينصرون﴾

من آية (٤٤) إلى نهاية آية (٤٨).

اللغـة : ﴿بالبر﴾ البِرُّ : سعة الخير والمعروف ومنه البرُّ والبِّرية للسعة ، وهو اسم جامع لأعمال الخير ، ومنه بر الوالدين وهو طاعتهما وفي الحديث (البِرُّ لا يبلى والذنب لا ينسى) ﴿وتنسون﴾ : تتركون والنسيان يأتي بمعنى الترك كقوله ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ وهو المراد هنا ويأتي بمعنى ذهاب الشيء من الذاكرة كقوله ﴿فنسي ولم نجد له عزماً﴾ ﴿تتلون﴾ : تقرءون وتدرسون ﴿الخاشعين﴾ الخاشع : المتواضع وأصله من الاستكانة والذل قال الزجاج : الخاشع الذي يُرى أثر الذل والخشوع عليه ، وخشعت الأصوات : سكنت[1] ﴿يظنون﴾ الظنُّ هنا بمعنى اليقين لا الشك ، وهو من الأضداد قال أبو عبيدة : العرب تقول لليقين ظنٌّ ، وللشك ظن[2] وقد كثر استعمال الظن بمعنى اليقين ومنه ﴿إني ظننت أني ملاقٍ حسابيه﴾ ﴿فظنوا أنهم مواقعوها﴾ ،﴿شفاعة﴾ الشفاعة مأخوذة من الشَّفع ضد الوتر ، وهي ضم غيرك إلى جاهك ووسيلتك ولهذا سميت شفاعة ، فهي إذاً إظهارٌ لمنزلة الشفيع عند المشفّع ﴿عَدْل﴾ بفتح العين فداء وبكسرها معناه: المِثْل يقال : عِدْل وعديل للذي يماثلك .

(١)القرطبي ج ١ ص ٣٧٤ . (٢) مجاز القرآن ص ٣٩ .

المناسبة : لا تزال الآيات تتحدث عن بني إسرائيل ، وفي هذه الآيات ذمٌ وتوبيخ لهم على سوء صنيعهم ، حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه ، ويدعون الناس إلى الهدى والرشاد ولا يتبعونه .

سبب النزول : نزلت هذه الآية في بعض علماء اليهود ، كانوا يقولون لأقربائهم الذين أسلموا : اثبتوا على دين محمد فإنه حق ، فكانوا يأمرون الناس بالإيمان ولا يفعلونه[1] .

* أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

التفسير : يخاطب الله أحبار اليهود فيقول لهم على سبيل التقريع والتوبيخ ﴿**أتأمرون الناس بالبر**﴾ أي أتدعون الناس إلى الخير وإلى الإيمان بمحمد ﴿**وتنسون أنفسكم**﴾ أي تتركونها فلا تؤمنون ولا تفعلون الخير ﴿**وأنتم تتلون الكتاب**﴾ أي حال كونكم تقرءون التوراة وفيها صفة ونعت محمد عليه السلام ﴿**أفلا تعقلون**﴾ أي أفلا تفطنون وتفقهون أن ذلك قبيح فترجعون عنه؟! ثم بيَّن لهم تعالى طريق التغلب على الأهواء والشهوات ، والتخلص من حب الرياسة وسلطان المال فقال ﴿**واستعينوا**﴾ أي اطلبوا المعونة على أموركم كلها ﴿**بالصبر والصلاة**﴾ أي بتحمل ما يشق على النفس من تكاليف شرعية ، وبالصلاة التي هي عماد الدين ﴿**وإنها**﴾ أي الصلاة ﴿**لكبيرة**﴾ أي شاقة وثقيلة ﴿**إلا على الخاشعين**﴾ أي المتواضعين المستكينين الذين صفت نفوسهم لله ﴿**الذين يظنون**﴾ أي يعتقدون اعتقاداً جازماً لا يخالجه شك ﴿**أنهم ملاقوا ربهم**﴾ أي سيلقون ربهم يوم البعث فيحاسبهم على أعمالهم ﴿**وأنهم إليه راجعون**﴾ أي معادهم إليه يوم الدين . ثم ذكّرهم تعالى بنعمه وآلائه العديدة مرة أخرى فقال ﴿**يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم**﴾ بالشكر عليها بطاعتي ﴿**وأني فضلتكم**﴾ أي فضلت آباءكم ﴿**على العالمين**﴾ أي عالمي زمانهم بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وجعلهم سادة وملوكاً ، وتفضيل الآباء شرفٌ للأبناء ﴿**واتقوا يوماً لا تجزي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً**﴾ أي خافوا ذلك اليوم الرهيب الذي لا تقضي فيه نفسٌ عن أخرى شيئاً من الحقوق ﴿**ولا يقبل منها شفاعة**﴾ أي لا تقبل شفاعة في نفس كافرة بالله أبداً ﴿**ولا يؤخذ منها عدل**﴾ أي لا يقبل منها فداء ﴿**ولا هم ينصرون**﴾ أي ليس لهم من يمنعهم وينجيهم من عذاب الله .

البلاغة : أولاً : ﴿أتأمرون﴾ الاستفهام خرج عن حقيقته إلى معنى التوبيخ والتقريع .

---

(١) الصاوي ج ١ ص ٢٦ والقرطبي ج ١ ص ٣٦٥ .

ثانياً : أتى بالمضارع ﴿أتأمرون﴾ وإن كان قد وقع ذلك منهم لأن صيغة المضارع تفيد التجدد والحدوث ، وعبّر عن ترك فعلهم بالنسيان﴿وتنسون أنفسكم﴾ مبالغة في الترك فكأنه لا يجري لهم على بال ، وعلقه بالأنفس توكيداً للمبالغة في الغفلة المفرطة ، ولا يخفى ما في الجملة الحالية ﴿وأنتم تتلون الكتاب﴾ من التبكيت والتقريع والتوبيخ .

ثالثاً : ﴿وأني فضلتكم على العالمين﴾ هو من باب عطف الخاص على العام لبيان الكمال ، لأن النعمة اندرج تحتها التفضيل المذكور ، فلما قال ﴿اذكروا نعمتي﴾ عمَّ جميع النعم فلما عطف ﴿وأني فضلتكم﴾ كان من باب عطف الخاص على العام .

رابعاً : ﴿واتقوا يوماً﴾ التنكير للتهويل أي يوماً شديد الهول ، وتنكير النفس ﴿نفسٌ عن نفسٍ﴾ ليفيد العموم والاقناط الكلي .

الفوائد : الفائدة الأولى : قال القرطبي : إنما خص الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات تنويهاً بذكرها وقد كان عليه السلام إذا حَزَبه أمرٌ (أغمّه) فَزَع إلى الصلاة ، وكان يقول (أرحنا بها يا بلال).

الثانية : قال علي كرم الله وجهه : « قصم ظهري رجلان : عالم متهتك ، وجاهل متنسك » ومن دعا غيره إلى الهدى ولم يعمل به كان كالسراج يضيء للناس ويحرق نفسه قال الشاعر :

إبدأْ بنفسك فانهها عن غيّها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل إن وعظتَ ويقتدى ... بالرأي منك وينفع التعليم

وقال أبو العتاهية :

وصفتَ التُّقَى حتَّى كأنَّك ذو تُقَى ... وريحُ الخطايا من ثيابك تَسْطَع

وقال آخر :

وغيرُ تَقيٍّ يأمر النَّاسَ بالتُّقَى ... طَبيبٌ يداوي النَّاس وهُوَ عليل

* * *

قال الله تعالى ﴿وإذ نجيناكم من آلِ فرعون . . إلى . . إنه هو التواب الرحيم﴾ .

من آية (٤٩) إلى نهاية آية (٥٤) .

المناسبة : لما قدّم تعالى ذكر نعمه على بني إسرائيل إجمالاً ، بيَّن بعد ذلك أقسام تلك النعم على سبيل التفصيل ، ليكون أبلغ في التذكير وأدعى إلى الشكر ، فكأنه قال : اذكروا نعمتي ، واذكروا إذ نجيناكم من آل فرعون ، واذكروا إذ فرقنا بكم البحر . . إلى آخره وكل هذه النعم تستدعي شكر المنعم جل وعلا لا كفرانه وعصيانه .

اللغــة : ﴿آل فرعون﴾ أصل « آل » أهل ولذلك يصغّر بأهيل فأبدلت هاؤه ألفاً ، وخُصَّ استعماله بأولي الخطر والشأن كالملوك وأشباههم ، فلا يقال آل الإسكاف والحجام ، و﴿فرعون﴾ علمٌ لمن ملك العمالقة كقيصر لملك الروم وكسرى لملك الفرس ، ولعتو الفراعنة اشتقوا تفرعن إذا عتا وتجبر[1] ﴿يسومونكم﴾ يذيقونكم من سامه إذا أذاقه وأولاه قال الطبري : يوردونكم ويذيقونكم . ﴿يستحيون﴾ يستبقون الإناث على قيد الحياة ﴿بلاء﴾ اختبار ومحنة ، ويستعمل في الخير والشر كما قال تعالى ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾ ﴿فرقنا﴾ الفرق : الفصل والتمييز ومنه ﴿وقرآناً فرقناه﴾ أي فصلناه وميزناه بالبيان ﴿بارئكم﴾ الباري هو الخالق للشيء على غير مثال سابق ، والبرية : الخلق .

وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾

التفسير : ﴿**وإذْ نجيناكم**﴾ أي اذكروا يا بني اسرائيل نعمتي عليكم حين نجيت آباءكم ﴿**من آل فرعون**﴾ أي من بطش فرعون وأشياعه العتاة ، والخطاب للأبناء المعاصرين للنبي ﷺ إلا أن النعمة على الآباء نعمة على الأبناء ﴿**يسومونكم سوء العذاب**﴾ أي يولونكم ويذيقونكم أشد العذاب وأفظعه ﴿**يذبحون أبناءكم**﴾ أي يذبحون الذكور من الأولاد ﴿**ويستحيون نساءكم**﴾ أي يستبقون الإناث على قيد الحياة للخدمة ﴿**وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم**﴾ أي فيما ذكر من العذاب المهين من الذبح والاستحياء ، محنة واختبارٌ عظيم لكم من جهته تعالى بتسليطهم عليكم ليتميز البرُّ من الفاجر ﴿**وإذ فرقنا بكم البحر**﴾ أي اذكروا أيضاً إذ فلقنا لكم البحر حتى ظهرت لكم الأرض اليابسة فمشيتم عليها ﴿**فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون**﴾ أي نجيناكم من الغرق وأغرقنا فرعون وقومه ﴿**وأنتم تنظرون**﴾ أي وأنتم تشاهدون ذلك فقد كان آية باهرة من آيات الله في إنجاء أوليائه وإهلاك أعدائه ﴿**وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة**﴾ أي وعدنا موسى أن نعطيه التوراة بعد أربعين ليلة وكان ذلك بعد نجاتكم وإهلاك فرعون ﴿**ثم اتخذتم العجل**﴾ أي عبدتم العجل ﴿**من بعده**﴾ أي بعد غيبته عنكم حين ذهب لميقات ربه ﴿**وأنتم ظالمون**﴾ أي معتدون في تلك العبادة ظالمون لأنفسكم ﴿**ثم عفونا عنكم**﴾ أي تجاوزنا عن تلك الجريمة الشنيعة ﴿**من بعد**

---

(١) الكشاف ١/١٠٢ .

ذلـك﴾ أي من بعد ذلك الاتخاذ المتناهي في القبح ﴿لعلكـم تشكـرونَ﴾ أي لكي تشكروا نعمة الله عليكم وتستمروا بعد ذلك على الطاعة ﴿وإذْ آتينـا موسى الكتـاب والفرقـان﴾ أي واذكروا نعمتي أيضاً حـين أعطيت موسى التوراة الفارقة بين الحق والباطل وأيدته بالمعجزات ﴿لعلكـم تهتـدون﴾ أي لكي تهتدوا بالتدبر فيها والعمل بما فيها من أحكام .

ثم بَيَّـنَ تعالى كيفية وقوع العفو المذكور بقوله ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم﴾ أي واذكروا حين قال موسى لقومه بعـدما رجع من الموعد الذي وعده ربه فرآهم قد عبدوا العجل يا قوم لقد ظلمتم أنفسكم ﴿باتخاذكـم العجـل﴾ أي بعبادتكم للعجل ﴿فتوبوا إلـى بارئكـم﴾ أي توبوا إلى من خلقكم بريئاً من العيب والنقصان ﴿فاقتلـوا أنفسكـم﴾ أي ليقتل البريء منكم المجرم ﴿ذلـكم﴾ أي القتل ﴿خير لكم عنـد بارئكـم﴾ أي رضاكم بحكم الله ونزولكم عند أمره خير لكم عند الخالق العظيم ﴿فتـاب عليكـم﴾ أي قبل توبتكم ﴿إنه هـو التواب الرحيـم﴾ أي عظيم المغفرة واسع التوبة .

البـلاغـة : قال ابن جزي : ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ أي يلـزمونهم به وهو استعارة من السَّوْم في البيع وفسَّرَ سوء العذاب بقوله ﴿يذبِّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾ ولذلك لم يعطفه هنا[١] .

ثانياً : التنكير في كل من ﴿بلاء﴾ و﴿عظيم﴾ للتفخيم والتهويل .

ثالثاً : صيغة المفاعلة في قوله ﴿وإذ واعدنا﴾ ليست على بابها لأنها لا تفيد المشاركة من الطرفين ، وإنما هي بمعنى الثلاثي ﴿وإذ وعدنا﴾ .

رابعاً : قال أبو السعود : ﴿ فتوبوا إلى بارئكم﴾ التعرض بذكر الباريء للإشعار بـأنهم بلغوا من الجهالة أقصاها ومن الغواية منتهاها ، حيث تركوا عبادة العليم الحكيم ، الذي خلقهم بلطيف حكمته ، إلى عبادة البقر الذي هو مثلٌ في الغباوة[٢] .

الفـوائـد : الأولى : العطف في قوله ﴿الكتاب والفرقان﴾ هو من باب عطف الصفات بعضها على بعض ، لأن الكتاب هو التوراة والفرقان هو التوراة أيضاً وحسن العطف لكـون معناه أنه آتاه جامعاً بين كونه كتاباً منزلاً وفرقاناً يفرق بين الحق والباطل[٣] .

الثانية : سبب تقتيل الذكور من بني إسرائيل ما رواه المفسرون أن فرعون رأى في منامه كأنَّ ناراً أقبلت من بيت المقدس وأحاطت بمصر ، وأحرقت كل قبطي بها ولم تتعرض لبني إسرائيل فهاله ذلك وسأل الكهنةعن رؤيـاه فقالوا : يولد في بني إسرائيل غلام يكون هلاكك وزوال ملككعلىيده ، فأمر فرعون بقتل كل غلام يولد في بني إسرائيل .

الثالثة : قال القشيري : من صبر في الله على قضاء الله ، عوّضه الله صحبة أوليائه ، هؤلاء بنو

(١) كتاب التسهيل ١ / ٤٧ . (٢) أبو السعود ١ / ٨١ . (٣) قاله الزجاج واختاره الزمخشري .

إسرائيل ، صبروا على مقاساة الضر من فرعون وقومه ، فجعل منهم أنبياء ، وجعل منهم ملوكاً ، وآتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين[١] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة . . إلى . . بما كانوا يفسقون﴾ من آية (٥٥) إلى نهاية آية (٥٩)

المناسبة : بعد أن ذكّرهم تعالى بالنعم ، بيّن لوناً من ألوان طغيانهم وجحودهم ، وتبديلهم لأوامر الله ، وهم مع الكفر والعصيان ، يعاملون باللطف والإحسان ، فما أقبحهم من أمة وما أخزاهم!! قال الطبري : لما تاب بنو إسرائيل من عبادة العجل أمر الله تعالى موسى أن يختار من قومه رجالاً يعتذرون إليه من عبادتهم العجل ، فاختار موسى سبعين رجلاً من خيارهم كما قال تعالى ﴿واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا﴾ وقال لهم : صوموا وتطهروا وطهّروا ثيابكم ففعلوا ، وخرج بهم إلى « طور سيناء » فقالوا لموسى : اطلب لنا أن نسمع كلام ربنا فقال : أفعل ، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله ، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً ، فسمعوا الله يكلم موسى يأمره وينهاه ، فلما انكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم فقالوا لموسى ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾[٢]

اللغة : ﴿جهرة﴾ علانيةً ، وأصل الجهر : الظهور ، ومنه الجهر بالقراءة والجهر بالمعاصي يعني المظاهرة بها ، تقول : رأيت الأمير جهاراً وجهرة أي غير مستتر بشيء ، وقال ابن عباس : جهرةً : عياناً . ﴿الصاعقة﴾ صيحة العذاب أو هي نار محرقة ﴿بعثناكم﴾ أحييناكم قال الطبري : وأصل البعث : إثارة الشيء من محله ﴿الغمام﴾ جمع غمامة كسحابة وسحاب وزناً ومعنى ، لأنها تغم السماء أي تسترها ، وكل مغطّى فهو مغموم ، وغُمَّ الهلال : إذا غطّاه الغيم فلم ير ﴿حطّة﴾ : مصدر من حطَّ عنا ذنوبنا[٣] ، وهي كلمة استغفار ومعناها : اغفر خطايانا . ﴿رجزاً﴾ عذاباً ومنه ﴿لئن كشفت عنا الرجز﴾ أي العذاب ﴿يفسقون﴾ الفسق : الخروج عن الطاعة وقد تقدم .

وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

---

(١) البحر المحيط ١/ ١٩٤ . (٢) انظر مختصر ابن كثير ١/ ٦٦ . (٣) مجاز القرآن ١/ ٤١ .

التفسير : ﴿وإذ قلتم يا موسى﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين خرجتم مع موسى لتعتذروا إلى الله من عبادة العجل فقلتم ﴿لن نؤمن لك﴾ أي لن نصدّق لك بأنّ ما نسمعه كلام الله ﴿حتى نرى الله جهرة﴾ أي حتى نرى الله علانية ﴿فأخذتكم الصاعقة﴾ أي أرسل الله عليهم ناراً من السماء فأحرقهم ﴿وأنتم تنظرون﴾ أي ما حلّ بكم ثم لما ماتوا قام موسى يبكي ويدعو الله ويقول : ربّ ماذا أقول لبني إسرائيل وقد أهلكت خيارهم ، وما زال يدعو ربه حتى أحياهم قال تعالى ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾ أي أحييناكم بعد أن مكثتم ميتين يوماً وليلة ، فقاموا وعاشوا ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون ﴿لعلكم تشكرون﴾ أي لتشكروا الله على إنعامه عليكم بالبعث بعد الموت .

ثم ذكّرهم تعالى بنعمته عليهم وهم في التيه لما امتنعوا من دخول مدينة الجبارين وقتالهم وقالوا لموسى ﴿إذهب أنت وربك فقاتلا﴾ فَعُوقِبُوا على ذلك بالضياع أربعين سنة يتيهون في الأرض فقال تعالى : ﴿وظلّلنا عليكم الغمام﴾ أي سترناكم بالسحاب من حر الشمس وجعلناه عليكم كالظُّلَّة ﴿وأنزلنا عليكم المنّ والسلوى﴾ أي أنعمنا عليكم بأنواعٍ من الطعام والشراب من غير كدٍّ ولا تعب ، والمنُّ كان ينزل عليهم مثل العسل فيمزجونه بالماء ثم يشربونه[1] ، والسلوى : طير يشبه السماني لذيذ الطعم[2] ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ أي وقلنا لهم كلوا من لذائذ نعم الله ﴿وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي أنهم كفروا هذه النعم الجليلة ، وما ظلمونا ولكن ظلموا أنفسهم ، لأن وبال العصيان راجع عليهم ﴿وإذ قلنا ادخلواهذه القرية﴾ أي واذكروا أيضاً نعمتي عليكم حين قلنا لكم بعد خروجكم من التيه ، ادخلوا بيت المقدس ﴿فكلوا منها حيث شئتم رغداً﴾ أي كلوا منها أكلاً واسعاً هنيئاً ﴿وادخلوا الباب سجداً﴾ أي وادخلوا باب القرية ساجدين لله شكراً على خلاصكم من التيه ﴿وقولوا حطّة﴾ أي قولوا يا ربنا حطَّ عنا ذنوبنا واغفر لنا خطايانا ﴿نغفر لكم خطاياكم﴾ أي نمح ذنوبكم ونكفّر سيئاتكم ﴿وسنزيد المحسنين﴾ أي نزيد من أحسن إحساناً ، بالثواب العظيم ، والأجر الجزيل ﴿فبدّل الذين ظلموا﴾ أي غيّر الظالمون أمر الله فقالوا ﴿قولاً غير الذي قيل لهم﴾ حيث دخلوا يزحفون على أستاههم أعني « أدبارهم » وقالوا على سبيل الاستهزاء : « حبة في شعيرة » وسخروا من أوامر الله ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء﴾ أي أنزلنا عليهم طاعوناً وبلاءً ﴿بما كانوا يفسقون﴾ أي بسبب عصيانهم وخروجهم عن طاعة الله ، روي أنه مات بالطاعون في ساعة واحدة منهم سبعون ألفاً .

البلاغة : أولاً : إنما قيّد البعث بعد الموت ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾ لزيادة التأكيد على أنه موت حقيقي ، ولدفع ما عساه يتوهم أن بعثهم كان بعد إغماء أو بعد نوم .

ثانياً : في الآية إيجاز بالحذف في قوله ﴿كلوا﴾ أي قلنا لهم كلوا وفي قوله ﴿وما ظلمونا﴾ تقديره فظلموا أنفسهم بأن كفروا وما ظلمونا بذلك دل على هذا الحذف قوله ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾

(١) هو قول الربيع بن أنس . (٢) قول جمهور المفسرين .

والجمع بين صيغتي الماضي والمضارع ﴿ظلموا﴾ و﴿يظلمون﴾ للدلالة على تماديهم في الظلم واستمرارهم على الكفر[١] .

ثالثاً : وضع الظاهر مكان الضمير في قوله ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا﴾ ولم يقل « فأنزلنا عليهم » لزيادة التقبيح والمبالغة في الذم والتقريع ، وتنكير ﴿رجزاً﴾ للتهويل والتفخيم[٢] .

تنبيه : قال الراغب : تخصيص قوله ﴿رجزاً من السماء﴾ هو أن العذاب ضربان : ضربٌ قد يمكن دفاعه وهو كل عذاب جاء على يد آدمي ، أو من جهة المخلوقات كالهدم والغرق ، وضربٌ لا يمكن دفاعه بقوة آدمي كالطاعون والصاعقة والموت وهو المراد بقوله ﴿رجزاً من السماء﴾[٣] .

* * *

قال الله تعالى ﴿وإذ قال موسى لقومه . . إلى . . وما الله بغافل عما تعلمون﴾
آية (٦٠) إلى نهاية آية (٦٢) .

المناسبة : لا تزال الآيات تعدّد النعم على بني إسرائيل ، وهذه إحدى النعم العظيمة عليهم حين كانوا في التيه ، وعطشوا عطشاً شديداً كادوا يهلكون معه ، فدعا موسى ربه أن يغيثهم فأوحى الله إليه أن يضرب بعصاه الحجر ، فتفجرت منه عيون بقدر قبائلهم ، وكانوا اثنتي عشرة قبيلة فجرى لكل منهم جدول خاص ، يأخذون منه حاجتهم لا يشاركهم فيه غيرهم ، وكان موضوع السقيا آية باهرة ومعجزة ظاهرة لسيدنا موسى عليه السلام ومع ذلك كفروا وجحدوا .

اللغة : ﴿استسقى﴾ طلب السقيا لقومه لأن السين والتاء للطلب مثل : استنصر واستخبر قال أبو حيان : الاستسقاء : طلب الماء عند عدمه أو قلته ، ومفعوله محذوف أي استسقى موسى ربّه[٤] . ﴿فانفجرت﴾ الانفجار : الإنشقاق ومنه سمي الفجر لانشقاق ضوئه ، وانفجر وانبجس بمعنى واحد قال تعالى ﴿فانبجست منه﴾ ،﴿مشربهم﴾ جهة وموضع الشرب ﴿ تعثوا﴾ العيث : شدة الفساد ، يقال : عثِيَ يعثَى ، وعثَا يعثو إذا أفسد فهو عاثٍ[٥] ، قال الطبري : معناه تطغوا وأصله شدة الإفساد ﴿فومها﴾ الفوم : الثوم وقيل : الحنطة ﴿أتستبدلون﴾ الاستبدال : ترك شيء لآخر وأخذ غيره مكانه ﴿أدنى﴾ أخسٌ وأحقر يقال رجل دنيء إذا كان يتتبع الخسائس ﴿الذلة﴾ الذل والهوان والحقارة ﴿والمسكنة﴾ الفاقة والخشوع مأخوذة من السكون لأن المسكين قليل الحركة لما به من الفقر ﴿باءوا﴾ رجعوا وانصرفوا قال الرازي : ولا يقال باء إلا بشرّ ﴿يعتدون﴾ الإعتداء : تجاوز الحد في كل شيء واشتهر في الظلم والمعاصي .

(١) الفتوحات الإلهية ١/ ٥٧ . (٢) إرشاد العقل السليم ١/ ٨٣ . (٣) محاسن التأويل ٢/ ١٣٥ .
(٤) البحر المحيط ١/ ٢٢٦ . (٥) كذا في المصباح .

* وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

التفسير : ﴿**وإذِ استسقى موسى لقومه**﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين طلب موسى السقيا لقومه وقد عطشوا في التيه ﴿**فقلنا اضرب بعصاك الحجر**﴾ أي اضرب أيّ حجر كان تتفجر بقدرتنا العيون منه ﴿**فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً**﴾ أي فضرب فتدفق الماء منه بقوة وخرجت منه اثنتا عشرة عيناً بقدر قبائلهم ﴿**قد علم كل أناسٍ مشربهم**﴾ أي علمت كل قبيلة مكان شربها لئلا يتنازعوا ﴿**كلوا واشربوا من رزق الله**﴾ أي قلنا لهم : كلوا من المنّ والسلوى ، واشربوا من هذا الماء ، من غير كدّ منكم ولا تعب ، بل هو من خالص إنعام الله ﴿**ولا تعثوا في الأرض مفسدين**﴾ أي ولا تطغوا في الأرض بأنواع البغي والفساد . ﴿**وإذْ قلتم يا موسى**﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين قلتم لنبيكم موسى وأنتم في الصحراء تأكلون من المنّ والسلوى ﴿**لن نصبر على طعام واحد**﴾ أي على نوع واحدٍ من الطعام وهو المنُّ والسلوى ﴿**فادع لنا ربك يخرج لنا مما تُنْبت الأرض**﴾ أي ادع الله أن يرزقنا غير ذلك الطعام فقد سئمنا المنَّ والسلوى وكرهناه ونريد ما تخرجه الأرض من الحبوب والبقول ﴿**من بقلها**﴾ من خضرتها كالنعناع والكرفس والكراث ﴿**وقثائها**﴾ يعني القثّة التي تشبه الخيار ﴿**وفومها**﴾ أي الثوم ﴿**وعدسها وبصلها**﴾ أي العدس والبصل المعروفان ﴿**قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير**﴾ أي قال لهم موسى منكراً عليهم : ويحكم أتستبدلون الخسيس بالنفيس ! وتفضلون البصل والبقل والثوم على المنّ والسلوى ؟ ﴿**اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم**﴾ أي ادخلوا مصراً من الأمصار وبلداً من البلدان أيّاً كان لتجدوا فيه مثل هذه الأشياء . . ثم قال تعالى منبهاً على ضلالهم وفسادهم وبغيهم وعدوانهم ﴿**وضربت عليهم الذلة والمسكنة**﴾ أي لزمهم الذل والهوان وضرب عليهم الصغار والخزي الأبدي الذي لا يفارقهم مدى الحياة ﴿**وباءوا بغضب من الله**﴾ أي انصرفوا ورجعوا بالغضب والسخط الشديد من الله ﴿**ذلك**﴾ أي ما نالوه من الذل والهوان والسخط والغضب بسبب ما اقترفوه من الجرائم الشنيعة ﴿**بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق**﴾ أي بسبب كفرهم بآيات الله جحوداً واستكباراً ، وقتلهم رسل الله ظلماً وعدواناً

﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ أي بسبب عصيانهم وطغيانهم وتمردهم علَى أحكام الله ثمَّ دعا تعالى أصحاب الملل والنحل « المؤمنين ، واليهود ، والنصارى ، والصابئين » إلى الإيمان الصادق وإخلاص العمل لله وساقه بصيغة الخبر فقال ﴿إن الذين آمنوا﴾ المؤمنون أتباع محمد ﴿والذين هادوا﴾ اليهود أتباع موسى ﴿والنصارى﴾ أتباع عيسى ﴿والصابئين﴾ قوم عدلوا عن اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة ﴿من آمن بالله واليوم الآخر﴾ أي من آمن من هذه الطوائف إيماناً صادقاً فصدَّق بالله ، وأيقن بالآخرة ﴿وعمل صالحاً﴾ أي عمل بطاعة الله في دار الدنيا ﴿فلهم أجرهم عند ربهم﴾ أي لهم ثوابهم عند الله لا يضيع منه مثقال ذرة ﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي ليس على هؤلاء المؤمنين خوف في الآخرة ، حين يخاف الكفار من العقاب ، ويحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب .

البَـلاَغَـة : أولاً : في إضافة الرزق إلى الله تعالى ﴿كلوا واشربوا من رزق الله﴾ تعظيمٌ للمنَّة والإنعام وإيماء إلى أنه رزقٌ حاصلٌ من غير تعب ولا مشقة .

ثانياً : في التصريح بذكر الأرض ﴿ولا تعثوا في الأرض﴾ مبالغةٌ في تقبيح الفساد وقوله ﴿مفسدين﴾ حالٌ مؤكدة ووجه فصاحة هذا الأسلوب أن المتكلم قد تشتد عنايته بأن يجعل الأمر أو النهي لا يحوم حوله لبسٌ أو شك ، ومن مظاهر هذه العناية التوكيد فقوله ﴿مفسدين﴾ يكسو النهي عن الفساد قوة ، ويجعله بعيداً من أن يُغفل عنه أو يُنسى .

ثالثاً : قوله تعالى ﴿مما تنبت الأرض﴾ المنبت الحقيقي هو الله سبحانه ففيه مجاز يسمى (المجاز العقلي) وعلاقته السببية لأن الأرض لما كانت سبباً للنبات أُسند إليها .

رابعاً : قوله ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة﴾ كناية[1] عن إحاطتهما بهم كما تحيط القبَّة بمن ضربت عليه كما قال الشاعر :

إن السماحة والمروءة والندى ... في قبَّة ضربت على ابن الحشرج

خامساً : تقييد قتل الأنبياء بقوله ﴿بغير الحق﴾ مع أن قتلهم لا يكون بحق البتَّة إنما هو لزيادة التشنيع بقبح عدوانه .

الفَـوَائِـد : الأولى : حكى المفسرون أقوالاً كثيرة في الحجر الذي ضربه موسى فجرت منه العيون ما هو ؟ وكيف وصفه ؟ وقد ضربنا صفحاً عن هذه الأقوال والذي يكفي في فهم معنى الآية أن واقعة انفجار الماء إنما كان على وجه « المعجزة » وأن الحجر الذي ضربه موسى كان من الصخر الأصم الذي ليس من شأنه الانفجار بالماء ، وهنا تكون المعجزة أوضح ، والبرهان أسطع قال الحسن البصري : لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه قال : وهذا أظهر في الحجة وأبين في القدرة[2] .

(١) تسمى الاستعارة بالكناية كما نبّه على ذلك أبو السعود . (٢) الكشاف ١/ ١٠٧ .

الثانية : فإن قيل ما الحكمة في جعل الماء اثنتي عشرة عيناً ؟ والجواب : أن قوم موسى كانوا كثيرين وكانوا في الصحراء ، والناس إذا اشتدت بهم الحاجة إلى الماء ثم وجدوه فإنه يقع بينهم تشاجر وتنازع ، فأكمل الله هذه النعمة بأن عيّن لكل سبط منهم ماءً معيناً على عددهم لأنهم كانوا اثني عشر سبطاً ، وهم ذرية أبناء يعقوب الاثني عشر والله أعلم .

الثالثة : ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالفوم في قوله ﴿وفومها﴾ الحنطة والأرجح أن المراد به الثوم بدليل قراءة ابن مسعود ﴿وثومها﴾ وبدليل اقتران البصل بعده قال الفخر الرازي : الثوم أوفق للعدس والبصل من الحنطة ، واستدل القرطبي على ذلك بقول حسان :

وأنتم أُناسٌ لئامُ الأصول طعامكم الفوم والحوقل .

يعني الثوم والبصل [1]

* * *

قال الله تعالى : ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم . . إلى . . وما خلفها وموعظة للمتقين﴾ .
من آية (٦٣) إلى نهاية آية (٦٦).

المناسبة : لمّا ذكرهم تعالى بالنعم الجليلة العظيمة ، أردف ذلك ببيان ما حلَّ بهم من نقم ، جزاء كفرهم وعصيانهم وتمردهم على أوامر الله ، فقد كفروا النعمة ، ونقضوا الميثاق ، واعتدوا في السبت فمسخهم الله إلى قردة ، وهكذا شأن كل أمةٍ عتت عن أمر ربها وعصت رسله .

اللغة : ﴿ميثاقكم﴾ الميثاق : العهد المؤكد بيمين ونحوه ، والمراد به هنا العمل بأحكام التوراة ﴿الطور﴾ هو الجبل الذي كلّم الله عليه موسى عليه السلام ﴿بقوة﴾ بحزمٍ وعزم ﴿توليتم﴾ التولي : الإعراض عن الشيء والإدبار عنه ﴿خاسئين﴾ جمع خاسيء وهو الذليل المهين قال أهل اللغة : الخاسيء : الصاغر المبعد المطرود كالكلب إذا دنا من الناس قيل له : إخسأ أي تباعد وانطرد صاغراً . ﴿نكالاً﴾ النكال : العقوبة الشديدة الزاجرة ولا يقال لكل عقوبة نكالٌ حتى تكون زاجرة رادعة .

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾

---

(١) القرطبي ١/ ٤٢٥ .

التفسير : ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين أخذنا منكم العهد المؤكد على العمل بما في التوراة ﴿ورفعنا فوقكم الطور﴾ أي نتقناه حتى أصبح كالظلة فوقكم وقلنا لكم ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ أي اعملوا بما في التوراة بجدٍّ وعزيمة ﴿واذكروا ما فيه﴾ أي احفظوه ولا تنسوه ولا تغفلوا عنه ﴿لعلكم تتقون﴾ أي لتتقوا الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة ، أو رجاء منكم أن تكونوا من فريق المتقين ﴿ثم توليتم من بعد ذلك﴾ أي أعرضتم عن الميثاق بعد أخذه ﴿فلولا فضل الله عليكم﴾ أي بقبول التوبة ﴿ورحمته﴾ بالعفو عن الزلة ﴿لكنتم من الخاسرين﴾ أي لكنتم من الهالكين في الدنيا والآخرة ﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت﴾ أي عرفتم ما فعلنا بمن عصى أمرنا حين خالفوا واصطادوا يوم السبت وقد نهيناهم عن ذلك ﴿فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ أي مسخناهم قردة بعد أن كانوا بشراً مع الذلة والإهانة ﴿فجعلناها﴾ أي المسخة ﴿نكالاً لما بين يديها﴾ أي عقوبة زاجرة لمن يأتي بعدها من الأمم ﴿وما خلفها﴾ أي جعلنا مسخهم قردة عبرة لمن شهدها وعاينها ، وعبرة لمن جاء بعدها ولم يشاهدها ﴿وموعظةً للمتقين﴾ أي عظةً وذكرى لكل عبدٍ صالحٍ متّقٍ لله سبحانه وتعالى .

البلاغة : أولاً : ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ فيه إيجاز بالحذف أي قلنا لهم خذوا فهو كما قال الزمخشري على إرادة القول .

ثانياً : ﴿كونوا قردة خاسئين﴾ خرج الأمر عن حقيقته إلى معنى الإهانة والتحقير ، وقال بعض المفسرين : هذا أمر تسخيرٍ وتكوين ، فهو عبارة عن تعلق القدرة بنقلهم من حقيقة البشرية إلى حقيقة القردة .[1]

ثالثاً : ﴿لما بين يديها وما خلفها﴾ كناية عمن أتى قبلها أو أتى بعدها من الأمم والخلائق ، أو عبرة لمن تقدم ومن تأخر .

الفوائد : الأولى : قال القفال : إنما قال ﴿ميثاقكم﴾ ولم يقل « مواثيقكم » لأنه أراد ميثاق كل واحدٍ منكم كقوله ﴿ثم يخرجكم طفلاً﴾ أي يخرج كل واحدٍ منكم طفلاً .[2]

الثانية : قال بعض أهل اللطائف : كانت نفوس بني إسرائيل من ظلمات عصيانها تخبط في عشواء حالكة الجلباب ، وتخطر من غلوائها وعلوّها في حلتي كبرٍ وإعجاب ، فلما أُمروا بأخذ التوراة ورأوا ما فيها من أثقال ثارت نفوسهم فرفع الله عليهم الجبل فوجدوه أثقل مما كلِّفوه ، فهان عليهم حمل التوراة قال الشاعر :

إلى الله يُدعَى بالبراهينِ من أَبى ... فإن لم يجُبْ نادته بيض الصَّوارم[3]

الثالثة : إنما خصَّ المتقين بإضافة الموعظة إليهم ﴿وموعظة للمتقين﴾ لأنهم هم الذين ينتفعون بالعظة والتذكير قال تعالى ﴿وذكّرْ فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ .

---

(١) الفتوحات الإلهية ١/ ٦٣ . (٢) البحر المحيط ١/ ٢٤٣ . (٣) البحر المحيط ١/ ٢٤٥ .

قال الله تعالى ﴿وإذ قال موسى لقومه . . إلى . . وما الله بغافل عما تعملون﴾ من آية (٦٧) إلى نهاية اية (٧٤).

المناسبة : لما ذكر تعالى بعض قبائح اليهود وجرائمهم ، من نقض المواثيق ، واعتدائهم في السبت ، وتمردهم على الله عز وجل في تطبيق شريعته المنزلة ، أعقبه بذكر نوعٍ آخر من مساوئهم ألا وهو مخالفتهم للأنبياء وتكذيبهم لهم ، وعدم مسارعتهم لامتثال الأوامر التي يوحيها الله إليهم ، ثم كثرة اللجاج والعناد للرسل صلوات الله عليهم ، وجفاؤهم في مخاطبة نبيّهم الكريم موسى عليه السلام ، إلى آخر ما هنالك من قبائح ومساوىء .

اللغة : ﴿هزواً﴾ الهزؤ : السخرية بضم الزاي وقلب الهمزة واواً ﴿هُزُواً﴾ مثل ﴿كُفُواً أحد﴾ والمعنى على حذف مضاف أي أتخذنا موضع هزؤٍ ، أو يحمل المصدر على معنى اسم المفعول أي أتجعلنا مهزوءاً بنا ﴿فارض﴾ الفارض : الفتيَّة التي لم تلد من الصغر ، ولم يلقّحها الفحل لصغرها قال الشاعر :

لعمري لقد أعطيتَ ضيفكَ فارضاً تُساق إليه ما تقوم على رجل
ولم تعطه بكراً فيرضى سمينةً فكيف تُجازى بالمودة والفضل ؟[١]

﴿عوانٌ﴾ وسط ليست بمسنَّة ولا صغيرة ، وقيل هي التي ولدت بطناً أو بطنيْن، ﴿فاقع﴾ الفقوع : شدة الصفرة يقال : أصفر فاقع أي شديد الصفرة كما يقال : أحمر قانٍ أي شديد الحمرة قال الطبري : وهو نظير النصوع في البياض ﴿ذلول﴾ أي مذلّلة للعمل يقال : دابة ذلول أي ريّضة زالت صعوبتها فقوله ﴿لا ذلول﴾ أي لم تذلّل لإثارة الأرض أي لحرثها ﴿مسلّمة﴾ من السلامة أي خالصة ومبرأة من العيوب ﴿شية﴾ الشِّية : اللمعة المخالفة لبقية اللون الأصلي قال الطبري : ﴿لا شية فيها﴾ أي لا بياض ولا سواد يخالف لونها[٢] ﴿فادّارأتم﴾ أي تدافعتم واختلفتم وتنازعتم وأصلها تدارأتم أدغمت التاء في الدال ، وأُتي بهمزة الوصل ليتوصل بها إلى النطق بالساكن فصار ادّارأتم ، ومعنى الدرء : الدفع لأن كلاً من الفريقين كان يدرأ على الآخر أي يدفع وفي الحديث (ادرءوا الحدود بالشبهات) ﴿قست﴾ القسوة : الصلابة ونقيضها الرقة ﴿يشقق﴾ التشقق : التصدع بطولٍ أو عرض ﴿يهبط﴾ الهبوط : النزول من أعلى إلى أسفل .

« معجزة إحياء الميت وقصة البقرة »

ذكر القصة : روى ابن أبي حاتم عن عبيدة السلماني قال : « كان رجل من بني إسرائيل عقيماً لا يولد له وكان له مال كثير ، وكان ابن أخيه وارثه فقتله ثم احتمله ليلاً فوضعه على باب رجل منهم ، ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض ، فقال ذوو الرأي منهم والنُّهى : علام يقتل

(١) البحر المحيط ١/ ٢٤٨ . (٢) مختصر الطبري ١/ ٤٧ .

بعضنا بعضاً وهذا رسول الله فيكم ؟ فأتوا موسى عليه السلام فذكروا ذلك له فقال : ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ قال : ولو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة ، ولكنهم شدّدوا فشدَّد الله عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها ، فقال : والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهباً ، فاشتروها بملء جلدها ذهباً فذبحوها فضربوه ببعضها فقام ، فقالوا : من قتلك ؟ قال : هذا وأشار على ابن أخيه ثم مال ميتاً ، فلم يعط من ماله شيئاً فلم يورث قاتل بعد »[1] وفي رواية « فأخذوا الغلام فقتلوه » .

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾

التفسير : ﴿وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين قال لكم نبيكم موسى إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴿قالوا أتتخذنا هزواً﴾ أي فكان جوابكم الوقح لنبيكم أن قلتم : أتهزأ بنا يا موسى ﴿قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾ أي ألتجيء إلى الله أن أكون في زمرة المستهزئين الجاهلين ﴿قالوا ادع لنا ربك يبيِّنْ لنا ما هي﴾ أي ما هي هذه البقرة وأي شيء صفتها ؟ ﴿قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر﴾ أي لا كبيرة هرمة ، ولا صغيرة لم يلقحها الفحل ﴿عوانٌ بين ذلك﴾ أي وسط بين الكبيرة والصغيرة ﴿فافعلوا ما تؤمرون﴾ أي افعلوا ما أمركم به ربكم ولا تتعنتوا ولا تشدّدوا فيشدّد الله عليكم ﴿قالوا ادع لنا ربك يبينْ لنا ما لونها﴾ أي ما هو لونها أبيض أم أسود أم غير ذلك ؟ ﴿قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين﴾ أي إنها بقرة صفراء شديدة الصفرة ، حسن منظرها تسر كل من رآها . ﴿قالوا ادع لنا ربك يبيِّنْ لنا ما هي﴾ أعادوا السؤال عن حال البقرة بعد أن عرفوا سنها ولونها ليزدادوا بياناً لوصفها ، ثم اعتذروا بأن البقر الموصوف بكونه عواناً وبالصفرة الفاقعة كثيرٌ ﴿إن البقر تشابه علينا﴾ أي التبس الأمر علينا فلم ندر ما البقرة المأمور بذبحها ﴿وإنَّا إن شاء الله لمهتدون﴾ أي سنهتدي إلى معرفتها إن شاء الله ، ولو لم يقولوا ذلك لم يهتدوا إليها أبداً كما ثبت في الحديث ﴿قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلولٌ تثير الأرض ولا تسقي الحرث﴾ أي ليست هذه البقرة مسخرة لحراثة الأرض ، ولا لسقاية الزرع ﴿مسلّمة لا شية فيها﴾ أي سليمة من العيوب ليس فيها لونٌ آخر يخالف لونها فهي صفراء كلها ﴿قالوا الآن جئت بالحق﴾ أي الآن بينتها لنا بياناً شافياً لا غموض فيه ولا لبس قال تعالى

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٧٦ .

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾

إخباراً عنهم ﴿فذبحوها وما كادوا يفعلون﴾ لغلاء ثمنها أو خوف الفضيحة ثم أخبر تعالى عن سبب أمرهم بذبح البقرة ، وعما شهدوه من آيات الله الباهرة ، فقال ﴿وإذ قتلتم نفساً﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين قتلتم نفساً ﴿فادارأتم فيها﴾ أي تخاصمتم وتدافعتم بشأنها ، وأصبح كل فريق يدفع التهمة عن نفسه وينسبها لغيره ﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ أي مظهر ما تخفونه ﴿فقلنا اضربوه ببعضها﴾ أي اضربوا القتيل بشيء من البقرة يحيا ويخبركم عن قاتله ﴿كذلك يحي الله الموتى﴾ أي كما أحيا هذا القتيل أمام أبصاركم يحي الموتى من قبورهم ﴿ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾ أي يريكم دلائل قدرته لتتفكروا وتتدبروا وتعلموا أن الله على كل شيء قدير . ثم أخبر تعالى عن جفائهم وقسوة قلوبهم فقال ﴿ثم قست قلوبكم﴾ أي صلبت قلوبكم يا معشر اليهود فلا يؤثر فيها وعظٌ ولا تذكير ﴿من بعد ذلك﴾ أي من بعد رؤية المعجزات الباهرة ﴿فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾ أي بعضها كالحجارة وبعضها أشد قسوة من الحجارة كالحديد ﴿وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار﴾ أي تتدفق منها الأنهار الغزيرة ﴿وإن منها لما يشّقّق فيخرج منه الماء﴾ أي من الحجارة ما يتصدع إشفاقاً من عظمة الله فينبع منه الماء ﴿وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾ أي ومنها ما يتفتّت ويتردّى من رءوس الجبال من خشية الله ، فالحجارة تلين وتخشع وقلوبكم يا معشر اليهود لا تتأثر ولا تلين ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ أي أنه تعالى رقيب على أعمالهم لا تخفى عليه خافية ، وسيجازيهم عليها يوم القيامة ، وفي هذا وعيد وتهديد .

البلاغة : أولاً : قوله تعالى ﴿فذبحوها وما كادوا يفعلون﴾ من إيجاز القرآن أن حذف من صدر هذه الجملة جملتين مفهومتين من نظم الكلام والتقدير : فطلبوا البقرة الجامعة للأوصاف السابقة وحصلوها ، فلما اهتدوا إليها ذبحوها وهذا من الإيجاز بالحذف .

ثانياً : قوله تعالى ﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ هذه الجملة اعتراضية بين قوله ﴿فادارأتم﴾ وقوله ﴿فقلنا اضربوه﴾ والجملة المعترضة بين ما شأنهما الاتصال تجيء تحلية يزداد بها الكلام البليغ حسناً ، وفائدة

الاعتراض هنا إشعار المخاطبين بأن الحقيقة ستنجلي لا محالة .

ثالثاً : ﴿ثم قست قلوبكم﴾ وصف القلوب بالصلابة والغلظ يراد منه نبُوُّها عن الاعتبار، وعدم تأثرها بالمواعظ ففيه استعارة تصريحية قال أبو السعود : القسوة عبارة عن الغلظ والجفاء والصلابة كما في الحجر استعيرت لِنُبُوِّ قلوبهم عن التأثر بالعظات والقوارع التي تميع منها الجبال وتلين بها الصخور[١] .

رابعاً : ﴿فهي كالحجارة﴾ فيه تشبيه يسمى (مرسلاً مجملاً) لأن أداة الشبه مذكورة ووجه الشبه محذوف .

خامساً : ﴿لما يتفجر منه الأنهار﴾ أي ماء الأنهار ، والعرب يطلقون اسم المحل كالنهر على الحال فيه كالماء والقرينة ظاهرة لأن التفجر إنما يكون للماء ويسمى هذا مجازاً مرسلاً .

الفـوائـد : الفائدة الأولى : نبه قوله تعالى ﴿قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾ على أن الاستهزاء بأمرٍ من أمور الدين جهل كبير ، وقد منع المحققون من أهل العلم استعمال الآيات كأمثال يضربونها في مقام المزح والهزل ، وقالوا إنما أنزل القرآن للتدبر والخشوع لا للتسلي والتفكه والمزاح .

الثانية : الخطاب في قوله ﴿وإذ قتلتم نفساً﴾ لليهود المعاصرين للنبي ﷺ وقد جرى على الأسلوب المعروف في مخاطبة الأقوام ، إذ ينسب إلى الخلف ما فعل السلف إذا كانوا سائرين على نهجهم ، راضين بفعلهم ، وفيه توبيخ وتقريع للغابرين والحاضرين .

الثالثة : هذه الواقعة واقعة (قتل النفس) جرت قبل أمرهم بذبح البقرة ، وإن وردت في الذكر بعده ، والسرُّ في ذلك التشويقُ إلى معرفة السبب في ذبح البقرة ، والتكرير في التقريع والتوبيخ قال العلامة أبو السعود: وإنما غُيِّر الترتيب لتكرير التوبيخ وتثنية التقريع ، فإن كل واحدٍ من قتل النفس المحرمة ، والاستهزاء بموسى عليه السلام والافتيات على أمره جناية عظيمة جديرة بأن تنعى عليهم[٢] .

الرابعة : ذكر تعالى إحياء الموتى في هذه السورة الكريمة في خمسة مواضع : أ ـ في قوله ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾ ب ـ وفي هذه القصة ﴿فقلنا اضربوه ببعضها﴾ ج ـ وفي قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف ﴿فقال لهم الله موتوا ثمَّ أحياهم﴾ د ـ وفي قصة عزير ﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾ هـ ـ وفي قصة إبراهيم ﴿ ربّ أرني كيف تحيي الموتى﴾[٣]

الخامسة : ﴿ أوْ ﴾في قوله تعالى ﴿فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾ بمعنى « بَلْ » أي بل أشد قسوة كقوله تعالى ﴿وأرسلناه إلى مائة ألفٍ أو يزيدون﴾ وقال بعضهم : هي للترديد ، أو التخيير فمن عرف حالها شبهها بالحجارة أو بما هو أقسى كالحديد ،ومن لم يعرفها شبهها بالحجارة أو قال : هي أقسى من الحجارة .

---

(١) (٢) إرشاد العقل السليم ١/ ٩٠ . (٣) أفاده العلامة ابن كثير .

السادسة : ذهب بعض المفسرين إلى أن الخشية هنا حقيقية ، وأن الله تعالى جعل لهذه الأحجار خشية بقدرها كقوله تعالى ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ وقال آخرون : بل هو من باب المجاز كقول القائل : قال الحائط للمسمار لم تشقني ؟ قال : سل من يدقني والله أعلم ؟

* * *

قال الله تعالى ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم . . إلى . . فأولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ .

من آية (٧٥) إلى نهاية آية (٨٢) .

المناسبة : لما ذكر تعالى عناد اليهود ، وعدم امتثالهم لأوامر الله تعالى ، ومجادلتهم للأنبياء الكرام ، وعدم الانقياد والإذعان ، عقَّب ذلك بذكر بعض القبائح والجرائم التي ارتكبوها كتحريف كلام الله تعالى ، وادعائهم بأنهم أحباب الله ، وأن النار لن تمسَّهم إلا بضعة أيام قليلة ، إلى آخر ما هم عليه من أماني كاذبة ورثوها عن آبائهم وأجدادهم ، وقد بدأ تعالى الآيات بتيئيس المسلمين من إيمانهم لأنهم فطروا على الضلال ، وجبلوا على العناد والمكابرة .

اللغة : ﴿أفتطمعون﴾ الطمع : تعلق النفس بشيء مطلوب تعلقاً قوياً ، فإذا اشتد فهو طمع ، وإذا ضعف كان رجاءً ورغبةً ﴿فريق﴾ الفريق : الجماعةوهو اسم جمع لا واحد له من لفظه كالرهط والقوم.﴿يحرفونه﴾ التحريف : التبديل والتغيير وأصله من الانحراف عن الشيء ﴿عقلوه﴾ عقل الشيء أدركه بعقله والمراد فهموه وعرفوه ﴿أميون﴾ جمع أمي وهو الذي لا يحسن القراءة والكتابة ، سميٌّ بذلك نسبة إلى الأم ، لأنه باقٍ على ما ولدته عليه أمه من عدم المعرفة ﴿أمانيّ﴾ جمع أمنية وهي ما يتمناه الإنسان ويشتهيه ، أو يقدّره في نفسه من مُنى ولذلك تطلق على الكذب قال أعرابي لإنسان : « أهذا شيء رأيته أم تمنيته » أي اختلقته ، وتأتي بمعنى قرأ قال حسان : تمنّى كتاب الله أول ليلة ﴿فويل﴾ الويل : الهلاك والدمار وقيل : الفضيحة والخزي ، وهي كلمة تستعمل في الشر والعذاب قال القاضي : هي نهاية الوعيد والتهديد كقوله ﴿ويل للمطففين﴾ وقال سيبويه : ويلٌ لمن وقع في الهلكة ، وويح لمن أشرف عليها .

سبب النزول : ١ ـ نزلت في الأنصار كانوا حلفاء لليهود وبينهم جوارٌ ورضاعة وكانوا يودون لو أسلموا فأنزل الله تعالى ﴿أفتطمعون أن يؤ منوا لكم . .﴾[١] الآية .

٢ ـ وروى مجاهد عن ابن عباس أن اليهود كانوا يقولون : إن هذه الدنيا سبعة آلاف سنة ، وإنما نُعذب بكل ألف سنة يوماً في النار ، وإنما هي سبعة أيام معدودة فأنزل الله تعالى ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلاّ أياماً معدودة﴾[٢] .

(١) البحر المحيط ١/ ٢٧١. (٢) مختصر ابن كثير ١/ ٨٢ .

* أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا

التفسير : يخاطب الله تعالى عباده المؤمنين فيقول ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم﴾ أي أترجون يا معشر المؤمنين أن يسلم اليهود ويدخلوا في دينكم ﴿وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله﴾ أي والحال قد كان طائفة من أحبارهم وعلمائهم يتلون كتاب الله ويسمعونه بيناً جلياً ﴿ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه﴾ أي يغيّرون آيات التوراة بالتبديل أو التأويل ، من بعد ما فهموه وضبطوه بعقولهم ﴿وهم يعلمون﴾ أنهم يرتكبون جريمة أي أنهم يخالفونه على بصيرة لا عن خطأٍ أو نسيان ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا﴾ أي إذا اجتمعوا بأصحاب النبي ﷺ قال المنافقون من اليهود آمنا بأنكم على الحق ، وأن محمداً هو الرسول المبشَّر به ﴿وإذا خلا بعضهم إلى بعض﴾ أي إذا انفرد واختلى بعضهم ببعض ﴿قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾ أي قالوا عاتبين عليهم أتخبرون أصحاب محمد بما بيَّن الله لكم في التوراة من صفة محمد عليه السلام ﴿ليحاجوكم به عند ربكم﴾ أي لتكون الحجة للمؤمنين عليكم في الآخرة في ترك اتباع الرسول مع العلم بصدقه ﴿أفلا تعقلون﴾ ؟أي أفليست لكم عقول تمنعكم من أن تحدثوهم بما يكون لهم فيه حجة عليكم ؟ والقائلون ذلك هم اليهود لمن نافق منهم قال تعالى رداً عليهم وتوبيخاً ﴿أولاَ يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ أي ألا يعلم هؤلاء اليهود أن الله يعلم ما يخفون وما يظهرون ، وأنه تعالى لا تخفى عليه خافية ، فكيف يقولون ذلك ثم يزعمون الإيمان ! !

ولما ذكر تعالى العلماء الذين حرّفوا وبدّلوا ، ذكر العوام الذين قلدوهم ونبّه أنهم في الضلال سواء فقال : ﴿ومنهم أميّون لا يعلمون الكتاب﴾ أي ومن اليهود طائفة من الجهلة العوامّ ، الذين لا يعرفون القراءة والكتابة ليطلعوا على ما في التوراة بأنفسهم ويتحققوا بما فيها ﴿إلاّ أمانيّ﴾ أي إلاّ ما هم عليه من الأماني التي منّاهم بها أحبارهم ، من أن الله يعفو عنهم ويرحمهم ، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة ، وأن آباءهم الأنبياء يشفعــون لهم ، وأنهم أبناء الله وأحباؤه ، إلى غير ما هنالك من الأماني الفارغة ﴿وإن هم إلا يظنون﴾ أي ما هم على يقين من أمرهم ، بل هم مقلّدون للآباء تقليد أهل العمى والغباء . ثم ذكر تعالى جريمة أولئك الرؤساء المضلّين ، الذين أضلّوا العامة في سبيل حطام الدنيا فقال ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم﴾ أي هلاك وعذاب لأولئك الذين حرّفوا التوراة ، وكتبوا تلك الآيات المحرفة

يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَـٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾

بأيديهم ﴿ثم يقولـون هـذا من عنـد اللـه﴾ أي يقولون لأتباعهم الأميين هذا الذي تجدونه هو من نصوص التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام ، مع أنهم كتبوها بأيديهم ونسبوها إلى الله كذبـاً وزوراً ﴿ليشتروا بـه ثمنـاً قليـلاً﴾ أي لينالوا به عرض الدنيا وحطامها الفاني ﴿فويـل لهم ممّـا كتبت أيديهـم﴾ أي فشدة عذاب لهم على ما فعلوا من تحريف الكتاب ﴿وويل لهم مما يكسبون﴾ أي وويل لهم مما يصيبون من الحرام والسحت ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾ أي لن ندخل النار إلا أياماً قلائل، هي مدة عبادة العجل ، أو سبعة أيام فقط ﴿قـل اتخـذتم عنـد اللـه عهـداً﴾ أي قـل لهم يا محمد على سبيل الإنكار والتوبيخ : هل أعطاكم الله الميثاق والعهد بذلك ؟ فإذا كان قد وعدكم بذلك ﴿فلـن يخلـف اللـه عهـده﴾ لأن الله لا يخلف الميعاد ﴿أم تقولون علـى الله ما لا تعلمـون﴾ أي أم تكـذبون على الله فتقولون عليه ما لم يقله ، فتجمعون بين جريمة التحريف لكلام الله ، والكذب والبهتان عليه جل وعلا .

ثم بيَّـن تعالى كذب اليهود ، وأبطل مزاعمهم بأن النار لن تمسهم وأنهم لا يخلدون فيها فقـال : ﴿بلـى من كسـب سيئـة﴾ أي بلى تمسكم النار وتخلدون فيها ، كما يخلد الكافر الذي عمـل الكبائـر ، وكذلك كل من اقترف السيئات ﴿وأحاطـت به خطيئتـه﴾ أي غمرته من جميع جوانبـه ، وسـدّت عليه مسالك النجاة ، بأن فعل مثل فعلكم أيها اليهود ﴿فأولئـك أصحـاب النار هم فيـها خالدون﴾ أي فالنار ملازمة لهم لا يخرجون منها أبداً ﴿والذيـن آمنوا وعملـوا الصالحـات﴾ أي وأما المؤمنون الذين جمعوا بين الإيمان ، والعمل الصالح فلا تمسهم النار ، بل هم في روضات الجنات يحبرون ﴿أولئـك أصحـاب الجنة هم فيـها خالـدون﴾ أي مخلدون في الجنان لا يخرجون منها أبداً ، اللهم اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين .

البـَلاَغـَة : أولاً : قوله ﴿وهم يعلمون﴾ جملة مفيدة لكمال قبح صنيعهم ، فتحريفهم للتـوراة كان عـن قصد وتصميم لا عن جهل أو نسيان ، ومن يرتكب المعصية عن علم يستحق الذم والتوبيخ أكثر ممن يرتكبها وهو جاهل .

ثانياً : قوله ﴿يكتبون الكتاب بأيديهم﴾ ذكر الأيدي هنا لدفع توهم المجاز ، وللتأكيد بأن الكتابة باشروها بأنفسهم كما يقول القائل : كتبته بيميني ، وسمعته بأذني .

ثالثاً : قوله ﴿ما يسرون وما يعلنون﴾ فيه من المحسّنات البديعية ما يسمى بـ (الطباق) حيث جمع بين لفظتي « يسرون » و « يعلنون » وهو من نوع طباق الإيجاب .

رابعاً : التكرير في قوله ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب﴾ وقوله ﴿فويل لهم مما كتبت أيديهم﴾ وقوله ﴿وويل لهم مما يكتبون﴾ للتوبيخ والتقريع ولبيان أن جريمتهم بلغت من القبح والشناعة الغاية القصوى .

خامساً : قوله ﴿وأحاطت به خطيئته﴾ هو من باب الاستعارة حيث شبّه الخطايا بجيش من الأعداء نزل على قوم من كل جانب فأحاط به إحاطة السوار بالمعصم ، واستعار لفظة الإحاطة لغلبة السيئات على الحسنات ، فكأنها أحاطت بها من جميع الجهات[1] .

الفوائد : الفائدة الأولى : تحريف كلام الله يصدق بتأويله تأويلاً فاسداً ، ويصدق بمعنى التغيير وتبديل كلام بكلام ، وقد وقع من أحبار اليهود التحريف بالتأويل ، وبالتغيير ، كما فعلوا في صفته عليه السلام قال العلامة أبو السعود : روي أن أحبار اليهود خافوا زوال رياستهم فعمدوا إلى صفة النبي ﷺ في التوراة وكانت هي فيها « حسن الوجه ، حسن الشعر ، أكحل العينين ، أبيض، ربعة » فغيّروها وكتبوا مكانها « طوال ، أزرق ، سبط الشعر » فإذا سألهم العامة عن ذلك قرءوا ما كتبوا فيجدونه مخالفاً لما في التوراة فيكذبونه[2] .

الثانية : التحريف بقسميه وقع في الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل كما قال تعالى ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ أما التحريف بمعنى التأويل الباطل فقد وقع في القرآن من الجهلة أو الملاحدة ، وأما التحريف بمعنى إسقاط الآية ووضع كلام بدلها فقد حفظ الله منه كتابه العزيز ﴿إنّا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون﴾ .

الثالثة : روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال « لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاةٌ فيها سمٌّ ، فقال رسول الله ﷺ : اجمعوا لي من كان من اليهود هنا ، فقال لهم رسول الله : مَنْ أبوكم ؟ قالوا : فلان قال : كذبتم بل أبوكم فلان فقالوا : صدقتَ وبررت ثم قال لهم : هل أنتم صادقيَّ عن شيء إن سألتكم عنه ؟ قالوا نعم يا أبا القاسم ، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا ، فقال لهم رسول الله ﷺ : من أهل النار ؟ فقالوا : نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها ، فقال لهم رسول الله ﷺ : اخسئوا والله لا نخلفكم فيها أبداً ، ثم قال لهم رسول الله ﷺ : هل أنتم صادقيَّ عن شيء إن سألتكم عنه ؟ قالوا : نعم يا أبا القاسم ، قال : هل جعلتم في هذه الشاة سماً ؟ فقالوا نعم قال : فما حملكم على ذلك ؟ فقالوا : أردنا إن كنت كاذباً أن نستريح منك ، وإن كنت نبياً لم يضرك »[3] .

* * *

قال الله تعالى ﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله . . إلى . . ولا هم ينصرون﴾ .
من آية (٨٣) إلى نهاية آية (٨٦) .

(١) انظر تلخيص البيان ١/ ٨ . (٢) تفسير أبي السعود ١/ ٩٤ . (٣) مختصر ابن كثير ١/ ٨٢ .

المنَاسَبَة : لا تزال الآيات الكريمة تعدّد جرائم اليهود ، وفي هذه الآيات أمثلة صارخة على عدوانهم وطغيانهم وإفسادهم في الأرض ، فقد نقضوا الميثاق الذي أخذ عليهم في التوراة ، وقتلوا النفس التي حرّم الله ، واستباحوا أكل أموال الناس بالباطل ، واعتدوا على إخوانهم في الدين فأخرجوهم من الديار ، فاستحقوا اللعنة والخزي والدمار .

اللغَة : ﴿ميثاق﴾ الميثاق : العهد المؤكد باليمين غاية التأكيد ، فإن لم يكن مؤكداً سمي عهداً ﴿حسناً﴾ الحُسْنُ : اسم عام جامعٌ لمعاني الخير ، ومنه لين القول ، والأدب الجميل ، والخلق الكريم ، وضده القُبْح والمعنى : قولوا قولاً حُسْناً فهو صفة لمصدر محذوف ﴿توليتم﴾ التولّي عن الشيء : الإعراضُ عنه ورفضُه وعدم قبوله كقوله ﴿فأعرضْ عمن تولّى عن ذكرنا﴾ وفرّق بعضهم بين التولي والإعراض فقال : التولي بالجسم ، والإعراضُ بالقلب[1] ﴿تظاهرون﴾ تتعاونون وهو مضارع حذف منه أحد التاءين ، كأن المتظاهرين يسند كل واحد منهما ظهره إلى الآخر ، والظهير : المعين ﴿الإثم﴾ الذنب الذي يستحق صاحبه الملامة وجمعه آثام ﴿العدوان﴾ تجاوز الحد في الظلم ﴿خزي﴾ الخزي : الهوان والمقت والعقوبة .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ

التفسِير : ﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل﴾ أي اذكروا حين أخذنا على أسلافكم يا معشر اليهود العهد المؤكد غاية التأكيد ﴿لا تعبدون إلا الله﴾ بأن لا تعبدوا غير الله ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أي وأمرناهم بأن يحسنوا إلى الوالدين إحساناً ﴿وذي القربى واليتامى والمساكين﴾ أي وأن يحسنوا أيضاً إلى الأقرباء ، واليتامى الذين مات آباؤهم وهم صغار ، والمساكين الذين عجزوا عن الكسب ﴿وقولوا للناس حُسْناً﴾ أي قولاً حسناً بخفض الجناح ، ولين الجانب ، مع الكلام الطيّب ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أي صلوا وزكّوا كما فرض الله عليكم من أداء الركنين العظيمين « الصلاة ، والزكاة » لأنهما أعظم العبادات البدنية والمالية ﴿ثم توليتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون﴾ أي ثم رفضتم وأسلافكم الميثاق رفضاً باتاً ، وأعرضتم عن العمل بموجبه إلاّ قليلاً منكم ثبتوا عليه ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم﴾ أي واذكروا أيضاً يا بني إسرائيل حين أخذنا عليكم العهد المؤكد بأن لا يقتل بعضكم بعضاً ﴿ولا تخرجون أنفسكم من دياركم﴾ ولا يعتدي بعضكم على بعض بالإخراج من الديار ، والإجلاء

(١) البحر المحيط ١/ ٢٨١ .

﴿أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾

عن الأوطان ﴿ثم أقررتم وأنتم تشهدون﴾ أي ثمّ اعترفتم بالميثاق وبوجوب المحافظة عليه ، وأنتم تشهدون بلزومه ﴿ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم﴾ أي ثم نقضتم أيضاً الميثاق يا معشر اليهود بعد إقراركم به ، فقتلتم إخوانكم في الدين ، وارتكبتم ما نهيتم عنه من القتل ﴿وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم﴾ أي كما طردتموهم من ديارهم من غير التفاتٍ إلى العهد الوثيق ﴿تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان﴾ أي تتعاونون عليهم بالمعصية والظلم ﴿وإن يأتوكم أسارى تفادوهم﴾ أي إذا وقعوا في الأسر فاديتموهم ، ودفعتم المال لتخليصهم من الأسر ﴿وهو محرم عليكم إخراجهم﴾ أي فكيف تستبيحون القتل والإخراج من الديار ، ولا تستبيحون ترك الأسرى في أيدي عدوهم ؟ ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض﴾ ؟ أي أفتؤمنون ببعض أحكام التوراة وتكفرون ببعض ؟ والغرض التوبيخ لأنهم جمعوا بين الكفر والإيمان ، والكفر ببعض آيات الله كفرٌ بالكتاب كله ولهذا عقّب تعالى ذلك بقوله ﴿فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا﴾ أي ما عقوبة من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض إلا ذلٌ وهوان ، ومقتٌ وغضب في الدنيا ﴿ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب﴾ أي وهم صائرون في الآخرة إلى عذاب أشدّ منه ، لأنه عذاب خالد لا ينقضي ولا ينتهي ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ وفيه وعيد شديد لمن عصى أوامر الله ، ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك العصيان والعدوان فقال ﴿أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر من الأوصاف القبيحة هم الذين استبدلوا الحياة الدنيا بالآخرة بمعنى اختاروها وآثروها على الآخرة ﴿فلا يخفف عنهم العذاب﴾ أي لا يُفتَّر عنهم العذاب ساعة واحدة ﴿ولا هم ينصرون﴾ أي وليس لهم ناصر ينصرهم ، ولا مجير ينقذهم من عذاب الله الأليم .

تنبيه : كانت (بنو قريظة) و (بنو النضير) من اليهود ، فحالفت بنو قريظة الأوس ، وبنو النضير الخزرج ، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق من اليهود مع حلفائه ، فيقتل اليهودي أخاه اليهودي من الفريق الآخر ، ويخرجونهم من بيوتهم ، وينهبون ما فيها من الأثاث والمتاع والمال ، وذلك حرام عليهم في دينهم وفي نص التوراة ، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها افتكُّوا الأسارى من الفريق المغلوب عملاً بحكم التوراة ولهذا قال تعالى ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض﴾[1] .

---

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٨٥ .

البَلاَغَة : ١ - ﴿لا تعبدون إلا الله﴾ خبرٌ في معنى النهي ، وهو أبلغ من صريح النهي كما قال أبو السعود لما فيه من إيهام أن المنهيَّ حقه أن يسارع إلى الانتهاء فكأنه انتهى عنه ،فجاء بصيغة الخبر وأراد به النهي[١] .

٢ - ﴿وقولوا للناس حُسناً﴾ وقع المصدر موقع الصفة أي قولاً حسناً أو ذا حسنٍ للمبالغة فإن العرب تضع المصدر مكان اسم الفاعل أو الصفة بقصد المبالغة فيقولون : هو عدلٌ .

٣ - التنكير في قوله ﴿خزيٌ في الحياة الدنيا﴾ للتفخيم والتهويل .

٤ - ﴿تقتلون أنفسكم﴾ عبّر عن قتل الغير بقتل النفس لأن من أراق دم غيره فكأنما أراق دم نفسه فهو من باب المجاز لأدنى ملابسة .

٥ - ﴿أفتؤ منون﴾ الهمزة للإنكار التوبيخي .

الفَوَائِد : الفائدة الأولى : جاء الترتيب في الآية بتقديم الأهم فالأهم ، فقدّم حق الله تعالى لأنه المنعم في الحقيقة على العباد ، ثم قدم ذكر الوالدين لحقهما الأعظم في تربية الولد ، ثم القرابة لأن فيهم صلة الرحم وأجر الإحسان ، ثم اليتامى لقلة حيلتهم ، ثمّ المساكين لضعفهم ومسكنتهم .

الثانية : ﴿وقولوا للناس حُسْناً﴾ ولم يقل : وقولوا لإخوانكم أو قولوا للمؤ منين حسناً ليدل على أنّ الأمر بالإحسان عامٌ لجميع الناس ، المؤمن و الكافر ، والبر والفاجر ، وفي هذا حضٌ على مكارم الأخلاق ، بلين الكلام ، وبسط الوجه ، والأدب الجميل ، والخلق الكريم قال أحد الأدباء :

بُنيَّ إنَّ البرَّ شيءٌ هيِّنُ ... وجهٌ طليقٌ ولسانٌ ليِّنُ

* * *

قال الله تعالى : ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل . . إلى . . ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون﴾
من آية (٨٧) إلى نهاية آية (٩٢) .

اللغَة : ﴿الكتاب﴾ التوراة ﴿وقفينا﴾ أردفنا وأتبعنا وأصله من القفا يقال : قَفَاه إذا أتبعه ، وقفَّاه بكذا إذا أتبعه إياه ﴿البينات﴾ المعجزات الباهرات كإبراء الأكمه والأبرص ، وإحياء الموتى ﴿أيّدناه﴾ قويناه مأخوذ من الأيْد وهو القوة ﴿روح القدس﴾ جبريل عليه السلام ، والقدسُ : الطهر والبركة ﴿تهوى﴾ تحب من هَوِي إذا أحب ومصدره الهوى ﴿غلف﴾ جمع أغلف ، والغلاف : الغطاء ، يقال : سيف أغلف إذا كان في غلافه ، وقلب أغلف أي مستور عن الفهم والتمييز ، مستعار من الأغلف الذي لم

(١) تفسير أبي السعود ١/ ٩٦ .

يختن[1] ﴿لعنهم﴾ أصل اللعن في كلام العرب : الطردُ والإبعاد يقال : ذئب لعين أي مطرود مبعد والمراد : أقصاهم وأبعدهم عن رحمته ﴿يستفتحون﴾ يستنصرون من الاستفتاح وهو طلب الفتح أي النصرة ﴿بئسما﴾ أصلها بئس ما أي بئس الذي ، وبئس فعل للذم ، كما أنّ « نِعْم » للمدح ﴿بغياً﴾ البغي : الحسد والظلم ، وأصله الفساد من بغى الجرح إذا فسد قاله الأصمعي[2] ﴿باءوا﴾ رجعوا وأكثر ما يستعمل في الشر ﴿مهين﴾ مخزٍ مذل مأخوذ من الهوان بمعنى الذل .

المناسبة : لا تزال الآيات تتحدث عن بني إسرائيل ، وفي هذه الآيات الكريمة تذكير لهم بضربٍ من النعم التي أمدّهم الله بها ثم قابلوها بالكفر والإجرام ، كعادتهم في مقابلة الإحسان بالإساءة ، والنعمة بالكفران والجحود .

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا﴾

التفسير : ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ أي أعطينا موسى التوراة ﴿وقفينا من بعده بالرسل﴾ أي أتبعنا وأرسلنا على أثره الكثير من الرسل ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات﴾ أي أعطينا عيسى الآيات البينات والمعجزات الواضحات الدالة على نبوته ﴿وأيدناه بروح القدس﴾ أي قويناه وشددنا أزره بجبريل عليه السلام ﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم﴾ أي أفكلما جاءكم يا بني إسرائيل رسول بما لا يوافق هواكم ﴿استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون﴾ أي تكبرتم عن اتباعه فطائفة منهم كذبتموهم ، وطائفة قتلتموهم . . ثم أخبر تعالى عن اليهود المعاصرين للنبي ﷺ وبيّن ضلالهم في اقتدائهم بالأسلاف فقال حكاية عنهم ﴿وقالوا قلوبنا غلف﴾ أي في أكنة لا تفقه ولا تعي ما تقوله يا محمد ، والغرض إقناطه عليه السلام من إيمانهم ، قال تعالى رداً عليهم ﴿بل لعنهم الله بكفرهم﴾ أي طردهم وأبعدهم من رحمته بسبب كفرهم وضلالهم ﴿فقليلاً ما يؤمنون﴾ أي فقليلٌ من يؤمن منهم ، أو يؤمنون إيماناً قليلاً وهو إيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم بالبعض الآخر ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدقٌ لما معهم﴾ وهو القرآن العظيم الذي أنزل على خاتم المرسلين ، مصدقاً لما في التوراة ﴿وكانوا من قبلُ يستفتحون على الذين كفروا﴾ أي وقد كانوا قبل مجيئه يستنصرون به على أعدائهم ويقولون : اللهم انصرنا بالنبي المبعوث آخر الزمان ، الذي نجد نعته في التوراة ﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾ أي فلما بعث محمد ﷺ الذي عرفوه حق المعرفة كفروا برسالته ﴿فلعنة الله على الكافرين﴾ أي لعنة الله على اليهود الذين كفروا بخاتم

---

(١) الكشاف ١/ ١٢٢ . (٢) البحر المحيط ١/ ٢٩٨

ﭐشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩١﴾

* وَلَقَدۡ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾

المرسلين ﴿بئسما اشتروا به أنفسهم﴾ أي بئس الشيء التافه الذي باع به هؤلاء اليهود أنفسهم ﴿أن يكفروا بما أنزل الله﴾ أي كفرهم بالقرآن الذي أنزله الله ﴿بغياً﴾ أي حسداً وطلباً لما ليس لهم ﴿أن ينزّل الله من فضله على من يشاء من عباده﴾ أي حسداً منهم لأجل أن ينزّل الله وحياً من فضله على من يشاء ويصطفيه من خلقه ﴿فباءوا بغضب على غضب﴾ أي رجعوا بغضب من الله زيادة على سابق غضبه عليهم ﴿وللكافرين عذاب مهين﴾ أي ولهم عذاب شديد مع الإهانة والإذلال لأن كفرهم سببه التكبر والحسد فقوبلوا بالإهانة والصغار ﴿وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله﴾ أي آمنوا بما أنزل الله من القرآن وصدّقوه واتبعوه ﴿قالوا نؤمن بما أُنزل علينا﴾ أي يكفينا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة ﴿ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم﴾ أي يكفرون بالقرآن مع أنه هو الحق موافقاً لما معهم من كلام الله ﴿قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾ أي قل لهم يا محمد إذا كان إيمانكم بما في التوراة صحيحاً فلم كنتم تقتلون أنبياء الله من قبل إذا كنتم فعلاً مؤمنين ؟ ﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات﴾ أي بالحجج الباهرات ﴿ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون﴾ أي عبدتم العجل من بعد ذهابه إلى الطور ، وأنتم ظالمون في هذا الصنيع .

البلاغة : ١ - تقديم المفعول في الموضعين ﴿فريقاً كذبتم﴾ و﴿فريقاً تقتلون﴾ للإهتمام وتشويق السامع إلى ما يلقى إليه .

٢ - التعبير بالمضارع ﴿وفريقاً تقتلون﴾ ولم يقل قتلتم كما قال كذبتم ، لأن الفعل المضارع - كما هو المألوف في أساليب البلاغة - يستعمل في الأفعال الماضية التي بلغت من الفظاعة مبلغاً عظيماً ، فكأنه أحضر صورة قتل الأنبياء أمام السامع ، وجعله ينظر إليها بعينه ، فيكون إنكاره لها أبلغ ، واستفظاعه لها أعظم .

٣ - وضع الظاهر مكان الضمير ﴿فلعنة الله على الكافرين﴾ ولم يقل «عليهم» ليشعر بأن سبب حلول اللعنة هو كفرهم .

٤ - الخبر في قوله ﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات﴾ يراد به التبكيت والتوبيخ على عدم اتباع الرسول .

٥ ـ أسندت الإهانة إلى العذاب فقال ﴿عذاب مهين﴾ لأن الإهانة تحصل بعذابهم ، ومن أساليب البيان إسناد الأفعال إلى أسبابها .

فـائـدة : قال الحسن البصري : إنما سمي جبريل « روح القدس » لأن القدس هو الله ، وروحه جبريل ، فالإضافة للتشريف ، قال الرازي : ومما يدل على أن روح القدس جبريل قوله تعالى في سورة النحل ﴿قل نزّله روح القدس من ربك بالحق﴾[1] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم . . إلى . . فإن الله عدو للكافرين﴾
من آية (٩٣) إلى نهاية آية (٩٨) .

المناسبة : هذه طائفة أخرى من جرائم اليهود ، فقد نقضوا الميثاق حتى رفع جبلُ الطور عليهم وأمروا أن يأخذوا بما في التوراة ، فأظهروا القبول والطاعة ثم عادوا إلى الكفر والعصيان ، فعبدوا العجل من دون الله ، وزعموا أنهم أحباب الله ، وأن الجنة خالصة لهم من دون الناس لا يدخلها أحد سواهم ، وعادَوا الملائكة الأطهار وعلى رأسهم جبريل عليه السلام ، وكفروا بالأنبياء والرسل ، وهكذا شأنهم في سائر العصور والدهور .

اللغة : ﴿ميثاقكم﴾ الميثاق : العهد المؤكد بيمين ﴿الطور﴾ هو الجبل الذي كلّم الله عليه موسى عليه السلام ﴿بقوة﴾ بعزمٍ وجدّ ﴿أشربوا﴾ أُشرب : سُقي أي جعلت قلوبهم تُشربه ، يقال : أُشرب قلبُه حبّ كذا قال زهير :

فصحوتُ عنْها بعد حبٍّ داخلٍ … والحب تُشربُه فؤادَك داءُ[2]

﴿خالصة﴾ مصدر كالعافية والعاقبة بمعنى الخلوص أي خاصة بكم لا يشارككم فيها أحد ﴿أحرص﴾ الحرص : شدة الرغبة في الشيء وفي الحديث (إحرص على ما ينفعك) ﴿بمزحزحه﴾ الزحزحة : الإبعادُ والتنحية قال تعالى ﴿فمن زحزح عن النار﴾ أي أُبعد وقال الشاعر :

خليليَّ ما بال الدُّجَى لا يُزَحْزَحُ … وما بالُ ضوء الصبح لا يتوضّح[3]

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ﴾

التفسير : ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين أخذنا عليكم العهد المؤكد على العمل بما في التوراة ، ورفعنا فوقكم جبل الطور قائلين ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ أي بعزمٍ وحزم وإلاّ طرحنا الجبل فوقكم ﴿واسمعوا﴾ أي سماع طاعة وقبول ﴿قالوا سمعنا وعصينا﴾ أي سمعنا قولك ، وعصينا أمرك ﴿وأشربوا في قلوبهم العجل﴾ أي خالط حبُّه قلوبهم ، وتغلغل في

(١) محاسن التأويل ٢/ ١٨٦ . (٢) القرطبي ٢/ ٣١ . (٣) الفتوحات الاهية ١/ ٨٢

ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾

سويدائها والمراد أن حب عبادة العجل امتزج بدمائهم ودخل في قلوبهم، كما يدخل الصبغُ في الثوب، والماء في البدن ﴿بكفرهم﴾ أي بسبب كفرهم ﴿قل بئسما يأمركم به إيمانكم﴾ أي قل لهم على سبيل التهكم بهم بئس هذا الإيمان الذي يأمركم بعبادة العجل ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي إن كنتم تزعمون الإيمان فبئس هذا العمل والصنيع والمعنى : لستم بمؤمنين لأن الإيمان لا يأمر بعبادة العجل ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس﴾ أي قل لهم يا محمد إن كانت الجنة لكم خاصة لا يشارككم في نعيمها أحد كما زعمتم ﴿فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾ أي اشتاقوا الموت الذي يوصلكم إلى الجنة ، لأن نعيم هذه الحياة لا يساوي شيئاً إذا قيس بنعيم الآخرة . ومن أيقن أنه من أهل الجنة اشتاق إليها قال تعالى راداً عليهم تلك الدعوى الكاذبة ﴿ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم﴾ أي لن يتمنوا الموت ما عاشوا بسبب ما اجترحوه من الذنوب والآثام ﴿والله عليم بالظالمين﴾ أي عالم بظلمهم وإجرامهم وسيجازيهم على ذلك ﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا﴾ أي ولتجدنَّ اليهود أشدّ الناس حرصاً على الحياة ، وأحرص من المشركين أنفسهم ، وذلك لعلمهم بأنهم صائرون إلى النار لإجرامهم ﴿يود أحدهم لو يعمر ألف سنة﴾ أي يتمنى الواحد منهم أن يعيش ألف سنة ﴿وما هو بمزحزحه من العذاب أن يُعمَّر﴾ أي وما طول العمر - مهما عمّر - بمبعده ومنجيه من عذاب الله ﴿والله بصير بما يعملون﴾ أي مطّلع على أعمالهم فيجازيهم عليها ﴿قل من كان عدواً لجبريل﴾ أي قل لهم يا محمد من كان عدواً لجبريل فإنه عدو للّه ، لأن الله جعله واسطة بينه وبين رسله فمن عاداه فقد عادى الله ﴿فإنه نزّله على قلبك بإذن الله﴾ أي فإن جبريل الأمين نزّل هذا القرآن على قلبك يا محمد بأمر الله تعالى ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ أي مصدقاً لما سبقه من الكتب السماوية ﴿وهدى وبشرى للمؤمنين﴾ أي وفيه الهداية الكاملة ، والبشارة السارة للمؤمنين بجنات النعيم ﴿من كان عدواً للّه وملائكته ورسله وجبريل وميكال﴾ أي من عادى الله وملائكته ورسله ، وعادى على الوجه الأخص « جبريل وميكائيل » فهو كافر عدو للّه ﴿فإن الله عدو

للكافريـــن﴾ لأن الله يبغض من عادى أحداً من أوليائه ، ومن عاداهم عاداه الله ، ففيه الوعيد والتهديد الشديد .

سَبَبُ النّزول : روي أن اليهود قالوا للنبي ﷺ : إنه ليس نبيٌّ من الأنبياء إلا يأتيه ملك من الملائكة من عند ربه بالرسالة وبالوحي ، فمن صاحبُك حتى نتابعك ؟ قال : جبريل قالـوا : ذاك الـذي ينـزل بالحرب وبالقتال ذاك عدونا ! لو قلت : ميكائيل الذي ينزل بالقطر وبالرحمة تابعناك فأنزل الله ﴿قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزّله على قلبك . . .﴾[1] الآية .

البَـلاَغَـة : ١ ـ ﴿وأُشربوا في قلوبهم العجل﴾ فيه استعارة مكنية ، شبّـه حبَّ عبـادة العجـل بمشروب لذيذ سائغ الشراب ، وطوى ذكر المشبه به ورمز بشيء من لوازمـه وهـو الإشراب على طريق الاستعارة المكنية . قال في تلخيص البيان : « وهذه استعارة والمراد وصف قلوبهم بالمبالغة في حب العجل فكأنها تشربت حبه فمازجها ممازجة المشروب ، وخالطها مخالطة الشيء الملذوذ »[2] .

٢ ـ ﴿قل بئسما يأمركم به إيمانكم﴾ إسناد الأمر إلى الإيمان تهكمٌ بهم كقوله ﴿أصلاتك تأمرك﴾ وكذلك إضافة الإيمان إليهم ، أفاده الزمخشري .

٣ ـ التنكير في قوله ﴿على حياة﴾ للتنبيه على أن المراد بها حياة مخصوصة ، وهي الحياة المتطاولة التي يعمر فيها الشخص آلاف السنين .

٤ ـ ﴿فإن الله عدوٌ للكافرين﴾ الجملة واقعة في جواب الشرط وجيء بها إسمية لزيادة التقبيح لأنها تفيد الثبات ، ووضع الظاهر موضع الضمير فقال ﴿عدو للكافرين﴾ بدل عدوٌ لهم لتسجيل صفة الكفر عليهم ، وأنهم بسبب عداوتهم للملائكة أصبحوا من الكافرين .

٥ ـ ﴿وجبريل وميكال﴾ جاء بعد ذكر الملائكة فهـو من باب ذكر الخـاص بعـد العـام للتشريف والتعظيم .

الفَـوَائِـد : الأولى : ليس معنى السمع في قوله ﴿واسمعوا﴾ إدراك القول فقط ، بل المراد سماع ما أمروا به في التوراة سماع تدبرٍ وطاعةٍ والتزام فهو مؤكد ومقرر لقوله ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ .

الثانية : خصّ القلب بالذكر ﴿نزّله على قلبك﴾ لأنه موضع العقل والعلم وتلقي المعارف كما قال تعالى ﴿لهم قلوب لا يعقلون بها﴾ .

الثالثة : الحكمة في الإتيان هنا بـ « لن » ﴿ولن يتمنوه أبداً﴾ وفي الجمعة بـ « لا » ﴿ولا يتمنونه أبداً﴾ أن ادعاءهم هنا أعظم من ادعائهم هناك ، فإنهم ادعوا هنا اختصاصهم بالجنة ، وهناك كونهم أولياء

(١) رواه الترمذي وانظر القرطبي ٢/ ٣٦ . (٢) تلخيص البيان للشريف الرضي ص ٩ .

لله من دون الناس . فناسب هنا التوكيد بلن المفيدة للنفي في الحاضر والمستقبل ، وأما هناك فاكتفى بالنفي[١] .

الرابعة : الآية الكريمة من المعجزات لأنها إخبار بالغيب وكان الأمر كما أخبر ، ويكفي في تحقق هذه المعجزة أن لا يقع تمني الموت من اليهود الذين كانوا في عصره ﷺ وفي الحديث الشريف (لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار)[٢] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات . . إلى . . لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون﴾ من آية (٩٩) إلى نهاية آية (١٠٣) .

المناسبة : لما ذكر تعالى ما جبل عليه اليهود ، من خبث السريرة ونقض العهود ، والتكذيب لرسل الله ومعاداة أوليائه ، حتى انتهى بهم الحال إلى عداوة السفير بين الله وبين خلقه وهو « جبريل » الأمين عليه السلام ، أعقب ذلك ببيان أن من عادة اليهود عدم الوفاء بالعقود ، وتكذيب الرسل ، واتباع طرق الشعوذة والضلال ، وفي ذلك تسلية لرسول الله ﷺ حيث سلكوا معه هذه الطريقة ، في عدم الأخذ بما انطوى عليه كتاب الله من التبشير ببعثة السراج المنير ، وإلزامهم الإيمان به واتباعه ، فنبذوا الكتاب وراء ظهورهم ، واتبعوا ما ألقت إليهم الشياطين من كتب السحر والشعوذة ، ونسبوها إلى سليمان عليه السلام وهو منها بريء ، وهكذا حالهم مع جميع الرسل الكرام ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات .

اللغة : ﴿نبذ﴾ النبذ : الطرح والإلقاء ومنه سمي اللقيط منبوذاً لأنه ينبذ على الطريق قال الشاعر :

إنّ الذين أمرتهم أن يعدلوا نبذوا كتابك واستحلوا المَحْرما[٣]

﴿تتلو﴾ تحدّث وتروي من التلاوة بمعنى القراءة ، أو من التلاوة بمعنى الاتباع قال الطبري : ولقول القائل : « هو يتلو كذا » في كلام العرب معنيان : أحدهما الاتباع كما تقول : تلوت فلاناً إذا مشيت خلفه وتبعتَ أثره ، والآخر : القراءة والدراسة كقولك : فلان يتلو القرآن أي يقرؤه[٤] ﴿السحر﴾ قال الجوهري : كلُّ ما لطف مأخذه ودقّ فهو سحر ، وسحره أيضاً بمعنى خدَعه[٥] وفي الحديث (إنّ من البيان لسحراً) ﴿فتنة﴾ الفتنة : الابتلاء والاختبار ومنه قولهم : فتنتُ الذهب إذا امتحنته بالنار لتعرف سلامته أو غشه ﴿خلاق﴾ الخلاق : النصيب قال الزجاج : هو النصيب الوافر من الخير ، وأكثر ما يستعمل في الخير ﴿لمثوبة﴾ المثوبة : الثواب والجزاء .

---

(١) الصاوي على الجلالين ١/ ٤٩ . (٢) القرطبي ٢/ ٣٣ . (٣) القرطبي ٢/ ٤٠ . (٤) الطبري ٢/ ٤٠٧ . (٥) الصحاح للجوهري .

وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

التفسير : ﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات﴾ أي والله لقد أنزلنا إليك يا محمد آيات واضحات دالاّت على نبوتك ﴿وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾ أي وما يجحد بهذه الآيات ويكذب بها إلا الخارجون عن الطاعة الماردون على الكفر ﴿أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم﴾ أي أيكفرون بالآيات وهي في غاية الوضوح وكلّما أعطوا عهداً نقضه جماعة منهم ؟ ﴿بل أكثرهم لا يؤمنون﴾ أي بل أكثر اليهود لا يؤمن بالتوراة الإيمان الصادق لذلك ينقضون العهود والمواثيق ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله﴾ وهو محمد ﷺ ﴿مصدقٌ لما معهم﴾ أي مصدقاً للتوراة وموافقاً لها في أصول الدين ومقرراً لنبوة موسى عليه السلام ﴿نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم﴾ أي طرح أحبارهم وعلماؤهم التوارة وأعرضوا عنها بالكلية لأنها تدل على نبوة محمد ﷺ فجحدوا وأصروا على إنكار نبوته ﴿كأنهم لا يعلمون﴾ أي كأنهم لا يعلمون من دلائل نبوته شيئاً ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان﴾ أي اتبعوا طرق السحر والشعوذة التي كانت تحدثهم بها الشياطين في عهد ملك سليمان ﴿وما كفر سليمان﴾ أي وما كان سليمان ساحراً ولا كفر بتعلمه السحر ﴿ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر﴾ أي ولكنّ الشياطين هم الذين علموا الناس السحر حتى فشا أمره بين الناس ﴿وما أُنزل على المَلَكَيْن ببابلَ هاروتَ وماروتَ﴾ أي وكما اتبع رؤساء اليهود السحر كذلك اتبعوا ما أنزل على الملَكَيْن وهما هاروت وماروت بمملكة بابل بأرض الكوفة ، وقد أنزلهما الله ابتلاءً وامتحاناً للناس ﴿وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾ أي إن المَلَكَيْن لا يعلمان أحداً من الناس السحر حتى يبذلا له النصيحة ويقولا إن هذا الذي نصفه لك إنما هو امتحان من الله وابتلاء ، فلا تستعمله للإضرار ولا تكفر بسببه ، فمن تعلمه ليدفع ضرره عن الناس

فقد نجا ، ومن تعلمه ليلحق ضرره بالناس فقد هلك وضل . . قال تعالى ﴿**فيتعلمـون منهما ما يفرقون به بيـن المرء وزوجه**﴾ أي يتعلمون منهما من علم السحر ما يكون سبباً في التفريق بين الزوجين ، فبعد أن كانت المودة والمحبة بينهما يصبح الشقاق والفراق ﴿**وما هم بضارين به مـن أحد إلا بإذن اللـه**﴾ أي وما هم بما استعملوه من السحر يضرون أحداً إلا إذا شاء الله ﴿**ويتعلمون ما يضرهـم ولا ينفعهـم**﴾ أي والحال أنهم بتعلم السحر يحصلون على الضرر لا على النفع ﴿**ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خـلاق**﴾ أي ولقد علم اليهود الذين نبذوا كتاب الله واستبدلوا به السحر ، أنهم ليس لهم حظ من رحمة الله ولا من الجنة لأنهم آثروا السحر على كتاب الله ﴿**ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانـوا يعلمـون**﴾ أي ولبئس هذا الشيء الذي باعوا به أنفسهم لو كان لهم علم أو فهم وإدراك ﴿**ولو أنهـم آمنـوا واتقوا**﴾ أي ولو أن أولئك الذين يتعلمون السحر آمنوا بالله وخافوا عذابه ﴿**لمثوبة من عنـد الله خير لو كانـوا يعلمـون**﴾ أي لأثابهم الله ثواباً أفضل مما شغلوا به أنفسهم من السحر ، الذي لا يعود عليهم إلا بالويل والخسار والدمار .

سَبَبُ النّزول : لما ذكر رسول الله ﷺ سليمان في المرسلين ، قال بعض أحبار اليهود : ألا تعجبون لمحمد يزعم أن ابن داود كان نبياً ! ! والله ما كان إلا ساحراً فنزلت هذه الآية ﴿وما كفر سليمان ولكنّ الشياطين كفروا يعلّمون الناس **السحر**﴾[1] .

البَـلاَغَـة : ١ - ﴿رسولٌ من عند الله﴾ التنكير للتفخيم ووصفُ الرسول بأنه آتٍ من عند الله لإفادة مزيد التعظيم .

٢ - ﴿وراء ظهورهم﴾ مثلٌ يُضرب للإعراض عن الشيء جملةً تقول العرب : جعل هذا الأمر وراء ظهره أي تولى عنه معرضاً ، لأن ما يجعل وراء الظهر لا ينظر إليه ، فهو كناية عن الإعراض عن التوراة بالكلية .

٣ - ﴿لو كانوا يعلمون﴾ هذا جارٍ على الأسلوب المعروف في فنون البلاغة ، من أن العالم بالشيء إذا لم يجر على موجب علمه قد ينزّل منزلة الجاهل به ، وينفى عنه العلم كما ينفى عن الجاهلين .

٤ - ﴿لمثوبة من عند الله﴾ جيء بالجملة الإسمية بدل الفعلية للدلالة على الثبوت والاستقرار .

فَـائِـدَة : الحكمة من تعليم الملكين الناس السحر ، أن السحرة كثروا في ذلك العهد واخترعوا فنوناً غريبة من السحر ، وربما زعموا أنهم أنبياء ، فبعث الله تعالى **المَلَكيْن** ليعلما الناس وجوه السحر حتى يتمكنوا من التمييز بينه وبين المعجزة ، ويعرفوا أن الذين يدّعون النبـوة كذباً إنما هم سحرة لا أنبياء .

* * *

(١) زاد المسير ١/ ١٢٠ والقرطبي ٢/ ٤١ .

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا . . إلى . . إن الله بما تعملون بصير﴾ من آية (١٠٤) إلى نهاية آية (١١٠) .

المناسبة : لما ذكر تعالى قبائح اليهود ، وما اختصوا به من ضروب السحر والشعوذة ، أعقبه ببيان نوع آخر من السوء والشر ، الذي يضمرونه للنبيّ ﷺ والمسلمين ، من الطعن والحقد والحسد ، وتمني زوال النعمة عن المؤمنين ، واتخاذهم الشريعة الغراء هدفاً للطعن والتجريح بسبب النسخ لبعض الأحكام الشرعية .

اللغة : ﴿راعنا﴾ من المراعاة وهي الإنظار والإمهال ، وأصلها من الرعاية وهي النظر في مصالح الإنسان ، وقد حرفها اليهود فجعلوها كلمة مسبة مشتقة من الرعونة وهي الحُمْق ولذلك نهي عنها المؤمنون ﴿انظرنا﴾ من النظر والانتظار تقول : نظرتُ الرجل إذا انتظرته وارتقبته أي انتظرنا وتأنَّ بنا ﴿يود﴾ يتمنى ويحب ﴿ننسخ﴾ النسخ في اللغة : الإبطال والإزالة يقال : نسخت الشمس الظل أي أزالته وفي الشرع : رفع حكم شرعي وتبديله بحكم آخر ﴿نُنْسها﴾ من أنسى الشيءَ جعله منسياً فهو من النسيان الذي هو ضد الذكر أي نمحها من القلوب ﴿وليّ﴾ الولي : من يتولى أمور الإنسان ومصالحه ﴿نصير﴾ النصير : المعين مأخوذ من قولهم نصره إذا أعانه ﴿أم﴾ بمعنى بل وهي تفيد الانتقال من جملة إلى جملة كقوله تعالى ﴿أم يقولون افتراه﴾ أي بل يقولون ﴿يتبدل﴾ يقال : بدّل وتبدل واستبدل أي جعل شيئاً موضع آخر ، وتبدل الكفر بالايمان معناه أخذه بدل الإيمان ﴿سواء السبيل﴾ أي وسط الطريق ، والسواء من كل شيء : الوسط ، والسبيل معناه الطريق ﴿فاعفوا﴾ العفو : ترك المؤاخذة على الذنب ﴿واصفحوا﴾ والصفح : ترك التأنيب عنه .

سبب النزول : روي أن اليهود قالوا : ألا تعجبون لأمر محمد ؟ ! يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً ، فما هذا القرآن إلا كلام محمد يقوله من تلقاء نفسه ، يناقض بعضه بعضاً فنزلت[١] ﴿ما ننسخ من آية﴾[٢] .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ

التفسير : ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ هذا نداء من الله جل شأنه للمؤمنين يخاطبهم فيه فيقول ﴿لا تقولوا راعنا﴾ أي راقبنا وأمهلنا حتى نتمكن من حفظ ما تلقيه علينا ﴿وقولوا انظرنا﴾ أي انتظرنا وارتقبنا ﴿واسمعوا﴾ أي أطيعوا أوامر الله ولا تكونوا كاليهود حيث قالوا سمعنا وعصينا ﴿وللكافرين عذاب أليم﴾ أي ولليهود الذين نالوا من الرسول وسبّوه ، عذاب أليم موجع ﴿ما يود الذين كفروا من أهل

---

(١) الكشاف ١/ ١٣١ . (٢) انظر حكمة النسخ وتفصيل أحكامه في كتابنا « روائع البيان » ج ١ ص ١٠٠ .

أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾

الكتاب ولا المشركين أن ينزّل عليكم من خير من ربكم﴾ أي ما يحب الكافرون من اليهود والنصارى ولا المشركون أن ينزّل عليكم شيء من الخير ، بغضاً فيكم وحسداً لكم **﴿والله يختص برحمته من يشاء﴾** أي يختص بالنبوة والوحي والفضل والإحسان من شاء من عباده **﴿والله ذو الفضل العظيم﴾** والله واسع الفضل والإحسان ثم قال تعالى رداً على اليهود حين طعنوا في القرآن بسبب النسخ **﴿ما ننسخ من آية أو ننسها﴾** أي ما نبدّل من حكم آية فنغيره بآخر أو ننسها يا محمد أي نمحها من قلبك **﴿نأت بخيرٍ منها أو مثلها﴾** أي نأت بخير لكم منها أيها المؤمنون بما هو أنفع لكم في العاجل أو الآجل ، إما برفع المشقة عنكم ، أو بزيادة الأجر والثواب لكم **﴿ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير﴾** أي ألم تعلم أيها المخاطب أن الله عليم حكيم قدير ، لا يصدر منه إلا كل خير وإحسان للعباد ! ! **﴿ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض﴾** أي ألم تعلم أن الله هو المالك المتصرف في شئون الخلق يحكم بما شاء ويأمر بما شاء ؟ **﴿وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾** أي ما لكم وليٌّ يرعى شئونكم أو ناصر ينصركم غير الله تعالى فهو نعم الناصر والمعين **﴿أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل﴾** أي بل أتريدون يا معشر المؤمنين أن تسألوا نبيكم كما سأل قوم موسى نبيهم من قبل ويكون مثلكم مثل اليهود الذين قالوا لنبيهم **﴿أرنا الله جهرة﴾** فتضلوا كما ضلوا **﴿ومن يتبدل الكفر بالايمان﴾** أي يستبدل الضلالةبالهدى ويأخذ الكفر بدل الإيمان **﴿فقد ضلّ سواء السبيل﴾** أي فقد حاد عن الجادة وخرج عن الصراط السوي **﴿ودّ كثير من أهل الكتاب﴾** أي تمنى كثير من اليهود والنصارى **﴿لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً﴾** أي لو يصيّرونكم كفاراً بعد أن آمنتم **﴿حسداً من عند أنفسهم﴾** أي حسداً منهم لكم حملتهم عليه أنفسهم الخبيثة **﴿من بعد ما تبيّن لهم الحق﴾** أي من بعد ما ظهر لهم بالبراهين الساطعة أن دينكم هو الحق **﴿فاعفوا واصفحوا﴾** أي اتركوهم وأعرضوا عنهم فلا تؤاخذوهم **﴿حتى يأتي الله بأمره﴾** أي حتى يأذن الله لكم بقتالهم **﴿إن**

الله على كل شيء قدير﴾ أي قادر على كل شيء فينتقم منهم إذا حان الأوان ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أي حافظوا على عمودي الإسلام وهما « الصلاة والزكاة »وتقربوا إليه بالعبادة البدنية والمالية ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله﴾ أي ما تتقربوا إلى الله من صلاة أو صدقة أو عمل صالح فرضاً كان أو تطوعاً تجدوا ثوابه عند الله ﴿إن الله بما تعملون بصير﴾ أي رقيب عليكم مطلع على أعمالكم فيجازيكم عليها يوم الدين .

البَلاَغَة : ١ ـ الإضافة في قوله ﴿من ربكم﴾ للتشريف . وفيها تذكير للعباد بتربيته لهم .

٢ ـ تصدير الجملتين بلفظ الجلالة ﴿والله يختص﴾ ﴿والله ذو الفضل﴾ للإيذان بفخامة الأمر .

٣ ـ ﴿ألم تعلم﴾ الاستفهام للتقرير والخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته بدليل قوله تعالى ﴿وما لكم من دون الله﴾ .

٤ ـ وضع الاسم الجليل موضع الضمير ﴿إن الله﴾ و﴿من دون الله﴾ لتربية الروعة والمهابة في النفوس .

٥ ـ ﴿ضلّ سواء السبيل﴾ من إضافة الصفة للموصوف أي الطريق المستوي ، وفي التعبير به نهاية التبكيت والتشنيع لمن ظهر له الحق فعدل عنه إلى الباطل .

الفَوَائِد : الأولى : خاطب الله المؤمنين بقوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ في ثمانية وثمانين موضعاً من القرآن ، وهذا أول خطاب خوطب به المؤمنون في هذه السورة بالنداء الدال على الإقبال عليهم ، ونداء المخاطبين باسم المؤمنين يذكّرهم بأن الإيمان يقتضي من صاحبه أن يتلقى أوامر الله ونواهيه بحسن الطاعة والامتثال .

الثانية : نهي المسلمون أن يقولوا في خطاب النبي عليه السلام ﴿راعنا﴾ وأمروا بأن يقولوا مكانها ﴿انظرنا﴾ وفي ذلك تنبيه لأدبٍ جميل هو أن الإنسان يتجنب في مخاطباته الألفاظ التي توهم الجفاء أو التنقيص في مقام يقتضي إظهار المودة أو التعظيم .

الثالثة : كانت اليهود تستعمل كلمة ﴿راعنا﴾ يعنون بها المسبة والشتيمة وروى أن سعد بن معاذ سمعها منهم فقال يا أعداء الله : عليكم لعنة الله والذي نفسي بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله لأضربنَّ عنقه فقالوا : أولستم تقولونها ؟ فنزلت هذه الآية ﴿لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا﴾ .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى . . إلى . . إن الله سميع عليم﴾
من آية (١١١) إلى نهاية آية (١١٥)

المناسبة: في هذه الآيات الكريمة بيان آخر لأباطيل أهل الكتاب ، حيث ادعى كل من الفريقين اليهود والنصارى أن الجنة خاصة به وطعن في دين الآخر ، فاليهود يعتقدون بكفر النصارى وضلالهم ، ويكفرون بعيسى وبالإنجيل ، والنصارى يعتقدون بكفر اليهود لعدم إيمانهم بالمسيح وقد جاء لإتمام شريعتهم ، ونشأ عن هذا النزاع عداوة اشتدت بها الأهواء حتى صار كل فريق يطعن في دين الآخر ويزعم أن الجنة وقفٌ عليه ، فأكذب الله الفريقين ، وبيّن أن الجنة إنما يفوز بها المؤمن التقي الذي عمل الصالحات .

اللغة: ﴿هوداً﴾ أي يهوداً جمع هائد ، والهائد : التائب الراجع مشتق من هاد إذا تاب ﴿إنَّا هدنا إليك﴾،﴿أمانيهم﴾ جمع أمنية وهي ما يتمناه الإنسان ويشتهيه،﴿برهانكم﴾ البرهان : الدليل والحجة الموصلان إلى اليقين،﴿أسلم﴾ استسلم وخضع،﴿خرابها﴾ الخراب : الهدم والتدمير وهو حسّيٌ كتخريب بيوت الله ، ومعنوي كتعطيل إقامة الشعائر فيها،﴿خزي﴾ هوانٌ وذلة،﴿ثَمَّ﴾ بفتح الثاء أي هناك ظرفٌ للمكان،﴿وجه الله﴾ الوجه : الجهة والمراد بوجه الله : الجهة التي ارتضاها وأمر بالتوجه إليها .

سبب النزول: عن ابن عباس قال : لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ أتتهم أحبار اليهود فتنازعوا عند رسول الله ﷺ فقال رافع بن حرملة : ما أنتم على شيء وكفر بعيسى وبالإنجيل ، وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود : ما أنتم على شيء وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة فأنزل الله ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء﴾[1] الآية .

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا﴾

التفسير: ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾ أي قال اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً ، وقال النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً ﴿تلك أمانيُّهم﴾ أي تلك خيالاتهم وأحلامهم ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ أي قل لهم يا محمد أئتوني بالحجة الساطعة على ما تزعمون إن كنتم صادقين في دعواكم ﴿بلى من أسلم وجهه لله﴾ أي بلى يدخل الجنة من استسلم وخضع وأخلص نفسه لله ﴿وهو محسن﴾ أي وهو مؤمن مصدّقٌ متبعٌ لرسول الله ﷺ ﴿فله أجره عند ربه ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي فله ثواب عمله ولا خوف عليهم في الآخرة ولا يعتريهم حزنٌ أو كدر بل هم في نعيم مقيم ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء﴾ أي كفر اليهود بعيسى وقالوا ليس

(١) مختصر ابن كثير ١/١٠٨ .

﴿يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

النصارى على دين صحيح معتدٍ به فدينهم باطل ﴿**وقالت النصارى ليست اليهود على شيء**﴾ أي وقال النصارى في اليهود مثل ذلك وكفروا بموسى ﴿**وهم يتلون الكتاب**﴾ أي والحال أن اليهود يقرءون التوراة والنصارى يقرءون الإنجيل فقد كفروا عن علمٍ ﴿**كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم**﴾ أي كذلك قال مشركو العرب مثل قول أهل الكتاب قالوا : ليس محمد على شيء ﴿**فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون**﴾ أي يحكم بين اليهود والنصارى ويفصل بينهم بقضائه العادل فيما اختلفوا فيه من أمر الدين ﴿**ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه**﴾ استنكار واستبعاد لأن يكون أحد أظلم ممن فعل ذلك أي لا أحد أظلم ممن منع الناس من عبادة الله في بيوت الله ، وعمل لخرابها بالهدم كما فعل الرومان ببيت المقدس ، أو بتعطيلها من العبادة كما فعل كفار قريش ﴿**أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين**﴾ أي ما ينبغي لأولئك أن يدخلوها إلا وهم في خشية وخضوع فضلاً عن التجرؤ على تخريبها أو تعطيلها ﴿**لهم في الدنيا خزي**﴾ أي لأولئك المذكورين هوانٌ وذلة في الدنيا ﴿**ولهم في الآخرة عذاب عظيم**﴾ وهو عذاب النار . ﴿**ولله المشرق والمغرب**﴾ أي لله مكان شروق الشمس ومكان غروبها والمراد جميع الأرض ﴿**فأينما تولوا فثم وجه الله**﴾ أي إلى أي جهة توجهتم بأمره فهناك قبلته التي رضيها لكم ، وقد نزلت الآية فيمن أضاع جهة القبلة ﴿**إن الله واسع عليم**﴾ أي يسع الخلق بالجود والإفضال ، عليم بتدبير شئونهم ، لا تخفى عليه خافية من أحوالهم .

البَـلاَغَـة : ١ - ﴿تلك أمانيهم﴾ الجملة اعتراضية وفائدتها بيان بطلان الدعوى وأنها دعوى كاذبة .

٢ - ﴿قل هاتوا برهانكم﴾ الأمر هنا للتبكيت والتقريع .

٣ - ﴿من أسلم وجهه لله﴾ خص الوجه بالذكر لأنه أشرف الأعضاء والوجه ههنا (استعارة) أي من أقبل على عبادة الله وجعل توجهه إليه بجملته[1] .

٤ - ﴿عند ربه﴾ العندية للتشريف ووضع اسم الرب مضافاً إلى ضمير من أسلم موضع ضمير الجلالة لإظهار مزيد اللطف به .

---

(١) تلخيص البيان ص ١٠ .

٥ ـ ﴿قال الذين لا يعلمون﴾ فيه توبيخ عظيم لأهل الكتاب لأنهم نظموا أنفسهم ـ مع علمهم ـ في سلك من لا يعلم أصلاً .

٦ ـ ﴿ومن أظلم﴾ الاستفهام بمعنى النفي أي لا أحد أظلم منه .

٧ ـ ﴿لهم في الدنيا خزي﴾ التنكير للتهويل أي خزي هائل فظيع لا يكاد يوصف لهوله .

٨ ـ ﴿عليم﴾ صيغة فعيل للمبالغة .أي واسع العلم .

فائدة : قال الإمام الفخر : إسلام الوجه لله يعني إسلام النفس لطاعة الله وقد يكنى بالوجه عن النفس كما قال تعالى ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ وقال زيد بن نفيل :

وأسلمتُ وجهي لمن أسلمتْ ... له الأرضُ تحمل صخراً ثقالاً
وأسلمتُ وجهي لمن أسلمتْ ... له المُزْنُ تحمل عذباً زلالاً[1]

* * *

قال الله تعالى : ﴿وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه . . إلى . . ولا هم ينصرون﴾ من آية (١١٧) إلى نهاية آية (١٢٣) .

المناسبة : لمّا ذكر تعالى افتراء اليهود والنصارى وزعمهم أن الجنة خاصة بهم لا يشاركهم فيها أحد أعقبه بذكر بعض قبائحهم وقبائح المشركين في ادعائهم أنَّ لله ولداً حيث زعم اليهود أن عزيراً ابن الله ، وزعم النصارى أن المسيح ابن الله ، وزعم المشركون أن الملائكة بنات الله فأكذبهم الله وردّ دعواهم بالحجة الدامغة والبرهان القاطع .

اللغة : ﴿سبحانه﴾ سبحان مصدر سبّح بمعنى نزّه ومعناه التبرئة والتنزيه عما لا يليق بجلاله تعالى ﴿قانتون﴾ مطيعون خاضعون من القنوت وهو الطاعة والخضوع ﴿بديع﴾ البديع : المبدع من الإبداع،والإبداع : اختراع الشيء على غير مثال سبق ﴿قضى﴾ أراد وقدّر ﴿بشيراً﴾ البشير: المبشّر وهو المخبر بالأمر الصادق السار ﴿نذيراً﴾ النذير : المنذر وهو المخبر بالأمر المخوف ليحذر منه ﴿الجحيم﴾ المتأجج من النار ﴿ملّتهم﴾ أي دينهم وجمعها ملل وأصل الملّة : الطريقة المسلوكة ثم جعلت اسماً للشريعة التي أنزلها الله ﴿عدل﴾ فداء .

وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

التفسير : ﴿وقالوا اتخذ الله ولداً﴾ هو قول اليهود والنصارى والمشركين فاليهود قالوا : عزير ابن الله ، والنصارى قالوا : المسيح ابن الله،والمشركون قالوا : الملائكة بنات الله فأكذب الله الجميع في

(١) التفسير الكبير ٤/ ٤ .

وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ

دعواهم فقال ﴿سبحانه﴾ أي تقدس وتنزّه عما زعموا تنزهاً بليغاً ﴿بل له ما في السموات والأرض﴾ بل للإضراب أي ليس الأمر كما زعموا بل هو خالق جميع الموجودات التي من جملتها عزير والمسيح والملائكة ﴿كلٌ له قانتون﴾ أي الكل منقادون له لا يستعصي شيء منهم على تكوينه وتقديره ومشيئته ﴿بديع السموات والأرض﴾ أي خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق ﴿وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ أي إذا أراد إيجاد شيء حصل من غير امتناع ولا مهلة فمتى أراد شيئاً وجد بلمح البصر ، فمراده نافذ وأمره لا يتخلف ﴿وما أمرنا إلا واحدةٌ كلمحٍ بالبصر﴾ ﴿وقال الذين لا يعلمون﴾ المراد بهم جهلة المشركين وهم كفار قريش ﴿لولا يكلمنا الله﴾ أي هلاّ يكلمنا الله مشافهة أو بإنزال الوحي علينا بأنك رسوله ﴿أو تأتينا آية﴾ أي تكون برهاناً وحجة على صدق نبوتك ، قالوا ذلك استكباراً وعناداً ﴿كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم﴾ أي مثل هذا الباطل الشنيع قال المكذبون من أسلافهم لرسلهم ﴿تشابهت قلوبهم﴾ أي قلوب هؤلاء ومن قبلهم في العمى والعناد والتكذيب للأنبياء وفي هذا تسلية له ﷺ ﴿قد بيّنا الآيات لقوم يوقنون﴾ أي قد وضحنا الأدلة وأقمنا البراهين لقومٍ يطلبون الحق واليقين ، وكلها ناطقة بصدق ما جئت به ﴿إنّا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً﴾ أي أرسلناك يا محمد بالشريعة النيّرة والدين القويم بشيراً للمؤمنين بجنات النعيم ، ونذيراً للكافرين من عذاب الجحيم ﴿ولا تُسأل عن أصحاب الجحيم﴾ أي أنت لست مسئولاً عمن لم يؤمن منهم بعد أن بذلت الجهد في دعوتهم ﴿إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾ أي لن ترضى عنك الطائفتان « اليهود والنصارى » حتى تترك الإسلام المنير وتتبع دينهم الأعوج ﴿قل إن الهدى هدى الله﴾ أي قل لهم يا محمد إن الإسلام هو الدين الحق وما عداه فهو ضلال ﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم﴾ أي ولئن سايرتهم على آرائهم الزائفة وأهوائهم الفاسدة بعدما ظهر لك الحق بالبراهين الساطعة والحجج القاطعة ﴿ما لكَ من الله من ولي ولا نصير﴾ أي ليس لك من يحفظك أو يدفع عنك عقابه الأليم ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ مبتدأ وهم طائفة من اليهود والنصارى أسلموا ﴿يتلونه حق تلاوته﴾ أي يقرءونه قراءة حقة كما أنزل ﴿أولئك يؤمنون به﴾ هذا خبر المبتدأ أي فأولئك هم المؤمنون حقاً دون المعاندين المحرفين لكلام الله ﴿ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون﴾ أي ومن كفر بالقرآن فقد خسر دنياه وآخرته ﴿يا بني إسرائيل

هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾

اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ أي اذكروا نعمي الكثيرة عليكم وعلى آبائكم ﴿وأني فضلتكم على العالمين﴾ أي واذكروا تفضيلي لكم على سائر الأمم في زمانكم ﴿واتقوا يوماً لا تجزي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً﴾ أي خافوا ذلك اليوم الرهيب الذي لا تغني فيه نفس عن نفس ولا تدفع عنها من عذاب الله شيئاً ، لأن كل نفسٍ بما كسبت رهينة ﴿ولا يقبل منها عدل﴾ أي لا يقبل منها فداء ﴿ولا تنفعها شفاعة﴾ أي لا تفيدها شفاعة أحد لأنها كفرت بالله ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ ﴿ولا هم ينصرون﴾ أي لا يدفع عنهم أحد عذاب الله ولا يجيرهم من سطوة عقابه .

البَلاغَة : ١ ـ ﴿سبحانه﴾ جملة اعتراضية وفائدتها بيان بطلان دعوى الظالمين الذين زعموا لله الولد قال أبو السعود : وفيه من التنزيه البليغ من حيث الاشتقاق من « السَّبح » ومن جهة النقل إلى التفعيل « التسبيح » ومن جهة العدول إلى المصدر ما لا يخفى والمراد أنزهه تنزيهاً لائقاً به[١] .

٢ ـ ﴿كلٌ له قانتون﴾ صيغة جمع العقلاء في ﴿قانتون﴾ للتغليب أي تغليب العقلاء على غير العقلاء ، والتغليب من الفنون المعدودة في محاسن البيان .

٣ ـ التعبير عن الكافرين والمكذبين بكلمة ﴿أصحاب الجحيم﴾ إيذانٌ بأن أولئك المعاندين من المطبوع على قلوبهم فلا يرجى منهم الرجوع عن الكفر والضلال إلى الإيمان والإذعان .

٤ ـ إيراد الهدى معرفاً بأل في قوله ﴿هو الهدى﴾ مع اقترانه بضمير الفصل « هو » يفيد قصر الهداية على دين الله فهو من باب قصر الصفة على الموصوف فالإسلام هو الهدى كله وما عداه فهو هوى وعمى .

٥ ـ ﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾ هذا من باب التهييج والإلهاب .

تَنْبِيه : قال القرطبي : ﴿بديع السموات والأرض﴾ أي منشئها وموجدها ومبدعها ومخترعها على غير حدّ ولا مثال ، وكل من أنشأ ما لم يسبق إليه قيل له مبدع ، ومنه أصحاب البدع ، وسميت البدعة بدعة لأن قائلها ابتدعها من غير فعل أو مقال إمام وفي البخاري « نعمت البدعة هذه » يعني قيام رمضان . . ثم قال : وكل بدعة صدرت من مخلوق فلا يخلو أن يكون لها أصل في الشرع أولاً ؟ فإن كان لها أصل فهي في حيز المدح ويعضده قول عمر « نعمت البدعة هذه » وإلاّ فهي في حيز الذم والإنكار وقد بيّن هذا الحديث الشريف (من سنَّ في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها . . ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها . . »[٢] .

* * *

---

(١) تفسير أبي السعود ١/ ١١٧ . (٢) القرطبي ٢/ ٨٧ .

قال الله تعالى ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن . . إلى . . إنك أنت العزيز الحكيم﴾ من آية (١٢٤) إلى نهاية آية (١٢٩) .

المناسبة : بعد أن ذكر الله تعالى في الآيات السابقة نعمه على بني إسرائيل ، وبيّن كيف كانوا يقابلون النعم بالكفر والعناد ، ويأتون منكرات في الأقوال والأعمال ، وصل حديثهم بقصة ابراهيم أبي الأنبياء الذي يزعم اليهود والنصارى انتماءهم إليه ويقرون بفضله، ولو كانوا صادقين لوجب عليهم اتباع هذا النبي الكريم « محمد »ﷺ ودخولهم في دينه القويم لأنه أثر دعوة إبراهيم الخليل حين دعا لأهل الحرم ، ثم هو من ولد اسماعيل عليه السلام فكان أولى بالاتباع والتمسك بشريعته الحنيفية السمحة التي هي شريعة الخليل عليه السلام .

اللغة : ﴿ابتلى﴾ امتحن والابتلاء : الاختبار ﴿فأتمهن﴾ أتى بهن على التمام والكمال ﴿إماماً﴾ الإمام : القدوة الذي يؤتم به في الأقوال والأفعال ﴿مثابة﴾ مرجعاً من ثاب يثوب إذا رجع أي أنهم يترددون إليه لا يقضون منه وطرهم قال الشاعر :

جُعِلَ البيتُ مثاباً لهُمُ ليس منه الدهرَ يقضون الوطر

﴿وأمناً﴾ الأمن : السلامة من الخوف والطمأنينة في النفس والأهل ﴿وعهدنا﴾ أمرنا وأوحينا ﴿للطائفين﴾ جمع طائف من الطواف وهو الدوران حول الشيء ﴿والعاكفين﴾ جمع عاكف من العكوف وهي الإقامة على الشيء والملازمة له والمراد المقيمون في الحرم بقصد العبادة ﴿فأمتعه﴾ من التمتيع وهو إعطاء الإنسان ما ينتفع به ﴿قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار﴾ ﴿القواعد﴾ جمع قاعدة وهي الأساس ﴿مناسكنا﴾ جمع مَنْسك وهي العبادة والطاعة ﴿الحكمة﴾ العلم النافع المصحوب بالعمل والمراد بها السنة النبوية المطهرة ﴿ويزكيهم﴾ من التزكية وهي في الأصل التنمية يقال : زكى الزرع إذا نما ثم استعملت في معنى الطهارة النفسية قال تعالى ﴿قد أفلح من زكّاها﴾ .

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾

التفسير : ﴿وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمهن﴾ أي اذكر يا محمد حين اختبر الله عبده إبراهيم الخليل ، وكلّفه بجملة من التكاليف الشرعية « أوامر ونواهٍ » فقام بهن خير قيام ﴿قال إني جاعلك للناس إماماً﴾ أي قال له ربه إني جاعلك قدوة للناس ومناراً يهتدي بك الخلق ﴿قال ومن ذريتي﴾ أي قال إبراهيم واجعل يا ربّ أيضاً أئمة من ذريتي ﴿قال لا ينال عهدي الظالمين﴾ أي لا ينال هذا الفضل العظيم أحدٌ من الكافرين ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس﴾ أي واذكر حين جعلنا الكعبة المعظمة مرجعاً للناس يقبلون عليه من كل جانب ﴿وأمناً﴾ أي مكان أمن يأمن من لجأ إليه ، وذلك لما أودع الله في قلوب

وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

العرب من تعظيمه وإجلاله ﴿**واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى**﴾ أي وقلنا للناس اتخذوا من المقام - وهو الحجر الذي كان يقوم عليه إبراهيم لبناء الكعبة مصلّى أي صلوا عنده ﴿**وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل**﴾ أي أوصينا وأمرنا إبراهيم وولده إسماعيل ﴿**أن طهّرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود**﴾ أي أمرناهما بأن يصونا البيت من الأرجاس والأوثان ليكون معقلاً للطائفين حوله والمعتكفين الملازمين له والمصلين فيه ، فالآية جمعت أصناف العابدين في البيت الحرام : الطائفين ، والمعتكفين ، والمصلين . . ثم أخبر تعالى عن دعوة الخليل إبراهيم فقال ﴿**وإذ قال إبراهيم ربّ اجعل هذا بلداً آمناً**﴾ أي اجعل هذا المكان - والمراد مكة المكرمة - بلداً ذا أمن يكون أهله في أمنٍ واستقرار ﴿**وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر**﴾ أي وارزق يا رب المؤمنين من أهله وسكانه من أنواع الثمرات ، ليقبلوا على طاعتك ويتفرغوا لعبادتك وخصَّ بدعوته المؤمنين فقط قال تعالى جواباً له ﴿**قال ومن كفر فأمتعه قليلاً**﴾ أي قال الله وأرزق من كفر أيضاً كما أرزق المؤمن ،أأخلق خلقاً ثم لا أرزقهم ؟ أما الكافر فأمتعه في الدنيا متاعاً قليلاً وذلك مدة حياته فيها ﴿**ثم اضطره إلى عذاب النار**﴾ أي ثم أُلجئه في الآخرة وأسوقه إلى عذاب النار فلا يجد عنها محيصاً ﴿**وبئس المصير**﴾ أي وبئس المآل والمرجع للكافر أن يكون مأواه نار جهنم . قاس الخليل الرزق على الإمامة فنبهه تعالى على أن الرزق رحمة دنيوية شاملة للبرّ والفاجر بخلاف الإمامة فإنها خاصة بالخواص من المؤمنين ، ثم قال تعالى حكاية عن قصة بناء البيت العتيق ﴿**وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيلُ**﴾ أي واذكر يا محمد ذلك الأمر الغريب وهو رفع الرسولين العظيمين « إبراهيم وإسماعيل » قواعد البيت وقيامهما بوضع أساسه ورفع بنائه وهما يقولان بخضوع وإجلال ﴿**ربنا تقبّل منا إنك أنت السميع العليم**﴾ أي يبنيان ويدعوان بهذه الدعوات الكريمة قائلين يا ربنا تقبل منا أي إقبل منا عملنا هذا واجعله خالصاً لوجهك الكريم فإنك أنت السميع لدعائنا العليم بنياتنا ﴿**ربنا واجعلنا مسلِمَين لك**﴾ أي اجعلنا خاضعين لك منقادين لحكمك ﴿**ومن ذريتنا أمة مسلمة لك**﴾ أي واجعل من ذريتنا من يسلم وجهه لك ويخضع لعظمتك ﴿**وأرنا مناسكنا**﴾ أي وعلمنا شرائع عبادتنا ومناسك حجنا ﴿**وتب علينا**

إنك أنت التواب الرحيم﴾ أي تب علينا وارحمنا فإنك عظيم المغفرة واسع الرحمة ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم﴾ أي ابعث في الأمة المسلمة رسولاً من أنفسهم وهذا من جملة دعواتهما المباركة فاستجاب الله الدعاء ببعثة السراج المنير محمد ﷺ ﴿يتلو عليهم آياتك﴾ أي يقرأ آيات القرآن ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ أي يعلمهم القرآن العظيم والسنّة المطهرة ﴿ويزكيهم﴾ أي يطهرهم من رجس الشرك ﴿إنك أنت العزيز الحكيم﴾ العزيز الذي لا يُقهر ولا يُغلب ، الحكيم الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة .

البَــلاَغَــة : ١ ـ التعرض لعنوان الربوبية ﴿ابتلى ابراهيمَ ربُّه﴾ تشريف له عليه السلام وإيذان بأن ذلك الابتلاء تربية له وترشيح لأمر خطير ، والمعنى عامله سبحانه معاملة المختبر حيث كلفه بأوامر ونواهي يظهر بها استحقاقه للإمامة العظمى .

٢ ـ إيقاع المصدر موقع اسم الفاعل في قوله ﴿وأمناً﴾ للمبالغة والإسناد مجازيٌ أي آمناً من دخله كقوله تعالى ﴿ومن دخله كان آمناً﴾ وخيرُ ما فسرته بالوارد .

٣ ـ إضافة البيت إلى ضمير الجلالة ﴿وطهِّرْ بيتي﴾ للتشريف والتعظيم .

٤ ـ قوله تعالى ﴿وإذ يرفع إبراهيم﴾ ورد التعبير بصيغة المضارع حكاية عن الماضي ولذلك وجه معروف في محاسن البيان وهو استحضار الصورة الماضية وكأنها مشاهدة بالعيان فكأنَّ السامع ينظر ويرى إلى البنيان وهو يرتفع والبنّاء هو إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قال أبو السعود : وصيغة الاستقبال لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها العجيبة المنبئة عن المعجزة الباهرة[1] .

٥ ـ ﴿التواب الرَّحيم﴾ صيغتان من صيغ المبالغة لأن فعال وفعيل من صيغ المبالغة .

الفَــوَائِــد : الفائدة الأولى : تقديم المفعول في قوله ﴿ابتلى إبراهيمَ ربُّه﴾ واجب لاتصال الفاعل بضمير يعود على المفعول ، فلو قُدّم الفاعل لزم عود الضمير على متأخر لفظاً ورتبةً قال ابن مالك :

وشاعَ نحو خاف ربَّه عمر   وشذّ نحو زان نورُه الشجر

الثانية : الاختبار في الأصل الامتحان بالشيء ليعلم صدق ذلك الشخص أو كذبه وهو مستحيل على الله لأنه عالم بذلك قبل الاختبار ، فالمراد أنه عامله معاملة المختبر ليظهر ذلك للخلق .

الثالثة : اختلف المفسرون في الكلمات التي اختبر الله بها إبراهيم عليه السلام وأصح هذه الأقوال ما روي عن ابن عباس أنه قال : « الكلمات التي ابتلى الله بهن إبراهيم فأتمهن : فراق قومه في الله حين أمر بمفارقتهم ، ومحاجة نمرود في الله ، وصبره على قذفهم إياه في النار ليحرقوه ، والهجرة من وطنه حين أمر بالخروج عنهم ، وما ابتلى به من ذبح ابنه حين أمر بذبحه »[2] .

---

(١) تفسير أبي السعود ١/ ١٢٤ . (٢) الدر المنثور ١/ ١١

الرابعة : المراد من الإمامة في الآية الكريمة «الإمامة في الدين» وهي النبوة التي حرمها الظالمون ، ولو كانت الإمامة الدنيوية لخالف ذلك الواقع إذ نالها كثير من الظالمين ، فظهر أن المراد الإمامة في الدين خاصة .

الخامسة : ذكر العلامة ابن القيم أن السرَّ في تفضيل البيت العتيق ظاهر في انجذاب الأفئدة ، وهوى القلوب ومحبتها له ، فجذبه للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد ، فهم يثوبون إليه من جميع الأقطار ولا يقضون منه وطراً ، بل كلما ازدادوا له زيارة ، ازدادوا له اشتياقاً .

لا يرجع الطرف عنها حين يبصرها حتى يعود إليها الطرف مشتاقاً [١]

* * *

قال الله تعالى : ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه . . إلى . . ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ من آية (١٣٠) إلى نهاية آية (١٣٤)

المناسبة : لما ذكر تعالى مآثر الخليل إبراهيم عليه السلام ، وقصة بنائه للبيت العتيق منار التوحيد ، أعقبه بالتوبيخ الشديد للمخالفين لملة الخليل من اليهود والنصارى والمشركين ، وأكّد أنه لا يرغب عن ملته إلا كل شقي سفيه الرأي ، خفيف العقل ، متبع لخطوات الشيطان .

اللغة : ﴿سفه نفسه﴾ امتهنها واستخفّ بها وأصل السفه : الخفة ومنه زمام سفيه أي خفيف ﴿اصطفيناه﴾ أي جعلناه صافياً من الأدناس مشتق من الصفوة ومعناه تخير الأصفى والمراد اصطفاؤه بالرسالة والخلّة والإمامة العظمى ﴿وصّى﴾ التوصية : إرشاد الغير إلى ما فيه صلاح وقربة ﴿شهداء﴾ جمع شاهد أي حاضر ﴿خلت﴾ مضت وانقرضت .

وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ

التفسير : ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه﴾ أي لا يرغب عن دين إبراهيم وملته الواضحة الغراء إلا من استخفّ نفسه وامتهنها ﴿ولقد اصطفيناه في الدنيا﴾ أي اخترناه من بين سائر الخلق بالرسالة والنبوة والإمامة ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ أي من المقربين الذين لهم الدرجات العلى ﴿إذ قال له ربُّه أسلم﴾ أي استسلم لأمر ربك وأخلصْ نفسك له ﴿قال أسلمت لرب العالمين﴾ أي استسلمت لأمر الله وخضعتُ لحكمه ﴿ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب﴾ أي وصّى الخليل أبناءه باتباع

(١) محاسن التأويل ٢/ ٢٤٧ .

﴿يَـٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾

ملته وكذلك يعقوب أوصى بملة إبراهيم ﴿يا بنيّ إن الله اصطفى لكم الدين﴾ أي اختار لكم دين الإسلام ديناً وهذا حكاية لما قال إبراهيم ويعقوب لأبنائهما ﴿فلا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون﴾ أي اثبتوا على الإسلام حتى يدرككم الموت وأنتم متمسكون به ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوبَ الموتُ﴾ أي بل أكنتم شهداء حين احتضر يعقوب وأشرف على الموت وأوصى بنيه باتباع ملة إبراهيم ﴿إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي﴾ ؟ أي أيَّ شيء تعبدونه بعدي ؟ ﴿قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً﴾ أي لا نعبد إلا إلهاً واحداً هو الله رب العالمين إله آبائك وأجدادك السابقين ﴿ونحن له مسلمون﴾ أي نحن له وحده مطيعون خاضعون ، والغرض تحقيق البراءة من الشرك ، قال تعالى مشيراً إلى تلك الذرية الطيبة ﴿تلك أمة قد خلت﴾ والإشارة إلى إبراهيم وبنيه أي تلك جماعة وجيل قد سلف ومضى ﴿لها ما كسبت ولكم ما كسبتم﴾ أي لها ثواب ما كسبت ولكم ثواب ما كسبتم ﴿ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ أي لا تسألون يوم القيامة عما كانوا يعملون في الدنيا بل كل نفسٍ تتحمل وحدها تبعة ما اكتسبت من سوء .

البَــلاَغَــة : ١ ـ ﴿ومن يرغب﴾ استفهام يراد به الإنكار والتقريع ، وقع فيه معنى النفي أي لا يرغب عن ملة إبراهيم إلا السفيه والجملة واردة مورد التوبيخ للكافرين .

٢ ـ التأكيد بـ « إنّ » و « اللام » ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ لأنه لما كان إخباراً عن حالة مغيبة في الآخرة احتاجت إلى تأكيد بخلاف حال الدنيا فإنه معلوم ومشاهد .

٣ ـ ﴿إذ قال له ربه أسلم﴾ هو من باب الالتفات إذ السياق ﴿إذ قلنا﴾ والالتفات من محاسن البيان ، والتعرض بعنوان الربوبية ﴿ربُّه﴾ لإظهار مزيد اللطف والإعتناء بتربيته كما أن جواب إبراهيم جاء على هذا المنوال ﴿أسلمت لرب العالمين﴾ ولم يقل : أسلمتُ لك للإيذان بكمال قوة إسلامه وللإشارة إلى أن من كان رباً للعالمين لا يليق إلا أن يُتلقّى أمرُه بالخضوع وحسن الطاعة .

٤ ـ قوله ﴿آبائك﴾ شمل العم والأب والجد ، فالجد إبراهيم والعم إسماعيل والأب إسحاق وهو من باب « التغليب » وهو من المجازات المعهودة في فصيح الكلام .

فَــائِــدَة : قال أبو حيان : « كنّى بالموت عن مقدماته لأنه إذا حضر الموت نفسُه لا يقول المحتضر شيئاً ، وفي قوله ﴿حضر الموتُ﴾ كناية غريبة وهو أنه غائب ولا بدّ أن يقدم ولذلك يقال في الدعاء : واجعل الموت خير غائب ننتظره »[١] .

(١) البحر المحيط ١/ ٤٠١ .

تنبيه : ظاهر قوله تعالى ﴿ولا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون﴾ النهي عن الموت إلا على هذه الحالة من الإسلام ، والمقصود الأمر بالثبات على الإسلام إلى حين الموت ، أي فاثبتوا على الإسلام ولا تفارقوه أبداً واستقيموا على محجته البيضاء حتى يدرككم الموت وأنتم على الإسلام الكامل كقولك لا تصلّ إلا وأنت خاشع .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا . . إلى . . ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ من آية (١٣٥) إلى نهاية آية (١٤١) .

المناسبة : لما ذكر تعالى أن ملة إبراهيم هي ملة الحنيفية السمحة ، وأن من لم يؤمن بها ورغب عنها فقد بلغ الذروة العليا في الجهالة والسفاهة ، ذكر تعالى ما عليه أهل الكتاب من الدعاوى الباطلة من زعمهم أن الهداية في اتباع اليهودية والنصرانية ، وبيّن أن تلك الدعوى لم تكن عن دليل أو شبهة بل هي مجرد جحود وعناد ، ثم عقب ذلك بأن الدين الحق هو في التمسك بالإسلام ، دين جميع الأنبياء والمرسلين .

اللغة : ﴿حنيفاً﴾ الحنيف : المائل عن الدين الباطل إلى الدين الحق ، والحنفُ الميل وبه سمي الأحنف لميلٍ في إحدى قدميه قال الشاعر :

ولكنّا خُلقنا إذ خُلقنا حنيفاً ديننُا عن كلِ دين[1]

﴿الأسباط﴾ جمع سِبْط وهم حفدةُ يعقوب أي ذريات أبنائه وكانوا اثني عشر سبطاً وهم في بني إسرائيل كالقبائل في العرب ﴿شقاق﴾ الشقاق : المخالفة والعداوة وأصله من الشق وهو الجانب أي صار هذا في شق وهذا في شق ﴿فسيكفيكهم﴾ من الكفاية بمعنى الوقاية ﴿صبغة الله﴾ الصبغة مأخوذة من الصَّبْغ وهو تغيير الشيء بلونٍ من الألوان والمراد بها الدِّينُ ﴿أتحاجوننا﴾ أتجادلوننا من المحاجّة وهي المجادلة ﴿مخلصون﴾ الإخلاص أن يقصد بالعمل وجه الله وحده .

وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا

التفسير : ﴿وقالوا كانوا هوداً أو نصارى تهتدوا﴾ أي قال اليهود كونوا على ملتنا يهوداً تهتدوا وقال النصارى كونوا نصارى تهتدوا فكلٌ من الفريقين يدعو إلى دينه المعوج ﴿قل بل ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ أي قل لهم يا محمد بل نتّبع ملة الحنيفيّة السمحة وهي ملة إبراهيم حال كونه مائلاً عن الأديان كلها إلى الدين القيم وما كان إبراهيم من المشركين بل كان مؤمناً موحّداً وفيه تعريض بأهل الكتاب وإيذان بأنَّ ما هم عليه إنما هو شرك وضلال . ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا﴾ أي قولوا أيها

(١) الكشاف ١/ ١٤٥ .

﴿بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾

المؤمنون آمنا بالله وما أنزل إلينا من القرآن العظيم **﴿وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾** أي وآمنا بما أنزل إلى إبراهيم من الصحف والأحكام التي كان الأنبياء متعبدين بها وكذلك حفدة إبراهيم وإسحاق وهم الأسباط حيث كانت النبوة فيهم **﴿وما أوتي موسى وعيسى﴾** أي من التوراة والإنجيل **﴿وما أوتي النبيّون من ربهم﴾** أي ونؤمن بما أنزل على غيرهم من الأنبياء جميعاً ونصدّق بما جاءوا به من عند الله من الآيات البينات والمعجزات الباهرات **﴿لا نفرّق بين أحد منهم﴾** أي لا نؤمن بالبعض ونكفر بالبعض كما فعلت اليهود والنصارى **﴿ونحن له مسلمون﴾** أي منقادون لأمر الله خاضعون لحكمه **﴿فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا﴾** أي إن آمن أهل الكتاب بنفس ما آمنتم به معشر المؤمنين فقد اهتدوا إلى الحق كما اهتديتم **﴿وإن تولوا فإنما هم في شقاق﴾** أي وإن أعرضوا عن الإيمان بما دعوتهم إليه فاعلم أنهم إنما يريدون عداوتك وخلافك ، وليسوا من طلب الحق في شيء **﴿فسيكفيكهم الله﴾** أي سيكفيك يا محمد شرهم وأذاهم ويعصمك منهم **﴿وهو السميع العليم﴾** أي هو تعالى يسمع ما ينطقون به ويعلم ما يضمرونه في قلوبهم من المكر والشر **﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة﴾** أي ما نحن عليه من الإيمان هو دين الله الذي صبغنا به وفطرنا عليه فظهر أثره علينا كما يظهر الصبغ في الثوب ، ولا أحد أحسن من الله صبغةً أي ديناً **﴿ونحن له عابدون﴾** أي ونحن نعبده جلّ وعلا ولا نعبد أحداً سواه **﴿قل أتحاجوننا في الله﴾** أي أتجادلوننا في شأن الله زاعمين أنكم أبناء الله وأحباؤه ، وأن الأنبياء منكم دون غيركم ؟ **﴿وهو ربنا وربكم﴾** أي ربٌّ الجميع على السواء وكلُّنا عبيده **﴿ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾** أي لنا جزاء أعمالنا ولكم جزاء أعمالكم لا يتحمل أحد وزر غيره **﴿ونحن له مخلصون﴾** أي قد أخلصنا الدين والعمل لله **﴿أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى﴾** ؟ أي أم تدّعون يا معشر أهل الكتاب أن هؤلاء الرسل وأحفادهم كانوا يهوداً أو نصارى **﴿قل**

أأنتم أعلم أم الله﴾ أي هل أنتم أعلم بديانتهم أم الله ؟ وقد شهد الله لهم بملة الإسلام وبرأهم من اليهودية والنصرانية ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً﴾ فكيف تزعمون أنهم على دينكم ؟ ﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله﴾ أي لا أحد أظلم ممّن أخفى وكتم ما اشتملت عليه آيات التوراة والإنجيل من البشارة برسول الله ، أو لا أحد أظلم ممن كتم ما أخبر الباري عنه من أن الأنبياء الكرام كانوا على الإسلام ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ أي مطلع على أعمالهم ومجازيهم عليها وفيه وعيد شديد ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ كرّرها لأنها تضمنت معنى التهديد والتخويف ، أي إذا كان أولئك الأنبياء على فضلهم وجلالة قدرهم يجازون بكسبهم فأنتم أحرى ، وقد تقدم تفسيرها فأغنى عن الإعادة .

البَــلاَغَــة : ١ ـ ﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى﴾ فيه إيجاز بالحذف أي قال اليهود كونوا يهوداً وقال النصارى كونوا نصارى ، وليس المعنى أن الفريقين قالوا ذلك لأن كل فريق يعدُّ دين الآخر باطلاً .

٢ ـ ﴿فسيكفيكهم الله﴾ فيه إيجاز ظاهر أي يكفيك الله شرهم ، وتصدير الفعل بالسين دون سوف مشعر بأن ظهوره عليهم واقع في زمن قريب .

٣ ـ ﴿السميع العليم﴾ من صيغ المبالغة ومعناه الذي أحاط سمعه وعلمه بجميع الأشياء .

٤ ـ ﴿صبغة الله﴾ سمي الدين صبغةً بطريق الاستعارة حيث تظهر سمته على المؤمن كما يظهر أثر الصبغ في الثوب[١] .

٥ ـ ﴿أتجادلوننا في الله﴾ الاستفهام وارد على جهة التوبيخ والتقريع .

الفَــوَائِـد : الفائدة الأولى : تكرر ورود هذه الآية في مواطن من القرآن ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ قال أبو حيان : ولا تأتي الجملة إلا عقب ارتكاب معصية فتجيء متضمنة وعيداً ومعلمة أن الله لا يترك أمرهم سدى[٢] .

الثانية : قال ابن عباس : إن النصارى كان إذا ولد لأحدهم ولد فأتى عليه سبعة أيام صبغوه في ماءٍ لهم يقال له : المعمودي ليطهروه بذلك ، ويقولون هذا طهور مكان الختان فإذا فعلوا ذلك صار نصرانياً حقاً فأنزل الله هذه الآية[٣] .

الثالثة : كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسّرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله ﷺ : (لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا : آمنا بالله وما أُنزل إلينا) رواه البخاري .

* * *

(١) تلخيص البيان ص ١١ . (٢) البحر المحيط ١/ ٤١٦ . (٣) أسباب النزول للواحدي ص ٢٢ .

قال الله تعالى : ﴿سيقول السفهاء من الناس . . إلى . . وما الله بغافل عما يعملون﴾

من آية (١٤٤) إلى نهاية آية (١٤٥).

المناسبة : زعم اليهود والنصارى أن إبراهيم والأنبياء معه كانوا يهوداً و نصارى وقد كانت قبلة الأنبياء بيت المقدس وكان صلوات الله عليه وهو بمكة يستقبل بيت المقدس فلما أُمرﷺ بالتوجه إلى الكعبة المشرّفةطعن اليهود في رسالته واتخذوا ذلك ذريعة للنيل من الإسلام وقالوا : لقد اشتاق محمد إلى مولده وعن قريب يرجع إلى دين قومه ، فأخبر الله رسوله الكريم بما سيقوله السفهاء ولقّنه الحجة الدامغة ليردّ عليهم ، ويوطّن نفسه على تحمل الأذى منهم عند مفاجأة المكروه ، وكان هذا الإخبار قبل تحويل القبلة معجزة له عليه السلام .

اللغة : ﴿السفهاء﴾ جمع سفيه وهو الجاهل ضعيف الرأي ، قليل المعرفة بالمنافع والمضار ، وأصل السفه الخفة والرقة من قولهم ثوب سفيه إذا كان خفيف النسج ﴿ولاّهم﴾ صرفهم يقال: ولّى عن الشيء وتولّى عنه أي انصرف ﴿وسطاً﴾ قال الطبري : الوسطفي كلام العرب : الخيار وقيل : العدل[1] ، وأصل هذا أن خير الأشياء أوساطها وأن الغلو والتقصير مذمومان ﴿عقبيه﴾ تثنية عقب وهو مؤخر القدم ﴿كبيرة﴾ شاقة وثقيلة ﴿شطر﴾ الشطر في اللغة يأتي بمعنى الجهة كقول الشاعر : تعدو بنا شطر نجد وهي عاقدة ، ويأتي بمعنى النصف ومنه الحديث (الطهور شطر الايمان) .

سبب النزول : عن البراء قال : لما قدم رسول اللهﷺ المدينة صلّىنحو بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً ، وكان رسول اللهﷺ يحب أن يتوجه نحو الكعبة فأنزل الله تعالى ﴿قد نرى تقلّب وجهك في السماء﴾ الآية فقال السفهاء من الناس ـ وهم اليهود ـ ما ولاّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟ قال تعالى ﴿قل للّه المشرق والمغرب﴾[2] إلى آخر الآية ، أخرجه البخاري .

* سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ

التفسير : ﴿**سيقول السفهاء من الناس**﴾ أي سيقول ضعفاء العقول من الناس ﴿**ما ولاّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها**﴾ أي ما صرفهم وحوّلهم عن القبلة التي كانوا يصلون إليها وهي بيت المقدس ، قبلة المرسلين من قبلهم ؟ ﴿**قل لله المشرق والمغرب**﴾ أي قل لهم يا محمد الجهات كلها لله له المشرق والمغرب فأينما ولينا وجوهنا فهناك وجه الله ﴿**يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم**﴾ أي يهدي عباده المؤمنين إلى الطريق القويم الموصل لسعادة الدارين ﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطاً**﴾ أي كما هديناكم إلى الإسلام كذلك جعلناكم يا معشر المؤمنين أمة عدولاً خياراً ﴿**لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم**

(١) مختصر الطبري ١/ ٥٥ . (٢) أسباب النزول للواحدي ص ٢٣ .

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾

شهيداً﴾ أي لتشهدوا على الأمم يوم القيامة أن رسلهم بلّغتهم ، ويشهد عليكم الرسول أنه بلغكم **﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها﴾** أي وما أمرناك بالتوجه إلى بيت المقدس ثم صرفناك عنها إلى الكعبة **﴿إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه﴾** أي إلا لنختبر إيمان الناس فنعلم من يصدّق الرسول ، ممن يشكّك في الدين ويرجع إلى الكفر لضعف يقينه **﴿وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله﴾** أي وإن كان هذا التحويل لشاقاً وصعباً إلاّ على الذين هداهم الله **﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾** أي ما صحَّ ولا استقام أن يضيع الله صلاتكم إلى بيت المقدس بل يثيبكم عليها ، وذلك حين سألوه ﷺ عمن مات وهو يصلي إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة فنزلت ، وقوله تعالى **﴿إن الله بالناس لرءوف رحيم﴾** تعليل للحكم أي أنه تعالى عظيم الرحمة بعباده لا يضيع أعمالهم الصالحة التي فعلوها **﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾** كثيراً ما رأينا تردّد بصرك يا محمد جهة السماء تشوقاً لتحويل القبلة **﴿فلنولينّك قبلةً ترضاها﴾** أي فلنوجهنك إلى قبلةٍ تحبها ، ـ وهي الكعبة ـ قبلة أبيك إبراهيم **﴿فولّ وجهك شطر المسجد الحرام﴾** أي توجه في صلاتك نحو الكعبة المعظمة **﴿وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾** أي وحيثما كنتم أيها المؤمنون فتوجهوا في صلاتكم نحو الكعبة أيضاً **﴿وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم﴾** أي إن اليهود والنصارى ليعلمون أن هذا التحويل للقبلة حقٌ من عند الله ولكنهم يفتنون الناس بإلقاء الشبهات **﴿وما الله بغافل عما يعملون﴾** أي لا يخفى عليه شيء من أعمالهم وسيجازيهم عليها ، وفيه وعيد وتهديد لهم .

البلاغة : ١ ـ في قوله **﴿ينقلب على عقبيه﴾** استعارة تمثيلية حيث مثَّل لمن يرتد عن دينه بمن ينقلب على عقبيه أفاده الإمام الفخر .

٢ ـ **﴿لرءوف رحيم﴾** الرأفة : شدة الرحمة وقدّم الأبلغ مراعاة للفاصلة وهي الميم في قوله **﴿صراط مستقيم﴾** وقوله **﴿رءوف رحيم﴾** وكلاهما من صيغ المبالغة .

٣ ـ **﴿فولّ وجهك﴾** أطلق الوجه وأراد به الذات كقوله **﴿ويبقى وجه ربك﴾** وهذا النوع يسمى « المجاز المرسل » من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل .

الفوائد : الأولى : أخرج البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : (يُدعى نوح عليه

السلام يوم القيامة فيقول : لبيك وسعديك يا رب فيقول : هل بلغت ؟ فيقول نعم فيقال لأمته هل بلغكم ؟ فيقولون ما جاءنا من نذير فيقول من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته فيشهدون أنه قد بلّغ فذلك قوله عز وجل ﴿لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ .

الثانية : سمى الله تعالى الصلاة « إيماناً » في قوله ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ أي صلاتكم لأن الإيمان لا يتمُّ إلا بها ، ولأنها تشتمل على نيةٍ وقولٍ وعمل .

الثالثة : في التعبير عن الكعبة بالمسجد الحرام إشارة إلى أن الواجب مراعاة الجهة دون العين ، لأن في إصابة عين الكعبة من البعيد حرجاً عظيماً على الناس .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ولئن أتيتَ الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك . . إلى . . ولعلكم تهتدون﴾ من آية (١٤٥) إلى نهاية آية (١٥٠).

المناسبة : لما ذكر تعالى ما قاله السفهاء من اليهود عند تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المعظمة ، وأمر رسوله بأن يتوجه في صلاته نحو البيت العتيق ، ذكر في هذه الآيات أن أهل الكتاب قد انتهوا في العناد والمكابرة إلى درجة اليأس من إسلامهم ، فإنهم ما تركوا قبلتك لشبهة عارضة تزيلها الحجة ، وإنما خالفوك عناداً واستكباراً ، وفي ذلك تسلية له ﷺ من جحود وتكذيب أهل الكتاب .

اللغة : ﴿آية﴾ الآية : الحجة والعلامة ﴿أهواءهم﴾ جمع هوى مقصور ، وهوى النفس : ما تحبه وتميل إليه ﴿الممترين﴾ الامتراء : الشك ، امترى في الشيء شك فيه ومنه المراء والمرْية ﴿ولا يزال الذين كفروا في مريةٍ منه﴾ أي شك ﴿وجهة﴾ قال الفراء : وِجهة وجِهَة ووجه بمعنى واحد والمراد بها القِبلة ﴿هو مولّيها﴾ أي هو مولّيها وجهه فاستغنى عن ذكر الوجه قال الفراء : أي مستقبلها ﴿فاستبقوا﴾ أي بادروا وسارعوا ﴿الخيرات﴾ الأعمال الصالحة جمع خيْرة ﴿تخشوهم﴾ تخافوهم والخشية : الخوف .

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ﴾

التفسير : ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك﴾ أي والله لئن جئت اليهود والنصارى بكل معجزة على صدقك في أمر القبلة ما اتبعوك يا محمد ولا صلّوا إلى قبلتك ﴿وما أنت بتابعٍ قبلتهم﴾ أي ولست أنت بمتبع قبلتهم بعد أن حوّلك الله عنها ، وهذا لقطع أطماعهم الفارغة حيث قالت اليهود : لو ثبتَّ على قبلتنا لكنا نرجو أن تكون صاحبنا الذي ننتظره تغريراً له عليه السلام ﴿وما بعضهم بتابعٍ قبلة بعض﴾ أي إن النصارى لا يتبعون قبلة اليهود ، كما أن اليهود لا يتبعون قبلة النصارى ، لما بينهم من العداوة والخلاف الشديد مع أن الكل من بني إسرائيل ﴿ولئن اتبعت أهواءهم من

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

بعد ما جاءك من العلم﴾ أي ولئن فرض وقدّر أنك سايرتهم على أهوائهم ، واتبعت ما يهوونه ويحبونه بعد وضوح البرهان الذي جاءك بطريق الوحي **﴿إنك إذاً لمن الظالمين﴾** أي تكون ممن ارتكب أفحش الظلم ، والكلام وارد على سبيل الفرض والتقدير وإلا فحاشاهﷺ من اتباع أهواء الكفرة المجرمين ، وهو من باب التهييج للثبات على الحق . **﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾** أي اليهود والنصارى **﴿يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾** أي يعرفون محمداً معرفة لا امتراء فيها كما يعرف الواحد منهم ولده معرفة يقين **﴿وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾** أي وإن جماعة منهم - وهم رؤساؤهم وأحبارهم - ليخفون الحق ولا يعلنونه ويخفون صفة النبي مع أنه منعوت لديهم بأظهر النعوت **﴿الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾** فهم يكتمون أوصافه عن علم وعرفان **﴿الحقُّ من ربك فلا تكوننَّ من الممترين﴾** أي ما أوحاه الله إليك يا محمد من أمر القبلة والدين هو الحق فلا تكوننَّ من الشاكّين ، والخطاب للرسول والمراد أمته **﴿ولكلٍ وجهةٌ هو مولّيها فاستبقوا الخيرات﴾** أي لكل أمة من الأمم قبلةٌ هو مولّيها وجهه أي مائل إليها بوجهه فبادروا وسارعوا أيها المؤمنون إلى فعل الخيرات **﴿أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً﴾** أي في أي موضع تكونوا من أعماق الأرض أو قُلل الجبال يجمعكم الله للحساب فيفصل بين المحق والمبطل **﴿إن الله على كل شيء قدير﴾** أي هو قادر على جمعكم من الأرض وإن تفرقت أجسامكم وأبدانكم **﴿ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام﴾** أي من أيّ مكان خرجت إليه للسفر فتوجه بوجهك في صلاتك جهة الكعبة **﴿وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون﴾** تقدم تفسيره وكرّره لبيان تساوي حكم السفر والحضر **﴿ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾** هذا أمر ثالث باستقبال الكعبة المشرفة ، وفائدة هذا التكرار أن القبلة كان أول ما نسخ من الأحكام الشرعية ، فدعت الحاجة إلى التكرار لأجل التأكيد والتقرير وإزالة الشبهة قال تعالى **﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾** أي عرّفكم أمر القبلة لئلا يحتج عليكم اليهود فيقولوا : يجحد ديننا ويتبع قبلتنا

فتكون لهم حجة عليكم أو كقول المشركين : يدعي محمد ملة إبراهيم ويخالف قبلته ﴿إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني﴾ أي إلا الظلمة المعاندين الذين لا يقبلون أيّ تعليل فلا تخافوهم وخافوني ﴿ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون﴾ أي أتمّ فضلي عليكم بالهداية إلى قبلة أبيكم إبراهيم والتوفيق لسعادة الدارين .

البَـلاَغَـة : ١ ـ وضع اسم الموصول موضع الضمير في قوله ﴿أوتوا الكتاب﴾ للإيذان بكمال سوء حالهم من العناد .

٢ ـ ﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾ هذا من باب التهييج والإلهاب للثبات على الحق .

٣ ـ ﴿وما أنت بتابع قبلتهم﴾ هذه الجملة أبلغ في النفي من قوله ﴿ما تبعوا قبلتك﴾ لأنها جملة اسمية أولاً ولتأكيد نفيها بالباء ثانياً ذكره صاحب الفتوحات الإلهية .

٤ ـ ﴿كما يعرفون أبناءهم﴾ فيه تشبيه « مرسل مفصل » أي يعرفون محمداً معرفةً واضحة كمعرفة أبنائهم الذين من أصلابهم .

الفَـوَائِـد : الأولى : روي أن عمر بن الخطاب قال لعبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته ولست أشك فيه أنه نبيٌّ ، وأما ولدي فلا أدري ما كان من أمه فلعلها خانت ، فقبّل عمر رأسه[١] .

الثانية : توجه الوعيد على العلماء أشد من توجهه على غيرهم ، ولهذا زاد الله في ذم أهل الكتاب بقوله ﴿وهم يعلمون﴾ فإنه ليس المرتكب ذنباً عن جهلٍ كمن يرتكبه عن علم .

الثالثة : تكرر الأمر باستقبال الكعبة ثلاث مرات قال القرطبي : والحكمة في هذا التكرار أن الأول لمن هو بمكة ، والثاني لمن هو ببقية الأمصار ، والثالث لمن خرج في الأسفار .[٢]

* * *

قال الله تعالى : ﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم . . إلى . . وأولئك هم المهتدون﴾ من آية (١٥١) إلى نهاية آية (١٥٧) .

المنَاسَبَة : بدأت الآيات الكريمة بمخاطبة المؤمنين ، وتذكيرهم بنعمة الله العظمى عليهم ، ببعثة خاتم المرسلين ﷺ ، بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن بني إسرائيل ، وذكرت بالتفصيل نعم الله عليهم التي قابلوها بالجحود والكفران فيما يزيد على ثلث السورة الكريمة ، وقد عدّد القرآن الكريم جرائمهم ليعتبر ويتعظ بها المؤمنون ، ولما انتهى الحديث عن اليهود بعد ذلك البيان الواضح جاء

(١) مختصر ابن كثير ١/ ١٤٠ . ومحاسن التأويل ٢/ ٣٠٥ . (٢) القرطبي ٢/ ١٦٨ .

دور التذكير للمؤمنين بالنعم الجليلة والتشريعات الحكيمة التي بها سعادتهم في الدارين .

اللغــة : ﴿الكتاب﴾ القرآن العظيم ﴿الحكمة﴾ السنّة النبوية ﴿فاذكروني﴾ أصل الذكر التنبه بالقلب للمذكور ، وسُمّي الذكر باللسان ذكراً لأنه علامة على الذكر القلبي ﴿ولنبلونكم﴾ أصل البلاء المحنة ، ثم قد يكون بالخير أو بالشر ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنةً﴾ ﴿مصيبة﴾ المصيبة : كل ما يؤذي المؤمن ويصيبه في نفسه أو ماله أو ولده ﴿صلوات﴾ الأصل في الصلاة الدعاء وهي من الله بمعنى الرحمة ومن الملائكة بمعنى الاستغفار .

كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

التفسـير : ﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم﴾ الكلام متعلق بما سبق في قوله ﴿ولأتم نعمتي﴾ والمعنى كما أتممت عليكم نعمتي كذلك أرسلت فيكم رسولاً منكم ﴿يتلوا عليكم آياتنا﴾ أي يقرأ عليكم القرآن ﴿ويزكيكم﴾ أي يطهركم من الشرك وقبيح الفعال ﴿ويعلمكم الكتاب والحكمة﴾ أي يعلمكم أحكام الكتاب المجيد ، والسنة النبوية المطهرة ﴿ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ أي يعلمكم من أمور الدنيا والدين الشيء الكثير الذي لم تكونوا تعلمونه ﴿فاذكروني أذكركم﴾ أي اذكروني بالعبادة والطاعة أذكركم بالثواب والمغفرة ﴿واشكروا لي ولا تكفرون﴾ أي اشكروا نعمتي عليكم ولا تكفروها بالجحود والعصيان ، روي أن موسى عليه السلام قال : يا رب كيف أشكرك ؟ قال له ربه : «تذكرني ولا تنساني ، فإذا ذكرتني فقد شكرتني ، وإذا نسيتني فقد كفرتني»[1] ثم نادى تبارك وتعالى عباده المؤمنين بلفظ الإيمان ليستنهض هممهم إلى امتثال الأوامر الإلهية ، وهو النداء الثاني الذي جاء في هذه السورة الكريمة فقال ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة﴾ أي استعينوا على أمور دنياكم وآخرتكم بالصبر والصلاة ، فبالصبر تنالون كل فضيلة ، وبالصلاة تنتهون عن كل رذيلة ﴿إن الله مع الصابرين﴾ أي معهم بالنصر والمعونة والحفظ والتأييد ﴿ولا تقولوا لمن يُقتل في سبيل الله أموات﴾ أي لا تقولوا للشهداء إنهم

(١) ابن كثير المختصر ١/ ١٤٢ .

أموات ﴿بل أحياءٌ ولكن لا تشعرون﴾ أي بل هم أحياءٌ عند ربهم يرزقون ولكن لا تشعرون بذلك لأنهم في حياةٍ برزخية أسمى من هذه الحياة ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات﴾ أي ولنختبرنكم بشيءٍ يسير من ألوان البلاء مثل الخوف والجوع ، وذهاب بعض الأموال ، وموت بعض الأحباب ، وضياع بعض الزروع والثمار ﴿وبشر الصابرين﴾ أي بشر الصابرين على المصائب والبلايا بجنات النعيم ثم بيّن تعالى تعريف الصابرين بقوله ﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة﴾ أي نزل بهم كرب أو بلاء أو مكروه ﴿قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ أي استرجعوا وأقروا بأنهم عبيد لله يفعل بهم ما يشاء ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر لهم ثناء وتمجيد ورحمة من الله ، وهم المهتدون إلى طريق السعادة .

البَلاَغَة : ١ - بين كلمتي ﴿ أرسلنا﴾ و﴿ رسولاً﴾ جناس الاشتقاق وهو من المحسنات البديعية .

٢ - قوله ﴿ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ بعد قوله ﴿ويعلمكم الكتاب والحكمة﴾ هو من باب ذكر العام بعد الخاص لإفادة الشمول ويسمى هذا في البلاغة بـ (الإطناب) .

٣ - ﴿أموات بل أحياء﴾ فيه إيجاز بالحذف أي لا تقولوا هم أموات بل هم أحياء (وبينهما طباق)

٤ - التنكير في قوله ﴿بشيء من الخوف﴾ للتقليل أي بشيء قليل .

٥ - ﴿صلوات من ربهم ورحمة﴾ التنوين فيهما للتفخيم ، والتعرض بعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم ﴿ربهم﴾ لإظهار مزيد العناية بهم .

٦ - ﴿هم المهتدون﴾ صيغة قصر وهو من نوع قصر الصفة على الموصوف .

الفَوَائِد : الأولى : روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : « ما أصابتني مصيبة إلا وجدتُ فيها ثلاث نعم : الأولى : أنها لم تكن في ديني ، الثانية : أنها لم تكن أعظم مما كانت ، الثالثة : أن الله يجازي عليها الجزاء الكبير ثم تلا قوله تعالى :﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾» .

الثانية : قال ﷺ (إذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته قبضتم ولد عبدي ؟ فيقولون :نعم ، فيقول قبضتم ثمرة فؤاده ؟ فيقولون نعم ، فيقول : فماذا قال عبدي ؟ فيقولون حَمِدك واسترجع ، فيقول الله تعالى : ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسمّوه بيتَ الحمد) .[1]

* * *

قال الله تعالى : ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله . . إلى . . ولا هم ينظرون﴾ من آية (١٥٨) إلى نهاية آية (١٦٢) .

(١) أخرجه أحمد والترمذي .

المناسبة : لما أمر تعالى بذكره وشكره ودعا المؤمنين إلى الاستعانة بالصبر والصلاة ، أعقب ذلك ببيان أهمية الحج وأنه من شعائر دين الله ، ثم نبّه تعالى على وجوب نشر العلم وعدم كتمانه ، وذكر خطر كتمان ما أنزل الله من البيّنات والهدى ، كما فعل اليهود والنصارى في كتبهم فاستحقوا اللعنة والغضب والدمار .

اللغة : ﴿شعائر الله﴾ جمع شعيرة وهي في اللغة : العلامة ومنه الشّعار ، وأشعر الهَدْي جعل له علامة ليعرف بها ، والشعائر : كلٌّ ما تعبّدنا الله به من أمور الدين كالطواف والسعي والأذان ونحوه . ﴿حجّ﴾ الحجُّ في اللغة : القصد ، وفي الشرع : قصد البيت العتيق لأداء المناسك من الطواف والسعي ﴿اعتمر﴾ العمرة في اللغة : الزيارة ثم صار علماً لزيارة البيت للنُّسك ﴿جُنَاح﴾ الجُناح : الميل إلى الإثم وقيل : هو الإثم نفسه سمي به لأنه ميل إلى الباطل يقال : جنح إلى كذا إذا مال قال ابن الأثير وأينما ورد فمعناه الإثم والميل ﴿يكتمون﴾ الكتمان : الإخفاء والستر ﴿يُنظرون﴾ يمهلون .

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ

التفسير : ﴿إن الصفا والمروة﴾ اسم لجبلين بمقربة من البيت الحرام ﴿من شعائر الله﴾ أي من أعلام دينه ومناسكه التي تعبَّدنا الله بها ﴿فمن حجّ البيت أو اعتمر﴾ أي من قصد بيت الله للحج أو قصده للزيارة بأحد النسكين «الحج» أو «العمرة» ﴿فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾ أي لا حرج ولا إثم عليه أن يسعى بينهما ، فإذا كان المشركون يسعون بينهما ويتمسحون بالأصنام ، فاسعوا أنتم للّه رب العالمين ، ولا تتركوا الطواف بينهما خشية التشبه بالمشركين ﴿ومن تطوّع خيراً﴾ أي من تطوّع بالحج والعمرة بعد قضاء حجته المفروضة عليه ، أو فعل خيراً فرضاً كان أو نفلاً ﴿فإن الله شاكر عليم﴾ أي إنه سبحانه شاكرٌ له طاعته ومجازيه عليها خير الجزاء ، لأنه عليم بكل ما يصدر من عباده من الأعمال فلا يضيع عنده أجر المحسنين ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى﴾ أي يخفون ما أنزلناه من الآيات البينات ، والدلائل الواضحات التي تدل على صدق محمد ﷺ ﴿من بعد ما بيناه للناس في الكتاب﴾ أي من بعد توضيحه لهم في التوراة أو في الكتب السماوية كقوله تعالى ﴿الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾ ﴿أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾ أي أولئك الموصوفون بقبيح الأعمال ، الكاتمون لأوصاف الرسول ، المحرّفون لأحكام التوراة يلعنهم الله فيبعدهم من رحمته ، وتلعنهم الملائكة والمؤمنون ﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا وبيّنوا فأولئك أتوب عليهم﴾ أي إلا الذين ندموا على ما صنعوا ، وأصلحوا ما أفسدوه بالكتمان ، وبينوا للناس حقيقة ما أنزل الله فأولئك يقبل الله توبتهم ويشملهم برحمته ﴿وأنا

﴿عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

﴿التواب الرحيم﴾ أي كثير التوبة على عبادي، واسع الرحمة بهم ، أصفح عما فرط منهم من السيئات ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار﴾ أي كفروا بالله واستمرّوا على الكفر حتى داهمهم الموت وهم على تلك الحالة ﴿أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾ أي يلعنهم الله وملائكته وأهل الأرض جميعاً ، حتى الكفار فإنهم يوم القيامة يلعن بعضهم بعضاً ﴿خالدين فيها﴾ أي خالدين في النار ـ وفي إضمارها تفخيم لشأنها ـ ﴿لا يخفف عنهم العذاب﴾ أي إن عذابهم في جهنم دائم لا ينقطع لا يخف عنهم طرفة عين ﴿لا يُفتّر عنهم وهم فيه مبلسون﴾ ﴿ولا هم يُنظرون﴾ أي ولا يمهلون أو يؤجلون بل يلاقيهم العذاب حال مفارقة الحياة الدنيا .

سَبَبُ النّزول : عن أنسٍ رضي الله عنه أنه سئل عن الصفا والمروة فقال : كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية ، فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما فأنزل الله ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾[1] .

البَـلاَغَـة : ١ ـ ﴿من شعائر الله﴾ أي من شعائر دين الله ففيه إيجاز بالحذف .

٢ ـ ﴿شاكر عليم﴾ أي يثيب على الطاعة قال أبو السعود : عبّر عن ذلك بالشكر مبالغة في الإحسان على العباد فأطلق الشكر وأراد به الجزاء بطريق المجاز .

٣ ـ ﴿يلعنهم الله﴾ فيه التفات من ضمير المتكلم إلى الغيبة إذ الأصل « نلعنهم » ولكن في إظهار الاسم الجليل ﴿يلعنهم الله﴾ إلقاء الروعة والمهابة في القلب .

٤ ـ ﴿يلعنهم اللاعنون﴾ فيه جناس الاشتقاق .وهو من المحسنات البديعية .

٥ ـ ﴿خالدين فيها﴾ أي في اللعنة أو في النار وأضمرت النار تفخيماً لشأنها وتهويلاً لأمرها .

٦ ـ ﴿ولا هم ينظرون﴾ إيثار الجملة الإسمية لإفادة دوام النفي واستمراره .

الفَـوَائِـد : الأولى : كان على الصفا صنم يقال له « إساف » وعلى المروة صنم يقال له « نائلة » فكان المشركون إذا طافوا تمسحوا بهما فخشي المسلمون أن يتشبهوا بأهل الجاهلية ولذلك تحرجوا من الطواف لهذا السبب فنزلت الآية تبيّن أنهما من شعائر الله وأنه لا حرج عليهم في السعي بينهما فالمسلمون يسعون لله لا للأصنام .

الثانية : الشكر معناه مقابلة النعمة والإحسان بالثناء والعرفان ، وهذا المعنى محالٌ على الله إذ ليس

---

(١) أخرجه البخاري وانظر الدر المنثور للسيوطي ١/ ١٥٩ .

لأحد عنده يدٌ ونعمة حتى يشكره عليها ولهذا حمله العلماء على الثواب والجزاء أي أنه تعالى يثيبه ولا يضيع أجر العاملين أقول : والصحيح ما عليه السلف من إثبات الصفات كما وردت ، فهو شكر يليق بجلاله وكماله .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . . إلى . . وما هم بخارجين من النار﴾ من آية (١٦٣) إلى نهاية (١٦٧) .

المناسبة : لما ذكر تعالى حال الكافرين الجاحدين لآيات الله وما لهم من العذاب والنكال في الآخرة ، ذكر هنا أدلة القدرة والوحدانية ، وأتى بالبراهين على وجود الخالق الحكيم ، فبدأ بذكر العالم العلوي ثم بالعالم السفلي ، ثم بتعاقب الليل والنهار ، ثم بالسفن التي تمخر عباب البحار ، ثم بالأمطار التي فيها حياة الزروع والنفوس ، ثم بما بث في الأرض من أنواع الحيوانات العجيبة ، ثم بالرياح والسحب التي سخرها الله لفائدة الإنسان وختم ذلك بالأمر بالتفكر في بدائع صنع الله ، وإعمال العقل في جميل خلقه ، ليستدل العاقل بالأثر على وجود المؤثر ، وبالصنعة على عظمة الخالق المدبّر الحكيم .

اللغة : ﴿وإلهكم﴾ الإله : المعبود بحقٍ أو باطل والمراد به هنا المعبود بحق وهو الله رب العالمين ﴿الفُلْك﴾ ما عظم من السفن وهو اسم يطلق على المفرد والجمع ﴿وبثّ﴾ فرّق ونشر ومنه ﴿كالفراش المبثوث﴾ ﴿دابة﴾ الدابة في اللغة : كل ما يدب على الأرض من إنسانٍ وحيوان مأخوذ من الدبيب وهو المشي رويداً وقد خصّه العرف بالحيوان ، ويدل على المعنى اللغوي قوله تعالى ﴿والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع﴾ فجمع بين الزواحف والإنسان والحيوان ﴿تصريف الرياح﴾ الرياح : جمع ريح وهي نسيم الهواء ، وتصريفُها تقليبها في الجهات ونقلها من حال إلى حال ، فتهب حارة وباردة ، وعاصفة ولينة ، وملقحةً للنبات وعقماً ﴿المسخر﴾ من التسخير وهو التذليل والتيسير ﴿أنداداً﴾ جمع نِدّ وهو المماثل والمراد بها الأوثان والأصنام ﴿الأسباب﴾ جمع سبب وأصله الحبل والمراد به ما يكون بين الناس من روابط كالنسب والصداقة ﴿كرَّة﴾ الكرَّة : الرَّجعة والعودة إلى الحالة التي كان فيها ﴿حسرات﴾ جمع حسْرة وهي أشد الندم على شيء فائت وفي التنزيل ﴿أن تقول نفسٌ يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله﴾ .

سَبَبُ النّزول : عن عطاء قال : أنزلت بالمدينة على النبي ﷺ ﴿وإلهكم إله واحد﴾ فقالت كفار قريش بمكة كيف يسعُ النّاسَ إلهٌ واحد ؟ فأنزل الله تعالى ﴿إنّ في خلق السموات والأرض . . . إلى قوله لآيات لقومٍ يعقلون﴾[1] .

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٢٥ والقرطبي ٢/ ١٩١ .

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾

التفسير : ﴿وإلهكم إله واحد﴾ أي إلهكم المستحق للعبادة إلهٌ واحد ، لا نظير له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ﴿لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾ أي لا معبود بحق إلا هو جلّ وعلا مُولي النعم ومصدر الإحسان ﴿إن في خلق السموات والأرض﴾ أي إن في إبداع السموات والأرض بما فيهما من عجائب الصنعة ودلائل القدرة ﴿واختلاف الليل والنهار﴾ أي تعاقبهما بنظام محكم ، يأتي الليل فيعقبه النهار ، وينسلخ النهار فيعقبه الليل ، ويطول النهار ويقصر الليل والعكس ﴿والفُلْك التي تجري في البحر﴾ أي السفن الضخمة الكبيرة التي تسير في البحر على وجه الماء وهي موقرةٌ بالأثقال ﴿بما ينفع الناس﴾ أي بما فيه مصالح الناس من أنواع المتاجر والبضائع ﴿وما أنزل الله من السماء من ماء﴾ أي وما أنزل الله من السحاب من المطر الذي به حياة البلاد والعباد ﴿فأحيا به الأرض بعد موتها﴾ أي أحيا بهذا الماء الزروع والأشجار ، بعد أن كانت يابسة مجدبة ليس فيها حبوب ولا ثمار ﴿وبثّ فيها من كل دابة﴾ أي نشر وفرّق في الأرض من كل ما يدب عليها من أنواع الدواب ، المختلفة في أحجامها وأشكالها وألوانها وأصواتها ﴿وتصريف الرياح﴾ أي تقليب الرياح في هبوبها جنوباً وشمالاً ، حارة وباردة ، وليّنة وعاصفة ﴿والسحاب المسخّر بين السماء والأرض﴾ أي السحاب المذلّل بقدرة الله ، يسير حيث شاء الله وهو يحمل الماء الغزير ثم يصبُّه على الأرض قطرات قطرات ، قال كعب الأحبار : السحاب غربال المطر ولولا السحاب لأفسد المطر ما يقع عليه من الأرض[1] ﴿لآيات لقوم يعقلون﴾ أي لدلائل وبراهين عظيمة دالة على القدرة القاهرة ، والحكمة الباهرة ، والرحمة الواسعة لقوم لهم عقول تعي وأبصار تدرك ، وتتدبر بأن هذه الأمور من صنع إله قادر حكيم . ثم أخبر تعالى عن سوء عاقبة المشركين الذين عبدوا غير الله فقال ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً﴾ أي ومن الناس من تبلغ بهم الجهالة أن يتخذ من غير الله أنداداً أي رؤساء وأصناماً ﴿يحبونهم كحب الله﴾ أي يعظمونهم ويخضعون لهم كحب المؤمنين لله ﴿والذين آمنوا أشدُّ حباً لله﴾ أي حب المؤمنين لله أشدُّ من حب المشركين للأنداد ﴿ولو يرى الذين ظلموا إذْ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً﴾ أي لو رأى الظالمون حين يشاهدون العذاب المعدّ لهم يوم القيامة أن القدرة كلها لله وحده ﴿وأن الله شديد العذاب﴾ أي وأنّ عذاب الله شديد أليم وجواب

(١) البحر المحيط ١/٤٦٧ .

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾

« لـو » محذوف أي لرأوا ما لا يوصف من الهول والفظاعة ﴿إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذيـن اتَّبعوا﴾ أي تبرأ الرؤساء من الأتباع ﴿ورأوا العذاب وتقطعت بهـم الأسباب﴾ أي حين عاينوا العذاب وتقطعت بينهـم الروابط وزالت المودّات ﴿وقال الذيـن اتَّبعـوا لو أنَّ لنا كرَّة فنتبرأ منهـم﴾ أي تمنّى الأتباع لو أنّ لهم رجعة إلى الدنيا ليتبرءوا من هؤلاء الذين أضلوهم السبيل ﴿كما تبرءوا منّـا﴾ أي كما تبرأ الرؤساء من الأتباع في ذلك اليوم العصيب . . قال تعالى ﴿كذلك يريهم الله أعمالهم حسراتٍ عليهم﴾ أي أنه تعالى كما أراهم شدة عذابه كذلك يريهم أعمالهم القبيحة ندامات شديدة وحسراتٍ تتردد في صدورهم كأنها شرر الجحيم ﴿وما هـم بخارجيـن من النار﴾ أي ليس لهم سبيل إلى الخروج من النار ، بل هم في عذاب سرمدي وشقـاء أبدي .

البَـلاَغَـة : ١ ـ ﴿وإلهكم إله واحد﴾ ورد الخبر خالياً من التأكيد تنزيلاً للمنكر منزلة غير المنكر ، وذلك لأن بين أيديهم من البراهين الساطعة والحجج القـاطعـة ما لو تأملوه لوجدوا فيه غاية الإقناع .

٢ ـ ﴿الآيات﴾ التنكير في آيات للتفخيم أي آيات عظيمة دالة على قدرة قاهرة وحكمة باهرة .

٣ ـ ﴿كحب الله﴾ فيه تشبيه (مرسل مجمل) حيث ذكرت الأداة وحذف وجه الشبه .

٤ ـ ﴿أشدُّ حباً لله﴾ التصريح بالأشدّية أبلغ من أن يقال « أحبُّ لله » كقوله ﴿فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾ مع صحة أن يقال : أو أقسى .

٥ ـ ﴿ولو يرى الذين ظلموا﴾ وضع الظاهر موضع الضمير ﴿ولو يرون﴾ لإحضار الصورة في ذهن السامع وتسجيل السبب في العذاب الشديد وهو الظلم الفادح .

٦ ـ في قوله ﴿رأوا العذاب﴾ و﴿تقطعت بهم الأسباب﴾ من علم البديع ما يسمى بـ « الترصيع » وهو أن يكون الكلام مسجوعاً .

٧ ـ ﴿وما هم بخارجين من النار﴾ الجملة إسمية وإيرادها بهذه الصيغة لإفادة دوام الخلود .

الفَـوَائِـد : الأولى : ذكر تعالى في الآية من عجائب مخلوقاته ثمانية أنواع تنبيهاً على ما فيها من العبر واستدلالاً على الوحدانية من الأثر ،**الأول** : خلق السموات وما فيها من الكواكب والشمس والقمر ،**الثاني** : الأرض وما فيها من جبال وبحار وأشجار وأنهار ومعادن وجواهر ،**الثالث** : اختلاف الليل والنهار بالطول والقصر والنور والظلمة والزيادة والنقصان ،**الرابع** : السفن العظيمة كأنها الراسيات من الجبال وهي موقرة

بالأثقال والرجال تجري بها الريح مقبلةومدبرة،الخامس : المطر الذي جعله الله سبباً لحياة الموجودات من حيوان ونبات وإنزاله بمقدار،السادس : ما بثّ في الأرض من إنسان وحيوان مع اختلاف الصور والأشكال والألوان،السابع : تصريف الرياح والهواءُ جسم لطيفٌ وهو مع ذلك في غاية القوة بحيث يقلع الصخر والشجر ويخرب البنيان العظيم وهو مع ذلك حياة الوجود فلو أمسك طرفة عين لمات كل ذي روح وأنتن ما على وجه الأرض،الثامن : السحاب مع ما فيه من المياه العظيمة التي تسيل منها الأودية الكبيرة يبقى معلقاً بين السماء والأرض بلا علاقة تمسكه ولا دعامة تسنده فسبحان الواحد القهار .

الثانية : ورد لفظ الرياح في القرآن مفردة ومجموعة ، فجاءت مجموعة مع الرحمة مفردة مع العذاب كقوله ﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات﴾ وقوله ﴿وهو الذي أرسل الرياح بُشراً بين يدي رحمته﴾ وجاءت مفردة في العذاب كقوله ﴿بريحٍ صرصرٍ عاتية﴾ وقوله ﴿الريح العقيم﴾ وروى أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا هبت الريح (اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً) .

* * *

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً . . إلى . . لفي شقاقٍ بعيد﴾ من آية (١٦٨) إلى نهاية آية (١٧٦).

المناسَبَة : لمّا بيّن تعالى التوحيد ودلائله ، وما للمؤمنين المتقين والكفرة العاصين ، أتبع ذلك بذكر إنعامه على الكافر والمؤمن ، ليدل على أن الكفر لا يؤثر في قطع الإنعام ، لأنه تعالى رب العالمين ، فإحسانه عام لجميع الأنام دون تمييز بين مؤمن وكافر وبرٍّ وفاجر ، ثم دعا المؤمنين إلى شكر المنعم جلَّ وعلا والأكل من الطيبات التي أباحها الله ، واجتناب ما حرّمه الله من أنواع الخبائث .

اللغَــة : ﴿خطوات الشيطان﴾ جمع خُطوة وهي في الأصل ما بين القدمين عند المشي وتستعمل مجازاً في تتبع الآثار ﴿السُّوء﴾ أصل السُّوء ما يسوء الإنسان أي يحزنه ويطلق على المعصية قولاً أو فعلاً أو اعتقاداً لأنها تسوء صاحبها أي تحزنه في الحال أو المآل ﴿الفحشاء﴾ ما يستعظم ويستفحش من المعاصي فهي أقبح أنواع المعاصي ﴿ألفينا﴾ وجدنا ومنه ﴿وألفيا سيِّدها﴾ ﴿إنهم ألفوا آباءهم ضالين﴾ أي وجدوا ﴿ينعق﴾ يصيح يقال : نعق الراعي بغنمه ينعِق نعيقاً إذا صاح بها وزجرها قال الأخطل :

فانعِقْ بضأنك يا جريرُ فإنما مَنّتك نفسُك في الخلاء ضلالاً

﴿أُهلّ﴾ الإهلال : رفع الصوت يقال : أهلَّ المحرم إذا رفع صوته بالتلبية ومنه إهلال الصبي وهو صياحه عند الولادة ، وكان المشركون إذا ذبحوا ذكروا اللات والعزّى ورفعوا بذلك أصواتهم ﴿اضطُرّ﴾ أُلجيء أي ألجأته الضرورة إلى الأكل من المحرمات ﴿باغٍ ولا عادٍ﴾ الباغي من البغي والعادي من العدوان ، وهما بمعنى الظلم وتجاوز الحدّ ﴿يزكّيهم﴾ يطهرهم من التزكية وهي التطهير ﴿شقاق﴾ الشقاق : الخلاف والعداوة .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ

التفسير : ﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً﴾ الخطاب عام لجميع البشر أي كلوا مما أحله الله لكم من الطيبات حال كونه مستطاباً في نفسه غير ضار بالأبدان والعقول ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ أي لا تقتدوا بآثار الشيطان فيما يزينه لكم من المعاصي والفواحش ﴿إنه لكم عدوٌ مبين﴾ أي إنه عظيم العداوة لكم وعداوته ظاهرة لا تخفى على عاقل ﴿إنما يأمركم بالسوء والفحشاء﴾ أي لا يأمركم الشيطان بما فيه خير إنما يأمركم بالمعاصي والمنكرات وما تناهى في القبح من الرذائل ﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ أي وأن تفتروا على الله بتحريم ما أحل لكم وتحليل ما حرّم عليكم فتحلوا وتحرّموا من تلقاء أنفسكم ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله﴾ أي وإذا قيل للمشركين اتبعوا ما أنزل الله على رسوله من الوحي والقرآن واتركوا ما أنتم عليه من الضلال والجهل ﴿قالوا بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا﴾ أي بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، قال تعالى في الردّ عليهم ﴿أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾ أي أيتّبعون آباءهم ولو كانوا سفهاء أغبياء ليس لهم عقل يردعهم عن الشر ولا بصيرة تنير لهم الطريق ؟ والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتعجيب من حالهم في تقليدهم الأعمى للآباء ، ثم ضرب تعالى مثلاً للكافرين في غاية الوضوح والجلاء فقال تعالى ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً﴾ أي ومثل الكفار في عدم انتفاعهم بالقرآن وحججه الساطعة ومثل من يدعوهم إلى الهدى كمثل الراعي الذي يصيح بغنمه ويزجرها فهي تسمع الصوت والنداء دون أن تفهم الكلام والمراد ،أو تدرك المعنى الذي يقال لها ، فهؤلاء الكفار كالدواب السارحة لا يفهمون ما تدعوهم إليه ولا يفقهون ، يسمعون القرآن ويصمّون عنه الآذان ﴿إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾ ولهذا قال تعالى ﴿صمٌ بكم عمي فهم لا يعقلون﴾ أي صمٌ عن سماع الحق ، بكم أي خرسٌ عن النطق به عميٌ عن رؤيته فهم لا يفقهون ما يقال لهم لأنهم أصبحوا كالدواب فهم في ضلالهم يتخبطون . وخلاصة المثل ـ والله أعلم ـ مثل الذين كفروا كالبهائم التي لا تفقه ما يقول الراعي أكثر من سماع الصوت دون أن تفهم المعنى وهو خلاصة قول ابن عباس ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ خاطب المؤمنين لأنهم الذين ينتفعون بالتوجيهات الربانية والمعنى كلوا يا أيها المؤمنون من المستلذات وما طاب من الرزق الحلال الذي رزقكم الله إياه ﴿واشكروا لله إن كنتم إيّاه تعبدون﴾ أي واشكروا الله على نعمه التي لا تحصى إن كنتم تخصونه بالعبادة ولا تعبدون

ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿١٧٦﴾ *

أحداً سواه ﴿إنّما حرّم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير﴾ أي ما حرّم عليكم إلا الخبائث كالميتة والدم ولحم الخنزير ﴿وما أهلّ به لغير الله﴾ أي وما ذبح للأصنام فذكر عليه اسم غير الله كقولهم باسم اللات والعزّى ﴿فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ﴾ أي فمن ألجأته ضرورة إلى أكل شيء من المحرمات بشرط ألا يكون ساعياً في فساد ، ولا متجاوزاً مقدار الحاجة ﴿فلا إثم عليه﴾ أي فلا عقوبة عليه في الأكل ﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي يغفر الذنوب ويرحم العباد ومن رحمته أن أباح المحرمات وقت الضرورة ﴿إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب﴾ أي يخفون صفة النبي عليه السلام المذكورة في التوراة وهم اليهود قال ابن عباس : نزلت في رؤساء اليهود حين كتموا نعت النبي ﷺ ﴿ويشترون به ثمناً قليلاً﴾ أي يأخذون بدله عوضاً حقيراً من حطام الدنيا ﴿أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار﴾ أي إنما يأكلون ناراً تأجّج في بطونهم يوم القيامة لأن أكل ذلك المال الحرام يفضي بهم إلى النار ﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة﴾ أي لا يكلمهم كلام رَضىً كما يكلم المؤمنين بل يكلمهم كلام غضب كقوله ﴿اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾ ﴿ولا يزكيهم﴾ أي يطهرهم من دنس الذنوب ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي عذاب مؤلم وهو عذاب جهنم ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾ أي أخذوا الضلالة بدل الهدى والكفر بدل الإيمان ﴿والعذاب بالمغفرة﴾ أي واستبدلوا الجحيم بالجنة ﴿فما أصبرهم على النار﴾ أي ما أشدّ صبرهم على نار جهنم ؟ وهو تعجيب للمؤمنين من جراءة أولئك الكفار على اقتراف أنواع المعاصي ثم قال تعالى مبيناً سبب النكال والعذاب ﴿ذلك بأن الله نزّل الكتاب بالحق﴾ أي ذلك العذاب الأليم بسبب أن الله أنزل كتابه ﴿التوراة﴾ ببيان الحق فكتموا وحرّفوا ما فيه ﴿وإن الذين اختلفوا في الكتاب﴾ أي اختلفوا في تأويله وتحريفه ﴿لفي شقاق بعيد﴾ أي في خلاف بعيد عن الحق والصواب ، مستوجب لأشدّ العذاب .

سَبَبُ النّزول : قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في رؤساء اليهود : كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وحيي بن أخطب كانوا يأخذون من أتباعهم الهدايا ، فلما بعث محمد عليه السلام خافوا انقطاع تلك المنافع فكتموا أمر محمد وأمر شرائعه فنزلت ﴿إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب . .﴾[1] الآية .

البَـلاغَـة : ١ - ﴿خطوات الشيطان﴾ استعارة عن الاقتداء به واتباع آثاره قال في تلخيص البيان :

(١) الفخر الرازي ٥/ ٢٨ .

وهي أبلغ عبارة عن التحذير من طاعته فيما يأمر به وقبول قوله فيما يدعو إلى فعله[١] .

٢ ـ ﴿السوء والفحشاء﴾ هو من باب « عطف الخاص على العام » لأن السوء يتناول جميع المعاصي ، والفحشاء أقبح وأفحش المعاصي .

٣ ـ ﴿ومثل الذين كفروا﴾ فيه تشبيه (مرسل ومجمل) مرسل لذكر الأداة ومجمل لحذف وجه الشبه فقد شبه الكفار بالبهائم التي تسمع صوت المنادي دون أن تفقه كلامه وتعرف مراده .

٤ ـ ﴿صمٌ بكمٌ عمي﴾ حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فهو « تشبيه بليغ » أي هم كالصم في عدم سماع الحق وكالعمي وكالبكم في عدم الانتفاع بنور القرآن .

٥ ـ ﴿ما يأكلون في بطونهم إلا النار﴾ مجاز مرسل باعتبار ما يؤول إليه أي إنما يأكلون المال الحرام الذي يفضي بهم إلى النار وقوله ﴿في بطونهم﴾ زيادة تشنيع وتقبيح لحالهم وتصويرهم بمن يتناول رضف جهنم ، وذلك أفظع سماعاً وأشد إيجاعاً .

٦ ـ ﴿اشتروا الضلالة بالهدى﴾ استعارة والمراد استبدلوا الكفر بالإيمان وقد تقدّم في أول السورة إجراء هذه الاستعارة .

الفوائد : الأولى : عن ابن عباس قال : تليت هذه الآية عند النبي ﷺ ﴿يا أيها الناس كلوا ممّا في الأرض حلالاً طيباً﴾ فقام سعد بن أبي وقاص فقال يا رسول الله : أدع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة ! فقال يا سعد : أطبْ مطعمَك تكنْ مستجابَ الدعوة ، والذي نفسُ محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبَّلُ منه أربعين يوماً ، وأيّما عبدٍ نبت لحمه من السُّحتِ والربا فالنارُ أولى به[٢] .

الثانية : قال بعض السلف : « يدخل في اتباع خطوات الشيطان كلُّ معصية لله ، وكل نذرٍ في المعاصي قال الشعبي : نذر رجلٌ أن ينحر ابنه فأفتاه مسروقٌ بذبح كبش وقال : هذا من خطوات الشيطان »[٣] .

الثالثة : قال ابن القيم في أعلام الموقعين عن قوله تعالى ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً﴾ قال : لك أن تجعل هذا من التشبيه المركب ، وأن تجعله من التشبيه المفرّق ، فإن جعلته من المركب كان تشبيهاً للكفار ـ في عدم فقههم وانتفاعهم ـ بالغنم التي ينعق بها الراعي فلا تفقه من قوله شيئاً غير الصوت المجرّد الذي هو الدعاء والنداء ، وإن جعلته من التشبيه المفرّق : فالذين كفروا بمنزلة البهائم ، ودعاء داعيهم إلى الطريق والهدى بمنزلة الذي ينعق بها ، ودعاؤهم إلى الهدى بمنزلة النعق ، وإدراكهم مجرد الدعاء والنداء كإدراك البهائم مجرد صوت الناعق والله أعلم .

* * *

(١) تلخيص البيان ص ١١ . (٢) أخرجه الحافظ ابن مردويه . (٣) محاسن التأويل ٣/ ٣٦٨

قال الله تعالى : ﴿ليس البرَّ أن تولُّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب . . إلى . . فأصلح بينهم فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم﴾ من آية (١٧٧) إلى نهاية آية (١٨٢).

المناسبة : من هنا بداية النصف الثاني من السورة الكريمة على وجه التقريب ، ونصف السورة السابق كان متعلقاً بأصول الدين وبقبائح بني إسرائيل ، وهذا النصف غالبه متعلق بالأحكام التشريعية الفرعية ، ووجه المناسبة أنه تعالى ذكر في الآية السابقة أنّ أهل الكتاب اختلفوا في دينهم اختلافاً كبيراً صاروا بسببه في شقاق بعيد ، ومن أسباب شقاقهم أمر القبلة إذ أكثروا الخوض فيه وأنكروا على المسلمين التحول إلى استقبال الكعبة ، وادّعى كلٌ من الفريقين ـ اليهود والنصارى ـ أن الهدى مقصور على قبلته ، فردّ الله عليهم وبيَّن أن العبادة الحقة وعمل البرّ ليس بتوجه الإنسان جهة المشرق والمغرب ، ولكن بطاعة الله وامتثال أوامره وبالإيمان الصادق الراسخ .

اللغة : ﴿البرُّ﴾ اسم جامع للطاعات وأعمال الخير ﴿الرقاب﴾ جمع رقبة وهي في الأصل العُنقُ ، وتطلق على البدن كله كما تطلق العين على الجاسوس والمراد في الآية الأسرى والأرقاء ﴿البأساء﴾ الفقر ﴿الضرّاء﴾ السُّقم والوجع ﴿البأس﴾ القتال وأصل البأس في اللغة : الشدّة ﴿كتب﴾ فرض ﴿القصاص﴾ العقوبة بالمثل من قتل أو جرح مأخوذ من القصّ وهو تتبع الأثر ﴿وقالت لأخته قُصّيه﴾ أي اتبعي أثره ﴿القتلى﴾ جمع قتيل يستوي فيه المذكر والمؤنث يقال : رجل قتيل وامرأة قتيل ﴿الألباب﴾ العقول جمع لب مأخوذ من لبّ النخلة ﴿إثماً﴾ الإثم : الذنب ﴿جنفاً﴾ الجنف : العدول عن الحق على وجه الخطأ .

سبب النزول : عن قتادة أن أهل الجاهلية كان فيهم بغيٌ وطاعةٌ للشيطان ، وكان الحيُّ منهم إذا كان فيهم منعة فقتل عبدُهم عبد آخرين قالوا لن نقتل به إلا حراً ، وإذا قتلت امرأةٌ منهم امرأةً من آخرين قالوا لن نقتل بها إلا رجلاً فأنزل الله ﴿الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى﴾[1] .

لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى

التفسير : ﴿ليس البرَّ أن تولوا وجوهكم قِبَل المشرق والمغرب﴾ أي ليس فعلُ الخير وعملُ الصالح محصوراً في أن يتوجه الإنسان في صلاته جهة المشرق أو المغرب ﴿ولكنَّ البرَّ من آمن بالله واليوم الآخر﴾ أي ولكنَّ البرَّ الصحيح هو الإيمان بالله واليوم الآخر ﴿والملائكة والكتاب والنبيّين﴾ أي وأن يؤمن بالملائكة والكتب والرسل ﴿وآتى المال على حبه ذوي القربى﴾ أي أعطى المال على محبته له ذوي قرابته فهم

(١) الدر المنثور ١/ ١٧٣ .

ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ

أولى بالمعروف ﴿واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ أي وأعطى المال أيضاً لليتامى الذين فقدوا آباءهم والمساكين الذين لا مال لهم ، وابن السبيل المسافر المنقطع عن ماله ﴿والسائلين وفي الرقاب﴾ أي الذين يسألون المعونة بدافع الحاجة وفي تخليص الأسرى والأرقاء بالفداء ﴿وأقام الصلاة وآتى الزكاة﴾ أي وأتى بأهم أركان الإسلام وهما الصلاة والزكاة ﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾ أي ومن يوفون بالعهود ولا يخلفون الوعود ﴿والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس﴾ أي الصابرين على الشدائد وحين القتال في سبيل الله وهو منصوب على المدح ﴿أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾ أي أهل هذه الأوصاف هم الذين صدقوا في إيمانهم وأولئك هم الكاملون في التقوى ، وفي الآية ثناء على الأبرار وإيحاء إلى ما يلاقونه من اطمئنان وخيراتٍ حسان . ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى﴾ أي فرض عليكم أن تقتصوا للمقتول من قاتله بالمساواة دون بغي أو عدوان ﴿الحرُّ بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى﴾ أي اقتصوا من الجاني فقط فإذا قتل الحرُّ الحرَّ فاقتلوه به ، وإذا قتل العبد العبد فاقتلوه به ، وكذلك الأنثى إذا قتلت الأنثى ، مثلاً بمثلٍ ولا تعتدوا فتقتلوا غير الجاني ، فإن أخذ غير الجاني ليس بقصاص بل هو ظلم واعتداء ﴿فمن عفُي له من أخيه شيء﴾ أي فمن تُرك له من دم أخيه المقتول شيء ، بأن ترك وليُّه القود وأسقط القصاص راضياً بقبول الدية ﴿فاتباعٌ بالمعروف وأداءٌ إليه بإحسان﴾ أي فعلى العافي اتباعٌ للقاتل بالمعروف بأن يطالبه بالدية بلا عنفٍ ولا إرهاق ، وعلى القاتل أداءٌ للدية إلى العافي - ولي المقتول - بلا مطل ولا بخس ﴿ذلك تخفيف من ربكم ورحمة﴾ أي ما شرعته لكم من العفو إلى الدية تخفيف من ربكم عليكم ورحمة منه بكم ، ففي الدية تخفيف على القاتل ونفعٌ لأولياء القتيل ، وقد جمع الإسلام في عقوبة القتل بين العدل والرحمة ، فجعل القصاص حقاً لأولياء المقتول إذا طالبوا به وذلك عدل ، وشرع الدية إذا أسقطوا القصاص عن القاتل وذلك رحمة ﴿فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم﴾ أي فمن اعتدى على القاتل بعد قبول الدية فله عذاب أليم في الآخرة ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب﴾ أي ولكم - يا أولي العقول - فيما شرعت من القصاص حياةٌ وأيُّ حياة لأنه من علم أنه إذا قتل نفساً قُتل بها يرتدع وينزجر عن القتل ، فيحفظ حياته وحياة من أراد قتله وبذلك تُصان الدماء وتُحفظ حياة الناس ﴿لعلكم تتقون﴾ أي لعلكم تنزجرون وتتقون محارم الله ومآثمه ﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموتُ﴾ أي فرض عليكم

﴿وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾

إذا أشرف أحدكم على الموت وقد ترك مالاً كثيراً ﴿الوصية للوالدين والأقربين﴾ أي وجب عليه الإيصاء للوالدين والأقربين ﴿بالمعروف حقاً على المتقين﴾ أي بالعدل بأن لا يزيد على الثلث وألا يوصي للأغنياء ويترك الفقراء، حقاً لازماً على المتقين لله وقد كان هذا واجباً قبل نزول آية المواريث ثم نسخ بآية المواريث ﴿فمن بدّله بعدما سمعه﴾ أي من غيَّر هذه الوصية بعد ما علمها من وصيّ أو شاهد ﴿فإنما إثمه على الذين يبدّلونه﴾ أي إثم هذا التبديل على الذين بدّلوه لأنهم خانوا وخالفوا حكم الشرع ﴿إن الله سميع عليم﴾ فيه وعيد شديد للمبدّلين ﴿فمن خاف من موص جنفاً﴾ أي فمن علم أو ظنّ من الموصي ميلاً عن الحق بالخطأ ﴿أو إثماً﴾ أي ميلاً عن الحق عمداً ﴿فأصلح بينهم فلا إثم عليه﴾ أي أصلح بين الموصي والموصَى له فلا ذنب عليه بهذا التبديل ﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي واسع المغفرة والرحمة لمن قصد بعمله الإصلاح.

البَلاغَة: ١ - ﴿ولكنَّ البرَّ من آمن﴾ جعل البرَّ نفس من آمن على طريق المبالغة وهذا معهود في كلام البلغاء إذ تجدهم يقولون: السخاء حاتم، والشعر زهيرٌ أي أن السخاء سخاء حاتم، والشعر شعر زهير، وعلى هذا خرّجه سيبويه حيث قال في كتابه قال جلّ وعز: ﴿ولكنَّ البرَّ من آمن﴾ وإنما هو ولكنَّ البر برُّ من آمن بالله انتهى[1] ونظير ذلك أن تقول: ليس الكرم أن تبذل درهماً ولكنَّ الكرم بذل الآلاف فلا يناسب ولكنَّ الكريم من يبذل الآلاف.

٢ - ﴿وفي الرقاب﴾ إيجاز بالحذف أي وفي فك الرقاب يعني فداء الأسرى، وفي لفظ الرقاب «مجاز مرسل» حيث أطلق الرقبة وأراد به النفس وهو من إطلاق الجزء وإرادة الكل.

٣ - ﴿والصابرين في البأساء﴾ الأصل أن يأتي مرفوعاً كقوله ﴿والموفون بعهدهم﴾ وإنما نصب على الاختصاص أي وأخصُّ بالذكر الصابرين وهذا الأسلوب معروف بين البلغاء فإذا ذُكرت صفاتٌ للمدح أو الذم وخولف الإعراب في بعضها فذلك تفننٌ ويسمى قطعاً لأن تغيير المألوف يدل على مزيد اهتمام بشأنه وتشويق لسماعه.

٥ - ﴿أولئك الذين صدقوا﴾ الجملة جاء الخبر فيها فعلاً ماضياً «صدقوا» لإفادة التحقيق وأن ذلك وقع منهم واستقر، وأتى بخبر الثانية في جملة اسمية ﴿أولئك هم المتقون﴾ ليدل على الثبوت وأنه ليس متجدداً بل صار كالسجية لهم ومراعاة للفاصلة أيضاً.

٦ - ﴿حقاً على المتقين﴾ ذكر المتقين من باب الإلهاب والتهييج.

---

(١) البحر المحيط ٢/٣.

٧ ـ الطباق بين ﴿اتباعٌ﴾ و﴿أداء﴾ وبين ﴿الحر﴾ و﴿العبد﴾ .

الفـوائـد : الأولى : في ذكر الأخوة تعطفٌ داع إلى العفو فقد سمّى الله القاتل أخاً لولي المقتول ﴿فمن عفي له من أخيه شيء﴾ تذكيراً بالأخوَّة الدينية والبشرية حتى يهزّ عطف كل واحد منهما إلى الآخر فيقع بينهم العفو والاتباع بالمعروف والأداء بالإحسان .

الثانية : كان في بني إسرائيل القصاص ولم يكن فيهم الدية ، وكان في النصارى الدية ولم يكن فيهم القصاص ، فأكرم الله هذه الأمة المحمدية وخيرّها بين القصاص والدية والعفو ، وهذا من يسر الشريعة الغراء التي جاء بها سيِّد الأنبياء ﷺ .

الثالثة : اتفق علماء البيان على أن هذه الآية ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ بالغة أعلى درجات البلاغة ، ونقل عن العرب في هذا المعنى قولهم : القتل أنفى للقتل ، ولكنْ لورود الحكمة في القرآن فضلُ من ناحية حسن البيان ، وإذا شئتَ أن تزداد خبرة بفضل بلاغة القرآن وسمو مرتبته على مرتبة ما نطق به بلغاء البشر فانظر إلى العبارتين فإنك تجد من نفحات الإعجاز ما ينبهك لأن تشهد الفرق بين كلام الخالق وكلام المخلوق ، أما الحكمة القرآنية فقد جعلت سبب الحياة القصاصُ وهو القتل عقوبةً على وجه التماثل ، والمثل العربي جعل سبب الحياة القتلُ ، ومن القتل ما يكون ظلماً فيكون سبباً للفناء وتصحيحُ العبارة أن يقال : القتل قصاصاً أنفى للقتل ظلماً ، والآية جاءت خالية من التكرار اللفظي والمثل كرر فيه لفظ القتل فمسَّه بهذا التكرار من الثقل ما سلمت منه الآية ، ومن الفروق الدقيقة بينهما أن الآية جعلت القصاص سبباً للحياة والمثل جعل القتل سبباً لنفي القتل وهو لا يستلزم الحياة الخ وقد عدّ العلماء عشرين وجهاً من وجوه التفريق بين الآية القرآنية واللفظة العربية وقد ذكرها السيوطي في الإتقان فارجع إليه تجد فيه شفاء العليل .

* * *

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام . . إلى . . كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون﴾ من آية (١٨٣) إلى نهاية آية (١٨٧).

المناسبة : ذكر تعالى في الآيات السابقة حكم القصاص ثم عقبه بحكم الوصية للوالدين والأقربين ، ثم بأحكام الصيام على وجه التفصيل لأن هذا الجزء من السورة الكريمة يتناول جانب الأحكام التشريعية ولما كان الصوم من أهم الأركان ذكره الله تعالى هنا ليهيء عباده إلى منازل القدس ومعارج المتقين الأبرار .

اللغة : ﴿الصيام﴾ في اللغة : الإمساك عن الشيء قال أبو عبيدة : كل ممسك عن طعام أو كلام أو سير فهو صائم قال الشاعر :

خيلٌ صيامٌ وخيلٌ غير صائمةٍ تحت العَجاج وأخرى تعلك اللُّجما

وفي الشرع : الإمساك عن الطعام والشراب والجماع في النهار مع النيّة ﴿يطيقونـه﴾ أي يصومونـه بعسر ومشقة قال الراغب : الطاقة اسمٌ لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله مع المشقة وشبِّه بالطوق المحيط بالشيء[1] ﴿فدية﴾ ما يفدي به الإنسان نفسه من مالٍ وغيره ﴿شهر﴾ من الاشتهار وهو الظهور ﴿رمضان﴾ من الرّمض وهو شدة الحر والرمضاء شدة حر الشمس وسمي رمضان لأنه يرمض الذنوب أي يحرقها ﴿الرفث﴾ الجماع ودواعيه وأصله قولُ الفحش ثم كنّي به عن الجماع قال الشاعر :

ويُرَيْن من أُنس الحديثِ زوانياً وبهنَّ عن رفث الرجال نِفَار

﴿تختانون﴾ قال في اللسان : خانه واختانه والمخانة مصدر من الخيانة وهي ضد الأمانة وسئل بعضهم عن السيف فقال : أخوك وإن خانك ﴿عاكفون﴾ الإعتكاف في اللغة : اللبث واللزوم وفي الشرع : المكث في المسجد للعبادة ﴿حدود الله﴾ الحدّ في اللغة : المنع وأصله الحاجز بين الشيئين المتقابلين وسميت الأحكام حدوداً لأنها تحجز بين الحق والباطل .

سَبَبُ النّزول : روي أن جماعة من الأعراب سألوا النبيﷺ فقالوا : يا محمد أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب﴾ الآية .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى

التفسير : ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ ناداهم بلفظ الإيمان ليحرك فيهم مشاعر الطاعة ويُذْكي فيهم جَذْوة الإيمان ﴿كُتِب عليكم الصيام﴾ أي فرض عليكم صيام شهر رمضان ﴿كما كتب على الذين من قبلكم﴾ أي كما فرض على الأمم قبلكم ﴿لعلكم تتقون﴾ أي لتكونوا من المتقين لله المجتنبين لمحارمه ﴿أياماً معدودات﴾ أي والصيام أيامه معدودات وهي أيام قلائل ، فلم يفرض عليكم الدهر كله تخفيفاً ورحمةً بكم ﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفرٍ فعدةٌ من أيام أُخَر﴾ أي من كان به مرضٌ أو كان مسافراً فأفطر فعليه قضاء عدة ما أفطر من أيام غيرها ﴿وعلى الذين يطيقونه فديةٌ طعام مسكين﴾ أي وعلى الذين يستطيعون صيامه مع المشقة لشيخوخةٍ أو ضعفٍ إذا أفطروا عليهم فدية بقدر طعام مسكين لكل يوم ﴿فمن تطوّع خيراً﴾ أي فمن زاد على القدر المذكور في الفدية ﴿فهو خيرٌ له﴾ ثم قال تعالى ﴿وأن تصوموا خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي والصوم خير لكم من الفطر والفدية إن كنتم تعلمون ما في الصوم من أجر وفضيلة ، ثم بيّن تعالى وقت الصيام فقال ﴿شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾ أي والأيام المعدودات التي فرضتها عليكم أيها المؤمنون هي شهر رمضان

(١) مفردات القرآن ص ٣١٢ .

لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ

الذي أبتدأ فيه نزول القرآن حال كونه هداية للناس لما فيه من إرشاد وإعجاز وآيات واضحات تفرق بين الحق والباطل ﴿**فمن شهد منكم الشهر فليصمه**﴾ أي من حضر منكم الشهر فليصمه ﴿**ومن كان مريضاً أو على سفرٍ فعدة من أيام أُخر**﴾ أي ومن كان مريضاً أو مسافراً فأفطر فعليه صيام أيام أخر ، وكرّر لئلا يتوهم نسخه بعموم لفظ شهود الشهر ﴿**يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر**﴾ أي يريد الله بهذا الترخيص التيسير عليكم لا التعسير ﴿**ولتكملوا العدّة**﴾ أي ولتكملوا عدة شهر رمضان بقضاء ما أفطرتم ﴿**ولتكبروا الله على ما هداكم**﴾ أي ولتحمدوا الله على ما أرشدكم إليه من معالم الدين ﴿**ولعلكم تشكرون**﴾ أي ولكي تشكروا الله على فضله وإحسانه . . ثم بيّن تعالى أنه قريب يجيب دعوة الداعين ويقضي حوائج السائلين فقال ﴿**وإذا سألك عبادي عني فإني قريب**﴾ أي أنا معهم أسمع دعاءهم ، وأرى تضرعهم وأعلم حالهم كقوله ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ ﴿**أجيب دعوة الداع إذا دعان**﴾ أي أجيب دعوة من دعاني إذا كان عن إيمانٍ وخشوع قلب ﴿**فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون**﴾ أي إذا كنت أنا ربكم الغني عنكم أجيب دعاءكم فاستجيبوا أنتم لدعوتي بالإيمان بي وطاعتي ودوموا على الإيمان لتكونوا من السعداء الراشدين . . ثم شرع تعالى في بيان تتمة أحكام الصيام بعد أن ذكر آية القرب والدعاء فقال ﴿**أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم**﴾ أي أبيح لكم أيها الصائمون غشيان النساء في ليالي الصوم ﴿**هنَّ لباسٌ لكم وأنتم لباسٌ لهنّ**﴾ قال ابن عباس : هنَّ سكنٌ لكم وأنتم سكنٌ لهن ﴿**علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم**﴾ أي تخونونها بمقارفة الجماع ليلة الصيام وكان هذا محرماً في صدر الإسلام ثم نسخ ،روى البخاري عن البراء رضي الله عنه قال : لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله ، وكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم﴾ الآية ﴿**فتاب عليكم وعفا عنكم**﴾ أي فقبل توبتكم وعفا عنكم لما فعلتموه قبل النسخ ﴿**فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم**﴾ أي جامعوهن في ليالي الصوم واطلبوا بنكاحهن الولد ولا تباشروهن لقضاء الشهوة فقط ﴿**وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر**﴾ أي كلوا

﴿فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

واشربوا إلى طلوع الفجر ﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ أي أمسكوا عن الطعام والشراب والنكاح إلى غروب الشمس ﴿ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد﴾ أي لا تقربوهن ليلاً أو نهاراً ما دمتم معتكفين في المساجد ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾ أي تلك أوامر الله وزواجره وأحكامه التي شرعها لكم فلا تخالفوها ﴿كذلك يبيّن الله آياته للناس لعلهم يتقون﴾ أي يتقون المحارم .

البَلاَغَة : ١ - ﴿كما كتب﴾ التشبيه في الفرضية لا في الكيفية أي فرض الصيام عليكم كما فرض على الأمم قبلكم وهذا التشبيه يسمى « مرسلاً مجملاً » .

٢ - ﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفر﴾ فيه إيجاز بالحذف أي من كان مريضاً فأفطر ، أو على سفرٍ فأفطر فعليه قضاء أيام بعدد ما أفطر .

٣ - ﴿وعلى الذين يطيقونه﴾ في تفسير الجلالين قدّره بحذف « لا » أي لا يطيقونه ، ولا ضرورة لهذا الحذف لأن معنى الآية يطيقونه بجهدٍ شديد وذلك كالشيخ الهرم والحامل والمرضع فهم يستطيعونه لكن مع المشقة الزائدة ، والطاقةُ اسم لمن كان قادراً على الشيء مع الشدة والمشقة .

٤ - ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى بـ « طباق السلب » .

٥ - ﴿الرفث إلى نسائكم﴾ الرفث كناية عن الجماع وعدّي بـ « إلى » لتضمنه معنى الإفضاء وهو من الكنايات الحسنة كقوله ﴿فلما تغشّاها﴾ وقوله ﴿فأتوا حرثكم﴾ وقوله ﴿فالآن باشروهن﴾ قال ابن عباس : إن الله عز وجل كريم حليمٌ يكني[1] .

٦ - ﴿هنَّ لباسٌ لكم وأنتم لباسٌ لهنَّ﴾ استعارة بديعة شبّه كل واحد من الزوجين لاشتماله على صاحبه في العناق والضم باللباس المشتمل على لابسه قال في تلخيص البيان : « المراد قرب بعضهم من بعض واشتمال بعضهم على بعض كما تشتمل الملابس على الأجسام فاللباس استعارة[2] .

٧ - ﴿الخيط الأبيض من الخيط الأسود﴾ قال الشريف الرضي : وهذه استعارة عجيبة والمراد بهما بياض الصبح وسواد الليل والخيطان ههنا مجاز وإنما شبههما بذلك لأن بياض الصبح يكون في أول طلوعه مشرقاً خافياً ، ويكون سواد الليل منقضياً مولّياً ، فهما جميعاً ضعيفان إلا أن هذا يزداد انتشاراً وهذا يزداد استسراراً ، وذهب الزمخشري إلى أنه من التشبيه البليغ .

الفَوَائِد : الأولى : روي عن الحسن أنه قال : إن الله تعالى فرض صيام رمضان على اليهود

(١) روائع البيان ١/ ١٩٠ تلخيص البيان ص ١٢ . (٢) انظر الكشاف ١/ ١٧٥ .

والنصارى ، أما اليهود فإنها تركت هذا الشهر وصامت يوماً من السنة زعموا أنه يوم غرق فيه فرعون ، وأما النصارى فإنهم صاموا رمضان فصادفوا فيه الحر الشديد فحولوه إلى وقت لا يتغير ثم قالوا عند ذلك نزيد فيه فزادوا عشراً ، ثم بعد زمانٍ اشتكى[١] ملكهم فنذر سبعاً فزادوه، ثم جاء بعد ذلك ملك آخر فقال : ما بال هذه الثلاثة فأتمه خمسين يوماً وهذا معنى قوله تعالى ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً﴾[٢] .

الثانية : قال الحافظ ابن كثير : وفي ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللة بين أحكام الصيام ﴿وإذا سألك عبادي عني﴾ إرشادٌ إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة بل وعند كل فطر لحديث (إنّ للصائم عند فطره دعوة ما تُرد) وكان عبد الله بن عمرو يقول إذا أفطر : اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن تغفر لي .

الثالثة : ظاهر نظم الجملة ﴿وإذا سألك عبادي عني﴾ أنهم سألوا عن الله ، والسؤال لا يكون عن الذات وإنما يكون عن شأن من شئونها فقوله في الجواب ﴿فإني قريب﴾ يدل على أنهم سألوا عن جهة القرب أو البعد ، ولم يصدر الجواب بـ « قل » أو فقل كما وقع في أجوبة مسائلهم الواردة في آيات أخرى نحو ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً﴾ بل تولّى جوابهم بنفسه إشعاراً بفرط قربه منهم ، وحضوره مع كل سائل بحيث لا تتوقف إجابته على وجود واسطة بينه وبين السائلين من ذوي الحاجات .

الرابعة : قال الإمام ابن تيمية « وهو سبحانه فوق العرش رقيب على خلقه مهيمن عليهم مطّلعٌ إليهم فدخل في ذلك الإيمان بأنه قريب من خلقه » وفي الصحيح (إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته) وما ذكر في الكتاب والسنة من قربه ومعيته لا ينافي ما ذكر من علوّه وفوقيته فإنه سبحانه ليس كمثله شيء .

الخامسة : عبّر المولى جل وعلا عن المباشرة الجنسية التي تكون بين الزوجين بتعبير سام لطيف ، لتعليمنا الأدب في الأمور التي تتعلق بالجنس والنساء ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنه : إن الله عزّ وجل كريم حليم يكْني .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل . . إلى . . وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾

من آية (١٨٨) إلى نهاية آية (١٩٥).

المناسبة : لما بيّن تعالى في الآيات السابقة أحكام الصيام وأباح للمؤمنين الاستمتاع بالطعام والشراب والنكاح في ليالي رمضان عقّبه بالنهي عن أكل الأموال بغير حق لأن المسلم لا يصح له أن يستمتع بالمال الحرام لا في ليالي رمضان ولا غيره ، ولما كان حديث الصيام يتصل برؤية الهلال وهذا ما يحرك في النفوس خاطر السؤال عن الأهلة جاءت الآيات الكريمة تبيّن أن الأهلة مواقيت لعبادات الناس في الصيام وسائر أنواع القربات .

(١) اشتكى : أي مرضاً .
(٢) التفسير الكبير ٥/ ٧٦ .

اللغــة : ﴿الباطل﴾ في اللغة : الزائل الذاهب يقال : بطل الشيء بطولاً فهو باطل وفي الشرع هو المال الحرام كالغصب والسرقة والقمار والربا ﴿وتدلوا﴾ الإدلاء في الأصل : إرسال الدلو في البئر ثم جعل كل إلقاء أو دفع لقول أو فعل إدلاءً يقال : أدلى بحجته أي أرسلها والمراد بالإدلاء هنا الدفع إلى الحاكم بطريق الرشوة ﴿الأهلة﴾ جمع هلال وهو أول حال القمر حين يراه الناس ثم يصبح قمراً ثم بدراً حين يتكامل نوره ﴿مواقيت﴾ جمع ميقات وهو الوقت كالميعاد بمعنى الوعد وقيل : الميقات منتهى الوقت ﴿ثقفتموهم﴾ ثقِفَ الشيءَ إذا ظفر به ووجده على جهة الأخذ والغلبة ، ورجل ثَقِفٌ سريع الأخذ لأقرانه قال الشاعر :

فإمّا تثقفوني فاقتلوني ... فمنْ أثْقفْ فليس إلى خلود

﴿التَّهلُكة﴾ الهلاكُ يقال هَلَك يهلِكُ هَلاكاً وتَهْلُكةً .

سَبَبُ النّزول : روي أن بعض الصحابة قالوا يا رسول الله : ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط ثم يزيد حتى يمتلىء ويستوي ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدا لا يكون على حالة واحدة كالشمس فنزلت ﴿يسألونك عن الأهلة . .﴾[1] الآية .

روي أن الأنصار كانوا إذا أحرم الرجل منهم في الجاهلية لم يدخل بيتاً من بابه بل كان يدخل من نقبٍ في ظهره ، أو يتخذ سُلّماً يصعد فيه فنزل قوله تعالى ﴿وليس البرُّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾ .

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾

التفسير : ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ أي لا يأكل بعضكم أموال بعض بالوجه الذي لم يبحه الله ﴿وتدلوا بها إلى الحكام﴾ أي تدفعوها إلى الحكام رشوة ﴿لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم﴾ أي ليعينوكم على أخذ طائفة من أموال الناس بالباطل ﴿وأنتم تعلمون﴾ أنكم مبطلون تأكلون الحرام ﴿يسألونك عن الأهلة﴾ أي يسألونك يا محمد عن الهلال لم يبدو دقيقاً مثل الخيط ثم يعظم ويستدير ثم ينقص ويدق حتى يعود كما كان ؟ ﴿قل هي مواقيت للناس والحج﴾ أي فقل لهم إنها أوقات لعباداتكم ومعالم تعرفون بها مواعيد الصوم والحج والزكاة ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾ أي ليس البر بدخولكم المنازل من ظهورها كما كنتم تفعلون في الجاهلية ﴿ولكنَّ البرَّ من اتقى﴾ أي ولكنَّ العمل الصالح الذي يقرّبكم من الله في اجتناب محارم الله ﴿وأتوا البيوت من أبوابها﴾ ادخلوها كعادة الناس من الأبواب ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ أي اتقوا الله لتسعدوا وتظفروا برضاه ﴿وقاتلوا في

(١) الرازي ٥/١٣٢ وأسباب النزول للواحدي ص ٢٨ .

ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾

سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾ أي قاتلوا لإعلاء دين الله من قاتلكم من الكفار **﴿ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾** أي لا تبدءوا بقتالهم فإنه تعالى لا يحب من ظلم أو اعتدى ، وكان هذا في بدء أمر الدعوة ثم نسخ بآية براءة ﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾ وقيل نسخ بالآية التي بعدها وهي قوله **﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾** أي اقتلوهم حيث وجدتموهم في حلّ أو حرم **﴿وأخرجوهم من حيث أخرجوكم﴾** أي شرّدوهم من أوطانهم وأخرجوهم منها كما أخرجوكم من مكة **﴿والفتنة أشد من القتل﴾** أي فتنة المؤمن عن دينه أشدُّ من قتله ، أو كفر الكفار أشد وأبلغ من قتلكم لهم في الحرم ، فإذا استعظموا القتال فيه فكفرهم أعظم **﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه﴾** أي لا تبدءوهم بالقتال في الحرم حتى يبدءوا هم بقتالكم فيه **﴿فإن قاتلوكم فاقتلوهم﴾** أي إن بدءوكم بالقتال فلكم حينئذٍ قتالهم لأنهم انتهكوا حرمته والبادي بالشر أظلم **﴿ كذلك جزاء الكافرين﴾** أي هذا الحكم جزاء كل من كفر بالله **﴿فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم﴾** أي فإن انتهوا عن الشرك وأسلموا فكفّوا عنهم فإن الله يغفر لمن تاب وأناب **﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله﴾** أي قاتلوا المحاربين حتى تكسروا شوكتهم ولا يبقى شرك على وجه الأرض ويصبح دين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان **﴿فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾** أي فإن انتهوا عن قتالكم فكفوا عن قتلهم فمن قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم ولا عدوان إلا على الظالمين ، أو فإن انتهوا عن الشرك فلا تعتدوا عليهم ثم بيّن تعالى أن قتال المشركين في الشهر الحرام يبيح للمؤمنين دفع العدوان فيه فقال **﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص﴾** أي إذا قاتلوكم في الشهر الحرام فقاتلوهم في الشهر الحرام ، فكما هتكوا حرمة الشهر واستحلوا دماءكم فافعلوا بهم مثله[1] **﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾** أي ردوا عن أنفسكم العدوان فمن قاتلكم في الحرم أو في الشهر الحرام فقابلوه وجازوه بالمثل **﴿واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾** أي

---

(١) وقيل معناه الشهر الحرام الذي دخلتم فيه مكة بالشهر الحرام الذي صددتم فيه عن دخولها ، وكان ذلك لما صدَّ الكفار النبي ﷺ عن دخول مكة عام الحديبية في شهر ذي القعدة.

راقبوا الله في جميع أعمالكم وأفعالكم واعلموا أن الله مع المتقين بالنصر والتأييد في الدنيا والآخرة ﴿**وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة**﴾ أي أنفقوا في الجهاد وفي سائر وجوه القربات ولا تبخلوا في الانفاق فيصيبكم الهلاك ويتقوى عليكم الأعداء وقيل معناه : لا تتركوا الجهاد في سبيل الله وتشتغلوا بالأموال والأولاد فتهلكوا ﴿**وأحسنوا إن الله يحب المحسنين**﴾ أي أحسنوا في جميع أعمالكم حتى يحبكم الله وتكونوا من أوليائه المقربين .

البلاغة : ١ - ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج ﴾ هذا النوع من البديع يسمى « الأسلوب الحكيم » فقد سألوا الرسول ﷺ عن الهلال لمَ يبدو صغيراً ثم يزداد حتى يتكامل نوره ؟ فصرفهم إلى بيان الحكمة من الأهلة وكأنه يقول : كان الأولى بكم أن تسألوا عن حكمة خلق الأهلة لا عن سبب تزايدها في أول الشهر وتناقصها في آخره ، وهذا ما يسميه علماء البلاغة « الأسلوب الحكيم »

٢ - ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام﴾ فيه إيجاز بالحذف تقديره : هتكُ حرمة الشهر الحرام تقابل بهتك حرمة الشهر الحرام ويسمى حذف الإيجاز .

٣ - ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه﴾ سمّي جزاء العدوان عدواناً من قبيل « المشاكلة » وهي الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى كقوله ﴿وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها﴾ قال الزجاج : العرب تقول ظلمني فلان فظلمته أي جازيته بظلمه .

فائدة : لا يذكر في القرآن الكريم لفظ القتال أو الجهاد إلا ويقرن بكلمة « سبيل الله » وفي ذلك دلالة واضحة على أن الغاية من القتال غاية شريفة نبيلة هي إعلاء كلمة الله لا السيطرة أو المغنم أو الاستعلاء في الأرض أو غيرها من الغايات الدنيئة .

تنبيه : كل ما ورد في القرآن بصيغة السؤال أجيب عنه بـ « قل » بلا فاء إلا في طه ﴿فقل ينسفها ربي نسفاً﴾ فقد وردت بالفاء ، والحكمة أن الجواب في الجميع كان بعد وقوع السؤال وفي طه كان قبله إذ تقديره إن سئلت عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً[1] .

فائدة : روي أن رجلاً من المسلمين حمل على جيش الروم حتى دخل فيهم فصاح الناس : سبحان الله ألقى بيديه إلى التهلكة فقال أبو أيوب الأنصاري إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار حين أعز الله الإسلام وكثر ناصروه فقلنا : لو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها فنزلت ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها وترك الجهاد في سبيل الله فما زال أبو أيوب شاخصاً في سبيل الله حتى استشهد ودفن بأرض الروم .

---

(١) الفتوحات الإلهية ١/ ١٥٢

قال الله تعالى: ﴿وأتموا الحج والعمرة لله . . إلى . . واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾
من آية (١٩٦) إلى نهاية آية (٢٠٣).

المنَاسَبَة : لمّا ذكر الله تعالى في الآيات السابقة أحكام الصيام ، أعقب ذلك بذكر أحكام الحج لأن شهوره تأتي مباشرة بعد شهر الصيام ، وأمّا آيات القتال فقد ذكرت عَرَضاً لبيان حكمٍ هام وهو بيان الأشهر الحرم والقتال فيها وفيما لو تعرّض المشركون للمؤمنين وهم في حالة الإحرام هل يباح لهم ردُّ العدوان عن أنفسهم والقتال في الأشهر الحرم ؟ فقد وردت الآيات السابقة تبيّن حكمة الأهلة وأنها مواقيت للصيام والحج ثم بيَّنت الآيات بعدها موقف المسلمين من القتال في الشهر الحرام وذلك حين أراد رسول الله ﷺ العمرة وصدّه المشركون ومنعوه من دخول مكة ووقع صلح الحديبية ثم لمّا أراد القضاء في العام القابل وخشي أصحابه غدر المشركين بهم وهم في حالة الإحرام نزلت الآيات تبيّن أنه ليس لهم أن ينتهكوا هذه الحرمات على سبيل الابتداء بل على سبيل القصاص ودفع العدوان ، ثم عاد الكلام إلى أحكام الحج وحكم الإحصار فيه فهذا هو الإرتباط بين الآيات السابقة واللاحقة .

اللغَة : ﴿أُحصرتم﴾ الإحصار : معناه المنع والحبس يقال حَصرَه عن السفر وأحصره إذا حبسه ومنعه قال الأزهري : حُصر الرجلُ في الحبس ، وأُحصر في السفر من مرضٍ أو انقطاعٍ به ﴿الهَدْيُ﴾ هو ما يُهدى إلى بيت الله من أنواع النعم كالإبل والبقر والغنم وأقله شاة ﴿محلّه﴾ المحِلُّ : الموضع الذي يحل به نحر الهَدْي وهو الحرم أو مكان الإحصار للمحصَر ﴿النُّسك﴾ جمع نسيكة وهي الذبيحة ينسكها العبد لله تعالى ﴿جناح﴾ إثم وأصله من الجنوح وهو الميل عن القصد ﴿أفضتم﴾ أي دفعتم وأصله من فاض الماء إذا سال منصباً ومعنى ﴿أفضتم من عرفات﴾ أي دفعتم منها بقوة تشبيهاً بفيض الماء . ﴿خلاق﴾ نصيب من رحمة الله تعالى ﴿تحشرون﴾ تجمعون للحساب .

سَبَبُ النّزول : أولاً : عن ابن عباس رضي الله عنه قال : كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون : نحن المتوكلون فإذا قدموا مكة سألوا الناس فأنزل الله عز وجل ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾[١] .

ثانياً : وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة وكانوا يسمون الحُمْس وسائر العرب يقفون بعرفات فلما جاء الإسلام أمر الله تعالى نبيّه أن يأتي عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها ، وكانت قريش تفيض من جمع من المشعر الحرام فأنزل الله تعالى ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾[٢]

وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ

التفسِير : ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ أي أدوهما تامين بأركانهما وشروطهما لوجه الله تعالى

(١) (٢) أسباب النزول ١/ ٣٢ للواحدي .

فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا

﴿فإن أحصرتم فما استيسر من الهَدْي﴾ أي إذا منعتم عن إتمام الحج أو العمرة بمرضٍ أو عدوٍ وأردتم التحلل فعليكم أن تذبحوا ما تيسر من بدنة أو بقرةٍ أو شاة **﴿ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهديُ محلَّه﴾** أي لا تتحللوا من إحرامكم بالحلق أو التقصير حتى يصل الهدي المكان الذي يحل ذبحه فيه وهو الحرم أو مكان الإحصار **﴿فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيامٍ أو صدقةٍ أو نسك﴾** أي فمن كان منكم معشر المحرمين مريضاً مرضاً يتضرر معه بالشعر فحلق ، أو كان به أذى من رأسه كقملٍ وصداعٍ فحلق في الإحرام ، فعليه فدية وهي إما صيام ثلاثة أيام أو يتصدق بثلاثة آصع على ستة مساكين أو يذبح ذبيحة وأقلها شاة **﴿فإذا أمنتم﴾** أي كنتم آمنين من أول الأمر ، أو صرتم بعد الإحصار آمنين **﴿فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي﴾** أي من اعتمر في أشهر الحج واستمتع بما يستمتع به غير المحرم من الطيب والنساء وغيرها ، فعليه ما تيسّر من الهدي وهو شاة يذبحها شكراً لله تعالى **﴿فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعةٍ إذا رجعتم﴾** أي من لم يجد ثمن الهدي فعليه صيام عشرة أيام ، ثلاثة حين يحرم بالحج وسبعة إذا رجع إلى وطنه **﴿تلك عشرة كاملة﴾** أي عشرة أيام كاملة تجزىء عن الذبح ،وثوابها كثوابه من غير نقصان **﴿ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾** أي ذلك التمتع أو الهَدْي خاص بغير أهل الحرم ، أما سكّان الحرم فليس لهم تمتع وليس عليهم هدي **﴿واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب﴾** أي خافوا الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه واعلموا أن عقابه شديد لمن خالف أمره . ثم بيّن تعالى وقت الحج فقال **﴿الحج أشهر معلومات﴾** أي وقت الحج هو تلك الأشهر المعروفة بين الناس وهي شوال وذو القعده وعشرٌ من ذي الحجة **﴿فمن فرض فيهن الحج﴾** أي من ألزم نفسه الحجَّ بالإحرام والتلبية **﴿فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج﴾** أي لا يقرب النساء ولا يستمتع بهن فإنه مقبل على الله قاصد لرضاه ، فعليه أن يترك الشهوات ، وأن يترك المعاصي والجدال والخصام مع الرفقاء **﴿وما تفعلوا من خير يعلمْه الله﴾** أي وما تقدموا لأنفسكم من خير يجازيكم عليه الله خير الجزاء **﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾** أي تزودوا لآخرتكم بالتقوى فإنها خير زاد **﴿واتقونِ يا أولي الألباب﴾** أي خافون واتقوا عقابي يا ذوي العقول والأفهام **﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾** أي لا حرج ولا إثم عليكم في التجارة في أثناء الحج فإن التجارة الدنيوية لا تنافي العبادة الدينيه . وقد كانوا يتأثمون من ذلك

مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ

فنزلت الآية تبيح لهم الاتجار في أشهر الحج ﴿**فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام**﴾ أي إذا دفعتم من عرفات بعد الوقوف بها فاذكروا الله بالدعاء والتضرع والتكبير والتهليل عند المشعر الحرام بالمزدلفة ﴿**واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين**﴾ أي اذكروه ذكراً حسناً كما هداكم هداية حسنة ، واشكروه على نعمة الهداية والإيمان فقد كنتم قبل هدايته لكم في عداد الضالين ، الجاهلين بالإيمان وشرائع الدين ﴿**ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس**﴾ أي ثمّ انزلوا من عرفة حيث ينزل الناس لا من المزدلفة ، والخطاب لقريش حيث كانوا يترفعون على الناس أن يقفوا معهم وكانوا يقولون : نحن أهل الله وسُكّان حرمه فلا نخرج منه فيقفون في المزدلفة لأنها من الحرم ثم يفيضون منها وكانوا يسمون « الحُمْس » فأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يأتي عرفة ثم يقف بها ثم يفيض منها ﴿**واستغفروا الله إن الله غفور رحيم**﴾ أي استغفروا الله عمّا سلف منكم من المعاصي فإن الله عظيم المغفرة واسع الرحمة ﴿**فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشدَّ ذكراً**﴾ أي إذا فرغتم من أعمال الحج وانتهيتم منها فأكثروا ذكره وبالغوا في ذلك كما كنتم تذكرون آباءكم وتعدون مفاخرهم بل أشدّ ، قال المفسرون كانوا يقفون بمنى بين المسجد والجبل بعد قضاء المناسك فيذكرون مفاخر آبائهم ومحاسن أيامهم فأمروا أن يذكروا الله وحده ﴿**فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق**﴾ أي من الناس من تكون الدنيا همّه فيقول : اللهم أجعل عطائي ومنحتي في الدنيا خاصة و ما له في الآخرة من حظ ولا نصيب ﴿**ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنة**﴾ أي ومنهم من يطلب خيري الدنيا والآخرة وهو المؤمن العاقل ، وقد جمعت هذه الدعوة كل خيرٍ وصرفت كل شر ، فالحسنة في الدنيا تشمل الصحة والعافية ، والدار الرحبة ، والزوجة الحسنة ، والرزق الواسع إلى غير ما هنالك والحسنة في الآخرة تشمل الأمن من الفزع الأكبر ، وتيسير الحساب ، ودخول الجنة ، والنظر إلى وجه الله الكريم الخ ﴿**وقنا عذاب النار**﴾ أي نجّنا من عذاب جهنم ﴿**أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب**﴾ أي هؤلاء الذين طلبوا سعادة الدارين لهم حظ وافر مما عملوا من الخيرات والله سريع الحساب يحاسب الخلائق بقدر لمحة بصر ﴿**واذكروا الله في أيام معدودات**﴾ أي كبروا الله في أعقاب الصلوات وعند رمي الجمرات في أيام التشريق الثلاثة بعد يوم النحر ﴿**فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه**﴾ أي من استعجل بالنفر من منى بعد تمام

﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

يومين فنفر فلا حرج عليه ﴿ومن تأخر فلا إثـم عليه﴾ أي ومن تأخر حتى رمى في اليوم الثالث - وهو النفر الثاني - فلا حرج عليه أيضاً ﴿لمـن اتقى﴾ أي ما ذكر من الأحكام لمن أراد أن يتقي الله فيأتي بالحج على الوجه الأكمل ﴿واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾ أي خافوا الله تعالى واعلموا أنكم مجموعون إليه للحساب فيجازيكم بأعمالكم .

البَـلاَغَـة : ١ - ﴿يبلغ الهدي محِلَّه﴾ كناية عن ذبحه في مكان الإحصار .

٢ - ﴿فمن كان منكم مريضاً﴾ فيه إيجاز بالحذف أي كان مريضاً فحلق أو به أذى من رأسه فحلق فعليه فدية .

٣ - ﴿وسبعةٍ إذا رجعتم﴾ فيه التفات من الغائب إلى المخاطب وهو من المحسنات البديعية .

٤ - ﴿تلك عشرةٌ كاملة﴾ فيه إجمال بعد التفصيل وهذا من باب « الإطناب » وفائدته زيادة التأكيد والمبالغة في المحافظة على صيامها وعدم التهاون بها أو تنقيص عددها .

٥ - ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله﴾ إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتربية المهابة وإدخال الروعة .

٦ - ﴿فلا رفث ولا فسوق﴾ صيغته نفيٌ وحقيقته نهيٌ أي لا يرفثْ ولا يفسقْ وهو أبلغ من النهي الصريح لأنه يفيد أن هذا الأمر ممّا لا ينبغي أن يقع أصلاً فإنَّ ما كان منكراً مستقبحاً في نفسه ففي أشهر الحج يكون أقبح وأشنع ففي الإتيان بصيغة الخبر وإرادة النهي مبالغة واضحة .

٧ - ﴿فاذكروا الله كذكركم آباءكم﴾ فيه تشبيه تمثيلي يسمى « مرسلاً مجملاً » .

٨ - المقابلة اللطيفة بين ﴿فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا﴾ وبين ﴿ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنياحسنة . .﴾الآية .

فَـائِـدَة : أصل النسك : العبادة ، وسميت ذبيحة الأنعام نسكاً لأنها من أشرف العبادات التي يتقرب بها المؤمن إلى الله تعالى .

فائدة ثانية : زاد الدنيا يوصل إلى مراد النفس وشهواتها ، وزاد الآخرة يوصل إلى النعيم المقيم في الآخرة ولهذا ذكر تعالى زاد الآخرة وهو الزاد النافع وفي هذا المعنى يقول الأعشى :

إذا أنـت لم ترحـل بزادٍ من التقى ... ولاقيتَ بعـد الموت من قد تزودا
ندمـتَ على ألاّ تكون كمثله ... وأنـك لم تُرْصـدْ كما كان أرصدا

* * *

قال الله تعالى : ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا . . إلى . . والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ من آية (٢٠٤) إلى نهاية آية (٢١٢) .

المناسبة : لمّا ذكر تعالى في الآيات السابقة العبادات التي تُطهّر القلوب ، وتزكّي النفوس كالصيام ، والصدقة ، والحج ، وذكر أن من الناس من يطلب الدنيا ولا غاية له وراءها ، ومنهم من تكون غايته نيل رضوان الله تبارك وتعالى ، أعقبها بذكر نموذجٍ عن الفريقين : فريق الضلالة الذي باع نفسه للشيطان ، وفريق الهدى الذي باع نفسه للرحمن ، ثم حذّر تبارك وتعالى من اتباع خطوات الشيطان ، وبيَّـن لنا عداوته الشديدة .

اللغـة : ﴿ألدُّ﴾ اللَّدَدُ : شدة الخصومة قال الطبري : الألدُّ : الشديد الخصومة وفي الحديث (إنَّ أبغض الرجال إلى الله الألدُّ الخَصِم) ﴿الحرث﴾ : الزرع لأنه يزرع ثم يحرث ﴿النسل﴾ الذرية والولد ، وأصله الخروج بسرعة ومنه ﴿إلى ربهم ينسلون﴾ وسمي نسلاً لأنه ينسل ـ يسقط ـ من بطن أمه بسرعة ﴿العزَّة﴾ الأنفة والحميَّة ﴿حسبه﴾ حسب اسم فعل بمعنى كافيه ﴿المهاد﴾ : الفراش الممهَّد للنوم ﴿يشري﴾ : يبيع ﴿ابتغاء﴾ طلب ﴿السِّلْم﴾ بكسر السين بمعنى الإسلام وبفتحها بمعنى الصلح ، وأصله من الاستسلام وهو الخضوع والانقياد قال الشاعر :

دَعَـوْتُ عشيرتي للسِّـلْـمِ حتى رأيْتهُـمْ تَـولَّـوْا مُـدْبرينـا

﴿زللتم﴾ الزّلل : الانحراف عن الطريق المستقيم وأصله في القدم ثم استعمل في الأمور المعنوية ﴿ظلل﴾ جمع ظلّة وهي ما يستر الشمس ويحجب أشعتها عن الرؤيـة .

سبب النزول : ١ ـ روي أن الأخنس بن شريق أتى النبيﷺ فأظهر له الإسلام وحلف أنه يحبه ، وكان منافقاً حسن العلانية خبيث الباطن ، ثم خرج من عند النبيﷺ فمرَّ بزرعٍ لقومٍ من المسلمين وحُمُر فأحرق الزرع وقتل الحُمُر فأنزل الله تعالى فيه الآيات ﴿ومن الناس من يعجبك قوله . .﴾ الآية إلى قوله : ﴿وإذا تولّى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل . .﴾[1] الآية .

٢ ـ وروي أن صهيباً الرومي لما أراد الهجرة إلى المدينة المنورة لحقه نفر من قريش من المشركين ليردوه فنزل عن راحلته ونثر ما في كنانته وأخذ قوسه ثم قال : يا معشر قريش لقد علمتم أني من أرماكم رجلاً ، وايْمُ الله لا تصلون إليَّ حتى أرمي بما في كنانتي ، ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء ثم افعلوا ما شئتم ، قالوا جئتنا صعلوكاً لا تملك شيئاً وأنت الآن ذو مال كثير ! ! فقال : أرأيتم إن دللتكم على مالي تخلّون سبيلي ؟ قالوا نعم فدلهّم على ماله بمكة فلما قدم المدينة دخل على رسول اللـهﷺ فقـال له عليه السلام : (ربح البيع صهيب ، ربح البيع صهيب) وأنزل الله عز وجل فيه ﴿ومن الناس من يَشْري نفسَه ابتغاء مرضاة الله . .﴾[2] الآية .

---

(١) الفخر الرازي ٥/ ٢١٥ وأسباب النزول ص ٣٤ .
(٢) نفس المرجع السابق .

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱدْخُلُوا فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ

التفسير : ﴿ومن الناس من يعجبك قوله﴾ أي ومن الناس فريق يروقك كلامه يا محمد ويثير إعجابَك بخلابة لسانه وقوة بيانه ، ولكنه منافق كذّاب ﴿في الحياة الدنيا﴾ أي في هذه الحياة فقط أما الآخرة فالحاكم فيها علاّم الغيوب الذي يطّلع على القلوب والسرائر ﴿ويُشْهِد الله على ما في قلبه﴾ أي يظهر لك الإيمان ويبارز الله بما في قلبه من الكفر والنفاق ﴿وهو ألدُّ الخصام﴾ أي شديد الخصومة يجادل بالباطل ويتظاهر بالدين والصلاح بكلامه المعسول ﴿وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها﴾ أي وإذا انصرف عنك عاث في الأرض فساداً ، وقد نزلت في الأخنس ولكنها عامة في كل منافق يقول بلسانه ما ليس في قلبه « يعطيك من طرف اللسان حلاوة : ويروغ فيك كما يروغُ الثعلب» ﴿ويُهلك الحرث والنسل﴾ أي يهلك الزرع وما تناسل من الإنسان والحيوان ومعناه أن فساده عام يشمل الحاضر والباد ، فالحرث محل نماء الزروع والثمار ، والنسل وهو نتاج الحيوانات التي لا قوام للناس إلا بهما ، فإفسادهما تدمير للإنسانية ﴿والله لا يحب الفساد﴾ أي يبغض الفساد ولا يحب المفسدين ﴿وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم﴾ أي إذا وُعظ هذا الفاجر وذكّر وقيل له انزع عن قولك وفعلك القبيح ، حملته الأنفة وحميَّةُ الجاهلية على الفعل بالإثم والتكبر عن قبول الحق ، فأغرق في الإفساد وأمعن في العناد ﴿فحسبه جهنم ولبئس المهاد﴾ أي يكفيه أن تكون له جهنم فراشاً ومهاداً ، وبئس هذا الفراش والمهاد ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾ هذا هو النوع الثاني وهم الأخيار الأبرار ، فبعد أن ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة أتبعه بذكر صفات المؤمنين الحميدة والمعنى ومن الناس فريق من أهل الخير والصلاح باع نفسه لله ، طلباً لمرضاته ورغبةً في ثوابه لا يتحرى بعمله إلا وجه الله ﴿والله رءوف بالعباد﴾ أي عظيم الرحمة بالعباد يضاعف الحسنات ويعفو عن السيئات ولا يعجل العقوبة لمن عصاه . . ثم أمر تعالى المؤمنين بالانقياد لحكمه والاستسلام لأمره والدخول في الإسلام الذي لا يقبل الله ديناً سواه فقال ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كافة﴾ أي ادخلوا في الإسلام بكليته في جميع أحكامه وشرائعه ، فلا تأخذوا حكماً وتتركوا حكماً ، لا تأخذوا بالصلاة وتمنعوا الزكاة مثلاً فالإسلام كلٌ لا يتجزأ ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ أي لا تتبعوا طرق الشيطان وإغواءه فإنه عدوٌ لكم ظاهر العداوة ﴿فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البيّنات﴾ أي إن انحرفتم عن الدخول في الإسلام من بعد مجيء الحجج

يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾

الباهرة والبراهين القاطعة على أنه حق **﴿فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾** أي اعلموا أن الله غالب لا يعجزه الانتقام ممن عصاه حكيم في خلقه وصنعه **﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظللٍ من الغمام والملائكة﴾** أي ما ينتظرون شيئاً إلا أن يأتيهم الله يوم القيامة لفصل القضاء بين الخلائق[1] حيث تنشق السماء وينزل الجبار عز وجل في ظللٍ من الغمام وحملة العرش والملائكة الذين لا يعلم كثرتهم إلا الله ولهم زجل من التسبيح يقولون : سبحان ذي الملك والملكوت ، سبحان ذي العزة والجبروت ، سبحان الحي الذي لا يموت ، سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت ، سبوح قدوس رب الملائكة والروح **﴿وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور﴾** أي انتهى أمر الخلائق بالفصل بينهم فريق في الجنة وفريق في السعير ، وإلى الله وحده مرجع الناس جميعاً . والمقصود تصوير عظمة يوم القيامة وهولها وشدتها وبيان أن الحاكم فيها هو ملك الملوك جل وعلا الذي لا معقب لحكمه ولا رادّ لقضائه وهو أحكم الحاكمين . . ثم قال تعالى مخاطباً رسوله الكريم **﴿سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة﴾** أي سلْ يا محمد بني إسرائيل ـ توبيخاً لهم وتقريعاً ـ كم شاهدوا مع موسى من معجزات باهرات وحجج قاطعات تدل على صدقه ومع ذلك كفروا ولم يؤمنوا **﴿ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب﴾** أي من يبدل نعم الله بالكفر والجحود بها فإن عقاب الله له أليم وشديد **﴿زين للذين كفروا الحياة الدنيا﴾** أي زينت لهم شهوات الدنيا ونعيمها حتى نسوا الآخرة وأشربت محبتها في قلوبهم حتى تهافتوا عليها وأعرضوا عن دار الخلود . **﴿ويسخرون من الذين آمنوا﴾** أي وهم مع ذلك يهزءون ويسخرون بالمؤمنين يرمونهم بقلة العقل لتركهم الدنيا وإقبالهم على الآخرة كقوله **﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون﴾** قال تعالى رداً عليهم **﴿والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة﴾** أي والمؤمنون المتقون لله فوق أولئك الكافرين منزلةً ومكانة ، فهم في أعلى علّيين وأولئك في أسفل سافلين ، والمؤمنون في الآخرة في أوج العز والكرامة والكافرون في حضيض الذل والمهانة **﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾** أي والله يرزق أولياءه رزقاً واسعاً رغداً ، لا فناء له ولا انقطاع كقوله **﴿يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب﴾** أو يرزق في الدنيا من شاء من خلقه ويوسع

(١) ذهب الإمام الفخر إلى أن معنى قوله ﴿أن يأتيهم الله﴾ أي يأتيهم أمره وبأسه فهو على حذف مضاف مثل قوله ﴿واسأل القرية﴾ وهو مجاز مشهور يقال ضرب الأمير فلانا وصلبه وأعطاه والمراد أنه أمر بذلك واستدل على صحة هذا التأويل بالآية الأخرى ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك﴾ وما أثبتناه من تفسير ابن كثير هو مذهب السلف وهو عدم التأويل وتفويض معنى الآية على سبيل التفصيل إلى الله تعالى .

على من شاء مؤمناً كان أوكافراً ، براً أو فاجراً على حسب الحكمة والمشيئة دون أن يكون له محاسب سبحانه وتعالى .

البَــلَاغَــة : ١ ـ ﴿أخذته العزة بالإثم﴾ ذكر لفظ الإثم بعد قوله العزة يسمى عند علماء البديع بـ « التتميم » لأنه ربما يتوهم أن المراد عزة الممدوح فذكر بالإثم ليشير إلى أنها عزة مذمومة .

٢ ـ ﴿ولبئس المهاد﴾ هذا من باب التهكم أي جعلت لهم جهنم غطاءً ووطاءً فأكرم بذلك كما تكرم الأم ولدها بالغطاء والوطاء الليّنين .

٣ ـ ﴿هل ينظرون﴾ استفهام إنكاري في معنى النفي بدليل مجيء إلاّ بعدها أي ما ينتظرون .

٤ ـ ﴿في ظلل من الغمام﴾ التنكير للتهويل فهي في غاية الهول والمهابة لما لها من الكثافة التي تغم على الرائي ما فيها وقوله ﴿وقضي الأمر﴾ هو عطف على المضارع ﴿يأتيهم الله﴾ وإنما عدل إلى صيغة الماضي دلالة على تحققه فكأنه قد كان .

٥ ـ ﴿فإن الله شديد العقاب﴾ إظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة .

٦ ـ ﴿زُيّن . . ويسخرون﴾ أورد التزيين بصيغة الماضي لكونه مفروغاً منه مركوزاً في طبيعتهم وعطف عليه بالفعل المضارع ﴿ويسخرون﴾ للدلالة على استمرار السخرية منهم لأن صيغة المضارع تفيد الدوام والاستمرار .

تـنبيـه: قال ابن تيمية رحمه الله في رسالته التدمرية : « وصفه تعالى نفسه بالإتيان في ظللٍ من الغمام كوصفه بالمجيء في آيات أخر ونحوهما مما وصف به نفسه في كتابه أو صحَّ عن رسوله ﷺ والقول في جميع ذلك من جنس واحد وهو مذهب سلف الأمة وأئمتها ، إنهم يصفونه سبحانه بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ من غير تحريفٍ ولا تعطيل ولا تكييفٍ ولا تمثيل ، والقول في صفاته كالقول في ذاته والله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله فلو سأل سائل : كيف يجيء سبحانه ؟ فليقل له : كما لا تعلم كيفية ذاته كذلك لا تعلم كيفية صفاته » .

* * *

قال الله تعالى : ﴿كان الناس أمة واحدة . . إلى . . أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم﴾ من آية (٢١٣) إلى نهاية آية (٢١٨) .

المنَـاسَـبَة : ذكر سبحانه وتعالى في الآيات السابقة أن الناس فريقان : فريق يسعى في الأرض فساداً ويُضل الناس بخلابة لسانه وقوة بيانه ، وفريق باع نفسه للحق يبتغي به رضى الله ولا يرجو أحداً سواه ، ولما كان لا بدّ من التنازع بين الخير والشر ، ولا بدّ للحق من سيفٍ مصلتٍ إلى جانبه لذا شرع الله للمؤمنين أن يحملوا السيف مناضلين وشرع الجهاد دفعاً للعدوان وردعاً للظلم والطغيان .

اللغَة : ﴿بغياً﴾ البغيُ : العدوان والطغيان ﴿وزلزلوا﴾ مأخوذ من زلزلة الأرض وهو اضطرابها والزلزلة : التحريك الشديد ﴿كرهٌ﴾ مكروهٌ تكرهه نفوسكم قال ابن قتيبة : الكرهُ بالضم المشقة وبالفتح الإكراه والقهر ﴿صدٌّ﴾ الصدُّ : المنع يقال : صدّه عن الشيء أي منعه عنه ﴿يرتدد﴾ يرجع والردةُ الرجوع من الإيمان إلى الكفر قال الراغب : الارتداد والردة : الرجوع في الطريق الذي جاء منه لكن الردّة تختص بالكفر ، والارتداد يستعمل فيه وفي غيره قال تعالى ﴿فارتدا على آثارهما قصصاً﴾[1] ﴿حبطت﴾ بطلت وذهبت قال في اللسان : حبط عمل عملاً ثم أفسده وفي التنزيل ﴿فأحبط أعمالهم﴾ أي أبطل ثوابهم ﴿يرجون﴾ الرجاء : الأمل والطمع في حصول ما فيه نفعٌ ومصلحة[2] .

سَبَبُ النّزول : بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش على سرية ليترصدوا عيراً لقريش فيها « عمرو بن الحضرمي » وثلاثة معه فقتلوه وأسروا اثنين واستاقوا العير بما فيها من تجارة ، وكان ذلك أول يوم من رجب وهم يظنونه من جمادى الآخرة فقالت قريش : قد استحل محمد الشهر الحرام ، شهراً يأمن فيه الخائف ويتفرق فيه الناس إلى معايشهم وعظم ذلك على المسلمين فنزلت ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه . .﴾ الآية .

كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ

التفسِير : ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ أي كانوا على الإيمان والفطرة المستقيمة فاختلفوا وتنازعوا ﴿فبعث الله النبيّين مبشرين ومنذرين﴾ أي بعث الله الأنبياء لهداية الناس مبشرين للمؤمنين بجنات النعيم ومنذرين للكافرين بعذاب الجحيم ﴿وأنزل معهم الكتاب بالحق﴾ أي وأنزل معهم الكتب السماوية لهداية البشرية حال كونها منزلة بين الناس في أمر الدين الذي اختلفوا فيه ﴿وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه﴾ أي وما اختلف في الكتاب الهادي المنير المنزل لإزالة الاختلاف إلا الذين أعطوا الكتاب أي إنهم عكسوا الأمر حيث جعلوا ما أُنزل لإزالة الاختلاف سبباً لاستحكامه ورسوخه ﴿من بعد ما جاءتهم البينات﴾ أي من بعد ظهور الحجج الواضحة والدلائل القاطعة على صدق الكتاب فقد كان خلافهم عن بيّنة وعلم لا عن غفلةٍ وجهل ﴿بغياً بينهم﴾ أي حسداً من الكافرين للمؤمنين ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه﴾ أي هدى الله المؤمنين للحق الذي اختلف فيه أهل الضلالة بتيسيره ولطفه ﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ أي يهدي من يشاء هدايته إلى طريق الحق الموصل إلى جنات النعيم ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة﴾ أي بل ظننتم يا معشر المؤمنين أن تدخلوا الجنة بدون ابتلاءٍ وامتحان

(١) مفردات القرآن للراغب . (٢) لسان العرب مادة حبط .

أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ

واختبار ﴿**ولمّا يأتكم مثل الذين من قبلكم**﴾ أي والحال لم ينلكم مثل ما نال من سبقكم من المؤمنين من المحن الشديدة ، ولم تُبتلوا بمثل ما ابتلوا به من النكبات ﴿**مسّتهم البأساء والضراء**﴾ أي أصابتهم الشدائد والمصائب والنوائب ﴿**وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله**﴾ ؟ أي أزعجوا إزعاجاً شديداً شبيهاً بالزلزلة حتى وصل بهم الحال أن يقول الرسول والمؤمنون معه متى نصر الله ؟ أي متى يأتي نصر الله وذلك استبطاءً منهم للنصر لتناهي الشدة عليهم ، وهذا غاية الغايات في تصوير شدة المحنة ، فإذا كان الرسل - مع علو كعبهم في الصبر والثبات - قد عيل صبرهم وبلغوا هذا المبلغ من الضجر والضيق كان ذلك دليلاً على أن الشدة بلغت منتهاها قال تعالى جواباً لهم ﴿**ألا إن نصر الله قريب**﴾ أي ألا فأبشروا بالنصر فإنه قد حان أوانه ﴿**ولينصرنَّ الله من ينصره إن الله لقوي عزيز**﴾ ثم قال تعالى ﴿**يسألونك ماذا ينفقون**﴾ أي يسألونك يا محمد ماذا ينفقون وعلى من ينفقون ؟ وقد نزلت لمّا قال بعض الصحابة يا رسول الله : ماذا ننفق من أموالنا وأين نضعها ؟ ﴿**قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل**﴾ أي قل لهم يا محمد اصرفوها في هذه الوجوه ﴿**وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم**﴾ أي وكل معروف تفعلونه يعلمه الله وسيجزيكم عليه أوفر الجزاء ، ثم قال تعالى مبيناً حكمة مشروعية القتال في الإسلام ﴿**كتب عليكم القتال وهو كره لكم**﴾ أي فرض عليكم قتال الكفار أيها المؤمنون وهو شاق ومكروه على نفوسكم لما فيه من بذل المال وخطر هلاك النفس ﴿**وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم**﴾ أي ولكن قد تكره نفوسكم شيئاً وفيه كل النفع والخير ﴿**وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرٌ لكم**﴾ أي وقد تحب نفوسكم شيئاً وفيه كل الخطر والضرر عليكم ، فلعل لكم في القتال - وإن كرهتموه - خيراً لأن فيه إما الظفر والغنيمة أو الشهادة والأجر ، ولعل لكم في تركه - وإن أحببتموه - شراً لأن فيه الذل والفقر وحرمان الأجر ﴿**والله يعلم وأنتم لا تعلمون**﴾ أي الله أعلم بعواقب الأمور منكم وأدرى بما فيه صلاحكم في دنياكم وآخرتكم فبادروا إلى ما يأمركم به ﴿**يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه**﴾ أي يسألك أصحابك يا محمد عن القتال في الشهر الحرام أيحل لهم القتال فيه ؟ ﴿**قل قتالٌ فيه كبير**﴾ أي قل لهم القتال فيه أمره كبير ووزره عظيم ولكن هناك ما هو أعظم وأخطر وهو ﴿**وصدٌّ عن سبيل الله وكفرٌ به والمسجد الحرام وإخراجُ أهله منه أكبر عند الله**﴾ أي ومنع المؤمنين عن دين الله وكفرُهم بالله وصدُّهم عن

﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾

المسجد الحرام - يعني مكة - وإخراجكم من البلد الحرام وأنتم أهله وحماته ، كلٌ ذلك أعظم وزراً وذنباً عند الله من قتل من قتلتم من المشركين ، فإذا استعظموا قتالكم لهم في الشهر الحرام فليعلموا أنَّ ما ارتكبوه في حق النبي والمؤمنين أعظم وأشنع ﴿والفتنة أكبر من القتل﴾ أي فتنة المسلم عن دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه أكبر عند الله من القتل ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾ أي ولا يزالون جاهدين في قتالكم حتى يعيدوكم إلى الكفر والضلال إن قدروا فهم غير نازعين عن كفرهم وعدوانهم ﴿ومن يرتددْ منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾ أي ومن يستجب لهم منكم فيرجع عن دينه ويرتد عن الإسلام ثم يموت على الكفر فقد بطل عمله الصالح في الدارين وذهب ثوابه ﴿وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي وهم مخلدون في جهنم لا يخرجون منها أبداً ﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله﴾ أي إن المؤمنين الذين فارقوا الأهل والأوطان وجاهدوا الأعداء لإعلاء دين الله ﴿أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم﴾ أي أولئك الموصوفون بماذكرهم الجديرون بأن ينالوا رحمة الله والله عظيم المغفرة ، واسع الرحمة .

البَلاغَة : ١ - ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ فيه إيجاز بالحذف أي كانوا أمة واحدة على الإيمان متمسكين بالحق فاختلفوا فبعث الله النبيين ودلّ على المحذوف قوله ﴿ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾ .

٢ - ﴿أم حسبتم﴾ أم منقطعة والهمزة فيها للإنكار والاستبعاد أي بل أحسبتم ففيه استفهام إنكاري .

٣ - ﴿ولمّا يأتكم﴾ لمّا تدل على النفي مع توقع وقوع المنفي كما قال الزمخشري والمعنى : لمّا ينزل بكم مثل ما نزل بمن قبلكم وسينزل فإن نزل فاصبروا قال المبرد : إذا قال القائل : لم يأتني زيد فهو نفي لقولك أتاك زيد ؟ وإذا قال : لمّا يأتني فمعناه أنه لم يأتني بعد وأنا أتوقعه وعلى هذا يكون إتيان الشدائد على المؤمنين متوقعاً منتظراً .

٤ - ﴿ألا إن نصر الله قريب﴾ في هذه الجملة عدة مؤكدات تدل على تحقق النصر أولاً : بدء الجملة بأداة الاستفتاح « ألا » التي تفيد التأكيد، ثانياً : ذكر « إنَّ » الدالة على التوكيد أيضاً، ثالثاً : إيثار الجملة

الإسمية على الفعلية فلم يقل « ستنصرون » والتعبير بالجملة الإسمية يفيد التأكيد رابعاً : إضافة النصر إلى رب العالمين القادر على كل شيء .

٥ ـ ﴿وهو كرهٌ لكم﴾ وضع المصدر موضع اسم المفعول « كرهٌ » مكان « مكروه » للمبالغة كقول الخنساء : فإنما هي إقبال وإدبار .

٦ ـ ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً . . وعسى أن تحبوا شيئاً﴾ بين الجملتين من المحسنات البديعية ما يسمى بـ « المقابلة » فقد قابل بين الكراهية والحب ، وبين الخير والشر .

٧ ـ ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ طباق بالسلب .

فـائـدة : عبّر تعالى بصيغة الواحد عن كتب النبيّين ﴿وأنزل معهم الكتاب﴾ للإشارة إلى أن كتب النبيّين وإن تعددت هي في لبّها وجوهرها كتاب واحد لاشتمالها على شرع واحد في أصله كما قال تعالى ﴿شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك . . ﴾ الآية .

تـنبيـه : روى البخاري عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردةً له في ظل الكعبة فقلنا : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه ، والله ليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون .

* * *

قال الله تعالى : ﴿يسألونك عن الخمر والميسر . . إلى . . والله غفور حليم﴾
من آية (٢١٩) إلى نهاية آية (٢٢٥).

المنـاسـبة : لمّا ذكر تعالى في الآيات السابقة أحكام القتال ، وبيّن الهدف السامي من مشروعيته وهو نصرة الحق وإعزاز الدين وحماية الأمة من أن يلتهمها العدو الخارجي ، ذكر بعدها ما يتعلق بإصلاح المجتمع الداخلي على أسس من الفضيلة والخُلق الكريم ، ولا بدّ للدولة من الإصلاح الداخلي والخارجي لتقوم دعائمها على أسسٍ متينة وتبقى صرحاً شامخاً لا تؤثر فيه الأعاصير .

اللغـة : ﴿الخمر﴾ المسكر من الأشربة سميت خمراً لأنها تستر العقل وتغطيه ومنه خمّرتُ الإناء أي غطيته ﴿الميسر﴾ القمار وأصله من اليسر لأنه كسب من غير كدّ ولا تعب ، وقيل من اليسار لأنه سبب الغنى ﴿إثم﴾ الإثم : الذنب وجمعه آثام وتسمى الخمر بـ « الإثم » لأن شربها سبب في الإثم قال الشاعر :

شربت الإثم حتى ضلَّ عقلي كذاك الإثم تذهب بالعقول

﴿العفو﴾ الفضل والزيادة على الحاجة ﴿أعنتكم﴾ أوقعكم في الحرج والمشقة ، وأصل العنت : المشقة

﴿أمَة﴾ الأَمَةُ : المملوكة بملك اليمين وهي تقابل الحرة وجمعها إماء ﴿المحيض﴾ مصدر بمعنى الحيض كالمعيش بمعنى العيش ، وأصل الحيض : السيلان يقال : حاض السيل وفاض وحاضت الشجرة أي سالت ويقال للمرأة حائض وحائضة وأنشد الفراء : « كحائضةٍ يُزنى بها غيرَ طاهر » ﴿حرث﴾ الحرث : إلقاء البذر في الأرض قاله الراغب وقال الجوهري : الحرث : الزرع ، والحارث الزارع ومعنى حرث أي مزرع ومنبتٌ للولد على سبيل التشبيه[1] ﴿عُرضة﴾ مانعاً وكل ما يعترض فيمنع عن الشيء فهو عُرضة ولهذا يقال للسحاب : عارض لأنه يمنع رؤية الشمس . ﴿اللغو﴾ الساقط الذي لا يعتد به سواءً كان كلاماً أو غيره ولغو الطائر : تصويته .

سَبَبُ النّزول : أ ـ جاء جماعة من الأنصار فيهم عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ فقالوا : أفتنا في الخمر والميسر فإنهما مذهبةٌ للعقل مسلبةٌ للمال فأنزل الله ﴿يسألونك عن الخمر والميسر . .﴾ الآية .

ب ـ عن ابن عباس قال : لمّا أنزل الله ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن﴾ انطلق من كان عنده مال يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه ، فجعل يفضل الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد واشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير . .﴾ الآية .

ج ـ عن أنس أن اليهود كانت إذا حاضت منهم إمرأة أخرجوها من البيت فلم يؤ اكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها في البيت ، فسئل رسول الله ﷺ عن ذلك فأنزل الله عز وجل ﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى . .﴾ الآية .

* ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ﴾

التفسِير : ﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾ أي يسألونك يا محمد عن حكم الخمر وحكم القمار ﴿قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس﴾ أي قل لهم إن في تعاطي الخمر والميسر ضرراً عظيماً وإثماً كبيراً ومنافع مادية ضئيلة ﴿وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ أي وضررهما أعظم من نفعهما فإن ضياع العقل وذهاب المال وتعريض البدن للمرض في الخمر ، وما يجرُّه القمار من خراب البيوت ودمار الأسر وحدوث العداوة والبغضاء بين اللاعبين ، كلٌّ ذلك محسوس مشاهد وإذا قيس الضرر الفادح بالنفع التافه ظهر خطر المنكر الخبيث ﴿ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾ أي ويسألونك ماذا ينفقون وماذا يتركون من أموالهم ؟ قل لهم : أنفقوا الفاضل عن الحاجة ولا تنفقوا ما تحتاجون إليه وتضيعوا أنفسكم ﴿كذلك يبيّن الله لكم الآيات﴾ أي كما يبيّن لكم الأحكام يبيّن لكم المنافع والمضار والحلال والحرام ﴿لعلكم تتفكرون * في الدنيا والآخرة﴾ أي لتتفكروا في أمر الدنيا والآخرة فتعلموا أن الأولى فانية والآخرة باقية فتعملوا لما هو

(١) الصحاح للجوهري مادة حرث .

ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ

أصلح ، والعاقل من آثر ما يبقى على ما يفنى . ﴿**ويسألونك عن اليتامى قل إصلاحٌ لهم خير**﴾ أي ويسألونك يا محمد عن مخالطة اليتامى في أموالهم أيخالطونهم أم يعتزلونهم ؟ فقل لهم : مداخلتهم على وجه الإصلاح خير من اعتزالهم ﴿**وإن تخالطوهم فإخوانكم**﴾ أي إذا خلطتم أموالهم بأموالكم على وجه المصلحة لهم فهم إخوانكم في الدين ، وأخوة الدين أقوى من أخوّة النسب ، ومن حقوق هذه الأخوّة المخالطة بالإصلاح والنفع ﴿**والله يعلم المفسد من المصلح**﴾ أي والله تعالى أعلم وأدرى بمن يقصد بمخالطتهم الخيانة والإفساد لأموالهم ، ويعلم كذلك من يقصد لهم الإصلاح فيجازي كلاً بعمله ﴿**ولو شاء الله لأعنتكم**﴾ أي لو شاء تعالى لأوقعكم في الحرج والمشقة وشدَّد عليكم ولكنه يسّر عليكم الدين وسهّله رحمة بكم ﴿**إن الله عزيز حكيم**﴾ أي هو تعالى الغالب الذي لا يمتنع عليه شيء الحكيم فيما يشرّع لعباده من الأحكام ثم قال تعالى محذراً من زواج المشركات اللواتي ليس لهن دين سماوي ﴿**ولا تَنْكحوا المشركاتِ حتى يؤمنَّ**﴾ أي لا تتزوجوا أيها المسلمون بالمشركات من غير أهل الكتاب حتى يؤمنَّ بالله واليوم الآخر ﴿**ولأمةٌ مؤمنة خير من مشركةٍ ولو أعجبتكم**﴾ أي ولأمة مؤمنة خير وأفضل من حرة مشركة ، ولو أعجبتكم المشركة بجمالها ومالها وسائر ما يوجب الرغبة فيها من حسب أو جاه أو سلطان ﴿**ولا تُنْكِحوا المشركين حتى يؤمنوا**﴾ أي ولا تزوجوا بناتكم من المشركين - وثنيين كانوا أو أهل كتاب - حتى يؤمنوا بالله ورسوله ﴿**ولعبد مؤمن خير من مشركٍ ولو أعجبكم**﴾ أي ولأن تزوجوهنَّ من عبد مؤمنٍ خير لكم من أن تزوجوهن من حرّ مشرك مهما أعجبكم في الحسب والنسب والجمال ﴿**أولئك يدعون إلى النار**﴾ أي أولئك المذكورون من المشركين والمشركات الذين حرمت عليكم مصاهرتهم ومناكحتهم يدعونكم إلى ما يوصلكم إلى النار وهو الكفر والفسوق فحقكم ألا تتزوجوا منهم ولا تزوجوهم ﴿**والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه**﴾ أي هو تعالى يريد بكم الخير ويدعوكم إلى ما فيه سعادتكم وهو العمل الذي يوجب الجنة ومغفرة الذنوب ﴿**ويبيّن آياته للناس لعلهم يتذكرون**﴾ أي يوضح حججه وأدلته للناس ليتذكروا فيميزوا بين الخير والشر والخبيث والطيب . . ثم بيّن تعالى أحكام الحيض فقال ﴿**ويسألونك عن المحيض قل هو أذى**﴾ ويسألونك يا محمد عن إتيان النساء في حالة الحيض أيحل أم يحرم ؟ فقل لهم : إنه شيء مستقذر ومعاشرتهن في هذه الحالة فيه أذى للزوجين ﴿**فاعتزلوا النساء في المحيض**﴾ أي اجتنبوا معاشرة النساء في حالة الحيض ﴿**ولا تقربوهنّ

حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾

حتى يَطْهُرن﴾ أي لا تجامعوهن حتى ينقطع عنهن دم الحيض ويغتسلن . والمرادُ التنبيه على أن الغرض عدم المعاشرة لا عدم القرب منهن وعدم مؤ اكلتهن ومجالستهن كما كان يفعل اليهود إذا حاضت عندهم المرأة **﴿فإذا تَطَهَّرن فأتوهنَّ من حيثُ أمركم الله﴾** أي فإذا تطهَّرن بالماء فأتوهنَّ في المكان الذي أحله الله لكم ، وهو مكان النسل والولد القُبُل لا الدبر **﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾** أي يحبُّ التائبين من الذنوب ، المتنزهين عن الفواحش والأقذار **﴿نساؤكم حرثلكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم﴾** أي نساؤكم مكان زرعكم وموضع نسلكم وفي أرحامهن يتكوّن الولد ، فأتوهن في موضع النسل والذرية ولا تتعدوه إلى غيره قال ابن عباس : « اسق نباتك من حيث ينبت » ومعنى **﴿أنّى شئتم﴾** أي كيف شئتم قائمةً وقاعدةً ومضطجعة بعد أن يكون في مكان الحرث « الفرج » وهو ردٌّ لقول اليهود : إذا أتى الرجل امرأته في قُبُلها من دبرها جاء الولد أحول **﴿وقدّموا لأنفسكم﴾** أي قدموا صالح الأعمال التي تكون لكم ذخراً في الآخرة **﴿واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه﴾** أي خافوا الله باجتناب معاصيه وأيقنوا بأن مصيركم إليه فيجازيكم بأعمالكم **﴿وبشر المؤمنين﴾** أي بشرهم بالفوز العظيم في جنات النعيم **﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم﴾** أي لا تجعلوا الحلف بالله سبباً مانعاً عن فعل الخير فتتعللوا باليمين بأن يقول أحدكم : قد حلفتُ بالله ألاّ أفعله وأريد أن أبرّ بيميني بل افعلوا الخير وكفّروا عن أيمانكم[1] قال ابن عباس : لا تجعلنَّ الله عرضة ليمينك أن لا تصنع الخير ولكن كفّر عن يمينك واصنع الخير **﴿أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس﴾** أي لا تجعلوه تعالى سبباً مانعاً عن البر والتقوى والإصلاح بين الناس وقد نزلت في «عبد الله بن رواحة» حين حلف ألا يكلّم ختنه « النعمان بن بشير » ولا يصلح بينه وبين أخته **﴿والله سميع عليم﴾** أي سميع لأقوالكم عليم بأحوالكم . . ثم قال تعالى **﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾** أي لا يؤ اخذكم بما جرى على لسانكم من ذكر اسم الله من غير قصد الحلف كقول أحدكم : بلى والله ، ولا والله لا يقصد به اليمين **﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبتم قلوبكم﴾** أي يؤاخذكم بما قصدتم إليه وعقدتم القلب عليه من الإيمان إذاحنثتم فيها **﴿والله غفور حليم﴾** أي واسع المغفرة لا يعاجل عباده بالعقوبة .

(١) وقيل المعنى : لا تكثروا الحلف فتجعلوا الله هدفاً لأيمانكم تبتذلون اسمه الأعظم في كل شيء قليل أو كثير ، عظيم أو حقير إرادة أن تبروا وتتقوا وتصلحوا فإن الحلاّف لا يكون براً ولا تقياً .

البلاغة : ١ ـ ﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾ فيه إيجاز بالحذف أي عن شرب الخمر وتعاطي الميسر .

٢ ـ ﴿وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ هذا من باب التفصيل بعد الإجمال وهو ما يسمى في البلاغة بـ « الإطناب » .

٣ ـ ﴿كذلك يبيّن الله لكم الآيات﴾ فيه تشبيه مرسلٌ مجملٌ .

٤ ـ ﴿المفسد من المصلح﴾ في الآية طباقٌ بين كلمة « المفسد » و « المصلح » وهو من المحسنات البديعية .

٥ ـ ﴿يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة﴾ كذلك يوجد طباق بين كلمة « النار » وكلمة « الجنة » .

٦ ـ ﴿قل هو أذى﴾ فيه تشبيه بليغ حيث حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً وأصله الحيض شيء مستقذر كالأذى فحذف ذلك مبالغة على حد قولهم : عليٌ أسد .

٧ ـ ﴿ولا تقربوهن﴾ كناية عن الجماع .

٨ ـ ﴿نساؤكم حرث﴾ على حذف مضاف أي موضع حرث أو على سبيل التشبيه فالمرأة كالأرض ، والنطفة كالبذر ، والولد كالنبات الخارج ، فالحرث بمعنى المحترث سمي به على سبيل المبالغة .

الفوائد : الأولى : تسمى الخمر أم الخبائث لأنها سبب في كل فعل قبيح ، روى النسائي عن عثمان رضي الله عنه أنه قال « اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث ، إنه كان رجل ممن قبلكم متعبد فعلقته امرأة غوية فأرسلت إليه جاريتها فقالت له : إنا ندعوك للشهادة فانطلق مع جاريتها ، فطفقت كلما دخل باباً أغلقته دونه حتى أفضى إلى امرأة وضيئة ، عندها غلامٌ وباطية خمر فقالت : إني ما دعوتك للشهادة ولكن دعوتك لتقع عليَّ أو تشرب من هذه الخمر كأساً أو تقتل هذا الغلام ، قال فاسقيني من هذه الخمر كأساً فسقته كأساً فقال : زيدوني فزادوه فلم يبرح حتى وقع عليها وقتل النفس ، فاجتنبوا الخمر فإنها والله لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمر إلا ليوشك أن يُخرج أحدهما صاحبه» .

الثانية : كيف يكون في الخمر منافع مع أنها تذهب بالعقل والمال ؟ والجواب أن المراد بالمنافع في الآية « المنافع المادية » حيث كانوا يتاجرون بها فيربحون منها الربح الفاحش ويحتمل أن يراد بالنفع تلك اللذة والنشوة المزعومة التي عبّر عنها الشاعر بقوله :

ونشربها فتتركنا ملوكاً وأُسْداً ما ينهنهنا اللقاء

قال القرطبي : وشارب الخمر يصير ضُحكةً للعقلاء فيلعب ببوله وعذرته وربما يمسح وجهه حتى رؤي بعضهم يمسح وجهه ببوله ويقول : اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين ورؤي بعضهم

والكلب يلحس وجهه وهو يقول : أكرمك الله كما أكرمتني[١]

الثالثة : قال الزمخشري : ﴿فاعتزلوا النساء﴾ ﴿من حيث أمركم الله﴾ ﴿فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ من الكنايات اللطيفة والتعريضات المستحسنة ، وهذه وأشباهها في كلام الله آداب حسنة ، على المؤمنين أن يتعلموها ويتأدبوا بها ويتكلفوا مثلها في محاورتهم ومكاتبتهم[٢] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر . . إلى . . وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون﴾ من آية (٢٢٦) إلى نهاية آية (٢٣٠).

المناسبة : ذكر تعالى في الآيات السابقة بعض الأمراض الاجتماعية التي تنخر جسم الأمة وتحلُّ عرى الجماعة وتوقع بينهم العداوة والبغضاء كالخمر والميسر ، ثم انتقل إلى الحديث عن الأسرة باعتبار أنها النواة الأولى لبناء المجتمع الفاضل ، فبصلاح الأسرة يصلح المجتمع وبفسادها يفسد المجتمع ، وابتدأ من أحكام الأسرة بالعلاقة الزوجية ونبّه على ضرورة أن يكون الاختيار على أساس الدّين لتظل العلاقة موثقة بروابط المودة والرحمة والإخلاص ، فالمشركة لا يحل لها أن تكون في حجر المسلم ، والمؤمنة لا يحل لها أن تكون تحت سلطان الرجل المشرك ولهذا حرّم الإسلام الزواج بالمشركات وتزويج المشركين بالمؤمنات ، ثم بيّن في هذه الآيات الكريمة بعض الأمراض التي تحل بالأسرة وتهدد كيانها فذكر منها الإيلاء ، والطلاق ، والخلع وبيّن العلاج الناجع لمثل هذه المشاكل التي تقوّض بنيان الأسرة .

اللغة : ﴿يؤلون﴾ الإيلاء لغة : الحلف يقال : آلى يؤالي إيلاءً قال الشاعر :

فآليت لا أنفك أحدو قصيدةً ... تكون وإياها بها مثلاً بعدي

وفي الشرع : اليمين على ترك وطء الزوجة ﴿تربص﴾ التربص : الانتظار ومنه ﴿قل تربصوا فإني معكم من المتربصين﴾ أي انتظروا ﴿فاءوا﴾ الفيء : الرجوع ومنه قيل للظلّ فيءٌ لأنه يرجع بعد أن تقلّص قال الفراء : العرب تقول فلان سريع الفيء أي سريع الرجوع بعد الغضب قال الشاعر :

ففاءت ولم تقض الذي أقبلت له ... ومن حاجة الإنسان ما ليس قاضياً

﴿قروء﴾ جمع قرء اسم يقع على الحيض والطهر فهو من الأضداد وأصل القرء : الاجتماع سمي به الحيض لاجتماع الدم في الرحم قال في القاموس : القَرْءُ بالفتح ويضم : الحيضُ والطهرُ والوقت ، وجمع الطهر قروءٌ ، وجمع الحيض أقراءٌ ﴿بعولتهن﴾ جمع بعل ومعناه الزوج ﴿وهذا بعلي شيخاً﴾ والمرأة بعلة ﴿درجة﴾ الدرجة : المنزلة الرفيعة ﴿الطلاق﴾ مصدر طلقتُ المرأة ومعنى الطلاق : حلُّ عقد النكاح وأصله الانطلاق والتخلية يقال : ناقة طالق أي مهملة تركت في المرعى بلا قيد ولا راعي ، فسميت المرأة المخلّى سبيلها طالقاً لهذا المعنى ﴿تسريح﴾ التسريح : إرسال الشيء ومنه تسريح الشعر ليخلص البعض من

---
(١) القرطبي ٣/ ٥٧ . (٢) الكشاف ١/ ٢٠٢ .

البعض ، وسرَّح الماشية أرسلهاقال الراغب : والتسريح في الطلاق مستعارٌ من تسريح الإبل كالطلاق مستعار من إطلاق الإبل[١] .

سَبَبُ النّزول : كان الرجل في الجاهلية يطلق امرأته ما شاء من الطلاق ثم يراجعها قبل أن تنقضي عدتها ولو طلقها ألف مرة كان له الحق في مراجعتها ، فعمد رجل لامرأته فقال لها : لا آويك ولا أدعك تحلّين قالت : وكيف ؟ قال أطلّقك فإذا دنا مضيٌّ عدتك راجعتك ، فشكت المرأة أمرها للنبي ﷺ فأنزل الله ﴿الطلاق مرتان . .﴾ الآية .

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ﴾

التفسير : ﴿للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر﴾ أي للذين يحلفون ألاّ يجامعوا نساءهم للإضرار بهن انتظار أربعة أشهر ﴿فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم﴾ أي إن رجعوا إلى عشرة أزواجهن بالمعروف - وهو كناية عن الجماع - أي رجعوا عن اليمين إلى الوطء فإن الله يغفر ما صدر منهم من إساءة ويرحمهم ﴿وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم﴾ أي وإن صمّموا على عدم المعاشرة والامتناع عن الوطء فإن الله سميعٌ لأقوالهم عليم بنيّاتهم ، والمراد من الآية أن الزوج إذا حلف ألا يقرب زوجته تنتظره الزوجة مدة أربعة أشهر فإن عاشرها في المدة فبها ونعمت ويكون قد حنث في يمينه وعليه الكفارة ، وإن لم يعاشرها وقعت الفرقة والطلاق بمضي تلك المدة عند أبي حنيفة ، وقال الشافعي : ترفع أمره إلى الحاكم فيأمره إما بالفيئة أو الطلاق فإن امتنع عنهما طلّق عليه الحاكم هذا هو خلاصة حكم الإيلاء . . ثم قال تعالى مبيناً أحكام العدّة والطلاق الشرعي ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾ أي الواجب على المطلقات الحرائر المدخول بهن أن ينتظر ن مدة ثلاثة أطهار - على قول الشافعي ومالك - أو ثلاث حِيَض على قول أبي حنيفة وأحمد ثم تتزوج إن شاءت بعد انتهاء عدتها ، وهذا في المدخول بها أما غير المدخول بها فلا عدة عليها لقوله تعالى ﴿فما لكم عليهن من عدة﴾ ﴿ولا يحل لهنَّ أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن﴾ أي لا يباح للمطلقات أن يخفين ما في أرحامهن من حبلٍ أو حيض استعجالاً في العدة وإبطالاً لحق الزوج في الرجعة ﴿إن كنَّ يؤمنَّ بالله واليوم الآخر﴾ أي إن كنَّ حقاً مؤ مناتٍ بالله ويخشين من عقابه ، وهذا تهديد لهنَّ حتى يخبر ن بالحق من غير زيادة ولا نقصان لأنه أمر لا يُعلم إلاّ من جهتهنَّ ﴿وبعولتهن أحق بردهنَّ في ذلك إن أرادوا إصلاحاً﴾ أي وأزواجهن أحقُّ بهنَّ في الرجعة من التزويج للأجانب إذا لم تنقض عدتهن

(١) المفردات ص ٢٢٩ .

﴿بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩) فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠)﴾

وكان الغرض من الرجعة الإصلاح لا الإضرار، وهذا في الطلاق الرجعي **﴿ولهنَّ مثل الذي عليهن بالمعروف﴾** أي ولهنَّ على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن ، بالمعروف الذي أمر تعالى به من حسن العشرة وترك الضرار ونحوه **﴿وللرجال عليهنَّ درجة﴾** أي وللرجال على النساء ميزةٌ وهي فيما أمر تعالى به من القوامة والإنفاق والإمرة ووجوب الطاعة فهي درجة تكليفٍ لا تشريف لقوله تعالى **﴿إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾** **﴿والله عزيز حكيم﴾** أي غالب ينتقم ممن عصاه حكيم في أمره وتشريعه ثم بيّن تعالى طريقة الطلاق الشرعية فقال **﴿الطلاق مرتان فإمساكٌ بمعروف أو تسريح بإحسان﴾** أي الطلاق المشروع الذي يملك به الزوج الرجعة مرتان وليس بعدهما إلا المعاشرة بالمعروف مع حسن المعاملة أو التسريح بإحسان بألا يظلمها من حقها شيئاً ولا يذكرها بسوء ولا ينفّر الناس عنها **﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً﴾** أي لا يحل لكم أيها الأزواج أن تأخذوا مما دفعتم إليهن من المهور شيئاً ولو قليلاً **﴿إلا أن يخافا ألاّ يقيما حدود الله﴾** أي إلا أن يخاف الزوجان سوء العشرة وألا يرعيا حقوق الزوجية التي أمر الله تعالى بها **﴿فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾** أي فإن خفتم سوء العشرة بينهما وأرادت الزوجة أن تختلع بالنزول عن مهرها أو بدفع شيء من المال لزوجها حتى يطلقها فلا إثم على الزوج في أخذه ولا على الزوجة في بذله **﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها﴾** أي هذه الأحكام العظيمة من الطلاق والرجعة والخلع وغيرها هي شرائع الله وأحكامه فلا تخالفوها ولا تتجاوزوها إلى غيرها ممّا لم يشرعه الله **﴿ومن يتعدَّ حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾** أي من خالف أحكام الله فقد عرَّض نفسه لسخط الله وهو من الظالمين المستحقين للعقاب الشديد **﴿فإن طلقها فلا تحلُّ له من بعدُ حتى تنكح زوجاً غيره﴾** أي فإن طلّق الرجل المرأة ثالث مرة فلا تحل له بعد ذلك حتى تتزوج غيره وتطلق منه ، بعد أن يذوق عسيلتها وتذوق عسيلته كما صرّح به الحديث الشريف ، وفي ذلك زجر عن طلاق المرأة ثلاثاً لمن له رغبة في زوجته لأن كل ذي مروءة يكره أن يفترش امرأته آخر **﴿فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله﴾** أي إن طلقها الزوج الثاني فلا بأس أن تعود إلى زوجها الأول بعد إنقضاء العدّة إن كان ثمة دلائل تشير إلى الوفاق وحسن العشرة **﴿وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون﴾** أي تلك شرائع الله وأحكامه يوضحها ويبينها لذوي العلم والفهم الذين ينظرون في عواقب الأمور .[1]

(١) انظر الحكمة التشريعية للطلاق في كتابنا روائع البيان ١/ ٣٤٣ .

البَلاَغَة : ١ ـ ﴿فإن الله سميع عليم﴾ خرج الخبر عن ظاهره إلى معنى الوعيد والتهديد .

٢ ـ ﴿والمطلقات يتربصن﴾ خبرٌ في معنى الأمر وأصل الكلام وليتربصْ المطلقاتُ قال الزمخشري : وإخراج الأمر في صيغة الخبر تأكيدٌ للأمر وإشعارٌ بأنه ممّا يجب أن يُتلقى بالمسارعة إلى امتثاله ، فكأنهن امتثلن الأمر فهو يخبر عنه موجوداً ، وبناؤه على المبتدأ مما زاده فضل تأكيد[1] .

٣ ـ ﴿إن كنَّ يؤمنَّ بالله﴾ ليس الغرض منه التقييد بالإيمان بل هو للتهييج وتهويل الأمر في نفوسهن .

٤ ـ ﴿ولهن مثل الذي عليهن﴾ فيه إيجاز وإبداع لا يخفى على المتمكن من علوم البيان ، فقد حذف من الأول بقرينة الثاني ، ومن الثاني بقرينة الأول والمعنى : لهنَّ على الرجال من الحقوق مثل الذي للرجال عليهن من الحقوق ، وفيه من المحسنات البديعية أيضاً « الطباق » بين « لهنَّ » و « عليهنَّ » وهو طباقٌ بين حرفين .

٥ ـ ﴿فإمساكٌ بمعروف﴾ بين لفظ « إمساك » ولفظ « تسريح » طباقٌ أيضاً .

٦ ـ ﴿تلك حدود الله﴾ وضع الاسم الجليل موضع الضمير لتربية المهابة وإدخال الروعة في النفوس ، وتعقيبُ النهي بالوعيد للمبالغة في التهديد .

٧ ـ ﴿فأولئك هم الظالمون﴾ قصر صفة على موصوف .

فَائِدَة : أول خلعٍ كان في الإسلام في امرأة (ثابت بن قيس) أتت رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله : لا يجمع الله رأسي ورأسه شيءٌ أبداً ، والله ما أعيب عليه في خلقٍ ولا دين ولكن أكره الكفر بعد الإسلام فقال لها عليه السلام : أتردين عليه حديقته ؟ قالت : نعم ففرّق بينهما .

لَطِيفَة : روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : إني لأحب أن أتزين لأمرأتي كما تتزين لي لأن الله تعالى يقول ﴿ولهنَّ مثلُ الذي عليهن بالمعروف﴾ .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن . . إلى . . والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ من آية (٢٣١) إلى نهاية آية (٢٣٢) .

المَنَاسَبَة : لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن أحكام الطلاق وتوضّح طريقته وشروطه وآدابه وتنهى عن الإيذاء والإضرار فوجه المناسبة إذاً ظاهر .

اللغَة : ﴿فبلغن أجلهن﴾ أي قاربن من الانتهاء من العدة ﴿ضراراً﴾ أي بقصد الإضرار قال القفال : الضِرّار هو المضارّة كقوله ﴿مسجداً ضراراً﴾ أي ليضاروا المؤمنين ﴿تعضلوهن﴾ العضل : المنع

(١) الكشاف ١/ ٢٠٥ .

والتضييق يقال : أعضل الأمر أي أشكل وضاقت فيه الحيل وداء عُضال أي عسير أعيا الأطباء قال الأزهري : وأصله من عضلت الناقة إذا نشب ولدها فلم يسهل خروجه[1] ﴿يوعظ به﴾ يوصى ويؤمر به ﴿أزكى﴾ أنمى وأنفع يقال : زكا الزرع إذا نما بكثرةٍ وبركة ﴿وأطهر﴾ الطهارة : التنزه عن الدَّنس والمعاصي .

سَبَبُ النّزول :روي أن «معقل بن يسار» زوَّج أخته رجلاً من المسلمين على عهد النبي ﷺ فكانت عنده ما كانت ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت العدة ، فهويها وهويته ثم خطبها مع الخطّاب فقال له : يا لُكَع « أي يا لئيم » أكرمتك بها وزوجتك فطلقتها ! ! والله لا ترجع إليك أبداً فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها فأنزل الله ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن . .﴾ الآية فلما سمعها معقل قال : سمعاً لربي وطاعة ثم دعاه فقال : أزوجك وأكرمك[2] .

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن﴾

التفسير : ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن﴾ أي إذا طلقتم يا معشر الرجال النساء طلاقاً رجعياً وقاربن انقضاء العدة ﴿فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف﴾ أي فراجعوهنّ من غير ضرار ولا أذى أو اتركوهن حتى تنقضي عدتهن بإحسان من غير تطويل العدة عليهن ﴿ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا﴾ أي لا تراجعوهن إرادة الإضرار بهن لتظلموهن بالإلجاء إلى الافتداء ، وفيه زجرٌ لما كان عليه الناس حيث كان الزوج يترك المعتدة حتى إذا شارفت انقضاء العدّة يراجعها للإضرار بها ليطوّل عليها العدة لا للرغبة فيها ﴿ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه﴾ أي من يمسكها للإضرار بها أو ليكرهها على الافتداء فقد ظلم بذلك العمل نفسه لانه عرّضها لعذاب الله ﴿ولا تتخذوا آيات الله هُزُواً﴾ أي لا تهزءوا بأحكام الله وأوامره ونواهيه فتجعلوا شريعته مهزوءاً بها بمخالفتكم لها ﴿واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة﴾ أي اذكروا فضل الله عليكم بهدايتكم للإسلام وما أنعم به عليكم من القرآن العظيم والسنة المطهّرة ﴿يعظكم به﴾ أي يرشدكم ويذكّركم بكتابه وهدي رسوله إلى سعادتكم في الدارين ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم﴾ أي خافوا الله وراقبوه في أعمالكم واعلموا أنه تعالى لا تخفى عليه خافية من أحوالكم ثم أمر تعالى الأولياء بعدم عضل النساء الراغبات في العودة إلى أزواجهن فقال ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن﴾ أي إذا طلقتم النساء وانقضت عدتهن ﴿فلا تعضلوهن

(١) تهذيب اللغة مادة عضل . (٢) رواه البخاري وانظر التاج ٤/ ٦٣ .

﴿كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾

أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف﴾ أي فلا تمنعوهن يا معشر الأولياء من العودة لأزواجهن إذا صلحت الأحوال بين الزوجين وظهرت أمارات الندم ورضي كل منهما العودة لصاحبه والسير بما يرضي الله ﴿ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ أي ما نهيتكم عنه من الإضرار والعضل يُنصح به ويوعظ من كان يؤ من بالله واليوم الآخر لأنه هو المنتفع بالمواعظ الشرعية ﴿ذلكم أزكى لكم وأطهر﴾ أي الاتعاظ بما ذكر والتمسك بأوامر الله خير وأنفع لكم وأطهر من الآثام وأوضار الذنوب ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ أي والله يعلم ما هو أصلح لكم من الأحكام والشرائع وأنتم لا تعلمون ذلك ، فامتثلوا أمره تعالى ونهيه في جميع ما تأتون وما تذرون .

البَـلاَغَـة : ١ ـ ﴿فبلغن أجلهنَّ﴾ أي قاربن انقضاء عدتهن أُطلق اسم الكل على الأكثر فهو مجاز مرسل لأنه لو انقضت العدة لما جاز له إمساكها والله تعالى يقول ﴿فأمسكوهن بمعروف﴾ .

٢ ـ ﴿واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة﴾ هو من باب عطف الخاص على العام لأن النعمة يراد بها نعم الله والكتاب والسنة من أفراد هذه النعم .

٣ ـ ﴿واعلموا أنّ الله بكل شيء عليم﴾ بين كلمة « اعلموا » و « عليم » من المحسنات البديعية ما يسمى بجناس الاشتقاق .

٤ ـ ﴿أن ينكحن أزواجهن﴾ يراد بأزواجهن « المطلقين » لهن فهو من باب المجاز المرسل والعلاقة اعتبار ما كان .

فَـائِـدَة : قال الإمام الفخر : الحكمة في إثبات حق الرجعة أنّ الإنسان ما دام مع صاحبه لا يدري هل تشقُّ عليه المفارقة أو لا؟ فإذا فارقه فعند ذلك يظهر فلو جعل الله الطلقة الواحدة مانعةً من الرجوع لعظمت المشقة على الإنسان إذ قد تظهر المحبة بعد المفارقة ، ثم لما كان كمال التجربة لا يحصل بالمرة الواحدة أثبت تعالى حق المراجعة مرتين ، وهذا يدل على كمال رحمته تعالى ورأفته بعباده[1] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين . . إلى . . ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير﴾ من آية (٢٣٣) إلى نهاية آية (٢٣٧) .

المُنَـاسَـبَة : لما ذكر تعالى جملة من الأحكام المتعلقة بالنكاح والطلاق والعدة والرجعة والعَضْل ، ذكر في هذه الآية الكريمة حكم الرضاع لأن الطلاق يحصل به الفراق فقد يطلّق الرجل زوجته ويكون لها طفل ترضعه وربما أضاعت الطفل أو حرمته الرضاع انتقاماً من الزوج وإيذاءً له في ولده ، لذلك وردت

(١) التفسير الكبير ٦/ ١٠٥ .

هذه الآية لندب الوالدات المطلقات إلى رعاية الأطفال والاهتمام بشأنهـم ، ثم أعقـب ذلك ببيان حكم الفراق بين الزوجين بالموت وما يجب على المرأة من العدَّة فيه رعايةً لحق الزوج ، كما ذكر تعالى موضوع خطبة المرأة في حالة العدّة ، وموضوع استحقاق المرأة لنصف المهر أو كامل المهر بعد الفراق أو الطلاق .

اللغـَـــة : ﴿فصالاً﴾ الفِصال والفَصْل : الفطام سمي به لأن الولد ينفصل عن لبن أمه إلى غيره من الأقوات قال المبرّد : الفِصال أحسن من الفصل لأنه إذا انفصل عن أمه فقد انفصلت عنه فبينهما فِصال كالقِتال والضراب ﴿تشاور﴾ التشاور : استخراج الرأي ومثله المشاورة والمشورة مأخوذ من الشَّوْر وهو استخراج العسل ﴿يذرون﴾ يتركون وهـذا الفعـل لا يستعمـل منـه الماضي ولا المصـدر ﴿عرّضتم﴾ التعريض : الإيماء والتلويح من غير كشفٍ وإظهار، مأخـوذ من عرض الشيء أي جانبـه كقـول الفقير للمحسن : جئت لأنظر إلى وجهك الكريم ﴿خطبة﴾ بكسر الخاء طلب النكاح وبالضم الموعظة كخُطبة الجمعة والعيدين ﴿أكننتم﴾ سترتم وأضمرتم والإكنان : السرُّ والخفاء ﴿عُقدة النكاح﴾ من العقد وهو الشدُّ وفي المثل « يا عاقد اذكر حلاً » قال الراغب : العُقدة اسم لما يعقـد من نكاح أو يمـين أو غـيرهما ﴿حليم﴾ يمهل العقوبة فلا يعجّل بها للعاصي ﴿المقتر﴾ الفقير يقال : أقتـر الرجل إذا افتقر .

سَبَبُ النّزول : روي أن رجلاً من الأنصار تزوج امرأةً من بني حنيفة ولم يسمّ لها مهراً ثم طلّقها قبل أن يمسَّها فنزلت الآية ﴿لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسُّوهنَّ﴾ فقال له النبي ﷺ (متِّعْها ولو بقلنسوتك)[1] .

* ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ

التفسِـــير : ﴿والوالدات يرضعـن أولادهنّ حولين كاملين﴾ أي الواجب على الأمهات أن يرضعن أولادهنّ لمدة سنتين كاملتين ﴿لمن أراد أن يتـم الرضاعة﴾ أي إذا شاء الوالدان إتمـام الرضاعة ولا زيادة عليه ﴿وعلى المولود له رزقهـن وكسوتهـن بالمعروف﴾ أي وعلى الأب نفقة الوالدات المطلقات وكسوتهن بما هو متعارف بدون إسراف ولا تقتير لتقوم بخدمته حق القيـام ﴿لا تُكلَّـف نفسٌ إلا وسعهـا﴾ أي تكون النفقة بقدر الطاقة لأنه تعالى لا يكلّف نفساً إلا وسعها ﴿لا تضارّ والدةٌ بولدها ولا مولـودٌ له بولده﴾ أي لا يضرَّ الوالدان بالولد فيفرِّطا في تعهده ويقصرّا في ما ينبغي له ، أو يضارَّ أحدهما الآخر بسبب الولد فترفض الأم إرضاعه لتضرّ أباه بتربيته ، وينتزع الأب الولد منها إضراراً بها مع رغبتهـا في إرضاعـه ليغيظ أحـدهما صاحبه ، قاله مجاهد ﴿وعلى الوارث مثـلُ ذلـك﴾ أي وعلى الوارث مثلُ ما على والد الطفل من الإنفاق على الأم والقيام بحقوقها وعـدم الإضرار بهـا والمراد به وارثُ الأب وقيل : وارثُ الصبـي ، والأول اختيار

(١) القرطبي ٣/٢٠٢ .

ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ

الطبري ﴿**فإن أرادا فصالاً عن تراضٍ منهما وتشاورٍ فلا جناح عليهما**﴾ أي فإذا اتفق الوالدان على فطامه قبل الحولين ورأيا في ذلك مصلحة له بعد التشاور فلا إثم عليهما ﴿**وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلَّمتم ما آتيتم بالمعروف**﴾ أي وإن أردتم أيها الآباء أن تطلبوا مرضعةً لولدكم غير الأم بسبب عجزها أو إرادتها الزواج فلا إثم عليكم شريطة أن تدفعوا لها ما اتفقتم عليه من الأجر ، فإن المرضع إذا لم تكرم لا تهتم بالطفل ولا تُعنى بإرضاعه ﴿**واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير**﴾ أي راقبوا الله في جميع أفعالكم فإنه تعالى لا يخفى عليه شيء من أقوالكم وأحوالكم ﴿**والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربَّصن بأنفسهن أربعة أشهرٍ وعشراً**﴾ أي على النساء اللواتي يموت أزواجهن أن يمكثن في العدّة أربعة أشهر وعشرة أيام حداداً على أزواجهنَّ وهذا الحكم لغير الحامل أما الحامل فعدتها ، وضع الحمل لقوله تعالى ﴿ وأولاتُ الأحمال أجلهنَّ أن يضعن حملهنَّ﴾ ﴿**فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهنّ بالمعروف**﴾ أي فإذا انقضت عدتهن فلا إثم عليكم أيها الأولياء في الإذن لهن بالزواج وفعل ما أباحه لهنّ الشرع من الزينة والتعرض للخطّاب ﴿**والله بما تعملون خبير**﴾ أي عليم بجميع أعمالكم فيجازيكم عليها ﴿**ولا جناح عليكم فيما عرّضتم به من خطبة النساء**﴾ أي لا إثم عليكم أيها الرجال في التعريض بخطبة النساء المتوفّى عنهن أزواجهن في العدّة ، بطريق التلميح لا التصريح قال ابن عباس : كقول الرجل : وددتُ أن الله يسَّر لي امرأةً صالحة ، وإن النساء لمن حاجتي ﴿**أو أكننتم في أنفسكم**﴾ أي ولا إثم عليكم أيضاً فيما أخفيتموه في أنفسكم من رغبة الزواج بهن ﴿**علم الله أنكم ستذكرونهنَّ ولكن لا تواعدوهنَّ سراً إلا أن تقولوا قولاً معروفاً**﴾ أي قد علم الله أنكم ستذكرونهن في أنفسكم ولا تصبرون عنهن فرفع عنكم الحرج ، فاذكروهنَّ ولكنْ لا تواعدوهنَّ بالنكاح سرّاً إلا بطريق التعريض والتلويح وبالمعروف الذي أقره لكم الشرع ﴿**ولا تعزموا عُقْدة النكاح حتى يبلغ الكتابُ أجله**﴾ أي ولا تعقدوا عقد النكاح حتى تنتهي العدّة ﴿**واعلموا أنَّ الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه**﴾ أي احذروا عقابه في مخالفتكم أمره ﴿**واعلموا أن الله غفورٌ حليم**﴾ أي يمحو ذنب من أناب ولا يعاجل العقوبة لمن عصاه . ثم ذكر تعالى حكم المطلقة قبل

حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

المساس فقال ﴿لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهنَّ أو تفرضوا لهنَّ فريضة﴾ أي لا إثم عليكم أيها الرجال إن طلقتم النساء قبل المسيس « الجماع » وقبل أن تفرضوا لهنَّ مهراً ، فالطلاق في مثل هذه الحالة غير محظور إذا كان لمصلحة أو ضرورة ﴿ومتعوهنَّ على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين﴾ أي فإذا طلقتموهنَّ فادفعوا لهنَّ المتعة تطييباً لخاطرهن وجبراً لوحشة الفراق ، على قدر حال الرجل في الغنى والفقر ، الموسر بقدر يساره ، والمعسر بقدر إعساره ، تمتيعاً بالمعروف حقاً على المؤمنين المحسنين ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهنَّ وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم﴾ أي وإذا طلقتموهن قبل الجماع وقد كنتم ذكرتم لهنَّ مهراً معيناً فالواجب عليكم أن تدفعوا نصف المهر المسمّى لهن لأنه طلاقٌ قبل المسيس ﴿إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدةُ النكاح﴾ أي إلا إذا أسقطت المطلّقة حقها أو أسقط وليُّ أمرها الحق إذا كانت صغيرة ، وقيل : هو الزوج لأنه هو الذي يملك عُقدة النكاح وذلك بأن يسامحها بكامل المهر الذي دفعه لها واختاره ابن جرير ، وقال الزمخشري : القول بأنه الوليُّ ظاهر الصحة [1] ﴿وأن تعفو أقرب للتقوى﴾ الخطاب عام للرجال والنساء قال ابن عباس : أقربهما للتقوى الذي يعفو ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير﴾ أي لا تنسوا أيها المؤمنون الجميل والإحسان بينكم ، فقد ختم تعالى الآيات بالتذكير بعدم نسيان المودة والإحسان والجميل بين الزوجين ، فإذا كان الطلاق قد تمَّ لأسباب ضرورية قاهرة فلا ينبغي أن يكون هذا قاطعاً لروابط المصاهرة ووشائج القربى .

البلاغة : ﴿والوالدات يرضعن﴾ أمرٌ أُخرج مخرج الخبر مبالغة في الحمل على تحقيقه أي ليرضعن كالآية السابقة ﴿والمطلقات يتربصن﴾ .

٢ ـ ﴿أن تسترضعوا أولادكم﴾ فيه إيجاز بالحذف أي تسترضعوا المراضع لأولادكم ، كما أن فيه الالتفات من الغيبة إلى الخطاب لأن ما قبله ﴿فإن أرادا فصالاً﴾ وفائدة هذا الالتفات هز مشاعر الآباء نحو الأبناء .

٣ ـ ﴿ولا تعزموا عقدة النكاح﴾ ذكر العزْم للمبالغة في النهي عن مباشرة النكاح ، فإذا نهي عنه كان النهي عن الفعل من باب أولى .

(١) هذا القول مروي عن ابن عباس وهو مذهب مالك وقول الشافعي في القديم قال الناصر في تعليقه على كلام الزمخشري : وصدق الزمخشري أنه قول ظاهر الصحة ، عليه رونق الحق وطلاوة الصواب لوجوه ستة ساقها بألطف بيان فانظرها في الكشاف ١ / ٢١٧ .

٤ - ﴿ما لم تمسوهنّ﴾ كنّى تعالى بالمسّ عن الجماع تأديباً للعباد في اختيار أحسن الألفاظ فيما يتخاطبون به .

٥ - ﴿وأن تعفوا﴾ و﴿لا تنسوا الفضل﴾ الخطاب عام للرجال والنساء ولكنه ورد بطريق التغليب .

٦ - ﴿واعلموا أن الله﴾ إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتربية المهابة والروعة .

الفوائد : الأولى : التعبير بلفظ « الوالدات » دون قوله « والمطلقات » أو النساء المطلقات لاستعطافهن نحو الأولاد ، فحصول الطلاق لهنَّ لا ينبغي أن يحرمهنَّ عاطفة الأمومة .

الثانية : أضاف تعالى الولد في الآية الكريمة إلى كلٍ من الأبوين في قوله ﴿والدةٌ بولدها﴾ و﴿مولودٌ بولده﴾ وذلك لطلب الاستعطاف والإشفاق عليه ، فالولد ليس أجنبياً عن الوالدين هذه أمه وذاك أبوه فمن حقهما أن يشفقا عليه ولا تكون العداوة بينهما سبباً للإضرار به .

الثالثة : الحكمة في إيجاب المتعة للمطلقة هي جبر إيحاش الطلاق قال ابن عباس : إن كان معسراً متعها بثلاثة أثواب ، وإن كان موسراً متّعها بخادم .

الرابعة : روي أن الحسن بن علي متّع زوجته بعشرة آلاف درهم فقالت المرأة « متاعٌ قليلٌ من حبيبٍ مفارق » وسبب طلاقه إيّاها ما روي أنه لما أصيب عليٌّ كرّم الله وجهه وبويع الحسن بالخلافة قالت له : لتهنك الخلافة يا أمير المؤمنين ! فقال : يُقتل عليٌّ وتظهرين الشماتة ؟ إذهبي فأنت طالق ثلاثاً ، فتلفعت بجلبابها وقعدت حتى انقضت عدتها فبعث إليها بعشرة آلاف متعة وبقية ما بقي لها من صداقها فقالت ذلك ، فلما أخبره الرسول بكى وقال : لولا أنني طلقتها ثلاثاً لراجعتها[1] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى . . إلى . . يبيّن الله لكم آياته لعلكم تعقلون﴾
من آية (٢٣٨) إلى نهاية آية (٢٤٢)

المناسبة : توسطت آيات المحافظة على الصلاة خلال الآيات الكريمة المتعلقة بأحكام الأسرة وعلاقات الزوجين عند الطلاق أو الافتراق وذلك لحكمة بليغة ، وهي أن الله تعالى لما أمر بالعفو والتسامح وعدم نسيان الفضل بعد الطلاق بيّن بعد ذلك أمر الصلاة ، لأنها أعظم وسيلة إلى نسيان هموم الدنيا وأكدارها ولهذا كان ﷺ إذا حزبه همٌ فزع إلى الصلاة فالطلاق يولّد الشحناء والبغضاء ، والصلاة تدعو إلى الإحسان والتسامح وتنهى عن الفحشاء والمنكر ، وذلك أفضل طريق لتربية النفس الإنسانية .

اللغة : ﴿حافظوا﴾ المحافظة : المداومة على الشيء والمواظبة عليه ﴿الوسطى﴾ مؤنث

(١) القرطبي ٣/ ٢٠٢ .

الأوسط ، ووسط الشيء خيره وأعدلـه قال أعرابي يمدح الرسول ﷺ :

يا أوسـط النـاس طرّاً في مفاخرهم وأكرم النـاس أمّـاً برّةً وأبا

﴿قانتين﴾ أصل القنوت في اللغة : المداومة على الشيء وقد خصّه القرآن بالدوام على الطاعة والملازمة لها على وجه الخشوع والخضوع قال تعالى ﴿يا مريم اقنتي لربك﴾.﴿فرجالاً﴾ جمع راجل وهو القائم على القدمين قال الراغب : اشتُقَّ من الرجل راجلٌ للماشي بالرجل ويقال : رجل راجلٌ أي قويٌّ على المشي[1] ﴿ركباناً﴾ جمع راكب وهو من يركب الفرس والدابة ونحوهما .

حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَـٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَـٰتِ مَتَـٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

التفسير : ﴿حافظـوا على الصلوات والصلاة الوسطـى﴾ أي واظبوا أيها المؤمنون وداوموا على أداء الصلوات في أوقاتها وخاصة صلاة العصر فإن الملائكة تشهدها ﴿وقوموا للـه قانتين﴾ أي داوموا على العبادة والطاعة بالخشوع والخضوع أي قوموا للّه في صلاتكم خاشعين ﴿فإن خفتم فرجالاً أو ركبانـاً﴾ أي فإذا كنتم في خوفٍ من عدوٍ أو غيره فصلوا ماشين على الأقدام أو راكبين على الدواب ﴿فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكـونوا تعلمـون﴾ أي فإذا زال الخوف وجاء الأمن فأقيموا الصلاة مستوفية لجميع الأركان كما أمركم الله وعلى الوجه الذي شرعه لكم وهذه كقوله ﴿فإذا أطمأننتم فأقيمـوا الصـلاة﴾ والذكرُ في الآية يراد به الصلاة الكاملة المستوفية للأركان قال الزمخشري : المعنى اذكروه بالعبادة كما أحسن إليكم بما علمكم من الشرائع وكيف تصلون في حال الخوف والأمن . ثم قال تعالى مبيناً أحكام العدة ﴿والذين يُتوفـو ن منكم ويذرو ن أزواجاً وصيةً لأزواجهم متاعاً إلى الحو ل غير إخراج﴾ أي والذين يموتون من رجالكم ويتركون زوجاتهم على هؤ لاء أن يوصوا قبل أن يحتضروا بأن تمتّع أزواجهم بعدهم حولاً كاملاً ، يُنْفق عليهنَّ من تركته ولا يخُرجن من مساكنهنَّ ـ وكان ذلك في أول الإسلام ثم نسخت المدة إلى أربعة أشهر وعشرة أيام ﴿فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهـن من معـروف﴾ أي فإن خرجـن مختـارات راضيات فلا إثم عليكم يا أولياء الميت في تركهن أن يفعلن ما لا ينكره الشرع كالتزين والتطيب والتعرض للخُطّاب ﴿والله عزيز حكيـم﴾ أي هو سبحانه غالبٌ في ملكه حكيم في صنعه ﴿وللمطلقـات متـاع

(١) مفردات الراغب مادة رجل .

بالمعروف حقاً على المتقين﴾ أي واجبٌ على الأزواج أن يمتِّعن المطلقات بقدر استطاعتهم جبراً لوحشة الفراق وهذه المتعة حقٌ لازم على المؤمنين المتقين لله ﴿كذلك يبينّ الله لكم آياته لعلكم تعقلون﴾ أي مثل ذلك البيان الشافي الذي يوجه النفوس نحو المودة والرحمة يبيّن الله سبحانه لكم آياته الدالة على أحكامه الشرعية لتعقلوا ما فيها وتعملوا بموجبها .

البلاغة : ١ ـ ﴿الصلاة الوسطى﴾ عطف خاص على عام لبيان مزيد فضلها .

٢ ـ ﴿فإن خفتم﴾ ﴿فإذا أمنتم﴾ بين لفظ خفتم وأمنتم طباق وهو من المحسنات البديعية قال أبو السعود : وفي إيراد الشرطية بكلمة « إن » المنبئة عن عدم تحقق وقوع الخوف ، وإيراد الثانية بكلمة « إذا » المنبئة عن تحقق وقوع الأمن وكثرته مع الإيجاز في جواب الأولى والإطناب في جواب الثانية من الجزالة ولطف الاعتبار ما فيه عبرة لأولي الأبصار[1] .

تنبيه : الصلاة الوسطى على الراجح من الأقوال هي صلاة العصر لأنها وسط بين الفجر والظهر والمغرب والعشاء ويقوي هذا ما ورد في الصحيحين (شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله قلوبهم وبيوتهم ناراً) وفي الحديث (الذي تفوته صلاة العصر فكأنما وُتر أهله وماله) أخرجه الشيخان وغير ذلك من الأحاديث الصحيحة .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف . . إلى . . وإنك لمن المرسلين﴾ من آية (٢٤٢) إلى نهاية آية (٢٥٢) .

المناسبة : لما ذكر تعالى أحكام الأسرة بالتفصيل والنظم التي تربط بين أفرادها ، وسعى لإصلاحها باعتبار أنها النواة واللبنة التي يشاد منها صرح المجتمع الفاضل ، ذكر بعدها أحكام الجهاد وذلك لحماية العقيدة وصيانة المقدسات ، وتأمين البيئة الصالحة للأسرة المسلمة التي تنشد الحياة الكريمة ، فلا صلاح للأسرة إلا بصلاح المجتمع ، ولا بقاء لها ولا خلود إلا ببقاء الحق وأنصاره ، ولهذا أمر تعالى بالقتال وضرب عليه الأمثال بالأمم السابقة ، كيف جاهدت في سبيل الحق وانتصرت القلة مع إيمانها على الكثرة مع كفرها وطغيانها ، فليست العبرة بكثرة أنصار الباطل بل بصمود أهل الحق والتزامهم له وجهادهم في سبيله .

اللغة : ﴿ألوف﴾ جمع ألف جمع كثرة وفي القلة آلاف ، ومعناه كثرة كاثرة وألوف مؤلفة ﴿حذر﴾ خشية وخوف ﴿يقبض ويبسط﴾ القبض: ضم الشيء والجمع عليه والمراد به التقتير والبسط ضدّه والمراد به التوسيع قال أبو تمام :

تعوَّد بسطَ الكفِّ حتى لو أنه ... دعاها لقبضٍ لم تجِبْه أنامله

(١) تفسير أبي السعود ١/ ١٨٠ .

﴿الملأ﴾ الأشراف من الناس سمّوا بذلك لأنهم يملأون العين مهابةً وإجلالاً ﴿فصل﴾ انفصل من مكانه يقال : فصل عن الموضع انفصل عنه وجاوزه ﴿مبتليكم﴾ مختبركم ﴿يظنون﴾ يستيقنون ويعلمون ﴿فئة﴾ الفئة : الجماعة من الناس لا واحد له كالرهط والنفر ﴿أفرغ﴾ أفرغ الشيء صبَّه وأنزله .

* أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ

التفسير : ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف﴾ أي ألم يصل إلى سمعك يا محمد أو أيها المخاطب حال أولئك القوم الذين خرجوا من وطنهم وهم ألوف مؤلفة ﴿حذر الموت﴾ أي خوفاً من الموت وفراراً منه ، والغرض من الاستفهام التعجيب والتشويق إلى سماع قصتهم وكانوا سبعين ألفاً ﴿فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم﴾ أي أماتهم الله ثم أحياهم ، وهم قوم من بني إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد فهربوا خوفاً من الموت فأماتهم الله ثمانية أيام ثم أحياهم بدعوة نبيهم « حزقيل » فعاشوا بعد ذلك دهراً ، وقيل : هربوا من الطاعون فأماتهم الله قال ابن كثير : وفي هذه القصة عبرةٌ على أنه لا يغني حذرٌ من قدر ، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه ﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾ أي ذو إنعام وإحسان على الناس حيث يريهم من الآيات الباهرة والحجج القاطعة ما يبصّرهم بما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة ﴿ولكنَّ أكثر الناس لا يشكرون﴾ أي لا يشكرون الله على نعمه بل ينكرون ويجحدون ﴿وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم﴾ أي قاتلوا الكفار لإعلاء دين الله ، لا لحظوظ النفس وأهوائها واعلموا أن الله سميع لأقوالكم ، عليم بنيّاتكم وأحوالكم فيجازيكم عليها ، وكما أن الحذر لا يغني من القدر فكذلك الفرار من الجهاد لا يقرّب أجلاً ولا يبعده ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾ أي من الذي يبذل ماله وينفقه في سبيل الخير ابتغاء وجه الله ، ولإعلاء كلمة الله في الجهاد وسائر طرق الخير ، فيكون جزاؤه أن يضاعف الله تعالى له ذلك القرض أضعافاً كثيرة ؟ لأنه قرضٌ لأغنى الأغنياء ربّ العالمين جل جلاله وفي الحديث (من يقرض غير عديم ولا ظلوم[1]) ﴿والله يقبض ويبسط﴾ أي يقتّر على من يشاء ويوسّع على من يشاء ابتلاءً وامتحاناً ﴿وإليه تُرجعون﴾ أي يوم القيامة فيجازيكم على أعمالكم ﴿ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى﴾ أي ألم يصل خبر القوم إليك ؟ وهو تعجيب وتشويق للسامع كما تقدم وكانوا من بني إسرائيل وبعد وفاة موسى عليه السلام كما دلت عليه الآية ﴿إذ قالوا لنبيّ لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله﴾ أي حين قالوا لنبيِّهم « شمعون » ـ وهو من نسل

(١) حديث قدسي ذكره ابن كثير عند هذه الآية من حديث النزول ، وانظر مختصر ابن كثير ١/ ٢٢٢ .

فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ

هارون[1] أقم لنا أميراً واجعله قائداً لنا لنقاتل معه الأعداء في سبيل الله ﴿**قال هل عسيتم إن كُتب عليكم القتال ألاّ تقاتلوا**﴾ أي قال لهم نبيهم : أخشى أن يُفرض عليكم القتال ثم لا تقاتلوا عدوكم وتجبنوا عن لقائه ﴿**قالوا وما لنا ألاّ نقاتل في سبيل الله وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا**﴾ أي أيُّ سببٍ لنا في ألاّ نقاتل عدونا وقد أخذت منا البلاد وسُبيت الأولاد ؟ قال تعالى بياناً لما انطوت عليه نفوسهم من الهلع والجبن ﴿**فلما كُتب عليهم القتالُ تولّوا إلا قليلاً منهم**﴾ أي لما فرض عليهم القتال نكل أكثرهم عن الجهاد إلا فئة قليلة منهم صبروا وثبتوا ، وهم الذين عبروا النهر مع طالوت ، قال القرطبي : وهذا شأن الأمم المتنعِّمة المائلة إلى الدَّعة ، تتمنى الحرب أوقات الأنفة فإذا حضرت الحرب جُبنت وانقادت لطبعها[2] ﴿**والله عليم بالظالمين**﴾ وعيدٌ لهم على ظلمهم بترك الجهاد عصياناً لأمره تعالى ﴿**وقال لهم نبيهم إنَّ الله قد بعث لكم طالوت ملكاً**﴾ أي أخبرهم نبيّهم بأنَّ الله تعالى قد ملَّك عليهم طالوت ليكونوا تحت إمرته في تدبير أمر الحرب واختاره ليكون أميراً عليهم ﴿**قالوا أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال**﴾ أي قالوا معترضين على نبيّهم كيف يكون ملكاً علينا والحال أننا أحقُّ بالملك منه لأن فينا من هو من أولاد الملوك وهو مع هذا فقير لا مال له فكيف يكون ملكاً علينا ؟ ﴿**قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطةً في العلم والجسم**﴾ أي أجابهم نبيّهم على ذلك الاعتراض فقال : إن الله اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح منكم ، والعمدة في الاختيار أمران : العلم ليتمكن به من معرفة أمور السياسة ، والأمر الثاني قوة البدن ليعظم خطره في القلوب ، ويقدر على مقاومة الأعداء ومكابدة الشدائد ، وقد خصّه الله تعالى منهما بحظ وافر قال ابن كثير : ومن ههنا ينبغي أن يكون الملك ذا علمٍ ، وشكلٍ حسن ، وقوةٍ شديدة في بدنه ونفسه[3] ، ﴿**والله يؤتي ملكه من يشاء**﴾ أي يعطي الملك لمن شاء من عباده من غير إرثٍ أو مال ﴿**والله واسع عليم**﴾ أي واسع الفضل عليمٌ بمن هو أهلٌ له فيعطيه إياه . . ولمّا طلبوا آية تدل على اصطفاء الله لطالوت أجابهم إلى ذلك ﴿**وقال لهم نبيّهم إنَّ آية ملكه**﴾ أي علامة ملكه واصطفائه عليكم ﴿**أن يأتيكم التابوت**﴾ أي يردَّ الله إليكم التابوت الذي أخذ منكم ، وهو كما قال الزمخشري : صندوق التوراة الذي كان موسى عليه السلام إذا قاتل قدَّمه فكانت تسكن نفوس بني إسرائيل ولا يفرون ﴿**فيه سكينةٌ من**

(١) قاله مقاتل وهو من أنبياء بني إسرائيل . (٢) القرطبي ٣/ ٢٤٥ (٣) مختصر ابن كثير ١/ ٢٢٤

ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾

ربكم وبقيةٌ **مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة﴾** أي في التابوت السكون والطمأنينة والوقار وفيه أيضاً بقية من آثار آل موسى وآل هارون وهي عصا موسى وثيابه وبعض الألواح التي كتبت فيها التوراة تحمله الملائكة قال ابن عباس : جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعته بين يدي طالوت والناس ينظرون **﴿إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾** أي إن في نزول التابوت لعلامة واضحة أن الله اختاره ليكون ملكاً عليكم إن كنتم مؤ منين بالله واليوم الآخر **﴿فلما فصل طالوت بالجنود﴾** أي خرج بالجيش وانفصل عن بيت المقدس وجاوزه وكانوا ثمانين ألفاً أخذ بهم في أرضٍ قفرة فأصابهم حر وعطشٌ شديد **﴿قال إن الله مبتليكم بنهر﴾** أي مختبركم بنهر وهو نهر الشريعة المشهور بين الأردن وفلسطين **﴿فمن شرب منه فليس مني﴾** أي من شرب منه فلا يصحبني - وأراد بذلك أن يختبر إرادتهم وطاعتهم قبل أن يخوض بهم غمار الحرب - **﴿ومن لم يطعمه فإنه مني﴾** أي من لم يشرب منه ولم يذقه فإنه من جندي الذين يقاتلون معي **﴿إلاّ من اغترف غرفة بيده﴾** أي لكن من اغترف قليلاً من الماء ليبلَّ عطشه وينقع غلته فلا بأس بذلك ، فأذن لهم برشفةٍ من الماء تذهب بالعطش **﴿فشربوا منه إلا قليلاً منهم﴾** أي شرب الجيش منه إلا فئة قليلة صبرت على العطش قال السدي : شرب منه ستة وسبعون ألفاً وتبقّى معه أربعة آلاف **﴿فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه﴾** أي لما اجتاز النهر مع الذين صبروا على العطش والتعب ورأوا كثرة عدوهم اعتراهم الخوف فقال فريق منهم **﴿قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾** أي لا قدرة لنا على قتال الأعداء مع قائد جيشهم جالوت فنحن قلة وهم كثرة كاثرة **﴿قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله﴾** أي قال الذين يعتقدون بلقاء الله وهم الصفوة الأخيار والعلماء الأبرار من أتباع طالوت **﴿كم من فئةٍ قليلةٍ غلبت فئةً كثيرة بإذن الله﴾** أي كثيراً ما غلبت الجماعة القليلة الجماعة الكثيرة بإرادة الله ومشيئته ، فليس النصر عن كثرة العدد وإنما النصر من عند الله **﴿والله مع الصابرين﴾** أي معهم بالحفظ والرعاية والتأييد ومن كان الله معه فهو منصور بحول الله **﴿ولما برزوا لجالوت وجنوده﴾** أي ظهروا في الفضاء المتسع وجهاً لوجه أمام ذلك الجيش الجرار جيش جالوت المدرّب على الحروب **﴿قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً﴾** دعوا الله ضارعين إليه بثلاث دعوات تفيد إدراك أسباب النصر فقالوا أولاً : ربنا أفضْ علينا صبراً يعمنا في جمعنا وفي خاصة نفوسنا لنقوى على قتال أعدائك **﴿وثبت أقدامنا﴾** أي ثبتنا في ميدان الحرب ولا تجعل للفرار

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾

سبيلاً إلى قلوبنا وهي الدعوة الثانية ﴿**وانصرنا على القوم الكافرين**﴾ أي انصرنا على من كفر بك وكذب رسلك وهم جالوت وجنوده وهي الدعوة الثالثة قال تعالى إخباراً عنهم ﴿**فهزموهم بإذن الله**﴾ أي هزموا جيش جالوت بنصر الله وتأييده إجابةً لدعائهم وانكسر عدوهم رغم كثرته ﴿**وقتل داود جالوت**﴾ أي وقتل داود ـ وكان في جيش المؤمنين مع طالوت ـ رأس الطغيان جالوت واندحر جيشه ﴿**وآتاه الله الملك والحكمة وعلّمه مما يشاء**﴾ أي أعطى الله تعالى داود الملك والنبوة وعلّمه ما يشاء من العلم النافع الذي أفاضه عليه قال ابن كثير : كان طالوت قد وعده إن قتل جالوت أن يزوجه ابنته ويشاطره نعمته ، ويشركه في أمره ، فوفى له ثم آل الملك إلى داود عليه السلام مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة ﴿**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض**﴾ أي لولا أن يدفع الله شرّ الأشرار بجهاد الأخيار لفسدت الحياة ، لأن الشر إن غلب كان الخراب والدمار ﴿**ولكن الله ذو فضلٍ على العالمين**﴾ أي ذو تفضلٍ وإنعام على البشر حيث لم يمكّن للشر من الاستعلاء ﴿**تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق**﴾ أي ما قصصنا عليك يا محمد من الأمور الغريبة والقصص العجيبة التي وقعت في بني إسرائيل هي من آيات الله وأخباره المغيبة التي أوحاها إليك بالحق بواسطة جبريل الأمين ﴿**وإنك لمن المرسلين**﴾ أي وإنك يا محمد لمن جملة الرسل الذين أرسلهم الله لتبليغ دعوة الله عز وجل .

البلاغة : قال أبو حيان : تضمنت الآية الكريمة من ضروب البلاغة وصنوف البيان أموراً كثيرة منها الاستفهام الذي أُجري مجرى التعجب في قوله ﴿ألم تر إلى الذين﴾ والحذف بين ﴿موتوا ثم أحياهم﴾ أي فماتوا ثم أحياهم ، والطباق في قوله ﴿موتوا﴾ و﴿أحياهم﴾ وكذلك في قوله ﴿يقبض﴾ و﴿يبسط﴾ والتكرار في قوله ﴿فضلٍ على الناس﴾ و﴿لكنّ أكثر الناس﴾ والالتفات في ﴿وقاتلوا في سبيل الله﴾ والتشبيه بدون الأداة في قوله ﴿قرضاً حسناً﴾ شبّه قبوله تعالى إنفاق العبد في سبيله بالقرض الحقيقي فأطلق اسم القرض عليه ، والتجنيس المغاير في قوله ﴿فيضاعفه﴾ وقوله ﴿أضعافاً﴾[1] .

٢ ـ ﴿أفرغ علينا صبراً﴾ فيه استعارة تمثيلية فقد شبّه حالهم والله تعالى يفيض عليهم بالصبر بحال الماء يصب ويفرغ على الجسم فيعمه كله ، ظاهره وباطنه فيلقي في القلب برداً وسلاماً وهدوءاً واطمئناناً .

الفوائد : **الأولى** : أسند الاستقراض إلى الله في قوله ﴿من ذا الذي يقرض الله﴾ وهو المنزه عن الحاجات ترغيباً في الصدقة كما أضاف الإحسان إلى المريض والجائع والعطشان إلى نفسه تعالى في قوله جلّ

(١) البحر المحيط ٣/ ٢٥٣ .

وعلا في الحديث القدسي « ابن آدم مرضتُ فلم تعدني » و « استطعمتك فلم تطعمني » و « استسقيتك فلم تسقني » الحديث الذي رواه الشيخان .

الثانية : روي أنه لمّا نزلت الآية الكريمة جاء أبو الدحداح الأنصاري إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله : وإنّ الله ليريد منّا القرض ؟ قال : نعم يا أبا الدحداح ! قال : أرني يدك يا رسول الله ، فناوله يده قال : فإني قد أقرضتُ ربي حائطي - أي بستاني وكان فيه ستمائة نخلة وأم الدحداح فيه وعيالها - فجاء أبو الدحداح فناداها : يا أُمَّ الدحداح قالت : لبّيك ، قال : اخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل[1] ، وفي رواية قالت : ربح بيعك يا أبا الدحداح وخرجت منه مع عيالها .

الثالثة : قال البقاعي : ولعلّ ختام بني إسرائيل بهذه القصة لما فيها للنبي ﷺ من واضح الدلالة على صحة رسالته لأنها مما لا يعلمه إلا القليل من حذاق علماء بني إسرائيل[2] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض . . إلى . . والكافرون هم الظالمون﴾

من آية (٢٥٣) إلى نهاية آية (٢٥٤) .

المنَاسَبَة : لما ذكر تعالى في الآيات السابقة اصطفاء طالوت على بني إسرائيل ، وتفضيل داود عليهم بالملك والنبوة ثم خاطب رسوله ﷺ بأنه من المرسلين ، وكان ظاهر اللفظ يقتضي التسوية بين الرسل ، ذكر في هذه الآية أن المرسلين ليسوا في درجة واحدة بل بعضهم أفضل من بعض كما يكون التفاضل بين البشر .

اللغَة : ﴿درجات﴾ جمع درجة وهي المنزلة الرفيعة السامية ﴿البيّنات﴾ المعجزات ﴿وأيدناه﴾ قويناه من التأييد بمعنى التقوية ﴿روح القدس﴾ القدس : الطهارة وروح القدس جبريل عليه السلام وقد تقدم ﴿خلة﴾ الخُلَّة : الصداقة والمودة سميت بذلك لأنها تتخلل الأعضاء أي تدخل خلالها ومنه الخليل ﴿شفاعة﴾ مأخوذة من الشفع بمعنى الضم ، والشفاعة الانضمام إلى آخر ناصراً له وسائلاً عونه .

* تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ

التّفسِير : ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض﴾ أي أولئك الرسل الكرام الذين قصصنا عليك من أنبائهم يا محمد هم رسل الله حقاً ، وقد فضّلنا بعضهم على بعض في الرفعة والمنزلة والمراتب العالية ﴿منهم من كلّم الله﴾ أي منهم من خصّه الله بالتكليم بلا واسطة كموسى عليه السلام ﴿ورفع بعضهم درجات﴾ أي ومنهم من خصّه الله بالمرتبة الرفيعة السامية كخاتم المرسلين محمد ﷺ فهو سيد الأولين والآخرين في الدنيا والآخرة ، وكأبي الأنبياء إبراهيم الخليل ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البيّنات﴾ أي

(١) أخرجه البزار والطبراني عن ابن مسعود . (٢) محاسن التأويل ٣/ ٦٥٠ .

﴿الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾

ومنهم من أعطاه الله المعجزات الباهرات كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والإخبار عن المغيبات ﴿**وأيدناه بروح القدس**﴾ أي قويناه بجبريل الأمين وهو عيسى بن مريم ﴿**ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات**﴾ أي لو أراد الله ما اقتتل الأمم الذين جاءوا بعد الرسل من بعد الحجج الباهرة والبراهين الساطعة التي جاءتهم بها رسلهم ، فلو شاء الله ما تنازعوا ولا اختلفوا ولا تقاتلوا ، ولجعلهم متفقين على اتباع الرسل كما أن الرسل متفقون على كلمة الحق ﴿**ولكنْ اختلفوا فمنهم من آمنَ ومنهم من كفر**﴾ أي ولكنَّ الله لم يشأ هدايتهم بسبب اختلافهم في الدين وتشعب مذاهبهم وأهوائهم ، فمنهم من ثبت على الإيمان ومنهم من حاد وكفر ﴿**ولو شاءَ اللهُ ما اقتتلوا ولكنَّ الله يفعل ما يريد**﴾ أي لو شاء الله لجعل البشر على طبيعة الملائكة لا يتنازعون ولا يقتتلون ولكنّ الله حكيم يفعل ما فيه المصلحة ، وكلٌّ ذلك عن قضاء الله وقدره فهو الفعال لما يريد ﴿**يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم**﴾ أي أنفقوا في سبيل الله من مال الله الذي منحكم إيّاه ، ادفعوا الزكاة وأنفقوا في وجوه الخير والبر والصالحات ﴿**من قبل أن يأتي يومٌ لا بيعٌ فيه ولا خلةٌ ولا شفاعة**﴾ أي من قبل مجيء ذلك اليوم الرهيب الذي لا تستطيعون أن تفتدوا نفوسكم بمالٍ تقدمونه فيكون كالبيع ، ولا تجدون صديقاً يدفع عنكم العذاب ، ولا شفيعاً يشفع لكم ليحط عنكم من سيئاتكم إلا أن يأذن الله رب العالمين ﴿**والكافرون هم الظالمون**﴾ أي لا أحد أظلم ممن وافى الله يومئذٍ كافراً ، والكافر بالله هو الظالم المعتدي الذي يستحق العقاب .

البـلاغـة : ١ ـ ﴿تلك الرسل﴾ الإشارة بالبعيد لبعد مرتبتهم في الكمال .

٢ ـ ﴿منهم من كلّم الله . .﴾ الآية تفصيلٌ لذلك التفضيل ويسمى هذا في البلاغة : التقسيم وكذلك في قوله ﴿فمنهم من آمن ومنهم من كفر﴾ وبين لفظ « آمن » و« كفر » طباقٌ .

٣ ـ الإطناب وذلك في قوله ﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا﴾ حيث كرر جملة ﴿ولو شاء الله﴾ .

٤ ـ ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ قصر صفة على الموصوف ، وقد أكدت بالجملة الإسمية وبضمير الفصل .

فـائـدة : روي عن عطاء بن دينار أنه قال : الحمد لله الذي قال ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ ولم يقل « والظالمون هم الكافرون » ومراده أنه لو نزل هكذا لكان قد حكم على كل ظالم بالكفر فلم يخلص منه إلا من عصمه الله .

تـنبيه : يحتمل أن يراد بالكفر المعنى الحقيقي أو المجازي فيكون المراد بالكافر تارك الزكاة كما ذهب إليه الزمخشري حيث قال : أراد والتاركون للزكاة هم الظالمون ، وإيثاره عليه للتغليظ والتهديد كما في آية الحج ﴿ومن كفر﴾ مكان ﴿ومن لم يحج﴾ ولأنه جعل ترك الزكاة من صفات الكفار في قوله ﴿وويل للمشركين الذين لا يؤ تون الزكاة﴾ .

* * *

قال الله تعالى : ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم . . إلى . . أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ من آية (٢٥٥) إلى نهاية آية (٢٥٧) .

المناسبة : لمّا ذكر تعالى تفضيل بعض الأنبياء على بعض ، وبيّن أن الخلائق قد اختلفوا من بعدهم وتنازعوا وتقاتلوا بسبب الدين ، ذكر أن هذا التفضيل بين الأنبياء لا يستدعي الصراع بين الأتباع ولا الخصام والنزاع ،فالرسل صلوات الله عليهم وإن كانوا متفاوتين في الفضل إلا أنهم جميعاً جاءوا بدعوةٍ واحدة هي « دعوة التوحيد » فرسالتهم واحدة ودينهم واحد ، وأنه لا إكراه في الدين فقد سطع نور الحق وأشرق ضياؤه .

اللغة : ﴿الحي﴾ ذو الحياة الكاملة ومعناه الباقي الدائم الذي لا سبيل للفناء عليه ﴿القيوم﴾ القائم بتدبير الخلق ﴿سِنة﴾ بكسر السين النعاس وهو ما يسبق النوم من فتور قال الشاعر :

وسنان أقعده النعاس فرنّقت في عينه سِنةٌ وليس بنائم

﴿يؤوده﴾ يثقله ويتعبه ﴿العلي﴾ المراد علو المنزلة والشأن الذي تعالى في جلاله وعظم في سلطانه ﴿إكراه﴾ الإكراه : حمل الشخص على ما يكره بطريق القسر والجبر ﴿الطاغوت﴾ من الطغيان وهو كل ما يطغي الإنسان ويضله عن طريق الحق والهدى ﴿الوثقى﴾ مؤ نث الأوثق وهو الشيء المحكم الموثق ﴿انفصام﴾ الإنفصام : الانكسار قال الفراء : الانفصام والانقصام لغتان وبالفاء أفصح وقال بعضهم : الفصم انكسار بغير بينونة والقصم انكسار ببينونة .

سبب النزول : كان لرجلٍ من الأنصار ابنان تنصّرا قبل بعثة النبي ﷺ ثم قدما المدينة في نفرٍ من التجار يحملون الزيت ، فلزمهما أبوهما وقال : لا أدعكما حتى تسلما فنزلت ﴿لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغي﴾[1] . الآية .

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ

التفسير : ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ أي هو الله جل جلاله الواحد الأحد الفرد الصمد ، ذو الحياة الكاملة ، الباقي الدائم الذي لا يموت ، القائم على تدبير شئون الخلق بالرعاية والحفظ

(١) القرطبي ٣ ٢٨٠

عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

والتدبير ﴿لا تأخذه سنةٌ ولا نوم﴾ أي لا يأخذه نعاسٌ ولا نوم كما ورد في الحديث (إنَّ الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه)، ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ أي جميع ما في السموات والأرض ملكه وعبيده وتحت قهره وسلطانه ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ أي لا أحد يستطيع أن يشفع لأحد إلا إذا أذن له الله تعالى قال ابن كثير : وهذا بيانٌ لعظمته وجلاله وكبريائه بحيث لا يتجاسر أحد على الشفاعة إلا بإذن المولى ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ أي يعلم ما هو حاضر مشاهد لهم وهو الدنيا وما خلفهم أي أمامهم وهو الآخرة فقد أحاط علمه بالكائنات والعوالم ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾ أي لا يعلمون شيئاً من معلوماته إلا بما أعلمهم إيّاه على ألسنة الرسل ﴿وسع كرسيه السموات والأرض﴾ أي أحاط كرسيّه بالسموات والأرض لبسطته وسعته ، والسمواتُ السبع والأرضون بالنسبة للكرسي كحلقةٍ ملقاةٍ في فلاة ، وروي عن ابن عباس ﴿وسع كرسيه﴾ قال : علمه بدلالة قوله تعالى ﴿ربنا وسعتَ كل شيء رحمةً وعلماً﴾ فأخبر أن علمه وسع كل شيء[1] وقال الحسن البصري : الكرسي هو العرش قال ابن كثير : والصحيح أن الكرسي غير العرش وأن العرش أكبر منه كما دلت على ذلك الآثار والأخبار ﴿ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم﴾ أي لا يثقله ولا يعجزه حفظ السموات والأرض ومن فيهما وهو العلي فوق خلقه ذو العظمة والجلال كقوله ﴿وهو الكبير المتعال﴾ ﴿لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغيِّ﴾ أي لا إجبار ولا إكراه لأحد على الدخول في دين الإسلام ، فقد بان ووضح الحق من الباطل والهدى من الضلال ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ أي من كفر بما يعبد من غير الله كالشيطان والأوثان وآمن بالله فقد تمسك من الدين بأقوى سبب ﴿لا انفصام لها﴾ أي لا انقطاع لها ولا زوال ﴿والله سميع عليم﴾ أي سميع لأقوال عباده عليم بأفعالهم ﴿الله وليُّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ أي الله ناصر المؤمنين وحافظهم ومتولي أمورهم ، يخرجهم من ظلمات الكفر والضلالة إلى نور الإيمان والهداية ﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾ أي وأما الكافرون فأولياؤ هم الشياطين يخرجونهم من نور الإيمان إلى ظلمات الشك

(١) قال ابن جرير : وقول ابن عباس هذا يدل على صحته ظاهر القرآن ولأن أصل الكرسي العلم ، ومنه يقال للعلماء كراسي لأنهم المعتمد عليهم كما يقال أوتاد الأرض انتهى والصحيح ما قاله ابن كثير .

والضلال ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي ماكثون في نار جهنم لا يخرجون منها أبداً .

البَلاَغَة : ١ - في آية الكرسي أنواعٌ من الفصاحة وعلم البيان منها حسنُ الافتتاح لأنها افتتحت بأجل أسماء الله تعالى ، وتكرار اسمه ظاهراً ومضمراً في ثمانية عشر موضعاً ، والإطناب بتكرير الصفات ، وقطعُ الجمل حيث لم يصلها بحرف العطف ، والطباقُ في ﴿ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ أفاده صاحب البحر المحيط .

٢ - ﴿استمسك بالعروة الوثقى﴾ استعارة تمثيلية حيث شبه المستمسك بدين الإسلام بالمستمسك بالحبل المحكم ، وعدم الانفصام ترشيحٌ .

٣ - ﴿من الظلمات إلى النور﴾ استعارة تصريحية حيث شبه الكفر بالظلمات والإيمان بالنور قال في تلخيص البيان : وذلك من أحسن التشبيهات لأن الكفر كالظلمة التي يتسكع فيها الخابط ويضل القاصد ، والإيمان كالنور الذي يؤمه الجائر ويهتدي به الحائر ، وعاقبة الإيمان مضيئة بالنعيم والثواب ، وعاقبةُ الكفر مظلمة بالجحيم والعذاب[1] .

فَائِدَة : أفرد النور وجمع الظلمات لأن الحق واحد لا يتعدد وأما طرق الضلال فكثيرة ومتشعبة .

تنبيه :آية الكرسي لها شأن عظيم وقد صحّ الحديث عن رسول الله ﷺ بأنها أفضل آية في كتاب الله وفيها اسم الله الأعظم كما جاء في الحديث الشريف : (اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب في ثلاث : سورة البقرة وآل عمران وطه) قال هشام : أما البقرة فقوله ﴿الله لا إله إلا هو الحيُّ القيوم﴾ وفي آل عمران ﴿الٓمٓ * الله لا إله إلا هو الحيُّ القيوم﴾ وفي طه ﴿وعنت الوجوه للحيِّ القيوم﴾ قال ابن كثير : وقد اشتملت على عشر جملٍ مستقلة ، متعلقة بالذات الإلهية وفيها تمجيد الواحد الأحد[2] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ألم تر إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربه . . إلى . . يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيزحكيم﴾ من آية (٢٥٨) إلى نهاية آية (٢٦٠) .

المُنَاسَبَة : لما ذكر تعالى الإيمان بالله وصفاته القدسية العلية ، وذكر ولايته للمؤمنين وولاية الطاغوت للكافرين ، ذكر هنا نموذجاً عن تحكم الطغيان في نفوس الكفرة المعاندين ومجادلتهم في وحدانية الله ، فذكر ههنا قصصاً ثلاثة : الأولى في بيان إثبات الخالق الحكيم والثانية والثالثة في إثبات الحشر ، والبعث بعد الفناء .

اللغَة : ﴿حاجَّ﴾ المحاجّة : المغالبة يقال : حاججته فحججته ، وحاجّه أي بادله الحجة

(١) تلخيص البيان ص ١٥ . (٢) ابن كثير المختصر ١/ ٢٣٠

﴿فبهت﴾ انقطع وسكت متحيراً قال العذري :

فما هو إلا أن أراها فَجاءةً فأبهتُ حتى ما أكاد أجيب

﴿خاوية﴾ ساقطة ﴿عروشها﴾ العرش : سقف البيت ، وكلُّ ما يهيأ ليُظلَّ أو يُكنَّ فهو عريش ﴿يتسنَّه﴾ يتغيّر ويتبدّل من تسنَّهت النخلة إذا أتت عليها السنون وغيَّرتها ﴿ننشزها﴾ نركّب بعضها فوق بعض من النشاز وهو الرفع يقال لما ارتفع من الأرض نشز ومنه نشوز المرأة ﴿فصرُهنَّ﴾ ضمهنَّ إليك ثم اقطعهنَّ من صار الشيء يصوره إذا قطعه .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ

التفسير : ﴿ألم تر إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربه﴾ تعجيب للسامع من أمر هذا الكافر ، المجادل في قدرة الله أي ألم ينته علمك إلى ذلك المارد وهو « النمروذ بن كنعان » الذي جادل إبراهيم في وجود الله ؟ ﴿أن آتاه الله الملك﴾ أي لأن آتاه الله الملك حيث حمله بطره بنعم الله على إنكار وجود الله ، فقابل الجود والإحسان بالكفر والطغيان ﴿إذ قال إبراهيم ربِّيَ الذي يحيي ويميت﴾ أي حين قال له إبراهيم مستدلاً على وجود الله إن ربي هو الذي يخلق الحياة والموت في الأجساد فهو وحده ربُّ العالمين ﴿قال أنا أحيي وأميت﴾ أي قال ذلك الطاغية وأنا أيضاً أحيي وأميت ، روي أنه دعا برجلين حكم عليهما بالإعدام فأمر بقتل أحدهما فقال : هذا قتلتُه ، وأمر بإطلاق الآخر وقال : هذا أحييتُه ، ولما رأى الخليل حماقته ومشاغبته في الدليل عدل إلى دليل آخر أجدى وأروع وأشد إفحاماً ﴿قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب﴾ أي إذا كنت تدعي الألوهية وأنك تحيي وتميت كما يفعل رب العالمين جل جلاله فهذه الشمس تطلع كل يوم من المشرق بأمر الله ومشيئته فأطلعها من المغرب بقدرتك وسلطانك ولو مرة واحدة ﴿فبهت الذي كفر﴾ أي أُخرس ذلك الفاجر بالحجة القاطعة ، وأصبح مبهوتاً دهشاً لا يستطيع الجواب ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي لا يلهمهم الحجة والبيان في مقام المناظرة والبرهان بخلاف أوليائه المتقين ﴿أو كالذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها﴾ وهذه هي القصة الثانية وهي مثلٌ لمن أراد الله هدايته والمعنى ألم ينته إلى علمك كذلك مثل الذي مرَّ على قرية وقد سقطت جدرانها على سقوفها وهي قرية بيت المقدس لما خربها بختنصر ﴿قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها﴾ أي قال ذلك الرجل الصالح واسمه « عزير » على الرأي الأشهر : كيف يحيي الله هذه البلدة بعد خرابها ودمارها ؟ قال ذلك استعظاماً لقدرة الله تعالى وتعجباً من حال تلك المدينة وما هي عليه من الخراب

﴿إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾

والدمار ، وكان راكباً على حماره حينما مرَّ عليها ﴿**فأماته الله مائة عام ثم بعثه**﴾ أي أمات الله ذلك السائل واستمر ميتاً مائة سنة ثم أحياه الله ليريه كمال قدرته ﴿**قال كم لبثتَ قال لبثتُ يوماً أو بعض يوم**﴾ أي قال له ربه بواسطة الملك كم مكثتَ في هذه الحال ؟ قال يوماً ثم نظر حوله فرأى الشمس باقية لم تغب فقال : أو بعض يوم أي أقل من يوم فخاطبه ربه بقوله ﴿**قال بل لبثتَ مائة عام**﴾ أي بل مكثت ميتاً مائة سنة كاملة ﴿**فانظر إلى طعامك وشرابك لن يتسنّهْ**﴾ أي إن شككت فانظر إلى طعامك لم يتغير بمرور الزمان ، وكان معه عنبٌ وتينٌ وعصير فوجدها على حالها لم تفسد ﴿**وانظر إلى حمارك**﴾أي كيف تفرقت عظامه ونخرت وصار هيكلاً من البلي ﴿**ولنجعلك آية للناس**﴾ أي فعلنا ما فعلنا لتدرك قدرة الله سبحانه ولنجعلك معجزة ظاهرة تدل على كمال قدرتنا ﴿**وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً**﴾ أي تأمل في عظام حمارك النخرة كيف نركّب بعضها فوق بعض وأنت تنظر ثم نكسوها لحماً بقدرتنا ﴿**فلما تبيّن له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير**﴾ أي فلما رأى الآيات الباهرات قال أيقنت وعلمت علم مشاهدة أن الله على كل شيء قدير ﴿**وإذ قال إبراهيم ربِّ أرني كيف تحيي الموتى**﴾ وهذه هي القصة الثالثة وفيها الدليل الحسي على الإعادة بعد الفناء والمعنى : اذكر حين طلب إبراهيم من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ، سأل الخليل عن الكيفية مع إيمانه الجازم بالقدرة الربانية ، فكان يريد أن يعلم بالعيان ما كان يوقن به بالوجدان ، ولهذا خاطبه ربه بقوله ﴿**قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئنَّ قلبي**﴾ أي أولم تصدِّق بقدرتي على الإحياء ؟ قال بلى آمنت ولكن أردت أن أزداد بصيرةً وسكون قلب برؤية ذلك ﴿**قال فخذ أربعةً من الطير فصرْهنَّ إليك**﴾ أي خذ أربعة طيور فضمهنَّ إليك ثم اقطعهن ثم اخلط بعضهن ببعض حتى يصبحن كتلة واحدة ﴿**ثم اجعل على كل جبلٍ منهن جزءاً**﴾ أي فرِّق أجزاءهن على رءوس الجبال ﴿**ثم ادعهنَّ يأتينك سعياً**﴾ أي نادهنَّ يأتينك مسرعات قال مجاهد : كانت طاووساً وغراباً وحمامة وديكاً فذبحهن ثم فعل بهن ما فعل ثم دعاهن فأتين مسرعات ﴿**واعلم أن الله عزيز حكيم**﴾ أي لا يعجز عما يريده حكيم في تدبيره وصنعه . قال المفسرون : ذبحهن ثم قطعهن ثم خلط بعضهن ببعض حتى اختلط ريشها ودماؤها ولحومها ثم أمسك برءوسها عنده وجزأها أجزاءً على الجبال ثم دعاهن كما أمره تعالى فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش ، والدم إلى الدم ، واللحم إلى اللحم حتى عادت طيراً كما كانت وأتينه يمشين سعياً ليكون أبلغ له في الرؤية لما سأل . ذكره ابن كثير .

البَـلاَغَـة : ١ - ﴿ألم تر﴾ الرؤية قلبية والاستفهام للتعجيب .

٢ - ﴿يحيي ويميت﴾ التعبير بالمضارع يفيد التجدد والاستمرار ، والصيغة تفيد القصر ﴿ربي الذي يحيي ويميت﴾ لأن المبتدأ والخبر وردا معرفتين والمعنى أنه وحده سبحانه هو الذي يحيي ويميت ، وبين كلمتي « يحيي » و « يميت » طباقٌ وهو من المحسنات البديعية وكذلك بين لفظ « المشرق » و « المغرب » .

٣ - ﴿فبهت الذي كفر﴾ التعبير بالنص السامي يشعر بالعلة وأن سبب الحيرة هو كفره ولو قال : فبهت الكافرُ لما أفاد ذلك المعنى الدقيق .

٤ - ﴿أنّى يحيي هذه الله بعد موتها﴾ موت القرية هو موتُ السكان فهو من قبيل إطلاق المحل وإرادة الحال ويسمى المجاز المرسل .

٥ - ﴿ثم نكسوها لحماً﴾ نسترها به كما يستر الجسد باللباس قال أبو حيان : الكسوةُ حقيقةً هي ما وراء الجسد من الثياب واستعارها هنا لما أنشأ من اللحم الذي غطّى العظم وهي استعارة في غاية الحسن[1] .

الفَـوَائِـد : الأولى : قال مجاهد : ملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة : مؤمنان ، وكافران فالمؤمنان « سليمان بن داود » و « ذو القرنين » والكافران « النمرود » و « بختنصّر »[2] الذي خرّب بيت المقدس .

الثانية : لما رأى الخليل تجاهل الطاغية معنى الحياة والموت وسلوكه مسلك التلبيس والتمويه على الرعاع ، وكان بطلان جوابه من الجلاء بحيث لا يخفى على أحد ، انتقل إبراهيم إلى حجة أخرى لا تجري فيها المغالطة ولا يتيسر للطاغية أن يخرج عنها بمكابرة أو مشاغبة فقال ﴿إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب﴾ فلوى خليل الله عنقه حتى أراه عجزه وأخرس لسانه .

الثالثة : سؤال الخليل ربه بقوله ﴿كيف تحيي الموتى﴾ ليس عن شك في قدرة الله ولكنه سؤال عن كيفية الإحياء ويدل عليه وروده بصيغة ﴿كيف﴾ وموضوعها السؤال عن الحال ويؤيد المعنى قول النبي ﷺ (نحن أحق بالشك من إبراهيم) ومعناه : ونحن لم نشك فلأن لا يشك إبراهيم أحرى وأولى .

* * *

قال الله تعالى : ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله . . إلى . . وما يذكّر إلا أولوا الألباب﴾

من آية (٢٦١) إلى نهاية آية (٢٦٩) .

المُنَـاسَـبَة : لمّا ذكر تعالى في الآيات السابقة أن الناس فريقان : أولياء الله وهم المؤمنون ، وأولياء الطاغوت وهم الكافرون ثم أعقبه بذكر نموذج للإيمان ونموذج للطغيان ، ذكر هنا ما يرغّب في الإنفاق في

(١) البحر المحيط ٢/ ٢٩٤ . (٢) مختصر ابن كثير ١/ ٢٣٤

سبيل الله وخاصة في أمر الجهاد لأعداء الله ، لأن الجهاد في سبيل الحق له ميادين ثلاثة : أولها الإقناع بالحجة والبرهان وثانيها الجهاد بالنفس وثالثها الجهاد بالمال ، فلما ذكر فيما سبق جهاد الدعوة وجهاد النفس شرع الآن في ذكر الجهاد بالمال .

اللغـــة : ﴿المنُّ﴾ أن يعتد بإحسانه على من أحسن إليه ، وأن يذكّره النعمة على سبيل التطاول والتفضل قال الشاعر :

أفسدتَ بالمنِّ ما أسـديتَ من حَسَن ... ليس الـكريمُ إذا أسـدى بمنّان

﴿رئاء الناس﴾ لا يريد بإنفاقه رضى الله وإنما يريد ثناء الناس وأصله من الرؤيـة وهو أن يري الناسَ ما يفعله حتى يثنوا عليه ويعظموه ﴿صفوان﴾ الصفوان : الحجر الأملس الكبير قال الأخفش : وهو جمع واحده صفوانه وقيل : هو اسم جنس كالحجر ﴿وابلٌ﴾ الوابل : المطـر الشـديد ﴿صلـداً﴾ الصَّلْدُ : الأملس من الحجارة وهو كل ما لا ينبت شيئاً ومنه جبينٌ أصلد ﴿بربوة﴾ الربوة : المكان المرتفع من الأرض يقال : ربوة ورابية وأصله من ربا الشيء إذا زاد وارتفع ﴿طلٌّ﴾ الطلُّ : المطر الخفيف الذي تكون قطراته صغيرة وقال قوم منهم مجاهد : الطلُّ الندى ﴿إعصار﴾ الإعصار : الريح الشديدة التي تهبُّ من الأرض وترتفع إلى السماء كالعمود ويقال لها : الزوبعة ﴿تيمّموا﴾ تقصدوا ﴿تغمضوا﴾ من أغمض الرجل في أمر كذا إذا تساهل فيه وهذا كالإغضاء عند المكروه .

سَبَبُ النّزول : نزلت في عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف في غزوة تبوك ، حيث جهّز عثمان ألف بعير بأحلاسها وأقتابها ووضع بين يدي رسول الله ﷺ ألف دينار ، فصار رسول الله ﷺ يقلّبها ويقول : ما ضرَّ عثمان ما فعل بعد اليوم ، وأتى عبد الرحمن بن عوف النبي ﷺ بأربعة آلاف درهم فقال يا رسول الله : كان عندي ثمانية آلاف درهم فأمسكت منها لنفسي ولعيالي أربعة آلاف وأربعـة آلاف أقرضتُهـا ربي ، فقال له رسول الله ﷺ : بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت ، فنزلت فيهما الآية ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله . .﴾[1] الآية .

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ﴾

التفسيـــر : ﴿مثـل الذين ينفقـون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل﴾ قال ابن كثير : هذا مثلٌ ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف أي مثل نفقتهم كمثل حبة زُرعت فأنبتت سبع سنابل ﴿في كل سنبلةٍ مائة حبـة﴾ أي كل سنبلةٍ منها تحتوي على مائة حبة فتكون الحبة قد أغلَّتْ سبعمائة حبة ، وهذا تمثيل لمضاعفة

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٤٧ .

أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ

الأجر لمن أخلص في صدقته ولهذا قال تعالى ﴿**والله يضاعف لمن يشاء**﴾ أي يضاعف الأجر لمن أراد على حسب حال المنفق من إخلاصه وابتغائه بنفقته وجه الله ﴿**والله واسع عليم**﴾ أي واسع الفضل عليم بنيَّة المنفق ﴿**الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يُتبعون ما أنفقوا منّاً ولا أذى**﴾ أي لا يقصدون بإنفاقهم إلا وجه الله ، ولا يعقبون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات بالمنِّ على من أحسنوا إليه كقوله قد أحسنتُ إليك وجبرتُ حالك ، ولا بالأذى كذكره لغيره فيؤذيه بذلك ﴿**لهم أجرهم عند ربهم**﴾ أي لهم ثواب ما قدموا من الطاعة عند الله ﴿**ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ أي لا يعتريهم فزعٌ يوم القيامة ولا هم يحزنون على فائتٍ من زهرة الدنيا ﴿**قول معروف ومغفرة خير من صدقةٍ يتبعها أذى**﴾ أي ردُّ السائل بالتي هي أحسن والصفحُ عن إلحاحه ، خيرٌ عند الله وأفضل من إعطائه ثم إيذائه أو تعييره بذلّ السؤال ﴿**والله غني حليم**﴾ أي مستغنٍ عن الخلق حليم لا يعاجل العقوبة لمن خالف أمره . . ثم أخبر تعالى عما يبطل الصدقة ويضيع ثوابها فقال ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى**﴾ أي لا تحبطوا أجرها بالمنِّ والأذى ﴿**كالذي ينفق ماله رئاء الناس**﴾ أي كالمرائي الذي يبطل إنفاقه بالرياء ﴿**ولا يؤمن بالله واليوم الآخر**﴾ أي لا يصدّق بلقاء الله ليرجو ثواباً أو يخشى عقاباً ﴿**فمثله كمثل صفوان عليه تراب**﴾ أي مثل ذلك المرائي بإنفاقه كمثل الحجر الأملس الذي عليه شيء من التراب يظنه الظانُّ أرضاً طيبةً منبتةً ﴿**فأصابه وابلٌ فتركه صلداً**﴾ أي فإذا أصابه مطر شديد أذهب عنه التراب فيبقى صلداً أملس ليس عليه شيء من الغبار أصلاً كذلك هذا المنافق يظن أن له أعمالاً صالحة فإذا كان يوم القيامة اضمحلت وذهبت ولهذا قال تعالى ﴿**لا يقدرون على شيء مما كسبوا**﴾ أي لا يجدون له ثواباً في الآخرة فلا ينتفع بشيءٍ منها أصلاً ﴿**والله لا يهدي القوم الكافرين**﴾ أي لا يهديهم إلى طريق الخير والرشاد . . ثم ضرب تعالى مثلاً آخر للمؤمن المنفق ماله ابتغاء مرضاة الله فقال ﴿**ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم**﴾ أي ينفقونها طلباً لمرضاته وتصديقاً بلقائه تحقيقاً للثواب عليه ﴿**كمثل جنةٍ بربوة**﴾ أي كمثل بستان كثير الشجر بمكانٍ مرتفع من الأرض ، وخُصَّت بالربوة لحسن شجرها وزكاء ثمرها ﴿**أصابها وابلٌ فآتت أُكلها ضعفين**﴾ أي أصابها مطر غزير فأخرجت ثمارها جنيَّة مضاعفة ، ضعفي ثمر غيرها من الأرض ﴿**فإن لم يصبها وابلٌ فطلٌّ**﴾ أي فإن لم ينزل عليها المطر الغزير فيكفيها المطر الخفيف أو يكفيها الندى

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾﴾

لجودتها وكرم منبتها ولطافة هوائها فهي تنتج على كل حال ﴿**والله بما تعملون بصير**﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد ﴿**أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب**﴾ أي أيحب أحدكم أن تكون له حديقة غناء فيها من أنواع النخيل والأعناب والثمار الشيء الكثير ﴿**تجري من تحتها الأنهار**﴾ أي تمر الأنهار من تحت أشجارها ﴿**له فيها من كل الثمرات**﴾ أي ينبت له فيها جميع الثمار ومن كل زوج بهيج ﴿**وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء**﴾ أي أصابته الشيخوخة فضعف عن الكسب وله أولاد صغار لا يقدرون على الكسب ﴿**فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت**﴾ أي أصاب تلك الحديقة ريح عاصفة شديدة معها نار فأحرقت الثمار والأشجار أحوج ما يكون الإنسان إليها ﴿**كذلك يبيّن الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون**﴾ أي مثل هذا البيان الواضح في هذا المثل الرائع المحكم يبيّن الله لكم آياته في كتابه الحكيم لكي تتفكروا وتتدبروا بما فيها من العبر والعظات ﴿**يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم**﴾ أي أنفقوا من الحلال الطيب من المال الذي كسبتموه ﴿**ومما أخرجنا لكم من الأرض**﴾ أي ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الحبوب والثمار ﴿**ولا تيمّموا الخبيث منه تنفقون**﴾ أي ولا تقصدوا الرديء الخسيس فتتصدقوا منه ﴿**ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه**﴾ أي لستم تقبلونه لو أعطيتموه إلا إذا تساهلتم وأغمضتم البصر فكيف تؤدون منه حق الله ! ! ﴿**واعلموا أن الله غني حميد**﴾ أي أنه سبحانه غني عن نفقاتكم حميد يجازي المحسن أفضل الجزاء . . ثم حذّر تعالى من وسوسة الشيطان فقال ﴿**الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء**﴾ أي الشيطان يخوفكم من الفقر إن تصدقتم ويغريكم بالبخل ومنع الزكاة ﴿**والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً**﴾ أي وهو سبحانه يعدكم على إنفاقكم في سبيله مغفرةً للذنوب وخلفاً لما أنفقتموه زائداً عن الأصل ﴿**والله واسع عليم**﴾ أي واسع الفضل والعطاء عليم بمن يستحق الثناء ﴿**يؤتي الحكمة من يشاء**﴾ أي يعطي العلم النافع المؤدي إلى العمل الصالح من شاء من عباده ﴿**ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً**﴾ أي من أعطي الحكمة فقد أعطي الخير الكثير لمصير صاحبها إلى السعادة الأبدية ﴿**وما يذكر إلا أولوا الألباب**﴾ أي ما يتعظ بأمثال القرآن وحكمه إلا أصحاب العقول النيرة الخالصة من الهوى .

البَلاغَة : ١ - ﴿كمثل حبة﴾ شبّه سبحانه الصدقة التي تُنفق في سبيله بحبة زرعت وباركها المولى فأصبحت سبعمائة حبة ، ففيه تشبيه « مرسل مجمل » لذكر أداة التشبيه وحذف وجه الشبه قال أبو حيان : وهذا التمثيل تصوير للأضعاف كأنها ماثلة بين عيني الناظر [١] .

٢ - ﴿أنبتت سبع سنابل﴾ إسناد الإنبات إلى الحبة إسنادٌ مجازي ويسمى « المجاز العقلي » لأن المنبت في الحقيقة هو الله تعالى .

٣ - ﴿مناً ولا أذى﴾ من باب ذكر العام بعد الخاص لإفادة الشمول لأن الأذى يشمل المنَّ .

٤ - ﴿كمثل صفوان عليه تراب﴾ فيه تشبيه يسمى « تشبيهاً تمثيلياً » لأن وجه الشبه منتزع من متعدد وكذلك يوجد تشبيه تمثيلي في قوله ﴿كمثل جنةٍ بربوة﴾ .

٥ - ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة . .﴾ الآية ، لم يذكر المشبه ولا أداة التشبيه وهذا النوع يسميه علماء البلاغة « استعارة تمثيلية » وهي تشبيه حال بحال لم يذكر فيه سوى المشبّه به فقط وقامت قرائن تدل على إرادة التشبيه ، والهمزة للاستفهام والمعنى على التبعيد والنفي أي ما يود أحدٌ ذلك .

٦ - ﴿تغمضوا فيه﴾ المراد به هنا التجاوز والمساهلة لأن الإنسان إذا رأى ما يكره أغمض عينيه لئلا يرى ذلك ففي الكلام مجاز مرسل أو استعارة [٢].

الفَوَائِد : الأولى : قال الزمخشري : المنُّ أن يعتد على من أحسن إليه بإحسانه ، وفي نوابغ الكلم « صنوان من منح سائله ومنَّ ، ومن منع نائله وضنّ » و « طعم الآلاء أحلى من المنّ وهي أمرٌ من الآلاء مع المنِّ »[٣] وقال الشاعر :

وإن امـرءً أسـدى إليَّ صنيعةً وذكّر فيها مـرةً للئيمُ

الثانية : المطر أوله رشٌ ثم طشٌ ثم طلٌ ثم نضحٌ ثم هطلٌ ثم وبلٌ والمطر الوابل الشديد الغزير .

الثالثة : قال عمر بن الخطاب يوماً لأصحاب النبي ﷺ «فيمن ترون هذه الآية نزلت ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة﴾ ؟ قالوا : الله أعلم فغضب عمر فقال : قولوا نعلم أو لا نعلم فقال ابن عباس : في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين ، فقال عمر : يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك ، فقال ابن عباس ضربت مثلاً بعمل لرجلٍ غني يعمل بطاعة الله ثم بعث له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله» أخرجه البخاري .

الرابعة : قال الحسن البصري : هذا مثلٌ قلَّ والله من يعقله : شيخ كبير ، ضعف جسمه ، وكثر

---

(١) البحر المحيط ٢/ ٣٠٤ . (٢) الفتوحات الإلهية ١/ ٢٢٣ . (٣) الكشاف ١/ ٢٣٨ والالاء بالفتح شجرٌ حسن المنظر مر الطعم كذا في الصحاح .

صبيانه أفقر ما كان إلى جنته فجاءها الإعصار فأحرقها ، وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وما أنفقتم من نفقةٍ أو نذرتم من نذر . . إلى . . ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ من آية (٢٧٠) إلى نهاية آية (٢٧٤) .

المنَاسَبَة : لا تزال الآيات تتحدث عن الإنفاق في وجوه البر والخير ، وأعلاها الجهاد في سبيل الله والإنفاق لإعلاء كلمته ، وترغّب في إخفاء الصدقات لأنها أبعد عن الرياء ، فوجه المناسبة ظاهر .

اللغَة : ﴿فنعمّا﴾ أصلها « نعم ما » أدغمت الميمان فصارت نعمّا قال الزجاج : أي نعم الشيء هو.﴿أحصروا﴾ الحصر : الحبس أي حبسوا أنفسهم على الجهاد وقد تقدم معنى الحصر ﴿التعفف﴾ من العفة يقال : عفّ عن الشيء أمسك عنه وتنزّه عن طلبه والمراد التعفف عن السؤال ﴿بسيماهم﴾ السِّيما : العلامة التي يعرف بها الشيء ويقال : سيمياء كالكيمياء وأصلها من السِّمة بمعنى العلامة قال تعالى ﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾ ﴿إلحافاً﴾ الإلحاف : الإلحاح في السؤال يقال : ألحف : إذا ألحّ ولجّ في السؤال والطلب .

سَبَبُ النّزول : عن سعيد بن جبير أن المسلمين كانوا يتصدقون على فقراء أهل الذمة فلما كثر فقراء المسلمين قال رسول الله ﷺ : (لا تتصدقوا إلا على أهل دينكم) فنزلت هذه الآية ﴿ليس عليك هداهم﴾ مبيحةً للصدقة على من ليس من دين الإسلام[1] .

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ

التفسِير : ﴿وما أنفقتم من نفقةٍ أو نذرتم من نذرٍ فإنَّ الله يعلمه﴾ أي ما بذلتم أيها المؤمنون من مال أو نذرتم من شيء في سبيل الله فإن الله يعلمه ويجازيكم عليه﴿وما للظالمين من أنصار﴾ أي وليس لمن منع الزكاة أو صرف المال في معاصي الله ، من معين أو نصير ينصرهم من عذاب الله ﴿إن تبدوا الصدقات فنعماً هي﴾ أي إن تظهروا صدقاتكم فنعم هذا الشيء الذي تفعلونه ﴿وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾ أي وإن تخفوها وتدفعوها للفقراء فهو أفضل لكم لأن ذلك أبعد عن الرياء ﴿ويكفّر عنكم من سيئاتكم﴾ أي يزيل بجميل أعمالكم سيء آثامكم ﴿والله بما تعملون خبير﴾ أي هو سبحانه مطلع على أعمالكم يعلم خفاياكم ،والآية ترغيب في الإسرار

(١) القرطبي ٣/ ٣٣٧ .

وَجْهِ ٱللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

﴿ليس عليك هداهم ولكنَّ الله يهدي من يشاء﴾ أي ليس عليك يا محمد أن تهدي الناس فإنك لست بمؤاخذ بجريرة من لم يهتد ، إنما أنت ملزم بتبليغهم فحسب ، والله يهدي من شاء من عباده إلى الإسلام ﴿وما تنفقوا من خيرٍ فلأنفسكم﴾ أي أيّ شيء تنفقونه من المال فهو لأنفسكم لا ينتفع به غيركم لأن ثوابه لكم ﴿وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله﴾ خبرٌ بمعنى النهي أي لا تجعلوا إنفاقكم إلا لوجه الله لا لغرضٍ دنيوي ﴿وما تنفقوا من خيرٍ يوفّ إليكم وأنتم لا تظلمون﴾ أي فإن أجره وثوابه أضعافاً مضاعفة تنالونه أنتم ولا تنقصون شيئاً من حسناتكم ﴿للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله﴾ أي اجعلوا ماتنفقونه للفقراء الذين حبسواأنفسهم للجهاد والغزو في سبيل الله ﴿لا يستطيعون ضرباً في الأرض﴾ أي لا يستطيعون بسبب الجهاد السفر في الأرض للتجارة والكسب ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾ أي يظنهم الذي لا يعرف حالهم أغنياء موسرين من شدة تعففهم ﴿تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً﴾ أي تعرف حالهم أيها المخاطب بعلامتهم من التواضع وأثر الجهد ، وهم مع ذلك لا يسألون الناس شيئاً أصلاً فلا يقع منهم إلحاح وقيل معناه : إن سألوا سألوا بلطفٍ ولم يلحّوا ﴿وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم﴾ أي ما أنفقتموه في وجوه الخير فإن الله يجازيكم عليه أحسن الجزاء ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية﴾ أي الذين ينفقون في سبيل الله ابتغاء مرضاته ، في جميع الأوقات ، من ليل أو نهار ، وفي جميع الأحوال من سر وجهر ﴿فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي لهم ثواب ما أنفقوا ولا خوف عليهم يوم القيامة ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا .

البَلاغَة : ١ - ﴿وماأنفقتم من نفقة﴾ بين أنفقتم ونفقة جناس الاشتقاق وكذلك بين نذرتم ونذر .

٢ - ﴿إن تبدوا الصدقات﴾ في الإبداء والإخفاء طباقٌ لفظي ، وكذلك بين لفظ « الليل والنهار » و « السر والعلانية » وهو من المحسنات البديعية .

٣ - ﴿وأنتم لا تظلمون﴾ إطناب لورودها بعد قوله ﴿يوفّ إليكم﴾ الذي معناه يصلكم وافياً غير منقوص .

فَائِدَة : قال بعض الحكماء : إذا اصطنعت المعروف فاستره ، وإذا اصطُنع إليك فانشره وأنشدوا :

يُخفي صنائعه والله يُظهرها إن الجميل إذا أخفيتَه ظهرا

* * *

قال الله تعالى : ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون . . إلى . . ثم توفى كل نفسٍ ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ من آية (٢٧٥) إلى نهاية آية (٢٨١).

المُنَاسَبَة : لما أمر تعالى بالإنفاق من طيبات ما كسبوا ، وحضّ على الصدقة ورغب في الإنفاق في سبيل الله ، ذكر هنا ما يقابل ذلك وهو الربا الكسب الخبيث ذو الوجه الكالح الطالح ، الذي هو شحٌّ وقذارة ودنس ، بينما الصدقة عطاء وسماحة وطهارة ، وقد جاء عرضه مباشرة بعد عرض ذلك الوجه الطيب من الإنفاق في سبيل الله ليظهر الفارق بجلاء بين الكسب الطيب والكسب الخبيث وكما قيل « وبضدها تتميّز الأشياء » .

اللغَة : ﴿الربا﴾ لغة : الزيادة يقال : ربا الشيء إذا زاد ومنه الربوة والرابية ، وشرعاً : زيادة على أصل المال يأخذها الدائن من المدين مقابل الأجل ﴿يتخبطه﴾ التخبط : الضرب على غير استواء كخبط البعير الأرض بأخفافه ويقال للذي يتصرف ولا يهتدي : خبط في عشواء وتورّط في عمياء ، وتخبطه الشيطان إذا مسّه بخبلٍ أو جنون ﴿المسّ﴾ الجنون وأصله من المسّ باليد كأن الشيطان يمسُّ الإنسان فيحصل له الجنون ﴿سلف﴾ مضى وانقضى ومنه سالف الدهر أي ماضيه ﴿يمحق﴾ المحق : نقصان الشيء حالاً بعد حال ومنه المحاق في الهلال يقال : محقه الله فانمحق وامتحق ﴿أثيم﴾ كثير الإثم المتمادي في الذنوب والآثام .

سَبَبُ النّزول : كان لبني عمرو من ثقيف ديونٌ ربا على بني المغيرة فلما حلّ الأجل أرادوا أن يتقاضوا الربا منهم فنزلت الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأذنوا بحربٍ من الله ورسوله . .﴾ الآية فقالت ثقيف : لا يد لنا « أي لا طاقة لنا » بحرب الله ورسوله وتابوا وأخذوا رءوس أموالهم فقط[١] .

ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا

التفسِير : ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾ أي الذين يتعاملون بالربا ويمتصون دماء الناس لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع من جنونه ، يتعثر ويقع ولا يستطيع أن يمشي سوياً ، يقومون مخبلين كالمصروعين تلك سيماهم يعرفون بها عند الموقف هتكاً لهم وفضيحة ﴿ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا﴾ أي ذلك التخبط والتعثر بسبب

(١) البحر المحيط ٢/ ٣٣٧

ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُوا۟

استحلالهم ما حرّمه الله ، وقولهم : الربا كالبيع فلماذا يكون حراماً ؟ قال تعالى ردّاً عليهم ﴿**وأحلّ الله البيع وحرّم الربا**﴾ أي أحل الله البيع لما فيه من تبادل المنافع ، وحرّم الربا لما فيه من الضرر الفادح بالفرد والمجتمع ، لأن فيه زيادة مقتطعةً من جهد المدين ولحمه ﴿**فمن جاءه موعظةٌ من ربه فانتهى فله ما سلف**﴾ أي من بلغه نهيُ الله عن الربا فانتهى عن التعامل به فله ما مضى قبل التحريم ﴿**وأمره إلى الله**﴾ أي أمره موكول إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه ﴿**ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**﴾ أي ومن عاد إلى التعامل بالربا واستحله بعد تحريم الله له فهو من المخلدين في نار جهنم ﴿**يمحق الله الربا ويُربي الصدقات**﴾ أي يُذهب ريعه ويمحو خيره وإن كان زيادة في الظاهر ، ويُكثر الصدقات وينمّيها وإن كانت نقصاناً في الشاهد ﴿**والله لا يحب كل كفّار أثيم**﴾ أي لا يحب كل كفور القلب ، أثيم القول والفعل ، وفي الآية تغليظ في أمر الربا وإيذان بأنه من فعل الكفار ، ثم قال تعالى مادحاً المؤمنين المطيعين أمره في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة**﴾ أي صدّقوا بالله وعملوا الصالحات التي من جملتها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿**لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ أي لهم ثوابهم الكامل في الجنة ، ولا يخافون يوم الفزع الأكبر ولا يحزنون على ما فاتهم في الدنيا ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين**﴾ أي اخشوا ربكم وراقبوه فيما تفعلون ،واتركوا ما لكم من الربا عند الناس إن كنتم مؤمنين بالله حقاً﴿**فإن لم تفعلوا فأذنوا بحربٍ من الله ورسوله**﴾ أي وإن لم تتركوا التعامل بالربا فأيقنوا بحرب الله ورسوله لكم قال ابن عباس : يقال لآكل الربا يوم القيامة خذ سلاحك للحرب ﴿**وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تَظْلمون ولا تُظْلمون**﴾ أي إن رجعتم عن الربا وتركتموه فلكم أصل المال الذي دفعتموه من غير زيادة ولا نقصان ﴿**وإن كان ذو عسرة فنظِرةٌ إلى ميسرة**﴾ أي إذا كان المستدين معسراً فعليكم أن تمهلوه إلى وقت اليسر لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه : إمّا أن تَقْضي وإمّا أن تُرْبي ﴿**وأن تصدَّقوا خير لكم إن كنتم تعلمون**﴾ أي إن تجاوزتم عمّا لكم عنده فهو أكرم وأفضل ، إن كنتم تعلمون ما فيه من الذكر الجميل

﴿يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٢٨١﴾

والأجر العظيم ثم حذّر تعالى عباده من ذلك اليوم الرهيب الذي لا ينفع فيه إلا العمل الصالح فقال ﴿واتقوا يوماً تُرجعون فيه إلى الله ثم تُوفى كل نفس ما كسبت وهم لا يُظلمون﴾ أي احذروا يوماً سترجعون فيه إلى ربكم ثم توفى كل نفسٍ حسابها وأنتم لا تظلمون ، وقد ختمت هذه الآيات الكريمة بهذه الآية الجامعة المانعة التي كانت آخر ما نزل من القرآن وبنزولها انقطع الوحي ، وفيها تذكير العباد بذلك اليوم العصيب الشديد قال ابن كثير : هذه الآية آخر ما نزل من القرآن العظيم وقد عاش النبي ﷺ بعد نزولها تسع ليال ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى .

البَـلاَغَـة : ١ - ﴿إنما البيع مثل الربا﴾ فيه تشبيه يسمى (التشبيه المقلوب) وهو أعلى مراتب التشبيه حيث يجعل المشبّه مكان المشبّه به كقول الشاعر : كأن ضياء الشمس غرةُ جعفر والأصل في الآية أن يقال : الربا مثل البيع ولكنه بلغ من اعتقادهم في حل الربا أن جعلوه أصلاً يقاس عليه فشبهوا به البيع .

٢ - ﴿أحل الله البيع وحرّم الربا﴾ بين لفظ « أحلّ » و « حرَّم » طباق وكذلك بين لفظ « يمحق » و « يربي » .

٣ - ﴿كفّار أثيم﴾ صيغة فعّال وفعيل للمبالغة فقوله ﴿كفّار أثيم﴾ أي عظيم الكفر شديد الإثم .

٤ - ﴿فأذنوا بحرب﴾ التنكير للتهويل أي بنوعٍ من الحرب عظيم لا يُقادر قدره كائن من عند الله أفاده أبو السعود .

٥ - ﴿لا تَظْلمون ولا تُظْلمون﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى « الجناس الناقص » لاختلاف الشكل .

٦ - ﴿واتقوا يومـاً﴾ التنكير للتفخيم والتهويل .

الفَـوَائِـد : الأولى : عبّر بقوله ﴿يأكلون الربا﴾ عن الانتفاع به لأن الأكل هو الغالب في المنافع وسواء في ذلك المعطي والآخذ لقول جابر في الحديث الشريف « لعن رسول الله آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه وقال : هم سواء »

الثانية : شبّه تعالى المرابين بالمصروعين الذين تتخبطهم الشياطين ، وذلك لأن الله عز وجل أربى في بطونهم ما أكلوا من الربا فأثقلهم فصاروا مخبلين ينهضون ويسقطون قال سعيد بن جبير تلك علامة آكل الربا يوم القيامة .

الثالثة : يقول شهيد الإسلام سيد قطب عليه الرحمة عند هذه الآية ﴿لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المسّ﴾ ما نصه « إنها الحملة المفزعة والتصوير المرعب ، وما كان أى تهديد معنوى

ليبلغ إلى الحسّ ما تبلغه هذه الصورة الحيّة المجسّمة ، صورة الممسوس المصروع ، ولقد مضت معظم التفاسير على أن المقصود بالقيام في هذه الصورة المفزعة هو القيام يوم البعث ، ولكنها - فيما نرى - واقعة في هذه الأرض أيضاً على البشرية الضالة التي تتخبط كالممسوس في حكم النظام الربوي ، إن العالم الذي نعيش فيه اليوم هو عالم القلق والاضطراب والخوف والأمراض العصبيّة والنفسية ، وذلك على الرغم من كل ما بلغته الحضارة المادية وعلى الرغم من كل مظاهر الرخاء المادي ، ثم هو عالم الحروب الشاملة والتهديد الدائم بالحروب المبيدة وحرب الأعصاب والاضطرابات التي لا تنقطع هنا وهناك[1] » وهذا رأي حسن .

الرابعة : أخرج البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (كان رجلٌ يداينُ الناس فكان يقول لفتاه إذا أتيتَ معسراً فتجاوز عنه لعلّ الله أن يتجاوز عنا ، فلقي الله فتجاوز عنه)[2] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين . . إلى . . والله بما تعملون عليم﴾ من آية (٢٨٢) إلى نهاية آية (٢٨٣) .

المناسبة : لما ذكر تعالى الربا وبيّن ما فيه من قباحة وشناعة ، لأنه زيادة مقتطعة من عرق المدين ولحمه وهو كسب خبيث يمقته الإسلام ويحرمه ، أعقبه بذكر القرض الحسن بلا فائدة وذكر الأحكام الخاصة بالدين والتجارة والرهن ، وكلها طرق شريفة لتنمية المال وزيادته بما فيه صلاح الفرد والمجتمع ، وآية الدين أطول آيات القرآن على الإطلاق مما يدل على عناية الإسلام بالنظم الاقتصادية .

اللغة : ﴿وليُمللِ﴾ من الإملاء وهو أنْ يُلقي عليه ما يكتبه يقال : أملَّ وأملى ﴿يبخس﴾ البخس : النقص ﴿تسأموا﴾ السأم والسآمة : الملل من الشيء والضجر منه ﴿أقسط﴾ القِسط : بكسر القاف العَدْل يقال : أقسط الرجل إذا عدل ، وبفتح القاف الجورُ يقال : قسط أي جار ومنه ﴿وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً﴾ ﴿تضِلَّ﴾ قال أبو عبيد : معنى تضل أي تنسى والضلال عن الشهادة نسيان جزءٍ منها ﴿أدنى﴾ أقرب ﴿ترتابوا﴾ تشكوا من الريب بمعنى الشك ﴿فرهان﴾ جمع رهن وهو ما يدفع إلى الدائن توثيقاً للدين .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا

التفسير : **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدينٍ إلى أجلٍ مسمّى فاكتبوه﴾** أي إذا تعاملتم بدينٍ مؤجل فاكتبوه ، وهذا إرشاد منه تعالى لعباده بكتابة المعاملات المؤجلة ليكون ذلك أحفظ وأوثق لمقدارها وميقاتها **﴿وليكتب بينكم كاتبٌ بالعدل﴾** أي وليكتب لكم كاتب عادل مأمون لا يجور على أحد الطرفين

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ٨٢ .

(٢) انظر الأدوار التي مرّ بها تحريم الربا والحكمة التشريعية في كتابنا روائع البيان ١/ ٣٨٩ .

يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ * وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ

﴿ولا يأب كاتبٌ أن يكتب كما علَّمه الله﴾ أي ولا يمتنع أحد من الكتابة بالعدل كما علّمه الله ﴿فليكتب وليملل الذي عليه الحق﴾ أي وليمل على الكاتب ويلقي عليه المدينُ وهو الذي عليه الحق لأنه المقر المشهود عليه ﴿وليتق اللهَ ربَّه ولا يبخسْ منه شيئاً﴾ أي وليخشَ الله ربّ العالمين ولا ينقص من الحق شيئاً ﴿فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً﴾ أي إن كان المدين ناقص العقل مبذراً أو كان صبياً أو شيخاً هرماً ﴿أو لا يستطيع أن يُملَّ هو فليمللْ وليُّه بالعدل﴾ أي لا يستطيع الإملاء بنفسه لعيٍّ أو خرسٍ أو عُجْمة فليملل قيِّمه أو وكيله بالعدل من غير نقصٍ أو زيادة ﴿واستشهدوا شهيدين من رجالكم﴾ أي اطلبوا مع الكتابة أن يشهد لكم شاهدان من المسلمين زيادة في التوثقة ﴿فإن لم يكونا رجلين فرجلٌ وامرأتان ممن ترضون من الشهداء﴾ أي فإن لم يكن الشاهدان رجلين ، فليشهد رجلٌ وامرأتان ممن يُوثق بدينهم وعدالتهم ﴿أن تضلَّ إحداهما فتذكِّر إحداهما الأخرى﴾ أي تنسى إحدى المرأتين الشهادة فتذكّرها الأخرى ، وهذا علةٌ لوجوب الأثنتين لنقص الضبط فيهن ﴿ولا يأب الشهداءُ إذا ما دُعوا﴾ أي ولا يمتنع الشهداء عن أداء الشهادة أو تحملها إذا طلب منهم ذلك ﴿ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله﴾ أي لا تملّوا أن تكتبوا الدين صغيراً كان أو كبيراً ، قليلاً أو كثيراً إلى وقت حلول ميعاده ﴿ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا﴾ أي ما أمرناكم به من كتابة الدين أعدل في حكمه تعالى ، وأثبت للشهادة لئلا تنسى ، وأقرب أن لا تشكّوا في قدر الدَّين والأجل ﴿إلا أن تكون تجارةً حاضرةً تديرونها بينكم﴾ أي إلا إذا كان البيع حاضراً يداً بيد والثمن مقبوضاً ﴿فليس عليكم جُناح ألا تكتبوها﴾ أي فلا بأس بعدم كتابتها لانتفاء المحذور ﴿وأشهدوا إذا تبايعتم﴾ أي أشهدوا على حقكم مطلقاً سواءً كان البيع ناجزاً أو بالدين لأنه أبعد عن النزاع والاختلاف ﴿ولا يضارَّ كاتب ولا شهيد﴾ أي لا يضر صاحبُ الحق الكُتَّاب والشهود ﴿وإن تفعلوا فإنه فسوقٌ بكم﴾ أي إن فعلتم ما نهيتم عنه فقد فسقتم بخروجكم عن طاعة الله ﴿واتقوا

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾

الله ويعلمكم الله﴾ أي خافوا الله وراقبوه يمنحكم العلم النافع الذي به سعادة الدارين **﴿والله بكل شيء عليم﴾** أي عالم بالمصالح والعواقب فلا يخفى عليه شيء من الأشياء **﴿وإن كنتم على سفرٍ ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة﴾** أي إن كنتم مسافرين وتداينتم إلى أجلٍ مسمى ولم تجدوا من يكتب لكم ، فليكن بدل الكتابة رهانٌ مقبوضة يقبضها صاحب الحق وثيقةً لدينه **﴿فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي اؤتمن أمانته وليتق الله ربه﴾** أي فإن أمن الدائن المدين فاستغنى عن الرهن ثقة بأمانة صاحبه فليدفع ذاك المؤتمن الدين الذي عليه وليتق الله في رعاية حقوق الأمانة **﴿ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبُه﴾** أي إذا دعيتم إلى أداء شهادة فلا تكتموها فإن كتمانها إثم كبير ، يجعل القلب آثماً وصاحبه فاجراً ، وخُصّ القلب بالذكر لأنه سلطان الأعضاء ، إذا صلح صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله **﴿والله بما تعملون عليم﴾** أي لا يخفى عليه شيء من أعمال وأفعال العباد .

البَـلاَغَـة : ١ ـ في الآية من ضروب الفصاحة « الجناس المغاير » في قوله ﴿تداينتم بدين﴾ وفي ﴿استشهدوا شهيدين﴾ وفي ﴿اؤتمن أمانته﴾ وفي ﴿يعلمكم . . وعليم﴾ .

٢ ـ الطباق في قوله ﴿صغيراً أو كبيراً﴾ وفي ﴿أن تضلَّ . . وتذكِّر﴾ لأن الضلال هنا بمعنى النسيان .

٣ ـ وفي الآية أيضاً الإطناب في قوله ﴿ فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب ﴾ وفي ﴿ فليملل الذي عليه الحق . . فإن كان الذي عليه الحق ﴾ وفي ﴿ أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ﴾ .

٤ ـ الإيجاز بالحذف وذلك كثير وقد ذكر أمثلته صاحب البحر المحيط .

٥ ـ كرر لفظ الجلالة في الجمل الثلاث ﴿واتقوا الله﴾ ﴿ويعلمكم الله﴾ ﴿والله بكل شيء عليم﴾ لإدخال الروعة وتربية المهابة في النفوس .

٦ ـ ﴿وليتق الله ربّه﴾ جمع ما بين الإسم الجليل والنعت الجميل مبالغة في التحذير .

فَـائِـدَة : العلم نوعان : كسبيٌ ووهبيٌ ، أما الأول فيكون تحصيله بالاجتهاد والمثابرة والمذاكرة ، وأما الثاني فطريقه تقوى الله والعمل الصالح كما قال تعالى ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾ وهذا العلم يسمى العلم اللَّدُني ﴿وآتيناه من لدنَّا علماً﴾ وهو العلم النافع الذي يهبه الله لمن شاء من عباده المتقين وإليه أشار الإمام الشافعي بقوله :

شكوتُ إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور ... ونور الله لا يُهدى لعاصي

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾

المناسبة : ناسب ختم هذه السورة الكريمة بهذه الآيات لأنها اشتملت على تكاليف كثيرة في الصلاة والزكاة والقصاص والصوم والحج والجهاد والطلاق والعدة وأحكام الربا والبيع والدين الخ فناسب تكليفه إيانا بهذه الشرائع أن يذكر أنه تعالى مالك لما في السموات وما في الأرض فهو يكلف من يشاء بما يشاء ، والجزاء على الأعمال إنما يكون في الدار الآخرة ، فختم هذه السورة بهذه الآيات على سبيل الوعيد والتهديد .

اللغة : ﴿إصراً﴾ الإصر في اللغة : الثقل والشدة قال النابغة :

يا مانع الضيم أن يغشى سراتهم والحامل الإصر عنهم بعد ما عرفوا

وسميت التكاليف الشاقة إصراً لأنها تثقل كاهل صاحبها كما يسمى العهد إصراً لأنه ثقيل . ﴿طاقة﴾ الطاقة : القدرة على الشيء من أطاق الشيء وهو مصدر جاء على غير قياس الفعل ﴿اعف عنا﴾، العفو : الصفح عن الذنب ﴿واغفر لنا﴾ الغفران : ستر الذنب ومحوه .

سبب النزول : لما نزل قوله تعالى ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ الآية، اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله فقالوا : كُلِّفنا من الأعمال ما نطيق : الصلاة والصيام والجهاد والصدقة ، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها فقال ﷺ : أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: ﴿سمعنا وعصينا﴾ قولوا ﴿سمعنا وأطعنا﴾ (فلما قرأها القوم وجرت بها ألسنتهم أنزل الله تعالى ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه﴾ ونسخها الله تعالى فأنزل ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾[1] الآية) .

التفسير : ﴿لله ما في السموات وما في الأرض﴾ أي هو سبحانه المالك لما في السموات والأرض المطّلع على ما فيهن ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسِبْكم به الله﴾ أي إن أظهرتم ما في أنفسكم من السوء أو أسررتموه فإن الله يعلمه ويحاسبكم عليه ﴿فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير﴾ أي يعفو عمن يشاء ويعاقب من يشاء وهو القادر على كل شيء الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون﴾ أي صدّق محمد ﷺ بما أنزل الله إليه من القرآن والوحي وكذلك المؤمنون ﴿كلٌ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾ أي الجميع من النبي والأتباع صدّق بوحدانية الله ، وآمن بملائكته وكتبه ورسله ﴿لا نفرّق بين أحدٍ من رسله﴾ أي لا نؤمن بالبعض ونكفر بالبعض كما

(١) أخرجه مسلم وانظر أسباب النزول للواحدي ص ٥١ .

غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

فعل اليهود والنصارى بل نؤمن بجميع رسل الله دون تفريق ﴿وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ أي أجبنا دعوتك وأطعنا أمرك فنسألك يا ألله المغفرة لما اقترفناه من الذنوب وإليك وحدك يا ألله المرجع والمآب . ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ أي لا يكلف المولى تعالى أحداً فوق طاقته ﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ أي لكل نفس جزاء ما قدمت من خير ، وجزاء ما اقترفت من شرّ ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ أي قولوا ذلك في دعائكم والمعنى لا تعذبنا يا ألله بما يصدر عنا بسبب النسيان أو الخطأ ﴿ربنا ولا تحْمِل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا﴾ أي ولا تكلفنا بالتكاليف الشاقة التي نعجز عنها كما كلفت بها من قبلنا من الأمم كقتل النفس في التوبة وقرض موضع النجاسة ﴿ربنا ولا تُحمِّلنا ما لا طاقة لنا به﴾ أي لا تحمّلنا ما لا قدرة لنا عليه من التكاليف والبلاء ﴿واعف عنا واغفر لنا وارحمنا﴾ أي امحُ عنا ذنوبنا واستر سيئاتنا فلا تفضحنا يوم الحشر الأكبر وارحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء ﴿أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ أي أنت يا ألله ناصرنا ومتولي أمورنا فلا تخذلنا ، وانصرنا على أعدائنا وأعداء دينك من القوم الكافرين ، الذين جحدوا دينك وأنكروا وحدانيتك وكذبوا برسالة نبيك ﷺ . روي أنه عليه السلام لما دعا بهذه الدعوات قيل له عند كل دعوة : قد فعلتُ .

البَـلاغَـة : ١ ـ تضمنت الآية من أنواع الفصاحة وضروب البلاغة أشياء منها «الطباق» في قوله ﴿وإن تبدوا . . أو تخفوه﴾ وبين « يغفر » و « يعذب » ومنها الطباق المعنوي بين ﴿كسبت﴾ و﴿اكتسبت﴾ لأن كسب في الخير واكتسب في الشر .

٢ ـ ومنها الجناس ويسمى جناس الاشتقاق في قوله ﴿آمن . . والمؤمنون﴾ .

٣ ـ ومنها الإطناب في قوله ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ .

٤ ـ ومنها الإيجاز بالحذف في قوله ﴿والمؤمنون﴾ أي آمنوا بالله ورسله ومواضع أخرى .

فَـائِـدَة : عن ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : (من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلةٍ كفتاه) أخرجه البخاري وفي رواية لمسلم أن ملكاً نزل من السماء فأتى النبيﷺ فقال له : « أبشرْ بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبيٌ قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيتَه » .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة البقرة »



بين يدي السورة

سورة آل عمران من السور المدنيّة الطويلة ، وقد اشتملت هذه السورة الكريمة على ركنين هامين من أركان الدين هما : **الأول** : ركن العقيدة وإقامة الأدلة والبراهين على وحدانية الله جل وعلا. **الثاني** : التشريع وبخاصة فيما يتعلق بالمغازي والجهاد في سبيل الله . . أما الأول فقد جاءت الآيات الكريمة لإثبات الوحدانية ، والنبوة ، وإثبات صدق القرآن ، والرد على الشبهات التي يثيرها أهل الكتاب حول الإسلام والقرآن وأمر محمد عليه الصلاة والسلام ، وإذا كانت سورة البقرة قد تناولت الحديث عن الزمرة الأولى من أهل الكتاب وهم « اليهود » وأظهرت حقيقتهم وكشفت عن نواياهم وخباياهم ، وما انطوت عليه نفوسهم من خبث ومكرٍ ، فإن سورة آل عمران قد تناولت الزمرة الثانية من أهل الكتاب وهم « النصارى » الذين جادلوا في شأن المسيح وزعموا ألوهيته وكذّبوا برسالة محمد وأنكروا القرآن ، وقد تناول الحديث عنهم ما يقرب من نصف السورة الكريمة ، وكان فيها الرد على الشبهات التي أثاروها بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة ، وبخاصة فيما يتعلق بشأن مريم وعيسى عليه السلام ، وجاء ضمن هذا الرد الحاسم بعض الإشارات والتقريعات لليهود ، والتحذير للمسلمين من كيد ودسائس أهل الكتاب ، أما الركن الثاني فقد تناول الحديث عن بعض الأحكام الشرعية كفرضية الحج والجهاد وأمور الربا وحكم مانع الزكاة ، وقد جاء الحديث بالإسهاب عن الغزوات كغزوة بدر ، وغزوة أحد والدروس التي تلقاها المؤمنون من تلك الغزوات ، فقد انتصروا في بدر ، وهزموا في أُحد بسبب عصيانهم لأمر الرسول ﷺ وسمعوا بعد الهزيمة من الكفار والمنافقين كثيراً من كلمات الشماتة والتخذيل ، فأرشدهم تعالى إلى الحكمة من ذلك الدرس ، وهي أن الله يريد تطهير صفوف المؤمنين من أرباب القلوب الفاسدة ، ليميز بين الخبيث والطيب ، كما تحدثت الآيات الكريمة بالتفصيل عن النفاق والمنافقين وموقفهم من تثبيط همم المؤمنين ، ثم ختمت بالتفكر والتدبر في ملكوت السموات والأرض وما فيهما من إتقانٍ وإبداع ، وعجائب وأسرار تدل على وجودِ الخالق الحكيم ، وقد ختمت بذكر الجهاد والمجاهدين في تلك الوصية الفذّة الجامعة ، التي بها يتحقق الخير ، ويعظم النصر ، ويتم الفلاح والنجاح ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ، واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ .

فضـلهـا : عن النواس بن سمعان قال سمعت النبي ﷺ يقول : (يُؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به ، تقْدمهم سورة البقرة وآل عمران)[1] .

التسميـة : سميت السورة بـ « آل عمران » لورود ذكر قصة تلك الأسرة الفاضلة « آل عمران » والد مريم أم عيسى ، وماتجلّى فيها من مظاهر القدرة الإلهية بولادة مريم البتول وابنها عيسى عليهما السلام .

* * *

قال الله تعالى : ﴿الٓمٓ * الله لا إله إلا هو الحي القيوم . . إلى . . إن الله لا يخلف الميعاد﴾
من آية (١) إلى نهاية آية (٩)

اللغـة : ﴿الحي﴾ الباقي الدائم الذي لا يفنى ولا يموت ﴿القيوم﴾ القائم على تدبير شئون العباد ﴿يصوركم﴾ التصوير : جعل الشيء على صورة معينة أي يخلقكم كما يريد ﴿الأرحام﴾ جمع رحم وهو محل تكوّن الجنين ﴿محكمات﴾ المحكم : ما كان واضح المعنى قال القرطبي : « المحكم ما عُرف تأويله وفهم معناه وتفسيره ، والمتشابه : ما لم يكن لأحدٍ إلى علمه سبيل مما استأثر تعالى بعلمه دون خلقه مثل الحروف المقطعة في أوائل السور ، هذا أحسن ما قيل فيه »[2] ﴿أم الكتاب﴾ أصل الكتاب وأساسه وعموده ﴿زيغ﴾ ميلٌ عن الحق يقال : زاغ زيغاً أي مال ميلاً ﴿تأويله﴾ التأويل : التفسير وأصله المرجع والمصير من قولهم آل الأمر إلى كذا إذا صار إليه ﴿الراسخون﴾ الرسوخ : الثبوت في الشيء والتمكن منه قال الشاعر :

لقد رسخت في القلب مني مودّة ... لليلى أبت أيامُها أن تغيّرا[3]

سبب النزول : نزلت هذه الآيات في وفد نصارى نجران وكانوا ستين راكباً ، فيهم أربعة عشر من أشرافهم ثلاثةٌ منهم أكابرهم « عبد المسيح » أميرهم و « الأيهم » مشيرهم و « أبو حارثة بن علقمة » حبرُهم ، فقدموا على النبي ﷺ فتكلم منهم أولئك الثلاثة معه فقالوا تارةً عيسى هو « الله » لأنه كان يحيي الموتى ، وتارةً هو « ابن الله » إذ لم يكن له أب ، وتارة إنه « ثالث ثلاثة » لقوله تعالى « فعلنا وقلنا » ولو كان واحداً لقال « فعلتُ وقلتُ » فقال لهم رسول الله ﷺ : ألستم تعلمون أن ربنا حيٌّ لا يموت وأن عيسى يموت ! ! قالوا : بلى ، قال ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا ويشبه أباه ! ! قالوا بلى ، قال ألستم تعلمون أن ربنا قائم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه فهل يملك عيسى شيئاً من ذلك ؟ قالوا : لا ، قال ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، فهل يعلم عيسى شيئاً من ذلك إلا ما علم ؟ قالوا : لا ، قال ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث وأن عيسى كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث ! ! قالوا بلى فقال ﷺ فكيف يكون كما زعمتم ؟ فسكتوا وأبوا إلا الجحود فأنزل الله من أول السورة إلى نيفٍ وثمانين آية[4] .

---

(١) أخرجه مسلم . (٢) القرطبي ٤/ ٩ . (٣) القرطبي ٤/ ١٩ . (٤) الفخر الرازي ٧/ ١٦٥ وابن كثير المختصر ١/ ٢٨٨ .

﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٦ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾

التفسير : ﴿**الـم**﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن وأنه منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية وقد تقدّم في أول البقرة ﴿**الله لا إله إلا هو**﴾ أي لا ربَّ سواه ولا معبود بحقٍ غيره ﴿**الحي القيّوم**﴾ أي الباقي الدائم الذي لا يموت ، القائم على تدبير شئون عباده ﴿**نزّل عليك الكتاب بالحق**﴾ أي نزّل عليك يا محمد القرآن بالحجج والبراهين القاطعة ﴿**مصدقاً لما بين يديه**﴾ أي من الكتب المنزّلة قبله المطابقة لما جاء به القرآن ﴿**وأنزل التوراة والإنجيل ※من قبل هدى للناس**﴾ أي أنزل الكتابين العظيمين « التوراة » و « الإنجيل » من قبل إنزال هذا القرآن هداية لبني إسرائيل ﴿**وأنزل الفرقان**﴾ أي جنس الكتب السماوية لأنها تفرق بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، وقيل : المراد بالفرقان القرآنُ وكرّر تعظيماً لشأنه[1]﴿**إن الذين كفروا بآيات الله**﴾ أي جحدوا بها وأنكروها وردّوها بالباطل ﴿**لهم عذاب شديد**﴾ أي عظيم أليم في الآخرة ﴿**والله عزيز ذو انتقام**﴾ أي غالب على أمره لا يُغلب ، منتقم ممن عصاه ﴿**إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء**﴾ أي لا يغيب ولا يغرب عن علمه أمرٌ من الأمور ، فهو مطّلع على كل ما في الكون لا تخفى عليه خافية ﴿**هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء**﴾ أي يخلقكم في أرحام أمهاتكم كما يشاء من ذكرٍ وأنثى ، وحَسن وقبيح ﴿**لا إله إلا هو العزيز الحكيم**﴾ أي لا ربّ سواه ، متفردٌ بالوحدانية والألوهية ، العزيز في ملكه الحكيم في صنعه ، وفي الآية ردٌّ على النصارى حيث ادعوا ألوهية عيسى فنبّه تعالى بكونه مصوّراً في الرحم ، وأنه لا يعلم الغيب على أنه عبد كغيره من العباد ﴿**هو الذي أنزل عليك الكتاب**﴾ أي أنزل عليك يا محمد القرآن العظيم ﴿**فيه** (منه) **آياتٌ محكمات هنَّ أُمُّ الكتاب**﴾ أي فيه آيات بينات واضحات الدلالة ، لا التباس فيها ولا غموض كآيات الحلال والحرام ، هنَّ أصل الكتاب وأساسه ﴿**وأُخَر متشابهات**﴾ أي وفيه آيات أُخَر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس ، فمن ردّ المتشابه إلى الواضح المحكم فقد اهتدى ، وإن عكس فقد ضلّ ولهذا قال تعالى ﴿**فأما الذين في قلوبهم زيغٌ فيتّبعون ما تشابه منه**﴾ أي فأمّا من كان في قلبه ميلٌ عن الهدى إلى الضلال

---

(١) وهو قول قتادة والربيع واختار ابن جرير أن الفرقان مصدر بمعنى الفارق بين الغي والرشاد والهدى والضلال لتقدم ذكر القرآن في قوله ﴿نزّل عليك الكتاب﴾ .

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾

فيتبع المتشابه منه ويفسّره على حسب هواه ﴿ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله﴾ أي طلباً لفتنة الناس في دينهم ، وإيهاماً للأتباع بأنهم يبتغون تفسير كلام الله ، كما فعل النصارى الضالون حيث احتجوا بقوله تعالى في شأن عيسى ﴿وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه﴾ على أن عيسى ابن الله أو هو جزء من الله فادعوا ألوهيته وتركوا المحكم وهو قوله تعالى ﴿إن هو إلا عبدٌ أنعمنا عليه﴾ الدالّ على أنه عبد من عباد الله ورسول من رسله ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ أي لا يعلم تفسير المتشابه ومعناه الحقيقي إلا الله وحده ﴿والراسخون في العلم يقولون آمنا به﴾ أي الثابتون المتمكنون من العلم يؤمنون بالمتشابه وأنه من عند الله ﴿كلٌ من عند ربنا﴾ أي كلٌ من المتشابه والمحكم حقٌ وصدق لأنه كلام الله ، قال تعالى ﴿وما يذّكر إلا أولوا الألباب﴾ أي ما يتعظ ويتدبر إلا أصحاب العقول السليمة المستنيرة ﴿ربنا لا تُزغ قلوبنا﴾ أي لا تمِلْها عن الحق ولا تضلّنا ﴿بعد إذ هديتنا﴾ أي بعد أن هديتنا إلى دينك القويم وشرعك المستقيم ﴿وهبْ لنا من لدُنك رحمة﴾ أي امنحنا من فضلك وكرمك رحمةً تثبتنا بها على دينك الحق ﴿إنك أنت الوهاب﴾ أي أنت يا رب المتفضل على عبادك بالعطاء والإحسان ﴿ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه﴾ أي جامع الخلائق في ذلك اليوم الرهيب « يوم الحساب » الذي لا شك فيه ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾ أي وعدك حق وأنت يا رب لا تخلف الموعد ، كقوله تعالى ﴿الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثاً﴾ ؟ !

البَلَاغَة : ١ ـ ﴿نزّل عليك الكتاب﴾ عبّر عن القرآن بالكتاب الذي هو اسم جنس إيذاناً بكمال تفوقه على بقية الكتب السماوية كأنه هو الحقيق بأن يطلق عليه اسم الكتاب .

٢ ـ ﴿لما بين يديه﴾ كناية عمّا تقدمه وسبقه من الكتب السماوية فسمى ما مضى بين يديه لغاية ظهوره واشتهاره .

٣ ـ ﴿وأنزل الفرقان﴾ أي أنزل سائر ما يفرق بين الحق والباطل فهو من باب عطف العام على الخاص حيث ذكر أولاً الكتب الثلاثة ثم عمّ الكتب كلها لإفادة الشمول مع العناية بالخاص .

٤ ـ ﴿هنّ أم الكتاب﴾ قال الشريف الرضي : هذه استعارة والمراد بها أن هذه الآيات جماع الكتاب وأصله فهي بمنزلة الأم له ، وكأنّ سائر القرآن يتبعها أو يتعلق بها كما يتعلق الولد بأمه ويفزع إليها في مهمه[1] .

---

(١) تلخيص البيان ص ١٧ .

٥ - ﴿والراسخون في العلم﴾ وهذه استعارة والمراد بها المتمكنون في العلم تشبيهاً برسوخ الشيء الثقيل في الأرض الخوَّارة وهو أبلغ من قوله والثابتون في العلم[١] .

الفوائد : الأولى : روى مسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ تلا ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكماتٌ هنَّ أمُّ الكتاب وأُخَر متشابهات﴾ الآية ثم قال : « إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمّاهم الله فاحذروهم » .

الثانية : قال القرطبي : أحسن ما قيل في المتشابه والمحكم : أنَّ المحكم ما عُرف تأويله وفهم معناه وتفسيره ، والمتشابه ما استأثر الله تعالى بعلمه دون خلقه ولم يكن لأحدٍ إلى علمه سبيل ، قال بعضهم : وذلك مثل وقت قيام الساعة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج الدجال ، وعيسى ، ونحو الحروف المقطعة في أوائل السور[٢] .

الثالثة : آيات القرآن قسمان : محكمات ومتشابهات كما دلت عليه الآية الكريمة ، فإن قيل : كيف يمكن التوفيق بين هذه الآية وبين ما جاء في سورة هود أن القرآن كلَّه محكمٌ ﴿ كتابٌ أُحكمت آياته﴾ وما جاء في الزمر أن القرآن كلَّه متشابهٌ ﴿ نزَّل أحسنَ الحديث كتاباً متشابهاً﴾ ؟ ! فالجواب أنه لا تعارض بين الآيات إذ كل آية لها معنى خاص غير ما نحن في صدده فقوله ﴿أحكمت آياته﴾ بمعنى أنه ليس به عيبٌ وأنه كلامٌ حقٌ فصيح الألفاظ ، صحيح المعاني وقوله ﴿كتاباً متشابهاً﴾ بمعنى أنه يشبه بعضه بعضاً في الحُسن ويصدق بعضه بعضاً ، فلا تعارض بين الآيات .

الرابعة : روى البخاري عن سعيد بن جبير أن رجلاً قال لابن عباس : إني أجد في القرآن أشياءَ تختلف عليَّ ، قال : ما هو ؟ قال قوله تعالى ﴿فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون﴾ وقال : ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ وقال تعالى : ﴿ولا يكتمون الله حديثاً﴾ وقال ﴿والله ربّنا ما كنا مشركين﴾ فقد كتموا في هذه الآية ، وفي النازعات ذكرَ خلق السماء قبل خلق الأرض ، وفي فصِّلت ذكَر خلق الأرض قبل خلق السماء ، وقال : ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ ﴿وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ ﴿وكان الله سميعاً بصيراً﴾ فكأنه كان ثم مضى . . فقال ابن عباس : ﴿فلا أنساب بينهم﴾ في النفخة الأولى ﴿فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله﴾ فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون ، ثم في النفخة الآخرة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، وأما قوله ﴿ما كنا مشركين﴾ ﴿ولا يكتمون الله حديثاً﴾ فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم فيقول المشركون تعالوا نقول : لم نكن مشركين ، فختم الله على أفواههم فتنطق جوارحهم بأعمالهم فعند ذلك عُرف أن الله لا يكتم حديثاً وعنده يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ، وخلق الله الأرض في يومين ثم استوى إلى السماء فسواهنَّ سبع سموات في يومين ، ثم دحا الأرض أي بسطها فأخرج منها الماء والمرعى وخلق فيها الجبال والأشجار والآكام وما بينها في يومين

(١) تلخيص البيان ص ١٧ . (٢) القرطبي ٤/ ٩ .

آخرين فذلك قوله ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ فخلقت الأرض وما فيها في أربعة ايام وخلقت السماء في يومين ، وقوله ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ فسمّى نفسه ذلك أي لم يزل ولا يزال كذلك ، ويحكَ فلا يختلف عليك القرآن فإن كلاً من عند الله .

* * *

قال الله تعالى :﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم. . إلى. .والمستغفرين بالأسحار﴾ من آية (١٠) إلى نهاية آية (١٧)

المناسَبَة : لما حكى تعالى عن المؤمنين دعاءهم وتضرعهم أن يثبتهم الله على الإيمان ، حكى عن الكافرين سبب كفرهم وهو اغترارهم في هذه الحياة بكثرة المال والبنين ، وبيّن أنها لن تدفع عنهم عذاب الله ، كما لن تغني عنهم شيئاً في الدنيا ، وضرب على ذلك الأمثال بغزوة بدر حيث التقى فيها جند الرحمن بجند الشيطان ، وكانت النتيجة اندحار الكافرين مع كثرتهم وانتصار المؤمنين مع قلتهم ، فلم تنفعهم الأموال ولا الأولاد ، ثم أعقب تعالى ذلك بذكر شهوات الدنيا ومُتَع الحياة التي يتنافس الناس فيها ، ثم ختمها بالتذكير بأن ما عند الله خيرٌ للأبرار .

اللغَة : ﴿تغني﴾ الإغناء : الدفع والنفع ﴿وَقُود النار﴾ الوَقود بفتح الواو الحطبُ الذي توقد به النار وبالضم مصدر بمعنى الاتقاد ﴿دأب﴾ الدأب : العادة والشأن وأصله من دأب الرجل في عمله إذا جدَّ فيه واجتهد ثم أُطلق الدأب على العادة والشأن لأن من دأب على شيء أمداً طويلاً صار له عادةً ﴿آية﴾ علامة ﴿فئة﴾ جماعة وسميت الجماعة من الناس فئةً لأنه يُفاء إليها في وقت الشدة ﴿عبرة﴾ العبرة : الاتعاظ ومنه يقال : اعتبر ، واشتقاقها من العبور وهو مجاوزة الشيء إلى الشيء ومنه عبور النهر ، فالاعتبار انتقال من حالة الجهل إلى حالة العلم ﴿زُيّن﴾ التزيين : تحسين الشيء وتجميله في عين الإنسان ﴿ الشهوات﴾ الشهوة : ما تدعو النفس إليه وتشتهيه والفعل منه اشتهى ويُجمع على شهوات ﴿القناطير﴾ جمع قنطار وهو العُقدة الكبيرة من المال أو المال الكثير الذي لا يحصى ﴿المقنطرة﴾ المضعَّفة وهو للتأكيد كقولك ألوف مؤلَّفة وأضعاف مضاعفة قاله الطبري ، وروي عن الفراء أنه قال : القناطير جمع القنطار ، والمقنطرة جمع الجمع فيكون تسع قناطير[1] ﴿المسوَّمة﴾ المعلّمة بعلامة تجعلها حسنة المنظر تجتلب الأنظار وقيل المسوَّمة : الراعية وقال مجاهد وعكرمة : إنها الخيل المطهّمة الحسان[2] ﴿المآب﴾ المرجع يقال : آب الرجل إياباً ومآباً قال تعالى ﴿إن إلينا إيابهم﴾ ﴿الأسحار﴾ السَّحر : الوقت الذي قبل طلوع الفجر .

سَبَبُ النّزول : لما أصاب رسول الله ﷺ قريشاً ببدر ، ورجع إلى المدينة جمع اليهود فقال لهم : يا معشر اليهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشاً فقد عرفتم أني نبيٌ مرسل ، فقالوا يا محمد : لا يغرنّك من نفسك أنك قتلتَ نفراً من قريش كانوا أغماراً ـ يعني جهالاً ـ لا علم لهم بالحرب ، إنك والله لو

---

(١) القرطبي ٤/ ٣١ . (٢) تفسير الرازي ٧/ ٢١١ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾

قاتلتنا لعرفتَ أنا نحن الرجال ، وأنك لم تلق مثلنا فأنزل الله ﴿قل للذين كفروا ستُغْلبون﴾[1] الآية

التفسير : ﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم﴾ أي لن تفيدهم الأموال والأولاد ، ولن تدفع عنهم من عذاب الله في الآخرة ﴿من الله شيئاً﴾ أي من عذاب الله وأليم عقابه ﴿وأولئك هم وقود النار﴾ أي هم حطب جهنم الذي تُسْجر وتوقد به النار ﴿كدأب آل فرعون﴾ أي حال هؤلاء الكفار وشأنهم كحال وشأن آل فرعون ، وصنيعُهم مثلُ صنيعهم ﴿والذين من قبلهم﴾ أي من قبل آل فرعون من الأمم الكافرة كقوم هود وصالح وشعيب ﴿كذبوا بآياتنا﴾ أي كذبوا بالآيات التي تدل على رسالات الرسل ﴿فأخذهم الله بذنوبهم﴾ أي أهلكهم وعاقبهم بسبب الكفر والمعاصي ﴿والله شديد العقاب﴾ أي أليم العذاب شديد البطش ، والغرض من الآية أن كفار قريش كفروا كما كفر أولئك المعاندون من آل فرعون ومن سبقهم ، فكما لم تنفع أولئك أموالهم ولا أولادهم فكذلك لن تنفع هؤلاء . ﴿قل للذين كفروا﴾ أي قل يا محمد لليهود ولجميع الكفار ﴿ستُغلبون﴾ أي تُهزمون في الدنيا ﴿وتحشرون إلى جهنم﴾ أي تُجمعون وتساقون إلى جهنم ﴿وبئس المهاد﴾ أي بئس المهاد والفراش الذي تمتهدونه نار جهنم ﴿قد كان لكم آية﴾ أي قد كان لكم يا معشر اليهود عظة وعبرة ﴿في فئتين التقتا﴾ أي في طائفتين التقتا للقتال يوم بدر ﴿فئةٌ تقاتل في سبيل الله﴾ أي طائفةٌ مؤمنة تقاتل لإعلاء دين الله ﴿وأخرى كافرة﴾ أي وطائفة أخرى كافرة تقاتل في سبيل الطاغوت وهم كفار قريش ﴿يرونهم مثليهم﴾ أي يرى المؤمنون الكافرين أكثر منهم مرتين ﴿رأي العين﴾ أي رؤية ظاهرةً مكشوفة بالعين المجردة لا بالوهم والخيال ، وقيل : المراد يرى الكافرون المؤمنين ضعفيهم في العدد ، وذلك أن الله أكثر المؤمنين في أعين الكافرين ليرهبوهم ويجبنوا عن قتالهم ، والقول الأول اختيار ابن جرير وهو الأظهر لقوله تعالى ﴿رأي العين﴾ أي رؤية حقيقية لا بالخيال ﴿والله يؤيد بنصره من يشاء﴾ أي يقوّي بنصره من يشاء ﴿إن في ذلك لعبرة﴾ أي لآية وموعظة ﴿لأولي الأبصار﴾ أي لذوي العقول السليمة والأفكار المستقيمة . ومغزى الآية أن القوة المادية ليست كل شيء ، وأن النصر لا يكون بكثرة العَدد والعتاد ، وإنما يكون بمعونة الله

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٢٦٨ وأسباب النزول للواحدي ص ٥٤ .

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾

وتأييده كقوله ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم﴾ ثم أخبر تعالى عن اغترار الناس بشهوات الحياة الفانية فقال ﴿زُيِّنَ للناس حبُّ الشهوات من النساء﴾ أي حُسِّن إليهم وحُبِّب إلى نفوسهم الميل نحو الشهوات ، وبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد ، والإلتذاذ بهن أكثر وفي الحديث (ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرجال من النساء)[1] ثم ذكر ما يتولد منهن فقال ﴿والبنين﴾ وإنما ثنّى بالبنين لأنهم ثمرات القلوب وقرة الأعين كما قال القائل :

وإنما أولادنا بيننا أكبادُنا تمشي على الأرض
لو هبَّت الريح على بعضهم لامتنعتْ عيني عن الغَمْض

وقُدّموا على الأموال لأن حب الإنسان لولده أكثر من حبه لماله ﴿والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة﴾ أي الأموال الكثيرة المكدَّسة من الذهب والفضة ، وإنما كان المال محبوباً لأنه يحصل به غالب الشهوات ، والمرء يرتكب الأخطار في تحصيله ﴿وتحبون المال حباً جماً﴾ والذهب والفضة أصل التعامل ولذا خُصَّا بالذكر ﴿والخيل المسوّمة﴾ أي الأصيلة الحسان ﴿والأنعام﴾ أي الإبل والبقر والغنم فمنها المركب والمطعم والزينة ﴿والحرث﴾ أي الزرع والغراس لأن فيه تحصيل أقواتهم ﴿ذلك متاع الحياة الدنيا﴾ أي إنما هذه الشهوات زهرة الحياة الدنيا وزينتُها الفانية الزائلة ﴿والله عنده حسن المآب﴾ أي حسن المرجع والثواب ﴿قل أؤنبئكم بخيرٍ من ذلكم﴾ أي قل يا محمد أأخبركم بخيرٍ ممّا زُيِّن للناس من زهرة الحياة الدنيا ونعيمها الزائل ؟ والاستفهام للتقرير ﴿للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي للمتقين يوم القيامة جناتٌ فسيحات تجري من خلال جوانبها وأرجائها الأنهار ﴿خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها أبد الآباد ﴿وأزواج مطهرة﴾ أي منزهةٌ عن الدنس والخبث، الحسي والمعنوي ، لا يتغوَّطن ولا يتبولن ولا يحضن ولا ينفسن ، ولا يعتريهن ما يعتري نساء الدنيا ﴿ورضوانٌ من الله﴾ أي ولهم مع ذلك النعيم رضوانٌ من الله وأيُّ رضوان ، وقد جاء في الحديث (أُحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً) ﴿والله بصيرٌ

(١) أخرجه البخاري .

بالعبـاد﴾ أي عليم بأحوال العباد يعطي كلاً بحسب ما يستحقه من العطاء . ثم بيّن تعالى صفات هؤلاء المتقين الذين أكرمهم بالخلود في دار النعيم فقال ﴿الذيـن يقولون ربنا إننـا آمنا﴾أي آمنا بك وبكتبك ورسلك ﴿فاغفـر لنا ذنوبنـا وقنا عـذاب النار﴾ أي اغفر لنا بفضلك ورحمتك ذنوبنا ونجنا من عذاب النار ﴿الصابرين والصادقين والقانتين﴾ أي الصابرين على البأساء والضراء ، والصادقين في إيمانهم وعند اللقاء ، والمطيعين لله في الشـدة والرخـاء ﴿والمنفقيـن﴾ أي الـذين يبذلـون أموالهـم في وجـوه الخير ﴿والمستغفريـن بالأسحـار﴾ أي وقت السحر قُبيل طلوع الفجر .

البَـلاَغَـة : ﴿من الله﴾ فيه إيجاز بالحذف أي من عذاب الله ﴿شيئـاً﴾ التنكير للتقليل أي لن تنفعهم أيّ نفع ولو قليلاً ﴿وأولئك هم وقود النار﴾ الجملة إسمية للدلالة على ثبوت الأمر وتحققه ﴿كذبوا بآياتنا فأخذهم الله﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الحاضر والأصل فأخذناهم ﴿لكم آية﴾ الأصل « آيةٌ لكم » وقدّم للإعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ، والتنكير في آية للتفخيم والتهويل أي آية عظيمة ومثله التنكير في ﴿رضـوانٌ من اللـه﴾ وقولـه تعـالى ﴿ترونهـم﴾ و﴿رأي العيـن﴾ بينهما جنـاس الاشتقـاق ﴿حـب الشهوات﴾ يراد به المشتهيـات قال الزمخشري : عبَّر بالشهوات مبالغة كأنها نفس الشهوات ، وتنبيهاً على خستها لأن الشهوة مسترذلة عند الحكماء ﴿بخير من ذلكم﴾ إبهام الخير لتفخيم شأنه والتشويق لمعرفته ﴿للذيـن اتقوا عند ربهم﴾ قال أبو السعود : التعـرض لعنـوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المتقين لإظهار مزيد اللطف بهم[1] ﴿القناطير المقنطرة﴾ بينهما من المحسنات البديعية ما يسمى بالجناس الناقص .

فَـائِـدَة : الأولى : من هو المزيّن للشهوات ؟ قيل : هو الشيطان ويدل عليه قوله تعالى ﴿وزيَّن لهم الشيطان أعمالهم﴾ وتزيين الشيطان : وسوسته وتحسينه الميل إليها وقيل : المزيّن هو الله ويدل عليه ﴿إنّا جعلنا ما على الأرض زينةً لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾ وتزيين الله للابتلاء ليظهر عبد الشهوة من عبد المولى وهو ظاهر قول عمر : « اللهم لا صبر لنا على ما زينتَ لنا إلا بك »[2] .

الثانية : تخصيص الأسحار بالاستغفار لأن الدعاء فيها أقرب إلى الإجابة ، لأن النفس أصفى ، والروح أجمع ، والعبادة أشق فكانت أقرب إلى القبول ، قال ابن كثير : كان عبد الله بن عمر يصلي من الليل ثم يقول يا نافع : هل جاء السحر ؟ فإذا قال نعم أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح[3] .

* * *

قال الله تعالى :﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو . . إلى . .ووفيت كل نفسٍ ما كسبت وهم لا يظلمون﴾

من آية (١٨) إلى نهاية آية (٢٥)

المنَـاسَـبَة : لما مدح تعالى المؤمنين وأثنى عليهم بقوله ﴿الذين يقولون ربنا إننا آمنا﴾ أردفه بأنْ بيّن أنَّ دلائل الايمان ظاهرة جلية فقال ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾ ثم بيّن أن الإسلام هو الدين الحق الذي

(١) تفسير أبي السعود ١/ ٢٢١ . (٢) رواه البخاري . (٣) مختصر ابن كثير ١/ ٢٧١ .

ارتضاه الله لعباده ، وأمر الرسول بأن يعلن استسلامه لله وانقياده لدين الله ، وأعقبه بذكر ضلالات أهل الكتاب واختلافهم في أمر الدين اختلافاً كبيراً ، وإعراضهم عن قبول حكم الله .

اللغــة : ﴿شهد﴾ الشهادة : الإقرار والبيان ﴿القسط﴾ العدل ﴿الـدين﴾ أصل الـدين في اللغة : الجزاء ويطلق على الملَّة وهو المراد هنا ﴿الإسلام﴾ الاسلام في اللغة : الاستسلام والانقياد التام قال ابن الأنباري : المسلم معناه المخلص لله عبادته من قولهم : سلم الشيء لفلان أي خلص له فالإسلام معناه إخلاص الدين والعقيدة لله تعالى ﴿حاجوك﴾ جادلوك ونازعوك ﴿غرهم﴾ فتنهم ﴿يفترون﴾ يكذبون .

سبب النزول : لمّا استقر رسول الله ﷺ بالمدينة قدم عليه حبْران من أحبار الشام ، فلما دخلا عليه عرفاه بالصِّفة والنعت فقالا له : أنت محمد ؟ قال نعم ، قالا : وأنت أحمد ؟ قال نعم ، قالا نسألك عن شهادةٍ فإن أنت أخبرتنا بها آمنا بك وصدَّقناك ، فقال لهما رسول الله ﷺ : سلاني ، فقالا : أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله فنزلت ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾ الآية فأسلم الرجلان وصدّقا برسول الله ﷺ[1]

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾

التفسير : ﴿شهـد اللـه أنه لا إلـه إلا هو﴾ أي بيّن وأعلم تعالى عباده بانفراده بالوحدانية ، قال الزمخشري : شبهت دلالته على وحدانيته بشهادة الشاهد في البيان والكشف ﴿والملائكـة وأولوا العلـم﴾ أي وشهدت الملائكة وأهل العلم بوحدانيته بدلائل خلقه وبديع صنعه ﴿قائماً بالقسـط﴾ أي حال كونه مقيماً للعدل فيما يقسم من الآجال والأرزاق ﴿لا إلـه إلا هـو﴾ أي لا معبود في الوجود بحق إلا هو ﴿العزيـز الحكيـم﴾ أي العزيز في ملكه الحكيم في صنعه ﴿إن الديـن عند اللـه الإسلام﴾ أي الشرع المقبول عند الله هو الإسلام ، ولا دين يرضاه الله سوى الإسلام ﴿وما اختلف الذيـن أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهـم العلـم﴾ أي وما اختلف اليهود والنصارى في أمر الإسلام ونبوة محمد عليه السلام ، إلا بعد أن علمـوا بالحجج النيرّة والآيات الباهرة حقيقة الأمر ، فلم يكن كفرهم عن شبهة وخفاء وإنما كان عن استكبـار وعناد ، فكانوا ممن ضلَّ عن علم ﴿بغيـاً بينهـم﴾ أي حسداً كائناً بينهم حملهم عليه حب الرئاسة ﴿ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾وهو وعيد وتهديد أي من يكفر بآياته تعالى فإنه سيصير إلى الله سريعاً فيجازيه على كفره ﴿فإن حاجوك فقل أسلمـت وجهـي لله﴾ أي إن جادلوك يا محمد في شأن الدين فقل

(١) القرطبي ٤/ ٤١ والبحر المحيط ٢/ ٤٠١ .

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾

لهم : أنا عبدٌ لله قد استسلمتُ بكليتي لله ، وأخلصت عبادتي له وحده ، لا شريك له ولا نِدّ ولا صاحبة ولا ولد ﴿ومن اتبعن﴾ أي أنا وأتباعي على ملة الإسلام ، مستسلمون منقادون لأمر الله ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأميّين﴾ أي قل لليهود والنصارى والوثنيين من العرب ﴿أأسلمتم﴾ أي هل أسلمتم أم أنتم باقون على كفركم فقد أتاكم من البينات ما يوجب إسلامكم ﴿فإن أسلموا فقد اهتدوا﴾ أي فإن أسلموا كما أسلمتم فقد نفعوا أنفسهم بخروجهم من الضلال إلى الهدى ومن الظلمة إلى النور ﴿وإن تولوا فإنما عليك البلاغ﴾ أي وإن أعرضوا فلن يضروك يا محمد إذ لم يكلفك الله بهدايتهم وإنما أنت مكلف بالتبليغ فحسب والغرض منها تسلية النبي ﷺ ﴿والله بصير بالعباد﴾ أي عالم بجميع أحوالهم فيجازيهم عليها ، روي أن رسول الله ﷺ لما قرأ هذه الآية على أهل الكتاب قالوا : أسلمنا فقال عليه السلام لليهود : أتشهدون أن عيسى كلمة الله وعبده ورسوله ! فقالوا : معاذ الله ، فقال للنصارى : أتشهدون أن عيسى عبد الله ورسوله ! فقالوا : معاذ الله أن يكون عيسى عبداً وذلك قوله عز وجل ﴿وإن تولوا﴾[1] . ﴿إن الذين يكفرون بآيات الله﴾ أي يكذبون بما أنزل الله ﴿ويقتلون النبيّين بغير حق﴾ أي يقتلون أنبياء الله بغير سبب ولا جريمة إلا لكونهم دعوهم إلى الله ، وهم اليهود قتلوا زكريا وابنه يحيى وقتلوا أنبياء الله ، قال ابن كثير : « قتلت بنو إسرائيل ثلاثمائة نبيّ من أول النهار ، وأقاموا سوق بقلهم من آخره » ﴿ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس﴾ أي يقتلون الدعاة إلى الله الذين يأمرون بالخير والعدل ﴿فبشرهم بعذابٍ أليم﴾ أي أخبرهم بما يسرهم وهو العذاب الموجع المهين ، والأسلوب للتهكم وقد استحقوا ذلك لأنهم جمعوا ثلاثة أنواع من الجرائم : الكفر بآيات الله ، وقتل الأنبياء ، وقتل الدعاة إلى الله قال تعالى مبيناً عاقبة إجرامهم ﴿أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾ أي بطلت أعمالهم التي عملوها من البر والحسنات ، ولم يبق لها أثر في الدارين ، بل بقي لهم اللعنة والخزي في الدنيا والآخرة ﴿وما لهم من ناصرين﴾ أي ليس لهم من ينصرهم من عذاب الله أو يدفع عنهم عقابه . . ثم ذكر تعالى طرفاً من لجاج وعناد أهل الكتاب فقال ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾ أي ألا تعجب يا محمد من أمر هؤلاء

(١) تفسير أبي السعود ١/ ٢٢٣ .

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ! فالصيغة صيغة تعجيب للرسول أو لكل مخاطب قال الزمخشري : يريد أحبار اليهود وأنهم حصلوا نصيباً وافراً من التوراة ﴿يدعـو ن إلى كتاب الله ليحكم بينهـم﴾ أي يدعون إلى التوراة كتابهم الذي بين أيديهم والذي يعتقدون صحته ، ليحكم بينهم فيما تنازعوا فيه فيأبون ﴿ثم يتولى فريق منهـم وهم معرضـون﴾ أي ثم يعرض فريق منهم عن قبول حكم الله ، وهو استبعاد لتوليهم بعد علمهم بوجوب الرجوع إليه ، وجملة﴿وهم معرضون﴾تأكيد للتولي أي وهم قوم طبيعتهم الإعراض عن الحق ، والإصرار على الباطل ، والآية كما يقول المفسرون تشير إلى قصة تحاكم اليهود إلى النبي ﷺ لما زنى منهم إثنان فحكم عليهما بالرجم فأبوا وقالوا : لا نجد في كتابنا إلا التحميم فجيء بالتوراة فوجد فيها الرجم فرجما ، فغضبوا فشنَّع تعالى عليهم بهـذه الآية[1] ﴿ذلك بأنهـم قالـوا لن تمسـنـا النـار إلا أيامـاً معـدودات﴾ أي ذلك التولي والإعراض بسبب افترائهم على الله وزعمهم أنهم أبناء الأنبياء وأن النار لن تصيبهم إلا مدةً يسيرة-أربعين يوماً-مدة عبادتهم للعجل ﴿وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون﴾ أي غرهم كذبهم على الله ﴿فكيـف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيـه﴾ أي كيف يكون حالهم يوم القيامة حين يجمعهم الله للحساب ! ! وهو استعظام لما يدهمهم من الشدائد والأهوال ﴿ووفيت كلُّ نفس ما كسبـت﴾ أي نالت كل نفسٍ جزاءها العادل ﴿وهم لا يُظْلمـو ن﴾ أي لا يظلمون بزيادة العذاب أو نقص الثواب .

البــلاغــة : ١ - ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ الجملة معرّفة الطرفين فتفيد الحصر أي لا دين إلا الإسلام .

٢ - ﴿الذين أوتوا الكتاب﴾ التعبير عن اليهود والنصارى بقوله « أوتوا الكتاب » لزيادة التشنيع والتقبيح عليهم فإن الاختلاف مع علمهم بالكتاب في غاية القبح والشناعة .

٣ - ﴿بآيات الله فإن الله﴾ إظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة في النفس .

٤ - ﴿أسلمتُ وجهي﴾ أطلق الوجه وأراد الكل فهو مجاز مرسل من إطلاق الجزء وإرادة الكل .

٥ - ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ الأصل في البشارة أن تكون في الخير واستعمالها في الشر للتهكم ويسمى « الأسلوب التهكمي » حيث نزّل الإنذار منزلة البشارة السارة كقوله ﴿بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً﴾ وهو أسلوبٌ مشهور .

---

(١) انظر القصة في صحيح البخاري كتاب التفسير .

فـائـدة : قال القرطبي : في هذه الآية دليل على فضل العلم ، وشرف العلماء ، فإنه لو كان أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته كما قرن اسم العلماء ، ويكفي في شرف العلم قوله لنبيه ﷺ : ﴿وقلْ ربِّ زدني علماً﴾ وقوله ﷺ : (إن العلماء ورثة الأنبياء) وفي حديث ابن مسعود أنَّ من قرأ قوله تعالى ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾ الآية فإنه يجاء به يوم القيامة فيقول الله تعالى : عبدي عهد إليَّ عهداً وأنا أحقُّ من وفّى ، أدخلوا عبدي الجنة[1] .

لطيفـة : من أطرف ما قرأتُ في بيان فضل العلم تلك المحاورة اللطيفة بين العقل والعلم حيث يقول القائل وقد أبدع وأجاد :

علمُ العليمِ وعقلُ العاقل اختلفا ... من ذا الذي منهما قد أحرز الشرفا

فالعلم قال : أنا أحرزتُ غايتَه ... والعقلُ قال : أنا الرحمن بي عُرِفا

فأفصح العلم إفصاحاً وقال له ... بأيّنا اللّه في فرقانه اتّصفا

فبان للعقل أن العلم سيِّدُه ... فقبل العقل رأس العلم وانصرفا

* * *

قال الله تعالى :﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء . . إلى . .فإن الله لا يحب الكافرين﴾
من آية (٢٦) إلى نهاية آية (٣٢)

المناسبة : لمّا ذكر تعالى في الآيات السابقة دلائل التوحيد والنبوة وصحة دين الإسلام، أعقبه بذكر البشائر التي تدل على قرب نصر الله للإسلام والمسلمين ، فالأمر كله بيد الله يعز من يشاء ويذل من يشاء ، وأمر رسوله بالدعاء والابتهال إلى الله بأن يعزّ جند الحق وينصر دينه المبين .

اللغـة : ﴿اللهمّ﴾ أصله يا ألله حذفت أداة النداء واستعيض عنها بالميم المشدّدة هكذا قال الخليل وسيبويه ﴿تنزع﴾ تسلب ويعبّر به عن الزوال يقال : نزع الله عنه الشر أي أزاله ﴿تولج﴾ الإيلاج : الإدخال يقال : ولج يلج ولوجاً ومنه ﴿حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾ ﴿أمداً﴾ الأمد : غاية الشيء ومنتهاه وجمعه آماد ﴿تقاة﴾ تقيَّةً وهي مداراة الإنسان مخافة شره .

سبب النزول : أ ـ لما افتتح رسول الله ﷺ مكة ووعد أمته ملك فارس والروم ، قال المنافقون واليهود : هيهات هيهات من أين لمحمد ملك فارس والروم ! ! هم أعزُّ وأمنع من ذلك ألم يكفه مكة حتى طمع في ملك فارس والروم فأنزل الله ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء . .﴾ الآية[2] .

ب ـ عن ابن عباس أن « عُبادة بن الصامت » ـ وكان بدرياً تقياً ـ كان له حلفٌ مع اليهود ، فلما خرج النبي ﷺ يوم الأحزاب قال له عبادة : يا نبيَّ الله إن معي خمسمائة من اليهود وقد رأيت أن يخرجوا معي فأستظهر بهم على العدو فأنزل الله ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء﴾ الآية[3] .

(١) رواه الطبراني في الكبير . (٢) القرطبي ٤/ ٥٢ . (٣)روائع البيان ١/ ٣٩٩ .

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧) لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ (٢٨)﴾

التفسير : ﴿قل اللهم مالك الملك﴾ أي قل: يا ألله يا مالك كل شيء ﴿تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء﴾ أي أنت المتصرف في الأكوان، تهب الملك لمن تشاء وتخلع الملك ممن تشاء ﴿وتعز من تشاء وتذل من تشاء﴾ أي تعطي العزة لمن تشاء والذلة لمن تشاء ﴿بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾ أي بيدك وحدك خزائن كل خير وأنت على كل شيء قدير ﴿تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليـل﴾ أي تدخل الليل في النهار كما تدخل النهار في الليل ، فتزيد في هذا وتنقص في ذاك والعكس ، وهكذا في فصول السنة شتاءً وصيفاً ﴿وتخرج الحي من الميـت وتخرج الميت من الحـي﴾ أي تخرج الزرع من الحب والحب من الزرع ، والنخلةَ من النواة والنواة من النخلة ، والبيضةَ من الدجاجة والدجاجةَ من البيضة ، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن هكذا قال ابن كثير ، وقال الطبري : « وأولى التأويلات بالصواب تأويل من قال : يخرج الإنسان الحيَّ والأنعام والبهائم من النطف الميتة ، ويخرج النطفة الميتة من الإنسان الحي والأنعام والبهائم الأحياء »[1] ﴿وترزق من تشاء بغـير حساب﴾ أي تعطي من تشاء عطاءً واسعاً بلا عدٍّ ولا تضييق . . ثم نهى تعالى عن اتخاذ الكافرين أنصاراً وأحباباً فقال ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافريـن أولياء من دون المؤمنيـن﴾ أي لا توالوا أعداء الله وتتركوا أولياءه فمن غير المعقول أن يجمع الإنسان بـين محبة الله وبـين محبة أعدائـه قال الزمخشري : نهُوا أن يوالوا الكافرين لقرابةٍ بينهم أو صداقة أو غير ذلك من الأسباب التي يُتصادق بها ويُتعاشر ﴿ومـن يفعل ذلك فليس من الله في شيء﴾ أي من يوالِ الكفرة فليس من دين الله في شيء ﴿إلا أن تتقوا منهم تقاةً﴾ أي إلا أن تخافوا منهم محذوراً أو تخافوا أذاهم وشرهم ، فأظهروا موالاتهم باللسان دون

(١) تفسير الطبري ٥/ ٣٠٩ وللشهيد سيد قطب قول رائع في معنى الآية الكريمة ننقله بإيجاز من الظلال يقول قدّس الله روحه « وسواء كان معنى إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل هو أخذ هذا من ذاك ، وأخذ ذاك من هذا عند دورة الفصول . . سواء كان هذا أو ذاك فإن القلب يكاد يبصر يد الله وهي تحرك الأفلاك ، وتلفُّ هذه الكرة المعتمة أمام تلك الكرة المضيئة ـ يعني الشمس ـ وتقلب مواضع الظلمة ومواضع الضياء ، شيئاً فشيئاً يتسرب غبش الليل إلى وضاءة النهار ، وشيئاً فشيئاً يتنفس الصبح في غيابة الظلام ، شيئاً فشيئاً يطول الليل وهو يأكل من النهار في الشتاء ، ويطول النهار وهو يسحب من الليل في الصيف . . كذلك الحياة والموت يدب أحدهما في الآخر في بطء وتدرج ، كل لحظة تمر على الحي يدب فيه الموت إلى جانب الحياة ، ويأكل منه الموت وتبني فيه الحياة ، خلايا حيّة منه تموت وتذهب ، وخلايا جديدة فيه تنشأ وتعمل ، هكذا دورة دائبة في كل لحظة من لحظات الليل والنهار ، تبرزها هذه الإشارة القرآنية القصيرة للعقل البشري ، ولا يستطيع إنسان أن يدعي أنه هو الذي يصنع من هذا كلّه شيئاً ، ولا يزعم عاقل كذلك أنها تتم هكذا مصادفة بلا تدبير ، وإنما هي حركة خفية هائلة تديرها يدُ القادر المبدع اللطيف المدبر » . ظلال القرآن ٣/ ١٧٠ .

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠) قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)﴾

القلب ، لأنه من نوع مداراة السفهاء كما روي « إنّا لنبش في وجوه أقوامٍ وقلوبنا تلعنهم » ﴿**ويحذِّركم اللهُ نفسه**﴾ أي يخوّفكم الله عقابه الصادر منه تعالى ﴿**وإلى الله المصير**﴾ أي المنقلب والمرجع فيجازي كل عاملٍ بعمله ﴿**قل إن تخْفُوا ما في صدوركم أو تُبْدوه يعلَمْه الله**﴾ أي إن أخفيتم ما في قلوبكم من موالاة الكفار أو أظهرتموه فإن الله مطلع عليه لا تخفى عليه خافية ﴿**ويعلمُ ما في السموات وما في الأرض**﴾ أي عالم بجميع الأمور، يعلم كل ما هو حادث في السموات والأرض ﴿**والله على كل شيء قدير**﴾ أي وهو سبحانه قادر على الانتقام ممن خالف حكمه وعصى أمره ، وهو تهديد عظيم ﴿**يومَ تجد كلّ نفسٍ ما عملتْ من خير مُحْضراً**﴾ أي يوم القيامة يجد كل إنسان جزاء عمله حاضراً لا يغيب عنه ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، فإن كان عمله حسناً سرّه ذلك وأفرحه ﴿**وما عملتْ من سوءٍ تودُّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً**﴾ أي وإن كان عمله سيئاً تمنّى أن لا يرى عمله ، وأحبَّ أن يكون بينه وبين عمله القبيح غايةً في نهاية البعد أي مكاناً بعيداً كما بين المشرق والمغرب ﴿**ويحذركم الله نفسه**﴾ أي يخوفكم عقابه ﴿**والله رءوف بالعباد**﴾ أي رحيم بخلقه يحبّ لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم ﴿**قل إن كنتم تحبو ن الله فاتبعوني يحببكم الله**﴾ أي قل لهم يا محمد إن كنتم حقاً تحبون الله فاتبعوني لأني رسوله يحبكم الله ﴿**ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم**﴾ أي باتباعكم الرسول وطاعتكم لأمره يحبكم الله ويغفر لكم ما سلف من الذنوب قال ابن كثير : « هذه الآية الكريمة حاكمةٌ على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية ، فإنه كاذب في دعواه تلك حتى يتّبع الشرع المحمدي في جميع أقواله وأفعاله »[1] ثم قال تعالى : ﴿**قل أطيعوا الله والرسول**﴾ أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله ﴿**فإن تولّوا**﴾ أي أعرضوا عن الطاعة ﴿**فإن الله لا يحب الكافرين**﴾ أي لا يحب من كفر بآياته وعصى رسله بل يعاقبه ويخزيه ﴿يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه﴾ .

البلاغة : جمعت هذه الآيات الكريمة من ضروب الفصاحة وفنون البلاغة ما يلي :

١ - الطباق في مواضع مثل « تؤتي وتنزع » و « تعز وتذل » و « الليل والنهار » و « الحي والميت » و « تخفوا وتبدوا » وفي « خير وسوء » و « محضراً وبعيداً » .

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٢٢٧

٢ ـ والجناس الناقص في « مالك الملك » وفي « تحبون ويحببكم » وجناس الاشتقاق بين « تتقوا وتقاة » وبين « يغفر وغفور » .

٣ ـ رد العجز على الصدر في ﴿تولج الليل في النهار﴾ ﴿وتولج النهار في الليل﴾ .

٤ ـ التكرار في جمل للتفخيم والتعظيم كقوله ﴿تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء﴾

٥ ـ الإيجاز بالحذف في مواطن عديدة كقوله ﴿تؤتي الملك من تشاء﴾ أي من تشاء أنْ تؤتيه ومثلها وتنزع ، وتعز ، وتذل .

٦ ـ ﴿تولج الليل في النهار﴾ قال في تلخيص البيان : وهذه استعارة عجيبة وهي عبارة عن إدخال هذا على هذا ، وهذا على هذا فما ينقصه من الليل يزيده في النهار والعكس ، ولفظ الإيلاج أبلغ لأنه يفيد إدخال كل واحد منهما في الآخر بلطيف المازجة وشديد الملابسة .

٧ ـ ﴿تخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي﴾ الحيُّ والميت مجاز عن المؤمن والكافر فقد شبه المؤمن بالحي والكافر بالميت[1] والله أعلم .

فَـائِـدَة : في الاقتصار على ذكر الخير ﴿بيدك الخير﴾ دون ذكر الشر تعليمٌ لنا الأدب مع الله فالشر لا ينسب إلى الله تعالى أدباً وإن كان منه خلقاً وتقديراً ﴿قل كلٌ من عند الله﴾ .

تـنبيـه : روى مسلم في صحيحه عن رسول الله ﷺ أنه قال : (إن الله إذا أحبَّ عبداً دعا جبريل فقال : إني أحب فلاناً فأحبَّه قال فيحبُّه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول إن الله يحب فلاناً فأحبوه قال فيحبه أهل السماء ، وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول : إني أبغض فلاناً فأبغضْه قال فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه فيبغضونه ، ثم توضع له البغضاء في الأرض) .

* * *

قال الله تعالى : ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً . . إلى . . وسبّح بالعشيِّ والإبكار﴾
من آية (٣٣) إلى نهاية آية (٤١)

المنَاسَبَة : لما بيّن تعالى أن محبته لا تتم إلا بمتابعة الرسل وطاعتهم ، بيّن علوَّ درجات الرسل وشرف مناصبهم ، فبدأ بآدم أولهم ، وثنّى بنوح أبي البشر الثاني ، ثم أتى ثالثاً بآل إبراهيم فاندرج فيهم رسول الله ﷺ لأنه من ولد إسماعيل ، ثم أتى رابعاً بآل عمران فاندرج فيه عيسى عليه السلام ، وأعقب ذلك بذكر ثلاث قصص : قصة ولادة مريم ، وقصة ولادة يحيى، وقصة ولادة عيسى ، وكلها خوارق للعادة تدل على قدرة العلي القدير .

اللغَـة : ﴿اصطفى﴾ اختار وأصله من الصفوة أي جعلهم صفوة خلقه ﴿محرراً﴾ مأخوذ من

(١) هذا على رأي من فسّر الآية بالوجه الآخر وهو أن المراد يخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، ويدل عليه قوله تعالى ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه﴾ وهو قول الحسن البصري .

الحرية وهو الذي يجُعل حراً خالصاً ، والمراد الخالص لله عز وجل الذي لا يشوبه شيء من أمر الدنيا ﴿أُعيذها﴾ عاذ بكذا : اعتصم به ﴿وكفلها﴾ الكفالة : الضمان يقال كفَلَ يكْفُل فهو كافل ، وهو الذي ينفق على إنسانٍ ويهتم بمصالحه وفي الحديث (أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين) ﴿المحراب﴾ الموضع العالي الشريف ، قال أبو عبيدة : سيد المجالس وأشرفها ومقدمها وكذلك هو من المسجد[1] ﴿حصوراً﴾ من الحصر وهو الحبس ، وهو الذي يحبس نفسه عن الشهوات ، وللمفسرين في معناه قولان نختار منهما ما اختاره المحققون : أنه الذى لا يأتي النساء لا لعجزٍ بل للعفة[2] ﴿عاقر﴾ عقيم لا تلد والعاقر من لا يولد له من رجلٍ أو امرأة ﴿رمزاً﴾ الرمز : الإشارة باليد أو بالرأس أو بغيرهما قال الطبري : الايماء بالشفتين وقد يستعمل في الحاجبين والعينين[3] ﴿العشي﴾ من حين زوال الشمس إلى غروبها ﴿الإبكار﴾ من طلوع الشمس إلى وقت الضحى قال الشاعر :

فلا الظلُّ من برد الضحى تستطيعه ... ولا الفيء من برد العشيّ تذوق

* ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾

التفسير : ﴿إن الله اصطفى آدم﴾ أي اختار للنبوة صفوة خلقه منهم آدم أبو البشر ﴿ونوحاً﴾ شيخ المرسلين ﴿وآل إبراهيم﴾ أي عشيرته وذوي قرباه وهم إسماعيل وإسحاق والأنبياء من أولادهما ومن جملتهم خاتم المرسلين ﴿وآل عمران﴾ أي أهل عمران ومنهم عيسى بن مريم خاتم أنبياء بني إسرائيل ﴿على العالمين﴾ أي عالمي زمانهم قال القرطبي : وخصَّ هؤلاء بالذكر من بين الأنبياء لأن الأنبياء والرسل جميعاً من نسلهم ﴿ذريةً بعضُها من بعض﴾ أي اصطفاهم متجانسين في الدين والتُّقى والصلاح ﴿والله سميع عليم﴾ أي سميع لأقوال العباد عليم بضمائرهم ﴿إذ قالت امرأة عمران﴾ أي اذكر لهم وقت قول امرأة عمران واسمها « حنَّة بنت فاقود » ﴿ربّ إني نذرت لك ما في بطني﴾ أي نذرت لعبادتك وطاعتك ما أحمله في بطني ﴿محرراً﴾ أي مخلصاً للعبادة والخدمة ﴿فتقبل مني إنك أنت السميع العليم﴾ أي السميع لدعائي العليم بنيّتي ﴿فلما وضعتها قالت ربّ إني وضعتها أنثى﴾ أي لمَّا ولدتها قالت على وجه التحسر والاعتذار يا ربّ إنها أنثى قال ابن عباس : إنما قالت هذا لأنه لم يكن يُقبل في النذر إلا الذكور فقبل الله مريم قال تعالى ﴿والله أعلم بما وضعتْ﴾ أي والله أعلم بالشيء الذي وضعت قالت ذلك أولم

(١) البحر المحيط ٢/ ٤٣٣ . (٢) تفسير الفخر الرازي ٨/ ٣٩ . وبنحوه في الطبري والقرطبي . (٣) الطبري ٦/ ٣٨٦ .

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقًا ۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾

تقله ﴿**وليس الذكر كالأنثى**﴾ أي ليس الذكر الذي طَلَبْته كالأنثى التي وُهِبتها بل هذه أفضل والجملتان معترضتان من كلامه تعالى تعظيماً لشأن هذه المولودة وما علّق بها من عظائم الأمور وجعلها وابنها آيةَ للعالمين ﴿**وإني سميتها مريم**﴾ من تتمة كلام امرأة عمران والأصل إني وضعتُها أنثى وإني سميتُها مريم أي أسميت هذه الأنثى مريم ومعناه في لغتهم العابدة خادمة الرب ﴿**وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم**﴾ أي أُجيرها بحفظك وأولادها من شر الشيطان الرجيم ، فاستجاب الله لها ذلك قال تعالى ﴿**فتقبلها ربها بقبول حسن**﴾ أي قبلها الله قبولاً حسناً قال ابن عباس : سلك بها طريق السعداء ﴿**وأنبتها نباتاً حسناً**﴾ أي ربّاها تربية كاملة ونشأها تنشئة صالحة ﴿**وكفَّلها زكريا**﴾ أي جعل زكريا كافلاً لها ومتعهداً للقيام بمصالحها ، حتى إذا بلغت مبلغ النساء انزوت في محرابها تتعبد الله ﴿**كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً**﴾ أي كلما دخل عليها زكريا حجرتها ومكان عبادتها وجد عندها فاكهة وطعاماً ، قال مجاهد : وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف ﴿**قال يا مريم أنى لك هذا**﴾ ؟ أي من أين لك هذا ؟ ﴿**قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب**﴾ أي رزقاً واسعاً بغير جهد ولا تعب ﴿**هنالك دعا زكريا ربه**﴾ أي في ذلك الوقت الذي رأى فيه زكريا كرامة الله لمريم دعا ربّه متوسلاً ومتضرعاً ﴿**قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة**﴾ أي أعطني من عندك ولداً صالحاً ـ وكان شيخاً كبيراً وامرأته عجوزاً وعاقراً ـ ومعنى طيبة صالحةً مباركة ﴿**إنك سميع الدعاء**﴾ أي مجيبٌ لدعاء من ناداك ﴿**فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب**﴾ أي ناداه جبريل حال كون زكريا قائماً في الصلاة ﴿**أن الله يبشرك بيحيى**﴾ أي يبشرك بغلام اسمه يحيى ﴿**مصدقاً بكلمةٍ من الله**﴾ أي مصدقاً بعيسى مؤمناً برسالته ، وسمي عيسى كلمة الله لأنه خلق بكلمة « كن » من غير أب ﴿**وسيداً**﴾ أي يسود قومه ويفوقهم ﴿**وحصوراً**﴾ أي يحبس نفسه عن الشهوات عفةَ وزهداً ولا يقرب النساء مع قدرته على ذلك ، وما قاله بعض المفسرين أنه كان عنّيناً فباطل لا يجوز على الأنبياء لأنه نقصٌ وذم والآية وردت مورد المدح والثناء[1] ﴿**ونبياً من الصالحين**﴾ أي ويكون نبياً من الأنبياء الصالحين قال ابن كثير : وهذه بشارة

---

(١) قال ابن كثير نقلاً عن القاضي عياض « إعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان حصوراً ليس كما قاله بعضهم إنه كان عنيناً أو لا ذَكر له ، بل قد أنكر هذا حذّاق المفسرين وقالوا : هذه نقيصة وعيب ولا يليق بالأنبياء عليهم السلام ، وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب أي لا يأتيها كأنه حصور أو يمنع نفسه من الشهوات ، وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص ، وإنما الفضل في كونها موجودة ثم يمنعها إما بمجاهدة كعيسى أو بكفاية من الله كيحيى عليه السلام » انتهى .

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾

ثانية بنبوته بعد البشارة بولادته وهي أعلى من الأولى كقوله لأم موسى ﴿إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾[1] ﴿قال رب أنّى يكون لي غلام﴾ أي كيف يأتينا الولد ﴿وقد بلغني الكبر﴾ أي أدركتني الشيخوخة وكان عمره حينذاك مائة وعشرين سنة ﴿وامرأتي عاقر﴾ أي عقيم لا تلد وكانت زوجته بنت ثمان وتسعين سنة ، فقد اجتمع فيهما الشيخوخة والعقم في الزوجة وكلٌ من السببين مانع من الولد ﴿قال كذلك الله يفعل ما يشاء﴾ أي لا يعجزه شيء ولا يتعاظمه أمر ﴿قال ربّ اجعل لي آية﴾ أي علامة على حمل امرأتي ﴿قال آيتُك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً﴾ أي علامتك عليه أن لا تقدر على كلام الناس إلا بالإشارة ثلاثة أيام بلياليها مع أنك سويٌّ صحيح والغرض أنه يأتيه مانع سماوي يمنعه من الكلام بغير ذكر الله ﴿واذكر ربك كثيراً﴾ أي اذكر الله ذكراً كثيراً بلسانك شكراً على النعمة ، فقد منع عن الكلام ولم يُمنع عن الذكر لله والتسبيح له وذلك أبلغ في الإعجاز ﴿وسبّح بالعشي والإبكار﴾ أي نزّه الله عن صفات النقص بقولك سبحان الله في آخر النهار وأوله . وقيل : المراد صلّ لله ، قال الطبري : يعني عظّم ربك بعبادته بالعشي والإبكار .

البلاغة : ١ - ﴿والله أعلم بما وضعتْ﴾ ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾ جملتان معترضتان لتعظيم الموضوع ورفع منزلة المولود .

٢ - ﴿وإني أعيذها﴾ صيغة المضارع للدلالة على الاستمرار والتجدد .

٣ - ﴿وأنبتها نباتاً حسناً﴾ شبهها في نموها وترعرعها بالزرع الذي ينمو شيئاً فشيئاً ، والكلام مجاز عن تربيتها بما يصلحها في جميع أحوالها بطريق الاستعارة التبعية .

٤ - ﴿فنادته الملائكة﴾ المنادي جبريل وعبّر عنه باسم الجماعة تعظيماً له لأنه رئيسهم .

٥ - ﴿بالعشي والإبكار﴾ بين كلمتي العشيّ والإبكار طباقٌ وهو من المحسنات البديعية .

الفوائد : الأولى : روي أن « حنَّة » امرأة عمران كانت عجوزاً عاقراً فبينما هي ذات يوم تحت ظل شجرة إذ رأت طائراً يطعم فرخه فحنّت إلى الولد وتمنته وقالت : اللهم إن لك عليَّ نذراً إن رزقتني ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من سدنته ثم هلك عمران وهي حامل وهذا سر النذر[2] .

الثانية : قال ابن كثير عند قوله تعالى ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً﴾ قال :

---

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٢٨١ . (٢) تفسير أبي السعود ١/ ٢٣٠ .

والآية فيها دلالة على كرامات الأولياء ، وفي السنة بهذا نظائر كثيرة وساق بسنده عن جابر قصة الجفنة وخلاصتها أن النبي ﷺ جاع أياماً فدخل على ابنته فاطمة الزهراء يسألها عن الطعام فلم يكن عندها شيء وأرسلت إليها جارتها برغيفين وقطعة لحم فوضعتها في جفنة ثم رأت الجفنة وقد امتلأت لحماً وخبزاً .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك . . إلى . . هذا صراطٌ مستقيم﴾ من آية (٤٢) إلى نهاية آية (٥١)

المناسبة : لمّا ذكر تعالى قصة ولادة « يحيى بن زكريا » من عجوز عاقرٍ وشيخٍ قد بلغ من الكبر عتياً ، وذلك بمقتضى السنن الكونية شيء خارق للعادة ، أعقبها بما هو أبلغ وأروع في خرق العادات ، فذكر قصة ولادة السيد المسيح عيسى من غير أب وهي شيء أعجب من الأول ، والغرضُ من ذكر هذه القصة الردّ على النصارى الذين ادعوا ألوهية عيسى ، فذكر ولادته من مريم البتول ليدل على بشريته ، وأعقبه بذكر ما أيده به من المعجزات ليشير إلى رسالته ، وأنه أحد الرسل الكرام الذين أظهر الله على أيديهم خوارق العادات ، وليس له شيء من أوصاف الربوبية .

اللغة : ﴿أنباء﴾ جمع نبأ وهو الخبر الهام ﴿نوحيه﴾ الوحي : إلقاء المعنى في النفس في خفاء ﴿أقلامهم﴾ القلم معروف وهو الذي يكتب به وقد يطلق على السهم الذي يقترع به وهو المراد هنا ﴿المسيح﴾ لقبٌ من الألقاب المشرّفة كالصدّيق والفاروق وأصله مشيحا بالعبرانية ومعناه المبارك[1] ﴿وجيهاً﴾ شريفاً ذا جاهٍ وقدر ، والوجاهةُ الشرف والقدر ﴿المهد﴾ فراش الطفل ﴿كهلاً﴾ الكهل : ما بين الشاب والشيخ والمرأة كهلة ﴿الأكمه﴾ الذي يولد أعمى ﴿الأبرص﴾ المصاب بالبرص وهو بياض يعتري الجلد وداءٌ عُضال .

وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ

التفسير : ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك﴾ أي اذكر وقت قول الملائكة أي جبريل يا مريم إن الله اختارك من بين سائر النساء فخصَّكِ بالكرامات ﴿وطهّرك﴾ من الأدناس والأقذار ومما اتهمكِ به اليهود من الفاحشة ﴿واصطفاك على نساء العالمين﴾ أي اختارك على سائر نساء العالمين لتكوني مظهر قدرة الله في إنجاب ولد بدون أب ﴿يا مريم اقنتي لربك﴾ أي إلزمي عبادته وطاعته شكراً على اصطفائه ﴿واسجدي واركعي مع الراكعين﴾ أي صلي لله مع المصلين ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه

(١) الكشاف ١/ ٢٧٨ .

أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ

﴿إليك﴾ أي هذا الذي قصصناه عليك من قصة امرأة عمران وابنتها مريم البتول ومن قصة زكريا يحيى إنما هو من الانباء المغيبة والأخبار الهامة التي أوحينا بها إليك يا محمد ما كنت تعلمها من قبل **﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم﴾** أي ما كنت عندهم إذ يختصمون ويتنافسون على كفالة مريم حين ألقوا سهامهم للقرعة كلٌ يريدها في كنفه ورعايته **﴿وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾** أي يتنازعون فيمن يكفلها منهم ، والغرض أن هذه الأخبار كانت وحياً من عند الله العليم الخبير . . روي أن حنّة حين ولدتها لفَّتها في خرقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأحبار وهم في بيت المقدس كالحجبة في الكعبة فقالت لهم : دونكم هذه النذيرة ،فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم ثم اقترعوا فخرجت في كفالة زكريا فكفلها[1] قال ابن كثير : وإنما قدّر الله كون زكريا كافلاً لها لسعادتها لتقتبس منه علماً جماً وعملاً صالحاً **﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه﴾** أي بمولودٍ يحصل بكلمة من الله بلا واسطة أب **﴿اسمه المسيح عيسى ابن مريم﴾** أي اسمه عيسى ولقبه المسيح ، ونسبَه إلى أمه تنبيهاً على أنها تلده بلا أب **﴿وجيهاً في الدنيا والآخرة﴾** أي سيداً ومعظماً فيهما **﴿ومن المقربين﴾** عند الله **﴿ويكلم الناس في المهد وكهلاً﴾** أي طفلاً قبل وقت الكلام ويكلمهم كهلاً قال الزمخشري « ومعناه يكلم الناس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء من غير تفاوتٍ بين حال الطفولة وحال الكهولة»[2] ولا شك أن ذلك غاية في الاعجاز **﴿ومن الصالحين﴾** أي وهو من الكاملين في التقى والصلاح **﴿قالت رب أنّى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر﴾** أي كيف يأتيني الولد وأنا لست بذات زوج ؟ **﴿قال كذلك الله يخلق ما يشاء﴾** أي هكذا أمر الله عظيم لا يعجزه شيء يخلق بسببٍ من الوالدين وبغير سبب **﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾** أي إذا أراد شيئاً حصل من غير تأخرٍ ولا حاجةٍ إلى سبب، يقول له كن فيكون **﴿ويعلمه الكتاب﴾** أي الكتابة **﴿والحكمة﴾** أي السداد في القول والعمل أو سنن الأنبياء **﴿والتوراة والإنجيل﴾** أي ويجعله يحفظ التوراة والإنجيل قال ابن كثير : وقد كان عيسى يحفظ هذا وهذا **﴿ورسولاً إلى بني إسرائيل﴾** أي ويرسله رسولاً إلى بني إسرائيل قائلاً لهم **﴿أنّي قد جئتكم بآيةٍ من ربكم﴾** أي بأني قد جئتكم بعلامةٍ تدل على صدقي وهي ما أيدني الله به من المعجزات ، وآيةُ صدقي **﴿أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير﴾** أي

(١) الطبري ٦/ ٣٥١ . (٢) الكشاف ١/ ٢٧٨ .

﴿ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

أصوّر لكم من الطين مثل صورة الطير ﴿فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله﴾ أي أنفخ في تلك الصورة فتصبح طيراً بإذن الله. قال ابن كثير: وكذلك كان يفعل، يصوّر من الطين شكل طير ثم ينفخ فيه فيطير عياناً بإذن الله عز وجل الذي جعل هذا معجزة له تدل على أنه أرسله[1]، وهذه المعجزة الأولى ﴿وأبرىء الأكمه والأبرص﴾ أي أشفي الذي ولد أعمى كما أشفي المصاب بالبرص، وهذه المعجزة الثانية ﴿وأحيي الموتى بإذن الله﴾ أي أحيي بعض الموتى لا بقدرتي ولكن بمشيئة الله وقدرته، وقد أحيا أربعة أنفس: عازر وكان صديقاً له، وابن العجوز، وبنت العاشر، وسام بن نوح هكذا ذكر القرطبي وغيره، وكرر لفظ «بإذن الله» دفعاً لتوهم الألوهية، وهذه المعجزة الثالثة ﴿وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم﴾ أي وأخبركم بالمغيبات من أحوالكم التي لا تشكّون فيها فكان يخبر الشخص بما أكل وما ادخر في بيته وهذه هي المعجزة الرابعة ﴿إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾ أي فيما أتيتكم به من المعجزات علامة واضحة تدل على صدقي إن كنتم مصدّقين بآيات الله، ثم أخبرهم أنه جاء مؤيداً لرسالة موسى فقال ﴿ومصدقاً لما بين يَديَّ من التوراة﴾ أي وجئتكم مصدقاً لرسالة موسى، مؤيداً لما جاء به في التوراة ﴿ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾ أي ولأحلّ لكم بعض ما كان محرماً عليكم في شريعة موسى قال ابن كثير: وفيه دليل على أن عيسى نسخ بعض شريعة التوراة وهو الصحيح ﴿وجئتكم بآية من ربكم﴾ أي جئتكم بعلامة شاهدة على صحة رسالتي وهي ما أيدني الله به من المعجزات وكرّر تأكيداً ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ أي خافوا الله وأطيعوا أمري ﴿إن الله ربي وربكم فاعبدوه﴾ أي أنا وأنتم سواء في العبودية له جلَّ وعلا ﴿هذا صراط مستقيم﴾ أي فإن تقوى الله وعبادته، والإقرار بوحدانيته هو الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه.

البَلاَغَة: ١ - ﴿وإذ قالت الملائكة﴾ أُطلق الملائكة وأريد به جبريل فهو من باب تسمية الخاص باسم العام تعظيماً له ويسمى المجاز المرسل.

٢ - ﴿اصطفاك وطهرك واصطفاك﴾ تكرر لفظ اصطفاك كما تكرر لفظ «مريم» وهذا من باب الإطناب.

٣ - ﴿ولم يمسسني بشر﴾ كنّى عن الجماع بالمسّ كما كنّى عنه بالحرث واللباس والمباشرة.

٤ - ﴿ولأُحلَّ لكم بعض الذي حُرِّم﴾ بين لفظ ﴿أُحل﴾ و﴿حُرِّم﴾ من المحسنات البديعية الطباقُ،

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٢٨٤.

كما ورد الحذف في عدة مواضع والإطناب في عدة مواضع ، وهناك نواحٍ بلاغية أخرى ضربنا عنها صفحاً خشية الإطالة .

فـائـدة : جاء التعبير هنا بقوله ﴿كذلك الله يخلق ما يشاء﴾ وفي قصة يحيى ﴿كذلك الله يفعل ما يشاء﴾ والسرُّ في ذلك هو أن خلق عيسى من غير أب إيجاد واختراع من غير سببٍ عادي فناسبه ذكر الخلق ، وهناك الزوجة والزوج موجودان ولكن وجود الشيخوخة والعقم مانعٌ في العادة من وجود الولد فناسبه ذكر الفعل والله أعلم .

تـنبيـه : قال بعض العلماء : الحكمة في أنَّ الله لم يذكر في القرآن امرأة باسمها إلا « مريم » هي الإشارة من طرفٍ خفي إلى ردّ ما قاله النصارى من أنها زوجته فإن العظيم يأنف من ذكر اسم زوجته بين الناس ولينسب إليها عيسى باعتبار عدم وجود أبٍ له ولهذا قال في الآية ﴿ اسمه المسيح عيسى بن مريم ﴾[1]

* * *

قال الله تعالى : ﴿فلما أحسّ عيسى منهم الكفر . . إلى . . فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين﴾ من آية (٥٢) إلى نهاية آية (٦٣)

المناسبة : لا تزال الآيات تتحدث عن قصة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، وقد ذكر تعالى في الآيات السابقة بشارة مريم بالسيد المسيح ، ثم أعقبها بذكر معجزاته وكلها براهين ساطعة تدل على نبوته عليه السلام ، ومع كل البراهين والمعجزات التي أيده الله بها فإنَّ الكثيرين من بني إسرائيل لم يؤمنوا به وقد عزم أعداء الله « اليهود » على قتله فنجّاه الله من شرهم ورفعه إلى السماء .

اللغـة : ﴿أحس﴾ عرف وتحقق وأصله من الإحساس وهو الإدراك ببعض الحواس الخمس ﴿الحواريون﴾ جمع حواري وهو صفوة الرجل وخاصته ومنه قيل للحضريات حواريات لخلوص ألوانهن وبياضهن قال الشاعر :

فقـلْ للحـواريات يَبْـكينَ غيرنا ولا تَبْكنـا إلا الـكلابُ النوابحُ

والحواريون أتباع عيسى كالصحابة لرسول الله ﷺ سمّوا حواريين لصفاء قلوبهم ونقاء سرائرهم ﴿مكروا﴾ المكر : الخداع وأصله السعي بالفساد في خفية قال الزجاج : يقال مكر الليل وأمكر إذا أظلم ، ومكرُ الله استدراجه لعباده من حيث لا يعلمون حكي عن الفراء وغيره ﴿نبتهل﴾ نتضرع في الدعاء ، وأصل الابتهال : الاجتهاد في الدعاء باللعن ، والبهلةُ اللعنة .

سَبَبُ النّزول : لما قدم وفد نصارى نجران ، وجادلوا رسول الله ﷺ في أمر عيسى ، قالوا للرسول ﷺ : مالك تشتم صاحبنا ؟ قال : وما أقول ؟ قالوا : تقول إنه عبد قال : أجل إنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول ، فغضبوا وقالوا : هل رأيت إنساناً قط من غير أب ؟ فإن كنت صادقاً فأرنا مثله فأنزل الله ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم﴾ الآية وروي أنه عليه السلام لما دعاهم إلى

(١) انظر الجزء الأول من حاشية الصاوي على الجلالين .

الإسلام قالوا : قد كنا مسلمين قبلك ، فقال : كذبتم يمنعكم من الإسلام ثلاث : قولكم اتخذ الله ولداً ، وأكلكم الخنزير ، وسجودكم للصليب فقالوا : فمن أبوه فأنزل الله ﴿إن مثل عيسى .. إلى قوله ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ فدعاهم النبي ﷺ إلى المباهلة ، فقال بعضهم لبعض : إن فعلتم اضطرم الوادي عليكم ناراً فقالوا أما تعرض علينا سوى هذا ؟ فقال : الإسلام أو الجزية أو الحرب فأقروا بالجزية [١] .

* ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ

التفسير : ﴿فلمّا أحسّ عيسى منهم الكفر﴾ أي استشعر من اليهود التصميم على الكفر والاستمرار على الضلال وإرادتهم قتله ﴿قال من أنصاري إلى الله﴾ أي من أنصاري في الدعوة إلى الله قال مجاهد : أي من يتبعني إلى الله ﴿قال الحواريون نحن أنصار الله﴾ أي قال المؤمنون الأصفياء من أتباعه نحن أنصار دين الله ﴿آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون﴾ أي صدقنا بالله وبما جئتنا به واشهد بأننا منقادون لرسالتك مخلصون في نصرتك ﴿ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين﴾ أي آمنا بآياتك واتبعنا رسولك عيسى فاكتبنا مع من شهد لك بالوحدانية ولرسولك بالصدق ، ثم أخبر تعالى عن اليهود المتآمرين الذين أرادوا قتل عيسى فقال ﴿ومكروا ومكر الله﴾ أي أرادوا قتله فنجّاه الله من شرهم ورفعه إلى السماء دون أن يمسّ بأذى وألقى شبهه على ذلك الخائن «يهوذا» وسمّي مكراً من باب المشاكلة[٢] ولهذا قال ﴿والله خير الماكرين﴾ أي أقواهم مكراً بحيث جعل تدميرهم في تدبيرهم وفي الحديث (اللهمَّ امكرْ لي ولا تمكر عليَّ) ﴿إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليَّ﴾ أي إني رافعك إلى السماء ثم مميتك بعد استيفائك كامل أجلك والمقصود بشارته بنجاته من اليهود ورفعه إلى السماء سالماً دون أذى قال قتادة : هذا من المقدم والمؤخر تقديره إني رافعك إليَّ ثم متوفيك بعد ذلك ، وقد ذكره الطبري فقال : وقال آخرون معنى ذلك : إذ قال الله يا عيسى إني رافعك إليَّ ومطهرك من الذين كفروا ، ومتوفيك بعد إنزالي إيّاك إلى الدنيا[٣] ﴿ومطهرك من الذين كفروا﴾ أي مخلصك من شر الأشرار الذين أرادوا قتلك قال

(١) القرطبي ٤/ ١٠٣ وأسباب النزول للواحدي ص ٥٨ . (٢) المشاكلة : الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى وقد تقدم .
(٣) الطبري ٦/ ٤٥٨ وأما قول بعض المفسرين انه توفي ثلاث ساعات من نهار ثم رفع وقول بعضهم المراد بالوفاة وفاة النوم فضعيف فقد ردّه المحققون قال القرطبي : « والصحيح أن الله تعالى رفعه إلى السماء من غير وفاة ولا نوم كما قال الحسن وابن زيد وهو اختيار الطبري وهو الصحيح عن ابن عباس » .

كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَٰتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌۢ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾

الحسن : طهّره من اليهود والنصارى والمجوس ومن كفار قومه ﴿وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾ أي جاعل أتباعك الذين آمنوا بك فوق الذين جحدوا نبوتك ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة وقال في تفسير الجلالين : ﴿الذين اتبعوك﴾ أي صدقوا بنبوتك من المسلمين والنصارى ﴿فوق الذين كفروا﴾ وهم اليهود يعلونهم بالحجة والسيف ﴿ثم إليَّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾ أي ثم مصيركم إلى الله فأقضي بين جميعكم بالحق فيما كنتم تختلفون فيه من أمر عيسى ﴿فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة﴾ أي أما الكافرون بنبوتك المخالفون لملتك فإني معذبهم عذاباً شديداً في الدنيا بالقتل والسبي ، وبالآخرة بنار جهنم ﴿وما لهم من ناصرين﴾ أي ليس لهم ناصر يمنع عنهم عذاب الله ﴿وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم﴾ أي وأما المؤمنون فيعطيهم جزاء أعمالهم الصالحة كاملةً غير منقوصة ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ أي لا يحب من كان ظالماً فكيف يظلم عباده ؟ ﴿ذلك نتلوه عليك﴾ أي هذه الأنباء التي نقصها عليك يا محمد ﴿من الآيات والذكر الحكيم﴾ أي من آيات القرآن الكريم المحكم ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم﴾ أي إن شأن عيسى إذ خلقه بلا أب - وهو في بابه غريب - كشأن آدم ﴿خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ أي خلقَ آدم من غير أب ولا أم ثم قال له كن فكان ، فليس أمر عيسى بأعجب من أمر آدم ﴿الحق من ربك فلا تكن من الممترين﴾ أي هذا هو القول الحق في عيسى فلا تكن من الشاكين ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم﴾ أي من جادلك في أمر عيسى بعدما وضح لك الحق واستبان ﴿فقل تَعالَوْا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم﴾ أي هلمّوا نجتمع ويدعو كل منا ومنكم أبناءه ونساءه ونفسه إلى المباهلة وفي صحيح مسلم لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله ﷺ فاطمة وحسناً وحُسيناً فقال : اللهم هؤلاء أهلي ﴿ثم نبتهلْ فنجعلْ لعنة الله على الكاذبين﴾ أي نتضرع إلى الله فنقول : اللهم العنْ الكاذب منا في شأن عيسى ، فلما دعاهم إلى المباهلة امتنعوا وقبلوا بالجزية عن ابن عباس أنه قال « لو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً » قال أبو

حيان : « وفي ترك النصارى الملاعنة لعلمهم بصدقه شاهد عظيم على صحة نبوته »[1] ثم قال تعالى ﴿إن هذا لهو القصص الحق﴾ أي هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى هو الحق الذي لا شك فيه ﴿وما من إله إلا الله﴾ أي لا يوجد إله غير الله ، وفيه ردٌّ على النصارى في قولهم بالتثليث ﴿وإن الله لهو العزيز الحكيم﴾ أي هو جل شأنه العزيز في ملكه الحكيم في صنعه ﴿فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين﴾ أي إن أعرضوا عن الإقرار بالتوحيد فإنهم مفسدون والله عليم بهم وسيجازيهم على ذلك شر الجزاء .

البلاغة : ١ - ﴿فلما أحسَّ﴾ قال أبو حيان : فيها استعارة إذ الكفر ليس بمحسوس وإنما يُعلم ويفطن به فإطلاق الحسّ عليه من نوع الاستعارة .

٢ - ﴿والله خير الماكرين﴾ بين لفظ مكروا والماكرين جناس الاشتقاق وهو من باب المشاكلة .

٣ - ﴿فيوفيهم أجورهم﴾ فيه التفات من ضمير التكلم إلى ضمير الغيبة للتنوع في الفصاحة .

٤ - ﴿الحق من ربك﴾ التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى الرسول لتشريفه عليه الصلاة والسلام .

٥ - ﴿فلا تكن من الممترين﴾ هو من باب الإلهاب والتهييج لزيادة التثبيت أفاده أبو السعود .

لطيفة : قال صاحب البحر المحيط : سأل رجل الجنيد فقال : كيف رضي الله سبحانه لنفسه المكر وقد عاب به غيره ، فقال : لا أدري ما تقول ولكن أنشدني فلان الظهراني :

ويقبح من سواك الفعل عندي ... فتفعله فيحسن منك ذاكا

ثم قال له : قد أجبتك إن كنت تعقل[2] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء . . إلى . . والله ذو الفضل العظيم﴾ من آية (٦٤) إلى نهاية آية (٧٤)

المناسبة : لما أقام القرآن الحجة على النصارى وأبطل دعواهم في شأن ألوهية المسيح ، دعا الفريقين « اليهود والنصارى » إلى التوحيد ، والاقتداء بأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام ، إذ كانت ملته الحنيفية السمحة وهي ملة الإسلام ، ولم يكن يهودياً ولا نصرانياً كما زعم كل من الفريقين ، ثم بيّن أن أحق الناس بالانتساب إلى إبراهيم محمد ﷺ وأمته .

اللغة : ﴿سواء﴾ السَّواء : العدل والنَّصف قال أبو عبيدة : يقال قد دعاك إلى السَّواء فاقبل منه قال زهير :

أروني خطةً لا ضيم فيها ... يُسوّى بيننا فيها السَّواء

(١) البحر المحيط ٢/ ٤٨٠ . (٢) البحر المحيط ٢/ ٤٧٢ .

﴿أولى﴾ أحقُّ ﴿ودّت﴾ تمنت ﴿تلبسون﴾ اللَّبْس : الخلط يقال : لَبس الأمرُ عليه إذا اشتبه واختلط ﴿وجه النهار﴾ أوله سمّي وجهاً لأن أول ما يواجه من النهار أوله قال الشاعر :

من كـانَ مسروراً بمقتل مالك فليأْتِ نِسوتنا بوجهِ نهار[١]

سَبَبُ النّزول : روي عن ابن عباس أن أحبار اليهود ونصارى نجران اجتمعوا عند رسول الله ﷺ فتنازعوا في إبراهيم فقالت اليهود : ما كان إلا يهودياً ، وقالت النصارى : ما كان إلا نصرانياً فأنزل الله ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً﴾ الآية[٢] .

قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ

التفسِير : ﴿قـل يا أهـل الكتاب تعالَوْا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننـا وبينكم﴾ أي قل لهم يا معشر اليهود والنصارى هلموا إلى كلمة عادلة مستقيمة فيها إنصاف من بعضنا لبعض ﴿ألا نعبد إلا الله ولا نشـرك به شيئـاً﴾ أي أن نفرد الله وحده بالعبادة ولا نجعل له شريكاً ﴿ولا يتخذ بعضُنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾ أي لا يعبد بعضنا بعضاً كما عبد اليهود والنصارى عزيراً وعيسى ، وأطاعوا الأحبار والرهبان فيما أحلوا لهم وحرّموا ، روي أن الآية لّما نزلت قال عدي بن حاتم ما كنا نعبدهم يا رسول الله ، فقال ﷺ أما كانوا يحلّون لكم ويحرّمون فتأخذون بقولهم ؟ فقال : نعم فقال النبي ﷺ هو ذاك ﴿فإن تولّوا فقـولوا اشهدوا بأنّا مسلمـون﴾ أي فإن أعرضوا عن التوحيد ورفضوا قبول تلك الدعوة العادلة فقولوا أنتم اشهدوا يا معشر أهل الكتاب بأننا موحّدون مسلمون ، مقرّون لله بالوحدانية مخلصون له العبـادة ﴿يا أهـل الكتاب لم تحاجـون في إبراهيـم﴾ أي يا معشر اليهود والنصارى لم تجادلون وتنازعون في إبراهيم وتزعمون أنه على دينكم ﴿وما أُنزلـت التوراة والإنجيل إلا من بعـده﴾ أي والحال أنه ماحدثت هذه الأديان إلا من بعده بقرونٍ كثيرة فكيف يكون من أهلها ؟ ﴿أفـلا تعقـلون﴾ بطلان قولكم ؟ فقد كان بين إبراهيم وموسى ألف سنة ، وبين موسى وعيسى ألفا سنة فكيف يقول بذلك عاقل ؟ والاستفهـام للتوبيخ ﴿ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علـم﴾ أي ها أنتم يا معشر اليهود والنصارى جادلتم وخاصمتم في شأن عيسى وقد عشتم زمانه فزعمتم ما زعمتموه ﴿فلم تحاجّون فيما ليـس لكم به علـم﴾ أي فلم تخاصمون وتجادلون في شأن إبراهيم ودينه وتنسبونه إلى اليهودية أو النصرانية بدون علم ؟ أفليست هذه سفاهة وحماقة ؟ ﴿والله يعلم وأنتـم لا تعلمـون﴾ أي والله يعلم الحقَّ من أمر إبراهيم وأنتم لا تعلمون ذلك ، قال أبو حيان : « وهذا استدعاء لهم أن يسمعوا كما تقـول لمن تخبره بشيء لا يعلمه : اسمع فإني أعلم مالا تعلم »[٣] ثم أكذبهم الله تعالى

---

(١) مجاز القرآن لأبي عبيدة ص ٩٧ . (٢) مجمع البيان ٢/ ٤٥٦ . (٣) البحر المحيط ٢/ ٤٨٦ .

فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾

في دعوى إبراهيم فقال ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً﴾ أي ما كان إبراهيم على دين اليهودية ولا على دين النصرانية ، فإن اليهودية ملة محرّفة عن شرع موسى ،وكذلك النصرانية ملة محرفة عن شرع عيسى ﴿ولكن كان حنيفاً مسلماً﴾ أي مائلاً عن الأديان كلها إلى الدين القيّم ﴿وما كان من المشركين﴾ أي كان مسلماً ولم يكن مشركاً ، وفيه تعريض بأنهم مشركون في قولهم عزير بن الله ، والمسيح بن الله ، وردٌّ لدعوى المشركين أنهم على ملة إبراهيم ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه﴾ أي أحق الناس بالانتساب إلى إبراهيم أتباعه الذين سلكوا طريقه ومنهاجه في عصره وبعده ﴿وهذا النبي﴾ أي محمد ﷺ ﴿والذين آمنوا﴾ أي المؤمنون من أمة محمد فهم الجديرون بأن يقولوا نحن على دينه لا أنتم ﴿والله وليُّ المؤمنين﴾ أي حافظهم وناصرهم . . ولما دعا اليهود بعض الصحابة إلى اليهودية نزل قوله ﴿ودَّت طائفةٌ من أهل الكتاب لو يضلونكم﴾ أي تمنَّوا إضلالكم بالرجوع إلى دينهم حسداً وبغياً ﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾ أي لا يعود وبال ذلك إلا عليهم إذ يُضاعف به عذابهم ﴿وما يشعرون﴾ أي ما يفطنون لذلك ، ثم وبّخهم القرآن على فعلهم القبيح فقال ﴿يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله﴾ أي بالقرآن المنزل على محمد ﷺ ﴿وأنتم تشهدون﴾ أي تعلمون أنه حق ﴿يا أهل الكتاب لم تَلْبِسون الحقَّ بالباطل﴾ أي لم تخلطون بين الحق والباطل بإلقاء الشُّبَه والتحريف والتبديل ؟ ﴿وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾ أي تكتمون ما في كتبكم من صفة محمد ﷺ وأنتم تعلمون ذلك ، ثم حكى تعالى نوعاً آخر من مكرهم وخبثهم ، وهو أن يظهروا الإسلام في أول النهار ثم يرتدوا عنه في آخره ليشككوا الناس في دين الإسلام فقال ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أُنزل على الذين آمنوا وجه النهار﴾ قال ابن كثير : وهذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم ، وهو أنهم تشاوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ويصلّوا مع المسلمين فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصةٍ وعيبٍ في دين المسلمين[1] ﴿واكفروا آخره﴾ أي اكفروا بالإسلام

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٢٩١ .

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

آخر النهار ﴿لعلهم يرجعون﴾ أي لعلهم يشكّون في دينهم فيرجعون عنه ﴿ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم﴾ هذا من تتمة كلام اليهود حكاه الله عنهم والمعنى : لا تصدقوا ولا تظهروا سرّكم وتطمئنوا لأحدٍ إلا إذا كان على دينكم ﴿قل إن الهدى هدى الله﴾ أي قل لهم يا محمد الهدى ليس بأيديكم وإنما الهدى هدى الله ، يهدي من يشاء إلى الإيمان ويثبته عليه كما هدى المؤمنين ، والجملة اعتراضية ، ثم ذكر تعالى بعد ذلك الاعتراض بقية كلام اليهود فقال ﴿أن يُؤتى أحدٌ مثل ما أُوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم﴾ أي يقول اليهود بعضهم لبعض : لا تصدّقوا إلا لمن تبع دينكم ، وانظروا فيمن ادعى النبوة فإن كان متبعاً لدينكم فصدقوه وإلا فكذبوه ، ولا تقروا ولا تعترفوا لأحدٍ بالنبوة إلا إذا كان على دينكم ، خشية أن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم وخشية أن يحاجوكم به عند ربكم ، فإذا أقررتم بنبوة محمد ولم تدخلوا في دينه تكون له الحجة عليكم يوم القيامة ، وغرضهم نفي النبوة عن رسول الله ﷺ ﴿قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء﴾ أي قل لهم يا محمد أمر النبوة ليس إليكم وإنما هو بيد الله والفضل والخير كله بيد الله يؤتيه من يشاء ﴿والله واسع عليم﴾ أي كثير العطاء واسع الإنعام يعلم من هو أهل له ﴿يختص برحمته من يشاء﴾ أي يختص بالنبوة من شاء ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ أي فضله واسع عظيم لا يُحدُّ ولا يُمنع .

البَلاَغَة : جمعت هذه الآيات من ضروب الفصاحة والبلاغة ما يأتي : المجازُ في قوله ﴿إلى كلمة﴾ حيث أطلق اسم الواحد على الجمع ، والتشبيهُ في قوله ﴿أرباباً﴾ حيث شبّه طاعتهم لرؤساء الدين في أمر التحليل بالربّ المستحق للعبادة ، والطباقُ في قوله ﴿الحق بالباطل﴾ والجناس التام في قوله ﴿يُضلونكم وما يُضلون﴾ وجناس الاشتقاق في ﴿أولى﴾ و﴿وليّ﴾ والتكرار في عدة مواطن ، والحذف في عدة مواطن[1] .

فَائِدَة : كتب رسول الله ﷺ كتاباً إلى « هرقل » ملك الروم يدعوه فيه إلى الإسلام واستشهد فيه بالآية الكريمة التي فيها إخلاص الدعوة لعبادة الله وحده ، ونصُّ الكتاب كما هو في صحيح مسلم « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلامٌ على من اتّبع الهدى أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلمْ تسْلَم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين - يعني الفلاحين والخدم - و﴿يا أهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾[2] .

(١) نقلاً عن البحر المحيط . (٢) انظر صحيح البخاري ومسلم .

قال الله تعالى : ﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك . . إلى . . بعد إذ أنتم مسلمون﴾ من آية (٧٥) إلى نهاية آية (٨٠)

المناسبة : لما حكى تعالى قبائح أهل الكتاب ، وما هم عليه من الخبث والكيد والمكر ، أعقبه بذكر بعض أوصاف اليهود خاصة وهي خيانتهم من الناحيتين : المالية والدينية ، فقد خانوا الله والناس بتحريفهم كلام الله عن معناه ، واستحلالهم أكل أموال الناس بالباطل .

اللغة : ﴿قنطار﴾ القنطار المالُ الكثير وقد تقدم ﴿قائماً﴾ ملازماً ومداوماً على مطالبته ﴿الأميّين﴾ المراد بهم العرب وأصلُ الأميّ الذي لا يقرأ ولا يكتب والعربُ كانوا كذلك ﴿يلوون﴾ من الليّ وهو اللّف والفتل تقول : لويتُ يده إذا فتلتها والمراد أنهم يفتلون ألسنتهم ليميلوها عن الآيات المنزلة إلى العبارات المحرّفة ﴿لا خلاق﴾ أي لا نصيب لهم من رحمة الله ﴿ربانيّين﴾ جمع رباني وهو المنسوب إلى الربّ قال الطبري معناه : كونوا حكماء علماء[1] .

سبب النزول : عن الأشعث بن قيس قال : كان بيني وبين رجلٍ من اليهود أرض فجحدني فقدمته إلى النبي ﷺ فقال لي رسول الله ﷺ هل لك بيّنة ؟ قلت : لا ، قال لليهودي : احلفْ قلت : إذاً يحلف فيذهب بما لي فأنزل الله ﴿إن الذين يشترون بعهد الله . .﴾[2] الآية .

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ

التفسير : ﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك﴾ أي من اليهود من إذا ائتمنته على المال الكثير أدّاه إليك لأمانته كعبد الله بن سلام أودعه قرشي ألف أوقية ذهباً فأداها إليه ﴿ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك﴾ أي ومنهم من لا يؤتمن على دينار لخيانته كفنحاص بن عازوراء ائتمنه قرشي على دينار فجحده ﴿إلا ما دمت عليه قائماً﴾ أي إلا إذا كنت ملازماً له ومُشهداً عليه ﴿ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميّين سبيل﴾ أي إنما حملهم على الخيانة زعمهم أن الله أباح لهم أموال الأميين - يعني العرب - روي أن اليهود قالوا ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ والخلق لنا عبيد ، فلا سبيل لأحدٍ علينا إذا أكلنا أموال عبيدنا ، وقيل إنهم قالوا إن الله أباح لنا مال من خالف ديننا ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ أي يكذبون على الله بادعائهم ذلك وهم يعلمون أنهم كاذبون مفترون ، روي أنهم لما قالوا ﴿ليس علينا في الأميين سبيل﴾ قال نبي الله ﷺ : كذب أعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية إلا هو تحت

(١) الطبري ٦/ ٥٤٠ . (٢) القرطبي ٤/ ١٢٠ .

لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

قدميَّ هاتين إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البرّ والفاجر[1] ، ثم قال تعالى ﴿**بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين**﴾ أي ليس كما زعموا بل عليهم فيه إثم لكنْ من أدّى الأمانة منهم وآمن بمحمد ﷺ واتقى الله واجتنب محارمه فإن الله يحبه ويكرمه ﴿**إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً**﴾ أي يستبدلون بالعهد الذي عاهدوا عليه من التصديق بمحمد وبأيمانهم الكاذبة حطام الدنيا وعرضها الخسيس الزائل ﴿**أولئك لا خلاق لهم في الآخرة**﴾ أي ليس لهم حظ ولا نصيب من رحمة الله تعالى ﴿**ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة**﴾ أي لا يكلمهم كلام أنسٍ ولطف، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة يوم القيامة ﴿**ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم**﴾ أي لا يطهرهم من أوضار الأوزار ، ولهم عذاب مؤلم على ما ارتكبوه من المعاصي ﴿**وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب**﴾ أي وإن من اليهود طائفة يفتلون ألسنتهم في حال قراءة الكتاب لتحريف معانيه وتبديل كلام الله عن المراد منه قال ابن عباس : يحرفونه بتأويله على غير مراد الله ﴿**لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب**﴾ أي لتظنوا أن هذا المحرّف من كلام الله وما هو إلا تضليل وبهتان ﴿**ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله**﴾ أي ينسبونه إلى الله وهو كذبٌ على الله ﴿**وهم يعلمون**﴾ أنهم كذبوا وافتروا على الله ، ثم قال تعالى رداً على النصارى لما زعموا أن عيسى أمرهم أن يعبدوه ﴿**ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة**﴾ أي لا يصح ولا ينبغي لأحدٍ من البشر أعطاه الله الكتاب والحكمة والنبوة ﴿**ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله**﴾ أي ثم يقول للناس اعبدوني من دون الله ، والنفيُ في مثل هذه الصيغة ﴿**ما كان**﴾ إنما يؤتى به للنفي العام الذي لا يجوز عقلاً ثبوتُه والغرض أنه لا يصح أصلاً ولا يتصور عقلاً صدور دعوى الألوهية من نبي قط أعطاه الله النبوة والشريعة فضلاً عن أن يحصل ذلك بالفعل لأن الرسول سفير بين الله وخلقه ليرشد الناس إلى عبادة الله فكيف يدعوهم إلى عبادة نفسه ؟ ﴿**ولكن كونوا ربانيين**﴾ أي ولكن يقول لهم كونوا ربانيّين قال ابن عباس : حكماء علماء حلماء والمعنى : لا أدعوكم إلى أن تكونوا عباداً لي ولكن أدعوكم أن تكونوا علماء فقهاء مطيعين لله ﴿**بما كنتم تعلّمون الناس الكتاب وبما كنتم تدرسون**﴾ أي بتعليمكم الناس الكتاب ودراستكم إيّاه ﴿**ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيّين أرباباً**﴾ أي وما كان له أن يأمركم بعبادة غير الله ـ

(١) القرطبي ٤/ ١١٩

ملائكة أو أنبياء - لأنَّ مهمة الرسل الدعوة إلى الله وإخلاص العبادة له ﴿أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾ أي أيأمركم نبيكم بالكفر وجحود وحدانية الله ، بعد أن أسلمتم ودخلتم في دين الله ؟ والاستفهام إنكاري تعجبي .

البَــلاَغَــة : ١ - ﴿ذلك بأنهم قالوا﴾ الإشارة بالبعيد للإيذان بكمال غلوهم في الشر والفساد .

٢ - ﴿ليس علينا في الأميين سبيلٌ﴾ فيه إيجاز بالحذف أي ليس علينا في أكل أموال الأميين سبيل .

٣ - ﴿يشترون بعهد الله﴾ فيه استعارة فقد استعار لفظ الشراء للاستبدال .

٤ - ﴿ولا يكلمهم الله﴾ مجاز عن شدة غضبه وسخطه تعالى عليهم وكذلك في الآتي بعدها .

٥ - ﴿ولا ينظر إليهم﴾ قال الزمخشري : مجاز عن الاستهانة بهم والسخط عليهم لأن من اعتد بإنسانٍ التفت إليه وأعاره نظر عينيه .

٦ - بين لفظ ﴿اتقى﴾ و﴿المتقين﴾ جناس الاشتقاق وبين لفظ ﴿الكفر﴾ و﴿مسلمون﴾ طباقٌ .

فَـائِـدَة : روي أ أن رجلاً قال لابن عباس : « إنّا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة ، قال ابن عباس : فماذا تقولون ؟ قالوا نقول ليس علينا بذلك بأس ، قال : هذا كما قال أهل الكتاب ﴿ليس علينا في الأميين سبيل﴾ إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم » ذكره ابن كثير .

* * *

قال تعالى : ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة . . . إلى وما لهم من ناصرين﴾ من آية (٨١) إلى نهاية آية (٩٠)

المَنَاسَبَة : لمّا ذكر تعالى خيانة أهل الكتاب بتحريفهم كلام الله عن مواضعه ، وتغييرهم أوصاف رسول الله ﷺ الموجودة في كتبهم حتى لا يؤمنوا به ، ذكر تعالى هنا ما تقوم به الحجة عليهم وهو أن الله قد أخذ الميثاق على أنبيائهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ إن أدركوا حياته ، وأن يكونوا من أتباعه وأنصاره ، فإذا كان الأنبياء قد أخذ عليهم العهد أن يؤمنوا به ويبشروا بمبعثه فكيف يصح من أتباعهم التكذيب برسالته ؟ ثم ذكر تعالى أن الإيمان بجميع الرسل شرط لصحة الإيمان وبيّن أن الإسلام هو الدين الحق الذي لا يقبل الله ديناً سواه .

اللغَــة : ﴿ميثاق﴾ الميثاق : العهد المؤكد بيمين ونحوه وقد تقدم ﴿إصري﴾ عهدي وأصله في اللغة الثقل قال الزمخشري : وسمي إصراً لأنه مما يؤصر أي يشد ويعقد[1] ﴿الفاسقون﴾ الخارجون عن

(١) الكشاف ١/ ٢٩٠ .

طاعة الله ﴿طوعاً﴾ انقياداً عن رغبة ﴿كَرْهاً﴾ إجباراً وهو كاره ﴿الأسباط﴾ جمع سبط وهو ابن الإبن والمراد به هنا قبائل بني إسرائيل من أولاد يعقوب ﴿يُنظرون﴾ يمهلون يقال : أنظره يعني أمهله والنظرة الإمهال ﴿الخاسرون﴾ الخسران : انتقاص رأس المال يقال : خسر فلان أي أضاع من رأس ماله ﴿الضالون﴾ التائهون في مهامه الكفر .

سَبَبُ النّزول : عن ابن عباس قال : ارتد رجل من الأنصار عن الإسلام ولحق بالشرك ثم ندم ، فأرسل إلى قومه : سلوا لي رسول الله ﷺ هل لي من توبة فإني قد ندمت ؟ فنزلت الآية ﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا . . . إلى قوله إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾ فكتب بها قومه إليه فرجع فأسلم[١] .

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾

التفسير : ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيّين﴾ أي اذكروا يا أهل الكتاب حين أخذ الله العهد المؤكد على النبيّين ﴿لما آتيتكم من كتاب وحكمة﴾ أي لمن أجل ما آتيتكم من الكتاب والحكمة قال الطبري: المعنى لمهْما آتيتكم أيها النبيّون من كتاب وحكمة ﴿ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم﴾ أي ثم جاءكم رسول من عندي بكتاب مصدق لما بين أيديكم وهو محمد ﷺ ﴿لتؤمننّ به ولتنصرنه﴾ أي لتصدقنه ولتنصرنه ، قال ابن عباس : ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً وهو حي ليؤ مننَّ به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته ﴿قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري﴾ أي أأقررتم واعترفتم بهذا الميثاق وأخذتم عليه عهدي ؟ ﴿قالوا أقررنا﴾ أي اعترفنا ﴿قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾ أي اشهدوا على أنفسكم وأتباعكم وأنا من الشاهدين عليكم وعليهم ﴿فمن تولى بعد ذلك﴾ أي أعرض ونكث عهده ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ أي هم الخارجون عن طاعة الله ﴿أفغير دين الله يبغون﴾ الهمزة للإنكار التوبيخي أي أيبتغي أهل الكتاب ديناً غير الإسلام الذي أرسل الله به رسله؟ ﴿وله أسلم من في السموات والأرض﴾ أي ولله استسلم وانقاد وخضع أهل السموات والأرض ﴿طوعاً وكرهاً﴾ أي طائعين ومكرهين قال قتادة : المؤ من أسلم طائعاً والكافر أسلم كارهاً حين لا ينفعه ذلك[٢] قال ابن كثير : فالمؤ من مستسلم بقلبه وقالبه لله طوعاً ، والكافر مستسلم لله كرهاً فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذي لا يُخالف ولا يُمانع[٣] ﴿وإليه يُرجعون﴾ أي

(١) أخرجه النسائي وانظر القرطبي ٤/ ١٢٩ . (٢) الطبري ٦/ ٥٧٦ . (٣) مختصر ابن كثير ١/ ٢٩٧ .

﴿وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم﴾

يوم المعاد فيجازي كلاً بعمله ﴿**قل آمنا بالله وما أنزل علينا**﴾ أي قل يا محمد أنت وأمتك آمنا بالله وبالقرآن المنزل علينا ﴿**وما أُنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط**﴾ أي آمنا بما أنزل على هؤلاء من الصحف والوحي ، والأسباطُ هم بطون بني إسرائيل المتشعبة من أولاد يعقوب ﴿**وما أوتي موسى وعيسى**﴾ أي من التوراة والإنجيل ﴿**والنبيّون من ربهم**﴾ أي وما أنزل على الأنبياء جميعهم ﴿**لا نفرق بين أحدٍ منهم**﴾ أي لا نؤمن بالبعض ونكفر بالبعض كما فعل اليهود والنصارى بل نؤمن بالكل ﴿**ونحن له مسلمون**﴾ أي مخلصون في العبادة مقرّون له بالألوهية والربوبية لا نشرك معه أحداً أبداً ، ثم أخبر تعالى بأن كل دين غير الإسلام باطل ومرفوض فقال ﴿**ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه**﴾ أي يطلب شريعةغير شريعة الإسلام بعد بعثة النبي عليه الصلاة والسلام ليدين بها فلن يتقبل الله منه ﴿**وهو في الآخرة من الخاسرين**﴾ أي مصيره إلى النار مخلداً فيها ﴿**كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم**﴾ استفهام للتعجيب والتعظيم لكفرهم أي كيف يستحق الهداية قوم كفروا بعد إيمانهم ﴿ **وشهدوا أن الرسول حق**﴾ أي بعد أن جاءتهم الشواهد ووضح لهم الحق أن محمداً رسول الله ﴿**وجاءهم البينات**﴾ أي جاءتهم المعجزات والحجج البينات على صدق النبي ﴿**والله لا يهدي القوم الظالمين**﴾ أي لا يوفقهم لطريق السعادة ، قال الحسن: هم اليهود والنصارى رأوا صفة محمد ﷺ في كتابهم ،وشهدوا أنه حق فلما بعث من غيرهم حسدوا العرب فكفروا بعد إيمانهم[1] ﴿**أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين**﴾ أي جزاؤ هم على كفرهم اللعنة من الله والملائكة والخلق أجمعين ﴿**خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم يُنظرون**﴾ أي ماكثين في النار أبد الآبدين ،لا يُفتّر عنهم العذاب ولا هم يمهلون ﴿**إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا**﴾ أي إلا من تاب وأناب وأصلح ما أفسد من عمله ﴿**فإن الله غفور رحيم**﴾ أي متفضل عليه بالرحمة والغفران ﴿**إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً**﴾ نزلت في اليهود كفروا بعيسى بعد إيمانهم بموسى ثم ازدادوا كفراً حيث كفروا بمحمد والقرآن ﴿**لن تقبل توبتهم**﴾ أي لا تقبل

(١) الطبري ٦/ ٥٧٥

مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٩١﴾

منهم توبة ما أقاموا على الكفر ﴿وأولئك هم الضالون﴾ أي الخارجون عن منهج الحق إلى طريق الغي، ثم أخبر تعالى عمّن كفر ومات على الكفر فقال ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار﴾ أي كفروا ثم ماتوا على الكفر ولم يتوبوا وهو عام في جميع الكفار ﴿فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به﴾ أي لن يقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً ﴿أولئك لهم عذاب أليم﴾ أي مؤلم موجع ﴿وما لهم من ناصرين﴾ أي ما لهم من أحد ينقذهم من عذاب الله ولا يجيرهم من أليم عقابه .

البلاغة : ١ - الالتفات ﴿لما آتيتكم﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الحاضر لأن قبله ﴿ميثاق النبيّين﴾ .

٢ - بين لفظ ﴿اشهدوا﴾ و﴿الشاهدين﴾ جناس الاشتقاق وكذلك بين لفظ ﴿كفروا﴾ و ﴿كفراً﴾ وهو من المحسنات البديعية .

٣ - الطباق بين ﴿طوعاً﴾ و﴿كرهاً﴾ وكذلك يوجد الطباق بين لفظ الكفر والإيمان .

٤ - ﴿وأولئك هم الضالون﴾ قصر صفة على موصوف ومثله ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ .

٥ - ﴿وما أوتي موسى وعيسى والنبيّون﴾ هو من باب عطف العام على الخاص .

٦ - ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي مؤلم والعدول إلى صيغة فعيل للمبالغة .

فائدة : الآيات الكريمة قسمت الكفار إلى ثلاثة أقسام :

١ - قسم تاب توبة صادقة فنفعته وإليهم الإشارة بقوله ﴿إلا الذين تابوا بعد ذلك﴾ .

٢ - وقسم تاب توبة فاسدة فلم تنفعه وإليهم الإشارة بقوله ﴿كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً﴾ .

٣ - وقسم لم يتب أصلاً ومات على الكفر وإليهم الإشارة بقوله ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار﴾ .

تنبيه : روى الشيخان عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: (يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به؟ قال فيقول: نعم فيقول الله: قد أردت منك أهون من ذلك ، قد أخذتُ عليك في ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيتَ إلا أن تشرك) .

* * *

قال الله تعالى : ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون . . إلى . . آياته لعلكم تهتدون﴾
من آية (٩٢) إلى نهاية آية (١٠٣)

المناسبة : لما ذكر تعالى حال الكفار ومآلهم في الآخرة ، وبيّن أن الكافر لو أراد أن يفتدي نفسه بملء الأرض ذهباً ما نفعه ذلك ، ذكر هنا ـ استطراداً ـ ما ينفع المؤمن لنيل رضى الله والفوز بالجنة ، ثم عاد الكلام لرفع الشبهات التي أوردها أهل الكتاب حول النبوة والرسالة وصحة دين الإسلام ، ثم جاء بعده التحذير من مكائدهم ودسائسهم التي يدبرونها للإسلام والمسلمين لتفرقة الصف وتشتيت الشمل .

اللغة : ﴿البر﴾ كلمة جامعة لوجوه الخير والمراد بها هنا الجنة ﴿حلاً﴾ حلالاً وهو مصدر نعت به ولذلك يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ﴿اسرائيل﴾ هو يعقوب عليه السلام ﴿بكة﴾ اسم لمكة فتسمى « بكة » و « مكة » سميت بذلك لأنها تبك أي تدق أعناق الجبابرة فلم يقصدها جبار بسوء إلا قصمه الله ﴿مباركاً﴾ البركة : الزيادة وكثرة الخير ﴿مقام إبراهيم﴾ محل قيام ابراهيم وهو الحجر الذي قام عليه لما ارتفع بناء البيت ﴿عِوَجاً﴾ العِوَج : الميل قال أبو عبيدة : في الدين والكلام والعمل ، وبالفتح عَوَج في الحائط والجذع ﴿يعتصم﴾ يتمسك ويلتجىء وأصله المنع قال القرطبي : وكل متمسك بشيء معتصمٌ وكل مانعٍ شيئاً فهو عاصم[1] ﴿قال لا عاصم اليوم من أمر الله﴾ ﴿شفا﴾ الشَّفا : حرف كل شيء وحده ومثله الشفير ، وشفا الحفرة : حرفها قال تعالى ﴿على شفا جرف هارٍ﴾

سبب النزول : يروى أنّ « شاس بن قيس » اليهودي مرَّ على نفر من الأنصار من الأوس والخزرج في مجلس لهم يتحدثون ، فغاظه ما رأى من ألفتهم وصلاح ذات بينهم بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة فقال : ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار ، ثم أمر شاباً من اليهود أن يجلس إليهم ويذكّرهم يوم « بُعاث » وينشدهم بعض ما قيل فيه من الأشعار ـ وكان يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس ـ ففعل فتنازع القوم عند ذلك وتفاخروا وتغاضبوا وقالوا : السلاحَ السلاحَ ، فبلغ النبي ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار فقال : (أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألّف بينكم) ؟ فعرف القوم أنها كانت نزعة من الشيطان وكيداً من عدوهم ، فألقوا السلاح وبكوا وعانق بعضهم بعضاً ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين فأنزل الله عز وجل ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب﴾[2] الآية .

لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ * كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا

التفسير : ﴿لن تنالوا البِرّ حتى تنفقوا ممّا تحبون﴾ أي لن تكونوا من الأبرار ولن تدركوا الجنة

(١) القرطبي ٤/ ١٥٦ . (٢) أسباب النزول ص ٦٦ والكشاف ١/ ٣٠١ .

لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ

حتى تنفقوا من أفضل أموالكم ﴿**وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم**﴾ أي وما تبذلوا من شيء في سبيل الله فهو محفوظ لكم تجزون عنه خير الجزاء ﴿**كل الطعام كان حلاًّ لبني إسرائيل**﴾ أي كل الأطعمة كانت حلالاً لبني إسرائيل ﴿**إلا ما حرّم إسرائيل على نفسه**﴾ أي إلا ما حرّمه يعقوب على نفسه وهو لحم الإبل ولبنها ثم حرمت عليهم أنواع من الأطعمة كالشحوم وغيرها عقوبةً لهم على معاصيهم ﴿**من قبل أن تُنزَّل التوراة**﴾ أي كانت حلالاً لهم قبل نزول التوراة ﴿**قل فأتوا بالتوراة فاتلُوها إن كنتم صادقين**﴾ أي قل لهم يا محمد ائتوني بالتوراة واقرءوها عليَّ إن كنتم صادقين في دعواكم أنها لم تحرم عليكم بسبب بغيكم وظلمكم قال الزمخشري : وغرضهم تكذيب شهادة الله عليهم بالبغي والظلم والصدّ عن سبيل الله فلما حاجّهم بكتابهم وبكّتهم بهتوا وانقلبوا صاغرين ولم يجسر أحد منهم على إخراج التوراة ، وفي ذلك الحجة البينة على صدق النبي ﷺ [1] ﴿**فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك**﴾ أي اختلق الكذب من بعد قيام الحجة وظهور البينة ﴿**فأولئك هم الظالمون**﴾ أي المعتدون المكابرون بالباطل ﴿**قل صدق الله**﴾ أي صدق الله في كل ما أوحى إلى محمد وفي كل ما أخبر ﴿**فاتبعوا ملة إبراهيم**﴾ أي اتركوا اليهودية واتبعوا ملة الإسلام التي هي ملة إبراهيم ﴿**حنيفاً**﴾ أي مائلاً عن الأديان الزائفة كلها ﴿**وما كان من المشركين**﴾ برأه مما نسبه اليهود والنصارى إليه من اليهودية والنصرانية ، وفيه تعريض بإشراكهم ﴿**إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة**﴾ أي أول مسجد بني في الأرض لعبادة الله المسجد الحرام الذي هو بمكة ﴿**مباركاً وهدى للعالمين**﴾ أي وضع مباركاً كثير الخير والنفع لمن حجه واعتمره ، ومصدر الهداية والنور لأهل الأرض لأنه قبلتهم ، ثم عدد تعالى من مزاياه ما يستحق تفضيله على جميع المساجد فقال ﴿**فيه آيات بينات مقام إبراهيم**﴾ أي فيه علامات واضحات كثيرة تدل على شرفه وفضله على سائر المساجد منها ﴿**مقام إبراهيم**﴾ وهو الذي قام عليه حين رفع القواعد من البيت ، وفيه زمزم والحطيم ، وفيه الصفا والمروة والحجر الأسود ، أفلا يكفي برهاناً على شرف هذا البيت وأحقيته أن يكون قبلة للمسلمين ؟ ﴿**ومن دخله كان آمناً**﴾ وهذه آية أخرى وهي أمن من دخل الحرَم بدعوة الخليل ابراهيم ﴿رب اجعل هذا البلد آمناً﴾ ﴿**ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً**﴾ أي فرضٌ لازم على المستطيع حج بيت الله العتيق ﴿**ومن كفر فإن الله غني عن**

(٢) الكشاف ١/ ٢٩٥ .

وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ

العالمين﴾ أي من ترك الحج فإن الله مستغنٍ عن عبادته وعن الخلق أجمعين ، وعبّر عنه بالكفر تغليظاً عليه قال ابن عباس : من جحد فريضة الحج فقد كفر والله غني عنه[1] ، ثم أخذ يبكّت أهل الكتاب على كفرهم فقال **﴿قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله﴾** أي لم تجحدون بالقرآن المنزل على محمد مع قيام الدلائل والبراهين على صدقه **﴿والله شهيد على ما تعملون﴾** أي مطلع على جميع أعمالكم فيجازيكم عليها **﴿قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن﴾** أي لم تصرفون الناس عن دين الله الحق ، وتمنعون من أراد الإيمان به ؟ **﴿تبغونها عوجاً﴾** أي تطلبون أن تكون الطريق المستقيمة معوجّة ، وذلك بتغيير صفة الرسول ، والتلبيس على الناس بإيهامهم أن في الإسلام خللاً وعوجاً **﴿وأنتم شهداء﴾** أي عالمون بأن الإسلام هو الحق والدين المستقيم **﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾** تهديد ووعيد ، وقد جمع اليهود والنصارى الوصفين : الضلال والإضلال كما أشارت الآيتان الكريمتان فقد كفروا بالإسلام ثم صدّوا الناس عن الدخول فيه بإلقاء الشبه والشكوك في قلوب الضعفة من الناس **﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب﴾** أي إن تطيعوا طائفة من أهل الكتاب **﴿يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾** أي يصيّروكم كافرين بعد أن هداكم الله للإيمان ، والخطاب للأوس والخزرج إذ كان اليهود يريدون فتنتهم كما في سبب النزول واللفظ في الآية عام **﴿وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله﴾** إنكار واستبعاد أي كيف يتطرق إليكم الكفر والحال أن آيات الله لا تزال تتنزّل عليكم والوحي لم ينقطع ورسول الله حيٌّ بين أظهركم ؟ **﴿ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾** أي من يتمسك بدينه الحق الذي بيّنه بآياته على لسان رسوله فقد اهتدى إلى أقوم طريق ، وهي الطريق الموصلة إلى جنات النعيم **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته﴾** أي اتقوا الله تقوى حقة أو حق تقواه قال ابن مسعود : « هو أن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر »[2] والمراد بالآية **﴿حق تقاته﴾** أي كما يحق أن يتقى وذلك باجتناب جميع معاصيه **﴿ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾** أي تمسكوا بالإسلام وعضوا عليه بالنواجذ حتى يدرككم الموت وأنتم على تلك الحالة فتموتون على الإسلام والمقصود الأمر بالإقامة على الإسلام **﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾** أي تمسكوا بدين الله وكتابه جميعاً ولا

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٣٠٣ . (٢) مختصر ابن كثير ١/ ٣٠٤ .

قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

تتفرقوا عنه ولا تختلفوا في الدين كما اختلف من قبلكم من اليهود والنصارى ﴿**واذكروا نعمة الله عليكم**﴾ أي اذكروا إنعامه عليكم يا معشر العرب ﴿**إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم**﴾ أي حين كنتم قبل الإسلام أعداء ألداءً فألف بين قلوبكم بالإسلام وجمعكم على الإيمان ﴿**وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها**﴾ أي وكنتم مشرفين على الوقوع في نار جهنم فأنقذكم الله منها بالإسلام ﴿**كذلك يبين الله لكم آياته**﴾ أي مثل ذلك البيان الواضح يبين الله لكم سائر الآيات ﴿**لعلكم تهتدون**﴾ أي لكي تهتدوا بها إلى سعادة الدارين .

البلاغة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البلاغة نوجزها فيما يلي :

١ ـ ﴿قل فأتوا بالتوراة﴾ الأمر للتبكيت والتوبيخ للدلالة على كمال القبح .

٢ ـ ﴿للذي ببكة﴾ أي للبيت الذي ببكة وفي ترك الموصوف من التفخيم ما لا يخفى .

٣ ـ ﴿ومن كفر﴾وضع هذا اللفظ « موضع ومن لم يحج »تأكيداً لوجوبه وتشديداً على تاركه قال أبو السعود : « ولقد حازت الآية الكريمة من فنون الاعتبارات ما لا مزيد عليه وهي قوله ﴿ولله على الناس حج البيت﴾حيث أوثرت صيغة الخبر الدالة على التحقيق وأبرزت في صورة الجملة الإسمية الدالة على الثبات والاستمرار ، على وجه يفيد أنه حق واجب لله سبحانه في ذمم الناس ، وسلك بهم مسلك التعميم ثم التخصيص ، والإبهام ثم التبيين ، والإجمال ثم التفصيل »[1] .

٤ ـ ﴿ واعتصموا بحبل الله﴾ شبّه القرآن بالحبل واستعير اسم المشبه به وهو الحبل للمشبه وهو القرآن على سبيل الاستعارة التصريحية والجامع بينهما النجاةُ في كلٍ .

٥ ـ ﴿شفا حفرة﴾ شبه حالهم الذي كانوا عليه بالجاهلية بحال من كان مشرفاً على حفرة عميقة وهوّة سحيقة ففيه استعارة تمثيلية والله أعلم .

تنبيه : وردت الآيات الكريمة لدفع شبهتين من شبه أهل الكتاب :

الشبهة الأولى : أنهم قالوا للنبي ﷺ إنك تدّعي أنك على دين إبراهيم وقد خالفت شريعته فأنت تبيح لحوم الإبل وألبانها مع أن ذلك كان حراماً في دين إبراهيم ؟ فرد الله عليهم بقوله ﴿كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل﴾ الآية .

الشبهة الثانية : قالوا إن « بيت المقدس » قبلة جميع الأنبياء وهو أول المساجد وأحق بالاستقبال فكيف تترك يا محمد التوجه اليه ثم تزعم أنك مصدّق لما جاء به الأنبياء فرد الله تعالى بقوله ﴿إن أول بيت

(١) أبو السعود ١/ ٢٥٥ .

وضع للناس للذي ببكة﴾ الآية .

* * *

قال تعالى : ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير . . إلى قوله . . بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ من آية (١٠٤) إلى نهاية آية (١١٢)

المناسبة : لما حذّر تعالى من مكايد أهل الكتاب ، وأمر بالاعتصام بحبل الله والتمسك بشرعه القويم ، دعا المؤمنين إلى القيام بواجب الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأمر بالائتلاف وعدم الاختلاف ، ثم ذكر ما حلَّ باليهود من الذل والصَّغار بسبب البغي والعدوان .

اللغة : ﴿أمة﴾ طائفة وجماعة ﴿البينات﴾ الآيات الواضحات ﴿المعروف﴾ ما أمر به الشرع واستحسنه العقل السليم ﴿المنكر﴾ ما نهى عنه الشرع واستقبحه العقل السليم ﴿الأدبار﴾ جمع دبر وهو مؤخر كل شيء يقال : ولاه دبره أي هرب من وجهه ﴿ثقفوا﴾ وجدوا وصودفوا ﴿حبلٍ من الله﴾ الحبل معروف والمراد به هنا: العهد وسمي حبلاً لأنه سبب يحصل به الأمن وزوال الخوف ﴿باءوا﴾ رجعوا ﴿المسكنة﴾ الفقر .

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ

التفسير : ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير﴾ أي ولتقم منكم طائفة للدعوة إلى الله ﴿ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ أي للأمر بكل معروف والنهي عن كل منكر ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ أي هم الفائزون ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات﴾ أي لا تكونوا كاليهود والنصارى الذين تفرقوا في الدين واختلفوا فيه بسبب اتباع الهوى من بعد ما جاءتهم الآيات الواضحات ﴿وأولئك لهم عذاب عظيم﴾ أي لهم بسبب الاختلاف عذاب شديد يوم القيامة ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾ أي يوم القيامة تبيض وجوه المؤمنين بالإيمان والطاعة ، وتسود وجوه الكافرين بالكفر والمعاصي ﴿فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم﴾ هذا تفصيل لأحوال الفريقين بعد الإجمال والمعنى أما أهل النار الذين اسودت وجوههم فيقال لهم على سبيل التوبيخ : أكفرتم بعد إيمانكم أي بعد ما وضحت لكم الآيات والدلائل ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ أي ذوقوا العذاب الشديد بسبب كفركم ﴿وأما الذين ابيضت وجوههم﴾ أي وأما السعداء الأبرار الذين ابيضت وجوههم بأعمالهم الصالحات ﴿ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾ أي فهم في الجنة مخلدون لا يخرجون منها أبداً ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق﴾ أي هذه آيات الله نتلوها عليك يا محمد حال كونها متلبسة بالحق ﴿وما الله يريد ظلماً للعالمين﴾ أي وما كان الله ليظلم أحداً ولكنَّ الناس أنفسهم يظلمون ﴿ولله ما في السموات وما في

تَكۡفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَۖ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿١١٢﴾

الأرض﴾ أي الجميع ملكٌ له وعبيد **﴿وإلى الله تُرجع الأمور﴾** أي هو الحاكم المتصرف في الدنيا والآخرة **﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾** أي أنتم يا أمة محمد خير الأمم لأنكم أنفع الناس للناس ولهذا قال **﴿أخرجت للناس﴾** أي أخرجت لأجلهم ومصلحتهم ، روى البخاري عن أبي هريرة **﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾** قال : خير الناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام **﴿تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾** وهذا بيان لوجه الخيرية كأنه قيل السبب في كونكم خير أمة هذه الخصال الحميدة روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال « من سرَّه أن يكون من هذه الأمة فليؤ د شرط الله فيها »[1] ثم قال تعالى **﴿ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم﴾** أي لو آمنوا بما أنزل على محمد وصدّقوا بما جاء به لكان ذلك خيراً لهم في الدنيا والآخرة **﴿منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾** أي منهم فئة قليلة مؤ منة كالنجاشي وعبد الله بن سلام ، والكثرةُ الكثيرة فاسقة خارجة عن طاعة الله ، **﴿لن يضروكم إلا أذى﴾** أي لن يضروكم إلا ضرراً يسيراً بألسنتهم من سبٍّ وطعن **﴿وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار﴾** أي ينهزمون من غير أن ينالوا منكم شيئاً **﴿ثم لا يُنصرون﴾** أي ثم شأنهم الذي أبشركم به أنهم مخذولون لاينصرون ،والجملة استئنافية **﴿ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا﴾** أي لزمهم الذل والهوان أينما وجدوا وأحاط بهم كما يحيط البيت المضروب بساكنه **﴿إلا بحبلٍ من الله وحبلٍ من الناس﴾** أي إلا إذا اعتصموا بذمة الله وذمة المسلمين قال ابن عباس : بعهدٍ من الله وعهدٍ من الناس **﴿وباءوا بغضبٍ من الله﴾** أي رجعوا مستوجبين للغضب الشديد من الله **﴿وضربت عليهم المسكنة﴾** أي لزمتهم الفاقة والخشوع فهي محيطة بهم من جميع جوانبهم **﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق﴾** أي ذلك الذل والصغار والغضب والدمار ، بسبب جحودهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء ظلماً وطغياناً **﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾** أي بسبب تمردهم وعصيانهم أوامر الله تعالى .

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٣١١ .

البلاغة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - ﴿ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة .

٢ - ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ فيه قصر صفة على موصوف حيث قصر الفلاح عليهم .

٣ - ﴿تبيضُّ وجوه وتسود وجوه﴾ بين كلمتي ﴿تبيض﴾ و ﴿تسود﴾ طباق .

٤ - ﴿ففي رحمة الله﴾ مجاز مرسل أطلق الحالَّ وأريد المحل أي ففي الجنة لأنها مكان تنزل الرحمة .

٥ - ﴿ضربت عليهم الذلة﴾ فيه استعارة حيث شبه الذل بالخباء المضروب على أصحابه وقد تقدمت في البقرة

٦ - ﴿وباءُوا بغضبٍ﴾ التنكير للتفخيم والتهويل .

فائدة : قوله تعالى ﴿ثم لا يُنصرون﴾ جملة مستأنفة ولهذا ثبتت فيها النون قال الزمخشري : « وعدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداءً كأنه قيل : ثم أخبركم أنهم مخذولون منتفٍ عنهم النصر ، ولو جزم لكان نفي النصر مقيداً لقتالهم بينما النصر وعدٌ مطلق »[1]

تنبيه : الاختلاف الذي أشارت إليه الآية ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا﴾ إنما يراد به الاختلاف في العقيدة وفي أصول الدين وأما الاختلاف في الفروع كما اختلف الأئمة المجتهدون فذلك من اليسر في الشريعة كما نبه على ذلك العلماء ولابن تيمية رحمه الله رسالة قيمة اسماها « رفع الملام عن الأئمة الأعلام » فارجع إليها فإنها رائعة ومفيدة .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة . . إلى . . إن الله بما يعملون محيط﴾ من آية (١١٣) إلى نهاية آية (١٢٠)

المناسبة : لما وصف تعالى أهل الكتاب بالصفات الذميمة ، ذكر هنا أنهم ليسوا بدرجة واحدة ففيهم المؤمن والكافر والبر والفاجر ، ثم ذكر تعالى عقاب الكافرين وأن أموالهم وأولادهم لن تنفعهم يوم القيامة شيئاً ، وأعقب ذلك بالنهي عن اتخاذ أعداء الدين أولياء ونبّه إلى ما في ذلك من الضرر الجسيم في الدنيا والدين .

اللغة : ﴿آناء﴾ أوقات وساعات مفردها إنىَ على وزن مِعَى ﴿يُكفروه﴾ يجُحدوه من الكفر بمعنى الجحود ، سمي منعُ الجزاء كفراً لأنه بمنزلة الجحد والستر ﴿صرّ﴾ الصِرُّ : البرد الشديد قاله ابن

(١) الكشاف ١/ ٣٠٨ باختصار .

عباس وأصله من الصرير الذي هو الصوت ويراد به الريح الشديدة الباردة ﴿حرث﴾ زرع وأصله من حرث الأرض إذا شقها للزرع والبذر ﴿بطانة﴾ بطانة الرجل : خاصته الذين يفضي إليهم بأسراره شبّه ببطانة الثوب لأنه يلي البدن ﴿لا يألونكم﴾ أي لا يقصّرون قال الزمخشري : يقال ألاَ في الأمر يألو إذا قصّر فيه ﴿خبالاً﴾ الخبال : الفساد والنقصان ومنه رجل مخبول إذا كان ناقص العقل ﴿عنتّم﴾ العنت : شدة الضرر والمشقة ﴿الأنامل﴾ أطراف الأصابع .

سَبَبُ النّزول : لما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه قال أحبار اليهود : ما آمن بمحمد إلا شرارنا ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وقالوا لهم : لقد كفرتم وخسرتم فأنزل الله ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة﴾[1] الآية .

* لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنْ

التفسير : ﴿ليسوا سواءً﴾ أي ليس أهل الكتاب مستوين في المساوىء ، وهنا تمّ الكلام ثم ابتدأ تعالى بقوله ﴿من أهل الكتاب أمة قائمة﴾ أي منهم طائفة مستقيمة على دين الله ﴿يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ أي يتهجدون في الليل بتلاوة آيات الله حال الصلاة ﴿يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ أي يؤ منون بالله على الوجه الصحيح ﴿ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ أي يدعون إلى الخير وينهون عن الشر ولا يداهنون ﴿ويسارعون في الخيرات﴾ أي يعملونها مبادرين غير متثاقلين ﴿وأولئك من الصالحين﴾ أي وهم في زمرة عباد الله الصالحين ﴿وما يفعلوا من خير فلن يكفروه﴾ أي ما عملوا من عمل صالح فلن يضيع عند الله ﴿والله عليم بالمتقين﴾ أي لا يخفى عليه عمل عامل ، ولا يضيع لديه أجر المتقين ، ثم أخبر تعالى عن مآل الكافرين فقال ﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً﴾ أي لن تدفع عنهم أموالهم التي تهالكوا على اقتنائها ولا أولادهم الذين تفانوا في حبهم من عذاب الله شيئاً ﴿وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي مخلدون في عذاب جهنم ﴿مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صرٌّ﴾ أي مثل ما ينفقونه في الدنيا بقصد الثناء وحسن الذكر كمثل ريح عاصفة فيها بردٌ شديد ﴿أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته﴾ أي أصابت تلك

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٦٨ .

أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا

الريح المدمرة زرع قوم ظلموا أنفسهم بالمعاصي فأفسدته وأهلكته فلم ينتفعوا به ؛ فكذلك الكفار يمحق الله أعمالهم الصالحة كما يذهب هذا الزرع بذنوب صاحبه ﴿وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون﴾ أي وما ظلمهم الله بإهلاك حرثهم ولكن ظلموا أنفسهم بارتكاب ما يستوجب العقاب ، ثم حذر تعالى من اتخاذ المنافقين بطانة يطلعونهم على أسرارهم فقال ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم﴾ أي لا تتخذوا المنافقين أصدقاء تودونهم وتطلعونهم على أسراركم وتجعلونهم أولياء من غير المؤمنين ﴿لا يألونكم خبالاً﴾ أي لا يقصرون لكم في الفساد ﴿ودوا ما عنتم﴾ أي تمنوا مشقتكم وما يوقعكم في الضرر الشديد ﴿قد بدت البغضاء من أفواههم﴾ أي ظهرت أمارات العداوة لكم على ألسنتهم فهم لا يكتفون ببغضكم بقلوبهم حتى يصرحوا بذلك بأفواههم ﴿وما تخفي صدورهم أكبر﴾ أي وما يبطنونه لكم من البغضاء أكثر مما يظهرونه ﴿قد بيّنّا لكم الآيات﴾ أي وضحنا لكم الآيات الدالة على وجوب الإخلاص في الدين ، وموالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين ﴿إن كنتم تعقلون﴾ أي إن كنتم عقلاء ، وهذا على سبيل الهزّ والتحريك للنفوس كقولك إن كنت مؤمناً فلا تؤذ الناس وقال ابن جرير المعنى : إن كنتم تعقلون عن الله أمره ونهيه ، ثم بيّن سبحانه ما هم عليه من كراهية المؤمنين فقال ﴿ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم﴾ أي ها أنتم يا معشر المؤمنين خاطئون في موالاتكم إذ تحبونهم ولا يحبونكم ، تريدون لهم النفع وتبذلون لهم المحبة وهم يريدون لكم الضر ويضمرون لكم العداوة ﴿وتؤمنون بالكتاب كله﴾ أي وأنتم تؤمنون بالكتب المنزلة كلها وهم مع ذلك يبغضونكم ، فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم ؟ وفيه توبيخ شديد بأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم ﴿وإذا لقوكم قالوا آمنا﴾ أي وهذا من خبثهم إذ يظهرون أمامكم الإيمان نفاقاً ﴿وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ﴾ أي وإذا خلت مجالسهم منكم عضوا أطراف الأصابع من شدة الحنق والغضب لما يرون من ائتلافكم ، وهو كناية عن شدة الغيظ والتأسف لما يفوتهم من إذاية المؤمنين ﴿قل موتوا بغيظكم﴾ هو دعاء عليهم أي قل يا محمد أدام الله غيظكم إلى أن تموتوا[1] ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ أي إن الله عالم بما تكنه سرائركم من البغضاء والحسد للمؤمنين ، ثم أخبر تعالى بما يترقبون نزوله من البلاء والمحنة بالمؤمنين فقال ﴿إن تمسسكم حسنة تسؤهم﴾ أي إن أصابكم ما يسركم من رخاءٍ وخصبٍ ونصرة وغنيمة ونحو ذلك ساءتهم ﴿وإن تصبكم

(١) هذا قول الطبري وكثير من المفسرين وقيل المراد منه : التقريع والإغاظة والمعنى أنهم لا يدركون ما يؤملون فإن الموت دون ذلك كذا في القرطبي ١/ ١٨٣ .

﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (١٢٠)

سيئة يفرحوا بها﴾ أي وإن أصابكم ما يضركم من شدةٍ وجدبٍ وهزيمةٍ وأمثال ذلك سرتهم ، فبيّن تعالى بذلك فرط عداوتهم حيث يسوءهم ما نال المؤمنين من الخير ويفرحون بما يصيبهم من الشدة ﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً﴾ أي إن صبرتم على أذاهم واتقيتم الله في أقوالكم وأعمالكم لا يضركم مكرهم وكيدهم ، فشرط تعالى نفي ضررهم بالصبر والتقوى ﴿إن الله بما يعملون محيط﴾ أي هو سبحانه عالم بما يُدبّرونه لكم من مكائد فيصرف عنكم شرهم ويعاقبهم على نواياهم الخبيثة .

البلاغة : ١ ـ ﴿من أهل الكتاب أمة﴾ جيء بالجملة اسمية للدلالة على الاستمرار كما جيء بعدها بصيغة المضارع ﴿يتلون آيات الله﴾ للدلالة على التجدد ومثله في ﴿يسجدون﴾ .

٢ ـ ﴿وأولئك من الصالحين﴾ الإشارة بالبعيد لبيان علو درجتهم وسمو منزلتهم في الفضل.

٣ ـ ﴿كمثل ريح فيها صر﴾ فيه تشبيه وهو من نوع التشبيه التمثيلي شبّه ما كانوا ينفقونه في المفاخر وكسب الثناء بالزرع الذي أصابته الريح العاصفة الباردة فدمرته وجعلته حطاماً.

٤ ـ ﴿لا تتخذوا بطانة﴾ شبه دخلاء الرجل وخواصّه بالبطانة لأنهم يستبطنون دخيل أمره ويلازمونه ملازمة شعاره لجسمه ففيه استعارة أفاده في تلخيص البيان[١] .

٥ ـ ﴿عضُّوا عليكم الأنامل﴾ قال أبو حيان : يوصف المغتاظ والنادم بعض الأنامل فيكون حقيقة ويحتمل أنه من مجاز التمثيل عبّر بذلك عن شدة الغيظ والتأسف لما يفوتهم من إذاية المؤمنين[٢]

٦ ـ في الآيات من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة وذلك في قوله ﴿إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها﴾ حيث قابل الحسنة بالسيئة والمساءة بالفرح وهي مقابلة بديعة ، كما أن فيها جناس الاشتقاق في ﴿ظلمهم﴾ و ﴿يظلمون﴾ وفي ﴿الغيظ﴾ و ﴿غيظكم﴾ وفي ﴿تؤمنون﴾ و ﴿آمنا﴾ .

لطيفة : عبّر بالمسّ في قوله ﴿إن تمسسكم حسنة﴾ وبالإصابة في قوله ﴿وإن تصبكم سيئة﴾ وذلك للإشارة إلى أن الحسنة تسوء الأعداء وحتى ولو كانت بأيسر الأشياء ولو مسّاً خفيفاً وأما السيئة فإذا تمكنت الإصابة بها إلى الحد الذي يرثي له الشامت فإنهم لا يرثون بل يفرحون ويسرون وهذا من أسرار بلاغة التنزيل ، نقلاً عن حاشية الكشاف

* * *

قال الله تعالى : ﴿وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال . . إلى . . وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون﴾

من آية (١٢١) إلى نهاية آية (١٣٢)

(١) تلخيص البيان ص ٢١ . (٢) البحر المحيط ٣/ ٤١ .

المنَاسَبَة : يبدأ الحديث عن الغزوات من هذه الآيات الكريمة ، وقد انتقل السياق من معركة الجدل والمناظرة إلى معركة الميدان والقتال ، والآيات تتحدث عن غزوة « أحد » بالإسهاب وقد جاء الحديث عن غزوة بدر في أثنائها اعتراضاً ليذكّرهم بنعمته تعالى عليهم لمّا نصرهم ببدر وهم أذلة قليلون في العَدَد والعُدَد ، وهذه الآية هي افتتاح القصة عن غزوة أحد وقد أنزل فيها ستون آية ، ومناسبة الآيات لما قبلها أنه تعالى لما حذّر من اتخاذ بطانة السوء ذكر هنا أن السبب في همّ الطائفتين من الأنصار بالفشل إنما كان بسبب تثبيط المنافقين لهم وعلى رأسهم أبي بن سلول رأس النفاق فالمناسبة واضحة ، روى الشيخان عن جابر قال « فينا نزلت ﴿إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما﴾ قال نحن الطائفتان : بنو حارثة ، وبنو سلمة وما نحب أنها لم تنزل لقوله تعالى ﴿والله وليهما﴾».

اللغَة : ﴿غدوت﴾ خرجت غُدوة وهي الساعات الأولى من الصبح ﴿تفشلا﴾ الفشل : الجبن والضعف ﴿تبوىء﴾ تنزل يقال : بوأته منزلاً وبوأت له منزلاً أي أنزلته فيه وأصل التبوىء اتخاذ المنزل ﴿أذلة﴾ أي قلة في العدد والسلاح ﴿فورهم﴾ الفور : السرعة وأصله شدة الغليان من فارتْ القدر إذا غلت ثم استعملت للسرعة تقول : من فوره أي من ساعته ﴿مسوَّمين﴾ بفتح الواو بمعنى معلَّمين على القتال وبكسرها بمعنى لهم علامة وكانت سيماهم يوم بدر عمائم بيضاء ﴿طرفاً﴾ طائفة وقطعة ﴿يكبتهم﴾ الكبتُ : الهزيمة والإهلاك وقد يأتي بمعنى الغيظ والإذلال ﴿خائبين﴾ الخيبة : عدم الظفر بالمطلوب .

سَبَبُ النّزول : ثبت في صحيح مسلم أن النبيﷺ كسرت رباعيته يوم أحد وشُجَّ في رأسه ، فجعل يسلِتُ الدم عنه ويقول : كيف يفلح قوم شجّوا رأس نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله تعالى ؟ فأنزل الله ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ .

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾

التفسِير : ﴿وإذ غدوتَ من أهلك﴾ أي اذكر يا محمد حين خرجت إلى أحد من عند أهلك ﴿تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال﴾ أي تنزّل المؤمنين أماكنهم لقتال عدوهم ﴿والله سميعٌ عليم﴾ أي سميع لأقوالكم عليمٌ بأحوالكم ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا﴾ أي حين كادت طائفتان من جيش المسلمين أن تجبنا وتضعفا وهمتا بالرجوع وهما « بنو سلمة » و « بنو حارثة » وذلك حين خرج رسول الله ﷺ لأحد بألفٍ من أصحابه فلما قاربوا عسكر الكفرة وكانوا ثلاثة آلاف انخذل « عبد الله بن أبي » بثلث الجيش وقال : علامَ نقتل أنفسنا وأولادنا ؟ فهمَّ الحيان من الأنصار بالرجوع فعصمهم الله فمضوا مع رسول الله ﷺ وذلك قوله تعالى ﴿والله وليهما﴾ أي ناصرهما ومتولي أمرهما ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي في جميع أحوالهم وأمورهم ، ثم ذكّرهم تعالى بالنصر يوم بدر لتقوى قلوبهم ويتسلوا عمّا

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ

أصابهم من الهزيمة يوم أحد فقال ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة﴾ أي نصركم يوم بدر مع قلة العدد والسلاح لتعلموا أن النصر من عند الله لا بكثرة العدد والعُدد ﴿فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾ أي اشكروه على ما منَّ به عليكم من النصر **﴿إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين﴾** أي إذ تقول يا محمد لأصحابك أما يكفيكم أن يعينكم الله بإمداده لكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين لنصرتكم ﴿بلى أن تصبروا وتتقوا﴾ بلى تصديق للوعد أي بلى يمدكم بالملائكة إن صبرتم في المعركة واتقيتم الله وأطعتم أمره ﴿ويأتوكم من فورهم هذا﴾ أي يأتيكم المشركون من ساعتهم هذه ﴿يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين﴾ أي يزدكم الله مدداً من الملائكة معلّمين على السلاح ومدربين على القتال[1] ﴿وما جعله الله إلا بشرى لكم﴾ أي وما جعل الله ذلك الإمداد بالملائكة إلا بشارة لكم أيها المؤمنون لتزدادوا ثباتاً ﴿ولتطمئنّ قلوبكم به﴾ أي ولتسكن قلوبكم فلا تخافوا من كثرة عدوكم وقلة عددكم ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ أي فلا تتوهموا أن النصر بكثرة العَدَد والعُدَد ، ما النصر في الحقيقة إلا بعون الله وحده ، لا من الملائكة ولا من غيرهم ﴿العزيز الحكيم﴾ أي الغالب الذي لا يغلب في أمره الحكيم الذي يفعل ما تقتضيه حكمته الباهرة ﴿ليقطع طرفاً من الذين كفروا﴾ أي ذلك التدبير الإلهي ليهلك طائفة منهم بالقتل والأسر ، ويهدم ركناً من أركان الشرك ﴿أو يكبتهم﴾ أي يغيظهم ويخزيهم بالهزيمة ﴿فينقلبوا خائبين﴾ أي يرجعوا غير ظافرين بمبتغاهم ، وقد فعل تعالى ذلك بهم في بدر حيث قتل المسلمون من صناديدهم سبعين وأسروا سبعين وأعز الله المؤمنين وأذل الشرك والمشركين ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ هذه الآية وردت اعتراضاً وهي في قصة أحد ، وذلك لما كسرت رباعيته ﷺ وشُج وجهه الشريف قال : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم ؟ ! فنزلت ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ أي ليس لك يا محمد من أمر تدبير العباد شيء وإنما أمرهم إلى الله ﴿أو يتوبَ عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾ أي فالله مالك أمرهم فإما أن يهلكهم ، أو يهزمهم ، أو يتوب عليهم إن أسلموا ، أو يعذبهم إن أصرّوا على الكفر فإنهم ظالمون يستحقون العذاب ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من

(١) وقيل معنى مسوّمين : أي معلمين بعلامة قال عروة بن الزبير : كانت الملائكة على خيل بلق عليهم عمائم بيض قد أرسلوها بين أكتافهم ، انظر الطبري والكشاف .

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

يشاء والله غفور رحيم﴾ أي له جل وعلا ملك السموات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء وهو الغفور الرحيم ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة﴾ هذا نهيٌ من الله تعالى لعباده المؤمنين عن تعاطي الربا مع التوبيخ بما كانوا عليه في الجاهلية من تضعيفه قال ابن كثير : كانوا في الجاهلية إذا حلّ أجل الدين يقول الدائن : إمّا أن تَقْضي وإمّا أن تُرْبي ! فإن قضاه وإلاّ زاده في المدة وزاده في القدر وهكذا كلّ عام فربما تضاعف القليل حتى يصير كثيراً مضاعفاً[1] ﴿واتقوا الله﴾ أي اتقوا عذابه بترك ما نهى عنه ﴿لعلكم تفلحون﴾ أي لتكونوا من الفائزين ﴿واتقوا النار التي أعدت للكافرين﴾ أي احذروا نار جهنم التي هيئت للكافرين ﴿وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون﴾ أي اطيعوا الله ورسوله لتكونوا من الأبرار الذين تنالهم رحمة الله .

البـلاغـة : ١ ـ ﴿إذ تقول﴾ صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية باستحضار صورتها في الذهن .

٢ ـ ﴿أن يمدكم ربكم﴾ التعرض لعنوان الربوبية مع إضافته للمخاطبين لإظهار كمال العناية بهم أفاده أبو السعود .

٣ ـ ﴿يغفر ويعذّب﴾ بينهما طباق.

٤ ـ ﴿أضعافاً مضاعفة﴾ جناس الاشتقاق.

٤ ـ ﴿لا تأكلوا الربا﴾ سمي الأخذ أكلاً لأنه يئول إليه فهو مجاز مرسل .

تنبيه : ذكر الأضعاف المضاعفة في الآية ليس للقيد ولا للشرط ، وإنما هو لبيان الحالة التي كان الناس عليها في الجاهلية ، وللتشنيع عليهم بأنّ في هذه المعاملة ظلماً صارخاً وعدواناً مبيناً حيث كانوا يأخذون الربا أضعافاً مضاعفة قال أبو حيان : « نهوا عن الحالة الشنعاء التي يوقعون الربا عليها فربما استغرق بالنزر اليسير مال المدين ، وأشار بقوله﴿ مضاعفة﴾ إلى أنهم كانوا يكررون التضعيف عاماً بعد عام ، والربا محرم بجميع أنواعه ، فهذه الحال ليس قيداً في النهي »[2] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم . . إلى . . وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين﴾ من آية (١٣٣) إلى نهاية آية (١٤٨)

المنـاسـبة : لما حث تعالى على الصبر والتقوى ونبه المؤمنين إلى إمداد الله لهم بالملائكة في غزوة

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٣١٨ . (٢) البحر المحيط ٣/ ٥٤ .

بدر ، عقّبه بالأمر بالمسارعة إلى نيل رضوان الله ، ثم ذكر بالتفصيل غزوة أُحد وما نال المؤمنين فيها من الهزيمة بعد النصر بسبب مخالفة أمر الرسول ، ثم بيّن أن الابتلاء سنة الحياة ، وأن قتل الأنبياء لا ينبغي أن يُدخل الوهن إلى قلوب المؤمنين ، ثم توالت الآيات الكريمة في بيان الدروس والعبر من غزوة أُحد .

اللغــة : ﴿وسارعوا﴾ بادروا ﴿السراء﴾ الرخاء ﴿الضرّاء﴾ الشدة والضيق ﴿والكاظمين﴾ كظم الغيظ : ردّه في الجوف يقال : كظم غيظه أي لم يظهره مع قدرته على إيقاعه بالعدو مأخوذ من كظم القربة إذا ملأها وشد رأسها ﴿فاحشة﴾ الفاحشة : العمل الذي تناهى في القبح ﴿خلت﴾ مضت ﴿سنن﴾ السنن : جمع سنة وهي الطريقة التي يقتدى بها ومنها سنة النبي ﷺ والمراد بها هنا الوقائع التي حصلت للمكذبين ﴿قَرْح﴾ جرح بالفتح والضم قال الفراء : هو بالفتح الجرح وبالضم ألَمه[1] ،وأصل الكلمة الخلوص ومنه ماءٌ قُراح ﴿نداولها﴾ نصرّفها والمداولة : نقل الشيء من واحد إلى آخر يقال : تداولته الأيدي إذا انتقل من شخص إلى شخص ﴿وليمحّص﴾ التمحيص : التخليص يقال: محصته إذا خلّصته من كل عيب وأصله في اللغة : التنقية والإزالة ﴿ويمحق﴾ المحق : نقص الشيء قليلاً قليلاً ﴿أعقابكم﴾ جمع عقب وهو مؤخر الرجل يقال : انقلب على عقبه أي رجع إلى ما كان عليه ﴿مؤجلاً﴾ له وقت محدّد لا يتقدم ولا يتأخر ﴿وكأين﴾ كم وهي للتكثير وأصلها أيّ دخلت عليها كاف التشبيه فأصبح معناها التكثير ﴿ربيون﴾ جمع ربِّي نسبة إلى الربّ كالربانيين وهم العلماء الأتقياء العابدون لربهم وقيل : نسبة إلى الربّة وهي الجماعة ﴿استكانوا﴾ خضعوا وذلّوا وأصله من السكون لأن الخاضع يسكن لصاحبه ليصنع به ما يريد .

* وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ

التفسير : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم﴾ أي بادروا إلى ما يوجب المغفرة بطاعة الله وامتثال أوامره ﴿وجنةٍ عرضها السموات والأرض﴾ أي وإلى جنة واسعة عرضها كعرض السماء والأرض كما قال في سورة « الحديد » ﴿ عرضُها كعرض السماء والأرض﴾ والغرض بيان سعتها فإذا كان هذا عرضها فما ظنك بطولها ؟ ﴿أعدت للمتقين﴾ أي هيئت للمتقين لله ﴿الذين ينفقون في السراء والضرّاء﴾ أي يبذلون أموالهم في اليسر والعسر ، وفي الشدة والرخاء ﴿والكاظمين الغيظ﴾ أي يمسكون غيظهم مع قدرتهم على الانتقام ﴿والعافين عن الناس﴾ أي يعفون عمن أساء إليهم أو ظلمهم ﴿والله يحب المحسنين﴾ أي يحب المتصفين بتلك الأوصاف الجليلة وغيرها ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة﴾ أي ارتكبوا ذنباً

(١) القرطبي ٤/ ٢١٧ .

وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ

قبيحاً كالكبائر[١] ﴿أو ظلموا أنفسهم﴾ بإتيان أي ذنب ﴿ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾ أي تذكروا عظمة الله ووعيده لمن عصاه فأقلعوا عن الذنب وتابوا وأنابوا ﴿ومن يغفر الذنوب إلا الله﴾ استفهام بمعنى النفي أي لا يغفر الذنوب إلا الله وهي جملة اعتراضية لتطييب نفوس العباد وتنشيطهم للتوبة ولبيان أن الذنوب ـ وإن جلَّت ـ فإن عفوه تعالى أجل ورحمته أوسع ﴿ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾ أي لم يقيموا على قبيح فعلهم وهم عالمون بقبحه بل يقلعون ويتوبون ﴿أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم﴾ أي الموصوفون بتلك الصفات الحميدة جزاؤهم وثوابهم العفو عما سلف من الذنوب ﴿وجنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي ولهم جنات تجري خلال أشجارها الأنهار ﴿خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿ونعم أجر العاملين﴾ أي نعمت الجنة جزاءً لمن أطاع الله ، ثم ذكر تعالى تتمة تفصيل غزوة أُحد بعد تمهيد مبادىء الرشد والصلاح فقال ﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾ أي قد مضت سنة الله في الأمم الماضية بالهلاك والاستئصال بسبب مخالفتهم الأنبياء ﴿فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ أي تعرفوا أخبار المكذبين وما نزل بهم لتتعظوا بما ترون من آثار هلاكهم ﴿هذا بيان للناس﴾ أي هذا القرآن[٢] فيه بيانٌ شاف للناس عامة ﴿وهدى وموعظة للمتقين﴾ أي وهداية لطريق الرشاد وموعظة وذكرى للمتقين خاصة ،وإنما خصّ المتقين بالذكر لأنهم هم المنتفعون به دون سائر الناس ، ثم أخذ يسليهم عمّا أصابهم من الهزيمة في وقعة أُحد فقال ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا﴾ أي لا تضعفوا عن الجهاد ولا تحزنوا على ما أصابكم من قتلٍ أو هزيمة ﴿وأنتم الأعلون﴾ أي وأنتم الغالبون لهم المتفوقون عليهم فإن كانوا قد أصابوكم يوم أُحد فقد أبليتم فيهم يوم بدر ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي إن كنتم حقاً مؤمنين فلا تهنوا ولا تحزنوا ﴿إن يمسسْكم قرحٌ فقد مسّ القوم قرح مثلُه﴾ أي إن أصابكم قتلٌ أو جراح فقد أصاب المشركين مثل ما أصابكم ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ أي الأيام دول، يوم لك ويوم عليك، ويوم تُساء ويوم تُسر ﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾ أي فعل ذلك ليمتحنكم فيرى من يصبر عند الشدائد

(١) قال ابن عباس : الفاحشة الزنا وظلم النفس ما دونه من النظر واللّمسة .

(٢) اختار الطبري وبعض المفسرين أن تكون الإشارة راجعة إلى ما تقدم ذكره والمعنى : هذا الذي أوضحت لكم وعرفتكم به من أخبار هلاك الأمم السابقة فيه بيان للناس من العمى وهدى من الضلالة وموعظة للمتقين .

ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ

ويميز بين المؤمنين والمنافقين ﴿**ويتخذ منكم شهداء**﴾ أي وليكرم بعضكم بنعمة الشهادة في سبيل الله ﴿**والله لا يحب الظالمين**﴾ أي لا يحب المعتدين ومنهم المنافقون الذين انخذلوا عن نبيه يوم أُحد ﴿**وليمحّص الله الذين آمنوا**﴾ أي ينقيهم ويطهرهم من الذنوب ويميزهم عن المنافقين ﴿**ويمحق الكافرين**﴾ أي يهلكهم شيئاً فشيئاً ﴿**أم حسبتم أن تدخلوا الجنة**﴾ استفهام على سبيل الإنكار أي هل تظنون يا معشر المؤمنين أن تنالوا الجنة بدون ابتلاء وتمحيص ؟ ﴿**ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين**﴾ أي ولما تجاهدوا في سبيله فيعلم الله جهادكم وصبركم على الشدائد ؟ قال الطبري المعنى : أظننتم يا معشر أصحاب محمد أن تنالوا كرامة ربكم ولّما يتبين لعبادي المؤمنين المجاهدون منكم في سبيل الله والصابرون عند البأس على ما ينالهم في ذات الله من ألم ومكروه[1] ! ﴿**ولقد كنتم تمنون الموت**﴾ أي كنتم تتمنون لقاء الأعداء لتحظوا بالشهادة ﴿**من قبل أن تلقوه**﴾ أي من قبل أن تذوقوا شدته ، والآية عتاب في حق من انهزم ﴿**فقد رأيتموه وأنتم تنظرون**﴾ أي رأيتموه بأعينكم حين قُتل من إخوانكم وشارفتم أن تقتلوا ، ونزل لما أشاع الكافرون أن محمداً قد قتل وقال المنافقون : إن كان قد قتل فتعالوا نرجع إلى ديننا الأول ﴿**وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل**﴾ أي ليس محمد إلا رسول مضت قبله رسل ، والرسل منهم من مات ومنهم من قُتل ﴿**أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم**﴾ أفإن أماته الله أو قتله الكفار ارتددتم كفاراً بعد إيمانكم ؟ ﴿**ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً**﴾ أي ومن يرتد عن دينه فلا يضر الله ، وإنما يضر نفسه بتعريضها للسخط والعذاب ﴿**وسيجزي الله الشاكرين**﴾ أي يثيب الله المطيعين وهم الذين ثبتوا ولم ينقلبوا ، ثم أخبر تعالى أنه جعل لكل نفسٍ أجلاً لا يتقدم ولا يتأخر فقال ﴿**وما كان لنفسٍ أن تموت إلا بإذن الله**﴾ أي بإرادته ومشيئته ﴿**كتاباً مؤجلاً**﴾ أي كتب لكل نفسٍ أجلها كتاباً مؤقتاً بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر ، والغرض تحريضهم على الجهاد وترغيبهم في لقاء العدو ، فالجبنُ لا يزيد في الحياة ، والشجاعة لا تنقص منها ، والحذر لا يدفع القدر والإنسان لا يموت قبل بلوغ أجله وإن خاض المهالك واقتحم المعارك ﴿**ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها**﴾ أي من أراد بعمله أجر الدنيا أعطيناه منها وليس له في الآخرة من نصيب ، وهو تعريض بالذين رغبوا في الغنائم ، فبيّن تعالى أن حصول الدنيا للإنسان ليس بموضع غبطة لأنها مبذولة للبر والفاجر ﴿**ومن يرد**

---

(١) تفسير الطبري .

ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْآخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

ثواب الآخرة نؤته منها﴾ أي ومن أراد بعمله أجر الآخرة أعطيناه الأجر كاملاً مع ما قسمنا له من الدنيا كقوله ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزدْ له في حرثه﴾ **﴿وسنجزي الشاكرين﴾** أي سنعطيهم من فضلنا ورحمتنا بحسب شكرهم وعملهم **﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير﴾** أي كم من الأنبياء قاتل لإعلاء كلمة الله وقاتل معه علماء ربانيون[1] وعُبَّاد صالحون قاتلوا فقُتل منهم من قتل **﴿فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله﴾** أي ما جبنوا ولا ضعفت هممهم لما أصابهم من القتل والجراح **﴿وما ضعفوا﴾** عن الجهاد **﴿وما استكانوا﴾** أي ما ذلّوا ولا خضعوا لعدوهم **﴿والله يحب الصابرين﴾** أي يحب الصابرين على مقاساة الشدائد والأهوال في سبيل الله **﴿وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا﴾** أي ما كان قولهم مع ثباتهم وقوتهم في الدين إلا طلب المغفرة من الله **﴿وإسرافنا في أمرنا﴾** أي وتفريطنا وتقصيرنا في واجب طاعتك وعبادتك **﴿وثبت أقدامنا﴾** أي ثبتنا في مواطن الحرب **﴿وانصرنا على القوم الكافرين﴾** أي انصرنا على الكفار **﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة﴾** أي جمع الله لهم بين جزاء الدنيا بالغنيمة والعز والظفر والتمكين لهم بالبلاد وبين جزاء الآخرة بالجنة ونعيمها **﴿والله يحب المحسنين﴾** أي يحب من أحسن عمله وأخلص نيته ، وخص ثواب الآخرة بالحسن إشعارا بفضله وأنه المعتد به عند الله .

البلاغة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - ﴿عرضها السموات والأرض﴾ أي كعرض السموات والأرض حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه يسمى هذا « التشبيه البليغ » .

٢ - ﴿سارعوا إلى مغفرة﴾ من باب تسمية الشيء باسم سببه أي إلى موجبات المغفرة .

٣ - ﴿السراء والضراء﴾ فيه الطباق وهو من المحسنات البديعية .

٤ - ﴿ومن يغفر الذنوب إلا الله﴾ استفهام يقصد منه النفي أي لا يغفر .

٥ - ﴿أولئك جزاؤهم مغفرة﴾ الإشارة بالبعيد للإشعار ببعد منزلتهم وعلو طبقتهم في الفضل .

---

(١) ذهب الطبري إلى أن معنى ﴿ربيون كثير﴾ أي جموع كثيرة وهذا قول قتادة وعن الحسن أن المراد علماء كثيرون .

٦ - ﴿ونعم أجر العاملين﴾ المخصوص بالمدح محذوف أي ونعم أجر العاملين ذلك .

٧ - ﴿وليعلم الله﴾ هو من باب الالتفات لأنه جاء بعد لفظ ﴿نداولها﴾ فهو التفات من الحاضر إلى الغيبة ، والسرُّ في هذا الالتفات تعظيم شأن الجهاد في سبيل الله .

٨ - ﴿وما محمد إلا رسول﴾ قصر موصوف على صفة .

٩ - ﴿انقلبتم على أعقابكم﴾ قال في تلخيص البيان : هذه استعارة والمراد بها الرجوع عن دينه ، فشبّه سبحانه الرجوع في الإرتياب بالرجوع على الأعقاب[1] .

الفـوائـد : الأولى : في هذه الآيات الكريمة ﴿وسارعوا إلى مغفرة﴾ أمهات مكارم الأخلاق من البذل وكظم الغيظ والعفو عن المسيئين والتوبة من الذنوب ، وكلٌ منها مصدر لفضائل لا تدخل تحت الحصر .

الثانية : قدم المغفرة على الجنة لأن التخلية مقدمة على التحلية فلا يستحق دخول الجنة من لم يتطهر من الذنوب والآثام .

الثالثة : تخصيص العرض بالذكر للمبالغة في وصف الجنة بالسعة والبسطة فإذا كان هذا عرضها فكيف يكون طولها ؟ قال ابن عباس : كسبع سماوات وسبع أرضين لو وصل بعضها ببعض[2] .

الرابعة : كتب هرقل إلى النبي ﷺ إنك دعوتني إلى جنة عرضها السموات والأرض فأين النار ؟ فقال عليه السلام : (سبحان الله أين الليل إذا جاء النهار)[3] .

الخامسة : أمر تعالى بالمسارعة إلى عمل الآخرة في آيات عديدة ﴿وسارعوا إلى مغفرة﴾ و﴿سابقوا إلى مغفرة﴾ ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ ﴿فاسعوا إلى ذكر الله﴾ ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ وأما لعمل الدنيا فأمر بالهوينى ﴿فامشوا في مناكبها﴾ ﴿وآخرون يضربون في الأرض﴾ فتدبر السرّ الدقيق.

* * *

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا . . إلى . . أو قتلتم لإلى الله تحشرون﴾

من آية (١٤٩) إلى نهاية آية (١٥٨)

المناسبة : لا تزال الآيات الكريمة تتناول سرد أحداث غزوة أُحد وما فيها من العظات والعبر ، فهي تتحدث عن أسباب الهزيمة وموقف المنافقين الفاضح في تلك الغزوة ، وتآمرهم على الدعوة الإسلامية بتثبيط عزائم المؤمنين .

اللغة : ﴿سلطاناً﴾ حجة وبرهاناً وأصله القوة ومنه قيل للوالي سلطان ﴿مثوى﴾ المثوى :

(١) تلخيص البيان ص ٢١ . (٢) البحر المحيط ٣/ ٥٨ . (٣) أخرجه أحمد .

المكان الذي يكون مقر الإنسان ومأواه من قولهم ثوى بالمكان إذا أقام فيه ﴿تحسونهم﴾ تقتلونهم قال الزجاج : الحسُّ الإستئصال بالقتل وأصله الضرب على مكان الحس قال الشاعر :

حسسناهم بالسيف حساً فأصبحت بقيتهم قد شردوا وتبدّدوا

﴿تُصعدون﴾ الإصعاد : الذهاب والإبعاد في الأرض ، والفرق بينه وبين الصعود أن الإصعاد يكون في مستوى من الأرض ، والصعود يكون في ارتفاع ﴿لا تلوون﴾ أي لا تلتفتون إلى أحد كما يفعل المنهزم وأصله من ليّ العنق للإلتفات ﴿أخراكم﴾ آخركم ﴿أثابكم﴾ جازاكم ﴿أمنةً﴾ أمناً واطمئناناً ﴿يغشى﴾ يستر ويغطي ﴿وليمحّص﴾ التمحيص : التنقية وتخليص الشيء مما فيه من عيب ﴿استزلّهم﴾ أوقعهم في الزلّة وهي الخطيئة ﴿غزّى﴾ جمع غازٍ وهو الخارج في سبيل الله .

سَبَبُ النّزول : لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وقد أصيبوا بما أصيبوا يوم أُحد ، قال ناس من أصحابه : من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر ؟ فأنزل الله ﴿ولقد صدقكم الله وعده . . . إلى قوله منكم من يريد الدنيا﴾ يعني الرماة الذين فعلوا ما فعلوا يوم أُحد[1] .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾

التفسير : ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا﴾ أي إن أطعتم الكفار والمنافقين فيما يأمرونكم به ﴿يردوكم على أعقابكم﴾ أي يردوكم إلى الكفر ﴿فتنقلبوا خاسرين﴾ أي ترجعوا إلى الخسران ، ولا خسران أعظم من أن تتبدلوا الكفر بالإيمان قال ابن عباس : هم المنافقون قالوا للمؤمنين لما رجعوا من أُحد لو كان نبياً ما أصابه الذي أصابه فارجعوا إلى إخوانكم ﴿بل اللهُ مولاكم﴾ بل للإضراب أي ليسوا أنصاراً لكم حتى تطيعوهم بل الله ناصركم فأطيعوا أمره ﴿وهو خير الناصرين﴾ أي هو سبحانه خير ناصر وخير معين فلا تستنصروا بغيره ، ثم بشر تعالى المؤمنين بإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم فقال ﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ أي سنقذف في قلوبهم الخوف والفزع ﴿بما أشركوا بالله ما لم يُنزّل به سلطاناً﴾ أي بسبب إشراكهم بالله وعبادتهم معه آلهة أخرى من غير حجة ولا برهان ﴿ومأواهم النار﴾ أي مستقرهم النار ﴿وبئس مثوى الظالمين﴾ أي بئس مقام الظالمين نار جهنم ، فهم في الدنيا مرعوبون وفي الآخرة معذبون وفي الحديث (نصرت بالرعب مسيرة شهر) ﴿ولقد صدقكم الله وعده﴾ أي وفى الله لكم ما وعدكم به من النصر على عدوكم ﴿إذ تحسونهم بإذنه﴾ أي

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٧٢ .

وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ * إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ

تقتلونهم قتلاً ذريعاً وتحصدونهم بسيوفكم بإرادة الله وحكمه ﴿حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر﴾ أي حتى إذاجبنتم وضعفتم واختلفتم في أمر المقام في الجبل ﴿وعصيتم من بعدما أراكم ما تحبون﴾ أي عصيتم أمر الرسول ﷺ بعد أن كان النصر حليفكم ، روي أن النبي ﷺ وضع خمسين من الرماة فوق الجبل وأمرهم أن يدفعوا عن المسلمين وقال لهم : لا تبرحوا أماكنكم حتى ولو رأيتمونا تخطفتنا الطير ، فلما التقى الجيشان لم تقو خيل المشركين على الثبات بسبب السهام التي أخذتهم في جوههم من الرماة فانهزم المشركون ، فلما رأى الرماة ذلك قالوا : الغنيمة الغنيمةَ ونزلوا لجمع الأسلاب ، وثبت رئيسهم ومعه عشرة فجاءهم المشركون من خلف الجبل فقتلوا البقية من الرماة ونزلوا على المسلمين بسيوفهم من خلف ظهورهم فانقلب النصر إلى هزيمة للمسلمين فذلك قوله تعالى ﴿من بعد ما أراكم ما تحبون﴾ أي من بعد النصر ﴿منكم من يريد الدنيا﴾ أي الغنيمة وهم الذين تركوا الجبل ﴿ومنكم من يريد الآخرة﴾ أي ثواب الله وهم العشرة الذين ثبتوا في مركزهم مع أميرهم « عبد الله بن جبير » ثم استشهدوا ﴿ثم صرفكم عنهم ليبتليكم﴾ أي ردكم بالهزيمة عن الكفار ليمتحن إيمانكم ﴿ولقد عفا عنكم﴾ أي صفح عنكم مع العصيان ، وفيه إعلام بأن الذنب كان يستحق أكثر مما نزل بهم لولا عفو الله عنهم ولهذا قال ﴿والله ذو فضل على المؤمنين﴾ أي ذو منٍّ ونعمةٍ على المؤمنين في جميع الأوقات والأحوال ﴿إذ تُصعدون ولا تلوون على أحد﴾ أي اذكروا يا معشر المؤمنين حين وليتم الأدبار تبعدون في الفرار ولا تلتفتون إلى ما وراءكم ولا يقف واحد منكم لآخر ﴿والرسول يدعوكم في أخراكم﴾ أي ومحمد ﷺ يناديكم من وراءكم يقول (إليَّ عبادَالله ،إليَّ عبادالله ،أنا رسول الله ، من يكرُّ فله الجنة) وأنتم تمعنون في الفرار ﴿فأثابكم غماً بغم﴾ أي جازاكم على صنيعكم غماً بسبب غمكم للرسول ﷺ ومخالفتكم أمره[1] ﴿لكيلا تحزنوا على ما فاتكم﴾ أي لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من الغنيمة ﴿ولا ما أصابكم﴾ أي من الهزيمة ، والغرض بيان الحكمة من الغم ، وهو أن ينسيهم الحزن على مافاتهم وما أصابهم وذلك من رحمته تعالى بهم ﴿والله خبير بما تعملون﴾ أي يعلم المخلص من غيره ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنةً نعاساً﴾ وهذا امتنانٌ منه تعالى عليهم أي ثم أرسل عليكم بعد ذلك الغم الشديد النعاس للسكينة والطمأنينة ولتأمنوا على أنفسكم من عدوكم فالخائف لا ينام ، روى البخاري عن أنس أن أبا طلحة قال : « غشينا النعاسُ ونحن

(١) ذهب الطبري الى أن الباء بمعنى على والمعنى : فجازاكم على معصيتكم ومخالفتكم أمر الرسول غماً على غم ، كقوله ﴿ولأصلبنكم في جذوع النخل﴾ أي على جذوع النخل ، وقد رجح هذا القول ابن القيم واعتمده ابن كثير .

ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا

في مصافنا يوم أحد ، قال فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ، ويسقط وآخذه » ثم ذكر سبحانه أن تلك الأمنة لم تكن عامة بل كانت لأهل الإِخلاص ، وبقى أهل النفاق في خوف وفزع فقال ﴿ يغشى طائفةً منكم﴾ أي يغشى النوم فريقاً منكم وهم المؤمنون المخلصون ﴿وطائفةٌ قد أهمتهم أنفسهم﴾ أي وجماعة أخرى حملتهم أنفسهم على الهزيمةفلا رغبة لهم إلاّ نجاتها وهم المنافقون ، وكان السبب في ذلك توعد المشركين بالرجوع إلى القتال ، فقعد المؤمنون متهيئين للحرب فأنزل الله عليهم الأمنة فناموا ، وأما المنافقون الذين أزعجهم الخوف بأن يرجع الكفار عليهم فقد طار النوم من أعينهم من الفزع والجزع ﴿يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية﴾ أي يظنون بالله الظنون السيئة مثل ظنٍّ أهل الجاهلية ، قال ابن كثير : وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة ، وأن الإِسلام قد باد وأهله، وهذا شأن أهل الريب والشك ، إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة ، تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة[١] ﴿يقولون هل لنا من الأمر من شيء﴾ أي ليس لنا من الأمر شيء ، ولو كان لنا اختيار ما خرجنا لقتال ﴿قل ان الأمر كله لله﴾ أي قل يا محمد لأولئك المنافقين الأمر كله بيد الله يصرّفه كيف شاء ﴿يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك﴾ أي يبطنون في أنفسهم ما لا يظهرون لك ﴿يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا﴾ أي لو كان الاختيار لنا لم نخرج فلم نُقتل ولكن أكرهنا على الخروج ، وهذا تفسير لما يبطنونه قال الزبير : أُرسل علينا النوم ذلك اليوم وإِني لأسمع قول «معتّب بن قشير» والنعاس يغشاني يقول : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا[٢] ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كُتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾ أي قل لهم يا محمد لو لم تخرجوا من بيوتكم وفيكم من قدّر الله عليه القتل لخرج أولئك إلى مصارعهم ، فَقَدَرُ الله لا مناص منه ولا مفر ﴿وليبتلي الله ما في صدوركم﴾ أي ليختبر ما في قلوبكم من الإِخلاص والنفاق ﴿وليمحّص ما في قلوبكم﴾ أي ولينقّي ما في قلوبكم ويطهّره فعل بكم ذلك ﴿والله عليم بذات الصدور﴾ أي عالم بالسرائر مطّلع على الضمائر وما فيها خير أو شر ، ثم ذكر سبحانه الذين انهزموا يوم أُحد فقال ﴿إن الذين تولوا منكم﴾ أي انهزموا منكم من المعركة ﴿يوم التقى الجمعان﴾ أي جمع المسلمين وجمع المشركين ﴿إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ﴾ أي إنما أزلهم الشيطان بوسوسته وأوقعهم في الخطيئة ببعض ما عملوا من الذنوب وهو مخالفة أمر الرسول ﷺ ﴿ولقد عفا الله

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٣٣٠ . (٢) تفسير القرطبي ٤/ ٢٤٢ .

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

عنهم﴾ أي تجاوز عن عقوبتهم وصفح عنهم ﴿إن الله غفور حليم﴾ أي واسع المغفرة حليم لا يعجل العقوبة لمن عصاه ، ثم نهى سبحانه عن الاقتداء بالمنافقين في أقوالهم وأفعالهم فقال ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا﴾ أي لا تكونوا كالمنافقين ﴿وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض﴾ أي وقالوا لإخوانهم من أهل النفاق إذا خرجوا في الأسفار والحروب ﴿أو كانوا غزى﴾ أو خرجوا غازين في سبيل الله ﴿لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا﴾ أي لو أقاموا عندنا ولم يخرجوا لما ماتوا ولا قتلوا ، قال تعالى ردّاً عليهم ﴿ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم﴾ أي قالوا ذلك ليصير ذلك الاعتقاد الفاسد حسرة في نفوسهم ﴿والله يحيي ويميت﴾ ردٌّ على قولهم واعتقادهم أي هو سبحانه المحيي المميت فلا يمنع الموت قعود ﴿والله بما تعملون بصير﴾ أي مطلع على أعمال العباد فيجازيهم عليها ﴿ولئن قتلتم في سبيل الله﴾ أي استشهدتم في الحرب والجهاد ﴿أو متم﴾ أي جاءكم الموت وأنتم قاصدون قتالهم ﴿لمغفرة من الله ورحمة خيرٌ مما يجمعون﴾ أي ذلك خير من البقاء في الدنيا وجمع حطامها الفاني ﴿ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون﴾ أي وسواء متم على فراشكم أو قتلتم في ساحة الحرب فإن مرجعكم إلى الله فيجازيكم بأعمالكم ، فآثروا ما يقربكم إلى الله ويوجب لكم رضاه من الجهاد في سبيل الله والعمل بطاعته ، ولله در القائل حيث يقول :

فإن تكن الأبدان للموت أُنشئت فقتل امرىءٍ بالسيف في الله أفضل

البَلَاغَة : ١ - ﴿يردوكم على أعقابكم﴾ أي يرجعوكم من الإيمان إلى الكفر وهو من باب الاستعارة وقد تقدم .

٢ - بين لفظ ﴿آمنوا﴾ و﴿كفروا﴾ في الآية طباق وكذلك بين ﴿يخفون﴾ و﴿يبدون﴾ وبين ﴿فاتكم﴾ و﴿أصابكم﴾ وهو من المحسنات البديعية .

٣ - ﴿وبئس مثوى الظالمين﴾ لم يقل وبئس مثواهم بل وضع الظاهر مكان الضمير للتغليظ وللإشعار بأنهم ظالمون لوضعهم الشيء في غير موضعه والمخصوص بالذم محذوف أي بئس مثوى الظالمين النار أفاده أبو السعود[1] .

٤ - ﴿ذو فضل على المؤمنين﴾ التنكير للتفخيم وقوله ﴿على المؤمنين﴾ دون عليهم فيه الإظهار في موضع الإضمار للتشريف والإشعار بعلة الحكم .

---

(١) أبو السعود ١/ ٢٨٢ .

٥ - ﴿يظنون بالله ظنَّ﴾ بينهما جناس الاشتقاق وكذلك في ﴿فتوكل .. والمتوكلين﴾ .

٦ - ﴿إذا ضربوا في الأرض﴾ فيه استعارة تشبيهاً للمسافر في البر بالسابح الضارب في البحر . لأنه يضرب بأطرافه في غمرة الماء شقاً لها واستعانة على قطعها كذا في تلخيص البيان[1].

فـائـدة : من الذين ثبتوا في المعركة بأُحد الأسد المقدام « أنس بن النضر » عم أنس بن مالـك ، فلما هزم المسلمون وأشاع المنافقون أن محمداً ﷺ قد قتل قال : اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني المسلمين - وأبرأ إليك مما فعل هؤلاء - يعني المشركين - ثم تقدم بسيفه فلقيه « سعد بن معاذ » فقال : أين يا سعد ؟ والله إنـي لأجد ريح الجنة دون أحد ، فمضى فقُتل ومثَّل به المشركون فلم يعرفه أحد إلا أخته عرفته من بنانه ورؤي وبه بضع وثمانون من طعنةٍ وضربةٍ ورميةٍ بسهم[2] .

فـائـدة : روى ابن كثير عن ابن مسعود قال : إن النساء كنَّ يـوم أُحد خلف المسلمين يُجهزن على جرحى المشركين ، فلو حلفتُ يومئذٍ رجوت أن أبرّ أنه ليس أحد منا يريد الدنيا حتـى أنزل الله ﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾ فلما خالف أصحاب رسول الله ﷺ وعصوا ما أُمروا به أُفرد النبي ﷺ في تسعة وهو عاشرهم فلما أرهقوه قال : رحم الله رجلاً ردّهم عنا فلم يزل يقول ذلك حتى قتل سبعة منهم ، فنظروا فإذا حمزة قد بقر بطنه وأخذت هند كبده فلاكتها فلم تستطيع أن تأكلها ، وحزن عليه رسول الله ﷺ حزناً شديداً ، وصلى عليه يومئذٍ سبعين صلاة .

* * *

قال الله تعالى : ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم .. إلى .. عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾
من آية (١٥٩) إلى نهاية آية (١٦٨)

المنـاسـبة : لا تزال الآيات تتحدث عن غزوة أُحد ، فقد ذكر تعالى فيما سبق انهزام المسلمين وما أصيبوا به من غمٍّ واضطراب ، وأرشدهم إلى موطن الداء ووصف لهم الدواء ، وفي هذه الآيات الكريمة اشادة بالقيادة الحكيمة ، فمع مخالفة بعض الصحابة لأوامر الرسول ﷺ فقد وسعهم عليـه السلام بخلقه الكريم وقلبه الرحيم ، ولم يخاطبهم بالغلظة والشدة وإنما خاطبهم باللطف واللين ، ولذلك اجتمعـت القلوب حول دعوته ، وتوحّدت تحت قيادته ، والآيات تتحدث عن أخلاق النبوة ، وعن المنّـة العظمى ببعثة الرسول الرحيم والقائد الحكيم وعن بقية الأحداث الهامة في تلك الغزوة .

اللغـة : ﴿فظاً﴾ الفظُّ : الغليظ الجافي قال الواحدي هو الغليظ سيـىءالخلق قال الشاعر :

أخشى فظاظـة عمٍّ أو جفـاء أخٍ ... وكنـتُ أخشى عليهـا من أذى الكلم

﴿غليظ القلب﴾ هو الذي لا يتأثر قلبه ولا يرقّ ومن ذلك قول الشاعر :

يُبـكَى علينـا ولا نبـكي على أحدٍ ؟ ... لنحـن أغلـظُ أكبـاداً من الإبل[3]

---

(١) تلخيص البيان ص ٢٢ . (٢) انظر قصته في صحيح البخاري . (٣) البحر المحيط ٣/ ٨١ .

﴿ انفضوا﴾ تفرقوا وأصل الفضّ الكسر ومنه قولهم : لا يفضض الله فاك ﴿يغل﴾ الغُلول : الخيانة وأصله أخذ الشيء في الخفية يقال : غلّ فلان في الغنيمة أي أخذ شيئاً منها في خفية ﴿باء﴾ رجع ﴿سخط﴾ السخط : الغضب الشديد ﴿مأواه﴾ منزله ومثواه ﴿يزكيهم﴾ يطهرهم ﴿منّ﴾ المِنّة : الإنعام والإحسان ﴿فادرءوا﴾ الدرء : الدفع ومنه ﴿ويدرأ عنها العذاب﴾ .

سَبَبُ النّزول : فقدت قطيفة حمراء يوم بدر من المغنم فقال بعض الناس لعلّ النبي ﷺ أخذها فأنزل الله ﴿وما كان لنبيّ أن يغل . .﴾[1] الآية .

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ

التفسير : ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾ أي فبسبب رحمةٍ من الله أودعها الله في قلبك يا محمد كنت هيناً ليّن الجانب مع أصحابك مع أنهم خالفوا أمرك وعصوك ﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ أي لو كنت جافي الطبع قاسي القلب ، تعاملهم بالغلظة والجفا ، لتفرقوا عنك ونفروا منك ، ولمّا كانت الفظاظة في الكلام نفى الجفاء عن لسانه والقسوة عن قلبه ﴿فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر﴾ أي فتجاوز عما نالك من أذاهم يا محمد ، واطلب لهم من الله المغفرة ، وشاورهم في جميع أمورك ليقتدي بك الناس قال الحسن «ما شاور قومٌ قط إلاّ هُدوا لأرشد أمورهم »[2] وكان عليه السلام كثير المشاورة لأصحابه ﴿فإذا عزمت فتوكل على الله﴾ أي إذا عقدت قلبك على أمر بعد الاستشارة فاعتمد على الله وفوّض أمرك إليه ﴿إن الله يحب المتوكلين﴾ أي يحب المعتمدين عليه ، المفوضين أمورهم إليه ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم﴾ أي إن أراد الله نصركم فلا يمكن لأحدٍ أن يغلبكم ﴿وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده﴾ أي وإن أراد خذلانكم وترك معونتكم فلا ناصر لكم ، فمهما وقع لكم من النصر كيوم بدر أو من الخذلان كيوم أُحد بمشيئته سبحانه فالأمر كله لله ، بيده العزة والنصرة والإذلال والخذلان ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي وعلى الله وحده فليلجأ وليعتمد المؤمنون ﴿وما كان لنبيّ أن يغلّ﴾ أي ما صحّ ولا استقام شرعاً ولا عقلاً لنبيٍّ من الأنبياء أن يخون في الغنيمة ، والنفيُ هنا نفيٌ للشأن وهو أبلغ من نفي الفعل لأنّ المراد أنه لا يتأتّى ولا يصحُّ أن يُتصوّر فضلاً عن أن يحصل ويقع ﴿ومن يغلل يأت بما غلّ يوم القيامة﴾ أي ومن يخُن من غنائم المسلمين شيئاً يأت حاملاً له على عنقه يوم القيامة فضيحةً له على رءوس الأشهاد ﴿ثم توفّى كل نفسٍ ما كسبت﴾ أي تعطى جزاء ما عملت وافياً غير منقوص

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٧٢ . (٢) الطبري ٧/ ٣٣٤

رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا

﴿وهم لا يُظلمون﴾ أي تنال جزاءها العادل دون زيادة أو نقص ، فلا يزاد في عقاب العاصي ، ولا ينقص من ثواب المطيع ﴿أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخطٍ من الله﴾ أي لا يستوي من أطاع الله وطلب رضوانه ، ومن عصى الله فاستحق سخطه وباء بالخسران ﴿ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ أي مصيره ومرجعه جهنم وبئست النار مستقراً له ﴿هم درجات عند الله﴾ أي متفاوتون في المنازل قال الطبري : هم مختلفو المنازل عند الله ، فلمن اتبع رضوان الله الكرامةُ والثواب الجزيل ، ولمن باء بسخطٍ من الله المهانةُ والعقاب الأليم[1] ﴿والله بصير بما يعملون﴾ أي لا تخفى عليه أعمال العباد وسيجازيهم عليها ، ثمَّ ذكّر تعالى المؤمنين بالمنّة العظمى عليهم ببعثة خاتم المرسلين فقال ﴿لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم﴾ أي والله لقد أنعم الله على المؤمنين حين أرسل إليهم رسولاً عربياً من جنسهم ، عرفوا أمره وخبروا شأنه ، وخصَّ تعالى المؤمنين بالذكر وإن كان رحمة للعالمين ، لأنهم هم المنتفعون ببعثته ﴿يتلو عليهم آياته﴾ أي يقرأ عليهم الوحي المنزل ﴿ويزكيهم﴾ أي يطهرهم من الذنوب ودنس الأعمال ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ أي يعلمهم القرآن المجيد والسنة المطهرة ﴿وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ أي وإنه الحال والشأن كانوا قبل بعثته في ضلال ظاهر ، فنقلوا من الظلمات إلى النور ، وصاروا أفضل الأمم ﴿أو لما أصابتكم مصيبة﴾ أي أو حين أصابتكم أيها المؤمنون كارثةٌ يوم أحد فقُتل منكم سبعون ﴿قد أصبتم مثليها﴾ أي في بدر حيث قتلتم سبعين وأسرتم سبعين ﴿قلتم أنّى هذا﴾ ؟ أي من أين هذا البلاء ، ومن أين جاءتنا الهزيمة وقد وعدنا بالنصر ، وموضع التقريع قولهم ﴿أنى هذا﴾ ؟ مع أنهم سبب النكسة والهزيمة ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ أي قل لهم يا محمد : إن سبب المصيبة منكم أنتم بمعصيتكم أمر الرسول وحرصكم على الغنيمة ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ أي يفعل ما يشاء لا معقب لحكمه ولا رادّ لقضائه ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله﴾ أي وما أصابكم يوم أُحد ، يوم التقى جمع المسلمين وجمع المشركين فبقضاء الله وقدره وبإرادته الأزلية وتقديره الحكيم ، ليتميَّز المؤمنون عن المنافقين ﴿وليعلم المؤمنين﴾ أي ليعلم أهل الإيمان الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا ﴿وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا﴾ أي وليعلم أهل النفاق كعبد الله بن أُبي

(١) الطبري ٧/ ٣٦٧ .

لَاتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾

ابن سلول وأصحابه الذين انخذلوا يوم أُحد عن رسول الله ﷺ ورجعوا وكانوا نحواً من ثلاثمائةرجل فقال لهم المؤمنون: تعالوا قاتلوا المشركين معنا أو ادفعوا بتكثيركم سوادنا ﴿قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم﴾ أي قال المنافقون لو نعلم أنكم تلقون حرباً لقاتلنا معكم ، ولكن لا نظن أن يكون قتال ﴿هم للكفر يومئذٍ أقرب منهم للإيمان﴾ أي بإظهارهم هذا القول صاروا أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان ﴿يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم﴾ أي يظهرون خلاف ما يضمرون ﴿والله أعلم بما يكتمون﴾ أي بما يخفونه من النفاق والشرك ﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا﴾ أي وليعلم الله أيضاً المنافقين الذين قالوا لإخوانهم الذين هم مثلهم وقد قعدوا عن القتال ﴿لو أطاعونا ما قتلوا﴾ أي لو أطاعنا المؤمنون وسمعوا نصيحتنا فرجعوا كما رجعنا ما قتلوا هنالك ﴿قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾ أي قل يا محمد لأولئك المنافقين إن كان عدم الخروج ينجي من الموت فادفعوا الموت عن أنفسكم إن كنتم صادقين في دعواكم ، والغرض منه التوبيخ والتبكيت وأن الموت آتٍ إليكم ولو كنتم في بروج مشيدة .

البلاغة : ١ - ﴿إن ينصركم .. وإن يخذلكم﴾ بينهما مقابلة وهي من المحسنات البديعية .

٢ - ﴿وعلى الله فليتوكل﴾ تقديم الجار والمجرور لإفادة الحصر .

٣ - ﴿وما كان لنبي أن يغل﴾ أي ما صح ولا استقام والنفي هنا للشأن وهو أبلغ من نفي الفعل .

٤ - ﴿أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله﴾ قال أبو حيان :«هذا من الاستعارة البديعة جعل ما شرعه الله كالدليل الذي يتبعه من يهتدي به ، وجعل العاصي كالشخص الذي أمر بأن يتبع شيئاً فنكص عن اتباعه ورجع بدونه »[1] .

٥ - ﴿بسخطٍ من الله﴾ التنكير للتهويل أي بسخط عظيم لا يكاد يوصف .

٦ - ﴿هم درجات﴾ على حذف مضاف أي ذوو درجات متفاوتة ، فالمؤمن درجته مرتفعة والكافر درجته متضعة[2] .

٧ - ﴿للكفر .. وللإيمان﴾ بينهما طباق وكذلك بين ﴿يبدون .. ويخفون﴾ .

٨ - ﴿أصابتكم مصيبة﴾ بينهما جناس الاشتقاق ، وهو من المحسنات البديعية .

---

(١) البحر المحيط ٣/ ١٠١ . (٢) تلخيص البيان ص ٢٢ .

تنبيه : في هذه الآية ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾ دلالة على اختصاص نبينا بمكارم الأخلاق ، ومن عجيب أمره ﷺ أنه كان أجمع الناس لدواعي العظمة ثم كان أدناهم إلى التواضع ، فكان أشرف الناس نسباً وأوفرهم حسباً وأزكاهم عملاً وأسخاهم كرماً وأفصحهم بياناً وكلها من دواعي العظمة ، ثم كان من تواضعه عليه السلام أنه كان يرقع الثوب ويخصف النعل ويركب الحمار ويجلس على الأرض ويجيب دعوة العبد المملوك فصلوات الله وسلامه على السراج المنير بحر المكارم والفضائل .

فائدة : التوكل على الله من أعلى المقامات لوجهين : أحدهما محبة الله للعبد ﴿إن الله يحب المتوكلين﴾ والثاني الضمان في كنف الرحمن ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾[1] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً . . إلى . . والله بما تعملون خبير﴾ من آية (١٦٩) إلى نهاية آية (١٨٠)

المناسبة : لا تزال الآيات الكريمة تتابع أحداث أُحد ، وتكشف عن أسرار المنافقين ومواقفهم المخزية ، وتوضّح الدروس والعبر من تلك الغزوة المجيدة .

اللغة : ﴿يستبشرون﴾ يفرحون وأصله من البشرة لأن الإنسان إذا فرح ظهر أثر السرور في وجهه قال ابن عطية : وليست استفعل في هذا الموضع بمعنى طلب البشارة وإنما هي بمعنى الفعل المجرد كقوله تعالى ﴿واستغنى الله﴾ ﴿القَرح﴾ بالفتح الجرح وبالضم ألم الجرح وقد تقدم ﴿حسبنا﴾ كافينا مأخوذ من الإحساب بمعنى الكفاية قال الشاعر :

فتملأُ بيتنا أقْطاً وسَمْناً   وحسبُك من غنىً شِبَعٌ وريُّ

﴿حظّاً﴾ الحظ : النصيب ويستعمل في الخير والشر وإذا لم يقيّد يكون للخير ﴿نملي﴾ الإملاء : التأخير والإمهال قال القرطبي : والمراد بالإملاء هنا طول العمر ورغد العيش[2] ﴿يميز﴾ يميِّز يقال : ماز وميّز أي فصل الشيء من الشيء ومنه ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾ ﴿يجتبي﴾ يختار ﴿سيطوّقون﴾ من الطّوق وهو القلادة أي يلزمون به لزوم الطوق في العنق .

سَبَبُ النّزول : أ ـ عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ : لمّا أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في جوف طيرٍ خضرٍ ، ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقةً في ظلّ العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومَشْربهم ومَقيلهم قالوا : من يبلّغ إخواننا عنا أنّا أحياءٌ في الجنة نرزق لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكُلوا عند الحرب فقال الله سبحانه : أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله ﴿ولا تحسبنَّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً﴾[3] الآية .

ب ـ عن جابر بن عبد الله قال : لقيني رسول الله ﷺ فقال يا جابر : ما لي أراك منكساً مُهتماً ؟

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ١/ ١٢٢ . (٢) القرطبي ٤/ ٢٨٦ . (٣) أسباب النزول ص ٧٣ والقرطبي ٤/ ٢٦٨ .

قلت يا رسول الله : استُشْهد أبي وترك عيالاً وعليه دين فقال : ألا أبشرك بما لقي الله عز وجل به أباك ؟ قلت : بلى يا رسول الله ، قال : إن الله أحيا أباك وكلّمه كفاحاً[١] ـ وما كلّم أحداً قط إلا من وراء حجاب ـ فقال له : يا عبد الله تمنَّ أعطك قال يا رب : أسألك أن تردني الى الدنيا فأُقتل فيك ثانية فقال الرب تبارك وتعالى : إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يرجعون ، قال يا رب : فأبلغ من ورائي فأنزل الله ﴿ولا تحسبنَّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً﴾[٢].

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ

التفسير : ﴿ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً﴾ أي لا تظنَّن الذين استشهدوا في سبيل الله لإعلاء دينه أمواتاً لا يُحسّون ولا يتنعمون ﴿بل أحياء عند ربهم يُرزقون﴾ أي بل هم أحياء متنعمون في جنان الخلد يرزقون من نعيمها غدواً وعشياً قال الواحدي : الأصح في حياة الشهداء ما روي عن النبي ﷺ من أن أرواحهم في أجواف طيور خضر وأنهم يُرزقون ويأكلون ويتنعمون ﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ أي هم منعّمون في الجنة فرحون بما هم فيه من النعمة والغبطة ﴿ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم﴾ أي يستبشرون بإخوانهم المجاهدين الذين لم يموتوا في الجهاد بما سيكونون عليه بعد الموت إن استشهدوا فهم لذلك فرحون مستبشرون ﴿ألاّ خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي بأنْ لا خوف عليهم في الآخرة ولا هم يحزنون على مفارقة الدنيا لأنهم في جنات النعيم ﴿يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾ أكّد استبشارهم ليذكر ما تعلّق به من النعمة والفضل والمعنى : يفرحون بما حباهم الله تعالى من عظيم كرامته وبما أسبغ عليهم من الفضل وجزيل الثواب ، فالنعمة ما استحقوه بطاعتهم ، والفضلُ ما زادهم من المضاعفة في الأجر ﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح﴾ أي الذين أطاعوا الله وأطاعوا الرسول من بعد ما نالهم الجراح يوم أُحد قال ابن كثير : وهذا كان يوم « حمراء الأسد »[٣] وذلك أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين كرّوا راجعين إلى بلادهم ثم ندموا لم لا تمّموا على أهل المدينة وجعلوها الفيصلة ، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ ندب المسلمين إلى الذهاب وراءهم ليرعبهم ويريهم أنّ بهم قوة وجَلَداً ، ولم يأذن لأحدٍ سوى من حضر أحداً فانتدب المسلمون على ما بهم من الجراح والإثخان طاعة لله عز وجل ولرسوله ﷺ[٤] . ﴿للذين أحسنوا

(١) كفاحاً : أي مواجهة بدون حجاب ولا رسول . (٢) أخرجه ابن ماجه والترمذي كذا في القرطبي ٤/ ٢٦٨ .
(٣) حمراء الأسد مكانٌ على بعد ثمانية أميال من المدينة المنورة . (٤) مختصر ابن كثير ١/ ٣٣٨ .

فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾

منهم واتقوا أجر عظيم﴾ أي لمن أطاع منهم أمر الرسول وأجابه إلى الغزو - على ما به من جراح وشدائد - الأجرُ العظيم والثوابُ الجزيل ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً﴾ أي الذين أرجف لهم المرجفون من أنصار المشركين فقالوا لهم : إن قريشاً قد جمعت لكم جموعاً لا تحصى فخافوا على أنفسكم فما زادهم هذا التخويف إلا إيماناً ﴿وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ أي قال المؤمنون الله كافينا وحافظنا ومتولي أمرنا ونعم الملجأ والنصير لمن توكل عليه جل وعلا ﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل﴾ أي فرجعوا بنعمة السلامة وفضل الأجر والثواب ﴿لم يمسسهم سوء﴾ أي لم ينلهم مكروه أو أذى ﴿واتَّبعوا رضوان الله﴾ أي نالوا رضوان الله الذي هو سبيل السعادة في الدارين ﴿والله ذو فضل عظيم﴾ أي ذو إحسان عظيم على العباد ﴿إنما ذلكم الشيطان يخوّف أولياءه﴾ أي إنما ذلكم القائل ﴿إن الناس قد جمعوا لكم﴾ بقصد تثبيط العزائم هو الشيطان يخوفكم أولياءه وهم الكفار لترهبوهم ﴿فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ أي فلا تخافوهم ولا ترهبوهم فإني متكفل لكم بالنصر عليهم ، ولكن خافوا إن كنتم مؤمنين حقاً أن تعصوا أمري فتهلكوا ، والمراد بالشيطان « نعيم ابن مسعود الأشجعي» الذي أرسله أبو سفيان ليثبط المسلمين ، قال أبو حيان : وإنما نسب إلى الشيطان لأنه ناشيء عن وسوسته وإغوائه وإلقائه[1] ﴿ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ تسلية للنبي ﷺ أي لا تحزن ولا تتألم يا محمد لأولئك المنافقين الذين يبادرون نحو الكفر بأقوالهم وأفعالهم ، ولا تبال بما يظهر منهم من آثار الكيد للإسلام وأهله ﴿إنهم لن يضروا الله شيئاً﴾ أي إنهم بكفرهم لن يضروا الله شيئاً وإنما يضرون أنفسهم ﴿يريد الله ألاّ يجعل لهم حظاً في الآخرة﴾ أي يريد تعالى بحكمته ومشيئته ألاّ يجعل لهم نصيباً من الثواب في الآخرة ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ أي ولهم فوق الحرمان من الثواب عذاب عظيم في نار جهنم ﴿إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئاً ولهم عذاب أليم﴾ أي الذين استبدلوا الكفر بالإيمان وهم المنافقون المذكورون قبل ، لن يضروا الله بكفرهم وارتدادهم ولهم عذاب مؤلم ﴿ولا يحسبنّ الذين كفروا أنما نُملي لهم خيرٌ لأنفسهم﴾ أي لا يظنَّن الكافرون أن إمهالنا لهم بدون جزاء وعذاب ، وإطالتنا لأعمارهم خير لهم ﴿إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾ أي إنما نمهلهم ونؤخر آجالهم

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٣٤٠ .

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾

ليكتسبوا المعاصي فتزداد آثامهم ﴿**ولهم عذاب مهين**﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب يهينهم ﴿**ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب**﴾ هذا وعدٌ من الله لرسوله بأنه سيميّز له المؤمن من المنافق والمعنى لن يترك الله المؤمنين مختلطين بالمنافقين حتى يبتليهم فيفصل بين هؤلاء وهؤلاء ، كما فعل في غزوة أُحد حيث ظهر أهل الإيمان وأهل النفاق قال ابن كثير « أي لا بدّ أن يعقد شيئاً من المحنة يظهر فيها وليُّه ويُفضح بها عدوه ، يُعرف به المؤمن الصابر من المنافق الفاجر ، كما ميّز بينهم يوم أُحد »[١] . ﴿**وما كان الله ليطلعكم على الغيب**﴾ قال الطبري : وأولى الأقوال بتأويله : أي وما كان الله ليطلعكم على قلوب عباده فتعرفوا المؤمن من المنافق والكافر ، ولكنه يميز بينهم بالمحن والإبتلاء كما ميّز بينهم يوم أُحد بالبأساء وجهاد عدوه[٢] ﴿**ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء**﴾ أي يختار من رسله من يشاء فيطلعهم على غيبه كما أطلع النبي ﷺ على حال المنافقين ﴿**فآمنوا بالله ورسله**﴾ أي آمنوا إيماناً صحيحاً بأن الله وحده المطلع على الغيب وأن ما يخبر به الرسول من أمور الغيب إنما هو بوحي من الله ﴿**وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم**﴾ أي وإن تصدّقوا رسلي وتتقوا ربكم بطاعته فلكم ثواب عظيم ﴿**ولا يحسبنَّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم**﴾ لما بالغ تعالى في التحريض على بذل النفس في الجهاد شرع هنا في التحريض على بذل المال في سبيل الله ، وذكر الوعيد الشديد لمن يبخل بماله والمعنى لا يحسبنَّ البخيلُ أن جمعه المال وبخله بإنفاقه ينفعه ، بل هو مضرّة عليه في دينه ودنياه ﴿**بل هو شرٌّ لهم**﴾ أي ليس كما يظنون بل ذلك البخلُ شرٌّ لهم ﴿**سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة**﴾ أي سيجعل الله ما بخلوا به طوقاً في أعناقهم يعذبون به يوم القيامة كما جاء في صحيح البخاري (من آتاه الله مالاً فلم يؤدّ زكاته مُثِّل له يوم القيامة شجاعاً أقرع - أي ثعباناً عظيماً - له زبيبتان فيأخذ بلهزمتيه - يعني شدقيه - ثم يقول : أنا مالك أنا كنزك ثم تلا ﷺ ﴿ولا يحسبنَّ الذين يبخلون﴾ الآية ﴿**ولله ميراث السموات والأرض**﴾) أي جميع ما في الكون ملك له يعود إليه بعد فناء خلقه ﴿**والله خبير بما تعملون**﴾ أي مطلع على أعمالكم .

البَـلاغَـة : قال في البحر : تضمنت هذه الآيات فنوناً من البلاغة والبديع : **الإطناب** في ﴿يستبشرون﴾ وفي ﴿لن يضروا﴾ وفي آسم الجلالة في مواضع ، والطباق في ﴿أمواتاً بل أحياء﴾ وفي

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٣٤٠ . (٢) الطبري ٧/ ٤٢٧ .

﴿الكفر بالإيمان﴾ والاستعارة في ﴿اشتروا الكفر﴾ وفي ﴿يسارعون في الكفر﴾ وفي ﴿الخبيث والطيب﴾ إذ يراد به المؤمن والمنافق والحذف في مواضع(١) .

فَائِدَة : قوله تعالى ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ هي الكلمة التي قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار قال السيوطي في الإكليل : يستحب قول هذه الكلمة عند الغمّ والأمور العظيمة .

* * *

قال الله تعالى : ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير . . إلى . . والله على كل شيء قدير﴾ من آية (١٨١) إلى نهاية آية (١٨٩)

المُنَاسَبَة : بعد أن انتهى الاستعراض القرآني لمعركة أُحد وما فيها من أحداث جسيمة ، وتناولت الآيات ضمن ما تناولت مكائد المنافقين ودسائسهم ، وما انطوت عليه نفوسهم من الكيد للإسلام والغدر بالمسلمين وتثبيط عزائمهم عن الجهاد في سبيل الله ، أعقبه تعالى بذكر دسائس اليهود وأساليبهم الخبيثة في محاربة الدعوة الإسلامية عن طريق التشكيك والبلبلة ، والكيد والدسّ ، ليحذّر المؤمنين من خطرهم كما حذّرهم من المنافقين ، والآيات الكريمة تتحدث عن اليهود وموقفهم المخزي من الذات الإلهية ، واتهامهم لله عز وجل بأشنع الاتهامات بالبخل والفقر ، ثم نقضهم للعهود ، وقتلهم للأنبياء ، وخيانتهم للأمانة التي حمّلهم الله إيّاها ، إلى آخر ما هنالك من جرائم وشنائع اتصف بها هذا الجنس الملعون .

اللغَة : ﴿عهد إلينا﴾ أوصانا ﴿بقربان﴾ القربان : ما يذبح من الأنعام تقرباً إلى الله تعالى ﴿البينات﴾ الآيات الواضحات والمراد به هنا المعجزات ﴿الزُّبُر﴾ جمع زبور وهو الكتاب من الزَّبر وهو الكتابة ، والزبور بمعنى المزبور أي المكتوب كالرَّكوب بمعنى المركوب قال الزجاج : الزبور كل كتاب ذي حكمة ﴿زحزح﴾ الزحزحة : التنحية والإبعاد تكرير الزح وهو الجذب بعجلة ﴿فاز﴾ ظفر بما يؤمل ونجا مما يخاف ﴿الغرور﴾ مصدر غرَّه يغرّه غروراً أي خدعه ﴿متاع﴾ المتاع : ما يُتمتع به ويُنتفع ثم يزول ﴿لتبلونّ﴾ لتمتحننَّ من بلاه أي امتحنه ﴿عزم الأمور﴾ أصل العزم ثباتُ الرأي على الشيء والمراد هنا صواب التدبير والرأي وهو مما ينبغي لكل عاقل أن يعزم عليه ﴿بمفازة﴾ بمنجاة من قولهم فاز فلان إذا نجا .

سَبَبُ النّزول : أ ـ عن ابن عباس قال : دخل أبو بكر الصّدّيق ذات يوم بيت مدراس اليهود ، فوجد ناساً من اليهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له «فنحاص بن عازوراء» وكان من علمائهم وأحبارهم فقال أبو بكر لفنحاص : ويحك اتق الله وأسلِمْ فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسولٌ من عند الله قد جاءكم بالحق من عنده تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل، فقال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر وإنه إلينا لفقير ، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا وإنّا عنه لأغنياء ، ولو كان غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ،ينهاكم عن الربا ويعطينا ولو كان غنياً ما أعطانا الربا، فغضب أبو بكر وضرب وجه «فنحاص» ضربةً شديدة وقال : والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدو

(١) البحر المحيط ٣/ ١٢٩ .

الله ، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال يا محمد : انظر إلى ما صنع بي صاحبك ، فقال رسول الله ﷺ : ما حملك على ما صنعتَ يا أبا بكر ؟ فقال يا رسول الله : إنَّ عدو الله قال قولاً عظيماً ، زعم أن الله فقير وأنهم أغنياء ، فغضبتُ لله وضربتُ وجهه فجحد ذلك فنحاص فأنزل الله ردّاً على فنحاص وتصديقاً لأبي بكر ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾[١] الآية .

ب ـ عن ابن عباس قال : جاء جماعة من اليهود إلى رسول الله ﷺ ـ منهم كعب بن الأشرف ، ومالك بن الصيف ،وفنحاص بن عازوراء ـ وغيرهم فقالوا : يا محمد تزعم أنك رسول الله وأنه تعالى أنزل عليك كتاباً ، وقد عهد الله إلينا في التوراة ألاّ نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار ، فإن جئتنا بهذا صدّقناك فنزلت هذه الآية ﴿الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار﴾[٢] الآية .

﴿لَقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾

التفسير : ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ هذه المقالة الشنيعة مقالة أعداء الله اليهود عليهم لعنة الله زعموا أن الله فقير ، وذلك حين نزل قوله تعالى ﴿من ذا الذي يُقرض الله قرضاً حسناً﴾ قالوا : إن الله فقير يقترض منا كما قالوا ﴿يد الله مغلولة﴾ قال القرطبي : وإنما قالوا هذا تمويهاً على ضعفائهم لا أنهم يعتقدون هذا ، وغرضُهم تشكيك الضعفاء من المؤمنين وتكذيب النبي ﷺ أي إنه فقير على قول محمد لأنه اقترض منا[٣] ﴿سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق﴾ أي سنأمر الحفظة بكتابة ما قالوه في صحائف أعمالهم ونكتب جريمتهم الشنيعة بقتل الأنبياء بغير حق ، والمراد بقتلهم الأنبياء رضاهم بفعل أسلافهم ﴿ونقول ذوقوا عذاب الحريق﴾ أي ويقول الله لهم في الآخرة على لسان الملائكة : ذوقوا عذاب النار المحرقة الملتهبة ﴿ذلك بما قدمت أيديكم﴾ أي ذلك العذاب بما اقترفته أيديكم من الجرائم ﴿وأن الله ليس بظلاّم للعبيد﴾ أي وأنه سبحانه عادل ليس بظالم للخلق ، والمراد أن ذلك العقاب حاصل بسبب معاصيكم ، وعدلِ اللّه تعالى فيكم ، قال الزمخشري : ومن العدل أن يعاقب المسيء ويثيب المحسن[٤] ﴿الذين قالوا إن الله عهد إلينا﴾ أي هم الذين قالوا إن الله أمرنا وأوصانا في التوراة ﴿ألاّ نؤمن لرسولٍ حتى يأتينا بقربانٍ تأكله النار﴾ أي أمرنا بأن لا نصدّق لرسول حتى يأتينا بآية خاصة وهي أن يقدّم قرباناً فتنزل نار من السماء فتأكله ، وهذا افتراء على الله حيث لم يعهد إليهم بذلك ﴿قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبيّنات وبالذي قلتم﴾ أي قل لهم يا محمد توبيخاً وإظهاراً لكذبهم : قد

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٧٦ ومختصر ابن كثير ١/ ٣٤٢ . (٢) التفسير الكبير للرازي ٩/ ١٢١ .
(٣) القرطبي ٤/ ٢٩٤ (٤) الكشاف ١/ ٣٤٤ .

وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ

جاءتكم رسلٌ قبلي بالمعجزات الواضحات والحجج الباهرات الدالة على صدق نبوتهم وبالذي ادعيتم ﴿فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين﴾ أي فلم كذبتموهم وقتلتموهم إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان بالله والتصديق برسله ؟ ثم قال تعالى مسلياً لرسوله ﷺ ﴿فإن كذبوك فقد كُذِّب رسلٌ من قبلك﴾ أي لا يحزنك يا محمد تكذيب هؤلاء لك ، فإنهم إن فعلوا ذلك فقد كذَّبت أسلافهم من قبلُ رسل الله فلا تحزن فلك بهم أسوة حسنة ﴿جاءوا بالبينات﴾ أي كذبوهم مع أنهم جاءوهم بالبراهين القاطعة والمعجزات الواضحة ﴿والزُّبُر والكتاب المنير﴾ أي بالكتب السماوية المملوءة بالحِكَم والمواعظ ، والكتاب الواضح الجلي كالتوراة والإنجيل ﴿كل نفسٍ ذائقة الموت﴾ أي مصير الخلائق إلى الفناء وكل نفسٍ ميّتة لا محالة كقوله ﴿كلٌّ من عليها فان﴾ ﴿وإنما توفَّون أجوركم يوم القيامة﴾ أي تُعطون جزاء أعمالكم وافياً يوم القيامة ﴿فمن زُحزح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز﴾ أي فمن نُحي عن النار وأُبْعِد عنها ، وأُدخل الجنة فقد فاز بالسعادة السرمدية والنعيم المخلّد ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ أي ليست الدنيا إلا دار الفناء يستمتع بها الأحمق المغرور قال ابن كثير : الآية فيها تصغير لشأن الدنيا وتحقير لأمرها وأنها فانية زائلة[1] ﴿لتبلونَّ في أموالكم وأنفسكم﴾ أي والله لتمتحننَّ وتختبرنَّ في أموالكم بالفقر والمصائب ، وفي أنفسكم بالشدائد والأمراض ﴿ولتسمعنَّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً﴾ أي ولينالنكم من اليهود والنصارى والمشركين -أعدائكم- الأذى الكثير ، وهذا إخبارٌ منه جلّ وعلا للمؤمنين بأنه سينالهم بلايا وأكدار من المشركين والفجّار ، وأمرٌ لهم بالصبر عند وقوع ذلك لأن الجنة حفَّت بالمكاره ولهذا قال ﴿وإن تصبروا وتتقوا﴾ أي وإن تصبروا على المكاره وتتقوا الله في الأقوال والأعمال ﴿فإن ذلك من عزم الأمور﴾ أي الصبر والتقوى من الأمور التي ينبغي أن تعزموا وتحزموا عليها لأنها مما أمر الله بها ﴿وإذْ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب﴾ أي اذكر يا محمد حين أخذ الله العهد المؤكد على اليهود في التوراة ﴿لتبيننَّه للناس ولا تكتمونه﴾ أي لتظهرنَّ ما في الكتاب من أحكام الله ولا

(١) مختصر ابن كثير ١/٣٤٣ .

يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾

تخفونها ، قال ابن عباس : هي لليهود أُخذ عليهم العهد والميثاق في أمر رسول الله ﷺ فكتموه ونبذوه[١] ﴿فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً﴾ أي طرحوا ذلك العهد وراء ظهورهم واستبدلوا به شيئاً حقيراً من حُطام الدنيا ﴿فبئس ما يشترون﴾ أي بئس هذا الشراء وبئست تلك الصفقة الخاسرة ﴿لا تحسبنَّ الذين يفرحون بما أتوا﴾ أي لا تظننَّ يا محمد الذين يفرحون بما أتوا من إخفاء أمرك عن الناس ﴿ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾ أي ويحبون أن يحمدهم الناس على تمسكهم بالحق وهم على ضلال ﴿فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب﴾ أي فلا تظننَّهم بمنجاة من عذاب الله ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي عذاب مؤلم قال ابن عباس : نزلت في أهل الكتاب سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه إيّاه وأخبروه بغيره وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم إياه ما سألهم عنه[٢] ﴿ولله ملك السموات والأرض﴾ أي له سبحانه جميع ما في السموات والأرض فكيف يكون من له ما في السموات والأرض فقيراً ؟ والآية ردٌّ على الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ﴿والله على كل شيء قدير﴾ أي هو تعالى قادر على عقابهم .

البلاغة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يأتي :

١ ـ ﴿إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ أكد اليهود الجملة بـ﴿إنَّ الله فقيرٌ﴾ على سبيل المبالغة ، فحيث نسبوا الى أنفسهم الغنى لم يؤكدوا بل أخرجوا الجملة مخرج ما لا يحتاج الى تأكيد كأنَّ الغنى وصف لهم لا يمكن فيه نزاع فيحتاج إلى تأكيد وهذا دليل على تمردهم في الكفر والطغيان .

٢ ـ ﴿سنكتب ما قالوا﴾ فيه مجاز يسمى المجاز العقلي أي ستكتب ملائكتنا ولما كان الله لا يكتب وإنما يأمر بالكتابة أسند الفعل إليه مجازاً .

٣ ـ ﴿ذلك بما قدمت أيديكم﴾ فيه مجاز مرسل من إطلاق اسم الجزء وإرادة الكل وذكر الأيدي لأن أكثر الأعمال تُزوال بهن .

٤ ـ ﴿تأكله النار﴾ إسناد الأكل إلى النار بطريق الاستعارة إذ حقيقة الأكل إنما تكون في الإنسان والحيوان وكذلك توجد استعارة في قوله ﴿ذائقة الموت﴾ لأن حقيقة الذوق ما يكون بحاسّة اللسان .

٥ ـ ﴿متاع الغرور﴾ قال الزمخشري : « شبه الدنيا بالمتاع الذي يدلّس به على المستام ويُغر حتى يشتريه والشيطان هو المدلِّس الغرور »[٢] فهو من باب الاستعارة .

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ١/ ١٢٦ (٢) الكشاف ١/ ٣٤٥ .

٦ ـ ﴿فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً﴾ كذلك توجد استعارة في النبذ والاشتراء شبّه عدم التمسك والعمل به بالشيء الملقى خلف ظهر الإنسان وباشتراء ثمن قليل ما تعوضوه من الحطام على كتم آيات الله .

٧ ـ وفي الآيات الكريمة من المحسنات البديعية الطباق في ﴿فقير وأغنياء﴾ والمقابلة ﴿زحزح عن النار وأُدخل الجنة﴾ وفي ﴿لتبيننَّه . . ولا تكتمونه﴾ والجناس المغاير في ﴿قول الذين قالوا﴾ وفي ﴿كذبوك فقد كذب﴾ .

فَائِدَة : صيغة فعّال في الآية ﴿وما ربك بظلاّم﴾ ليست للمبالغة وإنما هي للنسب مثل عطّار ونجّار وتمّار كلها ليست للمبالغة وإنما هي للنسب قال ابن مالك .

ومع فاعل وفعَّال فُعل في نسبٍ أغنى من الياء قُبل

تَنبِيه : إنما وصف تعالى عيش الدنيا ونعيمها بأنه متاع الغرور ، لما تمنّيه لذاتها وشهواتها من طول البقاء وأمل الدوام فتخدعه ثم تصرعه ، ولهذا قال بعض السلف : الدنيا متاعٌ متروك يوشك أن يضمحلّ ويزول ، فخذوا من هذا المتاع واعملوا فيه بطاعة الله ما استطعتم والله المستعان .

* * *

قال الله تعالى : ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات . . إلى آخر السورة﴾

من آية (١٩٠) إلى نهاية آية (٢٠٠)

المُنَاسَبَة : بدأ تعالى هذه السورة الكريمة بذكر أدلة التوحيد والألوهية والنبوة ، وختمها بذكر دلائل الوحدانية والقدرة ودلائل الخلق والإيجاد ، ليستدل منها الإنسان على البعث والنشور فكان ختام مسك ، ولما كان المقصود من هذا الكتاب العظيم جذب القلوب والأرواح عن الاشتغال بالخلق إلى معرفة الإله الحق ، جاءت الآيات الكريمة تنير القلوب بأدلة التوحيد والإلهية والكبرياء والجلال ، فلفتت الأنظار إلى التفكر والتدبر في ملكوت السموات والأرض ، ليخلص الإنسان إلى الاعتراف بوحدانية الله وباهر قدرته وهو يتأمل في كتاب الله المنظور « الكون الفسيح » بعد أن تأمل في كتاب الله المسطور « القرآن العظيم » وفي الكتاب المسطور إشارات عديدة لآيات الكتاب المنظور وهو يدعو إلى معرفة الحقائق باستخدام الحواس ﴿وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾ .

اللغَة : ﴿الألباب﴾ العقول ﴿باطلاً﴾ عبثاً بدون حكمة ﴿سبحانك﴾ تنزيهٌ للّه عن السوء ﴿أخزيته﴾ أذللته وأهنته ﴿كفّرْ عنا﴾ استر وامح ﴿الأبرار﴾ جمع بر أو بارّ وهم المستمسكون بالشريعة ﴿فاستجاب﴾ بمعنى أجاب ﴿نُزُلاً﴾ النُّزُل : ما يهيأ للنزيل وهو الضيف من أنواع الإكرام ﴿رابطوا﴾ المرابطة : ترصد العدو في الثغور .

سَبَبُ النّزول : عن أم سلمة قالت قلت : يا رسول الله لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء فأنزل الله ﴿فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عاملٍ منكم من ذكر أو أنثى﴾[1] الآية .

إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى

التفسير : ﴿إن في خلق السموات والأرض﴾ أي إن في خلق السموات والأرض على ما بهما من إحكام وإبداع ﴿واختلاف الليل والنهار﴾ أي وتعاقب الليل والنهار على الدوام ﴿لآياتٍ لأولي الألباب﴾ أي علامات واضحة على الصانع وباهر حكمته ، ولا يظهر ذلك إلا لذوي العقول الذين ينظرون إلى الكون بطريق التفكر والاستدلال لا كما تنظر البهائم ، ثم وصف تعالى أولي الألباب فقال ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾ أي يذكرون الله بألسنتهم وقلوبهم في جميع الأحوال في حال القيام والقعود والاضطجاع فلا يغفلون عنه تعالى في عامة أوقاتهم ، لاطمئنان قلوبهم بذكره واستغراق سرائرهم في مراقبته ﴿ويتفكرون في خلق السموات والأرض﴾ أي يتدبرون في ملكوت السموات والأرض ، في خلقهما بهذه الأجرام العظام وما فيهما من عجائب المصنوعات وغرائب المبتدعات قائلين ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً﴾ أي ما خلقت هذا الكون وما فيه عبثاً من غير حكمة ﴿سبحانك فقنا عذاب النار﴾ أي ننزهك يا ألله عن العبث فأجرنا واحمنا من عذاب جهنم ﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته﴾ أي من أدخلته النار فقد أذللته وأهنته غاية الإهانة وفضحته على رءوس الأشهاد ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ أي ليس لهم من يمنعهم من عذاب الله ، والمراد بالظالمين الكفار كما قال ابن عباس وجمهور المفسرين وقد صرح به في البقرة﴿والكافرون هم الظالمون﴾ ﴿ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان﴾ أي داعياً يدعو إلى الإيمان وهو محمد ﷺ ﴿أن آمنوا بربكم فآمنا﴾ أي يقول هذا الداعي أيها الناس آمنوا بربكم واشهدوا له بالوحدانية فصدقنا بذلك واتبعناه ﴿ربنا فاغفر لنا ذنوبنا﴾ أي استر لنا ذنوبنا ولا تفضحنا بها ﴿وكفّر عنا سيئاتنا﴾ أي امح بفضلك ورحمتك ما ارتكبناه من سيئات ﴿وتوفنا مع الأبرار﴾ أي ألحقنا بالصالحين قال ابن عباس : الذنوب هي الكبائر والسيئات هي الصغائر ويؤيده ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تُنهون عنه نكفّر عنكم سيئاتكم﴾ فلا تكرار إذاً ﴿ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك﴾ تكرير النداء للتضرع ولإظهار كمال الخضوع أي أعطنا ما وعدتنا على ألسنة رسلك وهي الجنة لمن أطاع قاله ابن

(١) الطبري ٧/ ٤٨٨ وأسباب النزول ص ٨٠ . (١) البحر المحيط ٣/ ١٤٢ .

﴿لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ﴾

عباس ﴿ولا تخزنا يوم القيامة﴾ أي لا تفضحنا كما فضحت الكفار ﴿إنك لا تخلفُ الميعاد﴾ أي لا تخلف وعدك وقد وعدت من آمن بالجنة ﴿فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عاملٍ منكم من ذكر أو أُنثى﴾ أي أجاب الله دعاءهم بقوله إني لا أُبطل عمل من عمل خيراً ذكراً كان العامل أو أُنثى قال الحسن : ما زالوا يقولون ربنا ، ربنا ، حتى استجاب لهم[1] ﴿بعضكم من بعض﴾ أي الذكر من الأنثى ، والأنثى من الذكر ، فإذا كنتم مشتركين في الأصل فكذلك أنتم مشتركون في الأجر[2] ﴿فالذين هاجروا وأُخرجوا من ديارهم﴾ أي هجروا أوطانهم فارين بدينهم ، وألجأهم المشركون إلى الخروج من الديار ﴿وأوذوا في سبيلي﴾ أي تحملوا الأذى من أجل دين الله ﴿وقاتلوا وقتلوا﴾ أي وقاتلوا أعدائي وقتلوا في سبيلي ﴿لأكفرنَّ عنهم سيئاتهم﴾ أي الموصوفون بما تقدم لأمحونَّ ذنوبهم بمغفرتي ورحمتي ﴿ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله﴾ أي ولأدخلنهم جنات النعيم جزاءً من عند الله على أعمالهم الصالحة ﴿والله عنده حسن الثواب﴾ أي عنده حسن الجزاء وهي الجنة التي فيها ما لا عينٌ رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ثم نبه تعالى إلى ما عليه الكفار في هذه الدار من النعمة والغبطة والسرور ، وبيّن أنه نعيم زائل فقال ﴿لا يغرنك تقلُّبُ الذين كفروا في البلاد﴾ أي لا يخدعنك أيها السامع تنقل الذين كفروا في البلاد طلباً لكسب الأموال والجاه والرتب ﴿متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾ أي إنما يتنعمون بذلك قليلاً ثم يزول هذا النعيم ، ومصيرهم في الآخرة إلى النار ، وبئس الفراش والقرار نار جهنم . ﴿لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ أي لكن المتقون لله لهم النعيم المقيم في جنات النعيم مخلدين فيها أبداً ﴿نزلاً من عند الله﴾ أي ضيافة وكرامة من عند الله ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾ أي وما عند الله من الثواب والكرامة للأخيار الأبرار ، خير مما يتقلب فيه الأشرار الفجار من المتاع القليل الزائل ، ثم أخبر تعالى عن إيمان بعض أهل الكتاب فقال ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أُنزل إليكم وما أُنزل إليهم﴾ أي ومن اليهود والنصارى فريق يؤمنون بالله حق الإيمان ، ويؤمنون بما أنزل إليكم وهو القرآن وبما أنزل إليهم وهو التوراة والإنجيل كعبد الله بن

(١) القرطبي ٤/٣١٨ . (٢) قال الطبري : بعضكم من بعض في النصرة والملة والدين ، وما ذكرناه رأي الجلالين وهو أظهر .

أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

سلام وأصحابه ، والنجاشي وأتباعه ﴿**خاشعين لله**﴾ أي خاضعين متذللين لله ﴿**لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً**﴾ أي لا يحرّفون نعت محمد ولا أحكام الشريعة الموجودة في كتبهم لعرضٍ من الدنيا خسيس كما فعل الأحبار والرهبان ﴿**أولئك لهم أجرهم عند ربهم**﴾ أي ثواب إيمانهم يعطونه مضاعفاً كما قال ﴿أولئك يُؤتون أجرهم مرتين﴾ ﴿**إن الله سريع الحساب**﴾ أي سريعٌ حسابُه لنفوذ علمه بجميع المعلومات ، يعلم ما لكل واحدٍ من الثواب والعقاب ، قال ابن عباس والحسن :نزلت في النجاشي وذلك أنه لما مات نعاه جبريل لرسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ لأصحابه : قوموا فصلوا على أخيكم النجاشي ، فقال بعضهم لبعض : يأمرنا أن نصلي على علج من علوج الحبشة فأنزل الله ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله﴾[1] الآية . ثم ختم تعالى السورة الكريمة بهذه الوصية الجامعة لسعادة الدارين فقال : ﴿**يا أيها الذين آمنوا اصبروا**﴾ أي اصبروا على مشاقّ الطاعات وما يصيبكم من الشدائد ﴿**وصابروا**﴾ أي غالبوا أعداء الله بالصبر على أهوال القتال وشدائد الحروب ﴿**ورابطوا**﴾ أي لازموا ثغوركم مستعدين للكفاح والغزو ﴿**واتقوا الله لعلكم تفلحون**﴾ أي خافوا الله فلا تخالفوا أمره لتفوزوا بسعادة الدارين .

البـلاغـة : تضمنت هذه الآيات من ضروب البيان والبديع ما يلي :

١ ـ الإطناب في قوله ﴿ربنا﴾ حيث كرر خمس مرات والغرض منه المبالغة في التضرع .

٢ ـ الطباق في قوله﴿السموات والأرض﴾ و﴿الليل والنهار﴾ و﴿قياماً وقعوداً﴾ و﴿ذكرٍ أو أُنثى﴾ .

٣ ـ الإيجاز بالحذف ﴿ ما وعدتنا على رسلك﴾ أي على ألسنة رسلك وكذلك في قوله ﴿ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا﴾ أي قائلين ربنا .

٤ ـ الجناس المغاير في قوله ﴿آمنوا . . فآمنا﴾ وفي ﴿عمَل عاملٍ﴾ وفي ﴿منادٍ يُنادي﴾ .

٥ ـ ﴿ لآيات لأولي الألباب﴾ التنكير للتفخيم ودخلت اللام في خبر إنَّ لزيادة التأكيد .

٦ ـ الاستعارة في قوله ﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا﴾ استعير التقلب للضرب في الأرض لطلب المكاسب والله أعلم .

الفـوائـد : الأولى : إنما خصص التفكر بالخلق للنهي عن التفكر في الخالق ففي الحديث الشريف(تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فإنكم لا تقدرون الله قدره) وذلك لعدم الوصول إلى

(١) البحر المحيط ٣/ ١٤٨ والقرطبي ٤/ ٣٢٢ .

كنه ذاته وصفاته قال بعض العلماء : المتفكر في ذات الله كالناظر في عين الشمس لأنه تعالى ليس كمثله شيء .

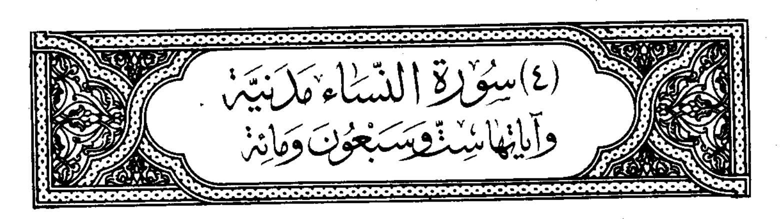
الثانية : تكرر النداء بهذا الاسم الجليل ﴿ربنا﴾ خمس مرات كل ذلك على سبيل الاستعطاف وتطلب رحمة الله بندائه بهذا الاسم الشريف الدال على التربية والملك والإصلاح .

الثالثة : سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن أعجب ما رأته من رسول الله ﷺ فبكت وقالت : كل أمره كان عجباً ، أتاني في ليلتي حتى مسَّ جلده جلدي ثم قال (ذريني أتعبد لربي عز وجل) فقلت : والله إني لأحب قربك وأحب هواك ،فقام إلى قربة من ماء في البيت فتوضأ ولم يكثر صبّ الماء ثم قام يصلي فبكى حتى بلّ لحيته ، ثم سجد فبكى حتى بلّ الأرض ، ثم اضطجع على جنبه فبكى حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح فقال يا رسول الله : ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟فقال (ويحك يا بلال وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله عليَّ في هذه الليلة ﴿إن في خلق السموات والأرض . .﴾ الآيات ثم قال : ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها)[1] .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة آل عمران »

* * *

(١) أخرجه ابن مردويه وانظر ابن كثير ١/ ٣٤٨ .



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

سورة النساء إحدى السور المدنية الطويلة ، وهي سورة مليئة بالأحكام الشرعية ، التي تنظم الشئون الداخلية والخارجية للمسلمين ، وهي تُعْنى بجانب التشريع كما هو الحال في السور المدنية ، وقد تحدثت السورة الكريمة عن أمور هامة تتعلق بالمرأة ، والبيت ، والأسرة ، والدولة ، والمجتمع ، ولكنَّ معظم الأحكام التي وردت فيها كانت تبحث حول موضوع النساء ولهذا سميت « سورة النساء » ! !

تحدثت السورة الكريمة عن حقوق النساء والأيتام - وبخاصة اليتيمات - في حجور الأولياء والأوصياء ، فقررت حقوقهن في الميراث والكسب والزواج ، واستنقذتهن من عسف الجاهلية وتقاليدها الظالمة المهينة .

* وتعرضت لموضوع المرأة فصانت كرامتها ، وحفظت كيانها ، ودعت إلى إنصافها بإعطائها حقوقها التي فرضها الله تعالى لها كالمهر ، والميراث ، وإحسان العشرة .

* كما تعرضت بالتفصيل إلى « أحكام المواريث » على الوجه الدقيق العادل ، الذي يكفل العدالة ويحقق المساواة ، وتحدثت عن المحرمات من النساء « بالنسب ، والرضاع ، والمصاهرة » .

* وتناولت السورة الكريمة تنظيم العلاقات الزوجية وبينت انها ليست علاقة جسد وإنما علاقة إنسانية ، وأن المهر ليس أجراً ولا ثمناً ، وإنما هو عطاء يوثق المحبة ، ويديم العشرة ، ويربط القلوب .

* ثم تناولت حق الزوج على زوجته ، وحق الزوجة على زوجها ، وأرشدت إلى الخطوات التي ينبغي أن يسلكها الرجل لإصلاح الحياة الزوجية ، عندما يبدأ الشقاق والخلاف بين الزوجين ، وبيّنت معنى « قوامة الرجل » وانها ليست قوامة استعباد وتسخير ، وإنما هي قوامة نصحٍ وتأديب كالتي تكون بين الراعي ورعيته .

* ثم انتقلت من دائرة الأسرة إلى « دائرة المجتمع » فأمرت بالإحسان في كل شيء ، وبيّنت أن

أساس الإحسان التكافل والتراحم ، والتناصح والتسامح ، والأمانة والعدل ، حتى يكون المجتمع راسخ البنيان قوي الأركان .

* ومن الإصلاح الداخلي انتقلت الآيات إلى الاستعداد للأمن الخارجي الذي يحفظ على الأمة استقرارها وهدوءها ، فأمرت بأخذ العدّة لمكافحة الأعداء .

* ثم وضعت بعض قواعد المعاملات الدولية بين المسلمين والدول الأخرى المحايدة أو المعادية .

* واستتبع الأمر بالجهاد حملة ضخمة على المنافقين ، فهم نابتة السوء وجرثومة الشر التي ينبغي الحذر منها ، وقد تحدثت السورة الكريمة عن مكايدهم وخطرهم .

* كما نبهت إلى خطر أهل الكتاب وبخاصة اليهود وموقفهم من رسل الله الكرام .

* ثم ختمت السورة الكريمة ببيان ضلالات النصارى في أمر المسيح عيسى بن مريم حيث غالوا فيه حتى عبدوه ثم صلبوه[1] مع اعتقادهم بألوهيته ، واخترعوا فكرة التثليث فأصبحوا كالمشركين الوثنيّين ، وقد دعتهم الآيات الى الرجوع عن تلك الضلالات إلى العقيدة السمحة الصافية « عقيدة التوحيد » وصدق الله حيث يقول : ﴿ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد﴾ .

التسمية : سميت سورة النساء لكثرة ما ورد فيها من الأحكام التي تتعلق بهن ، بدرجة لم توجد في غيرها من السور ولذلك أُطلق عليها « سورة النساء الكبرى » في مقابلة « سورة النساء الصغرى » التي عرفت في القرآن بسورة الطلاق .

* * *

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة . . إلى . . إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾ من آية (١) الى نهاية آية (١٠) .

* * *

اللغة : ﴿بثّ﴾ نشر وفرّق ومنه ﴿وزرابي مبثوثة﴾ ﴿الأرحام﴾ جمع رحم وهو في الأصل مكان تكون الجنين في بطن أمه ثم أطلق على القرابة ﴿رقيباً﴾ الرقيب : الحفيظ المطّلع على الأعمال ﴿حُوْباً﴾ الحُوْب : الذنب والإثم ﴿تعولوا﴾ تميلوا وتجوروا يقال : عال الميزان إذا مال ، وعال الحاكم إذا جار ﴿صدقاتهن﴾ جمع صَدُقة وهو المهر ﴿نِحْلة﴾ هبة وعطية ﴿السفهاء﴾ ضعفاء العقول والمراد به هنا المبذّرون للأموال ﴿آنستم﴾ أبصرتم من آنس الشيءَ أبصره ﴿بداراً﴾ أي مبادرة بمعنى مسارعة أي يسارع في تبذيرها قبل أن يكبر اليتيم فيتسلمها منه ﴿سديداً﴾ من السداد بمعنى الاستقامة .

---

(١) أي زعموا أنه صلب وقد أحسن من قال : إذا صلب الإله بفعل عبدٍ يهودي فما هذا الإله ؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾

سَبَبُ النُّزول : أ ـ عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى ﴿وإن خفتم ألاّ تقسطوا في اليتامى﴾ فقالت : يا ابن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليّها تَشركُه في ماله ، ويعجبه مالها وجمالها ، فيريد وليّها أن يتزوجها بغير أن يُقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره ، فنهوا عن ذلك إلاّ أن يُقْسطوا لهنَّ ويبلغوا لهنَّ أعلى سنتهن في الصَّداق ، فأُمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهنّ ، وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فأنزل الله ﴿ويستفتونك في النساء﴾[1] الآية

ب ـ عن مقاتل بن حيان أن رجلاً من غطفان يقال له « مرثد بن زيد » وليَ مال ابن أخيه وهو يتيم صغير فأكله فأنزل الله ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً . .﴾[2] الآية .

التفسير : افتتح الله جل ثناؤه سورة النساء بخطاب الناس جميعاً ودعوتهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، منبهاً لهم على قدرته ووحدانيته فقال ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس ٍ واحدة﴾ أي خافوا الله الذي أنشأكم من أصل ٍ واحد وهو نفس أبيكم آدم ﴿وخلق منها زوجها﴾ أي أوجد من تلك النفس الواحدة زوجها وهي حواء ﴿وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً﴾ أي نشر وفرّق من آدم وحواء خلائق كثيرين ذكوراً وإناثاً ﴿واتقوا الله الذي تَسَاءلون به والأرحام﴾ أي خافوا الله الذي يناشد بعضكم بعضاً به حيث يقول : أسألك بالله ، وأنشدك بالله ، واتقوا الأرحام أن تقطعوها ﴿إن الله كان عليكم رقيباً﴾ أي حفيظاً مطلعاً على جميع أحوالكم وأعمالكم ، وقد أكد تعالى الأمر بتقوى الله في موطنين : في أول الآية ، وفي آخرها ليشير إلى عظم حق الله على عباده ، كما قرن تعالى بين التقوى وصلة الرحم ليدل على أهمية هذه الرابطة الإنسانية ، فالناس جميعاً من أصل واحد ، وهم إخوة في الإنسانية والنسب ، ولو أدرك الناس هذا لعاشوا في سعادة وأمان ، ولما كانت هناك حروب طاحنة مدمرة تلتهب الأخضر واليابس ، وتقضي على الكهل والوليد ، ثم ذكر تعالى اليتامى فأوصى بهم خيراً وأمر بالمحافظة على أموالهم فقال ﴿وآتوا اليتامى أموالهم﴾ أي أعطوا اليتامى الذين مات آباؤ هم وهم صغار أموالهم إذا بلغوا ﴿ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب﴾ أي لا تستبدلوا الحرام وهو مال اليتامى بالحلال وهو مالكم ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى

(١) أخرجه البخاري ومسلم . (٢) القرطبي ٥/٥٣ وأسباب النزول ص ٨٣ .

وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ

أموالكم﴾ أي لا تخلطوا أموال اليتامى بأموالكم فتأكلوها جميعاً **﴿إنه كان حوباً كبيراً﴾** أي ذنباً عظيماً ، فإن اليتيم بحاجة إلى رعاية وحماية لأنه ضعيف ، وظلم الضعيف ذنب عظيم عند الله ، ثم أرشد تعالى إلى ترك التزوج من اليتيمة إذا لم يعطها مهر المثل فقال **﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى﴾** أي إذا كانت تحت حَجْر أحدكم يتيمة وخاف ألا يعطيها مهر مثلها فليتركها إلى ما سواها فإن النساء كثير ولم يضيّق الله عليه[1] **﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾** أي انكحوا ما شئتم من النساء سواهنَّ إن شاء أحدكم اثنتين وإن شاء ثلاثاً وإن شاء أربعاً **﴿فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾** أي إن خفتم من عدم العدل بين الزوجات فالزموا الاقتصار على واحدة **﴿أو ما ملكت أيمانكم﴾** أي اقتصروا على نكاح الإماء لملك اليمين إذ ليس لهن من الحقوق كما للزوجات **﴿ذلك أدنى ألاَّ تعولوا﴾** أي ذلك الاقتصار على الواحدة أو على ملك اليمين أقرب ألا تميلوا وتجوروا **﴿وآتوا النساء صدقاتهن نحلة﴾** أي أعطوا النساء مهورهنّ عطيةً عن طيب نفس **﴿فإن طبنَ لكم عن شيءٍ منه نفساً﴾** أي فإن طابت نفوسهن بهبة شيءٍ من الصَّداق **﴿فكلوه هنيئاً مريئاً﴾** أي فخذوا ذلك الشيء الموهوب حلالاً طيباً **﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً﴾** أي لا تعطوا المبذرين من اليتامى أموالهم التي جعلها الله قياماً للأبدان ولمعايشكم فيضيعوها قال ابن عباس : السفهاء هم الصبيان والنساء وقال الطبري : لا تؤتِ سفيهاً ماله وهو الذي يفسده بسوء تدبيره ، صبياً كان أو رجلاً ، ذكراً كان أو أنثى[2] **﴿وارزقوهم فيها واكسوهم﴾** أي أطعموهم منها واكسوهم **﴿وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾** أي قولاً ليناً كقولكم إذا رَشَدْتم سلمنا إليكم أموالكم **﴿وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح﴾** أي اختبروا اليتامى حتى إذا بلغوا سنَّ النكاح وهو بلوغ الحلم الذي يصلحون عنده للنكاح **﴿فإن آنستم منهم رُشْداً فادفعوا إليهم أموالهم﴾** أي إن أبصرتم منهم صلاحاً في دينهم ومالهم فادفعوا إليهم أموالهم بدون تأخير **﴿ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا﴾** أي لا تسرعوا في إنفاقها وتبذّروها قائلين ننفق كما نشتهي قبل ان يكبر اليتامى فينتزعوها من أيدينا **﴿ومن كان غنياً فليستعفف﴾** أي من كان منكم غنياً أيها الأولياء فليعف عن مال اليتيم ولا يأخذ أجراً على وصايته **﴿ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف﴾** أي

(١) اختار الطبري أن المعنى إن خفتم ألا تعدلوا في اليتامى فخافوا أيضاً ألا تعدلوا بين النساء إذانكحتموهن، وما أثبتناه هو الموافق لسبب النزول وهو اختيار ابن كثير . (٢) الطبري ٧/ ٥٦٥ .

بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾

ومن كان فقيراً فليأخذ بقدر حاجته الضرورية وبقدر أجرة عمله **﴿فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم﴾** أي فإذا سلمتم إلى اليتامى أموالهم بعد بلوغهم الرشد فأشهدوا على ذلك لئلا يجحدوا تسلمها **﴿وكفى بالله حسيباً﴾** أي كفى بالله محاسباً ورقيباً، ثم بيّن تعالى أن للرجال والنساء نصيباً من تركة الأقرباء فقال **﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون﴾** أي للأولاد والأقرباء حظ من تركة الميت كما للبنات والنساء حظ أيضاً الجميع فيه سواء يستوون في أصل الوارثة وإن تفاوتوا في قدرها، وسببها أن بعض العرب كانوا لا يورّثون النساء والأطفال وكانوا يقولون: إنما يرث من يحارب ويذبُّ عن الحوزة فأبطل الله حكم الجاهلية **﴿مما قلَّ منه أو كثر﴾** أي سواء كانت التركة قليلة أو كثيرة **﴿نصيباً مفروضاً﴾** أي نصيباً مقطوعاً فرضه الله بشرعه العادل وكتابه المبين **﴿وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه﴾** أي إذا حضر قسمة التركة الفقراء من قرابة الميت واليتامى والمساكين من غير الوارثين فأعطوهم شيئاً من هذه التركة تطييباً لخاطرهم **﴿وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾** أي قولاً جميلاً بأن تعتذروا إليهم أنه للصغار وأنكم لا تملكونه **﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم﴾** نزلت في الأوصياء أي تذكر أيها الوصي ذريتك الضعاف من بعدك وكيف يكون حالهم وعامل اليتامى الذين في حَجْرك بمثل ما تريد أن يُعامل به أبناؤك بعد فقدك **﴿فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً﴾** أي فليتقوا الله في أمر اليتامى وليقولوا لهم ما يقولونه لأولادهم من عبارات العطف والحنان **﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾** أي يأكلونها بدون حق **﴿إنما يأكلون في بطونهم ناراً﴾** أي ما يأكلون في الحقيقة إلا ناراً تتأجج في بطونهم يوم القيامة **﴿وسيصلون سعيراً﴾** أي سيدخلون ناراً هائلة مستعرة وهي نار السعير.

البلاغة: تضمنت الآيات من ضروب الفصاحة والبيان ما يلي:

١ ـ الطباق في **﴿غنياً وفقيراً﴾** وفي **﴿قلَّ أو كثر﴾** وفي **﴿رجالاً ونساءً﴾** وفي **﴿الخبيث بالطيب﴾**.

٢ ـ والجناس المغاير في **﴿دفعتم فادفعوا﴾** وفي **﴿قولوا قولاً﴾**.

٣ ـ والإطناب في ﴿فادفعوا إليهم أموالهم . . فإذا دفعتم إليهم أموالهم﴾ وفي ﴿للرجال نصيب مما ترك الولدان . . وللنساء نصيب مما ترك الولدان والأقربون﴾ .

٤ ـ والمجاز المرسل في ﴿وآتوا اليتامى أموالهم﴾ أي الذين كانوا يتامى فهو باعتبار ما كان وكذلك ﴿يأكلون في بطونهم ناراً﴾ مجاز مرسل وهو باعتبار ما يئول إليه كقوله ﴿إني أراني أعصر خمراً﴾ أي عنباً يئول إلى الخمر .

٥ ـ المقابلة اللطيفة بين ﴿ومن كان غنياً فليستعفف . . ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف﴾ .

٦ ـ والإيجاز في مواضع مثل ﴿رجالاً كثيراً ونساءً﴾ أي ونساء كثيرات . . . الخ .

الفــوَائِـد : الأولى : في الافتتاح بتذكير الناس أنهم خلقوا من نفسٍ واحدة تمهيد جميل وبراعة مطلع لما في السورة من أحكام الأنكحة والمواريث والحقوق الزوجية وأحكام المصاهرة والرضاع وغيرها من الاحكام الشرعية .

الثانية : الأغلب أنه إذا كان الخطاب بـ ﴿يا أيها الناس﴾ وكان للكافرين فقط أو للكافرين وغيرهم أُعقب بدلائل الوحدانية والربوبية مثل ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم﴾ و﴿يا أيها الناس إن وعد الله حق﴾ وإذا كان الخطاب للمؤمنين أُعقب بذكر النعم كما هنا أفاده صاحب البحر[1] .

الثالثة : ذكْرُ البطون مع أن الأكل لا يكون إلا فيها للتأكيد والمبالغة فهو كقولك : أبصرتُ بعيني وسمعتُ بأذني ومثله قوله تعالى ﴿ذلكم قولكم بأفواهكم﴾ .

الرابعة : أضاف تعالى أموال اليتامى إلى الأوصياء مع أنها أموال اليتامى للتنبيه إلى « التكافل بين الأمة » والحث على حفظ الأموال وعدم تضييعها فإن تبذير السفيه للمال فيه مضرّة للمجتمع كله .

« كلمة حول تعدد الزوجات »

مسألة تعدد الزوجات ضرورة اقتضتها ظروف الحياة وهي ليست تشريعاً جديداً انفرد به الإسلام ، وإنما جاء الإسلام فوجده بلا قيود ولا حدود وبصورة غير إنسانية فنظّمه وشذّبه وجعله علاجاً ودواءً لبعض الحالات الاضطرارية التي يعاني منها المجتمع وفي الحقيقة فإن تشريع التعدد مفخرة من مفاخر الإسلام لأنه استطاع ان يحل « مشكلة إجتماعية » هي من أعقد المشاكل التي تعانيها الأمم والمجتمعات اليوم فلا تجد لها حلاً . . إن المجتمع كالميزان يجب أن تتعادل كفتاه فماذا نصنع حين يختل التوازن ويصبح عدد النساء أضعاف عدد الرجال ؟ أنحرم المرأة من نعمة الزوجية و« نعمة الأمومة » ونتركها تسلك طريق الفاحشة

(١) البحر المحيط ٣/ ١٥٣ .

والرذيلة ، أم نحل هذه المشكلة بطرق فاضلة نصون فيها كرامة المرأة وطهارة الاسرة وسلامة المجتمع ؟ وأقرب الأمثلة شاهداً على ما نقول ما حدث في المانيا بعد الحرب العالمية الثانية حيث زاد عدد النساء زيادة فاحشة على عدد الرجال فأصبح مقابل كل شاب ثلاث فتيات وهي حالة اختلال اجتماعي فكيف يواجهها المشرّع ؟ لقد حلّ الإسلام المشكلة بتشريعه الإسلامي الرائع ، بينما وقفت المسيحية حائرةً مكتوفة الأيدي لا تُبدي ولا تُعيد . . إن الرجل الاوروبي لا يبيح له دينه التعدد ، لكنه يبيح لنفسه مصاحبة المئات من الفتيات بطريق الرذيلة ، يرى الوالد منهم فتاته مع عشيقها فيُسرّ ويغتبط بل ويمهّد لهما جميع السبل المؤدية لراحتهما حتى أصبح ذلك عرفاً سارياً اضطرت معه الدول إلى الاعتراف بمشروعية العلاقات الآثمة بين الجنسين ففتحت باب التدهور الخلقي على مصراعيه ، ووافقت على قبول مبدأ « تعدد الزوجات » ولكن تحت ستار المخادنة وهو زواج حقيقي لكنه غير مسجل بعقد ، ويستطيع الرجل ان يطردها متى شاء دون أن يتقيد حيالها بأي حق من الحقوق ، والعلاقة بينها علاقة جسد لا علاقة أسرة وزوجية ، فأعجب من منع « تعدد الزوجات » بالحلال وإباحته بالحرام حتى نزلوا بالمرأة من مرتبة الإنسانية إلى مرتبة الحيوانية .

ربّ إن الهُدى هُداك وآيا   تك حق تهدي بها من تشاء .

* * *

قال الله تعالى : ﴿يوصيكم الله في أولادكم . . إلى . . يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين﴾ من آية (١١) إلى نهاية آية (١٤) .

المناسَبَة : لما أوصى تعالى في الآيات السابقة بالأيتام وذكر ضمنها حق الأقارب بالإجمال ، أعقبه بذكر أحكام المواريث بالتفصيل ليكون ذلك توضيحاً لما سبق من الإجمال فذكر نصيب الأولاد بنين وبنات ، ثم ذكر نصيب الآبساء والأمهات ، ثم نصيب الأزواج والزوجات ، ثم نصيب الإخوة والأخوات .

اللغَة : ﴿يوصيكم﴾ الوصية : العهد بالشيء والأمر به ولفظ الإيصاء أبلغ وأدل على الاهتمام من لفظ الأمر لأنه طلب الحرص على الشيء والتمسك به ﴿فريضة﴾ أي حقاً فرضه الله وأوجبه ﴿كلالة﴾ أن يموت الرجل ولا ولد له ولا والد أي لا أصل له ولا فرع لأنها مشتقة من الكلّ بمعنى الضعف يقال : كلَّ الرجل إذا ضعف وذهبت قوته ﴿حدود الله﴾ أحكامه وفرائضه المحدودة التي لا تجوز مجاوزتها .

سَبَبُ النّزول : روي أن امرأة « سعد بن الربيع » جاءت رسول الله ﷺ بإبنيتها فقالت : يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قُتل أبوهما سعد معك بأُحد شهيداً ، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالاً ، ولا تُنكحان إلا بمال فقال ﷺ : يقضي الله في ذلك فنزلت آية المواريث ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾ الآية فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما أن أعط إبنتي سعد الثلثين ، وأمهما الثمن ، وما بقي فهو لك[1] .

(١) رواه أبو داود والترمذي .

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ * وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم﴾

التفسير : ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾ أي يأمركم الله ويعهد إليكم بالعدل في شأن ميراث أولادكم ﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ أي للابن من الميراث مثل نصيب البنتين ﴿فإن كنَّ نساءً فوق اثنتين﴾ أي إن كان الوارث إناثاً فقط اثنتين فأكثر ﴿فلهن ثلثا ما ترك﴾ أي فللبنتين فأكثر ثلثا التركة ﴿وإن كانت واحدة فلها النصف﴾ أي وإن كانت الوارثة بنتاً واحدة فلها نصف التركة . . بدأ تعالى بذكر ميراث الأولاد ثم ذكر ميراث الأبوين لأن الفرع مقدم في الإرث على الأصل فقال تعالى ﴿ولأبويه لكل واحد منهما السدس﴾ أي للأب السدس وللأم السدس ﴿مما ترك﴾ أي من تركة الميت ﴿إن كان له ولد﴾ أي إن وجد للميت ابن أو بنت لأن الولد يطلق على الذكر والأنثى ﴿فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه﴾ أي فإن لم يوجد للميت أولاد وكان الوارث أبواه فقط أو معهما أحد الزوجين ﴿فلأمه الثلث﴾ أي فللأم ثلث المال أو ثلث الباقي بعد فرض أحد الزوجين والباقي للأب ﴿فإن كان له إخوة فلأمه السدس﴾ أي فإن وجد مع الأبوين إخوة للميت « اثنان فأكثر » فالأم ترث حينئذٍ السدس فقط والباقي للأب ، والحكمة أن الأب مكلف بالنفقة عليهم دون أمهم فكانت حاجته إلى المال أكثر ﴿من بعد وصية يُوصي بها أو دين﴾ أي إن حق الورثة يكون بعد تنفيذ وصية الميت وقضاء ديونه فلا تقسم التركة إلا بعد ذلك ﴿آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً فريضة من الله﴾ أي إنه تعالى تولّى قسمة المواريث بنفسه وفرض الفرائض على ما علمه من الحكمة ، فقسم حيث توجد المصلحة وتتوفر المنفعة ولو ترك الأمر إلى البشر لم يعلموا أيهم أنفع لهم فيضعون الأموال على غير حكمة ولهذا أتبعه بقوله ﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾ أي إنه تعالى عليم بما يصلح لخلقه حكيم فيما شرع وفرض..ثم ذكر تعالى ميراث الزوج والزوجة فقال﴿ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد﴾ أي ولكم أيها الرجال نصف ما ترك أزواجكم من المال إن لم يكن لزوجاتكم أولاد منكم أو من غيركم﴿فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن﴾أي من ميراثهن ،وألحق بالولد في ذلك ولد الابن بالإجماع ﴿من بعد وصية يوصين بها أو دين﴾ أي من بعد الوصية وقضاء الدين﴿ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد﴾ أي ولزوجاتكم واحدة فأكثر الربع مما تركتم من الميراث إن لم يكن

﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿١٢﴾ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٤﴾﴾

لكم ولد منهن أو من غيرهن ﴿فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم﴾ أي فإن كان لكم ولد منهن أو من غيرهن فلزوجاتكم الثمن مما تركتم من المال ﴿من بعد وصيةٍ توصون بها أو دين﴾ وفي تكرير ذكر الوصية والدين من الاعتناء بشأنهما ما لا يخفي . ﴿وإن كان رجلٌ يُورث كلالةً﴾ أي وإن كان الميت يورث كلالة أي لا والد له ولا ولد وورثه أقاربه البعيدون لعدم وجود الأصل أو الفرع ﴿أو امرأة﴾ عطف على رجل والمعنى أو امرأةٌ تورث كلالة ﴿وله أخ أو أخت﴾ أي وللمورّث أخ أو أخت من أم ﴿فلكل واحد منهما السدس﴾ أي فللأخ من الأم السدس وللأخت للأم السدس أيضاً ﴿فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث﴾ أي فإن كان الإخوة والأخوات من الأم أكثر من واحد فإنهم يقتسمون الثلث بالسوية ذكورهم وإناثهم في الميراث سواء ، قال في البحر : وأجمعوا على أن المراد في هذه الآية الإخوة للأم ﴿من بعد وصية يُوصَى بها أو دين غير مضار﴾ أي بقصد أن تكون الوصية للمصلحة لا بقصد الإضرار بالورثة أي في حدود الوصية بالثلث لقوله عليه السلام (الثلث والثلث كثير)﴿وصيةً من الله﴾ أي أوصاكم الله بذلك وصية ﴿والله عليم حليم﴾ أي عالم بما شرع حليم لا يعاجل العقوبة لمن خالف أمره ﴿تلك حدود الله﴾ أي تلك الأحكام المذكورة شرائع الله التي حدّها لعباده ليعملوا بها ولا يعتدوها ﴿ومن يطع الله ورسوله يدخلْه جناتٍ تجري من تحتها الأنهار﴾ أي من يطع أمر الله فيما حكم وأمر رسوله فيما بيّن ، يدخله جنات النعيم التي تجري من تحت أشجارها وأبنيتها الأنهار ﴿خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿وذلك الفوز العظيم﴾ أي الفلاح العظيم ﴿ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده﴾ أي ومن يعص أمر الله وأمر الرسول ويتجاوز ما حدّه تعالى له من الطاعات ﴿يدخله ناراً خالداً فيها﴾ أي يجعله مخلداً في نار جهنم لا يخرُج منها أبداً﴿ وله عذاب مهين﴾ أي وله عذاب شديد مع الإهانة والإذلال والعذاب والنكال .

البــلاغــة : تضمنت الآيات من أصناف البديع ما يلي :

١ ـ الطباق في لفظ ﴿الذكر والانثى﴾ وفي ﴿ومن يطع ومن يعص﴾ وفي ﴿آباؤكم وأبناؤكم﴾ .

٢ ـ الإطناب في ﴿من بعد وصية توصون بها أو دين﴾ و﴿من بعد وصيةٍ يوصين بها أو دين﴾ والفائدة التأكيد على تنفيذ ما ذكر .

٣ ـ جناس الاشتقاق في ﴿وصية يوصى﴾ . ٤ ـ المبالغة في ﴿عليم ، حليم﴾ .

فَـائِـدَة : استنبط بعض العلماء من قوله تعالى ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾ أنه تعالى أرحم من الوالدة بولدها حيث أوصى الوالدين بأولادهم ويؤ يده ما ورد « للّهُ أرحم بعباده من هذه بولدها » .

تَـنبِيـه : وجه الحكمة في تضعيف نصيب الذكر هو احتياجه إلى مؤ نة النفقة ومعاناة التجارة والتكسب وتحمل المشاق ، فنفقاته أكثر والتزاماته أضخم فهو إلى المال أحوج[1] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم . . إلى قوله تعالى . . وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً﴾ من الآية (١٥) إلى نهاية الآية (٢١) .

المنَاسَبَة : لما بيّن سبحانه وتعالى حكم الرجال والنساء في باب النكاح والميراث ، بيّن حكم الحدود فيهن إذا ارتكبن الحرام ، ثم أعقبه بالتحذير عن عادات الجاهلية من ظلم النساء ، وأكل مهورهن ، وعدم معاملتهن المعاملة الإنسانية الشريفة .

اللغَـة : ﴿واللاتي﴾ جمع التي على غير قياس ﴿الفاحشة﴾ الفعلة القبيحة والمراد بها هنا الزنا ﴿واللّذان﴾ تثنية الذي ﴿التوبة﴾ أصل التوبة الرجوع وحقيقتها الندم على فعل القبيح ﴿كَرْهاً﴾ بفتح الكاف بمعنى الإكراه وبضمها بمعنى المشقة ﴿حملته أمه كُرْها﴾ ﴿تعضلوهن﴾ تمنعوهن يقال عضل المرأة إذا منعها الزواج ﴿بهتاناً﴾ ظلماً وأصله الكذب الذي يتحير منه صاحبه ﴿أفضى﴾ وصل إليها ، وأصله من الفضاء وهو السعة ﴿ميثاقاً غليظاً﴾ عهداً شديداً مؤكداً وهو عقد النكاح .

﴿وَٱلَّـٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾﴾

سَبَبُ النّزول : روي أن أهل الجاهلية كانوا إذا مات الرجل جاء ابنه من غيرها أو وليه فورث امرأته كما يرث ماله وألقى عليها ثوباً ، فإن شاء تزوجها بالصَّداق الأول وإن شاء زوجها غيره وأخذ صداقها فأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً . .﴾[2] .

التّفسِير : ﴿واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم﴾ أي اللواتي يزنين من أزواجكم فاطلبوا أن يشهد على اقترافهن الزنا أربعة رجال من المسلمين الأحرار ﴿فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت﴾ أي فإن ثبتت بالشهود جريمتهن فاحبسوهن في البيوت ﴿حتى يتوفاهنَّ الموت﴾ أي احبسوهنَّ فيها إلى الموت ﴿أو يجعل الله لهنَّ سبيلاً﴾ أي يجعل الله لهنَّ مخلصاً بما يشرعه من الأحكام قال

(١) انظر الحكمة التشريعية في كتابنا المواريث في الشريعة الإسلامية ص ١٨ . (٢) زاد المسير ٢/ ٣٩ .

وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ

ابن كثير : كان الحكم في ابتداء الإسلام أن المرأة إذا ثبت زناها بالبيِّنة العادلة حُبست في بيت فلا تمكَّن من الخروج منه إلى أن تموت ، حتى أنزل الله سورة النور فنسخها بالجلد أو الرجم[1] ﴿**واللذان يأتيانها منكم**﴾ أي واللذان يفعلان الفاحشة والمراد به الزاني والزانية بطريق التغليب ﴿**فآذوهما**﴾ أي بالتوبيخ والتقريع والضرب بالنعال ﴿**فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما**﴾ أي فإن تابا عن الفاحشة وأصلحا سيرتهما فكفّوا عن الإيذاء لهما ﴿**إن الله كان تواباً رحيماً**﴾ أي مبالغاً في قبول التوبة واسع الرحمة . قال الفخر الرازي : « خص الحبس في البيت بالمرأة وخص الإيذاء بالرجل لأن المرأة إنما تقع في الزنا عند الخروج والبروز فإذا حبست في البيت انقطعت مادة هذه المعصية ، وأما الرجل فإنه لا يمكن حبسه في البيت لأنه يحتاج إلى الخروج في إصلاح معاشه واكتساب قوت عياله فلا جرم جعلت عقوبتهما مختلفة »[2] ﴿**إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة**﴾ أي إنما التوبة التي كتب الله على نفسه قبولها هي توبة من فعل المعصية سفهاً وجهالة مقدِّراً قبح المعصية وسوء عاقبتها ثم ندم وأناب ﴿**ثم يتوبون من قريب**﴾ أي يتوبون سريعاً قبل مفاجأة الموت ﴿**فأولئك يتوب الله عليهم**﴾ أي يتقبل الله توبتهم ﴿**وكان الله عليماً حكيماً**﴾ أي علياً بخلقه حكيماً في شرعه ﴿**وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدَهم الموتُ قال إني تبتُ الآن**﴾ أي وليس قبول التوبة ممن ارتكب المعاصي واستمر عليها حتى إذا فاجأه الموت تاب وأناب فهذه توبة المضطر وهي غير مقبولة[3] وفي الحديث (إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر) ﴿**ولا الذين يموتون وهم كفار**﴾ أي يموتون على الكفر فلا يُقبل إيمانهم عند الاحتضار ﴿**أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً**﴾ أي هيأنا وأعددنا لهم عذاباً مؤلماً ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كَرهاً**﴾ أي لا يحل لكم أن تجعلوا النساء كالمتاع ينتقل بالإرث من إنسان إلى آخر وترثوهن بعد موت أزواجهن كرهاً عنهن قال ابن عباس : كانوا في الجاهلية إذا مات الرجل كان أولياؤه أحقَّ بامرأته إن شاءوا تزوجها أحدهم ، وإن شاءوا زوجوها غيرهم ، وإن شاءوا منعوها الزواج[4] ﴿**ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن**﴾ أي ولا يحل

---

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٣٦٦ . (٢) التفسير الكبير للرازي ٩/ ٢٣٥ . (٣) قال الشهيد سيد قطب في الظلال : « فهذه توبة المضطر لجت به الغواية وأحاطت به الخطيئة ، توبة الذي يتوب لأنه لم يعد لديه متسع لارتكاب الذنوب ولا فسحة لمقارفة الخطيئة ، وهذه لا يقبلها الله لأنها لا تنشىء صلاحاً في القلب ولا صلاحاً في الحياة ولا تدل على تبدل في الطبع ولا في الاتجاه » . (٤) القرطبي ٥/ ٩٤ .

﴿بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾

لكم أن تمنعوهن من الزواج أو تضيقوا عليهن لتذهبوا ببعض ما دفعتموه لهن من الصَّداق ﴿**إلا أن يأتين بفاحشة مبينة**﴾ أي إلا في حال إتيانهن بفاحشة الزنا وقال ابن عباس : الفاحشة المبينة النشوز والعصيان ﴿**وعاشروهنَّ بالمعروف**﴾ أي صاحبوهن بما أمركم الله به من طيب القول والمعاملة بالإحسان ﴿**فإن كرهتموهنَّ فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً**﴾ أي فإن كرهتم صحبتهن فاصبروا عليهن واستمروا في الإحسان إليهن فعسى أن يرزقكم الله منهن ولداً صالحاً تَقَرُّ به أعينكم ، وعسى أن يكون في الشيء المكروه الخير الكثير وفي الحديث الصحيح (لا يَفْرَكْ «أي لا يبغض» مؤمنٌ مؤمنةإن كره منها خُلُقاً رضي منها آخر) ثم حذّر تعالى من أخذ شيء من المهر بعد الطلاق فقال ﴿**وإن أردتم استبدال زوجٍ مكان زوج**﴾ أي وإن أردتم أيها المؤمنون نكاح امرأة مكان امرأة طلقتموها ﴿**وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً**﴾ أي والحال انكم كنتم قد دفعتم مهراً كبيراً يبلغ قنطاراً ﴿**فلا تأخذوا منه شيئاً**﴾ أي فلا تأخذوا ولو قليلاً من ذلك المهر ﴿**أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً**﴾ استفهام إنكاري أي أتأخذونه باطلاً وظلماً ؟ ﴿**وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض**﴾ أي كيف يباح لكم أخذه وقد استمتعتم بهن بالمعاشرة الزوجية ؟ ﴿**وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً**﴾ أي أخذن منكم عهداً وثيقاً مؤكداً هو « عقد النكاح » قال مجاهد : الميثاق الغليظ عقدة النكاح وفي الحديث (اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله)[1] .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات أنواعاً من البيان والبديع وهي بإيجاز كما يلي :

١ ـ المجاز العقلي في قوله ﴿يتوفاهنَّ الموتُ﴾ والمراد يتوفاهنَّ الله أو ملائكته .

٢ ـ الاستعارة في ﴿وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً﴾ استعار لفظ الميثاق للعقد الشرعي .

٣ ـ الجناس المغاير في ﴿فإن تابا . . تواباً﴾ وفي ﴿كرهتموهن . . أن تكرهوا﴾ .

٤ ـ المبالغة في تفخيم الأمر وتأكيده ﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً﴾ لتعظيم الأمر والمبالغة فيه .

فَائِدَة : كنّى الله تعالى عن الجماع بلفظ الإفضاء ﴿وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾ لتعليم المؤمنين الأدب الرفيع قال ابن عباس : « الإفضاء في هذه الآية الجماعُ ولكنَّ الله كريم يكني »[2] .

(١) أخرجه مسلم . (٢) القرطبي ١٠٢/٥ .

تنبيه : خطب عمر رضي الله عنه فقال : أيها الناس لا تغالوا في مهور النساء فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله لكان أولاكم بها رسول الله ﷺ ما أصدقَ امرأة من نسائه ولا أحداً من بناته فوق اثنتي عشرة أوقية ، فقامت إليه امرأة فقالت : يا عمر ، يعطينا الله وتحرمنا ؟ يقول تعالى ﴿وآتيتم إحداهنَّ قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً﴾ فقال رضي الله عنه : أصابت امرأة وأخطأ عمر »[١] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء . . إلى . . وندخلكم مدخلاً كريماً﴾ من الآية (٢٢) إلى نهاية الآية (٣١) .

المناسبة : لما أوصى تعالى بحسن معاشرة الأزواج ، وحذّر من إيذائهن أو أكل مهورهن ، عقّبه بذكر المحرمات من النساء اللواتي لا يجوز الزواج بهن بسبب القرابة أو المصاهرة أو الرضاع .

اللغة : ﴿سلف﴾ مضى ﴿مقتاً﴾ المقت : البغض الشديد لمن تعاطى القبيح وكان العرب يسمون زواج الرجل امرأة أبيه « نكاح المقت » ﴿ربائبكم﴾ جمع ربيبة وهي بنت المرأة من آخر سميت به لأنها تتربّى في حجر الزوج ﴿حجوركم﴾ جمع حَجْر أي في تربيتكم يقال : فلان في حجر فلان إذا كان في تربيته قال أبو عبيدة : في حجوركم أي في بيوتكم ﴿حلائل﴾ جمع حليلة بمعنى الزوجة سميت بذلك لأنها تحل لزوجها ﴿محصنين﴾ متعففين عن الزنى ﴿مسافحين﴾ السفاح : الزنى وأصله في اللغة من السفح وهو الصبّ وسمي سفاحاً لأنه لا غرض للزاني إلا سفح النطفة وقضاء الشهوة ﴿طَوْلاً﴾ سعةً وغنى ﴿أخدان﴾ جمع خِدْن وهو الصديق للمرأة يزني بها سراً ﴿العنت﴾ الفجور وأصله الضرر والفساد ﴿سنن﴾ جمع سنة وهي الطريقة ﴿نصليه﴾ ندخله .

سبب النزول : أ ـ لما توفي « أبو قيس بن الأسلت » وكان من صالحي الأنصار ، خطب ابنه قيس امرأة أبيه فقالت : إني أعدّك ولداً ! ! ولكني آتي رسول الله ﷺ استأمره فأتته فأخبرته فأنزل الله ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء . .﴾[٢] الآية .

ب ـ عن أبي سعيد الخدري قال : أصبنا سبايا يوم اوطاس لهن أزواج ، فكرهنا أن نقع عليهن فسألنا النبي ﷺ فنزلت ﴿والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم . .﴾ الآية قال : فاستحللناهن[٣] .

﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾

التفسير : ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف﴾ أي لا تتزوجوا ما تزوج آباؤكم من النساء لكن ما سبق فقد عفا الله عنه ﴿إنه كان فاحشة ومقتاً﴾ أي فإن نكاحهن أمر قبيح قد تناهى في القبح والشناعة ، وبلغ الذروة العليا في الفظاعة والبشاعة ، إذ كيف يليق بالإنسان أن يتزوج امرأة أبيه وأن يعلوها بعد وفاته وهي مثل أمه ؟ ﴿وساء سبيلاً﴾ أي بئس ذلك النكاح القبيح الخبيث

(١) الكشاف ١/ ٣٧٩ . (٢) القرطبي ٥/ ١٠٤ . (٣) أسباب النزول ص ٨٥ .

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ * وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ﴾

طريقاً ،ثم بيّن تعالى المحرمات من النساء فقال ﴿حُرِّمت عليكم أمهاتكم﴾ أي حرّم عليكم نكاح الأمهات وشمل اللفظ الجدات من قبل الأب أو الأم ﴿وبناتكم﴾ وشمل بنات الأولاد وإن نزلن ﴿وأخواتكم﴾ أي شقيقة كانت أو لأب أو لأم ﴿وعماتكم﴾ أي أخوات آبائكم وأخوات أجدادكم ﴿وبنات الأخ وبنات الأخت﴾ أي بنت الأخ وبنت الأخت ويدخل فيهن أولادهن ، وهؤلاء المحرمات بالنسب وهنَّ كما تقدم « الأمهات ، البنات ، الأخوات ، العمات ، الخالات ، بنات الأخ ، بنات الأخت » ثم شرع تعالى في ذكر المحرمات من الرضاع فقال ﴿وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة﴾ نزّل الله الرضاعة منزلة النسب حتى سمّى المرضعة أماً للرضيع أي كما يحرم عليك أمك التي ولدتك ، كذلك يحرم عليك أمك التي أرضعتك ، وكذلك أختك من الرضاع ، ولم تذكر الآية من المحرمات بالرضاع سوى «الأمهات والأخوات»وقد وضحت السنة النبوية أن المحرمات بالرضاع سبع كما هو الحال في النسب لقوله عليه السلام (يحرم من الرضاع مايحرم من النسب)[1] ثم ذكر تعالى المحرمات بالمصاهرة فقال ﴿وأمهات نسائكم﴾ أي وكذلك يحرم نكاح أم الزوجة سواء دخل بالزوجة أو لم يدخل لأن مجرد العقد على البنت يحرم الأم ﴿وربائبكم اللاتي في حجوركم﴾ أي بنات أزواجكم اللاتي ربيتموهن ، وذكرُ الحجر ليس للقيد وإنما هو للغالب لأن الغالب أنها تكون مع أمها ويتولى الزوج تربيتها وهذا بالإجماع ﴿من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم﴾ الدخول هنا كناية عن الجماع أي من نسائكم اللاتي أدخلتموهن الستر قاله ابن عباس فإن لم تكونوا أيها المؤمنون قد دخلتم بأمهاتهن وفارقتموهن فلا جناح عليكم في نكاح بناتهن ﴿وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم﴾ أي وحُرم عليكم نكاح زوجات أبنائكم الذين ولدتموهم من أصلابكم بخلاف من تبنيتموهم فلكم نكاح حلائلهم ﴿وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف﴾ أي وحرّم عليكم الجمع بين الأختين معاً في النكاح إلا ما كان منكم في الجاهلية فقد عفا الله عنه ﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾ أي غفوراً لما سلف رحيماً بالعباد ﴿والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم﴾ أي وحرّم عليكم نكاح المتزوجات من النساء إلا ما ملكتموهن بالسبي فيحل لكم وطؤهنَّ بعد الاستبراء ولو كان لهنَّ أزواج في دار الحرب لأن بالسبي تنقطع عصمة الكافر ﴿ولا تمسكوا

(١) أخرجه البخاري ومسلم .

فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ

بعِصم الكوافر﴾ ﴿كتاب الله عليكم﴾ أي هذا فرض الله عليكم ﴿وأُحلّ لكم ما وراء ذلكم﴾ أي أحل لكم نكاح ما سواهنّ ﴿أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين﴾ أي إرادة أن تطلبوا النساء بطريق شرعي فتدفعوا لهن المهور حال كونكم متزوجين غير زانين ﴿فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة﴾ أي فما تلذذتم به من النساء بالنكاح فآتوهنَّ مهورهن فريضةً فرضها الله عليكم بقوله ﴿وآتوا النساء صدقاتهن نحلة﴾ ثم قال تعالى ﴿ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة﴾ أي لا إثم عليكم فيما أسقطن من المهر برضاهن كقوله ﴿فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً﴾ قال ابن كثير : أي إذا فرضت لها صداقاً فأبرأتك منه أو عن شيء منه فلا جناح عليك ولا عليها في ذلك ﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾ أي علياً بمصالح العباد حكيماً فيما شرع لهم من الأحكام ﴿ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات﴾ أي من لم يكن منكم ذا سعة وقدرة أن يتزوج الحرائر المؤمنات ﴿فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات﴾ أي فله أن ينكح من الإماء المؤمنات اللاتي يملكهن المؤمنون ﴿والله أعلم بإيمانكم﴾ جملة معترضة لبيان أنه يكفي في الإيمان معرفة الظاهر والله يتولى السرائر ﴿بعضكم من بعض﴾ أي إنكم جميعاً بنو آدم ومن نفسٍ واحدة فلا تستنكفوا من نكاحهن فرب أمة خير من حرة ، وفيه تأنيس لهم بنكاح الإماء فالعبرةُ بفضل الإيمان لا بفضل الأحساب والأنساب ﴿فانكحوهن بإذن أهلهن﴾ أي تزوجوهن بأمر أسيادهن وموافقة مواليهن ﴿وآتوهن أجورهن بالمعروف﴾ أي ادفعوا لهن مهورهن عن طيب نفسٍ ولا تبخسوهن منه شيئاً استهانة بهن لكونهن إماء مملوكات ﴿محصنات غير مسافحات﴾ أي عفيفات غير مجاهرات بالزنى ﴿ولا متخذات أخدان﴾ أي ولا متسترات بالزنى مع أخدانهن قال ابن عباس : الخِدنُ هو الصديق للمرأة يزني بها سراً فنهى الله تعالى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن[1] ﴿فإذا أُحصنَّ فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب﴾ أي فإذا أُحصنَّ بالزواج ثم زنين فعليهن نصف ما على الحرائر من عقوبة الزنى ﴿ذلك لمن خشي العنَت منكم﴾ أي إنما يباح نكاح الإماء لمن خاف على نفسه الوقوع في الزنى ﴿وأن تصبروا خير لكم﴾ أي صبركم وتعففكم عن نكاحهن

(١) البحر المحيط ٣/ ٢٢٢ .

وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾

أفضل لئلا يصير الولد رقيقاً وفي الحديث (من أراد أن يلقي الله طاهراً مطهراً فلينكح الحرائر)[1] ﴿**والله غفور رحيم**﴾ أي واسع المغفرة عظيم الرحمة ﴿**يريد الله ليبيّن لكم**﴾ أي يريد الله أن يفصّل لكم شرائع دينكم ومصالح أموركم ﴿**ويهديكم سنن الذين من قبلكم**﴾ أي يرشدكم إلى طرائق الأنبياء والصالحين لتقتدوا بهم ﴿**ويتوب عليكم**﴾ أي يقبل توبتكم فيما اقترفتموه من الإثم والمحارم ﴿**والله عليم حكيم**﴾ أي عليم بأحوال العباد حكيم في تشريعه لهم ﴿**والله يريد أن يتوب عليكم**﴾ كرّره ليؤكد سعة رحمته تعالى على العباد أي يحب بما شرع من الأحكام أن يطهركم من الذنوب والآثام ، ويريد توبة العبد ليتوب عليه ﴿**ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً**﴾ أي ويريد الفجرة أتباع الشيطان أن تعدلوا عن الحق إلى الباطل وتكونوا فسقة فجرة مثلهم ﴿**يريد الله أن يخفّف عنكم**﴾ أي يريد تعالى بما يسّر أن يسهّل عليكم أحكام الشرع ﴿**وخُلِقَ الإنسان ضعيفاً**﴾ أي عاجزاً عن مخالفة هواه لا يصبر عن إتباع الشهوات ، ثم حذر تعالى من أكل أموال الناس بالباطل فقال ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل**﴾ أي يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله لا يأكل بعضكم أموال بعض بالباطل وهو كل طريق لم تبحه الشريعة كالسرقة والخيانة والغصب والربا والقمار وما شاكل ذلك ﴿**إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم**﴾ أي إلا ما كان بطريق شرعي شريف كالتجارة التي أحلها الله قال ابن كثير : الاستثناء منقطع أي لا تتعاطوا الأسباب المحرمة في اكتساب الأموال لكن المتاجر المشروعة التي تكون عن تراضٍ من البائع والمشتري فافعلوها[2] ﴿**ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً**﴾ أي لا يسفك بعضكم دم بعض ، والتعبير عنه بقتل النفس للمبالغة في الزجر ، أو هو على ظاهره بمعنى الانتحار وذلك من رحمته تعالى بكم ﴿**ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً**﴾ أي ومن يرتكب ما نهى الله عنه معتدياً ظالماً لا سهواً ولا خطأً ﴿**فسوف نصليه ناراً**﴾ أي ندخله ناراً عظيمة يحترق فيها ﴿**وكان ذلك على الله يسيراً**﴾ أي هيناً يسيراً لا عسر فيه لأنه تعالى لا يعجزه شيء ﴿**إن تجتنبوا كبائر ما تُنهون عنه نكفّرْ عنكم سيئاتكم**﴾ أي

(١) أخرجه ابن ماجه عن أنس مرفوعاً . (٢) مختصر ابن كثير ١/ ٣٧٨ .

إن تتركوا أيها المؤمنون الذنوب الكبائر التي نهاكم الله عز وجل عنها نمح عنكم صغائر الذنوب بفضلنا ورحمتنا ﴿ونُدْخلكم مُدْخــلاً كريمـاً﴾ أي نُدخلكم الجنة دار الكرامة والنعيم ، التي فيها ما لا عينٌ رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ! .

البـــلاَغَــة : تضمنت الآيات أنواعاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ المجاز المرسل في ﴿حـرمـت عليكم أمهاتـكم﴾ أي حرّم عليكم نكاح الأمهـات فهـو على حذف مضاف .

٢ ـ الطباق في ﴿حرّمت . . وأُحلّ﴾ وفي ﴿محصنين . . ومسافحين﴾ وفي ﴿كبائر . . وسيئاتكم﴾ لأن المراد بالسيئات الصغائر من الذنوب .

٣ ـ الكناية في ﴿اللاتي دخلتم بهن﴾ فهو كناية عن الجماع كقولهـم بنـى عليهـا ، وضرب عليها الحجاب .

٤ ـ الاستعـارة في ﴿وآتوهـن أجـورهـن﴾ استعـار لفـظ الأجـور للمهـور ، لان المهـر يشبه الاجر في الصورة .

٥ ـ الجناس المغاير في ﴿تنكحوا ما نكح﴾ وفي ﴿أرضعنكم . . من الرضاعة﴾ وفي ﴿محصنات . . فإذا أحصنّ﴾ والإطناب في مواضع ، والحذف في مواضع .

الفــوَائِـد : الأولى : استنبط العلماء من آية المحرمات القاعدة الآتية وهي « العقد على البنات يحرّم الأمهات ، والدخول بالأمهات يحرّم البنات » .

الثانية : حمل بعض الروافض والشيعة قوله تعالى ﴿فما استمتعتم به منهن﴾ على نكاح المتعة وهو خطأ فاحش لأن الغرض من الاستمتاع هنا التمتع بالأزواج عن طريق الجماع لانكاح المتعة فقد ثبت حرمة نكاح المتعة بالسنة والإجماع ولا عبرة بما خالف ذلك[1] .

الثالثة : قال ابن عباس : الكبيرة كل ذنبٍ ختمه الله بنار ، أو غضبٍ ، أو لعنةٍ ، أو عذاب .

الرابعة : روى سعيد بن جبير أن رجلاً قال لابن عباس : الكبائر سبع ؟ قال : هي إلى السبعمأة أقرب منها إلى السبع ، ولكن لا كبيرة مع استغفار ، ولا صغيرة مع إصرار ، ذكره القرطبي .

* * *

قال تعالى : ﴿ولا تتمنوا ما فضّل الله به بعضكم على بعض . . إلى . . إن الله كان عفواً غفوراً﴾ من الآية (٣٢) إلى نهاية الآية (٤٣) .

(١) انظر تفصيل البحث وأدلة التحريم للمتعة في كتابنا روائع البيان ١ / ٤٥٧ ففيه بحث هام .

المناسَبَة : لما ذكر تعالى المحرمات من النساء وذكر قبلها تفضيل الله الرجال عليهن في الميراث ، جاءت الآيات تنهى عن تمني ما خصَّ الله به كلاً من الجنسين لأنه سبب للحسد والبغضاء ، ثم ذكر تعالى حقوق كلٍ من الزوجين على الآخر ، وأرشد إلى الخطوات التي ينبغي التدرج بها في حالة النشوز والعصيان .

اللغَة : ﴿موالي﴾ المَوْلى : الذي يتولى غيره يقال للعبد مَوْلى وللسيد مَوْلى لأن كلاً منهما يتولى الآخر والمراد به هنا الورثة والعصبة ﴿قوامون﴾ قوّام : مبالغة من القيام على الأمر بمعنى حفظه ورعايته أي يقومون عليهن قيام الولاة على الرعية ﴿قانتات﴾ مطيعات وأصل القنوت دوام الطاعة ﴿نشوزهن﴾ عصيانهن وترفعهن وأصله المكان المرتفع ومنه تلٌّ ناشز ويقال : نشزت المرأة إذا ترفعت على زوجها وعصته ﴿المضاجع﴾ جمع مضجع وهو المرقد ﴿شقاق﴾ الشقاق : الخلاف والعداوة مأخوذ من الشق بمعنى الجانب لأن كلاً من المتشاقين يكون في شق غير شق صاحبه أي في ناحية ﴿الجُنُب﴾ البعيد الذي ليس له قرابة تربطه بجاره ، وأصل الجنابة : البعد ﴿مختالاً﴾ المختال : ذو الخيلاء والكبر ﴿مثقال﴾ وزن ﴿الغائط﴾ الحدث وأصله المطمئن من الأرض وكانوا إذا أرادوا قضاء الحاجة أتوا منخفضاً من الأرض فكني عن الحدث بالغائط .

سَبَبُ النّزول : أ ـ عن مجاهد قال : قالت « أم سلمة » يا رسول الله : يغزو الرجال ولا نغزو وإنما لنا نصف الميراث فأنزل الله ﴿ولا تتمنوا ما فضّل الله به بعضكم على بعض﴾ [١] الآية .

ب ـ روي أن سعد بن الربيع ـ وكان نقيباً من نقباء الأنصار ـ نشزت عليه امرأته « حبيبة بنت زيد » فلطمها فانطلق أبوها معها إلى رسول الله ﷺ فقال : أفرشته كريمتي فلطمها فقال النبي ﷺ لتقتصَّ منه فنزلت ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ فقال ﷺ : (أردنا أمراً وأراد الله أمراً والذي أراد الله خير) [٢] .

وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ

التفسِير : ﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾ أي لا تتمنوا أيها المؤمنون ما خصَّ الله تعالى به غيركم من أمر الدنيا أوالدين ذلك يؤدي إلى التحاسد والتباغض قال الزمخشري : نهُوا عن الحسد وعن تمني ما فضل الله بعض الناس على بعض من الجاه والمال لأن ذلك التفضيل قسمة من الله صادرة عن حكمة وتدبير وعلم بأحوال العباد ﴿للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾ أي لكلٍ من الفريقين في الميراث نصيبٌ معين المقدار قال الطبري : كلٌ له جزاء على عمله بحسبه إن خيراً فخير وإن شراً فشر [٣] ﴿واسألوا الله من فضله﴾ أي وسلوا الله من فضله يعطكم فإنه كريم وهاب ﴿إن الله كان بكل شيء عليماً﴾ أي ولذلك جعل الناس طبقات ورفع بعضهم درجات ﴿ولكلٍ جعلنا موالي

(١) أسباب النزول ص ٨٥ (٢) الكشاف ١/ ٢٩٠ . (٣) الطبري ٨/ ٢٦٧ .

﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ۚ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾

مما ترك الوالدان والأقربون﴾ أي ولكل إنسانٍ جعلنا عصبةً يرثون ماله ممّا تركه الوالدان والأقارب من الميراث **﴿والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم﴾** أي والذين حالفتموهم في الجاهلية على النصرة والإرث فأعطوهم حظهم من الميراث ، وقد كان هذا في ابتداء الإسلام ثم نسخ قال الحسن : كان الرجل يحالف الرجل ليس بينهما نسبٌ فيرث أحدُهما الآخر فنسخ الله ذلك بقوله ﴿وأولو الأرحام بعضُهم أولى ببعض﴾ وقال ابن عباس : كان المهاجرون حين قدموا المدينة يرث المهاجريُّ الأنصاريَّ دون ذوي رحمه بالأخوة التي آخى رسول الله ﷺ بينهم فلما نزلت ﴿ولكلٍ جعلنا موالي﴾ نسخت[1] **﴿إن الله كان على كل شيء شهيداً﴾** أي مطلعاً على كل شيء وسيجازيكم عليه.. ثم بيّن تعالى أن الرجال يتولون أمر النساء في المسئولية والتوجيه فقال **﴿الرجال قوامون على النساء﴾** أي قائمون عليهن بالأمر والنهي ، والإنفاق والتوجيه كما يقوم الولاة على الرعية **﴿بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾** أي بسبب ما منحهم الله من العقل والتدبير ، وخصهم به من الكسب والإنفاق ، فهم يقومون على النساء بالحفظ والرعاية والإنفاق والتأديب قال أبو السعود :« والتفضيلُ للرجل لكمال العقل وحسن التدبير ورزانة الرأي ومزيد القوة، ولذلك خصوا بالنبوة والإمامة والولاية والشهادة والجهاد وغير ذلك »[2] **﴿فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله﴾** هذا تفصيل لحال النساء تحت رياسة الرجل ، وقد ذكر تعالى أنهن قسمان : قسم صالحات مطيعات ، وقسم عاصيات متمردات ، فالنساء الصالحات مطيعات للّه ولأزواجهن ، قائمات بما عليهن من حقوق ، يحفظن أنفسهن عن الفاحشة وأموال أزواجهن عن التبذير كما أنهن حافظات لما يجري بينهن وبين أزواجهن مما يجب كتمه ويجمل ستره وفي الحديث(إن من شر الناس عند الله منزلةً يوم القيامة ، الرجلُ يُفْضي إلى امرأته وتُفْضي إليه ثم ينشر أحدهما سرَّ صاحبه) **﴿واللاتي تخافون نشوزهن﴾** هذا القسم الثاني وهنَّ النساء العاصيات المتمردات أي واللاتي يتكبرن ويتعالين عن طاعة الأزواج فعليكم أيها الرجال أن تسلكوا معهن سبل الإصلاح **﴿فعظوهنَّ واهجروهن في المضاجع واضربوهن﴾** أي فخوفوهنَّ الله بطريق النصح والإرشاد ، فإن لم ينجح الوعظ والتذكير فاهجروهنَّ في الفراش فلا تكلموهن ولا تقربوهن قال ابن عباس : الهجر ألا يجامعها وأن يضاجعها على فراشها ويوليها ظهره[3] ، فإن لم يرتدعن فاضربوهن ضرباً غير مبرّح **﴿فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً﴾** أي فإن أطعن أمركم فلا تلتمسوا طريقاً لإيذائهن **﴿إن الله كان علياً كبيراً﴾** أي فإن الله تعالى أعلى منكم وأكبر

---

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٣٨٤ . (٢) إرشاد العقل السليم ١/ ٣٣٩ . (٣) مختصر ابن كثير ١/ ٣٨٦ .

وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا

وهو وليهن ينتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن . . انظر كيف يعلمنا سبحانه أن نؤدب نساءنا وانظر إلى ترتيب العقوبات ودقتها حيث أمرنا بالوعظ ثم بالهجران ثم بالضرب ضرباً غير مبرح ثم ختم الآية بصفة العلو والكبر لينبه العبد على أن قدرة الله فوق قدرة الزوج عليها وأنه تعالى عون الضعفاء وملاذ المظلومين ! !

﴿وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها﴾ أي وإن خشيتم أيها الحكام مخالفةً وعداوةً بين الزوجين فوجهوا حكماً عدلاً من أهل الزوج وحكماً عدلاً من أهل الزوجة يجتمعان فينظران في أمرهما ويفعلان ما فيه المصلحة **﴿إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما﴾** أي إن قصدا إصلاح ذات البين وكانت نيتهما صحيحة وقلوبهما ناصحة لوجه الله ، بورك في وساطتهما وأوقع الله بين الزوجين الوفاق والألفة وألقى في نفوسهما المودة والرحمة **﴿إن الله كان عليماً خبيراً﴾** أي عليماً بأحوال العباد حكيماً في تشريعه لهم **﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً﴾** أي وحدوه وعظموه ولا تشركوا به شيئاً من الأشياء صنماً أو غيره ، واستوصوا بالوالدين براً وإنعاماً وإحساناً وإكراماً **﴿وبذي القربى واليتامى والمساكين﴾** أي وأحسنوا إلى الأقارب عامة وإلى اليتامى والمساكين خاصة **﴿والجار ذي القربى﴾** أي الجار القريب فله عليك حق الجوار وحق القرابة **﴿والجار الجنب﴾** أي الجار الأجنبي الذي لا قرابة بينك وبينه **﴿والصاحب بالجنب﴾** قال ابن عباس : هو الرفيق في السفر ، وقال الزمخشري : « هو الذي صحبك إما رفيقاً في سفر ، أو جاراً ملاصقاً ، أو شريكاً في تعلم علم ، أو قاعداً إلى جنبك في مجلس أو غير ذلك ، من له أدنى صحبةٍ التأمت بينك وبينه فعليك أن ترعى ذلك الحق ولا تنساه وقيل : هي المرأة »[1] **﴿وابن السبيل﴾** أي المسافر الغريب الذي انقطع عن بلده وأهله **﴿وما ملكت أيمانكم﴾** أي المماليك من العبيد والإماء **﴿إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً﴾** أي متكبراً في نفسه يأنف عن أقاربه وجيرانه فخوراً على الناس مترفعاً عليهم يرى أنه خير منهم ، وهذه آية جامعة جاءت حثاً على الإحسان واستطراداً لمكارم الأخلاق ، ومن تدبرها حق التدبر أغنتْه عن كثير من مواعظ البلغاء ، ونصائح الحكماء . ثم بين تعالى صفات هؤلاء الذين يبغضهم الله فقال **﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل﴾** أي يمنعون ما أوجب الله عليهم من الإنفاق في سبيل الله ويأمرون غيرهم بترك الإنفاق ، والآية في اليهود نزلت في جماعة منهم كانوا يقولون للأنصار لا تنفقوا أموالكم في الجهاد والصدقات ، وهي مع ذلك عامة **﴿ويكتمون ما آتاهم الله من فضله﴾** أي يخفون ما عندهم من المال والغنى ، ويخفون نعته عليه السلام الموجود في التوراة[2] **﴿وأعتدنا**

---

(١) الكشاف ١/ ٣٩٣ وهذا الرأي اختيار الطبري أيضاً . (٢) هذا ما رجحه الطبري وأبو السعود .

لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾

﴿للكافرين عذاباً مهيناً﴾ أي هيأنا للجاحدين نعمة الله عذاباً أليماً مع الخزي والإذلال لهم **﴿والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس﴾** أي ينفقونها للفخار والشهرة لا ابتغاء وجه الله **﴿ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾** أي ولا يؤمنون الإيمان الصحيح بالله واليوم الآخر ، والآية في المنافقين **﴿ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً﴾** أي من كان الشيطان صاحباً له وخليلاً يعمل بأمره فساء هذا القرين والصاحب **﴿وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله﴾** الإستفهام للإنكار والتوبيخ أي ماذا يضيرهم وأي تبعةٍ ووبالٍ عليهم في الإيمان بالله والإنفاق في سبيله ؟ قال الزمخشري : وهذا كما يقال للمنتقم : ما ضرك لو عفوت ؟ وللعاق : ما كان يرزؤك لو كنت باراً ؟ وهو ذم وتوبيخ وتجهيل بمكان المنفعة[١] **﴿وكان الله بهم عليماً﴾** وعيد لهم بالعقاب أي سيجازيهم بما عملوا **﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾** أي لا يبخس أحداً من عمله شيئاً ولو كان وزن ذرة وهي الهباءة وذلك على سبيل التمثيل تنبيهاً بالقليل على الكثير **﴿وإن تك حسنة يضاعفها﴾** أي وإن كانت تلك الذرة حسنة ينمّها و يجعلها أضعافاً كثيرة **﴿ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾** أي ويعط من عنده تفضلاً وزيادة على ثواب العمل أجراً عظيماً وهو الجنة **﴿فكيف إذا جئنا من كل أمةٍ بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾** أي كيف يكون حال الكفار والفجار حين نأتي من كل أمةٍ بنبيها يشهد عليها ، ونأتي بك يا محمد على العصاة والمكذبين من أمتك تشهد عليهم بالجحود والعصيان ؟ ! كيف يكون موقفهم ؟ وكيف يكون حالهم ؟ والاستفهام هنا للتوبيخ والتقريع **﴿يومئذٍ يود الذين كفروا وعصوا الرسول﴾** أي في ذلك اليوم العصيب يتمنى الفجار الذين جحدوا وحدانية الله وعصوا رسوله **﴿لو تُسوّى بهم الأرض﴾** أي لو يدفنوا في الأرض ثم تُسوّى بهم كما تُسوّى بالموتى ، أو لو تنشق الأرض فتبتلعهم ويكونون تراباً كقوله **﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنتُ تراباً﴾** وذلك لما يرون من أهوال يوم القيامة **﴿ولا يكتمون الله حديثاً﴾** أي لا يستطيعون أن يكتموا الله حديثاً لأن جوارحهم تشهد عليهم بما فعلوه[٢] . . ثم أمر تعالى باجتناب الصلاة في حال السكر والجنابة

(١) الكشاف ١/ ٣٩٥ .

(٢) هذا التفسير على أن الجملة مستأنفة وهو الظاهر وقيل : إن الجملة معطوفة على السابق أي يودون أن يدفنوا تحت الأرض وأنهم لم يكتموا ولم يكذبوا في قولهم ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ لأنهم إذا كتموا افتضحوا فلشدة الأمر يتمنون ان تسوى بهم الأرض ، انظر الكشاف ١/ ٣٩٦ .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾

فقال ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون**﴾ أي لا تصلوا في حالة السكر لأن هذه الحالة لا يتأتى معها الخشوع والخضوع بمناجاته سبحانه وتعالى ، وقد كان هذا قبل تحريم الخمر روى الترمذي عن علي كرم الله وجهه أنه قال « صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت الخمر منا وحضرت الصلاة فقدموني فقرأت « قل يا أيها الكافرون * أعبد ما تعبدون . ونحن نعبد ما تعبدون » فأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾[1] الآية ﴿**ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا**﴾ أي ولا تقربوها وأنتم جنب أي غير طاهرين بإنزالٍ أو إيلاج إلا إذا كنتم مسافرين ولم تجدوا الماء فصلوا على تلك الحالة بالتيمم ﴿**وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط**﴾ أي وإن كنتم مرضى ويضركم الماء ، أو مسافرين وأنتم محدثون أو أحدثتم ببولٍ أو غائطٍ ونحوهما حدثاً أصغر ولم تجدوا الماء ﴿**أو لامستم النساء**﴾ قال ابن عباس : هو الجماع ﴿**فلم تجدوا ماءً**﴾ أي فلم تجدوا الماء الذي تتطهرون به ﴿**فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم**﴾ أي اقصدوا عند عدم وجود الماء التراب الطاهر فتطهروا به وامسحوا وجوهكم وأيديكم بذلك التراب ﴿**إن الله كان عفواً غفوراً**﴾ أي يرخّص ويسهّل على عباده لئلا يقعوا في الحرج .

البلاغة : تضمنت هذه الآيات من الفصاحة والبيان والبديع ما يلي :

١ ـ الإطناب في قوله ﴿نصيب مما اكتسبوا . . ونصيب مما اكتسبن﴾ وفي ﴿حكماً من أهله وحكماً من أهلها﴾ وفي ﴿والجار ذي القربى والجار الجنب﴾ .

٢ ـ الاستعارة في ﴿مما اكتسبوا﴾ شبه استحقاقهم للإرث وتملكهم له بالإكتساب واشتق من لفظ الاكتساب اكتسبوا على طريقة الاستعارة التبعية .

٣ ـ الكناية في ﴿واهجروهن في المضاجع﴾ فقد كنى بذلك عن الجماع وكذلك في ﴿لامستم النساء﴾ قال ابن عباس معناه : جامعتم النساء كما كنى عن الحدث بالغائط في قوله ﴿أو جاء أحد منكم من الغائط﴾ .

٤ ـ صيغة المبالغة في ﴿الرجال قوامون﴾ لأن فعّال من صيغ المبالغة ومجيء الجملة إسمية لإفادة الدوام والاستمرار .

(١) قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

٥ ـ السؤال عن المعلوم لتوبيخ السامع في قوله ﴿فكيف إذا جئنا﴾ يراد بها التقريع والتوبيخ .

٦ ـ جناس الاشتقاق في ﴿حافظات . . بما حفظ﴾ وفي قوله ﴿بشهيد . . وشهيداً﴾ .

٧ ـ التعريض في ﴿مختالاً فخوراً﴾ عرّض بذلك إلى ذم الكبر المؤدي لاحتقار الناس .

٨ ـ الحذف في عدة مواضع مثل ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أي أحسنوا إلى الوالدين إحساناً .

الفَوَائِد : الأولى : لم يذكر الله تعالى في الآية إلا « الإصلاح » في قوله ﴿إن يريدا إصلاحاً﴾ ولم يذكر ما يقابله وهو التفريق وفي ذلك إشارة لطيفة إلى أنه ينبغي على الحكمين أن يبذلا جهدهما للإصلاح لأن في التفريق خراب البيوت وتشتيت الأولاد وذلك مما ينبغي أن يجتنب .

الثانية : ختم تعالى الآية بهذين الإسمين العظيمين ﴿إن الله كان علياً كبيراً﴾ وذلك لتهديد الأزواج عند التعسف في استعمال الحق فكأن الآية تقول : لا تغتروا بكونكم أعلى يداً منهن وأكبر درجة منهن فإن الله عليٌّ قاهر ينتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن ، فالله أعلى منكم وأقدر عليكم منكم عليهن فاحذروا عقابه .

الثالثة : روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ إقرأ عليَّ القرآن فقلت يا رسول الله : أقرأ عليك وعليك أُنزل ؟ قال : نعم فإني أحب أن أسمعه من غيري ! ! فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمةٍ بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ فقال : حسبك الآن فنظرتُ فإذا عيناه تذرفان .

تـنـبـيـه : ورد النظم الكريم ﴿بما فضل الله بعضهم على بعض﴾ ولو قال : بتفضيلهم عليهن لكان أخصر وأوجز ولكنَّ التعبير ورد بتلك الصيغة لحكمة جليلة وهي إفادة أن المرأة من الرجل بمنزلة عضوٍ من جسم الإنسان وكذلك العكس ، فالرجل بمنزلة الرأس ، والمرأة بمنزلة البدن ولا ينبغي أن يتكبر عضوٌ على عضو ، فالأذن لا تغني عن العين ، واليد لا تغني عن القدم ، ولا عار على الشخص أن يكون قلبه أفضل من معدته ورأسه أشرف من يده فالكل يؤدي دوره بانتظام ولا غنى لواحدٍ عن الآخر وهذا هو سر التعبير بقوله ﴿بعضهم على بعض﴾ فظهر أن الآية في نهاية الإيجاز والإعجاز .

« كلمة حول تأديب النساء »

لعل أخبث ما يتخذه أعداء الإسلام للطعن في الشريعة الإسلامية زعمهم أن الإسلام أهان المرأة حين سمح للرجل أن يضربها ويقولون : كيف يسمح القرآن بضرب المرأة ﴿واهجروهن في المضاجع واضربوهن﴾ أفليس هذا إهانة للمرأة واعتداءً على كرامتها ؟ !

والجواب : نعم لقد أذن الحكيم العليم بضربها ولكن متى يكون الضرب ؟ ولمن يكون ؟ إن الضرب ـ ضرباً غير مبرِّح ـ كما ورد به الحديث الشريف أحد الطرق في معالجة نشوز المرأة وعصيانها لأمر الزوج ، فحين تسيء المرأة عشرة زوجها وتركب رأسها وتسير بقيادة الشيطان وتقلب الحياة الزوجية إلى

جحيم لا يطاق فماذا يصنع الرجل في مثل هذه الحالة ؟ ! لقد أرشدنا القرآن الكريم إلى الدواء فأمر بالصبر والأناة ، ثم بالوعظ والإرشاد ، ثم بالهجر في المضاجع ، فإذا لم تنجح كل هذه الوسائل فلا بدَّ من سلوك طريق آخر هو الضرب غير المبرِّح لكسر الغطرسة والكبرياء ، وهذا أقل ضرراً من إيقاع الطلاق عليها ، وإذا قيس الضرر الأخف بالضرر الأكبر كان حسناً وجميلاً وما أحسن ما قيل « وعند ذكر العمى يُستحسن العَوَر » فالضرب طريق من طرق العلاج ينفع في بعض الحالات التي يستعصي فيها الإصلاح باللطف والإحسان والجميل ﴿فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا﴾ ! !

* * *

قال تعالى : ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب . . إلى . . وندخلهم ظلاً ظليلاً﴾ من الآية (٤٤) إلى نهاية الآية (٥٧) .

سَبَبُ النّزول : روي أن أبا سفيان قال لكعب بن الأشرف - أحد أحبار اليهود - إنك امرؤٌ تقرأ الكتاب وتعلم ، ونحن أميون لا نعلم فأينا أهدى طريقاً نحن أم محمد ؟ فقال : اعرضوا عليَّ دينكم فقال أبو سفيان : نحن ننحر للحجيج الكوماء ، ونسقيهم الماء ، ونقري الضيف ، ونعمر بيت ربنا ، ومحمد فارق دين آبائه وقطع الرحم !! فقال : دينكم خير من دينه وأنتم والله أهدى سبيلاً مما هو عليه فأنزل الله ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب . . ﴾[1] الآية .

المنَاسَبَة : لما ذكر تعالى شيئاً من أحوال الكفار في الآخرة وأنهم يتمنون لو تسوّى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً . . أعقبه بذكر ما عليه اليهود من الكفر والجحود والتكذيب بآيات الله ، ثم ذكر طائفة من عقائد أهل الكتاب الزائغة وما أعد لهم من العذاب المقيم في دار الجحيم أعاذنا الله منها .

اللغَة : ﴿راعنا﴾ راقبنا وانظرنا وهي كلمة سب في العبرية وكان اليهود يقولونها ويعنون بها معنى الرعونة ﴿أقوم﴾ أعدل وأصوب ﴿نطمس﴾ الطمس : المحو وإذهاب أثر الشيء ﴿فتيلاً﴾ الفتيل : الخيط الذي في شق النواة ﴿الجبت﴾ اسم الصنم ثم صار مستعملاً لكل باطل ﴿الطاغوت﴾ كل ما عبد من دون الله من حجر أو بشر أو شيطان وقيل هو اسم للشيطان ﴿نقيراً﴾ النقير : النقطة التي على ظهر النواة ﴿نصليهم﴾ ندخلهم .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ

التفسِير : ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾ الاستفهام للتعجيب من سوء حالهم والتحذير عن موالاتهم أي ألم تنظر يا محمد إلى الذين أعطوا حظاً من علم التوراة وهم أحبار اليهود ﴿يشترون الضلالة﴾ أي يختارون الضلالة على الهدى ويؤثرون الكفر على الإيمان ﴿ويريدون أن تضلوا السبيل﴾ أي ويريدون لكم يا معشر المؤمنين أن تضلوا طريق الحق لتكونوا مثلهم ﴿والله أعلم

(١) أسباب النزول ص ٨٩ والطبري ٨/ ٤٦٨ .

بِأَعْدَآئِكُمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ

بأعدائكم﴾ أي هو تعالى أعلم بعداوة هؤلاء اليهود الضالّين منكم فاحذروهم ﴿وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً﴾ أي حسبكم أن يكون الله ولياً وناصراً لكم فثقوا به واعتمدوا عليه وحده فهو تعالى يكفيكم مكرهم . . ثم ذكر تعالى طرفاً من قبائح اليهود اللعناء فقال ﴿من الذين هادوا يحرفون الكلِم عن مواضعه﴾ أي من هؤلاء اليهود فريق يبدّلون كلام الله في التوراة ويفسرونه بغير مراد الله قصداً وعمداً فقد غيّروا نعت محمد ﷺ وأحكام الرجم وغير ذلك ﴿ويقولون سمعنا وعصينا﴾ أي ويقولون لك إذا دعوتهم للإِيمان سمعنا قولك وعصينا أمرك قال مجاهد : سمعنا ما قلته يا محمد ولا نطيعك فيه ، وهذا أبلغ في الكفر والعناد ﴿واسمع غير مسمع﴾ أي اسمع ما نقول لاسمعتَ والكلام ذو وجهين يحتمل الخير والشر وأصله للخير أي لاسمعتَ مكروهاً ولكنَّ اليهود الخبثاء كانوا يقصدون به الدعاء على الرسول ﷺ أي لا أسمعكَ الله وهو دعاء بالصمم أو بالموت ﴿وراعنا﴾ أي ويقولون في أثناء خطابهم راعنا وهي كلمة سبّ من الرعونة وهي الحُمْق ، فكانوا سخريةً وهزؤاً برسول الله ﷺ يكلمونه بكلام محتمل ينوون به الشتيمة والإِهانة ويظهرون به التوقير والإِكرام ولهذا قال تعالى ﴿لياً بألسنتهم وطعناً في الدين﴾ أي فتلاً وتحريفاً عن الحق إلى الباطل وقدحاً في الإِسلام قال ابن عطية : وهذا موجود حتى الآن في اليهود وقد شاهدناهم يربّون أولادهم الصغار على ذلك ويحفظونهم ما يخاطبون به المسلمين مما ظاهره التوقير ويريدون به التحقير[1] ﴿ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا﴾ أي عوضاً من قولهم سمعنا وعصينا ﴿واسمع وانظرنا﴾ أي عوضاً عن قولهم غير مسمع وراعنا أي لو أن هؤلاء اليهود قالوا للرسول ﷺ ذلك القول اللطيف بدل ذلك القول الشنيع ﴿لكان خيراً لهم وأقوم﴾ أي لكان ذلك القول خيراً لهم عند الله وأعدل وأصوب ﴿ولكنْ لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ أي أبعدهم الله عن الهدى وعن رحمته بسبب كفرهم السابق فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً قال الزمخشري : أي ضعيفاً ركيكاً لا يُعبأ به[2] وهو إيمانهم ببعض الكتب والرسل . . ثم توعدهم تعالى بالطمس وإذهاب الحواس فقال ﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزّلنا﴾ أي يا معشر اليهود آمنوا بالقرآن الذي نزلناه على محمد ﷺ ﴿مصدقاً لما معكم﴾ أي مصدقاً للتوراة ﴿من قبل أن نطمس وجوهاً فنردَّها على أدبارها﴾ أي نطمس منها الحواس من أنفٍ أو عينٍ أو حاجب حتى تصير كالأدبار ، وهذا تشويه عظيم لمحاسن الإنسان وهو قول ابن عباس[3] ﴿أو نلعنهم كما

---

(١) البحر المحيط ٣/ ٢٦٤ . (٢) الكشاف ١/ ٤٠١ . (٣) وهو اختيار الطبري حيث قال : أي من قبل ان نطمس أبصارها ونمحو آثارها فنسوّيها كالأقفاء فنجعل أبصارها في أدبارها فيمشون القهقرى .

ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ

لعنا أصحاب السبت﴾ أي نمسخهم كما مسخنا أصحاب السبت وهم الذين اعتدوا في السبت فمسخهم الله قردة وخنازير ﴿وكان أمر الله مفعولاً﴾ أي إذا أمر بأمر فإنه نافذ كائن لا محالة ﴿إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ أي لا يغفر الشرك ويغفر ما سوى ذلك من الذنوب لمن شاء من عباده ﴿ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً﴾ أي من أشرك بالله فقد اختلق إثماً عظيماً قال الطبري : قد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة ففي مشيئة الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه عليه ما لم تكن كبيرته شركاً بالله . .[1] ثم ذكر تعالى تزكية اليهود أنفسهم مع كفرهم وتحريفهم الكتاب فقال ﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم﴾ أي ألم يبلغك خبر هؤلاء الذين يمدحون أنفسهم ويصفونها بالطاعة والتقوى ؟ والاستفهام للتعجيب من أمرهم قال قتادة : ذلكم أعداء الله اليهود زكُّوا أنفسهم فقالوا ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ وقالوا : لا ذنوب لنا[2] ﴿بل الله يزكي من يشاء﴾ أي ليس الأمر بتزكيتهم بل بتزكية الله فهو أعلم بحقائق الأمور وغوامضها يزكي المرتضين من عباده وهم الأطهار الأبرار لا اليهود الأشرار ﴿ولا يُظْلمون فتيلاً﴾ أي لا ينقصون من أعمالهم بقدر الفتيل وهو الخيط الذي في شق النواة وهو مثلٌ للقلة كقوله ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾ ﴿انظر كيف يفترون على الله الكذب﴾ هذا تعجيب من افترائهم وكذبهم أي انظر يا محمد كيف اختلقوا على الله الكذب في تزكيتهم أنفسهم وادعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ؟ ﴿وكفى به إثماً مبيناً﴾ أي كفى بهذا الافتراء وزراً بيناً وجرماً عظيماً ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾ الاستفهام للتعجيب والمراد بهم أيضاً اليهود أُعطوا حظاً من التوراة وهم مع ذلك يؤ منون بالأوثان والأصنام وكلّ ما عبد من دون الرحمن ﴿ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾ أي يقول اليهود لكفار قريش أنتم أهدى سبيلاً من محمد وأصحابه قال ابن كثير : يفضّلون الكفار على المسلمين بجهلهم وقلة دينهم وكفرهم بكتاب الله الذي بأيديهم[3] قال تعالى إخباراً عن ضلالهم ﴿أولئك الذين لعنهم الله﴾ أي طردهم وأبعدهم عن رحمته ﴿ومن يلعن اللهُ فلن تجد له نصيراً﴾ أي من يطرده من رحمته فمن ينصره من عذاب الله ؟ ويمنع عنه آثار اللعنة وهو العذاب العظيم ﴿أم لهم نصيبٌ من المُلك﴾ أي أم لهم حظٌ من الملك ؟ وهذا على وجه الإنكار يعني ليس

(١) الطبري ٨/ ٤٥٠ . (٢) الطبري ٨/ ٤٥٢ . (٣) مختصر ابن كثير ١/ ٤٠٣ .

﴿فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ۝٥٣ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ۝٥٤ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ۝٥٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٥٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ۝٥٧﴾

لهم من الملك شيء ﴿**فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً**﴾ أي لو كان لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتون أحداً مقدار نقير لفرط بخلهم ، والنقير مثلٌ في القلة كالفتيل والقطمير وهو النكتة في ظهر النواة ، ثم انتقل إلى خصلة ذميمة أشد من البخل فقال ﴿**أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله**﴾ قال ابن عباس : حسدوا النبيﷺ على النبوة وحسدوا أصحابه على الإيمان والمعنى : بل أيحسدون النبيﷺ والمؤمنين على النبوة التي فضل الله بها محمداً وشرّف بها العرب ويحسدون المؤمنين على ازدياد العز والتمكين ؟ ﴿**فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً**﴾ أي فقد أعطينا أسلافكم من ذرية إبراهيم النبوة وأنزلنا عليهم الكتب وأعطيناهم الملك العظيم مع النبوة كداود وسليمان فلأي شيء تخصون محمداًﷺ بالحسد دون غيره ممن أنعم الله عليهم ؟ والمقصود الرد على اليهود في حسدهم للنبيﷺ وإلزام لهم بما عرفوه من فضل الله على آل إبراهيم ﴿**فمنهم من آمن به ومنهم من صدَّ عنه**﴾ أي من اليهود من آمن بمحمدﷺ وهم قلة قليلة ومنهم من أعرض فلم يؤمن وهم الكثرة كقوله ﴿**فمنهم مهتدٍ وكثيرٌ منهم فاسقون**﴾ ﴿**وكفى بجهنم سعيراً**﴾ أي كفى بالنار المسعّرة عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم . . ثم أخبر تعالى بما أعده للكفرة الفجرة من الوعيد والعذاب الشديد فقال ﴿**إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً**﴾ أي سوف ندخلهم ناراً عظيمة هائلة تشوي الوجوه والجلود ﴿**كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب**﴾ أي كلما انشوت جلودهم واحترقت احتراقاً تاماً بدلناهم جلوداً غيرها ليدوم لهم ألم العذاب ،قال الحسن : تُنْضجهم النار في اليوم سبعين ألف مرة كلما أكلتهم قيل لهم عودوا فعادوا كما كانوا وقال الربيع : جلد أحدهم أربعون ذراعاً ، وبطنُه لو وضع فيه جبل لوسعه ، فإذا أكلت النار جلودهم بدلوا جلوداً غيرها وفي الحديث (يعظم أهل النار في النار حتى إن بين شحمة أذن أحدهم إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام ، وإن غلظ جلده سبعون ذراعاً وإن ضرسه مثل أحد)[1] ﴿**إن الله كان عزيزاً حكيماً**﴾ أي عزيز لا يمتنع عليه شيء حكيم لا يعذّب إلا بعدل ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً**﴾ هذا إخبار عن مآل السعداء أي سندخلهم جنات تجري فيها الأنهار في جميع فجاجها وأرجائها حيث شاءوا وأين أرادوا مقيمين في الجنة لا يموتون ﴿**لهم فيها أزواج مطهرة**﴾ أي

(١) أخرجه أحمد في المسند .

لهم في الجنة زوجات مطهرات من الأقذار والأذى قال مجاهد : مطهرات من البول والحيض والنخام والبزاق والمني والولد ﴿وندخلهم ظلاً ظليلاً﴾ أي ظلاً دائماً لا تنسخه الشمس ولا حر فيه ولا برد قال الحسن : وُصف بأنه ظليل لأنه لا يدخله ما يدخل ظل الدنيا من الحرّ والسموم ، وفي الحديث (إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها)[1] .

البَـلاَغَـة : تضمنت هذه الآيات من الفصاحة والبلاغة والبديع ما يلي بالإيجاز :

١ ـ المجاز المرسل في ﴿أم يحسدون الناس﴾ المراد به محمد ﷺ من باب تسمية الخاص باسم العام إشارة إلى أنه جمعت فيه كمالات الأولين والآخرين .

٢ ـ الاستعارة في ﴿يشترون الضلالة﴾ وفي ﴿ليذوقوا العذاب﴾ لأن أصل الذوق باللسان فاستعير إلى الألم الذي يصيب الإنسان وفي ﴿لياً بألسنتهم﴾ لأن أصل اللّيّ فتل الحبل فاستعير للكلام الذي قصد به غير ظاهره وفي ﴿نطمس وجوهاً﴾ وهي عبارة عن مسخ الوجوه تشبيهاً بالصحيفة المطموسة التي عُمّيت سطورها وأشكلت حروفها .

٣ ـ الاستفهام الذي يراد به التعجب في ﴿ألم تر﴾ في موضعين .

٤ ـ التعجب بلفظ الأمر في ﴿انظر كيف يفترون﴾ وتلوين الخطاب في ﴿يفترون﴾ وإقامته مقام الماضي للدلالة على الدوام والاستمرار .

٥ ـ الاستفهام الذي يراد منه التوبيخ والتقريع في ﴿أم لهم نصيب﴾ وفي ﴿أم يحسدون﴾ .

٦ ـ التعريض في ﴿فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً﴾ عرَّض بشدة بخلهم .

٧ ـ الطباق في ﴿وجوه . . وأدبار﴾ وفي ﴿آمنوا . . وكفروا﴾ .

٨ ـ جناس الاشتقاق في ﴿نلعنهم . . ولعنّا﴾ وفي ﴿يؤتون . . وآتاهم﴾ وفي ﴿ظلاً ظليلاً﴾ .

٩ ـ الإطناب في مواضع ، والحذف في مواضع .

* * *

قال الله تعالى : ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات . . . إلى . . وكفى بالله عليماً﴾

من آية (٥٨) إلى نهاية آية (٧٠) .

المنَاسَبَة : لما ذكر تعالى حال اليهود وما هم عليه من الحسد والعناد والجحود ، وذكر ما أعده لهم من العذاب والنكال في الآخرة ، أعقبه بتوجيه المؤمنين إلى طريق السعادة بطاعة الله ورسوله وأداء

---

(١) أخرجه الشيخان .

الأمانات والحكم بالعدل بين الناس ، ثم ذكر صفات المنافقين التي ينبغي الحذر منها والبعد عنها .

اللغـــة : ﴿نعمّا﴾ أصلها نعم ما أي نعم الشيء يعظكم به ﴿تأويلاً﴾ مآلاً وعاقبة ﴿يزعمون﴾ الزعم : الاعتقاد الظني قال الليث : أهل العربية يقولون : زعم فلان إذا شكّوا فيه فلم يعرفوا أكَذَب أو صدَقَ وقال ابن دريد : أكثر ما يقع على الباطل ومنه قولهم « زعموا مطيّةُ الكذب » ﴿توفيقاً﴾ تأليفاً والوفاق والوَفْق ضد المخالفة ﴿بليغاً﴾ مؤثراً ﴿شجر﴾ اختلف واختلط ومنه الشجر لتداخل أغصانه واختلاط بعضها في بعض ﴿حرجاً﴾ ضيقاً وشكاً قال الواحدي : يقال للشجر الملتف الذي لا يكاد يوصل إليه حرج .

سَبَبُ النّزول : أ - روي أن رسول الله ﷺ لما دخل مكة يوم الفتح أغلق « عثمان بن طلحة » باب الكعبة وصعد السطح وأبى أن يدفع المفتاح لرسول الله ﷺ وقال : لو علمتُ أنه رسول الله لم أمنعه فلوى عليٌّ يده وأخذه منه وفتح بابها فدخل رسول الله ﷺ وصلى ركعتين فلما خرج أمر علياً أن يردّ المفتاح إلى عثمان بن طلحة ويعتذر إليه فقال له عثمان : آذيتَ وأكرهت ثم جئتَ تترفق ! ! فقال لقد أنزل الله في شأنك قرآناً ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها . .﴾ وقرأ عليه الآية فأسلم عثمان فقال النبي ﷺ : (خذوها يا بني طلحة خالدة تالدة لا يأخذها منكم إلا ظالم)[1] .

ب - عن ابن عباس أن رجلاً من المنافقين يقال له « بِشْر » كان بينه وبين يهودي خصومةٌ فقال اليهودي : تعال نتحاكم إلى محمد فقال المنافق : بل نتحاكم إلى « كعب بن الأشرف » - وهو الذي سماه الله الطاغوت - فأبى اليهودي أن يخاصمه إلا إلى رسول الله ﷺ فقضى رسول الله لليهودي على المنافق ، فلما خرج من عنده لم يرض المنافق وقال : تعال نتحاكمْ إلى عمر بن الخطاب فأتيا عمر فقال اليهودي : كان بيني وبين هذا خصومة فتحاكمنا إلى محمد فقضى لي عليه فلم يرض بقضائه وزعم أنه يخاصمني إليك فقال عمر للمنافق : أكذلك هو ؟ فقال : نعم فقال عمر : مكانكما حتى أخرج إليكما فدخل عمر فاشتمل عليه سيفه ثم خرج فضرب به المنافق حتى برد - أي مات - وقال : هكذا أقضي فيمن لم يرض بقضاء الله ورسوله فنزلت الآية ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزل إليك . .﴾[2] الآية .

* إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا

التفسير : ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ الخطاب عام لجميع المكلفين كما أن الأمانات تعم جميع الحقوق المتعلقة بالذمم سواءً كانت حقوق الله أو العباد قال الزمخشري : الخطاب عام لكل أحد في كل أمانة ،[3] والمعنى يأمركم الله أيها المؤمنون بأداء الأمانات إلى أربابها قال ابن كثير : يأمر تعالى بأداء الأمانات إلى أهلها وهو يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله عز وجل على

(١) الفخر الرازي ١٠/ ١٣٨ وأسباب النزول ص ٩٠ . (٢) الكشاف ١/ ٤٠٦ والقرطبي ٥/ ٢٦٤ . (٣) الكشاف ١/ ٤٠٥ .

﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ﴾

عباده من الصلاة والزكاة والصيام والكفارات وغيرها ، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغيرها[1] ﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾ أي ويأمركم أن تعدلوا بين الناس في أحكامكم ﴿إن الله نعما يعظكم به﴾ أي نعم الشيء الذي يعظكم به ﴿إن الله كان سميعاً بصيراً﴾ فيه وعدٌ ووعيد أي سميع لأقوالكم بصير بأفعالكم ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ أي أطيعوا الله وأطيعوا رسوله بالتمسك بالكتاب والسنة ، وأطيعوا الحكام إذا كانوا مسلمين متمسكين بشرع الله إذ لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق ، وفي قوله ﴿منكم﴾ دليل على أن الحكام الذين تجب طاعتهم يجب ان يكونوا مسلمين حساً ومعنى ، لحماً ودماً ، لا أن يكونوا مسلمين صورة وشكلاً ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾ أي فإن اختلفتم في أمرٍ من الأمور فاحتكموا فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ أي إن كنتم مؤمنين حقاً وهو شرط حذف جوابه لدلالة ما سبق أي فردوه إلى الله والرسول والغرض منه الحث على التمسك بالكتاب والسنة كما يقول القائل : إن كنت ابني فلا تخالفني ﴿ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾ أي الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله خير لكم وأصلح وأحسن عاقبة ومآلاً . . ثم ذكر تعالى صفات المنافقين الذين يدّعون الايمان وقلوبهم خاوية منه فقال ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾ تعجيبٌ من أمر من يدّعي الايمان ثم لا يرضى بحكم الله أي ألا تعجب من صنيع هؤلاء المنافقين الذين يزعمون الايمان بما أنزل إليك وهو القرآن وما أنزل من قبلك وهو التوراة والإنجيل ﴿يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت﴾ أي يريدون أن يتحاكموا في خصومتهم إلى الطاغوت قال ابن عباس هو « كعب بن الأشرف » أحد طغاة اليهود سمي به لإفراطه في الطغيان وعداوته للرسول عليه السلام ﴿وقد أُمروا أن يكفروا به﴾ أي والحال أنهم قد أمروا بالايمان بالله والكفر بما سواه كقوله ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ ﴿ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً﴾ أي ويريد الشيطان بما زيّن لهم أن يحرفهم عن الحق والهدى ﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول﴾ أي وإذا قيل لأولئك المنافقين تعالوا فتحاكموا إلى كتاب الله وإلى الرسول ليفصل بينكم فيما تنازعتم فيه ﴿رأيتَ المنافقين يصدون عنك

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٤٠٥ .

صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم

صدوداً﴾ أي رأيتهم لنفاقهم يعرضون عنك إعراضاً **﴿فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم﴾** أي كيف يكون حالهم إذا عاقبهم الله بذنوبهم وبما جنته أيديهم من الكفر والمعاصي أيقدرون أن يدفعوا عنهم العذاب ؟ **﴿ثم جاءُوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً﴾** أي ثم جاءك هؤلاء المنافقون للإعتذار عما اقترفوه من الأوزار يقسمون بالله ما أردنا بالتحاكم إلى غيرك إلا الصلح والتأليف بين الخصمين وما أردنا رفض حكمك قال تعالى تكذيباً لهم **﴿أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم﴾** أي هؤلاء المنافقون يكذبون والله يعلم ما في قلوبهم من النفاق والمكر والخديعة وهم يريدون أن يخدعوك بهذا الكلام المعسول **﴿فأعرض عنهم﴾** أي فأعرضْ عن معاقبتهم للمصلحة ولا تُظهر لهم علمك بما في بواطنهم ولا تهتك سترهم حتى يبقوا على وجلٍ وحذر **﴿وعظهم﴾** أي ازجرهم عن الكيد والنفاق بقوارع الآيات **﴿وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾** أي انصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ مؤثر يصل إلى سويداء قلوبهم يكون لهم رادعاً ولنفاقهم زاجراً ، ثم أخبر تعالى عن بيان وظيفة الرسل فقال **﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليُطاع بإذن الله﴾** أي لم نرسل رسولاً من الرسل إلا ليطاع بأمر الله تعالى فطاعته طاعةٌ للّه ومعصيته معصيةٌ للّه **﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله﴾** أي لو أن هؤلاء المنافقين حين ظلموا أنفسهم بعدم قبول حكمك جاءوك تائبين من النفاق مستغفرين الله من ذنوبهم معترفين بخطئهم **﴿واستغفر لهم الرسول﴾** أي واستغفرت لهم يا محمد أي سألت الله أن يغفر لهم ذنوبهم **﴿لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾** أي لعلموا كثرة توبة الله على عباده وسعة رحمته لهم ثم بين تعالى طريق الإيمان الصادق فقال **﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم﴾** اللام لتأكيد القسم أي فوربك يا محمد لا يكونون مؤمنين حتى يجعلوك حكماً بينهم ويرضوا بحكمك فيما تنازعوا فيه واختلفوا من الأمور **﴿ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيتَ ويسلّموا تسليماً﴾** أي ثم لا يجدوا في أنفسهم ضيقاً من حكمك وينقادوا انقياداً تاماً كاملاً لقضائك ، من غير معارضة ولا مدافعة ولا منازعة ، فحقيقةُ الإيمان الخضوع والإذعان **﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم﴾** أي لو فرضنا على هؤلاء المنافقين ما فرضنا على من قبلهم من المشقات وشدّدنا التكليف عليهم فأمرناهم بقتل النفس والخروج من الأوطان كما فرض ذلك على بني إسرائيل **﴿ما فعلوه إلا قليل منهم﴾** أي ما استجاب ولا انقاد إلا قليل منهم لضعف إيمانهم

مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُولَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾

﴿ولو أنهم فعلوا ما يُوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً﴾ أي ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به من طاعة الله وطاعة رسوله لكان خيراً لهم في عاجلهم وآجلهم وأشدَّ تثبيتاً لإِيمانهم ، وأبعد لهم عن الضلال والنفاق ﴿وإِذاً لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً﴾ أي أرشدناهم إِلى الطريق المستقيم الموصل إِلى جنات النعيم ، ثم ذكر تعالى ثمرة الطاعة لله ورسوله فقال ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم﴾ أي ومن يعمل بما أمره الله به ورسوله ويجتنب ما نهى الله عنه ورسوله ، فإِن الله عز وجل يسكنه دار كرامته في دار الخلد مع المقربين ﴿من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين﴾ أي مع أصحاب المنازل العالية في الآخرة وهم الأنبياء الأطهار والصديقون الأبرار وهم أفاضل أصحاب الأنبياء والشهداء الأخيار وهم الذين استشهدوا في سبيل الله ثم مع بقية عباد الله الصالحين ﴿وحسن أولئك رفيقاً﴾ أي ونعمت رفقة هؤلاء وصحبتهم ، وحَسُن رفيق أولئك الأبرار ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت النبي ﷺ في شكواه التي قُبض فيها يقول ﴿مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين﴾ فعلمتُ أنه خيِّر[1] ﴿ذلك الفضل من الله﴾ أي ما أُعطيه المطيعون من الأجر العظيم إِنما هو بمحض فضله تعالى ﴿وكفى بالله عليماً﴾ أي وكفى به تعالى مجازياً لمن أطاع عالماً بمن يستحق الفضل والإِحسان .

البلاغة : تضمنت الآيات الكريمة من ضروب الفصاحة والبديع ما يلي باختصار :

١ ـ الاستفهام المراد به التعجب في ﴿ألم تر إِلى الذين يزعمون﴾ .

٢ ـ الالتفات في ﴿واستغفر لهم الرسول﴾ تفخيماً لشأن الرسول وتعظيماً لاستغفاره ولو جرى على الأصل لقال ﴿واستغفرت لهم﴾ .

٣ ـ إِيراد الأمر بصورة الإِخبار وتصديره بـ « إِنَّ » المفيدة للتحقيق في قوله ﴿إِن الله يأمركم﴾ للتفخيم وتأكيد وجوب العناية والامتثال .

٤ ـ الجناس المغاير في ﴿يضلهم ضلالاً﴾ وفي ﴿قل لهم .. قولاً﴾ وفي ﴿يسلموا تسليماً﴾ وفي ﴿يصدون .. صدوداً﴾ وفي ﴿فأفوز فوزاً﴾ .

٥ ـ الاستعارة في قوله ﴿فيما شجر بينهم﴾ استعار ما اشتبك وتضايق من الشجر

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٤١١ .

للتنازع الذي يدخل به بعض الكلام في بعض استعارة للمعقول بالمحسوس .

٦ ـ تكريم الاسم الجليل ﴿إن الله يأمركم﴾ ﴿إن الله نِعِمّا يعظكم﴾ ﴿إن الله كان سميعاً﴾ لتربية المهابة في النفوس .

٧ ـ الإطناب في مواضع والحذف في مواضع .

فائدة : عن عائشة رضي الله عنها قالت : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله : إنك لأحب إليّ من نفسي وأحبُّ إليَّ من أهلي ، وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك ، وإذا ذكرتُ موتي وموتك عرفتُ أنك إذا دخلتَ الجنةُ رفعتَ مع النبيين وإن دخلتُ الجنة خشيتُ أن لا أراك فلم يردّ عليه النبي ﷺ حتى أنزل الله ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم . .﴾[1] الآية .

* * *

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم . . . إلى . . ومن أصدق من الله حديثاً﴾ من آية (٧١) إلى نهاية آية (٨٧) .

المناسبة : لما حذّر تعالى من النفاق والمنافقين وأوصى بطاعة الله وطاعة رسوله ، أمر هنا بأعظم الطاعات والقربات وهو الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته وإحياء دينه، وأمر بالاستعداد والتأهب حذراً من مباغتة الكفار، ثم بيّن حال المتخلفين عن الجهاد المثبطين للعزائم من المنافقين وحذّر المؤمنين من شرهم .

اللغة : ﴿ثُبات﴾ جمع ثُبتة وهي الجماعة أي جماعة بعد جماعة ﴿بروج﴾ جمع برج وهو البناء المرتفع والقصر العظيم والمراد به هنا الحصون ﴿مشيّدة﴾ مرتفعة البناء ﴿بيَّت﴾ دبَّر الأمر ليلاً ، والبيَاتُ أن يأتي العدوّ ليلاً ومنه قول العرب: أمرٌ بُيِّتَ بليل ﴿أذاعوا به﴾ أشاعوه ونشروه ﴿يستنبطونه﴾ يستخرجونه مأخوذ من استنبطت الماء إذا استخرجته ومنه استنباط الأحكام من الكتاب والسنة ﴿حرِّض﴾ التحريض : الحث على الشيء ﴿تنكيلاً﴾ تعذيباً والنكالُ : العذابُ ﴿كفل﴾ نصيب وأكثر ما يستعمل الكفل في الشر ﴿مقيتاً﴾ مقتدراً من أقات على الشيء قدر عليه قال الشاعر :

وذي ضِغْنٍ كففتُ النفس عنه وكنتُ على مساءته مُقيتاً

سبب النزول : عن ابن عباس أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ بمكة فقالوا : يا نبيَّ الله لقد كنا في عزٍ ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلة ؟ فقال : إني أُمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم ، فلما حوله الله تعالى إلى المدينة أمره بالقتال فكفّوا فأنزل الله ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة . .﴾[2] الآية .

---

(١) أخرجه ابن مردويه . (٢) أسباب النزول ص ٩٦ والقرطبي ٥/ ٢٨١ .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَـٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ * فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ

التفسير : ﴿**يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم**﴾ أي يا معشر المؤمنين احترزوا من عدوكم واستعدوا له ﴿**فانفروا ثُباتٍ أو انفروا جميعاً**﴾ أي اخرجوا إلى الجهاد جماعات متفرقين ، سريةً بعد سرية أو اخرجوا مجتمعين في الجيش الكثيف ، فخيَّرهم تعالى في الخروج إلى الجهاد متفرقين ومجتمعين ﴿**وإنَّ منكم لَمَن ليبطئنَّ**﴾ أي ليتثاقلنَّ ويتخلفنَّ عن الجهاد ، والمراد بهم المنافقون وجعلوا من المؤمنين باعتبار زعمهم وباعتبار الظاهر ﴿**فإن أصابتكم مصيبة**﴾ أي قتلٌ وهزيمة ﴿**قال قد أنعم الله عليَّ إذ لم أكن معهم شهيداً**﴾ أي قال ذلك المنافق قد تفضَّل الله عليَّ إذ لم أشهد الحرب معهم فأُقتل ضمن من قتلوا ﴿**ولئن أصابكم فضلٌ من الله**﴾ أي ولئن أصابكم أيها المؤمنون نصر وظفر وغنيمة ﴿**ليقولنَّ كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً**﴾ أي ليقولنَّ هذا المنافق قول نادم متحسر كأن لم يكن بينكم وبينه معرفة وصداقة يا ليتني كنتُ معهم في الغزو لأنال حظاً وافراً من الغنيمة ، وجملة ﴿**كأن لم تكن**﴾ اعتراضية للتنبيه على ضعف إيمانهم ، وهذه المودة في ظاهر المنافق لا في اعتقاده فهو يتمنى أن لو كان مع المؤمنين لا من أجل عزة الإسلام بل طلباً للمال وتحصيلاً للحطام ، ولما ذم تعالى المبطئين عن القتال في سبيل الله رغب المؤمنين فيه فقال ﴿**فلْيقاتل في سبيل الله الذين يَشرون الحياةَ الدنيا بالآخرة**﴾ أي فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم وأموالهم في سبيل الله الذين يبيعون الحياة الفانية بالحياة الباقية ﴿**ومن يقاتل في سبيل الله فيُقْتل أو يَغْلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً**﴾ وهذا وعدٌ منه سبحانه بالأجر العظيم لمن قاتل في سبيل الله سواءً غَلَب أو غُلِب أي من يقاتل في سبيل الله لإعلاء كلمة الله فيُستشهد أو يظفر على الأعداء فسوف نعطيه ثواباً جزيلاً فهو فائز بإحدى الحسنيين : الشهادة أو الغنيمة كما في الحديث (تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يُخرجه إلا جهادٌ في سبيلي ، وإيمانٌ بي وتصديقٌ برسلي فهو عليَّ ضامن أن أُدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة)[1] ﴿**وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والوِلدان**﴾ الاستفهام للحث والتحريض على الجهاد أي وما لكم أيها المؤمنون لا تقاتلون في سبيل الله وفي سبيل خلاص المستضعفين من إخوانكم الذين صدَّهم المشركون عن الهجرة فبقوا مستذلين مستضعفين يلقون أنواع الأذى الشديد ؟ ! وقوله ﴿من الرجال والنساء والولدان﴾

---

(١) أخرجه مسلم .

ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ

بيانٌ للمستضعفين قال ابن عباس : كنتُ أنا وأمي من المستضعفين ، وهم الذين كان يدعو لهم الرسول ﷺ فيقول : اللهم أنْج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام الخ كما في الصحيح ﴿**الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية**﴾ أي الذين يدعون ربهم لكشف الضُرّ عنهم قائلين : ربنا أخرجنا من هذه القرية وهي مكة إذ أنها كانت موطن الكفر ولذا هاجر الرسول ﷺ منها ﴿**الظالم أهلُها**﴾ بالكفر وهم صناديد قريش الذين منعوا المؤمنين من الهجرة ومنعوا من ظهور الإسلام فيها ﴿**واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً**﴾ أي اجعل لنا من هذا الضيق فرجاً ومخرجاً وسخّر لنا من عندك وليّاً وناصراً ، وقد استجاب الله دعاءهم فجعل لهم خير وليّ وناصر وهو محمد ﷺ حين فتح مكة ولما خرج منها ولّى عليهم « عتّاب بن أسيد » فأنصف مظلومهم من ظالمهم ، ثم شجع تعالى المجاهدين ورغبهم في الجهاد فقال ﴿**الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله**﴾ أي المؤمنون يقاتلون لهدف سامٍ وغاية نبيلة وهي نصرة دين الله وإعلاء كلمته ابتغاء مرضاته فهو تعالى وليهم وناصرهم ﴿**والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت**﴾ أي وأما الكافرون فيقاتلون في سبيل الشيطان الداعي إلى الكفر والطغيان ﴿**فقاتلوا أولياء الشيطان**﴾ أي قاتلوا يا أولياء الله أنصار واعوان الشيطان فإنكم تغلبونهم ، فشتان بين من يقاتل لإعلاء كلمة الله وبين من يقاتل في سبيل الشيطان ، فمن قاتل في سبيل الله فهو الذي يَغْلب لأن الله وليُّه وناصرُه ، ومن قاتل في سبيل الطاغوت فهو المخذول المغلوب ولهذا قال ﴿**إن كيد الشيطان كان ضعيفاً**﴾ أي سعيُ الشيطان في حد ذاته ضعيف فكيف بالقياس إلى قدرة الله ؟ ! قال الزمخشري : كيدُ الشيطان للمؤمنين إلى جنب كيد الله للكافرين أضعف شيء وأوهنه[1] ﴿**ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة**﴾ أي ألا تعجب يا محمد من قوم طلبوا القتال وهم بمكة فقيل لهم : أمسكوا عن قتال الكفار فلم يحن وقته وأعدّوا نفوسكم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿**فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية**﴾ أي فلما فرض عليهم قتال المشركين إذا جماعة منهم يخافون ويجبنون ويفزعون من الموت كخشيتهم من عذاب الله أو أشد من ذلك ، قال ابن كثير : كان المؤمنون في إبتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة والصبر على أذى المشركين وكانوا يتحرقون لو أُمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم فلما أمروا بما كانوا يودونه جزع بعضهم وخاف من مواجهة الناس خوفاً شديداً[2] ﴿**وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال**﴾ أي وقالوا جزعاً من الموت ربنا لم فرضت علينا القتال ؟ ﴿لولا أخرتنا إلى أجلٍ

(١) الكشاف ١/ ٤١٤ . (٢) مختصر ابن كثير ١/ ٤١٣ .

﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾

قريب﴾ لولا للتحضيض بمعنى هلاّ أي هلاّ أخرتنا إلى أجل قريب حتى نموتَ بآجالنا ولا نقتل فيفرح بنا الأعداء ! ﴿قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى﴾ أي قل لهم يا محمد إن نعيم الدنيا فانٍ ونعيم الآخرة باقٍ فهو خير من ذلك المتاع الفاني لمن اتقى الله وامتثل أمره ﴿ولا تُظلمون فتيلاً﴾ أي لا تُنقصون من أجور أعمالكم أدنى شيء ولو كان فتيلاً وهو الخيط الذي في شق النواة قال في التسهيل : إن الآية في قومٍ من الصحابة كانوا قد أُمروا بالكف عن القتال فتمنوا أن يؤمروا به ، فلما أُمروا به كرهوه لا شكاً في دينهم ولكن خوفاً من الموت ، وقيل هي في المنافقين وهو أليق في سياق الكلام[1] ﴿أينما تكونوا يدرككم الموتُ ولو كنتم في بروجٍ مشيَّدة﴾ أي في أي مكانٍ وجدتم فلا بدّ أن يدرككم الموت عند انتهاء الأجل ويفاجئكم ولو تحصنتم منه بالحصون المنيعة فلا تخشوا القتال خوف الموت ﴿وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله﴾ أي إن تصب هؤلاء المنافقين حسنةٌ من نصر وغنيمة وشبه ذلك يقولوا هذه من جهة الله ومن تقديره لما علم فينا من الخير ﴿وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك﴾ أي وإن تنلهم سيئة من هزيمة وجوع وشبه ذلك يقولوا هذه بسبب اتباعنا لمحمد ودخولنا في دينه يعنون بشؤم محمد ودينه قال السدي : يقولون هذا بسبب تركنا ديننا واتباعنا محمداً أصابنا هذا البلاء كما قال تعالى عن قوم فرعون ﴿وإن تصبْهم سيئةٌ يطيَّروا بموسى ومن معه﴾ ﴿قل كلٌّ من عند الله﴾ أمرﷺ بأن يرد زعمهم الباطل ويلقمهم الحجر ببيان أن الخير والشر بتقدير الله أي قل يا محمد لهؤلاء السفهاء : الحسنةُ والسيئة والنعمةُ والنقمة كلٌّ ذلك من عند الله خلقاً وإيجاداً لا خالق سواه فهو وحده النافع الضار وعن إرادته تصدر جميع الكائنات ﴿فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً﴾ أي ما شأنهم لا يفقهون أن الأشياء كلها بتقدير الله ؟ وهو توبيخ لهم على قلة الفهم . . ثم قال تعالى مبيناً حقيقة الإيمان ﴿ما أصابك من حسنةٍ فمن الله وما أصابك من سيئةٍ فمن نفسك﴾ الخطاب لكل سامع أي ما أصابك يا إنسان من نعمة وإحسان فمن الله تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً وامتحاناً ، وما أصابك من بلية ومصيبة فمن عندك لأنك السبب فيها بما ارتكبت يداك كقوله ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ . . ثم قال تعالى مخاطباً الرسول ﴿وأرسلناك للناس رسولاً وكفى بالله شهيداً﴾ أي وأرسلناك يا محمد رسولاً للناس أجمعين تبلغهم شرائع الله وحسبك

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ١/ ١٤٨ واختار هذا القرطبي وأبو حيان وهو الأرجح قال في البحر : الظاهر ان القائلين هذا هم منافقون لأن الله تعالى اذا أمر بشيء لا يسألُ عن علته من هو خالصُ الإيمان ولهذا جاء السياق بعده ﴿وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك﴾ وهذا لا يصدر إلا من منافق آ هـ البحر ٣/ ٩٢٨ .

شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾

أن يكون الله شاهداً على رسالتك ، ثم رغب تعالى في طاعة الرسول فقال **﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾** أي من أطاع أمر الرسول فقد أطاع الله لأنه مبلّغٌ عن الله **﴿ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾** أي ومن أعرض عن طاعتك فما أرسلناك يا محمد حافظاً لأعمالهم ومحاسباً لهم عليها إن عليك إلا البلاغ **﴿ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيَّت طائفة منهم غير الذي تقول﴾** أي ويقول المنافقون : أمرك يا محمد طاعة كقول القائل « سمعاً وطاعةً » فإذا خرجوا من عندك دبّر جماعة منهم غير الذي تقوله لهم وهو الخلاف والعصيان لأمرك **﴿والله يكتب ما يبيتون﴾** أي يأمر الحفظة بكتابته في صحائف أعمالهم ليجازوا عليه **﴿فأعرضْ عنهم وتوكل على الله﴾** أي اصفح عنهم وفوّض أمرك إلى الله وثق به **﴿وكفى بالله وكيلاً﴾** أي فهو سبحانه ينتقم لك منهم وكفى به ناصراً ومعيناً لمن توكل عليه ، ثم عاب تعالى المنافقين بالإعراض عن التدبر في القرآن في فهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة ففي تدبره يظهر برهانه ويسطع نوره وبيانه **﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾** أي لو كان هذا القرآن مختلقاً كما يزعم المشركون والمنافقون لوجدوا فيه تناقضاً كبيراً في أخباره ونظمه ومعانيه ولكنه منزه عن ذلك فأخباره صدق ، ونظمه بليغ ، ومعانيه محكمة ، فدلَّ على أنه تنزيل الحكيم الحميد **﴿وإذا جاءهم أمرٌ من الأمن أو الخوف أذاعوا به﴾** أي إذا جاء المنافقين خبرٌ من الأخبار عن المؤمنين بالظفر والغنيمة أو النكبة والهزيمة أذاعوا به أي أفشوه وأظهروه وتحدثوا به قبل أن يقفوا على حقيقته وكان في إذاعتهم له مفسدة على المسلمين **﴿ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾** أي لو ترك هؤلاء الكلام بذلك الأمر الذي بلغهم وردوه إلى رسول الله ﷺ وإلى كبراء الصحابة وأهل البصائر منهم لعلمه الذين يستخرجونه منهم أي من الرسول وأولي الأمر **﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً﴾** أي لولا فضل الله عليكم أيها المؤمنون بإرسال الرسول ورحمته بإنزال القرآن لاتبعتم الشيطان فيما يأمركم به من الفواحش إلا قليلاً منكم ، ثم أمر الرسول بالجهاد فقال **﴿فقاتل في سبيل الله لا تُكلَّف إلا نفسك﴾** أي قاتل يا محمد لإعلاء كلمة الله ولو وحدك فإنك موعود بالنصر ولا تهتم بتخلف

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾

المنافقين عنك ﴿وحرِّض المؤمنين﴾ أي شجِّعهم على القتال ورغبْهم فيه ﴿عسى الله أن يكفَّ بأس الذين كفروا﴾ هذا وعدٌ من الله بكفهم و﴿عسى﴾ من الله تفيد التحقيق أي بتحريضك المؤمنين يكف الله شرّ الكفرة الفجار ، وقد كفهم الله بهزيمتهم في بدر وبفتح مكة ﴿والله أشدُّ بأساً وأشد تنكيلاً﴾ أي هو سبحانه أشد قوة وسطوة ، وأعظم عقوبة وعذاباً ﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها﴾ أي من يشفع بين الناس شفاعة موافقة للشرع يكن له نصيب من الأجر ﴿ومن يشفع شفاعة سيئةٍ يكن له كفلٌ منها﴾ أي ومن يشفع شفاعة مخالفة للشرع يكن له نصيب من الوزر بسببها ﴿وكان الله على كل شيء مقيتاً﴾ أي مقتدراً فيجازي كل أحدٍ بعمله ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾ أي إذا سلّم عليكم المسلم فردوا عليه بأفضل مما سلّم أو رُدُّوا عليه بمثل ما سلّم ﴿إن الله كان على كل شيء حسيباً﴾ أي يحاسب العباد على كل شيء من أعمالهم الصغيرة والكبيرة ﴿الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾ هذا قسم من الله بجمع الخلائق يوم المعاد أي الله الواحد الذي لا معبود سواه ليحشرنكم من قبوركم إلى حساب يوم القيامة الذي لا شك فيه وسيجمع الأولين والآخرين في صعيد واحدٍ للجزاء والحساب ﴿ومن أصدق من الله حديثاً﴾ لفظه استفهام ومعناه النفي أي لا أحد أصدق في الحديث والوعد من الله رب العالمين .

البَلاَغَة : تضمنت هذه الآيات أنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الاستعارة في قوله ﴿يشرون الحياة الدنيا بالآخرة﴾ اي يبيعون الفانية بالباقية فاستعار لفظ الشراء للمبادلة وهو من لطيف الاستعارة .

٢ ـ الاعتراض في ﴿كأن لم يكن بينكم وبينه مودة﴾ .

٣ ـ التشبيه المرسل المجمل في ﴿يخشون الناس كخشية الله﴾ .

٤ ـ الطباق بين ﴿الأمن أو الخوف﴾ .

٥ ـ جناس الاشتقاق في ﴿أصابتكم مصيبة﴾ وفي ﴿حييتم فحييوا﴾ وفي ﴿يشفع شفاعة﴾ وفي ﴿بيَّت . . ويبيتون﴾ .

٦ ـ الاستفهام الذي يراد به الإنكار في ﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾ ؟

٧ ـ المقابلة في قوله ﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت﴾

وكذلك في قوله ﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفلٌ منها﴾ وهذه من المحسنات البديعية وهي أي يؤ تى بمعنيين أو أكثر ثم يؤ تى بما يقابل ذلك على الترتيب .

تنبيه : لا تعارض بين قوله تعالى ﴿قل كلٌ من عند الله﴾ أي كلٌ من الحسنة والسيئة وبين قوله ﴿وما أصابك من سيئةٍ فمن نفسك﴾ إذ الأولى على الحقيقة أي خلقاً وإيجاداً والثانية تسبباً وكسباً بسبب الذنوب ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾ أو نقول : نسبة الحسنة إلى الله ، والسيئة إلى العبد هو من باب الأدب مع الله في الكلام وإن كان كل شيء منه في الحقيقة كقوله ﷺ (الخير كلُّه بيديك والشرُّ ليس إليك) والله أعلم .

* * *

قال الله تعالى : ﴿فما لكم في المنافقين فئتين . . . إلى . . ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً﴾ من آية (٨٨) إلى نهاية آية (٩٦) .

المناسبة : لما ذكر تعالى مواقف المنافقين المخزية ، عقّبه بذكر نوعٍ آخر من أحوال المنافقين الشنيعة ، ثم ذكر حكم القتل الخطأ والقتل العمد ، وأمر بالتثبت قبل الإقدام على قتل إنسان لئلا يُفضي إلى قتل أحد من المسلمين ، ثم ذكر تعالى مراتب المجاهدين ومنازلهم الرفيعة في الاخرة .

اللغة : ﴿أركسهم﴾ ردّهم إلى الكفر أو نكّسهم وأصل الركس ردُّ الشيء مقلوباً قال الشاعر :

فأركسوا في حميم النار إنهم كانوا عصاةً وقالوا الإفك والزورا[1]

﴿حصرت﴾ ضاقت من الحصر وهو الضيق ﴿السَّلم﴾ الاستسلام والإنقياد ﴿ثقفتموهم﴾ صادفتموهم ووجدتموهم ﴿فتبينوا﴾ فتثبتوا ﴿أُركسوا فيها﴾ قلبوا فيها .

سبَبُ النّزول : أ ـ عن زيد بن ثابت أن النبي ﷺ خرج إلى أُحد فرجع ناسٌ ممن كان معه ، فكان أصحاب النبي ﷺ فيهم فرقتين فقال بعضهم: نقتلهم ، وقال بعضهم : لا ، فأنزل الله ﴿فما لكم في المنافقين فئتين . .﴾ الآية فقال ﷺ : (إنها طيبة تنفي الخَبث كما تنفي النار خبث الحديد) أخرجه الشيخان .

ب ـ يروى أن « الحارث بن يزيد » كان شديداً على النبي ﷺ فجاء مهاجراً وهو يريد الإسلام فلقيه « عياش بن أبي ربيعة » ـ والحارث يريد الإسلام وعياش لا يشعر ـ فقتله فأنزل الله ﴿وما كان لمؤ من أن يقتل مؤ مناً إلا خطأ﴾[2] الآية .

ج ـ عن ابن عباس قال : لحق المسلمون رجلاً في غنيمةٍ له فقال : السلام عليكم فقتلوه وأخذوا غنيمته فنزلت هذه الآية ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لستَ مؤ مناً . .﴾[3] الآية .

---

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت . (٢) أسباب النزول ص ٩٧ . (٣) رواه البخاري .

* ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ۚ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾

التفسير : ﴿فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا﴾ أي ما لكم أيها المؤمنون أصبحتم فرقتين في شأن المنافقين ، بعضكم يقول نقتلهم وبعضكم يقول لا نقتلهم والحال أنهم منافقون والله نكّسهم وردّهم إلى الكفر بسبب النفاق والعصيان ﴿أتريدون أن تهدوا من أضل اللّهُ﴾ أي أتريدون هداية من أضله الله ، والاستفهام للإنكار والتوبيخ في الموضعين والمعنى لا تختلفوا في أمرهم ولا تظنوا فيهم الخير لأن الله حكم بضلالهم ﴿ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً﴾ أي من يضلله الله فلن تجد له طريقاً إلى الهدى والإيمان ﴿ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواءً﴾ أي تمنى هؤلاء المنافقون أن تكفروا مثلهم فتستووا أنتم وهم وتصبحوا جميعاً كفاراً ﴿فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله﴾ أي لا توالوا ولا تصادقوا منهم أحداً حتى يؤمنوا ويحققوا إيمانهم بالهجرة والجهاد في سبيل الله ﴿فإن تولّوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم﴾ أي إن أعرضوا عن الهجرة في سبيل الله فخذوهم أيها المؤمنون واقتلوهم حيث وجدتموهم في حلٍّ أو حرم ﴿ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً﴾ أي لا تستنصروهم ولا تستنصحوهم ولا تستعينوا بهم في الأمور ولو بذلوا لكم الولاية والنصرة ﴿إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ أي إلا الذين ينتهون ويلجأون إلى قوم عاهدوكم فدخلوا فيهم بالحِلْف فحكمهم حكم أولئك في حقن دمائهم ﴿أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم﴾ وهذا استثناء أيضاً من القتل أي وإلا الذين جاءوكم وقد ضاقت صدورهم عن قتالكم وقتال قومهم فهم قوم ليسوا معكم ولا عليكم ﴿ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم﴾ أي من لطفه بكم أن كفّهم عنكم ولو شاء لقوّاهم وجرّأهم عليكم فقاتلوكم ﴿فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السَّلَم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً﴾ أي فإن لم يتعرضوا لكم بقتال وانقادوا واستسلموا لكم فليس لكم أن تقاتلوهم طالما سالموكم ﴿ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم﴾ أي ستجدون قوماً آخرين من المنافقين يريدون أن يأمنوكم بإظهار الإيمان ويأمنوا قومهم بإظهار الكفر إذا رجعوا إليهم قال أبو السعود : هم قوم من « أسد وغطفان » كانوا إذا أتوا المدينة أسلموا وعاهدوا ليأمنوا من المسلمين فإذا رجعوا إلى قومهم كفروا ونكثوا

﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا إِلَّا خَطَـٔٗاۚ وَمَن قَتَلَ مُؤۡمِنًا خَطَـٔٗا فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ وَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ﴿٩٣﴾﴾

عهودهم ليأمنوا قومهم[1] ﴿**كلما ردّوا إلى الفتنة أُركسوا فيها**﴾ أي كلما دعوا إلى الكفر أو قتال المسلمين عادوا إليه وقُلبوا فيه على اسوأ شكل فهم شرٌ من كل عدو شرير ﴿**فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم**﴾ أي فإن لم يجتنبوكم ويستسلموا إليكم ويكفوا أيديهم عن قتالكم ﴿**فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم**﴾ أي فأسروهم واقتلوهم حيث وجدتموهم وأصبتموهم ﴿**وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً**﴾ أي جعلنا لكم على أخذهم وقتلهم حجة واضحة وبرهاناً بيناً بسبب غدرهم وخيانتهم ﴿**وما كان لمؤمنٍ أن يقتل مؤمناً إلا خطأً**﴾ أي لا ينبغي لمؤ منٍ ولا يليق به أن يقتل مؤ مناً إلا على وجه الخطأ لأن الإيمان زاجرٌ عن العدوان ﴿**ومن قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبةٍ مؤمنةٍ وديةٌ مسلمةٌ إلى أهله إلا أن يَصَّدّقوا**﴾ أي ومن قتل مؤ مناً على وجه الخطأ فعليه إعتاق رقبةٍ مؤ منة لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها ، وعليه كذلك ديةٌ مؤداة إلى ورثة المقتول إلا إذا عفا الورثة عن القاتل فأسقطوا الدية ، وقد أوجب الشارع في القتل الخطأ شيئين : الكفارة وهي تحرير رقبة مؤ منة في مال القاتل ، والدية وهي مائةٌ من الإبل على العاقلة ﴿**فإن كان من قوم عدوٍ لكم وهو مؤمن فتحرير رقبةٍ مؤمنة**﴾ أي إن كان المقتول خطأً مؤ مناً وقومه كفاراً أعداء وهم المحاربون فإنما على قاتله الكفارة فقط دون الدية لئلا يستعينوا بها على المسلمين ﴿**وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلّمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة**﴾ أي وإن كان المقتول خطأً من قوم كفرة بينكم وبينهم عهد كأهل الذمة فعلى قاتله دية تدفع إلى أهله لأجل معاهدتهم ويجب أيضاً على القاتل إعتاق رقبة مؤ منة ﴿**فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله**﴾ أي فمن لم يجد الرقبة فعليه صيام شهرين متتابعين عوضاً عنها شرع تعالى لكم ذلك لأجل التوبة عليكم ﴿**وكان الله علماً حكيماً**﴾ أي علياً بخلقه حكيماً فيما شرع . . ثم بين تعالى حكم القتل العمد وجريمته النكراء وعقوبته الشديدة فقال ﴿**ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها**﴾ أي ومن يقدم على قتل مؤ من عالماً بإيمانه متعمداً لقتله فجزاؤ ه جهنم مخلداً فيها على الدوام ، وهذا محمول عند الجمهور على من استحل قتل المؤ من كما قال ابن

(١) انظر تفصيل حكم القاتل عمداً في البحر ٣/ ٣٢٦ وفي ابن كثير ١/ ٤٢٢ من المختصر .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٩٤) لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٩٦)﴾

عباس لأنه باستحلال القتل يصبح كافراً **﴿وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذاباً عظيماً﴾** أي يناله السخط الشديد من الله والطرد من رحمة الله والعذاب الشديد في الآخرة **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا﴾** أي إذا سافرتم في الجهاد لغزو الأعداء فتثبتوا ولا تعجلوا في القتل حتى يتبين لكم المؤمن من الكافر **﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً﴾** أي ولا تقولوا لمن حياكم بتحية الإسلام لست مؤمناً وإنما قلت هذا خوفاً من القتل فتقتلوه **﴿تبتغون عرض الحياة الدنيا﴾** أي حال كونكم طالبين لماله الذي هو حطامٌ سريع الزوال **﴿فعند الله مغانم كثيرة﴾** أي فعند الله ما هو خير من ذلك وهو ما أعده لكم من جزيل الثواب والنعيم **﴿كذلك كنتم من قبل فمنّ الله عليكم فتبينوا﴾** أي كذلك كنتم كفاراً فهداكم للإسلام ومنَّ عليكم بالإيمان فتبينوا أن تقتلوا مؤمناً وقيسوا حاله بحالكم **﴿إن الله كان بما تعملون خبيراً﴾** أي مطلعاً على أعمالكم فيجازيكم عليها ، ثم أخبر تعالى بفضيلة المجاهدين فقال **﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين ـ غير أولي الضرر ـ والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم﴾** أي لا يتساوى من قعد عن الجهاد من المؤمنين مع من جاهد بماله ونفسه في سبيل الله غير أهل الأعذار كالأعمى والأعرج والمريض قال ابن عباس : هم القاعدون عن بدر والخارجون إليها ، ولما نزلت الآية قام ابن أم مكتوم فقال يا رسول الله : هل لي من رخصة فوالله لو أستطيع الجهاد لجاهدتُ ـ وكان أعمى ـ فأنزل الله **﴿غير أولي الضرر﴾** **﴿فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة﴾** أي فضل الله المجاهدين على القاعدين من أهل الأعذار درجة لاستوائهم في النية كما قال ﷺ : (إن بالمدينة أقواماً ما سرتم من مسير ولا قطعتم من وادٍ إلا وهم معكم فيه قالوا : وهم بالمدينة يا رسول الله ؟ قال : نعم حبسهم العذر)[1] **﴿وكلاً وعد الله الحسنى﴾** أي وكلاً من المجاهدين والقاعدين بسبب ضررٍ لحقهم وعدهم الله الجزاء الحسن في الآخرة **﴿وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً﴾** أي وفضل الله المجاهدين في سبيل الله على القاعدين بغير عذر بالثواب الوافر العظيم **﴿درجاتٍ منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً﴾** أي منازل بعضها أعلى من بعض مع المغفرة والرحمة وفي الحديث (إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض)[2] .

---

(١) أخرجه البخاري . (٢) أخرجه النسائي .

البَــلاَغَــة : تضمنت هذه الآيات من البلاغة والبيان والبديع أنواعاً نوجزها فيما يلي :

١ ـ الاستفهام بمعنى الإنكار في ﴿فما لكم في المنافقين﴾ ؟ وفي ﴿أتريدون أن تهدوا﴾ ؟ .

٢ ـ الطباق في ﴿أن تهدوا من أضلَّ اللهُ﴾ وكذلك ﴿القاعدون . . والمجاهدون﴾ .

٣ ـ والجناس المغاير في ﴿تكفرون كما كفروا﴾ وفي ﴿مغفرة . . وغفوراً﴾ .

٤ ـ الإطناب في ﴿فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم . . وفضّل الله المجاهدين على القاعدين﴾ وكذلك في ﴿أن يقتل مؤمناً إلا خطأً﴾ ﴿ومن قتل مؤمناً خطأً﴾ .

٥ ـ الاستعارة في ﴿إذا ضربتم في سبيل الله﴾ استعار الضرب للسعي في قتال الأعداء واستعار السبيل لدين الله ، ففيه استعارة الضرب للجهاد ، واستعارة السبيل لدين الله .

٦ ـ المجاز المرسل في ﴿فتحرير رقبة﴾ أطلق الجزء وأراد الكل أي عتق مملوك .

الفَــوَائِــد : القتل العمد من أعظم الجرائم في نظر الإسلام ولهذا كانت عاقبته في غاية التغليظ والتشديد وقد قال ﷺ : (من أعان على قتل مسلم مؤمن بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوبٌ بين عينيه آيسٌ من رحمة الله)[1] وفي الحديث أيضاً (لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مؤمن)[2] ولهذا أفتى ابن عباس بعدم قبول توبة القاتل ، أعاذنا الله من ذلك .

تَــنْبِيــه : أمر تعالى في القتل الخطأ بإعتاق رقبةٍ مؤمنة والحكمة في هذا ـ والله أعلم ـ أنه لما أخرج نفساً مؤمنة من جملة الأحياء لزمه أن يدخل نفساً مثلها في جملة الأحرار إذ أن إطلاقها من قيد الرق إحياءٌ لها ، والعبد الرقيق في الإسلام له من الحقوق ما ليس للأحرار في الأمم الأخرى وليس أدل على ذلك من قوله تعالى ﴿فما الذين فُضِّلوا برادِّي رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء﴾ وقوله ﷺ في مرضه الذي مات فيه (الصلاة الصلاةَ ، وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم ما لا يطيقون) ومن يطّلع على معاملة الزنوج في أمريكا يتضح له جلياً صحة ما نقول ، وها هي الأمم الغربية تحرم استرقاق العبيد في حين أنها تسترق الأحرار ، وتحرم استرقاق الأفراد وتسترق الجماعات والأمم والشعوب ، باسم الاستعمار والانتداب ، فأين هذه الحضارة المزعومة والمدنيَّة الزائفة من حضارة الإسلام ومدنيته الصادقة التي حررت الشعوب والأمم والأفراد ؟ !

* * *

قال الله تعالى : ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم . . . إلى . . وكان فضل الله عليك عظيماً﴾ من آية (٩٧) إلى نهاية آية (١١٣) .

---

(١) أخرجه ابن ماجه . (٢) أخرجه البيهقي .

المناسبة : لما ذكر تعالى ثواب المجاهدين الأبرار ، أتبعه بذكر عقاب القاعدين عن الجهاد الذين سكنوا في بلاد الكفر ، ثم رغب تعالى في الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان وذكر ما يترتب عليها من السعة والأجر والثواب ، ثم لما كان الجهاد والهجرة سبباً لحدوث الخوف بين تعالى صلاة المسافر وطريقة صلاة الخوف ، ثم أتبع ذلك بذكر أروع مثل في الانتصار للعدالة سجله التاريخ ألا وهو إنصاف رجل يهودي اتهم ظلماً بالسرّقة وإدانة الذين تآمروا عليه وهم أهل بيت من الأنصار في المدينة المنورة .

اللغة : ﴿مُراغماً﴾ مذهباً ومتحولاً مشتق من الرّغام وهو التراب قال ابن قتيبة: المُراغم والمُهاجر واحد وأصله أن الرجل كان إذا أسلم خرج عن قومه مُراغماً لهم أي مغاضباً فقيل للمذهب مُراغَماً وسمي مصيره إلى النبي ﷺ هجرة[1] ﴿سعة﴾ اتساعاً في الرزق ﴿تَقْصُرُوا﴾ القصر : النقص يقال قصر صلاته إذا صلّى الرباعية ركعتين قال أبو عبيد : فيها ثلاث لغات قصرتُ الصلاة وقصّرتها وأقصرتها[2] ﴿تغفلون﴾ الغفلة : السهو الذي يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ ﴿موقوتاً﴾ محدود الأوقات لا يجوز إخراجه عن وقته ﴿تهنوا﴾ تضعفوا ﴿خصيماً﴾ الخصيم بمعنى المخاصم أي المنازع والمدافع ﴿خواناً﴾ مبالغاً في الخيانة .

سبب النزول : أ ـ عن ابن عباس قال : كان قوم من المسلمين أقاموا بمكة ـ وكانوا يستخفون بالإسلام ـ فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم فأصيب بعضهم فقال المسلمون : كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأُكرهوا على الخروج فنزلت ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم . .﴾[3] الآية .

ب ـ كان ضمرة بن القيس من المستضعفين بمكة وكان مريضاً فلما سمع ما أنزل الله في الهجرة قال لأولاده احملوني فإني لستُ من المستضعفين وإني لأهتدي الطريق ، والله لا أبيت الليلة بمكة فحملوه على سرير ثم خرجوا به فمات في الطريق بالتنعيم فأنزل الله ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾[4] .

ج ـ روي أن رجلاً من الأنصار يقال له « طُعمة بن أُبيرق » من بني ظفر سرق درعاً من جاره « قتادة ابن النعمان » في جراب دقيق ، فجعل الدقيق ينتثر من خرقٍ فيه فخبأها عند « زيد بن السمين » اليهودي فالتُمست الدرع عند طعمة فلم توجد وحلف ما أخذها وما له بها علم فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهوا إلى منزل اليهودي فأخذوها فقال : دفعها إليَّ طُعْمة وشهد له ناسٌ من اليهود فقالت بنو ظفر : انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ فسألوه أن يجادل عن صاحبهم وشهدوا ببراءته وسرقة اليهودي فهمَّ رسول الله ﷺ أن يفعل فنزلت الآية ﴿إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله . .﴾ الآية وهرب طُعْمة إلى مكة وارتد ونقب حائطاً بمكة ليسرق أهله فسقط الحائط عليه فقتله[5] .

---

(١) تفسير غريب القرآن ص ١٣٤ . (٢) القرطبي ٥/ ٣٦٠ . (٣) مختصر ابن كثير ١/ ٤٢٧ .
(٤) القرطبي ٥/ ٣٤٩ . (٥) أبو السعود ١/ ٣٨٠ .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ * وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ﴾

التفسير : ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾ أي تتوفاهم الملائكة حال كونهم ظالمي أنفسهم بالإقامة مع الكفار في دار الشرك وترك الهجرة إلى دار الإيمان ﴿قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض﴾ أي تقول لهم الملائكة في أيّ شيء كنتم من أمر دينكم ؟ وهو سؤال توبيخ وتقريع قالوا معتذرين : كنا مستضعفين في أرض مكة عاجزين عن إقامة الدين فيها ﴿قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾ ؟ أي قالت لهم الملائكة توبيخاً : أليست أرض الله واسعة فتهاجروا من دار الكفر إلى دارٍ تقدرون فيها على إقامة دين الله كما فعله من هاجر إلى المدينة وإلى الحبشة ؟ قال تعالى بياناً لجزائهم ﴿فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً﴾ أي مقرهم النار وساءت مقراً ومصيراً ، ثم استثنى تعالى منهم الضعفة والعاجزين عن الهجرة فقال ﴿إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً﴾ أي لكن من كان منهم مستضعفاً كالرجال والنساء والأطفال الذين استضعفهم المشركون وعجزوا لإعسارهم وضعفهم عن الهجرة ولا يستطيعون الخلاص ولا يهتدون الطريق الموصل لدار الهجرة ﴿فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم﴾ أي لعل الله أن يعفو عنهم لأنهم لم يتركوا الهجرة اختياراً ﴿وكان الله عفواً غفوراً﴾ أي يعفو ويغفر لأهل الأعذار ، وعسى في كلام الله تفيد التحقيق ﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مُراغماً كثيراً وسعة﴾ هذا ترغيبٌ في الهجرة أي من يفارق وطنه ويهرب فراراً بدينه من كيد الأعداء يجد مُهاجراً ومتجولاً في الأرض كبيراً يُراغم به أنف عدوه ويجد سعةً في الرزق فأرض الله واسعة ورزقه سابغ على العباد ﴿يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون﴾ ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾ أخبر تعالى أن من خرج من بلده مهاجراً من أرض الشرك فاراً بدينه إلى الله ورسوله ثم مات قبل بلوغه دار الهجرة فقد ثبت أجر هجرته على الله تعالى ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي ساتراً على العباد رحيماً بهم ﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناحٌ أن تَقْصروا من الصلاة﴾ أي وإذا سافرتم للغزو أو التجارة أو غيرهما فلا إثم عليكم أن تقصروا من الصلاة فتصلوا الرباعية ركعتين ﴿إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ أي إن

إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ

خشيتم أن ينالكم مكروه من أعدائكم الكفرة ، وذكرُ الخوف ليس للشرط وإِنما هو لبيان الواقع حيث كانت أسفارهم لا تخلو من خوف العدو لكثرة المشركين ويؤ يده حديث « يعلى بن أمية » قال قلت لعمر بن الخطاب : إن الله يقول ﴿إن خفتم﴾ وقد أمن الناس فقال : عجبتُ مما عجبتَ منه فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال (صدقةٌ تصدَّق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته) ﴿إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً﴾ أي إن الكافرين أعداء لكم مظهرون للعداوة ولا يمنعهم فرصة اشتغالكم بمناجاة الله أن يقتلوكم ﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم﴾ أي وإذا كنت معهم يا محمد وهم يصلون صلاة الخوف في الحرب فلتأتم بك طائفة منهم وهم مدججون بأسلحتهم احتياطاً ولتقم الطائفة الأخرى في وجه العدو ﴿فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك﴾ أي فإذا فرغت الطائفة الأولى من الصلاة فلتأت الطائفة التي لم تصلّ إلى مكانها لتصلي خلفك ﴿وليأخذوا حِذْرهم وأسلحتهم﴾ أي وليكونوا حذرين من عدوهم متأهبين لقتالهم بحملهم السلاح ﴿ودّ الذين كفروا لو تَغْفُلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلةً واحدة﴾ أي تمنى أعداؤكم أن تنشغلوا عن أسلحتكم وأمتعتكم فيأخذوكم غرة ، ويشدوا عليكم شدة واحدة فيقتلونكم وأنتم تصلون والمعنى لا تتشاغلوا بأجمعكم بالصلاة فيتمكن عدوكم منكم ولكن أقيموها على ما أُمرتم به ﴿ولا جناح عليكم إن كان بكم أذىً من مطرٍ أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم﴾ أي لا إثم عليكم في حالة المطر أو المرض أن لا تحملوا أسلحتكم إذا ضعفتم عنها ﴿وخذوا حذركم﴾ أي كونوا متيقظين واحترزوا من عدوكم ما استطعتم ﴿إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً﴾ أي أعدَّ لهم عذاباً مخزياً مع الإهانة ، روى ابن كثير عند هذه الآية عن أبي عياش الزُرقي قال : كنا مع رسول الله ﷺ بعُسفان فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد - وهم بيننا وبين القبلة - فصلى بنا رسول الله ﷺ الظهر فقالوا : لقد كانوا على حالٍ لو أصبنا غرتهم ثم قالوا : يأتي عليهم الآن صلاة هي أحبُّ إليهم من أبنائهم وأنفسهم قال : فنزل جبريل بهذه الآيات بين الظهر والعصر ﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة﴾[1] الآية ثم أمر تعالى بكثرة ذكره عقب صلاة الخوف فقال ﴿فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم﴾ أي فإذا فرغتم من الصلاة

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٤٣١ .

﴿فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴿١٠٥﴾ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ﴿١٠٧﴾ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾

فأكثروا من ذكر الله في حال قيامكم وقعودكم واضطجاعكم واذكروه في جميع الحالات لعله ينصركم على عدوكم **﴿فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة﴾** أي فإذا أمنتم وذهب الخوف فأتموا الصلاة وأقيموها كما أُمرتم بخشوعها وركوعها وسجودها وجميع شروطها **﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾** أي فرضاً محدوداً بأوقات معلومة لا يجوز تأخيرها عنه ، ثم حث تعالى على الجهاد والصبر عند الشدائد فقال **﴿ولا تهنوا في ابتغاء القوم﴾** أي لا تضعفوا في طلب عدوكم بل جدّوا فيهم وقاتلوهم واقعدوا لهم كل مرصد **﴿إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون﴾** أي إن كنتم تتألمون من الجراح والقتال فإنهم يتألمون أيضاً منه كما تتألمون ولكنكم ترجون من الله الشهادة والمثوبة والنصر حيث لا يرجونه هم **﴿وكان الله علياً حكيماً﴾** أي عليماً بمصالح خلقه حكيماً في تشريعه وتدبيره ، قال القرطبي : نزلت هذه الآية في حرب أُحد حيث أمر ﷺ بالخروج في آثار المشركين وكان بالمسلمين جراحات وكان أمر ألا يخرج معه إلا من حضر في تلك الوقعة ، وقيل : هذا في كل جهاد [٢]. **﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾** أي إنا أنزلنا إليك يا محمد القرآن متلبساً بالحق لتحكم بين الناس بما عرّفك الله وأوحى به إليك **﴿ولا تكن للخائنين خصيماً﴾** أي لا تكن مدافعاً ومخاصماً عن الخائنين تجادل وتدافع عنهم ، والمراد به « طعمة بن أبيرق » وجماعته **﴿واستغفر الله﴾** أي استغفر الله مما هممتَ به من الدفاع عن طُعْمة اطمئناناً لشهادة قومه بصلاحه **﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾** أي مبالغاً في المغفرة والرحمة لمن يستغفره **﴿ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم﴾** أي لا تخاصم وتدافع عن الذين يخونون أنفسهم بالمعاصي **﴿إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً﴾** أي لا يحب من كان مفرطاً في الخيانة منهمكاً في المعاصي والآثام **﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله﴾** أي يستترون من الناس خوفاً وحياءً ولا يستحيون من الله وهو أحق بأن يُستحيا منه ويخاف من عقابه **﴿وهو معهم إذ يبيّتون ما لا يرضى من القول﴾** أي وهو معهم جل وعلا عالم بهم وبأحوالهم يسمع ما يدبرونه في الخفاء ويضمرونه في السر من رمي البريء وشهادة الزور والحلف الكاذب **﴿وكان الله بما يعملون محيطاً﴾** أي لا يعزب عنه شيء منها

(٢) القرطبي ٥/ ٣٧٤ .

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

ولا يفوت . . ثم قال تعالى توبيخاً لقوم طُعْمة ﴿ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا﴾ أي ها أنتم يا معشر القوم دافعتم عن السارق والخائنين في الدنيا ﴿فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة﴾ أي فمن يدافع عنهم في الآخرة إذا أخذهم الله بعذابه ؟ ﴿أم من يكون عليهم وكيلاً﴾؟؟ أي من يتولى الدفاع عنهم ونصرتهم من بأس الله وانتقامه ؟ ثم دعاهم الله تعالى إلى الإنابة والتوبة فقال ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه﴾ أي من يعمل أمراً قبيحاً يسوء به غيره كاتهام بريء أو يرتكب جريمة يظلم بها نفسه كالسرقة ﴿ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾ أي ثم يتوب من ذنبه يجد الله عظيم المغفرة واسع الرحمة قال ابن عباس : عرض اللهُ التوبة بهذه الآية على بني أُبيرق ﴿ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليماً حكيماً﴾ أي من يقترف إثماً متعمداً فإنما يعود وبال ذلك على نفسه وكان الله عليماً بذنبه حكيماً في عقابه ﴿ومن يكسب خطيئة أو إثماً﴾ أي من يفعل ذنباً صغيراً أو إثماً كبيراً ﴿ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ أي ثم ينسب ذلك إلى بريء ويتهمه به فقد تحمّل جرماً وذنباً واضحاً ، ثم بين تعالى فضله على رسوله فقال ﴿ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمّت طائفة منهم أن يضلوك﴾ أي لولا فضل الله عليك بالنبوة ورحمته بالعصمة لهمت جماعة منهم أن يضلوك عن الحق ، وذلك حين سألوا الرسول ﷺ أن يبرىء صاحبهم « طُعْمة » من التهمة ويلحقها باليهودي فتفضل الله عز وجل على رسوله بأن أطلعه على الحقيقة ﴿وما يُضِلّون إلا أنفسهم﴾ أي وبال إضلالهم راجع عليهم ﴿وما يضرونك من شيء﴾ أي وما يضرونك يا محمد لأن الله عاصمك من ذلك ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾ أي أنزل الله عليك القرآن والسنة فكيف يضلونك وهو تعالى يُنزل عليك الكتاب ويوحي إليك بالأحكام ﴿وعلّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً﴾ أي علمك ما لم تكن تعلمه من الشرائع والأمور الغيبية وكان فضله تعالى عليك كبيراً بالوحي والرسالة وسائر النعم الجسيمة .

البَلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة من البلاغة والبيان والبديع أنواعاً نوجزها فيما يلي :

١ ـ الاستفهام الذي يراد به التوبيخ والتقريع في ﴿قالوا فيم كنتم﴾ ؟ وفي ﴿ألم تكن أرض الله واسعة﴾ ؟

٢ ـ إطلاق العام وإرادة الخاص ﴿فإذا قضيتم الصلاة﴾ أريد بها صلاة الخوف .

٣ ـ الجناس المغاير في ﴿يعفو . . عفواً﴾ وفي ﴿يهاجر . . مهاجراً﴾ وفي ﴿يختانون . . خواناً﴾ وفي ﴿يستغفر . . غفوراً﴾ .

٤ ـ إطلاق الجمع على الواحد في ﴿توفاهم الملائكة﴾ يراد به ملك الموت وذكر بصيغة الجمع تفخيماً له وتعظيماً لشأنه .

٥ ـ طباق السلب ﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله﴾ .

٦ ـ الاطناب بتكرار لفظ الصلاة تنبيهاً على فضلها ﴿فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ .

* * *

قال الله تعالى : ﴿لا خير في كثير من نجواهم . . إلى . . فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعاً بصيراً﴾ . من آية (١١٤) إلى نهاية آية (١٣٤) .

المناسبة : لما ذكر تعالى قصة طُعْمة وحادثة السرقة التي اتهم بها اليهودي البريء ودفاع قومه عنه وتآمرهم في السرّ لإيقاع البريء بها ، ذكر تعالى هنا أن موضوع النجوى لا يخفى على الله وأن كل تدبير في السرّ يعلمه الله ، وأنه لا خير في التناجي إلا ما كان بقصد الخير والإصلاح ، ثم ذكر تعالى أن مخالفة أمر الرسول ﷺ جرمٌ عظيم وحذَّر من الشيطان وطرق إغوائه ، ثم عاد الحديث إلى التحذير من ظلم النساء في ميراثهن ومهورهن وأكد على وجوب الإحسان إليهن ، وأعقبه بذكر النشوز والطريق إلى الإصلاح بين الزوجين إمّا بالوفاق أو بالفراق .

اللغة : ﴿نجواهم﴾ النجوى : السرُّ بين الإثنين قال الواحدي : ولا تكون النجوى إلا بين اثنين ﴿يشاقق﴾ يخالف والشقاقُ: الخلاف مع العداوة لأن كلاً من المتخالفين يكون في شق غير شق الآخر ﴿مريداً﴾ المريد : العاتي المتمرد من مرد إذا عتا وتجبر قال الأزهري : مرد الرجل إذا عتا وخرج عن الطاعة فهو مارد ومريد ﴿فليبتّكنّ﴾ البتك : القطع ومنه سيف باتك أي قاطع ﴿محيصاً﴾ مهرباً من حاص إذا هرب ونفر وفي المثل « وقعوا في حيص بيص » أي فيما لا يقدر على التخلص منه ﴿خليلاً﴾ من الخلة وهي صفاء المودة قال ثعلب : سمي الخليل خليلاً لأن محبته تتخلل القلب فلا تدع فيه خللاً إلا ملأته قال بشار :

قد تخلّلتِ مسلك الروح مني ... وبه سمي الخليل خليلا[1]

﴿الشح﴾ شدة البخل ﴿المعلقة﴾ هي التي ليست ذات بعل ولا مطلقة .

---

(١) القرطبي ٥/ ٤٠٠ .

سَبَبُ النّزول : أ ـ لما سرق « طُعْمة بن أُبيرق » وحكم النبي ﷺ عليه بالقطع هرب إلى مكة وارتد عن الإسلام فأنزل الله ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبيّن له الهدى﴾[١] الآية .

ب ـ قال قتادة : تفاخر المؤمنون وأهل الكتاب فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم ، وكتابنا قبل كتابكم ونحن أحقُّ بالله منكم ، وقال المؤمنون : نبينا خاتم النبيين وكتابنا يقضي على سائر الكتب فنزلت ﴿ليس بأمانيكم ولا أمانيّ أهل الكتاب﴾[٢] الآية .

* ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾﴾

التفسير : ﴿لا خير في كثير من نجواهم﴾ أي لا خير في كثير مما يُسرّه القوم ويتناجون به في الخفاء ﴿إلاّ من أمر بصدقةٍ أو معروف أو إصلاح بين الناس﴾ أي إلا نجوى من أمر بصدقةٍ ليعطيها سراً أو أمر بطاعة الله قال الطبري : المعروف هو كل ما أمر الله به أو ندب إليه من أعمال البر والخير ، والإصلاح هو الإصلاح بين المختصمَين[٣] ﴿ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله﴾ أي ومن يفعل ما أمر به من البر والمعروف والإصلاح طلباً لرضى الله تعالى لا لشيء من أغراض الدنيا ﴿فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾ أي فسوف نعطيه ثواباً جزيلاً هو الجنة قال الصاوي : والتعبير بسوف إشارة إلى أن جزاء الأعمال الصالحة في الآخرة لا في الدنيا لأنها ليست دار جزاء ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى﴾ أي يخالف أمر الرسول فيما جاء به عن الله من بعد ما ظهر له الحق بالمعجزات ﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾ أي يسلك طريقاً غير طريق المؤمنين ويتبع منهاجاً غير منهاجهم ﴿نولِّه ما تولى ونصله جهنم﴾ أي نتركه مع اختياره الفاسد وندخله جهنم عقوبة له ﴿وساءت مصيراً﴾ أي وساءت جهنم مرجعاً لهم ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ أي لا يغفر ذنب الشرك ويغفر ما دونه من الذنوب لمن يريد ﴿ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾ أي فقد بَعُد عن طريق الحق والسعادة بعداً كبيراً ﴿إن يدعون من دونه إلا إناثاً﴾ أي ما يدعو هؤلاء المشركون وما يعبدون من دون الله إلا أوثاناً سموها بأسماء الإناث « اللات والعزى ومناة » قال في التسهيل: كانت العرب تسمي الأصنام بأسماء مؤنثة[٤] ﴿وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً﴾ أي وما يعبدون إلا شيطاناً متمرداً بلغ الغاية في العتو والفجور وهو إبليس الذي فسق عن أمر ربه ﴿لعنه الله وقال لأتخذنَّ من

---

(١) القرطبي ٥/ ٣٨٥ . (٢) أسباب النزول ص ١٠٤ . (٣) الطبري ٩/ ٢٠١ . (٤) وهذا اختيار الطبري وقيل : إن المراد بالإناث الملائكة كقوله تعالى ﴿ليسمون الملائكة تسمية الأنثى﴾ فقد زعم المشركون أن الملائكة بنات الله .

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ﴾

عبادك نصيباً مفروضاً﴾ أي أبعده الله عن رحمته فأقسم الشيطان قائلاً : لأتخذنَّ من عبادك الذين أبعدتني من أجلهم نصيباً أي حظاً مقدراً معلوماً أدعوهم إلى طاعتي من الكفرة والعصاة وفي صحيح مسلم يقول الله تعالى لآدم يوم القيامة « إبعثْ بعثَ النار فيقول : وما بعثُ النار ؟ فيقول من كل ألفٍ تسعمائةٌ وتسعة وتسعون » **﴿ولأضلنّهم ولأمنينّهم﴾** أي لأصرفنّهم عن طريق الهدى وأعدهم الأماني الكاذبة وألقي في قلوبهم طول الحياة وأن لا بعث ولا حساب **﴿ولآمرنهم فليبتكنَّ آذان الأنعام﴾** أي ولآمرنهم بتقطيع آذان الأنعام قال قتادة : يعني تشقيقها وجعلها علامة للبحيرة والسائبة كما كانوا يفعلون في الجاهلية **﴿ولآمرنهم فليغيرُنَّ خلق الله﴾** أي ولآمرنهم بتغيير خلق الله كخصاء العبيد والحيوان والوشم وغيره وقيل : المراد به تغيير دين الله بالكفر والمعاصي[1] وإحلال ما حرّم الله وتحريم ما أحل **﴿ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله﴾** أي ومن يتول الشيطان ويطعْه ويترك أمر الله **﴿فقد خسر خسراناً مبيناً﴾** أي خسر دنياه وآخرته لمصيره إلى النار المؤبدة وأي خسرانٍ أعظم من هذا ؟ ثم قال تعالى عن إبليس **﴿يعدهم ويمنّيهم﴾** أي يعدهم بالفوز والسعادة ويمنيهم بالأكاذيب والأباطيل قال ابن كثير : هذا إخبارٌ عن الواقع فإن الشيطان يعد أولياءه ويمنيهم بأنهم هم الفائزون في الدنيا والآخرة وقد كذب وافترى في ذلك[2] **﴿وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾** أي وما يعدهم إلا باطلاً وضلالاً قال ابن عرفة : الغُرور ما له ظاهر محبوب وباطن مكروه ، فهو مزيّن الظاهر فاسد الباطن **﴿أولئك مأواهم جهنم﴾** أي مصيرهم ومآلهم يوم القيامة نار جهنم **﴿ولا يجدون عنها محيصاً﴾** أي ليس لهم منها مفر ولا مهرب ، ثم ذكر تعالى حال السعداء الأبرار وما لهم من الكرامة في دار القرار فقال **﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً﴾** أي مخلدين في دار النعيم بلا زوال ولا انتقال **﴿وعد الله حقاً﴾** أي وعداً لا شك فيه ولا ارتياب **﴿ومن أصدق من الله قيلاً﴾** أي ومن أصدق من الله قولاً ؟ والاستفهام معناه النفيُ أي لا أحد أصدق قولاً من الله قال أبو السعود : والمقصود معارضة مواعيد الشيطان الكاذبة لقرنائه بوعد الله الصادق لأوليائه[3] **﴿ليس بأمانيكم ولا أمانيّ أهل الكتاب﴾** أي ليس ما وعد الله تعالى من الثواب يحصل بأمانيكم أيها المسلمون ولا بأماني أهل الكتاب وإنما يحصل بالإيمان والعمل الصالح قال الحسن البصري : ليس الإيمان بالتمني ولكنْ ما وقر في القلب وصدّقه العمل ، إن قوماً ألهتهم الأماني حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا نحسن الظن

(١) هذا مروي عن ابن عباس ومجاهد والضحاك وهو اختيار الطبري . (٢) مختصر ابن كثير ١/ ٤٣٩ . (٣) أبو السعود ١/ ٣٨٤ .

﴿ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟﴾

بالله ، وكذبوا لو أحسنوا الظن به لأحسنوا العمل ﴿من يعمل سوءاً يُجْزَ به﴾ أي من يعمل السوء والشر ينال عقابه عاجلاً أو آجلاً ﴿ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾ أي لا يجد من يحفظه أو ينصره من عذاب الله ﴿ومن يعمل من الصالحات من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن﴾ أي ومن يعمل الأعمال الصالحة سواءً كان ذكراً أو أنثى بشرط الايمان ﴿فأولئك يدخلون الجنة ولا يُظلمون نقيراً﴾ أي يدخلهم الله الجنة ولا يُنقصون شيئاً حقيراً من ثواب أعمالهم كيف لا والمجازي أرحم الراحمين !! وإنما قال﴿وهو مؤ من﴾ ليبيّن أن الطاعة لا تنفع من دون الايمان ، ثم قال تعالى ﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله﴾ ؟ أي لا أحد أحسن ديناً ممن انقاد لأمر الله وشرعه وأخلص عمله للّه ﴿وهو محسن﴾ أي مطيعٌ لله مجتنبٌ لنواهيه ﴿واتبع ملة ابراهيم حنيفاً﴾ أي واتبع الدين الذي كان عليه إبراهيم خليل الرحمن ، مستقيماً على منهاجه وسبيله وهو دين الإسلام ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ أي صفياً اصطفاه لمحبته وخلته قال ابن كثير : فإنه انتهى إلى درجة الخلة التي هي أرفع مقامات المحبة وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه[1] ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ أي جميع ما في الكائنات ملكه وعبيده وخلقه وهو المتصرف في جميع ذلك ، لا رادّ لما قضى ولا معقب لما حكم ﴿وكان الله بكل شيء محيطاً﴾ أي علمه نافذ في جميع ذلك لا تخفى عليه خافية ﴿ويستفتونك في النساء﴾ أي يسألونك عما يجب عليهم في أمر النساء ﴿قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب﴾ أي قل لهم يا محمد : يبين الله لكم ما سألتم في شأنهنَّ ويبين لكم ما يتلى في القرآن من أمر ميراثهن ﴿في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كُتب لهنَّ وترغبو ن أن تنكحوهن﴾ أي ويفتيكم أيضاً في اليتيمات اللواتي ترغبون في نكاحهن لجمالهن أو لمالهنَّ ولا تدفعون لهن مهورهنَّ كاملة فنهاهم الله عز وجل عن ذلك قال ابن عباس : كان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيلقي عليها ثوبه فإذا فعل ذلك لم يقدر أحد أن يتزوجها أبداً فإن كانت جميلة واحبها تزوجها وأكل مالها ، وإن كانت دميمةً منعها الرجال حتى تموت فإذا ماتت ورثها ، فحرم الله ذلك ونهى عنه ﴿والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط﴾ أي ويفتيكم في

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٤٤٢

مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ

المستضعفين الصغار أن تعطوهم حقوقهم وأن تعدلوا مع اليتامى في الميراث والمهر ، وقد كان أهل الجاهلية لا يورثون الصغار ولا النساء ويقولون : كيف نعطي المال من لا يركب فرساً ولا يحمل سلاحاً ولا يقاتل عدواً ! فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم أن يعطوهم نصيبهم من الميراث ﴿وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً﴾ أي وما تفعلوه من عدلٍ وبرٍّ في أمر النساء واليتامى فإن الله يجازيكم عليه قال ابن كثير : وهذا تهييجٌ على فعل الخيرات وامتثال الأوامر وأن الله سيجزي عليه أوفر الجزاء[1] ، ثم ذكر تعالى حكم نشوز الرجل فقال ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً﴾ أي وإذا علمت امرأة أو شعرت من زوجها الترفع عليها أو الإعراض عنها بوجهه بسبب الكره لها لدمامتها أو لكبر سنها وطموح عينه إلى من هي أشبُّ وأجمل منها ﴿فلا جُناح عليهما أن يُصلحا بينهما صلحاً﴾ أي فلا حرج ولا إثم على كل واحد من الزوجين من المصالحة والتوفيق بينهما بإسقاط المرأة بعض حقوقها من نفقةٍ أو كسوةٍ أو مبيت لتستعطفه بذلك وتستديم مودته وصحبته، روى ابن جرير عن عائشة أنها قالت: هذا الرجل يكون له امرأتان إحداهما قد عجزت أو هي دميمة وهو لا يحبها فتقول : لا تطلقني وأنت في حلٍّ من شأني[2] ﴿والصلح خير﴾ أي والصلح خيرٌ من الفراق ﴿وأحضرت الأنفسُ الشح﴾ أي جبلت الأنفس على الشح وهو شدة البخل فالمرأة لا تكاد تسمح بحقها من النفقة والاستمتاع ، والرجل لا تكاد نفسه تسمح بأن يقسم لها وأن يمسكها إذا رغب عنها وأحبَّ غيرها ﴿وإن تحسنوا وتتقوا﴾ أي وإن تحسنوا في معاملة النساء وتتقوا الله بترك الجور عليهن ﴿فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ أي فإن الله عالم بما تعملون وسيجزيكم عليه أوفر الجزاء . . ثم ذكر تعالى أن العدل المطلق بين النساء بالغٌ من الصعوبة مبلغاً لا يكاد يطاق ، وهو كالخارج عن حد الاستطاعة فقال ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء﴾ أي لن تستطيعوا أيها الرجال أن تحققوا العدل التام الكامل بين النساء وتسوّوا بينهن في المحبة والأنس والاستمتاع ﴿ولو حرصتم﴾ أي ولو بذلتم كل جهدكم لأن التسوية في المحبة وميل القلب ليست بمقدور الإنسان ﴿فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة﴾ أي لا تميلوا عن المرغوب عنها ميلاً كاملاً فتجعلوها كالمعلقة التي ليست بذات زوج ولا مطلقة ، شبّهت بالشيء المعلّق بين السماء والأرض ، فلا هي مستقرة على الأرض ولا هي في السماء ، وهذا من أبلغ التشبيه ﴿وإن تصلحوا وتتقوا﴾ أي وإن تصلحوا ما مضى من الجور وتتقوا الله بالتمسك بالعدل ﴿فإن الله كان غفوراً رحيماً﴾ أي يغفر ما فرط منكم ويرحمكم ﴿وإن يتفرقا يُغْـنِ اللّهُ كلاً من سعته﴾ أي وإن يفارق كل واحد منهما صاحبه ، فإن

(١) مختصر ابن كثير١/ ٤٤٣.(٢) الطبري ٩/ ٢٧١ .

وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

الله يغنيه بفضله ولطفه ، بأن يرزقه زوجاً خيراً من زوجه ، وعيشاً أهنأ من عيشه ﴿وكان الله واسعاً حكيماً﴾ أي واسع الفضل على العباد حكيماً في تدبيره لهم ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ أي ملكاً وخلقاً وعبيداً ﴿ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم﴾ أي وصينا الأولين والآخرين وأمرناكم بما أمرناهم به من امتثال الأمر والطاعة ﴿أن اتقوا الله﴾ أي وصيناكم جميعاً بتقوى الله وطاعته ﴿وإن تكفروا فإن لله ما في السموات وما في الأرض﴾ أي وإن تكفروا فلا يضره تعالى كفركم لأنه مستغنٍ عن العباد وهو المالك لما في السموات والارض ﴿وكان الله غنياً حميداً﴾ أي غنياً عن خلقه ، محموداً في ذاته ، لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً﴾ أي كفى به حافظاً لأعمال عباده ﴿إن يشأ يُذْهبكم أيها الناس ويأت بآخرين﴾ أي لو أراد الله لأهلككم وأفناكم وأتى بآخرين غيركم ﴿وكان الله على ذلك قديراً﴾ أي قادراً على ذلك ﴿من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعاً بصيراً﴾ أي من كان يريد بعمله أجر الدنيا فعند الله ما هو أعلى وأسمى وهو أجر الدنيا والآخرة فلم يطلب الأخسّ ولا يطلب الأعلى ؟ فليسأل العبد ربه خيرَي الدنيا والآخرة فهو تعالى سميع لأقوال العباد بصير بأعمالهم .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات أنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الاستعارة في ﴿أسلم وجهه لله﴾ استعار الوجه للقصد والجهة وكذلك في قوله ﴿وأُحضرت الأنفس الشح﴾ لأن الشح لما كان غير مفارق للأنفس ولا متباعد عنها كان كأنه أحضرها وحمل على ملازمتها فاستعار الإحضار للملازمة[1] .

٢ ـ الجناس المغاير في ﴿ضل. .ضلالاً﴾ وفي ﴿خسر . . خسراناً﴾ وفي ﴿أحسن . . محسن﴾ وفي ﴿صلحاً . . والصلح﴾ وفي ﴿تميلوا كل الميل﴾ .

٣ ـ التشبيه في ﴿فتذروها كالمعلقة﴾ وهو مرسل مجمل .

٤ ـ الإطناب والإيجاز في عدة مواضع .

تـنـبـيـه : العدل المقصود في هذه الآية هو العدل في المحبة القلبية فقط وإلا لتناقضت الآية مع

(١) تلخيص البيان ص ٢٦ .

الآية السابقة ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾ وقد كان ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ويقول (اللهم هذا قَسْمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك) يعني بذلك المحبة القلبية ويدل على هذا قوله تعالى ﴿فتذروها كالمعلقة﴾ ، وأما ما يدعو إليه بعض من يتسمون بـ « المجددين » من وجوب التزوج بواحدة فقط بدليل هذه الآية فلا عبرة به لأنه جهل بفهم النصوص وهو باطل محض تَرُدُّهُ الشريعة الغراء ، والسنة النبوية المطهرة ، وكفانا الله شر علماء السوء .

* * *

قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط . . إلى . . وكان الله شاكراً عليماً﴾ من الآية (١٣٥) إلى نهاية الآية (١٤٧) .

المناسبة : لما أمر تعالى بالإحسان إلى النساء والعدل في معاملتهن ، أمر هنا بالعدل العام في جميع الأحكام ، ودعا إلى أداء الشهادة على الوجه الأكمل سواء كان المشهود عليه غنياً أو فقيراً ، وحذّر من اتباع الهوى ، ثم دعا إلى الإيمان بجميع الملائكة والكتب والرسل ، ثم أعقب ذلك بذكر أوصاف المنافقين المخزية وما لهم من العذاب والنكال في دركات الجحيم .

اللغة : ﴿تلووا﴾ اللَّيُّ : الدفع يقال لويت فلاناً حقه إذا دفعته ومطلته ومنه الحديث (لَيُّ الواجد ظلم) أي مطل الغني ظلم ﴿يخوضوا﴾ الخوض : الاقتحام في الشيء ومنه خوض الماء ﴿نستحوذ﴾ الاستحواذ : الاستيلاء والتغلب يقال استحوذ على كذا إذا غلب عليه ومنه قوله تعالى ﴿استحوذ عليهم الشيطان﴾ ﴿مذبذبين﴾ الذبذبة : التحريك والاضطراب يقال ذبذبته فتذبذب والمذبذب المتردّد بين أمرين ﴿الدَّرْك﴾ بسكون الراء وفتحها بمعنى الطبقة وهي لما تسافل قال ابن عباس : الدَّرْك لأهل النار كالدرج لأهل الجنة إلا أن الدرجات بعضها فوق بعض ، والدركات بعضها أسفل من بعض[1] .

* ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ

التفسير : ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط﴾ أي يا من آمنتم بالله وصدقتم بكتابه كونوا مجتهدين في إقامة العدل والاستقامة وأتى بصيغة المبالغة في ﴿قوّامين﴾ حتى لا يكون منهم جورٌ أبداً ﴿شهداء للّه﴾ أي تقيمون شهاداتكم لوجه الله دون تحيز ولا محاباة ﴿ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾ أي ولو كانت تلك الشهادة على أنفسكم أو على آبائكم أو أقربائكم فلا تمنعكم القرابة ولا المنفعة عن أداء الشهادة على الوجه الأكمل فإن الحق حاكم على كل إنسان ﴿إن يكن غنياً أو فقيراً﴾ أي إن يكن المشهود عليه غنياً فلا يراعى لغناه ، أو فقيراً فلا يمتنع من الشهادة عليه ترحماً وإشفاقاً ﴿فالله أولى بهما﴾ أي فالله أولى بالغني والفقير وأعلم بما فيه صلاحهما فراعوا أمر الله فيما أمركم به فإنه أعلم بمصالح العباد منكم ﴿فلا تتبعوا الهوَى أن تعدلوا﴾ أي فلا تتبعوا هوى النفس مخافة أن تعدلوا بين الناس قال ابن كثير : أي لا يحملنكم الهوى والعصبية وبغض الناس إليكم على ترك العدل في شئونكم بل الزموا العدل

(١) البحر ٣/ ٣٨٠ .

خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾

على كل حال[١] ﴿وإن تَلْـووا أو تُعرضوا﴾ أي وإن تلووا ألسنتكم عن شهادة الحق أو تُعرضوا عن إقامتها رأساً ﴿فإن اللـه كان بمـا تعملـو ن خبيـراً﴾ فيجازيكم عليه ﴿يا أيهـا الّذيـن آمنوا آمِنُوا بالله ورسوله﴾ أي اثبتوا على الإِيمان ودوموا عليه ﴿والكتاب الذي نزَّل علـى رسوله﴾ أي آمنوا بالقرآن الذي نزل على محمد ﷺ ﴿والكتاب الذي أنـزل مـن قبـل﴾ أي وبالكتب السماوية التي أنزلها من قبل القرآن قال أبو السعود : المراد بالكتاب الجنس المنتظم لجميع الكتب السماوية[٢] ﴿ومن يكفر بالله وملائكته وكتبـه ورسلـه واليوم الآخـر فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾ أي ومن يكفر بشيء من ذلك فقد خرج عن طريق الهدى ، وبَعُد عن القصد كل البعد ﴿إن الذيـن آمنوا ثم كفـروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفـراً﴾ هذه الآية في المنافقين[٣] آمنوا ثم ارتدوا ثم آمنوا ثم ارتدوا ثم ماتوا على الكفر قال ابن عباس : دخل في هذه الآية كل منافق كان في عهد النبي ﷺ في البر والبحر وقال ابن كثير : يخبر تعالى عمن دخل في الإِيمان ثم رجع فيه ثم عاد إلى الإِيمان ثم رجع واستمر على ضلاله وازداد حتى مات فإنه لا توبة له بعد موته ولا يغفر الله له ولا يجعل له مما هو فيه فرجاً ولا مخرجاً ولا طريقاً إلى الهدى[٤] ولهذا قال تعالى ﴿لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهـم سبيـلاً﴾ أي لم يكن الله ليسامحهم على ذلك ولا ليهديهم طريقاً إلى الجنة قال الزمخشري : ليس المعنى انهم لو أخلصوا الإِيمان بعد تكرار الردة لم يُقبل منهم ولم يُغفر لهم ولكنه استبعاد له واستغراب كأنه أمر لا يكاد يكون ، وهكذا ترى الفاسق الذي يتوب ثم يرجع ثم يتوب ثم يرجع لا يكاد يرجى منه الثبات ، والغالب أنه يموت على شر حال[٥] ، ثم أخبر تعالى عن مآل المنافقين فقال ﴿بشـر المنافقين بأن لهـم عذاباً أليمـاً﴾ عبّر تعالى بلفظ ﴿بشِّرْ﴾ تهكماً بهم أي أخبر يا محمد المنافقين بعذاب النار الأليم ﴿الذين يتخـذون الكافريـن أولياء من دون المؤمنين﴾ أي أولئك هم الذين يوالون الكافرين ويتخذونهم أعواناً وأنصاراً لما يتوهمونه فيهم من القوة ويتركون ولاية المؤمنين ﴿أيبتغـو ن عندهـم العـزة﴾ أي أيطلبون بموالاة الكفـار القـوة والغلبـة ؟ والاستفهام إنكاري أي إنّ الكفار لا عزة لهم فكيف تُبْتغى منهم ! ﴿فإن العزة لله جميعـاً﴾ أي العزة لله ولأوليائه قال ابن كثير والمقصود من هذا التهييجُ على طلب العزة من جناب الله ﴿وقـد نزّل عليكـم في

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٤٤٧ . (٢) أبو السعود ١/ ٣٨٩ . (٣) وقيل إنها في اليهود آمنوا بموسى ثم كفروا بعبادة العجل ثم آمنوا بعد عودة موسى إليهم ثم كفروا بعيسى ثم ازدادوا كفراً بكفرهم بمحمد وهو قول قتادة واختاره الطبري .
(٤) مختصر ابن كثير ١/ ٤٤٨ . (٥) الكشاف ١/ ٤٤٧ .

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ

الكتاب﴾ أي نزّل عليكم في القرآن ، والخطابُ لمن أظهر الإيمان من مؤمن ومنافق **﴿أنْ إذا سمعتم آياتِ الله يُكْفر بها ويُسْتهزأ بها﴾** أي أنزل عليكم أنه إذا سمعتم القرآن يكْفر به الكافرون ويَسْتهزىء به المستهزئون **﴿فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديثٍ غيره﴾** أي لا تجلسوا معَ الكافرين الذين يستهزئون بآيات الله حتى يتحدثوا بحديث آخر ويتركوا الخوض في القرآن **﴿إنكم إذاً مثلهم﴾** أي إنكم إن قعدتم معهم كنتم مثلهم في الكفر **﴿إن الله جامعُ المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً﴾** أي يجمع الفريقين الكافرين والمنافقين في الآخرة في نار جهنم لأن المرء مع من أحب ، وهذا الوعيد منه تعالى للتحذير من مخالطتهم ومجالستهم . . ثم ذكر تعالى تربصهم السوء بالمؤمنين فقال **﴿الذين يتربصون بكم﴾** أي ينتظرون بكم الدوائر **﴿فإن كان لكم فتحٌ من الله﴾** أي غلبةٌ على الأعداء وغنيمة **﴿قالوا ألم نكن معكم﴾** أي فأعطونا مما غنمتموه من الكافرين **﴿وإن كان للكافرين نصيب﴾** أي ظفرٌ عليكم يا معشر المؤمنين **﴿قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين﴾** أي قالوا للمشركين ألم نغلبكم ونتمكنْ من قتلكم وأسركم فأبقينا عليكم وثبطنا عزائم المؤمنين حتى انتصرتم عليهم ؟ فهاتوا نصيبنا مما أصبتم لأننا نواليكم ولا نترك أحداً يؤذيكم قال تعالى بياناً لمآل الفريقين **﴿فالله يحكم بينكم يوم القيامة﴾** أي يحكم بين المؤمنين والكافرين ويفصل بينهم بالحق **﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾** أي لن يمكّنَ الكفرة من رقاب المؤمنين فيبيدوهم ويستأصلوهم[1] قال ابن كثير : وذلك بأن يسلطوا عليهم استيلاء استئصال بالكلية وإن حصل لهم ظفر في بعض الأحيان ، فإن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة[2] **﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم﴾** أي يفعلون ما يفعل المخادع من إظهار الإيمان وإبطان الكفر والله يجازيهم على خداعهم ويستدرجهم بأمر المؤمنين بحقن دمائهم ، وقد أعدّ لهم الدرك الأسفل من النار في الآخرة ، فسمّى تعالى جزاءهم خداعاً بطريق المشاكلة لأن وبال خداعهم راجع عليهم **﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى﴾** أي يصلون وهم متثاقلون متكاسلون ، لا يرجون ثواباً ولا يخافون عقاباً **﴿يراءون**

(١) ذكر القرطبي خمسة أقوال للمفسرين في هذه الآية هذا أحدها وهو الذي رجحناه وقيل : إن المراد بالسبيل الحجة وقيل هذا يوم القيامة وقد رجحه الطبري حيث قال : يعني حجةً يوم القيامة واستدل له بما روي أن رجلاً سأل علياً عن هذه الآية فقال : أدن مني ثم قرأ عليه ﴿فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾ أي يوم القيامة وقد ضعّف هذا الرأي ابن العربي انظر القرطبي ٥/ ٤١٩ . (٢) مختصر ابن كثير ١/ ٤٤٩ .

﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾

الناس﴾ أي يقصدون بصلاتهم الرياء والسمعة ولا يقصدون وجه الله **﴿ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾** أي لا يذكرون الله سبحانه إلا ذكراً قليلاً **﴿مُذَبْذبين بيْن ذلك﴾** أي مضطربين مترددين بين الكفر والإِيمان ، وصفهم تعالى بالحيرة في دينهم **﴿لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾** أي لا ينتسبون إلى المؤمنين ولا إلى الكافرين **﴿ومن يضلل اللهُ فلن تجد له سبيلاً﴾** أي ومن يضلله الله فلن تجد له طريقاً الى السعادة والهدى ، ثم حذّر تعالى المؤمنين من موالاة أعداء الدين فقال **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾** أي لا تتركوا موالاة المؤمنين وتوالوا الكفرة المجرمين بالمصاحبة والمصادقة **﴿أتريدون أن تجعلوا للّهِ عليكم سلطاناً مبيناً﴾** أي أتريدون أن تجعلوا للّه حجة بالغة عليكم أنكم منافقون ؟ قال ابن عباس : كل سلطانٍ في القرآن حجةٌ ، ثم أخبر تعالى عن مآل المنافقين فقال **﴿إن المنافقين في الدَّرْك الأسفل من النار﴾** أي في الطبقة التي في قعر جهنم وهي سبع طبقات قال ابن عباس : أي في أسفل النار ، وذلك لأنهم جمعوا مع الكفر الاستهزاء بالإِسلام وأهله ، والنارُ دركات كما أن الجنة درجات **﴿ولن تجد لهم نصيراً﴾** أي لن تجد لهؤلاء المنافقين ناصراً ينصرهم من عذاب الله **﴿إلا الذين تابوا﴾** وهذا استثناء أي تابوا عن النفاق **﴿وأصلحوا﴾** أي أعمالهم ونياتهم **﴿واعتصموا بالله﴾** أي تمسكوا بكتاب الله ودينه **﴿وأخلصوا دينهم للّه﴾** أي لم يبتغوا بعملهم إلا وجه الله **﴿فأولئك مع المؤمنين﴾** أي في زمرتهم يوم القيامة **﴿وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً﴾** أي يعطيهم الأجر الكبير في الآخرة وهو الجنة **﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾** أي أيُّ منفعةٍ له سبحانه في عذابكم ؟ أيتشفى به من الغيظ ، أم يدرك به الثأر ، أم يدفع به الضر ويستجلب النفع وهو الغنى عنكم ؟ **﴿وكان الله شاكراً عليماً﴾** أي شاكراً لطاعة العباد مع غناه عنهم يعطي على العمل القليل الثواب الجزيل .

البَـلاَغـَة : تضمنت الآيات أنواعاً من الفصاحة والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ المبالغة في الصيغة في ﴿قوّامين بالقسط﴾ أي مبالغين في العدل .

٢ ـ الطباق بين ﴿غنياً وفقيراً﴾ وبين ﴿آمنوا ثم كفروا﴾ .

٣ ـ الجناس الناقص في ﴿آمَنُوا آمِنُوا﴾ لتغير الشكل .

٤ ـ جناس الاشتقاق في ﴿يخادعون . . خادعهم﴾ وفي ﴿جامع . . جميعاً﴾ وفي ﴿شكرتم . . شاكراً﴾ .

٥ ـ الاسلوب التهكمي في ﴿بشر المنافقين﴾ حيث استعمل لفظ البشارة مكان الإِنذار تهكماً .

٦ ـ الاستعارة في ﴿وهو خادعهم﴾ استعار اسم الخداع للمجازاة على العمل ، واللهُ تعالى منزَّه عن الخداع .

٧ ـ الاستفهام الإِنكاري في ﴿أيبتغون عندهم العزة﴾ ؟ والغرضُ منه التقريع والتوبيخ .

الفَـوَائِـد : الأولى : قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمَنُوا آمِنُوا﴾ ليس تكراراً وإِنما معناه اثبتوا على الإِيمان ودوموا عليه كقول المؤمن ﴿إهدنا الصراط المستقيم﴾ أي ثبتنا على الصراط المستقيم .

الثانية : سمى تعالى ظفر المؤمنين فتحاً عظيماً ونسبه إليه ﴿فتحٌ من الله﴾ وظفر الكافرين نصيباً ﴿وإن كان للكافرين نصيب﴾ ولم ينسبه إليه وذلك لتعظيم شأن المسلمين ، وتخسيس حظ الكافرين .

الثالثة : قال المفسرون : النار سبع دركات أولها جهنم ، ثم لظى ، ثم الحطمة ، ثم السعير ، ثم سقر ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية وقد تسمى بعض الطبقات باسم بعض لأن لفظ النار يجمعها ، كذا في البحر .

تـنبيـه : المنافق أخطر من الكافر ولهذا كان عذابه أشد ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً﴾ وقد شرط تعالى للتوبة على الكافر الانتهاء عن الكفر فقط ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف﴾ وأما المنافق فشرط عليه أربعاً : التوبة ، والإِصلاح ، والاعتصام ، وإخلاص الدين له فقال ﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله﴾ فدل على أن المنافقين شرٌّ من كفر به وأولاهم بمقته ، وأبعدهم من الإِنابة إليه ثم قال ﴿فأولئك مع المؤمنين﴾ ولم يقل فأولئك هم المؤمنون ثم قال ﴿وسوف يؤت الله المؤمنين منه أجراً عظيماً﴾ ولم يقل « وسوف يؤتيهم » بغضاً لهم وإعراضاً عنهم وتفظيعاً لما كانوا عليه من عظم كفر النفاق ، زادنا الله فهماً لأسرار كتابه .

* * *

قال الله تعالى : ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظُلم . . إلى . . أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾

من آية (١٤٨) إلى نهاية آية (١٦٢) .

المنَاسَبَة : لما ذكر تعالى المنافقين وفضحهم في الآيات السابقة ، ذكر هنا أنه لا يحب إظهار الفضائح والقبائح ، إلا في حق من زاد ضررُه وعظُم خطرُه ، فلا عجب أن يكشف الله عن المنافقين الستر ، ثم تحدث عن اليهود وعدَّد بعض جرائمهم الشنيعة مثل طلبهم لرؤية الله ، وعبادتهم للعجل ،

وادعائهم صلب المسيح ، واتهامهم مريم البتول بالفاحشة إلى غير ما هنالك من قبائح وجرائم شنيعة .

اللغــة : ﴿جهرة﴾ عياناً ﴿بهتاناً﴾ البهتان : الكذب الذي يُتحير فيه من شدته وعظمته ﴿شُبِّه﴾ وقع الشَّبه بين عيسى والمقتول الذي صلبوه ﴿وأعتدنا﴾ هيأنا ﴿الراسخون﴾ المتمكنون من العلم .

سَبَبُ النّزول : روي أن كعب بن الأشرف وجماعة من اليهود قالوا يا محمد : إن كنت نبياً فأتنا بكتاب من السماء جملةً كما أتى موسى بالتوراة جملة فأنزل الله ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزّل عليهم كتاباً من السماء . .﴾[1] الآية .

* ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾

التفسير : ﴿لا يحب الله الجهرَ بالسُّوءِ من القَوْل إلاّ مَنْ ظُلِمَ﴾ أي لا يحب الله الفُحْش في القول والإِيذاء باللسان إلا المظلوم فإنه يباح له أن يجهر بالدعاء على ظالمه وأن يذكره بما فيه من السوء قال ابن عباس : المعنى لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً[2] ﴿وكان الله سميعاً عليماً﴾ أي سميعاً لدعاء المظلوم عليماً بالظالم ﴿إن تُبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء﴾ أي إن أظهرتم أيها الناس عمل الخير أو أخفيتموه أو عفيتم عمن أساء إليكم ﴿فإن الله كان عفواً قديراً﴾ أي كان مبالغاً في العفو مع كمال قدرته على المؤاخذة ، قال الحسن : يعفو عن الجانين مع قدرته على الانتقام فعليكم أن تقتدوا بسنة الله تعالى[3] حثّ تعالى على العفو وأشار إلى أنه عفوٌّ مع قدرته فكيف لا تعفون مع ضعفكم وعجزكم ؟ ! ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله﴾ الآية في اليهود والنصارى لأنهم آمنوا بأنبيائهم وكفروا بمحمد ﷺ وغيره ، جعل كفرهم ببعض الرسل كفراً بجميع الرسل ، وكفرَهُم بالرسل كفراً بالله تعالى ﴿ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله﴾ التفريقُ بين الله ورسله أن يؤمنوا بالله ويكفروا برسله ، وكذلك التفريق بين الرسل هو الكفر ببعضهم والإِيمان ببعضهم وقد فسره تعالى بقوله بعده ﴿ويقولون نؤمن ببعضٍ ونكفر ببعض﴾ أي نؤمن ببعض الرسل ونكفر ببعض قال قتادة : أولئك أعداء الله اليهود والنصارى ، آمنت اليهود بالتوراة وموسى وكفروا بالإِنجيل وعيسى ، وآمنت النصارى بالإِنجيل وعيسى وكفروا بالقرآن وبمحمد ﷺ وتركوا الإِسلام دين الله الذي بعث به رسله[4] ﴿ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً﴾ أي طريقاً وسطاً بين الكفر والإِيمان ولا واسطة بينهما ﴿أولئك هم الكافرون حقاً﴾ أي هؤلاء الموصوفون بالصفات القبيحة هم الكافرون يقيناً ولو ادعوا الإِيمان ﴿وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾ أي

(١) مجمع البيان ٣/ ١٣٣ . (٢) مختصر ابن كثير ١/ ٤٥٢ . (٣) أبو السعود ١/ ٣٩٣ . (٤) الطبري ٩/ ٣٥٤ .

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٥٢﴾ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَٰلِكَ ۚ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ﴾

هيأنا لهم عذاباً شديداً مع الإهانة والخلود في نار جهنم **﴿والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحدٍ منهم﴾** أي صدّقوا الله وأقروا بجميع الرسل وهم المؤمنون أتباع محمدﷺ لم يفرقوا بين أحد من رسله بل آمنوا بجميعهم **﴿أولئك سوف نؤتيهم أجورهم﴾** أي سنعطيهم ثوابهم الكامل على الإيمان بالله ورسله **﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾** أي غفوراً لما سلف منهم من المعاصي والآثام متفضلاً عليهم بأنواع الإنعام **﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزّل عليهم كتاباً من السماء﴾** نزلت في أحبار اليهود حين قالوا للنبي ﷺ إن كنت نبياً فأتنا بكتاب من السماء جملة كما أتى به موسى جملة ، وإنما طلبوا ذلك على وجه التعنت والعناد ، فذكر تعالى سؤالهم ما هو أفظع وأشنع تسلية للنبيﷺ للتأسي بالرسل فقال **﴿فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة﴾** أي سألوا موسى رؤية الله عز وجل عياناً **﴿فأخذتهم الصاعقة بظلمهم﴾** أي جاءتهم من السماء نار فأهلكتهم بسبب ظلمهم **﴿ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات﴾** أي ثم اتخذوا العجل إلهاً وعبدوه من بعد ما جاءتهم المعجزات والحجج الباهرات من العصا واليد وفلق البحر وغيرها قال أبو السعود : وهذه المسألة ـ وهي طلب رؤية الله ـ وإن صدرت عن أسلافهم لكنهم لما كانوا مقتدين بهم في كل ما يأتون ويذرون أسندت إليهم[1] **﴿فعفونا عن ذلك﴾** أي عفونا عما ارتكبوه مع عظم جريمتهم وخيانتهم **﴿وآتينا موسى سلطاناً مبيناً﴾** أي حجة ظاهرة تظهر صدقه وصحة نبوته قال الطبري : وتلك الحجة هي الآيات البينات التي آتاه الله إياها[2] **﴿ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم﴾** أي رفعنا الجبل فوقهم لما امتنعوا عن قبول شريعة التوراة بسبب الميثاق ليقبلوه **﴿وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً﴾** أي ادخلوا باب بيت المقدس مطأطئين رءوسكم خضوعاً لله فخالفوا ما أمروا به ودخلوا يزحفون على أستاههم وهم يقولون حنطة في شعرة استهزاءً **﴿وقلنا لهم لا تعدوا في السبت﴾** أي لا تعتدوا باصطياد الحيتان يوم السبت فخالفوا واصطادوا **﴿وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾** أي عهداً وثيقاً مؤكداً **﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾** أي فبسبب نقضهم الميثاق لعنّاهم وأذللناهم و﴿ما﴾ لتأكيد المعنى **﴿وكفرهم بآيات الله﴾** أي وبجحودهم بالقرآن العظيم **﴿وقتلهم الأنبياء بغير حق﴾** كزكريا ويحيى عليهما السلام **﴿وقولهم قلوبنا غُلْفٌ﴾** أي

(١) أبو السعود ١/ ٣٩٤ . (٢) الطبري ٩/ ٣٦٠ .

قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ

قولهم للنبي ﷺ قلوبنا مغشّاة بأغشية لا تعي ما تقوله يا محمد ، قال تعالى رداً عليهم **﴿بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾** أي بل ختم تعالى عليها بسبب الكفر والضلال فلا يؤمن منهم إلا القليل كعبد الله بن سلام وأصحابه **﴿وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً﴾** أي وبكفرهم بعيسى عليه السلام أيضاً ورميهم مريم بالزنى وقد فضلها الله على نساء العالمين **﴿وقولهم إنّا قتلنا المسيحَ عيسى ابن مريم رسول الله﴾** أي قتلنا هذا الذي يزعم أنه رسول الله ، وهذا إنما قالوه على سبيل « التهكم والاستهزاء » كقول فرعون **﴿إن رسولكم الذي أُرسل إليكم لمجنون﴾** وإلاّ فهم يزعمون أن عيسى ابن زنى وأمه زانية ولا يعتقدون أنه رسول الله قال تعالى **﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكنْ شُبِّه لهم﴾** أي وما قتلوا عيسى ولا صلبوه ولكن قتلوا وصلبوا من أُلقي عليه شَبَهُه قال البيضاوي : روي أن رجلاً كان ينافق لعيسى فخرج ليدل عليه فألقى الله عليه شبهه فأُخذ وصُلب وهم يظنون أنه عيسى[1] **﴿وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه﴾** أي وإن الذين اختلفوا في شأن عيسى لفي شك من قتله ، روي أنه لما رُفع عيسى وأُلقي شبهه على غيره فقتلوه قالوا : إن كان هذا المقتول عيسى فأين صاحبنا ؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى ؟ فاختلفوا فقال بعضهم هو عيسى وقال بعضهم ليس هو عيسى بل هو غيره ، فأجمعوا أن شخصاً قد قتل واختلفوا من كان[2] **﴿ما لهم به من علم إلا اتباع الظن﴾** أي ما لهم بقتله علم حقيقي ولكنهم يتبعون فيه الظنَّ الذي تخيَّلوه **﴿وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه﴾** أي وما قتلوه متيقنين أنه هو بل شاكين متوهمين ونجّاه الله من شرهم فرفعه إلى السماء حياً بجسده وروحه كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة[3] **﴿وكان الله عزيزاً حكيماً﴾** أي عزيزاً في ملكه حكيماً في صنعه **﴿وإنْ من أهل الكتاب إلاّ ليؤمننَّ به قبل موته﴾** أي ليس أحد من اليهود والنصارى إلا ليؤمننَّ قبل موته بعيسى وبأنه عبد الله ورسوله حين يعاين ملائكة الموت ولكن لا ينفعه إيمانه قال ابن عباس : لا يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى قيل له : أرأيت إن ضرُبت عُنق أحدهم ؟ قال : يلجلج بها لسانه وكذا صحّ عن مجاهد وعكرمة وابن سيرين[4] **﴿ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾** أي يشهد عيسى على اليهود بأنهم كذبوه وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله **﴿فبظلم من**

---

(١) البيضاوي ص ١٤١ . (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ١/ ١٦٣ . (٣) منها ما رواه الشيخان (والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية) الحديث وانظر كتاب « التصريح بما تواتر في نزول المسيح » للكشميري تحقيق الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة . (٤) اختار الطبري أن الضمير في ﴿قبل موته﴾ يعود على عيسى ويصبح المعنى : لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا ويؤمن بعيسى قبل موت عيسى لما ينزل قرب الساعة ، وما ذكرناه هو اختيار أبي السعود والكشاف والجلالين .

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾

الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾ أي بسبب ظلم اليهود وما ارتكبوه من الذنوب العظيمة حرمنا عليهم أنواعاً من الطيبات التي كانت محلّلة لهم **﴿وبصدهم عن سبيل الله كثيراً﴾** أي وبمنعهم كثيراً من الناس عن الدخول في دين الله قال مجاهد : صدوا أنفسهم وغيرهم عن الحق **﴿وأخذهم الربا وقد نهوا عنه﴾** أي تعاطيهم الربا وقد حرمه الله عليهم في التوراة **﴿وأكلهم أموال الناس بالباطل﴾** أي بالرشوة وسائر الوجوه المحرمة **﴿وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً﴾** أي وهيأنا لمن كفر من هؤلاء اليهود العذاب المؤلم الموجع **﴿لكن الراسخون في العلم منهم﴾** أي لكن المتمكنون في العلم منهم والثابتون فيه كعبد الله بن سلام وجماعته **﴿والمؤمنون﴾** أي من المهاجرين والأنصار أصحاب النبي ﷺ من غير أهل الكتاب **﴿يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك﴾** أي يؤمنون بالكتب والأنبياء **﴿والمقيمين الصلاة﴾** أي أمدح المقيمين الصلاة فهو نصبٌ على المدح **﴿والمؤتون الزكاة﴾** أي المعطون زكاة أموالهم **﴿والمؤمنون بالله واليوم الآخر﴾** أي والمؤمنون بوحدانية الله وبالبعث بعد الموت **﴿أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾** أي هؤلاء الموصوفون بالأوصاف الجليلة سنعطيهم ثواباً جزيلاً على طاعتهم وهو الخلود في الجنة .

البلاغة : تضمنت الآيات أنواعاً من الفصاحة والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق بين ﴿تبدوا .. أو تخفوه﴾ وبين ﴿نؤمن .. ونكفر﴾ .

٢ ـ التعريض والتهكم في ﴿قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله﴾ قالوه على سبيل التهكم والاستهزاء لأنهم لا يؤمنون برسالته .

٣ ـ زيادة الحرف لمعنى التأكيد ﴿فبما نقضهم﴾ أي فبنقضهم .

٤ ـ الاستعارة في ﴿الراسخون في العلم﴾ استعار الرسوخ للثبوت في العلم والتمكن فيه وكذلك الاستعارة في ﴿قلوبنا غلفٌ﴾ استعار الغلاف بمعنى الغطاء لعدم الفهم والإدراك أي لا يتوصل إليها شيء من الذكر والموعظة .

٥ ـ الاعتراض في ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾ رداً لمزاعمهم الفاسدة .

٦ ـ الإلتفات في ﴿أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾ والأصل سيؤتيهم وتنكير الأجر للتفخيم .

٧ ـ المجاز المرسل في ﴿وقتلهم الأنبياء﴾ حيث أُطلق الكل وأُريد البعض وكذلك في ﴿كفرهم بآيات الله﴾ لأنهم كفروا بالقرآن والإِنجيل ولم يكفروا بغيرهما .

الفَوَائِد : قال في التسهيل : إن قيل كيف قالوا فيه رسول الله وهم يكفرون به ويسبونه ؟ فالجواب من ثلاثة أوجه: أحدها: أنهم قالوا ذلك على وجه التهكم والاستهزاء ، والثاني: أنهم قالوه على حسب اعتقاد المسلمين فيه كأنهم قالوا : رسولُ الله عندكم أو بزعمكم والثالث: أنه من قول الله لا من قولهم فيوقف قبله وفائدته تعظيم ذنبهم وتقبيح قولهم إنا قتلناه وقوله تعالى ﴿وما قتلوه وما صلبوه﴾ ردٌّ على اليهود وتكذيبٌ لهم وردٌّ على النصارى في قولهم إنه صلب حتى عبدوا الصليب من أجل ذلك ، والعجب كل العجب من تناقضهم في قولهم إنه إلهٌ أو ابن إله ثم يقولون إنه صلب[1] .

تـنبيـه : دلَّ قوله تعالى ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبّه لهم﴾ على أن الله تعالى نجّى رسوله عيسى من شر اليهود الخبثاء فلم يُقتل ولم يصلب وإنما صلبوا شخصاً غيره ظنوه عيسى وهو الذي ألقى الله الشبه عليه فقتلوه وهم يحسبونه عيسى ، وهذا هو الاعتقاد الحق الذي يتفق مع العقل والنقل ، وأما النصارى فيعتقدون أنه صلب وأن اليهود أهانوه ووضعوا الشوك على رأسه وأنه تضرّع وبكى مع زعمهم أنه هو « الله » أو « ابن الله » وأنه جاء ليخلّص البشرية من أوزارها إلى غير ما هنالك من التناقض العجيب الغريب ولقد أحسن من قال :

عجباً للمسيح بين النصارى ... وإلى أي والدٍ نسبوه !
أسلموه إلى اليهود وقالوا ... إنهم بعد ضربه صلبوه
فإذا كان ما يقولون حقاً ... وصحيحاً فأين كان أبوه ؟
حين خلّى ابنه رهين الأعادي ... أتراهم أرضوه أم أغضبوه ؟
فلئن كان راضياً بأذاهم ... فاحمدوهم لأنهم عذبوه
ولئن كان ساخطاً فاتركوه ... واعبدوهم لأنهم غلبوه

* * *

قال الله تعالى : ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين . . إلى . . والله بكل شيء عليم﴾ .
من آية (١٦٣) إلى نهاية آية (١٧٦) آخر السورة الكريمة .

المنَاسَبَة : لما حكى تعالى جرائم اليهود التي من ضمنها كفرهم بعيسى ومحمد وزعمهم أنهم صلبوا المسيح ، ذكر تعالى هنا أن الإِيمان بجميع الرسل شرط لصحة الإِيمان ، وأنه أرسل سائر المرسلين مبشرين ومنذرين ، ثم دعا النصارى إلى عدم الغلو في شأن المسيح باعتقادهم فيه أنه ابن الله أو ثالث ثلاثة ، فليس هو ابن الله كما يزعم النصارى وليس ابن زنى كما يزعم اليهود فكلا الفريقين واقع بين الإِفراط والتفريط ، ثم ختمت السورة الكريمة بما ابتدأت به من رعاية حقوق الورثة من الأقرباء .

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ١/ ١٦٣ .

*﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٦٥﴾﴾

اللغـــة : ﴿تغلو﴾ الغلوُّ : مجاوزة الحد ومنه غلا السعر ﴿يستنكف﴾ يأنف والاستنكاف الأنفة والترفع قال الزجاج : مأخوذ من نكفْتُ الدمع إذا نحيته بأصبعك عن خدك ﴿برهان﴾ البرهان : الدليل والمراد به هنا المعجزات ﴿اعتصموا﴾ لاذوا ولجأوا والعصمةُ الامتناعُ ﴿الكلالة﴾ من لا ولد له ولا والد وقد تقدم .

سَبَبُ النّزول : جاء وفد من النصارى إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا محمد : لم تعيب صاحبنا ؟ قال : ومن صاحبكم ؟ قالوا عيسى قال : وأي شيء أقول فيه ؟ قالوا تقول : إنه عبد الله ورسوله ، فقال لهم : إنه ليس بعار أن يكون عبداً لله قالوا : بلى فأنزل الله ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله﴾ الآية[١] .

التفسـيـر : ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينـا إلى نوح والنبيين من بعـده﴾ أي نحن أوحينا إليك يا محمد كما أوحينا إلى نوحٍ والأنبياء من بعده ، وإنما قدّمﷺ في الذكر وإن تأخرت نبوته لتقدمه في الفضل ﴿وأوحينـا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحـق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان﴾ أي وأوحينا إلى سائر النبيين إبراهيم وإسماعيل الخ خصَّ تعالى بالذكر هؤلاء تشريفاً وتعظيماً لهم وبدأ بعد محمد ﷺ بنوحٍ لأنه شيخ الأنبياء وأبو البشر الثاني ثم ذكر إبراهيم لأنه الأب الثالث ومنه تفرعت شجرة النبوة كما قال تعالى ﴿وجعلنا في ذريته النبـوة والكتـاب﴾ وقدّم عيسى على أنبياء كانوا قبله لشدة العناية بأمره لغلو اليهود في الطعن فيه والنصارى في تقديسه ﴿وآتينـا داود زبوراً﴾ أي وخصصنا داود بالزبور قال القرطبي : كان فيه مائة وخمسون سورة ليس فيها حكمٌ من الأحكام وإنما هي حِكَمٌ ومواعظ[٢] ﴿ورسلاً قد قصصناهـم عليـك من قبـل﴾ أي وأرسلنا رسلاً منهم من ذكرنا أخبارهم لك يا محمد في غير هذه السورة ﴿ورسـلاً لم نقصصْهـم عليـك﴾ أي ورسلاً آخرين لم نخبرك عن أحوالهم ﴿وكلّم اللـه موسى تكليمـاً﴾ أي وخصَّ الله موسى بأن كلّمه بلا واسطة ولهذا سُمي الكليم ، وإنما أكّد ﴿تكليماً﴾ رفعاً لاحتمال المجاز قال ثعلب : لولا التأكيد لجاز أن تقول : قد كلمت لك فلاناً بمعنى كتبت إليه رقعة أو بعثت إليه رسولاً فلما قال تكليماً لم يكن إلا كلاماً مسموعاً من الله تعالى[٣] ﴿رسـلاً مبشرين ومنذريـن﴾ أي يبشرون بالجنة من أطاع وينذرون بالنار من عصى ﴿لئلا يكون للناس على اللـه حجةٌ بعد الرسـل﴾ أي بعثهم الله ليقطع حجة من يقول لو أُرسل إليَّ رسولٌ لآمنتُ وأطعت فقطع الله حجة البشر بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿وكـان الله عزيـزاً حكيمـاً﴾ أي عزيزاً في ملكه حكيماً في صنعه ، ثم ذكر تعالى رداً على اليهود حين أنكروا نبوة محمد فقال

(١) أسباب النزول للواحدي ص ١٠٧ . (٢) القرطبي ٦/ . (٣) البحر ٣/ ٣٩٨ .

لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ

﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك﴾ أي إن لم يشهد لك هؤلاء بالنبوة فالله يشهد لك بذلك بما أنزل إليك من القرآن المعجز **﴿أنزله بعلمه والملائكة يشهدون﴾** أي أنزله بعلمه الخاص الذي لا يعلمه غيره بأسلوب يعجز عنه كل بليغ ، والملائكة يشهدون كذلك بما أنزل الله إليك ويشهدون بنبوتك **﴿وكفى بالله شهيداً﴾** أي كفى الله شاهداً فشهادته تعالى تغنيك وتكفيك وإن لم يشهد غيره **﴿إن الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيداً﴾** أي كفروا بأنفسهم ومنعوا الناس عن الدخول في دين الله قد ضلوا عن طريق الرشاد ضلالاً بعيداً لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال فضلالهم في أقصى الغايات **﴿إن الذين كفروا وظلموا﴾** قال الزمخشري : أي جمعوا بين الكفر والمعاصي[1] **﴿لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً﴾** أي لن يعفو الله عنهم ولن يهديهم إلى طريق الجنة لأنهم ماتوا على الكفر **﴿إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً﴾** أي لن يهديهم إلا إلى الطريق الموصلة إلى جهنم جزاء لهم على ما أسلفوه من الكفر والظلم مخلّدين فيها أبداً **﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾** أي تخليدهم في جهنم لا يصعب عليه ولا يستعظمه **﴿يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم﴾** أي يا أيها الناس قد جاءكم محمد بالدين الحق والشريعة السمحة من عند ربكم **﴿فآمنوا خيراً لكم﴾** أي صدّقوا ما جاءكم من عند ربكم يكن الإيمان خيراً لكم **﴿وإن تكفروا فإن لله ما في السموات والأرض﴾** أي وإن تستمروا على الكفر فإن الله غني عنكم لا يضره كفركم إذ له ما في الكون ملكاً وخلقاً وعبيداً **﴿وكان الله علياً حكياً﴾** أي علياً بأحوال العباد حكياً فيا دبره لهم ، ولما ردّ تعالى على شبه اليهود فيا سبق أخذ في الردّ على ضلالات النصارى في إفراطهم في تعظيم المسيح حيث عبدوه من دون الله فقال **﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم﴾** أي يا معشر النصارى لا تتجاوزوا الحدَّ في أمر الدين بافراطكم في شأن المسيح وادعاء ألوهيته **﴿ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾** أي لا تصفوا الله بما لا يليق من الحلول والاتحاد واتخاذ الصاحبة والولد **﴿إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾** أي ما عيسى إلا رسولٌ من رسل الله وليس ابن الله كما زعمتم **﴿وكلمته ألقاها إلى مريم﴾**

---

(١) وقال الطبري : أي جحدوا رسالة محمدﷺ فكفروا بالله وظلموا بمقامهم على الكفر .

وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَـٰثَةٌ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ

أي وقد خلق بكلمته تعالى « كنْ » من غير واسطة أب ولا نطفة ﴿وروحٌ منـه﴾ أي ذو روح مبتدأةٍ من الله وهو أثر نفخة جبريل في صدر مريم حيث حملت بتلك النفخة بعيسى ، وإنما أضيف إلى الله تشريفاً وتكريماً ﴿فآمنوا بالله ورسلـه﴾ أي آمنوا بوحدانيته وصدقوا رسله أجمعين ﴿ولا تقولـوا ثـلاثـة﴾ أي لا تقولوا الآلهة ثلاثة : الله ، والمسيح ، ومريم ، أو الله ثلاثة : الأب والابن وروح القدس ، فنهاهم تعالى عن التثليث وأمرهم بالتوحيد لأن الإله منزّه عن التركيب وعن نسبة المركب إليه ﴿انتهوا خيـراً لكـم﴾ أي انتهوا عن التثليث يكن ذلك خيراً لكم ﴿إنمـا الله إله واحـد﴾ أي منفرد في ألوهيته ليس كما تزعمون أنه ثالث ثلاثة ﴿سبحانه أن يكـون لـه ولد﴾ أي تنزّه الله عن أن يكون له ولد ﴿لـه ما في السموات وما في الأرض﴾ خلقاً وملكاً وعبيداً وهو تعالى لا يماثله شيء حتى يتخذه ولداً ﴿وكفـى بالله وكيـلاً﴾ تنبيه على غناه عن الولد أي كفى الله أن يقوم بتدبير مخلوقاته وحفظها فلا حاجة له إلى ولدٍ أو معين لأنه مالك كل شيء ، ثم ردّ تعالى على النصارى مزاعمهم الباطلة فقال ﴿لـن يستنكف المسيح أن يكـون عبداً للـه﴾ أي لن يأنف ويتكبر المسيح الذي زعمتم أنه إلهٌ عن أن يكون عبداً للّه ﴿ولا الملائكـة المقربون﴾ أي لا يستنكفون أيضاً أن يكونوا عبيداً لله ﴿ومن يستنكـفْ عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليـه جميعاً﴾ أي ومن يأنف ويتكبر عن عبادة الله سبحانه فسيبعثهم يوم القيامة للحساب والجزاء ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهـم﴾ أي يوفيهم ثواب أعمالهم ﴿ويزيدهـم من فضلـه﴾ أي بإعطائهم ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابـاً أليمـاً﴾ أي وأما الـذين أنفـوا وتعظّموا عن عبادته فسيعذبهم عذاباً موجعاً شديداً ﴿ولا يجـدون لهم من دون الله وليـاً ولا نصيراً﴾ أي ليس لهم من يتولاهم أو ينصرهم من عذاب الله ﴿يا أيهـا الناس قد جاءكـم برهان من ربكم﴾ أي أتاكم حجة من الله وهو محمد رسول الله المؤ يد بالمعجزات الباهرة ﴿وأنزلنا إليكـم نوراً مبينـاً﴾ أي أنزلنا عليكم القرآن ذلك النور الوضاء ﴿فأما الذين آمنـوا بالله واعتصموا به﴾ أي صدقوا بوحدانية الله وتمسكوا بكتابه المنير ﴿فسيدخلهـم في رحمةٍ منه وفضلٍ﴾ أي سيدخلهم في جنته دار الخلود ﴿ويهديهم إليه صراطـاً مستقيماً﴾ أي

﴿مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ۚ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾

يهديهم إلى دين الإسلام في الدنيا وإلى طريق الجنة في الآخرة ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة﴾ أي يستفتونك يا محمد في شأن الميت إذا لم يكن له والدٌ أو ولد من يرثه؟ ﴿إن امرؤ هلك ليس له ولد﴾ أي قل لهم من مات وليس له والدٌ أو ولد وهي الكلالة ﴿وله أختٌ فلها نصف ما ترك﴾ أي وله أخت شقيقة أو أخت لأب فلها نصف ما ترك أخوها ﴿وهو يرثها إن لم يكن لها ولد﴾ أي وأخوها الشقيق أو لأب يرث جميع ما تركت إن لم يكن لها ولد ﴿فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك﴾ أي إن كانت الأختان اثنتين فأكثر فلهما الثلثان مما ترك أخوهما ﴿وإن كانوا إخوة رجالاً ونساءً فللذكر مثل حظ الأنثيين﴾ أي وإن كان الورثة مختلطين إخوة وأخواتٍ فللذكر منهم مثل نصيب الأختين ﴿يبيّن الله لكم أن تضلوا﴾ أي يبيّن الله لكم أحكامه وشرائعه خشية أن تضلوا ﴿والله بكل شيء عليم﴾ أي يعلم ما فيه مصلحتكم ومنفعتكم فهو تعالى العالم بمصالح العباد في المحيا والممات .

البَلاغَة : ١ ـ تخصيص بعض الأنبياء بالذكر ﴿كما أوحينا إلى نوح﴾ الخ للتشريف وإظهار فضل المذكورين وفيه تشبيه يسمى « مرسلاً مفصلاً » .

٢ ـ قوله ﴿يا أهل الكتاب﴾ اللفظ للعموم ويراد منه الخصوص وهم « النصارى » بدليل قوله بعده ﴿ولا تقولوا ثلاثة﴾ وهي قولة النصارى .

٣ ـ قوله ﴿إنما المسيح عيسى بن مريم رسولُ الله﴾ فيه قصر وهو من نوع قصر موصوف على صفة .

٤ ـ في قوله ﴿يشهدون . . وشهيداً﴾ جناس الاشتقاق .

الفَوَائِد: لفظة « مِن » تكون للتبعيض وقد تأتي لابتداء الغاية كما في قوله تعالى ﴿وروح منه﴾ يحكى أن طبيباً نصرانياً للرشيد ناظر الإمام الواقدي ذات يوم فقال له : إن في كتابكم ما يدل على أن عيسى جزءٌ من الله وتلا هذه الآية ﴿وروحٌ منه﴾ فقال الواقدي قال تعالى ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه﴾ فيجب إذا كان عيسى جزءاً من الله أن يكون ما في السموات وما في الأرض جزءاً منه فانقطع النصراني وأسلم ، وفرح الرشيد بذلك فرحاً شديداً ووصل الواقدي بصلة عظيمة[1] .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة النساء »

(١) تفسير أبي السعود ١/٤٠١ .



بين يدي السورة

* سورة المائدة من السور المدنية الطويلة ، وقد تناولت كسائر السور المدنية جانب التشريع بإسهاب مثل سورة البقرة ، والنساء ، والأنفال ، إلى جانب موضوع العقيدة وقصص أهل الكتاب ، قال أبو ميسرة : المائدة من آخر ما نزل من القرآن ليس فيها منسوخ وفيها ثمان عشرة فريضة [١] .

* نزلت هذه السورة منصرفَ رسول الله ﷺ من الحديبية ، وجِمَاعها يتناول الأحكام الشرعية لأن الدولة الإسلامية كانت في بداية تكوينها وهي بحاجة إلى المنهج الرباني الذي يعصمها من الزلل ، ويرسم لها طريق البناء والاستقرار .

* أما الأحكام التي تناولتها السورة فنلخصها فيما يلي : « أحكام العقود ، الذبائح ، الصيد ، الإحرام ، نكاح الكتابيات ، الردة ، أحكام الطهارة ، حدّ السرقة ، حدّ البغي والإفساد في الأرض ، أحكام الخمر والميسر ، كفارة اليمين ، قتل الصيد في الإحرام ، الوصية عند الموت ، البحيرة والسائبة ، الحكم على من ترك العمل بشريعة الله » إلى آخر ما هنالك من الأحكام التشريعية .

* وإلى جانب التشريع قصَّ تعالى علينا في هذه السورة بعض القصص للعظة والعبرة ، فذكر قصة بني إسرائيل مع موسى وهي قصة ترمز إلى التمرد والطغيان ممثلة في هذه الشرذمة الباغية من « اليهود » حين قالوا لرسولهم ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون﴾ وما حصل لهم من التشرد والضياع إذ وقعوا في أرض التيه أربعين سنة .

* ثم قصة ابني آدم وهي قصةٌ ترمز إلى الصراع العنيف بين قوتي الخير والشر ، ممثلة في قصة « قابيل وهابيل » حيث قتل قابيل أخاه هابيل وكانت أول جريمة نكراء تحدث في الأرض أريق فيها الدم البريء الطاهر ، والقصة تعرض لنموذجين من نماذج البشرية : نموذج النفس الشريرة الأثيمة ، ونموذج النفس الخيّرة الكريمة ﴿فسوّلت لـه نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين﴾ كما ذكرت السورة قصة « المائدة » التي كانت معجزة لعيسى بن مريم ظهرت على يديه أمام الحواريين . والسورة الكريمة تعرض أيضاً لمناقشة

(١) القرطبي ٦/ ٣٠ .

« اليهود والنصارى » في عقائدهم الزائفة ، حيث نسبوا إلى الله ما لا يليق من الذرية والبنين ، ونقضوا العهود والمواثيق ، وحرفوا التوراة والإنجيل ، وكفروا برسالة محمد عليه السلام إلى آخر ما هنالك من ضلالات وأباطيل ، وقد ختمت السورة الكريمة بالموقف الرهيب يوم الحشر الأكبر حيث يُدْعى السيد المسيح عيسى بن مريم على رءوس الأشهاد ويسأله ربه تبكيتاً للنصارى الذين عبدوه من دون الله ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلٰهين من دون الله ؟ قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾ ويا له من موقف مخزٍ لأعداء الله ، تشيب لهوله الرءوس ، وتتفطر من فزعه النفوس ! !

فضلها : عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : أُنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها[1] .

التسمية : سميت سورة « المائدة » لورود ذكر المائدة فيها حيث طلب الحواريون من عيسى عليه السلام آية تدل على صدق نبوته وتكون لهم عيداً وقصتها أعجبُ ما ذكر فيها لاشتمالها على آيات كثيرة ولطفٍ عظيم من الله العليّ الكبير .

* * *

قال الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود . . . إلى . . أولئك أصحاب الجحيم﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (١٠) .

اللغة : ﴿العقود﴾ أصل العقد في اللغة : الربط تقول عقدتُ الحبل بالحبل ثم استعير للمعاني قال الزمخشري : العقد العهدُ الموثّق شبّه بعقد الحبل قال الحطيئة :

قومٌ إذا عقدوا عقداً لجارهم   شدّوا العناج وشدّوا فوقه الكَرَبا[2]

﴿بهيمة الأنعام﴾ البهيمة ما لا نطق له لما في صوته من الإبهام والأنعام جمع نَعَم وهي الإبل والبقر والغنم ﴿القلائد﴾ جمع قلادة وهي ما يقلد به الهدي من لحاء الشجر ليُعلم أنه هدي ﴿يجرمنكم﴾ يكسبنكم يقال : جرم ذنباً أي كسبه وأجرم اكتسب الإثم ﴿شنآن﴾ الشنآن : البغض ﴿الموقوذة﴾ الوقذ : ضرب الشيء حتى يسترخي ويشرف على الموت ﴿النُّصب﴾ صنمٌ وحجر كانت الجاهلية تنصبه وتذبح عنده وجمعه أنصاب كذا في اللسان ﴿الأزلام﴾ القداح جمع زلَم كان أحدهم إذا أراد سفراً أو غزواً أو تجارة ضرب بالقداح وهو الاستقسام بالأزلام[3] ﴿مخْمصة﴾ مجاعة لأن البطون فيها تخُمص أي تضمر والخمص ضمور البطن ﴿الجوارح﴾ الكواسب من سباع البهائم والطير كالكلب والفهد والصقر والشاهين .

سبب النزول : عن ابن عباس أن المشركين كانوا يحجون البيت ويهدون الهدايا ويعظّمون الشعائر وينحرون ، فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم فنزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله . .﴾[4] الآية .

---

(١) أخرجه أحمد . (٢) الكشاف ١/ ٤٦٦ . (٣) البحر ٣/ ٤١٠ . (٤) الطبري ٩/ ٤٦٣ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾

التفسير : ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ الخطاب بلفظ الإيمان للتكريم والتعظيم أي يا معشر المؤمنين أوفوا بالعقود وهو لفظ يشمل كل عقدٍ وعهد بين الإنسان وربه وبين الإنسان والإنسان قال ابن عباس : العقود العهود وهي ما أحلَّ الله وما حرّم وما فرض في القرآن كله من التكاليف والأحكام[1] ﴿أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم﴾ أي أُبيح لكم أكل الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم بعد ذبحها إلا ما حُرّم عليكم في هذه السورة وهي الميتة والدم ولحم الخنزير الخ ﴿غير مُحلّي الصيد وأنتم حُرُمٌ﴾ أي أُحلت لكم هذه الأشياء من غير أن تستحلوا الصيد وأنتم محرمون ﴿إن الله يحكم ما يُريد﴾ أي يقضي في خلقه بما يشاء لأنه الحكيم في أمره ونهيه ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُحلوا شعائر الله﴾ أي لا تستحلوا حُرمات الله ولا تعتدوا حدوده قال الحسن : يعني شرائعه التي حدها لعباده وقال ابن عباس : ما حرّم عليكم في حال الإحرام[2] ﴿ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد﴾ أي ولا تستحلوا الشهر الحرام بالقتال فيه ، ولا ما أُهدي إلى البيت أو قُلّد بقلادة ليعرف أنه هدي بالتعرض له ولأصحابه ﴿ولا آمّين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً﴾ أي ولا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام لحج أو عمرة ، نهى تعالى عن الإغارة عليهم أو صدهم عن البيت كما كان أهل الجاهلية يفعلون ﴿وإذا حللتم فاصطادوا﴾ أي إذا تحللتم من الإحرام فقد أُبيح لكم الصيد ﴿ولا يجرمنّكم شنآن قومٍ أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا﴾ أي لا يحملنكم بغضُ قوم كانوا قد صدوكم عن المسجد الحرام على أن تعتدوا عليهم ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ أي تعاونوا على فعل الخيرات وترك المنكرات ، وعلى كل ما يقرب إلى الله ﴿واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾ أي خافوا

---

(١) هذا القول اختاره الطبري والزمخشري ، والأرجحُ العموم فهو أمرٌ بالوفاء بكل عقد وهو اختيار صاحب البحر وجمع من المفسرين قال ابن أسلم هي ستة : عهد الله ، وعقد الحلف ، وعقد الشركة ، وعقد البيع ، وعقد النكاح ، وعقد اليمين كذا في ابن كثير . (٢) القول الأول أرجح وهو اختيار الطبري لعموم الآية .

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ

عقابه فإنه تعالى شديد العقاب لمن عصاه ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير﴾ أي حُرِّم عليكم أيها المؤمنون أكل الميتة وهي ما مات حتف أنفه من غير ذكاة والدم المسفوح ولحم الخنزير قال الزمخشري : كان أهل الجاهلية يأكلون هذه المحرمات : البهيمة التي تموت حتف أنفها والفصيد وهو الدم في الأمعاء يشوونه ويقولون لم يحرم من فُزد - أي فصد - له[1] وإنما ذكر لحم الخنزير ليبيّن أنه حرام بعينه حتى ولو ذبح بالطريق الشرعي ﴿وما أُهلَّ لغير الله به﴾ أي ما ذكر عليه غير اسم الله أو ذبح لغير الله كقولهم باسم اللات والعزّى ﴿والمنخنقة﴾ هي التي تُخنق بحبلٍ وشبهه ﴿والموقوذة﴾ هي المضروبة بعصا أو حجر ﴿والمتردية﴾ هي التي تسقط من جبل ونحوه ﴿والنطيحة﴾ هي التي نطحتها بهيمة أُخرى فماتت بالنطح ﴿وما أكل السَّبُع﴾ أي أكل بعضَه السبع فمات ﴿إلا ما ذكيتم﴾ أي إلا ما أدركتم فيه الروح من هذه الأشياء فذبحتموه الذبح الشرعي قبل الموت قال الطبري معناه : إلاّ ما طهرتموه بالذبح الذي جعله الله طهوراً[2] ﴿وما ذُبح على النُّصب﴾ أي وما ذُبح على الأحجار المنصوبة قال قتادة : النُّصبُ حجارةٌ كان أهل الجاهلية يعبدونها ويذبحون لها فنهى الله عن ذلك قال الزمخشري : كانت لهم حجارة منصوبة حول البيت يذبحون عليها ويشرحون اللحم عليها ، يعظمونها بذلك ويتقربون به إليها فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع ﴿وأن تستقسموا بالأزلام﴾ أي وحُرِّم عليكم الاستقسام بالأزلام أي طلب معرفة ما قُسم له من الخير والشر بواسطة ضرب القداح قال في الكشاف : كان أحدهم إذا أراد سفراً أو غزواً أو تجارة أو نكاحاً أو أمراً من معاظم الأمور ضرب بالقداح وهي مكتوب على بعضها : نهاني ربي ، وعلى بعضها أمرني ربي ، وبعضُها غُفْلٌ فإن خرج الآمر مضى لغرضه وإن خرج الناهي أمسك وإن خرج الغفل أعاد[3] ﴿ذلكم فسق﴾ أي تعاطيه فسقٌ وخروجٌ عن طاعة الله لأنه دخولٌ في علم الغيب الذي استأثر الله به علاّم الغيوب[4] ﴿اليوم يئس الذين كفروا من دينكم﴾ أي انقطع طمع الكافرين منكم ويئسوا أن ترجعوا عن دينكم قال ابن عباس : يئسوا أن ترجعوا إلى دينهم أبداً ﴿فلا تخشوهم واخشون﴾ أي لا تخافوا المشركين ولا تهابوهم وخافون أنصركم عليهم وأجعلكم فوقهم في الدنيا والآخرة ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ أي أكملت لكم الشريعة ببيان الحلال والحرام ﴿وأتممتُ عليكم نعمتي﴾ بالهداية والتوفيق إلى أقوم طريق ﴿ورضيتُ لكم الإسلام ديناً﴾ أي اخترت لكم الإسلام ديناً من بين الأديان وهو

---

(١) الكشاف ١/ ٤٦٨ . (٢) الطبري ٩/ ٥٠٢ .

(٣) الكشاف ١/ ٤٦٩ . (٤) هذا إذا قلنا إن الاشارة عائدة على الاستقسام بالأزلام لعوده على أقرب المذكور وهو قول ابن عباس وهو الراجح واختار الطبري أن الإشارة تعود إلى المحرمات وكل صحيح .

ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ

الدين المرضي الذي لا يقبل الله ديناً سواه ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه﴾ **﴿فمن اضطر في مخمصةٍ غير متجانفٍ لإثم فإن الله غفور رحيم﴾** أي فمن ألجأته الضرورة إلى تناول شيء من المحرمات المذكورة ، في مجاعةٍ حال كونه غير مائل إلى الإثم ولا متعمد لذلك ، فإن الله لا يؤاخذه بأكله ، لأن الضرورات تُبيح المحظورات **﴿يسألونك ماذا أُحل لهم﴾** أي يسألونك يا محمد ما الذي أُحل لهم من المطاعم والمآكل ؟ **﴿قل أُحلّ لكم الطيبات﴾** أي قل لهم أُبيح لكم المستلذات وما ليس منها بخبيث ، وحُرّم كل مستقذر كالخنافس والفئران وأشباهها **﴿وما علمتم من الجوارح﴾** أي وأُحل لكم صيد ما علمتم من الجوارح وهي الكلاب ونحوها مما يُصطاد به **﴿مكلِّبين﴾** أي مُعلمين للكلاب الاصطياد قال الزمخشري : المكلِّب مؤدبُ الجوارح ورائضها واشتقاقه من الكَلَب لأن التأديب أكثر ما يكون في الكلاب[1] **﴿تعلمونهن مما علمكم الله﴾** أي تعلمونهنَّ طرق الاصطياد وكيفية تحصيل الصيد ، وهذا جزءٌ مما علّمه الله للإنسان **﴿فكلوا مما أمسكن عليكم﴾** أي فكلوا مما أمسكن لكم من الصيد إذا لم تأكل منه ، فإن أكلت فلا يحل أكله لحديث (إذا أرسلتَ كلبَكَ المُعلَّم فقتل فكلْ ، وإذا أكل فلا تأكل فإنما أمسكه على نفسه)[2] وعلامة المعلَّم أن يسترسل إذا أُرسل ، وينزجر إذا زُجر ، وأن يُمسك الصيد فلا يأكل منه ، وأن يذكر اسم الله عند إرساله فهذه أربع شروط لصحة الأكل من صيد الكلب المعلَّم **﴿واذكروا اسم الله عليه﴾** أي عند إرساله **﴿واتقوا الله إن الله سريع الحساب﴾** أي راقبوا الله في أعمالكم فإنه سريع المجازاة للعباد **﴿اليوم أُحلّ لكم الطيبات﴾** أي أبيح لكم المستلذات من الذبائح وغيرها **﴿وطعام الذين أُوتوا الكتاب حلٌّ لكم﴾** أي ذبائح اليهود والنصارى حلالٌ لكم **﴿وطعامكم حلٌّ لهم﴾** أي ذبائحكم حلالٌ لهم فلا حرج أن تُطعموهم وتبيعوه لهم **﴿والمحصناتُ من المؤمنات﴾** أي وأُبيح لكم أيها المؤمنون زواج الحرائر العفيفات من المؤمنات **﴿والمحصنات من الذين أُوتوا الكتاب من قبلكم﴾** أي وزواج الحرائر من الكتابيات (يهوديات أو نصرانيات) وهذا رأي الجمهور وقال عطاء : قد أكثر الله المسلمات وإنما رخص لهم يومئذٍ **﴿إذا آتيتموهن أجورهن﴾** أي إذا دفعتم لهن مهورهن **﴿مُحصنين غير مُسافحين﴾** أي حال كونكم أعفاء بالنكاح غير مجاهرين بالزنى **﴿ولا متخذي**

(١) الكشاف ١/ ٤٧١ . (٢) أخرجه البخاري من حديث عدي بن حاتم .

وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا

أخدان﴾ أي وغير متخذين عشيقات وصديقات تزنون بهن سراً قال الطبري : المعنى ولا منفرداً ببغية قد خادنها وخادنته واتخذها لنفسه صديقةً يفجر بها[1] **﴿ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين﴾** أي ومن يرتد عن الدين ويكفر بشرائع الإيمان فقد بطل عمله وهو من الهالكين ، ثم أمر تعالى بإسباغ الوضوء عند الصلاة فقال **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة﴾** أي إذا أردتم القيام إلى الصلاة وأنتم محدثون **﴿فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق﴾** أي اغسلوا الوجوه والأيدي مع المرافق **﴿وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين﴾** أي امسحوا رءوسكم واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين أي معهما قال الزمخشري : وفائدة المجيء بالغاية **﴿إلى الكعبين﴾** لدفع ظن من يحسبها ممسوحة لأن المسح لم تُضرب له غاية في الشريعة وفي الحديث (ويلٌ للأعقاب من النار)[2] وهذا الحديث يردُّ على الإمامية الذين يقولون بأن الرجلين فرضهما المسحُ لا الغسل ، والآية صريحة لأنها جاءت بالنصب **﴿وأرجلَكُمْ﴾** فهي معطوفة على المغسول وجيء بالمسح بين المغسولات لإفادة الترتيب **﴿وإن كنتم جنباً فاطّهروا﴾** أي إن كنتم في حالة جنابة فتطهروا بغسل جميع البدن **﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر﴾** أي إن كنتم مرضى ويضركم الماء ، أو كنتم مسافرين ولم تجدوا الماء **﴿أو جاء أحدٌ منكم من الغائط﴾** أي أتى من مكان البراز **﴿أو لامستم النساء﴾** أي جامعتموهنّ **﴿فلم تجدوا ماءً فتيمَّموا صعيداً طيباً﴾** أي ولم تجدوا الماء بعد طلبه فاقصدوا التراب الطاهر للتيمم به **﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه﴾** أي امسحوا وجوهكم وأيديكم بالتراب بضربتين كما وضّحت السنة النبوية **﴿ما يُريد الله ليجعل عليكم من حرج﴾** أي مايُريد بما فرض عليكم من الوضوء والغسل والتيمم تضييقاً عليكم **﴿ولكن يُريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون﴾** أي يطهركم من الذنوب وأدناس الخطايا بالوضوء والتيمم ، وليتم نعمته عليكم ببيان شرائع الإسلام ولتشكروه على نعمه التي لا تحصى **﴿واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا﴾** الخطاب للمؤمنين والنعمةُ هنا الإسلام وما صاروا إليه من اجتماع الكلمة والعزة أي اذكروا يا أيها المؤمنون نعمة الله العظمى عليكم بالإسلام وعهده الذي عاهدكم

(١) الطبري ٩/ ٥٩٠ .

(٢) الكشاف ١/ ٤٧٤ .

وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾

عليه رسوله حين بايعتموه على السمع والطاعة في العسر واليسر ، والمنشط والمكره ﴿**واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور**﴾ أي اتقوا الله فإنه عالم بخفايا نفوسكم فيجازيكم عليها ﴿**يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله**﴾ أي كونوا مبالغين في الإستقامة بشهادتكم لله وصيغة قوّام للمبالغة ﴿**شهداء بالقسط**﴾ أي تشهدون بالعدل ﴿**ولا يجرمنكم شنآن قومٍ على ألاّ تعدلوا**﴾ أي لا يحملنكم شدة بغضكم للأعداء على ترك العدل فيهم والاعتداء عليهم ﴿**إعدلوا هو أقرب للتقوى**﴾ أي العدل مع من تبغضونهم أقرب لتقواكم لله ﴿**واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون**﴾ أي مطلع على أعمالكم ومجازيكم عليها قال الزمخشري : وفي هذا تنبيه عظيم على أن العدل إذا كان واجباً مع الكفار الذين هم أعداء الله وكان بهذه الصفة من القوة ، فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحباؤه[1] ؟ ! ﴿**وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ أي وعد الله المؤمنين المطيعين ﴿**لهم مغفرة وأجر عظيم**﴾ أي لهم في الآخرة مغفرة للذنوب وثواب عظيم وهو الجنة ﴿**والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم**﴾ لما ذكر مآل المؤمنين المتقين وعاقبتهم ذكر مآل الكافرين المجرمين وأنهم في دركات الجحيم دائمون في العذاب قال أبو حيان : وقد جاءت الجملة فعلية بالنسبة للمؤمنين متضمنة الوعد بالماضي الذي هو الدليل على الوقوع ، وفي الكافرين جاءت الجملة إسمية دالة على ثبوت هذا الحكم لهم وأنهم أصحاب النار فهم دائمون في عذاب الجحيم[2] .

* * *

البـلاغـة : ١ ـ ﴿لا تحلوا شعائر الله﴾ فيه استعارة استعار الشعيرة وهي العلامة للمتعبدات التي تعبَّد الله بها العباد من الحلال والحرام .

٢ ـ ﴿ولا القلائد﴾ أي ذوات القلائد وهي من باب عطف الخاص على العام لأنها أشرف الهدي كقوله ﴿من كان عدواً لله وملائكته وجبريل وميكال﴾ .

٣ ـ ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة .

---

(١) الكشاف ١/ ٤٧٦ . (٢) البحر ٣/ ٤٤١ .

٤ - ﴿وطعام الذيـن أوتوا الكتاب﴾ أطلق العام وأراد به الخاص وهو الذبائح .

٥ - ﴿محصنين غير مسافحيـن﴾ بينهما طباق لأن معنى محصنين أي أعفاء ومسافحين أي زناة .

٦ - ﴿إذا قمتـم إلى الصـلاة﴾ أي إذا أردتم القيام إلى الصلاة فعبّر عن إرادة الفعل بالفعل وأقام المسبّب مقام السبب للملابسة بينهما[1] ، وفي الآية إيجاز بالحذف أيضاً أي إذا قمتم إلى الصلاة وأنتـم محدثون .

الفـوائـد : الأولى : يحكى أن أصحاب الكِنْدِيّ - الفيلسوف - قال له أصحابه : أيها الحكيم إعمل لنا مثل هذا القرآن فقال : نعم أعمل مثل بعضه ، فاحتجب أياماً كثيرة ثم خرج فقال : والله ما أقدر ولا يطيق هذا أحد ، إني فتحتُ المصحف فخرجت سورة المائدة فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء ، ونهى عن النكث ، وحلّل تحليلاً عامّاً ، ثم استثنى استثناءً ، ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين ولا يقدر أحدٌ أن يأتي بهذا إلا في مجلدات[2] .

الثانية : جرت سنة الجاهلية على مبدأ العصبية العمياء الذي عبّر عنه الشاعر الجاهلي بقوله :

وهـل أنـا إلا من غُزيّة إن غوتْ ... غـويتُ وأن ترشـد غُزية أرشـد

وجاء الإسلام بهذا المبدأ الإنساني الكريم ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ وشتّان بين المبدأين .

الثالثة : روي أن رجلاً من اليهود جاء إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال يا أمير المؤمنين : آيةٌ في كتابكم تقرءونها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً ! قال أيُّ آية تعني ؟ قال ﴿اليوم أكملتُ لكم دينكم﴾ الآية فقال عمر : والله إني لأعلم اليوم الذي نزلـت على رسـول اللـه ﷺ فيه ، والساعة التي نزلت فيها ، نزلت على رسول الله ﷺ عشية عرفة في يوم جمعة[3] .

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذيـن آمنـوا اذكروا نعمة الله عليكم . . . إلى . . فلا تأس على القوم الفاسقيـن﴾ من آية (١١) إلى نهاية آية (٢٦) .

المنَاسَبَة : لما ذكر تعالى ما شرعه لعباده المؤمنين في هذه السورة الكريمة من الأحكام ، ومن أعظمها بيان الحلال والحرام ، ذكر هنا نعمته عليهم بالهداية إلى الإسلام ودفع الشرور عنهم والآثام ، ثم أعقبه ببيان نعمته تعالى على أهل الكتاب « اليهود والنصارى » وأخذه العهد والميثاق عليهم ولكنهم نقضوا العهد فألزمهم الله العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، ثم دعا الفريقيـن إلى الاهتـداء بنـور القـرآن ، والتمسك بشريعة خاتم المرسلين ، وترك ما هم عليه من ضلالات وأوهام .

---

(١) أفاده الزمخشري في الكشاف ١/ ٤٧٣ . (٢) القرطبي ٦/ ٣١ . (٣) أخرجه الشيخان .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ﴾

اللغة : ﴿نقيباً﴾ النقيب : كبير القوم الذي يبحث عن أحوالهم ومصالحهم فهو كالكفيل عن الجماعة ﴿وعزَّرتموهم﴾ التعزير : التعظيم والتوقير ﴿سواء السبيل﴾ قصد الطريق ووسطه ﴿قاسية﴾ صلبة لا تعي خيراً والقاسية والعاتية بمعنى واحد ﴿خائنة﴾ خيانة ويجوز أن يكون صفة للخائن كما يقال : رجل طاغية وراوية للحديث ﴿فأغرينا﴾ هيجنا وألزمنا مأخوذٌ من الغِراء ، وغَري بالشيء إذا لصق به ﴿فترة﴾ انقطاع ﴿يتيهون﴾ التيه : الحيرة والضياع .

سبب النزول : أراد بنو النضير أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرحى وأن يغدروا به وبأصحابه فأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم . .﴾[1] الآية .

التفسير : ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم﴾ أي اذكروا فضل الله عليكم بحفظه إياكم من أعدائكم ﴿إذ همَّ قومٌ أن يبسطوا إليكم أيديهم﴾ أي يبطشوا بكم بالقتل والإهلاك ﴿فكفَّ أيديهم عنكم﴾ أي عصمكم من شرهم وردَّ أذاهم عنكم ﴿واتقوا الله﴾ بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي فليثقْ المؤمنون بالله فإنه كافيهم وناصرهم ، ثم ذكر تعالى أحوال اليهود وما تنطوي عليه نفوسهم من الخيانة ونقض الميثاق فقال ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل﴾ أي عهدهم المؤكد باليمين ﴿وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً﴾ أي وأمرنا موسى بأن يأخذ اثني عشر نقيباً ـ والنقيبُ كبير القوم القائم بأمورهم ـ من كل سبطٍ نقيبٌ يكون كفيلاً على قومه بالوفاء بالعهد توثقةً عليهم قال الزمخشري : لما استقر بنو إسرائيل بمصر بعد هلاك فرعون أمرهم الله تعالى بالسير إلى «أريحاء» بأرض الشام كان يسكنها الكنعانيون الجبابرة وقال لهم : إني كتبتها لكم داراً وقراراً فجاهدوا من فيها فإني ناصركم ، وأمر موسى بأن يأخذ من كل سِبْطٍ نقيباً فاختار النقباء وسار بهم فلما دنا من أرض كنعان بعثهم يتجسّسون الأخبار فرأوا قوماً أجسامهم عظيمة ولهم قوةٌ وشوكة فهابوهم ورجعوا وحدثوا قومهم وكان موسى قد نهاهم أن يتحدثوا بما يرون فنكثوا الميثاق وتحدثوا إلا إثنين منهم[2] ﴿وقال الله إني معكم﴾ أي ناصركم ومعينكم ﴿لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة﴾ اللام للقسم أي وأقسم لكم يا بني إسرائيل لئن أديتم ما فرضتُ عليكم من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿وآمنتم برسلي وعزرتموهم﴾ أي وصدقتم برسلي ونصرتموهم ومنعتموهم من الأعداء ﴿وأقرضتم اللهَ قرضاً حسناً﴾ أي بالإنفاق في سبيل الخير ابتغاء مرضاة الله ﴿لأكفرنَّ عنكم سيئاتكم﴾ أي لأمحونَّ عنكم ذنوبكم ، وهذا

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٤٩٦ . (٢) الكشاف ١/ ٤٧٨ .

ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١٤﴾

جواب القسم قال البيضاوي : وقد سدَّ مسدَّ جواب الشرط[1] **﴿ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾** أي تجري من تحت غرفها وأشجارها أنهار الماء واللبن والخمر والعسل **﴿فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضلّ سواء السبيل﴾** أي من كفر بعد ذلك الميثاق ، فقد أخطأ الطريق السويّ وضلّ ضلالاً لا شبهة فيه **﴿فبما نقضِهم ميثاقهم لعنّاهم﴾** أي بسبب نقضهم الميثاق طردناهم من رحمتنا **﴿وجعلنا قلوبهم قاسية﴾** أي جافة جافية لا تلين لقبول الإيمان[2] **﴿يحرّفون الكَلِمَ عن مواضعه﴾** قال ابن كثير : تأولوا كتابه ـ التوراة ـ على غير ما أنزله وحملوه على غير مراده وقالوا على الله ما لم يقلْ[3] ، ولا جُرْمَ أعظمُ من الاجتراء على تغيير كلام الله عز وجل **﴿ونسوا حظاً مما ذُكّروا به﴾** أي تركوا نصيباً وافياً مما أُمروا به في التوراة **﴿ولا تزال تطّلع على خائنةٍ منهم إلا قليلاً منهم﴾** أي لا تزال يا محمد تظهر على خيانةٍ منهم بنقض العهود وتدبير المكايد ، فالغدرُ والخيانة عادتُهم وعادةُ أسلافهم إلا قليلاً منهم ممن أسلم **﴿فاعفُ عنهم واصفحْ إن الله يحب المحسنين﴾** أي لا تعاقبهم واصفح عمن أساء منهم ، وهذا منسوخ بآية السيف والجزية كما قال الجمهور **﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم﴾** أي ومن الذين ادعوا أنهم أنصار الله وسمّوا أنفسهم بذلك أخذنا منهم أيضاً الميثاق على توحيد الله والإيمان بمحمد رسول الله **﴿فنسوا حظاً مّما ذُكّروا به﴾** أي فتركوا ما أُمروا به في الإنجيل من الإيمان بالأنبياء ونقضوا الميثاق **﴿فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾** أي ألزمنا وألصقنا بين فِرَق النصارى العداوة والبغضاء إلى قيام الساعة قال ابن كثير : ولا يزالون متباغضين متعادين ، يكفِّر بعضهم بعضاً ، ويلعن بعضهم بعضاً ، وكل فرقةٍ تمنع الأخرى دخول معبدها[4] . . وهكذا نجد الأمم الغربية ـ وهم أبناء دين واحد ـ يتفنّن بعضهم في إهلاك بعض ، فمن مخترعٍ للقنبلة الذرية إلى مخترع للقنبلة الهيدروجينية وهي مواد مدمّرة لا يمكن أن يتصور العقل ما تحدثه من تلفٍ بالغ وهلاك شامل **﴿إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾** ثم قال تعالى **﴿وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾**

---

(١) البيضاوي ص ١٤٧ قال ابن مالك :

واحذف لدى اجتماع شرطٍ وقسم جواب ما أخرت فهو ملتزم

(٢) هذا قول ابن عباس كما في البحر . (٣) مختصر ابن كثير ١/ ٤٩٧ . (٤) مختصر ابن كثير ١/ ٤٩٨ .

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾

تهديد لهم أي سيلقون جزاء عملهم القبيح **﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب﴾** الخطاب لليهود والنصارى أي يا معشر أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا محمد ﷺ بالدين الحق يبيّن لكم الكثير مما كنتم تكتمونه في كتابكم من الإيمان به ، ومن آية الرجم ، ومن قصة أصحاب السبت الذين مسخوا قردة وغير ذلك مما كنتم تخفونه **﴿ويعفو عن كثير﴾** أي يتركه ولا يبيّنه وإنما يبيّن لكم ما فيه حجة على نبوته وشهادة على صدقه ، ولو ذكر كل شيء لفضحكم قال في التسهيل : وفي الآية دليل على صحة نبوته لأنه بيّن ما أخفوه في كتبهم وهو أميٌّ لم يقرأ كتبهم[1] **﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾** أي جاءكم نور هو القرآن لأنه مزيل لظلمات الشرك والشك وهو كتاب مبين ظاهر الإعجاز **﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه سُبُل السلام﴾** أي يهدي بالقرآن من اتبع رضا الله طرق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة **﴿ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه﴾** أي يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان بتوفيقه وإرادته **﴿ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم﴾** هو دين الإسلام ، ثم ذكر تعالى إفراط النصارى في حق عيسى حيث اعتقدوا ألوهيته فقال **﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾** أي جعلوه إلهاً وهم فرقةٌ من النصارى زعموا أن الله حلّ في عيسى ولهذا نجد في كتبهم «وجاء الرب يسوع» وأمثاله ، ويسوع عندهم هو عيسى[2] **﴿قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً﴾** أي قل لهم يا محمد لقد كذبتم فمن الذي يستطيع أن يدفع عذاب الله لو أراد أن يهلك المسيح وأمه وأهل الأرض جميعاً ؟ فعيسى عبد مقهور قابلٌ للفناء كسائر المخلوقات ومن كان كذلك فهو بمعزل عن الألوهية ولو كان إلهاً لقدر على تخليص نفسه من الموت **﴿ولله ملك السموات والأرض وما بينهما﴾** أي من الخلق والعجائب **﴿يخلق ما يشاء﴾** أي هو قادر على أن يخلق ما يريد ولذلك خلق عيسى من غير أب **﴿والله على كل شيء قدير﴾** أي لا يعجزه شيء ، ثم

---

(١) التسهيل ١/ ١٧٢ . (٢) قال أبو حيان : ذكر سبحانه أن من النصارى من قال إن المسيح هو الله ، ومنهم من قال هو ابن الله ، ومنهم من قال هو ثالث ثلاثة ، ومن بعض اعتقاد النصارى استنبط من تستّر بالإسلام ظاهراً وانتمى إلى الصوفية حلول الله في الصور الجميلة ومن ذهب من ملاحدتهم إلى القول بـ « الاتحاد والوحدة » كالحلاج والصفّار وابن اللبّاج وأمثالهم وإنما ذكرتهم نصحاً لدين الله وقد أولع جهلة من ينتمي إلى التصوف بتعظيم هؤلاء وادعائهم أنهم صفوة الله وأولياؤه ، البحر المحيط ٣/ ٤٤٨ .

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ

حكى عن اليهود والنصارى افتراءهم فقال ﴿**وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه**﴾ أي نحن من الله بمنزلة الأبناء من الآباء ونحن أحباؤ ه لأننا على دينه قال ابن كثير : أي نحن منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه وله بهم عناية وهو يحبنا[1] ﴿**قل فلم يعذبكم بذنوبكم**﴾ ؟ أي لو كنتم كما تدَّعون أبناءه وأحباءه فلم أعدَّ لكم نار جهنم على كفركم وافترائكم ؟ ﴿**بل أنتم بشرٌ ممن خلق**﴾ أي أنتم بشر كسائر الناس وهو سبحانه الحاكم في جميع عباده ﴿**يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء**﴾ أي يغفر لمن شاء من عباده ويعذب من شاء لا اعتراض لحكمه ولا رادَّ لأمره ﴿**ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير**﴾ أي الجميع ملكه وتحت قهره وسلطانه وإليه المرجع والمآب ، ثم دعاهم إلى الإيمان بخاتم المرسلين فقال ﴿**يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم على فترةٍ من الرسل**﴾ أي يا معشر اليهود والنصارى لقد جاءكم محمد ﷺ يوضّح لكم شرائع الدين على انقطاع من الرسلِ ودروسٍ من الدين ، وكانت الفترة بين عيسى ومحمد ومدتها خمسمائة وستون سنة لم يُبعث فيها رسول ﴿**أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير**﴾ أي لئلا تحتجوا وتقولوا : ما جاءنا من رسولٍ يبشر بالخير وينذر من الشر ﴿**فقد جاءكم بشير ونذير**﴾ هو محمد ﷺ ﴿**والله على كل شيء قدير**﴾ قال ابن جرير : أي قادرٌ على عقاب من عصاه وثواب من أطاعه ، ثم ذكر تعالى ما عليه اليهود من العناد والجحود فقال ﴿**وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم**﴾ أي اذكر يا محمد حين قال موسى لبني إسرائيل يا قوم تذكّروا نعمة الله العظمى عليكم واشكروه عليها ﴿**إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً**﴾ أي حين بعث فيكم الأنبياء يرشدونكم إلى معالم الدين وجعلكم تعيشون كالملوك لا يغلبكم غالب بعد أن كنتم مملوكين لفرعون مقهورين فأنقذكم منه بإغراقه قال البيضاوي : لم يُبعث في أمةٍ ما بعث في بني إسرائيل من الأنبياء[2] ﴿**وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين**﴾ أي من أنواع الإنعام والإكرام من فلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المنّ والسلوى ونحوها ﴿**يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم**﴾ قال البيضاوي : هي أرض بيت المقدس سميت بذلك لأنها كانت قرار الأنبياء ومسكن المؤ منين[3] ومعنى ﴿**التي كتب الله لكم**﴾

---

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٤٩٩ . (٢) البيضاوي ص ١٤٨ . (٣) البيضاوي ص ١٤٨ .

لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ۖ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾

أي التي وعدكموها على لسان أبيكم اسرائيل وقضى أن تكون لكم **﴿ولا ترتدوا على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين﴾** أي ولا ترجعوا مدبرين خوفاً من الجبابرة قال في التسهيل : روي أنه لما أمرهم موسى بدخول الأرض المقدسة خافوا من الجبارين الذين فيها وهمّوا أن يرجعوا إلى مصر[1] **﴿قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين﴾** أى عظام الأجسام طوال القامة لا قدرة لنا على قتالهم وهم العمالقة من بقايا عاد **﴿وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها﴾** أي لن ندخلها حتى يسلّموها لنا من غير قتال **﴿فإن يخرجوا منها فإنا داخلون﴾** أي لا يمكننا الدخول ما داموا فيها فإن خرجوا منها دخلناها **﴿قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما﴾** أي فلما جبنوا حرضهم رجلان من النقباء ممن يخاف أمر الله ويخشى عقابه وفيهما الصلاح واليقين **﴿ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون﴾** أي قالا لهم لا يهولنكم عِظَم أجسامهم ، فأجسامهم عظيمة وقلوبهم ضعيفة فإذا دخلتم عليهم باب المدينة غلبتموهم بإذن الله **﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾** أي اعتمدوا على الله فإنه ناصركم إن كنتم حقاً مؤمنين **﴿قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنتَ وربك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون﴾** وهذا إفراط في العصيان ومع سوء الأدب بعبارةٍ تقتضي الكفر والاستهانة بالله ورسوله ، وأين هؤلاء من الصحابة الأبرار الذين قالوا لرسول الله ﷺ : لسنا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل ولكن نقول لك اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون ؟ ! **﴿قال ربِّ إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾** أي قال موسى حينذاك معتذراً إلى الله متبرءاً من مقالة السفهاء : يا ربِّ لا أملك قومي ، لا أملك إلا نفسي وأخي هارون فافصل بيننا وبين الخارجين عن طاعتك بحكمك العادل **﴿قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض﴾** استجاب الله دعاءه وعاقبهم في التّيه أربعين سنة والمعنى : قال الله لموسى إن الأرض المقدسة محرم عليهم دخولها مدة أربعين سنة يتيهون في الأرض ولا يهتدون إلى الخروج منها **﴿فلا تأس على القوم الفاسقين﴾** أي لا تحزن عليهم فإنهم فاسقون مستحقون

(١) التسهيل ١ / ١٧٣ .

للعقاب قال في التسهيل : روي أنهم كانوا يسيرون الليل كله فإذا أصبحوا وجدوا أنفسهم في الموضع الذي كانوا فيه[١] .

البَلاَغَة : ١ - ﴿أن يبسطوا إليكم أيديهم﴾ بسط الأيدي كناية عن البطش والفتك ، وكف الأيدي كناية عن المنع والحبس .

٢ - ﴿وبعثنا منهم﴾ فيه التفات عن الغيبة إلى المتكلم ومقتضى الظاهر وبعث وإنما التفت اعتناءً بشأنه .

٣ - ﴿ويخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ فيه استعارة استعار الظلمات للكفر والنور للإيمان .

٤ - ﴿وجعلكم ملوكاً﴾ فيه تشبيه بليغ أي كالملوك في رغد العيش وراحة البال فحذف أداة الشبه ووجه الشبه فأصبح بليغاً .

٥ - الطباق بين ﴿يغفر . . ويعذب﴾ .

٦ - ﴿أنعم الله عليهما﴾ جملة اعتراضية لبيان فضل الله على عباده الصالحين .

الفَوَائِد : **الأولى** : إنما سميت الأرض المقدسة أي المطهرة لسكنى الأنبياء المطهرين فيها فشرفت وطهرت بهم فالظرف طاب بالمظروف .

الثانية : قال بعض العارفين لبعض الفقهاء : أين تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه ؟ فسكت ولم يردّ عليه فتلا عليه هذه الآية ﴿قل فلم يعذبكم بذنوبكم﴾ ففي الآية دليل على أن المحب لا يعذب حبيبه ذكره ابن كثير .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وآتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق . . . إلى . . ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير﴾ من آية (٢٧) إلى نهاية آية (٤٠) .

المنَاسَبَة : لمّا ذكر تعالى تمرد بني إسرائيل وعصيانهم لأمر الله في قتال الجبارين ، ذكر قصة ابني آدم وعصيان « قابيل » أمر الله وإقدامه على قتل النفس البريئة التي حرمها الله ، فاليهود اقتفوا في العصيان أوَّل عاصٍ لله في الأرض ، فطبيعةُ الشر فيهم مستقاةٌ من ولد آدم الأول ، فاشتبهت القصتان من حيث التمرد والعصيان ، ثم ذكر تعالى عقوبة قُطّاع الطريق والسرّاق الخارجين على أمن الدولة والمفسدين في الأرض .

اللغَة : ﴿قرباناً﴾ القُربان ما يُتقرب به إلى الله ﴿تبوء﴾ ترجع يقال : باء إذا رجع إلى المباءة

---

(١) التسهيل ١/ ١٧٤ .

* وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟

وهي المنزل ﴿فطوَّعت﴾ سولَّت وسهَّلت يقال : طاع الشيءُ إذا سهل وانقاد وطوَّعه له أي سهّله ﴿يبحث﴾ يفتش وينقّب ﴿سوأة﴾ السوأة : العورة ﴿يا ويلتا﴾ كلمة تحسر وتلهف قال سيبويه : كلمةٌ تقال عند الهلكة ﴿ينفوا﴾ نفاه : طرده وأصله الإهلاك ومنه النّفاية لرديء المتاع ﴿خزي﴾ الخزي : الفضيحة والذل يقال أخزاه الله أي فضحه وأذله ﴿الوسيلة﴾ كل ما يتوسل به إلى الله ﴿نكالاً﴾ عقوبة .

سَبَبُ النّزول : عن أنس أن رهطاً من عُرينة قدموا على رسول الله ﷺ فاجتووا المدينة ـ استوخموها ـ فبعثهم رسول الله ﷺ إلى إبل الصدقة وأمرهم أن يشربوا من ألبانها وأبوالها ، فلما صحُّوا قتلوا راعي النبي ﷺ واستاقوا النَّعَم فأرسل رسول الله ﷺ في آثارهم فجيء بهم فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسُمِرت أعينهم وألقوا في الحرة حتى ماتوا فنزلت ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله . .﴾[1] الآية .

التّفسِير : ﴿واتلُ عليهم نبأ ابني آدم بالحق﴾ أي اقرأ يا محمد على هؤلاء الحسدة من اليهود وأشباههم خبر « قابيل وهابيل » ابنيْ آدم ملتبسةً بالحق والصِّدق وذكّرهم بهذه القصة فهي قصة حق ﴿إذ قرّبا قرباناً فتُقبِّل من أحدهما ولم يُتقبَّل من الآخر﴾ أي حين قرَّب كلٌ منهما قرباناً فتُقبل من هابيل ولم يُتقبل من قابيل قال المفسرون : سبب هذا القربان أن حوّاء كانت تلد في كل بطن ذكراً وأنثى وكان يزوّج الذكر من هذا البطن الأنثى من البطن الآخر فلما أراد آدم أن يزوّج قابيلَ أخت هابيل ويزوّج هابيل أخت قابيل رضي هابيل وأبى قابيل لأن توأمته كانت أجمل فقال لهما آدم : قرّبا قرباناً فمن أيكما تُقبل تزوجها ، وكان قابيل صاحب زرع فقرَّب أرذل زرعه وكان هابيل صاحب غنم فقرّب أحسن كبش عنده فقبل قربانُ هابيل بأن نزلت نارٌ فأكلته فازداد قابيل حسداً وسخطاً وتوعّده بالقتل[2] ﴿قال لأقتلنك﴾ أي قال قابيل لأخيه هابيل لأقتلنك قال : لمَ ؟ قال لأنه تقبل قربانك ولم يتقبل قرباني قال : وما ذنبي ؟ ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ أي إنما يتقبل ممن اتقى ربه وأخلص نيته قال البيضاوي : توعّده بالقتل لفرط الحسد له على تقبل قربانه فأجابه بأنك أُتيت من قِبَل نفسك بترك التقوى لا من قِبَلي وفيه إشارة إلى أن الطاعة لا تُقبل إلا من مؤمن متّقٍ لله[3] ﴿لئن بسطتَ إليَّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يديَ إليكَ لأقتلك﴾ أي لئن مددتَ إليَّ يدك ظلماً لأجل قتلي ما كنتُ لأقابلك بالمثل قال ابن عباس المعنى : ما أنا بمنتصر لنفسي ﴿إني أخاف الله ربَّ العالمين﴾ أي لا أمدُّ يدي إليك لأني أخاف ربَّ العالمين قال الزمخشري : قيل : كان هابيل أقوى من القاتل ولكنه تحرّج عن قتل أخيه خوفاً من الله[4] ﴿إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار﴾ أي إن قتلتني فذاك أحبُّ إليَّ من أن أقتلك قال أبو حيان : المعنى إن سبق

(١) القرطبي ٦/١٤٨ . (٢) الكشاف ١/ ٤٨٤ والقرطبي ٦/ ١٣٤ . (٣) البيضاوي ص ١٤٩ . (٤) الكشاف ١/ ٤٨٥ .

﴿ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾

بذلك قَدَرٌ فاختياري أن أكون مظلوماً ينتصر الله لي لا ظالماً[1] وقال ابن عباس : المعنى لا أبدؤك بالقتل لترجع بإثم قتلي إن قتلتني ، وإثمك الذي كان منك قبل قتلي فتصير من أهل النار **﴿وذلك جزاء الظالمين﴾** أي عقاب من تعدّى وعصى أمر الله **﴿فطوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين﴾** أي زيّنت له نفسه وسهّلت له قتل أخيه فقتله فخسر وشقي قال ابن عباس : خوّفه بالنار فلم ينته ولم ينزجر **﴿فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه﴾** أي أرسل الله غراباً يحفر بمنقاره ورجله الأرض ليُري القاتل كيف يستر جسد أخيه قال مجاهد : بعث الله غرابين فاقتتلا حتى قتل أحدهما صاحبه ثم حفر له فدفنه ، وكان ابن آدم هذا أول من قُتِل ، وروي أنه لما قتله تركه بالعراء ولم يدر كيف يدفنه حتى رأى الغراب يدفن صاحبه فلما رآه قال **﴿يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي﴾** أي قال قابيل متحسراً يا ويلي ويا هلاكي أضعفتُ أن أكون مثل هذا الطير فأستر جسد أخي في التراب كما فعل هذا الغراب ؟ **﴿فأصبح من النادمين﴾** أي صار نادماً على عدم الاهتداء إلى دفن أخيه لا على قتله قال ابن عباس : ولو كانت ندامته على قتله لكانت الندامة توبةً له[2] **﴿من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض﴾** أي من أجل حادثة « قابيل وهابيل » وبسبب قتله لأخيه ظلماً فرضنا وحكمنا على بني إسرائيل أن من قتل منهم نفساً ظلماً بغير أن يقتل نفساً فيستحق القصاص وبغير فسادٍ يوجب إهدار الدم كالردّة وقطع الطريق **﴿فكأنما قتل الناس جميعاً﴾** أي فكأنه قتل جميع الناس قال البيضاوي : من حيث انه هتك حرمة الدماء وسنَّ القتل وجرأ الناس عليه ، والمقصود منه تعظيم قتل النفس وإحيائها في القلوب ترهيباً عن التعرض لها وترغيباً في المحاماة عليها[3] **﴿ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً﴾** أي ومن تسبَّب لبقاء حياتها واستنقذها من الهَلَكة فكأنه أحيا جميع الناس قال ابن عباس في تفسير الآية : من قتل نفساً واحدةً حرّمها الله فهو مثلُ من قتل الناس جميعاً ومن امتنع عن قتل نفسٍ حرمها الله وصان حرمتها خوفاً من الله فهو كمن أحيا الناس جميعاً[4] **﴿ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات﴾** أي بعدما كتبنا على بني إسرائيل هذا التشديد العظيم وجاءتهم رسلنا بالمعجزات الساطعات والآيات الواضحات **﴿ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في**

(١) البحر ٣/٤٦٣ . (٢) القرطبي ٦/١٤٢ . (٣) البيضاوي ص ١٥١ . (٤) مختصر ابن كثير ١/ ٥٠٩ .

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾

الأرض لمسرفون﴾ أي ثم إنهم بعد تلك الزواجر كلها يسرفون في القتل ولا يبالون بعظمته قال ابن كثير : هذا تقريعٌ لهم وتوبيخ على ارتكابهم المحارم بعد علمهم بها وقال الرازي : إن اليهود مع علمهم بهذه المبالغة العظيمة أقدموا على قتل الأنبياء والرسل وذلك يدل على غاية قساوة قلوبهم ونهاية بعدهم عن طاعة الله تعالى ، ولما كان الغرض من ذكر هذه القصص تسلية الرسول ﷺ لأنهم عزموا على الفتك به وبأصحابه كان تخصيص بني إسرائيل بهذه المبالغة العظيمة مناسباً للكلام ومؤكداً للمقصود[1] ، ثم ذكر تعالى عقوبة قُطّاع الطريق فقال **﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله﴾** أي يحاربون شريعة الله ودينه وأولياءه ويحاربون رسوله **﴿ويسعون في الأرض فساداً﴾** أي يفسدون في الأرض بالمعاصي وسفك الدماء **﴿أن يُقتَّلوا﴾** أي يُقتلوا جزاء بغيهم **﴿أو يُصلَّبوا﴾** أي يُقتلوا ويُصلبوا زجراً لغيرهم ، والصيغةُ للتكثير **﴿أو تُقطَّع أيديهم وأرجلهم من خلاف﴾** معناه أن تُقطع أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى **﴿أو يُنفوا من الأرض﴾** أي يُطردوا ويُبعدوا من بلدٍ إلى بلد آخر[2] **﴿ذلك لهم خزيٌ في الدنيا﴾** أي ذلك الجزاء المذكور ذلٌ لهم وفضيحة في الدنيا **﴿ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾** هو عذاب النار ، قال بعض العلماء : الإمام بالخيار إن شاء قتل ، وإن شاء صلب ، وإن شاء قطع الأيدي والأرجل ، وإن شاء نفى وهو مذهب مالك . وقال ابن عباس : لكلّ رتبةٍ من الحِرَابة رتبةٌ من العقاب فمن قَتَل قُتِل ، ومن قتل وأخذ المال قُتل وصُلب ، ومن اقتصر على أخذ المال قطعت يده ورجله من خلاف ، ومن أخاف فقط نُفي من الأرض ، وهذا قول الجمهور[3] **﴿إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم﴾** أي لكن الذين تابوا من المحاربين وقُطّاع الطريق قبل القدرة على أخذهم وعقوبتهم **﴿فاعلموا أن الله غفور رحيم﴾** أي واسع المغفرة والرحمة لمن تاب وأناب يقبل توبته ويغفر زلّته ، ثم أمر تعالى المؤمنين بالتقوى والعمل الصالح فقال **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة﴾** أي خافوا عقابه واطلبوا ما يقربكم إليه من طاعته وعبادته قال قتادة : تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه **﴿وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون﴾** أي جاهدوا لإعلاء دينه لتفوزوا بنعيم الأبد **﴿إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه﴾** أي لو كان لكل كافر جميع ما في الأرض من خيرات وأموال ومثله معه **﴿ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تُقبل منهم**

---

(١) التفسير الكبير ١١/ ٢١١ . (٢) قال الشافعي : النفي من بلدٍ إلى بلد لا يزال يطلب وهو هاربٌ فزعاً وقال أبو حنيفة : النفيُ السجنُ واختار ابن جرير أن المراد بالنفي ههنا أن يخرج من بلده إلى بلد آخر فيسجن فيه . (٣) الفخر الرازي ١١/ ٢١٥ .

جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾

﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي وأراد أن يفتدي بها نفسه من عذاب الله ما نفعه ذلك وله عذاب مؤلم موجع ﴿يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم﴾ أي دائم لا ينقطع وفي الحديث (يُجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له : أرأيتَ لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكنتَ تفتدي به ؟ فيقول نعم فيقال له : قد كنتَ سُئلتَ ما هو أيسرُ من ذلك ألاّ تشرك بي فأبيت فيؤمر به إلى النار)[1] ثم ذكر تعالى عقوبة السارق فقال ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾ أي كل من سرق رجلاً كان أو امرأة فاقطعوا يده ﴿جزاءً بما كسبا﴾ أي مجازاة لهما على فعلهما القبيح ﴿نكالاً من الله﴾ أي عقوبة من الله ﴿والله عزيز حكيم﴾ أي حكيم في شرعه فلا يأمر بقطع اليد ظلماً ﴿فمن تاب من بعد ظلمه﴾ أي رجع عن السرقة ﴿وأصلح﴾ أي أصلح سيرته وعمله ﴿فإن الله يتوب عليه﴾ أي يقبل توبته فلا يعذبه في الآخرة ﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي مبالغ في المغفرة والرحمة ، ثم نبّه تعالى على واسع ملكه وأنه لا معقّب لحكمه فقال ﴿ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض﴾ أي ألم تعلم أيها المخاطب أن الله تعالى له السلطان القاهر والملك الباهر وبيده ملكوت السموات والأرض والاستفهام للتقرير ﴿يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير﴾ أي يعذّب من يشاء تعذيبه ويغفر لمن يشاء غفران ذنبه وهو القادر على كل شيء الذي لا يعجزه شيء .

البَـلاَغَـة : ١ - الطباق بين كلمة ﴿قتل . . وأحيا﴾ وهو من المحسنات البديعية وكذلك بين ﴿يعذب . . ويغفر﴾ .

٢ - ﴿يحاربون الله﴾ هو على حذف مضاف أي يحاربون أولياء الله لأن الله لا يُحارب ولا يُغالب فالكلام على سبيل المجاز .

٣ - الاستعارة ﴿ومن أحياها﴾ لأن المراد استبقاها ولم يتعرض لقتلها ، وإحياء النفس بعد موتها لا يقدر عليه إلا الله تعالى .

٤ - ﴿لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به﴾ قال الزمخشري : هذا تمثيلٌ للزوم العذاب لهم وأنه لا سبيل لهم إلى النجاة منه بوجهٍ من الوجوه[2] .

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق . (٢) الكشاف ١/ ٤٨٨ .

٥ ـ طباق السلب ﴿لئن بسطت . . ما أنا بباسط يدي﴾ .

الفــوَائِــد : الأولى : النفي من الأرض كما يكون بالطرد والإبعاد يكون بالحبس ولهذا قال مالك رحمه الله : النفيُ : السجنُ ينفى من سعة الدنيا إلى ضيقها قال الشاعر وهو في السجن :

خرجنا عن الدنيا وعن وصـل أهلها ... فلسنـا من الأحيا ولسنـا من الموتى
إذا جاءنـا السّجـان يومـاً لحاجةٍ ... عجبنا وقلنا : جاء هذا من الدنيا[٢]

الثانية : السرُّ في تقديم السارق على السارقة هنا وتقديم الزانية على الزاني في قوله ﴿الزانية والزاني فاجلدوا﴾ أن الرجل على السرقة أجرأ ، والزنى من المرأة أشنع وأقبح فناسب ذكر كلٍ منهما المقام .

الثالثة : قال الأصمعي : قرأتُ يوماً هذه الآية ﴿والسارق والسارقة﴾ وإلى جنبي أعرابي فقلت ﴿والله غفور رحيم﴾ سهواً فقال الأعرابي : كلامُ من هذا ؟ قلت : كلام الله قال : ليس هذا بكلام الله أعِدْ فأعدت وتنبهتُ فقلت ﴿والله عزيز حكيم﴾ فقال : نعم هذا كلام الله فقلت : أتقرأ القرآن ؟ قال : لا. قلت : فمن أين علمتَ أني أخطأتُ ؟ فقال يا هذا : عزَّ فحكم فقطع ، ولو غفر ورحم لما قطع[٣] .

الرابعة : اعترض بعض الملحدين على الشريعة الغراء في قطع يد السارق بالقليل من المال ونظم ذلك شعراً فقال :

يدٌ بخمسِ مئـين عسجـدٍ وُديتْ ... مـا بالهُـا قُطعـتْ في رُبْـع دينار ؟
تحـكّمٌ مالنـا إلا السـكوتُ له ... وأن نعـوذَ بمولانـا من النّار

فأجابه بعض العلماء بقوله :

عزُّ الأمانـة أغـلاهـا وأرخصَها ... ذلُّ الخيانـةِ فافهـم حكمـةَ البـاري

أي لمّا كانت أمينة كانت ثمينة ، فلما خانت هانت ، ويا له من قول سديد .

« كلمة وجيزة حول قطع يد السارق »

يعيب بعض الغربيين على الشريعة الإسلامية قطع يد السارق ويزعمون أن هذه العقوبة صارمة لا تليق بمجتمع متحضر ويقولون : يكفي في عقوبته السجن ردعاً له ، وكان من أثر هذه الفلسفة التي لا تستند على منطقٍ سليم أن زادت الجرائم وكثرت العصابات وأصبحت السجون ممتلئة بالمجرمين وقطاع الطريق الذين يهدّدون الأمن والاستقرار ، يسرق السارق وهو آمن مطمئن لا يخشى شيئاً اللهم إلا ذلك السجن الذي يُطعم ويُكسى فيه فيقضي مدة العقوبة التي فرضها عليه القانون الوضعي ثم يخرج منه وهو إلى الإجرام أميل وعلى الشر أقدر ، يؤكد هذا ما نقرؤه ونسمعه عن تعداد الجرائم وزيادتها يوماً بعد يوم ،

(١) الفخر الرازي ١١/ ٢١٦ . (٢) زاد المسير لابن الجوزي ٢/ ٣٥٤ .

وذلك لقصور العقل البشري عن الوصول إلى الدواء الناجع والشفاء النافع لمعالجة مثل هذه الأمراض الخطيرة ، أما الإسلام فقد استطاع أن يقتلع الشر من جذوره ويدٌ واحدة تقطع كافية لردع المجرمين فيا له من تشريع حكيم ! !

* * *

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر . . إلى . . ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون﴾ من آية (٤١) إلى نهاية آية (٥٠) .

المناسبة : لما ذكر تعالى قصة ابني آدم وإقدام الأخ على قتل أخيه بسبب البغي والحسد وذكر أحكام الحرابة والسرقة ، أعقبه بذكر أمر المنافقين وأمر اليهود في حسدهم للنبي ﷺ وتربصهم به وبأصحابه الدوائر ، وأمر رسوله ﷺ ألا يحزن لما يناله من أذى من أعداء الإنسانية فالله سيعصمه من شرهم ، وينجيه من مكرهم ، ثم ذكر ما أنزل الله من أحكام نورانية في شريعة التوراة .

اللغة : ﴿يحزنك﴾ الحُزْن والحَزَن خلاف السرور ﴿السحت﴾ : الحرام سمي بذلك لأنه يسحتُ الطاعات أي يذهبها ويستأصلها وأصل السحت : الهلاك قال تعالى ﴿فيُسحِتكم بعذاب﴾ أي يستأصلكم ويهلككم ﴿الأحبار﴾ جمع حَبْر وهو العالم مأخوذ من التحبير وهو التحسين ﴿وقفينا﴾ أتبعنا ﴿مهيمناً﴾ المهيمن : الرقيب على الشيء الحافظ له ، من هيمن عليه أي راقبه ويأتي بمعنى العالي والمرتفع على الشيء[1] ﴿شرعة﴾ الشِّرعة : السُّنَّة والطريقة يقال : شرع لهم أي سنَّ لهم ﴿منهاجاً﴾ المنهاج : الطريق الواضح

سَبَبُ النّزول : عن البراء بن عازب قال : مُرَّ على النبي ﷺ بيهودي محمَّماً مجلوداً فدعاهم فقال : هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم ؟ قالوا نعم فدعا رجلاً من علمائهم فقال : أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم ؟ قال : لا ، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك ، نجده الرجم ولكنه كثر في أشرافنا فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد فقلنا : تعالوا فلنجتمعْ على شيء نقيمه على الشريف والوضيع فاجتمعنا على التحميم والجلد مكان الرجم فقال رسول الله ﷺ : اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه فأمر به فرجم فأنزل الله ﴿يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ إلى قوله ﴿إن أوتيتم هذا فخذوه﴾ يقولون : ائتوا محمداً فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا[2] .

* يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ

التفسير : ﴿يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ الخطاب للرسول ﷺ على وجه التسلية أي لا تتأثر يا محمد ولا تحزن لصنيع الذين يتسابقون نحو الكفر ويقعون فيه بسرعة ﴿من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قُلُوبهُم﴾ أي من المنافقين الذين لم يُجاوز الإيمان أفواههم يقولون

(١) القرطبي ٦/ ٢١٠ . (٢) رواه مسلم .

وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا

بألسنتهم آمنا وقلوبهم كافرة ﴿ومن الذين هادوا﴾ أي ومن اليهود ﴿سمّاعون للكذب﴾ أي هم مبالغون في سماع الأكاذيب والأباطيل وفي قبول ما يفتريه أحبارهم من الكذب على الله وتحريف كتابه ﴿سمّاعون لقومٍ آخرين لم يأتوك﴾ أي مبالغون في قبول كلام قومٍ آخرين لم يحضروا مجلسك تكبراً وإفراطاً في العداوة والبغضاء وهم يهود خيبر ، والسماعون للكذب بنو قريظة ﴿يحرّفون الكلِم من بعد مواضعه﴾ أي يُزيلونه ويُميلونه عن مواضعه بعد أن وضعه الله تعالى فيها والمراد تحريف أحكام الله وتغييرها بأحكام أخرى قال ابن عباس : هي حدود الله في التوراة غيروا الرجم بالجلد والتحميم[١] - يعني تسويد الوجه - ﴿يقولون إن أُوتيتم هذا فخذوه وإن لم تُؤْتوه فاحذروا﴾ أي إن أمركم محمد بالجلد فاقبلوا وإن أمركم بالرجم فلا تقبلوا قال تعالى ردّاً عليهم ﴿ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً﴾ أي ومن يرد الله كفره وضلالته فلن يقدر أحدٌ على دفع ذلك عنه ﴿أولئك الذين لم يرد الله أن يطهّر قلوبهم﴾ أي لم يرد الله أن يطهّر قلوبهم من رجس الكفر وخبث الضلالة لقبح صنيعهم وسوء اختيارهم ﴿لهم في الدنيا خزي﴾ أي ذلٌ وفضيحة ﴿ولهم في الآخرة عذابٌ عظيم﴾ هو الخلود في نار جهنم قال أبو حيان : والآية جاءت تسلية للرسول ﷺ وتخفيفاً عنه من ثقل حزنه على مسارعتهم في الكفر وقطعاً لرجائه من فلاحهم[٢] ﴿سمّاعون للكذب﴾ أي الباطل كرره تأكيداً وتفخيماً ﴿أكّالون للسحت﴾ أي الحرام من الرشوة والربا وشبه ذلك ﴿فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرضْ عنهم﴾ أي إن تحاكموا إليك يا محمد فيما شجر بينهم من الخصومات فأنت مخير بين أن تحكم بينهم وبين أن تُعرض عنهم قال ابن كثير : أي إن جاءوك يتحاكمون إليك فلا عليك ألا تحكم بينهم لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباع الحق بل ما يوافق أهواءهم[٣] ﴿وإنْ تُعْرضْ عنهم فلن يضروك شيئاً﴾ أي لأن الله عاصمك وحافظك من الناس ﴿وإن حكمتَ فاحكمْ بينهم بالقِسْط إن الله يحبُّ المقسطين﴾ أي فاحكم بينهم بالعدل والحق وإن كانوا ظلمةً خارجين عن طريق العدل لأن الله يحب العادلين ، ثم قال تعالى منكراً عليهم مخالفتهم لأحكام التوراة ﴿وكيف يحكّمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله﴾ أي كيف يحكّمك يا محمد هؤلاء اليهود ويرضون بحكمك

(١) البحر ٣/ ٤٨٨ . (٢) البحر ٣/ ٤٨٨ . (٣) مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٥١٩ .

حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ

وعندهم التوراة فيها حكم الله يرونه ولا يعملون به ؟ قال الرازي : هذا تعجيبٌ من الله تعالى لنبيه ﷺ بتحكيم اليهود إيّاه بعد علمهم بما في التوراة من حد الزاني ثم تركهم قبول ذلك الحكم ، فعدلوا عما يعتقدونه حكماً حقاً إلى ما يعتقدونه باطلاً طلباً للرخصة فظهر بذلك جهلهم وعنادهم[1] ﴿ثم يتولون من بعد ذلك﴾ أي يعرضون عن حكمك الموافق لكتابهم بعد أن وضح لهم الحق وبان ﴿وما أولئك بالمؤمنين﴾ أي ليسوا بمؤمنين لأنهم لا يؤمنون بكتابهم « التوراة » لإعراضهم عنه وعن حكمك الموافق لما فيه قال في التسهيل : وهذا إلزامٌ لهم لأن من خالف كتاب الله وبدّله فدعواه الإيمان باطلة[2] ، ثم مدح تعالى التوراة بأنها نور وضياء فقال ﴿إنّا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور﴾ أي أنزلنا التوراة على موسى فيها بيانٌ واضح ونور ساطع يكشف ما اشتبه من الأحكام ﴿يحكم بها النبيّون الذين أسلموا﴾ أي يحكم بالتوراة أنبياء بني إسرائيل الذين انقادوا لحكم الله ﴿للذين هادوا﴾ أي يحكمون بالتوراة لليهود لا يخرجون عن حكمها ولا يُبدّلونها ولا يُحرّفونها ﴿والربّانيون والأحبار﴾ أي العلماء منهم والفقهاء ﴿بما استحفظوا من كتاب الله﴾ أي بسبب أمر الله إياهم بحفظ كتابه من التحريف والتضييع ﴿وكانوا عليه شهداء﴾ أي رقباء لئلا يُبدّل ويُغيّر ﴿فلا تخشوا الناس واخشون﴾ أي لا تخافوا يا علماء اليهود الناس في إظهار ما عندكم من نعت محمد ﷺ والرجم بل خافوا مني في كتمان ذلك ﴿ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾ أي ولا تستبدلوا بآياتي حطام الدنيا الفاني من الرشوة والجاه والعرَض الخسيس ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ أي من لم يحكم بشرع الله كائناً من كان فقد كفر وقال الزمخشري : ومن لم يحكم بما أنزل الله مستهيناً به فأولئك هم الكافرون والظالمون والفاسقون وصفٌ لهم بالعتوّ في كفرهم حين ظلموا آيات الله بالاستهزاء والاستهانة وتمرّدوا بأن حكموا بغيرها[3] قال أبو حيان : والآية وإن كان الظاهر من سياقها أن الخطاب فيها لليهود إلا أنها عامة في اليهود وغيرهم[4] . . وكل آية وردت في الكفار تجرٌّ بذيلها على عصاة المؤمنين ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس﴾ أي فرضنا على اليهود في التوراة أن النفس تُقتل بالنفس ﴿والعين بالعين﴾ أي تُفقأ بالعين إذا فقئت بدون حق ﴿والأنف بالأنف﴾ أي يُجدع بالأنف إذا قطع ظلماً ﴿والأذن بالأذن﴾ أي تقطع بالأذن ﴿والسنّ بالسنّ﴾ أي يقلع بالسنّ ﴿والجروح قصاص﴾ أي يُقتص من جانيها بأن يُفعل به مثل ما فعله بالمجني عليه وهذا في الجراح التي

---

(١) الفخر الرازي ١١/ ٢٣٦ . (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ١/ ١٧٨ . (٣) الكشاف ١/ ٤٩٦ . (٤) البحر ٣/ ٤٩٢ .

قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟

يمكن فيها المماثلة ولا يُخاف على النفس منها ﴿**فمَن تصدَّق به فهو كفارةٌ له**﴾ قال ابن عباس : أي فمن عفا عن الجاني وتصدَّق عليه فهو كفارةٌ للمطلوب وأجرٌ للطالب[١] وقال الطبري : من تصدَّق من أصحاب الحق وعفا فهو كفارة له أي للمتصدِّق ويكفِّر الله ذنوبه لعفوه وإسقاطه حقه[٢] ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون**﴾ أي المبالغون في الظلم لمخالفة شرع الله ﴿**وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة**﴾ أي أتبعنا على آثار النبيّين بعيسى بن مريم وأرسلناه عقيبهم مصدقاً لما تقدّمه من التوراة ﴿**وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور**﴾ أي أنزلنا عليه الإنجيل فيه هدى إلى الحق ونور يُستضاء به في إزالة الشبهات ﴿**ومصدقاً لما بين يديه من التوراة**﴾ أي مُعترفاً بأنها من عند الله ، والتكرير لزيادة التقرير ﴿**وهُدى وموعظةً للمتقين**﴾ أي وهادياً وواعظاً للمتقين ﴿**وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه**﴾ أي وآتينا عيسى بن مريم الإنجيل وأمرناه وأتباعه بالحكم به ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون**﴾ أي المتمردون الخارجون عن الإيمان وطاعة الله ﴿**وأنزلنا إليك الكتاب بالحق**﴾ أي وأنزلنا إليك يا محمد القرآن بالعدل والصدق الذي لا ريب فيه ﴿**مصدقاً لما بين يديه من الكتاب**﴾ أي مصدّقاً للكتب السماوية التي سبقته ﴿**ومُهيمناً عليه**﴾ أي مؤتمناً عليه وحاكماً على ما قبله من الكتب قال الزمخشري : أي رقيباً على سائر الكتب لأنه يشهد لها بالصحة والثبات[٣] قال ابن كثير : اسم المهيمن يتضمن ذلك فهو أمينٌ وشاهد وحاكم على كل كتابٍ قبله جمع الله فيه محاسن ما قبله وزاده من الكمالات ما ليس في غيره[٤] ﴿**فاحكم بينهم بما أنزل الله**﴾ أي فاحكم يا محمد بين الناس بما أنزل الله إليك في هذا الكتاب العظيم ﴿**ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق**﴾ أي لا توافقهم على أغراضهم الفاسدة عادلاً عمّا جاءك في هذا القرآن قال ابن كثير : أي لا تنصرفْ عن الحق الذي أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء من الجهلة الأشقياء[٥] ﴿**لكلٍ جعلنا منكم شِرْعة ومنهاجاً**﴾ أي لكل أمةٍ جعلنا شريعة وطريقاً بيناً واضحاً **خاصاً بتلك**

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٥٢٢ . (٢) الطبري ١٠/ ٣٦٩ . (٣) الكشاف ١/ ٤٩٧ . (٤) مختصر ابن كثير ١/ ٥٢٤ .
(٥) ابن كثير المختصر ١/ ٥٢٤ .

ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

الأمة قال أبو حيان : لليهود شرعةٌ ومنهاج وللنصارى كذلك والمراد في الأحكام وأما المعتقد فواحدٌ لجميع الناس توحيدٌ وإيمان بالرسل وجميع الكتب وما تضمنته من المعاد والجزاء[1] ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾ أي لو أراد الله لجمع الناس كلهم على دين واحد وشريعة واحدة لا ينسخ شيءٌ منها الآخر ﴿ولكنْ ليبلوكم فيما آتاكم﴾ أي شرع الشرائع مختلفة ليختبر العباد هل يذعنون لحكم الله أم يُعرضون ، فخالف بين الشرائع لينظر المطيع من العاصي ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ أي فسارعوا إلى ما هو خيرٌ لكم من طاعة الله واتباع شرعه ﴿إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ أي معادكم ومصيركم أيها الناس إلى الله يوم القيامة فيخبركم بما اختلفتم فيه من أمر الدين ويجازيكم بأعمالكم ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم﴾ أي أحكم بين أهل الكتاب بهذا القرآن ولا تتّبع أهواءهم الزائفة ﴿واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾ أي احذر هؤلاء الأعداء أن يصرفوك عن شريعة الله فإنهم كذَبَةٌ كفرةٌ خونة ﴿فإن تولَّوا فاعلم أنما يريد الله أن يُصيبهم ببعض ذُنوبهم﴾ أي فإن أعرضوا عن الحكم بما أنزل الله وأرادوا غيره فاعلم يا محمد أنما يريد الله أن يعاقبهم ببعض إجرامهم ﴿وإن كثيراً من الناس لفاسقون﴾ أي أكثر الناس خارجون عن طاعة ربهم مخالفون للحق منهمكون في المعاصي ﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والمعنى أيتولون عن حكمك ويبتغون غير حكم الله وهو حكم الجاهلية ؟ ﴿ومن أحسنُ من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ أي ومن أعدل من الله في حكمه ، وأصدقُ في بيانه ، وأحكم في تشريعه لقوم يصدّقون بالعليّ الحكيم ! !

البَلاَغَة : ١ ـ ﴿يا أيها الرسول﴾ الخطاب بلفظ الرسالة للتشريف والتعظيم .

٢ ـ ﴿يسارعون في الكفر﴾ إيثار كلمة « في » على كلمة « إلى » للإيماء إلى أنهم مستقرون في الكفر لا يبرحونه وإنما ينتقلون بالمسارعة عن بعض فنونه إلى بعضٍ آخر[2] .

٣ ـ ﴿سمّاعون للكذب﴾ صيغة فعّال للمبالغة أي مبالغون في سماع الكذب .

٤ ـ ﴿لهم في الدنيا خزيٌ﴾ تنكير الخزي للتفخيم وتكرير لهم ﴿ولهم في الآخرة﴾ لزيادة التقرير والتأكيد وبين كلمتي « الدنيا والآخرة » طباقٌ .

٥ ـ ﴿وكيف يحكّمونك﴾ تعجيبٌ من تحكيمهم لرسول الله ﷺ وهم لا يؤمنون به ولا بكتابه .

---

(١) البحر ٣/٥٠٢ . (٢) أبو السعود ٢/٢٧ .

٦ - ﴿وما أولئك بالمؤمنين﴾ الإشارة بالبعيد للإيذان ببعد درجتهم في العتو والمكابرة .

٧ - ﴿فلا تخشوا الناس﴾ خطابٌ لرؤساء اليهود وعلمائهم بطريق الإلتفات والأصل « فلا يخشوا » .

٨ - ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ أي بادروا فعل الخيرات وفيه استعارة حيث شبهه بالمتسابقين على ظهور الخيل إذ كل واحد ينافس صاحبه في السبق لبلوغ الغاية المقصودة[١] .

الفَـوَائِـد : قال الفخر الرازي : خاطب الله محمداً ﷺ بقوله ﴿يا أيها النبي﴾ في مواضع كثيرة وما خاطبه بقوله ﴿يا أيها الرسول﴾ إلا في موضعين أحدهما ﴿يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ والثاني في هذه السورة أيضاً وهو قوله ﴿يا أيها الرسول بلّغْ ما أُنزل إليك﴾ وهذا الخطاب لا شك أنه خطاب تشريف وتعظيم[٢] .

تـنبيـه : يقول شهيد الإسلام « سيد قطب » طيَّب الله ثراه في تفسير الظلال ما نصه « إن الجاهلية في ضوء هذا النص القرآني البليغ ﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾ هي حكم البشر للبشر وعبودية البشر للبشر ورفض أُلوهية الله والخروج من عبوديته إلى عبودية غير الله ، إنه مفرق الطريق فإما حكم الله ، وإما حكم الجاهلية ولا وسط ولا بديل ، إما أن تنفّذ شريعة الله في حياة الناس أو ينفّذ حكم الجاهلية وشريعة الهوى ومنهج العبودية لغير الله ، والجاهلية ليست فترة من الزمان ولكنها وضع من الأوضاعِ يوجد بالأمس واليوم وغداً والناسُ إما أنهم يحكمون بشريعة الله ويقبلونها ويسلمون بها تسليماً فهم إذاً مسلمون وإما أنهم يحكمون بشريعة من صنع البشر فهم في جاهلية وهم خارجون عن شريعة الله »[٣] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء . . إلى . . وكثير منهم ساء ما يعملون﴾
من آية (٥١) إلى نهاية آية (٦٦)

المُنَاسَبَة : لما حكى تعالى عن أهل الكتاب أنهم تركوا العمل بالتوراة والإنجيل وحكم عليهم بالكفر والظلم والفسوق ، حذّر تعالى في هذه الآيات من موالاة اليهود والنصارى ، ثم عدّد جرائم اليهود وما اتهموا به الذات الإلهية المقدسة من شنيع الأقوال وقبيح الفعال .

اللغَـة : ﴿دائرة﴾ واحدة الدوائر وهي صروف الدهر ونوازله قال الراجز :

تردُّ عنكَ القَدَرَ المَقْدُورَا ودائـرتِ الـدَّهـر أنْ تَدُورا[٤]

﴿حبطت﴾ بطلت وذهبت ﴿تنقمون﴾ تنكرون وتعيبون ﴿السحت﴾ الحرام وقد تقدم ﴿مغلولة﴾ مقبوضة والغلُّ : القيد يوضع في اليد وهو كناية عن البخل ، وغلّه وضع القيد في يده ﴿أطفأها﴾ الإطفاء : الإخماد حتى لا يبقى هناك أثر ﴿مقتصدة﴾ أي عادلة غير متغالية من القصد وهو الاعتدال .

(١) تلخيص البيان ص ٣١ . (٢) الفخر الرازي ١١/ ٢٣١ . (٣) ظلال القرآن ٦/ ١٨٣ بإيجاز . (٤) الطبري ١٠/ ٤٠٤ .

سَبَبُ النّزول : ا ـ عن ابن عباس قال : كان « رفاعةُ بن زيد » و« سُوَيْد بن الحارث » قد أظهرا الإسلام ثم نافقا ، وكان رجال من المسلمين يوادونهما فأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هُزُواً ولعباً . . .﴾[1] الآية .

ب ـ عن ابن عباس قال : جاء نفرٌ من اليهود إلى النبي ﷺ فسألوه عمن يؤمن به من الرسل عليهم السلام ، فقال : أومن بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل إلى قوله « ونحن له مسلمون » فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته وقالوا : والله ما نعلم أهل دينٍ أقلَّ حظاً في الدنيا والآخرة منكم ، ولا ديناً شراً من دينكم فأنزل الله ﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله﴾[2] الآية .

* يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ

التفسِير : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾ نهى تعالى المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى ينصرونهم ويستنصرون بهم ويصافونهم ويعاشرونهم معاشرة المؤمنين[3] ﴿بعضهم أولياء بعض﴾ أي هم يدٌ واحدة على المسلمين لاتحادهم في الكفر والضلال ، وملةُ الكفر واحدةٌ ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾ أي من جملتهم وحكمُه حكمُهم قال الزمخشري : وهذا تغليظٌ من الله وتشديدٌ في مجانبة المخالف في الدين واعتزاله كما قال ﷺ (لا تراءى نارهما)[4] ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي لا يهديهم إلى الإيمان ﴿فترى الذين في قلوبهم مرضٌ يسارعون فيهم﴾ أي شك ونفاق كعبد الله بن أُبيّ وأصحابه يسارعون في مُوالاتهم ومُعاونتهم ﴿يقولون نخشى أن تُصيبنا دائرة﴾ أي يقولون معتذرين عن موالاة الكافرين نخاف حوادث الدهر وشروره أن يظفر اليهود بالمسلمين فلا يتم الأمر لمحمد قال تعالى رداً على مزاعمهم الفاسدة ﴿فعسى الله أن يأتي بالفتح﴾ يعني فتح مكة[5] وهذه بشارة للنبي ﷺ والمؤمنين بوعده تعالى بالفتح والنصرة ﴿أو أمر من عنده﴾ أي يُهلكهم بأمرٍ من عنده لا يكون فيه تسبّبٌ لمخلوق كإلقاء الرعب في قُلوبهم كما فعل ببني النضير ﴿فيُصبحوا على ما أسرّوا في أنفسهم نادمين﴾ أي يصير المنافقون نادمين على ما كان منهم من موالاة أعداء الله من اليهود والنصارى ﴿ويقول الذين آمنوا﴾ أي يقول المؤمنون تعجباً من حال المنافقين إذا هتك الله سترهم ﴿أهؤلاء الذين أقسموا بالله جَهْد أيمانهم إنهم لمعكم﴾ أي حلفوا لكم يا معشر اليهود بأغلظ الأيمان إنهم لمعكم

(١) أسباب النزول للواحدي ص ١١٤ . (٢) القرطبي ٦/ ٢٣٣ ومجمع البيان ٣/ ٢١٤ . (٣) البحر ٣/ ٥٠٧ .
(٤) الكشاف ١/ ٤٩٩ . (٥) هذا قول السدي وقال ابن عباس : هو ظهور النبي ﷺ والمسلمين على جميع الخلق بانتصاره عليهم .

خَـٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ

بالنصرة والمعونة كما حكى تعالى عنهم ﴿وإن قوتلتم لننصرنكم﴾ ﴿حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين﴾ أي بطلت أعمالهم بنفاقهم فصاروا خاسرين في الدنيا والآخرة ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتدَّ منكم عن دينه﴾ خطابٌ على وجه التحذير والوعيد والمعنى : يا معشر المؤمنين من يرجع منكم عن دينه الحق ويبدّله بدينٍ آخر ويرجع عن الإيمان إلى الكفر[1] ﴿فسوف يأتي الله بقومٍ يحبُّهم ويحبونه﴾ أي فسوف يأتي الله مكانهم بأناسٍ مؤمنين يحبّهم الله ويحبّون الله ﴿أذلةٍ على المؤمنين أعزّة على الكافرين﴾ أي رحماء متواضعين للمؤمنين أشداء متعززين على الكافرين قال ابن كثير : وهذه صفاتُ المؤمنين الكُمَّل أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه متعززاً على عدوّه[2] كقوله تعالى ﴿أشداء على الكفّار رحماء بينهم﴾ ومن علامة حب الله تعالى للمؤمن أن يكون ليّن الجانب متواضعاً لإخوانه المؤمنين متسربلاً بالعزّة حيال الكافرين والمنافقين ﴿يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾ أي يجاهدون لإعلاء كلمة الله ولا يبالون بمن لامهم فهم صلاب في دين الله لا يخافون في ذات الله أحداً ﴿ذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء﴾ أي من اتصف بهذه الأوصاف الحميدة فإنما هو من فضل الله عليه وتوفيقه له ﴿والله واسعٌ عليم﴾ أي واسع الإفضال والإحسان عليمٌ بمن يستحق ذلك ، ثمّ لما نهاهم تعالى عن موالاة الكفرة ذكر هنا من هم حقيقون بالموالاة فقال ﴿إنما وليُّكم اللهُ ورسولهُ والذين آمنوا﴾ أي ليس اليهود والنصارى بأوليائكم إنما أولياؤكم الله ورسوله والمؤمنون ﴿الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾ أي المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف الجليلة من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وهم خاشعون متواضعون لله عز وجل قال في التسهيل : ذكر تعالى الوليّ بلفظ المفرد إفراداً لله تعالى بها ، ثم عطف على اسمه تعالى الرسول ﷺ والمؤمنين على سبيل التبع ، ولو قال « إنما أولياؤكم » لم يكن في الكلام أصلٌ وتبع[3] ﴿ومن يتولّ اللهَ ورسولهُ والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾ أي من يتولّ الله ورسوله والمؤمنين فإنه

(١) في الآية إعلامٌ بارتداد بعض المسلمين فهو إخبار بالغيب قبل وقوعه وقد ارتد عن الإسلام فرقٌ كثيرة منهم من ارتد في عهد رسول الله ﷺ ومنهم في عهد أبي بكر ، وقد ارتد بنو حنيفة قوم « مسيلمة الكذاب » وكتب مسيلمة إلى رسول الله ﷺ من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله أما بعد : فإن الأرض نصفها لي ونصفها لك فأجابه عليه السلام : من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب أما بعد : فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . (٢) مختصر ابن كثير ١/٥٢٨ . (٣) التسهيل ١/ ١٨١ .

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾

من حزب الله وهم الغالبون القاهرون لأعدائهم ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هُزُواً ولعباً﴾ أي لا تتخذوا أعداء الدين الذين يسخرون من دينكم ويهزءون ﴿من الذين أُوتوا الكتاب من قبلكم والكفّار أولياء﴾ أي من هؤلاء المستهزئين اليهود والنصارى وسائر الكفرة أولياء لكم تودّونهم وتحبونهم وهم أعداء لكم ، فمن اتخذ دينكم سخرية لا يصح لكم أن تصادقوه أو توالوه بل يجب أن تبغضوه وتعادوه ﴿واتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ أي اتقوا الله في موالاة الكفار والفجار إن كنتم مؤمنين حقاً ، ثمَّ بيّن تعالى جانباً من استهزائهم فقال ﴿وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هُزُواً ولعباً﴾ أي وإذا أذنتم إلى الصلاة ودعوتم إليها سخروا منكم ومن صلاتكم قال في البحر : حسد اليهود الرسول ﷺ حين سمعوا الأذان وقالوا : ابتدعتَ شيئاً لم يكن للأنبياء فمن أين لك الصياح كصياح العير فما أقبحه من صوت فأنزل الله هذه الآية[1] نبّه تعالى على أنَّ من استهزأ بالصلاة ينبغي أن لا يُتّخذ ولياً بل يُهجر ويطرد ، وهذه الآية جاءت كالتوكيد للآية قبلها ﴿ذلك بأنهم قومٌ لا يعقلون﴾ أي ذلك الفعل منهم بسبب أنهم فجرة لا يعقلون حكمة الصلاة ولا يدركون غايتها في تطهير النفوس ، ونفى العقل عنهم لكونهم لم ينتفعوا به في أمر الدين وإن كان لهم عقول يدركون بها مصالح الدنيا ﴿قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منّا﴾ أي قل يا محمد : يا معشر اليهود والنصارى هل تعيبون علينا وتنكرون منا ﴿إلاّ أن آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل من قبل﴾ أي إلا إيماننا بالله وبما جاء به رسل الله قال ابن كثير : أي هل لكم علينا مطعنٌ أو عيبٌ إلا هذا ؟ وهذا ليس بعيبٍ ولا مذمة فيكون الاستثناء منقطعاً[2] ﴿وأنَّ أكثركم فاسقون﴾ أي خارجون عن الطريق المستقيم ﴿قل هل أنبئكم بشرٍ من ذلك﴾ أي هل أخبركم بما هو شرٌّ من هذا الذي تعيبونه علينا ؟ ﴿مثوبةً عند الله﴾ أي ثواباً وجزاءً ثابتاً عند الله قال في التسهيل : ووضع الثوابَ موضع العقاب تهكماً بهم نحو قوله ﴿فبشرهم بعذابٍ أليم﴾[3] ﴿من لعنه الله﴾ أي طرده من رحمته ﴿وغضب عليه﴾ أي سخط عليه بكفره وانهماكه في المعاصي بعد وضوح الآيات ﴿وجعل منهم القردة والخنازير﴾ أي ومسخ بعضَهم قردةً وخنازير ﴿وعَبَدَ الطاغوتَ﴾ أي وجعل منهم من عَبَد الشيطان بطاعته ﴿أولئك شرٌّ مكاناً وأضل عن سواء السبيل﴾ أي هؤلاء الملعونون الموصوفون بتلك القبائح

---

(١) البحر ٣/ ٥١٥ وقال أبو السعود عند هذه الآية : روي أن نصرانياً بالمدينة كان إذا سمع المؤذن يقول : أشهد أن محمداً رسول الله يقول : أحرق الله الكاذب ، فدخل خادمه ذات ليلة بنارٍ وأهلهُ نيامٌ فتطايرت منه شرارةٌ في البيت فأحرقته وأهله جميعاً أبو السعود ٢/ ٤٠ .

(٢) مختصر ابن كثير ١/ ٥٣٠ . (٣) التسهيل ١/ ١٨٢ .

﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ﴾

والفضائح شرٌّ مكاناً في الآخرة وأكثر ضلالاً عن الطريق المستقيم قال ابن كثير والمعنى : يا أهل الكتاب الطاعنين في ديننا الذي هو توحيد الله وإفراده بالعبادة دون ما سواه كيف يصدر منكم هذا وأنتم قد وجد منكم جميع ما ذكر[1] ؟ قال القرطبي : ولما نزلت هذه الآية قال المسلمون لهم : يا إخوة القردة والخنازير فنكّسوا رءوسهم افتضاحاً وفيهم يقول الشاعر :

فلعنة الله على اليهود إن اليهود إخوةُ القرود[2]

﴿وإذا جاءوكم قالوا آمنا﴾ الضمير يعود إلى المنافقين من اليهود أي إذا جاءوكم أظهروا الإسلام ﴿وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به﴾ أي والحال قد دخلوا إليك كفاراً وخرجوا كفاراً لم ينتفعوا بما سمعوا منك يا محمد من العلم ، ولا نجعت فيهم المواعظ والزواجر ﴿والله أعلم بما كانوا يكتمون﴾ أي من كفرهم ونفاقهم وفيه وعيد شديدٌ لهم ﴿وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان﴾ أي وترى كثيراً من اليهود يسابقون في المعاصي والظلم ﴿وأكلهمُ السحت﴾ أي أكلهم الحرام ﴿لبئس ما كانوا يعملون﴾ أي بئس أعمالهم القبيحة تلك الأخلاق الشنيعة ﴿لولا ينهاهم الربّانيون والأحبار﴾ أي هلاّ يزجرهم علماؤ هم وأحبارهم ﴿عن قولهم الإثم وأكلهم السحت﴾ أي عن المعاصي والآثام وأكل الحرام ﴿لبئس ما كانوا يصنعون﴾ أي بئس صنيعهم ذلك تركهم النهي عن ارتكاب محارم الله قال ابن عباس : ما في القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية - يعني على العلماء - وقال أبو حيان : تضمنت هذه الآية توبيخ العلماء والعبّاد على سكوتهم عن النهي عن معاصي الله وأنشد ابن المبارك :

وهلْ أفسَدَ الدِّينَ إلا الملو كُ وأحبارُ سوْءٍ ورهبانها[3]

﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة﴾ أي قال اليهود اللعناء إن الله بخيلٌ يقتّر الرزق على العباد قال ابن عباس : مغلولة أي بخيلة أمسك ما عنده بخلاً ليس يعنون أن يد الله موثقة ولكنهم يقولون إنه بخيل[4] ﴿غُلَّت أيديهم﴾ دعاءٌ عليهم بالبخل المذموم والفقر والنكد ﴿ولُعنوا بما قالوا﴾ أي أبعدهم الله من رحمته بسبب تلك المقالة الشنيعة ﴿بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾ أي بل هو جواد كريم سابغ الإنعام يرزق ويعطي كما يشاء قال أبو السعود : وتضييق الرزق ليس لقصورٍ في فيضه بل لأن إنفاقه تابعٌ

(١) ابن كثير ١/ ٥٣١ . (٢) القرطبي ٦/ ٢٣٦ . (٣) البحر المحيط ٣/ ٥٢٢ . (٤) الطبري ١٠/ ٤٥٢ .

﴿إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾

لمشيئته المبنيّة على الحِكَم وقد اقتضت الحكمة بسبب ما فيهم من شؤم المعاصي أن يضيّق عليهم[1] ﴿وليزيدنَّ كثيراً منهم ما أُنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً﴾ أي وليزيدنَّهم هذا القرآن الذي أُنزل عليك يا محمد كفراً فوق كفرهم وطغياناً فوق طغيانهم إذ كلّما نزلت آية كفروا بها فيزداد طغيانهم وكفرهم كما أن الطعام للأصحاء يزيد المرضى مرضاً قال الطبري : أعلم تعالى نبيّه أنهم أهل عتو وتمرّد على ربهم وأنهم لا يذعنون لحقٍّ وإن علموا صحته ولكنهم يعاندونه يسلّي بذلك نبيَّه ﷺ في ذهابهم عن الله وتكذيبهم إيّاه[2] ﴿وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾ أي ألقينا بين اليهود العداوة والبغضاء فكلمتهم مختلفة وقلوبهم شتّى لا يزالون متباغضين متعادين إلى قيام الساعة ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله﴾ أي كلما أرادوا إشعال حربٍ على رسول الله ﷺ أطفأها الله ﴿ويسعون في الأرض فساداً﴾ أي يجتهدون في الكيد للإسلام وأهله ويسعون لإثارة الفتن بين المسلمين قال ابن كثير : أي من سجيتهم أنهم دائماً يسعون في الإفساد في الأرض ﴿والله لا يحب المفسدين﴾ أي لا يحب من كانت هذه صفته[3] ﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا﴾ أي لو أن اليهود والنصارى آمنوا بالله وبرسوله حق الإيمان واتقوا محارم الله فاجتنبوها ﴿لكفّرنا عنهم سيئاتهم﴾ أي محونا عنهم ذنوبهم التي اقترفوها ﴿ولأدخلناهم جنات النعيم﴾ أي ولأدخلناهم مع ذلك في جنان النعيم ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم﴾ أي ولو أنهم استقاموا على أمر الله وعملوا بما في التوراة والإنجيل وبما أُنزل إليهم في هذا الكتاب الجليل الذي نزل على خاتم الرسل ﷺ ﴿لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ أي لوسّع الله عليهم الأرزاق وأغدق عليهم الخيرات بإفاضة بركات السماء والأرض عليهم ﴿منهم أُمةٌ مقتصدة﴾ أي منهم جماعة معتدلة مستقيمة غير غالية ولا مقصّرة ، وهم الذين آمنوا بمحمد ﷺ كعبد الله بن سلام والنجاشي وسلمان ﴿وكثيرٌ منهم ساء ما يعملون﴾ أي وكثير منهم أشرار بئس ما يعملون من قبيح الأقوال وسوء الفعال .

البَـلاغَـة : ١ - ﴿أذلةٍ على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾ بين لفظ « أعزّة » و « أذلة » طباقٌ وهو من المحسنات البديعية وكذلك بين لفظ ﴿من فوقهم . . ومن تحت أرجلهم﴾ .

(١) أبو السعود ٢/ ٤٣ . (٢) الطبري ١٠/ ٤٥٧ . (٣) مختصر ١/ ٥٣٢ .

٢ ـ ﴿لومة لائم﴾ في تنكير لومة ولائم مبالغةٌ لا تخفى لأن اللّومة المرّة من اللوم .

٣ ـ ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ هذا على سبيل التهييج .

٤ ـ ﴿هل تنقمون منا إلا أن آمنا﴾ يسمى مثل هذا عند علماء البيان تأكيد المدح بما يشبه الذم وبالعكس فقد جعلوا التمسك بالإيمان موجباً للإنكار والنقمة مع أن الأمر بالعكس .

٥ ـ ﴿مثوبة عند الله من لعنه الله﴾ هذا من باب التهكم حيث استعملت المثوبة في العقوبة .

٦ ـ ﴿شرٌ مكاناً﴾ نسب الشرُّ للمكان وهو في الحقيقة لأهله وذلك مبالغة في الذم .

٧ ـ ﴿يد الله مغلولة﴾ غلُّ اليد كناية عن البخل وبسطها كناية عن الجود .

٨ ـ ﴿أوقدوا ناراً للحرب﴾ إيقاد النار في الحرب استعارة لأن الحرب لا نار لها وإنما شبهت بالنار لأنها تأكل أهلها كما تأكل النار حطبها .

٩ ـ ﴿لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ استعارة أيضاً عن سبوغ النعم وتوسعة الرزق عليهم كما يقال : عمَّه الرزق من فوقه إلى قدمه .

الفَـوَائِـد : **الأولى** : روي أن عمر بلغه أن كاتباً نصرانياً قد استعمله أبو موسى الأشعري فكتب إلى أبي موسى : لا تكرموهم إذْ أهانهم الله ، ولا تأمنوهم إذْ خوّنهم الله ، ولا تُدنوهم إذْ أقصاهم الله فقال له أبو موسى : لا قوام للبصرة إلا به فقال عمر : مات النصراني فماذا تفعل[١] .

الثانية : قُتِلَ مسيلمةُ الكذاب في عهد أبي بكر على يد « وحشي » قاتل حمزة وكان يقول : قتلتُ خير الناس في الجاهلية ـ يريد حمزة ـ وشرَّ الناس في الإسلام ـ يريد مسيلمة الكذاب .[٢]

الثالثة : قال المفسرون : « عسى » من الله واجب لأن الكريم إذا أطمع في خيرٍ فعله فهو بمنزلة الوعد لتعلق النفس به[٣] .

الرابعة : قال البيضاوي في قوله تعالى ﴿لولا ينهاهم الربانيون﴾ فيها تحضيضٌ لعلمائهم للنهي عن ذلك فإنَّ ﴿لولا﴾ إذا دخل على الماضي أفاد التوبيخ وإذا دخل على المستقبل أفاد التحضيض[٤] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الرسول بلّغْ ما أنزل إليك من ربك . . . إلى . . ولكنَّ كثيراً منهم فاسقون﴾ من آية (٦٧) إلى نهاية آية (٨١) .

المنَـاسَبَة : لمّا حذر تعالى المؤمنين من موالاة الكافرين ، وكانت رسالته ﷺ تتضمن الطعن في

---

(١) البحر ٣/٥٠٧ . (٢) محاسن التأويل ٦/ ٢٠٣٤ . (٣) الرازي ١٢/ ١٦ . (٤) البيضاوي ص ١٥٦ .

أحوال الكفرة والمخالفين ، وهذا يستدعي مناصبتهم العداء له ولأتباعه أمره تعالى في هذه الآيات بتبليغ الدعوة ، ووعده بالحفظ والنصرة ، ثم ذكر تعالى طرفاً من عقائد أهل الكتاب الفاسدة وبخاصة النصارى الذين يعتقدون بألوهية عيسى وأنه ثالث ثلاثة ، وردّ عليهم بالدليل القاطع والبرهان الساطع .

اللغـَـة : ﴿يعصمك﴾ العصمة : الحفظ والحماية ﴿طغياناً﴾ الطغيان : تجاوز الحد في الظلم والغلوُّ فيه ﴿تأس﴾ تحزن يقال : أَسِيَ يَأْسى ، والأسى : الحزن قال :

وانحلبتْ عيناه من فرط الأَسَى[١]

﴿ خلت ﴾ مضـــت ﴿ صدّيقة ﴾ الصـدِّيق : المبالغ في الصدق وفِعِّيل من أبنية المبـالغة كما يقال رجل سِكِّيت أي مبالغ في السكوت وسِكِّير أي كثير السكر ﴿يؤ فكون﴾ يُصرفون عن الحق يقال : أَفكه إذا صرفه ومنه ﴿أجئتنا لتأفكنا﴾ ﴿تغلو﴾ الغلو : التجاوز في الحد والتشدد في الأمر يقال : غلا في دينه غلواً تشدّد فيه حتى جاوز الحد .

سَبَبُ النّزول : أ ـ عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : (لمّا بعثني الله برسالته ضقتُ بها ذرعـاً وعرفتُ أن من الناس من يكذبني فأنزل الله ﴿يا أيها الرسول بلّغْ ما أُنزل إليك من ربك﴾[٢] الآية) .

ب ـ وعن ابن عباس قال : جاء جماعة من اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا : ألستَ تُقرُّ أن التوراة حقٌّ من عند الله ؟ قال : بلى فقالوا : فإنّا نؤ من بها ولا نؤ من بما عداها فأنزل الله ﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيءٍ حتى تقيموا التوراة والإنجيل . .﴾[٣] الآية .

* ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ

التفسـير : ﴿يا أيها الرسولُ بلِّغْ ما أُنزل إليك من ربك﴾ هذا نداءُ تشريفٍ وتعظيمٍ ناداه تعالى بأشرف الأوصاف بالرسالة الربانية أي بلِّغْ رسالة ربك غير مراقب أحداً ولا خائفٍ أن ينالك مكروه ﴿وإن لم تفعل فما بلَّغت رسالته﴾ قال ابن عباس : المعنى بلّغْ جميع ما أُنزل إليك من ربك فإن كتمتَ شيئاً منه فما بلّغت رسالته[٤]، وهذا تأديب لحملة العلم من أمته ألا يكتموا شيئاً من أمر شريعته ﴿والله يعصمك من الناس﴾ أي يمنعك من أن ينالوك بسوء قال الزمخشري : هذا وعدٌ من الله بالحفظ والكلاءة والمعنى : والله يضمن لك العصمة من أعدائك فما عذرك في مراقبتهم ؟ روي أن رسول الله ﷺ كان يُحرس حتى نزلت فأخرج رأسه من قبة أدَم وقال : انصرفوا أيها الناس فقد عصمني الله عز وجل[٥] ﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ أي إنما عليك البلاغ والله هو الذي يهدي من يشاء فمن قُضي له بالكفر لا يهتدي أبداً ﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تُقيموا التوراة والإنجيل﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى

(١) القرطبي ٦/ ٢٤٥ . (٢) أسباب النزول ص ١١٥ . (٣) القرطبي ٦/ ٢٤٥ . (٤) القرطبي ٦/ ٢٤٢ . (٥) الكشاف ١/ ٥١٤ .

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ﴾

لستم على شيء من الدين أصلاً حتى تعملوا بما في التوراة والإنجيل وتقيموا أحكامها على الوجه الأكمل ، ومن إقامتها الايمان بمحمد ﷺ ﴿وما أنزل إليكم من ربكم﴾ قال ابن عباس : يعني القرآن العظيم ﴿وليزيدنَّ كثيراً منهم ما أُنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً﴾ اللام للقسم أي وأقسم ليزيدنَّ هذا القرآن المنزل عليك يا محمد الكثير منهم غلواً في التكذيب وجحوداً لنبوتك[1] وإصراراً على الكفر والضلال ﴿فلا تأس على القوم الكافرين﴾ أي لا تحزن عليهم فإن تكذيب الأنبياء عادتُهم ودأبهم ، وهذه تسليةٌ للنبي ﷺ وليس بنهي عن الحزن[2] ثم قال تعالى ﴿إن الذين آمنوا﴾ أي صدّقوا الله ورسوله وهم المسلمون ﴿والذين هادوا﴾ وهم اليهود ﴿والصابئون﴾ وهم طائفة من النصارى عبدوا الكواكب ﴿والنصارى﴾ وهم أتباع عيسى ﴿من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً﴾ أي مَنْ آمن من هؤلاء المذكورين إيماناً صحيحاً خالصاً لا يشوبه ارتيابٌ بالله وباليوم الآخر وعمل صالحاً يقربه من الله ﴿فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي فلا خوفٌ عليهم فيما قدموا عليه من أهوال يوم القيامة ولا هم يحزنون على ما خلّفوا وراءهم من الدنيا بعد معاينتهم جزيل ثواب الله[3] قال ابن كثير : والمقصود أن كلَّ فرقةٍ آمنت بالله واليوم الآخر وعملت عملاً صالحاً - ولا يكون ذلك كذلك حتى يوافق الشريعة المحمدية بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثقلين - فمن اتصف بذلك فلا خوفٌ عليهم فيما يستقبلونه ولا هم يحزنون على ما تركوه وراء ظهورهم[4] ﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل﴾ أي أخذنا من اليهود العهد المؤكد على الايمان بالله ورسله قال في البحر : هذا إخبار بما صدر من أسلاف اليهود من نقض الميثاق الذي أخذه تعالى عليهم وما اجترحوه من الجرائم العظام من تكذيب الأنبياء وقتل بعضهم ،وهؤلاءأخلاف أولئك فغير بدعٍ ما يصدر منهم للرسول من الأذى والعصيان إذ ذاك شِنْشِنةٌ من أسلافهم[5] ﴿وأرسلنا إليهم رسلاً﴾ أي أرسلنا لهم الرسل ليرشدوهم ويبينوا لهم أمر الدين ﴿كلما جاءهم رسولٌ بما لا تهوى أنفسهم﴾ أي كلما جاءهم رسول من أولئك الرسل بما يخالف أهواءهم وشهواتهم ﴿فريقاً كذّبوا وفريقاً يقتلون﴾ أي كذبوا طائفةً من الرسل يقتلون طائفة أخرى منهم قال البيضاوي : وإنما جيء بـ « وقتلوا » موضع « قتلوا » على حكاية الحال الماضية استحضاراً لها واستفظاعاً للقتل وتنبيهاً على أن ذلك من ديدنهم ماضياً ومستقبلاً ومحافظةً على رءوس الآي[6] ﴿وحسبوا أن لا تكون فتنة﴾ أي وظنَّ بنو إسرائيل أن لا يصيبهم بلاءٌ وعذاب بقتل الأنبياء

(١) الطبري ١٠/ ٤٧٤ . (٢) القرطبي ٦/ ٢٤٥ . (٣) الطبري ١٠/ ٤٧٦ . (٤) مختصر ابن كثير ١/ ٥٣٥ . (٥) البحر ٣/ ٥٣١ .
(٦) البيضاوي ص ١٥٧ .

ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ

وتكذيب الرسل اغتراراً بإمهال الله عزّ وجلّ لهم ﴿فعمُوا وصمّوا﴾ أي تمادوا في الغيّ والفساد فعمُوا عن الهدى وصمّوا عن سماع الحق وهذا على التشبيه بالأعمى والأصمّ لأنه لا يهتدي إلى طريق الرشد في الدين لإعراضه عن النظر ﴿ثم تاب الله عليهم﴾ قال القرطبي : في الكلام إضمارٌ أي أُوقعت بهم الفتنةُ فتابوا فتاب الله عليهم[١] ﴿ثمّ عمُوا وصمُّوا كثيرٌ منهم﴾ أي عميَ كثير منهم وصمَّ بعد تبيّن الحق له ﴿والله بصير بما يعملون﴾ أي عليم بما عملوا وهذا وعيدٌ لهم وتهديد ، ثم ذكر تعالى عقائد النصارى الضالة في المسيح فقال ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾ قال أبو السعود : هذا شروعٌ في تفصيل قبائح النصارى وإبطال أقوالهم الفاسدة بعد تفصيل قبائح اليهود وهؤلاء الذين قالوا إن مريم ولدت إلهاً هم « اليعقوبية » زعموا أن الله تعالى حلَّ في ذات عيسى واتحد به ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً[٢] ﴿وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم﴾ أي أنا عبدٌ مثلكم فاعبدوا خالقي وخالقكم الذي يذلّ له كل شيء ويخضع له كل موجود قال ابن كثير : كان أول كلمة نطق بها وهو صغير أن قال ﴿إني عبد الله﴾ ولم يقل : إني أنا الله ، ولا ابن الله بل قال ﴿إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾[٣] وقال القرطبي : ردَّ الله عليهم ذلك بحجةٍ قاطعةٍ مما يُقرّون به فقال ﴿وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم﴾ فإذا كان المسيح يقول : يا رب ، ويا ألله فكيف يدعو نفسه أم كيف يسألها ؟ هذا محال[٤] ﴿إنه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة﴾ أي من يعتقد بألوهية غير الله فلن يدخل الجنة أبداً لأنها دار الموحّدين ﴿ومأواه النار﴾ أي مصيره نار جهنم ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ أي فلا ناصر ولا منقذ له من عذاب الله ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ أي أحد ثلاثة آلهة وهذا قول فرقةٍ من النصارى يسمون « النُسطورية والملكانية » القائلين بالتثليث وهم يقولون : إن الإلهيّة مشتركة بين الله ، وعيسى ، ومريم وكل واحدٍ من هؤلاء إله ولهذا اشتهر قولهم « الأب والإبن وروح القدس »[٥] ﴿وما من إلهٍ إلا إلهٌ واحدٌ﴾ أي والحال أنه ليس في الوجود إلا إله واحدٌ موصوفٌ بالوحدانية متعالٍ عن المثيل والنظير ﴿وإن لم ينتهوا عمّا يقولون﴾ أي وإن لم يكفّوا عن القول بالتثليث ﴿ليمسنَّ الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾ أي ليمسنهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة ﴿أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه﴾

(١) القرطبي ٦/ ٢٤٨ . (٢) أبو السعود ٢/ ٤٩ . (٣) ابن كثير ١/ ٥٣٦ .
(٤) القرطبي ٦/ ٢٤٩ . (٥) قال السدي : نزلت في جعلهم المسيح وأمه إلهين مع الله فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار وقال في البحر : يقولون جوهرٌ واحدٌ وثلاثة أقانيم « أب وابن وروح قدس » وهذه الثلاثة إلّه واحد كما ان الشمس تتناول القرص والشعاع والحرارة وزعموا أن الأب إله والإبن إله والروح إله والكل إله واحد ، وهذا معلوم البطلان ببداهة العقل أن الثلاثة لا تكون واحداً وان الواحد لا يكون ثلاثة .

وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾

الاستفهام للتوبيخ أي أفلا ينتهون عن تلك العقائد الزائفة والأقاويل الباطلة ويستغفرون الله مما نسبوه إليه من الاتحاد والحلول ؟ ﴿والله غفور رحيم﴾ أي يغفر لهم ويرحمهم إن تابوا قال البيضاوي : وفي هذا الاستفهام ﴿أفلا يتوبون﴾ تعجيبٌ من إصرارهم على الكفر ﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل﴾ أي ما المسيح إلا رسولٌ كالرسل الخالية الذين تقدموه خصّه الله تعالى ببعض الآيات الباهرات إظهاراً لصدقه كما خصّ بعض الرسل ، فإن أحيا الموتى على يده فقد أحيا العصا في يد موسى . وجعلت حية تسعى وهو أعجب ، وإن خُلق من غير أب فقد خلق آدم من غير أبٍ ولا أم وهو أغرب ، وكلٌّ ذلك من جنابه عز وجل وإنما موسى وعيسى مظاهر شئونه وأفعاله ﴿وأمه صدّيقة﴾ أي مبالغة في الصّدق ﴿كانا يأكلان الطعام﴾ أي أنه مخلوق كسائر المخلوقين مركبٌ من عظمٍ ولحمٍ وعروقٍ وأعصاب وفيه إشارة لطيفة إلى أن من يأكل الطعام لا بدّ أن يكون في حاجة إلى إخراجه ومن يكن هذا حاله فكيف يُعْبد ، أو كيف يُتوهم أنه إله ؟ ﴿انظر كيف نبيّن لهم الآيات﴾ تعجيبٌ من حال الذين يدَّعون ألوهيّته هو وأمه أي أنظر كيف نوضّح لهم الآيات الباهرة على بطلان ما اعتقدوه ﴿ثم انظر أنّى يؤفكون﴾ أي كيف يُصرفون عن استماع الحق وتأمله بعد هذا البيان مع أنه أوضح من الشمس في رابعة النّهار ﴿قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً﴾ أي قل يا محمد أتوجهون عبادتكم الى من لا يقدر لكم على النفع والضر ؟[1] ﴿والله هو السميع العليم﴾ أي السميع لأقوالكم العليم بأحوالكم وتضمنت الآية الإنكار عليهم حيث عبدوا من هو متصفٌ بالعجز عن دفع ضرّ أو جلب نفع ﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق﴾ أي يا معشر اليهود والنصارى لا تتجاوزوا الحد في دينكم وتُفرطوا كما أفرط أسلافكم فتقولوا عن عيسى إنه إلهٌ أو ابن إله قال القرطبي : وغلو اليهود قولهم في عيسى إنه ليس ولد رِشْدة ـ أي هو ابن زنا ـ وغلوُّ النصارى قولهم إنه إله[2] ﴿ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل﴾ أي لا تتبعوا أسلافكم وأئمتكم الذين كانوا على الضلال قبل بعثة النبيﷺ ﴿وأضلوا كثيراً﴾ أي أضلوا كثيراً من الخلق بإغوائهم لهم ﴿وضلوا عن سواء السبيل﴾ أي ضلوا عن الطريق الواضح المستقيم قال القرطبي : وتكرير ضلوا للإشارة إلى أنهم ضلوا من قبل وضلوا من بعد ، والمرادُ الأسلافُ الذين سنُّوا

(١) قال في البحر : لما بيّن تعالى بدليل النقل والعقل انتفاء الألوهية عن عيسى ودعاهم للتوبة وطلب الغفران أنكر عليهم ووبخهم من وجهٍ آخر وهو عجز عيسى على دفع ضررٍ وجلب نفع وأنَّ من كان لا يدفع عن نفسه حريٌّ ان لا يدفع عنكم ؛ البحر ٣/٥٣٨ . (٢) القرطبي ٦/٢٥٢

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾

الضلالة وعملوا بها من رؤساء اليهود والنصارى[١] **﴿لُعِنَ الذين كفروا من بني إسرائيل على لسانِ داود وعيسى ابن مريم﴾** أي لعنهم الله عز وجل في الزبور ، والإنجيل قال ابن عباس : لُعنوا بكل لسان ، لعنوا على عهد موسى في التوراة ، وعلى عهد داود في الزبور ، وعلى عهد عيسى في الإنجيل وعلى عهد محمد في القرآن[٢] قال المفسرون : إن اليهود لمّا اعتدوا في السبت دعا عليهم داود فمسخهم الله قردة ، وأصحاب المائدة لمّا كفروا بعيسى دعا عليهم عيسى فمُسخوا خنازير **﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾** أي ذلك اللعن بسبب عصيانهم واعتدائهم ، ثمَّ بيَّن تعالى حالهم الشنيع فقال **﴿كانوا لا يتناهون عن منكرٍ فعلوه﴾** أي لا ينهى بعضُهم بعضاً عن قبيحٍ فعلوه **﴿لبئس ما كانوا يفعلون﴾** أي بئس شيئاً فعلوه قال الزمخشري : تعجيب من سوء فعلهم مؤكد بالقسم فيا حسرتا على المسلمين في إعراضهم عن التناهي عن المنكر كأنه ليس من الإسلام في شيء مع ما يتلون من كتاب الله من المبالغات في هذا الباب[٣] وقال في البحر : وذلك أنهم جمعوا بين فعل المنكر ، والتجاهر به ، وعدم النهي عنه ، والمعصيةُ إذا فُعلت ينبغي أن يُستتر بها لحديث(من ابتلي منكم بشيء من هذه القاذورات فليستتر) فإذا فُعلت جهاراً وتواطأ الناس على عدم الإنكار كان ذلك تحريضاً على فعلها وسبباً مثيراً لإفشائها وكثرتها[٤] **﴿ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا﴾** أي ترى كثيراً من اليهود يوالون المشركين بغضاً لرسول الله ﷺ والمؤمنين والمراد « كعب بن الأشرف » وأصحابه **﴿لبئس ما قدمت لهم أنفسهم﴾** أي بئس ما قدموا من العمل لمعادهم في الآخرة **﴿أن سخط الله عليهم﴾** وهذا هو المخصوص بالذم أي بئس ما قدموه لآخرتهم سخطُ الله وغضبُه عليهم **﴿وفي العذاب هم خالدون﴾** أي وفي عذاب جهنم مخلّدون أبد الآبدين **﴿ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء﴾** أي لو كان هؤلاء اليهود يصدّقون بالله ونبيّهم وما جاءهم من الكتاب ما اتخذوا المشركين أولياء **﴿ولكنَّ كثيراً منهم فاسقون﴾** أي ولكنَّ أكثرهم خارجون عن الإيمان وطاعة الله عز وجل .

البلاغة : ١ - **﴿لستم على شيء﴾** في هذا التعبير من التحقير والتصغير ما لا غاية وراءه[٥] .

٢ - **﴿وما أُنزل إليكم من ربكم﴾** أضاف الاسم الجليل إليهم تلطفاً معهم في الدعوة .

٣ - **﴿فلا تأس على القوم الكافرين﴾** لم يقل عليهم وإنما وضع الظاهر مكان الضمير للتسجيل

---

(١) القرطبي ٦/٢٥٢ . (٢) البحر ٣/ ٥٣٩ . (٣) الكشاف ١/ ٥١٩ . (٤) البحر ٣/ ٥٤٠ . (٥) أبو السعود ٢/ ٤٦ .

عليهم بالرسوخ في الكفر .

٤ ـ ﴿والله بصير بما يعملون﴾ صيغة المضارع بدل الماضي ﴿بما عملوا﴾ لحكاية الحال الماضية استحضاراً لصورتها الفظيعة ومراعاةً لرءوس الآيات .

٥ ـ ﴿فقد حرّم الله عليه الجنة﴾ إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتهويل الأمر وتربية المهابة .

٦ ـ الاستعارة ﴿فعموا وصمُّوا﴾ استعار العمى والصمم للإعراض عن الهداية والإيمان

٧ ـ ﴿انظر كيف نبيّن﴾ ﴿ثم انظر أنّى يؤ فكون﴾ قال أبو السعود : تكرير الأمر بالنظر للمبالغة في التعجيب ولفظ « ثمَّ » لإظهار ما بين العجبين من التفاوت أي إن بياننا للآيات أمرٌ بديع بالغٌ أقصى الغايات من الوضوح والتحقيق وإعراضهم عنها أعجبُ وأبدع[1] .

٨ ـ ﴿لبئس ما كانوا يفعلون﴾ تقبيحٌ لسوء أعمالهم وتعجيبٌ منه بالتوكيد مع القسم .

الفوائد : قال بعض المحققين في قوله تعالى ﴿قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً﴾ إذا كان هذا في حق عيسى النبي فما ظنك بوليّ من الأولياء هل يملك لهم نفعاً أو ضراً ؟ !

تنبيه : قال ابن كثير : دلت الآية ﴿وأمُّه صدِّيقة﴾ على أن مريم ليست بنبيَّة كما زعمه ابن حزم وغيره ممن ذهب إلى نبوة « سارة » ونبوة « أم موسى » استدلالاً منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم والذي عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبياً إلا من الرجال ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم﴾ وحكى الأشعري الإجماع على ذلك[2] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿لتجدنّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود . . إلى . . واتقوا الله الذي إليه تُحشرون﴾ من آية (٨٢) إلى نهاية آية (٩٦) .

المناسبة : لمّا ذكر تعالى أحوال اليهود والنصارى وما هم عليه من الزيغ والضلال ، ذكر هنا أنَّ اليهود في غاية العداوة للمسلمين ، ولذلك جعلهم قرناء للمشركين في شدة العداوة ، وذكر أن النصارى ألين عريكة من اليهود وأقرب إلى المسلمين منهم ، ثم لمّا استقصى المناظرة مع أهل الكتاب عاد إلى بيان الأحكام الشرعية فذكر منها كفارة اليمين ، وتحريم الخمر والميسر ، وجزاء قتل الصيد في حالة الإحرام .

اللغة : ﴿قسّيسين﴾ القِسُّ والقسِّيس اسم لرئيس النصارى ومعناه العالم ﴿رهباناً﴾ جمع راهب وأصله من الرهبة بمعنى المخافة ، والرهبانيةُ والترهب التعبد في الصومعة[3] ﴿تفيض﴾ الفيض أن يمتلىء الإناء ويسيل من شدة الامتلاء يقال : فاض الماء وفاض الدمع قال الشاعر :

ففاضتْ دموعُ العينِ منّي صَبَابةً ... على النحر حتى بلَّ دمعي مِحْمَلي

(١) أبو السعود ٢/ ٥٠ . (٢) ابن كثير ١/ ٥٣٧ . (٣) القرطبي ٦/ ٢٥٨ .

* ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿رجس﴾ قال الزجاج : الرجس اسم لكل ما استقذر من عمل ويقال للعذرة والأقذار رجس لأنها قذارة ونجاسة ﴿الجحيم﴾ النار الشديدة الاتقاد ﴿الصيد﴾ كل ما يصطاد من حيوانٍ وطيرٍ وغيره فالصيد يطلق على المصيد قال الشاعر :

صيدُ الملوكِ أرانبٌ وثعالبٌ ... وإذا ركبتُ فصيديَ الأَبْطالُ

سَبَبُ النّزول : أ ـ عن ابن عباس أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله : إني إذا أكلت هذا اللحم انتشرت للنساء وأخذتني شهوتي وإني حرّمت عليّ اللحم فأنزل الله:﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحلّ الله لكم﴾[1] الآية .

ب ـ عن أنس قال : كنتُ ساقي القوم يوم حُرّمت الخمر في بيت « أبي طلحة » وما شرابهم إلا الفضيخ والبسر والتمر ، وإذا منادٍ ينادي إن الخمر قد حرّمت قال : فأريقت في سكك المدينة فقال أبو طلحة إذهب فأهرقها فقال بعض القوم قُتل قومٌ وهي في بطونهم فأنزل الله ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناحٌ فيما طعموا﴾[2] .

التفسير : ﴿لتجدنَّ أشدَّ الناس عداوةً للذين آمنوا اليهودَ والذين أشركوا﴾ اللام للقسم أي قسماً لتجدنَّ يا محمد اليهود والمشركين أشدَّ الناس عداوة للمؤمنين ﴿ولتجدنَّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى﴾ نزلت في النجاشي ملك الحبشة وأصحابه قال الزمخشري : وصف الله شدة شكيمة اليهود وصعوبة إجابتهم إلى الحق ، ولين عريكة النصارى وسهولة ميلهم إلى الإسلام ، وجعل اليهود قرناء المشركين في شدة العداوة للمؤمنين بل نبّه على زيادة عداوتهم بتقديمهم على الذين أشركوا[3] ﴿ذلك بأنَّ منهم قسّيسين ورهباناً﴾ تعليلٌ لقرب مودتهم أي كونهم أقرب مودة بسبب أن منهم علماء وعُباداً ﴿وأنهم لا يستكبرون﴾ أي يتواضعون لوداعتهم ولا يتكبرون كاليهود قال البيضاوي : وفيه دليلٌ على أن التواضعَ والإقبال على العلم والعمل والإعراض عن الشهوات ، محمودٌ وإن كان من كافر[4] ﴿وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول﴾ أي إذا سمعوا القرآن المُنْزَل على محمد رسول الله ﴿ترى أعينهم تفيض من الدمع﴾ أي فاضت أعينهم بالدمع من خشية الله لرقة قلوبهم وتأثرهم بكلام الله الجليل ﴿مما عرفوا من الحق﴾ أي من أجل معرفتهم أنه كلام الله وأنه حق ﴿يقولون ربنا آمنا﴾ أي يقولون يا ربنا صدقنا بنبيّك وكتابك ﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾ أي مع أمة محمد عليه السلام الذين يشهدون على الأمم يوم القيامة قال ابن

---

(١) أسباب النزول ١١٧ والقرطبي ٦/ ٢٦٠. (٢) القرطبي٦/ ٢٩٣وأسباب النزول ١٢٠. (٣) الكشاف١/ ٥٢١. (٤) البيضاوي ص ١٥٩.

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾

عباس : نزلت هذه الآيات في النجاشي وأصحابه الذين حين تلا عليهم « جعفر بن أبي طالب » بالحبشة القرآن بكوا حتى أخضلوا لحاهم[١] ﴿وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق﴾ أي ما الذي يمنعنا عن الإِيمان ويصدنا عن اتّباع الحق وقد لاح لنا الصواب وظهر الحق المنير ؟ قالوا ذلك في جواب من عيّرهم بالإِسلام من اليهود قال في البحر : هذا إنكارٌ واستبعادٌ لانتفاء الإِيمان منهم مع قيام موجبه وهو عرفان الحق[٢] ﴿ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين﴾ أي والحال أننا نطمع أن يدخلنا ربنا الجنة بصحبة الصالحين من عباده الأبرار ﴿فأثابهم الله بما قالوا﴾ أي جازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق ﴿جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها أبداً لا يحولون عنها ولا يزولون ﴿وذلك جزاء المحسنين﴾ أي ذلك الأجر والثواب جزاء من أحسن عمله وأصلح نيّته ، ثم أخبر تعالى عن حال الأشقياء فقال ﴿والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ أي جحدوا بآيات الله وأنكروا نبوة محمد ﷺ فهم أهل الجحيم المعذّبون فيها قال أبو السعود : وذكَرهم بمقابلة المصدِّقين بآيات الله جمعاً بين الترغيب والترهيب[٣] ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرّموا طيبات ما أحل الله لكم﴾ روى الطبري عن عكرمة قال : كان أناسٌ من أصحاب النبي ﷺ همّوا بالخِصاء وترك اللحم والنساء فنزلت هذه الآية[٤] أي لا تمنعوا أنفسكم تلك اللذائذ وتقولوا حرّمناها على أنفسنا مبالغة في تركها وتقشفاً وتزهُّداً ﴿ولا تعتدوا﴾ أي ولا تتعدّوا حدود ما أحل الله لكم بتجاوز الحلال إلى الحرام ﴿إن الله لا يحب المعتدين﴾ أي يبغض المتجاوزين الحد ، والإِسلام يدعو إلى القصد بدون إفراط أو تفريط ولهذا قال ﴿وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً﴾ أي كلوا ما حلَّ لكم وطاب مما رزقكم الله قال في التسهيل : أي تمتعوا بالمآكل الحلال وبالنساء وغير ذلك ، وإنما خصّ الأكل بالذكر لأنه أعظم حاجات الإِنسان[٥] ﴿واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾ هذا استدعاء إلى التقوى بألطف الوجوه كأنه يقول : لا تضيّعوا إيمانكم بالتقصير في طاعة الله عز وجل فتكونوا عليكم الحسرة العظمى فإن الإِيمان بالله تعالى يوجب المبالغة في تقوى الله ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ أي لا يؤاخذكم بما يسبق إليه اللسان من غير قصد الحلف كقولكم لا والله ،

(١) ابن كثير ١/ ٥٣٩ (٢) البحر ٤/ ٦ . (٣) أبو السعود ٢/ ٥٥ . (٤) الطبري ١٠/ ٥١٤ . (٥) التسهيل ص ١٨٦ .

مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ

وبلى والله ﴿**ولكن يؤاخذكم بما عقَّدتم الأيمان**﴾ أي ولكن يؤاخذكم بما وثّقتم الأيمان عليه بالقصد والنية إذا حنثتم ﴿**فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تُطعمون أهليكم**﴾ أي كفارة اليمين عند الحنث أن تُطعموا عشرة مساكين من الطعام الوسط الذي تُطعمون منه أهليكم قال ابن عباس : أي من أعدل ما تُطعمون أهليكم وقال ابن عمر : الأوسطُ الخبز والتمر ، والخبز والزبيب ، وخيرُ ما نُطعم أهلينا الخبز واللحم[1] ﴿**أو كسوتهم**﴾ أي كسوة المساكين لكل مسكين ثوبٌ يستر البدن ﴿**أو تحرير رقبة**﴾ أي إعتاق عبد مملوك لوجه الله قال في البحر : وأجمع العلماء على أن الحانث مُخيّرٌ بين الإطعام والكسوة والعتق[2] ﴿**فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام**﴾ أي فمن لم يجد شيئاً من الأمور المذكورة فكفارته صيام ثلاثة أيام[3] ﴿**ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم**﴾ أي هذه كفارة اليمين الشرعية عند الحنث ﴿**واحفظوا أيمانكم**﴾ أي احفظوها عن الابتذال ولا تحلفوا إلا لضرورة قال ابن عباس : أي لا تحلفوا وقال ابن جرير : أي لا تتركوها بغير تكفير ﴿**كذلك يُبيِّن الله لكم آياته لعلكم تشكرون**﴾ أي مثل ذلك التبيين يبيّن الله لكم الأحكام الشرعية ويوضحها لتشكروه على هدايته وتوفيقه لكم ﴿**يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر**﴾ قال ابن عباس : الخمر جميع الأشربة التي تُسكر ، والميسرُ القمار كانوا يتقامرون به في الجاهلية ﴿**والأنصابُ والأزلام**﴾ أي الأصنام المنصوبة للعبادة والأقداح التي كانت عند سدنة البيت وخُدّام الأصنام قال ابن عباس ومجاهد : الأنصاب حجارةٌ كانوا يذبحون قرابينهم عندها والأزلام : قداحٌ كانوا يستقسمون بها[4] ﴿**رجسٌ من عمل الشيطان**﴾ أي قذر ونجسٌ تعافه العقول ، وخبيثٌ مستقذر من تزيين الشيطان ﴿**فاجتنبوه لعلكم تفلحون**﴾ أي اتركوه وكونوا في جانب آخر بعيدين عن هذه القاذورات لتفوزوا بالثواب العظيم ﴿**إنما يُريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر**﴾ أي ما يريد الشيطان بهذه الرذائل إلا إيقاع العداوة والبغضاء بين المؤمنين في شربهم الخمر ولعبهم بالقمار ﴿**وَيَصُدكم عن ذكر الله وعن الصلاة**﴾ أي ويمنعكم بالخمر والميسر عن ذكر الله الذي به صلاح دنياكم وآخرتكم وعن الصلاة التي هي عماد دينكم قال أبو حيان : ذكر تعالى في الخمر والميسر مفسدتين : إحداهما دنيوية ، والأخرى دينية ، فأما الدنيوية فإن الخمر تثير الشرور والأحقاد وتئول بشاربها إلى التقاطع ، وأما الميسر فإن الرجل لا

(١) ابن كثير ١/٥٤٣ . (٢) البحر ٤/١١ . (٣) شرط الاحناف والحنابلة التتابع في الأيام وقال الشافعي ومالك لا يجب التتابع واختار الطبري أنه كيفما صامهن مفرقة أو متتابعة أجزأه كذا في الطبري ١٠/٥٦٢ . (٤) البحر المحيط ٤/١٤ .

فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾

يزال يقامر حتى يبقى سليباً لا شيء له وينتهي إلى أن يقامر حتى على أهله وولده ، وأما الدينية فالخمر لغلبة السرور والطرب بها تُلهي عن ذكر الله وعن الصلاة ، والميسر ـ سواء كان غالباً أو مغلوباً ـ يلهي عن ذكر الله[1] ﴿فهل أنتم منتهون﴾ الصيغة للاستفهام ومعناه الأمر أي انتهوا ولذلك قال عمر : انتهينا ربّنا انتهينا قال في البحر : وهذا الاستفهام من أبلغ ما يُنهى به كأنه قيل : قد تُلي عليكم ما فيهما من المفاسد التي توجب الانتهاء فهل أنتم منتهون أم باقون على حالكم[2] ؟ ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا﴾ أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله واحذروا مخالفتهما ﴿فإن توليتم﴾ أي أعرضتم ولم تعملوا بأمر الله ورسوله ﴿فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين﴾ أي ليس عليه هدايتكم وإنما عليه تبليغكم الرسالة وجزاؤكم علينا قال الطبري : وهذا من الله وعيدٌ لمن تولى عن أمره ونهيه يقول تعالى ذكره لهم : فإن توليتم عن أمري ونهي فتوقعوا عقابي واحذروا سخطي[3] وقال أبو حيان : وفي هذا من الوعيد البالغ ما لا خفاء به إذ تضمّن أن عقابكم إنما يتولاه المرسِلُ لا الرسول[4] ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جُناحٌ فيما طعِموا﴾ قال ابن عباس : لما نزل تحريم الخمر قال قوم كيف بمن مات منا وهو يشربها ويأكل الميسر فنزلت فأخبر تعالى أن الإثم والذمّ إنما يتعلق بفعل المعاصي والذين ماتوا قبل التحريم ليسوا بعاصين ﴿إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي ليس عليهم جُناحٌ فيما تناولوه من المأكول والمشروب إذا اتقوا المحرَّم وثبتوا على الإيمان والأعمال الصالحة ﴿ثم اتقوا وآمنوا﴾ أي اتقوا المحرّم وآمنوا بتحريمه بمعنى اجتنبوا ما حرمّه الله معتقدين حرمته ﴿ثم اتقوا وأحسنوا﴾ أي ثم استمروا على تقوى الله واجتناب المحارم وعملوا الأعمال الحسنة التي تقربهم من الله ﴿والله يحب المحسنين﴾ أي يحب المتقربين إليه بالأعمال الصالحة قال في التسهيل : كرّر التقوى مبالغةً وقيل : الرتبة الأولى: إتقاء الشرك ،والثانيةُ : اتقاء المعاصي ،والثالثةُ : اتقاء ما لا بأس به حذراً مما به البأسُ[5] ﴿يا أيها الذين آمنوا ليبلونَّكم اللهُ بشيءٍ من الصيد تناله أيديكم ورماحُكم﴾ أي ليختبرنكم الله في حال إحرامكم بالحج أو العمرة بشيء من الصيد تنال صغاره الأيدي وكباره الرماح قال البيضاوي : نزل في عام الحديبية ابتلاهم اللهسبحانهوتعالى : بالصيد وكانت الوحوش تغشاهم في رحالهم بحيث يتمكنون من صيدها أخذاً بأيديهم وطعناً برماحهم وهم محرمون[6] قال في البحر : وكان الصيد مما تعيش به العرب وتتلذذ باقتناصه ولهم فيه الأشعار والأوصاف الحسنة[7] ﴿ليعلم الله من يخافه بالغيب﴾

(١ و٢) البحر المحيط ٤/ ١٥ . (٣) الطبري ١٠/ ٥٧٥ . (٤) البحر ٤/ ١٥ .

(٥) التسهيل لعلوم التنزيل ١/ ١٨٧ . (٦) البيضاوي ص ١٦٠ . (٧) البحر ٤/ ١٦ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ۗ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾

أي ليتميز الخائف من الله بطريق الغيب لقوة إيمانه ممن لا يخاف الله لضعف إيمانه **﴿فمن اعتدى بعد ذلك فله عذابٌ أليم﴾** أي فمن تعرّض للصيد بعد هذا الإعلام والإنذار فله عذابٌ مؤلم موجع **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرمٌ﴾** أي لا تقتلوا الصيد وأنتم محرمون بحجٍ أو عمرة **﴿ومن قتله منكم متعمداً فجزاءٌ مثلُ ما قتل من النَّعم﴾** أي من قتل الصيد في حالة الإحرام فعليه جزاء يماثل ما قتل من النَّعم وهي الإبل والبقر والغنم **﴿يحكم به ذوا عدْلٍ منكم﴾** أي يحكم بالمِثْل حكمان عادلان من المسلمين **﴿هدياً بالغ الكعبة﴾** أي حال كونه هدياً يُنحر ويُتصدَّق به على مساكينه فإن لم يكن للصيد مثلٌ من النَّعم كالعصفور والجراد فعليه قيمته **﴿أو كفارةٌ طعامُ مساكين﴾** أي وإذا لم يجد المحرم مثل ما قتل من النَّعم فَيُقوِّم الصيدُ المقتول ثم يُشترى به طعامٌ فيصرفُ لكل مسكينٍ مدٌّ منه **﴿أو عدْل ذلك صياماً ليذوق وبال أمره﴾** أي عليه مثل ذلك الطعام صياماً يصومه عن كل مدٍّ يوماً ليذوق سوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام قال في التسهيل : عدَّد تعالى ما يجب في قتل المحرم للصيد ، فذكر أولاً الجزاء من النَّعم ، ثم الطعام ، ثم الصيام ومذهب مالك والجمهور أنها على التخيير وهو الذي يقتضيه العطف بـ « أو » وعن ابن عباس أنها على الترتيب[1] **﴿عفا الله عمّا سلف﴾** أي من قتل الصيد قبل التحريم **﴿ومن عاد فينتقم الله منه﴾** أي ومن عاد إلى قتل الصيد وهو محرم فينتقم الله منه في الآخرة **﴿والله عزيز ذو انتقام﴾** أي غالب على أمره منتقم ممن عصاه **﴿أُحلَّ لكم صيد البحر﴾** أي أُحلَّ لكم أيها الناس صيد البحر سواء كنتم محرمين أو غير محرمين **﴿وطعامه متاعاً لكم وللسيّارة﴾** أي وما يُطعم من صيده كالسمك وغيره منفعةً وقوتاً لكم وزاداً للمسافرين يتزودونه في أسفارهم **﴿وحُرّم عليكم صيدُ البرّ ما دمتم حُرُماً﴾** أي وحُرّم عليكم صيد البر ما دمتم محرمين **﴿واتقوا الله الذي إليه تُحشرون﴾** أي خافوا الله الذي تبعثون إليه يوم القيامة فيجازيكم على أعمالكم وهو وعيد وتهديد .

البَلاغَة : ١ ـ بين لفظ ﴿عداوة . . ومودة﴾ طباقٌ وهو من المحسنات البديعية .

٢ ـ ﴿تفيض من الدمع﴾ أي تمتلىء بالدمع فاستعير له الفيضُ الذي هو الانصباب

(١) التسهيل ١/ ١٨٨ .

عن امتلاء مبالغة أو جعلت أعينهم من فرط البكاء تفيض بأنفسها[١] .

٣ ـ ﴿تحرير رقبة﴾ مجاز مرسل أطلق الجزء وأراد الكل أي عتق إنسان .

٤ ـ ﴿فهل أنتم منتهون﴾ الاستفهام يراد به الأمر أي انتهوا وهو من أبلغ ما يُنهى به قال أبو السعود : ولقد أكد تحريم الخمر والميسر في هذه الآية الكريمة بفنون التأكيد حيث صُدرت الجملة بـ « إنما » وقُرنا بالأصنام والأزلام ، وسُمّيا رجساً من عمل الشيطان ، وأُمر بالاجتناب عن عينهما وجعل ذلك سبباً للفلاح ، ثم ذكر ما فيهما من المفاسد الدنيوية والدينية ، ثم أعيد الحث على الانتهاء بصيغة الاستفهام ﴿فهل أنتم منتهون﴾ إيذاناً بأن الأمر في الزجر والتحذير قد بلغ الغاية القصوى[٢] .

فائدة : التعبير بقوله تعالى ﴿فاجتنبوه﴾ نصٌ في التحريم ولكنه أبلغ في النهي والتحريم من لفظ « حُرِّم » لأن معناه البعد عنه بالكلية فهو مثل قوله تعالى: ﴿ولا تقربوا الزنى﴾ لأن القرب منه إذا كان حراماً فيكون الفعل محرماً من باب أولى وكذلك هنا .

تنبيه : لم يذكر في القرآن الكريم تعليل الأحكام الشرعية إلا بالإيجاز أمّا هنا فقد ذكرت العلة بالتفصيل فذكر تعالى منها إلقاء العداوة والبغضاء بين المؤمنين ، والصدّ عن سبيل الله وذكره ، وشغل المؤمنين عن الصلاة ، ووصف الخمر والميسر بأنهما رجس وأنهما من عمل الشيطان وأن الشيطان يريد إغواء الإنسان وكل ذلك ليشير إلى ضرر وخطر هاتين الرذيلتين « القمار والخمر » فتدبر أسرار القرآن العظيم[٣] .

* * *

قال الله تعالى: ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس . .إلى قوله.. والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ .

من آية (٩٧) إلى نهاية آية (١٠٨) .

المناسبة : لما ذكر تعالى في الآية المتقدمة أن الصيد على المحرم حرام ، ونهى عن قتل الطير والوحش في حالة الإحرام ، ذكر تعالى في هذه الآية أنه جعل الكعبة قياماً للناس إذ ركّز في قلوبهم تعظيمها بحيث لا يقع فيها أذى لأحد ، فكما أن الحرم سببٌ لأمن الوحش والطير فكذلك هو سبب لأمن الناس عن الآفات والمخافات ، وسبب لحصول الخيرات والسعادات في الدنيا والآخرة .

اللغة : ﴿البحيرة﴾ من البحر وهو الشق قال أبو عبيدة : وهي الناقة إذا نتجت خمسة أبطن في آخرها ذكرٌ شقوا أذنها وخلّوا سبيلها فلا تُركب ولا تُحلب[٤] ﴿السائبة﴾ البعير يسيّب بنذرٍ ونحوه ﴿وصيلة﴾ الوصيلة من الغنم كانوا إذا وَلدت الشاة سبعة أبطن وكان السابع ذكراً وأُنثى قالوا قد وصلت

(١) انظر حاشية الكشاف ١/ ٥٢١ . (٢) أبو السعود ٢/ ٥٦ . (٣) روائع البيان ١/ ٥٦٢ . (٤) البحر ٤/ ٢٨ .

اخاها فلم تُذبح[١] ﴿حام﴾ : الفَحْل إذا نتج من صلبه عشرة أبطن يقال قد حمى ظهره فلا يُركب ولا يمنع من كلأ ولا ماء ﴿عُثر﴾ ظهر يقال : عثرت منه على خيانة أي اطلعت وظهرت لي ﴿الأوليان﴾ تثنية أولى بمعنى أحق .

سَبَبُ النّزول : أ - عن ابن عباس قال : كان قومٌ يسألون النبي ﷺ استهزاء فيقول الرجل : من أبي ؟ ويقول الرجل تضل ناقتِه : أين ناقتي فأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبْد لكم تَسُؤكم . . ﴾ الآية[٢] .

ب - وعن ابن عباس قال : كان تميم الداريُّ وعَدِيُّ بن بدّاء يختلفان إلى مكة فخرج معهما فتى من « بني سهم » فتوفي بأرضٍ ليس بها مسلم ، فأوصى إليهما فدفعا تركته إلى أهله وحبسا جاماً من فضة مخوّصاً بالذهب ، فاستحلفهما رسول الله ﷺ ما كتمتا ولا اطلعتا !! ثم وُجد الجام بمكة فقالوا : اشتريناه من عديّ وتميم فجاء رجلان من ورثة السهمي فحلفا أن هذا الجام للسهمي ولشهادتنا أحقُّ من شهادتهما وما اعتدينا فأخذوا الجام وفيهم نزلت هذه الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم . . ﴾ الآية[٣] .

* جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسۡتَوِي

التّفسِير : ﴿**جعل الله الكعبة البيتَ الحرام قياماً للناس**﴾ أي جعل الله الكعبة المشرّفة وهي البيت المحرّم صلاحاً ومعاشاً للناس لقيام أمر دينهم ودنياهم إذ هو سببٌ لانتعاشهم في أمور معاشهم ومعادهم ، يلوذ به الخائف ، ويأمن فيه الضعيف ، ويربح فيه التجار ، ويتوجه إليه الحُجّاج والعمار ﴿**والشهر الحرام**﴾ أي الأشهر الحُرُم « ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب » قياماً لهم لأمنهم القتال فيها ﴿**والهدي والقلائد**﴾ أي الهدي الذي يُهدى للحرم من الأنعام ، والبُدن ذوات القلائد التي تُقلّد من شجر الحرم لتأمن هي وأصحابها جعلها الله أيضاً قياماً للناس ﴿**ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم**﴾ أي جعل هذه الحرمة للبيت الحرام والشهر الحرام والهدي والقلائد لتعلموا أيها الناس أن الله يعلم تفاصيل أمور السموات والأرض ويعلم مصالحكم لذلك جعل الحرم آمناً يسكن فيه كل شيء ، فانظروا لطفه بالعباد مع كفرهم وضلالهم ﴿**إعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم**﴾ أي اعلموا أيها الناس أن الله شديد العقاب لمن عصاه وأنه غفور رحيم لمن تاب وأطاع وأناب ، فلا تيئسنكم نقمتُه ولا تُطْمعنّكم رحمتُه ﴿**ما على الرسول إلا البلاغ**﴾ أي ليس على الرسول إلا أداء الرسالة

---

(١) غريب القرآن ص١٤٧ .(٢) أسباب النزول ص ١٢٠ . (٣) القرطبي ٦/ ٣٤٦ .

ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

وتبليغ الشريعة وقد بلّغ ما وجب عليه فلا عذر لأحدٍ في التفريط ﴿والله يعلم ما تُبدون وما تكتمون﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أحوالكم وأعمالكم وسيجازيكم عليها قال أبو حيان : الجملة فيها تهديد إذ أخبر تعالى أنه مطّلع على حال العبد ظاهراً وباطناً فهو مجازيه على ذلك ثواباً أو عقاباً[١] ﴿قل لا يستوي الخبيثُ والطيّبُ ولو أعجبك كثرةُ الخبيث﴾ أي قل يا محمد لا يتساوى الخبيث والطيّبُ ولو أعجبك أيها السامع كثرة الخبيث وهو مثلٌ ضربه الله للتمييز بين الحلال والحرام ، والمطيع والعاصي ، والرديء والجيد قال القرطبي : اللفظ عامٌ في جميع الأمور يتصور في المكاسب ، والأعمال ، والناس ، والمعارف من العلوم وغيرها ، فالخبيث من هذا كلّه لا يُفلح ولا يُنْجِب ولا تحسن له عاقبةٌ وإن كثر ، والطيّب ـ وإن قلَّ ـ نافعٌ حميدٌ جميل العاقبة[٢] وقال أبو حيان : الظاهر أن الخبيث والطيّب عامّان فيندرج تحتهما المال وحرامه ، وصالح العمل وفاسده ، وجيّد الناس ورديئهم ، وصحيح العقائد وفاسدها ونظير هذه الآية قوله تعالى ﴿والبلد الطيّب يخرج نباتُه بإذن ربه والذي خَبُثَ لا يخرج إلا نكداً﴾[٣] ﴿فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تُفلحون﴾ أي فاتقوا الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه يا ذوي العقول لتفلحوا وتفوزوا برضوان الله والنعيم المقيم ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تسؤكم﴾ أي لا تسألوا الرسول عن أمور لا حاجة لكم بها إن ظهرت لكم ساءتكم قال الزمخشري : أي لا تُكثروا مسألة رسول الله ﷺ حتى تسألوه عن تكاليف شاقة عليكم إن أفتاكم بها وكلّفكم إياها تغمكم وتشق عليكم وتندموا على السؤال عنها[٤] ﴿وإن تسألوا عنها حين يُنزّل القرآن تُبد لكم﴾ أي وإن تسألوا عن هذه التكاليف الصعبة في زمان نزول الوحي تظهر لكم تلك التكاليف التي تسؤكم فلا تسألوا عنها[٥] ﴿عفا الله عنها﴾ أي عفا الله عن مسائلكم السالفة التي لا ضرورة لها وتجاوز عن عقوبتكم الأخروية فلا تعودوا إلى مثلها ﴿والله غفور حليم﴾ أي واسع المغفرة عظيم الفضل والإِحسان ولذلك عفا عنكم ولم يعاجلكم بالعقوبة ﴿قد سألها قوم من قبلكم﴾ أي سأل أمثال هذه المسائل قومٌ قبلكم فلما أعطوها وفُرضت عليهم كفروا بها ولهذا قال ﴿ثم أصبحوا بها كافرين﴾ أي صاروا بتركهم العمل بها كافرين وذلك أن بني إسرائيل كانوا يستفتون أنبياءهم عن أشياء فإذا أُمروا بها تركوها فهلكوا ﴿ما جعل الله من بحيرةٍ ولا سائبةٍ ولا وصيلةٍ ولا حام﴾ كان أهل الجاهلية إذا أنتجت الناقة خمسة أبطن آخرها

---

(١) البحر ٤/ ٢٧ . (٢) القرطبي ٦/ ٣٢٧ . (٣) البحر ٤/ ٢٧ . (٤) الكشاف ١/ ٥٣٣ (٥) وقال ابن عباس في تفسير الآية : لا تسألوا عن أشياء في ضمن الإخبار عنها مساءة لكم إما لتكليف شرعي يلزمكم ، وإما لخبر يسوءكم مثل الذي قال أين ابي ؟ ولكن إذا نزل القرآن بشيء وابتدأكم ربكم بأمر فحينئذ إن سألتم عن بيانه بيّن لكم وأبدى . نقلاً عن البحر المحيط ٤/ ٣١ .

يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ

ذكر بحروا أذنها أي شقوها وحرموا ركوبها وهي البحيرة ، وكان الرجل يقول : إذاقدمتُ من سفري أو برئتُ من مرضي فناقتي سائبة ، وجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها ، وإذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم وإن ولدت ذكراً فهو لآلهتهم وإن ولدت ذكراً و أنثى قالوا وصلت أخاها وهي الوصيلة ، وإذا أنتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا قد حمى ظهره وهو الحام ، فلما جاء الإسلام أبطل هذه العادات كلها فلا بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام، **﴿ولكنَّ الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون﴾** أي ولكنَّ الذين كفروا بالله يختلقون الكذب على الله وينسبون التحريم إليه فيقولون الله أمرنا بهذا وأكثرهم لا يعقلون أن هذا افتراء لأنهم يقلّدون فيه الآباء ولهذا قال تعالى: **﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول﴾** أي وإذا قيل لهؤلاء الضالين هلموا إلى حكم الله ورسوله فيما حلّلتم وحرّمتم **﴿قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا﴾** أي يكفينا دين آبائنا **﴿أَوَلَوْ كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون﴾** الهمزة للإنكار والغرض التوبيخ أي أيتبعون آباءهم فيما هم عليه من الضلال ولو كانوا لا يعلمون شيئاً من الدين ولا يهتدون إلى الحق ؟ **﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسَكم﴾** أي احفظوها عن ملابسة المعاصي والإصرار على الذنوب والزموا إصلاحها **﴿لا يضركم من ضلَّ إذا اهتديتم﴾** أي لا يضركم ضلال من ضلَّ من الناس إذا كنتم مهتدين قال الزمخشري : كان المسلمون تذهب أنفسهم حسرة على الكفرة يتمنون دخولهم في الإسلام فقيل لهم عليكم أنفسكم بإصلاحها والمشي بها في طرق الهدى لا يضركم الضلاّل عن دينكم إذا كنتم مهتدين كما قال تعالى لنبيه ﷺ **﴿فلا تذهب نفسُك عليهم حسرات﴾**[1] وقال أبو السعود : ولا يتوهمنّ أحدٌ أنّ في الآية رخصة في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن من جملة الاهتداء أن ينكر وقد روي أن الصدّيق قال يوماً على المنبر : أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية وتضعونها غير موضعها وإني سمعت رسول الله ﷺ قال : إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيّروه عمّهم الله بعقابه[2] **﴿إلى الله مرجعكم جميعاً﴾** أي مصيركم ومصير جميع الخلائق إلى الله **﴿فينبئكم بما كنتم تعملون﴾** أي فيجازيكم بأعمالكم قال البيضاوي : هذا وعدٌ ووعيد للفريقين ، وتنبيه على أن أحداً لا يؤاخذ بذنب غيره **﴿يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموتُ حين الوصية﴾** أي يا أيها المؤمنون إذا شارف أحدكم على الموت

(١) الكشاف ١/ ٥٣٤

(٢) أبو السعود ٢/ ٦٥ ويؤيده حديث (ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوىً متبعاً ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك نفسك) أخرجه الحاكم .

ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

وظهرت علائمه فينبغي أن يُشهد على وصيته ﴿اثنان ذوا عدلٍ منكم أو آخران من غيركم﴾ أي يُشهد على الوصية شخصين عدلين من المسلمين أو أثنان من غير المسلمين إن لم تجدوا شاهدين منكم ﴿إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت﴾ أي إن أنتم سافرتم فقاربكم الأجل ونزل بكم الموت ﴿تحبسونهما من بعد الصلاة﴾ أي توقفونهما من بعد صلاة العصر لأنه وقت اجتماع الناس وكذا فعل رسول الله ﷺ استحلف عديّاً وتميماً بعد العصر عند المنبر ﴿فيقسمان بالله إن ارتبتم﴾ أي يحلفان بالله إن شككتم وارتبتم في شهادتهما قال أبو السعود : أي إن ارتاب بهما الوارث منكم بخيانةٍ وأخذ شيء من التركة فاحبسوهما وحلفوهما بالله[1] ﴿لا نشتري به ثمناً ولو كان ذا قربى﴾ أي يحلفان بالله قائلَين : لا نحابي بشهادتنا أحداً ولا نستبدل بالقسم بالله عرضاً من الدنيا أي لا نحلف بالله كاذبين من أجل المال ولو كان من نُقسم له قريباً لنا ﴿ولا نكتم شهادة الله إنّا إذاً لمن الآثمين﴾ أي ولا نكتم الشهادة التي أمرنا الله تعالى بإقامتها إنّا إن فعلنا ذلك كنا من الآثمين ﴿فإن عُثر على أنهما استحقا إثماً﴾ أي فإن اطُّلع بعد حلفهما على خيانتهما أو كذبهما في الشهادة ﴿فآخران يقومان مقامهما من الذين استحقَّ عليهم الأوْليان﴾ أي فرجلان آخران من الورثة المستحقين للتركة يقومان مقام الشاهدين الخائنين وليكونا من أولى من يستحق الميراث ﴿فيقسمان بالله لشهادتنا أحقُّ من شهادتهما﴾ أي يحلفان بالله لشهادتنا أصدق وأولى بالسماع والاعتبار من شهادتهما لأنهما خانا ﴿وما اعتدينا إنا إذاً لمن الظالمين﴾ أي وما اعتدينا فيما قلنا فيهما من الخيانة إنّا إذا كذبنا عليهم نكون من الظالمين ﴿ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها﴾ أي ذلك الحكم أقرب أن يأتوا بالشهادة على حقيقتها من غير تغيير ولا تبديل ﴿أو يخافوا أن تُردَّ أيمانٌ بعد أيمانهم﴾ أي يخافوا أن يحلف غيرهم بعدهم فيفتضحوا ﴿واتقوا الله واسمعوا﴾ أي خافوا ربكم وأطيعوا أمره ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي والله لا يهدي الخارجين عن طاعته إلى جنته ورحمته .

البَـلاَغَـة :١ - ﴿الهدي والقلائد﴾ عطفُ القلائد على الهدي من عطف الخاص على العام، خُصّت

---

(١) ابو السعود ٢/ ٦٦ .

بالذكر لأن الثواب فيها أكثر، وبهاء الحج بها أظهر .

٢ - ﴿ما على الرسول إلا البلاغ﴾ أطلق المصدر البلاغ وأراد به التبليغ للمبالغة .

٣ - ﴿الخبيث والطيب﴾ بينهما طباقٌ ، وبين ﴿أصابتكم مصيبة﴾ جناس الاشتقاق وكلاهما من المحسنات البديعية .

٤ - ﴿شهادة بينكم﴾ جملة خبرية لفظاً إنشائية معنى يراد منها الأمر أي ليشهد بينكم .

الفـوائـد: قال الإمام الشاطبي : الإكثار من الأسئلة مذموم وله مواضع نذكر منها عشرة :

أحدها : السؤال عما لا ينفع في الدين كسؤال بعضهم : من أبي ؟

ثانيها : أن يسأل ما يزيد عن الحاجة كسؤال الرجل عن الحج : أكلَّ عام ؟

ثالثها : السؤال من غير احتياج إليه في الوقت ويدل عليه : « ذروني ما تركتكم » .

رابعها : أن يسأل عن صعاب المسائل وشرارها كما جاء في النهي عن الأغلوطات .

خامسها : ان يسأل عن علة الحكم في التعبدات كالسؤال عن قضاء الصوم للحائض دون الصلاة .

سادسها : أن يبلغ بالسؤال حدّ التكلف والتعمق كسؤال بني إسرائيل عن البقرة وما هي وما لونها ؟

سابعها : أن يظهر من السؤال معارضة الكتاب والسنة بالرأي ولذلك قال سعيد : أعراقي أنت ؟

ثامنها : السؤال عن المتشابهات ومن ذلك سؤال مالك عن الاستواء فقال:الاستواء معلوم..الخ.

تاسعها : السؤال عما حصل بين السلف وقد قال عمر بن عبد العزيز : تلك دماء كف الله عنها يدي فلا ألطّخ بها لساني .

عاشرها : سؤال التعنت والإفحام وطلب الغلبة في الخصام ففي الحديث : أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم[1] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أُجبتم . . . إلى . . آخر السورة الكريمة﴾ .

من آية (١٠٨) إلى نهاية آية (١٢٠) .

المناسبة : لمّا ذكر تعالى الوصية عند دنوّ الأجل وأمر بتقوى الله والسمع والطاعة ، أعقبه بذكر اليوم المهول المخيف وهو يوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين للجزاء والحساب ، ثم ذكر المعجزات التي أيّد بها عبده ورسوله « عيسى » ومنها المائدة من السماء ، وختم السورة الكريمة ببراءة السيد المسيح من دعوى الألوهية .

(١) نقلاً عن محاسن التأويل للقاسمي ٦/ ٢١٧٦ .

* ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ﴾

اللغــة : ﴿كففتُ﴾ منعتُ وصرفتُ ومنه الكفيف لأنه منع الرؤ ية ﴿أيدتك﴾ قوّيتك مأخوذ من الأيْد وهو القوة ﴿أوحيت﴾ الوحي : إلقاء المعنى الى النفس خفية وهو على أقسام : وحيٌ بمعنى الإلهام ووحيٌ بمعنى الإعلام في اليقظة والمنام ، ووحيٌ بمعنى إرسال جبريلَ إلى الرسل عليهم السلام[1] ﴿مائدة﴾ المائدة : الخُوان الذي عليه الطعام أي السُّفرة فإن لم يكن عليه طعام فليس بمائدة[2] ﴿الرقيب﴾ المراقب الشاهد على الأفعال ﴿أبداً﴾ أي بلا انقطاع .

التفسيـر : ﴿يـوم يجمـع اللـه الرسـل﴾ أي اذكروا أيها الناس ذلك اليوم الرهيب يوم القيامة حين يجمع الله الرسل والخلائق للحساب والجزاء ﴿فيقول مـاذا أجبتـم﴾ أي ما الذي أجابتكم به أممكم ؟ وما الذي ردّ عليكم قومكم حين دعوتموهم إلى الايمان والتوحيد ؟ ﴿قالوا لا علـم لنـا﴾ أي لا علم لنا إلى جنب علمك قال ابن عباس : أي لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا[3] ﴿إنـك أنـت علام الغيـوب﴾ أي تعلم ما لا نعلم ممّا ظهر وبطن قال أبو السعود : وفيه إظهارٌ للشكوى وردٌ للأمر إلى علمه تعالى بما لقوا من قومهم من الخطوب وكابدوا من الكروب والتجاءٌ إلى ربهم في الانتقام منهم[4] ﴿إذ قال اللـهُ يا عيسـى ابن مريم اذكر نعمتي عليـكَ وعلى والدتك﴾ قال ابن كثير : يذكر تعالى ما منَّ به على عبده ورسوله عيسى بن مريم عليه السلام بما أجراه على يديه من المعجزات وخوارق العادات أي اذكر نعمتي عليك في خلقي إياك من أمّ بلا ذكر وجعلي إيّاك آية قاطعة على كمال قدرتي ، وعلى والدتك حيث جعلتك برهاناً على براءتها مما اتهمها به الظالمون من الفاحشة[5] وقال القرطبي : هذا من صفة يوم القيامة كأنه قال : اذكر يوم يجمع الله الرسل وإذ يقول لعيسى كذا[6] وذكر بلفظ الماضي ﴿إذ قال﴾ تقريباً للقيامة لأن ما هو آتٍ قريب ﴿إذْ أيّدتـك بـروح القُـدُس﴾ أي حين قوّيتك بالروح الطاهرة المقدسة « جبريل » عليه السلام ﴿تكلّـمُ الناس فـي المهـد وكهلاً﴾ أي تكلّم الناس في المهد صبيّاً وفي الكهولة نبياً ﴿وإذ علمتـك الكتـاب والحكمة والتوراة والإنجيـلَ﴾ أي واذكر نعمتي عليك حين علمتك الكتابة والحكمة وهي العلم النافع مع التوراة والإنجيل ﴿وإذ تخلق من الطيـن كهيئـة الطيـر بإذني﴾ أي واذكر أيضاً حين كنت تصوّر الطيـن كصورة الطير

(١) القرطبي ٦/ ٣٦٣ . (٢) البحر ٤/ ٣٠ . (٣) القرطبي ٦/ ٣٦١ قال ابن كثير : وهذا من باب التأدب مع الرب جل جلاله أي لا علم بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء فأنت المطّلع على كل شيء فعلمنا كَلاَ شيء بالنسبة لعلمك المحيط .

(٤) أبو السعود ٢/ ٧٠ . (٥) ابن كثير ١/ ٥٦١ . (٦) القرطبي ٦/ ٣٦٢ .

﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٠﴾ وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾

بتيسيري وأمري ﴿**فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني**﴾ أي فتنفخ في تلك الصورة والهيئة فتصبح طيراً بأمر الله ومشيئته ﴿**وتبرىء الأكمه والأبرص بإذني**﴾ أي تشفي الأعمى الذي لا يبصر والأبرص الذي استعصى شفاؤه بأمري ومشيئتي ﴿**وإذ تُخرج الموتى بإذني**﴾ أي تحيي الموتى بأمري ومشيئتي ، وكرر لفظ ﴿**بإذني**﴾ مع كل معجزة رداً على من نسب الربوبية إلى عيسى ولبيان أن تلك الخوارق من جهته سبحانه أظهرها على يديه معجزة له ﴿**وإذ كففتُ بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات**﴾ أي واذكر حين منعتُ اليهود من قتلك لمّا همّوا وعزموا على الفتك بك حين جئتهم بالحجج والمعجزات ﴿**فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحرٌ مبين**﴾ أي قال الذين جحدوا نبوتك ولم يؤمنوا بك ما هذه الخوارق إلا سحرٌ ظاهر واضح ﴿**وإذ أوحيتُ إلى الحواريّين أن آمنوا بي وبرسولي**﴾ وهذا أيضاً من الامتنان على عيسى أي واذكر حين أمرتُ الحواريين وقذفت في قلوبهم أن صدّقوا بي وبرسولي عيسى بن مريم ﴿**قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون**﴾ أي قال الحواريون صدّقنا يا رب بما أمرتنا واشهد بأننا مخلصون في هذا الإيمان خاضعون لأمر الرحمن ﴿**إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزّل علينا مائدة من السماء**﴾ أي واذكر حين قال الحواريون يا عيسى هل يقدر ربك على إنزال مائدة من السماء علينا ؟ قال القرطبي : وكان هذا السؤال في ابتداء أمرهم قبل استحكام معرفتهم بالله عز وجل ويجوز أن يكون ذلك صدر ممن كان معهم من الجهال كما قال بعض قوم موسى ﴿**اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة**﴾[1] وقال أبو حيان : وهذا اللفظ يقتضي ظاهره الشك في قدرة الله تعالى على أن ينزّل مائدة من السماء وهذا ما ذهب إليه الزمخشري[2] وأما غيره من أهل التفسير فأطبقوا على أن الحواريين كانوا مؤمنين وهم خواص عيسى وأنهم لم يشكّوا في ذلك حتى قال الحسن : لم يشكوا في قدرة الله وإنما سألوه سؤال مستخبر هل ينزّل أم لا ؟ فإن كان ينزّل فاسأله لنا[3] فسؤالهم كان للاطمئنان والتثبت ﴿**قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين**﴾ أي اتقوا الله في أمثال هذه الأسئلة إن كنتم مصدقين بكمال قدرته تعالى ﴿**قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا**﴾ أي قال الحواريون نريد بسؤالنا المائدة أن نأكل منها تبركاً وتسكن نفوسنا بزيادة اليقين ﴿**ونعلم أن قد صدقتنا**﴾ أي ونعلم علماً

(١) القرطبي ٦/ ٣٦٤ . (٢) قال الزمخشري : فإن قلت : كيف قالوا هل يستطيع ربك بعد إيمانهم وإخلاصهم ؟ قلت : ما وصفهم الله بالإيمان والإخلاص وإنما حكى ادعاءهم لهما فدعواهم كانت باطلة وإنهم شاكين وهذا كلام لا يرد مثله عن مؤمنين معظمين لربهم ! الكشاف ١/ ٥٤٠ . (٣) البحر ٤/ ٥٣ .

قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ

يقيناً لا يحوم حوله شائبة من الشك بصدقك في دعوى النبوة ﴿ونكون عليها من الشاهدين﴾ أي نشهد بها عند من لم يحضرها من الناس ﴿قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء﴾ أجابهم عيسى إلى سؤال المائدة لإلزامهم بالحجة الدامغة وروي أنه لما أراد الدعاء لبس جبة شعر ورداء شعر وقام يصلي ويدعو ربه ويبكي قال أبو السعود : نادى عيسى ربه مرتين : مرة بوصف الألوهية الجامعة لجميع الكمالات ، ومرة بوصف الربوبية المنبئة عن التربية إظهاراً لغاية التضرع[١] ﴿تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا﴾ أي يكون يوم فرح وسرور لنا ولمن يأتي بعدنا ﴿وآيةً منك وارزقنا وأنت خير الرازقين﴾ أي ودلالة وحجة شاهدة على صدق رسولك وارزقنا يا ألله فإنك خير من يعطي ويرزق لأنك الغني الحميد ﴿قال الله إني منزّلها عليكم﴾ أي أجاب الله دعاءه فقال إني سأُنزل عليكم هذه المائدة من السماء ﴿فمن يكفر بعد منكم فإني أُعذبه عذاباً لا أُعذبه أحداً من العالمين﴾ أي من كفر بعد تلك الآية الباهرة فسوف أعذبه عذاباً شديداً لا أُعذّب مثل ذلك التعذيب أحداً من البشر وفي الحديث (أُنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً وأُمروا ألا يدّخروا لغدٍ ولا يخونوا فخانوا وادخروا ورفعوا لغدٍ فمسخوا قردة وخنازير)[٢] قال في التسهيل : جرت عادة الله عز وجل بعقاب من كفر بعد اقتراح آية فأُعطيها ، ولما كفر بعض هؤلاء مسخهم الله خنازير[٣] ﴿وإذ قال اللهُ يا عيسى ابن مريم أأنتَ قلتَ للناس اتخذوني وأُمي إلٰهين من دون الله﴾ هذا عطف قصة على قصة ﴿إذ قال الحواريون﴾ ﴿وإذ قال الله يا عيسى﴾ قال ابن عباس : هذا القول يكون من الله يوم القيامة على رءوس الخلائق ليعلم الكفار أنهم كانوا على باطل[٤] والمعنى : اذكر للناس يوم يخاطب الله عبده ورسوله عيسى بن مريم في الآخرة توبيخاً للكفرة وتبكيتاً لهم قائلاً : يا عيسى أأنت دعوت الناس إلى عبادتك والاعتقاد بألوهيتك وألوهية أمك ؟! قال القرطبي : إنما سأله عن ذلك توبيخاً لمن ادّعى ذلك عليه ليكون إنكاره بعد السؤال أبلغ في التكذيب وأشد في التوبيخ والتقريع[٥] ﴿قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾ أي أنزهك عما لا يليق بك يا رب فما ينبغي لي أن أقول قولاً لا يحق لي أن أقوله ﴿إن كنت قلته فقد علمته﴾ أي إن كان ذلك صدر مني فإنك لا يخفى عليك شيء وأنت العالم بأني لم أقله ، وهذا اعتذارٌ وبراءة من ذلك القول ومبالغةٌ في الأدب وإظهار الذلّة والمسكنة في حضرة ذي الجلال ﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب﴾ أي تعلم حقيقة

(١) أبو السعود ٢/ ٧٣ . (٢) أخرجه الترمذي في باب التفسير . (٣) التسهيل ١/ ١٩٤ . (٤) البحر ٤/ ٥٨ . (٥) القرطبي ٦/ ٣٧٥ .

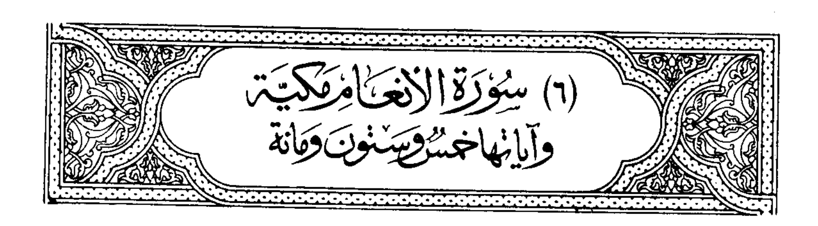
تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾

ذاتي وما انطوت عليه ولا أعلم حقيقة ذاتك وما احتوت عليه من صفات الكمال إنك أنت العالم بالخفايا والنوايا وعلمك محيط بما كان وما يكون ﴿ما قلتُ لهم إلا ما أمرتني به﴾ أي ما أمرتهم إلا بما أمرتني به قال الرازي : وضع القول موضع الأمر نزولاً على موجب الأدب لئلا يجعل نفسه وربه آمرين معاً ﴿أن اعبدوا الله ربي وربكم﴾ أي قلت لهم اعبدوا الله خالقي وخالقكم فأنا عبد مثلكم ﴿وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم﴾ أي كنت شاهداً على أعمالهم حين كنتُ بين أظهرهم ﴿فلما توفيتني كنتَ أنت الرقيب عليهم﴾ أي فلما قبضتني إليك بالرفع إلى السماء كنت يا ألله الحفيظ لأعمالهم ، والشاهد على أفعالهم ﴿وأنت على كل شيء شهيد﴾ أي وأنت المطّلع على كل شيء لا يخفى عليك شيء ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾ أي إن تعذبهم فأنت مالكهم تتصرف فيهم كيف شئت لا اعتراض عليك ﴿وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ أي وإن تغفر لمن تاب منهم فإنك أنت الغالب على أمره الحكيم في صنعه ﴿قال اللهُ هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾ أي يوم القيامة ينفع الصادقين في الدنيا صدقُهم لأنه يوم الجزاء ﴿لهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً﴾ أي لهم جنات تجري من تحت غرفها وأشجارها الأنهار ماكثين فيها لا يخرجون منها أبداً ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم﴾ أي نالوا رضوان الله لصدقهم ورضوا عن الله فيما أثابهم وجازاهم ذلك هو الظفر والفوز الكبير بجنات النعيم ﴿لله ملك السمٰوات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير﴾ أي الجميع ملكه وتحت قهره ومشيئته وهو القادر على كل شيء .

تنبيه : روى الإمام مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ تلا قول الله عز وجل في إبراهيم ﴿ربِّ إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾ وقول عيسى ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ فرفع يديه وقال : اللّهم أمتي أمتي وبكى فقال الله تعالى يا جبريل : اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم ـ فاسأله ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم ، فقال الله يا جبريل : اذهب إلى محمد فقل له إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك » .

* * *

« تم بعونه تعالى تفسير سورة المائدة »



بين يدي السورة

سورة الأنعام إحدى السور المكية الطويلة التي يدور محورها حول « العقيدة وأصول الإيمان » وهي تختلف في أهدافها ومقاصدها عن السور المدنية التي سبق الحديث عنها كالبقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، فهي لم تعرض لشيءٍ من الأحكام التنظيمية لجماعة المسلمين ، كالصوم والحج والعقوبات وأحكام الأسرة ، ولم تذكر أمور القتال ومحاربة الخارجين على دعوة الإسلام، كما لم تتحدث عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ولا على المنافقين ، وإنما تناولت القضايا الكبرى الأساسية لأصول العقيدة والإيمان ، وهذه القضايا يمكن تلخيصها فيما يلي :

١ ـ قضية الألوهية ٢ ـ قضية الوحي والرسالة ٣ ـ قضية البعث والجزاء .

* نجد الحديث في هذه السورة مستفيضاً يدور بشدة حول هذه الأصول الأساسية للدعوة الإسلامية ، ونجد سلاحها في ذلك الحجة الدامغة ، والدلائل الباهرة ، والبرهان القاطع في طريق الإلزام والإقناع لأن السورة نزلت في مكة على قوم مشركين . ومما يلفت النظر في السورة الكريمة أنها عرضت لأسلوبين بارزين لا نكاد نجدهما بهذه الكثرة في غيرها من السور هما : ١ ـ أسلوب التقرير ٢ ـ أسلوب التلقين .

* أما الأول : «أسلوب التقرير» فإن القرآن يعرض الأدلة المتعلقة بتوحيد الله والدلائل المنصوبة على وجوده وقدرته ، وسلطانه وقهره ، في صورة الشأن المسلَّم ، ويضع لذلك ضمير الغائب عن الحسّ الحاضر في القلب الذي لا يماري فيه قلب سليم ولا عقل راشد في أنه تعالى المبدع للكائنات صاحب الفضل والإنعام فيأتي بعبارة « هو » الدالة على الخالق المدبر الحكيم ، استمع قوله تعالى ﴿هو الذي خلقكم من طين﴾ . . ﴿وهو الله في السموات والأرض﴾ . . ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾ . . ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ . . ﴿وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق . . .﴾ الخ .

* أما الثاني : «أسلوب التلقين» فإنه يظهر جلياً في تعليم الرسول ﷺ تلقين الحجة ليقذف بها في وجه الخصم بحيث تأخذ عليه سمعه ، وتملك عليه قلبه فلا يستطيع التخلص أو التفلت منها ، ويأتي هذا

الأسلوب بطريق السؤال والجواب يسألهم ثم يجيب استمع إلى الآيات الكريمة ﴿قل لمن ما في السموات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة﴾ . . ﴿قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم﴾ . . ﴿قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم مَنْ إله غير الله يأتيكم به﴾ . . ﴿وقالوا لولا نُزّل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن يُنزّل آية ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون﴾ وهكذا تعرض السورة الكريمة لمناقشة المشركين وإفحامهم بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة التي تقصم ظهر الباطل .

ومن هنا كانت سورة الأنعام بين السور المكية ذات شأن في تركيز الدعوة الإسلامية[1] ، تقرر حقائقها ، وتثبّت دعائمها ، وتفنّد شبه المعارضين لها بطريق التنويع العجيب في المناظرة والمجادلة ، فهي تذكر توحيد الله جلَّ وعلا في الخلق والإيجاد ، وفي التشريع والعبادة ، وتذكر موقف المكذبين للرسل وتقص عليهم ما حاق بأمثالهم السابقين ، وتذكر شبههم في الوحي والرسالة ، وتذكر يوم البعث والجزاء ، وتبسط كل هذا بالتنبيه إلى الدلائل في الأنفس والآفاق ، وفي الطبائع البشرية وقت الشدة والرخاء . . وتذكر أبا الأنبياء إبراهيم وجملة من أبنائه الرسل وترشد الرسول ﷺ إلى اتباع هداهم وسلوك طريقهم في احتمال المشاق وفي الصبر عليها ، وتعرض لتصوير حال المكذبين يوم الحشر، وتفيض في هذا بألوان مختلفة ثم تعرض لكثير من تصرفات الجاهلية التي دفعهم إليها شركهم فيما يختص بالتحليل والتحريم وتقضي عليه بالتفنيد والإبطال ، ثم تختم السورة بعد ذلك ـ في ربع كامل ـ بالوصايا العشر التي نزلت في كل الكتب السابقة ، ودعا إليها جميع الأنبياء السابقين ﴿قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم . .﴾ الآية وتنتهي بآية فذة تكشف للإنسان عن مركزه عند ربه في هذه الحياة . وهو أنه خليفةٌ في الأرض ، وأن الله سبحانه جعل عمارة الكون تحت يد الإنسان تتعاقب عليها أجياله ، ويقوم اللاحق منها مقام السابق ، وأن الله سبحانه قد فاوت في المواهب بين أفراد الإنسان لغاية سامية وحكمة عظيمة وهي « الابتلاء والاختبار » في القيام بتبعات هذه الحياة ، وذلك شأن يرجع إليه كماله المقصود من هذا الخلق وذلك النظام ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾ .

التسمية : سميت بـ « سورة الأنعام » لورود ذكر الأنعام فيها ﴿وجعلوا للّه مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً . .﴾ ولأن أكثر أحكامها الموضحة لجهالات المشركين تقرباً بها إلى أصنامهم مذكورة فيها ، ومن خصائصها ما روي عن ابن عباس أنه قال : نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملةً واحدة ، حولها سبعون ألف ملك يجأرون بالتسبيح[2] .

* * *

(١) يقول الإمام الرازي : « امتازت هذه السورة بنوعين من الفضيلة : أحدهما أنها نزلت دفعة واحدة ، وثانيهما أنه شيّعها سبعون ألفاً من الملائكة ، والسبب في هذا الامتياز أنها مشتملة على دلائل التوحيد ، والعدل ، والنبوة ، والمعاد ، وإبطال مذاهب المبطلين والملحدين » ويقول الإمام القرطبي : إن هذه السورة أصلٌ في محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين ، ومن كذب بالبعث والنشور ، وهذا يقتضي إنزالها جملة واحدة . (٢) محاسن التأويل ٦/ ٢٢٣٢ .

قال الله تعالى : ﴿الحمد لله الذي خلق السَّموات والأرضَ . . إلى . . وهو الحكيم الخبير﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (١٨) .

اللغــــة : ﴿يعدلون﴾ يسوّون به غيره ويجعلون له عِدْلاً وشريكاً يقال : عدل فلاناً بفلان أي سواه به ﴿تمترون﴾ تشكّون يقال امترى في الأمر إذا شك فيه ﴿قـرن﴾ القرن : الأمة المقترنة في مدةٍ من الزمان ومنه حديث (خير القرون قرني) وأصل القرن مائة سنة ثم أصبح يطلق على الأمة من الناس التي تعيش في ذلك العصر قال الشاعر :

إذا ذهب القرنُ الـذي كنـتَ فيهـم وخلفت في قرنٍ فأنـت غريب[1]

﴿مدراراً﴾ غزيرة دائمة ﴿قرطاس﴾ القرطاس : الصحيفة التي يكتب فيها ﴿لبَسْنا﴾ خلطنا يقال لَبَسْتُ عليه الأمر أي خلطته عليه حتى اشتبه ﴿حاق﴾ نزل بهم وأصابهم ﴿وليـاً﴾ ناصراً ومعيناً .

سَبَبُ النّزول : روي أن مشركي مكة قالوا : يا محمد والله لا نؤ من لك حتى تأتينا بكتابٍ من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله وأنك رسوله فأنزل الله ﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاسٍ فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحرٌ مبين﴾[2] .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى

التفسـيـر : ﴿الحمد للـه الـذي خلق السموات والأرض﴾ بدأ تعالى هذه السورة بالحمد لنفسه تعليماً لعباده أن يحمدوه بهذه الصيغة الجامعة لصنوف التعظيم والتبجيل والكمال وإعلاماً بأنـه المستحـق لجميع المحامد فلا نِدَّ له ولا شريك ، ولا نظير ولا مثيل ومعنى الآية : احمدوا الله ربكم المتفضـل عليكم بصنوف الإنعام والإكرام الذي أوجـد وأنشأ وابتدع خلق السموات والأرض بما فيهما من أنواع البدائع وأصناف الروائع ، وبما اشتملا عليه من عجائب الصنعة وبدائع الحكمة ، بما يدهش العقول والأفكار تبصرة وذكرى لأولي الأبصار ﴿وجعـل الظلمـات والنـور﴾ أي وأنشأ الظلمات والأنوار وخلق الليل والنهار يتعاقبان في الوجود لفائدة العوالم بما لا يدخل تحت حصر أو فكر، وجمع الـظلمات لأن شعب الضلال متعددة ، ومسالكه متنوعة، وأفرد النور لأن مصدره واحد هو الرحمن منوّر الأكوان قال في التسهيل : وفي الآية ردٌّ على المجوس في عبادتهم للنار وغيرها من الأنوار ، وقولهم إن الخير من النور والشر من الظلمة ، فإن المخلوق لا يكون إلهاً ولا فاعلاً لشيء من الحـوادث[3] ﴿ثـم الـذيـن كفـروا بربهـم

(١) القرطبي ٦/ ٣٩١ . (٢) أسباب النزول ص ١٢٢ . (٣) التسهيل ٢/ ٢ .

﴿ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٤ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٦ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ﴾

يعدلـون﴾ أي ثم بعد تلك الدلائل الباهرة والبراهين القاطعة على وجود الله ووحدانيته يشرك الكافرون بربهـم فيساوون به أصناماً نحتـوها بأيديهم ، وأوهاماً ولّدوها بخيالهم ، ففي ذلك تعجيب من فعلهم وتوبيخ لهم قال ابن عطية : والآية دالة على قبح فعل الكافرين لأن المعنى أن خلقه السموات والأرض وغيرها قد تقرر ، وآياته قد سطعت ، وإنعامه بذلك قد تبين ، ثم بعد هذا كله قد عدلوا بربهم فهذا كما تقول : يا فلان أعطيتُك وأكرمتُك وأحسنتُ إليك ثم تشتمني ؟ أي بعد وضوح هذا كله[1] **﴿هو الـذي خلقكـم من طيـن﴾** أي خلق أباكم آدم من طين **﴿ثـم قضـى أجـلاً﴾** أي حكم وقدَّر لكم أجلاً من الزمن تموتون عند انتهائه **﴿وأجلٌ مسمّى عنده﴾** أي وأجلٌ آخر مسمّى عنده لبعثكم جميعاً ، فالأجل الأول الموتُ والثاني البعثُ والنشور **﴿ثم أنتـم تمتـرون﴾** أي ثم أنتم أيها الكفار تشكّون في البعث وتنكرونه بعد ظهور تلك الآيات العظيمة **﴿وهـو الله في السموات وفـي الأرض﴾** أي هو الله المعظّم المعبود في السموات والأرض قال ابن كثير : أي يعبده ويوحده ويقر له بالألوهية من في السموات والأرض ويدعونه رغباً ورهباً ويسمونـه اللـه[2] **﴿ يعلـم سركـم وجهـركـم﴾** أي يعلـم سركم وعلَنكـم **﴿ويعلـم ما تكسبون﴾** أي من خير أو شر وسيجازيكم عليه ، ثم أخبر تعالى عن عنادهم وإعراضهـم فقـال **﴿ومـا تأتيهـم من آيـة من آيات ربهـم﴾** أي ما يظهر لهم دليل من الأدلة أو معجزة من المعجزات أو آية من آيات القرآن **﴿إلا كانوا عنهـا معرضيـن﴾** أي إلاّ تركوا النظر فيها ولم يلتفتوا إليها قال القرطبي : والمراد تركهم النظر في الآيات التي يجب ان يستدلوا بها على توحيد الله عز وجل ، والمعجزات التي أقامها لنبيه ﷺ التي يستدل بها على صدقه في جميع ما أتى به عن ربه[3] **﴿فقـد كذبـوا بالحق لما جاءهـم﴾** أي كذبوا بالقرآن الذي جاءهم من عند الله **﴿فسـوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئـون﴾** أي سوف يحل بهم العقاب ان عاجلاً أو آجلاً ويظهر لهم خبر ما كانوا به يستهزئون ، وهذا وعيدٌ بالعذاب والعقاب على استهزائهم ، ثم حضهم تعالى على الاعتبار بمن سبقهم من الأمم فقال **﴿ألـم يروا كم أهلكنـا من قبلهم من قرن﴾** أي ألا يعتبرون بمن أهلكنا من الأمم قبلهم لتكذيبهم الأنبياء ألم يعرفوا ذلك ؟ **﴿مكنّاهـم فـي الأرض ما لم نمكّـنْ لكـم﴾** أي منحناهم من أسباب السعة والعيش والتمكين في الأرض ما لم نعطكم يا أهـل مكة **﴿وأرسلنـا السماء عليهم مدراراً﴾** أي أنزلنا المطر غزيراً متتابعاً يدرُّ عليهم درّاً **﴿وجعلنـا الأنهار تجـري**

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٦٨ (٢) ابن كثير ١/ ٥٦٨ (٣) القرطبي ٦/ ٣٩٠ .

بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ

من تحتهم﴾ أي من تحت أشجارهم ومنازلهم حتى عاشوا في الخِصب والريف بين الأنهار والثمار ﴿فأهلكناهم بذنوبهم﴾ أي فكفروا وعصوا فأهلكناهم بسبب ذنوبهم ، وهذا تهديد للكفار أن يصيبهم مثل ما أصاب هؤلاء على حال قوتهم وتمكينهم في الأرض ﴿وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾ أي أحدثنا من بعد إهلاك المكذبين قوماً آخرين غيرهم قال أبو حيان : وفيه تعريض للمخاطبين بإهلاكهم إذا عصوا كما أهلك من قبلهم[1] ﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس﴾ أي لو نزّلنا عليك يا محمد كتاباً مكتوباً على ورقٍ كما اقترحوا ﴿فلمسوه بأيديهم﴾ أي فعاينوا ذلك ومسّوه باليد ليرتفع عنهم كل إشكال ويزول كل ارتياب ﴿لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحرٌ مبين﴾ أي لقال الكافرون عند رؤية تلك الآية الباهرة تعنتاً وعناداً ما هذا إلا سحرٌ واضح ، والغرضُ أنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم أوضح الآيات وأظهر الدلائل ﴿وقالوا لولا أُنزل عليه ملك﴾ أي هلاّ أنزل على محمد ملك يشهد بنبوته وصدقه و ﴿لولا﴾ بمعنى هلاّ للتحضيض قال أبو السعود : أي هلاّ أُنزل عليه ملك بحيث نراه ويكلمنا أنه نبيّ وهذا من أباطيلهم المحققة وخرافاتهم الملفّقة التي يتعللون بها كلما ضاقت عليهم الحِيَل وعييت بهم العلل[2] ﴿ولو أنزلنا ملكاً لقُضي الأمر﴾ أي لو أنزلنا الملك كما اقترحوا وعاينوه ثم كفروا لحقّ إهلاكهم[3] كما جرت عادة الله بأن من طلب آية ثم لم يؤمن أهلكه الله حالاً ﴿ثم لا يُنظرون﴾ أي ثم لا يُمهلون ولا يؤخرون ، والآية كالتعليل لعدم إجابة طلبهم ، فإنهم ـ في ذلك الإقتراح ـ كالباحث عن حتفه بظِلْفه ﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً﴾ أي لو جعلنا الرسول ملكاً لكان في صورة رجل لأنهم لا طاقة لهم على رؤية الملك في صورته ﴿ولَلبسْنا عليهم ما يلْبِسون﴾ أي لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم وعلى ضعفائهم ، فإنهم لو رأوا الملك في صورة إنسان قالوا هذا إنسانٌ وليس بملك قال ابن عباس : لو أتاهم ملكٌ ما أتاهم إلا في صورة رجل لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة من النور[4] ، ثم قال تعالى تسلية للنبي ﷺ ﴿ولقد استهزىء برسلٍ من قبلك﴾ أي والله لقد استهزأ الكافرون من كل الأمم بأنبيائهم الذين بعثوا إليهم ﴿فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون﴾ أي أحاط ونزل بهؤلاء المستهزئين بالرسل عاقبة استهزائهم ، وفي هذا الإخبار تهديد للكفار ﴿قل سيروا في الأرض ثم انظروا

(١) البحر المحيط ٤/ ٧٧ . (٢) أبو السعود ٢/ ٨٣ . (٣) وقيل : المعنى لو أنزلنا ملكاً لماتوا من هول رؤيته إذ لا يطيقون رؤيته وهو منقول عن ابن عباس كذا في القرطبي ٦/ ٢٩٣ . (٤) ابن كثير ١/ ٥٦٩ المختصر .

﴿يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾

كيف كان عاقبة المكذبين﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين الساخرين: سافروا في الأرض فانظروا وتأملوا ماذا حلّ بالكفرة قبلكم من العقاب وأليم العذاب لتعتبروا بآثار من خلا من الأمم كيف أهلكهم الله وأصبحوا عبرةً للمعتبرين **﴿قل لمن ما في السموات والأرض﴾** أي قل يا محمد لمن الكائنات جميعاً خلقاً وملكاً وتصرفاً؟ والسؤال لإقامة الحجة على الكفار فهو سؤال تبكيت **﴿قل لله﴾** أي قل لهم تقريراً وتنبيهاً هي لله لأن الكفار يوافقون على ذلك بالضرورة لأنه خالق الكل إما باعترافهم أو بقيام الحجة عليهم **﴿كتب على نفسه الرحمة﴾** أي ألزم نفسه الرحمة تفضلاً وإحساناً والغرضُ التلطف في دعائهم إلى الايمان وإنابتهم إلى الرحمن **﴿ليجمعنكم**[1] **إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾** أي ليحشرنكم من قبوركم مبعوثين إلى يوم القيامة الذي لا شك فيه ليجازيكم بأعمالكم **﴿الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾** أي أضاعوها بكفرهم وأعمالهم السيئة في الدنيا فهم لا يؤمنون ولهذا لا يقام لهم وزن في الآخرة وليس لهم نصيب فيها سوى الجحيم والعذاب الأليم **﴿وله ما سكن في الليل والنهار﴾** أي لله عز وجل ما حلّ واستقر في الليل والنهار الجميع عباده وخلقه وتحت قهره وتصرفه، والمراد عموم ملكه تعالى لكل شيء **﴿وهو السميع العليم﴾** أي السميع لأقوال العباد العليم بأحوالهم **﴿قل أغير الله أتخذ ولياً﴾** الاستفهام للتوبيخ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين أغير الله أتخذ معبوداً؟ **﴿فاطر السموات والأرض﴾** أي خالقهما ومبدعهما على غير مثال سابق **﴿وهو يُطعم ولا يُطعم﴾** أي هو جل وعلا يرْزق ولا يُرْزَق قال ابن كثير: أي هو الرازق لخلقه من غير احتياج إليهم[2] **﴿قل إني أُمرتُ أن أكون أوّلَ من أسلم﴾** أي قل لهم يا محمد إن ربي أمرني أن أكون أول من أسلم لله من هذه الأمة **﴿ولا تكوننَّ من المشركين﴾** أي وقيل لي: لا تكوننَّ من المشركين قال الزمخشري ومعناه: أُمرتُ بالإسلام ونهيتُ عن الشرك[3] **﴿قل إني أخاف إن عصيتُ ربي عذاب يوم عظيم﴾** أي قل لهم أيضاً إنني أخاف إن عبدتُ غير ربي عذاب يوم عظيم هو يوم القيامة **﴿من يصرف عنه يومئذٍ فقد رحمه﴾** أي من يصرف

(١) قال أبو السعود: هذا جواب قسم محذوف والجملة استئناف مسوقٌ للوعيد على إشراكهم وإغفالهم النظر أي والله ليجمعنكم في القبور.. الخ. (٢) مختصر ابن كثير ١/ ٥٧٠. (٣) الكشاف ٢/ ٧.

عنه العذاب فقد رحمه الله ﴿وذلك هو الفوز المبين﴾ أي النجاة الظاهرة ﴿وإن يمسَسْك الله بضرٍ فلا كاشف له إلا هو﴾ أي إن تنزل بك يا محمد شدةٌ من فقرٍ أو مرضٍ فلا رافع ولا صارف له إلا هو ولا يملك كشفه سواه ﴿وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير﴾ أي وإن يصبك بخيرٍ من صحةٍ ونعمة فلا رادّ له لأنه وحده القادر على إيصال الخير والضر قال في التسهيل : والآية برهان على الوحدانية لانفراد الله تعالى بالضر والخير وكذلك ما بعد هذا من الأوصاف براهين ورد على المشركين[1] ﴿وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير﴾ قال ابن كثير : أي هو الذي خضعت له الرقاب وذلّت له الجبابرة وعنت له الوجوه وقهر كل شيء وهو الحكيم في جميع أفعاله الخبير بمواضع الأشياء[2] .

البَلاَغَة : ١ - ﴿الحمد لله﴾ الصيغة تفيد القصر أي لا يستحق الحمد والثناء إلا الله رب العالمين .

٢ - ﴿جعل الظلمات والنور﴾ فيه من المحسنات البديعية الطباق .

٣ - ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ فيه استبعاد أن يعدلوا به غيره بعد وضوح آيات قدرته ووضع الرب ﴿ربهم﴾ موضع الضمير لزيادة التشنيع والتقبيح .

٤ - ﴿سركم وجهركم﴾ بينهما طباق .

٥ - ﴿من قرن﴾ أي أهل قرن فهو مجاز مرسل .

٦ - ﴿وأرسلنا السماء عليهم مدراراً﴾ أي المطر عبَّر عنه بالسماء لأنه ينزل من السماء فهو مجاز أيضاً .

٧ - ﴿استهزىء برسل﴾ تنكير رسل للتفخيم والتكثير .

٨ - ﴿السميع العليم﴾ من صيغ المبالغة .

فَائِدَة : فى القرآن العظيم خمس سور ابتدأت بـ ﴿الحمد لله﴾ وهي سورة الفاتحة ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ والانعام ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض﴾ وسورة الكهف ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب﴾ وسورة سبأ ﴿الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾ وسورةُ فاطر ﴿الحمد لله فاطر السموات والأرض﴾ .

* * *

قال الله تعالى : ﴿قل أي شيء أكبر شهادة قل الله . . إلى . . فلا تكوننَّ من الجاهلين﴾ من آية (١٩) إلى نهاية آية (٣٥) .

المُنَاسَبَة : لما أفاض جلّ ذكره في إقامة الدلائل والبراهين على قدرته ووحدانيته من أول السورة الكريمة ذكر هنا شهادته تعالى على صدق نبوة محمد عليه السلام ثم ذكر موقف الجاحدين للقرآن المكذبين للوحي ، وحسرتهم الشديدة يوم القيامة .

اللغَة : ﴿لأنذركم﴾ الإنذار : إخبار فيه تخويف ﴿فتنتهم﴾ الفتنة الاختبار ﴿أكنّة﴾ جمع

(١) التسهيل ٢/ ٤ . (٢) ابن كثير ١/ ٥٧١ .

كِنان وهو الغطاء ﴿وقراً﴾ ثقلاً يقال وقرت أذنه إذا ثقلت أو صُمّت ﴿أساطير﴾ خرافات وأباطيل جمع أسطورة قال الجوهري الأساطير : الأباطيل والتُّرهات[1] ﴿ينأون﴾ يبعدون يقال نأى عنه إذا ابتعد ﴿بغتة﴾ فجأة يقال : بغته إذا فَجَأه ﴿فرطنا﴾ فرّط : قصّر مع القدرة على ترك التقصير قال أبو عبيد : فرَّط : ضيّع ﴿أوزارهم﴾ ذنوبهم جمع وزر ﴿يزرون﴾ يحملون ﴿لهو﴾ اللهو : صرف النفس عن الجدّ إلى الهزل ، وكل ما شغلك فقد ألهاك .

سَبَبُ النّزول : أ ـ روي أن رؤساء مكة قالوا يا محمد : ما نرى أحداً يصدقك بما تقول من أمر الرسالة ، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس لك عندهم ذكرٌ ولا صفةٌ فأرنا من يشهد لك أنك رسول كما تزعم ؟ فأنزل الله ﴿قل أي شيء أكبر شهادة ؟ قل الله شهيد بيني وبينكم . .﴾[2] الآية .

ب ـ عن ابن عباس أن « أبا سفيان » و « الوليد بن المغيرة » و « النضر بن الحارث » جلسوا إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ القرآن فقالوا للنضر : ما يقول محمد ؟ فقال أساطير الأولين مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية فأنزل الله ﴿ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنّة أن يفقهوه . .﴾[3] الآية .

ج ـ روي أن « الأخْنس بن شُريق» التقى بـ « أبي جهل بن هشام » فقال له : يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادقٌ هو أم كاذب ؟ فإنه ليس عندنا أحدٌ غيرنا فقال أبو جهل : والله إن محمداً لصادق وما كذب قط ، ولكن إذا ذهب « بنو قصيّ » باللواء ، والسقاية ، والحجابة ، والنبوة فماذا يكون لسائر قريش ؟ فأنزل الله ﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك . .﴾[4] الآية .

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾

التفسِير : ﴿قل أيُّ شيء أكبر شهادة﴾ أي قل لهم يا محمد أي شيء أعظم شهادة حتى يشهد لي بأني صادقٌ في دعوى النبوة ؟ ﴿قل الله شهيد بيني وبينكم﴾ أي أجبهم أنت وقل لهم الله يشهد لي بالرسالة والنبوة وكفى بشهادة الله لي شهادة قال ابن عباس : قال الله لنبيه محمد ﷺ قل لهم أي شيء أكبر شهادة فإن أجابوك وإلاّ فقل لهم الله شهيد بيني وبينكم[5] ﴿وأوحي إليَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾ أي وأوحي إليَّ هذا القرآن لأنذركم به يا أهل مكة وأنذر كل من بلغه القرآن من العرب والعجم إلى يوم القيامة قال ابن جزيّ : والمقصودُ بالآية الاستشهاد بالله ـ الذي هو أكبر شهادة ـ على صدق رسول الله ﷺ وشهادة الله بهذا هي علمه بصحة نبوة سيدنا محمد ﷺ وإظهار معجزته الدالة على صدقه[6] ﴿أإنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى﴾ استفهام توبيخ أي أئنكم أيها المشركون لتقرون بوجود آلهة مع الله؟

(١) مجمع البيان ٤/ ٢٨٦ . (٢) أسباب النزول ص ١٢٢ . (٣) القرطبي ٦/ ٤١٤ .
(٤) التفسير الكبير ١٢/ ٢٠٥ . (٥) البحر ٤/ ٩٠ . (٦) التسهيل ٢/ ٥ .

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن﴾

فكيف تشهدون أن مع الله آلهة أُخرى بعد وضوح الأدلة وقيام الحجة على وحدانية الله ؟ ﴿**قل لا أشهد**﴾ أي قل لهم لا أشهد بذلك ﴿**قل إنما هو إله واحد**﴾ أي قل يا محمد إنما أشهد بأن الله واحد أحدٌ ، فرد صمد ﴿**وإنني بريء مما تشركون**﴾ أي وأنا بريء من هذه الأصنام ، ثم ذكر تعالى أن الكفار بين جاهل ومعاند فقال ﴿**الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم**﴾ يعني اليهود والنصارى الذين عرفوا وعاندوا يعرفون النبي ﷺ بحليته ونعته على ما هو مذكور في التوراة والإنجيل كما يعرف الواحد منهم ولده لا يشك في ذلك أصلاً قال الزمخشري : و هذا استشهادٌ لأهل مكة بمعرفة أهل الكتاب وبصحة نبوته[1] ﴿**الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون**﴾ أي أولئك هم الخاسرون لأنهم لم يؤ منوا بمحمد ﷺ بعد وضوح الآيات ﴿**ومن أظلمُ ممن افترى على الله كذباً أو كذّب بآياته**﴾ الاستفهام إنكاري ومعناه النفي أي لا أحد أظلم ممن اختلق على الله الكذب أو كذّب بالقرآن والمعجزات الباهرة وسمّاها سحراً قال أبو السعود : وكلمة ﴿**أو**﴾ للإيذان بأن كلاً من الافتراء والتكذيب وحده بالغٌ غاية الإفراط في الظلم ، فكيف وهم قد جمعوا بينهما فأثبتوا ما نفاه الله ونفوا ما أثبته ! قاتلهم الله أنى يؤ فكون[2] ﴿**إنه لا يفلح الظالمون**﴾ أي لا يفلح المفتري ولا المكذّب وفيه إشارة إلى أن مدّعي الرسالة لو كان كاذباً لكان مفترياً على الله فلا يكون محلاً لظهور المعجزات ﴿**ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا**﴾ أي اذكر يوم نحشرهم جميعاً للحساب ونقول لهم على رءوس الأشهاد ﴿**أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون**﴾ أي أين آلهتكم التي جعلتموها شركاء لله ؟ قال البيضاوي : والمراد من الاستفهام التوبيخ و ﴿**تزعمون**﴾ أي تزعمونهم آلهة وشركاء مع الله فحذف المفعولان ولعله يحال بينهم وبين آلهتهم حينئذٍ ليفقدوها في الساعة التي علقوا بها الرجاء فيها[3] قال ابن عباس : كل زعم في القرآن فهو كذب[4] ﴿**ثم لم تكن فتنتهم**﴾ أي لم يكن جوابهم حين اختبروا بهذا السؤ ال ورأوا الحقائق ﴿**إلاّ أن قالوا واللهِ ربّنا ما كنا مشركين**﴾ أي أقسموا كاذبين بقولهم والله يا ربنا ما كنا مشركين قال القرطبي : تبرءوا من الشرك وانتفوا منه لما رأوا من تجاوزه ومغفرته للمؤمنين قال ابن عباس : يغفر الله لأهل الإخلاص ذنوبهم فإذا رأى المشركون ذلك قالوا تعالوا نقول : إنّا كنا أهل ذنوب ولم نكن مشركين ، فيختم على أفواههم وتنطق أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون[5] ﴿**أنظر كيف كذبوا على أنفسهم**﴾ أي انظر يا محمد كيف كذبوا على أنفسهم بنفي الإشراك عنها أمام علاّم الغيوب ، وهذا للتعجيب من كذبهم

(١) الكشاف ٢ / ٩ . (٢) أبو السعود ٢ / ٨٨ . (٣) البيضاوي ص ١٦٩ . (٤) ... (٥) القرطبي ٦ / ٤٠١ .

يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟

الصريح **﴿وضلّ عنهم ما كانوا يفترون﴾** أي تلاشى وبطل ما كانوا يظنونه من شفاعة آلهتهم وغاب عنهم ما كانوا يفترونه على الله من الشركاء ، ثم وصف تعالى حال المشركين حين استماع القرآن فقال **﴿ومنهم من يستمع إليك﴾** أي ومن هؤلاء المشركين من يصغي إليك يا محمد حين تتلو القرآن **﴿وجعلنا على قلوبهم أكنَّةً أن يفقهوه﴾** أي جعلنا على قلوبهم أغطية لئلا يفقهوا القرآن **﴿وفي آذانهم وقراً﴾** أي ثقلاً وصمماً يمنع من السمع قال ابن جزي : والمعنى أن الله حال بينهم وبين فهم القرآن إذا استمعوه وعبّر بالأكنَّة والوقر مبالغة[1] **﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾** أي مهما رأوا من الآيات والحجج البيّنات لا يؤمنوا بها لفرط العناد **﴿حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾** أي بلغوا من التكذيب والمكابرة إلى أنهم إذا جاءوك مجادلين يقولون عن القرآن ما هذا إلا خرافات وأباطيل الأولين **﴿وهم ينهون عنه وينأون عنه﴾** أي هؤلاء المشركون المكذبون ينهون الناس عن القرآن وعن اتباع محمد عليه السلام ويُبعدون هم عنه **﴿وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾** أي وما يهلكون بهذا الصنيع إلا أنفسهم وما يشعرون بذلك قال ابن كثير : فهم قد جمعوا بين الفعلين القبيحين لا ينتفعون ولا يدعون أحداً ينتفع ولا يعود وباله إلا عليهم وما يشعرون[2] **﴿ولو ترى إذ وُقفوا على النار﴾** أي لو ترى يا محمد هؤلاء المشركين إذ عرضوا على النار لرأيت أمراً عظيماً تشيب لهوله الرءوس قال البيضاوي : وجواب **﴿لو﴾** محذوف تقديره لرأيت أمراً شنيعاً[3] وإنما حذف ليكون أبلغ ما يقدره السامع **﴿فقالوا يا ليتنا نُردُّ ولا نُكذب بآيات ربنا﴾** أي تمنّوا الرجوع إلى الدنيا ليعملوا عملاً صالحاً ولا يكذبوا بآيات الله **﴿ونكون من المؤمنين﴾** أي إذا رجعنا إلى الدنيا نصدّق ونؤمن بالله إيماناً صادقاً فتمنوا العودة ليصلحوا العمل ويتداركوا الزلل قال تعالى ردّاً لذلك التمني **﴿بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل﴾** أي ظهر لهم يوم القيامة ما كانوا يخفون في الدنيا من عيوبهم وقبائحهم فتمنوا ذلك **﴿ولو ردّوا لعادوا لما نُهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾** أي لو ردّوا ـ على سبيل الفرض لأنه لا رجعة إلى الدنيا بعد الموت ـ لعادوا إلى الكفر والضلال وإنهم لكاذبون في وعدهم بالإيمان **﴿وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾** أي

(١) التسهيل ٢/ ٦ . (٢) ابن كثير ١/ ٥٧٣ . (٣) البيضاوي ص ١٦٩ .

ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ

قال أولئك الكفار الفجار ما هي إلا هذه الحياة الدنيا ولا بعث ولا نشور ﴿**ولو ترى إذ وُقفوا على ربهم**﴾ أي لو ترى حالهم إذ حُبسوا للحساب أمام رب الأرباب كما يوقف العبد الجاني بين يدي سيده للعقاب ، وجواب ﴿**لو**﴾ محذوف للتهويل من فظاعة الموقف ﴿**قال أليس هذا بالحق**﴾ أي أليس هذا المعاد بحق ؟ والهمزة للتقريع على التكذيب ﴿**قالوا بلى وربنا**﴾ أي قالوا بلى والله إنه لحق ﴿**قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون**﴾ أي ذوقوا العذاب بسبب كفركم في الدنيا وتكذيبكم رسل الله ، ثم أخبر تعالى عن هؤلاء الكفار فقال﴿**قد خسر الذين كذّبوا بلقاء الله**﴾أي لقد خسر هؤلاء المكذبون بالبعث ﴿**حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة**﴾ أي حتى إذا جاءتهم القيامة فجأةً من غير أن يعرفوا وقتها قال القرطبي : سميت القيامة بالساعة لسرعة الحساب فيها[١] ﴿**قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها**﴾ أي قالوا يا ندامتنا على ما قصَّرنا وضيّعنا في الدنيا من صالح الأعمال ﴿**وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم**﴾ أي والحال أنهم يحملون أثقال ذنوبهم على ظهورهم قال البيضاوي : وهذا تمثيلٌ لاستحقاقهم آصار الآثام[٢] وقال ﴿**على ظهورهم**﴾ لأن العادة حمل الأثقال على الظهور ، قال ابن جزي : وهذا كناية عن تحمل الذنوب ، وقيل إنهم يحملونها على ظهورهم حقيقة فقد رُوي أن الكافر يركبه عمله بعد أن يتمثل له في أقبح صورة ، وأن المؤمن يركب عمله بعد أن يتمثل له في أحسن صورة[٣] ﴿**ألا ساء ما يزرون**﴾ أي بئس ما يحملونه من الأوزار ﴿**وما الحياة الدنيا إلا لعبٌ ولهوٌ**﴾ أي باطل وغرور لقصر مدتها وفناء لذتها ﴿**وللدارُ الآخرة خيرٌ للذين يتقُون**﴾ أي الآخرة وما فيها من أنواع النعيم خير لعباد الله المتقين من دار الفناء لأنها دائمة لا يزول عنهم نعيمها ولا يذهب عنهم سرورها ﴿**أفلا تعقلون**﴾ أي أفلا تعقلون أن الآخرة خير من الدنيا ؟ ثم سلَّى تعالى نبيه لتكذيب قومه له فقال ﴿**قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون**﴾ أي قد أحطنا علماً بتكذيبهم لك وحزنك وتأسفك عليهم قال الحسن : كانوا يقولون إنه ساحر وشاعر وكاهن ومجنون﴿**فإنهم لا يكذّبونك ولكنَّ الظالمين بآيات الله يجحدون**﴾ أي فإنهم في دخيلة نفوسهم لا يكذبونك بل يعتقدون صدقك ولكنهم يجحدون عن عناد فلا تحزن لتكذيبهم قال ابن عباس : كان رسول الله ﷺ يسمى الأمين فعرفوا أنه لا يكذب في شيء ولكنهم كانوا يجحدون فكان أبو جهل يقول : ما نكذبك يا محمد وإنك عندنا لمصدّق وإنما نكذّب ما جئتنا به[٤] ﴿**ولقد كذّبت رسلٌ من قبلك**

(١) القرطبي ٦/٤١٢ . (٢) البيضاوي ص ١٦٩ . (٣) التسهيل ٢/٧ . (٤) البحر المحيط ٤/١١٢ .

أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾

فصبروا على ما كُذّبوا أي صبروا على ما نالهم من قومهم من التكذيب والاستهزاء **﴿وأوذوا حتى أتاهم نصرنا﴾** أي وأُوذوا في الله حتى نصرهم الله ، وفي الآية إرشادٌ إلى الصبر ، ووعدٌ له بالنصر **﴿ولا مبدّل لكلمات الله﴾** قال ابن عباس : أي لمواعيد الله ، وفي هذا تقوية للوعد **﴿ولقد جاءك من نبأ المرسلين﴾** أي ولقد جاءك بعض أخبار المرسلين الذين كُذّبوا وأُوذوا كيف أنجيناهم ونصرناهم على قومهم فتسلَّ ولا تحزن فإن الله ناصرك كما نصرهم **﴿وإن كان كبُر عليك إعراضهم﴾** أي إن كان إعراضهم عن الإسلام قد عظم وشقّ عليك يا محمد **﴿فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض﴾** أي إن قدرت أن تطلب سرَباً ومسكناً في جوف الأرض **﴿أو سُلَّماً في السماء فتأتيهم بآية﴾** أي مصعداً تصعد به إلى السماء فتأتيهم بآيةٍ ممّا اقترحوه فافعل **﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكوننّ من الجاهلين﴾** أي لو أراد الله لهداهم إلى الإيمان فلا تكوننَّ يا محمد من الذين يجهلون حكمة الله ومشيئته الأزلية .

البَـلاغَـة : ١ ـ **﴿كما يعرفون أبناءهم﴾** فيه تشبيه يسمى « المرسل المجمل » .

٢ ـ **﴿الذين كنتم تزعمون﴾** فيه إيجاز بالحذف أي تزعمونهم شركاء .

٣ ـ **﴿انظر كيف كذبوا﴾** الصيغة للتعجيب من كذبهم الغريب .

٤ ـ **﴿وفي آذانهم وقراً﴾** عبَّر بالأكنة في القلوب والوقر في الآذان وهو تمثيل بطريق الاستعارة لإعراضهم عن القرآن .

٥ ـ **﴿يقول الذين كفروا﴾** وضع الظاهر موضع الضمير لتسجيل الكفر عليهم .

٦ ـ **﴿ينهون وينأون﴾** بينهما من المحسنات البديعية الجناس الناقص .

٧ ـ **﴿وإنهم لكاذبون﴾** وردت الصيغة مؤكدة بمؤكدين « إنّ » و « اللام » للتنبيه على أن الكذب طبيعتهم .

٨ ـ **﴿وما الحياة الدنيا إلا لعبٌ ولهوٌ﴾** تشبيه بليغ حيث جعلت الدنيا نفس اللعب واللهو مبالغة كقول الخنساء : « فإنما هي إقبال وإدبار » .

٩ ـ **﴿أفلا تعقلون﴾** الاستفهام للتوبيخ .

١٠ ـ ﴿كذبت رسلٌ﴾ تنوين رسل للتفخيم والتكثير .

تـنبيـه : قال الإمام الفخر : قوله تعالى ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار﴾ يقتضي له جواباً وقد حُذف تفخيماً للأمر وتعظيماً للشأن ، وأشباهه كثير في القرآن والشعر ، وحذف الجواب في هذه الأشياء أبلغ في المعنى من إظهاره ألا ترى أنك لو قلت لغلامك : والله لئن قمتُ إليك ـ وسكتَّ عن الجواب ـ ذهب فكره إلى أنواع المكروه من الضرب ، والقتل ، والكسر ، وعظم خوفه لأنه لم يدر أي الأقسام تبغي ، ولو قلت : والله لئن قمتُ إليك لأضربنك فأتيتَ بالجواب لعلم أنك لم تبلغ شيئاً غير الضرب ، فثبت أن حذف الجواب أقوى تأثيراً في حصول الخوف[1].

* * *

قال الله تعالى : ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله . . إلى . . والله أعلم بالظالمين﴾ من آية (٣٦) إلى نهاية آية (٥٨) .

المناسبة : لما ذكر الله تعالى إعراض المشركين عن القرآن وعن الإيمان بالنبي عليه السلام ، ذكر في هذه الآيات السبب في ذلك وهو أن القرآن نور وشفاء يهتدي به المؤمنون ، وأما الكافرون فهم بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون ولا يستجيبون ، ثم ذكر اقتراح المشركين بعض الآيات وشبههم بالصم البكم الذين لا يعقلون .

اللغة : ﴿تضرعوا﴾ التضرع من الضراعة وهي الذلة يقال : ضرع فهو ضارع ﴿البأساء﴾ من البؤس وهو الفقر ﴿الضراء﴾ من الضر وهو البلاء قال القرطبي : البأساء في الأموال ، والضراء في الأبدان ، هذا قول الأكثر[2] ﴿مبلسون﴾ المبلس : اليائس من الخير من أبلس الرجل إذا يئس ومنه « إبليس » لأنه أبلس من رحمة الله عز وجل[3] ﴿دابر﴾ الدابر : الآخر ودابر القوم : خلفهم من نسلهم قال قطرب : يعني استؤصلوا وأهلكوا قال الشاعر :

فأهلكو بعذابٍ حصَّ دابرهم ... فما استطاعوا له صرفاً ولا انتصروا[4]

﴿يصدفون﴾ صَدَف عن الشيء أعرض عنه ﴿تطرد﴾ الطرد : الإبعاد مع الإهانة ﴿الفاصلين﴾ الحاكمين .

سبب النزول : عن ابن مسعود قال : مرّ الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده « صهيب ، وخبّاب ، وبلال ، وعمّار» وغيرهم من ضعفاء المسلمين فقالوا يا محمد : أرضيتَ بهؤلاء من قومك ! أفنحن نكون تبعاً لهم ! أهؤلاء الذين منّ الله عليهم ! اطردهم عنك فلعلك إن طردتهم إتَّبعناك فأنزل الله تعالى ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه﴾ الآية[5].

---

(١) التفسير الكبير ١٢/ ١٩٠ . (٢) القرطبي ٦/ ٤٢٤ . (٣) غريب القرآن لابن قتيبة ص ٢٣ .

(٤) البيت لأمية بن أبي الصلت كذا في القرطبي ٦/ ٤٢٧ . (٥) أسباب النزول ص ١٢٤ .

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾

التفسير : ﴿**إنما يستجيب الذين يسمعون**﴾ أي إنما يستجيب للإيمان الذين يسمعون سماع قبول وإصغاء ، وهنا تمَّ الكلام ثم ابتدأ فقال ﴿**والموتى يبعثهم الله**﴾ قال ابن كثير : يعني بذلك الكفار لأنهم موتى القلوب فشبههم الله بأموات الأجساد ، وهذا من باب التهكم بهم والازراء عليهم[١] وقال الطبري : يعني والكفار يبعثهم الله مع الموتى ، فجعلهم تعالى ذكره في عداد الموتى الذين لا يسمعون صوتاً ، ولا يعقلون دعاءً ، ولا يفقهون قولاً ، إذ كانوا لا يتدبرون حجج الله ولا يعتبرون بآياته ولا يتذكرون فينزجرون عن تكذيب رسل الله[٢] ﴿**ثم إليه يرجعون**﴾ أي ثم مرجعهم إلى الله فيجازيهم بأعمالهم ﴿**وقالوا لولا نُزّل عليه آيةٌ من ربه**﴾ أي قال كفار مكة هلاّ نُزّل على محمد معجزة تدل على صدقه كالناقة والعصا والمائدة قال القرطبي وكان هذا منهم تعنتاً بعد ظهور البراهين وإقامة الحجة بالقرآن الذي عجزوا أن يأتوا بسورة من مثله[٣] ﴿**قل إن الله قادر على أن يُنزّل آية**﴾ أي هو تعالى قادرٌ على أن يأتيهم بما اقترحوا ﴿**ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون**﴾ أي لا يعلمون أن إنزالها يستجلب لهم البلاء لأنه لو أنزلها وَفْق ما طلبوا ثم لم يؤمنوا لعاجلهم بالعقوبة كما فعل بالأمم السابقة ﴿**وما من دابةٍ في الأرض**﴾ أي ما من حيوان يمشي على وجه الأرض ﴿**ولا طائر يطير بجناحيه**﴾ أي ولا من طائر يطير في الجو بجناحيه ﴿**إلا أممٌ أمثالكم**﴾ أي إلا طوائف مخلوقة مثلكم خلقها الله وقدَّر أحوالها وأرزاقها وآجالها قال البيضاوي : والمقصود من ذلك الدلالة على كمال قدرته وشمول علمه وسعة تدبيره ليكون كالدليل على أنه قادر على أن ينزّل آية[٤] ﴿**ما فرطنا في الكتاب من شيء**﴾ أي ما تركنا وما أغفلنا في القرآن شيئاً من أمر الدين يحتاج الناس إليه في أمورهم إلا بيّناه وقيل: إن المراد بالكتاب اللوح المحفوظ ويكون المعنى: ما تركنا في اللوح المحفوظ شيئاً فلم نكتبه[٥] ﴿**ثم إلى ربهم يحشرون**﴾ أي يجمعون فيقضي بينهم قال الزمخشري : يعني الأمم كلها من الدواب والطير فيعوضها وينصف بعضها من بعض كما روي أنه يأخذ للجماء من القرناء[٦] ﴿**والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات**﴾ أي والذين كذبوا بالقرآن صمٌ لا يسمعون كلام الله سماع قبول بكمٌ لا ينطقون بالحق خابطون

---

(١) ابن كثير ٥٧٦/١ (٢) الطبري ٣٤١/١١ (٣) القرطبي ٤١٩/٦ (٤) البيضاوي ص ١٧٠ .
(٥) هذا اختيار الطبري والزمخشري والجلالين ورجح أبو حيان في البحر المحيط أن المراد بالكتاب القرآن العظيم ثم قال : وهذا الذي يقتضيه سياق الآية والمعنى وبه بدأ ابن عطية (٦) الكشاف ١٦/٢

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾

في ظلمات الكفر قال ابن كثير : وهذا مثل أي مثلهم في جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم كمثل أصم وهو الذي لا يسمع ، أبكم وهو الذي لا يتكلم ، وهو مع هذا في ظلمات لا يبصر ، فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق أو يخرج مما هو فيه[1] ! ﴿**من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراطٍ مستقيم**﴾ أي من يشأ الله إضلاله يضلله ومن يشأ هدايته يرشده إلى الهدى ويوفقه لدين الإسلام ﴿**قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة**﴾ استفهام تعجيب أي أخبروني إن أتاكم عذاب الله كما أتى من قبلكم أو أتتكم القيامة بغتة من تدعون ؟ ﴿**أغير الله تدعون إن كنتم صادقين**﴾ أي أتدعون غير الله لكشف الضر عنكم؟ إن كنتم صادقين في أن الأصنام تنفعكم ﴿**بل إيّاه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء**﴾ أي بل تخصونه تعالى بدعائكم في الشدائد فيكشف الضر الذي تدعونه إلى كشفه إن شاء كشفه ﴿**وتنسون ما تشركون**﴾ أي تتركون الآلهة فلا تدعونها لاعتقادكم أن الله تعالى هو القادر على كشف الضر وحده دون سواه ﴿**ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك**﴾ هذه تسلية لرسول الله ﷺ أي والله لقد أرسلنا رسلاً إلى أمم كثيرين من قبلك فكذبوهم ﴿**فأخذناهم بالبأساء والضراء**﴾ أي بالفقر والبؤس والأسقام والأوجاع ﴿**لعلهم يتضرعون**﴾ أي لكي يتضرعوا إلى الله بالتذلل والإنابة ﴿**فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا**﴾ لولا للتحضيض أي فهلا تضرعوا حين جاءهم العذاب ، وهذا عتاب على ترك الدعاء وإخبارٌ عنهم أنهم لم يتضرعوا مع قيام ما يدعوهم إلى التضرع ﴿**ولكنْ قستْ قلوبهُم**﴾ أي ولكن ظهر منهم النقيض حيث قست قلوبهم فلم تلن للإيمان ﴿**وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون**﴾ أي زين لهم المعاصي والإصرار على الضلال ﴿**فلما نسوا ما ذُكّروا به**﴾ أي لما تركوا ما وُعظوا به ﴿**فتحنا عليهم أبواب كل شيء**﴾ أي من النعم والخيرات استدراجاً لهم ﴿**حتى إذا فرحوا بما أوتوا**﴾ أي فرحوا بذلك النعيم وازدادوا بطراً ﴿**أخذناهم بغتةً فإذا هم مبلسون**﴾ أي أخذناهم بعذابنا فجأة فإذا هم يائسون قانطون من كل خير ﴿**فقطع دابر القوم الذين ظلموا**﴾ أي استؤصلوا وهلكوا عن آخرهم ﴿**والحمد لله رب العالمين**﴾ أي على نصر الرسل وإهلاك الكافرين قال الحسن : مُكر بالقوم وربِّ الكعبة ، أُعطوا حاجتهم ثم أخذوا[2] وفي الحديث (إذا رأيتَ الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو

(١) ابن كثير ١/ ٥٧٧ (٢) مختصر ابن كثير ١/ ٥٧٨ .

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾

استدراج ثم قرأ ﴿فلما نسوا ما ذُكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أُوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾[1] ﴿قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المكذبين المعاندين من أهل مكة أخبروني لو أذهب الله حواسكم فأصمكم وأعماكم ﴿وختم على قلوبكم﴾ أي طبع على قلوبكم حتى زال عنها العقل والفهم ﴿مَنْ إلهٌ غيرُ اللهِ يأتيكم به﴾ أي هل أحد غير الله يقدر على ردّ ذلك إليكم إذا سلبه الله منكم ؟ ﴿انظر كيف نصرّف الآيات ثم هم يصدفون﴾ أي انظر كيف نبيّن ونوضح الآيات الدالة على وحدانيتنا ثم هم بعد ذلك يعرضون عنها فلا يعتبرون ﴿قل أرأيتكُم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة﴾ أي قل لهؤلاء المكذبين أخبروني إن أتاكم عذاب الله العاجل فجأة أو عياناً بالليل أو بالنهار ﴿هل يهلك إلا القوم الظالمون﴾ الاستفهام إنكاري بمعنى النفي أي ما يهلك بالعذاب إلا أنتم لأنكم كفرتم وعاندتم ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين﴾ أي ما نرسل الرسل إلا لتبشير المؤمنين بالثواب، وإنذار الكافرين بالعقاب، وليس إرسالهم ليأتوا بما يقترحه الكافرون من الآيات ﴿فمن آمن وأصلح فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي فمن آمن بهم وأصلح عمله فلا خوف عليهم في الآخرة ولا هم يحزنون والمراد أنهم لا يخافون ولا يحزنون لأن الآخرة دار الجزاء للمتقين ﴿والذين كذبوا بآياتنا يمسُّهم العذاب بما كانوا يفسقون﴾ أي وأما المكذبون بآيات الله فيمسهم العذاب الأليم بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله قال ابن عباس : يفسقون أي يكفرون[2] ﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفرة الذين يقترحون عليك تنزيل الآيات وخوارق العادات لستُ أدعي أن خزائن الله مفوضةٌ إليَّ حتى تقترحوا عليَّ تنزيل الآيات ولا أدعي أيضاً أني أعلم الغيب حتى تسألوني عن وقت نزول العذاب ﴿ولا أقول لكم إني مَلَك﴾ أي ولست أدعي أني من الملائكة حتى تكلفوني الصعود إلى السماء وعدم المشي في الأسواق وعدم الأكل والشرب قال الصاوي : وهذه الآية نزلت حين قالوا له إن كنت رسولاً فاطلب من ربك أن يوسّع علينا ويغني فقرنا وأخبرنا بمصالحنا ومضارنا فأخبر أن ذلك بيد الله سبحانه لا بيده[3] . والمعنى : إني لا أدعي شيئاً من هذه الأشياء الثلاثة حتى تجعلوا عدم إجابتي إلى ذلك دليلاً على

(١) أخرجه الإمام أحمد . (٢) زاد المسير ٣/ ٤٢ . (٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/ ١٦

وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ

عدم صحة رسالتي ﴿**إن أتّبع إلا ما يُوحى إليّ**﴾ أي ما أتّبع فيما أدعوكم إليه إلاّ وحي الله الذي يوحيه إليّ ﴿**قل هل يستوي الأعمى والبصير**﴾ أي هل يتساوى الكافر والمؤمن والضال والمهتدي ؟ ﴿**أفلا تتفكرون**﴾ تقريعٌ وتوبيخ أي أتسمعون فلا تتفكرون ؟ ﴿**وأنذر به الذين يخافون أن يُحْشروا إلى ربهم**﴾ أي خوِّف يا محمد بهذا القرآن المؤمنين المصدقين بوعد الله ووعيده الذين يتوقعون عذاب الحشر قال أبو حيان : وكأنه قيل : أنذر بالقرآن من يُرجى إيمانُه وأما الكفرة المعرضون فدعهم ورأيهم[١] ﴿**ليس لهم من دونه وليٌّ ولا شفيع**﴾ أي ليس لهم غير الله وليٌّ ينصرهم ولا شفيع يشفع لهم ﴿**لعلهم يتقون**﴾ أي أنذرهم لكي يتقوا الكفر والمعاصي ﴿**ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه**﴾ أي لا تطرد هؤلاء المؤمنين الضعفاء من مجلسك يا محمد الذين يعبدون ربَّهم دوماً في الصباح والمساء يلتمسون بذلك القرب من الله والدنوَّ من رضاه قال الطبري : نزلت الآية في سبب جماعة من ضعفاء المسلمين قال المشركون لرسول الله ﷺ : لو طردت هؤلاء عنك لغشيناك وحضرنا مجلسك[٢] وأراد النبي ﷺ ذلك طمعاً في إسلامهم ﴿**ما عليك من حسابهم من شيء**﴾ أي لا تؤاخذ بأعمالهم وذنوبهم كقول نوح ﴿**إنْ حسابُهُم إلاّ على ربي**﴾ قال الصاوي : هذا كالتعليل لما قبله والمعنى لا تؤاخذ بذنوبهم ولا بما في قلوبهم إن أرادوا بصحبتك غير وجه الله ، وهذا على فرض تسليم ما قاله المشركون وإلا فقد شهد الله لهم بالإخلاص بقوله ﴿**يريدون وجهه**﴾[٣] ﴿**وما من حسابك عليهم من شيء**﴾ وهذا التأكيد لمطابقة الكلام والمعنى لا تؤاخذ أنت بحسابهم ولا هم بحسابك فلم تطردهم ؟ وقيل إن المراد بالحساب الرزق ، والمعنى ليس رزقهم عليك ولا رزقك عليهم وإنما يرزقك وإياهم الله رب العالمين[٤] ﴿**فتطردهم فتكون من الظالمين**﴾ أي لا تطردهم فإنك إن طردتهم تكون من الظالمين ، وهذا لبيان الأحكام وحاشاه من وقوع ذلك منه عليه السلام قال القرطبي : وهذا كقوله تعالى ﴿**لئن أشركت ليحبطنَّ عملك**﴾ وقد علم الله منه أنه لا يشرك ولا يحبط عمله[٥] ﴿**وكذلك فتنا بعضهم ببعض**﴾ أي ابتلينا الغنيّ بالفقير والشريف بالوضيع ﴿**ليقولوا أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا**﴾ أي ليقول الأشراف والأغنياء أهؤلاء الضعفاء والفقراء منَّ الله عليهم بالهداية والسبق إلى الإسلام من دوننا !! قالوا ذلك إنكاراً واستهزاءً كقولهم ﴿**أهذا الذي بعث الله رسولاً**﴾ قال تعالى رداً عليهم ﴿**أليس الله بأعلم بالشاكرين**﴾ ؟ أي الله أعلم بمن يشكر فيهديه ومن يكفر فيخزيه ، والاستفهام للتقرير ﴿**وإذا جاءك**

(١) البحر ٤/ ١٣٤ (٢) الطبري ١١/ ٣٧٤ (٣) حاشية الصاوي ٢/ ١٧ (٤) ذهب إلى هذا الطبري وبعض المفسرين .
(٥) القرطبي ٦/ ٤٣٤ .

عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾

الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلامٌ عليكم﴾ قال القرطبي: نزلت في الذين نهى الله نبيه عليه الصلاة والسلام عن طردهم فكان إذا رآهم بدأهم بالسلام وقال (الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام) [١] وأمر ﷺ بأن يبدأهم بالسلام إكراماً لهم وتطييباً لقلوبهم **﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾** أي ألزم نفسه الرحمة تفضلاً منه وإحساناً **﴿أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة﴾** أي خطيئة من غير قصد قال مجاهد: أي لا يعلم حلالاً من حرام ومن جهالته ركب الأمر **﴿ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم﴾** أي ثم تاب من بعد ذلك الذنب وأصلح عمله فإن الله يغفر له، وهو وعدٌ بالمغفرة والرحمة لمن تاب وأصلح **﴿وكذلك نفصّل الآيات﴾** أي كما فصلنا في هذه السورة الدلائل والحجج على ضلالات المشركين كذلك نبيّن ونوضّح لكم أمور الدين **﴿ولتستبين سبيل المجرمين﴾** أي ولتتوضح وتظهر طريق المجرمين فينكشف أمرهم وتستبين سبلُهم **﴿قل إني نُهيتُ أن أعبد الذين تدعون من دون الله﴾** أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين إني نُهيت أن أعبد هذه الأصنام التي زعمتموها آلهة وعبدتموها من دون الله **﴿قل لا أتبع أهواءكم﴾** أي في عبادة غير الله، وفيه تنبيه على سبب ضلالهم **﴿قد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين﴾** أي قد ضللت إن أتبعتُ أهواءكم ولا أكون في زمرة المهتدين **﴿قل إني على بيّنةٍ من ربي﴾** أي على بصيرة من شريعة الله التي أوحاها إليّ **﴿وكذّبتم به﴾** أي وكذّبتم بالحق الذي جاءني من عند الله **﴿ما عندي ما تستعجلون به﴾** أي ليس عندي ما أبادركم به من العذاب قال الزمخشري: يعني العذاب الذي استعجلوه في قولهم **﴿فأمطر علينا حجارة من السماء﴾** [٢] **﴿إن الحكم إلا لله﴾** أي ما الحكم في أمر العذاب وغيره إلا لله وحده **﴿يقصُّ الحقَّ وهو خير الفاصلين﴾** أي يخبر الخبر الحق ويبينه البيان الشافي وهو خير الحاكمين بين عباده **﴿قل لو أن عندي ما تستعجلون به﴾** أي لو أن بيدي أمر العذاب الذي تستعجلونه **﴿لقضي الأمر بيني وبينكم﴾** أي لعجلته لكم لأستريح منكم ولكنه بيد الله قال ابن عباس: لم أهملكم ساعةً ولأهلكتكم [٣] **﴿والله أعلم بالظالمين﴾** أي هو تعالى أعلم بهم إن شاء عاجلهم وإن شاء أخّر عقوبتهم، وفيه وعيد وتهديد.

البلاغة: ١ - **﴿والموتى يبعثهم الله﴾** فيه استعارة لأن الموتى عبارة عن الكفار لموت قلوبهم.

(١) نفس المرجع ٦/ ٤٣٥. (٢) الكشاف ٢/ ٢٣. (٣) زاد المسير ٣/ ٥٢.

٢ - ﴿يطير بجناحيه﴾ تأكيد لدفع توهم المجاز لأن الطائر قد يستعمل مجازاً للعمل كقوله ﴿ألزمناه طائره في عنقه﴾ .

٣ - ﴿صمٌ وبكمٌ﴾ تشبيه بليغ أي كالصم البكم في عدم السماع وعدم الكلام فحذفت منه الأداة ووجه الشبه .

٤ - ﴿إيّاه تدعون﴾ فيه قصر أي لا تدعون غيره لكشف الضر ، فهو قصر صفة على موصوف .

٥ - ﴿فقطع دابر﴾ كناية عن إهلاكهم بعذاب الاستئصال .

٦ - ﴿الأعمى والبصير﴾ استعارة عن الكافر والمؤ من.

٧ - ﴿ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء﴾ في هاتين الجملتين من أنواع البديع ما يسمى ردّ الصدر على العجز .

فائدة : قال الزمخشري في قوله تعالى ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله ربّ العالمين﴾ هذا إيذان بوجوب الحمد عند هلاك الظلمة وأنه من أجلّ النعم وأجزل القسم[1] .

فائدة : قال بعض المفسرين : إن الواجب في الدعاء الإخلاص به لأنه تعالى قال ﴿يريدون وجهه﴾ وهكذا جميع الطاعات لا ينبغي أن تكون لشيء من أغراض الدنيا .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو . . إلى . . عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير﴾
من آية (٥٩) إلى نهاية آية (٧٣) .

المناسبة : لمّا أقام تعالى الأدلة والبراهين على وجوده ووحدانيته ، أعقبه بذكر الأدلة على صفاته القدسية : علمه ، وقدرته ، وعظمته ، وجلاله ، وسائر صفات الجلال والجمال ، ثم ذكر نعمته على العباد بإنجائهم من الشدائد ، وقدرته على الانتقام ممّن خالف أمره وعصى رسله .

اللغة : ﴿كرب﴾ الكرب : الغمُّ الذي يأخذ بالنفس ﴿شيعاً﴾ الشيعة : الفرقة تتبع الأخرى ويجمع على شيع وأشياع ﴿أبسلوا﴾ الإبسال : تسليم الإنسان نفسه للهلاك ﴿عدل﴾ فدية ﴿حميم﴾ الحميم : الماء الحار ﴿حيران﴾ الحَيْرة : التردد في الأمر لا يهتدي إلى مخرجٍ منه ﴿الغيب﴾ ما غاب عن الحواس ﴿الشهادة﴾ ما كان مشاهداً ظاهراً للعيان ﴿تُحْشرون﴾ تجمعون .

---

(١) الكشاف ٢/ ١٨ .

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُم﴾

التفسير : ﴿**وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو**﴾ أي عند الله خزائن الغيب وهي الأمور المغيّبة الخفيّة لا يعلمها ولا يحيط بها إلا هو ﴿**ويعلم ما في البر والبحر**﴾ أي ويعلم ما في البر والبحر من الحيوانات جملةً وتفصيلاً وفي كل عوالم وعجائب وسعها علمه وقدرته ﴿**وما تسقط من ورقةٍ إلا يعلمها**﴾ مبالغةٌ في إحاطة علمه بالجزئيات أي لا تسقط ورقة من الشجر إلا يعلم وقت سقوطها والأرض التي تسقط عليها ﴿**ولا حبةٍ في ظلمات الأرض**﴾ أي ولا حبة صغيرة في باطن الأرض إلا يعلم مكانها وهل تنبت أو لا وكم تنبتُ ومن يأكلها ﴿**ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلا في كتاب مبين**﴾ أي ولا شيءٍ فيه رطوبة أو جفاف إلا وهو معلوم عند الله ومسجّل في اللوح المحفوظ[1] قال أبو حيان :[2] وانظر إلى حسن ترتيب هذه المعلومات : بدأ أولاً بأمرٍ معقول لا ندركه نحن بالحسّ وهو ﴿**مفاتح الغيب**﴾ ثم ثانياً بأمرٍ ندرك كثيراً منه بالحسّ وهو ﴿**البر والبحر**﴾ ثم ثالثاً بجزأين لطيفين أحدهما علوي وهو سقوط الورقة من علوّ والثاني سفلي وهو اختفاء حبةٍ في بطن الأرض فدل ذلك على أنه تعالى عالمٌ بالكليّات والجزئيات[3] ﴿**وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار**﴾ أي ينيمكم بالليل ويعلم ما كسبتم من العمل بالنهار قال القرطبي : وليس ذلك موتاً حقيقةً بل هو قبض الأرواح ، قال ابن عباس : يقبض أرواحكم في منامكم[4] ، وفي هذا اعتبار واستدلالٌ على البعث الأخروي ﴿**ثم يبعثكم فيه ليُقْضى أجلٌ مسمًّى**﴾ أي ثم يوقظكم في النهار لتبلغوا الأجل المسمّى لانقطاع حياتكم ، والضمير عائد على النهار لأن غالب اليقظة فيه وغالب النوم بالليل ﴿**ثم إليه مرجعكم**﴾ أي ثم مرجعكم إليه يوم القيامة ﴿**ثم ينبئكم بما كنتم تعملون**﴾ أي يخبركم بأعمالكم ويجزيكم عليها إن خيراً فخيرٌ ، وإن شراً فشرٌ ، ثم ذكر تعالى

---

(١) البحر المحيط ٤/ ١٤٦ . (٢) كتب شهيد الإسلام « سيد قطب » في تفسيره الظلال حول هذه الآية كلاماً رائعاً نجتزىء منه بعض فقرات ، قال طيّب الله ثراه « وهذه الآية صورة لعلم الله الشامل المحيط الذي لا يندُّ عنه شيء في الزمان ولا في المكان ، في الأرض ولا في السماء ، في البر ولا في البحر ، في جوف الأرض ولا في طبقات الجو ، من حي وميت ، ويابس ورطب ، إن الخيال البشري لينطلق وراء النص القصير يرتاد آفاق المعلوم والمجهول ، وراء حدود هذا الكون المشهود ، وإن الوجدان ليرتعش وهو يرتاد أستار الغيوب المختومة في الماضي والحاضر والمستقبل ، البعيدة الآماد والآفاق والأغوار ، مفاتحها كلها عند الله لا يعلمها إلا هو ، ويجول في مجاهل البر ، وفي غيابات البحر ، المكشوفة كلها لعلم الله ، ويتبع الأوراق الساقطة من أشجار الأرض لا يحصيها عدٌّ ، وعين الله على كل ورقةٍ تسقط هنا وهناك ، ويلحظ كل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض لا تغيب عن عين الله ، ويرقب كل رطب وكل يابس في هذا الكون العريض لا يند منه شيء عن علم الله المحيط ، إنها جولةٌ تدير الرءوس وتذهل العقول ، جولة في أغوار من المنظور والمحجوب ، والمعلوم والمجهول ، وهي ترسم هكذا بدقة كاملة شاملة في بضع كلمات . . . ألا إنه الإعجاز » في ظلال القرآن ٧/ ٢٤٧ . (٣) القرطبي ٧/ ٥ (٤) زاد المسير ٣/ ٥٥ .

تَعۡمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ

جلال عظمته وكبريائه فقال ﴿**وهو القاهر فوق عباده**﴾ أي هو الذي قهر كل شيء وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شيء ﴿**ويرسل عليكم حفظة**﴾ أي ملائكة تحفظ أعمالكم وهم الكرام الكاتبون قال أبو السعود : وفي ذلك حكمة جميلة ونعمة جليلة لأن المكلّف إذا علم أن أعماله تُحفظ عليه وتعرض على رءوس الأشهاد كان ذلك أزجر له عن تعاطي المعاصي والقبائح[1] ﴿**حتى إذا جاء أحدكُم الموتُ توفته رسلنا**﴾ أي حتى إذا انتهى أجل الإنسان توفته الملائكة الموكلون بقبض الأرواح والمعنى أن حفظ الملائكة للأشخاص ينتهي عند نهاية الأجل فهم مأمورون بحفظ ابن آدم ما دام حياً فإذا انتهى أجله فقد انتهى حفظهم له ﴿**وهم لا يفرّطون**﴾ أي لا يقصّرون في شيءٍ مما أُمروا به من الحفظ والتوفي ﴿**ثم رُدّوا إلى الله مولاهم الحق**﴾ أي ثم يردُّ العباد بعد البعث إلى الله خالقهم ومالكهم الذي له الحكم والتصرف والذي لا يقضي إلا بالعدل ﴿**ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين**﴾ أي له جل وعلا الحكم وحده يوم القيامة وله الفصل والقضاء لا يشغله حساب عن حساب ولا شأن عن شأن ، يحاسب الخلائق كلهم في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا كما ورد به الحديث وروي أنه يحاسب الناس في مقدار حلب شاة ﴿**قل من ينجّيكم من ظلمات البرّ والبحر**﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفرة من ينقذكم ويخلصكم في أسفاركم من شدائد وأهوال البر والبحر ؟ ﴿**تدعونه تضرعاً وخفية**﴾ أي تدعون ربكم عند معاينة هذه الأهوال مخلصين له الدعاء مظهرين الضراعة ، تضرعاً بألسنتكم وخفية في أنفسكم قال ابن عباس المعنى : تدعون ربكم علانيةً وسراً قائلين ﴿**لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين**﴾ أي لئن خلّصتنا من هذه الظلمات والشدائد لنكوننَّ من المؤمنين الشاكرين والغرض : إذا خفتم الهلاك دعوتموه فإذا نجّاكم كفرتموه قال القرطبي : وبّخهم الله في دعائهم إيّاه عند الشدائد وهم يدعون معه في حالة الرخاء غيره[2] ﴿**قل الله ينجّيكم منها ومن كل كرب**﴾ أي الله وحده ينجّيكم من هذه الشدائد ومن كل كربٍ وغمّ ﴿**ثم أنتم تشركون**﴾ تقريعٌ وتوبيخ أي ثم أنتم بعد معرفتكم بهذا كله وتحققه تشركون به ولا تؤمنون ﴿**قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم**﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفرة إنه تعالى قادر على إهلاككم بإرسال الصواعق من السماء وما تلقيه البراكين من الأحجار والحُمَم وكالرجم بالحجارة والطوفان والصيحة والريح كما فُعل بمن قبلكم ﴿**أو من تحت أرجلكم**﴾ بالخسف والزلازل والرجفة كما فُعل

(١) أبو السعود ٢/ ١٠٧ . (٢) القرطبي ٧/ ٨ .

أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ

بقارون وأصحاب مدين ﴿أو يَلْبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ أي يجعلكم فرقاً متحزبين يقاتل بعضكم بعضاً قال البيضاوي : أي يخلطكم فرقاً متحزبين على أهواء شتّى فينشب القتال بينكم[١] وقال ابن عباس :أي يبث فيكم الأهواء المختلفة فتصيرون فرقاً[٢]، والكل متقارب والغرض منه الوعيد ﴿انظر كيف نصرّف الآيات لعلّهم يفقهون﴾ أي انظر كيف نبيّن ونوضّح لهم الآيات بوجوه العِبَر والعظات ليفهموا ويتدبروا عن الله آياته وبراهينه وحججه ، عن جابر بن عبد الله قال : لما نزلت هذه الآية ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ قال رسول الله ﷺ : أعوذ بوجهك ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ قال : أعوذ بوجهك ﴿أو يَلْبِسكم شيَعاً ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ قال رسول الله ﷺ : هذه أهون أو أيسر[٣] ﴿وكذّب به قومك وهو الحق﴾ أي وكذَّب بهذا القرآن قومك يا محمد ـ وهم قريش ـ وهو الكتاب المنزّل بالحق ﴿قل لستُ عليكم بوكيل﴾ أي لستُ عليكم بحفيظ ومتسلّط إنما أنا منذر ﴿لكل نبأٍ مستقر﴾ أي لكل خبرٍ من أخبار الله عز وجل وقتٌ يقع فيه من غير خُلْفٍ ولا تأخير ﴿وسوف تعلمون﴾ مبالغة في الوعيد والتهديد أي سوف تعلمون ما يحل بكم من العذاب ﴿وإذا رأيتَ الذين يخوضون في آياتنا﴾ أي إذا رأيت هؤلاء الكفار يخوضون في القرآن بالطعن والتكذيب والاستهزاء ﴿فأعرضْ عنهم حتى يخوضوا في حديثٍ غيره﴾ أي لا تجالسهم وقم عنهم حتى يأخذوا في كلامٍ آخر ويدعوا الخوض والاستهزاء بالقرآن قال السدي : كان المشركون إذا جالسوا المؤمنين وقعوا في النبي ﷺ والقرآن فسبّوه واستهزءوا به فأمرهم الله ألاّ يقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره[٤] ﴿وإمّا ينسينك الشيطان﴾ أي إن أنساك الشيطان النهي عن مجالستهم فجالستهم ثم تذكرت ﴿فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾ أي لا تجلس بعد تذكر النهي مع الكفرة والفسّاق الذين يهزءون بالقرآن والدين قال ابن عباس : أي قم إذا ذكرت النهي ولا تقعد مع المشركين ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ أي ليس على المؤمنين شيء من حساب الكفار على استهزائهم وإضلالهم إذا تجنبوهم فلم يجلسوا معهم ﴿ولكن ذكرى لعلهم يتقون﴾ أي ولكنْ عليهم أن يذكّروهم ويمنعوهم عمّا هم عليه من القبائح بما أمكن من العظة والتذكير[٥] ، ويُظهروا لهم الكراهة لعلهم يجتنبون الخوض في

(١) البيضاوي ص/ ١٧٣ . (٢) زاد المسير ٣/ ٥٩ . (٣) أخرجه البخاري . (٤) الطبري ١١/ ٤٣٧ .

(٥) ذهب الطبري إلى أن معنى الآية : ولكن ليعرضوا عنهم حينئذٍ ذكرى لأمر الله ليتقوا الله .

لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ

القرآن حياءً من المؤمنين إذا رأوهم قد تركوا مجالستهم قال ابن عطية : ينبغي للمؤمن أن يمتثل حكم هذه الآية مع الملحدين وأهل الجدل والخوض فيه[1] ﴿**وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً**﴾ أي اترك هؤلاء الفجرة الذين اتخذوا الدين الذي كان ينبغي احترامه وتعظيمه لعباً ولهواً باستهزائهم به ﴿**وغرتهم الحياة الدنيا**﴾ أي خدعتهم هذه الحياة الفانية حتى زعموا أن لا حياة بعدها أبداً ﴿**وذكّر به أن تُبْسل نفسٌ بما كسبت**﴾ أي وذكّر بالقرآن الناس مخافة أن تُسْلم نفسٌ للهلاك وتُرهن بسوء عملها ﴿**ليس لها من دون الله وليٌّ ولا شفيع**﴾ أي ليس لها ناصرٌ ينجيها من العذاب ولا شفيع يشفع لها عند الله ﴿**وإن تَعْدل كل عدلٍ لا يُؤخذ منها**﴾ أي وإن تُعْطِ تلك النفس كل فدية لا يقبل منها قال قتادة : لو جاءت بملء الأرض ذهباً لم يُقبل منها[2] ﴿**أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا**﴾ أي أُسلموا لعذاب الله بسبب أعمالهم القبيحة وعقائدهم الشنيعة ﴿**لهم شرابٌ من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون**﴾ أي لهؤلاء الضالين شرابٌ من ماء مغليّ يتجرجر في بطونهم وتتقطع به أمعاؤهم ، ونارٌ تشتعل بأبدانهم بسبب كفرهم المستمر فلهم مع الشراب الحميم العذاب الأليم والهوان المقيم ﴿**قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا**﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي قل لهم يا محمد أنعبد ما لا ينفعنا إن دعوناه ولا يضرنا إن تركناه ؟ والمراد به الأصنام ﴿**ونُردُّ على أعقابنا**﴾ أي نرجع إلى الضلالة بعد الهدى ﴿**بعد إذ هدانا الله**﴾ أي بعد أن هدانا الله للإسلام ﴿**كالذي استهوته الشياطين في الأرض**﴾ أي فيكون مثلنا كمثل الذي اختطفته الشياطين وأضلته وسارت به في المفاوز والمهالك فألقته في هوّة سحيقة ﴿**حيران**﴾ أي متحيراً لا يدري أين يذهب ﴿**لهُ أصحابٌ يدعونه إلى الهدى ائتنا**﴾ أي إلى الطريق الواضح يقولون ائتنا فلا يقبل منهم ولا يستجيب لهم ﴿**قل إن هدى الله هو الهدى**﴾ أي قل لهؤلاء الكفار إنَّ ما نحن عليه من الإسلام هو الهدى وحده وما عداه ضلال ﴿**وأُمرنا لنسلم لرب العالمين**﴾ أي أُمرنا بأن نستسلم لله عز وجل ونخلص له العبادة في جميع أمورنا وأحوالنا ، وهذا تمثيلٌ لمن ضلَّ عن الهدى وهو يُدْعى إلى الإسلام فلا يُجيب قال ابن عباس : هذا مثلٌ ضربه الله للآلهة ومن يدعو إليها وللدعاة الذين يدعون إلى الله ، كمثل رجلٍ ضلَّ عن الطريق تائهاً ضالاً إذ ناداه منادٍ يا فلان بن فلان هلُمَّ إلى الطريق وله أصحاب يدعونه يا فلان هلُمَّ إلى

(١) البحر ٤/ ١٥٤ . (٢) الطبري ١١/ ٤٤٧ .

﴿وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾

الطريق ، فإن اتبع الداعي الأول انطلق به حتى يلقيه في الهلكة وإن أجاب من يدعوه إلى الهدى اهتدى الى الطريق يقول : مثل من يعبد هؤلاء الآلهة من دون الله فإنه يرى أنه في شيء حتى يأتيه الموت فيستقبل الهلكة والندامة[1] ﴿وأن أقيمـوا الصلاة واتقـوه﴾ أي وأمرنا بإقامة الصلاة وبتقوى الله في جميع الأحوال ﴿وهـو الـذي إليـه تحشـرون﴾ أي تجمعون إليه يوم القيامة فيجازي كل عاملٍ بعمله ﴿وهـو الذي خلـق السموات والأرض بالحـق﴾ أي هو سبحانه الخالق المالك المدبر للسموات والأرض ومـن فيهما خلقهما بالحق ولم يخلقهما باطلاً ولا عبثاً ﴿يوم يقـول كن فيكون﴾ أي واتقوه واتقوا عقابه والشدائد يوم يقول كن فيكون قال أبو حيان: وهذا تمثيلٌ لإخراج الشيء من العدم إلى الوجود وسرعته لا أنَّ ثَمَّ شيئاً يؤ مر[2] ﴿قوله الحـق وله الملك﴾ أي قوله الصدق الواقع لا محالة وله الملك يوم القيامة ﴿يـوم يُنفخ في الصور﴾ أي يوم ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الثانية وهي نفخة الإحياء ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أي يعلم ما خفي وما ظهر وما يغيب عن الحواس والأبصار وما تشاهدونه بالليل والنهار ﴿وهو الحكيـم الخبير﴾ أي الحكيم في أفعاله الخبير بشئون عباده .

البـلاغـة : ١ ـ ﴿وعنده مفاتح الغيب﴾ استعار المفاتح للأمور الغيبية كأنها مخازن خزنت فيها المغيبات قال الزمخشري : جعل للغيب مفاتح على طريق الاستعارة لأن المفاتح يتوصل بها إلى ما في المخازن المغلقة بالأقفال ، فهو سبحانه العالم بالمغيّبات وحده[3] .

٢ ـ ﴿وهو الـذي يتوفاكم بالليل﴾ استعير التوفي من الموت للنوم لما بينهما من المشاركة في زوال الإحساس والتمييز .

٣ ـ ﴿فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾ وضع الظاهر موضع الضمير « معهم » للتسجيل عليهم بشناعة ما ارتكبوا حيث وضعوا التكذيب والاستهزاء مكان التصديق والتعظيم .

٤ ـ ﴿ونرد على أعقابنـا﴾ عبّر بالرد على الأعقاب عن الشرك لزيادة تقبيح الأمر وتشنيعه .

٥ ـ ﴿تعدل كل عـدل﴾ بينهما جناس الاشتقاق .

٦ ـ من المحسنات البديعية الطباق في كلٍ من ﴿رطـبٍ ويابسٍ﴾ و ﴿الليل والنهـار﴾ و ﴿فـوق

---

(١) الطبري ١١/٤٥٢ . (٢) البحر ٤/١٦٠ . (٣) الكشاف ٢/٢٤ .

وتحت﴾ و ﴿ينفعنا ويضرنا﴾ و ﴿الغيب والشهادة﴾ والسجع في ﴿شرابٌ من حميم وعذابٌ أليم﴾ والله أعلم .

تنبيه : قال الحاكم : دلّ قوله تعالى ﴿وعنده مفاتح الغيب﴾ على بطلان قول الإمامية : إن الإمام يعلم شيئاً من الغيب[1] ،انتهى أقول : هذا كذب وبهتان لأن الغيب لا يعلمه إلا الله .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر . . إلى . . وضلَّ عنكم ما كنتم تزعمون﴾ من آية (٧٤) إلى نهاية آية (٩٤) .

المناسبة : لمّا ذكر تعالى الحجج الدامغة الدالة على التوحيد وبطلان عبادة الأوثان ، ذكر هنا قصة أب الأنبياء « إبراهيم » لإقامة الحجة على مشركي العرب في تقديسهم الأصنام ، فإنه جاء بالتوحيد الخالص الذي يتنافى مع الإشراك بالله ، وجميع الطوائف والملل معترفةٌ بفضل إبراهيم وجلالة قدره ، ثم ذكر شرف الرسل من أبناء إبراهيم ، وأمر رسوله بالاقتداء بهديهم الكريم .

اللغة : ﴿ملكوت﴾ ملك والواو والتاء للمبالغة في الوصف كالرَّغبوت والرَّهبوت من الرغبة والرهبة ﴿جنَّ﴾ ستره بظلمته قال الواحدي : جنَّ عليه الليلُ وأجنّه الليل ويقال لكل ما سترته جنَّ وأجنَّ ومنه الجنَّة ، والجِنُّ والجنون ، والجنين وكل هذا يعود أصله إلى الستر والاستتار[2] ﴿بازغاً﴾ طالعاً يقال : بزغ القمر إذا ابتدأ في الطلوع قال الأزهري : كأنه مأخوذ من البزغ وهو الشق لأنه بنوره يشق الظلمة شقاً[3] ﴿أفل﴾ غاب يقال: أفل أفولاً إذا غاب ﴿سلطاناً﴾ حجة ﴿يلبسوا﴾ يخلطوا يقال : لبس الأمر خلطه ولبس الثوب اكتسى به ﴿اجتبيناهم﴾ اصطفيناهم ﴿قراطيس﴾ جمع قرطاس وهو الورق قال الشاعر :

استودعَ العلمَ قرطاساً فضيَّعه فبئسَ مستودعُ العلم القراطيسُ

﴿غمرات﴾ الغمرة : الشدة المذهلة وأصله من غمرة الماء وهي ما يغطي الشيء ﴿خولناكم﴾ أعطيناكم وملّكناكم والتخويل :المنح والإعطاء ﴿ضلَّ عنكم﴾ ضاع وبطل .

سبب النزول : عن سعيد بن جبير أن « مالك بن الصَّيْف » من اليهود جاء يخاصم النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ : أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى أما تجد في التوراة أنَّ الله يبغض الحَبْر السمين ؟ -وكان حبراً سميناً - فغضب وقال : والله ما أنزل الله على بشر من شيء فقال له أصحابه الذين معه ويحك ولا على موسى ؟ فقال : والله ما أنزل الله على بشر من شيء فأنزل الله ﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء . .﴾[4] الآية .

---

(١) محاسن التأويل ٦/ ٢٣٤٣ . (٢) تفسير الرازي ١٣/ ٤٦ .
(٣) تهذيب اللغة مادة بزغ . (٤) أسباب النزول ص ١٢٦ والقرطبي ٧/ ٣٧ .

* ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ۖ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ﴾

التفسير : ﴿**وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة**﴾ أي واذكر يا محمد لقومك عبدة الأوثان وقت قول إبراهيم ـ الذي يدّعون أنهم على ملّته ـ لأبيه آزر منكراً عليه أتتخذ أصناماً آلهة تعبدها وتجعلها رباً دون الله الذي خلقك فسوّاك ورزقك ؟ ﴿**إني أراك وقومك في ضلالٍ مبين**﴾ أي فأنت وقومك في ضلال عن الحق مبين واضح لا شك فيه ﴿**وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السموات والأرض**﴾ أي نُري إبراهيم المُلْك العظيم والسلطان الباهر ﴿**وليكون من الموقنين**﴾ أي وليكون من الراسخين في اليقين أريناه تلك الآيات الباهرة قال مجاهد : فُرجت له السموات والأرض فرأى ببصره الملكوت الأعلى والملكوت الأسفل[1] ﴿**فلمَّا جنَّ عليه الليل رأى كوكباً**﴾ أي فلما ستر الليلُ بظلمته كل ضياء رأى كوكباً مضيئاً في السماء هو الزهرة أو المشتري ﴿**قال هذا ربي**﴾ أي على زعمكم قاله على سبيل الرد عليهم والتوبيخ لهم واستدراجاً لهم لأجل أن يعرّفهم جهلهم وخطأهم في عبادة غير الله قال الزمخشري : كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والكواكب فأراد أن ينبههم على ضلالتهم ويرشدهم إلى الحق من طريق النظر والاستدلال ، ويعرّفهم أن النظر الصحيح مؤدٍّ إلى ألا يكون شيء منها إلهاً وأن وراءها محدثاً أحدثها ، ومدبراً دبّر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وقوله ﴿**هذا ربي**﴾ قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطلٌ ، فيحكي قوله كما هو غير متعصب لمذهبه لأن ذلك أدعى إلى الحق ثم يكرُّ عليه فيبطله بالحجة[2] ﴿**فلما أفل قال لا أحب الآفلين**﴾ أي فلما غاب الكوكب قال لا أحب عبادة من كان كذلك ، لأن الرب لا يجوز عليه التغيّر والانتقال لأن ذلك من صفات الأجرام ﴿**فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي**﴾ أي فلما رأى القمر طالعاً منتشر الضوء قال هذا ربي على الأسلوب المتقدم لفتاً لأنظار قومه إلى فساد ما يعبدونه وتسفيهاً لأحلامهم ﴿**فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكوننَّ من القوم الضالين**﴾ أي فلما غاب القمر قال إبراهيم لئن لم يثبتني ربي على الهدى لأكوننَّ من القوم الضالين ، وفيه تعريضٌ لقومه بأنهم على ضلال ﴿**فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر**﴾ أي هذا أكبر من الكوكب والقمر ﴿**فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون**﴾ أي فلما غابت الشمس قال أنا بريء من إشراككم

(١) البحر ٤/ ١٦٥ . (٢) الكشاف ٢/ ٣١ .

وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ

وأصنامكم قال أبو حيان: لمّا أوضح لهم أنهذا الكوكب الذي رآه لا يصلح أنيكون رباًارتقب ماهو أنور منه وأضوأ فرأى القمر أول طلوعه، ثم لما غاب ارتقب الشمس إذ كانت أنور من القمر وأضوأ، وأكبر جرماًوأعمّ نفعاً، فقال ذلك على سبيل الاحتجاج عليهم وبيّن أنها مساوية للنجم في صفة الحدوث[1] وقال ابن كثير: والحق أن إبراهيم عليه السلام كان في هذا المقام مناظراً لقومه مبيناًلهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الأصنام والكواكب السيارة وأشدهن إضاءة الشمس ثم القمر ثم الزهرة فلماانتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار وتحقق ذلك بالدليل القاطع ﴿قال يا قوم إني بريء مما تشركون﴾[2] ﴿إني وجهتُ وجهي﴾ أي قصدت بعبادتي وتوحيدي ﴿للذي فطر السموات والأرض﴾ أي اللّه الذي ابتدع العالم وخلق السموات والأرض ﴿حنيفاً﴾ أي مائلاً عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق ﴿وما أنا من المشركين﴾ أي لست ممن يعبد مع الله غيره ﴿وحاجّه قومه﴾[3] أي جادلوه وناظروه في شأن التوحيد قال ابن عباس: جادلوه في آلهتهم وخوّفوه بها فأجابهم منكراً عليهم ﴿قال أتحاجونّي في الله﴾ أي أتجادلونني في وجود الله ووحدانيته ﴿وقد هدان﴾ أي وقد بصّرني وهداني إلى الحق ﴿ولا أخاف ما تشركون به﴾ أي لا أخاف هذه الآلهة المزعومة التي تعبدونها من دون الله لأنها لا تضر ولا تنفع، ولا تُبصر ولا تسمع وليست قادرة على شيء مما تزعمون ﴿إلا أن يشاء ربي شيئاً﴾ أي إلا إذا أراد ربي أن يصيبني شيءٌ من المكروه فيكون ﴿وسع ربي كل شيء علماً﴾ أي أحاط علمه بجميع الأشياء ﴿أفلا تتذكرون﴾ استفهام للتوبيخ أي أفلا تعتبرون وتتعظون؟ وفي هذا تنبيهٌ لهم على غفلتهم التامة حيث عبدوا ما لا يضر ولا ينفع وأشركوا مع ظهور الدلائل الساطعة على وحدانيته سبحانه ﴿وكيف أخاف ما أشركتم﴾ أي كيف أخاف آلهتكم التي أشركتموها مع الله في العبادة! ﴿ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم يُنزّل به عليكم سلطاناً﴾ أي وأنتم لا تخافون الله القادر على كل شيء الذى أشركتم به بدون حجة ولا برهان ﴿فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون﴾ أي أيّنا أحقُّ بالأمن أنحن

(١) البحر المحيط ٤/ ١٦٧ . (٢) مختصر ابن كثير ١/ ٥٩٢ .

(٣) ذهب بعض المفسرين إلى أنّ قول إبراهيم عن الكوكب ﴿هذا ربي﴾ إنما كان في حال الطفولة قبل استحكام النظر في معرفة الله جل وعلا ، والصحيح ما ذهب إليه الجمهور من أن هذا القول كان في مقام المناظرة لقومه لإقامة الحجة عليهم في بطلان عبادة الكواكب والشمس والقمر ، وأن الموافقة في العبارة على طريق الإلزام على الخصم من أبلغ الحجج وأوضح البراهين ، ومما يدل عليه قوله تعالى ﴿وحاجه قومه﴾ وقوله ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾ فالمقام مقام مناظرة ـ كما قال الحافظ ابن كثير ـ لا مقام نظر ، وحاشا الخليل أن يشك في الرب الجليل وهو أب الأنبياء وإمام الحنفاء ، وقد ساق « الفخر الرازي » اثنتي عشرة حجة في تأييد مذهب الجمهور في تفسيره الكبير ج ١٣ ص ٤٧ وهذا اختيار أساطين المفسرين كالقرطبي والزمخشري وأبي السعود وابن كثير وصاحب البحر المحيط والله أعلم .

تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ

وقد عرفنا الله بأدلة وخصصناه بالعبادة أم أنتم وقد أشركتم معه الأصنام وكفرتم بالواحد الديان؟ **﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾** أي لم يخلطوا إيمانهم بشرك **﴿أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾** أي لهم الأمن من العذاب وهم على هداية ورشاد ، روي أن هذه الآية لما نزلت أشفق منها أصحاب النبي ﷺ فقالوا : وأيُّنا لم يظلم نفسه ؟ فقال ﷺ : ليس كما تظنون وإنما هو كما قال لقمان لابنه ﴿يا بُنيَّ لا تشرك بالله إن الشرك لظلمٌ عظيم﴾[1] **﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾** الإشارة إلى ما تقدم من الحجج الباهرة التي أيّد الله بها خليله عليه السلام أي هذا الذي احتج به إبراهيم على وحدانية الله من أفول الكواكب والشمس والقمر من أدلتنا التي أرشدناه لها لتكون له الحجة الدامغة على قومه **﴿نرفع درجاتٍ من نشاء﴾** أي بالعلم والفهم والنبوّة **﴿إن ربك حكيم عليم﴾** أي حكيم يضع الشيء في محله عليم لا يخفى عليه شيء **﴿ووهبنا له إسحق ويعقوب﴾** أي وهبنا لإبراهيم ولداً وولد ولد لتقر عينه ببقاء العقب **﴿كلاً هدينا﴾** أي كلاً منهما أرشدناه إلى سبيل السعادة وآتيناه النبوة والحكمة قال ابن كثير : يذكر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحق بعد أن طعن في السنّ وأيس من الولد ، وبُشّر بنبوته وبأن له نسلاً وعقباً وهذا أكمل في البشارة وأعظم في النعمة ، وكان هذا مجازاةً لإبراهيم حين اعتزل قومه وهاجر من بلادهم لعبادة الله ، فعوّضه الله عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه لتقرَّ بهم عينه[2] **﴿ونوحاً هدينا من قبل﴾** أي من قبل إبراهيم ، وذكر تعالى نوحاً لأنه أب البشر الثاني فذكر شرف أبناء إبراهيم ثم ذكر شرف آبائه **﴿ومن ذريته داود وسليمان﴾** أي ومن ذرية إبراهيم[3] هؤلاء الأنبياء الكرام ، وبدأ تعالى بذكر داود وسليمان لأنهما جمعا الملك مع النبوة وسليمان بن داود فذكر الأب والابن **﴿وأيوب ويوسف﴾** قرنهما لاشتراكهما في الإمتحان والبلاء **﴿وموسى وهارون﴾** قرنهما لاشتراكهما في الأخوّة وقدَّم موسى لأنه كليم الله **﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾** أي مثل ذلك الجزاء الكريم لإبراهيم نجزي من كان محسناً في عمله صادقاً في إيمانه **﴿وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس﴾** قرن بينهم لاشتراكهم في الزهد الشديد والإعراض عن الدنيا **﴿كلٌّ من الصالحين﴾** أي الكاملين في الصلاح **﴿وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً﴾** اسماعيل هو ابن إبراهيم، ويونس بن متّى ، ولوط بن هاران وهو ابن أخ إبراهيم

(١) الحديث أصله في الصحيحين . (٢) مختصر ابن كثير ١/ ٥٩٦ . (٣) الضمير في ﴿ذريته﴾ فيه قولان : قيل إنه يرجع إلى نوح واختاره الفراء وابن جرير وقيل: إنه يرجع إلى إبراهيم وهو قول عطاء واختاره أبو السعود لأن مساق الآية لبيان شئون إبراهيم العظيمة .

وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا

﴿**وكلاً فضلنا على العالمين**﴾ أي كلاً من هؤلاء المذكورين في هذه الآية فضلناه بالنبوة على عالمي عصرهم ﴿**ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم**﴾ أي وهدينا من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم جماعاتٍ كثيرة ﴿**واجتبيناهم وهديناهم إلى صراطٍ مستقيم**﴾ أي اصطفيناهم وهديناهم إلى الطريق الحق المستقيم الذي لا عوج فيه قال ابن عباس : هؤلاء الأنبياء كلهم مضافون إلى ذرية إبراهيم وإن كان فيهم من لا يلحقه بولادةٍ من قبل أمٍ ولا أب[١] ﴿**ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده**﴾ أي ذلك الهدى إلى الطريق المستقيم هو هدى الله يهدي به من أراد من خلقه ﴿**ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون**﴾ أي لو أشرك هؤلاء الأنبياء مع فضلهم وعلو قدرهم لبطل عملهم فكيف بغيرهم؟ ﴿**أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة**﴾ أي أنعمنا عليهم بإنزال الكتب السماوية والحكمة الربانية والنبوة والرسالة ﴿**فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين**﴾ أي فإن يكفر بآياتنا كفار عصرك يا محمد فقد استحفظناها واسترعيناها رسلنا وأنبياءنا[٢] ﴿**أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده**﴾ أي هؤلاء الرسل المتقدم ذكرهم هم الهداة المهديّون فتأس واقتد بسيرتهم العطرة ﴿**قل لا أسألكم عليه أجراً**﴾ أي قل يا محمد لقومك لا أسألكم على تبليغ القرآن شيئاً من الأجر والمال ﴿**إن هو إلا ذكرى للعالمين**﴾ أي ما هذا القرآن إلا عظةٌ وتذكير لجميع الخلق ﴿**وما قدروا الله حقّ قدره**﴾ أي ما عرفوا الله حق معرفته ولا عظّموه حقَّ تعظيمه ﴿**إذ قالوا ما أنزل الله على بشرٍ من شيء**﴾ أي حين أنكروا الوحي وبعثة الرسل ، والقائلون هم اليهود اللعناء تفوهوا بهذه العظيمة الشنْعاء مبالغة في إنكار نزول القرآن على محمد عليه السلام ﴿**قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس**﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المعاندين من أنزل التوراة على موسى نوراً يستضاء به وهداية لبني إسرائيل ؟ ﴿**تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً**﴾ أي تكتبونه في قراطيس مقطعة وورقات مفرقة تبدون منها ما تشاءون وتخفون ما تشاءون

---

(١) البحر ١٧٣/٢ . (٢) قيل إن المراد بهم أهل المدينة من الأنصار وهو قول ابن عباس وقيل هم النبيّون الثمانية عشر المذكورون في هذه الآية وهو قول قتادة واختيار الزجاج وابن جرير .

ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ

قال الطبري : ومما كانوا يكتمونه إياهم ما فيها من أمر محمد ﷺ ونبوته[1] ﴿**وعلّمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم**﴾ أي عُلّمتم يا معشر اليهود من دين الله وهدايته في هذا القرآن ما لم تعلموا به من قبل لا أنتم ولا آباؤكم ﴿**قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون**﴾ أي قل لهم في الجواب : الله أنزل هذا القرآن ثم اتركهم في باطلهم الذي يخوضون فيه يهزءون ويلعبون ، وهذا وعيدٌ لهم وتهديد على إجرامهم ﴿**وهذا كتاب أنزلناه مباركٌ**﴾ أي وهذا القرآن الذي أُنزل على محمد ﷺ مبارك كثير النفع والفائدة ﴿**مصدّق الذي بين يديه**﴾ أي يصدّق كتب الله المنزّلة كالتوراة والإنجيل ﴿**ولتنذر أم القرى ومن حولها**﴾ أي لتنذر به يا محمد أهل مكة ومن حولها وهم سائر أهل الأرض قاله ابن عباس ﴿**والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به**﴾ أي والذين يصدّقون بالحشر والنشر يؤمنون بهذا الكتاب لما انطوى عليه من ذكر الوعد والوعيد والتبشير والتهديد ﴿**وهم على صلاتهم يحافظون**﴾ أي يؤدون الصلاة على الوجه الأكمل في أوقاتها قال الصاوي : خصّ الصلاة بالذكر لأنها أشرف العبادات[2] ﴿**ومن أظلمُ ممن افترى على الله كذباً**﴾ استفهام معناه النفي أي لا أحد أظلم ممن كذب على الله فجعل له شركاء وأنداداً ﴿**أو قال أُوحي إليّ ولم يوح إليه شيء**﴾ أي زعم أن الله بعثه نبياً كمسيلمة الكذاب والأسود العنسي مع أن الله لم يرسله ﴿**ومن قال سأُنزل مثل ما أنزل الله**﴾ أي ومن ادعى أنه سينظم كلاماً يماثل ما أنزله الله كقول الفجار ﴿**لو نشاء لقلنا مثل هذا**﴾ قال أبو حيان : نزلت في النضر بن الحارث ومن معه من المستهزئين لأنه عارض القرآن بكلام سخيف لا يُذكر لسخفه[3] ﴿**ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت**﴾ أي ولو ترى يا محمد هؤلاء الظلمة وهم في سكرات الموت وشدائده، وجواب ﴿**لو**﴾ محذوف للتهويل أي لرأيت أمراً عظيماً ﴿**والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم**﴾ أي وملائكة العذاب يضربون وجوههم وأدبارهم لتخرج أرواحهم من أجسادهم قائلين لهم : خلّصوا أنفسكم من العذاب قال الزمخشري : المعنى يقولون هاتوا أرواحكم أخرجوها إلينا من أجسادكم ، وهذه عبارة عن العنف في السياق والإلحاح الشديد في الإزهاق من غير تنفيس وإمهال[4] ﴿**اليوم تجُزون عذاب الهُون**﴾ أي تجزون العذاب الذي

---

(١) الطبري ١١/ ٥٢٧ . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/ ٣١ . (٣) البحر المحيط ٤/ ١٨٠ . (٤) الكشاف ٢/ ٣٦

أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

يقع به الهوان الشديد مع الخزي الأكيد ﴿**بما كنتم تقولون على الله غير الحق**﴾ أي بافترائكم على الله ونسبتكم إليه الشريك والولد ﴿**وكنتم عن آياته تستكبرون**﴾ أي تتكبرون عن الإيمان بآيات الله فلا تتأملون فيها ولا تؤمنون ﴿**ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة**﴾ أي جئتمونا للحساب منفردين عن الأهل والمال والولد حفاةً عراة غرلاً كما ورد في الحديث (أيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاةً عُراةً غرلاً كما بدأنا أول خلق نعيده . .)[1] ﴿**وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم**﴾ أي تركتم ما أعطيناكم من الأموال في الدنيا فلم تنفعكم في هذا اليوم العصيب ﴿**وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء**﴾ أي وما نرى معكم آلهتكم الذين زعمتم أنهم يشفعون لكم والذين اعتقدتم أنهم شركاء لله في استحقاق العبادة ﴿**لقد تقطَّعَ بينكم**﴾ أي تقطّع وصلكم وتشتّت جمعكم ﴿**وضلّ عنكم ما كنتم تزعمون**﴾ أي ضاع وتلاشى ما زعمتموه من الشفعاء والشركاء .

البَلاَغَة : ١ ـ ﴿وكذلك نري إبراهيم﴾ حكاية حال ماضية أي أريناه .

٢ ـ ﴿لأكوننَّ من القوم الضالين﴾ فيه تعريض بضلال قومه ، وبين لفظ ﴿الهداية والضلالة﴾ طباقٌ وهو من المحسنات البديعية .

٣ ـ ﴿وجهتُ وجهي﴾ بينهما جناس الاشتقاق .

٤ ـ ﴿هدى الله﴾ الإضافة للتشريف وبين ﴿هدى﴾ و ﴿يهدي﴾ جناس الاشتقاق أيضاً .

٥ ـ ﴿ما أنزل الله على بشرٍ من شيء﴾ مبالغة في إنكار نزول شيء من الوحي على أحدٍ من الرسل .

٦ ـ ﴿من أنزل الكتاب﴾ استفهام للتبكيت والتوبيخ .

٧ ـ ﴿تبدونها وتخفون﴾ بينهما طباق .

٨ ـ ﴿أم القرى﴾ مكة المكرمة وفيه استعارة حيث شبهت بالأم لأنها أصل المدن والقرى .

٩ ـ ﴿في غمرات الموت﴾ قال الشريف الرضي : هذه استعارة عجيبة حيث شبه سبحانه ما يعتورهم من كُرب الموت وغصصه بالذين تتقاذفهم غمرات الماء ولججه وسميت غمرة لأنها تغمر قلب الإنسان[2] .

---

(١) الحديث من رواية الشيخين ومعنى « غُرلاً » أي غير مختونين . (٢) تلخيص البيان ص ٣٧ .

تـنبيـــه : ذهب بعض المفسرين إلى أن ﴿آزر﴾ عم إبراهيم وليس أباه وقال آخرون : إنه اسم للصنم ، والصحيح كما قال المحققون من المفسرين أنه اسم لوالد إبراهيم وقد دل على ذلك الكتاب والسنة ، والآية صريحة في أن آزر كان كافراً ولا يقدح ذلك في مقام إبراهيم عليه السلام وفي صحيح البخاري « يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة . . » الحديث ودعوى إيمانه مرفوضة بنص الكتاب والسنة والله أعلـم .

* * *

قال الله تعالى : ﴿إن اللـه فالق الحـب والنوى . . إلى . . ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ من آية (٩٥) إلى نهاية آية (١١٠) .

المنَاسَبَة : لما ذكر تعالى أمر التوحيد وأردفه بتقرير أمر النبوة ، ذكر هنا الأدلة الدالة على وجود الخالق وكمال علمه وقدرته وحكمته ، تنبيهاً على أن المقصود الأصلي إنما هو معرفة اللـه بذاتـه وصفاتـه وأفعاله .

اللغَـــة : ﴿فالق﴾ الفلق : الشقُّ ، وانفلق الصبح انشق ﴿سكناً﴾ السَّكن ما يسكن إليه الإنسان ويأنس به ، والسَّكن : الرحمة ﴿حُسْباناً﴾ أي بحساب قال الزمخشري : الحُسبان مصدر حَسَب كما أن الحِسْبان مصدر حَسِب ونظيره الكُفران والشُكران[١] ﴿متراكباً﴾ بعضه فوق بعض ﴿قِنوان﴾ جمع قِنْو وهو العِذِقُ أي عنقود النخلة ﴿ويَنْعِه﴾ أي نُضْجه وإدراكه يقال : يَنَعت الشجرةُ وأيْنعتْ إذا نضجـت ﴿خرقوا﴾ اختلقوا كذباً وإفكاً ﴿بديع﴾ مبدع وهو الخالق على غير مثال سابق ، والإِبداع الإتيان بشيء لم يُسبق إليه ولهذا يقال لمن أتى في فنّ من الفنون لم يسبقه فيه غيره إنه أبدع ﴿نصرّف﴾ التصريف : نقل الشيء من حال إلى حال .

سَبَبُ النّزول : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال كفار قريش لأبي طالب إمّا أن تنهى محمداً وأصحابه عن سب آلهتنا والنَّيل منها وإمّا أن نسب إلهه ونهجوه فنزلت ﴿ولا تسبّوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عَدْواً بغير علم . . ﴾[٢] الآية وفي رواية أخرى أن المشركين قالوا يا محمد : لتنتهينّ عن سبك آلهتنا أو لنهجونّ ربك[٣] فنزلت .

* ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾

التفسِـير : عاد الكلام إلى الاحتجـاج على المشركين بعجائـب الصنـع ولطـائف التدبير فقـال سبحانه : ﴿إنَّ الله فالـقُ الحـبِّ والنوى﴾ أي يفلق الحبَّ تحت الأرض لخروج النبات منها ويفلق النوى لخروج الشجر منها قال القرطبي : أي يشق النواة الميتة فيُخرج منها ورقاً أخضر وكذلك الحبة[٤] ﴿يُخْرِج

(١) الكشاف ٢/ ٣٩. (٢) القرطبي ٧/ ٦١ . (٣) أسباب النزول ص ١٢٧ . (٤) القرطبي ٧/ ٤٤.

فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ

الحيَّ من الميت ومُخْرِج الميِّتِ من الحي﴾ أي يخرج النبات الغضّ الطريّ من الحبّ اليابس ، ويخرج الحبَّ اليابس من النبات الحيّ النامي وعن ابن عباس : يخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، وعلى هذا فالحي والميت استعارة عن المؤمن والكافر ﴿**ذلكم الله فأنّى تؤفكون﴾** أي ذلكم الله الخالق المدبر فكيف تُصرفون عن الحق بعد هذا البيان ! ﴿**فالق الإصباح﴾** أي شاقُّ الضياء عن الظلام وكاشفه قال الطبري : شقَّ عمود الصبح عن ظلمة الليل وسواده[1] ﴿**وجعل الليل سكَناً﴾** أي يسكن الناس فيه عن الحركات ويستريحون ﴿**والشمس والقمر حسباناً﴾** أي بحساب دقيق يتعلق به مصالح العباد ، ويُعرف بهما حساب الأزمان والليل والنهار ﴿**ذلك تقدير العزيز العليم﴾** أي ذلك التسيير بالحساب المعلوم تقدير الغالب القاهر الذي لا يستعصي عليه شيء العليم بمصالح خلقه وتدبيرهم ﴿**وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر﴾** أي خلق لكم النجوم لتهتدوا بها في أسفاركم في ظلمات الليل في البر والبحر ، وإنما امتنّ عليهم بالنجوم لأن سالكي القفار ، وراكبي البحار إنما يهتدون في الليل لمقاصدهم بها ﴿**قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون﴾** أي بيّنا الدلائل على قدرتنا لقوم يتدبرون عظمة الخالق ﴿**وهو الذي أنشأكم من نفسٍ واحدة﴾** أي خلقكم وأبدعكم من نفسٍ واحدة هي آدم عليه السلام ﴿**فمستقرٌّ ومستودعٌ﴾** قال ابن عباس : المستقرُّ في الأرحام والمستودع في الأصلاب ، أي لكم استقرار في أرحام أمهاتكم وأصلاب آبائكم ، وقال ابن مسعود : مستقر في الرحم ومستودع في الأرض التي تموت فيها[2] ﴿**قد فصّلنا الآيات لقوم يفقهون﴾** أي بينا الحجج لقوم يفقهون الأسرار والدقائق قال الصاوي : عبّر هنا بـ ﴿**يفقهون﴾** إشارة إلى أن أطوار الإنسان وما احتوى عليه أمرٌ خفيٌّ تتحير فيه الألباب ، بخلاف النجوم فأمرها ظاهر مشاهد ، ولذا عبّر فيها بـ ﴿**يعلمون﴾**[3] ﴿**وهو الذي أنزل من السماءِ ماءً فأخرجْنا به نباتَ كلِّ شيءٍ﴾** أي أنزل من السحاب المطر فأخرج به كل ما ينبتُ من الحبوب والفواكه والثمار والبقول والحشائش والشجرَ قال الطبري : أي أخرجنا به ما ينبتُ به كل شيء وينمو عليه ويصلح[4] ﴿**فأخرجنا منه خضِراً﴾** أي أخرجنا من النبات شيئاً غضّاً أخضر ﴿**نُخرج به حباً متراكباً﴾** أي نُخرج من الخضر حباً متراكباً بعضُه فوق بعض كسنابل الحنطة والشعير قال ابن عباس : يريد القمح والشعير والذرة والأرز ﴿**ومن النخل من طَلْعها قِنْوانٌ دانية﴾** أي

(١) الطبري ١١/ ٥٥٤ . (٢) وفسر المستقرّ أيضاً بالاستقرار فوق الأرض والمستودع تحت الأرض واختار الطبري العموم.
(٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/ ٣٤ . (٤) الطبري ١١/ ٥٧٣ .

مِنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾

وأخرجنا من طلع النخل ـ والطلعُ أول ما يخرج من التمر في أكمامه ـ عناقيد قريبة سهلة التناول قال ابن عباس : يريد العراجين التي قد تدلّت من الطلع دانية ممن يجتنيها ﴿**وجناتٍ من أعناب**﴾ أي وأخرجنا بالماء بساتين وحدائق من أعناب ﴿**والزيتون والرمانَ مشتبهاً وغير متشابه**﴾ أي وأخرجنا به أيضاً شجر الزيتون وشجر الرمان مشتبهاً في المنظر وغير متشابه في الطعم قال قتادة : مشتبهاً ورقُه مختلفاً ثمرُه ، وفي ذلك دليل قاطع على الصانع المختار العليم القدير ﴿**انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعِه**﴾ أي انظروا أيها الناس نظر اعتبار واستبصار إلى خروج هذه الثمار من ابتداء خروجها إلى انتهاء ظهورها ونضجها كيف تنتقل من حال إلى حال في اللون والرائحة والصغر والكبر، وتأملوا ابتداء الثمر حيث يكون بعضه مراً وبعضه مالحاً لا يُنتفع بشيء منه ، ثم إذا انتهى ونضج فإنه يعود حلواً طيباً نافعاً مستساغ المذاق ! فسبحان القدير الخلاّق !! ﴿**إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون**﴾ أي إن في خلق هذه الثمار والزروع مع اختلاف الأجناس والأشكال والألوان لدلائل باهرة على قدرة الله ووحدانيته لقوم يصدّقون بوجود الله قال ابن عباس : يصدّقون أن الذي أخرج هذا النبات قادرٌ على أن يحيي الموتى[1] ﴿**وجعلوا لله شركاءَ الجنَّ**﴾ أي وجعلوا الجنَّ شركاء لله حيث أطاعوهم في عبادة الأوثان ﴿**وخَلَقَهم**﴾ أي وقد علموا أنه تعالى هو الذي خلقهم وانفرد بإيجادهم فكيف يجعلونهم شركاء له ؟ وهذه غاية الجهالة ﴿**وخرقوا له بنين وبناتٍ بغير علم**﴾ أي واختلقوا ونسبوا إليه تعالى البنين والبنات حيث قالوا : عزيرٌ ابن الله والملائكةُ بناتُ الله سفهاً وجهالة ﴿**سبحانه وتعالى عمّا يصفون**﴾ أي تنزّه الله وتقدس عن هذه الصفات التي نسبها إليه الظالمون وتعالى علواً كبيراً ﴿**بديع السموات والأرض**﴾ أي مبدعهما من غير مثالٍ سبق ﴿**أنّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة**﴾ أي كيف يكون له ولد وليس له زوجة ؟ والولد لا يكون إلا من زوجة ﴿**وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم**﴾ أي وما من شيء إلا هو خالقه والعالم به ومن كان كذلك كان غنياً عن كل شيء قال في التسهيل : والغرض الرد على من نسب لله الولد من وجهين : أحدهما أن الولد لا يكون إلا من جنس والده والله تعالى متعالٍ عن الأجناس لأنه مبدعها فلا يصح أن يكون له ولد ، والثاني : أن الله خلق السموات والأرض ومن كان هكذا فهو غني عن الولد وعن كل شيء[2] ثم أكّد تعالى على وحدانيته وتفرده بالخلق والإيجاد فقال ﴿**ذلكم**

(١) تفسير الجوزي ٣/ ٩٦ . (٢) التسهيل ٢/ ١٨ .

﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا﴾

الله ربكم لا إله إلا هو﴾ أي ذلكم الله خالقكم ومالككم ومدبّر أموركم لا معبود بحق سواه ﴿خالقُ كل شيء فاعبدوه﴾ أي هو الخالق لجميع الموجودات ومن كان هكذا فهو المستحق للعبادة وحده ﴿وهو على كل شيء وكيل﴾ أي وهو الحافظ والمدبر لكل شيء ففوّضوا أموركم إليه وتوسلوا إليه بعبادته ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾ أي لا تصل إليه الأبصار ولا تحيط به وهو يراها ويحيط بها لشمول علمه تعالى للخفيات ﴿وهو اللطيف الخبير﴾ أي اللطيف بعباده الخبير بمصالحهم قال ابن كثير: ونفيُ الإدراك الخاص لا ينفي الرؤية يوم القيامة إذ يتجلى لعباده المؤمنين كما يشاء، فأما جلاله وعظمته على ما هو عليه تعالى وتقدس فلا تدركه الأبصار ولهذا كانت عائشة تثبت الرؤية في الآخرة وتنفيها في الدنيا وتحتج بهذه الآية[1] ﴿قد جاءكم بصائر من ربكم﴾ أي قد جاءكم البينات والحجج التي تُبصرون بها الهدى من الضلال وتميزون بها بين الحق والباطل قال الزجاج: المعنى قد جاءكم القرآن الذي فيه البيان والبصائر[2] ﴿فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها﴾ قال الزمخشري: المعنى من أبصر الحق وآمن فلنفسه أبصر وإيّاها نفع ومن عمي عنه فعلى نفسه عمي وإيّاها ضرَّ بالعمى[3] ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ أي لست عليكم بحافظ ولا رقيب وإنما أنا منذر والله هو الحفيظ عليكم ﴿وكذلك نصرّف الآيات﴾ أي وكما بينا ما ذُكر نبيّن الآيات ليعتبروا ﴿وليقولوا درست﴾ أي وليقول المشركون درست يا محمد في الكتب وقرأت فيها وجئتَ بهذا القرآن، واللامُ لامُ العاقبة ﴿ولنبيّنه لقوم يعلمون﴾ أي ولنوضحه لقوم يعلمون الحق فيتبعونه ﴿إتّبع ما أوحي إليك من ربك﴾ أي اتبع يا محمد القرآن الذي أوحاه الله إليك قال القرطبي: أي لا تشغل قلبك وخاطرك بهم بل اشتغل بعبادة الله[4] ﴿لا إله إلا هو﴾ أي لا معبود بحقٍ إلا هو ﴿وأعرضْ عن المشركين﴾ أي لا تحتفل بهم ولا تلتفت إلى آرائهم ﴿ولو شاء الله ما أشركوا﴾ أي لو شاء الله هدايتهم لهداهم فلم يشركوا ولكنه سبحانه يفعل ما يشاء ﴿لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون﴾ ﴿وما جعلناك عليهم حفيظاً﴾ أي وما جعلناك رقيباً على أعمالهم تجازيهم عليها ﴿وما أنتَ عليهم بوكيل﴾ أي ولستَ بموكل على أرزاقهم وأمورهم قال الصاوي: وهذا تأكيد لما قبله أي لستَ حفيظاً مراقباً لهم فتجبرهم على الإيمان وهذا كان قبل الأمر بالقتال[5] ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله﴾ أي لا تسبوا آلهة المشركين وأصنامهم ﴿فيسبوا الله عَدْواً بغير علم﴾ أي فيسبوا الله جهلاً واعتداءً لعدم

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٦٠٥ (٢) تفسير ابن الجوزي ٣/ ٩٩. (٣) الكشاف ٢/ ٤٣ (٤) القرطبي ٧/ ٦٠
(٥) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/ ٣٧

﴿ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾

معرفتهم بعظمة الله قال ابن عباس : قال المشركون : لتنتهينَّ عن سبك آلهتنا أو لنهجونَّ ربك فنهاهم الله أن يسبّوا أوثانهم[١] ﴿**كذلك زينا لكل أمةٍ عملهم**﴾ أي كما زينّا لهؤلاء أعمالهم كذلك زينّا لكل أمةٍ عملهم قال ابن عباس : زينّا لأهل الطاعة الطاعة ولأهل الكفر الكفرَ ﴿**ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون**﴾ أي ثم معادهم ومصيرهم إلى الله فيجازيهم بأعمالهم ، وهو وعيدٌ بالجزاء والعذاب ﴿**وأقسموا بالله جَهْدَ أيمانهم**﴾ أي حلف كفار مكة بأغلظ الأيمان وأشدها ﴿**لئن جاءتهم آيةٌ ليؤمِنُنَّ بها**﴾ أي لئن جاءتهم معجزة أو أمر خارقٌ مما اقترحوه ليؤمننَّ بها ﴿**قل إنما الآيات عند الله**﴾ أي قل لهم يا محمد أمر هذه الآيات عند الله لا عندي هو القادر على الإتيان بها دوني ﴿**وما يُشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون**﴾ أي وما يدريكم أيها المؤمنون لعلها إذا جاءتهم لا يصدقون بها !! ﴿**ونقلّب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة**﴾ أي ونحوّل قلوبهم عن الإيمان كما لم يؤمنوا بما أُنزل من القرآن أول مرة قال الصاوي : وهو استئناف مسوقٌ لبيان أن خالق الهدى والضلال هو الله لا غيره فمن أراد له الهدى حوّل قلبه له ، ومن أراد الله شقاوته حوّل قلبه لها[٢] ﴿**ونذرهم في طغيانهم يعمهون**﴾ أي ونتركهم في ضلالهم يتخبطون ويتردّدون متحيرين .

البَـلاغَـة : ١ - ﴿يخرج الحيّ من الميت﴾ بين لفظ الحيّ والميت طباقٌ وهو من المحسنات البديعية وفي الآية أيضاً من المحسنات ما يسمى ردّ العجز على الصدر في قوله ﴿ومخرج الميت من الحي﴾ .

٢ - ﴿فأنى تؤفكون﴾ استفهام إنكاري بمعنى النفي أي لا وجه لصرفكم عن الإيمان بعد قيام البرهان .

٣ - ﴿ فأخرجنا به ﴾ فيه التفاتٌ عن الغيبة والأصل فأخرج به والنكتة هي الاعتناء بشأن المُخْرَج والإشارة إلى أنَّ نِعمَه عظيمة .

٤ - ﴿والزيتون والرمان﴾ من عطف الخاص على العام لمزيد الشرف لأنهما من أعظم النعم .

٥ - ﴿بصائر من ربكم﴾ مجاز مرسل من باب تسمية المسبب باسم السبب أي حجج وبراهين تبصرون بها الحقائق .

---

(١) ابن كثير ٦٠٧/١ . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/ ٣٩ .

٦ ـ بين لفظ ﴿أبصر وعمي﴾ طباق وبين لفظ ﴿بصائر وأبصر﴾ جناس الاشتقاق .

تـنبيـه : قوله تعالى ﴿لا تدركه الأبصار﴾ الآية نفت الإحاطة ولم تنف الرؤية فلم يقل تعالى : لا تراه الأبصار فمن ذهب إلى عدم رؤية الله في الآخرة كالمعتزلة فقد جانب الحق وضلّ السبيل بمخالفة ما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ المتواترة أما الكتاب فقوله تعالى ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ وأما السنة فما أخرجه البخاري (إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته . .) الحديث وكفى بالكتاب والسنة دليلاً وهادياً .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ولو أننا نزّلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى . . إلى . . وهو وليهم بما كانوا يعملون﴾ من آية (١١١) إلى نهاية آية (١٢٧) .

المناسبة : لما ذكر تعالى دلائل التوحيد والنبوّة والبعث ، واقتراح المشركين بعض الآيات على رسول الله ﷺ ، ذكر هنا أن رؤية المعجزات لن تفيد من عميت بصيرته ، وأنه لو أتاهم بالآيات التي اقترحوها من إنزال الملائكة ، وإحياء الموتى حتى يكلموهم ، وحشر السباع والدواب والطيور وشهادتهم بصدق الرسول ما آمنوا بمحمد والقرآن لتأصلهم في الضلال .

اللغة : ﴿قُبلاً﴾ مقابلة ومواجهة ومنه قولهم أتيتُك قُبلاً لا دُبُراً أي من قِبَل وجهك ﴿وحشرنا﴾ الحشر : الجمع مع سوقٍ وكل جمعٍ حشرٌ ومنه ﴿فحشر فنادى﴾ . ﴿زخرف﴾ قال الزجاج : الزخرف الزينة وقال أبو عبيدة : كلٌّ ماحسنته وزينته وهو باطل فهو زخرف ﴿ولتصغى﴾ صغى إلى الشيء مال إليه ومثله أصغى وفي الحديث (فأصغى إليها الإناء) وأصله الميل ﴿يقترفون﴾ اقترف:اكتسب وأكثر ما يكون في الشر يقال : قرف الذنبَ واقترفه أي اكتسبه ﴿يخرصون﴾ يكذبون قال الأزهري : أصله الظن فيما لا يستيقن[1] ﴿صغار﴾ ذلة وهوان ﴿يشرح﴾ يوسّع والشرح : البسط والتوسعة ﴿حَرَجاً﴾ الحَرَج : شدة الضيق قال ابن قتيبة : الحَرَج الذي ضاق فلم يجد منفذاً[2] .

سبب النزول : عن ابن عباس أن أبا جهل رمى رسول الله ﷺ بفرث ـ وحمزة لم يؤمن بعد ـ فأُخبر حمزة بما فعل أبو جهل وهو راجع من قنصه وبيده قوسٌ فأقبل غضبان حتى علا أبا جهل بالقوس فقال أبو جهل : أما ترى ما جاء به سفّه عقولنا ، وسب آلهتنا ، وخالف آباءنا قال حمزة : ومن أسفهُ منكم ؟ تعبدون الحجارة من دون الله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فأنزل الله ﴿أَوَمَنْ كان ميتاً فأحييناه . . ﴾[3] الآية .

---

(١) تهذيب اللغة مادة خرص . (٢) غريب القرآن ص ١٦٠ . (٣) أسباب النزول ص ١٢٨ .

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ (١١٣) أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾

التفسير : ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى﴾ هذا بيانٌ لكذب المشركين في أيمانهم الفاجرة حين أقسموا ﴿لئن جاءتهم آيةٌ ليؤمننَّ بها﴾ والمعنى : ولو أننا لم نقتصر على إيتاء ما اقترحوه من آيةٍ واحدة من الآيات بل نزلنا إليهم الملائكة وأحيينا لهم الموتى فكلموهم وأخبروهم بصدق محمد ﷺ كما اقترحوا ﴿وحشرنا عليهم كل شيءٍ قُبُلاً﴾ أي وجمعنا لهم كل شيء من الخلائق عياناً ومشاهدة ﴿ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله﴾ أي لو أعطيناهم هذه الآيات التي اقترحوها وكل آية لم يؤمنوا إلا أن يشاء الله ، والغرضُ التيئيسُ من إيمانهم ﴿ولكنَّ أكثرهم يجهلون﴾ أي ولكنَّ أكثر هؤلاء المشركين يجهلون ذلك قال الطبري : أي يجهلون أن الأمر بمشيئة الله ، يحسبون أن الإيمان إليهم والكفر بأيديهم متى شاءوا آمنوا ، ومتى شاءوا كفروا ، وليس الأمر كذلك ، ذلك بيدي لا يؤمن منهم إلا من هديتُه له فوفقته ، ولا يكفر إلا من خذلتُه فأضللتُه[1] ﴿وكذلك جعلنا لكل نبيٍّ عدواً شياطينَ الإنس والجنّ﴾ أي كما جعلنا هؤلاء المشركين أعداءك يعادونك ويخالفونك كذلك جعلنا لمن قبلك من الأنبياء أعداء من شياطين الإنس والجن، فاصبر على الأذى كما صبروا قال ابن الجوزي : أي كما ابتليناك بالأعداء ابتلينا من قبلك من الأنبياء ليعظم الثواب عند الصبر على الأذى[2] ﴿يوحي بعضهم إلى بعض﴾ أي يوسوس بعضهم إلى بعض بالضلال والشر ﴿زخرف القول غروراً﴾ أي يوسوسون بالكلام المزيّن والأباطيل المموّهة ليغروا الناس ويخدعوهم قال مقاتل : وكَلَ إبليسُ بالإنس شياطينَ يُضلونهم فإذا التقى شيطان الإنس بشيطان الجن قال أحدهما لصاحبه : إني أضللتُ صاحبي بكذا وكذا فأضللْ أنتَ صاحبك بكذا وكذا ، فذلك وحيُ بعضهم إلى بعض[3] ﴿ولو شاء ربك ما فعلوه﴾ أي لو شاء الله ما عادى هؤلاء أنبياءهم ولكنَّ حكمة الله اقتضتْ هذا الابتلاء قال ابن كثير : وذلك كله بقدر الله وقضائه وإرادته ومشيئته أن يكون لكل نبي عدوٌ من هؤلاء[4] ﴿فذرهم وما يفترون﴾ أي اتركهم وما يدبرونه من المكائد فإن الله كافيك وناصرُكَ عليهم ﴿ولتصغى إليه أفئدةُ الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ أي ولتميل إلى هذا القول المزخرف قلوبُ الكفرة الذين لا يصدّقون بالآخرة ﴿وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون﴾ أي وليرضوا بهذا الباطل وليكتسبوا ما هم مكتسبون من الآثام ﴿أفغير الله أبتغي حكماً﴾ أي قل لهم يا محمد أفغير الله أطلب قاضياً بيني وبينكم ؟ قال أبو حيان : قال

---

(١) الطبري ١٢/ ٤٧ . (٢) زاد المسير ٣/ ١٠٨ . (٣) تفسير ابن الجوزي ٣/ ١٠٩ . (٤) أبو السعود ٢/ ١٣١

وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ

مشركو قريش لرسول الله ﷺ : اجعلْ بيننا وبينك حكماً إن شئتَ من أحبار اليهود أو النصارى ليخبرنا عنك بما في كتابهم من أمرك فنزلت[١] ﴿وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصَّلاً﴾ أي أنزل إليكم القرآن بأوضح بيان ، مفصَّلاً فيه الحق والباطل موضّحاً الهدى من الضلال ﴿والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزّلٌ من ربك بالحق﴾ أي وعلماء اليهود والنصارى يعلمون حق العلم أن القرآن حقٌ لتصديقه ما عندهم ﴿فلا تكوننَّ من الممترين﴾ أي فلا تكوننَّ من الشاكين قال أبو السعود : وهذا من باب التهييج والإلهاب وقيل : الخطاب للرسول والمراد به الأمة[٢] ﴿وتمّت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾ أي تمَّ كلام الله المنزّل صدقاً فيما أخبر ، وعدلاً فيما قضى وقدَّر ﴿لا مبدّل لكلماته﴾ أي لا مغيِّر لحكمه ولا رادَّ لقضائه ﴿وهو السميع العليم﴾ أي السميع لأقوال العباد العليم بأحوالهم ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلّوك عن سبيل الله﴾ أي إن تطع هؤلاء الكفار وهم أكثر أهل الأرض يضلّوك عن سبيل الهدى قال الطبري : وإنما قال ﴿أكثر من في الأرض﴾ لأنهم كانوا حينئذٍ كفاراً ضُلّالاً والمعنى : لا تطعهم فيما دعوك إليه فإنك إن أطعتهم ضللتَ ضلالهم وكنت مثلهم لأنهم لا يدعونك إلى الهدى وقد أخطأوه[٣] ﴿إن يتّبعون إلا الظنَّ وإن هم إلا يخرصون﴾ أي ما يتبعون في أمر الدين إلا الظنون والأوهام يقلّدون آباءهم ظناً منهم أنهم كانوا على الحق وما هم إلا قومٌ يكذبون ﴿إنَّ ربك هو أعلم من يضلُّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ أي إن ربك يا محمد أعلم بالفريقين بمن ضلّ عن سبيل الرشاد وبمن اهتدى إلى طريق الهدى والسداد قال في البحر : وهذه الجملة خبريةٌ تتضمن الوعيد والوعد لأن كونه تعالى عالماً بالضال والمهتدي كناية عن مجازاتهما[٤] ﴿فكلوا مما ذُكر اسمُ الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين﴾ أي كلوا مما ذبحتم وذكرتم اسم الله عليه إن كنتم حقاً مؤمنين قال ابن عباس : قال المشركون للمؤمنين إنكم تزعمون أنكم تعبدون الله فما قتله الله - يريدون الميتة - أحق أن تأكلوه مما قتلتم أنتم فنزلت الآية[٥] ﴿وما لكم ألاّ تأكلوا مما ذُكر اسم الله عليه﴾ أي وما المانع لكم من أكل ما ذبحتموه بأيديكم بعد أن ذكرتم اسم ربكم عليه عند ذبحه ؟ ﴿وقد فصّل لكم ما حرَّم عليكم إلا ما اضطررتم إليه﴾ أي وقد

(١) البحر المحيط ٤/ ٢٠٦ . (٢) أبو السعود ٤/ ٢٧٤ . (٣) الطبري ١٢/ ٦٤ . (٤) البحر المحيط ٤/ ٢١٠ . (٥) زاد المسير ٣/ ١١٢ .

عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا ظَٰهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ

بيَّن لكم ربكم الحلال والحرام ووضّح لكم ما يحرم عليكم من الميتة والدم الخ في آية المحرمات إلا في حالة الاضطرار فقد أحلّ لكم ما حرّم أيضاً فما لكم تستمعون إلى الشبهات التي يثيرها أعداؤكم الكفار ؟ **﴿وإن كثيراً ليُضلون بأهوائهم بغير علم﴾** أي وإن كثيراً من الكفار المجادلين ليُضلون الناس بتحريم الحلال وتحليل الحرام بغير شرعٍ من الله بل بمجرد الأهواء والشهوات **﴿إن ربك هو أعلم بالمعتدين﴾** أي المجاوزين الحدَّ في الاعتداء فيحلّلون ويحرمون بدون دليل شرعي من كتاب أو سنّة ، وفيه وعيد شديد وتهديد أكيد لمن اعتدى حدود الله **﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه﴾** أي اتركوا المعاصي ظاهرها وباطنها وسرَّها وعلانيتها قال مجاهد : هي المعصية في السر والعلانية وقال السدي : ظاهره الزنى مع البغايا وباطنه الزنى مع الصدائق والأخدان[1] **﴿إنَّ الذين يكسبون الإثم سيُجزون بما كانوا يقترفون﴾** أي يكسبون الإثم والمعاصي ويأتون ما حرّم الله سيلقون في الآخرة جزاء ما كانوا يكتسبون **﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾** أي لا تأكلوا أيها المؤمنون ممَّا ذُبح لغير الله أو ذكر اسم غير الله عليه كالذي يذبح للأوثان **﴿وإنه لفسق﴾** أي وإن الأكل منه لمعصيةٌ وخروجٌ عن طاعة الله **﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم﴾** أي وإن الشياطين ليوسوسون إلى المشركين أوليائهم في الضلال لمجادلة المؤمنين بالباطل في قولهم : أتأكلون ممَّا قتلتم ولا تأكلون مما قتل الله ؟ يعني الميتة **﴿وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾** أي وإن أطعتم هؤلاء المشركين في استحلال الحرام وساعدتموهم على أباطيلهم إنكم إذاً مثلهم قال الزمخشري : لأن من اتبع غير الله تعالى في دينه فقد أشرك به ، ومن حق ذي البصيرة في دينه ألا يأكل مما لم يذكر اسم الله عليه كيفما كان للتشديد العظيم[2] **﴿أو من كان ميتاً فأحييناه﴾** قال أبو حيان : لما تقدم ذكر المؤمنين والكافرين مثَّل تعالى بأن شبّه المؤمن بالحيّ الذي له نور يتصرف به كيفما سلك ، والكافر بالمتخبط في الظلمات المستقر فيها ليظهر الفرق بين الفريقين[3] والمعنى : أو من كان بمنزلة الميت أعمى البصيرة كافراً ضالاً ، فأحيا الله قلبه بالإيمان، وأنقذه من الضلالة بالقرآن **﴿وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس﴾** أي وجعلنا مع تلك الهداية النور العظيم الوضاء الذي يتأمل به الأشياء فيميز به بين الحق والباطل **﴿كمن مثله في الظلمات ليس بخارجٍ منها﴾** أي كمن هو يتخبط في ظلمات الكفر والضلالة لا يعرف المَنْفذ ولا المخْلص ؟ قال البيضاوي : وهو مَثَلٌ لمن بقي في الضلالة لا يفارقها

---

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٦١٢ . (٢) الكشاف ٢/ ٤٩ . (٣) البحر المحيط ٤/ ٢١٤ .

جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى

بحال[١] ﴿كذلك زُيّن للكافرين ما كانوا يعملون﴾ أي وكما بقي هذا في الظلمات يتخبّط فيها كذلك حسناً للكافرين وزينا لهم ما كانوا يعملون من الشرك والمعاصي ﴿وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها﴾ أي وكما جعلنا في مكة صناديدها ليمكروا فيها كذلك جعلنا في كل بلدةٍ مجرميها من الأكابر والعظماء ليفسدوا فيها قال ابن الجوزي : وإنما جعل الأكابر فُسّاق كل قرية لأنهم أقربُ إلى الكفر بما أُعطوا من الرياسة والسعة[٢] ﴿وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون﴾ أي وما يدرون أن وبال هذا المكر يحيق بهم ﴿وإذا جاءتهم آيةٌ قالوا لن نُؤْمن حتى نُؤتى مثلَ ما أُوتي رسلُ الله﴾ أي وإذا جاءت هؤلاء المشركين حجةٌ قاطعة وبرهانٌ ساطع على صدق محمد ﷺ قالوا لن نصدّق برسالته حتى نُعطى من المعجزات مثل ما أُعطي رسُل الله ، قال في البحر : وإنما قالوا ذلك على سبيل التهكم والاستهزاء ولو كانوا موقنين غير معاندين لاتبعوا رسل الله تعالى ، وروي أن أبا جهل قال : زاحمنا بني عبد منافٍ في الشرف حتى إذا صرنا كفرَسَيْ رهان قالوا : منّا نبيٌ يُوحى إليه ! والله لا نرضى به ولا نتبعه أبداً إلا أن يأتينا وحيٌ كما يأتيه فنزلت الآية[٣] ﴿الله أعلم حيثُ يجعل رسالته﴾ أي الله أعلم من هو أهلٌ للرسالة فيضعها فيه وقد وضعها فيمن اختاره لها وهو محمد ﷺ دون أكابر مكة كأبي جهل والوليد بْن المغيرة ﴿سيصيب الذين أجرموا صغارٌ عند الله وعذاب شديدٌ بما كانوا يمكرون﴾ أي سيصيب هؤلاء المجرمين الذل والهوان ، والعذاب الشديد يوم القيامة بسبب استكبارهم ومكرهم المستمر قال في البحر : وقدَّم الصغار على العذاب لأنهم تمردوا عن اتباع الرسول وتكبّروا طلباً للعزّ والكرامة فقوبلوا بالهوان والذل أولاً ثم بالعقاب الشديد ثانياً[٤] ﴿فمن يرد الله أنْ يهديه يشرح صدره للإسلام﴾ أي من شاء الله هدايته قذف في قلبه نوراً فينفسح له وينشرح وذاك علامة الهداية للإسلام قال ابن عباس : معناه يوسّع قلبه للتوحيد والإيمان ، وحين سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية قال : إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح قالوا : فهل لذلك من أمارة يُعرف بها ؟ قال : الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزوله[٥] ﴿ومن يرد أن يضلَّه﴾ أي ومن يرد شقاوته وإضلاله ﴿يجعلْ صدره ضيّقاً حرجاً﴾ أي يجعل صدره ضيّقاً شديد الضيق لا يتسع لشيء من الهدى ، ولا يخلص إليه شيء من الإيمان

---

(١) البيضاوي ص ١٨١ . (٢) زاد المسير ٣/ ١١٧ . (٣) البحر ٤/ ٢١٦ . (٤) البحر ٤/ ٢١٧ . (٥) الطبري ١٢/ ١٠٠ .

ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾

قال عطاء : ليس للخير فيه منفذ[١] ﴿كأنما يصَّعد في السماء﴾ أي كأنما يحاول الصعود إلى السماء ويزاول أمراً غير ممكن قال ابن جرير : وهذا مثلٌ ضربه الله لقلب هذا الكافر في شدة ضيقه عن وصول الإيمان إليه ، مثلُ امتناعه من الصعود إلى السماء وعجزه عنه لأنه ليس في وسعه[٢] ﴿كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾ أي مثل جعل صدر الكافر شديد الضيق كذلك يلقي الله العذاب والخذلان على الذين لا يؤمنون بآياته قال مجاهد : الرجسُ كل ما لا خير فيه وقال الزجاج : الرجس اللعنةُ في الدنيا والعذاب في الآخرة ﴿وهذا صراط ربك مستقيماً﴾ أي وهذا الدين الذي أنت عليه يا محمد هو الطريق المستقيم الذي لا عوج فيه فاستمسك به ﴿قد فصّلنا الآيات لقوم يذكّرون﴾ أي بينا ووضحنا الآيات والبراهين لقوم يتدبرون بعقولهم ﴿لهم دار السلام عند ربهم﴾ أي لهؤلاء الذين يؤمنون ويعتبرون وينتفعون بالآيات دار السلام أي السلامة من المكاره وهي الجنة في نُزل الله وضيافته ﴿وهو وليُّهم بما كانوا يعملون﴾ أي هو تعالى حافظهم وناصرهم ومؤيدهم جزاءً لأعمالهم الصالحة قال ابن كثير : وإنما وصف تعالى الجنة هنا بدار السلام لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم ، المقتفي أثر الأنبياء وطرائقهم ، فكما سلموا من آفات الاعوجاج أفضوا إلى دار السلام[٣] .

البلاغة : ١ - ﴿ولو شاء ربك﴾ التعرض لوصف الربوبية والإضافة إلى ضميره عليه السلام ﴿ربك﴾ لتشريف مقامه وللمبالغة في اللطف في التسلية[٤]

٢ - ﴿فلا تكوننَّ من الممترين﴾ الخطاب للرسول ﷺ على طريق التهييج والإلهاب .

٣ - ﴿وتمّت كلمة ربك﴾ أي تمَّ كلامه ووحيه أطلق الجزء وأراد الكل فهو مجاز مرسل .

٤ - ﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه﴾ بين لفظ ﴿ظاهر﴾ و ﴿باطن﴾ طباقٌ .

٥ - ﴿أوَمَنْ كان ميتاً فأحييناه﴾ الموتُ والحياة ، والنور والظلمة كلها من باب الاستعارة فقد استعار الموت للكفر والحياة للإيمان وكذلك النور والظلمات للهدى والضلال[٥] .

٦ - ﴿يشرح صدره للإسلام﴾ الشرح كناية عن قبول النفس للحق والهدى الذي جاء به الرسول ﷺ وبين لفظ الشرح والضيق طباقٌ وهو من المحسنات البديعية .

---

(١) ابن كثير ١/٦١٧ . (٢) الطبري ١٢/١٠٩ . (٣) مختصر ابن كثير ١/٦١٨ .

(٤) أفاده أبو السعود . (٥) انظر البحر المحيط ٤/٢١٤ .

فـائـدة : الحكم أبلغ من الحاكم وأدلُّ على الرسوخ لأنه لا يطلق إلا على العادل وعلى من تكرّر منه الحكم بخلاف الحاكم[١] .

تـنبيـه : قال الرازي : دلّت هذه الآية ﴿وإن كثيراً ليُضلُّون بأهوائهم بغير علم﴾ على أن القول في الدين بمجرد التقليد حرام ، لأن القول بالتقليد قولٌ بمحض الهوى والشهوة ، والآية دلّت على أن ذلك حرام[٢] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس . . إلى . . قد ضلوا وما كانوا مهتدين﴾ .

من آية (١٢٨) إلى نهاية آية (١٤٠) .

المناسبة : لما ذكر سبحانه أن البشر فريقان : مهتد وضال ، وذكر أن منهم من شرح الله صدره وأنار قلبه فآمن واهتدى ، ومنهم من اتبع الهوى وسار بقيادة الشيطان فضلّ وغوى ، ذكر هنا أنه سيحشر الخلائق جميعاً يوم القيامة للحساب ، لينال كلٌّ جزاءه العادل على ما قدّم في هذه الحياة .

اللغة : ﴿مثواكم﴾ مأواكم يقال ثوى بالمكان إذا أقام فيه ﴿يقصّون﴾ يحكون يقال قصَّ الخبر يقصُّه قصاً أي حكاه ﴿ذرأ﴾ خلق ﴿الحرث﴾ الزرع ﴿ليرْدوهم﴾ الإرداء : الإهلاك يقال أرداهُ يرديه أي أهلكه ﴿حِجْر﴾ الحِجر : الحرام وأصله المنع يقال حجره أي منعه والحِجْر : العقل سمي به لأنه يمنع عن القبائح قال تعالى ﴿هل في ذلك قسمٌ لذي حِجْر﴾ ﴿سفهاً﴾ حماقة وجهالة والسَّفه : خفة العقل .

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾

التفسير : ﴿ويوم يحشرهم جميعاً﴾ أي اذكر يوم يجمع الله الثقلَين : الإنس والجن جميعاً للحساب قائلاً ﴿يا معشر الجنّ قد استكثرتم من الإنس﴾ أي استكثرتم من إضلالهم وإغوائهم قال ابن عباس : أضللتم منهم كثيراً ، وهذا بطريق التوبيخ والتقريع ﴿وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض﴾ أي وقال الذين أطاعوهم من الإنس ربنا انتفع بعضنا ببعض قال البيضاوي : انتفع الإنس بالجن بأن دلوهم على الشهوات وما يتوصل به إليها ، وانتفع الجنُّ بالإنس بأن أطاعوهم وحصّلوا مرادهم[٣] ﴿وبلغنا أجلنا الذي أجّلتَ لنا﴾ أي وصلنا إلى الموت والقبر ووافينا الحساب ،

(١) محاسن التأويل ٦/ ٢٤٧٤ . (٢) التفسير الكبير ١٣/ ١٦٧ . (٣) البيضاوي ص ١٨١ .

وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ

وهذا منهم اعتذارٌ واعترافٌ بما كان منهم من طاعة الشياطين واتباع الهوى وتحسر على حالهم ﴿قال النار مثواكم﴾ أي قال تعالى رداً عليهم النارُ موضع مقامكم وهي منزلكم ﴿خالدين فيها إلا ما شاء الله﴾ أي ماكثين في النار في حال خلودٍ دائم إلا الزمان الذى شاء الله أن لا يخلدوا فيها قال الطبري : هي المدة التي بين حشرهم إلى دخولهم النار[1] وقال الزمخشري : يخُلدون في عذاب النار الأبد كلَّه إلا ما شاء الله أي إلا الأوقات التي يُنقلون فيها من عذاب النار إلى عذاب الزمهرير فقد رُوي أنهم يدخلون وادياً من الزمهرير فيتعاوَوْن ويطلبون الرد إلى الجحيم[2] ﴿إنَّ ربك حكيم عليم﴾ أي حكيم في أفعاله عليم بأعمال عباده ﴿وكذلك نولّي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون﴾ أي كما متعنا الإنس والجن بعضهم ببعض نسلّط بعض الظالمين على بعض بسبب كسبهم للمعاصي والذنوب قال القرطبي : وهذا تهديد للظالم إن لم يمتنع من ظلمه سلّط الله عليه ظالماً آخر قال ابن عباس : إذا رضي الله عن قوم ولّى أمرهم خيارهم ، وإذا سخط الله على قوم ولّى أمرهم شرارهم[3] وعن مالك بن دينار قال : قرأتُ في بعض كتب الحكمة إن الله تعالى يقول : « إني أنا الله مالك الملوك ، قلوب الملوك بيدي ، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة ، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة ، فلا تشْغلوا أنفسكم بسبّ الملوك ولكن توبوا إليَّ أعطّفْهم عليكم »[4] ﴿يا معشر الجن والإنس ألمْ يأتكم رسلٌ منكم يقصون عليكم آياتي﴾ هذا النداء أيضاً يوم القيامة والاستفهام للتوبيخ والتقريع أي ألم تأتكم الرسل يتْلون عليكم آيات ربكم ؟ ﴿وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾ أي يخوفونكم عذاب هذا اليوم الشديد ؟ ﴿قالوا شهدنا على أنفسنا﴾ أي لم يجدوا إلا الإعتراف فقالوا : بلى شهدنا على أنفسنا بأن رسلك قد أتتنا وأنذرتنا لقاء يومنا هذا قال ابن عطية : وهذا إقرارٌ منهم بالكفر واعتراف على أنفسهم بالتقصير كقولهم ﴿قالوا بلى قد جاءنا نذيرٌ فكذبنا﴾ ﴿وغرتهم الحياة الدنيا﴾ أي خدعتهم الدنيا بنعيمها وبَهْرجِها الكاذب ﴿وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾ أي اعترفوا بكفرهم قال البيضاوي : وهذا ذمٌ لهم على سوء نظرهم وخطأ رأيهم ، فإنهم اغتروا بالحياة الدنيا ولذاتها الفانية ، وأعرضوا عن الآخرة بالكلية حتى كان عاقبة أمرهم أن اضطروا بالشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام للعذاب المخلّد تحذيراً للسامعين من مثل حالهم[5] ﴿ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلمٍ وأهلها غافلون﴾ أي إنما فعلنا هذا بهم من إرسال الرسل إليهم لإنذارهم سوء العاقبة لأن ربك عادل لم يكن ليهلك قوماً حتى يبعث إليهم رسولاً قال الطبري : أي إنما

---

(١) الطبري ١٢/ ١١٨ . (٢) الكشاف ٢/ ٥١ . (٣) القرطبي ٧/ ٨٥ . (٤) الفخر الرازي ١٣/ ١٩٤ . (٥) البيضاوي ص ١٨٢ .

﴿مِّمَّا عَمِلُوا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ۖ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ﴾

أرسلنا الرسل يا محمد يقصون عليهم آياتي وينذرونهم لقاء معادهم من أجل أن ربك لم يكن ليهلكهم دون التنبيه والتذكير بالرسل والآيات والعِبَر[1] ﴿ولكلٍ درجاتٌ مما عملوا﴾ أي ولكلِ عاملٍ بطاعة الله أو معصيته ، منازل ومراتب من عمله يلقاها في آخرته إن كان خيراً فخير ، وإن كان شراً فشر ، قال ابن الجوزي : وإنما سميت درجات لتفاضلها في الارتفاع والانحطاط كتفاضل الدرج[2] ﴿وما ربك بغافلٍ عما يعملون﴾ أي ليس الله بلاهٍ أو ساهٍ عن أعمال عباده، وفي ذلك تهديد ووعيد ﴿وربُّك الغنيُّ﴾ أي هو جل وعلا المستغني عن الخلق وعبادتهم ، لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية ﴿ذو الرحمة﴾ أي ذو التفضل التام قال ابن عباس : ذو الرحمة بأوليائه وأهل طاعته ، وقال غيره : بجميع الخلق ومن رحمته تأخير الانتقام من المخالفين قال أبو السعود : وفيه تنبيهٌ على أنَّ ما سلف ذكره من الإِرسال ليس لنفعه بل لترحمه على العباد[3] ﴿إن يشأ يذهبكم﴾ أي لو شاء لأهلككم أيها العصاة بعذاب الاستئصال ﴿ويستخلفْ من بعدكم ما يشاء﴾ أي وأتى بخلقٍ آخر أمثلَ منكم وأطوع ﴿كما أنشأكم من ذرية قومٍ آخرين﴾ أي كما خلقكم وابتدأكم من بعد خلق آخرين كانوا قبلكم قال أبو حيان : وتضمنت الآية التحذير من بطش الله في التعجيل بالإِهلاك[4] ﴿إنَّ ما تُوعدون لآت﴾ أي ما توعدونه من مجيء الساعة والحشر لواقعٌ لا محالة ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ أي لا تخرجون عن قدرتنا وعقابنا وإن ركبتم في الهرب متن كل صعبٍ وذلول ﴿قل يا قوم اعملوا على مكانتكم﴾ أي قل لهم يا محمد يا قوم اثبتوا على كفركم ومعاداتكم لي واعملوا ما أنتم عاملون ، والأمر هنا للتهديد كقوله ﴿اعملوا ما شئتم﴾ ﴿إني عاملٌ﴾ أي عاملٌ ما أمرني به ربي من الثبات على دينه ﴿فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار﴾ أي فسوف تعلمون أينا تكون له العاقبة المحمودة في الدار الآخرة أنحن أم أنتم ؟ ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ أي لا ينجح ولا يفوز بمطلوبه من كان ظالماً قال الزمخشري : في الآية طريقٌ من الإِنذار لطيف المسلك ، فيه إنصاف في المقال وأدبٌ حسن ، مع تضمن شدة الوعيد ، والوثوق بأن المُنْذِر محِقٌ ، والمُنْذَر مبطل[5] ﴿وجعلوا للّه مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً﴾ أي جعل مشركو قريش للّه مما خلق من الزرع والأنعام نصيباً ينفقونه على الفقراء ولشركائهم نصيباً يصرفونه إلى سدنتها قال ابن كثير : هذا ذمٌّ وتوبيخٌ من الله للمشركين الذين

---

(١) الطبري ١٢/ ١٢٤ . (٢) ابن الجوزي ٣/ ١٢٦ . (٣) أبو السعود ٢/ ١٣٨ . (٤) البحر ٤/ ٢٢٥ . (٥) الكشاف ٢/ ٥٣ .

فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ

ابتدعوا بدعاً وكفراً وشركاً، وجعلوا الله شركاء وهو خالق كل شيء سبحانه ﴿وجعلوا لله مما ذرأ﴾ أي خلق وبرأ من الزرع والثمار والأنعام جزءاً وقسماً[1] ﴿فقالوا هـذا للّه بزعمهـم﴾ أي قالـوا : هذا نصيب اللـه بزعمهم أي بدعواهم وقولهم من غير دليل ولا شرع قال في التسهيل : وأكثرُ ما يقال الزعم في الكذب[2] ﴿وهـذا لشركائنـا﴾ أي وهذا النصيب لآلهتنا وأصنامنا قال ابن عباس : إنَّ أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً أو كانت لهم ثمرة جعلوا للّه منه جزءاً وللوثن جزءاً ، فما كان من حرثٍ أو ثمرةٍ أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه ، وإن سقط منه شيء فيما سُمي للّه ردّوه إلى ما جعلوه للوثن وقالوا إن الله غنيٌّ والأصنام أحوج[3] ولهذا قال : ﴿فمـا كـان لشركائهم فلا يصـل إلى اللـه﴾ أي ما كان للأصنام فلا يصل إلى الله منه شيء ﴿ومـا كان للّه فهو يصل إلى شركائهـم﴾ وما كان من نصيب الله فهو يصل إلى أصنامهم قال مجاهد : كانوا يسمُّون جزءاً من الحرث لله وجزءاً لشركائهم وأوثانهم فما ذهبت به الريح من نصيب الله إلى أوثانهم تركوه وما ذهب من نصيب أوثانهم إلى نصيب الله ردوه ، وكانوا إذا أصابتهم سَنَةٌ « قحط » أكلوا نصيب الله وتحاموا نصيب شركائهم ﴿ساء ما يحكمـون﴾ أي بئس هذا الحكم الجائر حكمهم ﴿وكذلك زيّــن لكثيـرٍ من المشركيـن قتل أولادهم شركاؤهـم﴾ أي مثل ذلك التزيين في قسمة القربان بين الله وبين آلهتهم زيَّن شياطينُهم لهم قتل أولادهم بالوأد أو بنحرهم لآلهتهم قال الزمخشري : كان الرجل في الجاهلية يحلف لئن ولد له كذا غلاماً لينحرنَّ أحدهم كما حلف عبد المطلب[4] ﴿ليرْدُوهـم﴾ أي ليهلكوهم بالإغواء ﴿وليلبســوا عليهــم دينهـم﴾ أي وليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل عليه السلام ﴿ولـو شـاء اللّـهُ ما فعلـوه﴾ أي لو شاء اللـه ما فعلـوا ذلك القبيح ﴿فـذرهـم ومـا يفتــرون﴾ أي دعْهم وما يختلقونه من الإفك على الله ، وهو تهديد ووعيد ﴿وقالوا هذه أنعـامٌ وحـرثٌ حِجْـرٌ﴾ هذه حكاية عن بعض قبائحهم وجرائمهم أيضاً أي قال المشركون هذه أنعام وزروع أفردناها لآلهتنا حرام ممنوعة على غيرهم ﴿لا يَطْعمها إلا مـن نشـاء﴾ أي من خَدمة الأوثان وغيرهم ﴿بزعمهـم﴾ أي بزعمهم الباطل من غير حجة ولا برهـان ﴿وأنعـامٌ حُرِّمــتْ ظهـورهـا﴾ أي لا تركب كالبحائر والسوائب والحوامي ﴿وأنعـامٌ لا يذكرون اسـم اللـه عليهـا﴾ أي عند الذبح وإنما يذكرون عليها أسماء الأصنام ﴿افتـراءً عليـه﴾ أي كذباً واختلاقاً على الله ﴿سيجزيهـم بما كانوا يفتـرون﴾ أي سيجزيهم

(١) مختصر ابن كثير ١/٦٢٢ . (٢) التسهيل ٢/٢٢ . (٣) مختصر ابن كثير ١/٦٢٢ . (٤) الكشاف ٢/٥٤

عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

على ذلك الافتراء ، وهو تهديد شديد ووعيد ﴿**وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصةٌ لذكورنا**﴾ هذا إشارة إلى نوع آخر من أنواع قبائحهم أي قالوا ما في بطون هذه البحائر والسوائب حلال لذكورنا خاصة ﴿**ومحرَّمٌ على أزواجنا**﴾ أي لا تأكل منه الإناث ﴿**وإن يكن ميتةً فهم فيه شركاء**﴾ أي وإن كان هذا المولود منها ميتةً اشترك فيه الذكور والإناث ﴿**سيجزيهم وصفهم**﴾ أي سيجزيهم جزاء وصفهم الكذب على الله في التحليل والتحريم ﴿**إنه حكيم عليم**﴾ أي حكيمٌ في صنعه عليمٌ بخلقه ﴿**قد خسر الذين قتلوا أولادهم**﴾ أي والله لقد خسر هؤلاء السفهاء الذين قتلوا أولادهم قال الزمخشري : نزلت في ربيعة ومضر والعرب الذين كانوا يئدون بناتهم مخافة السبي والفقر[١] ﴿**سفهاً بغير علم**﴾ أي جهالة وسفاهة لخفة عقلهم وجهلهم بأن الله هو الرازق لهم ولأولادهم ﴿**وحرّموا ما رزقهم الله**﴾ أي حرموا على أنفسهم البحيرة والسائبة وشبهها ﴿**افتراءً على الله**﴾ أي كذباً واختلاقاً على الله ﴿**قد ضلوا وما كانوا مهتدين**﴾ أي لقد ضلوا عن الطريق المستقيم بصنيعهم القبيح وما كانوا من الأصل مهتدين لسوء سيرتهم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إذا سرَّك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام ﴿ **قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرّموا ما رزقهم الله افتراءً على الله قد ضلّوا وما كانوا مهتدين**﴾[٢] .

البَـلاغَـة : ١ ـ ﴿قد استكثرتم من الإنس﴾ أي أفرطتم في إضلال وإغواء الإنس ، ففيه إيجاز بالحذف ومثله ﴿استمتع بعضنا ببعض﴾ أي استمتع بعض الإنس ببعض الجن ، وبعضُ الجن ببعض الإنس .

٢ ـ ﴿النار مثواكم﴾ تعريف الطرفين لإفادة الحصر .

٣ ـ ﴿ألم يأتكم رسلٌ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع .

٤ ـ ﴿ولكلٍ﴾ أي لكل من العاملين فالتنوين عوضٌ عن محذوف .

٥ ـ ﴿إنَّ ما توعدون لآتٍ﴾ صيغة الاستقبال ﴿توعدون﴾ للدلالة على الاستمرار التجددي ، ودخولُ إنَّ واللام على الجملة للتأكيد لأن المخاطبين منكرون للبعث فلذا أكّد الخبر بمؤكدين .

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٧ . (٢) مختصر ابن كثير ١/ ٦٢٤ .

٦ ـ ﴿ما رزقهم الله افتراءً على الله﴾ إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لإظهار كمال عتوهم وضلالهم أفاده أبو السعود[1] .

الفوائد : **الأولى** : قال السيوطي في الإكليل : قوله تعالى ﴿وكذلك نولّي بعض الظالمين بعضاً﴾ الآية في معنى حديث (كما تكونون يولَّى عليكم)[2] وقال الفضيل بن عياض : إذا رأيتَ ظالماً ينتقم من ظالم فقف وانظر متعجباً .

الثانية : الجمهور على أن الرسل من الإنس ولم يكن من الجن رسول وقوله تعالى ﴿ألم يأتكم رسلٌ منكم﴾ هو من باب التغليب كقوله ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ وإنما يخرجان من البحر المالح دون العذب .

الثالثة : ذكر القرطبي في تفسيره أن رجلاً من أصحاب النبيﷺ كان لا يزال مغتماً بين يدي رسول اللهﷺ فقال له الرسول : مالك تكون محزوناً ؟ فقال يا رسول الله : إني أذنبتُ في الجاهلية ذنباً فأخاف ألاّ يغفره الله لي وإن أسلمت ! فقال له : أخبرني عن ذنبك ؟ فقال يا رسول الله : إني كنتُ من الذين يقتلون بناتهم فوُلدت لي بنتٌ فتشفّعتْ إليَّ امرأتي أن أتركها فتركتها حتى كبرت وأدركت وصارت من أجمل النساء فخطبوها فدخلتني الحمية ولم يحتمل قلبي أن أزوجها أو أتركها في البيت بغير زوج فقلت للمرأة : إني أريد أن أذهب لزيارة أقربائي فابعثيها معي فَسُرَّت بذلك وزينتها بالحليّ والثياب ، وأخذت عليَّ المواثيق بألا أخونها فذهبت بها إلى رأس بئر فنظرتُ في البئر ففطنت الجارية بأني أريد أن ألقيها في البئر فالتزمتني وجعلت تبكي فرحمتها ، ثم نظرتُ في البئر فدخلت عليَّ الحمية حتى غلبني الشيطان فألقيتها في البئر منكوسة ومكثتُ هناك حتى انقطع صوتها فرجعتُ فبكى رسول اللهﷺ وأصحابه وقال : لو أُمرتُ أن أعاقب أحداً بما فعل في الجاهلية لعاقبتُك[3] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات . . إلى . . وهم بربهم يعدلون﴾ من آية (١٤١) إلى نهاية آية (١٥٠)

المناسبة : لمّا أخبر تعالى عن المشركين أنهم حرّموا أشياء مما رزقهم الله وحكى طرفاً من قبائحهم وجرائمهم ، ذكر تعالى هنا ما امتنَّ به عليهم من الرزق الذي تصرفوا فيه بغير إذنه تعالى افتراءً منهم عليه واختلاقاً ، ثم أعقبه باحتجاجهم على الشرك وعدم الإيمان بالقضاء والقدر ، وهذا أيضاً من جملة الكذب والبهتان والافتراء على الله .

اللغة : ﴿معروشات﴾ مرفوعات على ما يحملها من العيدان ﴿حصاده﴾ الحصاد : جمع الثمر كالجُذاذ ﴿حمولة﴾ الحمولة : الإبل التي تحمل الأثقال على ظهورها ﴿فرشاً﴾ الفرش : الصغار

(١) أبو السعود ٢/ ١٤١ . (٢) محاسن التأويل للقاسمي ٦/ ٢٥٠٥ . (٣) تفسير القرطبي ٧/ ٩٧ .

التي لا تصلح للحمل كالفُصلان والعجاجيل قال الزجاج : الفرشُ صغار الإبل قال الشاعر :

أورثني حمولـةً وفرْشاً أمُشُّـهـا في كلِّ يومٍ مَشّاً

﴿الحوايا﴾ قال الواحدي : هي المباعر والمصارين واحدتها حاوية وحويّة وقيل : الحوايا الأمعاء التي عليها الشحوم سميت حوايا لأن البطن يحويها ﴿هلُمَّ﴾ هاتوا ﴿يعدلون﴾ يشركون به .

* وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ

التفسير : ﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات﴾ أي هو الذي أنعم عليكم بأنواع النعم لتعبدوه وحده ، فخلق لكم بساتين من الكروم منها مرفوعات على عيدان ، ومنها متروكات على وجه الأرض لم تعرش ﴿والنخل والزرع مختلفاً أُكلُهُ﴾ أي وأنشأ لكم شجر النخيل المثمر بما هو فاكهة وقوت ، وأنواع الزرع المحصّل لأنواع القوت مختلفاً ثمره وحبُّه في اللون والطعم والحجم والرائحة ﴿والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه﴾ أي متشابهاً في اللون والشكل وغير متشابه في الطعم ﴿كلوا من ثمره إذا أثمر﴾ أي كلوا أيها الناس من ثمر كل واحد مما ذكر إذا أدرك من رطبه وعنبه ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾ أي أعطوا الفقير والمسكين من ثمره يوم الحصاد ما تجود به نفوسكم وقال ابن عباس : يعني الزكاة المفروضة يوم يكال ويعلم كيْلُه[1] ﴿ولا تُسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾ أي ولا تسرفوا في الأكل لما فيه من مضرة العقل والبدن قال الطبري : المختار قول عطاء أنه نهيٌ عن الإسراف في كل شيء[2] ﴿ومن الأنعام حمولةً وفرشاً﴾ أي وخلق لكم من الأنعام ما يحمل الأثقالَ وما يُفرش للذبح « أي يضجع » قال ابن أسلم : الحمُولةُ ما تركبون ، والفَرْشُ ما تأكلون وتحلبون ﴿كلوا ممّا رزقكم الله﴾ أي كلوا من الثمار والزروع والأنعام فقد جعلها الله لكم رزقاً ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ أي طريقه وأوامره في التحليل والتحريم كفعل أهل الجاهلية ﴿إنه لكم عدوٌ مبين﴾ أي إن الشيطان ظاهر العداوة للإنسان فاحذروا كيده ﴿ثمانية أزواج من الضأنِ اثنين ومن المعز اثنين﴾ أي وأنشأ لكم من الأنعام ثمانية أنواعٍ أحلّ لكم أكلها ، من الضأن ذكراً وأنثى ، ومن المعز ذكراً وأنثى قال القرطبي : يعني ثمانية أفرادٍ ، وكلُّ فردٍ عند العرب يحتاج إلى آخر يُسمَّى زوجاً فيقال للذكر : زوجٌ وللأنثى زوجٌ[3] ويراد بالزوجين من

---

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٦٢٤ . (٢) الطبري ١٢/ ١٧٦ . (٣) القرطبي ٧/ ١١٣ .

أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ

الضأن : الكبشُ والنعجة ، ومن المعز : التيسُ والعنز ﴿**قل آلذكرين حرَّم أم الأنثيين**﴾ ؟ هذا إنكارٌ لما كانوا يفعلونه من تحريم ما أحلَّ الله أي قل لهم يا محمد على وجه التوبيخ والزجر : آلذكرين من الضأن والمعز حرّم الله عليكم أيها المشركون أم الانثيين منهما ؟ ﴿**أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين**﴾ أي أو ما حملت إناث الجنسين ذكراً كان أو أنثى ؟ ﴿**نبئوني بعلمٍ إن كنتم صادقين**﴾ تعجيزٌ وتوبيخ أي أخبروني عن الله بأمرٍ معلوم لا بافتراءٍ ولا بتخرص إن كنتم صادقين في نسبة ذلك التحريم إلى الله ﴿**ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين**﴾ أي وأنشأ لكم من الإبل اثنين هما الجمل والناقة ومن البقر اثنين هما الجاموس والبقرة ﴿**قل آلذكرين حرَّم أم الأنثيين أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين**﴾ ؟ كرره هنا مبالغة في التقريع والتوبيخ قال أبو السعود : والمقصود إنكار أن الله سبحانه حرّم عليهم شيئاً من الأنواع الأربعة وإظهار كذبهم في ذلك فإنهم كانوا يحرمون ذكور الأنعام تارةً ، وإناثها تارةً ، وأولادها تارة أخرى[1] ﴿**أم كنتم شهداء إذْ وصّاكم الله بهذا**﴾ زيادة في التوبيخ أي هل كنتم حاضرين حين وصاكم الله بهذا التحريم ؟ وهذا من باب التهكم ﴿**فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليُضلَّ الناسَ بغير علم**﴾ أي لا أحد أظلم ممن كذب على الله فنسب إليه تحريم ما لم يحرّم بغير دليلٍ ولا برهان ﴿**إنَّ الله لا يهدي القوم الظالمين**﴾ عمومٌ في كل ظالم ، ثم أمر تعالى رسوله ﷺ بأن يبيّن لهم ما حرمه الله عليهم فقال ﴿**قل لا أجد فيما أُوحي إليَّ محرماً على طاعم يَطعمه إلا أن يكون ميتةً أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس**﴾ أي قل يا محمد لكفار مكة لا أجد فيما أوحاه الله إليَّ من القرآن شيئاً محرماً على أيِّ إنسان إلا أن يكون ذلك الطعام ميتةً أو دماً سائلاً مصبوباً أو يكون لحم خنزير فإنه قذرٌ ونجس لتعوده أكل النجاسات ﴿**أو فسقاً أُهلَّ لغير الله به**﴾ أي أو يكون المذبوح فسقاً ذبح على اسم غير الله كالمذبوح على النُّصب ، سُمّي فسقاً مبالغةً كأنه نفس الفسق لأنه ذبح على اسم الأصنام ﴿**فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم**﴾ أي من أصابته الضرورة واضطرته إلى أكل شيء من المحرمات فلا إثم عليه إن كان غير باغٍ أي غير قاصد التلذذ بأكلها بدون ضرورة ولا عادٍ أي مجاوزٍ قدر الضرورة التي تدفع عنه الهلاك فالله غفور

(١) أبو السعود ٢/ ١٤٢ .

حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ

رحيم بالعباد ، ثم بيّن تعالى أن ما حرّمه على اليهود إنما كان بسبب بغيهم وعصيانهم فقال ﴿**وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر**﴾ أي وعلى اليهود خاصةً حرمنا عليهم كل ذي ظُفر قال ابن عباس : هي ذوات الظِّلْفِ كالإِبل والنعام وما ليس بذي أصابع منفرجة كالبط والأوز[1] ﴿**ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شحومهما**﴾ أي وحرّمنا عليهم أكل شحوم البقر وشحوم الغنم ﴿**إلا ما حملت ظهورهما**﴾ أي إلا الشحم الذي علق بالظهر منهما ﴿**أو الحوايا**﴾ أي الأمعاء والمصارين ﴿**أو ما اختلط بعظم**﴾ كشحم الألية والمعنى أن الشحم الذي تعلّق بالظهور أو احتوت عليه المصارين أو اختلط بعظم كشحم الألية جائز لهم ﴿**ذلك جزيناهم ببغيهم وإنّا لصادقون**﴾ أي ذلك التحريم بسبب ظلمهم وعدوانهم الذي سبق من قتل الأنبياء وأكل الربا واستحلال أموال الناس بالباطل وإنّا لصادقون فيما قصصنا عليك يا محمد ، وفي ذلك تعريضٌ بكذب من حرّم ما لم يحرّم الله والتعريض بكذب اليهود ﴿**فإن كذبوك فقلْ ربكم ذو رحمةٍ واسعةٍ**﴾ أي فإن كذبك يا محمد هؤلاء اليهود فيما جئت به من بيان التحريم فقل متعجباً من حالهم ربكم ذو رحمةٍ واسعة حيث لم يعاجلكم بالعقوبة مع شدة إجرامكم قال في البحر : وهذا كما تقول عند رؤية معصيةٍ عظيمة : ما أحلم الله تعالى! وأنت تريد ما أحلمه لإمهاله العاصي[2] ، ثم أعقب وصفه بالرحمة الواسعة بالوعيد الشديد فقال ﴿**ولا يُردُّ بأسُه عن القوم المجرمين**﴾ أي لا تغتروا بسعة رحمته فإنه لا يُردُّ عذابه وسطوتُه عمن اكتسبوا الذنوب واجترحوا السيئات فهو مع رحمته ذو بأس شديد ، وقد جمعت الآية بين الترغيب والترهيب حتى لا يقنط المذنب من الرحمة ولا يغتر العاصي بحلم الله . ﴿**سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرَّمنا من شيء**﴾ أي سيقول مشركو العرب لو أراد الله ما كفرنا ولا أشركنا لا نحن ولا آباؤنا يريدون أن شركهم وتحريمهم لما حرّموا كان بمشيئة الله ولو شاء ألا يفعلوا ذلك ما فعلوه ، فاحتجوا على ذلك بإرادة الله كما يقول الواقع في معصية إذا طلب منه الإقلاع عنها : هذا قدرُ الله لا مهربَ ولا مفرَّ منه ، ولا حجة في هذا لأنهم مكلفون مأمورون بفعل الخير وترك القبيح ولكنها نزعةٌ جبرية يحتج بها السفهاء عندما تدمغهم الحجة قال تعالى في الرد عليهم ﴿**كذلك كذّب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا**﴾ أي كذلك كذَّب من سبقهم من الأمم حتى أنزلنا عليهم العذاب ﴿**قل هل عندكم من علمٍ فتخرجوه لنا**﴾ استفهام إنكاري يقصد به التهكم أي قل لهم هل عندكم حجة أو برهان

(١) البحر المحيط ٤/ ٢٤٣ . (٢) البحر المحيط ٤/ ٢٤٦ .

ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

على صدق قولكم فتظهروه لنا ﴿إن تتبعون إلا الظنّ وإن أنتم إلا تخرصون﴾ أي ما تتبعون في ذلك إلا الظنون والأوهام وما أنتم في الحقيقة إلا تكذبون على الله عز وجل ﴿قل فللّه الحجةُ البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ أي قل لهم إن لم تكن لكم حجة فللّه الحجة البينة الواضحة التي بلغت غاية الظهور والإقناع ، فلو شاء لهداكم إلى الإيمان أجمعين ولكنه تعالى ترك للخلق أمر الاختيار في الإيمان والكفر ليتم التكليف ﴿وقل الحقُّ من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ ﴿قل هلمَّ شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرّم هذا﴾ أي قل لهم يا محمد احضروا لي من يشهد لكم على صحة ما تزعمون أن الله تعالى حرَّم هذه الأشياء التي تدَّعونها من البحيرة والسائبة وغيرهما ﴿فإن شهدوا فلا تشهد معهم﴾ أي فإن حضروا وكذبوا في شهادتهم وزوّروا فلا تشهد بمثل شهادتهم ولا تصدّقهم فإنه كذبٌ بحتٌ ﴿ولا تتّبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ أي ولا تتبع أهواء المكذبين بآيات الرحمن الذين لا يصدقون بالآخرة ﴿وهم بربهم يعدلون﴾ أي وهم يشركون بالله غيره فيعبدون الأوثان .

البلاغة : ١ ـ ﴿حمولةً وفرشاً﴾ بينهما طباقٌ لأن الحمولة الكبارُ الصالحة للحمل ، والفرشُ الصغار الدانية من الأرض كأنها فرش .

٢ ـ ﴿خطوات الشيطان﴾ هذا من لطيف الاستعارة وهي أبلغ عبارة للتحذير من طاعة الشيطان والسير في ركابه[1] .

٣ ـ ﴿غفور رحيم﴾ من صيغ المبالغة أي مبالغ في المغفرة والرحمة .

٤ ـ ﴿ربكم ذو رحمة واسعة ولا يُرد بأسه عن القوم المجرمين﴾ جاءت الأولى جملة اسمية لأنها أبلغ في الإخبار من الفعلية فناسبت وصفه تعالى بالرحمة الواسعة وجاءت الجملة الثانية فعلية ﴿ولا يُردُّ﴾ لئلا يتعادل الإخبار عن الوصفين ، وباب الرحمة أوسع[2] أفاده في البحر .

فائدة : في قوله تعالى ﴿قل لا أجد فيما أُوحي إليّ محرماً﴾ إيذان بأن التحريم إنما يعلم بالوحي لا بالهوى ، وأن الله جل وعلا هو المشرع للأحكام والرسول مبلّغٌ عن الله ذلك التشريع كقوله ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يُوحى﴾ .

* * *

قال الله تعالى : ﴿قُلْ تَعَالَوا أَتلُ ما حرَّم ربكم عليكم .. إلى .. وإنه لغفور رحيم﴾ من آية (١٥١) إلى الآية (١٦٥) نهاية السورة .

(١) تلخيص البيان ص ١١ . (٢) البحر المحيط ٤/ ٢٤٦ .

* ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا﴾

المناسبة: لّما ذكر تعالى ما حرّمه الكفار افتراء عليه وذكر ما أباحه تعالى لهم من الحبوب والفواكه والحيوان، ذكر هنا ما حرّمه تعالى عليهم حقيقة من الأمور الضارة، وذكر الوصايا العشر التي اتفقت عليها الشرائع السماوية وبها سعادة البشرية .

اللغة: ﴿أتل﴾ أقرأ وأقص ﴿إملاق﴾ فقر يقال أملق الرجل إذا افتقر ﴿أشدّه﴾ قوته وهو بلوغ سن النكاح والرشد ، والأشدُّ جمعٌ لا واحد له ﴿بالقسط﴾ بالعدل بلا بخس ولا نقصان ﴿السُّبُل﴾ جمع سبيل وهي الطريق ﴿شيعاً﴾ فرقاً وأحزاباً جمع شيعة وهي الفرقة تتشيع وتتعصب لمذهبها ﴿قِيَماً﴾ مستقياً لا عوج فيه ﴿نسكي﴾ النُسُك جمع نسيكة وهي الذبيحة وقال الزجاج : عبادتي ومنه الناسك الذي يتقرب إلى الله بالعبادة[١] .

التفسير: ﴿قل تعالوا أتلُ ما حرّم ربكم عليكم﴾ أي قل يا محمد تعالوا أقرأ الذي حرّمه ربكم عليكم باليقين لا بالظن والتخمين ﴿ألا تشركوا به شيئاً﴾ أي لا تعبدوا معه غيره ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أي وأحسنوا إلى الوالدين إحساناً ، وذُكر ضمن المحرمات لأن الأمر بالشيء نهيٌ عن ضده فكأنه قال : ولا تسيئوا إلى الوالدين قال أبو السعود : والسرُّ في ذلك المبالغةُ والدلالة على أن ترك الإساءة إليهما غير كافٍ في قضاء حقوقهما[٢] ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق﴾ أي ولا تقتلوا أولادكم خشية الفقر قال ابن الجوزي :المراد دفن البنات أحياء من خوف الفقر[٣]﴿نحن نرزقكم وإياهم﴾أي رزقكم ورزقهم علينافإن الله هو الرازق للعباد ﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾ أي لا تقربوا المنكرات الكبائر علانيتها وسرّها قال ابن عباس : كانوا في الجاهلية لا يرون بالزنى بأساً في السرّ ويستقبحونه في العلانية فحرمه الله في السر والعلانية [٤] ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق﴾ أي لا تقتلوا النفس البريئة التي حرّم الله قتلها إلا بموجب وقد فسّره فول رسول الله ﷺ : (لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيبُ الزاني ، والنفسُ بالنفس، والتاركُ لدينه المفارق للجماعة) ﴿ذلكم وصّاكم به لعلكم تعقلون﴾ أي ذلكم المذكور هو ما أوصاكم تعالى بحفظه وأمركم به أمراً مؤكداً لعلكم تسترشدون بعقولكم إلى فوائد هذه التكاليف ومنافعها في الدين والدنيا قال أبو حيان : وفي لفظ وصّاكم من اللطف والرأفة وجعلهم أوصياء له تعالى ما لا يخفى من الإحسان[٥] ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشُدَّه﴾ أي لا تقربوا مال اليتيم بوجه من الوجوه إلا بالخصلة التي هي أنفع له حتى يصير بالغاً رشيداً،

(١) تفسير القرطبي ٧/ ١٥٢ . (٢) أبو السعود ٢/ ١٤٦ . (٣) زاد المسير ٣/ ١٤٨ . (٤) الطبري ١٢/ ٢١٩ . (٥) البحر ٤/ ٢٥٢ .

ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟

والنهي عن القرب يعمُّ وجوه التصرف لأنه إذا نُهي عن أن يقرب المال فالنهيُ عن أكله أولى وأحرى والتي هي أحسن منفعةُ اليتيم وتثمير ماله قال ابن عباس : هو أن يعمل له عملاً مصلحاً فيأكل منه بالمعروف ﴿وأوفوا الكيل والميزان بالقسط﴾ أي بالعدل والتسوية في الأخذ والعطاء ﴿لا نكلف نفساً إلا وسعها﴾ أي لا نكلّف أحداً إلا بمقدار طاقته بما لا يعجز عنه قال البيضاوي : أي إلا ما يسعها ولا يعسرُ عليها ، وذكره بعد وفاء الكيل لأن إيفاء الحق عسرٌ فعليكم بما في وسعكم وما وراءه معفوٌّ عنكم[1] ﴿وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى﴾ أي اعدلوا في حكومتكم وشهادتكم ولو كان المشهود عليه من ذوي قرابتكم ﴿وبعهد الله أوفوا﴾ أي أوفوا بالعهد إذا عاهدتم قال القرطبي : وهذا عام في جميع ما عهده الله إلى عباده ويحتمل أن يراد به ما انعقد بين الناس وأضيف إلى الله من حيث أمر بحفظه والوفاء به[2] ﴿ذلكم وصّاكم به لعلكم تذكرون﴾ أي لعلكم تتعظون ﴿وأن هذا صراطي مستقياً فاتبعوه ولا تتبعوا السُّبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ أي وبأن هذا ديني المستقيم شرعته لكم فتمسكوا به ولا تتبعوا الأديان المختلفة والطرق الملتوية فتفرقكم وتزيلكم عن سبيل الهدى عن ابن مسعود قال : خطّ لنا رسول الله ﷺ يوماً خطاً ثم قال هذا سبيل الله ، ثم خطَّ خطوطاً عن يمينه ويساره ثم قال : هذه سُبُل على كل سبيل منها شيطانٌ يدعو إليها ثم قرأ ﴿وأن هذا صراطي مستقياً فاتبعوه . .﴾[3] الآية ﴿ذلكم وصّاكم به لعلكم تتقون﴾ كرر الوصية على سبيل التوكيد أي لعلكم تتقون النار بامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه قال ابن عطية : لما كانت المحرمات الأولى لا يقع فيها عاقل جاءت العبارة ﴿لعلكم تعقلون﴾ والمحرمات الأخر شهوات وقد يقع فيها من لم يتذكر جاءت العبارة ﴿لعلكم تذكّرون﴾ والسير في الجادة المستقيمة يتضمن فعلَ الفضائل ولا بد لها من تقوى الله جاءت العبارة ﴿لعلكم تتقون﴾[4] ﴿ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن﴾ أي أعطينا موسى التوراة تماماً للكرامة والنعمة على من كان محسناً وصالحاً قال الطبري : أي آتينا موسى الكتاب تماماً لنعمتنا عليه في قيامه بأمرنا ونهينا فإن إيتاء موسى الكتاب نعمةٌ من الله عليه ومنَّةٌ عظيمة لما سلف منه من صالح العمل وحسن الطاعة[5] ﴿وتفصيلاً لكل شيء﴾ أي وبياناً مفصلاً لكل ما يحتاج إليه بنو إسرائيل في الدين ﴿وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون﴾ أي وهدى لبني إسرائيل ورحمة عليهم ليصدّقوا بلقاء الله قال ابن عباس : كي يؤمنوا بالبعث ويصدّقوا

(١) البيضاوي ص ١٨٤ . (٢) القرطبي ٧/ ١٣٧ . (٣) مختصر ابن كثير ١/ ٦٣٣ . (٤) البحر ٤/ ٢٥٤ . (٥) الطبري ١٢/ ٢٣٦

لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا

بالثواب والعذاب[١] ﴿**وهـذا كتابٌ أنزلناه مبارك**﴾ أي وهذا القرآن الذي أنزلناه على محمد كتابٌ عظيم الشأن كثير المنافع مشتملٌ على أنواع الفوائد الدينية والدنيوية ﴿**فاتبعـوه واتقوا لعلكـم ترحمـون**﴾ أي تمسكوا به واجعلوه إماماً واحذروا أن تخالفوه لتكونوا راجين للرحمة ﴿**أن تقولوا إنما أُنـزل الكتـاب على طائفتين**﴾ أي أنزلناه بهذا الوصف العظيم الجامع لخيرات الدنيا والآخرة كراهة أن تقولوا يوم القيامة ما جاءنا كتاب فنتّبعه وإنما نزلت الكتب المقدسة على اليهود والنصارى قال ابن جرير : فقطع الله بإنزالـه القرآن على محمد ﷺ حجتهم تلك ﴿**وإنْ كنّا عن دراستهم لغافليـن**﴾ أي وإنه الحال والشأن كنا عن معرفة ما في كتبهم ودراستهم غافلين لا نعلم ما فيها لأنها لم تكن بلغتنا ﴿**أو تقولوا لـو أنّـا أُنزل علينـا الكتابُ لكنّا أهدى منهم**﴾ أو تقولوا لو أننا أُنزل علينا الكتاب كما أُنزل على هاتين الطائفتين لكنّا أهدى منهم إلى الحق وأسرع إجابة لأمر الرسول لمزيد ذكائنا وجدّنا في العمـل ﴿**فقـد جاءكـم بينـةٌ مـن ربـكم وهـدى ورحمـة**﴾ أي فقد جاءكم من الله على لسان محمد ﷺ قرآن عظيم ، فيه بيانٌ للحلال والحرام وهدى لما في القلوب ورحمة من الله لعباده قال القرطبي : أي قد زال العذر بمجيء محمد ﷺ[٢] قال ابن عباس : بيّنة أي حجة وهو النبي ﷺ والقرآن[٣] ﴿**فمن أظلم ممَّن كذّب بآيات الله**﴾ أي من أكفر ممن كذّب بالقرآن ولم يؤ من بـه ﴿**وصـدف عنهـا**﴾ أي أعرض عن آيات الله قال أبو السعود : أي صرف الناس عنها فجمع بين الضلال والإضلال[٤] ﴿**سنجزي الذيـن يصـدفون عن آياتـنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون**﴾ وعيدٌ لهم أي سنثيب هؤ لاء المعرضين عن آيات الله وحججه الساطعة شديد العقاب بسبب إعراضهم عن آيات الله وتكذيبهم لرسله ﴿**هـل ينظرون إلا أن تأتيهـم الملائكة**﴾ أي ما ينتظر هؤ لاء المشركون إلا أن تأتيهـم الملائكة لقبض أرواحهم وتعذيبها وهو وقتٌ لا تنفع فيه توبتُهم ﴿**أو يأتـي ربـك أو يأتـي بعض آيات ربـك**﴾ قال ابن عباس : أي يأتي أمر ربك فيهم بالقتل أو غيره وقال الطبري : المراد أن يأتيهم ربك في موقف القيامة للفصل بين خلقه أو يأتيهم بعض آيات ربك وهو طلوع الشمس من مغربها[٥] ﴿**يـوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفـع نفساً إيمانُهـا لم تكـن آمنـت مـن قبل أو كسبت فـي إيمانها خيراً**﴾ أي يوم يأتي بعض أشراط الساعة وحينئذٍ لا ينفع الايمان نفساً كافرة آمنت في ذلك الحين ولا نفساً عاصيةً لم تعمل خيراً قال

(١) أبو السعود ٢/ ١٤٨ . (٢) القرطبي ٧/ ١٤٤ . (٣) زاد المسير ٣/ ١٥٥ . (٤) أبو السعود ٢/ ١٤٩ . (٥) الطبري ١٢/ ٢٤٥ .

مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾

الطبري : أي لا ينفع من كان قبل ذلك مشركاً بالله أن يؤمن بعد مجيء تلك الآية لعظيم الهول الوارد عليهم من أمر الله ، فحكم إيمانهم كحكم إيمانهم عند قيام الساعة[1] وفي الحديث (لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون ، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل)[2] ﴿قل انتظروا إنّا منتظرون﴾ أي انتظروا ما يحلُّ بكم وهو أمر تهديد ووعيد ﴿إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً﴾ أي فرّقوا الدين فأصبحوا شيعاً وأحزاباً قال ابن عباس : هم اليهود والنصارى فرّقوا دين إبراهيم الحنيف ﴿لستَ منهم في شيء﴾ أي أنت يا محمد بريء منهم ﴿إنما أمرهم إلى الله﴾ أي جزاؤهم وعقابهم على الله هو يتولى جزاءهم ﴿ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون﴾ أي يخبرهم بشنيع فعالهم قال الطبري : أي أخبرهم في الآخرة بما كانوا يفعلون وأجازي كلاً منهم بما كان يفعل[3] ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾ أي من جاء يوم القيامة بحسنةٍ واحدة جوزي عنها بعشر حسناتٍ أمثالها فضلاً من الله وكرماً وهو أقلُّ المضاعفة للحسنات فقد تنتهي إلى سبعمائة أو أزيد ﴿ومن جاء بالسيئة فلا يُجزى إلا مثلها﴾ أي ومن جاء بالسيئة عوقب بمثلها دون مضاعفة ﴿وهم لا يُظلمون﴾ أي لا يُنقصون من جزائهم شيئاً وفي الحديث القدسي: « يقول الله عز وجل : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها أو أزيدُ، ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئة مثلها أو أغْفرُ »[4] فالزيادة في الحسنات من باب الفضل ، والمعاملة بالمثل في السيئات من باب العدل ﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين إن ربي هداني إلى الطريق القويم وأرشدني الى الدين الحق دين إبراهيم ﴿ديناً قِيَماً ملةَ إبراهيم حنيفاً﴾ أي ديناً مستقيماً لا عوج فيه هو دين الحنيفية السمحة الذي جاء به إمام الحنفاء إبراهيم الخليل ﴿وما كان من المشركين﴾ أي وما كان إبراهيم مشركاً ، وفيه تعريضٌ بإشراك من خالف دين الإسلام لخروجه عنْ دين إبراهيم ﴿قلْ إنَّ صلاتي﴾ أي قل يا محمد إنَّ صلاتي التي أعبد بها ربي ﴿ونُسُكي﴾ أي ذبحي[5] ﴿ومحياي ومماتي﴾ أي حياتي ووفاتي وما أقدّمه في هذه الحياة من خيرات وطاعات ﴿لله رب العالمين﴾ أي ذلك كله للّه خالصاً له دون ما أشركتم به ﴿لا شريك له﴾ أي لا أعبد غير الله ﴿وبذلك أُمرتُ﴾ أي بإخلاص العبادة للّه وحده أُمرتُ ﴿وأنا أول المسلمين﴾ أي

---

(١) الطبري ١٢/ ٢٦٦ . (٢) أخرجه البخاري . (٣) الطبري ١٢/ ٢٧٤ . (٤) رواه مسلم .

(٥) هذا قول ابن عباس ومجاهد واختاره الطبري وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالنسك العبادة والأول أرجح

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾

أولُّ من أقرَّ وأذعنَ وخضع لله جلّ وعلا ﴿قل أغيرَ الله أبغي رباً﴾ تقريرٌ وتوبيخ للكفار ، وسببها أنهم دعوه إلى عبادة آلهتهم والمعنى : قل يا محمد أأطلب رباً غير الله تعالى ؟ ﴿وهو ربُّ كل شيء﴾ أي والحال هو خالق ومالك كل شيء فكيف يليق أن أتخذ إلهاً غير الله ؟ ﴿ولا تكسب كلُّ نفسٍ إلا عليها﴾ أي لا تكون جناية نفسٍ من النفوس إلا عليها ﴿ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى﴾ أي لا يحمل أحدٌ ذنب أحد ، ولا يؤاخذ إنسانٌ بجريرة غيره ﴿ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ وهذا وعيدٌ وتهديدٌ أي مرجعكم إليه يوم القيامة فيجازيكم على أعمالكم ويميز بين المحسن والمسيء ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ أي جعلكم خلفاً للأمم الماضية والقرون السالفة يخلف بعضكم بعضاً قال الطبري : أي استخلفكم بعد أن أهلك من كان قبلكم من القرون والأمم الخالية فجعلكم خلائف منهم في الأرض تخلفونهم فيها[١] ﴿ورفع بعضكم فوق بعض درجات﴾ أي خالف بين أحوالكم في الغنى والفقر ، والعلم والجهل ، والقوة والضعف وغير ذلك مما وقع فيه التفضيل بين العباد ﴿ليبلوكم في ما آتاكم﴾ أي ليختبر شكركم على ما أعطاكم قال ابن الجوزي : أي ليختبركم فيظهر منكم ما يكون به الثواب والعقاب[٢] ﴿إنَّ ربك سريع العقاب وإنه لغفورٌ رحيم﴾ أي إن ربك سريع العقاب لمن عصاه وغفور رحيم لمن أطاعه ، قال في التسهيل : جمع بين الخوف والرجاء ، وسرعة العقاب إما في الدنيا بتعجيل الأخذ أو في الآخرة لأن كل ما هو آتٍ قريب[٣] .

البَلاَغَة : ١ ـ ﴿ولا تتبعوا السُّبل﴾ السُّبل استعارة عن البدع والضلالات والمذاهب المنحرفة .

٢ ـ ﴿لا نكلف نفساً﴾ التنكير لإفادة العموم والشمول .

٣ ـ ﴿وبعهد الله﴾ الإضافة للتشريف والتعظيم .

٤ ـ ﴿يصدفون عن آياتنا﴾ وضع الظاهر مكان الضمير ﴿عنها﴾ لتسجيل شناعة وقباحة طغيانهم .

٥ ـ ﴿قل انتظروا﴾ الأمر للتهديد والوعيد .

٦ ـ ﴿لا ينفع نفساً إيمانها . .﴾ الآية اشتمل هذا الكلام على النوع المعروف من علم البيان باللَّف

---

(١) الطبري ١٢/٢٨٧ . (٢) زاد المسير ٣/١٦٣ . (٣) التسهيل ٢/٢٨ .

وأصل الكلام : يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً لم تكن مؤمنةً قبلُ إيمانُها بعدُ ، ولا نفساً لم تكسب في إيمانها خيراً قبلُ ما تكسبه من الخير بعدُ ، إلا أنه لفّ الكلامين فجعلهما كلاماً واحداً بلاغة واختصاراً وإعجازاً ، أفاده صاحب الانتصاف[1] .

٧ - بين ﴿ظهر﴾ و﴿بطن﴾ طباق وبين ﴿الحسنة﴾ و﴿السيئة﴾ طباق كذلك وهو من المحسنات البديعية .

٨ - ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ قال الشريف الرضي : ليس هناك على الحقيقة أحمال على الظهور وإنما هي أثقال الآثام والذنوب فهو من الاستعارة اللطيفة[2] .

فائدة : وحّد تعالى ﴿سبيله﴾ لأن الحق واحد وجمع ﴿السُّبل﴾ لأن طرق الضلالة كثيرة ومتشعبة .

تنبيه : قال الحافظ ابن كثير : كثيراً ما يقرن تبارك وتعالى في القرآن بين هاتين الصفتين ﴿إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾ كقوله تعالى ﴿نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم . وأن عذابي هو العذاب الأليم﴾ إلى غير ذلك من الآيات المشتملة على الترغيب والترهيب ، فتارةً يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه ، وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها ، وتارة بهما لينجع في كلٍ بحسبه[3] .

« تم تفسير سورة الأنعام بعونه تعالى وله الحمد والمنّة »

* * *

---

(١) حاشية الكشاف ٢/ ٦٤ . (٢) تلخيص البيان ص ٤٠ . (٣) مختصر ابن كثير ١/ ٦٤٢ .



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

سورة الأعراف من أطول السور المكية ، وهي أول سورة عرضت للتفصيل في قصص الأنبياء ، ومهمتها كمهمة السور المكية تقرير أصول الدعوة الإسلامية من توحيد الله جل وعلا ، وتقرير البعث والجزاء ، وتقرير الوحي والرسالة .

* تعرضت السورة الكريمة في بدء آياتها للقــرآن العظيم معجزة محمد الخالدة ، وقررت أن هذا القرآن نعمة من الرحمن على الإنسانية جمعاء ، فعليهم أن يستمسكوا بتوجيهاته وإرشاداته ليفوزوا بسعادة الدارين .

* ولفتت الأنظار إلى نعمة خلقهم من أبٍ واحد ، وإلى تكريم الله لهذا النوع الإنساني ممثلاً في أب البشر آدم عليه السلام الذي أمر الله الملائكة بالسجـود له ، ثم حذّرت من كيد الشيطـان ذلك العـدو المتربص الذي قعد على طريق الناس ليصدهم عن الهدى ويبعدهم عن خالقهم .

* وقد ذكر تعالى قصة آدم مع إبليس وخروجه من الجنة ، وهبوطه إلى الأرض كنموذج للصراع بين الخير والشر ، والحق والباطل ، وبيانٍ لكيد إبليس لآدم وذريته ، ولهذا وجه الله إلى أبناء آدم ـ بعد أن بيّن لهم عداوة إبليس لأبيهم ـ أربعة نداءات متتالية بوصف البُنوَّة لآدم ﴿يا بني آدم﴾ وهو نداء خاص بهذه السورة يحذّرهم بها من عدوهم الذي نشأ على عداوتهم من قديم الزمن حين وسوس لأبيهم آدم حتى أوقعه في الزّلة والمخالفة لأمر الله ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما . .﴾ .

* كما تعرضت السورة الكريمة لمشهدٍ من المشاهد الواقعة يوم القيامة ، مشهد الفرق الثلاثة وما يدور بينهم من محاورة ومناظرة : فرقة المؤمنين أصحاب الجنة ، وفرقة الكافرين أصحاب النار ، وفرقةٍ ثالثة لم يتحدث عنها القرآن إلا في هذه السورة ، وهي الفرقة التي سميت بأصحاب الأعراف وسميت باسمها السورة «سورة الاعراف» مشهدٌ سوف يشهده العالم يوم البعث والجزاء على الحقيقة دون تمثيل ولا تخييل، تبيّن ما يكون فيه من شماتة أهل الحق «أصحاب الجنة» بالمبطلين أصحـاب النـار، وينطلق

صوت علوي يسجّل عليهم اللعنة والطرد والحرمان ، وقد ضرب بين الفريقين بحجاب ووقف عليه رجال يعرفون كلاً بسيماهم ، يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه ونضرتها ، ويعرفون أهل النار بسواد الوجوه وقترتها .

* وتناولت السورة قصص الأنبياء بإسهاب « نوح ، هود ، صالح ، لوط ، شعيب ، موسى » وقد ابتدأت بشيخ الأنبياء « نوح » عليه السلام وما لاقاه من قومه من جحودٍ وعناد ، وتكذيب وإعراض ، وقد ذكرت بالتفصيل قصة الكليم موسى عليه السلام مع فرعون الطاغية ، وتحدثت عما نال بني إسرائيل من بلاء وشدة ثم من أمنٍ ورخاء وكيف لمّا بدلوا نعمة الله وخالفوا أمره عاقبهم الله تعالى بالمسخ إلى قردة وخنازير .

* وتناولت السورة كذلك المثل المخزي لعلماء السوء ، وصوَّرتهم بأشنع وأقبح ما يمكن للخيال أن يتصوره ، صورة الكلب اللاهث الذي لا يكف عن اللهث ، ولا ينفك عن التمرغ في الطين والأوحال ﴿ ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهثْ أو تتركه يلهث ﴾وتلك لعمر الحق أقبح صورة مزرية لمن رزقه الله العلم النافع فاستعمله لجمع الحطام الفاني وكان خزياً ووبالاً عليه ، لأنه لم ينتفع بهذا العلم ، ولم يستقم على طريق الإيمان وانسلخ من النعمة ، وأَتبعه الشيطان فكان من الغاوين .

* وقد ختمت السورة الكريمة بإثبات التوحيد ، والتهكم بمن عبدوا ما لا يضر ولا ينفع ، ولا يبصر ولا يسمع ، من أحجار وأصنام اتخذوهما شركاء مع الله ، وهو جل وعلا وحده الذي خلقهم وصوّرهم ويعلم متقلبهم ومثواهم ، وهكذا ختمت السورة الكريمة بالتوحيد كما بدأت بالتوحيد ، فكانت الدعوة إلى الإيمان بوحدانية الرب المعبود في البدء والختام .

التسمية : سميت هذه السورة بسورة الأعراف لورود ذكر اسم الأعراف فيها ، وهو سور مضروب بين الجنة والنار يحول بين أهلهما ، روى ابن جرير عن حذيفة أنه سئل عن أصحاب الأعراف فقال : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقعدت بهم سيئاتهم عن دخول الجنة ، وتخلفت بهم حسناتهم عن دخول النار ، فوقفوا هنالك على السور حتى يقضي الله فيهم .

* * *

قال الله تعالى : ﴿المص * كتابٌ أُنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه .. إلى .. ويحسبون أنهم مهتدون﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٣٠) .

اللغة : ﴿حرج﴾ ضيق يقال : حَرِج المكانُ أو الصدرُ إذا ضاق ﴿بياتاً﴾ قال الراغب : البَيَاتُ والتبييتُ : قصدُ العدوّ ليلاً[١] ﴿قائلون﴾ من القيلولة وهي النوم وسط النهار ، والقائلة : الظهيرة ﴿مذءوماً﴾ مذموماً يقال ذأمه أي ذمّه وحقّره ﴿مدحوراً﴾ مطروداً يقال دحره أي طرده وأبعده ﴿سوآتهما﴾ السوأة : العورة سميت بذلك لأن الإنسان يسوءه ظهورها ﴿طفقا﴾ شرعا وأخذا يقال : طفِق

(١) المفردات للراغب مادة بيت .

يطفق إذا ابتدأ وأخذ ﴿يخصفان﴾ يرقعان ويلزقان ﴿ريشاً﴾ لباساً تتجملون به وأصل الريش : المالُ والجمال ومنه ريش الطير لأنه زينةٌ له وجمال ﴿قبيله﴾ جنوده وأصل القبيل : الجماعةُ سواءً كانوا من أصلٍ أو أصول شتى ﴿فاحشة﴾ الفاحشة هي الشيء الذي تناهى قبحه والمراد بها هنا الطوافُ حول البيت عراة وكل أمرٍ قبيح يسمى فاحشة ، والفحشاء ما اشتد قبحه من الذنوب كالفاحشة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾

التفسير : ﴿الـمص﴾ تقدم في أول سورة البقرة الكلام عن الحروف المقطّعة وأن الحكمة في ذكرها بيان « إعجاز القرآن » بالإشارة إلى أنه مركب من أمثال هذه الحروف ومع ذلك فقد عجز بلغاؤ هم وفصحاؤ هم وعباقرتهم عن الإتيان بمثله وروي عن ابن عباس معناه : أنا الله أعلم وأفْصِل ،وقال أبو العالية : الألف مفتاح اسمه الله واللام مفتاح اسمه لطيف والميم مفتاح اسمه مجيد والصاد مفتاح اسمه صادق ﴿**كتابٌ أُنزل إليك**﴾ أي هذا كتاب أنزله الله إليك يا محمد وهو القرآن ﴿**فلا يكن في صدرك حرج منه**﴾ أي لا يضقْ صدرك من تبليغه خوفاً من تكذيب قومك ﴿**لتنذر به وذكرى للمؤمنين**﴾ أي لتنذر بالقرآن من يخاف الرحمن ، ولتذكّر وتعظ به المؤ منين لأنهم المنتفعون به ﴿**اتبعوا ما أُنزل إليكم من ربكم**﴾ أي اتبعوا أيها الناس القرآن الذي فيه الهدى والنور والبيان المنزّل إليكم من ربكم ﴿**ولا تتبّعوا من دونه أولياء**﴾ أي ولا تتخذوا أولياء من دون الله كالأوثان والرهبان والكُهّان تولونهم أموركم وتطيعونهم فيما يشرعون لكم ﴿**قليلاً ما تذكّرون**﴾ أي تتذكّرون تذكراً قليلاً قال الخازن : أي ما تتعظون إلا قليلاً[1] ﴿**وكم من قرية أهلكناها**﴾ أي وكثير من القرى أهلكناها والمراد بالقرية أهلُها ﴿**فجاءها بأسنا بياتاً**﴾ أي جاءها عذابنا ليلاً ﴿**أو هم قائلون**﴾ أي جاءهم العذاب في وقت القيلولة وهي النوم في وسط النهار قال أبو حيان : وخصّ مجيء البأس بهذين الوقتين لأنهما وقتان للسكون والدعة والاستراحة فمجيء العذاب فيهما أشق وأفظع لأنه يكون على غفلةٍ من المهلكين[2] ﴿**فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا**﴾ أي ما كان دعاؤ هم واستغاثتهم حين شاهدوا العذاب ورأوا أماراته ﴿**إلا أن قالوا إنّا كنا ظالمين**﴾ أي إلا اعترافهم بظلمهم تحسراً وندامة ، وهيهات أن ينفع الندم ﴿**فلنسألنّ الذين أُرسل إليهم**﴾ أي لنسألن الأمم قاطبة هل بلّغكم الرسل وماذا أجبتم ؟ والمقصودُ من هذا السؤ ال

(١) تفسير الخازن ٢/ ١٧٣ . (٢) البحر ٤/ ٢٦٩ .

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾

التقريع والتوبيخ للكفار ﴿ولنسألنَّ المرسلين﴾ أي ولنسألنَّ الرسل أيضاً هل بلّغوا الرسالة وأدوا الأمانة ؟ قال في البحر : وسؤال الأمم تقريرٌ وتوبيخ يعقب الكفار والعصاة نكالاً وعذاباً ، وسؤال الرسل تأنيسٌ يعقب الأنبياء كرامة وثواباً[1] ﴿فلنقصنَّ عليهم بعلم﴾ أي فلنخبرنهم بما فعلوا عن علمٍ منا قال ابن عباس : يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون ﴿وما كنا غائبين﴾ أي ما كنا غائبين عنهم حتى يخفى علينا شيء من أحوالهم قال ابن كثير : يخبر تعالى عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير ، وجليل وحقير ، لأنه تعالى الشهيد على كل شيء ، لا يغيب عنه شيء بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور[2] ﴿والوزن يومئذٍ الحق﴾ أي والوزن للأعمال يوم القيامة كائن بالعدل ولا يظلم ربك أحداً ﴿فمن ثقلت موازينه﴾ أي فمن رجحت موازين أعماله بالإيمان وكثرة الحسنات ﴿فأولئك هم المفلحون﴾ أي الناجون غداً من العذاب الفائزون بجزيل الثواب ﴿ومن خفت موازينه﴾ أي ومن خفت موازين أعماله بسبب الكفر واجتراح السيئات ﴿فأولئك الذين خسروا أنفسهم﴾ أي خسروا أنفسهم وسعادتهم ﴿بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾ أي بسبب كفرهم وجحودهم بآيات الله ، قال ابن كثير : والذي يوضع في الميزان يوم القيامة قيل : الأعمال وإن كانت أعراضاً إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساماً يروى هذا عن ابن عباس ، وقيل : يوزن كتاب الأعمال كما جاء في حديث البطاقة ، وقيل : يوزن صاحب العمل كما في الحديث (يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة) والكل صحيح فتارةً توزن الأعمال، وتارةً محالها، وتارة يوزن فاعلها والله أعلم[3] أقول : لا غرابة في وزن الأعمال ووزن الحسنات والسيئات بالذات ، فإذا كان العلم الحديث قد كشف لنا عن موازين للحر والبرد ، واتجاه الرياح والأمطار ، أفيعجز القادر على كل شيء عن وضع موازين لأعمال البشر ؟ ﴿ولقد مكناكم في الأرض﴾ أي جعلنا لكم أيها الناس في الأرض مكاناً وقراراً قال البيضاوي: أي مكناكم من سكناها وزرعها والتصرف فيها[4] ﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾ أي ما تعيشون به وتحيون من المطاعم والمشارب وسائر ما تكون به الحياة ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ أي ومع هذا الفضل والإنعام قليل منكم من يشكر ربه كقوله ﴿وقليلٌ من عبادي الشكور﴾ ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾ أي خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصوَّر ثم صورناه أبدع تصوير وأحسن تقويم ، وإنما ذكر

(١) البحر المحيط ٤/ ٢٧٠ . (٢) مختصر ابن كثير ٢/ ٦ . (٣) مختصر ابن كثير ٢/ ٧ . (٤) البيضاوي ص ١٦٠ .

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ

بلفظ الجمع تعظيماً له لأنه أبو البشر **﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾** أي ثم أمرنا الملائكة بالسجود لآدم تكريماً له ولذريته **﴿فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين﴾** أي سجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس امتنع من السجود تكبراً وعناداً ، والاستثناء منقطع لأنه استثناء من غير الجنس وقد تقدم قول الحسن البصري : لم يكن إبليسُ من الملائكة طرفة عين[1] **﴿قال ما منعك ألاّ تسجد إذ أمرتك﴾** أي قال تعالى لإبليس أيُّ شيء منعك أن تدع السجود لآدم ؟ والاستفهام للتقريع والتوبيخ **﴿قال أنا خير منه﴾** أي قال إبليس اللعين أنا أفضل من آدم وأشرف منه فكيف يسجد الفاضل للمفضول ؟ ثم ذكر العلة في الامتناع فقال **﴿خلقتني من نار وخلقته من طين﴾** أي أنا أشرف منه لشرف عنصري على عنصره ، لأنني مخلوق من نار والنار أشرف من الطين ، ولم ينظر المسكين لأمر من أمره بالسجود وهو الله تعالى قال ابن كثير : نظر اللعين إلى أصل العنصر ولم ينظر إلى التشريف والتعظيم وهو أن الله خلق آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وقاس قياساً فاسداً فأخطأ قبّحه الله في قياسه في دعواه أن النار أشرف من الطين ، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم ، والنار من شأنها الإحراق والطيش ، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح والنار محل العذاب ولهذا خان إبليس عنصره فأورثه الهلاك والشقاء والدمار[2] قال ابن سيرين : أول من قاس إبليس فأخطأ فمن قاس الدين برأيه قرنه الله مع إبليس[3] **﴿قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها﴾** أي اهبط من الجنة فما يصح ولا يستقيم ولا ينبغي أن تستكبر عن طاعتي وأمري وتسكن دار قدسي **﴿فاخرج إنك من الصاغرين﴾** أي الذليلين الحقيرين قال الزمخشري : وذلك أنه لما أظهر الاستكبار ألبسه الله الذل والصغار فمن تواضع لله رفعه ومن تكبّر على الله وضعه[4] **﴿قال أنظرني إلى يوم يبعثون﴾** استدرك اللعين فطلب من الله الإمهال إلى يوم البعث لينجو من الموت لأن يوم البعث لا موت بعده فأجابه تعالى بقوله **﴿قال إنك من المنظرين﴾** قال ابن عباس : أنظره إلى النفخة الأولى حيث يموت الخلق كلهم وكان طلب الإنظار إلى النفخة الثانية حيث يقوم الناس لرب العالمين فأبى الله ذلك عليه[5] ويؤيده الآية الأخرى **﴿قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾** **﴿قال فبما أغويتني لأقعدنَّ لهم صراطك المستقيم﴾** أي فبسبب إغوائك وإضلالك لي لأقعدنَّ لآدم وذريته على طريق الحق وسبيل النجاة الموصل للجنة كما يقعد القُطّاع للسابلة **﴿ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم﴾** أي آتي عبادك من كل جهة من الجهات الأربع

---

(١) انظر التحقيق الذي كتبناه حول إبليس والأدلة التي ذكرناها على أنه من الجن وليس من الملائكة في صفحة ٤٨ من كتابنا « النبوة والأنبياء » . (٢) مختصر ابن كثير ٢/٨ . (٣) البحر ٤/٢٧٣ . (٤) الكشاف ٢/٩٠ . (٥) القرطبي ٧/١٤٧ .

وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا

لأصدّهم عن دينك قال الطبري : معناه لآتينهم من جميع وجوه الحق والباطل ، فأصدهم عن الحق وأحسّن لهم الباطل قال ابن عباس : ولا يستطيع أن يأتي من فوقهم لئلا يحول بين العبد وبين رحمة الله تعالى[1] **﴿ثم لا تجد أكثرهم شاكرين﴾** أي مؤمنين مطيعين شاكرين لنعمك **﴿قال اخرج منها مذءوماً مدحوراً﴾** أي اخرج من الجنة مذموماً معيباً مطروداً من رحمتي **﴿لَمَنْ تبعكَ منهم لأملأنّ جهنم منكم أجمعين﴾** اللام موطئة للقسم أي لمن أطاعك من الإنس والجن لأملأنّ جهنم من الأتباع الغاوين أجمعين ، وهو وعيد بالعذاب لكل من انقاد للشيطان وترك أمر الرحمن **﴿ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾** أي وقلنا يا آدم اسكن مع زوجك حواء الجنة بعد أن أُهبط منها إبليس وأخرج وطرد **﴿فكلا من حيث شئتما﴾** أي كلا من ثمارها من أي مكان شئتما **﴿ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾** أباح لهما الأكل من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة عيّنها لهما ونهاهما عن الأكل منها ابتلاءً وامتحاناً فعند ذلك حسدهما الشيطان وسعى في الوسوسة والمكر والخديعة **﴿فوسوس لهما الشيطان﴾** أي ألقى لهما بصوتٍ خفي لإغرائهما بالأكل من الشجرة **﴿ليُبدي لهما ما وُوريَ عنهما من سوآتهما﴾** أي ليظهر لهما ما كان مستوراً من العورات التي يقبح كشفها **﴿وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا مَلَكيْن أو تكونا من الخالدين﴾** وهذا توضيح لوسوسة اللعين أي قال في وسوسته لهما : ما نهاكما ربكما عن الأكل من هذه الشجرة إلا كراهية أن تكونا مَلَكين أو تصبحا من المخلّدين في الجنة **﴿وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين﴾** أي حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما وقد يُخْدع المؤمن بالله قال الألوسي : وإنما عبّر بصيغة المفاعلة للمبالغة لأن من يباري أحداً في فعلٍ يجدُّ فيه[2] **﴿فدلاّهما بغرور﴾** أي خدعهما بما غرهما به من القسم بالله قال ابن عباس : غرهما باليمين وكان آدم يظن أنه لا يحلف أحدٌ بالله كاذباً فغرهما بوسوسته وقسمه لهما[3] **﴿فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما﴾** أي فلما أكلا من الشجرة ظهرت عوراتهما قال الكلبي : تهافت عنهما لباسهما فأبصر كلٌ منهما عورة صاحبه فاستحيا **﴿وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾** أي أخذا وشرعا يلصقان ورقة على ورقة ليستترا به بعد أن كانت كسوتهما

---

(١) الطبري ١٢/ ٣٤١ . (٢) روح المعاني ٨/ ١٠٠ . (٣) القرطبي ٧/ ١٨٠ .

مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾

من حلل الجنة قال القرطبي : أي جعلا يقطعان الورق ويلزقانه ليستترا به ومنه خصف النعل[١] وعن وهب ابن منبه قال: كان لباس آدم وحواء نوراً على فروجهما لا يرى هذا عورة هذه ، ولا هذه عورة هذا فلما أصابا الخطيئة بدت لهما سوآتهما[٢] ﴿وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقلْ لكما إن الشيطان لكما عدوٌ مبين﴾ أي ناداهما الله بطريق العتاب والتوبيخ قائلاً : ألم أحذركما من الأكل من هذه الشجرة وأخبركما بعداوة الشيطان اللعين ؟ روى أنه تعالى قال لآدم : ألم يكن لك فيما منحتك من شجر الجنة مندوحةٌ عن هذه الشجرة ؟ فقال : بلى وعزتك ولكنْ ما ظننتُ أن أحداً من خلقك يحلف بك كاذباً قال : فوعزتي لأهبطنَّك إلى الأرض ثم لا تنال العيش إلا كداً[٣] ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين﴾ اعترفا بالخطيئة وتابا من الذنب وطلبا من الله المغفرة والرحمة قال الطبري : وهذه الآية هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه[٤] ﴿قال اهبطوا بعضكم لبعضٍ عدو﴾ الخطاب لآدم وحواء وإبليس ولهذا جاء بصيغة الجمع أي اهبطوا من سماء القدس إلى الأرض حال كون بعضكم عدواً لبعض ، فالشيطان عدوٌ للإنسان ، والإنسان عدوٌ للشيطان كقوله ﴿إن الشيطان لكم عدوٌ فاتخذوه عدواً﴾ ﴿ولكم في الأرض مستقرٌ ومتاعٌ إلى حين﴾ أي لكم في الأرض موضع استقرار وتمتع وانتفاع إلى حين انقضاء آجالكم ﴿قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تُخرجون﴾ أي في الأرض تعيشون وفيها تُقبرون ومنها تُخرجون للجزاء كقوله ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارةً أخرى﴾ ثم ذكر تعالى ما امتنَّ به على ذرية آدم من اللباس والرياش والمتاع فقال ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً﴾ أي أنزلنا عليكم لباسين : لباساً يستر عوراتكم ، ولباساً يزينكم وتتجملون به قال الزمخشري : الريش لباس الزينة استعير من ريش الطير لأنه لباسه وزينته[٥] ﴿ولباس التقوى ذلك خير﴾ أي ولباس الورع والخشية من الله تعالى خير ما يتزين به المرء فإن طهارة الباطن أهم من جمال الظاهر قال الشاعر :

وخيرُ لباس المرء طاعةُ ربه ... ولا خير فيمن كان لله عاصياً

﴿ذلك من آيات الله﴾ أي إنزال اللباس من الآيات العظيمة الدالة على فضل الله ورحمته على عباده

(١) القرطبي ٧/ ١٨١ . (٢) الطبري ١٢/ ٣٥٥ . (٣) البحر ٤/ ٢٨١ . (٤) هذه الرواية نقلها الطبري عن الضحاك وفيها الإشارة إلى قوله تعالى ﴿فتلقى آدم من ربه كلماتٍ فتاب عليه﴾ (٥) الكشاف ٢/ ٩٧ .

يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

﴿لعلهم يذكّرون﴾ أي لعلهم يذكرون هذه النعم فيشكرون الله عليها **﴿يا بني آدم لا يفتننّكم الشيطان﴾** أي لا يغوينكم الشيطان بإضلاله وفتنته **﴿كما أخرج أبويكم من الجنة﴾** أي كما أغوى أبويكم بالأكل من الشجرة حتى أخرجهما من الجنة **﴿ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما﴾** أي ينزع عنهما اللباس لتظهر العورات، ونسب النزع إليه لأنه المتسبب، وهذا هدف اللعين أن يهتك الستر عن الإنسان ويعريه من جميع الفضائل الحسّية والمعنوية **﴿إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم﴾** أي إن الشيطان يبصركم هو وجنوده من الجهة التي لا تبصرونه منها، فهو لكم بالمرصاد فاحذروا كيده ومكره لأن العدو إذا أتى من حيث لا يُرى كان أشدّ وأخوف **﴿إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾** أي جعلنا الشياطين أعواناً وقرناء للكافرين **﴿وإذا فعلوا فاحشةً﴾** أي وإذا فعل المشركون فاحشة وهي الفعلة المتناهية في القبح كالطواف حول البيت عراة **﴿قالوا وجدنا عليها آباءنا﴾** أي اعتذروا عن ذلك الفعل القبيح بتقليد الآباء **﴿والله أمرنا بها﴾** أي أمرنا بالتجرد من الثياب إذ كيف نطوف في ثيابٍ عصينا فيها الله! وهذا افتراء على ذي الجلال قال البيضاوي: احتجوا بأمرين: تقليد الآباء، والافتراء على الله سبحانه، فأعرض عن الأول لظهور فساده، وردَّ الثاني بقوله **﴿قل إن الله لا يأمر بالفحشاء﴾** [1] أي قل لهم يا محمد: الله منزّه عن النقص لا يأمر عباده بقبائح الأفعال ومساوىء الخصال **﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾** الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي أتكذبون على الله وتنسبون إليه القبيح دون علمٍ ونظرٍ صحيح؟ **﴿قل أمر ربي بالقسط﴾** أي بالعدل والاستقامة **﴿وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد﴾** أي توجهوا بكليتكم إليه عند كل سجود **﴿وادعوه مخلصين له الدين﴾** أي واعبدوه مخلصين له العبادة والطاعة قال ابن كثير: أي أمركم بالاستقامة في عبادته وهي متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات وبالإخلاص لله في العبادة فإن الله تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين: أن يكون صواباً موافقاً للشريعة، وأن يكون خالصاً من الشرك[2] **﴿كما بدأكم تعودون﴾** أي كما بدأكم من الأرض تعودون إليها **﴿فريقاً هدى وفريقاً حقّ عليهم الضلالة﴾** أي هدى فريقاً منكم وأضلَّ فريقاً منكم وهو الفعال لما يريد لا يُسأل عما يفعل **﴿إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله﴾** هذا تعليل

(١) البيضاوي ص ١٨٩ . (٢) مختصر ابن كثير ٢/ ١٣ .

للفريق الذين حقت عليهم الضلالة أي اتخذوا الشياطين نصراء من دون الله ﴿ويحسبون أنهم مهتدون﴾ أي يظنون أنهم على بصيرة وهداية .

البَلاَغَة : ١ - ﴿حرج منه﴾ أي ضيق من تبليغه فهو على حذف مضاف مثل ﴿واسأل القرية﴾ .

٢ - ﴿من ربكم﴾ التعرض لوصف الربوبية مع الإضافة لضمير المخاطبين لمزيد اللطف بهم وترغيبهم في امتثال الأوامر[1] .

٣ - ﴿فمن ثقلت موازينه﴾ بين ﴿ثقلت﴾ و ﴿خفت﴾ طباقٌ وكذلك بين﴿بياتاً﴾ و ﴿قائلون﴾ لأن البيات معناه ليلاً و ﴿قائلون﴾ معناه نهاراً وقت الظهيرة .

٤ - ﴿خلقناكم ثم صورناكم﴾ هو على حذف مضاف أي خلقنا أباكم وصورنا أباكم .

٥ - ﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ استعار الصراط المستقيم لطريق الهداية الموصل إلى جنان النعيم .

٦ - ﴿ويا آدم﴾ فيه إيجاز بالحذف أي وقلنا يا آدم .

٧ - ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ عبَّر عن الأكل بالقرب مبالغة في النهي عن الأكل منها .

٨ - ﴿وقاسمهما إني لكما﴾ أكد الخبر بالقسم وبإنَّ واللام لدفع شبهة الكذب وهو من الضرب الذي يسمى « إنكارياً » لأن السامع متردّد .

٩ - ﴿فيها تحيون وفيها تموتون﴾ بين الجملتين طباقٌ وهو من المحسنات البديعية .

تَنْبِيهٌ : سميت العورة سوأة لأن كشفها يسوء صاحبها قال العلماء : في الآية دليل على أن كشف العورة من عظائم الأمور وأنه مستهجنٌ في الطباع ولذلك سميت سوأة **أقول** : إن الآية قد أوضحت هدف إبليس اللعين ﴿ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما﴾ فمن دعا إلى تعري المرأة وشجَّع على ذلك كما هو حال من يزعم التقدمية ويدعو المرأة الى نزع الحجاب بدعوى الحرية والمساواة فإنما هو عدوٌ للمرأة ومن أنصار وأعوان إبليس لأن الهدف واحد ، وهي دعوة مكشوفة غايتها التفسخُ والانحلال الخلقي ، وليست التقدمية بالتكشف والتعري وإنما هي بصيانة الشرف والعفاف ولله در القائل :

يا ابنتي إن أردتِ آيةَ حسنٍ	وجمالاً يزينُ جسماً وعقلاً
فانبذي عادة التبرجِ نبذاً	فجمالُ النفوسِ أسمى وأعْلى
يصنع الصّانعون ورداً ولكنْ	وردةُ الروضِ لا تُضارع شكلاً

قال الله تعالى : ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم . . إلى . . وما كانوا بآياتنا يجحدون﴾
من آية (٣١) إلى نهاية آية (٥١) .

---

(١) أفاده أبو السعود ٢/ ١٥٥

المناسبة : لما ذكر تعالى قصة آدم عليه السلام ، وذكر ما امتن به على بنيه وما أنعم به عليهم من اللباس الذي يستر العورات ، أمر هنا بأخذ الزينة والتجمل في المناسبات وعند إرادة الصلاة ، ثم ذكر أحوال الآخرة وانقسام الناس إلى طوائف : « أهل الجنة ، وأهل النار ،وأهل الأعراف » ومآل كل فريق من سعادة أو شقاء في دار العدل والجزاء .

اللغة : ﴿زينتكم﴾ الزينة : ما يتزين به المرء ويتجمل من ثياب وغيرها ﴿الفواحش﴾ جمع فاحشة وهي ما تناهى قبحه من المعاصي ﴿البغي﴾ الظلم والاستطالة على الناس ﴿سلطاناً﴾ حجة وبرهاناً ﴿سمِّ الخياط﴾ ثقب الإبرة ﴿مهاد﴾ فراش يمتهده الإنسان ﴿غواش﴾ أغطية جمع غاشية قال ابن عباس : هي اللحف ﴿الأعراف ﴾ السور المضروب بين الجنة والنار جمع عرف مستعار من عرف الديك ﴿بسياهم﴾ بعلامتهم .

سبب النزول : عن ابن عباس قال : كانت المرأة تطوف بالبيت عريانة وتقول : من يعيرني تَطْوافاً تجعله على فرجها وتقول :

اليوم يبـدو بعضُـه أو كلّه فما بدا منـه فلا أُحلّه

فنزلت هذه الآية ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ وأذن مؤذن رسول الله ﷺ : ألاّ يطوف بالبيت عُريان[1] .

* ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا

التفسير : ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ أي البسوا أفخر ثيابكم وأطهرها عند كل صلاة أو طواف ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ أي لا تسرفوا في الزينة والأكل والشرب بما يضر بالنفس والمال ﴿إنه لا يحب المسرفين﴾ أي المتعدين حدود الله فيما أحلَّ وحرّم ﴿قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الجهلة من العرب الذين يطوفون بالبيت عراةً ويحرمون على أنفسهم ما أحللت لهم من الطيبات ، من حرّم عليكم التجمل بالثياب التي خلقهـا اللـه لنفعـكم من النبات ، والمستلذات من المآكل والمشارب ! والاستفهام للإنكار والتوبيخ ﴿قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾ أي هذه الزينة والطيبات في الدنيا مخلوقة للمؤمنين وإن شاركهم فيها الكفار ، وستكون خالصة لهم يوم القيامة لا يشركهم فيها أحد لأن الله حرم الجنة على الكافرين ﴿كذلك نفصّل

(١) أخرجه مسلم كذا في القرطبي ٧/ ١٨٩ .

وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ

الآيات لقوم يعلمون﴾ أي نبيّن ونوضح الآيات التشريعية لقوم يتدبرون حكمة الله ويفقهون تشريعه ﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾ أي قل لهم يا محمد ما حرّم الله إلا القبائح من الأشياء التي تفاحش قبحها وتناهى ضررها، سواء ما كان منها في السر أو في العلن ﴿والإثم والبغي بغير الحق﴾ أي وحرّم المعاصي كلها والعدوان على الناس ﴿وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً﴾ أي تجعلوا له شركاء في عبادته بدون حجة أو برهان ﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ أي تفتروا على الله الكذب في التحليل والتحريم ﴿ولكل أمة أجل﴾ أي لكل أمة كذبت رسلها مدة مضروبة لهلاكها قال في البحر: هذا وعيد للمشركين بالعذاب إذا خالفوا أمر ربهم[1] ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ أي فإذا جاء وقت هلاكهم المقدر لهم لا يتأخر عنهم برهة من الزمن ولا يتقدم كقوله ﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً﴾[2] والساعة مثلٌ في غاية القلة من الزمان ﴿يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي﴾ المراد ببني آدم جميع الأمم والمعنى إن يجئكُم رسلي الذين أرسلتهم إليكم يبينون لكم الأحكام والشرائع ﴿فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي فمن اتقى منكم ربه بفعل الطاعات وترك المحرمات فلا خوف عليهم في الآخرة ولا هم يحزنون ﴿والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي وأما من كذب واستكبر عن الإيمان بما جاء به الرسل فأولئك في نار جهنم ماكثون لا يخرجون منها أبداً ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته﴾ الاستفهام للإنكار أي من أقبح وأشنع ممن تعمّد الكذب على الله أو كذّب بآياته المنزلة؟ ﴿أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب﴾ أي يصيبهم حظهم في الدنيا مما كُتب لهم وقُدر من الأرزاق والآجال قال مجاهد: ما وُعدوا به من خير أو شر ﴿حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم﴾ أي جاءت ملائكة الموت تقبض أرواحهم ﴿قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله﴾ أي أين الآلهة التي كنتم تعبدونها من دون الله أدعوهم ليخلصوكم من العذاب، والسؤال للتبكيت والتوبيخ ﴿قالوا ضلوا عنّا﴾ أي قال الأشقياء المكذبون لقد

(١) البحر المحيط ٤/ ٢٩٢ . (٢) هذا الراجح في تفسير الآية أن المراد به اجل الامم المكذبين للرسل وهو اختيار الطبري وابن كثير وأبي السعود وقيل: المراد أن كل إنسان له عمر ينتهي إليه لا يزيد ولاينقص، والأول أرجح لأن اللفظ ورد ﴿ ولكل أمة ﴾ والله أعلم .

اللهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾

غابوا عنا فلا نرجوا نفعهم ولا خيرهم ﴿**وشهدُوا على أنفسِهم أنهمْ كانوا كافرين**﴾ أي أقروا واعترفوا على أنفسهم بالكفر والضلال ، وإنما قالوا ذلك على سبيل التحسر والاعتراف بما هم عليه من الخيبة والخسران ﴿**قال ادخلوا في أمم قدْ خَلَتْ من قبلكم من الجنّ والإنس في النار**﴾ أي يقول الله تعالى يوم القيامة لهؤ لاء المكذبين بآياته : ادخلوا مع أمم أمثالكم من الفجرة في نار جهنم من كفار الأمم الماضية من الإنس والجن ﴿**كلّما دخلتْ أمةٌ لعنتْ أختها**﴾ أي كلما دخلت طائفة النار لعنت التي قبلها لضلالها بها قال الألوسي : يلعن الأتباع القادة يقولون : أنتم أوردتمونا هذه الموارد فلعنكم الله تعالى[1] ، والمراد أن أهل النار يلعن بعضهم بعضاً كقوله تعالى ﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً﴾ ﴿**حتى إذا ادّاركوا فيها جميعاً**﴾ أي تلاحقوا واجتمعوا في النار كلهم ﴿**قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا**﴾ أي قال الأتباع للقادة والرؤ ساء الذين أضلوهم يا ربنا هؤ لاء هم الذين أضلونا عن سبيلك وزينوا لنا طاعة الشيطان ﴿**فآتهم عذاباً ضعفاً من النار**﴾ أي أذقهم العذاب مضاعفاً لأنهم تسببوا في كفرنا ونظير هذه الآية ﴿ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب﴾ ﴿**قال لكل ضعفٌ**﴾ أي لكلٍ من القادة والأتباع عذاب مضاعف أما القادة فلضلالهم وإضلالهم ، وأما الأتباع فلكفرهم وتقليدهم ﴿**ولكن لا تعلمون**﴾ أي لا تعلمون هوله ولهذا تسألون لهم مضاعفة العذاب ﴿**وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل**﴾ أي قال القادة للأتباع : لا فضل لكم علينا في تخفيف العذاب فنحن متساوون في الضلال وفي استحقاق العذاب الأليم ﴿**فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون**﴾ أي فذوقوا عذاب جهنم بسبب إجرامكم ، قالوه لهم على سبيل التشفي لأنهم دعوا عليهم بمضاعفة العذاب[2] ﴿**إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها**﴾ أي كذبوا بآياتنا مع وضوحها واستكبروا عن الإيمان بها والعلم بمقتضاها ﴿**لا تُفتَّح لهم أبواب السماء**﴾ أي لا يصعد لهم عمل صالح كقوله تعالى ﴿إليه يصعد الكلم الطيّب﴾ قال ابن عباس : لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء ، وقيل : لا تُفتّح لأرواحهم أبواب السماء إذا قبضت أرواحهم

(١) روح المعاني ٨/ ١١٦ . (٢) ذهب بعض المفسرين إلى أن قوله ﴿فذوقوا العذاب﴾ من كلام الله للفريقين على سبيل التوبيخ وهو اختيار الطبري والظاهر أنه من كلام القادة للأتباع كما في البحر والله أعلم .

لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ

ويؤيده حديث (إن العبد الكافر إذا كان في انقطاعٍ من الدنيا يجيئه ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الخبيثة أخرجي إلى سخطٍ من الله وغضب ، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة فلا يمر على ملأٍ من الملائكة إلا قالوا ما هذه الروح الخبيثة ؟ حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا فيستفتح فلا يفتح له . .)[١] الحديث ﴿ولا يدخلون الجنّة حتى يلجَ الجَمَلُ في سَمِّ الخِيَاطِ﴾ أي لا يدخلون يوم القيامة الجنة حتى يدخل الجمل في ثقب الإبرة ، وهذا تمثيل لاستحالة دخول الكفار الجنة كاستحالة دخول الجمل على ضخامته في ثقب الإبرة على دقته مبالغة في التصوير ﴿وكذلك نجزي المجرمين﴾ أي ومثل ذلك الجزاء الفظيع نجزي أهل العصيان والإجرام ﴿لهم من جهنم مهاد﴾ أي لهم فراش من النار من تحتهم ﴿ومن فوقهم غواش﴾ أي ومن فوقهم أغطية من النار ﴿وكذلك نجزي الظالمين﴾ أي ومثل ذلك الجزاء الشديد نجزي كل من ظلم وتعدّى حدود الله ، ولما ذكر تعالى وعيد الكافرين وما أعده لهم في الآخرة أتبعه بذكر وعد المؤمنين وما أعدّ لهم فقال ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي والذين صدّقوا الله ورسوله وعملوا بما أمرهم به وأطاعوه ﴿لا نكلّف نفساً إلا وسعها﴾ أي لا نكلف أحداً بما هو فوق طاقته أو بما يعجز عنه بل بما هو في وسعه والجملة اعتراضية بين المبتدأ والخبر قال في البحر : وفائدته التنبيه على أن ذلك العمل في وسعهم وغير خارج عن قدرتهم وفيه تنبيه للكفار على أن الجنة مع عظم ما فيها يوصل إليها بالعمل السهل من غير مشقة[٢] ﴿أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ هذا هو الخبر أي هؤلاء المؤمنون السعداء هم المستحقون للخلود الأبدي في جنات النعيم لا يُخرجون منها أبداً ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غلٍ﴾ أي طهرنا قلوبهم من الحسد والبغضاء حتى لا يكون بينهم إلا المحبة والتعاطف كما ورد في الحديث (يدخلون الجنة وليس في قلوب بعضهم على بعض غلٌ)[٣] وصيغة الماضي تفيد التحقق والتثبت ﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ أي تجري أنهار الجنة من تحت قصورهم زيادة في نعيمهم ﴿وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾ أي وفقنا لتحصيل هذا النعيم العظيم ولولا هداية الله تعالى وتوفيقه لما وصلنا إلى هذه السعادة ﴿لقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ أي والله لقد صدقنا الرسل فيما أخبرونا به عن الله عز وجل ﴿ونُودوا أنَ تِلكم الجنةُ أُورثتموها بما كنتم تعملون﴾ أي وتناديهم الملائكة أن هذه هي الجنة التي أعطيتموها بسبب أعمالكم الصالحة فى الدنيا قال القرطبي :ورثتم منازلها بعملكم ،ودخولكم إياها برحمة الله وفضله وفي الحديث (لن

---

(١) هذا من حديث أخرجه الإمام أحمد وانظره كاملاً في ابن كثير ٢/ ١٨ . (٢) البحر المحيط ٤/ ٢٩٨ . (٣) أخرجه ابن ابي حاتم .

أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾

يُدخل أحداً منكم عملهُ الجنة . .)[1] الحديث **﴿ونادى أصحابُ الجنةِ أصحابَ النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم﴾** هذا النداء إنما يكون بعد استقرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار ، وعبَّر بالماضي عن المستقبل لتحقق وقوعه أي ينادي أهلُ الجنة أهلَ النار يقولون : إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا على ألسنة رسله من النعيم والكرامة حقاً ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم من الخزي والهوان والعذاب حقاً ؟ قال أهل النار مجيبين : نعم وجدناه حقاً قال الزمخشري : وإنما قالوا لهم ذلك اغتباطاً بحالهم ، وشماتةً بأهل النار ، وزيادة في غمهم[2] لمجرد الإخبار والاستخبار **﴿فأذَّن مؤذنٌ بينهم أنْ لعنةُ الله على الظالمين﴾** أي أعلن معلنٌ ونادى منادٍ بين الفريقين بأن لعنة الله على كل ظالم بالله ثم وصفه بقوله **﴿الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً﴾** أي الذين كانوا في الدنيا يمنعون الناس عن اتباع دين الله ويبغون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة حتى لا يتبعها أحد **﴿وهم بالآخرة كافرون﴾** أي وهم بلقاء الله في الدار الآخرة مكذبون جاحدون **﴿وبينهما حجابٌ وعلى الأعراف رجالٌ يعرفون كلاً بسيماهم﴾** أي بين الفريقين حجاب وهو السور الذي ذكره بقوله **﴿فضُربَ بينهم بسورٍ له بابٌ﴾** يمنع من وصول أهل النار للجنة ، وعلى هذا السور رجال يعرفون كلاً من أهل الجنة وأهل النار بسيماهم أي بعلامتهم التي ميّزهم الله بها قال قتادة : يعرفون أهل النار بسواد وجوههم وأهل الجنة ببياض وجوههم[3] **﴿ونادوا أصحاب الجنة أن سلامٌ عليكم﴾** أي ونادى أصحاب الأعراف أهل الجنة حين رأوهم أن سلامٌ عليكم أي قالوا لهم : سلام عليكم قال تعالى **﴿لم يدخلوها وهم يطمعون﴾** أي لم يدخل أصحاب الأعراف الجنة وهم يطمعون في دخولها **﴿وإذا صُرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾** قال المفسرون : أصحاب الأعراف قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فليسوا من أهل الجنة ولا من أهل النار ، يحبسون هناك على السور حتى يقضي الله فيهم فإذا نظروا إلى أهل الجنة سلّموا عليهم ، وإذا نظروا إلى أهل النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ، سألوا الله ألاّ يجعلهم معهم قال أبو حيان : وفي التعبير بقوله **﴿صُرفت﴾** دليل على أن أكثر أحوالهم النظر إلى أهل الجنة وأن نظرهم إلى أصحاب النار ليس من قِبَلهم بل هم محمولون عليه والمعنى أنهم إذا حمُلوا على صرف أبصارهم ورأوا ما عليه أهل النار من العذاب استغاثوا بربهم من أن يجعلهم معهم[4] **﴿ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم﴾** أي من أهل النار وهم

(١) اخرجه مسلم وانظر القرطبي ٧/ ٢٠٩ . (٢) الكشاف ٢/ ١٠٦ . (٣) الطبري ١٢/ ٤٦٣ . (٤) البحر المحيط ٤/ ٣٠٣.

وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾

رؤساء الكفرة ﴿قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون﴾ أي أيُّ شيء نفعكم جمعكم للمال واستكباركم عن الإيمان ؟ والاستفهام للتوبيخ ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة﴾ أي أهؤلاء المؤمنون الضعفاء الذين كنتم في الدنيا تسخرون منهم وتحلفون أن الله لا يدخلهم الجنة ، والاستفهام استفهام تقرير وتوبيخ وشماتة يوبخونهم بذلك ﴿ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾ أي يقولون للمؤمنين ادخلوا الجنة رغم أنوف الكافرين قال الألوسي : هذا من كلام أصحاب الأعراف يقولون لأهل الجنة المشار إليهم : دوموا في الجنة غير خائفين ولا محزونين على أكمل سرور وأتم كرامة[١] ﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله﴾ يخبر تعالى عن المحاورة بين أهل النار وأهل الجنة بعد أن استقر بكلٍ من الفريقين القرار واطمأنت به الدار، وعن استغاثتهم بهم عند نزول عظيم البلاء من شدة العطش والجوع والمعنى ينادونهم يوم القيامة أغيثونا بشيء من الماء لنسكن به حرارة النار والعطش أو مما رزقكم الله من غيره من الأشربة فقد قتلنا العطش ﴿قالوا إن الله حرمهما على الكافرين﴾ أي منع الكافرين شراب الجنة وطعامها قال ابن عباس: ينادي الرجل أخاه وأباه فيقول: قد احترقت فأفض عليَّ من الماء ! فيقال لهم أجيبوهم فيقولون : إن الله حرمهما على الكافرين[٢] ، ثم وصف تعالى الكافرين بقوله ﴿الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً﴾ أي هزءوا من دين الله وجعلوا الدين سخرية ولعباً ﴿وغرتهم الحياة الدنيا﴾ أي خدعتهم بزخارفها العاجلة وشهواتها القاتلة وهذا شأنها مع أهلها تغرُّ وتضر، وتخدع ثم تصرع ﴿فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾ أي ففي هذا اليوم نتركهم في العذاب كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا فلم يخطر ببالهم ولم يهتموا به قال الألوسي : الكلام خارجٌ مخرج التمثيل أي نتركهم في النار وننساهم مثل نسيانهم لقاء هذا اليوم العظيم الذي ينبغي ألا يُنسى[٣] وقال ابن كثير: أي يعاملهم معاملة من نسيهم لأنه تعالى لا يشذّ عن علمه شيءٌ ولا ينساه[٤] ﴿وما كانوا بآياتنا يجحدون﴾ أي وكما كانوا منكرين لآيات الله في الدنيا ، يكذبون بها ويستهزءون ، ننساهم في العذاب .

البـلاغـة : ١ ـ ﴿عند كل مسجد﴾ مجاز مرسل علاقته المحلية لأن المراد بالمسجد هنا الصلاة

(١) روح المعاني ٨/ ١٢٦ . (٢) الطبري ١٢ ٤٧٣ . (٣) روح المعاني ٨/ ١٢٧. (٤) مختصر ابن كثير ٢/ ٢٤ .

والطواف ، ولما كان المسجد مكان الصلاة أطلق ذلك عليه .

٢ ـ ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء﴾ كناية عن عدم قبول العمل ، فلا يقبل لهم دعاء أو عمل .

٣ ـ ﴿حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾ فيه تشبيه ضمني أي لا يدخلون الجنة بحالٍ من الأحوال إلا إذا أمكن دخول الجمل في ثقب الإبرة ، وهو تمثيلٌ للاستحالة .

٤ ـ ﴿لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش﴾ قال صاحب البحر : هذه استعارة لما يحيط بهم من النار من كل جانب كقوله ﴿لهم من فوقهم ظُللٌ من النار ومن تحتهم ظُلَلٌ﴾[1] .

٥ ـ ﴿ما ظهر منها وما بطن﴾ بين « ظهر » و« بطن » طباقٌ وهو من المحسنات البديعية .

فــائــدة : يروى أن الرشيد كان له طبيبٌ نصراني حاذق فقال ذلك الطبيبُ لأحد العلماء : ليس في كتابكم من علم الطب شيء والعلمُ علمان : علم الأبدان وعلم الأديان فقال له العالم : قد جمع الله تعالى الطبَّ كله في نصف آية من كتابه قال وما هي ؟ قال قوله تعالى ﴿وكلوا واشربوا ولا تُسرفوا﴾فقال النصراني : ولا يُؤثر عن رسولكم شيء في الطب فقال العالم : قد جمع رسولنا الطب في ألفاظ يسيرة قال وما هي ؟ قال قوله (ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه بحسب ابن آدم لقيمات يُقمن صلبه) الحديث فقال النصراني : ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً[2] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم . . إلى . . وما كانوا مؤمنين﴾ من آية (٥٢) إلى نهاية آية (٧٢) .

المناسبة : لما ذكر تعالى حال الكفار الأشقياء وخسارتهم الفادحة في الآخرة ، ذكر هنا أنه لا حجة لأحد فقد أرسل الله الرسل وأنزل الكتب لهداية البشرية ،ثم ذكر قصص بعض الأنبياء فبدأ بنوح عليه السلام شيخ الأنبياء ثم أعقبه بذكر هودٍ عليه السلام وموقف المشركين من دعوة الرسل الكرام .

اللغــة : ﴿تأويله﴾ عاقبة أمره وما يئول إليه من آل يئول إذا صار إليه ﴿استوى﴾ الاستواء : العلوّ والاستقرار قال الجوهري : استوى على ظهر الدابة استقرّ ، واستوى إلى السماء قصد ، واستوى الشيءُ إذا اعتدل ﴿يغشي﴾ يغطّي ﴿حثيثاً﴾ سريعاً والحثُّ : الإعجال والسرعة ﴿تبارك﴾ تفاعل من البركة وهي الكثرة والاتساع قال الأزهري : تبارك أي تعالى وتعاظم وارتفع ﴿تضرعاً﴾ تذللاً واستكانة وهو إظهار الذل الذي في النفس مع الخشوع ﴿وخفية﴾ سراً ﴿بُشراً﴾مبشرة بالمطر ﴿أقلّت﴾ حملت ﴿نَكِداً﴾ العسِرِ القليل ﴿آلاء﴾ الآلاء النِّعَم واحدها « لَى » كمِعَى .

(١) البحر المحيط ٤/٢٩٨ . (٢) محاسن التأويل ٧/٢٦٦٤ .

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾

التفسير : ﴿ولقد جئناهم بكتاب﴾ أي ولقد جئنا أهل مكة بكتاب هو القرآن العظيم ﴿فصَّلناه على علم﴾ أي بينّا معانيه ووضحنا أحكامه على علم منا حتى جاء قيِّماً غير ذي عوج ﴿هدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ أي هداية ورحمة وسعادة لمن آمن به ﴿هل ينظرون إلا تأويله﴾ أي ما ينتظر أهل مكة إلا عاقبة ما وُعدوا به من العذاب والنكال قال قتادة : تأويله عاقبتُه ﴿يوم يأتي تأويله﴾ هو يوم القيامة ﴿يقول الذين نسوه من قبل﴾ أي يقول الذين ضيّعوا وتركوا العمل به في الدنيا ﴿قد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ أي جاءتنا الرسل بالأخبار الصادقة وتحقق لنا صدقهم فلم نؤمن بهم ولم نتبعهم قال الطبري : أقسم المساكين حين حلّ بهم العقاب أن رسل الله قد بلّغتهم الرسالة ونصحتْ لهم وصدَقَتْهم حين لا ينفعهم ولا ينجيهم من سخط الله كثرةُ القيل والقال[١] ﴿فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا﴾ أي هل لنا اليوم شفيع يخلصنا من هذا العذاب ؟ استفهام فيه معنى التمني ﴿أو نردُّ فنعمل غير الذي كنا نعمل﴾ أو هل لنا من عودة إلى الدنيا لنعمل صالحاً غير ما كنا نعمله من المعاصي وقبيح الأعمال ؟ قال تعالى ردّاً عليهم ﴿قد خسروا أنفسهم وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي خسروا أنفسهم حيث ابتاعوا الخسيس الفاني من الدنيا بالنفيس الباقي من الآخرة ، وبطل عنهم ما كانوا يزعمونه من شفاعة الآلهة والأصنام ، ثم ذكر تعالى دلائل القدرة والوحدانية فقال ﴿إنَّ ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام﴾ أي إن معبودكم وخالقكم الذي تعبدونه هو المنفرد بقدرة الإيجاد الذي خلق السموات والأرض في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا قال القرطبي : لو أراد لخلقها في لحظة ولكنه أراد أن يعلّم العبادَ التثبت في الأمور[٢] ﴿ثم استوى على العرش﴾ أي استواءً يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيلٍ ولا تحريف كما هو مذهب السلف وكما قال الإمام مالك رحمه الله : الاستواء معلوم ، والكَيْفُ مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤ ال عنه بدعة وقال الإمام أحمد رحمه الله : أخبارُ الصفات تُمرُّ كما جاءت بلا تشبيه ولا تعطيل فلا يقال : كيف ؟ ولِمَ ؟ نؤمن بأن الله على العرش كيف شاء ، وكما شاء بلا حدٍّ ولا صفةٍ يبلغها واصف أو يحدها حادٌّ ، نقرأ الآية والخبر ونؤمن بما فيهما ونكِلُ الكيفية في الصفات إلى علم الله عز وجل[٣] وقال القرطبي : لم ينكر أحدٌ من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقةً وإنما جهلوا كيفية الاستواء فإنه لا تُعلم حقيقته[٤] ﴿يُغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً﴾ أي يغطي الليل على النهار فيذهب بضوئه ويطلبه سريعاً حتى يدركه ﴿والشمسَ والقمرَ والنجومَ

(١) الطبري ١٢/ ٤٨٠ . (٢) القرطبي ٧/ ٢١٩ . (٣) محاسن التأويل ٧/ ٢٧٠٨ . (٤) القرطبي ٧/ ٢١٩ .

وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ

مسخرات بأمره﴾ أي الجميع تحت قهره ومشيئته وتسخيره **﴿ألا له الخلقُ والأمر﴾** أي له الملك والتصرف التام في الكائنات **﴿تبارك الله ربُّ العالمين﴾** أي تعظَّم وتمجَّد الخالق المبدع رب العالمين **﴿أدعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾** أي أدعو الله تذللاً وسراً بخشوع وخضوع **﴿إنه لا يحب المعتدين﴾** أي لا يحب المعتدين في الدعاء بالتشدق ورفع الصوت وفي الحديث (إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً) **﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾** أي لا تفسدوا في الأرض بالشرك والمعاصي بعد أن أصلحها الله ببعثة المرسلين **﴿وادعوه خوفاً وطمعاً﴾** أي خوفاً من عذابه وطمعاً في رحمته **﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾** أي رحمته تعالى قريبة من المطيعين الذين يمتثلون أوامره ويتركون زواجره **﴿وهو الذي يُرسل الرياح بُشراً بين يديْ رحمته﴾** أي يرسل الرياح مبشرة بالمطر **قال في البحر** : ومعنى بين يدي رحمته أي أمام نعمته وهو المطر الذي هو من أجلِّ النعم وأحسنها أثراً على الإنسان[1] **﴿حتى إذا أقلّت سحاباً ثقالاً﴾** أي حتى إذا حملت الرياح سحاباً مثقلاً بالماء **﴿سقناه لبلد ميت﴾** أي سقنا السحاب إلى أرض ميتة مجدبة لا نبات فيها **﴿فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات﴾** أي أنزلنا فى ذلك البلد الميت الماء فأخرجنا بذلك الماء من كل أنواع الثمرات **﴿كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكّرون﴾** أي مثل هذا الإخراج نُخرج الموتى من قبورهم لعلكم تعتبرون وتؤمنون **قال ابن كثير** : وهذا المعنى كثير في القرآن يضرب الله المثل ليوم القيامة بإحياء الأرض بعد موتها ولهذا قال لعلكم تذكّرون[2] **﴿والبلدُ الطيبُ يخرجُ نباتُه بإذن ربه﴾** أي الأرضُ الكريمةُ التربة يَخْرج النبات فيها وافياً حسناً غزير النفع بمشيئة الله وتيسيره، وهذا مثل للمؤمن يسمع الموعظة فينتفع بها **﴿والذي خبُث لا يخرج إلا نكِداً﴾** أي والأرض إذا كانت خبيثة التربة كالحرَّة أو السبخة[3] لا يخرج النبات فيها إلا بعسر ومشقة وقليلاً لا خير فيه، وهذا مثلٌ للكافر الذي لا ينتفع بالموعظة **قال ابن عباس**: هذا مثلٌ ضربه الله للمؤمن والكافر ، فالمؤمن طيّب وعمله طيب كالأرض الطيبة ثمرها طيب ، والكافر خبيثٌ وعملهُ خبيث كالأرض السبخة المالحة لا ينتفع بها[4] **﴿كذلك نصرِّف الآياتِ لقومٍ يشكرون﴾** أي كما ضربنا هذا المثل كذلك نبيِّن

(١) البحر المحيط ٤/ ٣١٧ . (٢) مختصر ابن كثير ٢/ ٢٧ . (٣) الحرَّة : الأرض ذات الحجارة السود ، والسبخة : الأرض ذات الملح .
(٤) الطبري ١٢/ ٤٩٧.

ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ * وَإِلَىٰ عَادٍ

وجوه الحجج ونكررها آية بعد آية ، وحجة بعد حجة لقوم يشكرون الله على نعمه ، وإنما خصّ الشاكرين بالذكر لأنهم المنتفعون بسماع القرآن قال الألوسي : أي مِثلَ هذا التصريف البديع نردِّد الآيات الدالة على القدرة الباهرة ونكررها لقومٍ يشكرون نعم الله تعالى ، وشكرُها بالتفكر والاعتبار بها[١] ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ اللام جواب قسمٍ محذوف أي والله لقد أرسلنا نوحاً، ونوحٌ شيخ الأنبياء لأنه أطولهم عمراً وهو أول نبيّ بعثه الله بعد إدريس ، ولم يلق نبيٌّ من الأذى مثل نوح[٢] ﴿فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ أي وحّدوا الله ولا تشركوا به فما لكم إلهٌ مستحقٌ للعبادة غيره ﴿إني أخاف عليكم عذاب يومٍ عظيم﴾ أي إن أشركتم به ولم تؤمنوا فأنا أخاف عليكم عذاب يومٍ عظيم هو يوم القيامة ﴿قال الملأُ من قومه إنا لنراك في ضلالٍ مبين﴾ أي قال الأشراف والسادة من قومه إنا لنراك يا نوح في ذهابٍ عن طريق الحق والصواب واضح جلي قال أبو حيان : ولم يجبه من قومه إلا أشرافُهم وسادتهم وهم الذين يتعاصون على الرسل لانغماس عقولهم بالدنيا وطلب الرياسة[٣]، وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة ﴿قال يا قوم ليس بي ضلالة[٤] ولكني رسولٌ من ربّ العالمين﴾ أي ما أنا بضال ولكنْ أنا مرسل إليكم من عند ربكم المالك لأموركم الناظر لكم بالمصلحة ﴿أُبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما تعلمون﴾ أي أنا أبلغكم ما أرسلني الله به إليكم وأقصد صلاحكم وخيركم وأعلم من الأمور الغيبية أشياء لا علم لكم بها قال ابن كثير : وهذا شأن الرسول أن يكون مبلغاً فصيحاً ناصحاً عالماً بالله لا يدركه أحد من خلق الله في هذه الصفات[٥] ﴿أوعجبتم أن جاءكم ذكرٌ من ربكم على رجلٍ منكم﴾ أي لا تعجبوا من هذا فإن هذا ليس بعجيب أن يوحي الله إلى رجل منكم رحمةً بكم ولطفاً وإحساناً إليكم ﴿ليُنْذركم ولتتقوا ولعلكم تُرحمون﴾ أي ليخوفكم هذا الرسول من العذاب إن لم تؤمنوا ولتتقوا ربكم وتنالكم الرحمة بتقواه ﴿فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفُلك﴾ أي كذبوا نوحاً مع طول مدة إقامته فيهم فأنجاه الله والمؤمنين معه في السفينة

---

(١) روح المعاني ٨/ ١٤٨ . (٢) انظر ترجمة نوح مفصلة في كتابنا « النبوة والأنبياء». (٣) البحر ٤/ ٣٢٠ . (٤) لم يأت التركيب لستُ في ضلال مبين بل جاء في غاية الحسن ﴿ليس بي ضلالة﴾ لنفي أن يلتبس أو يختلط به ضلالة ما، وهذا أبلغ من الانتفاء من الضلال إذ لم يتعلق به ولا ضلالة واحدة ، أفاده صاحب البحر . (٥) مختصر ابن كثير ٢/ ٢٨ .

أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ

﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا﴾ أي أهلكنا المكذبين منهم بالغرق ﴿إنهم كانوا قوماً عمين﴾ أي عميت قلوبهم عن الحق فهم لا يبصرونه ولا يهتدون له قال ابن عباس : عميتْ قلوبهم عن معرفة التوحيد والنبوة والمعاد[١] ﴿وإلى عادٍ أخاهم هوداً﴾ أي وأرسلنا إلى قوم عاد أخاهم هوداً وكانت مساكنهم بالأحقاف باليمن ﴿فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ أي قال لهم رسولهم وحّدوا الله فليس لكم إله غيره ﴿أفلا تتقون﴾ أي أفلا تخافون عذابه ؟ ﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه﴾أي قال السادة والقادة منهم ﴿إنا لنراك في سفاهةٍ وإنا لنظنُّك من الكاذبين﴾ أي نراك في خفة حلم وسخافة عقل وإننا لنظنك من الكاذبين في ادعائك الرسالة ﴿قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسولٌ من رب العالمين﴾ أي ليس بي كما تزعمون نقص في العقل ولكني مرسل إليكم بالهداية من رب العالمين ﴿أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين﴾ أي أبلغكم أوامر الله وأنا ناصح لكم فيما أدعوكم إليه ، أمينٌ على ما أقول لا أكذب فيه قال الزمخشري : وفي إجابة الأنبياء عليهم السلام ممَّنْ نسبهم إلى السفاهة والضلالة- بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم وترك المقابلة - أدبٌ حسنٌ وخُلُق عظيم، وتعليم للعباد كيف يخاطبون السفهاء ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم[٢] ﴿أوعجبتم أن جاءكم ذكرٌ من ربكم على رجلٍ منكم لينذركم﴾ أي لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولاً من أنفسكم لينذركم لقاء الله ويخوفكم عذابه ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾ اي اذكروا نعمة الله حين استخلفكم في الأرض بعد إهلاك قوم نوح ﴿وزادكم في الخلق بسطة﴾ أي زاد في أجسامكم قوةً وضخامة ﴿فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون﴾ أي اذكروا نعم الله عليكم كي تفلحوا وتفوزوا بالسعادة ﴿قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا﴾ أي أجئتنا ياهود تتوعدنا بالعذاب كي نعبد الله وحده ونهجر عبادة الآلهة والأصنام ونتبرأ منها ؟ ﴿فائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾ أي فأتنا بما تعدنا به من العذاب فلن نؤمن لك إن كنت من الصادقين في قولك ﴿قال قد وقع عليكم من ربكم رجس

(١) البحر ٤/٣٢٣ . (٢) الكشاف ٢/١١٦ .

وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

وغضب﴾ أي قد حلّ بكم عذاب وغضب من الله ﴿أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزّل الله بها من سلطان﴾ أي أتخاصمونني في أصنام لا تضر ولا تنفع ما أنزل الله بعبادتها من حجة أو برهان ﴿فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾ أي فانتظروا نزول العذاب إني من المنتظرين لما يحل بكم وهذا غاية الوعيد والتهديد ﴿فأنجيناه والذين معه برحمة منا﴾ أي أنجينا هوداً والذين معه من المؤمنين رحمة منا لهم ﴿وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا﴾ أي استأصلناهم بالكلية ودمرناهم عن آخرهم ﴿وما كانوا مؤمنين﴾ أي كذبوا ولم يؤمنوا فاستحقوا العذاب قال أبو السعود : أي أصروا على الكفر والتكذيب ولم يرعووا عن ذلك أبداً فأهلكهم الله بالريح العقيم[1] .

البَـلاَغَـة : ١ ـ ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ الآية على قلة ألفاظها جمعت معاني كثيرة استوعبت جميع الأشياء والشئون على وجه الاستقصاء حتى قال ابن عمر : من بقي له شيء فليطلبه وهذا الأسلوب البليغ يسمى « إيجاز قِصَر » ومداره على جمع الألفاظ القليلة للمعاني الكثيرة .

٢ ـ ﴿سقناه لبلدٍ ميّت﴾ وصفُ البلد بالموت استعارةٌ حسنة لجدبه وعدم نباته كأنه كالجسد الذي لا روح فيه من حيث عدم الانتفاع به .

٣ ـ ﴿كذلك نُخرج الموتى﴾ أي مثل إخراج النبات من الأرض نخرج الموتى من قبورهم فهو تشبيه « مرسل مجمل » ذكرت الأداة ولم يذكر وجه الشبه .

٤ ـ ﴿وقطعنا دابر﴾ قطع الدابر كنايةٌ لطيفةٌ عن استئصالهم جميعاً بالهلاك .

تَـنْبيـه : ذكر العلامة الألوسي عند قوله تعالى ﴿أُدعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾ عن الحسن البصري أنه قال : لقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم وذلك أنه تعالى يقول ﴿أُدعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾ وأنه سبحانه ذكر عبداً صالحاً فقال ﴿إذ نادى ربه نداء خفياً﴾ ثم قال : وذكروا للدعاء آداباً كثيرة منها : أن يكون على طهارة ، وأن يستقبل القبلة ، وتخلية القلب من الشواغل ، وافتتاحه واختتامه بالصلاة على النبيﷺ ورفع اليدين نحو السماء ، وإشراك المؤمنين فيه ، وتحري ساعات الإجابة كثلث الليل الأخير ، ووقت إفطار الصائم ، ويوم الجمعة وغير ذلك[2] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً . . إلى . . فكيف آسى على قوم كافرين﴾

من آية (٧٣) إلى نهاية آية (٩٣)

(١) أبو السعود ٢/ ١٧٤ . (٢) روح المعاني ٨/ ١٣٩ .

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾

المناسبة : لما ذكر تعالى في أول السورة قصة آدم ، وما اتصل بها من آثار قدرته ، وغرائب صنعته ، الدالة على توحيده وربوبيته ، وأقام الحجة الدامغة على صحة البعث بعد الموت ، أتبع ذلك بقصص الأنبياء وما جرى لهم مع أممهم ، فذكر نوحاً وهوداً وأعقبه هنا بذكر قصة صالح وشعيب ، وموقف المعاندين للرسل الكرام .

اللغة : ﴿ناقة﴾ الناقة : الأنثى من الجمال ، وعقر الناقة ضرب قوائمها بالسيف ﴿عتوا﴾ استكبروا عتا عتواً أي استكبر والليلُ العاتي : الشديد الظلمة ﴿جاثمين﴾ لاصقين بالأرض على ركبهم ووجوههم كما يجثم الطائر ﴿الرجفة﴾ الطامة التي يرجف لها الإنسان أي يتزعزع ويضطرب وأصل الرجف الاضطراب رجفت الأرض اضطربت ﴿الغابرين﴾ الباقين في عذاب الله ، والغابر بمعنى الباقي ويجيء بمعنى الماضي والذاهب ومنه قول الأعشى : في الزمن الغابر فهو من الأضداد كما في الصحاح ﴿يغْنوا﴾ يقيموا يقال غَنَى بالمكان إذا أقام به دهراً طويلاً ﴿عفَوا﴾ كثروا ونموا من عفا النبات إذا كثر .

التفسير : ﴿**وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره**﴾ أي وحّدوا الله ولا تشركوا به ﴿**قد جاءتكم آيةٌ من ربكم**﴾ أي معجزة ظاهرة جلية تدل على صحة نبوتي ﴿**هذه ناقة الله لكم آية**﴾ هذا بيانٌ للمعجزة أي هذه الناقة معجزتي إليكم وإضافتها إلى الله للتشريف والتعظيم لأنها خلقت بغير واسطة قال القرطبي: أخرج لهم الناقة حين سألوه من حجر صلد[1] ﴿**فذروها تأكل في أرض الله**﴾ أي اتركوها تأكل من رزق ربها ﴿**ولا تمسوها بسوءٍ فيأخذكم عذاب أليم**﴾ أي لا تتعرضوا لها بشيءٍ من السوء أصلاً إكراماً لها لأنها آية الله ،والعذاب الأليم هو ما حلَّ بهم حين عقروها﴿**واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد**﴾ أي خلفاء في الأرض قال الشهاب : لم يقل خلفاء عاد إشارة إلى أن بينهما زماناً طويلاً ﴿**وبوّأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً**﴾ أي أسكنكم في أرض الحِجْر تبنون في سهولها قصوراً رفيعة ﴿**وتنحتون الجبال بيوتاً**﴾ أي تنحتون الجبال لسكناكم قال القرطبي : اتخذوا البيوت في الجبال لطول أعمارهم فإن الأبنية كانت تبلى قبل فناء أعمارهم[2] ﴿**فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين**﴾ أي اذكروا نعم الله عليكم واشكروه على ما تفضل به ولا تعيثوا في الأرض فساداً ﴿**قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين**

---

(١) القرطبي ٧/ ٢٣٨ . (٢) القرطبي ٧/ ٢٣٩ .

لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ

استضعفوا لمن آمن منهم﴾ أي قال الأشراف المستكبرون من قوم صالح للمؤمنين المستضعفين من أتباع صالح عليه السلام ﴿أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه﴾ أي أن الله أرسله إلينا وإليكم ، وهذا قالوه على سبيل السخرية والاستهزاء ﴿قالوا إنّا بما أُرسل به مؤمنون﴾ أي أجابوهم بالأسلوب الحكيم بالإيمان برسالته قال أبو حيان : وعدولهم عن قولهم هو مرسل إلى قولهم ﴿إنّا بما أُرسل به مؤمنون﴾ في غاية الحسن إذْ أمر رسالته معلوم واضح مسلَّم لا يدخله ريب لما أتى به من هذا المعجز الخارق العظيم فلا يحتاج أن يسأل عن رسالته[1] ﴿قال الذين استكبروا إنّا بالذي آمنتم به كافرون﴾ أي قال المستكبرون نحن كافرون بما صدَّقتم به من نبوة صالح وإنما لم يقولوا إنا بما أرسل به كافرون إظهاراً لمخالفتهم إياهم ورداً لمقالتهم ﴿فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم﴾ أي نحروا الناقةواستكبروا عن امتثال أمر الله ﴿وقالوا يا صالح أئتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين﴾ أي جئنا يا صالح بما تعدنا من العذاب الذي تخوفنا به إن كنت يا صالح حقاً رسولاً ،قالوا ذلك استهزاء به وتعجيزاً﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ أخذتهم الزلزلة الشديدة فصاروا في منازلهم هامدين موتى لا حِراك بهم قال في البحر : أخذتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوتُ كل شيء له صوتٌ في الأرض فقطعت قلوبهم وهلكوا[2] ﴿فتولَّى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالةربي ونصحتُ لكم ولكنْ لا تحبون الناصحين﴾ أي أدبر عنهم صالح بعد هلاكهم ومشاهدة ما جرى عليهم وقال على سبيل التفجع والتحسر عليهم : لقد بلّغتكم الرسالة وحذرتكم عذاب الله وبذلت وسعي في نصيحتكم ولكن شأنكم الاستمرار على بغض الناصحين وعداوتهم قال الزمخشري ﴿ولكنْ لا تحبون الناصحين﴾ حكاية حال ماضية قد يقول الرجل لصاحبه وهو ميت ـ وكان قد نصحه حياً فلم يسمع منه حتى ألقى بنفسه في التهلكة ـ : يا أخي كم نصحتك وكم قلت لك فلم تقبل مني[3] ؟ ﴿ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحدٍ من العالمين﴾ أي واذكر وقت أن قال لوط لقومه أهل سدوم على سبيل الإنكار والتوبيخ : أتفعلون تلك الفعلة الشنيعة المتناهية في القبح التي ما عملها أحد قبلكم في زمنٍ من الأزمان ! والفاحشة هي إتيان الذكور في الأدبار ، أنكر عليهم أولاً فعلها ثم

(١) البحر ٤/ ٣٣٠ . (٢) البحر ٤/ ٣٣١. (٣) الكشاف ٢/ ١٢٤.

جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ

وبخهم بأنهم أول من فعلها قال أبو حيان : ولما كان هذا الفعل معهوداً قبحه ، ومركوزاً في العقول فحشه أتى به معرفاً بالألف واللام ﴿**الفاحشة**﴾ بخلاف الزنى فإنه قال فيه ﴿**إنه كان فاحشة**﴾ فأتى به منكراً ، والجملة المنفية ﴿**ما سبقكم**﴾ تدل على أنهم أول من فعل هذه الفعلة القبيحة وأنهم مبتكروها ، والمبالغة في ﴿**من أحد**﴾ حيث زيدت مِنْ لتأكيد نفي الجنس ، وفي الإتيان بعموم ﴿**العالمين**﴾ جمعاً قال عمرو بن دينار : ما رؤي ذكرٌ على ذكر قبل قوم لوط[١] ﴿**إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء**﴾ هذا بيانٌ للفاحشة وهو توبيخٌ آخر أشنع مما سبق لتأكيده بإنَّ وباللام أي إنكم أيها القوم لتأتون الرجال في أدبارهم شهوة منكم لذلك الفعل الخبيث المكروه دون ما أحله الله لكم من النساء ثم أضرب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التي توجب ارتكاب القبائح واتباع الشهوات فقال ﴿**بل أنتم قوم مسرفون**﴾ أي لا عذر لكم بل أنتم عادتكم الإسراف وتجاوز الحدود في كل شيء قال أبو السعود : وفي التقييد بقوله ﴿**شهوة**﴾ وصفٌ لهم بالبهيمية الصِّرفة وتنبيهٌ على أن العاقل ينبغي أن يكون الداعي له إلى المباشرة طلب الولد وبقاء النسل لا قضاء الشهوة[٢] ﴿**وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون**﴾ أي ما كان جوابهم للوطٍ إذ وبخهم على فعلهم القبيح إلا أن قال بعضهم لبعض : أخرجوا لوطاً وأتباعه المؤمنين من بلدتكم لأنهم أناس يتنزهون عما نفعله نحن من إتيان الرجال في الأدبار ، قال ابن عباس ومجاهد : ﴿**إنهم أناسٌ يتطهرون**﴾ أي يتقذرون عن إتيان أدبار الرجال والنساء ، قالوا ذلك سخرية واستهزاءً بلوط وقومه وعابوهم بما يمدح به الإنسان ﴿**فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين**﴾ أي أنجيناه من العذاب الذي حلّ بقومه وأهله المؤمنين إلا امرأته فلم تنج وكانت من الباقين في ديارهم الهالكين قال الطبري : أي أنجينا لوطاً وأهله المؤمنين به إلا امرأته فإنها كانت للوطٍ خائنة وبالله كافرة فهلكت مع من هلك من قوم لوط حين جاءهم العذاب[٣] ﴿**وأمطرنا عليهم مطراً**﴾ أي أرسلنا عليهم نوعاً من المطر عجيباً هو حجارة من سجيل كما في الآية الأخرى ﴿**وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل**﴾ وشبه العذاب بالمطر المدرار لكثرته حيث أرسل إرسال المطر ﴿**فانظر كيف كان عاقبة المجرمين**﴾ أي انظر أيها السامع إلى عاقبة هؤلاء المجرمين كيف كانت ؟ وإلى أي شيءٍ صارت ؟ هل كانت إلا البوار والهلاك ؟! ﴿**وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيرُه**﴾ أي وأرسلنا إلى أهل مدين شعيباً داعياً لهم إلى توحيد الله وعبادته قال ابن كثير : ومدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة وهي التي بقرب « معان » من طريق الحجاز

---

(١) البحر ٤/ ٣٣٣ . (٢) أبو السعود ٢/ ١٧٨ . (٣) الطبري ١٢/ ٥٥١ .

وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ * قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾

وهم أصحاب الأيكة كما سنذكره[١] **﴿قد جاءتكم بينةٌ من وبكم﴾** أي معجزة تدل على صدقي **﴿فأوفوا الكيل والميزان﴾** أي أتموا للناس حقوقهم بالكيل الذي تكيلون به والوزن الذي تزنون به **﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾** أي لا تظلموا الناس حقوقهم ولا تُنْقصوهم إياها **﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾** أي لا تعملوا بالمعاصي بعد إصلاحها ببعثة الرسل **﴿ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾** أي ما أمرتكم به من إخلاص العبادة لله وإيفاء الناس حقوقهم وترك الفساد في الأرض خير لكم إن كنتم مصدقين لي في قولي **﴿ولا تقعدوا بكل صراطٍ تُوعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به﴾** أي لا تجلسوا بكل طريق تخوّفون من آمن بالقتل قال ابن عباس : كانوا يقعدون على الطرقات المفضية إلى شعيب فيتوعدون من أراد المجيء إليه ويصدونه ويقولون: إنه كذاب فلا تذهب إليه على نحو ما كانت تفعله قريش مع رسول الله ﷺ[٢] **﴿وتبغونها عوجاً﴾** أي تريدون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة بمعنى تصويرهم أن دين الله غير مستقيم كما يقول الضالون في هذا الزمان :«هذا الدين لا ينطبق مع العقل » لأنه لا يتمشى مع أهوائهم الفاجرة **﴿واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثّركم﴾** أي كنتم قلة مستضعفين فأصبحتم كثرة أعزة فاشكروا الله على نعمته **﴿وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾** هذا تهديدلهم أي انظروا ما حلّ بالأمم السابقة حين عصوا الرسل كيف انتقم الله منهم واعتبروا بهم **﴿وإن كان طائفةٌ منكم آمنوا بالذي أُرسلت به وطائفةٌ لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين﴾** أي إذا كان فريق صدقوني فيما جئتهم به وفريق لم يصدقوني فاصبروا حتى يفصل الله بحكمه العادل بيننا وهو خير الفاصلين قال أبو حيان : هذا الكلام من أحسن ما تلطّف به في المحاورة إذ برز المتحقق في صورة المشكوك وهو من بارع التقسيم فيكون وعداً للمؤمنين بالنصر ووعيداً للكافرين بالعقوبة والخسار[٣] **﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه﴾** أي قال أشراف قومه المستكبرين عن الايمان بالله ورسله **﴿لنخرجنك يا شعيبُ والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودنَّ في ملتنا﴾** أقسموا على أحد الأمرين :إما إخراج شعيب وأتباعه وإما العودة إلى ملتهم أي إلى الكفر والمعنى لنخرجنك يا شعيب ومن آمن بك من بين أظهرنا أو لترجعن أنت وهم إلى ديننا قال شعيب مجيباً لهم **﴿أو لو كنا**

(١) مختصر ابن كثير ٢/٥٣. (٢) البحر ٤/ ٣٣٨. (٣) البحر ٤/ ٣٤٠.

قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾

كارهين﴾ أي أتجبروننا على الخروج من الوطن أو العودة في ملتكم ولو كنّا كارهين لذلك ؟ والاستفهام للإنكار ﴿ **قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها**﴾ أي إن عدنا إلى دينكم بعد أن أنقذنا الله منه بالإيمان وبصّرنا بالهدى نكون مختلقين على الله أعظم أنواع الكذب ، وهذا تيئيسٌ للكفار من العودة إلى دينهم ﴿**وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا**﴾ أي لا ينبغي ولا يصح لنا أن نعود إلى ملتكم ودينكم إلا إذا شاء الله لنا الانتكاس والخذلان فيمضي فينا قضاؤه ﴿**وسع ربنا كل شيء علماً**﴾ أي وسع علمه كل الأشياء ﴿**على الله توكلنا**﴾ أي اعتمادنا على الله وهو الكافي لمن توكل عليه ﴿**ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين**﴾ أي احكم بيننا وبينهم بحكمك الحق الذي لا جور فيه ولا ظلم وأنت خير الحاكمين ﴿**وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون**﴾ أي قال الأشراف من قومه الفجرة الكفرة : إذا اتبعتم شعيباً وأجبتموه إلى ما يدعوكم إليه إنكم إذاً لخاسرون لاستبدالكم الضلالة بالهدى قال تعالى ﴿**فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين**﴾ أي فأخذتهم الزلزلة العظيمة فأصبحوا ميّتين جاثمين على الركب ﴿**الذين كذبوا شعيباً كأن لم يَغنوا فيها**﴾ أي أهلك الله المكذبين كأنهم لم يقيموا في ديارهم منعَّمين ﴿ **الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين**﴾ إخبارٌ عنهم بالخسار بعد الهلاك والدمار ﴿**فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم**﴾ قاله تأسفاً لشدة حزنه عليهم لأنهم لم يتبعوا نصحه ﴿**فكيف آسى على قوم كافرين** ﴾ أي كيف أحزن على من لا يستحق أن يُحزن عليه قال الطبري : أي كيف أحزن على قوم جحدوا وحدانية الله وكذبوا رسوله وأتوجع لهلاكهم[١] ؟

البـلاغـة : ١ ـ ﴿هذه ناقة الله﴾ الإضافة للتشريف والتكريم .

٢ ـ ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ التنكير للتقليل والتحقير أي لا تمسوها بأدنى سوء .

---

(١) الطبري ١٢/ ٥٧١

٣ ـ ﴿أتأتون الفاحشة﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتشنيع .

٤ ـ ﴿إنهم أناس يتطهرون﴾ يسمى هذا النوع في علم البديع التعريض بما يوهم الذم ولذلك قال ابن عباس : عابوهم بما يُمدح به .

٥ ـ ﴿على الله توكلنا﴾ إظهار الاسم الجليل للمبالغة في التضرع وتقديم الجار والمجرور لإفادة الحصر .

٦ ـ بين لفظ ﴿مؤمنون﴾ و ﴿كافرون﴾ طباقٌ .

فَـائِـدَة : الذي عقر الناقة هو « قُدار بن سالف » وإنما نسب الفعل إليهم جميعاً في قوله تعالى ﴿فعقروا الناقة﴾ لأنه كان برضاهم وأمرهم ، والراضي بالعمل القبيح شريك في الجريمة .

قال الله تعالى : ﴿ومـا أرسلنا في قرية من نبي . . إلى . . فينظر كيف تعملون﴾
من آية (٩٤) إلى نهاية آية (١٢٩)

المَنَاسَبَة : لما ذكر تعالى قصص الأنبياء (نوح ، هود ، صالح ، لوط ، شعيب) ومـا حلّ بأقوامهم من العذاب والنكال حين لم تُجْدِ فيهم الموعظة ، ذكر تعالى هنا سنته الإلهية في الانتقام ممن كذّب أنبياءه وذلك بالتدرج معهم بالبأساء والضراء ، ثم بالنعمة والرخاء ، ثم بالبطش بهم إن لم يؤمنوا ثم أعقب ذلك بقصة موسى مع الطاغية فرعون وفيها كثير من العبر والعظات .

اللغَـة : ﴿البأساء﴾ شدة الفقر ﴿الضراء﴾ الضرُّ والمرض ﴿عَفَوْا﴾ كثروا ونموا ﴿بغتة﴾ فجأة ﴿ملَائه﴾ أشراف قومه ﴿أرْجِهْ﴾ أخِّرْ ﴿صاغرين﴾ أذلاء ﴿تلقف﴾ تبتلع وتلتقم ﴿يأفكون﴾ الإفك : الكذب ﴿أفرغْ﴾ الإفراغ : الصبُّ أي اصببه علينا .

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾

التَّفسِير : ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي﴾ في الكلام حذفٌ أي وما أرسلنا في قرية من نبي فكذبه أهلها ﴿إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء﴾ أي عاقبناهم بالبؤس والفقر ، والمرض وسوء الحال ﴿لعلهم يضرَّعون﴾ أي كي يتضرعوا ويخضعوا ويتوبوا من ذنوبهم ﴿ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة﴾ أي ثم أبدلناهـم بالفقر والمرض، الغنى والصحة ﴿حتى عفَوْا﴾ أي حتى كثروا ونموا ﴿وقالـوا قد مسَّ آباءنـا الضرّاء والسرّاء﴾ أي أبطرتهم النعمة وأشروا فقالوا كفراناً لها : هذه عادة الدهر وقد مسّ آباءنا مثل ذلك من المصائب ومن الرخاء وليست بعقوبة من الله فلنبق على ديننا ، والغرضُ أن الله ابتلاهم بالسيئة لينيبوا إليه فما فعلوا ، ثم بالحسنة ليشكروا فما فعلوا ، فلم يبق إلا أن يأخذهم بالعذاب ولهذا قال تعالى ﴿فأخذناهم بغتةً وهم لا

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟

يشعرون﴾ أي أخذناهم بالهلاك والعذاب فجأةً من حيث لا يدرون ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا﴾ أي ولو أن أهل تلك القرى الذين كَذَّبوا وأُهلكوا آمنوا بالله ورسله واتقوا الكفر والمعاصي ﴿لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء والأرض﴾ أي لوسّعنا عليهم الخير من كل جانب وقيل : بركاتُ السماء المطرُ ، وبركات الأرض الثمارُ ، قال السدي : فتحنا عليهم أبواب السماء والأرض بالرزق[١] ﴿ولكنْ كذّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾ أي ولكنْ كذّبوا الرسل فعاقبناهم بالهلاك بسوء كسبهم ﴿أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون﴾ الهمزة للإنكار أي هل أمن هؤلاء المكذبون أن يأتيهم عذابنا ليلاً وهم نائمون غافلون عنه ؟ ﴿أوَأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحىً وهم يلعبون ﴾؟ أم هل أمنوا أن يأتيهم عذابنا ونكالنا نهاراً جهاراً وهم يلهون ويشتغلون بما لا يُجدي كأنهم يلعبون ؟ ﴿أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾ أي أفأمنوا استدراجه إياهم بالنعمة حتى يهلكوا في غفلتهم ؟ فإنه لا يأمن ذلك إلا القوم الذين خسروا عقولهم وإنسانيتهم فصاروا أخسَّ من البهائم قال الحسن البصري : المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفقٌ خائفٌ وجلٌ ، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو مطمئن آمن[٢] ﴿أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها﴾ أي أولم يتضح ويتبيّن للذين يخلفون الأرض بعد هلاك أهلها الذين كانوا يعمرونها قبلهم ، والمراد بها كفار مكة ومن حولهم ﴿أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم﴾ أي لو أردنا لأهلكناهم بسبب ذنوبهم كما أهلكنا من قبلهم قال في البحر : أي قد علمتم ما حلّ بهم أفما تحذرون أن يحل بكم ما حلّ بهم فذلك ليس بممتنع علينا لو شئنا[٣] ﴿ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون﴾ أي ونختم على قلوبهم فلا يقبلون موعظةً ولا تذكيراً سماع منتفع بها ﴿تلك القرى نقص عليك من أنبائها﴾ أي تلك القرى المذكورة نقصُّ عليك يا محمد بعض أخبارها وما حصل لأهلها من الخسف والرجفة والرجم بالحجارة ليعتبر بذلك من يسمع وما حدثأهولُ وأفظع ﴿ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ أي جاءتهم بالمعجزات والحجج القاطعات ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل﴾ أي ما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل لتكذيبهم إياهم قبل مجيئهم بالمعجزات وبعد مجيئهم بها فحالهم واحد في العتو والضلال قال الزمخشري : أي استمروا على التكذيب من لدنْ مجيء

(١) البحر ٤/٣٤٨ . (٢) ابن كثير ٢/٣٨ المختصر . (٣) البحر ٤/ ٣٥٠ .

لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا

الرسل إليهم إلى أن ماتوا مصرّين لا يرعوون مع تكرر المواعظ عليهم وتتابع الآيات[1] **﴿كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين﴾** أي مثل ذلك الطبع الشديد المحكم نطبع على قلوب الكافرين فلا يكاد يؤثر فيهم النُّذر والآيات ، وفيه تحذير للسامعين **﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين﴾** أي ما وجدنا لأكثر الناس من وفاء للعهد بل وجدناهم خارجين عن الطاعة والامتثال قال ابن كثير: والعهد الذي أخذه هو ما فطرهم عليه وأخذه عليهم في الأصلاب أنه ربهم ومليكهم فخالفوه وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة من عقل ولا شرع[2] **﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا﴾** أي ثم بعثنا من بعد الرسل المتقدم ذكرهم موسى بن عمران بالمعجزات الباهرات والحجج الساطعات **﴿إلى فرعون وملائه﴾** أي أرسلناه إلى فرعون ـ ملك مصر في زمن موسى ـ وقومه **﴿فظلموا بها﴾** أي كفروا وجحدوا بها ظلماً وعناداً **﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾** أي انظر أيها السامع ما آل إليه أمر المفسدين الظالمين كيف أغرقناهم عن آخرهم بمرأى من موسى وقومه ، وهذا أبلغُ في النكال لأعداء الله ، وأشفى لقلوب أولياء الله **﴿وقال موسى يا فرعون إني رسولٌ من ربِّ العالمين﴾** أي إني رسولٌ إليك من الخالق العظيم رب كل شيء وخالقه ومليكه **﴿حقيقٌ على أن لا أقول على الله إلا الحق﴾** أي جديرٌ بي وحقٌ عليَّ أن لا أخبر عن الله إلا بما هو حقٌ وصدق لما أعلم من جلاله وعظيم شأنه **﴿قد جئتكم بآيةٍ من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل﴾** أي جئتكم بحجة قاطعة من الله تشهد على صدقي فخلِّ واترك سبيل بني إسرائيل حتى يذهبوا معي إلى الأرض المقدسة التي هي وطنُ آبائهم[3] قال أبو حيان : ولما كان فرعون قد ادعى الربوبية فاتحه موسى بقوله **﴿إني رسولٌ من رب العالمين﴾** لينبهه على الوصف الذي ادعاه وأنه فيه مبطلٌ لا محقٌ ، ولما كان قوله **﴿حقيقٌ على أن لا أقول على الله إلا الحق﴾** أردفها بما يدل على صحتها وهو قوله **﴿قد جئتكم بآية من ربكم﴾** ولما قرّر رسالته فرَّع عليها تبليغ الحكم وهو قوله **﴿فأرسلْ معي بني إسرائيل﴾**[4] **﴿قال إن كنتَ جئتَ بآيةٍ فأت بها إن كنت من الصادقين﴾** أي

---

(١) الكشاف ٢/ ١٣٥. (٢) مختصر ابن كثير ٢/ ٣٩

(٣) قال المفسرون : كان سبب سكنى بني اسرائيل بمصر مع أن أباهم كان بالأرض المقدسة أن الأسباط ـ أولاد يعقوب ـ جاءوا مصر إلى أخيهم يوسف فمكثوا وتناسلوا في مصر فلما ظهر فرعون استعبدهم واستعملهم في الأعمال الشاقة فأحبَّ موسى أن يخلصهم من هذا الأسر ويذهب بهم إلى الأرض المقدسة وطن آبائهم . (٤) البحر ٤/ ٣٥٥ .

هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو

قال فرعون لموسى : إن كنت جئت بآية من ربك كما تدّعي فأحضرها عندي ليثبت بها صدقك في دعواك ، قال ذلك على سبيل التعجيز لموسى ﴿**فألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبين**﴾ أي فإذا بها حية ضخمة طويلة قال ابن عباس : تحولت إلى حية عظيمة فاغرة فاها مسرعةً نحو فرعون و ﴿مبين﴾ أي ظاهر لا متخيَّل ﴿**ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين**﴾ أي أخرجها من جيبه فإذا هي بيضاء بياضاً نورانياً عجيباً يغلب نورها نور الشمس قال ابن عباس : كان ليده نور ساطع يضيء ما بين السماء والأرض ﴿**قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم**﴾ أي قال الأشراف منهم وهم أصحاب مشورته إن هذا عالمٌ بالسحر ماهرٌ فيه ، وقولهم ﴿عليم﴾ أي بالغُ الغاية في علم السحر وخدعه وفنونه ﴿**يريد أن يُخرجكم من أرضكم**﴾ أي يخرجكم من أرض مصر بسحره ﴿**فماذا تأمرون**﴾ أي بأي شيء تأمرون أن نفعل في أمره ؟ وبأي شيء تشيرون فيه ؟ قال القرطبي : قال فرعون : فماذا تأمرون وقيل : هو من قول الملأ أي قالوا لفرعون وحده ﴿**فماذا تأمرون**﴾ كما يُخاطب الجبارون والرؤساء :ما ترون في كذا[1] ،﴿**قالوا أرجهْ وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين**﴾أي أخِّر أمرهما حتى ترى رأيك فيهما وأرسلْ في أنحاء البلاد من يجمع لك السحرة ﴿**يأتوك بكل ساحرٍ عليم**﴾ أي يأتوك بكل ساحرٍ مثله ماهر في السحر ، وكان رؤساء السحرة بأقصى صعيد مصر ﴿**وجاء السحرة فرعون قالوا إنَّ لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين**﴾ في الكلام محذوفٌ يدل عليه السياق وهو أنه بعث إلى السحرة وطلب أن يُجمعوا له فلما جاءوا فرعون قالوا : إنَّ لنا لأجراً عظيماً إن نحن غلبنا موسى وهزمناه وأبطلنا سحره ؟ ﴿**قال نعم وإنكم لمن المقربين**﴾ أي قال فرعون : نعم لكم الأجر وأزيدكم على ذلك بأن أجعلكم من المقربين أي من أعزّ خاصتي وأهل مشورتي قال القرطبي : زادهم على ما طلبوا ﴿**قالوا يا موسى إمّا أن تُلقي وإماً أن نكون نحن الملقين**﴾ أي قال السحرة لموسى : اختر إمّا أن تُلقي عصاك أو نلقي نحن عصيّنا قال الزمخشري : تخييرهم إيّاه أدبٌ حسن كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا كالمتناظرين قبل أن يخوضوا في الجدال[2] هذا ما قاله الزمخشري ،والأظهر أنهم قالوا ذلك من باب الاعتزاز بالنفس وتوهم الغلبة وعدم الاكتراث بأمر موسى كما يقول المعتد بنفسه : أبدأ أو تبدأ ﴿**قال ألقوا فلما ألقوْا سحروا أعين الناس**﴾ أي قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فلما ألقو العصيّ والحبال سحروا أعين الناس أي خيلوا إليهم ما لا حقيقة له كما قال تعالى ﴿يُخيل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾ ﴿**واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم**﴾ أي أفزعوهم

---

(١) القرطبي ٧/ ٢٥٧ . (٢) الكشاف ٢/ ١٤٠ .

بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ * وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا

وأرهبوهم إرهاباً شديداً حيث خيلوها حيات تسعى وجاءوا بسحر عظيم يهابه من رآه قال ابن اسحق : صُفَّ خمسة عشر ألف ساحر مع كل ساحر حبالُه وعصيُّه وفرعون في مجلسه مع أشراف مملكته فكان أول ما اختطفوا بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون، ثم أبصار الناس بعد ثم ألقى رجل منهم ما في يده من العصيّ والحبال فإذا هي حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضاً[1] ﴿وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاكَ فإذا هي تلقف ما يأفكون﴾ أي أوحينا إليه بأن ألق عصاك فألقاها فإذا هي تبتلع بسرعة ما يزوّرونه من الكذب قال ابن عباس : ﴿تلقف ما يأفكون﴾ لا تمر بشيء من حبالهم وخشبهم التي ألقوها إلا التقمته ﴿فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون﴾ أي ثبت وظهر الحق لمن شهده وحضره ، وبطل إفك السحر وكذبه ومخايله ﴿فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين﴾ أي غُلب فرعونُ وقومهُ في ذلك المجمع العظيم وصاروا ذليلين ﴿وألقي السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين ربِّ موسى وهرون﴾ أي خرّوا ساجدين معلنين إيمانهم بربّ العالمين لأن الحق بهرهم قال قتادة : كانوا أول النهار كفاراً سحرة وفي آخره شهداء بررة[2] ﴿قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم﴾ أي قال فرعون الجبار للسحرة آمنتم بموسى قبل أن تستأذنوني ؟ والمقصود بالجملة التوبيخ ﴿إن هـذا لمكرٌ مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها﴾ أي صنيعكم هذا حيلةٌ احتلتموها أنتم وموسى في مصر قبل أن تخرجوا إلى الميعاد لتخرجوا منها القبط وتسكنوا بني اسرائيل ، قال هذا تمويهاً على الناس لئلا يتبعوا السحرة في الإيمان ﴿فسوف تعلمون﴾ أي فسوف تعلمون ما يحلُّ بكم ، وهذا وعيد وتهديد ساقه بطريق الإجمال للتهويل ثم عقبه بالتفصيل فقال ﴿لأُقَطعنَّ أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾ أي لأقطعنَّ من كل واحد منكم يده ورجله من خلاف قال الطبري : ومعنى ﴿من خلاف﴾ هو أن يقطع من أحدهم يده اليمنى ورجله اليسرى ، أو يقطع يده اليسرى ورجله اليمنى فيخالف بين العضوين في القطع[3] ﴿ثم لأُصلبنّكم أجمعين﴾ أي ثم أصلبكم جميعاً تنكيلاً لكم ولأمثالكم ، والصلب التعليق على الخشب حتى الموت ﴿قالوا إنا إلى ربنا منقلبون﴾ إنّا راجعون إلى الله بالموت لا محالة فلا نخاف مما تتوعدنا به ولا نبالي بالموت وحبذا الموت في سبيل الله ﴿وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا﴾ أي ما تكره منا ولا تعيب

(١) الطبري ١٣/ ٢٨ . (٢) البحر المحيط ٤/ ٣٦٤ . (١) الطبري ١٣/ ٣٤ .

أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

علينا إلا إيماننا بالله وآياته !! كقوله ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤ منوا بالله العزيز الحميد﴾ قال الزمخشري : أرادوا وما تعيب منا إلا ما هو أصل المناقب والمفاخر كلها وهو الإيمان[1] ﴿ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين﴾ أي أفضْ علينا صبراً يغمرنا عند تعذيب فرعون إيانا وتوفنا على ملة الإسلام غير مفتونين **﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويَذَرك وآلهتك﴾** أي قال الأشراف لفرعون : أتترك موسى وجماعته ليفسدوا في الأرض بالخروج عن دينك وترك عبادة آلهتك !! وفي هذا إغراءٌ لفرعون بموسى وقومه وتحريضٌ له على قتلهم وتعذيبهم **﴿قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنّا فوقهم قاهرون﴾** أي قال فرعون مجيباً لهم : سنقتل أبناءهم الذكور ونستبقي نساءهم للاستخدام كما كنا نفعل بهم ذلك وإنّا عالون فوقهم بالقهر والسلطان **﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا﴾** أي قال موسى لقومه تسليةً لهم حين تضجروا مما سمعوا : استعينوا بالله على فرعون وقومه فيما ينالكم من أذاهم واصبروا على حكم الله **﴿إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده﴾** أي الأرض كلها لله يعطيها من أراد من عباده ، أطمعهم في أن يورثهم الله أرض مصر **﴿والعاقبة للمتقين﴾** أي النتيجة المحمودة لمن اتقى الله **﴿قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا﴾** أي أوذينا من قبل أن تأتينا بالرسالة ومن بعدما جئتنا بها يعنون أن المحنة لم تفارقهم فهم في العذاب والبلاء قبل بعثة موسى وبعد بعثته **﴿قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾** أي لعل ربكم أن يهلك فرعون وقومه ويجعلكم تخلفونهم في أرضهم بعد هلاكهم وينظر كيف تعملون بعد استخلافكم من الإصلاح والإفساد ، والغرضُ تحريضهم على طاعة الله ، وقد حقق الله رجاء موسى فأغرق فرعون وملّك بني إسرائيل أرض مصر قال في البحر : سلك موسى طريق الأدب مع الله وساق الكلام مساق الرجاء[2] .

البَــلاَغَــة :

١ - ﴿بدلنا مكان السيئة الحسنة﴾ بين لفظ الحسنة والسيئة طباقٌ وكذلك بين لفظ ﴿الضراء والسرّاء﴾ .

٢ - ﴿لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء﴾ شبّه تيسير البركات عليهم بفتح الأبواب في سهولة التناول

(١) الكشاف ٢/ ١٤٢ . (٢) البحر المحيط ٤/ ٣٦٩ .

فهو من باب الاستعارة أي وسعنا عليهم الخير من جميع الأطراف .

٣ ـ ﴿أفأمن أهل القرى﴾ تكررت الجملة والغرض منها الإنذار ويسمى هذا في علم البلاغة الإطناب ومثلها ﴿أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله﴾ قال ابو السعود : تكريرٌ للنكير لزيادة التقرير ، ومكرُ الله استعارةٌ لاستدراجه العبد وأخذه من حيث لا يحتسب[١] .

٤ ـ ﴿وإنكم لمن المقربين﴾ أكد الجملة بإن واللام لإزالة الشك من نفوس السحرة ويسمى هذا النوع من أضرب الخبر إنكارياً .

٥ ـ ﴿فوقع الحق﴾ فيه استعارة استعير الوقع للثبوت والحصول والله أعلم .

تـنبيـه : لما عجز فرعون عن دفع الحجة بالبرهان عدل إلى البطش والفتك بالسنان ، وهكذا حال كل ضال مبتدع إذا أعيته الحجة مال إلى التهديد والوعيد .

قول الله تعالى :﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات. . إلى. . لنكونن من الخاسرين﴾ من آية (١٣٠) إلى نهاية آية (١٤٩) .

المنَاسَبَة : لما كانت قصة الكليم مع الطاغية فرعون مملوءة بالعبر والعظات لذلك استطردت الآيات في الحديث عنهم فتحدثت عمّا حلَّ بقوم فرعون من البلايا والنكبات ، وما ابتلاهم الله به من القحط والجدب ، والطوفان والجراد وغير ذلك من المصائب نتيجة إصرارهم على الكفر وتكذيبهم بآيات الله ، ثم ذكرت أنواع النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل ومن أعظمها إهلاك عدوهم وقطعهم البحر مع السلامة والأمان .

اللغَـة : ﴿السنين﴾ جمع سَنَة وهي الجدبُ والقحطُ ﴿يطّيروا﴾ يتشاءموا والأصل يتطيّروا مأخوذٌ من الطِّيرة وهي زجر الطير ثم استعمل في التشاؤم ﴿الطوفان﴾ السيل المتلف المدمِّر ﴿القُمَّل﴾ السوس وهي حشرات صغيرة تكون في الحنطة وغيرها تفسد الحبوب ﴿الرجز﴾ العذاب ، والرجس بالسين : النجس وقد يستعمل بمعنى العذاب ﴿اليمّ﴾ البحر ﴿يعكفون﴾ عكف على الشيء أقام عليه ولزمه ﴿متبَّر﴾ مهلكٌ والتبار : الهلاك ﴿صعقاً﴾ مغشياً عليه يقال : صَعِق الرجل إذا أُغمي عليه .

وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا

التفسِير : ﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين﴾ اللام موطئة لقسم محذوف أي والله لقد ابتلينا واختبرنا فرعون وأتباعه بالجدب والقحط ﴿ونقصٍ من الثمرات﴾ أي وابتليناهم بإذهاب الثمار من كثرة الآفات قال المفسرون: كانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة[٢] ﴿لعلّهم يذكّرون﴾ أي لعلهم

---

(١) أبو السعود ٢/ ١٨٤ . (٢) الطبري ١٣/ ٤٦ .

هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ

يتعظون وترقَّ قلوبهم فإن الشدة تجلب الإنابة والخشية ورقة القلب ، ثم بيّن تعالى أنهم مع تلك المحن والشدائد لم يزدادوا إلا تمرداً وكفراً فقال ﴿**فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه**﴾ أي إذا جاءهم الخِصْب والرّخاء قالوا هذه لنا وبسعدنا ونحن مستحقون لذلك ﴿**وإن تصبهم سيئةٌ يطيَّروا بموسى ومن معه**﴾ أي وإذا جاءهم الجدب والشدة تشاءموا بموسى ومن معه من المؤمنين أي قالوا : هذا بشؤمهم قال تعالى رداً عليهم ﴿**ألا إنما طائرهم عند الله**﴾ أي إن ما يصيبهم من خير أو شر بتقدير الله وليس بشؤم موسى قال ابن عباس : الأمر من قِبَل الله ليس شؤمهم إلاّ من قِبَله وحكمه[1] ﴿**ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون**﴾ أي لا يعلمون أن ما لحقهم من القحط والشدائد من عند الله بسبب معاصيهم لا من عند موسى ﴿**وقالوا مهما تأتنا به من آيةٍ لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين**﴾ أي قال قوم فرعون لموسى :أي شيء تأتينا به يا موسى من المعجزات لتصرفنا عما نحن عليه فلن نؤمن لك قال الزمخشري : فإن قلت كيف سموها آية ثم قالوا ﴿لتسحرنا بها﴾ ؟ قلت : ما سموها آية لاعتقادهم أنها آية وإنما قصدوا بذلك الاستهزاء والتلهي[2] قال تعالى ﴿**فأرسلنا عليهم الطوفان**﴾ أي أرسلنا عليهم المطر الشديد حتى عاموا فيه وكادوا يهلكون قال ابن عباس : الطوفان كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار[3] ﴿**والجراد**﴾ أي وأرسلنا عليهم كذلك الجراد فأكل زروعهم وثمارهم حتى أكل ثيابهم ﴿**والقُمَّل**﴾ وهو السوس حتى نخر حبوبهم وتتبّع ما تركه الجراد وقيل : هو القمل المشهور كان يدخل بين ثوب أحدهم وجلده فيمصه ﴿**والضفادع**﴾ جمع ضفدع حتى ملأت بيوتهم وطعامهم وإذا تكلم أحدهم وثبت الضفدع إلى فمه ﴿**والدم**﴾ أي صارت مياههم دماً فما يستقون من بئر ولا نهر إلا وجدوه دماً ﴿**آياتٍ مفصّلات**﴾ أي علامات ظاهرات فيها عبرٌ وعظاتٌ ومع ذلك استكبروا عن الإيمان ﴿**فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين**﴾ أي استكبروا عن الإيمان بها لغلوهم في الإجرام ﴿**ولما وقع عليهم الرجز**﴾ أي وحين نزل بهم العذاب المذكور ﴿**قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك**﴾ أي ادع لنا ربك ليكشف عنا البلاء بحق ما أكرمك به من النبوة قال الزمخشري : أي أسعفنا إلى ما نطلب إليك من الدعاء لنا بحق ما عندك من عهد الله وكرامته بالنبوة[4] ﴿**لئن كشفتَ عنا الرجزَ لنؤمننَّ لكَ ولنرسلنَّ معكَ بني إسرائيل**﴾ اللام لام القسم أي والله لئن رفعت عنا العذاب الذي نحن فيه يا موسى لنصدقنَّ بما جئت به ولنطلقنَّ سراح بني إسرائيل ، وقد كانوا يستخدمونهم في أرذل الأعمال ﴿**فلما كشفنا عنهم العذاب إلى أجلٍ هم بالغوه**﴾

---

(١) روح المعاني ٩/ ٣٢ . (٢) الكشاف ٢/ ١٤٦ .

(٣) مختصر ابن كثير ٢/ ٤٥ . (٤) الكشاف ٢/ ١٤٨ .

قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ

أي فلما كشفنا بدعاء موسى عنهم العذاب إلى حدٍّ من الزمان هم واصلون إليه ولا بدَّ قال ابن عباس : هو وقت الغرق ﴿**إذا هم ينكثون**﴾ أي إذا هم ينقضون عهودهم ويصرّون على الكفر ﴿**فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليمّ**﴾ أي فانتقمنا منهم بالاغراق في البحر ﴿**بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين**﴾ أي بسبب تكذيبهم بآيات الله وإعراضهم عنها وعدم مبالاتهم بها ﴿**وأورثنا القوم الذين كانوا يُسْتضعفونَ مشارق الأرض ومغاربها**﴾ أي وأورثنا بني إسرائيل الذين كانوا يُستذلون بالخدمة أرض الشام وملّكناهم **جميع جهاتها ونواحيها : مشارقها ومغاربها** ﴿**التي باركنا فيها**﴾ بالخيرات وكثرة الثمرات ﴿**وتمّت كلمةُ ربك الحُسْنى على بني إسرائيل**﴾ أي تمَّ وعد الله الصادق بالتمكين لبني إسرائيل في الأرض ونصره إياهم على عدوهم قال الطبري : وكلمتُه الحسنى هي قوله جل ثناؤه ﴿ونريد أن نَمُنَّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة . .﴾[1] الآية ﴿**بما صبروا**﴾ أي بسبب صبرهم على الأذى ﴿**ودمّرنا ما كان يصنعُ فرعون وقومه وما كانوا يعرشون**﴾ أي خرّبنا ودمّرنا القصور والعمارات التي كان يشيدها فرعون وجماعته وما كانوا يعرشون من الجنّات والمزارع ، وإلى هنا تنتهي قصة فرعون وقومه ويبتدىء الحديث عن بني إسرائيل وما أغدق الله عليهم من النعم الجسام ، وأراهم من الآيات العظام ، تسليةً لرسوله عليه الصلاة والسلام مما رآه منهم قال تعالى ﴿**وجاوزنا ببني إسرائيل البحر**﴾ أي عبرنا ببني إسرائيل البحر وهو بحر القُلْزم عند خليج السويس الآن ﴿**فأتَوْا على قومٍ يعكفون على أصنامٍ لهم**﴾ أي مروا على قوم يلازمون على عبادة أصنام لهم ﴿**قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة**﴾ أي اجعل لنا صنماً نعبده كما لهم أصنام يعبدونها قال ابن عطية : الظاهر أنهم استحسنوا ما رأوا فأرادوا ان يكون ذلك في شرع موسى وفي جملة ما يُتقربُ به إلى الله وإلا فبعيدٌ أن يقولوا لموسى اجعل لنا إلهاً نُفرده بالعبادة[2] ﴿**قال إنكم قومٌ تجهلون**﴾ اي إنكم قوم تجهلون عظمة الله وما يجب أن ينزّه عنه من الشريك والنظير قال الزمخشري : تعجَّبَ من قولهم على أثر ما رأوا من الآية العظمى ، والمعجزة الكبرى فوصفهم بالجهل المطلق وأكّده ،

(١) الطبري ١٣/ ٧٧ . (٢) البحر ٤/ ٣٧٨ .

يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ * وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ

لأنه لا جهل أعظم مما رأى منهم ولا أشنع[1] ﴿إنَّ هؤلاء مُتبَّرٌ ما هم فيه﴾ أي هالك مدمَّر ما هم فيه من الدين الباطل وهو عبادة الأصنام ﴿وباطلٌ ما كانوا يعملون﴾ أي باطل عملهم مضمحلٌ بالكلية لأنهم عبدوا ما لا يستحق العبادة ﴿قال أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضّلكم على العالمين﴾ أي أأطلب لكم معبوداً غير الله المستحق للعبادة والحال أنَّ الله فضَّلكم على غيركم بالنعم الجليلة ! ! قال الطبري : فضَّلكم على عالمي دهركم وزمانكم[2] ﴿وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب﴾ أي واذكروا يا بني إسرائيل النعم التي سلفت مني إليكم حين أنجيتكم من قوم فرعون يذيقونكم أفظع أنواع العذاب وأسوأه ثم فسره بقوله ﴿يقتّلون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾ أي يذبحون الذكور ويستبقون الإناث لامتهانهن في الخدمة ﴿وفي ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيم﴾ أي وفي هذا العذاب اختبار وابتلاء من الله لكم عظيم فنجاكم منه أفلا تشكرونه ؟ ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتمَّ ميقات ربه أربعين ليلة﴾ أي وعدنا موسى لمناجاتنا بعد مضي ثلاثين ليلة وأكملناها بعشر ليالٍ فتمت المناجاة بعد أربعين ليلة قال الزمخشري : روي أن موسى وعد بني إسرائيل وهو بمصر إن أهلك الله عدوهم أتاهم بكتابٍ من عند الله فيه بيانُ ما يأتون وما يذرون ، فلما هلك فرعونُ سأل موسى ربه الكتاب فأمره بصوم ثلاثين يوماً وهو شهر ذي القعدة فلما أتمَّ الثلاثين أنكر خلوف فمه « تغير رائحته » فتسوَّك فأوحى الله تعالى إليه : أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك ! فأمره تعالى أن يزيد عليها عشرة أيام من ذي الحجة[3] ﴿وقال موسى لأخيه هرون أخلفني في قومي﴾ أي كن خليفتي فيهم إلى أن أرجع ﴿وأصلحْ ولا تتبع سبيل المفسدين﴾ أي وأصلحْ أمرهم ولا تسلك طريق الذين يفسدون في الأرض بمعصيتهم للّه ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلَّمه ربُّه﴾ أي ولما جاء موسى للوقت الذي وعدناه فيه وناجاه ربه وكلمه من غير واسطة ﴿قال ربِّ أرني أنظر إليك﴾ أي أرني ذاتك المقدسة أنظر إليها قال القرطبي : اشتاق إلى رؤية ربه لمَّا أسمعه كلامه فسأل النظر إليه[4] ﴿قال لن تراني ولكنْ انظرْ إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني﴾ أي أجابه ربه لن تستطيع رؤيتي في الدنيا فإن هذه البنية البشرية لا طاقة لها بذلك ولكنْ سأتجلّى لما هو أقوى منك وهو الجبل فإن ثبت الجبل مكانه ولم يتزلزل فسوف تراني أي تثبت لرؤيتي وإلاَّ فلا طاقة لك ﴿فلما تجلّى ربُّه للجبل جعله دكاً وخرَّ موسى صعقاً﴾

---

(١) الكشاف ٢/ ٠ (٢) الطبري ١٣/ ٨٤ . (٣) الكشاف ٢/ ١٥١ . (٤) القرطبي ٧/ ٢٧٨ .

لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ

أي فلما ظهر من نور الله قدر نصف أنملة الخنصر اندك الجبل وتفتّت وسقط موسى مغشياً عليه من هول ما رأى قال ابن عباس : ما تجلّى منه سبحانه للجبل إلا قدر الخنصر فصار تراباً وخرَّ موسى مغشياً عليه[١] وفي الحديث : فساخ الجبل ﴿**فلما أفاق قال سبحانك تبتُ إليك وأنا أول المؤمنين**﴾ أي فلما صحا من غشيته قال تنزيهاً لك يا رب وتبرئة أن يراك أحدٌ في الدنيا تبتُ إليك من سؤالي رؤيتك في الدنيا وأنا أول المؤمنين بعظمتك وجلالك ﴿**قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي**﴾ أي اخترتك على أهل زمانك بالرسالة الإلهية وبتكليمي إياك بدون واسطة ﴿**فخذ ما آتيتك**﴾ أي خذ ما أعطيتك من شرف النبوة والحكمة ﴿**وكن من الشاكرين**﴾ واشكر ربك على ما أعطاك من جلائل النعم قال أبو السعود : والآية مسوقة لتسليته عليه السلام من عدم الإجابة إلى سؤال الرؤية كأنه قيل : إن منعتك الرؤية فقد أعطيتك من النعم العظام ما لم أعط أحداً من العالمين فاغتنمها وثابرْ على شكرها[٢] ﴿**وكتبنا له في الألواح من كل شيء**﴾ أي كتبنا له كل شيء كان بنو إسرائيل محتاجين إليه في دينهم من المواعظ وتفصيل الأحكام مبيّنة للحلال والحرام كلُّ ذلك في ألواح التوراة ﴿**موعظة وتفصيلاً لكل شيء**﴾ أي ليتعظوا بها ويزدجروا وتفصيلاً لكل التكاليف الشرعية ﴿**فخذها بقوة**﴾ أي خذ التوراة بجدٍّ واجتهادٍ شأن أولي العزم ﴿**وأمر قومك يأخذوا بأحسنها**﴾ أي وأمر بني إسرائيل بالحث على اختيار الأفضل كالأخذ بالعزائم دون الرخص فالعفو أفضل من القصاص ، والصبر أفضل من الانتصار كما قال تعالى ﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾ قال ابن عباس : أُمر موسى أن يأخذها بأشدّ مما أمر به قومه[٣] ﴿**سأريكم دار الفاسقين**﴾ أي سترون منازل الفاسقين ـ فرعون وقومه ـ كيف أقفرت منهم ودُمِّروا لفسقهم لتعتبروا فلا تكونوا مثلهم ، فإن رؤيتها وهي خالية عن أهلها موجبة للاعتبار والانزجار ﴿**سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق**﴾ أي سأمنع المتكبرين عن فهم آياتي فلا يتفكرون) ولا يتدبرون بما فيها، وأطمس على قلوبهم عقوبةً لهم على تكبرهم قال الزمخشري : وفيه إنذار للمخاطبين من عاقبة الذين يُصرفون عن آيات الله لتكبرهم وكفرهم بها لئلا يكونوا مثلهم فيسلك بهم سبيلهم[٤] ﴿**وإن يَرَوْا كل آيةٍ**

---

(١) الطبري ١٣/ ٩٧ . (٢) أبو السعود ٢/ ١٩٥ . (٣) الطبري ١٣/ ١١٠ . (٤) الكشاف ٢/ ١٥٩ .

ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

لا يؤمنوا بها﴾ أي وإن يشاهدوا كل آية قرآنية من الآيات المنزلة عليهم أو يرَوْا كل معجزة ربانية لا يصدقوا بها **﴿وإن يروا سبيل الرُّشْد لا يتخذوه سبيلاً﴾** أي وإن يروا طريق الهدى والفلاح لا يسلكوه **﴿وإن يروا سبيل الغيِّ يتخذوه سبيلاً﴾** أي وإن يروا طريق الضلال والفساد سلكوه كقوله **﴿فهديناهم فاستحبوا العمى على الهُدَى﴾** **﴿ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا﴾** أي ذلك الانحراف عن هَدْي الله وشرعه بسبب تكذيبهم بآيات الله **﴿وكانوا عنها غافلين﴾** أي وغفلتهم عن الآيات التي بها سعادتهم حيث لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون **﴿والذين كذبوا بآياتنا﴾** أي جحدوا بما أنزل الله **﴿ولقاء الآخرة﴾** أي وكذبوا بلقاء الله في الآخرة أي لم يؤمنوا بالبعث بعد الموت **﴿ حَبِطتْ أعمالهم ﴾** أي بطلت أعمالهم الخيرية التي عملوها في الدنيا من إحسانٍ وصلة رحم وصدقة وأمثالها وذهب ثوابها لعدم الإيمان **﴿هل يُجْزون إلا ما كانوا يعملون﴾** أي هل يُثابون أو يعاقبون إلا بما عملوا في الدنيا ؟ **﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليّهم عجلاً جسداً له خوار﴾** قال الحافظ ابن كثير : يخبر تعالى عن ضلال من ضلَّ من بني إسرائيل في عبادتهم العجل الذي اتخذه لهم السامريُّ من الحليّ ، فشكّل لهم منه عجلاً جسداً لا روح فيه وقد احتال بإدخال الريح فيه حتى صار يسمع له خُوار أي صوتٌ كصوت البقر[1] ومعنى **﴿من بعده﴾** أي من بعد ذهاب موسى إلى الطور لمناجاة ربه **﴿ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً﴾** الاستفهام للتقريع والتوبيخ أي كيف عبدوا العجل واتخذوه إلهاً مع أنه ليس فيه شيء من صفات الخالق الرازق ، فإنه لا يملك قدرة الكلام ولا قدرة هدايتهم إلى سبيل السعادة فكيف يتخذ إلهاً ؟ **﴿اتخذوه وكانوا ظالمين﴾** أي عبدوا العجل واتخذوه إلهاً فكانوا ظالمين لأنفسهم حيث وضعوا الأشياء في غير موضعها ، وتكرير لفظ **﴿اتخذوا﴾** لمزيد التشنيع عليهم **﴿ولما سُقط في أيديهم﴾** أي ندموا على جنايتهم واشتد ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل **﴿ورأوا أنهم قد ضلوا﴾** أي تبينوا ضلالهم تبيناً جلياً كأنهم أبصروه بعيونهم **﴿قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا﴾** أي لئن لم يتداركنا الله برحمته ومغفرته **﴿لنكوننَّ من الخاسرين﴾** أي لنكوننَّ من الهالكين قال ابن كثير : وهذا اعترافٌ منهم بذنبهم والتجاءٌ إلى الله عز وجل[2] .

البلاغة : ١ - **﴿فإذا جاءتهم الحسنة﴾** بين لفظ الحسنة والسيئة طباقٌ كما أن بين لفظ **﴿طائرهم﴾**

(١) مختصر ابن كثير ٢/ ٥١ . (٢) المختصر ٢/ ٥١ .

و ﴿يطيروا﴾ جناس الاشتقاق وكلاهما من المحسنات البديعية .

٢ ـ ﴿ودمرنا ما كان يصنع﴾ عدل عن الماضي إلى المضارع لاستحضار الصورة في ذهن المخاطب ومثله ﴿وما كانوا يعرشون﴾ والأصل ما صنعوا وما عرشوا .

٣ ـ ﴿إنكم قوم تجهلون﴾ أتى بلفظ تجهلون ولم يقل : جهلتم إشعاراً بأن ذلك منهم كالطبع والغريزة لا ينتقلون عنه في ماضٍ ولا مستقبل [١] .

٤ ـ ﴿سأريكم دار الفاسقين﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة في الحض على نهج سبيل الصالحين ، والأصل أن يقال : سأريهم .

٥ ـ ﴿ولما سقط في أيديهم﴾ هذا من باب الكناية فهو كناية عن شدة الندم لأن النادم يعض على يده غماً .

٦ ـ بين لفظ ﴿مشارق﴾ و﴿مغارب﴾ طباقٌ .

تنبيه : مذهب أهل السنة قاطبة على أن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة وأنكرت المعتزلة ذلك واستدلوا بالآية الكريمة ﴿لن تراني﴾ وليس لهم في هذه الآية متمسك بل هي دليلٌ لأهل السنة والجماعة على إمكان الرؤية ، لأنها لو كانت محُالاً لم يسألها موسى فإن الأنبياء عليهم السلام يعلمون ما يجوز على الله وما يستحيل ، ولو كانت الرؤية مستحيلة لكان في الجواب زجرٌ وإغلاظ كما قال تعالى لنوح ﴿فلا تسألن ما ليس لك به علمٌ إني أعظكَ أن تكون من الجاهلين﴾ فهذا المنع من رؤية الله إنما هو في الدنيا لضعف البنية البشرية عن ذلك قال مجاهد : إن الله قال لموسى : لن تراني ، لأنك لا تطيق ذلك ولكن سأتجلى للجبل الذي هو أقوى منك وأشد ، فإن استقر وأطاق الصبر لهيبتي أمكن أن تراني أنت ، وإن لم يُطق الجبل فأحرى ألاّ تطيق أنت فعلى هذا جعل الله الجبل مثالاً لموسى ولم يجعل الرؤية مستحيلة على الإطلاق ، وقد صرح بوقوع الرؤية في الآخرة كتابُ الله ﴿وجوهٌ يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ فلا ينكرها إلا مبتدع .

فائدة : لما سمع الكليم موسى كلام الله اشتاق إلى رؤيته ، لأن التلذذ بسماع كلام الحبيب يزيد في الشوق إليه والحنين وقد أحسن من قال :

وأفرحُ ما يكونُ الشوقُ يوماً ... إذا دنتِ الدّيارُ من الديار

لطيفة : السعادة والشقاوة بيد الله فموسى بن عمران ربّاه فرعون فكان مؤمناً ، وموسى السامري ربّاه جبريل وكان كافراً ، فلم تنفع تربية الأمين لموسى السامري ، ولم تضر تربية اللعين لموسى الكليم عليه السلام ، وقد أنشد بعضهم في هذا المعنى :

إذا المرءُ لم يُخلَقْ سعيداً من الأزَل ... فقدْ خابَ من ربَّى وخابَ المُؤمَّلُ

فموسَى الّذي ربّاهُ جبريلُ كافرٌ ... وموسَى الذي ربّاه فِرْعونُ مُرْسَل

قال الله تعالى : ﴿ولما رجع موسى إلى قومه . . إلى . . إنا لا نضيع أجر المصلحين﴾
من آية (١٥٠) إلى نهاية آية (١٧٠) .

(١) أفاده صاحب البحر ٤/ ٣٧٨ .

المنَاسَبَة : لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل ، وما أغدق الله عليهم من النعم ، وما قابلوها به من الجحود والعصيان ، وقد ذكرت الآيات قصة ﴿أصحاب القرية﴾ واعتداءهم يوم السبت بالاصطياد فيه وكيف أن الله تعالى مسخهم قردة ، وفي ذلك عبرةٌ للمعتبرين .

اللغَة : ﴿أسفاً﴾ الأسف : شدة الحزن أو الغضب يقال هو أسِفٌ وأسيف ﴿ابنَ أمَّ﴾ أصلها ابن أمي وهي استعطاف ولين ﴿تشمت﴾ الشماتة : السرور بما يصيب الإنسان من مكروه وفي الحديث (وأعوذ بك من شماتة الأعداء) ﴿الرجفة﴾ الزلزلة الشديدة ﴿هدنا﴾ تبنا يقال : هاد يهود إذا تاب ورجع فهو هائد قال الشاعر : إني امرؤٌ مما جنيتُ هائد ﴿إصرهم﴾ التكاليف الشاقة وأصل الإصر الثقل الذي يأصر صاحبه عن الحِرَاك ﴿الأغلال﴾ جمع غُل وهو ما يوضع في العنق أو اليد من الحديد ﴿عزّروه﴾ وقّروه ونصروه ﴿أسباطاً﴾ جمع سبط وهو ولد الولد أو ولد البنت ثم أطلق على كل قبيلة من بني إسرائيل ﴿تأذنَّ﴾ آذن من الإيذان بمعنى الإعلام ﴿يسومهم﴾ يذيقهم ﴿خَلْف﴾ بسكون اللام من يخلف غيره بالسوء والشر وأمّا بفتح اللام فهو من يخلف غيره بالخير ومنه قولهم : « جعلك الله خير خلف لخير سلف » .

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

التفسِير : ﴿**ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً**﴾ أي ولما رجع موسى من المناجاة ﴿**غضبان**﴾ مما فعلوه من عبادة العجل ﴿**أسفاً**﴾ أي شديد الحزن ﴿**قال بئسما خلفتموني من بعدي**﴾ أي بئس ما فعلتموه بعد غيبتي حيث عبدتم العجل ﴿**أعجلتم أمر ربكم**﴾ أي أعجلتم عن أمر ربكم وهو انتظار موسى حتى يرجع من الطور ؟ والاستفهام للإنكار ﴿**وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجرُّه إليه**﴾ أي طرح الألواح لما عراه من شدة الغضب ، وفرط الضجر غضباً لله من عبادة العجل ، وأخذ بشعر رأس أخيه هارون يجره إليه ظناً منه أنه قصَّر في كفهم عن ذلك وكان عليه السلام شديد الغضب لله سبحانه قال ابن عباس : لمّا عاين قومه وقد عكفوا على العجل ألقى الألواح فكسرها غضباً لله وأخذ برأس أخيه يجره إليه[1] ﴿**قال ابنَ أمَّ إنَّ القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني**﴾ أي قال هارون يا ابن أمي - وهو نداء استعطاف وترفق[2] - إن القوم استذلوني وقهروني وقاربوا قتلي حين نهيتهم عن ذلك فأنا لم أقصّر في نصحهم ﴿**فلا تشمتْ بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين**﴾ أي لا تُسيءْ إليَّ حتى يُسرَّ الأعداء بي ويشمتوا بإهانتك إليَّ ولا تجعلني في عداد الظالمين بالمؤاخذة أو النسبة إلى التقصير قال مجاهد : ﴿**الظالمين**﴾ أي الذين عبدوا العجل ﴿**قال ربِّ اغفر**

(١) الطبري ١٣/ ١٢٣ (٢) قال ابن كثير : وإنما قال « ابنَ أمَّ » ليكون أرق وأنجع عنده وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ

لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين﴾ لما تحقق لموسى براءة ساحة هارون عليه السلام من التقصير طلب عند ذلك المغفرة له ولأخيه فقال ﴿اغفر لي ولأخي﴾ الآية قال الزمخشري : استغفر لنفسه مما فرط منه إلى أخيه ، ولأخيه مما عسى أن يكون فرط منه في حين الخلافة ، وطلب ألاَّ يتفرقا عن رحمته ، ولا تزال منتظمة لهما في الدنيا والآخرة[١] ﴿إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضبٌ من ربهم وذلةٌ في الحياة الدنيا﴾ أي إن الذين عبدوا العجل ـ ذكر البقر ـ واتخذوه إلهاً سيصيبهم غضب شديد من الرحمن ، وينالهم في الدنيا الذل والهوان قال ابن كثير : أما الغضب الذي نال بني إسرائيل فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة حتى قتلَ بعضُهم بعضاً ، وأما الذلة فأعقبهم ذلك ذلاً وصغَاراً في الحياة الدنيا[٢] ﴿وكذلك نجزي المفترين﴾ أي كما جازينا هؤلاء بإحلال الغضب والإذلال كذلك نجزي كل من افترى الكذب على الله قال سفيان بن عُيينة : كلُّ صاحب بدعة ذليل[٣] ﴿والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا﴾ أي عملوا القبائح والمعاصي ثم تابوا ورجعوا إلى الله من بعد اقترافها وداموا على إيمانهم وأخلصوا فيه ﴿إن ربك من بعدها لغفورٌ رحيم﴾ أي إنَّ ربك يا محمد من بعد تلك التوبة لغفور لذنوبهم رحيم بهم قال الألوسي : وفي الآية إعلامُ بأنَّ الذنوب وإن جلّتْ وعظمت فإن عفو الله تعالى وكرمه أعظم وأجلُّ ، وما ألطف قول أبي نواس غفر الله تعالى له :

يا ربِّ إنْ عَظُمتْ ذنوبي كثرةً ... فلقد علمتُ بأنَّ عفوكَ أعظمُ
إن كانَ لا يَرْجوكَ إلا محسنٌ ... فبمنْ يلوذُ ويستجيرُ المجرمُ ؟[٤]

﴿ولما سكت عن موسى الغضب﴾ أي سكن غضب موسى على أخيه وقومه ﴿أخذ الألواح﴾ أي ألواح التوراة التي كان ألقاها ﴿وفي نسختها هدى ورحمة﴾ أي وفيما نُسخ فيها وكُتب هداية للحق ورحمة للخلق بإرشادهم إلى ما فيه سعادة الدارين ﴿للذين هم لربهم يرهبون﴾ أي هذه الرحمة للذين يخافون الله ويخشون عقابه على معاصيه ﴿واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا﴾ أي اختار موسى من قومه سبعين رجلاً ممن لم يعبدوا العجل للوقت الذي وعده ربه الإتيان فيه للاعتذار عن عبادة العجل ﴿فلما أخذتهم الرجفة﴾ أي فلما رجف بهم الجبل وصعقوا ﴿قال ربِّ لو شئتَ أهلكتهم من قبلُ وإياي﴾ أي قال موسى على وجه التضرع والإستسلام

(١) الكشاف ٢/١٦٢ . (٢) المختصر ٢/ ٥٢ . (٣) الطبري ١٣/ ١٣٦ . (٤) روح المعاني ٩/ ٧٠ .

ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ

لأمر الله : لو شئت يا ربِّ أن تهلكنا قبل ذلك لفعلتَ فإنّا عبيدك وتحت قهرك وأنت تفعل ما تشاء ﴿**أتهلكنا بما فعل السفهاء منا**﴾ ؟ أي أتهلكنا وسائر بني إسرائيل بما فعل هؤلاء السفهاء السبعون في قولهم : ﴿**أرنا الله جهرة**﴾ ؟ والاستفهام استفهام استعطاف وتذلل فكأنه يقول : لا تعذبنا يا ألله بذنوب غيرنا قال الطبري في رواية السدي : إن الله أمر موسى عليه السلام أن يأتيه في ناسٍ من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ، ووعدهم موعداً فاختار موسى من قومه سبعين رجلاً على عينه ثم ذهب بهم ليعتذروا فلما أتوا ذلك المكان قالوا : لن نؤمن لك يا موسى حتى نرى الله جهرة، فإنك قد كلمته فأرناه فأخذتهم الصاعقة فماتوا ، فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول : رب ماذا أقول لبني اسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكتَ خيارهم لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي[١] » أقول : إذا كان هذا قول الأخيار من بني اسرائيل فكيف حال الأشرار منهم ؟ نعوذ بالله من خبث اليهود ﴿**إن هي إلا فتنتُك**﴾ أي ما هذه الفتنة التي حدثت لهم إلا محنتك وابتلاؤك تمتحن بها عبادك ﴿**تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء**﴾ أي تضل بهذه المحنة من تشاء إضلاله وتهدي من تشاء هدايته ﴿**أنت وليُّنا فاغفر لنا وارحمنا**﴾ أي أنت يا رب متولي أمورنا وناصرنا وحافظنا فاغفر لنا ما قارفناه من المعاصي وارحمنا برحمتك الواسعة الشاملة ﴿**وأنت خير الغافرين**﴾ أي أنت خير من صفح وستر ، تغفر السيئة وتبدلها بالحسنة ﴿**واكتب لنا في هذه الدنيا حسنةً وفي الآخرة**﴾ هذا من جملة دعاء موسى عليه السلام أي حقّقْ وأثبتْ لنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ﴿**إنّا هدنا إليك**﴾ أي تبنا ورجعنا إليك من جميع ذنوبنا ﴿**قال عذابي أصيبُ به من أشاء ورحمتي وسعتْ كل شيء**﴾ أي قال تعالى أما عذابي فأصيب به من أشاء من عبادي وأما رحمتي فقد عمَّتْ خلقي كلهم قال أبو السعود : وفي نسبة الإصابة إلى العذاب بصيغة المضارع ونسبة السعة إلى الرحمة بصيغة الماضي إيذانٌ بأن الرحمة مقتضى الذات ، وأما العذاب فبمقتضى معاصي العباد[٢] ﴿**فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون**﴾ أي سأجعل هذه الرحمة خاصة في الآخرة بالذين يتقون الكفر والمعاصي ويعطون زكاة أموالهم ويصدّقون بجميع الكتب والأنبياء ﴿**الذين يتبعون الرسول النبيَّ الأميَّ**﴾ أي هؤلاء الذين تنالهم الرحمة هم الذين يتبعون محمداً ﷺ النبيَّ العربي الأمي أي الذي لا يقرأ ولا يكتب قال البيضاوي : وإنما سمّاه رسولاً بالإضافة إلى الله تعالى ، ونبياً بالإضافة إلى العباد[٣] ﴿**الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة**

(١) الطبري ١٣/ ١٤٠ . (٢) أبو السعود ٢/ ٢٠١ . (٣) البيضاوي ص ٢

عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب

والإنجيل﴾ أي الذي يجدون نعته وصفته في التوراة والإنجيل قال ابن كثير : هذه صفة محمد ﷺ في كتب الأنبياء ، بشروا أممهم ببعثته وأمروهم بمتابعته ، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم[1] **﴿يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر﴾** أي لا يأمر إلا بكل شيء مستحسن ولا ينهي إلا عن كل شيء قبيح **﴿ويُحِل لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث﴾** أي يحل لهم ما حرّم عليهم من الأشياء الطيبة بشؤم ظلمهم ويُحرِّم عليهم ما يستخبث من نحو الدم والميتة ولحم الخنزير **﴿ويضع عنهم إصرهُمْ والأغلالَ التي كانت عليهم﴾** أي يخفف عنهم ما كلفوه من التكاليف الشاقة التي تشبه الأغلال كقتل النفس في التوبة وقطع موضع النجاسة من الثوب والقصاص من القاتل عمداً كان القتل أو خطأً وشبه ذلك **﴿فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه﴾** أي فالذين صدقوا بمحمد وعظّموه ووقّروه ونصروا دينه **﴿واتبعوا النور الذي أُنزل معه﴾** أي واتبعوا قرآنه المنير وشرعه المجيد **﴿أولئك هم المفلحون﴾** أي هم الفائزون بالسعادة السرمدية **﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾** هذا بيان لعموم رسالته ﷺ لجميع الخلق أي قل يا محمد للناس إني رسولٌ من عند الله إلى جميع أهل الأرض **﴿الذي له ملكُ السموات والأرض﴾** أي المالك لجميع الكائنات **﴿لا إله إلا هو يحيي ويميت﴾** أي لا ربَّ ولا معبود سواه فهو الإله القادر على الإحياء والإفناء **﴿فآمنوا بالله ورسوله﴾** أي صدّقوا بآيات الله وصدقوا برسوله المبعوث إلى جميع خلقه **﴿النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته﴾** أي آمنوا بالنبي الأمي صاحب المعجزات الذي لا يقرأ ولا يكتب المصدق بالكتب التي أنزلها الله عليه وعلى غيره من الأنبياء **﴿واتبعوه لعلكم تهتدون﴾** أي اسلكوا طريقه واقتفوا أثره رجاء اهتدائكم إلى المطلوب **﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق﴾** أي ومن بني اسرائيل جماعة مستقيمون على شريعة الله يهدون الناس بكلمة الحق لا يجورون قال الزمخشري : لما ذكر تعالى الذين تزلزلوا منهم في الدين وارتابوا حتى أقدموا على العظيمتين : عبادة العجل ، وطلب رؤية الله ، ذكر أن منهم أمة موقنين ثابتين يهدون الناس بكلمة الحق ويدلونهم ويرشدونهم على الاستقامة[2] **﴿وقطّعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً﴾** أي وفرقنا بني اسرائيل فجعلناهم قبائل شتّى اثنتي عشرة قبيلة من اثني عشر ولداً من أولاد يعقوب

---
(١) المختصر ٢/ ٥٥ . (٢) الكشاف ٢/ ١٦٧ .

بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ

قال أبو حيان : أي فرقناهم وميّزناهم أسباطاً ليرجع أمر كل سبط أي « قبيلة » إلى رئيسه ليخفَّ أمرهم على موسى ولئلا يتحاسدوا فيقع الهرج ، ولهذا فجّر لهم اثنتي عشرة عيناً لئلا يتنازعوا ويقتتلوا على الماء ، وجعل لكل سبطٍ نقيباً ليرجعوا في أمورهم إليه[1] ﴿**وأوحينا إلى موسى إذِ استسقاه قومه**﴾ أي حين استولى عليهم العطش في التيه ﴿**أن اضرب بعصاك الحجر**﴾ أي أوحينا إليه أن يضرب الحجر بعصاه فضربه ﴿**فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً**﴾ أي انفجرت من الحجر اثنتا عشرة عيناً من الماء بعدد الأسباط ﴿**قد علم كلُّ أُناسٍ مشربهم**﴾ أي قد عرف كل سبطٍ وجماعة منهم عينهم الخاصة بهم قال الطبري : لا يدخل سبطٌ على غيره في شربه[2] ﴿**وظللنا عليهم الغمام**﴾ أي جعلنا الغمام يكنّهم من حر الشمس ويقيهم من أذاها قال الألوسي : وكان الظلُّ يسير بسيرهم ويسكن بإقامتهم ﴿**وأنزلنا عليهم المنَّ والسلوى**﴾ أي وأكرمناهم بطعام شهي هو ﴿**المنُّ**﴾ وهي شيء حلوٌ ينزل على الشجر يجمعونه ويأكلونه و ﴿**السلوى**﴾ وهو طائر لذيذ اللحم يسمى السُّماني ،كلٌّ ذلك من إفضال الله وإنعامه عليهم دون جهدٍ منهم ﴿**كلوا من طيبات ما رزقناكم**﴾ أي وقلنا لهم كلوا من هذا الشيء الطيب اللذيذ الذي رزقناكم إياه ﴿**وما ظلمونا ولكنْ كانوا أنفسهم يظلمون**﴾ في الكلام محذوف تقديره : فكفروا بهذه النعم الجليلة وما ظلمونا بذلك ولكنْ ظلموا أنفسهم حيث عرّضوها بالكفر لعذاب الله ﴿**وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم**﴾ أي واذكر لهم حين قلنا لأسلافهم اسكنوا بيت المقدس وكلوا من مطاعمها وثمارها من أي جهة ومن أي مكان شئتم منها ﴿**وقولوا حطة**﴾ أي وقولوا حين دخولكم : يا ألله حُطَّ عنا ذنوبنا ﴿**نغفر لكم خطيآتكم**﴾ أي نمح عنكم جميع الذنوب التي سلفت منكم ﴿**سنزيد المحسنين**﴾ أي وسنزيد من أحسن عمله بامتثال أمر الله وطاعته فوقَ الغفران دخولَ الجنان ﴿**فبدَّل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم**﴾ أي غيَّر الظالمون منهم أمر الله بقولهم كلاماً لا يليق حيث قالوا بدل ﴿**حطة**﴾ حنطة في شعيرة وبدل أن يدخلوا ساجدين خشوعاً لله دخلوا يزحفون على أستاههم «أدبارهم» سخرية واستهزاء بأوامر الله ﴿**فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون**﴾ أي فأرسلنا عليهم عذاباً من السماء بسبب ظلمهم وعدوانهم المستمر سابقاً ولاحقاً قال أبو السعود : والمراد

(١) البحر المحيط ٤/ ٤٠٦ . (٢) الطبري ١٣/ ١٧٧ . (٣) روح المعاني ٩/ ٨٨ .

يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن

بالعذاب « الطاعون » روي أنه مات منهم في ساعة واحدة أربعةٌ وعشرون ألفاً[١] ﴿**واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر**﴾ أي واسأل يا محمد اليهود عن أخبار أسلافهم وعن أمر القرية التي كانت بقرب البحر وعلى شاطئه ماذا حلَّ بهم لما عصوا أمر الله واصطادوا يوم السبت ؟ ألم يمسخهم الله قردة وخنازير ؟ قال ابن كثير : وهذه القرية هي (أيلة) وهي على شاطىء بحر القلزم[٢] ﴿**إذ يَعْدون في السبت**﴾ أي يتجاوزون حدَّ الله فيه وهو اصطيادهم يوم السبت ﴿**إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرَّعاً**﴾ أي حين كانت الحيتان « الأسماك » تأتيهم يوم السبت ـ وقد حُرِّم عليهم الصيدُ فيه ـ كثيرةً ظاهرةً على وجه الماء ﴿**ويوم لا يسبتون لا تأتيهم**﴾ أي وفي غير يوم السبت وهي سائر الأيام لا تأتيهم بل تغيب عنهم وتختفي ﴿**كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون**﴾ أي مثل ذلك البلاء العجيب نختبرهم ونمتحنهم بإظهار السمك لهم على وجه الماء في اليوم المحرَّم عليهم صيده وإخفائها عنهم في اليوم الحلال بسبب فسقهم وانتهاكهم حرمات الله قال القرطبي : روي أنها كانت في زمن داود عليه السلام وأن إبليس أوحى إليهم فقال: إنما نُهيتُم عن أخذها يوم السبت فاتخذوا الحياض فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم الجمعة فتبقى فيها فلا يمكنها الخروج منها لقلة الماء فيأخذونها يوم الأحد ويحتالون في صيدها[٣] ﴿**وإذ قالتْ أمةٌ منهم لم تعظونَ قوماً اللهُ مهلكُهم أو معذبُهم عذاباً شديداً**﴾ قال ابن كثير : يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق : فرقة ارتكبت المحظور واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت ، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم ، وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه ولكنها قالت للمنكرة ﴿**لم تعظون قوماً الله مهلكهم**﴾ أي لم تنهون هؤلاء وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله فلا فائدة في نهيكم إياهم[٤] ؟ ﴿**قالوا معذرة إلى ربكم**﴾ أي قال الناهون : إنما نعظهم لنعذر عند الله بقيامنا بواجب النصح والتذكير ﴿**ولعلهم يتقون**﴾ أي ينزعون عمّا هم فيه من الإجرام قال الطبري : أي لعلهم أن يتقوا الله فينيبوا إلى طاعته ويتوبوا من معصيتهم إيّاه وتعدّيهم الاعتداء في السبت[٥] ﴿**فلما نسوا ما ذُكّروا به**﴾ أي فلما تركوا ما ذكّرهم به صلحاؤهم ترك الناسي للشيء وأعرضوا عن قبول النصيحة إعراضاً كلياً ﴿**أنجينا الذين ينهون عن السوء**﴾ أي نجينا الناهين عن الفساد في الأرض ﴿**وأخذنا الذين ظلموا بعذابٍ بئيس**﴾ أي وأخذنا الظالمين العصاة بعذابٍ شديد وهم الذين ارتكبوا المنكر ﴿**بما كانوا يفسقون**﴾ أي بسبب فسقهم وعصيانهم لأمر الله ﴿**فلما**

---

(١) أبو السعود ٢/ ٢٠٥ . (٢) المختصر ٢/ ٥٨ . (٣) القرطبي ٧/ ٣٠٦ . (٤) المختصر ٢/ ٥٩ . (٥) الطبري ١٣/ ١٨٥ .

﴿يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾

عتَوْا عمّا نُهوا عنه﴾ أي فلما استعصوا وتكبروا عن ترك ما نهوا عنه **﴿قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾** أي مسخناهم إلى قردة وخنازير ؛ والمعنى أنهم عُذبوا أولاً بعذاب شديد فلما لم يرتدعوا وتمادوا في الطغيان مسخوا قردة وخنازير ، والحاصل أن أصحاب القرية انقسموا ثلاث فرق : فرقةٌ عصتْ فحلَّ بها العذاب ، وفرقة نهت ووعظت فنجاها الله من العذاب ، وفرقة اعتزلت فلم تنه ولم تُقارف المعصية وقد سكت عنها القرآن قال ابن عباس : ما أدري ما فعل بالفرقة الساكتة أنجوا أم هلكوا ؟ قال عكرمة : فلم أزل به حتى عرّفته أنهم قد نجوا لأنهم كرهوا ما فعله أولئك ، فكساني حلة[1] **﴿وإذ تأذّن ربك ليبعثنَّ عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب﴾** أي واذكر يا محمد حين أعلم ربك ليسلطنَّ على اليهود إلى قيام الساعة من يذيقهم أسوأ العذاب بسبب عصيانهم ومخالفتهم أمر الله واحتيالهم على المحارم ، وقد سلّط الله عليهم بختنصّر فقتلهم وسباهم ، وسلّط عليهم النصارى فأذلوهم وضربوا عليهم الجزية ، وسلّط عليهم محمداً ﷺ فطهّر الأرض من رجسهم وأجلاهم عن الجزيرة العربية ، وسلّط عليهم أخيراً « هتلر » فاستباح حماهم وكاد أن يبيدهم ويفنيهم بالقتل والتشريد في الأرض ، ولا يزال وعد الله بتسليط العذاب عليهم سارياً إلى أن يقتلهم المسلمون في المعركة الفاصلة إن شاء الله ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله **﴿إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفورٌ رحيم﴾** أي سريع العقاب لمن عصاه وغفورٌ رحيم لمن أطاعه **﴿وقطّعناهم في الأرض أمماً﴾** أي فرّقناهم في البلاد طوائف وفرقاً ففي كل بلدة فرقة منهم ، وليس لهم إقليم يملكونه حتى لا تكون لهم شوكة ،وما اجتمعوا في الأرض المقدسة في هذه الأيام إلا ليذبحوا بأيدي المؤمنين إن شاءالله كما وعد بذلك رسول الله ﷺ حيث قال : (لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود . .) الحديث آخرجه مسلم ثم بيّن تعالى أنهم ليسوا جميعاً فجاراً بل فيهم الأخيار وفيهم الأشرار فقال **﴿منهم الصالحون ومنهم دون ذلك﴾** أي منهم من آمن وهم قلة قليلة ومنهم من انحطّ عن درجة الصلاح بالكفر والفسوق وهم الكثرة الغالبة **﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾** أي اختبرناهم بالنعم والنقم والشدة والرخاء لعلهم يرجعون عن الكفر والمعاصي **﴿فخلف من بعدهم خَلْفٌ ورثوا الكتاب﴾** قال ابن كثير : أي خلف من بعد ذلك الجيل الذي فيهم الصالح والطالح خلْفٌ آخر لا خير فيهم ورثوا الكتاب وهو التوراة عن آبائهم[2] **﴿يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيُغفر لنا﴾** أي يأخذون ذلك الشيء الدنيء من حطام الدنيا من حلال وحرامٍ ويقولون متبجحين : سيغفر الله لنا ما فعلناه ، وهذا اغترار منهم وكذب على الله **﴿وإن يأتهم عرضٌ مثله يأخذوه﴾** أي يرجون المغفرة وهم مصرّون على الذنب كلما لاح لهم شيء من حطام الدنيا

(١) المختصر ٢/ ٥٩ . (٢) المختصر ٢/ ٦١ .

﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾

أخذوه لا يُبالون من حلالٍ كان أو حرام ﴿ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع أي ألم يؤ خذ عليهم العهد المؤكد في التوراة أن يقولوا الحق ولا يكذبوا على الله ؟ فكيف يزعمون أنه سيغفر لهم مع إصرارهم على المعاصي وأكل الحرام ؟ ﴿ودرسوا ما فيه﴾ في هذا أعظم التوبيخ لهم أي والحال أنهم درسوا ما في الكتاب وعرفوا ما فيه المعرفة التامة من الوعيد على قول الباطل والافتراء على الله ﴿والدار الآخرة خير للذين يتقون﴾ أي والآخرة خير للذين يتقون الله بترك الحرام ﴿أفلا تعقلون﴾ ؟ الاستفهام للإنكار أي أفلا ينزجرون ويعقلون ؟ والمراد أنهم لو كانوا عقلاء لما آثروا الفانية على الباقية ﴿والذين يُمَسِّكون بالكتاب وأقاموا الصلاة﴾ أي يتمسكون في أمور دينهم بما أنزله الله ويحافظون على أداء الصلاة في أوقاتها ﴿إنّا لا نضيع أجر المصلحين﴾ أي لا نضيع أجرهم بل نجزيهم على تمسكهم وصلاحهم أفضل وأكرم الجزاء .

البَلاَغَة : ١ ـ ﴿ولما سكت عن موسى الغضب﴾ شبّه الغضب بإنسان يرعد ويزبد ويزمجر بصوته آمراً بالانتقام ثم اختفى هذا الصوت وسكت ، ففي الكلام « استعارة مكنية » ويا له من تصوير لطيف يستشعر جماله كل ذي طبع سليم وذوقٍ صحيح .

٢ ـ بين لفظ « تضل » و « تهدي » طباقٌ وكذلك بين لفظ «يحيي» و « يميت » .

٣ ـ ﴿يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة ، وهي أن يؤ تى بمعنيين أو أكثر ثم يؤ تى بما يقابلها على الترتيب .

٤ ـ ﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال﴾ استعار الإصر والأغلال للأحكام والتكاليف الشاقة .

٥ ـ ﴿أفلا تعقلون﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب زيادة في التوبيخ والتأنيب .

فَائِدَة : الخَلَف بفتح اللام من يخلف غيره بالخير ، والخَلْف بسكون اللام من يخلف غيره في الشر ومنه قوله تعالى ﴿فخلف من بعدهم خَلْفٌ أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً﴾ وهذه الآية ﴿فخلف من بعدهم خَلْفٌ ورثوا الكتاب﴾ والله أعلم .

* * *

قال الله تعالى: ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة .إلى. . ويذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ من آية (١٧١) إلى نهاية آية (١٨٦) .

المنَاسَبَة : لما حكى تعالى عن بني إسرائيل عصيانهم وتمردهم على أوامر الله ، حكى هنا ما عاقبهم به من اقتلاع جبل الطور وسحقهم به إن لم يعملوا بأحكام التوراة ، ثم ذكر تعالى مثلاً لعلماء السَّوْء في قصة الذي انسلخ عن آيات الله طمعاً في حطام الدنيا وضرب له مثلاً بالكلب اللاهث في حالتَيْ التعب والراحة ، وكفى به تصويراً لنفسية اليهود في تكالبهم على الدنيا وعبادتهم للمال .

اللغَة : ﴿نتقنا﴾ النتق : الجذب بقوة قال أبو عبيدة : أصل النتق قلعُ الشيء من موضعه والرميُ به[1] ﴿ظلة﴾ الظلةُ : كل ما أظلّك من سقفٍ أو سحابةٍ أو جناح حائط والجمع ظُلَلٌ وظِلال ﴿وظنوا﴾ علموا أو أيقنوا ﴿انسلخ﴾ الانسلاخُ : الخروجُ يقال لكل من فارق شيئاً بالكلية انسلخ منه وانسلخت الحية من جلدها أي خرجت منه ﴿أخلد﴾ مال الى الشيء وركن إليه وأصله اللزوم يقال أخلد فلان بالمكان إذا لزم الإقامة به ومنه الخلود في الجنة ﴿يَلْهث﴾ قال الجوهري : لَهَثَ الكلبُ يَلْهَثُ إذا أخرج لسانه من التعب أو العطش[2] ﴿ذرأنا﴾ خلقنا ﴿يُلحدون﴾ الإلحاد : الميلُ عن القصد والاستقامة يقال : ألحد في الدين ولحد فهو ملحد لانحرافه عن تعاليم الدين .

* ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾

التفسِير : ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم﴾ أي اذكر حين اقتلعنا جبل الطور ورفعناه فوق رءوس بني إسرائيل ﴿كأنه ظُلَّة﴾ أي كأنه سقيفة أو ظلة غمام ﴿وظنوا أنه واقع بهم﴾ أي أيقنوا أنه ساقط عليهم إن لم يمتثلوا الأمر قال المفسرون : روي أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لغلظها وثقلها فرفع الله الطور على رءوسهم وقيل لهم : إن قبلتموها بما فيها وإلاّ ليقعنَّ عليكم فلما نظروا إلى الجبل خرَّ كل واحد منهم ساجداً خوفاً من سقوطه ثم قال تعالى ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ أي وقلنا لهم خذوا التوراة بجد وعزيمة ﴿واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾ أي اذكروا ما فيه بالعمل واعملوا به لتكونوا في سلك المتقين ﴿وإذْ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم﴾ قال الطبري : أي واذكر يا محمد إذْ استخرج ربك أولاد آدم من أصلاب آبائهم فقرّرهم بتوحيده وأشهد بعضَهم على بعض بذلك[3] قال ابن عباس : مسح الله ظهر آدم فاستخرج منه كلَّ نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة . ﴿وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربكم قالوا بلى شهدنا﴾ أي

(١) الرازي ٤/ ٤٥٧ . (٢) الصحاح مادة لهث .

(٣) للمفسرين في هذه الآية قولان : أحدهما أن الله لما خلق آدم أخرج ذريته من صلبه وهم مثل الذر وأخذ عليهم العهد بأنه ربهم فأقروا وشهدوا بذلك وقد روي هذا المعنى عن النبي ﷺ من طرق كثيرة وقال به جماعة من الصحابة والثاني : أن هذا من باب التمثيل والتخييل والمعنى أنه سبحانه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته ، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقال لهم ألست بربكم فقالوا بلى وهذا الرأي اختاره الزمخشري وأبو حيان وأبو السعود والأول أصح .

وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ

وقرّرهم على ربوبيته ووحدانيته فأقروا بذلك والتزموه **﴿أنْ تقولوا يوم القيامة إنّا كنا عن هذا غافلين﴾** أي لئلا تقولوا يوم الحساب إنا كنا عن هذا الميثاق والإقرار بالربوبية غافلين لم ننبه عليه **﴿أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم﴾** أي ولكيلا تقولوا يوم القيامة أيضاً نحن ما أشركنا وإنما قلدنا آباءنا واتبعنا منهاجهم فنحن معذورون **﴿أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾** أي أفتهلكنا بإشراك من أشرك من آبائنا المضلّين بعد اتباعنا منهاجهم على جهلٍ منا بالحق ؟ **﴿وكذلك نفصّل الآيات ولعلهم يرجعون﴾** أي وكما بينا الميثاق نبيّن الآيات ليتدبرها الناس وليرجعوا عما هم عليه من الإصرار على الباطل وتقليد الآباء **﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها﴾** أي واتل يا محمد على اليهود خبر وقصة ذلك العالم الذي علمناه علم بعض كتب الله فانسلخ من الآيات كما تنسلخ الحية من جلدها بأن كفر بها وأعرض عنها **﴿فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين﴾** أي فلحقه الشيطان واستحوذ عليه حتى جعله في زمرة الضالين الراسخين في الغَواية بعد أن كان من المهتدين قال ابن عباس : هو « بلعم بن باعوراء » كان عنده اسم الله الأعظم وقال ابن مسعود : هو رجل من بني إسرائيل بعثه موسى إلى ملك « مَدْيَنَ » داعياً إلى الله فرشاه الملك وأعطاه المُلْك على أن يترك دين موسى ويتابع الملك على دينه ففعل وأضل الناس بذلك[1] **﴿ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتّبع هواه﴾** أي لو شئنا لرفعناه إلى منزل العلماء الأبرار ولكنه مال إلى الدنيا وسكن إليها وآثرلذاتها وشهواتها على الآخرة واتبع ما تهواه نفسه فانحط أسفل سافلين **﴿فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يَلْهث أو تتركه يلهثْ﴾** أي فمثله في الخسة والدناءة كمثل الكلب إن طردته وزجرته فسعى لَهَث ، وإن تركته على حاله لَهَث ، وهو تمثيل بادي الروعة ظاهر البلاغة **﴿ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾** أي هذا المثل السيء هو مثلٌ لكل من كذّب بآيات الله ، وفيه تعريضٌ باليهود فقد أوتوا التوراة وعرفوا صفة النبي عليه الصلاة والسلام فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وانسلخوا من حكم التوراة **﴿فاقصص القَصَص لعلهم يتفكرون﴾** أي اقصص على أمتك ما أوحينا إليك لعلهم يتدبرون فيها ويتعظون **﴿ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾** أي بئس مثلاً مثلُ القوم المكذبين بآيات الله **﴿وأنفسَهم كانوا يظلمون﴾** أي وما ظلموا

---

(١) التسهيل ٢/ ٥٤

﴿ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾

بالتكذيب إلا أنفسهم فإن وباله لا يتعداها ﴿**من يهد الله فهو المهتـدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون**﴾ أي من هداه الله فهو السعيد الموفق ، ومن أضله فهو الخائب الخاسر لا محالة ، والغرضُ من الآية بيان أن الهداية والإضلال بيد الله ﴿**ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس**﴾ أي خلقنا لجهنم ليكونوا حطباً لها خلقاً كثيراً كائناً من الجن والإنس ، والمراد بهم الذين حقت عليهم الكلمة الأزلية بالشقاوة ﴿**لهم قلوبٌ لا يفقهون بها**﴾ أي لهم قلوب لا يفهمون بها الحق ﴿**ولهم أعينٌ لا يبصرون بها**﴾ أي لا يبصرون بها دلائل قدرة الله بصر اعتبار ﴿**ولهم أذان لا يسمعون بها**﴾ أي لا يسمعون بها الآيات والمواعظ سماع تدبر واتعاظ ، وليس المراد نفي السمع والبصر بالكلية وإنما المراد نفيها عما ينفعها في الدين ﴿**أولئك كالأنعام بل هم أضل**﴾ أي هم كالحيوانات في عدم الفقه والبصر والاستماع بل هم أسوأ حالاً من الحيوانات فإنها تدرك منافعها ومضارها وهؤلاء لا يميزون بين المنافع والمضار ولهذا يُقْدمون على النار ﴿**أولئك هم الغافلون**﴾ أي الغارقون في الغفلة ﴿**ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها**﴾ أي لله الأسماء التي هي أحسن الأسماء وأجلها لإنبائها عن أحسن المعاني وأشرفها فسمّوه بتلك الأسماء ﴿**وذروا الذين يُلحدون في أسمائه**﴾ أي اتركوا الذين يميلون في أسمائه تعالى عن الحق كما فعل المشركون حيث اشتقوا لآلهتهم أسماء منها كاللات من الله ، والعُزَّى من العزيز ، ومناة من المنّان ﴿**سيُجزون ما كانوا يعملون**﴾ أي سينالون جزاء ما عملوا في الآخرة ﴿**وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون**﴾ أي ومن بعض الأمم التي خلقنا أمة مستمسكة بشرع الله قولاً وعملاً يدعون الناس إلى الحق وبه يعملون ويقضون قال ابن كثير : والمراد في الآية هذه الأمة المحمدية لحديث (لا تزالُ طائفةٌ من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذَلَهم ولا من خالَفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك)[١] وهذه الطائفة لا تختص بزمان دون زمان بل هم في كل زمان وفي كل مكان ، فالإسلام دائماً يعلو ولا يُعلى عليه وإن كثر الفُسَّاق وأهل الشر فلا عبرة فيهم ولا صَوْلة لهم ، وفي الحديث بشارة عظيمة لهذه الأمة المحمدية بأن الإسلام في علوّ وشرف وأهله كذلك إلى قرب الساعة ﴿**والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون**﴾ أي والذين كذبوا بالقرآن من أهل مكة وغيرهم سنأخذهم قليلاً وندنيهم من الهلاك من حيث لا يشعرون قال البيضاوي : وذلك بأن تتواتر عليهم النعم ، فيظنوا أنها لطف من الله تعالى بهم فيزدادوا بطراً وانهماكاً في الغيِّ حتى تحق عليهم كلمة العذاب[٢] ﴿**وأُملي لهم**﴾ أي وأمهلهم ثم آخذهم أخذ

(١) المختصر ٢/ ٧٠ والحديث في الصحيحين . (٢) البيضاوي ص ٢٠٥ .

وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

عزيز مقتدر كما في الحديث الشريف (إن الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته) ﴿إن كيدي متين﴾ أي أخذي وعقابي قوي شديد وإنما سمّاه كيداً لأن ظاهره إحسانٌ وباطنه خذلان ﴿أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنَّة﴾ أي أولم يتفكر هؤلاء المكذبون بآيات الله فيعلموا أنه ليس بمحمدﷺ جنون بل هو رسول الله حقاً أرسله الله لهدايتهم ، وهذا نفيٌ لما نسبه له المشركون من الجنون في قولهم ﴿يا أيها الذي نُزّل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ ﴿إن هو إلا نذيرٌ مبين﴾ أي ليس محمد إلا رسول منذر أمره بيّن واضح لمن كان له لبٌّ أو قلبٌ يعقل به ويعي ﴿ أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض﴾ أي أولم ينظروا نظر استدلال في ملك الله الواسع مما يدل على عظم الملك وكمال القدرة ، والاستفهام للإنكار والتعجب والتوبيخ ﴿وما خلق الله من شيء﴾ أي وفي جميع مخلوقات الله الجليل فيها والدقيق فيستدلوا بذلك على كمال قدرة صانعها وعظم شأن مالكها ووحدة خالقها ومبدعها ؟ ﴿وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم﴾ أي وأن يتفكروا لعلهم يموتون عن قريب فينبغي لهم أن يسارعوا إلى النظر والتدبر فيما يخلصهم عند الله قبل حلول الأجل ﴿فبأي حديث بعده يؤمنون﴾ أي فبأي حديث بعد القرآن يؤمنون إذا لم يؤمنوا به وهو النهاية في الظهور والبيان ﴿من يضلل الله فلا هادي له﴾ أي من كتب الله عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد ﴿ويذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ أي ويتركهم في كفرهم وتمردهم يترددون ويتحيرون .

البَلاَغَة : ١ - ﴿وإذْ أخذ ربك﴾ فيه التفات من المتكلم إلى المخاطب والأصلُ وإذْ أخذنا والنكتة في ذلك تعظيم شأن الرسول بتوجيه الخطاب له ، ولا يخفى أيضاً ما في الإضافة إلى ضميره عليه السلام ﴿ربك﴾ من التكريم والتشريف ، وفي الآية البيانُ بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال ﴿فانسلخ منها﴾ أي خرج منها بالكلية انسلاخ الجلد من الشاة قال أبو السعود : التعبير عن الخروج منها بالانسلاخ للإيذان بكمال مباينته للآيات بعد أن كان بينهما كمال الاتصال[1] ﴿فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ فيه تشبيه تمثيلي أي حاله التي هي مثلٌ في السوء كحال أخسّ الحيوانات وأسفلها وهي حالة الكلب في دوام لهثه في حالتي التعب والراحة فالصورة منتزعة من متعدد ولهذا يسمى التشبيه التمثيلي ﴿أولئك كالأنعام﴾ التشبيه هنا مرسل مجمل .

فَائِدَة : روي عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ألستُ بربكم قالوا بلى﴾ أنه قال : لو قالوا نعم لكفروا ، ووجهه أن « نَعَمْ » تصديقٌ للمخبر بنفيٍ أو إيجاب فكأنهم أقروا أنه ليس ربهم بخلاف « بلى »

(١) أبو السعود ٢/ ٢١٠ .

فإنها حرف جواب وتختص بالنفي وتفيد إبطاله فالمعنى بلى أنت ربنا ولو قالوا نعم لصار المعنى نعم لستَ ربنا فهذا وجه قول ابن عباس فتنبه له فإنه دقيق .

تنبيه : في الحديث الشريف (إنّ لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة) رواه الترمذي قال العلماء : معناه من حفظها وتفكر في مدلولها دخل الجنة وليس المراد حصر أسمائه تعالى في هذه التسعة والتسعين بدليل ما جاء في الحديث الآخر (اسألك بكل اسم سميت به نفسك ، او استأثرت به في علم الغيب عندك) وقد ذكر ابن العربي عن بعضهم أن للّه تعالى ألف اسم .

* * *

قال الله تعالى : ﴿يسئلونك عن الساعة أيان مرساها . . إلى . . ويسبحونه وله يسجدون﴾

من آية (١٨٧) إلى آية (٢٠٦) نهاية السورة الكريمة .

المناسبة : لما ذكر تعالى موقف المستهزئين من دعوة الرسول ﷺ ذكر هنا طرفاً من عنادهم واستهزائهم بسؤالهم الرسول ﷺ عن وقت قيام الساعة ، ثم ذكر الحجج والبراهين على بطلان عقيدة المشركين في عبادة الأوثان والأصنام ، وختم السورة الكريمة ببيان عظمة شأن القرآن ووجوب الاستماع والإنصات عند تلاوته .

اللغة : ﴿مرساها﴾ استقرارها وحصولها من أرساه إذا أثبته وأقره ومنه رست السفينة إذا ثبتت ووقفت ﴿يجلّيها﴾ يظهرها ، والتجلية : الكشفُ والإظهار ﴿حفيٌ﴾ الحفيُّ : المستقصي للشيء المعتني بأمره قال الأعشى :

فإن تسألي عنّي فيا ربَّ سائلٍ حفيٌّ عن الأعشى به حيث أصْعَدا[1]

والإحفاء الاستقصاء ومنه إحفاء الشوارب وحفي عن الشيء إذا بحث للتعرف عن حاله ﴿العُرْف﴾ المعروف وهو كل خصلة حميدة ترتضيها العقول وتطمئن إليها النفوس ﴿الآصال﴾ جمع أصيل قال الجوهري : والأصيل الوقت بعد العصر إلى المغرب[2] .

سَبَبُ النّزول : روي أن المشركين قالوا للنبي ﷺ : إن كنتَ نبياً فأخبرنا عن الساعة متى تقوم ؟ فأنزل الله ﴿يسألونك عن الساعة أيّان مرساها﴾[3] .

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ

التفسير : ﴿يسألونك عن الساعة﴾ أي يسألونك يا محمد عن القيامة ﴿أيّان مرساها﴾ أي متى وقوعها وحدوثها ؟ وسميت القيامة ساعة لسرعة ما فيها من الحساب كقوله ﴿وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أوهو أقرب﴾ ﴿قل إنما علمها عند ربي﴾ أي قل لهم يا محمد لا يعلم الوقت الذي يحصل قيام القيامة فيه

(١) القرطبي ٧/ ٣٣٦ . (٢) الصحاح مادة أصل . (٣) القرطبي ٧/ ٣٣٥ .

وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا

إلا الله سبحانه ثم أكّـد ذلك بقوله ﴿لا يُجلّيها لوقتها إلا هو﴾ أي لا يكشف أمرها ولا يظهرها للناس إلا الرب سبحانه بالذات فهو العالم بوقتها ﴿ثقُلت في السموات والأرض﴾ أي عظُمت على أهل السموات والأرض حيث يشفقون منها ويخافون شدائدها وأهوالها[1] ﴿يسألونك كأنك حفيٌّ عنها﴾ أي يسألونك يا محمد عن وقتها كأنـك كثير السؤ ال عنها شديد الطلب لمعرفتها ﴿قل إنما علمها عند الله﴾ أي لا يعلم وقتها إلا الله لأنها من الأمور الغيبية التي استأثر بها علاّم الغيوب ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي لا يعلمون السبب الذي لأجله أُخْفيتْ قال الإمام الفخر : والحكمة في إخفاء الساعة عن العباد أنهم إذا لم يعلموا متى تكون كانوا على حذرٍ منها فيكون ذلك أدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية[2] ﴿قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله﴾ أي لا أملك أن أجلب إلى نفسي خيراً ولا أدفع عنها شراً إلا بمشيئته تعالى فكيف أملك علم الساعة ؟ ﴿ولو كنتُ أعلم الغيب لاستكثرت من الخير﴾ أي لو كنت أعرف أمور الغيب لحصّلت كثيراً من منافع الدنيا وخيراتها ودفعت عني آفاتها ومضراتها ﴿وما مسني السوء﴾ أي لو كنت أعلم الغيب لاحترست من السوء ولكنْ لا أعلمه فلهذا يصيبني ما قُدِّر لي من الخير والشر ﴿إن أنـا إلا نذير وبشير﴾ أي ما أنا إلا عبد مرسل للإنذار والبشارة ﴿لقوم يؤمنون﴾ أي لقوم يصدقون بما جئتهم به من عند الله ﴿هو الذي خلقكم من نفسٍ واحدة﴾ أي هو سبحانه ذلك العظيم الشأن الذي خلقكم جميعاً وحده من غير معين من نفسٍ واحدة هي آدم عليه السلام ﴿وجعل منها زوجها﴾ أي وخلق منها حواء ﴿ليسكن إليها﴾ أي ليطمئن إليها ويستأنس بها ﴿فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً﴾ أي فلما جامعها حملت بالجنين حملاً خفيفاً دون إزعاج لكونه نطفةً في بادىء الأمر قال ابو السعود : فإنه عند كونه نطفة أو علقة أخف عليها بالنسبة إلى ما بعد ذلك من المراتب ، والتعرضُ لذكر خفته للإشارة الى نعمته تعالى عليهم في إنشائه إياهم متدرجين في أطوار الخلق من العدم إلى الوجود ، ومن الضعف إلى القوة[3] ﴿فمرت به﴾ أي استمرت به إلى حين ميلاده ﴿فلما أثقلت﴾ أي ثقل حملها وصارت به ثقيلة لكبر الحمل في بطنها ﴿دعَوا الله ربهما﴾ أي دعوا الله مربيهما ومالك أمرهما ﴿لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين﴾ أي لئن رزقتنا ولداً صالحاً سويَّ الخِلْقة لنشكرنَّك

(١) هذا قول قتادة وقيل المعنى : خفي علمها على أهل السموات والأرض . (٢) الفخر الرازي ٤/ ٤٨٤ . (٣) أبو السعود ٢

يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ

على نعمائك ﴿فلما آتاهما صالحاً﴾ أي فلما وهبهما الولد الصالح السويّ ﴿جعلا له شركاء فيما آتاهما﴾ أي جعل هؤلاء الأولاد والذرية[1] شركاء مع الله فعبدوا الأوثان والأصنام ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾ أي تنزّه وتقدّس الله عما ينسبه إليه المشركون ﴿أيشركون ما لا يخلق شيئاً﴾ الاستفهام للتوبيخ أي أيشركون مع الله ما لا يقدر على خلق شيء أصلاً ﴿وهم يُخلقون﴾ أي والحال أن تلك الأوثان والآلهة مخلوقة فكيف يعبدونها مع الله ؟ قال القرطبي : وجمع الضمير بالواو والنون لأنهم اعتقدوا أن الأصنام تضر وتنفع فأجريت مجرى الناس[2] ﴿ولا يستطيعون لهم نصراً﴾ أي لا تستطيع هذه الأصنام نصر عابديها ﴿ولا أنفسهم ينصرون﴾ أي ولا ينصرون أنفسهم ممن أرادهم بسوء ، فهم في غاية العجز والذلة فكيف يكونون آلهة ؟ ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتَّبعوكم﴾ أي أن الأصنام لا تجيب إذا دعيت إلى خير أو رشاد لأنها جمادات ﴿سواءٌ عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون﴾ أي يتساوى في عدم الإفادة دعاؤكم لهم وسكوتكم قال ابن كثير : يعني أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها ، وسواء لديها من دعاها ومن دحاها كما قال ابراهيم ﴿يا أبتِ لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾[3] ﴿إنَّ الذين تدعون من دون الله عبادٌ أمثالكم﴾ أي إن الذين تعبدونهم من دونه تعالى من الأصنام وتسمونهم آلهة مخلوقون مثلكم بل الأناس أكمل منها لأنها تسمع وتبصر وتبطش وتلك لا تفعل شيئاً من ذلك فلهذا قال ﴿فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين﴾ أمرٌ على جهة التعجيز والتبكيت أي أدعوهم في جلب نفع أو دفع ضرٍّ إن كنتم صادقين في دعوى أنها آلهة[4] ﴿ألهم أرجلٌ

(١) ذهبنا إلى هذا الرأي لجلائه ووضوحه وهو ما رجحه المحققون من أهل العلم ، وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن الآية في «آدم وحواء» وأن الضمير في قوله تعالى ﴿جعلا له شركاء﴾ يعود إليهما ورووا في ذلك أحاديث وآثار منها ما روي عن سمرة مرفوعاً قال : « لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش بها ولد فقال سمّيه : عبد الحارث فإنه يعيش ، فسمته عبد الحارث فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان » رواه أحمد والترمذي قال الحافظ ابن كثير : وهذا الحديث معلولٌ من ثلاثة أوجه وقد وضحها رحمه الله ورجح أن الحديث موقوف وضعّف ما ورد من آثار ثم روى بسنده عن الحسن أنه قال : كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم ثم قال ابن كثير : وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري في هذا وأنه ليس المراد من هذا السياق « آدم وحواء » وإنما المراد المشركون من ذريته بدليل قول الله بعده ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾ أقول : وهو الحق الذي لا محيد عنه (٢) القرطبي ٧/ ٣٤١.

(٣) المختصر ٢/ ٧٥ (٤) قال الحافظ ابن كثير : اسلم معاذ بن جبل . ومعاذ بن عمرو بن الجموح وكانا شابين فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتخذانها حطباً ، وكان لعَمْرو بن الجموح ـ وهو سيد قومه ـ صنمٌ يعبده ويطيّبه فكانا يجيئان في الليل فينكسانه على رأسه ويلطخانه بالعذرة ـ النجس ـ فيجيء عمرو بن الجموح فيرى ما صنع به فيغسله ويطيّبه ويضع عنده سيفاً ويقول له : انتصر ، ثم يعودان لمثل ذلك ويعود إلى صنيعه حتى أخذاه مرة فقرناه مع كلب ميت ودليّاه في بئر هناك ، فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك علم أن ما عليه من الدين باطل فأنشد يقول

« تـاللّـه لو كنتَ إلهاً مستَدن ... لـم تـكُ والـكلبَ جميعاً في قَرَن »

ثم أسلم فحسن إسلامه وقتل يوم أحد شهيداً .

﴿أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾

يمشون بها﴾ توبيخ إثر توبيخ وكذلك ما بعده من الاستفهام للتقريع والتوبيخ أي هل لهذه الأصنام ﴿أم لهم أيدٍ يبطشون بها﴾ أي أم هل لهم أيدٍ تفتك وتبطش بمن أرادها بسوء؟ ﴿أم لهم أعينٌ يبصرون بها﴾ أي أم هل لهم أعينٌ تبصر بها الأشياء؟ ﴿أم لهم آذان يسمعون بها﴾ أي أم هل لهم آذان تسمع بها الأصوات ؟ والغرض بيان جهلهم وتسفيه عقولهم في عبادة جمادات لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عن عابدها شيئاً لأنها فقدت الحواس وفاقد الشيء لا يعطيه ، والإنسان أفضل بكثير من هذه الأصنام لوجود العقل والحواس فيه فكيف يليق بالأكمل الأشرف أن يشتغل بعبادة الأخسّ الأدون الذي لا يحسُّ منه فائدة أبداً لا في جلب منفعة ولا في دفع مضرّة ؟! ﴿قل ادعوا شركاءكم﴾ أي قل لهم يا محمد أدعوا أصنامكم واستنصروا واستعينوا بها عليَّ ﴿ثمَّ كيدون فلا تُنْظرون﴾ أي ابذلوا جهدكم أنتم وهم في الكيد لي وإلحاق الأذى والمضرة بي ولا تمهلون طرفة عين ، فإني لا أبالي بكم لاعتمادي على الله قال الحسن : خوفوا الرسول ﷺ بآلهتهم فأمره تعالى أن يجابههم بذلك ﴿إن وليّي الله الذي نزَّل الكتاب﴾ أي إنَّ الذي يتولى نصري وحفظي هو الله الذي نزَّل عليَّ القرآن ﴿وهو يتولّى الصالحين﴾ أي هو جل وعلا يتولى عباده الصالحين بالحفظ والتأييد، وهو وليهم في الدنيا والآخرة ﴿والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون﴾ كرّره ليبيّن أن ما يعبدونه لا ينفع ولا يضر ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا﴾ أي وإن تدعوا هذه الأصنام إلى الهداية والرشاد لا يسمعوا دعاءكم فضلاً عن المساعدة والإمداد ﴿وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾ أي وتراهم يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة وهي جماد لا تبصر لأن لهم صورة الأعين وهم لا يرون بها شيئاً ﴿خذ العفو﴾ أمرٌ له عليه الصلاة والسلام بمكارم الأخلاق أي خذ بالسهل اليسير في معاملة الناس ومعاشرتهم قال ابن كثير : وهذا أشهر الأقوال ويشهد له قول جبريل للرسول ﷺ « إن الله يأمركَ أن تعفو عمن ظلمك ، وتعطي من حرمك ، وتصل من قطعك » ﴿وأمرْ بالعُرف﴾ أي بالمعروف والجميل المستحسن من الأقوال والأفعال ﴿وأعرضْ عن الجاهلين﴾ أي لا تقابل السفهاء بمثل سفههم بل احلم عليهم قال القرطبي : وهذا وإن كان خطاباً لنبيه عليه الصلاة والسلام فهو تأديبٌ لجميع خلقه[1] ﴿وإمّا ينزغنَّك من الشيطان نزغٌ﴾ أي وإمّا يصيبنَّك يا محمد طائف من الشيطان

(١) القرطبي ٧/ ٣٤٧

نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾

بالوسوسة والتشكيك في الحق ﴿فاستعذ بالله﴾ أي فاستجر بالله والجأ إليه في دفعه عنك ﴿إنه سميعٌ عليم﴾ أي سميعٌ لما تقول عليمٌ بما تفعل ﴿إن الذين اتقوا﴾ أي الذين اتصفوا بتقوى الله ﴿إذامسّهم طائف من الشيطان﴾ أي إذا أصابهم الشيطان بوسوسته وحام حولهم بهواجسه ﴿تذكّروا﴾ أي تذكروا عقاب الله وثوابه ﴿فإذا هم مبصرون﴾ أي يبصرون الحق بنور البصيرة ويتخلصون من وساوس الشيطان ﴿وإخوانهم يمدونهم في الغيّ﴾ أي إخوان الشياطين الذين لم يتقوا الله وهم الكفرة الفجرة فإن الشياطين تغويهم وتزين لهم سبل الضلال ﴿ثم لا يُقصرون﴾ أي لا يُمسكون ولا يكفّون عن إغوائهم ﴿وإذا لم تأتهم بآية﴾ أي وإذا لم تأتهم بمعجزةٍ كما اقترحوا ﴿قالوا لولا اجتبيتها﴾ أي هلاّ اختلقتها يا محمد واخترعتها من عند نفسك ؟! وهو تهكمٌ منهم لعنهم الله ﴿قل إنما أتبع ما يوحى إليَّ من ربي﴾ أي قل لهم يا محمد ليس الأمر إليَّ حتى آتي بشيءٍ من عند نفسي وإنما أنا عبدٌ امتثل ما يوحيه الله إليَّ ﴿هذا بصائر من ربكم﴾ أي هذا القرآن الجليل حججٌ بيِّنة ، وبراهين نيّرة يغني عن غيره من المعجزات فهو بمنزلة البصائر للقلوب به يُبْصر الحق ويُدرك ﴿وهدى ورحمة لقومٍ يؤمنون﴾ أي وهداية ورحمة للمؤمنين لأنهم المقتبسون من أنواره والمنتفعون من أحكامه ﴿وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا﴾ أي وإذا تليت آيات القرآن فاستمعوها بتدبر واسكتوا عند تلاوته إعظاماً للقرآن وإجلالاً ﴿لعلكم ترحمون﴾ أي لكي تفوزوا بالرحمة ﴿واذكر ربك في نفسك﴾ أي واذكر ربك سراً مستحضراً لعظمته وجلاله ﴿تضرعاً وخيفة﴾ أي متضرعاً إليه وخائفاً منه ﴿ودون الجهر من القول﴾ أي وسطاً بين الجهر والسرّ ﴿بالغدو والآصال﴾ أي في الصباح والعشيّ ﴿ولا تكن من الغافلين﴾ أي ولا تغفُل عن ذكر الله ﴿إن الذين عند ربك﴾ أي الملائكة الأطهار ﴿لا يستكبرون عن عبادته﴾ أي لا يتكبرون عن عبادة ربهم ﴿ويسبحونه﴾ أي ينزهونه عما لا يليق به ﴿وله يسجدون﴾ أي لا يسجدون إلا لله .

البَلاَغَة : ١ ـ ﴿كأنك حفيٌّ عنها﴾ التشبيه مرسل مجمل لذكر أداة التشبيه وحذف وجه الشبه .

٢ ـ ﴿فلما تغشاها﴾ التغشي هنا كناية عن الجماع وهو من الكنايات اللطيفة .

٣ ـ ﴿ألهم أرجل يمشون بها . .﴾ الخ هذا الأسلوب يسمى « الإطناب » وفائدته زيادة التقـريع والتوبيخ .

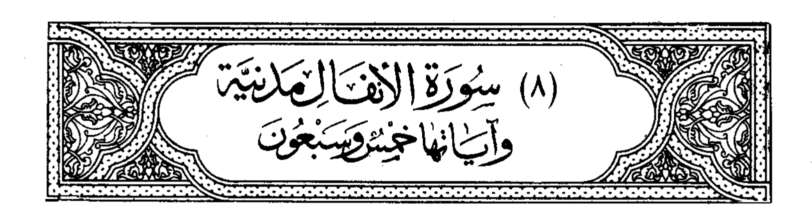
٤ ـ ﴿ينزغـنَّك من الشيطان نزغٌ﴾ شبّه وسوسة الشيطان وإغراءه الناس على المعاصي بالنزغ وهو إدخال الإبرة وما شابهها في الجلد ففيه استعارة لطيفة .

٥ ـ ﴿هذا بصائر من ربكم﴾ فيه تشبيه بليغ وأصله هذا كالبصائر ، حُذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فهو بليغ ويرى بعض العلماء أنه من قبيل المجاز المرسل حيث أطلق المسبَّب على السبب لأن القرآن لما كان سبباً لتنوير العقول أطلق عليه لفظ البصيرة .

لطيفـــة : حكي عن بعض السلف أنه قال لتلميذه : ما تصنع بالشيطان إذا سوَّل لك الخطايا ؟ قال : أجاهده قال : فإن عاد ؟ قال : أجاهده قال : فإن عاد ؟ قال : أجاهده ، قال إن هذا يطول ، أرأيت لو مررت بغنم فنبحك كلبها ومنعك من العبور ماذا تصنع ؟ قال : أكابـده وأرده جهدي قال : هذا يطول عليك ولكن استغث بصاحب الغنم يكفه عنك ، فهذه فائدة الإستعاذة.

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الأعراف »

* * *



بين يدي السورة

* سورة الأنفال إحدى السور المدنية التي عُنيت بجانب التشريع ، وبخاصة فيما يتعلق بالغزوات والجهاد في سبيل الله ، فقد عالجت بعض النواحي الحربية التي ظهرت عقب بعض الغزوات ، وتضمنت كثيراً من التشريعات الحربية ، والإرشادات الإلهية التي يجب على المؤمنين اتباعها في قتالهم لأعداء الله ، وتناولت جانب السلم والحرب ، وأحكام الأسر والغنائم .

* نزلت هذه السورة الكريمة في أعقاب « غزوة بدر » التي كانت فاتحة الغزوات في تاريخ الإسلام المجيد ، وبداية النصر لجند الرحمن حتى سماها بعض الصحابة « سورة بدر » لأنها تناولت أحداث هذه الموقعة بإسهاب ، ورسمت الخطة التفصيلية للقتال ، وبيّنت ما ينبغي أن يكون عليه المسلم من البطولة والشهامة ، والوقوف في وجه الباطل بكل شجاعة وجرأة وحزم وصمود .

* ومن المعلوم من تاريخ الغزوات التي خاضها المسلمون أن غزوة بدر كانت في رمضان من السنة الثانية للهجرة ، وكانت هي الجولة الأولى من جولات الحق مع الباطل ، ورد البغي والطغيان ، وإنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، الذين قعد بهم الضعف في مكة ، وأخذوا في الضراعة إلى الله أن يخرجهم من القرية الظالم أهلها ، وقد استجاب الله ضراعتهم فهيأ لهم ظروف تلك الغزوة ، التي تمَّ فيها النصر للمؤمنين على قلة في عددهم ، وضعف في عُدَدهم ، وعلى عدم تهيئهم للقتال ، وبها عرف أنصار الباطل أنه مهما طال أمده ، وقويت شوكته ، وامتد سلطانه ، فلا بدَّ له من يوم يخرّ فيه صريعاً أمام جلال الحق وقوة الإيمان ، وهكذا كانت غزوة بدر نصراً للمؤمنين ، وهزيمة للمشركين .

* وفي ثنايا سرد أحداث بدر جاءت النداءات الإلهية للمؤمنين ست مرات بوصف الإيمان ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ كحافز لهم على الصبر والثبات في مجاهدتهم لأعداء الله ، وكتذكير لهم بأن هذه التكاليف التي أُمروا بها من مقتضيات الإيمان الذي تحلوا به ، وأن النصر الذي حازوا عليه كان بسبب الإيمان لا بكثرة السلاح والرجال .

* أما النداء الأول : فقد جاء فيه التحذير من الفرار من المعركة ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين

كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار﴾ وقد توعدت الآيات المنهزمين أمام الأعداء بأشد العذاب .

* وأما النداء الثاني : فقد جاء فيه الأمر بالسمع والطاعة لأمر الله وأمر رسوله ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون﴾ كما صوّرت الآيات الكافرين بالأنعام السارحة التي لا تسمع ولا تعي ولا تستجيب لدعوة الحق .

* وأما النداء الثالث : فقد بيّن فيه أن ما يدعوهم إليه الرسول فيه حياتهم وعزتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يُحييكم . . ﴾ الآية .

* وأما النداء الرابع : فقد نبههم فيه إلى أنَّ إفشاء سر الأمة للأعداء خيانة للّهِ ولرسوله وخيانة للأمة أيضاً ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون﴾ .

* وأما النداء الخامس : فقد لفت نظرهم فيه إلى ثمرة التقوى ، وذكرهم بأنها أساس الخير كله ، وأن من أعظم ثمرات التقوى ذلك النور الرباني ، الذي يقذفه الله في قلب المؤمن ، وبه يفرق بين الرشد والغيّ ، والهدى والضلال ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفّر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم ، والله ذو الفضل العظيم﴾ .

* وأما النداء السادس : وهو النداء الأخير فقد وضّح لهم فيه طريق العزة ، وأسس النصر ، وذلك بالثبات أمام الأعداء ، والصبر عند اللقاء ، واستحضار عظمة الله التي لا تحد ، وقوته التي لا تقهر ، والاعتصام بالمدد الروحي الذي يعينهم على الثبات ألا وهو ذكر الله كثيراً ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾ .

* وقد ختمت السورة الكريمة ببيان الولاية الكاملة بين المؤمنين ، وأنه مهما تناءت ديارهم ، واختلفت أجناسهم ، فهم أمة واحدة ، وعليهم نصر الذين يستنصرونهم في الدين ، كما أن ملة الكفر أيضاً واحدة ، وبين الكافرين ولاية قائمة على أسس البغي والضلال ، وأنه لا ولاية بين المؤمنين والكافرين ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلاّ تفعلوه تكن فِتنةٌ في الأرض وفساد كبير﴾ .

* هذه خلاصة ما أشارت إليه السورة الكريمة من أهداف ، وما أرشدت إليه من دروس وعبر ، نسأله تعالى أن يجعلنا من أهل الفهم والبصر .

قال الله تعالى : ﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال . . إلى . . لتولوا وهم معرضون﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٢٣) .

اللغــة : ﴿الأنفال﴾ الغنائم جمع نفل بالفتح وهو الزيادة وسميت الغنائم به لأنها زيادة على القيام بحماية الدين والأوطان ، وتسمى صلاة التطوع نفلاً ، وولد الولد نافلة لهذا المعنى قال لبيد :

إنَّ تقوى ربّنا خير نفل ... وبإذن اللهِ ريثي والعجل

﴿وجلت﴾ الوجل : الخوف والفزع ﴿ذات الشوكة﴾ الشوكة : السلاح وأصلها من الشَّوك قال أبو عبيدة : ومجاز الشوكة الحد يقال : ما أشدَّ شوكة بني فلان أي حدّهم[١] ﴿تستغيثون﴾ الاستغاثة : طلب النصرة والعون ﴿مردفين﴾ متتابعين يتلو بعضهم بعضاً وردف وأردف بمعنى واحد أي تبع قال الطبري : العرب تقول : أردفته وردِفته بمعنى تبعته وأتبعته قال الشاعر : إذا الجوزاء أردفت الثريا[٢] ﴿بنان﴾ البنان : جمع بنانة وهي أطراف أصابع اليدين والرجلين قال عنترة :

وكان فتى الهيجاء يحمي ذِمارها ويضرب عند الكَربِ كلَّ بنان[٣]

﴿زحفاً﴾ الزحف: الدنو قليلاً مأخوذ من زحف الصبي إذا مشى على أليته قليلاً قليلاً ثم سمي به الجيش الكثير العدد لأنه لكثرته وتكاثفه يرى كأنه يزحف زحفاً ﴿متحيزاً﴾ منضماً يقال : تحيّز أي انضم واجتمع إلى غيره ﴿باء﴾ رجع ﴿موهن﴾ مضعف ﴿تستفتحوا﴾ استفتح : أي طلب الفتح والنصرة على عدوه .

سَبَبُ النّزول : أ ـ عن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ : من قتل قتيلاً فله كذا وكذا ، ومن أسر أسيراً فله كذا وكذا ، فأما المشيخة فثبتوا تحت الرايات ، وأما الشبان فتسارعوا الى القتل والغنائم فقال المشيخة للشبان : أشركونا معكم فإننا كنا لكم ردءاً ولو كان منكم شيء للجأتم إلينا فأبوا واختصموا إلى النبي ﷺ فنزلت ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ الآية فقسَّم ﷺ الغنائم بينهم بالسوية[٤] .

ب ـ روي أن النبي ﷺ أخذ قبضة من تراب يوم بدر فرمى بها في وجوه القوم وقال : شاهت الوجوه فما بقي أحد من المشركين إلا أصاب عينيه ومنخريه تراب من تلك القبضة وولوا مدبرين فنزلت ﴿وما رميت إذ رميت ولكنَّ الله رمى . . ﴾ الآية[٥] .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ

التفسِير : ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ أي يسألك أصحابك يا محمد عن الغنائم التي غنمتها من بدر لمن هي ؟ وكيف تقسم ؟ ﴿قل الأنفال لله والرسول﴾ أي قل لهم : الحكم فيها لله والرسول لا لكم ﴿فاتقوا الله﴾ أي اتقوا الله بطاعته واجتناب معاصيه ﴿وأصلحوا ذات بينكم﴾ أي أصلحوا الحال التي بينكم بالائتلاف وعدم الاختلاف ﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله في الحكم في الغنائم قال عبادة بن الصامت : نزلت فينا أصحاب بدر حين اختلفنا وساءت أخلاقنا ، فنزع الله الأنفال من أيدينا وجعلها لرسول الله ﷺ فقسمها على السواء فكان في ذلك تقوى الله ، وطاعة رسوله ، وإصلاح ذات البين[٦] ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ شرط حذف جوابه أي إن كنتم حقاً مؤمنين كاملين في الإيمان فأطيعوا الله ورسوله ﴿إنما المؤمنون﴾ أي إنما الكاملون في الإيمان المخلصون فيه ﴿الذين إذا ذُكر اللهُ وجلت

(١) زاد المسير ٣/ ٣٢٤ . (٢) الطبري ١٣/ ٤١٥ . (٣) القرطبي ٧/ ٣٧٩ .
(٤) روح المعاني ٩/ ١٦٢ . (٥) الطبري ١٣/ ٤٤٥ . (٦) التسهيل ٢/ ٦٠ .

إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾

قلوبهم﴾ أي إذا ذكر اسم الله فزعت قلوبهم لمجرد ذكره ، استعظاماً لشأنه ، وتهيباً منه جلَّ وعلا ﴿وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾ أي إذا تليت عليهم آيات القرآن ازداد تصديقهم ويقينهم بالله ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ [1] أي لا يرجون غير الله ولا يرهبون سواه قال في البحر : أخبر عنهم باسم الموصول بثلاث مقامات عظيمة وهي : مقام الخوف ، ومقام الزيادة في الإيمان ، ومقام التوكل على الرحمن[2] ﴿الذين يقيمون الصلاة﴾ أي يؤدون الصلاة على الوجه الأكمل بخشوعها وفروضها وآدابها ﴿وممّا رزقناهم ينفقون﴾ أي وينفقون في طاعة الله مما أعطاهم الله ، وهو عام في الزكاة ونوافل الصدقات ﴿أولئك هم المؤمنون حقاً﴾ أي المتصفون بما ذكر من الصفات الحميدة هم المؤمنون إيماناً حقاً لأنهم جمعوا بين الإيمان وصالح الأعمال ﴿لهم درجات عند ربهم﴾ أي لهم منازل رفيعة في الجنة ﴿ومغفرة﴾ أي تكفير لما فرط منهم من الذنوب ﴿ورزق كريم﴾ أي رزق دائم مستمر مقرون بالإكرام والتعظيم ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق﴾ الكاف تقتضي مشبّهاً قال ابن عطية : شبهت هذه القصة التي هي إخراجه من بيته بالقصة المتقدمة التي هي سؤالهم عن الأنفال وكراهتهم لما وقع[3] فيها ، والمعنى : حالهم في كراهة تنفيل الغنائم كحالهم في حالة خروجك للحرب وقال الطبري : المعنى : كما أخرجك ربك بالحق على كرهٍ من فريقٍ من المؤمنين كذلك يجادلونك في الحق بعدما تبيَّن ، والحقُّ الذي كانوا يجادلون فيه النبي ﷺ بعد ما تبيّنوه هو القتال[4] ﴿وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾ أي والحال أن فريقاً منهم كارهون للخروج لقتال العدو خوفاً من القتل أو لعدم الاستعداد ﴿يجادلونك في الحق بعد ما تبيَّن﴾ أي يجادلونك يا محمد في شأن الخروج للقتال بعد أن وضح لهم الحق وبان ، وكان جدالهم هو قولهم : ما كان خروجنا إلاّ للعير ولو عرفنا لاستعددنا للقتال ﴿كأنما يُساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾ قال البيضاوي : أي يكرهون القتال كراهة من ينساق إلى الموت وهو يشاهد أسبابه ، وذلك لقلة عددهم وعدم تأهبهم ، وفيه إيماء إلى أن مجادلتهم إنما كانت لفرط فزعهم ورعبهم[5] ﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم﴾ أي اذكروا حين وعدكم الله يا أصحاب محمد إحدى الفرقتين انها لكم غنيمة

(١) قال ابن الخطيب : ليقرأ هذه الآية وليتدبرها كل مؤمن ، وليعرضها على نفسه ، فإن وجدها تنطبق على صفاته فليهنأ بما آتاه الله من فضل ، وما وهبه من خير ، وإن وجدها في وادٍ وهو في واد ، فليلجأ إلى الرحيم الودود ، وليجأر الى اللطيف الحميد ، ان يصفي قلبه ويزيده إيماناً وتوكلا ، ويوفقه لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، فنعم القريب ونعم المجيب ، وليكن هذا بإخلاص قلب وصدق طوية .

(٢) البحر ٤/٤٥٧ . (٣) الطبري ٤/ ٤٦١ . (٤) الطبري ١٣/ ٢٩٣ . (٥) البيضاوي ص ٢٠٩ .

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ﴾

إما العير أو النفير ﴿وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم﴾ أي وتحبون أن تلقوا الطائفة التي لا سلاح لها وهي العير لأنها كانت محمّلة بتجارة قريش قال المفسرون : روي أن عير قريش أقبلت من الشام وفيها تجارة عظيمة برآسة أبي سفيان ، ونزل جبريل عليه السلام فقال يا محمد : إن الله وعدكم إحدى الطائفتين : إما العير وإما قريشاً ، فاستشار الرسول ﷺ أصحابه فاختاروا العير لخفة الحرب وكثرة الغنيمة ، فلما خرجوا بلغ الخبر أهل مكة فنادى أبو جهل : يا أهل مكة النجاء النجاءَ ، عيركُم أموالكم إن أصابها محمد فلن تفلحوا بعدها أبداً ، فخرج المشركون على كل صعب وذلول ومعهم أبو جهل حتى وصلوا بدراً ، ونجت القافلة فأخبر الرسول ﷺ أصحابه وقال لهم : إن العير قد مضت على ساحل البحر ، وهذا أبو جهل قد أقبل ، فقالوا يا رسول الله : عليك بالعير ودع العدو فغضب رسول الله فقام سعد بن عبادة فقال : امض بنا لما شئت فإنا متبعوك ، وقام سعد بن معاذ فقال : والذي بعثك بالحق لو خضت بنا البحر لخضناه معك فسرْ بنا على بركة الله ، فسُرَّ رسول الله ﷺ وقال لأصحابه : سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم[1] ﴿ويريد الله أن يحقَّ الحقَّ بكلماته﴾ أي يظهر الدين الحق وهو الإسلام بقتل الكفار وإهلاكهم يوم بدر ﴿ويقطع دابر الكافرين﴾ أي يستأصل الكافرين ويهلكهم جملة من أصلهم قال في البحر : والمعنى أنكم ترغبون في الفائدة العاجلة ، وسلامة الأحوال ، وسفساف الأمور ، والله تعالى يريد معالي الأمور ، وإعلاء الحق ، والفوز في الدارين ، وشتّان ما بين المرادين ، ولذلك اختار لكم ذات الشوكة وأراكهم عياناً خذلانهم ، فنصركم وهزمهم ، وأذلهم وأعزكم[2] ﴿ليحق الحق ويبطل الباطل﴾ متعلق بمحذوف تقديره : ليحق الحقَّ ويبطل الباطل فعل ما فعل والمراد إظهار الإسلام وإبطال الكفر ﴿ولو كره المجرمون﴾ أي ولو كره المشركون ذلك أي إظهار الإسلام وإبطال الشرك ﴿إذ تستغيثون ربكم﴾ أي اذكروا حين تطلبون من ربكم الغوث بالنصر على المشركين ، روي أن رسول الله ﷺ نظر إلى المشركين وهم ألف ، وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة وبضعة عشر ، فاستقبل القبلة ومدَّ يديه يدعو : اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلن تعبد في الأرض ، فما زال كذلك حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فأخذه أبو بكر فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال : يا نبيَّ الله كفاكَ مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فنزلت هذه الآية ﴿فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة﴾ أي استجاب الله الدعاء بأني معينكم بألف من الملائكة ﴿مُرْدفين﴾ أي متتابعين يتبع بعضهم بعضاً قال

(١) البيضاوي ص ٢٠٩ بتصرف . (٢) البحر ٤/ ٤٦٤ .

قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟

المفسرون : ورد أن جبريل نزل بخمسمائة وقاتل بها في يمين الجيش ، ونزل ميكائيل بخمسمائة وقاتل بها في يسار الجيش ، ولم يثبت ان الملائكة قاتلت في وقعة إلا في بدر ، وأما في غيرها فكانت تنزل الملائكة لتكثير عدد المسلمين ولا تقاتل[1] ﴿وما جعله الله إلا بشرى﴾ أي وما جعل إمدادكم بالملائكة إلا بشارة لكم بالنصر ﴿ولتطمئن به قلوبكم﴾ أي ولتسكن بهذا الإمداد نفوسكم ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ أي وما النصر في الحقيقة إلا من عند الله العلي الكبير فثقوا بنصره ولا تتكلوا على قوتكم وعدّتكم ﴿إن الله عزيز حكيم﴾ أي غالب لا يُغلب يفعل ما تقضي به الحكمة ﴿إذ يُغَشّيكم النعاسَ أمنة منه﴾ أي يلقي عليكم النوم أمناً من عنده سبحانه وتعالى ، وهذه معجزة لرسول الله ﷺ حيث غشي الجميعَ النومُ في وقت الخوف قال علي رضي الله عنه : « ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح »[2] قال ابن كثير : وكأن ذلك كان للمؤمنين عند شدة البأس ، لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله[3] ﴿وينزل عليكم من السماء ماء﴾ تعديد لنعمة أخرى ، وذلك أنهم عدموا الماء في غزوة بدر فأنزل الله عليهم المطر حتى سالت الأودية ، وكان منهم من أصابته جنابة فتطهر بماء المطر ﴿ليطهّركم به﴾ أي من الأحداث والجنابات ﴿ويُذهب عنكم رجْزَ الشيطان﴾ أي يدفع عنكم وسوسته وتخويفه إياكم من العطش ، قال البيضاوي : روي أنهم نزلوا في كثيبٍ أعفر ، تسوخ فيه الأقدام على غير ماء ، وناموا فاحتلم أكثرهم فوسوس إليهم الشيطان وقال : كيف تُنصرون وقد غُلبتم على الماء ، وأنتم تصلون محدثين مجنبين وتزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله ؟ فأنزل الله المطر حتى ثبتت عليه الأقدام وزالت الوسوسة[4] ﴿وليربط على قلوبكم﴾ أي يقوّيها بالثقة بنصر الله ﴿ويثبّت به الأقدام﴾ أي يُثبت بالمطر الأقدام حتى لا تسوخ في الرمل قال الطبري : ثبّت بالمطر أقدامهم لأنهم كانوا التقوا مع عدوهم على رملةٍ ميثاء فلبّدها المطر حتى صارت الأقدام عليها ثابتة لا تسوخ فيها[5] ﴿إذ يُوحي ربك إلى الملائكة أني معكم﴾ تذكير بنعمةٍ أخرى أي يوحي إلى الملائكة بأني معكم بالعون والنصر ﴿فثبتوا الذين آمنوا﴾ أي ثبتوا المؤمنين وقوّوا أنفسهم على أعدائهم ﴿سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ أي سأقذف في قلوب الكافرين الخوف والفزع حتى ينهزموا ﴿فاضربوا فوق الأعناق﴾ أي اضربوهم على الأعناق كقوله ﴿فضربَ الرقاب﴾ وقيل : المراد الرءوس لأنها فوق الأعناق ﴿واضربوا منهم كل بنان﴾ أي اضربوهم على أطراف الأصابع قال في التسهيل : وفائدة ذلك

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/ ١١٨ . (٢) رواه أبو يعلى . (٣) المختصر ٢/ ٩٠ .
(٤) البيضاوي ص ٢١٠ . (٥) الطبري ١٣/ ٤٢١ .

فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ

أن المقاتل إذا ضربت أصابعه تعطَّل عن القتال فأمكن أسره وقتله[1] ﴿ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله﴾ أي ذلك العذاب الفظيع واقع عليهم بسبب مخالفتهم وعصيانهم لأمر الله وأمر رسوله ﴿ومن يشاقق الله فإن الله شديد العقاب﴾ أي ومن يخالف أمر الله وأمر رسوله بالكفر والعناد فإن عذاب الله شديد له ﴿ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار﴾ أي ذلكم العقاب فذوقوه يا معشر الكفار في الدنيا ، مع أن لكم العقاب الآجل في الآخرة وهو عذاب النار ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً﴾ أي إذا لقيتم أعداءكم الكفار مجتمعين كأنهم لكثرتهم يزحفون زحفاً ﴿فلا تولوهم الأدبار﴾ أي فلا تنهزموا أمامهم بل اثبتوا واصبروا ﴿ومن يولهم يومئذٍ دبره﴾ أي ومن يولهم يوم اللقاء ظهره منهزماً ﴿إلا متحرفاً لقتال﴾ أي إلا في حال التوجه إلى قتال طائفة أخرى ، أو بالفر للكرّ بأن يخيّل إلى عدوه أنه منهزم ليغرّه مكيدة وهو من باب « الحرب خدعة » ﴿أو متحيزاً إلى فئة﴾ أي منضماً إلى جماعة المسلمين يستنجد بهم ﴿فقد باء بغضبٍ من الله﴾ أي فقد رجع بسخطٍ عظيم ﴿ومأواه جهنم﴾ أي مقره ومسكنه الذي يأوي إليه نار جهنم ﴿وبئس المصير﴾ أي بئس المرجع والمآل ﴿فلم تقتلوهم ولكنَّ الله قتلهم﴾ أي فلم تقتلوهم أيها المسلمون ببدر بقوتكم وقدرتكم ، ولكنَّ الله قتلهم بنصركم عليهم وإلقاء الرعب في قلوبهم ﴿وما رميتَ إذْ رميت﴾ أي وما رميت في الحقيقة أنت يا محمد أعين القوم بقبضةٍ من تراب لأن كفاً من تراب لا يملأ عيون الجيش الكبير قال ابن عباس : أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين وقال : شاهت الوجوه ، فلم يبق أحد منهم إلا أصاب عينيه ومنخريه من تلك الرمية فولوا مدبرين[2] ﴿ولكنَّ الله رمى﴾ أي بإيصال ذلك إليهم فالأمر في الحقيقة من الله ﴿وليُبْلي المؤمنين منه بلاءً حسناً﴾ أي فعل ذلك ليقهر الكافرين ويُنعم على المؤمنين بالأجر والنصر والغنيمة ﴿إن الله سميع عليم﴾ أي سميع لأقوالهم عليم بنياتهم وأحوالهم ﴿ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين﴾ أي ذلك[3] الذي حدث من قتل المشركين ونصر المؤمنين حق ، والغرض منه إضعاف وتوهين كيد الكافرين حتى لا تقوم لهم قائمة ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ هذا خطاب

---

(١) التسهيل ٢/ ٦٢ . (٢) الطبري ١٣/ ٤٤٣ . (٣) ذلكم مبتدأ حذف خبره تقديره : ذلكم الذي حدث حق .

ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

لكفار قريش أي إن تطلبوا يا معشر الكفار الفتح والنصر على المؤمنين فقد جاءكم الفتح وهو الهزيمة والقهر، وهذا على سبيل التهكم بهم قال الطبري في رواية الزهري: قال أبو جهل يوم بدر: اللهم أينا كان أفجر، وأقطع للرحم، فأحِنْه اليوم - أي أهلكه - فأنزل الله **﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾** فكان أبو جهل هو المستفتح **﴿وإن تنتهوا فهو خيرٌ لكم﴾** أي وإن تكفّوا يا معشر قريش عن حرب الرسول ومعاداته، وعن الكفر بالله ورسوله فهو خير لكم في دنياكم وآخرتكم **﴿وإن تعودوا نعدْ﴾** أي وإن تعودوا لحربه وقتاله نعد لنصره عليكم **﴿ولن تغني عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت﴾** أي لن تدفع عنكم جماعتكم التي تستنجدون بها شيئاً من عذاب الدنيا مهما كثر الأعوان والأنصار **﴿وأن الله مع المؤمنين﴾** أي لأن الله سبحانه مع المؤمنين بالنصر والعون والتأييد **﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله﴾** أي دوموا على طاعة الله وطاعة رسوله يدم لكم العز الذي حصل ببدر **﴿ولا تولَّوا عنه﴾** أي لا تعرضوا عنه بمخالفة أمره وأصله تتولوا حذفت منه إحدى التاءين **﴿وأنتم تسمعون﴾** أي تسمعون القرآن والمواعظ **﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون﴾** أي لا تكونوا كالكفار الذين سمعوا بآذانهم دون قلوبهم، فسماعهم كلا سماعٍ لأن الغرض من السماع التدبر والاتعاظ **﴿إن شرَّ الدواب عند الله﴾** أي شرَّ الخلق وشرَّ البهائم التي تدبُّ على وجه الأرض **﴿الصمُّ البكم﴾** أي الصمُّ الذين لا يسمعون الحق، البكم أي الخرس الذين لا ينطقون به **﴿الذين لا يعقلون﴾** أي الذين فقدوا العقل الذي يميز به المرء بين الخير والشر، نزلت في جماعة من بني عبد الدار كانوا يقولون: نحن صمٌّ بكمٌ عما جاء به محمد، وتوجهوا لقتال الرسول ﷺ مع أبي جهل، وفي الآية غاية الذم للكافرين بأنهم أشرُّ من الكلب والخنزير والحمير، لأنهم لم يستفيدوا من حواسهم فصاروا أخسَّ من كل خسيس **﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم﴾** أي لو علم الله فيهم شيئاً من الخير لأسمعهم سماع تفهم وتدبر **﴿ولو أسمعهم لتولَّوا وهم معرضون﴾** أي ولو فُرض أن الله أسمعهم - وقد علم أن لا خير فيهم - لتولوا وهم معرضون عنه جحوداً وعناداً، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ على عدم إيمان الكافرين.

البَلاَغَة: ١ - **﴿أولئك هم المؤمنون﴾** الإشارة بالبعيد عن القريب لعلو رتبتهم وبعد منزلتهم في الشرف.

٢ - **﴿لهم درجات عند ربهم﴾** استعار الدرجات للمراتب الرفيعة والمنازل العالية في الجنة.

٣ ـ ﴿كأنما يساقون الى الموت﴾ التشبيه هنا تمثيلي .
٤ ـ ﴿أن يحق الحق﴾ بينهما جناس الاشتقاق .
٥ ـ ﴿ذات الشوكة﴾ استعيرت الشوكة للسلاح بجامع الشدة والحدّة بينهما .
٦ ـ ﴿ويقطع دابر الكافرين﴾ كناية عن استئصالهم بالهلاك .
٧ ـ ﴿إذ تستغيثون﴾ صيغة المضارع لاستحضار صورتها الغريبة في الذهن .
٨ ـ ﴿وينزّل عليكم من السماء ماءً﴾ تقديم الجار والمجرور على المفعول به للاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر .
٩ ـ ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ الخطاب للمشركين على سبيل التهكم كقوله ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ .

١٠ ـ ﴿إن شرّ الدواب عند الله﴾ شبّه الكفار بالبهائم بل جعلهم شراً منها ، وذلك منتهى البلاغة ونهاية الإعجاز ، إذ أن الكافر لا يسمع الحق والبهائم لا تسمع ، ولا ينطق به والبهائم لا تنطق ، ويأكل والبهائم تأكل ، بقي أنه يضر والبهائم لا تضرُّ فكيف لا يكون شراً منها ؟

تنبيه : ذكر تعالى في هذه السورة أنه أمدَّ المؤمنين بألف من الملائكة ، وذكر في سورة آل عمران أنه أمدَّهم بثلاثة آلاف ، ولا تعارض بين الآيات فإنه تعالى ذكر هنا لفظ ﴿مردفين﴾ ومعناه متتابعين فأمدهم أولاً بألف ثم بثلاثة آلاف والله الموفق .

* * *

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا للّهِ وللرسول . . إلى . . نعم المولى ونعم النصير﴾ من آية (٢٤) إلى نهاية آية (٤٠) .

المناسبة : لما ذكر تعالى الكافرين ، وشبّههم بالأنعام السارحة لأنهم أعرضوا عن قبول دعوة الله ، أمر المؤمنين هنا بالاستجابة لله والرسول ، وقبول دعوته التي فيها حياة القلوب ، وبها السعادة الكاملة في الدنيا والآخرة .

اللغة : ﴿مكاءً﴾ المكاء : الصفير قال أبو عبيدة : والكثير في الأصوات أن تكون على فعال كالصراخ والخوار والدُّعاء والنباح[1] ﴿تصدية﴾ التصدية : التصفيق يقال : صدى تصدية إذا صفق بيديه وأصله من الصَّدى وهو الصوت الذي يرجع من الجبل ﴿فيركمه﴾ الركم : الجمع قال الليث : هو أن تجمع الشيء فوق الشيء حتى تجعله ركاماً مركوماً كركام الرمل والسحاب[2] ﴿سلف﴾ مضى ﴿سنة الأولين﴾ عادة الله وسنته في إهلاك المكذبين من الأمم السالفة ﴿مولاكم﴾ ناصركم ومعينكم .

سبب النزول : أخرج ابن جرير عن الزهري أن رسول الله ﷺ لما حاصر يهود بني قريظة طلبوا الصلح فأمرهم أن ينزلوا على حكم « سعد بن معاذ » فقالوا : أرسل لنا « أبا لبابة » فبعثه رسول الله ﷺ

(١) البحر ٤/ ٤٧٤ . (٢) نفس المرجع ٤/ ٤٧٤ .

إليهم فقالوا : يا أبا لبابة ما ترى ؟ أننزل على حكم سعد ؟ فأشار إلى حلقه يعني أنه الذبح ، قال أبو لبابة : والله ما زالت قدماي عن مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله فقال : لا والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله عليَّ فنزلت الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول . .﴾ الآية ثم نزلت توبته[١] .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم

التفسير : ﴿**يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم**﴾ أي أجيبوا دعاء رسوله إذا دعاكم للإيمان الذي به تحيا النفوس ، وبه تحيون الحياة الأبدية قال قتادة : هو القرآن فيه الحياة ، والثقة ، والنجاة ، والعصمة في الدنيا والآخرة[٢] ﴿**واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه**﴾ أي أنه تعالى المتصرف في جميع الأشياء ، يصرِّف القلوب كيف يشاء بما لا يقدر عليه صاحبها ، فيفسخ عزائمه ، ويغيِّر مقاصده ، ويلهمه رشده ، أو يُزيغ قلبه عن الصراط السوي ، وفي الحديث : (يا مقلب القلوب ثبِّت قلبي على دينك) قال ابن عباس : يحول بين المؤمن والكفر ، وبين الكافر والإيمان[٣] قال أبو حيان : وفي ذلك حضٌ على المراقبة ، والخوف من الله تعالى والمبادرة إلى الاستجابة له جلَّ وعلا[٤] ﴿**وأنه إليه تحشرون**﴾ أي وأنه سبحانه إليه مرجعكم ومصيركم فيجازيكم بأعمالكم ﴿**واتقوا فتنةً لا تصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصة**﴾ أي احذروا بطش الله وانتقامه إن عصيتم أمره واحذروا فتنة إن نزلت بكم لم تقتصر على الظالم خاصة بل تعم الجميع ، وتصل إلى الصالح والطالح ، لأن الظالم يهلك بظلمه وعصيانه ، وغير الظالم يهلك لعدم منعه وسكوته عليه وفي الحديث (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه ، أوشك أن يعمهم الله بعذابٍ من عنده) [٥] قال ابن عباس : أمر الله المؤمنين ألاّ يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب ، فيصيب الظالم وغير الظالم[٦] ﴿**واعلموا أن الله شديد العقاب**﴾ وهذا وعيد شديد أي شديد العذاب لمن عصاه ﴿**واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض**﴾ أي اذكروا نعمة الله عليكم وقت أن كنتم قلة أذلة يستضعفكم الكفار في أرض مكة فيفتنونكم عن دينكم وينالونكم بالأذى والمكروه ﴿**تخافون أن يتخطفكم الناس**﴾ أي تخافون المشركين أن يختطفوكم بالقتل والسلب ، والخطف : الأخذ بسرعة ﴿**فآواكم**﴾ أي جعل لكم مأوى تتحصنون به من أعدائكم وهو المدينة المنورة ﴿**وأيدكم بنصره**﴾ أي أعانكم وقواكم يوم بدر بنصره

(١) روح المعاني للألوسي ٩/ ١٩٥ . (٢) الطبري ١٣/ ٤٦٨ . (٣) روح المعاني ٩/ ١٩١ .
(٤) البحر ٤/ ٤٨١ . (٥) رواه البخاري . (٦) حاشية الصاوي ٢/ ١٢٢ .

﴿مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٢٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٢٧ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ۝٢٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢٩ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ۝٣٠ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾

المؤزر حتى هزمتموهم ﴿**ورزقكم من الطيبات**﴾ أي منحكم غنائمهم حلالاً طيبة ولم تكن تحل لأحد من قبل ﴿**لعلكم تشكرون**﴾ أي لتشكروا الله على هذه النعم الجليلة ، والغرض التذكير بالنعمة فإنهم كانوا قبل ظهور الرسول ﷺ في غاية القلة والذلة ، وبعد ظهوره صاروا في غاية العزة والرفعة ، فعليهم أن يطيعوا الله ويشكروه على هذه النعمة ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول**﴾ أي لا تخونوا دينكم ورسولكم بإطلاع المشركين على أسرار المؤمنين ﴿**وتخونوا أماناتكم**﴾ أي ما ائتمنكم عليه من التكاليف الشرعية كقوله ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال . . .﴾ الآية قال ابن عباس : خيانة الله سبحانه بترك فرائضه ، والرسول ﷺ بترك سنته وارتكاب معصيته ، والأمانات : الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد[1] ﴿**وأنتم تعلمون**﴾ أي تعلمون أنه خيانة وتعرفون تبعة ذلك ووباله ﴿**واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة**﴾ أي محنة من الله ليختبركم كيف تحافظون معها على حدوده قال الإمام الفخر : وإنما كانت فتنة لأنها تشغل القلب بالدنيا ، وتصير حجاباً عن خدمة المولى[2] ﴿**وأن الله عنده أجر عظيم**﴾ أي ثوابه وعطاؤه خير لكم من الأموال والأولاد فاحرصوا على طاعة الله ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً**﴾ أي إن أطعتم الله واجتنبتم معاصيه يجعل لكم هداية ونوراً في قلوبكم ، تفرقون به بين الحق والباطل كقوله ﴿**ويجعل لكم نوراً تمشون به**﴾ وفي الآية دليل على أن التقوى تنور القلب ، وتشرح الصدر ، وتزيد في العلم والمعرفة ﴿**ويكفر عنكم سيئاتكم**﴾ أي يمحو عنكم ما سلف من ذنوبكم ﴿**ويغفر لكم**﴾ أي يسترها عليكم فلا يؤاخذكم بها ﴿**والله ذو الفضل العظيم**﴾ أي واسع الفضل عظيم العطاء ﴿**وإذ يمكر بك الذين كفروا**﴾ هذا تذكير بنعمة خاصة على الرسول ﷺ بعد تذكير المؤمنين بالنعمة العامة عليهم والمعنى : اذكر يا محمد حين تآمر عليك المشركون في دار الندوة ﴿**ليثبتوك**﴾ أي يحبسوك ﴿**أو يقتلوك**﴾ أي بالسيف ضربة رجل واحد ليتفرق دمه ﷺ بين القبائل ﴿**أو يخرجوك**﴾ أي من مكة ﴿**ويمكرون ويمكر الله**﴾ أي يحتالون ويتآمرون عليك يا محمد ويدبر لك ربك ما يبطل مكرهم ويفضح أمرهم ﴿**والله خير الماكرين**﴾ أي مكره تعالى أنفذ من مكرهم وأبلغ تأثيراً قال الطبري في روايته عن ابن عباس : إن نفراً من أشراف قريش اجتمعوا في دار الندوة فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل ، فلما رأوه قالوا : من أنت ؟ قال شيخ من العرب ،

(١) روح المعاني ٩/ ١٩٥ . (٢) التفسير الكبير ١٥/ ١٥٢ .

ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ

سمعت باجتماعكم فأردت ان أحضركم ولن يعدمكم مني رأي ونصح قالوا : أجل فادخل ، فقال انظروا في شأن هذا الرجل - يعني محمداً ﷺ - فقال قائل : احبسوه في وثاق ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك ، فصرخ عدو الله وقال : والله ما هذا لكم برأي ، فليوشكن أن يثب أصحابه عليه حتى يأخذوه من أيديكم فيمنعوه منكم ، فقال قائل : أخرجوه من بين أظهركم تستريحوا منه فإنه إذا خرج فلن يضركم ما صنع وأين وقع ، فقال الشيخ المذكور: والله ما هذا لكم برأي ، ألم تروا حلاوة قوله ، وطلاقة لسانه ، وأخذه القلوب بحديثه ؟ والله لئن فعلتم لتجتمعن عليكم العرب حتى يخرجوكم من بلادكم ويقتلوا أشرافكم ، قالوا صدق فانظروا رأياً غير هذا ، فقال أبو جهل : والله لأشيرن عليكم برأي ما أرى غيره ! قالوا : وما هو ؟ قال نأخذ من كل قبيلة غلاماً شاباً جلداً ، ونعطي كل واحد سيفاً صارماً ، ثم يضربونه ضربة رجل واحد ، ويتفرق دمه في القبائل كلها ، ولا أظن بني هاشم يقدرون على حرب قريش كلها فيقبلون الدية ونستريح منه ونقطع عنا أذاه ، فصرخ عدو الله إبليس : هذا والله الرأي لا أرى غيره ، فتفرقوا على ذلك فأتى جبريل النبي ﷺ فأخبره وأمره أن لا يبيت في مضجعه ، وأذن له بالهجرة ، وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة يذكره نعمته عليه ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك ، أو يخرجوك . .﴾[1] الآية ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا﴾ أي وإذا قرئت عليهم آيات القرآن المبين ﴿قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ أي قالوا مكابرة وعناداً : قد سمعنا هذا الكلام ولو أردنا لقلنا مثله ﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ أي ما هذا القرآن الذي تتلوه علينا إلا أكاذيب وأباطيل وحكايات الأمم السابقة سطروها وليس كلام الله تعالى قال أبو السعود : وهذا غاية المكابرة ونهاية العناد ، كيف لا ، ولو استطاعوا لما تأخروا ! فما الذي كان يمنعهم وقد تحداهم عشر سنين ؟ وقرِّعوا على العجز ، ثم قورعوا بالسيف فلم يعارضوه ، مع أنفتهم ، وفرط استنكافهم أن يغلبوا لا سيما في باب البيان[2] ؟! ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك﴾ أي إن كان هذا القرآن حقاً منزلاً من عندك ﴿فأمطر علينا حجارة من السماء﴾ أي أنزل علينا حاصباً وحجارة من السماء كما أنزلتها على قوم لوط ﴿أو ائتنا بعذاب أليم﴾ أي بعذاب مؤلم لم أهلكنا به ، وهذا تهكم منهم واستهزاء قال ابن كثير : وهذا من كثرة جهلهم وشدة تكذيبهم وعنادهم ، وكان الأولى لهم أن يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووفقنا لاتباعه ، ولكنهم استعجلوا العقوبة والعذاب لسفههم[3] ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ هذا جواب لكلمتهم الشنعاء وبيان للسبب الموجب لإمهالهم أي إنهم مستحقون للعذاب ولكنه لا يعذبهم وأنت فيهم إكراماً لك يا محمد ، فقد جرت سنة الله وحكمته ألا يعذب أمة ونبيها بين ظهرانيها قال ابن

(١) الطبري ١٣/ ٤٩٥ . (٢) أبو السعود ٢/ ٢٣٧ . (٣) المختصر ٢/ ١٠١ .

وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ

عباس : لم تعذب أمة قط ونبيها فيها[1] ، والمراد بالعذاب عذاب الاستئصال ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ أي وما كان الله ليعذب هؤلاء الكفار وفيهم مؤمنون يستغفرون الله ، وهو إشارة الى استغفار من بقي بين أظهرهم من المسلمين المستضعفين قال ابن عباس : كان فيهم أمانان : نبي الله ﷺ ، والاستغفار ، أما النبي فقد مضى ، وأما الاستغفار فهو باق إلى يوم القيامة[2] ﴿وما لهم ألا يعذبهم الله﴾ أي شيء لهم في انتفاء العذاب عنهم؟ وكيف لا يعذبون وهم على ما هم عليه من العتو والضلال ؟ ﴿وهم يصدون عن المسجد الحرام﴾ أي وحالهم الصد عن المسجد الحرام كما صدوا رسول الله ﷺ عام الحديبية ، وكما اضطروه والمؤمنين إلى الهجرة من مكة ، ﴿وما كانوا أولياءه﴾ أي ما كانوا أهلاً لولاية المسجد الحرام مع إشراكهم ﴿إن أولياؤه إلا المتقون﴾ أي إنما يستأهل ولايته من كان براً تقياً ﴿ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون﴾ أي ولكن أكثرهم جهلة سفلة فقد كانوا يقولون : نحن ولاة البيت والحرم ، نصد من نشاء ، وندخل من نشاء . . والغرض من الآية بيان استحقاقهم لعذاب الاستئصال بسبب جرائمهم الشنيعة ، ولكن الله رفعه عنهم إكراماً لرسوله عليه السلام ، ولاستغفار المسلمين المستضعفين ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصدية﴾ هذا من جملة قبائحهم أي ما كانت عبادة المشركين وصلاتهم عند البيت الحرام إلا تصفيراً وتصفيقاً ، وكانوا يفعلونها إذا صلى المسلمون ليخلطوا عليهم صلاتهم ، والمعنى أنهم وضعوا مكان الصلاة والتقرب إلى الله التصفير والتصفيق قال ابن عباس : كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراةٌ يصفرون ويصفقون[3] ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ أي فذوقوا عذاب القتل والأسر بسبب كفركم وأفعالكم القبيحة ، وهو إشارة إلى ما حصل لهم يوم بدر ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله﴾ أي يصرفون أموالهم ويبذلونها لمنع الناس عن الدخول في دين الإسلام ، ولحرب محمد عليه السلام ، قال الطبري : لما أصيب كفار قريش يوم بدر ، ورجع فلُّهم إلى مكة قالوا : يا معشر قريش إن محمداً قد وتَركم وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا فنزلت الآية[4] ﴿فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة﴾ أي فسينفقون هذه الأموال ثم تصير ندامة عليهم ، لأن أموالهم تذهب ولا يظفرون بما كانوا يطمعون من إطفاء نور الله وإعلاء كلمة الكفر ﴿ثم يُغلبون﴾ إخبار بالغيب أي ثم نهايتهم الهزيمة والاندحار ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾

---

(١) البحر ٤/ ٤٨٩ . (٢) الرازي ١٥/ ١٥٨ . (٣) الطبري ١٣/ ٥٢٤ . (٤) نفس المرجع ١٣/ ٥٣٢ .

ﭐلطَّيِّبِ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

﴿**والذين كفروا إلى جهنم يحشرون**﴾ أي والذين ماتوا على الكفر منهم يساقون إلى جهنم ، فأعظم بها حسرة وندامة لمن عاش منهم ومن هلك ﴿**ليميز الله الخبيث من الطيب**﴾ أي ليفرق الله بين جند الرحمن وجند الشيطان ، ويفصل بين المؤمنين الأبرار والكفرة الأشرار ، والمراد بالخبيث والطيب الكافر والمؤمن ﴿**ويجعل الخبيث بعضه على بعض**﴾ أي يجعل الكفار بعضهم فوق بعض ﴿**فيركمه جميعاً**﴾ أي يجعلهم كالركام متراكماً بعضهم فوق بعض لشدة الازدحام ﴿**فيجعله في جهنم**﴾ أي فيقذف بهم في نار جهنم ﴿**أولئك هم الخاسرون**﴾ أي الكاملون في الخسران لأنهم خسروا أنفسهم وأموالهم ، ثم دعاهم تعالى إلى التوبة والإنابة ، وحذرهم من الإصرار على الكفر والضلال فقال سبحانه ﴿**قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف**﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك ، إن ينتهوا عن الكفر ويؤمنوا بالله ويتركوا قتالك وقتال المؤمنين ، يغفر لهم ما قد سلف من الذنوب والآثام ﴿**وإن يعودوا فقد مضت سنَّتُ الأولين**﴾ أي وإن عادوا إلى قتالك وتكذيبك فقد مضت سنتي في تدمير وإهلاك المكذبين لأنبيائي ، فكذلك نفعل بهم ، وهذا وعيد شديد لهم بالدمار إن لم يقلعوا عن المكابرة والعناد ﴿**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة**﴾ أي قاتلوا يا معشر المؤمنين أعداءكم المشركين حتى لا يكون شرك ولا يعبد إلا الله وحده ، قال ابن عباس : الفتنة : الشرك ، أي حتى لا يبقى مشرك على وجه الأرض وقال ابن جريج : حتى لا يفتن مؤمن عن دينه[1] ﴿**ويكون الدين كله لله**﴾ أي تضمحل الأديان الباطلة ولا يبقى إلا دين الإسلام قال الألوسي : واضمحلالها إما بهلاك أهلها جميعاً ، أو برجوعهم عنها خشية القتل[2] ، لقوله عليه السلام (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله) ﴿**فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير**﴾ أي فإن انتهوا عن الكفر وأسلموا فإن الله مطلع على قلوبهم ، يثيبهم على توبتهم وإسلامهم ﴿**وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم**﴾ أي وإن لم ينتهوا عن كفرهم وأعرضوا عن الإيمان فاعلموا يا معشر المؤمنين أن الله ناصركم ومعينكم عليهم ، فثقوا بنصرته وولايته ولا تبالوا بمعاداتهم لكم ﴿**نعم المولى ونعم النصير**﴾ أي نعم الله أن يكون مولاكم فإنه لا يضيع من تولاه ، ونعم النصير لكم فإنه لا يُغلب من نصره الله .

البَلاَغَة : ١ - ﴿يحول بين المرء وقلبه﴾ الكلام من باب الاستعارة التمثيلية ، شبه تمكنه تعالى من

---

(١) الطبري ١٣/ ٥٣٨ . (٢) روح المعاني ٩/ ٢٠٧ .

قلوب العباد وتصريفها كما يشاء ، بمن يحول بين الشيء والشيء ، وهي استعارة لطيفة .

٢ ـ ﴿وإذ يمكر بك﴾ صيغة المضارع لاستحضار الصورة العجيبة من تآمر المشركين على صاحب الرسالة عليه السلام .

٣ ـ ﴿ويمكر الله﴾ إضافة المكر إليه تعالى على طريق « المشاكلة » بمعنى إحباط ما دبروا من كيد ومكر ، والمشاكلة ان يتفق اللفظ ويختلف المعنى وقد تقدم[1] .

٤ ـ ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصدية﴾ تأمل التعبير الرائع في أسلوب القرآن حيث وضعوا المكاء والتصدية « التصفير والتصفيق » موضع الصلاة التي ينبغي ان تؤدى عند البيت فكانوا كالأنعام التي لا تفقه معنى العبادة ، ولا تعرف حرمة بيوت الله ، وهو على حد قول القائل : « تحية بينهم ضرب وجيع » .

٥ ـ ﴿الخبيث من الطيب﴾ كناية عن المؤمن والكافر وبين لفظ « الخبيث » و « الطيب » طباق وهو من المحسنات البديعية .

تنبيه : روى الحافظ ابن كثير عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال : كنت أصلي فمر بي النبي ﷺ فدعاني فلم آته حتى صليت ، ثم أتيته فقال : ما منعك أن تأتيني ؟ ألم يقل الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ ؟ ثم قال : لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج ، فذهب رسول الله ﷺ ليخرج فذكرت له ذلك فقال ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته[2] .

لطيفة : حكي عن معاوية رضي الله عنه أنه قال لرجل من سبأ : ما أجهل قومك حين ملَّكُوا عليهم امرأة ! فقال الرجل : أجهل من قومي قومك حين قالوا لرسول الله ﷺ حين دعاهم إلى الحق ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو أئتنا بعذاب أليم﴾ ولم يقولوا : إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ، فسكت معاوية رضي الله عنه .

* * *

قال الله تعالى : ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء . . إلى . . يوفَّ إليكم وأنتم لا تُظلمون﴾
من آية (٤١) إلى نهاية آية (٦٠) .

المناسبة : لما أمر تعالى بقتال المشركين ، وذكر فيما تقدم طرفاً من غزوة بدر ، وكان لا بد بعد القتال من أن يغنم المجاهدون الغنائم ـ وهي أموال المشركين ـ على طريق القهر والظفر ، ذكر سبحانه هنا حكم الغنائم وكيفية قسمتها ، ثم سرد بقية الأحداث الهامة في تلك الغزوة المجيدة « غزوة بدر » .

---

(١) انظر توضيح ذلك عند قوله تعالى ﴿الله يستهزىء بهم﴾ من سورة البقرة . (٢) مختصر ابن كثير ٢/ ٩٥ .

اللغَة : ﴿العدوة الدنيا﴾ عدوة الوادي : جانبه وشفيره ، والدنيا تأنيث الأدنى أي الأقرب والمراد ما يلي جانب المدينة ﴿العدوى القصوى﴾ القصوى : تأنيث الأقصى أي الأبعد ، وكل شيء تنحى عن شيء فقد قصا والمراد ما يلي جانب مكة ﴿نكص﴾ النكوص : الإحجام عن الشيء ﴿كدأب﴾ الدأب : العادة ، وأصله في اللغة إدامة العمل يقال : فلان يدأب في كذا أي يدوم عليه ويواظب ثم سميت العادة دأباً لأن الإنسان مداوم على عادته ﴿تثقفنهم﴾ قال الليث : يقال ثقفنا فلاناً في موضع كذا أي أخذناه وظفرنا به[١] ﴿فشرد﴾ التشريد : التفريق والتبديد يقال : شردت القوم إذا قاتلتهم وطردتهم عنها حتى فارقوها .

* وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن

التفسِير : ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء﴾ أي اعلموا أيها المؤمنون أنما غنمتوه من أموال المشركين في الحرب سواء كان قليلاً أو كثيراً ﴿فأن لله خمسه﴾ قال الحسن : هذا مفتاح كلام ، الدنيا والآخرة لله[٢] أي أن ذكر اسم الله على جهة التبرك والتعظيم كقوله ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ قال المفسرون : تقسم الغنيمة خمسة أقسام ، فيعطى الخمس لمن ذكر الله تعالى في هذه الآية ، والباقي يوزع على الغانمين ﴿وللرسول﴾ أي سهم من الخمس يعطى للرسول ﷺ ﴿ولذي القربى﴾ أي قرابة الرسول ﷺ وهم بنو هاشم وبنو المطلب ﴿واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ أي ولهؤلاء الأصناف من اليتامى الذين مات آباؤهم ، والفقراء من ذوي الحاجة ، والمنقطع في سفره من المسلمين ﴿إن كنتم آمنتم بالله﴾ جواب الشرط محذوف تقديره : إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أن هذا هو حكم الله في الغنائم فامتثلوا أمره بطاعته ﴿وما أنزلنا على عبدنا﴾ أي وبما أنزلنا على محمد ﷺ ﴿يوم الفرقان﴾ أي يوم بدر لأن الله فرق به بين الحق والباطل ﴿يوم التقى الجمعان﴾ أي جمع المؤمنين وجمع الكافرين ، والتقى فيه جند الرحمن بجند الشيطان ﴿والله على كل شيء قدير﴾ أي قادر لا يعجزه شيء ، ومنه نصركم مع قلَّتكم وكثرتهم ﴿إذ أنتم بالعدوة الدنيا﴾ هذا تصوير للمعركة أي وقت كنتم يا معشر المؤمنين بجانب الوادي القريب الى المدينة ﴿وهم بالعدوة القصوى﴾ أي وأعداؤكم المشركون بجانب الوادي الأبعد عن المدينة ﴿والركب أسفل منكم﴾ أي والعير التي فيها تجارة قريش في مكان أسفل من مكانكم فيما يلي ساحل البحر ﴿ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد﴾ أي ولو تواعدتم أنتم والمشركون على القتال لاختلفتم له ولكن الله بحكمته يسر وتمم ذلك قال كعب بن مالك : إنما خرج

(١) الرازي ١٥/ ١٨٩ . (٢) القرطبي ٨/ ١٠ .

لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ

رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد[١] قال الرازي : المعنى لو تواعدتم أنتم وأهل مكة على القتال لخالف بعضكم بعضاً لقلتكم وكثرتهم[٢] ، ﴿ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾ أي ولكن جمع بينكم على غير ميعاد ليقضي الله ما أراد بقدرته ، من إعزاز الإسلام وأهله ، وإذلال الشرك وأهله ، فكان أمراً متحققاً واقعاً لا محالة قال أبو السعود: والغرض من الآية أن يتحققوا أن ما اتفق لهم من الفتح ، ليس إلا صنعاً من الله عز وجل خارقاً للعادات ، فيزدادوا إيماناً وشكراً ، وتطمئن نفوسهم بفرض الخمس[٣] ﴿ليهلك من هلك عن بينة﴾ أي فعل ذلك تعالى ليكفر من كفر عن وضوح وبيان ﴿ويحيا من حي عن بينة﴾ أي ويؤمن من آمن عن وضوح وبيان[٤] ، فإن وقعة بدر من الآيات الباهرات على نصر الله لأوليائه وخذلانه لأعدائه ﴿وإن الله لسميع عليم﴾ أي سميع لأقوال العباد عليم بنياتهم ﴿إذ يريكهم الله في منامك قليلاً﴾ أي اذكر يا محمد حين أراك الله في المنام أعداءك قلة ، فأخبرت بها أصحابك حتى قويت نفوسهم وتشجعوا على حربهم قال مجاهد : أراه الله إياهم في منامه قليلاً ، فأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك فكان تثبيتاً لهم ﴿ولو أراكهم كثيراً لفشلتم﴾ أي ولو أراك ربك عدوك كثيراً لجبن أصحابك ولم يقدروا على حرب القوم ، وانظر إلى محاسن القرآن فإنه لم يسند الفشل إليه ﷺ لأنه معصوم بل قال ﴿لفشلتم﴾ إشارة إلى أصحابه ﴿ولتنازعتم في الأمر﴾ أي ولاختلفتم يا معشر الصحابة في أمر قتالهم ﴿ولكنّ الله سلم﴾ أي ولكن الله أنعم عليكم بالسلامة من الفشل والتنازع ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ أي عليم بما في القلوب يعلم ما يغيّر أحوالها من الشجاعة والجبن ، والصبر والجزع ﴿وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ويقللكم في أعينهم﴾ هذه الرؤية باليقظة لا بالمنام أي واذكروا يا معشر المؤمنين حين التقيتم في المعركة فقلل الله عدوكم في أعينكم لتزداد جرأتكم عليهم ، وقلّلكم في أعينهم حتى لا يستعدوا ويتأهبوا لكم قال ابن مسعود : لقد قُلّلوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل : أتراهم يكونون مائة[٥] ؟ وهذا قبل التحام الحرب فلما التحم القتال كثر الله المؤمنين في أعين الكفار فبُهتوا وهابوا ، وفُلَّت شوكتهم ، ورأوا ما لم يكن في الحسبان ، وهذا من عظائم آيات الله في تلك الغزوة ﴿ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾ أي فعل ذلك فجرّأ المؤمنين على الكافرين ، والكافرين على المؤمنين ، لتقع الحرب ويلتحم القتال ، وينصر الله جنده ويهزم الباطل وحزبه ، وتكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين

---

(١) الطبري ١٣/ ٥٦٦ . (٢) تفسير الرازي ١٥/ ١٦٧ . (٣) أبو السعود ٢/ ٢٤٠ . (٤) ذهب الطبري الى أن المعنى : ليموت من مات من خلقه عن حجة لله قد أثبتت له وقطعت عذره ، وليعيش من عاش منهم عن حجة لله قد أثبتت له وظهرت لعينه فعلمها وما ذهبنا اليه هو اختيار الجلالين وهو أوضح ويؤيده ﴿لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين﴾ . (٥) الطبري ١٣/ ٥٧٣ .

مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ

كفروا السفلى ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ أي مصير الأمور كلها إلى الله يصرّفها كيف يريد ، لا معقب لحكمه وهو الحكيم المجيد ، ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبتوا﴾ هذا إرشاد إلى سبيل النصر في مبارزة الأعداء أي إذا لقيتم جماعة من الكفرة فاثبتوا لقتالهم ولا تنهزموا ﴿واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾ أي أكثروا من ذكر الله بألسنتكم لتستمطروا نصره وعونه وتفوزوا بالظفر عليهم ﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ أي في جميع أقوالكم وأفعالكم ولا تخالفوا أمرهما في شيء ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا﴾ أي ولا تختلفوا فيما بينكم فتضعفوا وتجبنوا عن لقاء عدوكم ﴿وتذهب ريحكم﴾ أي تذهب قوتكم وبأسكم ، ويدخلكم الوهن والخور ﴿واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ أي واصبروا على شدائد الحرب وأهوالها ، فإن الله مع الصابرين بالنصر والعون ﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس﴾ أي لا تكونوا ككفار قريش حين خرجوا لبدر عتواً وتكبراً ، وطلباً للفخر والثناء ، والآية إشارة إلى قول أبي جهل : والله لا نرجع حتى نَرِد بدراً ، فنشرب فيها الخمور وننحر الجزور ، وتعزف علينا القيان ـ المغنيات ـ وتسمع بنا العرب ، فلا يزالون يهابوننا أبداً[1] قال الطبري : فسقوا مكان الخمر كؤوس المنايا[2] ، وناحت عليهم النوائح مكان القيان ﴿ويصدون عن سبيل الله﴾ أي ويمنعون الناس عن الدخول في الإسلام ﴿والله بما يعملون محيط﴾ أي وهو سبحانه عالم بجميع ذلك وسيجازيهم عليه ﴿وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم﴾ أي واذكر وقت أن حسَّن لهم الشيطان أعمالهم القبيحة من الشرك وعبادة الأصنام ، وخروجهم لحرب الرسول عليه السلام ﴿وقال لا غالب لكم اليوم من الناس﴾ أي لن يغلبكم محمد وأصحابه ﴿وإني جارٌ لكم﴾ أي مجير ومعين لكم ﴿فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه﴾ أي فلما تلاقى الفريقان ولى الشيطان هارباً مولياً الأدبار ﴿وقال إني بريء منكم﴾ أي بريء من عهد جواركم ، وهذا مبالغة في الخذلان لهم ﴿إني أرى ما لا ترون﴾ أي أرى الملائكة نازلين لنصرة المؤمنين وأنتم لا ترون ذلك وفي الحديث (ما رؤي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ،

(١) ذكر الطبري في روايته عن ابن عباس ان أبا سفيان لما نجا بالعير أرسل الى قريش يقول : ارجعوا فقد سلمت عيركم ونجت تجارتكم فقال أبو جهل اللعين ما قال . (٢) الطبري ١٣/ ٥٧٨ .

ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن

ولا أدحر ، ولا أحقر ، ولا أغيظ منه في يوم عرفة ، إلا ما رأى يوم بدر ، فإنه رأى جبريل يَزَعُ الملائكة)[1] أي يصفها للحرب ﴿إني أخاف الله والله شديد العقاب﴾ أي إني أخاف الله أن يعذبني لشدة عقابه قال ابن عباس : جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه رأيته في صورة « سراقة بن مالك » فقال الشيطان للمشركين : لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ، فلما اصطف الناس أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها وجوه المشركين ، فولوا مدبرين ، وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس ، فلما رآه ـ وكانت يده في يد رجل من المشركين ـ انتزع يده ثم ولى مدبراً وشيعته ، فقال الرجل : يا سراقة أتزعم أنك لنا جار ؟ فقال : إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله ، وكذب عدو الله فإنه علم أنه لا قوة له ولا منعة وذلك حين رأى الملائكة[2] ﴿إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض﴾ أي حين قال أهل النفاق الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر لضعف اعتقادهم بالله ﴿غرَّ هؤلاء دينهم﴾ أي اغتر المسلمون بدينهم فأدخلوا أنفسهم فيما لا طاقة لهم به قال تعالى في جوابهم ﴿ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم﴾ أي ومن يعتمد على الله ويثق به فإن الله ناصره لأن الله عزيز أي غالب لا يذل من استجار به ، حكيم في أفعاله وصنعه ﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكةُ﴾ أي لو رأيت وشاهدت أيها المخاطب أو أيها السامع حالتهم ببدر حين تقبض ملائكة العذاب أرواح الكفرة المجرمين ، وجواب ﴿لو﴾ محذوف للتهويل أي لرأيت أمراً فظيعاً وشأناً هائلاً قال أبو حيان : وحذف جواب لو جائز بليغ حذفه في مثل هذا لأنه يدل على التهويل والتعظيم[3] أي لرأيت أمراً فظيعاً لا يكاد يوصف ﴿يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ أي تضربهم الملائكة من أمامهم وخلفهم ، على وجوههم وظهورهم بمقامع من حديد ﴿وذوقوا عذاب الحريق﴾ أي ويقولون لهم : ذوقوا يا معشر الفجرة عذاب النار المحرق ، وهذا بشارة لهم بعذاب الآخرة وقيل : كانت معهم أسواط من نار يضربونهم بها فتشتعل جراحاتهم ناراً[4] ﴿ذلك بما قدمت أيديكم﴾ أي ذلك العذاب بسبب ما كسبتم من الكفر والآثام ﴿وأن الله ليس بظلَّام للعبيد﴾ أي وانه تعالى عادل ليس بذي ظلم لأحد من العباد حتى يعذبه بغير ذنب ، وصيغة ﴿ظلام﴾ ليست للمبالغة وإنما هي للنسب أي ليس منسوباً إلى الظلم فقد انتفى أصل الظلم عنه تعالى فتدبره ﴿كدأب آل فرعون والذين من قبلهم﴾ أي دأب هؤلاء الكفرة في الإجرام يعني عملهم وطريقهم الذي دأبوا فيه كعمل وطريق آل فرعون ومن تقدمهم من الأمم كقوم نوح وعاد وثمود في العناد والتكذيب

(١) رواه مالك في الموطأ . (٢) مختصر ابن كثير ٢/ ١١١ . (٣) البحر ٤/ ٥٠٦ . (٤) البيضاوي ص ٢١٥ .

﴿قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ﴾

والكفر والإجرام ﴿كفروا بآيات الله﴾ أي جحدوا ما جاءهم به الرسل من عند الله ﴿فأخذهم الله بذنوبهم﴾ أي أهلكهم بكفرهم وتكذيبهم ﴿إن الله قوي شديد العقاب﴾ أي قوي البطش شديد العذاب، لا يغلبه غالب ولا يفوته هارب ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمةً أنعمها على قوم﴾ أي ذلك الذي حل بهم من العذاب بسبب أن الله عادل في حكمه لا يغير نعمة أنعمها على أحدٍ إلا بسبب ذنبٍ ارتكبه ، وأنه لايبدل النعمة بالنقمة ﴿حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾ أي حتى يبدلوا نعمة الله بالكفر والعصيان، كتبديل كفار قريش نعمة الله من الخصب والسعة والأمن والعافية، بالكفر والصد عن سبيل الله وقتال المؤمنين قال السدي : نعمة الله على قريش محمدﷺ فكفروا به وكذبوه ، فنقله الله إلى المدينة وحل بالمشركين العقاب[1] ﴿وأن الله سميع عليم﴾ أي وأنه سبحانه سميع لما يقولون عليم بما يفعلون ﴿كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم﴾ كرره لزيادة التشنيع والتوبيخ على إجرامهم أي شأن هؤلاء وحالهم كشأن وحال المكذبين السابقين حيث غيّروا حالهم فغيّر الله نعمته عليهم ﴿فأهلكناهم بذنوبهم﴾ أي أهلكناهم بسبب ذنوبهم بعضهم بالرجفة ، وبعضهم بالخسف ، وبعضهم بالحجارة ، وبعضهم بالغرق ولهذا قال ﴿وأغرقنا آل فرعون﴾ أي أغرقنا فرعون وقومه معه ﴿وكلٌّ كانوا ظالمين﴾ أي وكل من الفرق المكذبة كانوا ظالمين لأنفسهم بالكفر والمعاصي حيث عرّضوها للعذاب ﴿إن شر الدواب عند الله﴾ أي شر من يدب على وجه الأرض في علم الله وحكمه ﴿الذين كفروا فهم لا يؤمنون﴾ أي الذين أصروا على الكفر ورسخوا فيه فهم لا يتوقع منهم إيمان لذلك قال ابن عباس : نزلت في بني قريظة من اليهود ، منهم كعب بن الأشرف وأصحابه عاهدهم رسول اللهﷺ ألا يحاربوه فنقضوا العهد[2] ﴿الذين عاهدت منهم﴾ أي الذين عاهدتهم يا محمد على ألا يعينوا المشركين ﴿ثم ينقضون عهدهم في كل مرة﴾ أي يستمرون على النقض مرة بعد مرة ﴿وهم لا يتقون﴾ أي لا يتقون الله في نقض العهد قال المفسرون : كان رسول اللهﷺ قد عاهد يهود بني قريظة ألا يحاربوه ولا يعاونوا عليه المشركين ، فنقضوا العهد وأعانوا عليه كفار مكة بالسلاح يوم بدر ، ثم قالوا : نسينا

(١) القرطبي ٨/ ٢٩ . (٢) زاد المسير ٣/ ٣٧١ .

مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٦٠﴾

وأخطأنا فعاهدهم مرة أخرى فنقضوا العهد ومالئوا الكفار يوم الخندق[1] ﴿**فإما تثقفنهم في الحرب**﴾ أي فإن تظفر بهم في الحرب ﴿**فشرد بهم من خلفهم**﴾ أي فاقتلهم ونكل بهم تنكيلاً شديداً يشرد غيرهم من الكفرة المجرمين ﴿**لعلهم يذكّرون**﴾ أي لعلهم يتعظون بما شاهدوا فيرتدعوا والمعنى : اجعلهم عبرة لغيرهم حتى لا يبقى لهم قوة على محاربتك ﴿**وإما تخافن من قوم خيانة**﴾ أي وإن أحسست يا محمد من قوم معاهدين خيانة للعهد ونكثاً بأمارات ظاهرة ﴿**فانبذ إليهم على سواء**﴾ أي اطرح إليهم عهدهم على بينة ووضوح من الأمر قال النحاس : هذا من معجز ما جاء في القرآن مما لا يوجد في الكلام مثله على اختصاره وكثرة معانيه والمعنى: وإما تخافن من قوم ـ بينك وبينهم عهد ـ خيانة فانبذ إليهم العهد أي قل لهم قد نبذت إليكم عهدكم وأنا مقاتلكم ، ليعلموا ذلك فيكونوا معك في العلم سواء ، ولا تقاتلهم وبينك وبينهم عهد وهم يثقون بك فيكون ذلك خيانة وغدراً[2] ﴿**إن الله لا يحب الخائنين**﴾ وهذا كالتعليل للأمر بنبذ العهد أي لا يحب من ليس عنده وفاء ولا عهد ﴿**ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا**﴾ أي لا يظنن هؤلاء الكفار الذين أفلتوا يوم بدر من القتل أنهم فاتونا فلا نقدر عليهم ، بل هم في قبضتنا وتحت مشيئتنا وقهرنا ﴿**إنهم لا يُعجزون**﴾ كلام مستأنف أي إنهم لا يُعجزون ربهم ، بل هو قادر على الانتقام منهم في كل لحظة ، لا يعجزه أحد في الأرض ولا في السماء ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة**﴾ أي أعدوا لقتال أعدائكم جميع أنواع القوة : المادية ، والمعنوية قال الشهاب : وإنما ذكر القوة هنا لأنه لم يكن لهم في بدر استعداد تام ، فنُبهوا على أن النصر من غير استعداد لا يتأتى في كل زمان[3] ﴿**ومن رباط الخيل**﴾ أي الخيل التي تربط في سبيل الله ﴿**تُرهبون به عدو الله وعدوكم**﴾ أي تُخيفون بتلك القوة الكفار أعداء الله وأعداءكم ﴿**وآخرين من دونهم**﴾ أي وترهبون به آخرين غيرهم قال ابن زيد : هم المنافقون وقال مجاهد : هم اليهود من بني قريظة والأول أصح لقوله ﴿**لا تعلمونهم الله يعلمهم**﴾ أي لا تعلمون ما هم عليه من النفاق ولكن الله يعلمهم ﴿**وما تنفقوا من شيء في سبيل الله**﴾ أي وما تنفقوا في الجهاد وفي سائر وجوه الخيرات ﴿**يُوفّ إليكم**﴾ أي تُعْطون جزاءه وافياً كاملاً يوم القيامة ﴿**وأنتم لا تُظلمون**﴾ أي لا تنقصون من ذلك الأجر شيئاً .

البلاغة :

١ ـ ﴿من شيء﴾ التنكير للتقليل .

٢ ـ ﴿على عبدنا﴾ ذكره ﷺ بلفظ العبودية وإضافته إلى الله للتشريف والتكريم .

---

(١) الفخر الرازي ١٥/١٦٢ . (٢) تفسير القرطبي ٨/٣٢ . (٣) محاسن التأويل ٨/ ص ٣٠٢٤ .

٣ ـ ﴿بالعدوة الدنيا﴾ بين لفظ « الدنيا » و « القصوى » طباق .

٤ ـ ﴿ليهلك ويحيا﴾ استعار الهلاك والحياة للكفر والإيمان ، وبين « يهلك » و « يحيا » طباقٌ .

٥ ـ ﴿وتذهب ريحكم﴾ أي تذهب قوتكم وشوكتكم وهو من باب الاستعارة أيضاً .

تنبيه : يأمرنا الله تعالى بإعداد القوة لقتال الأعداء ، وقد جاء التعبير عاماً ﴿من قوة﴾ ليشمل القوة المادية ، والقوة الروحية ، وجميع أسباب القوة ، وكيف لا يطمع العدو بالممالك الإسلامية وهو لا يرى عندنا معامل للأسلحة ، وذخائر للحرب ، بل كلها مما يشتريه المسلمون من بلاد العدو ؟ فلا بد لنا من العودة إلى تعاليم الإسلام إذا ما أردنا حياة العزة والكرامة .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها . . إلى . . إن الله بكل شيء عليم﴾
من آية (٦١) إلى آية (٧٥) نهاية السورة الكريمة .

المناسبة : لما أمر الله تعالى بإعداد العدة لإرهاب الأعداء ، أمر هنا بالسلم بشرط العزة والكرامة متى وجد السبيل إليه ، لأن الحرب ضرورة اقتضتها ظروف الحياة لرد العدوان ، وحرية الأديان ، وتطهير الأرض من الظلم والطغيان ، ثم تناولت الآيات الكريمة حكم الأسرى ، وختمت السورة بوجوب مناصرة المؤمنين بعضهم لبعض ، بسبب الولاية الكاملة وأخوة الإيمان .

اللغة : ﴿جنح﴾ مال يقال : جنح الرجل إلى فلان إذا مال إليه وخضع له ، وجنحت الإبل : إذا مالت أعناقها في السير ، ومنه قيل للأضلاع جوانح ﴿السلم﴾ المسالمة والصلح قال الزمخشري : وهي تؤنث تأنيث ضدها وهي الحرب قال الشاعر :

السِّلم تأخذ منها ما رضيت به ... والحرب تكفيك من أنفاسها جُرَع[1]

﴿حرِّض﴾ التحريض : الحث على الشيء وتحريك الهمة نحوه كالتحضيض ﴿يثخن﴾ قال الواحدي : الإثخان في كل شيء عبارة عن قوته وشدته ، يقال : قد أثخنه المرض إذا اشتدت قوته عليه ، وأثخنته الجراح ، والثخانة : الغلظة ، والمراد بالإثخان هنا المبالغة في القتل والجراحات[2] .

سَبَبُ النّزول : أ ـ عن عمر رضي الله عنه قال: لما هزم الله المشركين يوم بدر، وقتل منهم سبعون وأسر منهم سبعون ، استشار النبي ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً فقال أبو بكر : يا نبي الله هؤلاء بنو العم والعشيرة ، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار ، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً ، فقال رسول الله : ما ترى يا ابن الخطاب ! قلت : والله ما أرى ما رأى أبو

(١) الكشاف ٢/٢٣٣ . (٢) الفخر الرازي ١٥/ ٢٠١ .

بكر ، ولكن أرى أن تمكنني من فلان ـ قريب لعمر ـ فأضرب عنقه ، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من أخيه فيضرب عنقه ، حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادة على المشركين ، هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها ، فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت فأخذ منهم الفداء ، فلما كان من الغد غدوت إلى رسول الله ﷺ فإذا هو قاعد وأبو بكر الصديق وهما يبكيان ، فقلت يا رسول الله : أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاءً بكيت ، وإن لم أجد بكاءً تباكيت ، فقال ﷺ : (أبكي للذي عرض علي أصحابك من الفداء ، لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة) لشجرة قريبة فأنزل الله ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض . .﴾[1] الآية .

ب ـ لما وقع العباس عم النبي ﷺ في الأسر كان معه عشرون أوقية من ذهب ، فلم تحسب له من فدائه ، وكلف أن يفدي ابني أخيه فأدى عنهما ثمانين أوقية من ذهب ، وقال النبي ﷺ (أضعفوا على العباس الفداء) فأخذوا منه ثمانين أوقية فقال العباس لرسول الله ﷺ : لقد تركتني أتكفَّف قريشاً ما بقيت ، فقال له ﷺ : وأين الذهب الذي تركته عند أم الفضل ؟ فقال : أي الذهب ؟ فقال : إنك قلت لها : إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا ! فإن حدث بي حدث فهو لك ولولدك ، فقال يا ابن أخي : من أخبرك بهذا ؟ قال : الله أخبرني فقال العباس : أشهد أنك صادق ، وما علمت أنك رسول الله قبل اليوم ، وأمر ابني أخيه فأسلما ففيهما نزلت ﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى . .﴾ الآية[2] .

* وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ

التفسير : ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾ أي إن مالوا إلى الصلح والمهادنة فمل إليه وأجبهم إلى ما طلبوا إن كان فيه مصلحة ﴿وتوكل على الله﴾ أي فوض الأمر إلى الله ليكون عوناً لك على السلامة ﴿إنه هو السميع العليم﴾ أي هو سبحانه السميع لأقوالهم العليم بنياتهم ﴿وإن يريدوا أن يخدعوك﴾ أي وإن أرادوا بالصلح خداعك ليستعدوا لك ﴿فإن حسبك الله﴾ أي فإن الله يكفيك وهو حسبك ، ثم ذكره بنعمته عليه فقال ﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين﴾ أي قواك وأعانك بنصره وشد أزرك بالمؤمنين قال ابن عباس : يعني الأنصار ﴿وألف بين قلوبهم﴾ أي جمع بين قلوبهم على ما كان بينهم من العداوة والبغضاء ، فأبدلهم بالعداوة حباً ، وبالتباعد قرباً قال القرطبي : وكان تأليف القلوب مع العصبيّة الشديدة في العرب من آيات النبي ﷺ ومعجزاته ،لأن أحدهم كان يُلطم اللطمة فيقاتل عليها ، وكانوا أشد خلق الله حمية ، فألف الله بينهم بالإيمان ، حتى قاتل الرجل أباه وأخاه بسبب الدين[3] ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم﴾ أي لو أنفقت في إصلاح ذات بينهم ما

(١) زاد المسير ٣/ ٣٨٠ والرواية لمسلم . (٢) القرطبي ٨/ ٤٢ . (٣) القرطبي ٨/ ٥٣ .

أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ

في الأرض من الأموال ما قدرت على تأليف قلوبهم واجتماعها على محبة بعضها بعضاً ﴿ولكن الله ألف بينهم﴾ أي ولكنه سبحانه بقدرته البالغة جمع بينهم ووفق ، فإنه المالك للقلوب يقلبها كيف يشاء ﴿إنه عزيز حكيم﴾ أي غالب على أمره لا يفعل شيئاً إلا عن حكمة ﴿يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾ أي الله وحده كافيك ، وكافي اتباعك ، فلا تحتاجون معه إلى أحد وقال الحسن البصري : المعنى حسبك أي كافيك الله والمؤمنون[١] ﴿يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال﴾ أي حض المؤمنين ورغبهم بكل جهدك على قتال المشركين ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين﴾ قال أبو السعود : هذا وعد كريم منه تعالى بغلبة كل جماعة من المؤمنين على عشرة أمثالهم[٢] والمعنى : إن يوجد منكم يا معشر المؤمنين عشرون صابرون على شدائد الحرب يغلبوا مائتين من عدوهم ، بعون الله وتأييده ﴿وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا﴾ أي وإن يوجد منكم مائة ـ بشرط الصبر عند اللقاء ـ تغلب ألفاً من الكفار بمشيئة الله ﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾ الباء سببية أي سبب ذلك بأن الكفار قوم جهلة لا يفقهون حكمة الله ، ولا يعرفون طريق النصر وسببه ، فهم يقاتلون على غير احتساب ولا طلب ثواب ، فلذلك يُغلبون قال ابن عباس : كان ثبات الواحد للعشرة فرضاً ، ثم لما شق ذلك عليهم نسخ وأصبح ثبات الواحد للاثنين فرضاً ﴿الآن خفف الله عنكم﴾ أي رفع عنكم ما فيه مشقة عليكم ﴿ وعَلِمَ أن فيكم ضعفاً﴾ أي وعلم ضعفكم فرحمكم في أمر القتال ﴿فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين﴾ أي إن يوجد منكم مائة صابرة على الشدائد يتغلبوا على مائتين من الكفرة ﴿وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين﴾ أي وإن يوجد منكم ألف صابرون في ساحة اللقاء ، يتغلبوا على ألفين من الأعداء ﴿بإذن الله﴾ أي بتيسيره وتسهيله ﴿والله مع الصابرين﴾ هذا ترغيب في الثبات وتبشير بالنصر أي الله معهم بالحفظ والرعاية والنصرة ، ومن كان الله معه فهو الغالب ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ عتاب للنبي ﷺ وأصحابه على أخذ الفداء[٣] والمعنى : لا

(١) القول الأول معناه : حسبك الله وحده وحسب أتباعك وقد اختاره الزمخشري ونصره ابن القيم في مقدمة « زاد المعاد » بأدلة مقنعة ، والقول الثاني روي عن مجاهد والحسن البصري واختاره السيوطي والمحلي في تفسير الجلالين ، والأول أرجح .

(٢) تفسير أبي السعود ٢/٢٤٧ . (٣) انظر سبب النزول .

﴿ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ﴾

ينبغي لنبي من الأنبياء أن يأخذ الفداء من الأسرى إلا بعد أن يكثر القتل ويبالغ فيه ﴿تريدون عرض الدنيا﴾ أي تريدون أيها المؤمنون بأخذ الفداء حطام الدنيا ومتاعها الزائل ؟ ﴿والله يريد الآخرة﴾ أي يريد لكم الباقي الدائم ، وهو ثواب الآخرة ، بإعزاز دينه وقتل أعدائه ﴿والله عزيز حكيم﴾ أي عزيز في ملكه لا يقهر ولا يُغلب ، حكيم في تدبير مصالح العباد ﴿لولا كتاب من الله سبق﴾ أي لولا حكم في الأزل من الله سابق وهو ألا يعذب المخطىء في اجتهاده[١] ﴿لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾ أي لأصابكم في أخذ الفداء من الأسرى عذاب عظيم ، وروي أنها لما نزلت قال عليه السلام (لو نزل العذاب لما نجا منه غير عمر)[٢] ﴿فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً﴾ أي كلوا يا معشر المجاهدين مما أصبتموه من أعدائكم من الغنائم في الحرب حال كونه حلالاً أي محللاً لكم ﴿طيباً﴾ أي من أطيب المكاسب لأنه ثمرة جهادكم ، وفي الصحيح (وجعل رزقي تحت ظل رمحي) ﴿واتقوا الله﴾ أي خافوا الله في مخالفة أمره ونهيه ﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي مبالغ في المغفرة لمن تاب ، رحيم بعباده حيث أباح لهم الغنائم ﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى﴾ أي قل لهؤلاء الذين وقعوا في الأسر من الأعداء ، والمراد بهم أسرى بدر ﴿إن يعلم الله في قلوبكم خيراً﴾ أي إن يعلم الله في قلوبكم إيماناً وإخلاصاً ، وصدقاً في دعوى الإيمان ﴿يؤتكم خيراً مما أخذ منكم﴾ أي يعطكم أفضل مما أخذ منكم من الفداء ﴿ويغفر لكم﴾ أي يمحو عنكم ما سلف من الذنوب ﴿والله غفور رحيم﴾ أي واسع المغفرة ، عظيم الرحمة لمن تاب وأناب قال البيضاوي : نزلت في العباس رضي الله عنه حين كلفه رسول الله ﷺ أن يفدي نفسه وابني أخويه «عقيل» و«نوفل» فقال يا محمد : تركتني أتكفف قريشاً ما بقيت ، فقال : أين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك وقلت لها : إني لا أدري ما يصيبني في جهتي هذه ، فإن حدث بي حدث فهو لك ولعيالك ! ! فقال العباس : ما يدريك ؟ قال : أخبرني به ربي تعالى ، قال : فأشهد أنك صادق ، وأن لا إله إلا الله وأنك رسوله ، والله لم يطلع عليه أحد ، ولقد دفعته إليها في سواد الليل ! ! قال العباس : فأبدلني الله خيراً من ذلك ، وأعطاني زمزم ما أحب أن لي بها جميع أموال مكة ، وأنا أنتظر المغفرة من ربي - يعني الموعود - بقوله تعالى ﴿ويغفر لكم﴾[٣] ﴿وإن يريدوا خيانتك﴾ وإن كان هؤلاء الأسرى يريدون خيانتك يا محمد بما أظهروا من القول ودعوى الإيمان ﴿فقد خانوا الله من قبل﴾ أي فقد خانوا الله تعالى قبل هذه الغزوة غزوة بدر

---

(١) هذا القول اختاره الرازي وضعف بقية الأقوال وهو أحد الأقوال المروية عن ابن عباس . انظر الفخر الرازي ١٥/٢٠٢ .

(٢) انظر تفصيل موضوع الفداء في التفسير الكبير للرازي . (٣) تفسير البيضاوي ١/٢١٧ .

خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا

﴿فأمكن منهم﴾ أي فقواك ونصرك الله عليهم وجعلك تتمكن من رقابهم ، فإن عادوا إلى الخيانة فسيمكنك منهم أيضاً ﴿والله عليم حكيم﴾ أي عالم بجميع ما يجري ، يفعل ما تقضي به حكمته البالغة ﴿إن الذين آمنوا﴾ أي صدقوا الله ورسوله ﴿وهاجروا﴾ أي تركوا وهجروا الديار والأوطان حباً في الله ورسوله ﴿وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ أي جاهدوا الأعداء بالأموال والأنفس لإعزاز دين الله ، وهم المهاجرون ﴿والذين آووا ونصروا﴾ أي آووا المهاجرين في ديارهم ونصروا رسول الله وهم الأنصار ﴿أولئك بعضهم أولياء بعض﴾ أي أولئك الموصوفون بالصفات الفاضلة بعضهم أولياء بعض في النصرة والإرث ، ولهذا آخى ﷺ بين المهاجرين والأنصار ﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا﴾ أي آمنوا وأقاموا بمكة فلم يهاجروا إلى المدينة ﴿ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا﴾ أي لا إرث بينكم وبينهم ولا ولاية حتى يهاجروا من بلد الكفر ﴿وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر﴾ أي وإن طلبوا منكم النصرة لأجل إعزاز الدين ، فعليكم أن تنصروهم على أعدائهم لأنهم إخوانكم ﴿إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ أي إلا إذا استنصروكم على من بينكم وبينهم عهد ومهادنة فلا تعينوهم عليهم ﴿والله بما تعملون بصير﴾ أي رقيب على أعمالكم فلا تخالفوا أمره. ٠ ذكر تعالى المؤمنين وقسمهم إلى ثلاثة أقسام : المهاجرين ، الأنصار ، الذين لم يهاجروا ، فبدأ بالمهاجرين لأنهم أصل الإسلام وقد هجروا الديار والأوطان ابتغاء رضوان الله ، وثنى بالأنصار لأنهم نصروا الله ورسوله وجاهدوا بالنفس والمال ، وجعل بين المهاجرين والأنصار الولاية والنصرة ، ثم ذكر حكم المؤمنين الذين لم يهاجرواوبيّن أنهم حرموا الولاية حتى يهاجروا في سبيل الله ، وبعد ذكر هذه الأقسام الثلاثة ذكر حكم الكفارفقال﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض﴾ أي هم في الكفر والضلال ملة واحدة فلا يتولاهم إلا من كان منهم ﴿إلا تفعلوه﴾ أي وإن لم تفعلوا ما أمرتم به من تولي المؤمنين وقطع الكفار ﴿تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾ أي تحصل في الأرض فتنة عظيمة ومفسدة كبيرة ، لأنه يترتب على ذلك قوة الكفار وضعف المسلمين ، ثم عاد بالذكر والثناء على المهاجرين والأنصار فقال ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله﴾ وهم المهاجرون أصحاب السبق إلى الإسلام ﴿والذين آووا ونصروا﴾ وهم الأنصار أصحاب الإيواء والإيثار ﴿أولئك هم المؤمنون حقاً﴾

لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

أي هؤلاء هم الكاملون في الإيمان ، المتحققون في مراتب الإحسان ﴿**لهم مغفرة ورزق كريم**﴾ أي لهم مغفرة لذنوبهم ، ورزق كريم في جنات النعيم قال المفسرون : ليس في هذه الآيات تكرار ، فالآيات السابقة تضمنت الولاية والنصرة بين المؤمنين ، وهذه تضمنت الثناء والتشريف ، ومآل حال أولئك الأبرار من المغفرة والرزق الكريم في دار النعيم ﴿**والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم**﴾ هذا قسم رابع وهم المؤمنون الذين هاجروا بعد الهجرة الأولى فحكمهم حكم المؤمنين السابقين في الثواب والأجر ﴿**وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله**﴾ أي أصحاب القرابات بعضهم أحق بإرث بعض من الأجانب في حكم الله وشرعه قال العلماء : هذه ناسخة للإرث بالحلف والإخاء ﴿**إن الله بكل شيء عليم**﴾ أي أحاط بكل شيء علماً ، فكل ما شرعه الله حكمة وصواب وصلاح ، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وهو ختم للسورة في غاية البراعة .

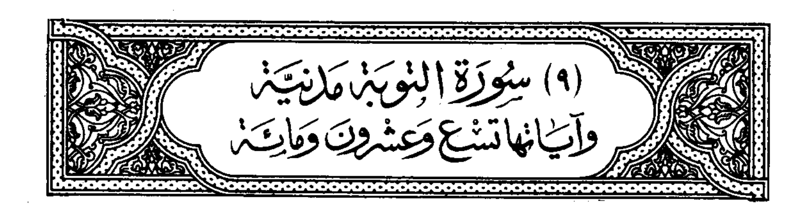
البلاغة : ١ - ﴿**وألّف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألّف بينهم**﴾ هذا الأسلوب يسمى بـ « الإطناب » وفائدته التذكير بالمنة الكبرى والنعمة العظمى على الرسول والمؤمنين .

٢ - ﴿**إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين . .**﴾ الآيات قال في البحر : انظر إلى فصاحة هذا الكلام حيث أثبت في الشرطية الأولى قيد الصبر ، وحذف نظيره من الثانية ، وأثبت في الثانية قيد كونهم من الكفرة ، وحذفه من الأولى ، ولما كان الصبر شديد الطلب أثبت في جملتي التخفيف ، ثم ختمت الآيات بقوله ﴿**والله مع الصابرين**﴾ مبالغة في شدة المطلوبية ، وهذا النوع من البديع يسمى « الاحتباك »[1] . فلله در التنزيل ما أحلى فصاحته وأنضر بلاغته ! !

« تم بحمده تعالى تفسير سورة الأنفال »

* * *

(١) البحر المحيط ٤/ ٥١٦ .



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* هذه السورة الكريمة من السور المدنية التي تعنى بجانب التشريع، وهي من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ فقد روى البخاري عن البراء بـن عازب أن آخر سورة نزلت سورة براءة[١]، وروى الحافظ ابن كثير: أن أول هذه السورة نزلت على رسول الله ﷺ عند مرجعه من غزوة تبوك، وبعث أبا بكر الصديق أميراً على الحج تلك السنة، ليقيم للناس مناسكهم، فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغاً عن رسول الله ﷺ ما فيها من الأحكام[٢] نزلت في السنة التاسعة من الهجرة، وهي السنة التي خرج فيها رسول الله ﷺ لغزو الروم، واشتهرت بين الغزوات النبوية بـ «غزوة تبوك» وكانـت في حرٍّ شديد، وسفر بعيد، حين طابـت الثمار، وأخلد الناس إلى نعيم الحياة، فكانت ابتلاء لإيمان المؤمنين، وامتحاناً لصدقهم وإخلاصهم لدين الله، وتمييزاً بينهم وبين المنافقين، ولهذه السورة الكريمة هدفان أساسيان ـ إلى جانب الأحكام الأخرى ـ هما:

أولاً: بيان القانون الإسلامي في معاملة المشركين، وأهل الكتاب.

ثانياً: إظهار ما كانت عليه النفوس حينما استنفرهم الرسول لغزو الروم.

* أما بالنسبة للهدف الأول فقد عرضت السورة إلى عهود المشركين فوضعت لها حداً، ومنعت حج المشركين لبيت الله الحرام، وقطعت الولاية بينهم وبين المسلمين، ووضعت الأساس في قبول بقاء أهل الكتاب في الجزيرة العربية، وإباحة التعامل معهم، وقد كان بين النبي ﷺ والمشركين عهود ومواثيق، كما كان بينه وبين أهل الكتاب عهود أيضاً، ولكن المشركين نقضوا العهود وتآمروا مع اليهود عدة مرات على حرب المسلمين، وخانت طوائف اليهود «بنو النضير» و«بنو قريظة» و«بنو قينقاع» ما عاهدوا عليه رسول الله ﷺ ونقضوا عهودهم مرات ومرات، فلم يعد من الحكمة أن يبقى المسلمون متمسكين بالعهود وقد نقضها اعداؤهم، فنزلت السورة الكريمة بإلغاء تلك العهود ونبذها إليهم على وضوحٍ وبصيرة، لأن الناكثين لا يتورعون عن الخيانة كلما سنحت لهم الفرصة، وبذلك قطع الله تعالى ما بين المسلمين

---

(١) البخاري ٨/ ٢٢٧. (٢) مختصر ابن كثير ٢/ ١٢٣.

والمشركين من صلات ، فلا عهد ، ولا تعاهد ، ولا سلم ، ولا أمان ، بعد أن منحهم الله فرصة كافية هي السياحة في الأرض أربعة أشهر ينطلقون فيها آمنين ، ليتمكنوا من النظر والتدبر في أمرهم ، ويختاروا ما يرون فيه المصلحة لهم . وفي ذلك نزل صدر السورة الكريمة ﴿براءةٌ من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . . ﴾ الآيات .

* ثم تلتها الآيات في قتال الناقضين للعهود من أهل الكتاب ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر . . ﴾ الآية ،وقد تناول الحديث عنهم ما يقرب من عشرين آية ، كشف الله سبحانه فيها القناع عن خفايا أهل الكتاب ، وما انطوت عليه نفوسهم من خبثٍ ومكر ، وحقدٍ على الإسلام والمسلمين .

* وعرضت السورة للهدف الثاني ، وهو شرح نفسيات المسلمين حين استنفرهم رسول الله ﷺ لغزو الروم ، وقد تحدثت الآيات عن المتثاقلين منهم والمتخلفين ، والمثبطين ، وكشفت الغطاء عن فتن المنافقين ، باعتبار خطرهم الداهم على الإسلام والمسلمين ، وفضحت أساليب نفاقهم ، وألوان فتنتهم وتخذيلهم للمؤمنين ، حتى لم تدع لهم ستراً إلا هتكته ، ولا دخيلة إلا كشفتها ، وتركتهم بعد هذا الكشف والإيضاح تكاد تلمسهم أيدي المؤمنين ، وقد استغرق الحديث عنهم معظم السورة بدءاً من قوله تعالى ﴿لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك . . ﴾ إلى قوله تعالى ﴿لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبةً في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم﴾[1] ولهذا سماها بعض الصحابة « الفاضحة » لأنها فضحت المنافقين وكشفت أسرارهم ، قال سعيد بن جبير : سألت ابن عباس عن سورة براءة فقال : تلك الفاضحة ، ما زال ينزل : ومنهم ، ومنهم ، حتى خفنا ألا تدع منهم أحداً[2] ، وروي عن حذيفة بن اليمان أنه قال : إنكم تسمونها سورة التوبة ، وإنما هي سورة العذاب ، والله ما تركت أحداً من المنافقين إلا نالت منه[3] ، وهذا هو السر في عدم وجود البسملة فيها قال ابن عباس : سألت علي بن أبي طالب لِمَ لمْ يُكتب في براءة ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ؟ قال : لأن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ أمان ، وبراءة نزلت بالسيف ، ليس فيها أمان ، وقال سفيان بن عيينة : إنما لم تكتب في صدر هذه السورة البسملة لأن التسمية رحمة ، والرحمة أمان ، وهذه السورة نزلت بالمنافقين وبالسيف ، ولا أمان للمنافقين[4] .

* وبالجملة فإن هذه السورة الكريمة قد تناولت « الطابور الخامس » المندس بين صفوف المسلمين ألا وهم « المنافقون » الذين هم أشد خطراً من المشركين ، ففضحتهم وكشفت أسرارهم ومخازيهم ، وظلت تقذفهم بالحمم حتى لم تُبق منهم دياراً ، فقد وصل بهم الكيد في التآمر على الإسلام ، أن يتخذوا بيوت الله أوكاراً للتخريب والتدمير ، وإلقاء الفتنة بين صفوف المسلمين ، في مسجدهم الذي عرف باسم « مسجد الضرار » وقد نزل في شأنه أربع آيات في هذه السورة ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل . . ﴾ الآيات ولم يكد النبي ﷺ

---

(١) الآيات من (٤٢ - الى ١١٠) ويكاد يكون جو السورة في النفاق والمنافقين . (٢) القرطبي ٨/ ٦١ .
(٣) الكشاف ٢/ ٢٤١ . (٤) القرطبي ٨/ ٦٣ .

يتلقى الوحي حتى قال لأصحابه : (انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وحرّقوه) فهدموه وكفى الله الإسلام والمسلمين شرهم ، وكيدهم ، وخبثهم ، وفضحهم إلى يوم الدين .

التسمية : تسمى هذه السورة بأسماء عديدة أوصلها بعض المفسرين إلى أربعة عشر اسماً ، قال العلامة الزمخشري : لهذه السورة عدة أسماء : (براءة ، والتوبة ، والمقشقشة ، والمبعثرة ، والمشردة ، والمخزية ، والفاضحة ، والمثيرة ، والحافرة ، والمنكلة ، والمدمدمة ، وسورة العذاب) قال : لأن فيها التوبة على المؤمنين ، وهي تقشقش من النفاق أي تبرىء منه ، وتبعثر عن أسرار المنافقين ، وتبحث عنها وتثيرها وتحفر عنها ، وتفضحهم ، وتنكل بهم ، وتشردهم ، وتخزيهم ، وتدمدم عليهم[١] .

قال الله تعالى : ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . . إلى . . أجر عظيم﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٢٢) .

اللغة : ﴿براءة﴾ برئت من الشيء : إذا قطعت ما بينك وبينه من سبب وأزلته عن نفسك ، قال الزجاج : برئت من الرجل والدين براءة ، وبرئت من المرض بُروءاً[٢] ﴿فسيحوا﴾ السياحة : السير في الأرض والذهاب فيها للتجارة أو العبادة أو غيرهما ﴿أذان﴾ الأذان : الإعلام ومنه أذان الصلاة ﴿مرصد﴾ المرصد : الموضع الذي يرقب فيه العدو من قولهم : رصدت فلاناً إذا ترقبته قال الشاعر : إن المنية للفتى بالمرصد[٣] ﴿استجارك﴾ طلب جوارك أي أمانك ﴿إلاًّ﴾ الإلُّ : العهد والقرابة وأنشد أبو عبيدة :

أفسد الناس خلوف خلفوا قطعوا الإلَّ وأعراف الرحم[٤]

﴿نكثوا﴾ النكث : النقض وأصله في كل ما فُتل ثم حل ﴿وليجة﴾ بطانة ودخيلة ، قال أبو عبيدة : كل شيء أدخلته في شيء ليس منه فهو وليجة وأصله من الولوج ، فالداخل في القوم وليس منهم يسمى وليجة[٥] وقال الفراء : الوليجة : البطانة من المشركين يفشي إليهم سره ، ويعلمهم أمره .

سبب النزول : روي أن جماعة من رؤساء قريش أسروا يوم بدر ، وفيهم « العباس بن عبد المطلب » فأقبل عليهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فعيّروهم بالشرك ، وجعل علي بن أبي طالب يوبخ العباس بقتال رسول الله ﷺ وقطيعة الرحم ، فقال العباس : ما لكم تذكرون مساوئنا وتكتمون محاسننا ؟ فقال : وهل لكم من محاسن ؟ فقال : نعم ، إنا لنعمر المسجد الحرام ، ونحجب الكعبة ، ونسقي الحجيج ، ونفك العاني ـ الأسير ـ فنزلت هذه الآية ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر . .﴾ الآية[٦] .

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٤١ . (٢) زاد المسير ٣/ ٣٩٢ . (٣) القرطبي ٨/ ٧٣ .
(٤) البحر المحيط ٥/٣ . (٥) الرازي ١٦/ ٥ . (٦) زاد المسير ٣/ ٤٠٧ .

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟﴾

التفسير : ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾ أي هذه براءة من المشركين ومن عهودهم كائنة من الله ورسوله قال المفسرون : أخذت العرب تنقض عهوداً عقدتها مع رسول الله ﷺ فأمره الله بإلقاء عهودهم إليهم ، فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً على الحج ليقيم للناس المناسك ، ثم أتبعه علياً ليعلم الناس بالبراءة ، فقام علي فنادى في الناس بأربع : ألاّ يقرب البيت الحرام بعد العام مشرك ، وألا يطوف بالبيت عريان ، وأنه لا يدخل الجنة إلا مسلم ، ومن كان بينه وبين رسول الله مدة فأجله إلى مدته ، والله بريء من المشركين ورسولهُ ﴿فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾ أي سيروا آمنين أيها المشركون مدة أربعة أشهر لا يقع بكم منا مكروه ، وهو أمر إباحة وفي ضمنه تهديد ﴿واعلموا أنكم غير معجزي الله﴾ أي لا تفوتونه تعالى وإن أمهلكم هذه المدة ﴿وأن الله مخزي الكافرين﴾ أي مذلهم في الدنيا بالأسر والقتل ، وفي الآخرة بالعذاب الشديد ﴿وأذان من الله ورسوله إلى الناس﴾ أي إعلام الى كافة الناس بتبرىء الله تعالى ورسوله من المشركين ﴿يوم الحج الأكبر﴾ أي يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك قال الزمخشري : وصف الحج بالأكبر لأن العمرة تسمى الحج الأصغر[1] ﴿أن الله بريء من المشركين ورسولُهُ﴾ أي إعلام لهم بأن الله بريء من المشركين وعهودهم ، ورسوله بريء منهم أيضاً ﴿فإن تبتم فهو خير لكم﴾ أي فإن تبتم عن الكفر ورجعتم إلى توحيد الله فهو خير لكم من التمادي في الضلال ﴿وإن توليتم فاعلموا أنكم غيرُ معجزي الله﴾ أي وإن أعرضتم عن الإسلام وأبيتم إلا الاستمرار على الغيّ والضلال ، فاعلموا أنكم لا تفوتون الله طلباً ، ولا تُعجزونه هرباً ﴿وبشر الذين كفروا بعذابٍ أليم﴾ أي بشر الكافرين بعذاب مؤلم موجع يحل بهم قال أبو حيان : جعل الإنذار بشارة على سبيل الاستهزاء بهم ، وفي هذا وعيد عظيم لهم[2] ﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين﴾ أي إلا الذين عاهدتموهم ولم ينقضوا العهد فأتموا إليهم عهدهم قال في الكشاف : وهو استثناء بمعنى الاستدراك أي لكن من وفى ولم ينكث فأتموا عليهم عهدهم ، ولا تجُروهم مجراهم ، ولا تجعلوا الوفي كالغادر[3] ﴿ثم لم يُنقصوكم شيئاً﴾ أي لم ينقصوا من شروط الميثاق شيئاً ﴿ولم يُظاهروا عليكم أحداً﴾ أي لم يعينوا عليكم أحداً من أعدائكم ﴿فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم﴾ أي وفوا العهد

(١) الكشاف ٢/ ٢٤٥ . (٢) البحر ٥/ ٨ . (٣) الكشاف ٢/ ٢٤٦ .

ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ

كاملاً إلى انقضاء مدته **﴿إن الله يحب المتقين﴾** أي يحب المتقين لربهم الموفين لعهودهم قال البيضاوي : هذا تعليل وتنبيه على أن إتمام عهدهم من باب التقوى[1] قال ابن عباس : كان قد بقي لحيٍّ من كنانة من عهدهم تسعة أشهر ، فأتم ﷺ إليهم عهدهم **﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم﴾** أي مضت وخرجت الأشهر الأربعة التي حرم فيها قتالهم **﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾** أي اقتلوهم في أي مكانٍ أو زمان من حلٍّ أو حرم ، قال ابن عباس : في الحلِّ والحرم وفي الأشهر الحرم[2] **﴿وخذوهم﴾** أي بالأسر **﴿واحصروهم﴾** أي احبسوهم وامنعوهم من التقلب في البلاد قال ابن عباس : إن تحصنوا فاحصروهم أي في القلاع والحصون حتى يُضطروا إلى القتل أو الإسلام **﴿واقعدوا لهم كل مرصد﴾** أي اقعدوا لهم في كل طريق يسلكونه ، وارقبوهم في كل ممر يجتازون منه في أسفارهم قال في البحر : وهذا تنبيه على أن المقصود إيصال الأذى إليهم بكل وسيلة بطريق القتال أو بطريق الاغتيال[3] **﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾** أي فإن تابوا عن الشرك وأدوا ما فرض عليهم من الصلاة والزكاة **﴿فخلوا سبيلهم﴾** أي كفوا عنهم ولا تتعرضوا لهم **﴿إن الله غفور رحيم﴾** أي واسع المغفرة والرحمة لمن تاب وأناب **﴿وإن أحد من المشركين استجارك﴾** أي إن استأمنك مشرك وطلب منك جوارك **﴿فأجره حتى يسمع كلام الله﴾** أي أمنه حتى يسمع القرآن ويتدبره قال الزمخشري : المعنى إن جاءك أحد من المشركين بعد انقضاء الأشهر ، لا عهد بينك وبينه ، واستأمنك ليسمع ما تدعو إليه من التوحيد والقرآن ، فأمنه حتى يسمع كلام الله ويتدبره ويطّلع على حقيقة الأمر[4] أقول : هذا غاية في حسن المعاملة وكرم الأخلاق ، لأن المراد ليس النيل من الكافرين ، بل إقناعهم وهدايتهم حتى يعرفوا الحق فيتبعوه ، ويتركوا ما هم عليه من الضلال **﴿ثم أبلغه مأمنه﴾** أي ثم إن لم يُسلم فأوصله إلى ديار قومه التي يأمن فيها على نفسه وماله من غير غدر ولا خيانة **﴿ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾** أي ذلك الأمر بالإجارة للمشركين ، بسبب أنهم لا يعلمون حقيقة دين الإسلام ، فلا بد من أمانهم حتى يسمعوا ويتدبروا ، ثم بين تعالى الحكمة من البراءة من عهود المشركين فقال **﴿كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله﴾** استفهام بمعنى الانكار والاستبعاد أي كيف يكون لهم عهد معتدٌّ به عند الله ورسوله ، ثم استدرك فقال **﴿إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام﴾** أي لكن من عاهدتم من المشركين عند المسجد الحرام ولم ينقضوا العهد قال ابن عباس :

---

(١) البيضاوي ٢١٨ . (٢) زاد المسير ٣/ ٣٩٨ . (٣) البحر المحيط ٥/ ١٠ . (٤) الكشاف ٢/ ٢٤٨ .

وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ

هم أهل مكة وقال ابن اسحاق : هم قبائل بني بكر كانوا دخلوا وقت الحديبية في المدة التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين قريش ، فأمر بإتمام العهد لمن لم يكن نقض عهده منهم[١] ﴿فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم﴾ أي فما داموا مستقيمين على عهدهم فاستقيموا لهم على العهد قال الطبري : أي فما استقاموا لكم على العهد فاستقيموا لهم على الوفاء[٢] ﴿إن الله يحب المتقين﴾ أي يحب من اتقى ربه ، ووفى عهده ، وترك الغدر والخيانة ﴿كيف وإن يظهروا عليكم﴾ تكرار لاستبعاد ثباتهم على العهد أي كيف يكون لهم عهد وحالهم هذه أنهم إن يظفروا بكم ﴿لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة﴾ أي لا يراعوا فيكم عهداً ولا ذمة ، لأنه لا عهد لهم ولا أمان قال أبو حيان : وهذا كله تقرير واستبعاد لثبات قلوبهم على العهد[٣] ﴿يُرضونكم بأفواههم﴾ أي يرضونكم بالكلام الجميل إن كان الظفر لكم عليهم ﴿وتأبى قلوبهم﴾ أي وتمتنع قلوبهم من الإذعان والوفاء بما أظهروه قال الطبري : المعنى يعطونكم بألسنتهم من القول خلاف ما يضمرونه لكم في نفوسهم من العداوة والبغضاء ، وتأبى قلوبهم أن يذعنوا بتصديق ما يبدونه لكم بألسنتهم[٤] ﴿وأكثرهم فاسقون﴾ أي وأكثرهم ناقضون للعهد خارجون عن طاعة الله ﴿اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً﴾ أي استبدلوا بالقرآن عرضاً يسيراً من متاع الدنيا الخسيس ﴿فصدوا عن سبيله﴾ أي منعوا الناس عن اتباع دين الإسلام ﴿إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾ أي بئس هذا العمل القبيح الذي عملوه ﴿لا يرقبون في مؤمنٍ إلاً ولا ذمة﴾ أي لا يراعون في قتل مؤمن لو قدروا عليه عهداً ولا ذمة ﴿وأولئك هم المعتدون﴾ أي وأولئك الجامعون لتلك الأوصاف الذميمة هم المجاوزون الحد في الظلم والبغي ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أي فإن تابوا عن الكفر وأقاموا الصلاة وأعطوا الزكاة ﴿فإخوانكم في الدين﴾ أي فهم إخوانكم في الدين ، لهم ما لكم ، وعليهم ما عليكم ﴿ونفصّل الآيات لقوم يعلمون﴾ أي ونبين الحجج والأدلة لأهل العلم والفهم ، والجملة اعتراضية للحث على التدبر والتأمل ﴿وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم﴾ أي وإن نقضوا عهودهم الموثقة بالأيمان ﴿وطعنوا في دينكم﴾ أي عابوا الإسلام بالقدح والذم ﴿فقاتلوا أئمة

(١) البحر ٥/١٢ . (٢) الطبري ١/٨١ . (٣) البحر ٥/١٣ . (٤) الطبري ١٠/٨٥ .

مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ

الكفر﴾ أي رؤساء وصناديد الكفر **﴿إنهم لا أيمان لهم﴾** أي لا أيمان لهم ولا عهود يوفون بها **﴿لعلهم ينتهون﴾** أي كي يكفوا عن الإجرام ، وينتهوا عن الطعن في الإسلام ، قال البيضاوي : وهو متعلق بـ « قاتلوا » أي ليكن غرضكم في المقاتلة الانتهاء عما هم عليه ، لا إيصال الأذية بهم كما هو طريقة المؤذين[١] **﴿ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم﴾** تحريض على قتالهم أي ألا تقاتلون يا معشر المؤمنين قوماً نقضوا العهود وطعنوا في دينكم ؟ **﴿وهمُّوا بإخراج الرسول﴾** أي عزموا على تهجير الرسول ﷺ من مكة حين تشاوروا بدار الندوة على إخراجه من بين أظهركم **﴿وهم بدءوكم أول مرة﴾** أي هم البادئون بالقتال حيث قاتلوا حلفاءكم خزاعة ، والبادىء أظلم ، فما يمنعكم أن تقاتلوهم ؟ **﴿أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه﴾** ؟ أي أتخافونهم فتتركون قتالهم خوفاً على أنفسكم منهم ؟ فالله أحق أن تخافوا عقوبته إن تركتم أمره **﴿إن كنتم مؤمنين﴾** أي إن كنتم مصدقين بعذابه وثوابه قال الزمخشري : يعني أن قضية الايمان الصحيح ألا يخشى المؤمن إلا ربه ولا يبالي بمن سواه[٢] .. ثم بعد الحض والحث أمرهم بقتالهم صراحة فقال **﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم﴾** أي قاتلوهم يا معشر المؤمنين فقتالكم لهم عذاب بأيدي أولياء الله وجهاد لمن قاتلهم **﴿ويُخزهم﴾** أي يذلهم بالأسر والقهر **﴿وينصركم عليهم﴾** أي يمنحكم الظفر والغلبة عليهم **﴿ويشف صدور قوم مؤمنين﴾** أي يشف قلوب المؤمنين بإعلاء دين الله وتعذيب الكفار وخزيهم قال ابن عباس : هم قوم من اليمن قدموا مكة فأسلموا فلقوا من أهلها أذى كثيراً فشكوا إلى رسول الله ﷺ فقال : أبشروا فإن الفرج قريب[٣] **﴿ويُذهب غيظ قلوبهم﴾** أي يذهب ما بها من غيظ ، وغمٍّ ، وكرب ، وهو كالتأكيد لشفاء الصدور وفائدته المبالغة في جعلهم مسرورين بما يمنّ الله عليهم من تعذيب أعدائهم قال الرازي : أمر تعالى بقتالهم وذكر فيه خمسة أنواع من الفوائد ، كل واحد منها يعظم موقعه إذا انفرد ، فكيف بها إذا اجتمعت[٤] ؟ **﴿ويتوب الله على من يشاء﴾** كلام مستأنف أي يمن الله على من يشاء منهم بالتوبة والدخول في الإسلام كأبي سفيان **﴿والله عليم حكيم﴾** أي عالم بالأسرار لا تخفى عليه خافية ، حكيم لا يفعل إلا ما فيه حكمة ومصلحة قال أبو السعود : ولقد أنجز الله سبحانه جميع ما وعدهم به على أجمل ما يكون ، فكان إخباره عليه السلام بذلك قبل وقوعه معجزة عظيمة[٥] **﴿أم حسبتم أن تُتركوا﴾** أم منقطعة بمعنى بل والهمزة أي بل حسبتم يا معشر المؤمنين ان تتركوا بغير امتحان وابتلاء يعرف الصادق منكم في دينه من الكاذب فيه ! **﴿ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم﴾** أي والحال أنه لم يتبيّن المجاهد منكم من غيره ، والمراد بالعلم علم ظهور لا علم خفاء فإنه

(١) البيضاوي ص ٢١٩ . (٢) الكشاف ٢/٢٥٢ . (٣) أبو السعود ٢/٢٥٨ . (٤) الفخر الرازي ١٦/٢ ٢ . (٥) أبو السعود ٢/٢٥٨ .

وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ

تعالى يعلم ذلك غيباً فأراد إظهار ما علم ليجازي على العمل ﴿**ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة**﴾ أي جاهدوا في سبيل الله ولم يتخذوا بطانة وأولياء من المشركين يفشون إليهم أسرارهم ويوالونهم من دون المؤمنين ، والغرض من الآية : ان الله تعالى لا يترك الناس دون تمحيص يظهر فيه الطيب من الخبيث ﴿**والله خبير بما تعملون**﴾ أي يعلم جميع أعمالكم لا يخفى عليه شيء منها ﴿**ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله**﴾ أي لا يصح ولا يستقيم ولا ينبغي ولا يليق بالمشركين أن يعمروا شيئاً من المساجد ﴿**شاهدين على أنفسهم بالكفر**﴾ أي حال كونهم مقرين بالكفر ، ناطقين به بأقوالهم وأفعالهم حيث كانوا يقولون في تلبيتهم : « لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك» يعنون الأصنام ، وكانوا قد نصبوا أصنامهم خارج البيت ، وكانوا يطوفون عراة كلما طافوا طوفة سجدوا للأصنام[1] والمعنى : ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين : عمارة مساجد الله ، مع الكفر بالله وبعبادته ﴿**أولئك حبطت أعمالهم**﴾ أي بطلت أعمالهم بما قارنها من الشرك ﴿**وفي النار هم خالدون**﴾ أي ماكثون في نار جهنم أبداً ﴿**إنما يعمرُ مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر**﴾ أي إنما تستقيم عمارة المساجد وتليق بالمؤمن المصدق بوحدانية الله، الموقن بالآخرة ﴿**وأقام الصلاة وآتى الزكاة**﴾ أي أقام الصلاة المكتوبة بحدودها ، وأدى الزكاة المفروضة بشروطها ﴿**ولم يخش إلا الله**﴾ أي خاف الله ولم يرهب أحداً سواه ﴿**فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين**﴾ أي فعسى أن يكونوا في زمرة المهتدين يوم القيامة قال ابن عباس : كل عسى في القرآن واجبة قال الله لنبيه ﴿**عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً**﴾ يقول : إن ربك سيبعثك مقاماً محموداً وهي الشفاعة[2] قال أبو حيّان : وعسى من الله تعالى واجبة حيثما وقعت في القرآن ، وفي التعبير بعسى قطع لأطماع المشركين ان يكونوا مهتدين ، إذ من جمع هذه الخصال الأربعة جعل حاله حال من تُرجى له الهداية ، فكيف بمن هو عارٍ منها ؟ وفيه ترجيح الخشية على الرجاء ، ورفض الاغترار بالأعمال الصالحة[3] ﴿**أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله**﴾ الخطاب للمشركين[4] ، والاستفهام للإنكار والتوبيخ والمعنى : أجعلتم يا معشر المشركين سقاية الحجيج وسدانة البيت ، كإيمان من آمن بالله وجاهد في سبيله ؟ وهو رد على العباس حين قال : لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة ، فلقد كنا نعمر المسجد الحرام ، ونسقي

(١) الصاوي على الجلالين ٢/ ١٤١ . (٢) الطبري ١٠/ ٩٤ . (٣) البحر المحيط ٥/ ٢٠ . (٤) انظر سبب النزول .

ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٢﴾

الحاج فنزلت قال الطبري : هذا توبيخ من الله تعالى لقوم افتخروا بالسقاية وسدانة البيت الحرام ، فأعلمهم أن الفخر في الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، والجهاد في سبيله[١] ﴿لا يستوون عند الله﴾ أي لا يتساوى المشركون بالمؤمنين ، ولا أعمال أولئك بأعمال هؤلاء ومنازلهم ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ هذا كالتعليل أي لا يوفق الظالمين إلى معرفة الحق ، قال في البحر : ومعنى الآية إنكار أن يُشبه المشركون بالمؤمنين ، وأعمالهم المحبطة بأعمالهم المثبتة ، ولما نفى المساواة بينهم أوضحها بأن الكافرين بالله هم الظالمون ، ظلموا أنفسهم بعدم الإيمان ، وظلموا المسجد الحرام إذ جعلوه متعبداً لأوثانهم ، وأثبت للمؤمنين الهداية في الآية السابقة ، ونفاها عن المشركين هنا فقال ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾[٢] ثم قال تعالى ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجةً عند الله﴾ هذا زيادة توضيح وبيان لأهل الجهاد والإيمان والمعنى : إن الذين طهروا أنفسهم من دنس الشرك بالإيمان ، وطهروا أبدانهم بالهجرة من الأوطان ، وبذلوا أنفسهم وأموالهم للجهاد في سبيل الرحمن ، هؤلاء المتصفون بالأوصاف الجليلة أعظم أجراً ، وأرفع ذكراً من سقاة الحاج ، وعمار المسجد الحرام وهم بالله مشركون ﴿وأولئك هم الفائزون﴾ أي وأولئك هم المختصون بالفوز العظيم في جنات النعيم ﴿يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان﴾ أي يبشرهم المولى برحمة عظيمة ، ورضوان كبير من ربٍّ عظيم ﴿وجناتٍ لهم فيها نعيم مقيم﴾ أي وجنات عالية ، قطوفها دانية ، لهم في تلك الجنات نعيم دائم لا زوال له ﴿خالدين فيها أبداً﴾ أي ماكثين في الجنان إلى ما لا نهاية ﴿إن الله عنده أجر عظيم﴾ أي ثوابهم عند الله عظيم ، تعجز العقول عن وصفه قال أبو حيان : لما وصف المؤمنين بثلاث صفات : الإيمان ، والهجرة ، والجهاد بالنفس والمال ، قابلهم على ذلك بالتبشير بثلاثة : الرحمة ، الرضوان ، والجنان ، فبدأ بالرحمة لأنها أعم النعم في مقابلة الإيمان ، وثنَّى بالرضوان الذي هو نهاية الإحسان في مقابلة الجهاد ، وثلَّث بالجنان في مقابلة الهجرة وترك الأوطان[٣] وقال الألوسي : ولا يخفى أن وصف الجنات بأن لهم فيها نعيمٌ مقيم جاء في غاية اللطافة ، لأن الهجرة فيها السفر ، الذي هو قطعة من العذاب[٤] .

البَلاَغَة : ١ ـ ﴿براءة من الله ورسوله﴾ التنوين للتفخيم والتقييد بأنها من الله ورسوله لزيادة التفخيم والتهويل .

٢ ـ ﴿وبشر الذين كفروا بعذاب أليم﴾ هذا يسمى « الأسلوب التهكمي » لأن البشارة بالعذاب

---

(١) الطبري ١٠/٩٤ . (٢) البحر المحيط ٥/ ٢٠ . (٣) البحر ٥/ ٢١ . (٤) روح المعاني ١٠/ ٧٠ .

تهكم به .

٣ - ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم﴾ شبّه مضي الأشهر وانقضاءها بالإنسلاخ الواقع بين الحيوان وجلده فهو من باب الاستعارة .

٤ - ﴿والله عليم حكيم﴾ ذكر الاسم الجليل مكان الضمير لتربية المهابة وإدخال الروعة في القلب .

٥ - ﴿وأولئك هم الفائزون﴾ الجملة مفيدة للحصر أي هم الفائزون لا غيرهم .

٦ - ﴿وأقام الصلاة وآتى الزكاة﴾ في تخصيص الصلاة والزكاة بالذكر تفخيم لشأنهما وحث على التنبه لهما .

٧ - ﴿برحمةٍ منه ورضوانٍ﴾ تنكير الرحمة والرضوان للتفخيم والتعظيم أي برحمة لا يبلغها وصف واصف .

فائدة : عمارة المساجد نوعان : حسية ، ومعنوية ، فالحسية بالتشييد والبناء ، والمعنوية بالصلاة وذكر الله ، وقد ربط الباري جل وعلا بين العمارة والإيمان وفي الحديث (إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان لأن الله تعالى يقول ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾[1] فالعمارة الحقيقية بالصلاة وذكر الله .

لطيفة : ذكر القرطبي أن أعرابياً قدم المدينة المنورة فقال : من يقرئني مما أُنزل على محمدﷺ ؟ فأقرأه رجل سورة براءة حتى أتى الآية الكريمة ﴿أن الله بريء من المشركين ورسوله﴾ فقرأها عليه بالجرِّ ﴿ورسولهِ﴾ فقال الأعرابي : وأنا أيضاً أبرأ من رسوله ، فاستعظم الناس الأمر وبلغ ذلك عمر فدعاه فقال يا أعرابي : أتبرأ من رسول اللهﷺ ؟ فقال يا أمير المؤمنين : قدمت المدينة فأقرأني رجل سورة براءة فقلت إن يكن الله بريء من رسوله فأنا أبرأ منه ، فقال : ما هكذا الآية يا أعرابي ؟ قال فكيف يا أمير المؤمنين ! فقرأها عليه بالضم ﴿ورسولُه﴾ فقال الأعرابي : وأنا والله أبرأ مما بريء الله ورسوله منه ، فأمر عمر ألا يقرىء الناس إلا عالم بلغة العرب[2] .

* * *

قال الله تعالى :﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء . . إلى . . ولو كره المشركون﴾

من آية (٢٣) إلى نهاية آية (٣٣) .

المناسبة : لما ذكر تعالى قبائح المشركين ، وأثنى على المهاجرين المؤمنين الذين هجروا الديار والأوطان حباً في الله ورسوله ، حذر هنا من ولاية الكافرين وذكر أن الانقطاع عن الآباء والأقارب واجب

(١) رواه الترمذي . (٢) القرطبي ١/ ٢٤ .

بسبب الكفر ، ثم استطرد إلى تذكير المؤمنين بنصرهم في مواطن كثيرة ليعتزوا بدينهم ، ثم عاد إلى الحديث عن قبائح أهل الكتاب للتحذير من موالاتهم ، وأنهم كالمشركين يسعون لإطفاء نور الله .

اللغــة : ﴿أولياء﴾ جمع ولي : وهو الناصر والمعين الذي يتولى شئون الغير وينصره ويقويه ﴿وعشيرتكم﴾ العشيرة : الجماعة التي يعتز ويحتمي بها الإنسان قال الواحدي : عشيرة الرجل أهله الأدنون وهو من العِشرة أي الصحبة لأنها من شأن القربى ﴿كسادها﴾ كسد الشيء كساداً وكسوداً إذا بار ولم يكن له تفاق ﴿عيلة﴾ فقراً يقال : عال الرجل يعيل إذا افتقر قال الشاعر :

وما يدري الفقير متى غناه وما يدري الغني متى يعيل[1]

﴿الجزية﴾ ما أخذ من أهل الذمة سميت جزية لأنهم أعطوها جزاء ما مُنحوا من الأمن ﴿يضاهئون﴾ يشابهون والمضاهاة المماثلة والمحاكاة ﴿يؤفكون﴾ يصرفون عن الحق والإفك الصرف يقال : أُفك الرجل أي قلب وصُرف .

سبب النزول : قال الكلبي : لما أُمر رسول الله ﷺ بالهجرة الى المدينة ، جعل الرجل يقول لأبيه وأخيه وامرأته : لقد أمرنا بالهجرة ، فمنهم من يسرع إلى ذلك ويعجبه ، ومنهم من تتعلق به زوجته وولده فيقولون : نشدناك الله إن تدعنا من غير شيء فنضيع ، فيرق فيجلس معهم ويدع الهجرة فنزلت الآية تعاتبهم ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياءَ . .﴾[2] الآية .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ

التفسير : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء﴾ النداء بلفظ الإيمان للتكريم ولتحريك الهمة للمسارعة إلى امتثال أوامر الله قال ابن مسعود : « إذا سمعت الله تعالى يقول : يا أيها الذين آمنوا فأرْعِها سمعك ، فإنه خير تؤمر به ، أو شر تنهى عنه » والمعنى : لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم الكافرين أنصاراً وأعواناً تودونهم وتحبونهم ﴿إن استحبوا الكفر على الإيمان﴾ أي إن فضلوا الكفر واختاروه على الإيمان وأصروا عليه إصراراً ﴿ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون﴾ قال ابن عباس : هو مشرك مثلهم ، لأن من رضي بالشرك فهو مشرك[3] ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم﴾ أي إن كان هؤلاء الأقارب من الآباء ، والأبناء ، والإخوان ، والزوجات ومن سواهم ﴿وعشيرتكم﴾ أي جماعتكم التي تستنصرون بهم ﴿وأموال اقترفتموها﴾ أي وأموالكم التي اكتسبتموها ﴿وتجارةٌ تخشون كسادها﴾ أي تخافون عدم نفاقها ﴿ومساكن ترضونها﴾ أي منازل

(١) البحر ٥/ ٤ . (٢) أسباب النزول ص ١٤٠ . (٣) القرطبي ٨/ ٩٤ .

﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ﴾

تعجبكم الإقامة فيها ﴿**أحبَّ إليكم من الله ورسوله**﴾ هذا هو جواب كان أي إن كانت هذه الأشياء المذكورة أحب إليكم من الهجرة إلى الله ورسوله ﴿**وجهادٍ في سبيله**﴾ أي وأحب إليكم من الجهاد لنصرة دين الله ﴿**فتربصوا**﴾ أي انتظروا وهو وعيد شديد وتهديد ﴿**حتى يأتي الله بأمره**﴾ أي بعقوبته العاجلة أو الآجلة ﴿**والله لا يهدي القوم الفاسقين**﴾ أي لا يهدي الخارجين عن طاعته إلى طريق السعادة ، وهذا وعيد لمن آثر أهله ، أو ماله ، أو وطنه ، على الهجرة والجهاد ، ثم ذكرهم تعالى بالنصر على الأعداء في مواطن اللقاء فقال ﴿**لقد نصركم الله في مواطن كثيرة**﴾ أي نصركم في مشاهد كثيرة ، وحروبٍ عديدة ﴿**ويوم حنين**﴾ أي ونصركم أيضاً يوم حنين بعد الهزيمة التي منيتم بها بسبب اغتراركم بالكثرة ﴿**إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تُغن عنكم شيئاً**﴾ أي حين أعجبكم كثرة عددكم فقلتم : لن نغلب اليوم من قلة ، وكنتم اثني عشر ألفاً وأعداؤكم أربعة آلاف ، فلم تنفعكم الكثرة ولم تدفع عنكم شيئاً ﴿**وضاقت عليكم الأرض بما رحبت**﴾ أي وضاقت الأرض على رحبها وكثرة اتساعها بكم من شدة الخوف ﴿**ثم وليتم مدبرين**﴾ أي وليتم على أدباركم منهزمين قال الطبري : يخبرهم تبارك وتعالى أن النصر بيده ومن عنده ، وأنه ليس بكثرة العدد ، وأنه ينصر القليل على الكثير إذا شاء ، ويخلي القليل فيهزم الكثير ، قيل للبراء بن عازب : أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين ؟ فقال البراء : أشهد أن رسول الله ﷺ لم يفر ، ولقد رأيته على بغلته البيضاء - وأبو سفيان آخذ بلجامها يقودها - فلما غشيه المشركون نزل فجعل يقول :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

ثم أخذ قبضة من تراب فرمى بها في وجوه المشركين وقال : شاهت الوجوه ففروا ، فما بقي أحد إلا ويمسح القذى عن عينيه[1] ، وقال البراء : كنا والله إذا حميَ البأس نتقي برسول الله ﷺ وإن الشجاع منا الذي يحاذيه ﴿**ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين**﴾ أي أنزل بعد الهزيمة الأمن والطمأنينة على المؤمنين حتى سكنت نفوسهم قال أبو السعود : أي أنزل رحمته التي تسكن بها القلوب وتطمئن إليها[2] ﴿**وأنزل جنوداً لم تروها**﴾ قال ابن عباس : يعني الملائكة ﴿**وعذّب الذين كفروا**﴾ أي بالقتل والأسر وسبي النساء والذراري ﴿**وذلك جزاء الكافرين**﴾ أي وذلك عقوبة الكافرين بالله . ﴿**ثم يتوبُ**

(١) الطبري ١٠/١٠٣ . (٢) أبو السعود ٢/٢٦٣ .

وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ

الله من بعد ذلك على من يشاء﴾ أي يتوب على من يشاء فيوفقه للإسلام ، وهو إشارة إلى إسلام هوازن ﴿والله غفور رحيم﴾ أي عظيم المغفرة واسع الرحمة ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس﴾ أي قذر لخبث باطنهم قال ابن عباس : أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير ، وقال الحسن : من صافح مشركاً فليتوضأ[1] ، والجمهور على أن هذا على التشبيه أي هم بمنزلة النجس أو كالنجس لخبث اعتقادهم وكفرهم بالله جعلوا كأنهم النجاسة بعينها مبالغة في الوصف على حد قولهم : عليٌّ أسدٌ أي كالأسد ﴿فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ أي فلا يدخلوا الحرم ، أطلق المسجد الحرام وقصد به الحرم كله قال أبو السعود : وقيل : المراد المنع عن الحج والعمرة أي لا يحجوا ولا يعتمروا بعد حج عامهم هذا وهو عام تسع من الهجرة ويؤيده حديث (وألاَّ يحج بعد هذا العام مشرك)[2] وهو العام الذي نزلت فيه سورة براءة ونادى بها عليٌّ في المواسم ﴿وإن خفتم عيلةً فسوف يغنيكم الله من فضله﴾ أي وإن خفتم أيها المؤمنون فقراً بسبب منعهم من دخول الحرم أو من الحج فإن الله سبحانه يغنيكم عنهم بطريق آخر من فضله وعطائه قال المفسرون : لما مُنع المسلمون من تمكين المشركين من دخول الحرم ، وكان المشركون يجلبون الأطعمة والتجارات اليهم في المواسم ، ألقى الشيطان في قلوبهم الحزن فقال لهم : من أين تأكلون ؟ وكيف تعيشون وقد منعت عنكم الأرزاق والمكاسب ؟ فأمنهم الله من الفقر والعيلة ، ورزقهم الغنائم والجزية[3] ﴿إن شاء﴾ أي يغنيكم بإرادته ومشيئته ﴿إن الله عليم حكيم﴾ قال ابن عباس : عليم بما يصلحكم، حكيم فيما حكم في المشركين . . ولما ذكر حكم المشركين ذكر حكم أهل الكتاب فقال ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ أي قاتلوا الذين لا يؤمنون إيماناً صحيحاً بالله واليوم الآخر وإن زعموا الإيمان ، فإن اليهود يقولون عزير ابن الله ، والنصارى يعتقدون بألوهية المسيح ويقولون بالتثليث ﴿ولا يحرِّمون ما حرم الله ورسوله﴾ أي لا يحرمون ما حرم الله في كتابه ، ولا رسوله في سنته ، بل يأخذون بما شرعه لهم الأحبار والرهبان ولهذا يستحلون الخمر والخنزير وما شابههما ﴿ولا يدينون دين الحق﴾ أي لا يعتقدون بدين الإسلام الذي هو دين الحق ﴿من الذين أوتوا الكتاب﴾ هذا بيان للمذكورين أي من هؤلاء المنحرفين من اليهود والنصارى الذين نزلت عليهم التوراة والإنجيل

(١) القرطبي ٨/١٠٣ وهو الذي نقل عن ابن عباس والحسن البصري ورجحه الفخر الرازي والألوسي وهو ظاهر الآية ، والجمهور على أنه على التشبيه . (٢) أبو السعود ٢/ ٢٦٤ . (٣) انظر الطبري ١٠/١٠٧ .

صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

﴿حتى يُعطوا الجزية عن يد﴾ أي حتى يدفعوا إليكم الجزية منقادين مستسلمين ﴿وهم صاغرون﴾ أي أذلاء حقيرون مقهورون بسلطان الإسلام ، ثم ذكر تعالى طرفاً من قبائحهم فقال ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله﴾ أي نسب اللعناء إلى الله الولد، وهو واحد أحد فرد صمد قال البيضاوي: وإنما قالوا ذلك لأنه لم يبق فيهم بعد بختنصر من يحفظ التوراة ، فلما أحياه الله بعد مائة عام أملى عليهم التوراة حفظاً فتعجبوا من ذلك وقالوا : ما هذا إلا لأنه ابن الله[١] ﴿وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾ أي وزعم النصارى ـ أعداء الله ـ أن المسيح ابن الله قالوا : لأن عيسى ولد بدون أب ، ولا يمكن أن يكون ولد بدون أب ، فلا بد أن يكون ابن الله ، قال تعالى رداً عليهم ﴿ذلك قولهم بأفواههم﴾ أي ذلك القول الشنيع هو مجرد دعوى باللسان من غير دليل ولا برهان قال في التسهيل : يتضمن معنيين : أحدهما إلزامهم هذه المقالة والتأكيد في ذلك ، والثاني أنهم لا حجة لهم في ذلك ، وإنما هو مجرد دعوى كقولك لمن تكذبه : هذا قولك بلسانك[٢] ﴿يضاهئون قول الذين كفروا من قبل﴾ أي يشابهون بهذا القول الشنيع قول المشركين قبلهم : الملائكة بنات الله ﴿تشابهت قلوبهم﴾ ﴿قاتلهم الله أنَّى يُؤفكون﴾ دعاء عليهم بالهلاك أي أهلكهم الله كيف يُصرفون عن الحق الى الباطل بعد وضوح الدليل حتى يجعلوا لله ولداً ! قال الرازي : الصيغة للتعجب وهو راجع إلى الخلق على عادة العرب في مخاطباتهم ، والله تعالى عجَّب نبيه من تركهم الحق وإصرارهم على الباطل[٣] ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ أي أطاع اليهود أحبارهم والنصارى رهبانهم في التحليل والتحريم وتركوا أمر الله فكأنهم عبدوهم من دون الله والمعنى : أطاعوهم كما يطاع الرب وإن كانوا لم يعبدوهم وهو التفسير المأثور عن رسول الله ﷺ قال عدي ابن حاتم: أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال : يا عدي إطرح عنك هذا الوثن ، قال وسمعته يقرأ سورة براءة ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ فقلت يا رسول الله : لم يكونوا يعبدونهم فقال عليه السلام : أليس يحُرمون ما أحل الله تعالى فيحرمونه ، ويحلون ما حرم الله فيستحلون ؟ ! فقلت : بلى ، قال : فذلك عبادتهم[٤] ﴿والمسيح ابن مريم﴾ أي اتخذه النصارى رباً معبوداً ﴿وما أُمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً﴾ أي والحال أن أولئك الكفرة ما أمروا على لسان الأنبياء إلا بعبادة إله واحد هو الله رب العالمين ﴿لا إله إلا هو﴾ لا معبود بحق سواه ﴿سبحانه عما يشركون﴾ أي تنزه الله عما يقول المشركون وتعالى علواً كبيراً ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم﴾ أي يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب أن يطفئوا نور الإسلام وشرع محمد عليه السلام بأفواههم

(١) البيضاوي ص ٢٢٢ . (٢) التسهيل ٢/ ٧٤ . (٣) الرازي ١٦/ ٣٦ . (٤) الألوسي ١٠/ ٨٤ .

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

الحقيرة ، بمجرد جدالهم وافترائهم ، وهو النور الذي جعله الله لخلقه ضياءً ، فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفىء شعاع الشمس أو نور القمر بنفخه بفمه ولا سبيل إلى ذلك ﴿ويأبى الله إلا أن يُتم نوره﴾ أي ويأبى الله إلا أن يعليه ويرفع شأنه ﴿ولو كره الكافرون﴾ أي ولو كره الكافرون ذلك ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق﴾ أي أرسل محمداًﷺ بالهداية التامة والدين الكامل وهو الإسلام ﴿ليُظهره على الدين كله﴾ أي ليعليه على سائر الأديان ﴿ولو كره المشركون﴾ جوابه محذوف أي ولو كره المشركون ظهوره .

البَلاغَة : ١ ـ ﴿فتربصوا حتى يأتي الله بأمره﴾ صيغته أمر وحقيقته وعيد كقوله ﴿ إعملوا ما شئتم﴾ .

٢ ـ ﴿ويوم حنين﴾ من باب عطف الخاص على العام للتنويه بشأنه حيث جاء النصر بعد اليأس ، والفرج بعد الشدة .

٣ ـ ﴿وضاقت عليكم الأرض بما رَحُبَتْ﴾ شبه ما حل بهم من الكرب والهزيمة والضيق النفسي بضيق الأرض على سعتها على سبيل الاستعارة .

٤ ـ ﴿إنما المشركون نجس﴾ الصيغة لإفادة الحصر واللفظ فيه تشبيه بليغ أي كالنجس في خبث الباطن وخبث الاعتقاد حذفت منه أداة الشبه ووجه الشبه فأصبح بليغاً ومثله ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً﴾ أي كالأرباب في طاعتهم وامتثال أوامرهم في التحريم والتحليل .

٥ ـ ﴿فلا يقربوا المسجد﴾ عبَّر عن الدخول بالقرب للمبالغة .

٦ ـ ﴿يطفئوا نور الله﴾ أراد به نور الإسلام فإن الإسلام بنوره المضيء وحججه القاطعة يشبه الشمس الساطعة في نورها وضيائها فهو من باب الاستعارة . وهي من لطائف الاستعارات .

لطيفة : قال العلامة القرطبي دل قوله تعالى ﴿لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء﴾ على أن القرب قرب الأديان لا قرب الأبدان ، وقد أنشدوا في ذلك أبياتاً :

يقولون لي دار الأحبة قد دنت ... وأنت كئيبٌ إن ذا لعجيب
فقلت : وما تغني ديارٌ قريبة ... إذا لم يكن بين القلوب قريب

* * *

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إنَّ كثيراً من الأحبار والرهبان . . إلى . . في ريبهم يترددون﴾ من آية (٣٤) إلى نهاية آية (٤٥) .

المناسبة : لما وصف تعالى رؤساء اليهود والنصارى بالتكبر والتجبر وادعاء الربوبية ، وصفهم هنا بالطمع والجشع والحرص على أكل أموال الناس ، تحقيراً لشأنهم وتسفيهاً لأحلامهم ، لأنهم اتخذوا الدين مطية لنيل الدنيا ، وذلك نهاية الذل والدناءة ، ثم ذكر تعالى قبائحهم وقبائح المشركين ، ثم دعا إلى النفير العام وذكر موقف المنافقين المثبطين عن الجهاد في سبيل الله .

اللغة : ﴿الأحبار﴾ علماء اليهود ﴿الرهبان﴾ علماء النصارى قال ابن المبارك :

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوءٍ ورهبانها[1]

﴿يكنزون﴾ أصل الكنز في اللغة : الجمع والضم ومنه حديث (ألا أخبركم بخير ما يكنز المرء ؟ المرأة الصالحة) أي يضمه لنفسه ويجمعه ، ثم غلب استعماله على المدفون من الذهب والفضة قال الطبري : الكنز كل شيء مجموع بعضه إلى بعض في بطن الأرض كان أو على ظهرها[2] ﴿تُكوى﴾ الكي : إلصاق المحمي من الحديد وشبهه بالعضو حتى يتمزق الجلد وفي الأمثال « آخر الدواء الكي » ﴿النسيء﴾ التأخير يقال : نسأه وأنسأه إذا أخره ومنه حديث (وينسأ له في أثره) أي يؤخر له في أجله قال الزمخشري : النسيء : تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر ﴿ليواطئوا﴾ أي ليوافقوا والمواطأة : الموافقة يقال : تواطأ القوم : إذا اتفقوا على أمر خفية ﴿انفروا﴾ النفر : الخروج بسرعة ومنه ﴿ولَّوا على أدبارهم نفوراً﴾ ﴿اثَّاقلتم﴾ أصله تثاقلتم بمعنى تباطأتم ولم تسرعوا ﴿عرضاً﴾ العرض : ما يعرض للانسان من منافع الدنيا سمي عرضاً لأنه لا يدوم وفي الحديث (الدنيا عرض حاضر ، يأكل منه البر والفاجر) ﴿الشقة﴾ المسافة البعيدة التي لا تقطع إلا بمشقة قال الجوهري : الشقة السفر البعيد[3] ، وكأنه مأخوذ من المشقة يقال : شقة شاقة .

سبب النزول : لما رجع رسول الله ﷺ من الطائف وغزوة حنين ، أمر الناس بالجهاد ، لغزو الروم ، وذلك في زمن عسرة من البأس ، وجدبٍ من البلاد ، وشدةٍ من الحر ، حين أثمرت النخل ، وطابت الثمار ، فعظم على الناس غزو الروم ، وأحبوا الظلال والمقام في المساكن والمال ، وشق عليهم الخروج إلى القتال فأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثَّاقلتم إلى الأرض . .﴾ الآية[4] .

* يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن

التفسير : **﴿يا أيها الذين آمنوا إنَّ كثيراً من الأحبار والرهبان﴾** أي يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله إن كثيرا من علماء اليهود « الأحبار » وعلماء النصارى « الرهبان » **﴿ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله﴾** أي ليأخذون أموال الناس بالحرام ، ويمنعونهم عن الدخول في دين

(١) القرطبي ٨/ ١٢٠ . (٢) الطبري ١/ ١٢١ . (٣) القرطبي ٨/ ١٥٤ . (٤) أسباب النزول للواحدي ص ١٤١ .

سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ

الإسلام قال ابن كثير : والمقصود التحذير من علماء السوء ، وعباد الضلال قال ابن عيينة : من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عُبَّادنا كان في شبه من النصارى[١] **﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾** أي يجمعون الأموال ويدخرون الثروات **﴿ثم لا ينفقونها في سبيل الله﴾** أي لا يؤ دون زكاتها ولا يبذلون منها في وجوه الخير قال ابن عمر : الكنز ما لم تُؤ د زكاته ، وما أديت زكاته فليس بكنز **﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾** أسلوب تهكم أي أخبرهم بالعذاب الأليم في دار الجحيم قال الزمخشري : وإنما قرن بين الكانزين وبين اليهود والنصارى تغليظاً عليهم ودلالة على أن من يأخذ منهم السحت ، ومن لا يعطي من المسلمين من طيب ماله ، سواء في استحقاق البشارة بالعذاب الأليم[٢]

﴿يوم يُحمى عليها في نار جهنم﴾ أي يوم يحمى عليها بالنار المستعرة حتى تصبح حامية كاوية **﴿فتُكوى بها جباهُهم وجنوبهُم وظهورهم﴾** أي تحرق بها الجباه والجنوب والظهور بالكي عليها قال ابن مسعود : والذي لا إله غيره لا يكوى عبد بكنزٍ فيمس دينار ديناراً ، ولا درهم درهماً ، ولكن يوسع جلده فيوضع كل دينار ودرهم على حدته[٣] ، وخصت هذه الأماكن بالكي لأن البخيل يرى الفقير قادماً فيقطب جبهته ، فإذا جاءه أعرض بجانبه ، فإذا طالبه بإحسان ولاه ظهره ، قال القرطبي : الكي في الوجه أشهر وأشنع ، وفي الظهر والجنب آلم وأوجع ، فلذلك خصها بالذكر من بين سائر الأعضاء[٤] **﴿هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾** أي يقال لهم تبكيتاً وتقريعاً : هذا ما كنزتموه لأنفسكم فذوقوا وبال ما كنتم تكنزونه وفي صحيح مسلم (ما من رجل لا يؤ دي زكاة ماله إلا جعل له يوم القيامة صفائح من نار ، فيكوى بها جنبه وجبهته وظهره في يوم كان مقداره خمسين الف سنة ، حتى يقضى بين العباد ، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما الى النار) **﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً﴾** أي إن عدد الشهور المعتد بها عند الله في شرعه وحكمه هي اثنا عشرشهراً على منازل القمر ، فالمعتبر به الشهور القمرية إذ عليها يدور فلك الأحكام الشرعية **﴿في كتاب الله﴾** أي في اللوح المحفوظ **﴿يوم خلق السموات والأرض﴾** قال ابن عباس : كتبه يوم خلق السموات والأرض في الكتاب الإمام الذي عند الله **﴿منها أربعة حرم﴾** أي منها أربعة شهور محرمة هي : « ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب » وسميت حرماً لأنها معظمة محترمة تتضاعف فيها الطاعات ويحرم القتال فيها **﴿ذلك الدين القيم﴾** أي ذلك

(١) المختصر ٢/ ١٣٨ . (٢) الكشاف ٢/ ٢٦٦ . (٣) الطبري ١٠/ ١٢٤ . (٤) القرطبي ٨/ ١٢٩ .

وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ

الشرع المستقيم ﴿**فلا تظلموا فيهن أنفسكم**﴾ أي لا تظلموا في هذه الأشهر المحرمة أنفسكم بهتك حرمتهن وارتكاب ما حرم الله من المعاصي والآثام ﴿**وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة**﴾ أي قاتلوهم جميعاً مجتمعين غير متفرقين كما يقاتلكم المشركون جميعاً ﴿**واعلموا أن الله مع المتقين**﴾ أي معهم بالنصرة والتأييد ، وهو بشارة وضمان لأهل التقوى ﴿**إنما النسيء زيادة في الكفر**﴾ أي إنما تأخير حرمة شهر لشهر آخر زيادة في الكفر لأنه تحريم ما أحله الله وتحليل ما حرمه فهو كفر آخر مضموم إلى كفرهم قال المفسرون : كان العرب أهل حروب وغارات ، وكان القتال محرماً عليهم في الأشهر الحرم ، فإذا جاء الشهر الحرام وهم محاربون شق عليهم ترك المحاربة ، فيحلونه ويحرمون مكانه شهراً آخر ، كأنهم يستقرضون حرمة شهر لشهر غيره ، فربما أحلوا المحرم وحرموا صفر حتى يكمل في العام أربعة أشهر محرمة ﴿**يضلُّ به الذين كفروا**﴾ أي يضل بسببه الكافرين ضلالاً على ضلالهم ﴿**يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً**﴾ أي يحلون المحرم عاماً والشهر الحلال عاماً فيجعلون هذا مكان هذا والعكس ﴿**ليواطئوا عدة ما حرم الله**﴾ أي ليوافقوا عدة الأشهر الحرم الأربعة ﴿**فيحلوا ما حرم الله**﴾ أي فيستحلوا بذلك ما حرمه الله قال مجاهد : كان رجل من بني كنانة يأتي كل عام إلى الموسم على حمار له ، فيقول أيها الناس : إني لا أعاب ولا أجاب ، ولا مرد لما أقول ، إنا قد حرمنا المحرم ، وأخرنا صفر ، ثم يجيء العام المقبل ويقول : إنا قد حرمنا صفر وأخرنا المحرم فذلك قوله تعالى ﴿**ليواطئوا عدة ما حرم الله**﴾[1] . ﴿**زُين لهم سوء أعمالهم**﴾ أي زين الشيطان لهم أعمالهم القبيحة حتى حسبوها حسنة ﴿**والله لا يهدي القوم الكافرين**﴾ أي لا يرشدهم إلى طريق السعادة ﴿**يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض**﴾ استفهام للتقريع والتوبيخ ، وهو توبيخ على ترك الجهاد وعتاب لمن تخلف عن غزوة تبوك والمعنى : ما لكم أيها المؤمنون إذا قيل لكم اخرجوا لجهاد أعداء الله تباطأتم وتثاقلتم ، وملتم إلى الدنيا وشهواتها وكرهتم مشاق السفر ومتاعبه ؟ ! ﴿**أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة**﴾ أي أرضيتم بنعيم الدنيا ومتاعها الفاني بدل نعيم الآخرة وثوابها الباقي ؟ ﴿**فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل**﴾ أي فما التمتع بلذائذ الدنيا في جنب الآخرة إلا شيء مستحقر قليل لا قيمة له ، ثم توعَّدهم على ترك الجهاد فقال ﴿**إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً**﴾ أي إن لا تخرجوا إلى الجهاد

(١) الطبري ١٠/ ١٣٤ .

قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

مع رسول الله يعذبكم الله عذاباً أليماً موجعاً ، باستيلاء العدو عليكم في الدنيا ، وبالنار المحرقة في الآخرة وقال ابن عباس : هو حبس المطر عنهم[١] ﴿ويستبدل قوماً غيركم﴾ أي يهلككم ويستبدل قوماً آخرين خيراً منكم ، يكونون أسرع استجابة لرسوله وأطوع ﴿ولا تضروه شيئاً﴾ ولا تضروا الله شيئاً بتثاقلكم عن الجهاد فإنه سبحانه غني عن العالمين ﴿والله على كل شيء قدير﴾ أي قادر على كل ما يشاء ومنه الانتصار على الأعداء بدونكم قال الرازي : وهو تنبيه على شدة الزجر من حيث إنه تعالى قادر لا يجوز عليه العجز، فإذا توعد بالعقاب فعل[٢] ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله﴾ أي إن لا تنصروا رسوله فإن الله ناصره وحافظه وجواب الشرط محذوف تقديره : فسينصره الله دل عليه قوله ﴿فقد نصره الله﴾ والمعنى : إن لم تنصروه أنتم فسينصره الله الذي نصره حين كان ثاني اثنين ، حيث لم يكن معه أنصار ولا أعوان ﴿إذ أخرجه الذين كفروا﴾ أي حين خروجه من مكة مهاجراً إلى المدينة ، وأسند إخراجه إلى الكفار لأنهم ألجئوه إلى الخروج وتآمروا على قتله حتى اضطر إلى الهجرة ﴿ثاني اثنين﴾ أي أحد اثنين لا ثالث لهما هو أبو بكر الصديق ﴿إذ هما في الغار﴾ أي حين كان هو والصديق مختبئين في النقب في جبل ثور ﴿إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾ أي حين يقول لصاحبه وهو أبو بكر الصديق تطميناً وتطييباً : لا تخف فالله معنا بالمعونة والنصر ، روى الطبري عن أنس أن أبا بكر رضي الله عنه قال « بينا أنا مع رسول الله ﷺ في الغار ، وأقدام المشركين فوق رءوسنا فقلت يا رسول الله : لو أن أحدهم رفع قدمه لأبصرنا فقال يا أبا بكر : ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ »[٣] وكان سبب حزن أبي بكر خوفه على رسول الله ﷺ فنهاه الرسول تسكيناً لقلبه ﴿فأنزل الله سكينته عليه﴾ أي أنزل الله السكون والطمأنينة على رسوله ﴿وأيده بجنود لم تروها﴾ أي قواه بجنود من عنده من الملائكة يحرسونه في الغار لم تروها أنتم ﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى﴾ أي جعل كلمة الشرك سافلة دنيئة حقيرة ، أذل بها الشرك والمشركين ﴿وكلمةُ الله هي العليا﴾ أي وكلمة التوحيد « لا إله إلا الله » هي الغالبة الظاهرة ، أعزَّ الله بها المسلمين ، وأذل الشرك والمشركين ﴿والله عزيز حكيم﴾ أي قاهر غالب لا يُغلب ، لا يفعل إلا ما فيه الحكمة والمصلحة ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ أي اخرجوا للقتال يا معشر المؤمنين شيباً وشباناً ، مُشاةً وركباناً ، في جميع الظروف والأحوال، في اليسر والعسر ، والمنشط والمكره

(١) الطبري ١٠/ ١٣١ . (٢) الرازي ١٦/ ٦١ . (٣) الطبري ١٠/ ١٣٦ .

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾

﴿وجاهِدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾ أي جاهدوا بالأموال والأنفس لإعلاء كلمة الله **﴿ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾** أي هذا النفير والجهاد خير من التثاقل إلى الأرض والخلود إليها والرضا بالقليل من متاع الحياة الدنيا إن كنتم تعلمون ذلك قال في البحر : والخيرية في الدنيا بغلبة العدو ووراثة الأرض ، وفي الآخرة بالثواب العظيم ورضوان الله[1] ، ثم ذكر تعالى أحوال المخلفين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ، وموقف المثبطين المنافقين منهم فقال **﴿لو كان عرضاً قريباً﴾** أي لو كان ما دعوا إليه غنْماً قريباً سهل المنال **﴿وسفراً قاصداً﴾** أي وسفراً وسطاً ليس ببعيد **﴿لاتبعوك﴾** أي لخرجوا معك لا لوجه الله بل طمعاً في الغنيمة **﴿ولكن بعُدت عليهم الشقة﴾** أي ولكن بعدت عليهم الطريق والمسافة الشاقة ولذلك اعتذروا عن الخروج لما في قلوبهم من النفاق **﴿وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم﴾** أي وسيحلفون لكم معتذرين[2] بأعذار كاذبة لو قدرنا على الخروج معكم لما تأخرنا ، ولو كان لنا سعة في المال او قوة في الأبدان لخرجنا للجهاد معكم ، قال تعالى رداً عليهم وتكذيباً لهم **﴿يُهلكون أنفسهم﴾** أي يوقعون أنفسهم في الهلاك بأيمانهم الكاذبة **﴿والله يعلم إنهم لكاذبون﴾** أي لكاذبون في دعواهم حيث كانوا مستطيعين للخروج ولم يخرجوا **﴿عفا الله عنك لم أذنت لهُمْ﴾** تلطف في عتاب الرسول ﷺ حيث قدم العفو على العتاب إكراماً له عليه السلام[3] والمعنى سامحك الله يا محمد لم أذنت لهؤلاء المنافقين في التخلف عن الخروج معك بمجرد الاعتذار ! ! **﴿حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾** أي وهلا تركتهم حتى يظهر لك الصادق منهم في عذره من الكاذب المنافق قال مجاهد : نزلت في المنافقين قال أناس منهم استأذنوا رسول الله ، فإن أذن لكم فاقعدوا ، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا[4] ، فقد كانوا مصرين على القعود عن الغزو وإن لم يأذن لهم ، ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه أهل الايمان فقال **﴿لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾** أي لا يستأذنك يا محمد عن الجهاد والغزو من يؤمن بالله واليوم الآخر **﴿أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾** أي كراهية الجهاد بالمال

---

(١) البحر ٥/ ٤٤ . (٢) هذا إخبار بغيب أي سيحلفون عند رجوعك من غزوة تبوك معتذرين بهذه الأيمان الكاذبة وقد حصل كما أخبر القرآن فكان ذلك من أوضح المعجزات القرآنية . (٣) قال المفسرون : من هذه الآية يعرف الإنسان مكانة الرسول ﷺ عند ربه ، وعلو قدره ، وسمو منزلته ، بشره بالعفو قبل ان يخبره بالذنب ، ولو قال له معاتباً : لم أذنت لهم ؟ لخيف عليه أن ينشق قلبه حزناً وكمداً قال عون : هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا ؟ ناداه بالعفو قبل المعاتبة ، أقول : وما ذكره الزمخشري سوء أدب في مقام الرسول ﷺ . (٤) الطبري ١١/ ١٤٢ .

﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

والنفس لأنهم يعلمون ما أعده الله للمجاهدين الأبرار من الأجر الجزيل فكيف يتخلفون عنه ؟ ﴿والله عليم بالمتقين﴾ أي عليم بهم لأنهم مخلصون في الإيمان متقون للرحمن ﴿إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ أي إنما يستأذنك يا محمد المنافقون الذين لم يثبت الإيمان في قلوبهم ﴿وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون﴾ أي شكّت قلوبهم في الله وثوابه فهم يترددون حيارى لا يدرون ما يصنعون .

البلاغة : ١ - ﴿يُحلونه عاماً ويحرمونه عاماً﴾ بين يحلون ويحرمون طباق وهو من المحسنات البديعية .

٢ - ﴿ما لكم إذا قيل لكم﴾ استفهام يقصد به الإنكار والتوبيخ .

٣ - ﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة﴾ فيه إيجاز بالحذف أي أرضيتم بنعيم الدنيا ولذائذها بدل نعيم الآخرة .

٤ - ﴿فما متاع الحياة الدنيا﴾ أظهر في مقام الإضمار لزيادة التقرير والمبالغة في بيان حقارة الدنيا ودناءتها بالنسبة للآخرة .

٥ - ﴿يعذبكم عذاباً﴾ بينهما جناس الاشتقاق .

٦ - ﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى﴾ « كلمة الذين كفروا » استعارة عن الشرك كما أن « كلمة الله » استعارة عن الإيمان والتوحيد .

٧ - ﴿خفافاً وثقالاً﴾ بينهما طباق .

٨ - ﴿بعُدت عليهم الشُقة﴾ استعار الشقة للمسافة الطويلة البعيدة التي توجب المشقة على النفس .

٩ - ﴿عفا الله عنك﴾ خبر بقصد تقديم المسرة على المضرة وقد أحسن من قال : إن من لطف الله بنبيه أن بدأه بالعفو قبل العتب .

فائدة : روي أن اعرابياً قال لابن عمر : أخبرني عن قول الله تعالى ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾ فقال ابن عمر : من كنزها فلم يؤدّ زكاتها فويل له ، إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة ، فلما أنزلت جعلها الله طهرةً للأموال ، وما أبالي لو كان لي مثل أحد ذهباً أزكيه ، وأعمل فيه بطاعة الله تعالى[1] ! !

---

(١) رواه ابن ماجه .

تنبيه : دلت الآية ﴿إذ يقول لصاحبه لا تحزن﴾ على عظيم فضل الصديق وجليل قدره ، إذ جعله الله صاحب الرسول في الغار ، ورفيقه في الهجرة ، ولهذا قال العلماء : من أنكر صحبة أبي بكر فقد كفر لأنه رد كتاب الله تعالى .

لطيفة : عن حيان بن زيد قال : نفرنا مع صفوان بن عمرو ، فرأيت شيخاً كبيراً هرماً ، قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته فيمن أغار فأقبلت عليه فقلت : يا عم لقد أعذر الله إليك قال : فرفع حاجبيه فقال يا ابن أخي : استنفرنا الله خفافاً وثقالاً ، ألا إنه من يحبه الله يبتليه ، ثم يعيده الله فيبقيه ، وإنما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر ، ولم يعبد إلا الله عز وجل[1] .

أقول : رحم الله تلك الأنفس الزكية التي باعت أرواحها في مرضاة الله تعالى .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدّة . . إلى . . والله عليم حكيم﴾ من آية (٤٦) إلى نهاية آية (٦٠) .

المناسبة : لما ذكر تعالى المنافقين وتباطؤهم عن الخروج للجهاد ، ذكر هنا بعض أعمالهم القبيحة من الكيد ، والمكر ، وإثارة الفتن بين المسلمين ، والفرح بأذاهم . وذكر تعالى أنهم لو خرجوا مع المؤمنين ما زادوا الجيش إلا ضعفاً واندحاراً بتفريق الجماعة وتشتيت الكلمة ، وذكر كثيراً من مثالبهم وجرائمهم الشنيعة .

اللغة : ﴿انبعاثهم﴾ الانبعاث : الانطلاق في الأمر ﴿فثبطهم﴾ التثبيط : رد الإنسان عن الفعل الذي همَّ به ﴿خبالاً﴾ الخبال : الشر والفساد في كل شيء ومنه المخبول للمعتوه الذي فسد عقله ﴿ولأوضعوا﴾ الإيضاع : سرعة السير قال الراجز :

يا ليتني فيها جذع أخبُّ فيها وأضع

يقال : وضع البعير إذا أسرع السير ، وأوضع الرجل إذا سار بنفسه سيراً حثيثاً[2] ﴿يجمحون﴾ جمح : نفر بإسراع من قولهم فرس جموح أي لا يرده اللجام ﴿يلمزك﴾ اللمز : العيب يقال : لمزه إذا عابه قال الجوهري : وأصله الإشارة بالعين ونحوها ورجل لمّاز أي عيَّاب[3] ﴿الغارمين﴾ الغارم : المديون قال الزجاج : أصل الغرم لزوم ما يشق ، والغرام العذاب اللازم الشاق وسمي العشق غراماً لكونه أمراً شاقاً ولازماً ، وسمي الدين غراماً لكونه شاقاً على الإنسان[4] .

سبب النزول : لما أراد ﷺ الخروج إلى تبوك قال « للجد بن قيس » ـ وكان منافقاً ـ يا أبا وهب : هل لك في جِلاد بني الأصفر ـ يعني الروم ـ تتخذ منهم سراري ووصفاء ؟ فقال يا رسول الله : لقد عرف قومي أني مغرم بالنساء ، وإني أخشى إن رأيت بني الأصفر ألا أصبر عنهن فلا تفتني وأذَنْ لي في القعود

(١) الطبري ١٠/ ١٣٨ . (٢) الرازي ١٦/ ٨١ . (٣) الصحاح للجوهري . (٤) البحر ٥/ ٣٥ .

* ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ

وأعينك بمالي ، فأعرض عنه النبي ﷺ وقال : قد أذنت لك فأنزل الله ﴿ومنهم من يقول أئذن لي ولا تفتني﴾[1] الآية .

التفسير : ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عُدة﴾ أي ولو أراد هؤلاء المنافقون الخروج معك للجهاد أو كانت لهم نية في الغزو لاستعدوا له بالسلاح والزاد ، فتركهم الاستعداد دليل على إرادتهم التخلف ﴿ولكن كره الله انبعاثهم﴾ أي ولكن كره الله خروجهم معك ﴿فثبطهم﴾ أي كسر عزمهم وجعل في قلوبهم الكسل ﴿وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾ أي اجلسوا مع المخلفين من النساء والصبيان وأهل الأعذار ، وهو ذم لهم لإيثارهم القعود على الخروج للجهاد ، والآية تسلية له ﷺ على عدم خروج المنافقين معه إذ لا فائدة فيه ولا مصلحة بل فيه الأذى والمضرة ولهذا قال ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً﴾ أي لو خرجوا معكم ما زادوكم إلا شراً وفساداً ﴿ولأوضعوا خلالكم﴾ أي أسرعوا بينكم بالمشي بالنميمة ﴿يبغونكم الفتنة﴾ أي يطلبون لكم الفتنة بإلقاء العداوة بينكم ﴿وفيكم سمّاعون لهم﴾ أي وفيكم ضعفاء قلوب يصغون إلى قولهم ويطيعونهم[2] ﴿والله عليم بالظالمين﴾ أي عالم بالمنافقين علماً محيطاً بضمائرهم وظواهرهم ﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل﴾ أي طلبوا لك الشر بتشتيت شملك وتفريق صحبك عنك من قبل غزوة تبوك كما فعل ابن سلول حين انصرف بأصحابه يوم أحد ﴿ وقلّبوا لك الأمور﴾ أي دبروا لك المكايد والحيل وأداروا الآراء في إبطال دينك ﴿حتى جاء الحق وظهر أمر الله﴾ أي حتى جاء نصر الله وظهر دينه وعلا على سائر الأديان ﴿وهم كارهون﴾ أي والحال أنهم كارهون لذلك لنفاقهم ﴿ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني﴾ أي ومن هؤلاء المنافقين من يقول لك يا محمد ائذن لي في القعود ولا تفتني بسبب الأمر بالخروج قال ابن عباس : نزلت في « الجد ابن قيس » حين دعاه الرسول ﷺ إلى جلاد بني الأصفر ، فقال يا رسول الله : ائذن لي في القعود عن الجهاد ولا تفتني بالنساء[3] ﴿ألا في الفتنة سقطوا﴾ أي ألا إنهم قد سقطوا في عين الفتنة فيما أرادوا الفرار منه ، بل فيما هو أعظم وهي فتنة التخلف عن الجهاد وظهور كفرهم ونفاقهم قال أبو السعود : وفي التعبير عن الافتتان بالسقوط في الفتنة تنزيل لها منزلة المهواة المهلكة ، المفصحة عن ترديهم في دركات الردى

---

(١) أسباب النزول ص ١٤٢ . (٢) وقال مجاهد : المعنى وفيكم عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم ، والمعنى الأول أظهر وهو الأشهر ، وإليه ذهب قتادة واختاره ابن كثير . (٣) انظر سبب النزول .

تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ

أسفل سافلين[1] ﴿وإنَّ جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ أي لا مفر لهم منها لأنها محيطة بهم من كل جانب إحاطة السوار بالمعصم ، وفيه وعيد شديد ﴿إن تصبك حسنة تسؤهم﴾ أي إن تصبك في بعض الغزوات حسنة ، سواء كانت ظفراً أو غنيمة ، يسؤهم ذلك ﴿وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل﴾ أي وإن تصبك مصيبة من نكبة وشدة ، أو هزيمة ومكروه يفرحوا به ويقولوا : قد احتطنا لأنفسنا وأخذنا بالحذر والتيقظ فلم نخرج للقتال من قبل أن يحل بنا البلاء ﴿ويتولوا وهم فرحون﴾ أي وينصرفوا عن مجتمعهم وهم فرحون مسرورون[2] ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ أي لن يصيبنا خير ولا شر ، ولا خوف ولا رجاء ، ولا شدة ولا رخاء ، إلا وهو مقدر علينا مكتوب عند الله ﴿هو مولانا﴾ أي ناصرنا وحافظنا ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي ليفوض المؤمنون أمورهم إلى الله ، ولا يعتمدوا على أحد سواه ﴿قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين﴾ أي قل لهم هل تنتظرون بنا يا معشر المنافقين إلا إحدى العاقبتين الحميدتين : إما النصر ، وإما الشهادة ، وكل واحدة منهما شيء حسن ! ! ﴿ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذابٍ من عنده أو بأيدينا﴾ أي ونحن ننتظر لكم أسوأ العاقبتين الوخيمتين : أن يهلككم الله بعذابٍ من عنده يستأصل به شأفتكم ، أو يقتلكم بأيدينا ﴿فتربصوا إنا معكم متربصون﴾ أي انتظروا ما يحل بنا ونحن ننتظر ما يحل بكم ، وهو أمر يتضمن التهديد والوعيد ﴿قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم﴾ أي قل لهم انفقوا يا معشر المنافقين طائعين أو مكرهين، فمهما أنفقتم الأموال فلن يتقبل الله منكم قال الطبري: وهو أمر معناه الخبر كقوله ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾ والمعنى لن يُتقبل منكم سواء أنفقتم طوعاً أو كرهاً[3] ﴿إنكم كنتم قوماً فاسقين﴾ تعليل لرد إنفاقهم أي لأنكم كنتم عتاة متمردين خارجين عن طاعة الله ، ثم أكد هذا المعنى بقوله ﴿وما منعهم أن تُقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله﴾ أي وما منع من قبول النفقات منهم إلا كفرهم بالله ورسوله ﴿ولا يأتون الصلاة إلا وهم كُسالى﴾ أي ولا يأتون إلى الصلاة إلا وهم متثاقلون ﴿ولا ينفقون إلا وهم كارهون﴾ أي ولا ينفقون

(١) أبو السعود ٢/ ٢٧٥ . (٢) قال القرطبي : المعنى يعرضوا عن الإيمان وهم معجبون بذلك . (٣) الطبري ١٠/ ١٥٢ .

إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾

أموالهم إلا بالإكراه لأنهم يعدونها مغرماً قال في البحر : ذكر تعالى السبب المانع من قبول نفقاتهم وهو الكفر واتبعه بما هو مستلزم له وهو إتيانهم الصلاة كسالى ، وإيتاء النفقة وهم كارهون ، لأنهم لا يرجون بذلك ثواباً ولا يخافون عقاباً ، وذكر من أعمال البر هذين العملين الجليلين وهما : الصلاة ، والنفقة ، لأن الصلاة أشرف الأعمال البدنية ، والنفقة في سبيل الله أشرف الأعمال المالية[1] ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا﴾ أي لا تستحسن أيها السامع ولا تفتتن بما أوتوا من زينة الدنيا ، وبما أنعمنا عليهم من الأموال والأولاد ، فظاهرها نعمة وباطنها نقمة ، إنما يريد الله بذلك استدراجهم ليعذبهم بها في الدنيا قال البيضاوي : وعذابهم بها بسبب ما يكابدون لجمعها وحفظها من المتاعب ، وما يرون فيها من الشدائد والمصائب[2] ﴿وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ أي ويموتوا كافرين مشتغلين بالتمتع بزينة الدنيا عن النظر في العاقبة فيشتد في الآخرة عذابهم ﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم﴾ أي ويقسمون بالله لكم إنهم لمؤمنون مثلكم ، وما هم بمؤمنين لكفر قلوبهم ﴿ولكنهم قوم يفرقون﴾ أي ولكنهم يخافون منكم أن تقتلوهم كما تقتلون المشركين ، فيظهرون الإسلام تقية ويؤ يدونه بالأيمان الفاجرة ﴿لو يجدون ملجأ﴾ أي حصناً يلجأون إليه ﴿أو مغارات﴾ أي سراديب يختفون فيها ﴿أو مدخلاً﴾ أي مكاناً يدخلون فيه ولو ضيقاً ﴿لَوَلَّوْا إليه وهم يجمحون﴾ أي لأقبلوا إليه يسرعون إسراعاً كالفرس الجموح ، والمراد من الآية تنبيه المؤمنين إلى أنَّ المنافقين لو قدروا على الهروب منهم ولو في شر الأمكنة وأخسها لفعلوا لشدة بغضهم لكم فلا تغتروا بأيمانهم الكاذبة أنهم معكم ومنكم ﴿ومنهم من يلمزك في الصدقات﴾ أي ومنهم من يعيبك يا محمد في قسمة الصدقات ﴿فإن أُعطوا منها رضوا﴾ أي فإن أعطيتهم من تلك الصدقات استحسنوا فعلك ﴿وإن لم يُعطوا منها إذا هم يسخطون﴾ أي وإن لم تعطهم منها ما يرضيهم سخطوا عليك وعابوك قال المفسرون : كان رسول الله ﷺ يقسم غنائم حنين فجاء إليه رجل من المنافقين يقال له « ذو الخويصرة » فقال : اعدل يا محمد فإنك لم تعدل فقال ﷺ : (ويلك إن لم أعدل فمن يعدل ؟)[3] ، الحديث ﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله﴾ أي ولو أن هؤلاء الذين عابوك يا محمد رضوا بما أعطيتهم من الصدقات وقنعوا بتلك القسمة وإن قلَّت قال أبو السعود : وذكرُ اللهِ عز وجل للتعظيم

(١) البحر المحيط ٥/ ٥٣ . (٢) البيضاوي ص ٢٢٦ . (٣) روح المعاني ١٠/ ١١٩ .

* ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾

والتنبيه على أن ما فعله الرسول كان بأمره سبحانه[1] ﴿وقالوا حسبنا الله﴾ أي كفانا فضل الله وإنعامه علينا ﴿سيؤتينا الله من فضله ورسوله﴾ أي سيرزقنا الله صدقة أو غنيمة أخرى خيراً وأكثر مما آتانا ﴿إنا إلى الله راغبون﴾ أي إنا إلى طاعة الله وإفضاله وإحسانه لراغبون ، وجواب ﴿لو﴾ محذوف تقديره لكان خيراً لهم قال الرازي : وترك الجواب في هذا المعرض أدل على التعظيم والتهويل وهو كقولك للرجل : لو جئتنا . . ثم لم تذكر الجواب أي لو فعلت ذلك لرأيت أمراً عظيماً[2] ، ثم ذكر تعالى مصرف الصدقات فقال ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾ قال الطبري : أي لا تنال الصدقات إلا للفقراء والمساكين ومن سماهم الله جل ثناؤه[3] والآية تقتضي حصر الصدقات وهي الزكاة في هذه الأصناف الثمانية فلا يجوز أن يعطى منها غيرهم ، والفقير الذي له بُلْغة من العيش ، والمسكين الذي لا شيء له قال يونس : سألت اعرابياً أفقير أنت ؟ فقال : لا والله بل مسكين ، وقيل : المسكين أحسن حالاً من الفقير ، والمسألة خلافية ﴿والعاملين عليها﴾ أي الجباة الذين يجمعون الصدقات ﴿والمؤلفة قلوبهم﴾ هم قوم من أشراف العرب أعطاهم ﷺ ليتألف قلوبهم على الإسلام ، وروى الطبري عن صفوان بن أمية قال : لقد أعطاني رسول الله ﷺ وإنه لأبغض الناس إلي ، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي[4] ﴿وفي الرقاب﴾ أي وفي فك الرقاب لتخليصهم من الرق ﴿والغارمين﴾ أي المديونين الذين أثقلهم الدَين ﴿وفي سبيل الله﴾ أي المجاهدين والمرابطين وما تحتاج إليه الحرب من السلاح والعتاد ﴿وابن السبيل﴾ أي الغريب الذي انقطع في سفره ﴿فريضة من الله﴾ أي فرضها الله جل وعلا وحددها ﴿والله عليم حكيم﴾ أي عليم بمصالح العباد ، حكيم لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة قال في التسهيل : وإنما حصر مصرف الزكاة في تلك الأصناف ليقطع طمع المنافقين فيها فاتصلت هذه في المعنى بآية اللمز في الصدقات[5] .

البَلاَغَة : ١ - ﴿أعدوا له عُدة﴾ بينهما جناس الاشتقاق وكذلك في قوله ﴿اقعدوا مع القاعدين﴾ .

٢ - ﴿ولأوضعوا خلالكم﴾ قال الطيبي : فيه استعارة تبعية حيث شبه سرعة إفسادهم ذات البين بالنميمة بسرعة سير الراكب ثم استعير لها الايضاع وهو للإبل ، والأصل ولأوضعوا ركائب نمائمهم خلالكم[6] .

(١) أبو السعود ٢/ ٢٧٧ . (٢) الرازي١٦/ ٩٩ . (٣) الطبري ١٠/ ١٥٧ .
(٤) الطبري ١٠/ ١٦٢ . (٥) التسهيل ٢/ ٧٩ . (٦) روح المعاني ١٠/ ١١٢ .

٣ ـ ﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ فيه استعارة حيث شبه وقوعهم في جهنم بإحاطة العدو بالجند أو السوار بالمعصم ، وإيثار الجملة الإسمية للدلالة على الثبات والاستمرار .

٤ ـ ﴿إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة . .﴾ الآية فيها من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة .

٥ ـ ﴿وعلى الله فليتوكل﴾ تقديم الجار والمجرور على الفعل لإفادة القصر ، وإظهار الاسم الجليل مكان الاضمار لتربية الروعة والمهابة .

٦ ـ ﴿طوعاً أو كرهاً﴾ بينهما طباق وكذلك بين الرضا والسخط في قوله ﴿رضوا وإن لم يُعطوا إذا هم يسخطون﴾ .

٧ ـ ﴿عليم حكيم﴾ صيغة فعيل للمبالغة أي عظيم العلم والحكمة .

لطيفة : قال الزمخشري في قوله تعالى ﴿وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾ هذا ذم لهم وتعجيز وإلحاق بالنساء والصبيان والزمنى الذين شأنهم القعود والجثوم في البيوت[1] على حد قول القائل :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

تنبيه : قال ابن كثير : لما قدم النبي ﷺ المدينة رمته العرب عن قوسٍ واحدة ، وحاربته يهود المدينة ومنافقوها ، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته قال ابن أبي وأصحابه : هذا أمر قد توجه ـ يعني أقبل ـ فدخلوا في الإسلام ظاهراً ، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله ، أغاظهم ذلك وساءهم ولهذا قال تعالى ﴿وظهر أمر الله وهم كارهون﴾[2] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي . . إلى . . من ولي ولا نصير﴾ من آية (٦١) إلى نهاية آية (٧٤) .

المناسبة : لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن المنافقين توضيحاً لخطرهم ، وتحذيراً للمؤمنين من مكائدهم ، وفي هذه الآيات ذكر تعالى نوعاً آخر من قبائحهم ، وهو إيذاؤهم للرسول ﷺ ، وإقدامهم على الأيمان الكاذبة ، واستهزاؤهم بآيات الله وشريعته المطهرة ، إلى غير ما هنالك من الأعمال المنكرة ، والأفعال الخبيثة .

اللغة : ﴿أُذُن﴾ قال الجوهري : يقال رجل أذن إذا كان يسمع مقال كل أحد ، يستوي فيه الواحد والجمع[3] وقال الزمخشري : الأذن : الرجل الذي يصدق كل ما يسمع ، ويقبل قول كل أحد ،

(١) الكشاف ٢/ ٣٧٦ . (٢) المختصر ٢/ ١٤٧ . (٣) الصحاح للجوهري .

سمي بالجارحة التي هي آلة السماع[1] . قال الشاعر :

قد صرت أذناً للوشاة سميعة   ينالون من عرضي ولو شئت ما نالوا

﴿يحادد﴾ المحادة : المخالفة والمعاداة كالمشاقة وهي أن يكون كل واحد من المتخاصمين في حد وشق غير ما عليه صاحبه ﴿بخلاقهم﴾ الخلاق : النصيب كقوله ﴿وما له في الآخرة من خلاق﴾ وقد تقدم ﴿وخضتم﴾ الخوض : الدخول في اللهو والباطل وهو مستعار من الخوض في الماء ﴿حبطت﴾ بطلت وذهب ثوابها ﴿والمؤتفكات﴾ الائتفاك : الانقلاب ويراد بهم قوم لوط لأن أرضهم ائتكفت بهم أي انقلبت ، وقيل هو مجاز عن انقلاب حالها من الخير إلى الشر كقول ابن الرومي :

وما الخسف أن تلقى أسافل بلدة   أعاليها بل أن تسود الأراذل

سبب النزول : أ ـ كان جماعة من المنافقين يؤذون رسول الله ويقولون فيه ما لا ينبغي ، فقال بعضهم : لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغه ما تقولون فيقع بنا ، فقال « الجلاس بن سويد » : نقول ما شئنا ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول فإنما محمد أذن سامعة فأنزل الله ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن . .﴾[2] .

ب ـ قال مجاهد : كان المنافقون يعيبون رسول الله ﷺ فيما بينهم ثم يقولون عسى الله أن لا يفشي سرنا فأنزل الله ﴿يحذر المنافقون أن تُنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم . .﴾[3] الآية .

وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن

التفسير : ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي﴾ أي ومن المنافقين أناس يؤذون الرسول بأقوالهم وأفعالهم ﴿ويقولون هو أُذن﴾ أي يصدّق بكل خبرٍ يسمعه ﴿قل أُذن خير لكم﴾ أي هو أذن خير لا أذن شر ، يسمع الخير فيعمل به ، ولا يعمل بالشر إذا سمعه ﴿يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾ أي يصدّق الله فيما يقول ، ويصدّق المؤمنين فيما يخبرونه به لعلمه بإخلاصهم ﴿ورحمة للذين آمنوا منكم﴾ أي وهو رحمة للمؤمنين لأنه كان سبب إيمانهم ﴿والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم﴾ أي والذين يعيبون الرسول ويقولون ما لا يليق بجنابه الشريف لهم عذاب موجع في الآخرة ﴿يحلفون بالله لكم ليرضوكم﴾ أي يحلفون لكم أنهم ما قالوا شيئاً فيه انتقاص للرسول ليرضوكم بتلك الأيمان ﴿والله ورسوله أحق أن يُرضوه﴾ أي والحال أنه تعالى ورسوله أحق بالإرضاء ، ولا يكون ذلك إلا بالطاعة ، والمتابعة ، وتعظيم أمره عليه السلام ﴿إن كانوا مؤمنين﴾ أي إن كانوا حقاً مؤمنين فليرضوا

(١) الكشاف ٢/ ٢٨٤ . (٢) أسباب النزول ص ١٤٣ . (٣) زاد المسير ٣/ ٤٦٣ .

يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدٗا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ

الله ورسوله ﴿ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله﴾ أي ألم يعلم هؤلاء المنافقون أنه من يعادي ويخالف الله والرسول ، والاستفهام للتوبيخ ﴿فأن له نار جهنم خالداً فيها﴾ أي فقد حق دخوله جهنم وخلوده فيها ﴿ذلك الخزي العظيم﴾ . أي ذلك هو الذل العظيم ، والشقاء الكبير ، المقرون بالفضيحة حيث يفتضحون على رءوس الأشهاد ﴿يحذر المنافقون أن تُنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم﴾ أي يخشى المنافقون أن تنزل فيهم سورة تكشف عما في قلوبهم من النفاق ﴿قل استهزئوا﴾ أي استهزئوا بدين الله كما تشتهون وهو أمر للتهديد كقوله ﴿إعملوا ما شئتم﴾ ﴿إن الله مخرج ما تحذرون﴾ أي مظهر ما تخفونه وتحذرون ظهوره من النفاق ، قال الزمخشري : كانوا يستهزئون بالإسلام ويحذرون أن يفضحهم الله بالوحي ، حتى قال بعضهم : والله لا أرانا إلا شر خلق الله ، ولوددت أني جلدت مائة جلدة ولا ينزل فينا شيء يفضحنا[1] ﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب﴾ أي ولئن سألت يا محمد هؤلاء المنافقين عما قالوا من الباطل والكذب ، في حقك وفي حق الإسلام ، ليقولون لك ما كنا جادين ، وإنما كنا نمزح ونلعب للترويح عن النفس قال الطبري : بينا رسول الله ﷺ يسير في غزوته إلى تبوك وبين يديه ناس من المنافقين ، فقالوا : انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتتح قصور الشام وحصونها هيهات هيهات ! ! فأطلع الله نبيه فأتاهم فقال : قلتم كذا وكذا فقالوا يا نبي الله : إنما كنا نخوض ونلعب فنزلت[2] ﴿قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون﴾ أي قل لهؤلاء المنافقين : أتستهزئون بدين الله وشرعه ، وكتابه ورسوله ؟ والاستفهام للتوبيخ ، ثم كشف تعالى أمرهم وفضح حالهم فقال ﴿لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾ أي لا تعتذروا بتلك الأيمان الكاذبة فإنها لا تنفعكم بعد ظهور أمركم ، فقد أظهرتم الكفر بإيذاء الرسول بعد إظهاركم الايمان ﴿إن نعف عن طائفة منكم﴾ أي إن نعف عن فريقٍ منكم لتوبتهم وإخلاصهم ﴿نعذب طائفةً بأنهم كانوا مجرمين﴾ أي نعذب فريقاً آخر لأنهم أصروا على النفاق والإجرام ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض﴾ أي المنافقون والمنافقات صنف واحد ، وهم متشابهون في النفاق والبعد عن الإيمان ، كتشابه أجزاء الشيء الواحد قال في

(١) الكشاف ٢/ ٢٨٦ . (٢) هذه رواية قتادة كذا في الطبري .

فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ

الكشاف : وأريد بقوله ﴿بعضهم من بعض﴾ نفي أن يكونوا من المؤمنين ، وتكذيبهم في قولهم ﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم﴾[1] ثم وصفهم بما يدل على مخالفة حالهم لحال المؤمنين فقال ﴿يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف﴾ أي يأمرون بالكفر والمعاصي وينهون عن الإيمان والطاعة ﴿ويقبضون أيديهم﴾ أي يمسكون أيديهم عن الانفاق في سبيل الله ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ أي تركوا طاعته فتركهم من رحمته وفضله وجعلهم كالمنسيين ﴿إن المنافقين هم الفاسقون﴾ أي الكاملون في التمرد والعصيان ، والخروج عن طاعة الرحمن ، وكفى به زجراً لأهل النفاق ﴿وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم﴾ أي وعد الله المنافقين والمتجاهرين بالكفر بإصلائهم في نار جهنم ﴿خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿هي حسبهم﴾ أي هي كفايتهم في العذاب ، إذ ليس هناك عذاب يعادلها ﴿ولعنهم الله﴾ أي أبعدهم من رحمته وأهانهم ﴿ولهم عذاب مقيم﴾ أي دائم لا ينقطع ﴿كالذين من قبلكم﴾ أي حالكم يا معشر المنافقين كحال من سبقكم من المكذبين ، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿كانوا أشد منكم قوة﴾ أي كانوا أقوى منكم أجساماً وأشد بطشاً ﴿وأكثر أموالاً وأولاداً﴾ أي وكانوا أوفر أموالاً ، وأكثر أولاداً ، ومع ذلك أهلكهم الله فاحذروا أن يحل بكم ما حل بهم ﴿فاستمتعوا بخلاقهم﴾ أي تمتعوا بنصيبهم وحظهم من ملاذ الدنيا ﴿فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم﴾ أي استمتعتم بملاذ الدنيا وشهواتها كما استمتع أولئك الذين سبقوكم بنصيبهم منها ﴿وخضتم كالذي خاضوا﴾ أي وخضتم في الباطل والضلال كما خاضوا هم فيه قال الطبري : المعنى سلكتم أيها المنافقون سبيلهم في الاستمتاع بالدنيا كما استمتع الأمم الذين كانوا من قبلكم ، وخضتم في الكذب والباطل على الله كخوض تلك الأمم قبلكم ، فاحذروا أن يحل بكم من عقوبة الله مثل الذي حل بهم[2] ﴿أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر من قبيح الفعال ذهبت أعمالهم باطلاً فلا ثواب لها إلا النار ﴿وأولئك هم الخاسرون﴾ أي وأولئك هم الكاملون في الخسران ﴿ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم﴾ أي ألم يأت هؤلاء المنافقين خبر الأمم السابقين حين عصوا الرسل ماذا حلَّ

(١) الكشاف ٢/ ٢٨٧ . (٢) الطبري ١٠/ ١٧٥ .

لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ

بهم من العقوبة ؟ ﴿قوم نوحٍ وعادٍ وثمود﴾ أي قوم نوح الذين أهلكوا بالطوفان وقوم هود « عاد » الذين أهلكوا بالريح ، وقوم صالح « ثمود » الذين أهلكوا بالصيحة ﴿وقوم إبراهيم﴾ الذين أهلكوا بسلب النعمة ﴿وأصحاب مدين﴾ قوم شعيب الذين أهلكوا بعذاب يوم الظلة ﴿والمؤتفكات﴾ قرى قوم لوط الذين انقلبت بهم فصار عاليها سافلها ، وأمطروا حجارة من سجيل ﴿أتتهم رسلهم بالبينات﴾ أي جاءتهم رسلهم بالمعجزات فكذبوهم ﴿فما كان الله ليظلمهم﴾ أي فما أهلكهم الله ظلماً إنما أهلكهم بإجرامهم ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي ولكن ظلموا أنفسهم بالكفر وارتكاب المعاصي ، أفأمن هؤلاء المنافقون أن يُسلك بهم في الانتقام سبيل أسلافهم المكذبين من أهل الإجرام ؟ ولما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة أعقبها بذكر صفات المؤمنين الحميدة فقال ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ أي هم إخوة في الدين يتناصرون ويتعاضدون ﴿يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ أي يأمرون الناس بكل خيرٍ وجميلٍ يرضي الله ، وينهونهم عن كل قبيح يسخط الله ، فهم على عكس المنافقين الذين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ﴿ويقيمون الصلاة﴾ أي يؤدونها على الوجه الكامل ﴿ويؤتون الزكاة﴾ أي يُعطونها إلى مستحقيها ابتغاء وجه الله ﴿ويطيعون الله ورسوله﴾ أي في كل أمر ونهي ﴿أولئك سيرحمهم الله﴾ أي سيدخلهم في رحمته ، ويفيض عليهم جلائل نعمته ﴿إن الله عزيز﴾ أي غالب لا يُغلب من أطاعه ويذل من عصاه ﴿حكيم﴾ أي يضع كل شيء في موضعه على أساس الحكمة ، في النعمة والنقمة ﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جناتٍ تجري من تحتها الأنهار﴾ أي وعدهم على إيمانهم بجنات وارفة الظلال ، تجري من تحت أشجارها الأنهار ﴿خالدين فيها﴾ أي لابثين فيها أبداً ، لا يزول عنهم نعيمها ولا يبيد ﴿ومساكن طيبةً في جنات عدن﴾ أي ومنازل يطيب فيها العيش في جنات الخلد والاقامة قال الحسن : هي قصور من اللؤلؤ والياقوت الأحمر والزبرجد[1] ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ أي وشيء من رضوان الله أكبر من ذلك كله ، وفي الحديث يقول الله تعالى لأهل الجنة : « يا أهل الجنة فيقولون : لبيك ربنا وسعديك فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعط أحداً من خلقك ! فيقول : أعطيكم أفضل من ذلك فيقولون : وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أُحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً »[2] ﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾ أي ذلك هو الظفر

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٨٩ . (٢) الطبري ١٠/ ١٨٢ والحديث في الصحاح .

وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

العظيم الذي لا سعادة بعده ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين﴾ قال ابن عباس : جاهد الكفار بالسيف ، والمنافقين باللسان ﴿واغلظ عليهم﴾ أي اشدد عليهم بالجهاد والقتال والارعاب ﴿ومأواهم جهنم﴾ أي مسكنهم ومثواهم جهنم ﴿وبئس المصير﴾ أي بئس المكان الذي يصار إليه جهنم ﴿يحلفون بالله ما قالوا﴾ أي يحلف المنافقون أنهم ما قالوا الذي بلغك عنهم من السب قال قتادة : نزلت في عبد الله بن أُبي ، وذلك أنه اقتتل رجلان : جهني وانصاري ، فعلا الجهني على الأنصاري ، فقال ابن سلول للأنصار : ألا تنصرون أخاكم ؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل « سمن كلبك يأكلك » فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبي ﷺ فأرسل إليه يسأله فجعل يحلف بالله ما قاله فأنزل الله فيه هذه الآية[1] ﴿ولقد قالوا كلمة الكفر﴾ هي قول ابن سلول « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » ﴿وكفروا بعد إسلامهم﴾ أي أظهروا الكفر بعد إظهار الإسلام ﴿وهموا بما لم ينالوا﴾ قال ابن كثير : هم نفر من المنافقين همّوا بالفتك بالنبي ﷺ عند عودته من تبوك وكانوا بضعة عشر رجلاً[2] ﴿وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾ أي ما عابوا على الرسول وما له عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته ، ويُمن سعادته ، وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب . . ثم دعاهم تبارك وتعالى إلى التوبة فقال ﴿فإن يتوبوا يك خيراً لهم﴾ أي فإن يتوبوا عن النفاق يكن رجوعهم وتوبتهم خيراً لهم وأفضل ﴿وإن يتولوا﴾ أي يعرضوا ويصروا على النفاق ﴿يعذبهم الله عذاباً أليماً﴾ أي يعذبهم عذاباً شديداً ﴿في الدنيا والآخرة﴾ أي في الدنيا بالقتل والأسر ، وفي الآخرة بالنار وسخط الجبار ﴿وما لهم في الأرض من وليٍّ ولا نصير﴾ أي ليس لهم من ينقذهم من العذاب ، أو يشفع لهم فيخلصهم وينجيهم يوم الحساب .

البَلاَغَة : ١ - ﴿هو أُذن﴾ أصله هو كالأذن يسمع كل ما يقال له ، فحذف منه أداة التشبيه ووجه الشبه فصار تشبيهاً بليغاً مثل زيد أسد .

٢ - ﴿يؤذون رسول الله﴾ أبرز اسم الرسول ولم يأت به ضميراً ﴿يؤذونه﴾ تعظيماً لشأنه عليه السلام وجمعاً له بين الرتبتين العظيمتين « النبوة والرسالة » وإضافته إليه زيادة في التكريم والتشريف[3] .

٣ - ﴿ذلك الخزي العظيم﴾ الإشارة بالبعيد عن القريب للإيذان ببعد درجته في الهول والفظاعة .

---

(٢) محاسن التأويل ٨/ ٣٢٠٤ . (٣) أفاده في البحر ٥/ ٦٣ .

٤ ـ ﴿ويقبضون أيديهم﴾ قبض اليد كناية عن الشح والبخل ، كما أن بسطها كناية عن الجود والكرم .

٥ ـ ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ من باب المشاكلة لأن الله لا ينسى أي تركوا طاعته فتركهم تعالى من رحمته .

٦ ـ ﴿كالذين من قبلكم﴾ إلتفات من الغيبة إلى الخطاب لزيادة التقريع والعتاب .

٧ ـ ﴿فاستمتعوا بخلاقهم . .﴾ الآية فيه إطناب والغرض منه الذم والتوبيخ لاشتغالهم بالمتاع الخسيس ، عن الشيء النفيس .

٨ ـ ﴿وما نقموا إلا أن أغناهم الله . .﴾ في الآية تأكيد المدح بما يشبه الذم على حد قول القائل « ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم » البيت .

فائدة : روى ابن كثير عن علي كرم الله وجهه قال : بُعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف : سيف للمشركين ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين﴾ وسيف لأهل الكتاب ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر . .﴾ وسيفٍ للمنافقين ﴿جاهد الكفار والمنافقين﴾ وسيف للبغاة ﴿فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله﴾[1] .

لطيفة : قال الإمام الفخر : لما وصف تعالى المؤمنين بكون بعضهم أولياء بعض ، ذكر بعده خمسة أمور بها يتميز المؤمن ، عن المنافق ، فالمنافق يأمر بالمنكر ، وينهى عن المعروف ، ولا يقوم إلى الصلاة إلا بكسل ، ويبخل بالزكاة وسائر الواجبات ، وإذا أُمر بالمسارعة إلى الجهاد فإنه يتخلف ويثبط غيره ، والمؤمن بالضد منه فإنه يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويؤدي الصلاة على الوجه الأكمل ، ويؤتي الزكاة ، ويسارع إلى طاعة الله ورسوله ، ولهذا قابل تعالى بين صفات المؤمنين ، وصفات المنافقين بقوله ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله﴾ كما قابل في الجزاء بين نار جهنم والجنة فكانت مقابلة لطيفة[2] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله . . إلى . . فهم لا يعلمون﴾ من آية (٧٥) إلى نهاية آية (٩٣) .

المناسبة : لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن المنافقين ، وتفضح أسرارهم ، وتكشف أحوالهم ، باعتبار خطرهم الداهم على الإسلام والمسلمين .

---

(١) المختصر ٢/ ١٥٦ . (٢) تفسير الرازي ١٦/ ١٣٠ بشيء من التصرف .

اللغـــة : ﴿أعقبهـم﴾ قال الليث : يقال أعقبت فلاناً ندامة إذا صارت عاقبة أمره ذلك ، ويقال : أكل أكلة أعقبته سقماً أي حصل له بها السقم قال الهذلي :

أودى بني وأعقبوني حسرة بعد الرقاد وعبرة لا تقلع[1]

﴿سرهم﴾ السر : ما ينطوي عليه الصدر ﴿نجواهم﴾ النجوى : ما يكون بين شخصين أو أكثر من الحديث مأخوذ من النجوة وهو الكلام الخفي ، كأن المتناجيين منعا إدخال غيرهما معهما ﴿يلمزون﴾ يعيبون واللمز : العيب ﴿المخلَّفون﴾ المخلف ، المتروك الذي تخلف عن الجهاد ﴿الطَّول﴾ الغنى ﴿المعذِّرون﴾ جمع معذر كمقصِّر وهو الذي يعتذر بغير عذر قال الجوهري : هو الذي يعتذر بالكذب[2] وأصله من العذر وفي الأمثال « أُعذرمن أنذر » أي بالغ في العذر من تقدم إليك فأنذرك .

سبب النزول : أ- روي أن رجلاً يسمى ثعلبة جاء إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله : ادع الله أن يرزقني مالاً فقال : ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره ، خير من كثير ، لا تطيقه ، فقال : والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله أن يرزقني مالاً لأعطين كل ذي حق حقه ، فلم يزل يراجعه حتى دعا له ، فاتخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود ، فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل وادياً من أوديتها حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة ويترك ما سواهما ، ثم نمت وكثرت حتى ترك الجمعة والجماعة ، فسأل رسول الله ﷺ عنه فأخبروه بخبره فقال : يا ويح ثعلبة ثلاثاً ، فأنزل الله ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن . .﴾ الآية[3] فهلك في خلافة عثمان . .

ب - عن ابن عمر قال : لما توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه الى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه ، ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه ، فقام عمر فقال يا رسول الله : أعلى عدو الله تصلي ؟ فقال : أخر عني يا عمر إني خُيرت فاخترت فقيل لي ﴿استغفر لهم﴾ الآية ولو أعلم أني لو زدت على السبعين غفر له لزدت ، ثم صلى عليه ومشى معه وقام على قبره فما كان إلا يسيراً حتى أنزل الله ﴿ولا تصلِّ على أحدٍ منهم مات أبداً . .﴾[4] الآية .

* وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ

التفسير : ﴿ومنهم من عاهد الله﴾ أي ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه ﴿لئن آتانا من فضله﴾ أي لئن أعطانا الله من فضله ووسع علينا في الرزق ﴿لنصدقن ولنكونن من الصالحين﴾ أي لنصدقن على الفقراء والمساكين ، ولنعملن فيها بعمل أهل الخير والصلاح ﴿فلما آتاهم من فضله﴾ أي فلما رزقهم الله وأغناهم من فضله ﴿بخلوا به وتولوا وهم معرضون﴾ أي بخلوا

---

(١) الرازي ١٦/١٤٢ . (٢) القرطبي ٨/٢٢٥ . (٣) أسباب النزول ١٤٥ وهذا الذي ذكره المفسرون غير « ثعلبة بن أبي حاطب » الصحابي المشهور ، وإنما هذا رجل من المنافقين يسمى ثعلبة والله أعلم . (٤) مختصر ابن كثير ٢/١٦١ .

بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ

بالإنفاق ونقضوا العهد وأعرضوا عن طاعة الله ورسوله ﴿فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه﴾ أي جعل الله عاقبتهم رسوخ النفاق في قلوبهم إلى يوم لقاء الله ﴿بما أخلفوا الله ما وعدوه﴾ أي بسبب إخلافهم ما عاهدوا الله عليه من التصدق والصلاح ﴿وبما كانوا يكذبون﴾ أي وبسبب كذبهم في دعوى الإيمان والإحسان ﴿ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع أي ألم يعلم هؤلاء المنافقون أن الله يعلم أسرارهم وأحوالهم ، ما يخفونه في صدورهم ، وما يتحدثون به بينهم ؟ ﴿وأن الله علام الغيوب﴾ أي لا يخفى عليه شيء مما غاب عن الأسماع والأبصار والحواس ؟ ﴿الذين يلمزون المطوّعين من المؤمنين في الصدقات﴾ أي يعيبون المتطوعين المتبرعين من المؤمنين في صدقاتهم ﴿والذين لا يجدون إلا جُهدهم فيسخرون منهم﴾ أي ويعيبون الذين لا يجدون إلا طاقتهم فيهزءون منهم روى الطبري عن ابن عباس قال : جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى النبي ﷺ ، وجاء رجل من الأنصار بصاعٍ من تمر ، فقال بعض المنافقين : والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياءً ، وإن كان الله ورسوله لغنيين عن هذا الصاع فنزلت[1] ﴿سخر الله منهم﴾ أي جازاهم على سخريتهم وهو من باب المشاكلة[2] ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي عذاب موجع ، هو عذاب الآخرة المقيم ﴿ استغفر لهم أو لاتستغفر لهم ﴾ أمر ومعناه الخبر أي سواء يا محمد استغفرت لهؤلاء المنافقين أم لم تستغفر لهم فلن يغفر الله لهم ﴿إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ قال الزمخشري : والسبعون جارٍ مجرى المثل في كلامهم للتكثير[3] والمعنى مهما أكثرت من الاستغفار لهم وبالغت فيه فلن يغفر الله لهم أبداً ﴿ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله﴾ أي عدم المغفرة لهم بسبب كفرهم بالله ورسوله كفراً شنيعاً حيث أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي لا يوفق للإيمان الخارجين عن طاعته ، ولا يهديهم إلى سبيل السعادة ﴿فرح المخلَّفون بمقعدهم خلاف رسول الله﴾ أي فرح المنافقون الذين تخلفوا عن رسول الله في غزوة تبوك بقعودهم بعد خروج الرسول ﷺ مخالفة له حين سار وأقاموا ﴿وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ أي وكرهوا الخروج إلى الجهاد إيثاراً للراحة

(١) الطبري ١٠/١٩٤ . (٢) المشاكلة : اتفاق الكلمتين لفظاً واختلافهما معنى . (٣) الكشاف ٢/ ٢٩٥ .

أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ

وخوف إتلاف النفس والمال لما في قلوبهم من الكفر والنفاق ﴿وقالوا لا تنفروا في الحر﴾ أي قال بعضهم لبعض : لا تخرجوا إلى الجهاد في وقت الحر ، وذلك أن النبي ﷺ استنفرهم إلى هذه الغزوة في حر شديد ، قال أبو السعود : وإنما قال ﴿وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ على قوله « وكرهوا أن يخرجوا إلى الغزو » إيذاناً بأن الجهاد في سبيل الله مع كونه من أجلِّ الرغائب ، وأشرف المطالب ، التي يجب ان يتنافس فيها المتنافسون قد كرهوه ، كما فرحوا بأقبح القبائح الذي هو القعود خلاف رسول الله ﷺ وقالوا لإخوانهم تواصياً فيما بينهم بالشر والفساد لا تنفروا في الحر ، فقد جمعوا ثلاث خصال من الكفر والضلال : الفرح بالقعود ، وكراهية الجهاد ، ونهي الغير عن ذلك[1] ، قال تعالى رداً عليهم ﴿قل نار جهنم أشد حراً﴾ أي قل لهم يا محمد : نار جهنم التي تصيرون إليها بتثاقلكم عن الجهاد أشد حراً مما تحذرون من الحر المعهود ، فإن حر الدنيا يزول ولا يبقى ، وحر جهنم دائم لا يفتر ، فما لكم لا تحذرون نار جهنم ؟ قال الزمخشري : وهذا استجهال لهم ، لأن من تصوَّن من مشقة ساعة ، فوقع بذلك التصون في مشقة الأبد كان أجهل من كل جاهل[2] ﴿لو كانوا يفقهون﴾ أي لو كانوا يفهمون لنفروا مع الرسول ﷺ في الحر ، ليتقوا به حر جهنم الذي هو أضعاف أضعاف هذا ولكنهم « كالمستجير من الرمضاء بالنار» ﴿فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً﴾ أمر يراد به الخبر معناه : فسيضحكون قليلاً ، وسيبكون كثيراً ، قال ابن عباس : الدنيا قليل فليضحكوا فيها ما شاءوا ، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله عز وجل استأنفوا بكاءً لا ينقطع أبداً[3] ﴿جزاءً بما كانوا يكسبون﴾ أي جزاءً لهم على ما اجترحوا من فنون المعاصي ﴿فإن رجعك الله إلى طائفة منهم﴾ أي فإن ردك الله من غزوة تبوك إلى طائفة من المنافقين الذين تخلفوا بغير عذر ﴿فاستأذنوك للخروج﴾ أي طلبوا الخروج معك لغزوة أخرى ﴿فقل لن تخرجوا معي أبداً﴾ أي قل لهم لن تخرجوا معي للجهاد أبداً ﴿ولن تقاتلوا معي عدواً﴾ أي لن يكون لكم شرف القتال معي لأعداء الله ، وهو خبر معناه النهي للمبالغة ، جارٍ مجرى الذم لهم لإظهار نفاقهم ﴿إنكم رضيتم بالقعود أول مرة﴾ أي قعدتم عن الخروج معي أول مرة حين لم تخرجوا إلى تبوك ﴿فاقعدوا مع الخالفين﴾ أي فاقعدوا مع المتخلفين عن الغزو من النساء والصبيان ﴿ولا تصل على أحدٍ منهم مات أبداً﴾ أي لا تصل يا محمد على أحدٍ من هؤلاء المنافقين إذا مات ، لأن صلاتك

(١) أبو السعود ٢/ ٢٨٦ . (٢) الكشاف ٢/ ٢٩٦ . (٣) مختصر ابن كثير ٢/ ١٦٠ .

وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ

رحمة ، وهم ليسوا أهلاً للرحمة ﴿**ولا تقم على قبره**﴾ أي لا تقف على قبره للدفن ، أو للزيارة والدعاء ﴿**إنهم كفروا بالله ورسوله**﴾ أي لأنهم كانوا في حياتهم منافقين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ﴿**وماتوا وهم فاسقون**﴾ أي وماتوا وهم على نفاقهم خارجون من الإسلام متمردون في العصيان ، نزلت في ابن سلول[1] ﴿**ولا تعجبك أموالهم وأولادهم**﴾ أي لا تستحسن ما أنعمنا به عليهم من الأموال والأولاد ﴿**إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا**﴾ أي لا يريد بهم الخير إنما يريد أن يعذبهم بها في الدنيا بالمصائب والنكبات ﴿**وتزهق أنفسهم وهم كافرون**﴾ أي تخرج أرواحهم ويموتوا على الكفر منشغلين بالتمتع بالأموال والأولاد عن النظر والتدبر في العواقب ﴿**وإذا أنزلت سورة**﴾ التنكير للتفخيم أي وإذا أنزلت سورة جليلة الشأن ﴿**أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله**﴾ أي بأن آمنوا بالله بصدقٍ ويقين ، وجاهدوا مع الرسول لنصرة الحق وإعزاز الدين ﴿**استأذنك أولوا الطول منهم**﴾ أي استأذنك في التخلف أُولو الغنى والمال الكثير ﴿**وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين**﴾ أي دعنا نكن مع الذين لم يخرجوا للغزو وقعدوا لعذر ، قال تعالى تقبيحاً لهم وذماً ﴿**رضوا بأن يكونوا مع الخوالف**﴾ أي رضوا بأن يكونوا مع النساء والمرضى والعجزة الذين تخلفوا في البيوت ﴿**وطبع على قلوبهم**﴾ أي ختم عليها ﴿**فهم لا يفقهون**﴾ أي فهم لا يفهمون ما في الجهاد وطاعة الرسول من السعادة ، وما في التخلف عنه من الشقاوة ﴿**لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم**﴾ قال الرازي : لما شرح حال المنافقين ، بيّن حال الرسول والمؤمنين بالضد منه ، حيث بذلوا المال والنفس في طلب رضوان الله والتقرب إليه[2] والمعنى : إن تخلف هؤلاء ولم يجاهدوا ، فقد جاهد من هو خيرمنهم وأخلص نية واعتقاداً ﴿**وأولئك لهم الخيرات**﴾ أي لهم منافع الدارين : النصر والغنيمة في الدنيا ، والجنة والكرامة في الآخرة ﴿**وأولئك هم المفلحون**﴾ أي الفائزون بالمطلوب ﴿**أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار**﴾ أي أعد الله لهم على إيمانهم وجهادهم بساتين تجري من تحت قصورها الأنهار ﴿**خالدين فيها**﴾ أي لابثين في الجنة أبداً ﴿**ذلك الفوز العظيم**﴾ أي ذلك هو الظفر العظيم

(١) انظر سبب النزول السابق . (٢) الرازي ١٦/ ١٥٧ .

لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

الذي لا فوز وراءه ﴿وجاء المعذِّرون من الأعراب﴾ أي جاء المعتذرون من الأعراب الذين انتحلوا الأعذار وتخلفوا عن الجهاد ﴿ليؤذن لهم﴾ أي في ترك الجهاد ، وهذا بيان لأحوال المنافقين من الأعراب بعد بيان أحوال المنافقين من أهل المدينة ، قال البيضاوي : هم « أسد » و « غطفان » استأذنوا في التخلف معتذرين بالجهد وكثرة العيال[1] ﴿وقعد الذين كذبوا الله ورسوله﴾ أي وقعد عن الجهاد الذين كذبوا الله ورسوله في دعوى الإيمان ، وهم قوم لم يجاهدوا ولم يعتذروا عن تخلفهم ﴿سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾ وعيد لهم شديد أي سينال هؤلاء المتخلفين الكاذبين في دعوى الإيمان عذاب أليم بالقتل والأسر في الدنيا ، والنار في الآخرة ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى﴾ أي ليس على الشيوخ المسنين ، ولا على المرضى العاجزين الذين لا يستطيعون الجهاد لعجزهم أو مرضهم ﴿ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون﴾ أي الفقراء الذين لا يجدون نفقة للجهاد ﴿حرج﴾ أي إثم في القعود ﴿إذا نصحوا للّهِ ورسوله﴾ أي أخلصوا الإيمان والعمل الصالح ، فلم يرجفوا بالناس ولم يثبطوهم ، ولم يثيروا الفتن ، فليس على هؤلاء حرج إذا تركوا الغزو لأنهم أصحاب أعذار ﴿ما على المحسنين من سبيل﴾ أي ليس عليهم جناح ولا إلى معاتبتهم سبيل قال في التسهيل : وصفهم بالمحسنين لأنهم نصحوا لله ورسوله ، ورفع عنهم العقوبة والتعنيف واللوم[2] ، وهذا من بليغ الكلام لأن معناه : لا سبيل لعاتب عليهم ، وهو جارٍ مجرى المثل ﴿والله غفور رحيم﴾ أي عظيم المغفرة والرحمة حيث وسع على أهل الأعذار ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم﴾ نزلت في البكائين الذين أرادوا الغزو مع رسول الله ولم يجد الرسول ﷺ ما يحملهم عليه قال البيضاوي : هم البكاءون سبعة من الأنصار أتوا رسول الله ﷺ وقالوا : قد نذرنا الخروج فاحملنا نغزو معك ، فقال عليه السلام : لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا وهم يبكون[3] ﴿قلت لا أجد ما أحملكم عليه﴾ أي ليس عندي ما أحملكم عليه من الدواب ﴿تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً﴾ أي انصرفوا وأعينهم تسيل دمعاً من شدة الحزن ﴿ألا يجدوا ما ينفقون﴾ أي لأنهم لم يجدوا ما ينفقونه لغزوهم ، ولم يكن عند الرسول ما يحملهم عليه ﴿إنما السبيل

(١) البيضاوي ٢٣٠ . (٢) التسهيل ٢/ ٨٣ . (٣) البيضاوي ٢٣٠ .

على الذين يستأذنونك وهم أغنياء﴾ أي إنما الإثم والحرج على الذين يستأذنونك في التخلف وهم قادرون على الجهاد وعلى الإنفاق لغناهم ﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾ أي رضوا بأن يكونوا مع النساء والمرضى والعجزة ﴿وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون﴾ أي ختم عليها فهم لذلك لا يهتدون .

البَلاَغَة : ١ ـ ﴿يعلم . . وعلام الغيوب﴾ بين يعلم وعلام جناس الاشتقاق .

٢ ـ ﴿ولهم عذاب أليم﴾ التنوين في عذابٌ للتهويل والتفخيم .

٣ ـ ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾ بينهما طباق السلب، وقد خرج الأمر عن حقيقته إلى التسوية .

٤ ـ ﴿فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمى بالمقابلة .

٥ ـ ﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾ الخوالف : النساء المقيمات في دار الحي بعد رحيل الرجال ففيه استعارة ، وإنما سمي النساء خوالف تشبيهاً لهن بالخوالف وهي الأعمدة تكون في أواخر بيوت الحي فشبههن لكثرة لزوم البيوت بالخوالف التي تكون في البيوت[١] .

٦ ـ ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم﴾ هو من عطف الخاص على العام اعتناءً بشأنهم أفاده الألوسي[٢] .

فَائِدَة : قال الزمخشري عند قوله تعالى ﴿إن تستغفر لهم سبعين مرة﴾ لفظ السبعين جارٍ مجرى المثل في كلام العرب للتكثير قال علي بن أبي طالب :

لأصبحن العاص وابن العاصي سبعين ألفاً عاقدي النواصي

فذكرها ليس لتحديد العدد ، وإنما هو للمبالغة جرياً على أساليب العرب[٣] .

تَنبِيه : إنما منع ﷺ من الصلاة على المنافقين ، لأن الصلاة على الميت دعاء واستغفار واستشفاع له ، والكافر ليس بأهل لذلك .

لَطِيفَة : اشتهر « حذيفة بن اليمان » بأنه صاحب سر الرسول ﷺ وقد قال له ﷺ : إني مسرٌ إليك سراً فلا تذكره لأحد ، إني نهيت أن أصلي على فلان وفلان ، لرهط ذوي عدد من المنافقين ، ولذلك كان عمر رضي الله عنه يأتيه فيقول : أسألك باللهِ هل عدَّني رسول الله من المنافقين ؟ !

* * *

(١) تلخيص البيان للشريف الرضي ١٤٨ . (٢) روح المعاني ١٠/ ١٥٩ . (٣) الكشاف ٢/ ٢٩٥

قال الله تعالى : ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم . . إلى . . والله عليم حكيم﴾ من آية (٩٤) إلى نهاية آية (١١٠) .

المناسبة : لا تزال الآيات تتحدث عن المنافقين ، الذين تخلفوا عن الجهاد وجاءوا يؤكدون تلك الأعذار بالأيمان الكاذبة ، وقد ذكر تعالى من مكائد المنافقين « مسجد الضرار » الذي بنوه ليكون وكراً للتآمر على الإسلام والمسلمين ، وحذر نبيه ﷺ من الصلاة فيه ، لأنه لم يشيد على أساس من التقوى ، وإنما بني ليكون مركزاً لأهل الشقاق والنفاق ، ولتفريق وحدة المسلمين ، وقد اشتهر باسم مسجد الضرار .

اللغة : ﴿انقلبتم﴾ رجعتم ﴿رجس﴾ الرجس : الشيء الخبيث المستقذر ، وقد يطلق على النجس ﴿ومأواهم﴾ قال الجوهري : المأوى كل مكان يأوي إليه ليلاً أو نهاراً ﴿الأعراب﴾ جمع أعرابي قال أهل اللغة : يقال رجل عربي إذا كان نسبه في العرب وجمعه العرب ، ورجل أعرابي إذا كان بدوياً يطلب مساقط الغيث والكلأ ، سواء كان من العرب أو من مواليهم ، فمن استوطن القرى العربية فهم عرب ، ومن نزل البادية فهم أعراب[١] ﴿أجدر﴾ أولى وأحق ﴿مغرماً﴾ المغرم : الغرم والخسران وأصله من الغرام وهو لزوم الشيء[٢] ﴿مردوا﴾ ثبتوا واستمروا وأصل الكلمة من اللين والملامسة والتجرد فكأنهم تجردوا للنفاق ، ومنه رملة مرداء لا نبت فيها ، وغصن أمرد لا ورق عليه ، وغلام أمرد لا لحية له ﴿مرجون﴾ الإرجاء : التأخير يقال : ارجأته أي أخرته ومنه المرجئة لأنهم أخروا العمل ﴿ضراراً﴾ الضرار : محاولة الضر وفي الحديث (لا ضرر ولا ضرار)[٣] ﴿إرصاداً﴾ الإرصاد : الترقب والانتظار يقال أرصدت له كذا إذا أعددته مرتقباً له به ﴿شفا﴾ الشفا : الحرف والشفير ومنه أشفى على كذا إذا دنا منه ﴿جُرف﴾ : ما تجرفه السيول من الأودية ويبقى على الأطراف طين مشرف على السقوط وأصله من الجرف وهو اقتلاع الشيء من أصله ﴿هارٍ﴾ ساقط يقال : تهور البناء إذا سقط وأصله هائر .

سبب النزول : روي أن « أبا عامر الراهب »[٤] قد تنصر في الجاهلية وترهب ، فلما خرج رسول الله ﷺ عاداه لأنه ذهبت رياسته وقال : لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم ـ وسماه النبي ﷺ أبا عامر الفاسق ـ فلما انهزمت هوازن في حنين خرج إلى الشام ، وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح ، وابنوا لي مسجداً فإني ذاهب إلى قيصر فآتي بجند الروم فأُخرج محمداً وأصحابه ، فبنوا مسجداً إلى جانب مسجد قباء ، وأتوا رسول الله ﷺ فقالوا : إنا بنينا مسجداً لذي العِلة ، والحاجة ، والليلة المطيرة ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه ، فدعا بثوبه ليلبسه فيأتيهم فنزل عليه القرآن ، وأخبر الله رسوله خبر مسجد الضرار وما هموا به ، فدعاﷺ بعض الصحابة وقال لهم : انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله واحرقوه ، فذهبوا إليه فحرقوه وهدموه وتفرق عنه أهله ، وفيه نزلت ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً . . ﴾[٥] الآية .

---

(١) الرازي ١٦/ ١٦٥ . (٢) القرطبي ٨/ ٢٣٤ . (٣) رواه الدارقطني .

(٤) هو والد حنظلة الذي غسلته الملائكة . (٥) أسباب النزول ١٤٩ .

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ

التفسير : ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم﴾ أي يعتذر إليكم هؤلاء المتخلفون عن غزوة تبوك إذا رجعتم إليهم من سفركم وجهادكم ﴿قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم﴾ أي قل لهم لا تعتذروا فلن نصدقكم فيما تقولون ﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾ أي قد أخبرنا الله بأحوالكم وما في ضمائركم من الخبث والنفاق ﴿وسيرى الله عملكم ورسوله﴾ أي وسيرى الله ورسوله عملكم فيما بعد ، أتتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه ؟ ﴿ثم تُردون إلى عالم الغيب والشهادة﴾ أي ثم ترجعون بعد مماتكم إلى الله تعالى الذي يعلم السر والعلانية ، ولا تخفى عليه خافية ﴿فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ أي فيخبركم عند وقوفكم بين يديه بأعمالكم كلها ، ويجازيكم عليها الجزاء العادل ﴿سيحلفون بالله لكم﴾ أي سيحلف لكم بالله هؤلاء المنافقون ﴿إذا انقلبتم إليهم﴾ أي إذا رجعتم إليهم من تبوك معتذرين بالأعذار الكاذبة ﴿لتُعرضوا عنهم﴾ أي لتصفحوا عنهم ولتعرضوا عن ذمهم ﴿فأعرضوا عنهم﴾ أي فأعرضوا عنهم إعراض مقتٍ واجتناب ، وخلُّوهم وما اختاروا لأنفسهم من الكفر والنفاق قال ابن عباس : يريد ترك الكلام والسلام [١] ثم ذكر تعالى العلة فقال : ﴿إنهم رجس﴾ أي لأنهم كالقذر لخبث باطنهم ﴿ومأواهم جهنم﴾ أي مصيرهم إلى جهنم هي مسكنهم ومأواهم ﴿جزاءً بما كانوا يكسبون﴾ أي جزاءً لهم على نفاقهم في الدنيا ، وما اكتسبوه من الآثام ﴿يحلفون لكم لترضوا عنهم﴾ كرره لبيان كذبهم وللتحذير من الاغترار بمعاذيرهم الكاذبة ، أي يحلفون لكم بأعظم الأيمان لينالوا رضاكم ﴿فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ أي فإن رضيتم عنهم فإن رضاكم لا ينفعهم لأن الله ساخط عليهم قال أبو السعود : ووضع الفاسقين موضع الضمير للتسجيل عليهم بالفسق والخروج عن الطاعة[٢] ﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقاً﴾ الأعراب ـ أهل البدو ـ أشد كفراً وأعظم نفاقاً من أهل الحضر ، لجفائهم وقسوة قلوبهم ، وقلة مشاهدتهم لأهل الخير والصلاح ﴿وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله﴾ أي وهم أولى بألا يعلموا ما أنزل الله على رسوله من الأحكام والشرائع قال في البحر : وإنما كانوا أشد كفراً ونفاقاً

---

(١) الرازي ١٦/ ١٦٤ . (٢) أبو السعود .

﴿مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ۚ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ﴾

لفخرهم وطيشهم وتربيتهم بلا سائس ولا مؤدب ، فقد نشأوا كما شاءوا ، ولبعدهم عن مشاهدة العلماء ومعرفة كتاب الله وسنة رسوله ، فكانوا أطلق لساناً بالكفر من منافقي المدينة[1] ﴿والله عليم حكيم﴾ أي عليم بخلقه حكيم في صنعه ﴿ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً﴾ أي ومن هؤلاء الأعراب الجهلاء من يعدُّ ما يصرفه في سبيل الله ويتصدق به غرامة وخسراناً ، لأنه لا ينفقه احتساباً فلا يرجوله ثواباً ﴿ويتربص بكم الدوائر﴾ أي ينتظر بكم مصائب الدنيا ليتخلص من أعباء النفقة ﴿عليهم دائرة السوء﴾ جملة اعتراضية للدعاء عليهم أي عليهم يدور العذاب والهلاك ﴿والله سميع عليم﴾ أي سميع لأقوالهم عليم بأفعالهم ﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ أي ومن الأعراب من يصدِّق بوحدانية الله وبالبعث بعد الموت على عكس أولئك المنافقين ﴿ويتخذ ما ينفق قرباتٍ عند الله﴾ أي ويتخذ ما ينفق في سبيل الله ما يقربه من رضا الله ومحبته ﴿وصلوات الرسول﴾ أي دعاء الرسول واستغفاره له ﴿ألا إنها قربةٌ لهم﴾ ﴿ألا﴾ أداة استفتاح للتنبيه على الاعتناء بالأمر أي ألا إن هذا الإنفاق قربة عظيمة تقربهم لرضا ربهم حيث أنفقوها مخلصين ﴿سيدخلهم الله في رحمته﴾ أي سيدخلهم الله في جنته التي أعدها للمتقين ﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي غفور لأهل طاعته رحيم بهم حيث وفقهم للطاعة ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار﴾ أي والسابقون الأولون في الهجرة والنصرة ، الذين سبقوا إلى الإيمان من الصحابة[2] ﴿والذين اتبعوهم بإحسان﴾ أي سلكوا طريقهم واقتدوا بهم في سيرتهم الحسنة ، وهم التابعون ومن سار على نهجهم إلى يوم القيامة ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ وعدٌ بالغفران والرضوان أي رضي الله عنهم وأرضاهم ، وهذا أرقى المراتب التي يسعى إليها المؤمنون ، ويتنافس فيها المتنافسون أن يرضى الله تعالى عنهم ويرضيهم قال الطبري : رضي الله عنهم لطاعتهم إياه وإجابتهم نبيه ، ورضوا عنه لما أجزل لهم من الثواب على الطاعة والايمان ﴿وأعدَّ لهم جناتٍ تجري تحتها الأنهار﴾ أي وأعد لهم في الآخرة جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار ﴿خالدين فيها أبداً﴾ أي مقيمين فيها من غير انتهاء ﴿ذلك الفوز العظيم﴾ أي ذلك هو الفوز الذي لا فوز وراءه قال في البحر : لما بيّن تعالى فضائل الأعراب المؤمنين ، بيّن حال هؤلاء السابقين ، ولكن

(١) البحر المحيط. (٢) روي عن الشعبي انهم الذين بايعوا بيعة الرضوان وقيل : هم الذين صلوا الى القبلتين وما ذكرناه انهم جميع الصحابة وهم السابقون في الهجرة والنصرة هوما رجحه الطبري واختاره الفخر الرازي .

ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ

شتان ما بين الثناءين فهناك قال ﴿ألا إنها قُرْبةٌ لهم﴾ وهنا قال ﴿وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار﴾ وهناك ختم ﴿إن الله غفور رحيم﴾ وهنا ختم ﴿ذلك الفوز العظيم﴾[1] **﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون﴾** أي وممن حولكم يا أهل المدينة منافقون من الأعراب منازلهم قريبة من منازلكم **﴿ومن أهل المدينة﴾** أي ومن أهل المدينة منافقون أيضاً **﴿مردوا على النفاق﴾** أي لجوا في النفاق واستمروا عليه قال ابن عباس : مرنوا عليه وثبتوا منهم ابن سلول ، والجلاس ، وأبو عامر الراهب[2] **﴿لا تعلمهم نحن نعلمهم﴾** أي لا تعلمهم أنت يا محمد لمهارتهم في النفاق بحيث يخفى أمرهم على كثيرين ، ولكن نحن نعلمهم ونخبرك عن أحوالهم **﴿سنعذبهم مرتين﴾** أي في الدنيا بالقتل والأسر ، وعند الموت بعذاب القبر **﴿ثم يُردون إلى عذاب عظيم﴾** أي ثم في الآخرة يردون إلى عذاب النار ، الذي أعده الله للكفار والفجار **﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم﴾** أي وقوم آخرون أقروا بذنوبهم ولم يعتذروا عن تخلفهم بالمعاذير الكاذبة قال الرازي[3] : هم قوم من المسلمين تخلفوا عن غزوة تبوك لا لنفاقهم بل لكسلهم ، ثم ندموا على ما فعلوا وتابوا **﴿خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً﴾** أي خلطوا جهادهم السابق وخروجهم مع الرسول لسائر الغزوات بالعمل السيء وهو تخلفهم عن غزوة تبوك هذه المرة **﴿عسى الله أن يتوب عليهم﴾** أي لعل الله يتوب عليهم قال الطبري : وعسى من الله واجب ومعناه : سيتوب الله عليهم ، ولكنه في كلام العرب بمعنى الترجي على ما وصفت[4] **﴿إن الله غفور رحيم﴾** أي ذو عفو لمن تاب ، عظيم الرحمة لمن أناب **﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾** أي خذ يا محمد من هؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم صدقة تطهرهم بها من الذنوب والأوضار ، وتنمي بتلك الصدقة حسناتهم حتى يرتفعوا بها إلى مراتب المخلصين الأبرار **﴿وصلِّ عليهم إن صلاتك سكن لهم﴾** أي وادع لهم بالمغفرة فإن دعاءك واستغفارك طمأنينة لهم قال ابن عباس : ﴿سكنٌ لهم﴾ رحمة لهم **﴿والله سميع عليم﴾** أي سميع لقولهم عليم بنياتهم **﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده﴾** الاستفهام للتقرير أي ألم يعلم أولئك التائبون أن الله تعالى هو الذي يقبل توبة من تاب من عباده ، **﴿ويأخذ الصدقات﴾** أي

---

(١) البحر ٥/ ٩٢ . (٢) تفسير ابن الجوزي ٣/ ٤٩١ . (٣) الرازي ١٦/ ١٧٤ . (٤) الطبري ١١/ ١٢ .

وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ

يتقبلها ممن أخلص النية ﴿وأن الله هو التواب الرحيم﴾ أي وأن الله وحده المستأثر بقبول التوبة والرحمة ، لقوله ﴿غافر الذنب قابل التوب﴾ ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ صيغة أمر متضمنة للوعيد أي اعملوا ما شئتم من الأعمال فأعمالكم لا تخفى على الله ، وستعرض يوم الحساب على الرسول والمؤمنين ﴿وستردُّون إلى عالم الغيب والشهادة﴾ أي وستردُّون إلى الله الذي لا تخفى عليه خافية ﴿فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ أي فيجازيكم على أعمالكم إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ﴿وآخرون مُرجون لأمر الله﴾ أي وآخرون من المتخلفين مؤخرون إلى أن يظهر أمر الله فيهم قال ابن عباس : هم كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، لم يسارعوا إلى التوبة والاعتذار ، وكانوا من أصحاب بدر ، فنهى النبي ﷺ عن كلامهم والسلام عليهم ، فصاروا مرجئين لأمره تعالى[1] إلى أن يتجاوز عن سيئاتهم ،فهو تعالى وحده الذي يقبل التوبة ويتوب على العبد دون غيره ﴿إما يعذبهم وإما يتوب عليهم﴾ أي إما أن يعذبهم إن لم يتوبوا ، وإما أن يوفقهم للتوبة ويغفر لهم ﴿والله عليم حكيم﴾ أي عليم بأحوالهم حكيم فيما يفعله بهم ، وهؤلاء الثلاثة المذكورون في قوله تعالى ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾ وقد وقف أمرهم خمسين ليلة وهجرهم الناس حتى نزلت توبتهم بعد ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً﴾ أي ومن المنافقين جماعة بالغوا في الإجرام حتى ابتنوا مجمعاً يدبرون فيه الشر ، وسموه مسجداً مضارة للمؤمنين[2] ، وقد اشتهر باسم « مسجد الضرار» ﴿وكفراً﴾ أي نصرة للكفر الذي يخفونه ﴿وتفريقاً بين المؤمنين﴾ أي يفرقون بواسطته جماعة المؤمنين ، ويصرفونهم عن مسجد قباء ﴿وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل﴾ أي ترقباً وانتظاراً لقدوم أبي عامر الفاسق الذي قال لرسول الله : لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم ، وهو الذي أمرهم ببناء المسجد ليكون معقلاً له قال الطبري في رواية الضحاك : هم ناس من المنافقين بنوا مسجداً بقباء يضارون به نبي الله والمسلمين وكانوا يقولون : إذا رجع أبو عامر صلى فيه ، وإذا قدم ظهر على محمد وتغلب عليه[3] ﴿وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى﴾ أي وليقسمن ما أردنا ببنائه إلا الخير والإحسان ، من الرفق بالمسكين ، والتوسعة على المصلين ﴿والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ أي والله يعلم كذبهم في ذلك الحلف ، وأتى بإن واللام لزيادة التأكيد ، ثم نهى تعالى رسوله عن الصلاة في مسجد الضرار فقال ﴿لا

(١) أبو السعود ٢/ ٢٩٥ . (٢) انظر سبب النزول . (٣) الطبري ١١/ ٢٥ .

يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

تقم فيه أبداً﴾ أي لا تصل فيه يا محمد أبداً لأنه لم يُبْنَ إلا ليكون معقلاً لأهل النفاق ﴿لمسجد أسس على التقوى﴾ اللام لام القسم أي لمسجد قباء الذي بني على تقوى الله وطاعته ﴿من أول يوم﴾ أي من أول يوم ابتدىء في بنائه ﴿أحق أن تقوم فيه﴾ أي أولى وأجدر بأن تصلي فيه من مسجد الضرار ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا﴾ أي في هذا المسجد رجال أتقياء ـ وهم الأنصار ـ يحبون أن يتطهروا من الذنوب والمعاصي ﴿والله يحب المطهرين﴾ أي المبالغين في الطهارة الظاهرة والباطنة ، ثم أشار تعالى إلى فضل مسجد التقوى على مسجد الضرار فقال : ﴿أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان﴾ الاستفهام للإنكار والمعنى : هل من أسس بنيانه على تقوى وخوف من الله تعالى وطلبٍ لمرضاته بالطاعة ﴿خير أم من أسس بنيانه على شفا جرفٍ هارٍ﴾ أي هل ذاك خير أم هذا الذي أسس بنيانه على طرف واد متصدع مشرف على السقوط؟ ﴿فانهار به في نار جهنم﴾ أي فسقط به البناء في نار جهنم ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي لا يوفق الظالمين إلى السداد ، ولا يهديهم سبيل الرشاد ، والآية الكريمة على سبيل التشبيه والتمثيل لعمل أهل الإخلاص ، والإيمان ، وعمل أهل النفاق والضلال ، والمعنى هل من أسس بنيان دينه على التقوى والإخلاص كمن أسسه على الباطل والنفاق الذي يشبه طرف الوادي أو الجبل الذي أشفى على السقوط؟ ﴿لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبةً في قلوبهم﴾ أي لا يزال في قلوب أهل مسجدالضرار شكٌ ونفاقٌ، وغيظ وارتياب بسبب هدمه، يحسبون أنهم كانوا في بنائه محسنين ، روي أن النبي ﷺ بعث إلى ذلك المسجد من هدمه وحرقه وأمر بإلقاء الجيف والنتن والقمامة فيه إهانة لأهله ، فلذلك اشتد غيظ المنافقين وحقدهم ﴿إلا أن تقطع قلوبهم﴾ أي لا يزالون في ارتياب وغيظ إلا ان تتصدع قلوبهم فيموتوا ﴿والله عليم حكيم﴾ أي والله سبحانه عليم بأحوال المنافقين ، حكيم في تدبيره إياهم ومجازاتهم بسوء نياتهم .

البَلاَغَة : ١ ـ ﴿الغيب والشهادة﴾ بين الكلمتين طباق .

٢ ـ ﴿لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ الإظهار في موضع الإضمار لزيادة التشنيع والتقبيح وأصله لا يرضى عنهم .

٣ ـ ﴿سيدخلهم في رحمته﴾ فيه مجاز مرسل أي يدخلهم في جنته التي هي محل الرحمة وهو من إطلاق الحال وإرادة المحل .

٤ ـ ﴿عملاً صالحاً وآخر سيئاً﴾ بين ﴿صالحاً وسيئاً﴾ طباق .

٥ - ﴿إن صلاتك سكن لهم﴾ فيه تشبيه بليغ حيث جعل الصلاة نفس السكن والاطمئنان مبالغة وأصله كالسكن حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً .

٦ - ﴿هارٍ فانهار﴾ بينهما جناس ناقص وهو من المحسنات البديعية .

٧ - ﴿أفمن أسس بنيانه على تقوى﴾ في الكلام استعارة مكنية حيث شبهت التقوى والرضوان بأرض صلبة يعتمد عليها البنيان وطوي ذكر المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو التأسيس[١] .

تنبيه : كلمة « عسى » من الله واجب قال الإمام الرازي : وتحقيق القول فيه أن القرآن نزل على عرف الناس في الكلام ، والسلطان العظيم إذا التمس المحتاج منه شيئاً فإنه لا يجيبه إلا على سبيل الترجي مع كلمة « عسى » أو « لعل » تنبيهاً على أنه ليس لأحدٍ أن يلزمه بشيء ، بل كل ما يفعله فإنما هو على سبيل التفضل والتطول ، وفيه فائدة أخرى وهو أن يكون المكلف على الطمع والإشفاق لأنه أبعد من الإتكال والإهمال[٢] .

لطيفة : روى الأعمش أن أعرابياً جلس إلى « زيد بن صوحان» -وهو يحدث أصحابه - وكانت يده أصيبت يوم نهاوند ، فقال الأعرابي : والله إن حديثك ليعجبني ، وإن يدك لتريبني ! فقال زيد : ما يريبك من يدي إنها الشمال ، فقال الأعرابي : والله ما أدري اليمين يقطعون أم الشمال فقال زيد : صدق الله ﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله . .﴾ الآية ،معنى تريبني أي تدخل إلى قلبي الشك هل قطعت في سرقة وهذا من جهل الأعرابي[٣].

* * *

قال الله تعالى : ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم . . إلى . . وهو رب العرش العظيم﴾ من آية (١١١) إلى آية (١٢٩) نهاية السورة الكريمة .

المناسبة : لما ذكر تعالى أحوال المنافقين ، المتخلفين عن الجهاد ، المثبطين عنه ، ذكر صفات المؤمنين المجاهدين ، الذين باعوا أنفسهم لله . . ثم ذكر قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وتوبة الله عليهم ، وختم السورة بتذكير المؤمنين بالنعمة العظمى ، ببعثة السراج المنير ، النبي العربي ، الذي أرسله الله رحمة للعالمين .

اللغة : ﴿أواه﴾ كثير التأوه ومعناه الخاشع المتضرع ، يقال : تأوه الرجل تأوهاً إذا توجع قال الشاعر :

إذا ما قمت أُرحلها بليلٍ تأوه آهة الرجل الحزين[٤]

---

(١) انظر ما كتبه الشريف الرضي في تلخيص البيان حول هذه الآية الكريمة ص ١٤٩ ففيه روائع البيان . (٢) الرازي ١٦/ ١٧٦ .
(٣) محاسن التأويل ٨/ ٣٢٣٩ . (٤) البحر ٥/ ٨٨ .

﴿حليم﴾ الحليم : الكثير الحلم وهو الذي يصفح عن الذنب ويصبر على الأذى ﴿العسرة﴾ الشدة وصعوبة الأمر وتسمى غزوة تبوك « غزوة العسرة» لما فيها من المشقة والشدة ﴿يزيغ﴾ الزيغ : الميل : يقال زاغ قلبه إذا مال عن الهدى والايمان ﴿ظمأ﴾ الظمأ : شدة العطش ﴿نصب﴾ النصب : الإعياء والتعب ﴿مخمصة﴾ مجاعة شديدة يظهر بها ضمور البطن ﴿ينالون﴾ يصيبون ، نال الشيء إذا أدركه وأصابه ﴿غلظة﴾ شدة وقوة وحمية ﴿عزيز﴾ صعب وشاق ﴿عنتم﴾ العنت : الشدة والمشقة .

سبب النزول : أ ـ لما بايع الأنصار رسول الله ﷺ ليلة العقبة ـ وكانوا سبعين رجلاً ـ قال عبد الله بن رواحة يا رسول الله : اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، فقال : اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم ، قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال : الجنة ، قالوا : ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل فنزلت ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم . .﴾[1] الآية .

ب ـ لما حضرت أبا طالب الوفاة ، دخل عليه رسول الله ﷺ وعنده أبو جهل ، وعبد الله بن أبي أمية ، فقال : أي عم قل « لا إله إلا الله » كلمة أشهد لك بها عند الله ، فقال أبو جهل وابن أبي أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة ، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم : هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول « لا إله إلا الله» فقال رسول الله ﷺ : أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك فأنزل الله عز وجل ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين . .﴾ ونزلت ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾[2] .

*﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى

التفسير : ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ أي اشترى أموال المؤمنين وأنفسهم بالجنة وهو تمثيل في ذروة البلاغة والبيان لأجر المجاهدين ، مثَّل تعالى جزاءهم بالجنة على بذلهم الأموال والأنفس في سبيله بصورة عقد فيه بيع وشراء قال الحسن : بايعهم فأغلى لهم الثمن[3] وانظروا إلى كرم الله ، أنفساً هو خلقها ، وأموالاً هو رزقها ، ثم وهبها لهم ، ثم اشتراها منهم بهذا الثمن الغالي فإنها لصفقة رابحة وقال بعضهم : ناهيك عن بيعٍ البائعُ فيه المؤمن ، والمشتري فيه رب العزة والثمن فيه الجنة ، والصك فيه الكتب السماوية، والواسطة فيه محمد عليه الصلاة والسلام ﴿يقاتلون في سبيل الله﴾ أي يجاهدون لإعزاز دين الله وإعلاء كلمته ﴿فيقتلون ويُقتلون﴾ أي في حالتي الظفر بالأعداء بقتلهم ، أو الاستشهاد في المعركة بموتهم ﴿وعداً عليه حقاً﴾ أي وعدهم به المولى وعداً قاطعاً ﴿في التوراة والإنجيل والقرآن﴾ أي وعداً مثبتاً في الكتب المقدسة « التوراة ، والإنجيل ، والقرآن »

(١) زاد المسير ٣/ ٥٠٤ . (٢) أخرجه مسلم . (٣) الطبري ١١/ ٣٥ والرازي ١٦/ ١٩٩ .

بَايَعْتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾

﴿ومن أوفى بعهده من الله﴾ الاستفهام إنكاري بمعنى النفي أي لا أحد أوفى من الله جل وعلا قال الزمخشري : لأن إخلاف الميعاد قبيح لا يقدم عليه الكرام من الخلق ، فكيف بالغني الذي لا يجوز عليه القبيح ؟ ولا ترى ترغيباً في الجهاد أحسن منه وأبلغ[1] ﴿فاستبشروا ببيْعكم الذي بايعتم به﴾ أي أبشروا بذلك البيع الرابح وافرحوا به غاية الفرح ﴿وذلك هو الفوز العظيم﴾ هو الفوز الذي لا فوز أعظم منه ﴿التائبون العابدون الحامدون﴾ كلام مستأنف قال الزجاج : مبتدأ خبره محذوف أي التائبون العابدون من أهل الجنة أيضاً وإن لم يجاهدوا كقوله ﴿وكلاً وعد الله الحسنى﴾ والمعنى التائبون عن المعاصي ، العابدون أي المخلصون في العبادة ، الحامدون لله في السراء والضراء ﴿السائحون﴾ أي السائرون في الأرض للغزو أو طلب العلم ، من السياحة وهي السير والذهاب في المدن والقفار للعظة والاعتبار[2] ﴿الراكعون الساجدون﴾ أي المصلون ﴿الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر﴾ أي الداعون إلى الله ، يدعون الناس إلى الرشد والهدى ، وينهونهم عن الفساد والردى ﴿والحافظون لحدود الله﴾ أي المحافظون على فرائض الله ، المتمسكون بما شرع الله من حلال وحرام قال الطبري : أي المؤدون فرائض الله ، المنتهون إلى أمره ونهيه[3] ﴿وبشر المؤمنين﴾ أي بشرهم بجنات النعيم ، وحذف المبشر به إشارة إلى أنه لا يدخل تحت حصر ، بل لهم ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾ أي لا ينبغي ولا يصح للنبي والمؤمنين أن يطلبوا من الله المغفرة للمشركين ﴿ولو كانوا أولي قربى﴾ أي ولو كان المشركون أقرباء لهم ﴿من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾ أي من بعد ما وضح لهم أنهم من أهل الجحيم لموتهم على الكفر ، والآية نزلت في أبي طالب[4] ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه﴾ هذا بيان للسبب الذي حمل إبراهيم على الاستغفار لأبيه آزر أي ما أقدم إبراهيم على الاستغفار ﴿إلا عن موعدةٍ وعدها إياه﴾ أي إلا من أجل وعدٍ تقدم له بقوله ﴿سأستغفر لك ربي﴾ وأنه كان قبل أن يتحقق إصراره على الشرك ﴿فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه﴾ أي فلما تبين لإبراهيم ان أباه مصرّ على الكفر ومستمر على

(١) الكشاف ٢/ ٣١٤ .

(٢) فسر بعضهم « السائحون » بأنهم الصائمون وقال عطاء : هم الغزاة وقال ابن زيد : هم المهاجرون وما ذهبنا إليه هو ما رجحه الفخر الرازي وهو الأولى بتفسير الآية الكريمة ويدل عليه ﴿فسيحوا في الأرض﴾ والله أعلم . (٣) الطبري ١١/ ٣٩ . (٤) انظر سبب النزول .

وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ

الكفر ، تبرأ من أبيه بالكلية فضلاً عن الاستغفار له ، ثم بيّن تعالى بأن الذي حمل إبراهيم على الاستغفار هو فرط ترحمه وصبره على أبيه فقال ﴿إن إبراهيم لأواه﴾ أي كثير التأوه من فرط الرحمة ورقة القلب ﴿حليم﴾ أي صبور على ما يعترضه من الأذى ولذلك حلم عن أبيه مع توعده له بقوله ﴿لئن لم تنته لأرجمنك﴾ فليس لغيره أن يتأسى به في ذلك قال أبو حيان : ولما كان استغفار إبراهيم لأبيه بصدد ان يُقتدى به بيّن تعالى العلة في استغفار إبراهيم لأبيه ، وهو الوعد الذي كان وعده به ، فكان يرجو إيمانه فلما تبيّن له من جهة الوحي أنه عدو لله ، وأنه يموت كافراً ، وانقطع رجاؤه منه تبرأ منه وقطع استغفاره[١] ﴿وما كان الله ليضل قوماً﴾ نزلت الآية في قوم من المسلمين استغفروا للمشركين ، فخافوا على أنفسهم من ذلك فنزلت الآية تأنيساً لهم[٢] أي ما كان الله ليقضي على قوم بالضلال ﴿بعد إذ هداهم﴾ أي بعد أن وفقهم للإيمان ﴿حتى يبين لهم ما يتقون﴾ أي حتى يبين لهم ما يجتنبونه فإن خالفوا بعد النهي استحقوا العقوبة ﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ أي عليم بجميع الأشياء ومنها أنه يعلم من يستحق الهداية ، ومن يستحق الإضلال ﴿إن الله له ملك السموات والأرض﴾ أي له سلطان السموات والأرض وملكهما ، وكل من فيهما عبيده ومماليكه ﴿يحيي ويميت﴾ أي بيده وحده حياتهم وموتهم ﴿وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ أي ما لكم أيها الناس من أحد غير الله تلجأون إليه أو تعتمدون عليه قال الألوسي : لما منعهم سبحانه عن الاستغفار للمشركين وإن كانوا أولي قربى ، وتضمن ذلك وجوب التبري عنهم ، بيّن لهم أن الله سبحانه مالك كل موجود ، ومتولي أمره ، والغالب عليه ، ولا يتأتى لهم ولاية ولا نصر إلا منه تعالى ، ليتوجهوا إليه بكليتهم ، متبرئين عما سواه ، غير قاصدين إلا إياه[٣] ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار﴾ أي تاب الله على النبي من إذنه للمنافقين في التخلف ، وتاب على المهاجرين والأنصار لما حصل منهم من بعض الهفوات في غزوة تبوك ، حيث تباطأ بعضهم ، وتثاقل عن الجهاد آخرون ، والغرض التوبة على من تخلفوا من المؤمنين عن غزوة تبوك ثم تابوا وأنابوا ، وعلم الله صدق توبتهم فقبلها منهم ، وصدّرها بتوبته على رسوله وكبار صحبه جبراً لقلوبهم ، وتنويهاً لشأنهم ، وبعثاً للمؤمنين على التوبة ، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار ، حتى النبي والمهاجرون والأنصار[٤] ﴿الذين اتبعوه في ساعة العسرة﴾ أي اتبعوه في غزوة تبوك وقت العسرة في شدة الحر ، وقلة الزاد ، والضيق الشديد روى الطبري عن عمر رضي الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظٍ شديد ، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش ، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع ، حتى إن الرجل لينحر

(١) البحر المحيط ٥/ ١٠٥ . (٢) التسهيل ٢/ ٨٦ . (٣) روح المعاني ١١/ ٣٩ . (٤) انظر الكشاف ٢/ ٣١٦ .

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا﴾

البعير فيعصر فرثه فيشربه ، فقال أبو بكر يا رسول الله : إن الله قد عودك في الدعاء خيراً فادع لنا ، قال : تحب ذلك ؟قال: نعم فرفع يديه فلم يرجعهما حتى سكبت السماء فملأوا ما معهم ، فرجعنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر[1] ﴿من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم﴾ أي من بعد ما كادت قلوب بعضهم تميل عن الحق وترتاب ، لما نالهم من المشقة والشدة ﴿ثم تاب عليهم﴾ أي وفقهم للثبات على الحق وتاب عليهم لما ندموا ﴿إنه بهم رءوف رحيم﴾ أي لطيف رحيم بالمؤمنين ﴿وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا﴾ أي وتاب كذلك على الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزو ، وهم « كعب ، وهلال ، ومرارة »[2]﴿حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت﴾ أي ضاقت عليهم مع سعتها ﴿وضاقت عليهم أنفسهم﴾ أي ضاقت نفوسهم بما اعتراها من الغم والهم ، بحيث لا يسعها أنس ولا سرور ، وذلك بسبب أن الرسول عليه السلام دعا لمقاطعتهم ، فكان أحدهم يفشي السلام لأقرب أقربائه فلا يرد عليه ، وهجرتهم نساؤهم وأهلوهم وأهملوهم حتى تاب الله عليهم ﴿وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه﴾ أي وأيقنوا أنه لا معتصم لهم من الله ومن عذابه ، إلا بالرجوع والإنابة إليه سبحانه ﴿ثم تاب عليهم ليتوبوا﴾ أي رجع عليهم بالقبول والرحمة ، ليستقيموا على التوبة ويدوموا عليها ﴿إن الله هو التواب الرحيم﴾ أي المبالغ في قبول التوبة وإن كثرت الجنايات وعظمت ، المتفضل على العباد بالرحمة الشاملة ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ أي راقبوا الله في جميع أقوالكم وأفعالكم ، وكونوا مع أهل الصدق واليقين ، الذين صدقوا في الدين نية وقولاً وعملاً ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله﴾ عتاب لمن تخلف عن غزوة تبوك أي ما صح ولا استقام لأهل المدينة ومن حولهم من سكان البوادي أن يتخلفوا عن الغزو مع رسول الله ﷺ ﴿ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه﴾ أي لا يترفعوا بأنفسهم عن نفسه بأن يكرهوا لها المكاره ولا يكرهوها له عليه السلام ، بل عليهم ان يفدوه بالمُهج والأرواح ، وأن يكابدوا معه ما يكابده من الأهوال والخطوب قال الزمخشري : أُمروا بأن يصحبوه على البأساء والضراء ، وأن يلقوا من الشدائد ما تلقاه نفسه ، علماً بأنها أعز نفس على الله وأكرمها عليه ، لا أن يضنوا بأنفسهم على ما سمح بنفسه عليه ، وهذا نهي بليغ ، وتهييج لمتابعته عليه السلام[3] ﴿ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ﴾ أي ذلك النهي عن التخلف بسبب أنهم لا يصيبهم عطش ﴿ولا نصب﴾ أي ولا تعب

(١) الطبري ١١/ ٥٥ . (٢) انظر قصتهم في صحيح البخاري كتاب المغازي وفي الطبري ١١/ ٥٨ . (٣) الكشاف ٢/ ٣٢١ .

نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ * وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا

﴿ولا مخمصة﴾ أي ولا مجاعة ﴿في سبيل الله﴾ أي في طريق الجهاد ﴿ولا يطأون موطئاً﴾ أي ولا يدوسون مكاناً من أمكنة الكفار بأرجلهم أو حوافر خيولهم ﴿يغيظ الكفار﴾ أي يغضب الكفار وطؤها ﴿ولا ينالون من عدو نيلاً﴾ أي ولا يصيبون أعداءهم بشيء بقتل أو أسرٍ أو هزيمة قليلاً كان أو كثيراً ﴿إلا كُتِبَ لهم به عمل صالح﴾ أي إلا كان ذلك قربة لهم عند الله ﴿إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ أي لا يضيع أجر من أحسن عملاً ﴿ولا ينفقون نفقةً صغيرة ولا كبيرة﴾ قال ابن عباس : تمرة فما فوقها ﴿ولا يقطعون وادياً﴾ أي ولا يجتازون للجهاد في سيرهم أرضاً ذهاباً أو إياباً ﴿إلا كتب لهم﴾ أي أثبت لهم أجر ذلك ﴿ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾ أي ليجزيهم على كل عمل لهم جزاء أحسن أعمالهم قال الألوسي : على معنى أن لأعمالهم جزاءً حسناً وجزاء أحسن ، وهو سبحانه اختار لهم أحسن جزاء[1] ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ أي لا ينبغي خروج جميع المؤمنين للغزو[2] بحيث تخلو منهم البلاد ، روي عن ابن عباس انه تعالى لما شدد على المتخلفين قالوا : لا يتخلف منا أحد عن جيشٍ او سرية أبداً ، فلما قدم الرسول المدينة وأرسل السرايا إلى الكفار ، نفر المسلمون جميعاً إلى الغزو وتركوه وحده بالمدينة فنزلت هذه الآية[3] ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾ أي فإذا لم يمكن نفير الجميع ولم يكن فيه مصلحة فهلا نفر من كل جماعة كثيرة فئة قليلة ﴿ليتفقهوا في الدين﴾ أي ليصبحوا فقهاء ويتكلفوا المشاق في طلب العلم ﴿ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾ أي وليخوفوا قومهم ويرشدوهم إذا رجعوا إليهم من الغزو ، لعلهم يخافون عقاب الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه قال الألوسي : وكان الظاهر أن يقال ﴿ليعلِّموا﴾ بدل ﴿لينذروا﴾ و﴿يفقهون﴾ بدل ﴿يحذرون﴾ لكنه اختير ما في النظم الجليل للإشارة الى أنه ينبغي أن يكون غرض المعلم : الإرشاد والإنذار ، وغرض المتعلم : اكتساب الخشية لا التبسط والاستكبار[4] ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ أي قاتلوا القريبين منكم وطهروا ما حولكم من رجس المشركين ثم انتقلوا الى غيرهم ، والغرض إرشادهم إلى الطريق الأصوب والأصلح ، وهو أن يبتدئوا من الأقرب فالأقرب حتى يصلوا الى

(١) روح المعاني ١١/ ٤٧ . (٢) وقيل : المراد أن ينفروا لطلب العلم . (٣) الرازي ١٦/ ٢٢٥ . (٤) روح المعاني ١١/ ٤٨ .

﴿مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾

الأبعد فالأبعد ﴿وليجدوا فيكم غلظةً﴾ أي وليجد هؤلاء الكفار منكم شدة عليهم ﴿واعلموا ان الله مع المتقين﴾ أي واعلموا أن من اتقى الله كان الله معه بالنصر والعون ﴿وإذا ما أُنزلت سورة﴾ أي من سور القرآن ﴿فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً﴾ أي فمن هؤلاء المنافقين من يقول استهزاء : أيكم زادته هذه إيماناً ؟ على وجه الاستخفاف بالقرآن كأنهم يقولون : أي عجب في هذا وأي دليل في هذا ؟ يقول تعالى ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً﴾ أي فأما المؤمنون فزادتهم تصديقاً وذلك لما يتجدد عندهم من البراهين والأدلة عند نزول كل سورة ﴿وهم يستبشرون﴾ أي وهم يفرحون لنزولها لأنه كلما نزل شيء من القرآن ازدادوا إيماناً ﴿وأما الذين في قلوبهم مرض﴾ أي وأما المنافقون الذين في قلوبهم نفاق وشك في دين الله ﴿فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾ أي زادتهم نفاقاً إلى نفاقهم وكفراً إلى كفرهم ، فازدادوا رجساً وضلالاً فوق ما هم فيه من الرجس والضلال ﴿وماتوا وهم كافرون﴾ أي ماتوا على الكفر ﴿أولا يرون أنهم يُفتنون في كل عام مرة أو مرتين﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ أي أولا يرى هؤلاء المنافقون الذين تُفضح سرائرهم كل سنة مرة أو مرتين حين ينزل فيهم الوحي ؟ ﴿ثم لا يتوبون ولا هم يَذَّكَّرون﴾ أي ثم لا يرجعون عما هم فيه من النفاق ولا يعتبرون ﴿وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا﴾ أي وإذا أنزلت سورة من القرآن فيها عيب المنافقين وهم في مجلس النبي ﷺ نظر بعضهم لبعض هل يراكم أحد من المسلمين لننصرف ، فإنا لا نصبر على استماعه وهو يفضحنا ثم قاموا فانصرفوا ﴿صرف الله قلوبهم﴾ جملة دعائية أي صرفها عن الهدى والإيمان ﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾ أي لأجل أنهم لا يفهمون الحق ولا يتدبرون فهم حمقى غافلون ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ أي لقد جاءكم أيها القوم رسول عظيم القدر ، من جنسكم عربي قرشي ، يُبلغكم رسالة الله ﴿عزيز عليه ما عنتم﴾ أي يشق عليه عنتكم وهو المشقة ولقاء المكروه ﴿حريص عليكم﴾ أي حريص على هدايتكم ﴿بالمؤمنين رءوف رحيم﴾ أي رءوف بالمؤمنين رحيم بالمذنبين ، شديد الشفقة والرحمة عليهم قال ابن عباس : سماه باسمين من أسمائه[1] ﴿فإن تولوا فقل حسبي الله﴾ أي فإن أعرضوا عن الايمان

---

(١) زاد المسير ٣/ ٥٢١ .

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾

بك يا محمد فقل يكفيني ربي ﴿لا إله إلا هو﴾ أي لا معبود سواه ﴿عليه توكلت﴾ أي عليه اعتمدت فلا أرجو ولا أخاف أحداً غيره ﴿وهو رب العرش العظيم﴾ أي هو سبحانه رب العرش المحيط بكل شيء ، لكونه أعظم الأشياء ؛ الذي لا يعلم مقدار عظمته إلا الله تعالى .

البلاغة : ١ ـ ﴿إن الله اشترى﴾ استعارة تبعية شبه بذلهم الأموال والأنفس وإثابتهم عليها بالجنة بالبيع والشراء .

٢ ـ ﴿فَيقتلون ويُقتلون﴾ فيه جناس ناقص لاختلافهما في الشكل وهو من المحسنات البديعية .

٣ ـ ﴿الراكعون الساجدون﴾ يعني المصلون فيه مجاز مرسل من إطلاق الجزء وإرادة الكل ، وخص الركوع والسجود بالذكر لشرفهما (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد)[١] .

٤ ـ ﴿وبشر المؤمنين﴾ الإظهار في مقام الإضمار للاعتناء بهم وتكريمهم .

٥ ـ ﴿موعدة وعدها﴾ بينهما جناس الاشتقاق .

٦ ـ ﴿ليضل . . إذ هداهم﴾ بينهما طباق وكذلك بين ﴿يحيي . . ويميت﴾ وكذلك ﴿ضاقت . . ورحبت﴾ .

٧ ـ ﴿التواب الرحيم﴾ من صيغ المبالغة .

٨ ـ ﴿يطأون موطئاً﴾ جناس الاشتقاق وكذلك ﴿ينالون نيلاً﴾ .

٩ ـ ﴿صغيرة ولا كبيرة﴾ طباق .

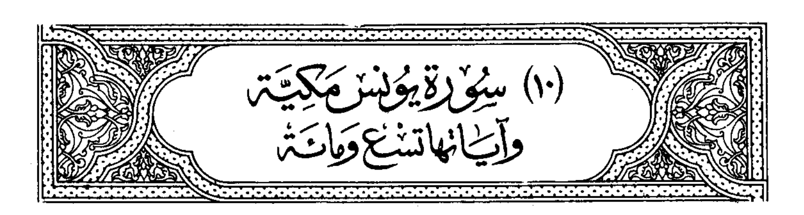
١٠ ـ ﴿فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾ قال في تلخيص البيان : السورة لا تزيد الأرجاس رجساً ،ولا القلوب مرضاً ، بل هي شفاء للصدور وجلاء للقلوب ،ولكن المنافقين لما ازدادوا عند نزولها عمىً ، حسن أن يضاف ذلك إلى السورة على طريق الاستعارة .

تنبيه : روي أن أبا خيثمة الأنصاري رضي الله عنه بلغ بستانه وكانت له امرأة حسناء فرشت له في الظل ، وبسطت له الحصير ، وقربت إليه الرطب والماء البارد ، فنظر فقال : ظل ظليل ، ورطب يانع ، وماء بارد ، وامرأة حسناء ، ورسول الله ﷺ في الحر والريح ! ما هذا بخير ، فقام فرحل ناقته ، وأخذ سيفه ورمحه ، ومر كالريح فنظر رسول الله ﷺ خلفه فإذا براكب وراء السراب ، فقال : كن أبا خيثمة ! فكان ففرح به رسول الله ﷺ واستغفر له .

تم تفسير سورة التوبة ولله الحمد في البدء والختام

* * *

(٢) تلخيص البيان ١٥٢ .



بين يدي السورة

سورة يونس من السور المكية التي تُعْنَى بأصول العقيدة الإسلامية « الإيمان بالله تعالى ، والإيمان بالكتب ، والرسل ، والبعث والجزاء » وهي تتميز بطابع التوجيه إلى الإيمان بالرسالات السماوية ، وبوجه أخص إلى « القرآن العظيم » خاتمة الكتب المنزلة ، والمعجزة الخالدة على مدى العصور والدهور .

* تحدثت السورة الكريمة في البدء عن الرسالة والرسول ، وبيَّنت أن هذه سنة الله في الأولين والآخرين ، فما من أمةٍ إلا بعث الله إليها رسولاً ، فلا داعي للمشركين للعجب من بعثة خاتم المرسلين ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجلٍ منهم أن أنذر الناس . .﴾ ؟ ثم تلتها الآيات عن بيان حقيقة « الألوهية » و « العبودية » وأساس الصلة بين الخالق والمخلوق ، وعرَّفت الناسَ بربهم الحقِّ الذي ينبغي أن يعبدوه ، وأن يُسلموا وجوههم إليه ، فهو وحده الخالق الرازق ، المحيي المميت ، المدبِّر الحكيم ، وكل ما سواه فباطل وهباء ﴿إنَّ ربكم اللهُ الذي خلَق السَّموات والأرضَ في ستةِ أيام . .﴾ الآيات .

* وتناولت السورة الكريمة موقف المشركين من الرسالة والقرآن ، وذكرت أن هذا القرآن هو المعجزة الخالدة ، الدالة على صدق النبي الأمي ، وأنه يحمل برهانه في تفرده المعجز ، حيث تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا مع أنهم أساطين الفصاحة ، وأمراء البيان ﴿أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بسورةٍ مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ .

* وانتقلت السورة لتعريف الناس بصفات الإله الحق ، بذكر آثار قدرته ورحمته ، الدالة على التدبير الحكيم ، وما في هذا الكون المنظور من آثار القدرة الباهرة ، التي هي أوضح البراهين على عظمة الله وجلاله وسلطانه ﴿قل من يرزقكم من السموات والأرض ؟ أمَّنْ يملك السمع والأبصار . .﴾ الآيات وهذه هي القضية الكبرى التي يدور محور السورة عليها وهي موضوع الإيمان بوحدانية الله جل وعلا ، وقد عرضت السورة لها بشتى الأدلة السمعية والعقلية .

* وتحدثت السورة عن قصص بعض الأنبياء ، فذكرت قصة نوح مع قومه ، وقصة موسى مع فرعون الجبار ، وذكرت قصة نبي الله « يونس » ـ الذي سميت السورة باسمه ـ وكلٌّ هذه القصص لبيان سنة الله الكونية في إهلاك الظالمين ، ونصرة المؤمنين .

* وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالاستمساك بشريعة الله ، والصبر على ما يلقى من الأذى في سبيل الله ﴿واتَّبعْ ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين﴾ .

التسمية : سميت السورة « سورة يونس » لذكر قصته فيها ، وما تضمنته من العظة والعبرة برفع العذاب عن قومه حين آمنوا بعد أن كاد يحل بهم البلاء والعذاب ، وهذا من الخصائص التي خصَّ الله بها قوم يونس لصدق توبتهم وإيمانهم .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾

اللغة : ﴿قدم صدق﴾ قال الليث : القدم السابقة قال ذو الرمة :

وأنت امرؤٌ من أهل بيت ذُؤَابةٍ ... لهم قدمٌ معروفةٌ ومفاخر[1]

وقال أبو عبيدة : كل سابق في خير أو شر فهو قدم وقال الأخفش : سابقة إخلاص ﴿يدبّر﴾ التدبير : القضاء والتقدير على حسب الحكمة ﴿القسط﴾ العدل ﴿حميم﴾ الحميم : الماء الحار الذي سخّن بالنار حتى انتهى حره ﴿يفصِّل﴾ التفصيل : التبيين والتوضيح ﴿مأواهم﴾ مثواهم ومقامهم ﴿طغيانهم﴾ الطغيان : العلو والارتفاع ﴿يعمهون﴾ يتحيَّرون ﴿خلائف﴾ جمع خليفة وهو الذي يخلف غيره في شئونه .

سبب النزول : قال ابن عباس : لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ أنكرت الكفار وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً ، أما وجد الله من يرسله إلا يتيم أبي طالب؟ فأنزل الله ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجلٍ منهم أن أنذر الناس . .﴾[2] الآية .

التفسير : ﴿الر﴾ إشارة إلى أن هذا الكلام البليغ المعجز ، مكوّن من جنس الأحرف التي يتكون منها كلامكم ، فمن هذه الحروف وأمثالها تتألف آيات الكتاب الحكيم ، وهي في متناول أيديهم ثم يعجزون عن الإتيان بمثل آية واحدة منه[3] ﴿تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ أي هذه آيات القرآن المُحكم المبين الذي لا يدخله شك ، ولا يعتريه كذب ولا تناقض ﴿أكانَ للناس عجباً أن أوحينا إلى رجلٍ منهم﴾ أي أكان عجباً لأهل مكة إيحاؤ نا إلى رجلٍ منهم هو محمد عليه السلام ؟ والهمزة للإنكار أي لا عجب في ذلك فهي عادة الله في الأمم السالفة أوحى إلى رسلهم ليبلغوهم رسالة الله ﴿أن أنذر الناس﴾ أي أوحينا إليه بأن خوِّف الكفار عذاب النار ﴿وبَشِّرِ الذين آمنوا أنَّ لهم قَدَمَ صدقٍ عند ربهم﴾ أي وأنْ بَشّرِ المؤمنين بأنَّ لهم سابقةً ومنزلة رفيعة عند ربهم بما قدموا من صالح الأعمال ﴿قالَ الكافرونَ إنَّ هذا

---

(١) التفسير الكبير للرازي ١٧/ ٧ . (٢) القرطبي ٨/ ٣٠٦ . (٣) انظر ما كتبناه في أول سورة البقرة .

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا﴾

لساحرٌ مبينٌ﴾ أي ومع وضوح صدق الرسول ﷺ وإعجاز القرآن، قال المشركون: إنَّ محمداً لساحرٌ ظاهر السحر، مبطلٌ فيما يدَّعيه قال البيضاوي: وفيه اعترافٌ بأنهم صادفوا من الرسول ﷺ أموراً خارقة للعادة، معجزة إيَّاهم عن المعارضة، وهو اعتراف من حيث لا يشعرون بأن ما جاء به خارجٌ عن طوق البشر[1] ﴿إنَّ ربكمُ اللهُ الذي خلقَ السَّمواتِ والأرض في ستة أيام﴾ أي إنَّ ربكم ومالك أمركم الذي ينبغي أن تفردوه بالعبادة هو الذي خلق الكائنات في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا ، ولو شاء لخلقهــنَّ في لمحة ولكنه أراد تعليم العباد التأني والتثبت في الأمور ﴿ثـم استـوى علـى العـرش﴾ استواءً يليق بجلاله من غير تكييفٍ ، ولا تشبيه ، ولا تعطيل قال ابن كثير : نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تشبيه ولا تعطيل ، والمتبادر إلى أذهان المشبِّهين منفيٌ عن الله ، فإن الله لا يشبهه شيءٌ من خلقه ، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة ، والأخبار الصحيحة ، على الوجه الذي يليق بجلال الله ، فقد سلك سبيل الهدى (٢) وقال أبو السعود : العرشُ هو الجسمُ المحيطُ بسائر الأجسام ، سُمِّي به لارتفاعه ، أو للتشبيه بسرير الملك ، والاستواء على العرش صفة له سبحانه بلاكيف (٣) ﴿يــدبِّر الأمــر﴾ أي يدبِّر أمر الخلائق على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة قال ابن عباس : لا يشغله في تدبير خلقه أحد ﴿مـا مـن شفيـعٍ إلا مـن بعـد إذنــه﴾ أي لا يشفع عنده شافع يوم القيامة إلا بعد أن يأذن له في الشفاعة ، وفي هذا ردٌّ على المشركين في زعمهـم أن الأصنام تشفع لهم ﴿ذلـكم اللـه ربـكم فاعبــدوه﴾ أي ذلكم العـظيم الشـأن هو ربـكم وخالقـكم لا ربَّ سواه ، فوحّـدوه بالعبادة ﴿أفــلا تذكَّــرون﴾ أي أفلا تتعظون وتعتبرون ؟ تعلمون أنه المتفرد بالخلـق ثم تعبـدون معـه غـيره ﴿إليــه مرجعكــم جميعــاً﴾ أي إلى ربكم مرجعكم أيها الناس يوم القيامة جميعاً ﴿وعْــدَ اللـهِ حقــاً﴾ أي وعداً من الله لا يتبدّل، وفيه ردٌّ على منكري البعث حيث قالوا ﴿ما هي إلا حياتُنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهـر﴾ ﴿إنــه يَبْدؤُاْ الخلـق ثـم يعيــده﴾ أي كما ابتدأ الخلق كذلك يعيده ﴿ليجـزيَ الذيــنَ آمنُوا وعملــوا الصَّالحاتِ بالقِسْــطِ﴾ أي ليجزي المؤمنين بالعدل ، ويوفِّيهم أجورهم بالجزاء الأوفى ﴿والذيــن كفــروا﴾ أي والذين جحدوا بالله وكذبوا رسله ﴿لهــم شـرابٌ من حميــمٍ﴾ أي لهم في جهنم شرابٌ من حيمم ، بالغ النهاية في الحرارة ﴿وعــذابٌ أليم بما كانوا يكفــرون﴾ أي ولهـم عذاب موجع بسبب

(١) البيضاوي ٢٣٥ . (٢) المختصر ٢/ ٢٥ وانظر توضيح المسألة في أول سورة الأعراف من هذا الكتاب . (٣) أبو السعود ٢/ ٣٠٧ .

عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ

كفرهم وإشراكهم قال البيضاوي : والآية كالتعليل لما سبق فإنه لما كان المقصود من البدء والإعادة مجازاة المكلفين على أعمالهم كان مرجع الجميع إليه لا محالة[١] ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء﴾ الآية للتنبيه على دلائل القدرة والوحدانية أي هو تعالى بقدرته جعل الشمس مضيئة ساطعة بالنهار كالسراج الوهّاج ﴿والقمر نوراً﴾ أي وجعل القمر منيراً بالليل وهذا من كمال رحمته بالعباد، ولما كانت الشمس أعظم جرماً خُصَّت بالضياء ، لأنه هو الذي له سطوعٌ ولَمعان قال الطبري : المعنى أضاء الشمس وأنار القمر[٢] ﴿وقدَّره منازل﴾ أي قدَّر سيره في منازل وهي البروج ﴿لتعلموا عدد السنين والحساب﴾ أي لتعلموا أيها الناس حساب الأوقات ، فبالشمس تعرف الأيام ، وبسير القمر تُعرف الشهور والأعوام ﴿ما خلق الله ذلك إلا بالحق﴾ أي ما خلق تعالى ذلك عبثاً بل لحكمة عظيمة ، وفائدة جليلة ﴿يفصِّل الآيات لقوم يعلمون﴾ أي يبيّن الآيات الكونيّة ويوضحها لقوم يعلمون قدرة الله ، ويتدبرون حكمته قال أبو السعود : أي يعلمون الحكمة في إبداع الكائنات ، فيستدلون بذلك على شئون مبدعها جل وعلا[٣] ﴿إنَّ في اختلاف الليل والنهار﴾ أي في تعاقبهما يأتي الليل فيذهب النهار ، ويأتي النهار فيذهب الليل ﴿وما خلق الله في السموات والأرض﴾ أي وما أوجد فيهما من أصناف المصنوعات ﴿لآياتٍ لقوم يتقون﴾ أي لآيات عظيمة وبراهين جليلة ، على وجود الصانع ووحدته ، وكمال علمه وقدرته ،لقومٍ يتقون الله ويخافون عذابه ﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا﴾ أي لا يتوقعون لقاء الله أصلاً ولا يخطر ببالهم ، فقد أعمتهم الشهوات عن التصديق بما بعد الممات ﴿ورضوا بالحياة الدنيا﴾أي رضوا بالدنيا عوضاً من الآخرة ، وآثروا الخسيس على النفيس ﴿واطمأنوا بها﴾ أي فرحوا بها وسكنوا إليها ﴿والذين هم عن آياتنا غافلون﴾ أي وهم عن الأدلة المنبثّة في صحائف الأكوان غافلون ، لا يعتبرون فيها ولا يتفكرون ﴿أولئك مأواهم النارُ﴾ أي مثواهم ومقامهم النار ﴿بما كانوا يكسبون﴾ أي بسبب كفرهم وإجرامهم ، وبعد أن ذكر الله حال الأشقياء أردفه بذكر حال السعداء فقال ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصّالحات يهديهم ربهم بإيمانهم﴾ أي يهديهم إلى طريق الجنة بسبب إيمانهم ﴿تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم﴾ أي تجري من تحت قصورهم الأنهار أو من تحت أسرَّتهم وهم مقيمون في جنات النعيم ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم﴾ أي دعاؤهم في الجنة سبحانك اللهم وفي

(١) البيضاوي ٢٣٦ . (٢) الطبري ١١/ ٨٦ . (٣) أبو السعود ٢/ ٣١٠ .

فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ * وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ

الحديث(يُلهمون التسبيح والتحميد كما تُلهمون النَّفس) أي كلامهم في الجنة تسبيح الله ﴿وتحيَّتُهم فيها سلام﴾ أي وتحية بعضهم بعضاً سلامٌ عليكم كما تحيِّيهم بذلك الملائكة ﴿والملائكةُ يدخلون عليهم من كل باب سلامٌ عليكم﴾ ﴿وآخرُ دعواهم أَن الحمدُ للّهِ ربِّ العالمين﴾ أي وآخر دعائهم أن يقولوا : الحمد لله ربّ العالمين ﴿ولو يُعجِّل اللهُ للناس الشرَّ استعجالهم بالخير﴾ قال مجاهد : هو دعاء الرجل على نفسه أو ولده إذا غضب ، اللهم أهلكه ، اللهم لا تبارك فيه قال الطبري : المعنى لو يعجل الله إجابة دعاء الناس في الشر وفيما عليهم فيه مضرَّة ، كاستعجاله لهم في الخير بالإجابة إذا دعوه به ﴿لقُضي إليهم أجلهم﴾ أي لهلكوا وعُجِّل لهم الموت[1] ﴿فنذر الذين لا يرجون لقاءنا﴾ أي فنترك المكذبين بلقائنا الذين لا يؤمنون بالبعث ﴿في طغيانهم يعمهون﴾ أي في تمردهم وعتوهم يتردَّدون تحيراً والمعنى : نترك المجرمين ونمهلهم ونفيض عليهم النعم مع طغيانهم لتلزمهم الحجة ﴿وإذا مسَّ الإنسانَ الضرُّ﴾ أي وإذا أصاب الإنسان الضرُّ من مرض أو فقر أو نحو ذلك ﴿دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً﴾ أي دعانا في جميع الحالات : مضطجعاً أو قاعداً أو قائماً لكشف ذلك الضُر عنه ﴿فلمّا كشفنا عنه ضرَّه مرَّ كأنْ لم يدعنا إلى ضرٍّ مسَّه﴾ أي فلما أزلنا ما به من ضرّ استمرَّ على عصيانه ، ونسي ما كان فيه من الجهْد والبلاء أو تناساه ، وهو عتابٌ لمن يدعو الله عند الضر ، ويغفل عنه عند العافية ﴿كذلك زُيّن للمسرفين ما كانوا يعملون﴾ أي كما زُيّن لذلك الإنسان الدعاء عند الضرِّ والإعراضُ عند الرخاءِ ، كذلك زُيّن للمسرفين المتجاوزين الحد في الإجرام ، ما كانوا يعملون من الإعراض عن الذكر ، ومتابعة الشهوات ﴿ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لمّا ظلموا﴾ أي ولقد أهلكنا الأمم من قبلكم أيها المشركون لما كفروا وأشركوا وتمادَوا في الغيِّ والضلال ﴿وجاءتهم رسلهم بالبينات﴾ أي جاءوهم بالمعجزات الباهرة التي تدل على صدقهم ﴿وما كانوا ليؤمنوا﴾ أي وما آمنوا بما جاءتهم به الرسل ، أي أنهم ظلموا وما آمنوا فكان سبب إهلاكهم شيئان : ظلمهم ، وعدم إيمانهم ﴿كذلك نجزي القوم المجرمين﴾ أي مثل ذلك الجزاء ـ يعني الإهلاك ـ نجزي كل مجرم ، وهو وعيدٌ لأهل مكة على تكذيبهم

(١) الطبري ١١/ ٩١ وقال بعض المفسرين : نزلت في كفار مكة حيث قالوا ﴿اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطرْ علينا حجارة من السماء﴾ قال الزمخشري: يعني: لو عجلنا لهم الشر الذي دعوا به كما نعجل لهم الخير ونجيبهم إليه لأميتوا وأُهلكوا ا.هـ الكشاف ٢/ ٣٣٢ .

مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ

رسول الله ﷺ ﴿ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم﴾ أي ثم استخلفناكم في الأرض يا أهل مكة من بعد إهلاك أولئك القرون ، التي تسمعون أخبارها وتشاهدون آثارها ﴿لننظر كيف تعملون﴾ أي لننظر أتعملون خيراً أم شراً فنجازيكم على حسب عملكم قال القرطبي : والمعنى : يعاملكم معاملة المختبر إظهاراً للعدل[1] وقال في التسهيل : معناه ليظهر في الوجود عملكم فتقوم عليكم به الحجة[2] والغرض أن الله تعالى عالمٌ بأعمالهم من قبل ذلك ولكن يختبرهم ليتبيَّن في الوجود ما علمه تعالى أزلاً ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات﴾ أي وإذا قرئت على المشركين آيات القرآن المبين ، حال كونها واضحات لا لَبْس فيها ولا إشكال ﴿قال الذين لا يرجون لقاءنا﴾ أي قال الذين لا يؤمنون بالبعث والحساب ، ولا يرجون الأجر والثواب ﴿ائت بقرآنٍ غير هذا﴾ أي ائت يا محمد بكتابٍ آخر غير هذا القرآن ، ليس فيه ما نكرهه من عيب آلهتنا ، وتسفيه أحلامنا ، ﴿أو بدِّله﴾ بأن تجعل مكان آية عذاب آية رحمة ، ومكان سب آلهتنا مدحهم ، ومكان الحرام حلالا ، وإنما قالوه على سبيل الاستهزاء والسخرية قال ابن عباس : نزلت في المستهزئين بالقرآن من أهل مكة قالوا يا محمد : ائتنا بقرآن غير هذا فيه ما نسألك[3] ﴿قل ما يكون لي أن أبدِّله من تلقاء نفسي﴾ أي قل لهم يا محمد ما ينبغي ولا يصح لي أن أغيِّر أو أبدِّل شيئاً من قبلِ نفسي ﴿إن أتَّبع إلاَّ ما يُوحى إليَّ﴾ أي لا أتَّبع إلا ما يوحيه إليَّ ربي ، فأنا عبد مأمور ، ورسولٌ مبلِّغ ، أبلغكم رسالة الله ﴿ إني أخاف إن عصيتُ ربي عذاب يوم عظيم﴾ أي إني أخشى إن خالفت أمره ، وبدَّلتُ وحيه ، عذاب يومٍ شديد الهَوْل هو يوم القيامة ، وهذا كالتعليل لما سبق ﴿قل لو شاء الله ما تلوتُه عليكم﴾ أي قل لهم يا محمد لو شاء الله ما تلوتُ هذا القرآن عليكم ، وما تلوته إلا بمشيئته تعالى ، لأنه من عنده وما هو من عندي ﴿ولا أدْرَاكم به﴾ أي ولا أعلَمكم به على لساني ﴿فقد لبثتُ فيكم عُمُراً من قبله﴾ أي فقد مكثتُ بين أظهركم زمناً طويلاً ، مدة أربعين سنة من قبل القرآن لا أعلمه أنا ولا أتلوه عليكم ﴿أفلا تعقلون﴾ أي أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر لتعلموا أنَّ مثل هذا الكتاب المعجز ليس إلا من عند الله ؟ قال الإمام الفخر : إن الكفار شاهدوا رسول الله ﷺ من أول عمره إلى ذلك الوقت ، وكانوا عالمين بأحواله ، وأنه ما طالع كتاباً ، ولا تتلمذ لأستاذ ، ولا تعلَّم من أحد ، ثم بعد انقراض أربعين سنة جاءهم بهذا الكتاب العظيم ، المشتمل على نفائس علم الأصول ، ودقائق علم الأحكام ، ولطائف علم الاخلاق ، وأسرار قصص الأولين ، وعجز عن معارضته العلماء ،

(١) القرطبي ٨/ ٣١٨ . (٢) التسهيل ٢/ ٩٠ . (٣) البحر ٥/ ١٣١ .

﴿ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾

والفصحاء ، والبلغاء ، وكلٌّ من له عقل سليم يعلم أن مثل هذا لا يكون إلا على سبيل الوحي والتنزيل[١] ﴿**فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً**﴾ استفهام انكاري بمعنى النفي أي لا أحد أظلم ممن اختلق على الله الكذب والمقصود منه نفي الكذب عن مقامه الشريفﷺ حيث زعم المشركون أن هذا القرآن من صنع محمد ﴿**أو كذّب بآياته**﴾ أي كذّب بالحق الذي جاءت به الرسل ﴿**إنه لا يفلح المجرمون**﴾ أي لا يفوز بالسعادة من ارتكب الإجرام وكذّب الرسل الكرام ﴿**ويعبدون من دونِ اللّهِ ما لا يضُرُّهُمْ ولا ينْفَعُهم**﴾ بيانٌ لقبائح المشركين أي ويعبدون الأوثان التي هي جمادات لا تقدر على جلب نفعٍ أو دفع ضر ﴿**ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله**﴾ أي يزعمون أن الأصنام تشفع لهم مع أنها حجارة لا تبصر ولا تسمع ﴿**قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض**﴾ ؟ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين أتخبرون الله تعالى بشريكٍ أو شفيعٍ كائنٍ في السموات أو الأرض لا يعلمه جلَّ وعلا ، وهو علاّم الغيوب الذي أحاط علمه بجميع الكائنات ؟ والاستفهام للتهكم والهزء بهم ﴿**سبحانه وتعالى عما يشركون**﴾ أي تنزّه الله وتقدّس عما يقول الظالمون ، وينسبه إليه المشركون ﴿**وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا**﴾ أي وما كان الناس إلا على دين واحد هو الإسلام من لدن آدم إلى نوح فاختلفوا في دينهم وتفرقوا شيعاً وأحزاباً قال ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلُّهم على الإسلام ، ثم وقع الاختلاف بين الناس وعُبدت الأوثان والأصنام فبعث الله الرسل مبشرين ومنذرين[٢] ﴿**ولولا كلمةٌ سبقت من ربك**﴾ أي ولولا قضاء الله بتأخير الجزاء إلى يوم القيامة ﴿**لقُضي بينهم فيما كانوا فيه يختلفون**﴾ أي لعُجِّل عقابهم في الدنيا باختلافهم في الدين ﴿**ويقولون لولا أُنزل عليه آية من ربه**﴾ أي ويقول هؤلاء الكفرة المعاندون هلاّ أنزل على محمد معجزة من ربه كما كان للأنبياء من الناقة والعصا واليد ﴿**فقل إنما الغيب لله**﴾ أي قل لهم أمر الغيب للّه وحده ولا يأتي بالآيات إلا هو وإنما أنا مبلّغ ﴿**فانتظروا إني معكم من المنتظرين**﴾ أي فانتظروا قضاء الله بيننا فأنا ممن ينتظر ذلك .

البَـلاغَـة : ١ - ﴿الكتاب الحكيم﴾ فعيل بمعنى مفعول أي المُحكم الذي لا يتطرق إليه الفساد ولا يعتريه الكذب والتناقض .

---

(١) الرازي ١٧/ ٥٧ . (٢) المختصر ٢/ ١٨٨ .

٢ ـ ﴿أنذر . . وبشر﴾ بينهما طباقٌ .

٣ ـ ﴿قدم صدق﴾ كناية عن المنزلة الرفيعة ، والعبارةُ غايةٌ في البلاغة لأن بالقدم يكون السبق والتقدم ، كما سميت النعمة يداً لأنها تُعطى بها .

٤ ـ ﴿يبْدؤُاْ الخلق ثم يعيده﴾ بين كلمتي البدء والإعادة طباقٌ .

٥ ـ ﴿لا يرجون لقاءنا﴾ فيه التفاتٌ مع الإضافة إلى ضمير الجلالة لتعظيم الأمر وتهويله .

٦ ـ ﴿الشرَّ استعجالهم بالخير﴾ أي كاستعجالهم أو مثل استعجالهم بالخير ففيه تشبيه مؤكد مجمل ، وبين الشر والخير طباقٌ .

٧ ـ ﴿لننظر كيف تعملون﴾ في الكلام استعارة تمثيلية حيث شبّه حال العباد مع ربهم بحال رعية مع سلطانها في إمهالهم للنظر في أعمالهم ،واستعير الاسم الدال على المشبَّه به للمشبَّه على سبيل التمثيل والتقريب ، ولله المثل الأعلى .

٨ ـ ﴿أفلا تعقلون﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ .

فَائِدَة : قال السيوطي في قوله تعالى ﴿جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً﴾ إن هذه الآية أصلٌ في علم المواقيت ، والحساب ، والتاريخ ، ومنازل القمر .

لطيفَة : قال الحافظ ابن كثير : من قال مقالة صادقاً أو كاذباً فلا بدَّ أن يُنْصَب عليه من الأدلة على برِّه أو فجوره ما هو أظهر من الشمس ، فإن الفرق بين محمدﷺ وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين الضحى وحنْدس الظلماء ، قال عبد الله بن سلام : لما قدم رسول اللهﷺ المدينة انجفل الناس (أي تفرق اليهود عنه) فكنت فيمن انجفل ، فلما رأيتُه عرفتُ أن وجهه ليس بوجه كذاب ، فكان أول ما سمعته يقول (يا أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصِلُوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام) فقد أيقن بصدقه صلوات الله وسلامه عليه بما رأى من الدلائل قال حسان :

لو لم تكن فيه آياتٌ مبيِّنةٌ — لكان منظرهُ يُنْبيك بالخبر

* * *

قال الله تعالى : ﴿وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء . . إلى . . فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾ من آية (٢١) إلى نهاية آية (٣٩)

المنَاسَبَة : لما ذكر تعالى الأدلة على فساد عبادة الأوثان ، وشبهات المشركين حول الرسالة والقرآن ، ذكر هنا أن عادة هؤلاء الأشقياء المكرُ ، والجحودُ ، والعِنَاد ، فإن أصابتهم الشدة تضرَّعوا ،

وإن جاءتهم الرحمة بطروا وكفروا ، ثم ضرب تعالى المثل بالحياة الدنيا في الزوال والفناء ، ثم عاد إلى ذكر الأدلة والبراهين ، على وحدانية الله ربّ العالمين .

اللغــة : ﴿عاصف﴾ العاصف : الريح الشديدة التي تعصف بالأوراق والأشجار ، قال الفراء : يقال عصفت الريح وأعصفت أي اشتدت قال الشاعر :

إن الرياح إذا ما أعصفَتْ قَصَفَتْ   عيدانَ نجدٍ ولا يَعْبأنَ بالرّتم[1]

﴿الموج﴾ ما ارتفع من الماء فوق البحر ، سُمّي موجاً لاضطرابه ﴿زخرفها﴾ الزخرف : كمالُ حسنِ الشيء ونضارتُه ، سُمّي زخرفاً لبهجته ونضارته ﴿تغن﴾ غني بالمكان إذا أقام به وعَمره ﴿يرْهق﴾ يغشى ويعلو يقال : رهقه الذل أي غشيه ﴿قتر﴾ القَتَر والقترة : الغبار الذي معه سواد قال تعالى ﴿تَرْهَقُها قَترَة﴾ أي تعلوها غَبَرة جهنم ، وقيل : القَتَر الغبارُ وإن لم يكن معه سواد قال الفرزدق :

متــوّجٌ برداء الملك يتبعه   مـوجٌ ترى فوقه الراياتِ والقَتَرا[2]

﴿زيّلنا﴾ فرّقنا وميّزنا ﴿تؤ فكون﴾ تصرفون عن الحق إلى الباطل .

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ

التفسيــر : ﴿وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضرّاء مستهم﴾ المراد بالناس كفار مكة رُوي أن الله سلّط عليهم القحط سبع سنين حتى كادوا يهلكون فطلبوا منه ﷺ أن يدعو لهم بالخصب ووعدوه بالإيمان فلما رحمهم الله بإنزال المطر رجعوا إلى الكفر والعناد والمعنى : وإذا أذقنا هؤلاء المشركين رخاءً بعد شدة ، وخصباً بعد جدبٍ أصابهم ﴿إذا لهم مكرٌ في آياتنا﴾ قال مجاهد : استهزاءٌ وتكذيب ﴿قل الله أسرع مكراً﴾ أي أعجل عقوبة على جزاء مكرهم[3] ﴿إنَّ رسلنا يكتبون ما تمكرون﴾ أي إنَّ الملائكة الحفظة يكتبون مكركم ويسجّلون إجرامكم ، وفيه تنبيهٌ على أن ما دبَّروه غير خاف على الحفظة فضلاً عن العليم الخبير ﴿هو الذي يسيّركم في البرِّ والبحر﴾ أي هو تعالى بقدرته الذي يحملكم في البر على الدواب ، وفي البحر على السفن التي تسير على وجه الماء ﴿حتى إذا كنتم في الفُلْك﴾ أي حتى إذا كنتم في البحر على ظهور هذه السفن ﴿وجريْنَ بهم بريحٍ طيبة﴾ فيه التفاتٌ أي وجرين بهم بالريح اللّيِّنة الطرية التي تسيِّر السفن ﴿وفرحوا بها﴾ أي فرح الركاب بتلك الريح الطيبة ﴿جاءتها ريح عاصفٌ﴾ أي وفجأةً جاءتها الريح الشديدة العاصفة

---

(١) البحر ٥/ ١٢٠.(٢) القرطبي ٨/ ٣٣١.

(٣) مكر الله الموصوف بالسرعة هو عقابه لهم سمّاه مكراً مشاكلة لفعلهم وتسمية للعقوبة باسم الذنب .

ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا

المدمّرة ﴿**وجاءهم الموج من كل مكان**﴾ أي وأحاطت بهم أمواج البحار من كل جهة ﴿**وظنوا أنهم أحيط بهم**﴾ أي أيقنوا بالهلاك ﴿**دعوا الله مخلصين له الدين**﴾ أي أخلصوا الدعاء لله وتركوا ما كانوا يعبدون ، قال **القرطبي** : وفي هذا دليل على أن الخلق جبلوا على الرجوع إلى الله في الشدائد ، وأن المضطر يجاب دعاؤه وإن كان كافراً ، لانقطاع الأسباب ، ورجوعه إلى ربّ الأرباب[١] ﴿**لئن أنجيتنا من هذه لنكوننَّ من الشاكرين**﴾ أي لئن أنقذتنا من هذه الشدائد والأهوال لنكونن من الشاكرين لك على نعمائك ، والعاملين بطاعتك ومرضاتك قال في **البحر** : ومعنى الإخلاص إفراده بالدعاء من غير إشراك أصنام وغيرها وقال الحسن : مخلصين لا إخلاص إيمان ولكن لأجل العلم بأنهم لا ينجيهم من ذلك إلا الله فيكون ذلك جارياً مجرى الإيمان الاضطراري[٢] ﴿**فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق**﴾ أي فلما خلّصهم وأنقذهم إذا هم يعملون في الأرض بالفساد والمعاصي قال ابن عباس : يبغون بالدعاء فيدعون غير الله ويعملون بالمعاصي[٣] قال تعالى رداً عليهم ﴿**يأيها الناسُ إنما بغيُكم على أنفسكم**﴾ أي وبالُ البغي عليكم ، ولا يجني ثمرته إلا أنتم ﴿**متاعَ الحياة الدنيا**﴾ أي تتمتعون في هذه الحياة بالشهوات الفانية ، التي تعقبها الحسرات الباقية ﴿**ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون**﴾ أي مرجعكم بعد الموت إلينا فنجازيكم عليها ، وفي هذا وعيدٌ وتهديد . والآية الكريمة تمثيلٌ لطبيعة الإنسان الجحود ، لا يذكر الله إلا في ساعة العسرة ، ولا يرجع إليه إلا وقت الكرب والشدة ، فإذا نجّاه الله من الضيق ، وكشف عنه الكرب ، رجع إلى الكفر والعصيان ، وتمادى في الشرِّ والطغيان . ثم ضرب تعالى مثلاً للحياة الدنيا الزائلة الفانية وقصِّر مدة التمتع بها فقال ﴿**إنما مثل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض**﴾ أي صفة الحياة الدنيا وحالها العجيبة في فنائها وزوالها ، وذهاب نعيمها واغترار الناس بها كمثل مطر نزل من السماء فنبت به أنواع من النبات مختلط بعضها ببعض قال ابن عباس : اختلط فنبت بالماء كلُّ لون[٤] ﴿**مما يأكلُ الناسُ والأنْعامُ**﴾ أي مما يأكله الناس من الحبوب والثمار والبقول ، والأنعامُ من الكلأ والتبن والشعير ﴿**حتى إذا أخذت الأرض زُخْرُفها**﴾ أي أخذت حسنها وبهجتها ﴿**وازّينت**﴾ أي تزينت بالحبوب والثمار والأزهار ، وهو تمثيلٌ بالعروس إذا تزينت بالحلي والثياب ﴿**وظنَّ أهلها أنهم قادرون عليها**﴾ أي وظنَّ أصحابها أنهم متمكنون من الانتفاع بها ، محصّلون لثمرتها وغلّتها ﴿**أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً**﴾ أي جاءها

---

(١) القرطبي ٨/ ٣٢٥ .(٢) البحر ٥/ ١٣٩.(٣) نفس المرجع السابق ٥/ ١٤٠. (٤) الطبري ١١/ ١٠٢.

فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ * لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا

قضاؤ نا بهلاك ما عليها من النبات إمّا ليلاً وإمّا نهاراً ﴿فجعلناها حصيداً﴾ أي محصودة مقطوعة لا شيء فيها كالذي حصد بالمناجل ﴿كأن لمْ تغن بالأمس﴾ أي كأنها لم تكن عامرة قائمةعلى ظهر الأرض قبل ذلك ﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾ أي مثل ما بينا هذا المثل الرائع للحياة الدنيا نبيّن الآيات ونضرب الأمثال لقوم يتفكرون فيعتبرون بهذه الأمثال قال الألوسي : وتخصيصُهم بالذكر لأنهم المنتفعون[١] ﴿والله يدعو إلى دار السلام﴾ أي يدعو إلى الجنة دار السرور والإقامة ﴿ويهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم﴾ أي يوصل من شاء هدايته إلى الطريق المستقيم وهو دين الإسلام ﴿للذين أحسنوا الحُسْنى﴾ أي للذين أحسنوا بالإيمان والعمل الصالح لهم الحسنى أي الجنة ﴿وزيادة﴾ وهي النظر إلى وجه الله الكريم[٢] ﴿ولا يَرْهَقُ وجوههم قَتَرٌ﴾ أي ولا يغشى وجوههم غبار ولا سواد كما يعتري وجوه أهل النار ﴿ولا ذلـة﴾ أي هوانٌ وصغار ﴿أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ أي دائمون لا زوال فيها ولا انقراض لنعيمها بخلاف الدنيا وزخارفها ﴿والذين كسبوا السيئاتِ جزاءسيئةٍ بمثلها﴾ أي والذين عملوا السيئات في الدنيا فعصوا الله وكفروا فسيجزون على السيئةِ بمثلها لا يزادون على ذلك ، فالحسناتُ مضاعفة بفضل الله ، والسيئات جزاؤ ها بالمثل عدلاً منه تعالى[٣] ﴿وترهقهم ذلة﴾ أي تغشاهم ذلة وهوان ﴿ما لهم من الله من عاصم﴾ أي ليس لهم أحد يعصمهم أو يمنعهم من سخط الله تعالى وعقابه ﴿كأنما أُغشيت وجوههـم قطعـاً من الليل مظلماً﴾ أي كأنما أُلبست وجوههم من فرط السواد والظلمة قطعاً من ظلام الليل ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي لا يخرجون منها أبداً ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا﴾ أي نجمع الفريقين للحساب : المؤ منين والكافرين ثم نقول للذين أشركوا بالله ﴿مكانكم أنتم وشركاؤكم﴾ أي الزموا مكانكم أنتم والذين عبدتموهم لا تبرحوا حتى تنظروا ما يفعل الله بكم ﴿فزيلنا بينهم﴾ أي ففرقنا وميزنا بينهم وبين المؤ منين كقوله﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾﴿وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون﴾ أي تبرأ منهم الشركاء وهم الأصنام الذين عبدوهم من دون الله قال مجاهد : يُنطق الله الأوثان فتقول : ما كنا نشعر بأنكم إيانا تعبدو ن وما أمرناكم بعبادتنا[٤] كقوله ﴿إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم

(١) روح المعاني ١١/١٠٢ . (٢) ورد هذا في حديث صحيح اخرجه مسلم. (٣) قال في الجوهرة : فالسيئات عنده بالمثل : والحسنات ضوعفت بالفضل . (٤) القرطبي ٨/ ٣٣٣ .

بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

الأسباب﴾ ﴿فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم﴾ أي تقول الشركاء للمشركين يوم القيامة : حسبنا الله شاهداً بيننا وبينكم ﴿إنْ كنا عن عبادتكم لغافلين﴾ أي ما كنا عن عبادتكم لنا إلا غافلين ، لا نسمع ولا نبصر ولا نعقل ، لأنا كنا جماداً لا روح فينا﴿هنالك تبلواْ كل نفسٍ ما أسلفت﴾أي في ذلك الوقت تُختبر كلُّ نفسٍ بما قدمت من خير أو شر ، وتنال جزاء ما عملت ﴿وردّوا إلى الله مولاهم الحق﴾ أي ردّوا إلى الله تعالى المتولي جزاءهم بالعدل والقسط ﴿وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي ضاع وذهب عنهم ما كانوا يزعمونه من أن الأوثان تشفع لهم ، وفي الآية تبكيتٌ شديدٌ للمشركين الذين عبدوا ما لا يسمع ولا يُبصر ولا يُغني عنهم شيئاً ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض﴾ في هذه الآيات الأدلةُ على وحدانية الله وربوبيته أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من ينزل لكم الغيث والقطر ، ويخرج لكم الزروع والثمار ؟ ﴿أمَّنْ يملك السمع والأبصار﴾ أي من ذا الذي يملك أسماعكم وأبصاركم ، التي تسمعون وتبصرون بها ؟ ومن يستطيع أن يردها لكم إذا أرادالله أن يسلبكموها؟كقوله ﴿قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم﴾ الآية ﴿ومن يخرج الحيَّ من الميت ، ويخرج الميّت من الحيّ﴾؟ أي من يخرج الإنسان من النطفة، والطير من البيضة، والسنبلة من الحبة ، والنبات من الأرض ، والمؤمن من الكافر ؟ ﴿ومن يدبّر الأمر﴾ أي ومن يدبّر أمر الخلائق ، ويصرِّف شئون الكائنات ؟ ﴿فسيقولون الله﴾ أي فسيقرون بأن فاعل ذلك كلّه هو الله ربُّ العالمين ، إذ لا مجال للمكابرة والعناد لغاية وضوحه ﴿فقل أفلا تتقون﴾ أي قل لهم يا محمد أفلا تخافون عقابه ونقمته بإشراككم وعبادتكم غير الله ؟ ﴿فذلكم الله ربكم الحقُّ﴾ أي هذا الذي يفعل هذه الأشياء الجليلة هو ربكم الحق ، الثابت ربوبيتُه ووحدانيتُه بالبراهين القاطعة ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾ استفهام انكاري أي ليس بعد الحق إلا الضلال ، فمن تخطى الحق الذي هو عبادة الله تعالى وقع في الضلال ﴿فأنى تُصرفون﴾ أي فكيف تُصرفون عن عبادة الله ، إلى عبادة ما لا يخلق ولا يرزق ، ولا يحيي ولا يميت ؟ ﴿كذلك حقت كلمة ربك﴾ أي كذلك وجب قضاء الله وحكمه السابق ﴿على الذين فسقوا﴾ أي على الذين خرجوا عن الطاعة وكفروا وكذبوا ﴿أنهم لا يؤمنون﴾ أي لأنهم لا يصدّقون بوحدانية الله ورسالة نبيّه، فلذلك حقت عليهم كلمة العذاب لشقاوتهم وضلالتهم ﴿قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ أي قل لهم يا محمد على جهة التوبيخ والتقريع : هل من الأوثان والأصنام من ينشيء الخلق من العدم ثم

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ الْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ﴾

يفنيه ، ثم يعيده ويحييه ؟ قال الطبري : ولما كانوا لا يقدرون على دعوى ذلك ، وفيه الحجة القاطعة ، والدلالة الواضحة على أنهم في دعوى الأرباب كاذبون مفترون ، أمره ﷺ بالجواب[1] ﴿قل اللهُ يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ أي قل لهم يا محمد : الله وحده هو الذي يحيي ويميت ، ويبدأ ويُعيد ، وليس أحدٌ من هؤلاء الآلهة المزعومة يفعل ذلك ﴿فأنّى تؤفكون﴾ أي فكيف تنقلبون وتنصرفون عن الحق إلى الباطل ؟ ﴿قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق﴾ توبيخٌ آخر في صورة استفهام أي قل لهؤلاء المشركين هل من هذه الآلهة التي تعبدونها من يرشد ضالاً ؟ أو يهدي حائراً ؟ أو يدل على طريق الحق وسبيل الاستقامة ؟ ﴿قل الله يهدي للحق﴾ أي فقل لهم : إن عجزتْ آلهتكم عن ذلك فالله هو القادر على هداية الضالّ ، وإنارة السبيل ، وبيان الحق ﴿أفمن يهدي إلى الحقّ أحقُّ أن يُتَّبع أمَّنْ لا يهدي إلاَّ أن يُهدى﴾ أي أفمن يرشد إلى الحق وهو الله سبحانه وتعالى أحقٌّ بالاتباع أم هذه الأصنام التي لا تهدي أحداً ؟ ولا تستطيع هداية نفسها فضلاً عن هداية غيرها[2] ؟ ﴿فما لكم كيف تحكمون﴾ أي ما لكم أيها المشركون تسوّون بين الأصنام وبين ربّ الأرباب ، وتحكمون بهذا الباطل الصُراح ؟ وهو استفهام معناه التعجب والإنكار ، ثم بيّن تعالى فساد نحلتهم بعد أن أفحمهم بالبراهين النيرة التي توجب التوحيد وتبطل التقليد فقال ﴿وما يتّبع أكثرهم إلا ظناً﴾ أي وما يتبعون في اعتقادهم ألوهية الأصنام ، إلا اعتقاداً غير مستند لدليل أو برهان ، بل مجرد أوهام باطلة ، وخرافات فاسدة ﴿إن الظنَّ لا يغني من الحق شيئاً﴾ أي ومثل هذا الاعتقاد المبني على الأوهام والخيالات ، ظنٌ كاذب لا يغني من اليقين شيئاً ، فليس الظنُّ كاليقين ﴿إن الله عليمٌ بما يفعلون﴾ أي عالمٌ بما هم عليه من الكفر والتكذيب ، وهو وعيدٌ على اتباعهم للظنّ ، وإعراضهم عن البرهان ، ثم بيَّن تعالى صدق النبوة والوحي فقال ﴿وما كان هذا القرآن أن يُفْترى من دون الله﴾ أي لا يصح ولا يعقل ، ولا يستقيم لذي عقل سليم ، أن يزعم أن هذا القرآن مفترى مكذوب على الله ، لأنه فوق طاقة البشر ﴿ولكنْ تَصْديقَ الذي بينَ يديهِ﴾ أي ولكنّه جاء مصدقاً لما قبله من الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل ﴿وتفصيلَ الكتاب﴾ أي وفيه تفصيلُ وتبيينُ الشرائع والعقائد والأحكام ﴿لا ريب فيه من ربّ العالمين﴾ أي لا شك في

(١) هذا ما ذهب إليه الطبري وقال بعض المفسرين : المراد الرؤساء والمضلّون الذين لا يرشدون أنفسهم إلى هدى إلا أن يُرشدوا .
(٢) الطبري ١١/ ١١٥

﴿مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣٨ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣٩﴾

أنه تنزيل ربّ العالمين ﴿أم يقولون افتراه﴾ أي بل أيقولون اختلق محمد هذا القرآن من قبل نفسه ؟ وهو استفهام معناه التقريع ﴿قل فأتوا بسورة مثله﴾ أي إن كان كما زعمتم فجيئوا بسورةٍ مثل هذا القرآن ، وهو تعجيزٌ لهم وإقامة حجة عليهم ﴿وادعوا من استطعتم من دون الله﴾ أي ادعوا من دونه تعالى من استطعتم من خلقه ، من الإنس والجن للاستعانة بهم ﴿إن كنتم صادقين﴾ أي إن كنتم صادقين في أن محمداً افتراه قال الطبري : والمراد أنكم إن لم تفعلوا فلا شك أنكم كذبة ، لأن محمداً لن يَعْدوَ أن يكون بشراً مثلكم ، فإذا عجز الجميعُ من الخلق أن يأتوا بسورةٍ مثلِه ، فالواحد منهم أن يأتي بجميعه أعجز[1] ، قال تعالى ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه﴾ أي بل كذب هؤلاء المشركون بالقرآن العظيم ، وسارعوا إلى الطعن به قبل أن يفقهوه ويتدبروا ما فيه ، والناس دائماً أعداء لما جهلوا ﴿ولمّا يأتهم تأويله﴾ أي والحال لم يأتهم بعد عاقبة ما فيه من الوعيد ﴿كذلك كذّب الذين من قبلهم﴾ أي مثل تكذيب هؤلاء كذبت الأمم الخالية قبلهم ﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾ أي فانظر يا محمد كيف أخذهم الله بالعذاب والهلاك بسبب ظلمهم وبغيهم ، فكما فعل بأولئك يفعل بهؤلاء الظالمين الطاغين .

البـــلاغـــة : ١ ـ ﴿أسرع مكراً﴾ تسمية عقوبة الله مكراً من باب « المشاكلة » .

٢ ـ ﴿وجرين بهم﴾ فيه التفاتٌ من الخطاب إلى الغيبة وحكمته زيادة التقبيح والتشنيع على الكفار لعدم شكرهم النعمة .

٣ ـ ﴿أخذت الأرض زخرفها﴾ هذا من بديع الاستعارة شبّه الأرض حينما تتزين بالنبات والأزهار بالعروس التي تتزين بالحليّ والثياب واستعير لتلك البهجة والنضارة لفظ الزخرف .

٤ ـ ﴿أتاها أمرنا﴾ الأمر ههنا كناية عن العذاب والدمار .

٥ ـ ﴿أحسنوا الحسنى﴾ بينهما جناس الإشتقاق .

٦ ـ ﴿كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل﴾ فيه تشبيه مرسلٌ مجمل .

٧ ـ ﴿يبدأ . . ثم يعيده﴾ بينهما طباقٌ .

٨ ـ ﴿فأنّى تؤفكون﴾ الاستفهام للتوبيخ ، ومثله ﴿فما لكم كيف تحكمون﴾؟

٩ ـ ﴿بين يديه﴾ استعارة لطيفة والمراد لما سبقه من التوراة والإنجيل فإنها قد بشرت به .

---

(١) الطبري ١١/١١٨ .

لطيفة : يقول شهيد الإسلام « سيد قطب » في تفسيره الظلال : « ما يزال البشر يكشفون كلما اهتدوا إلى نواميس الكون عن رزق بعد رزق في السماء والأرض ، يستخدمونه أحياناً في الخير ، ويستخدمونه أحياناً في الشر ، حسبما تَسْلَم عقائدهم أو تعتل ، وكلُّه من رزق الله المسخّر للإنسان ، فمن سطح الأرض أرزاق ، ومن جوفها أرزاق ، ومن سطح الماء أرزاق ، ومن أعماقه أرزاق ، ومن أشعة الشمس أرزاق ، ومن ضوء القمر أرزاق ، حتى عفن الأرض كشف فيه العلم عن دواء وترياق[1] » وصدق الله ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض﴾ ؟

* * *

قال الله تعالى : ﴿ومنهم من يؤمن ومنهم من لا يؤمن به . . إلى . . العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾ من آية (٤٠) إلى نهاية آية (٧٠)

المناسبة : لما حكى تعالى عن الكافرين طعنهم في أمر النبوة والوحي ، ذكر هنا أنَّ منهم من يصدِّق بأن القرآن كلام الرحمن ، ولكنه يكابر ويعاند ، ومنهم من لا يصدّق به أصلاً لفرط غباوته ، وسخافة عقله ، واختلال تمييزه . . ثم ذكر تعالى أن القرآن شفاء لما في الصدور ، وأعقبه بذكر مآل المشركين في الآخرة .

اللغة : ﴿الصمّ﴾ جمع أصمّ وهو الذي لا يسمع ﴿بياتاً﴾ ليلاً ﴿تفيضون﴾ يقال أفاض فلانٌ في الحديث إذا اندفع فيه ﴿يعزب﴾ يخفى ويغيب ﴿مثقال﴾ وزن ﴿سلطان﴾ حجة وبرهان ﴿سبحانه﴾ تنزيهٌ لله جل وعلا عن النقائص .

وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ

التفسير : ﴿ومنهم من يؤمن به﴾ أي ومن هؤلاء الذين بعثتَ إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ويتبعك وينتفع بما أُرسلتَ به ﴿ومنهم من لا يؤمن به﴾ بل يموت على ذلك ويُبعث عليه ﴿وربك أعلم بالمفسدين﴾ أي وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه ، ومن يستحق الضلالة فيضله ﴿فإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم﴾ أي وإن كذّبك هؤلاء المشركون فقل لي جزاء عملي ولكم جزاء عملكم حقاً كان أو باطلاً ﴿أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾ أي لا يؤاخذ أحد بذنب الآخر ﴿ومنهم من يستمعون إليك﴾ أي يستمعون إليك إذا قرأت القرآن وقلوبهم لا تعي شيئاً مما تقرؤه وتتلوه ﴿أفأنت تُسمع الصم﴾ ؟ أي أنت يا محمد لا تقدر أن تسمع من سلبه الله السمع ﴿ولو كانوا لا يعقلون﴾ أي ولو كانوا من الصمم لا يعقلون ولا يتدبرون ؟ قال ابن كثير : المعنى ومن هؤلاء من

(١) ظلال القرآن ١١/ ١٤٥ .

تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن

يسمعون كلامك الحسن ، والقرآن النافع ، ولكنْ ليس أمر هدايتهم إليك ، فكما لا تقدر على إسماع الأصم فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء إلا أن يشاء الله[1] ﴿**ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العُمْي ولو كانوا لا يُبصرون**﴾ أي ومن هؤلاء من ينظر إليك ويعاين دلائل نبوتك الواضحة ، ولكنّهم عميٌ لا ينتفعون بما رأوا ، أفأنت يا محمد تقدر على هدايتهم ولو كانوا عُمي القلوب ؟ شبّههم بالعُمْي لتعاميهم عن الحق ، قال **القرطبي** : والمراد تسلية النبيﷺ أي كما لا تقدر أن تخلق للأعمى بصراً يهتدي به ، فكذلك لا تقدر أن توفّق هؤلاء للإيمان[2] ﴿**إنَّ اللهَ لا يظلم الناسَ شيئاً**﴾ أي لا يعاقب أحداً بدون ذنب ، ولا يفعل بخلقه ما لا يستحقون ﴿ **ولكنَّ الناس أنفسَهم يظلمون**﴾ أي ولكنَّهم يظلمون أنفسهم بالكفر والمعاصي ومخالفة أمر الله قال **الطبري** : وهذا إعلامٌ من الله تعالى بأنه لم يسلب هؤلاء الإيمان ابتداءً منه بغير جرم سلف منهم ، وإنما سلبهم ذلك لذنوب اكتسبوها ، فحقٌّ عليهم أن يطبع الله على قلوبهم[3] ﴿**ويوم يحشرهم كأنْ لم يلبثوا إلا ساعةً من النّهار**﴾ أي اذكر يوم نجمع هؤلاء المشركين للحساب كأنهم ما أقاموا في الدنيا إلاّ ساعة من النهار ، لهول ما يرون من الأهوال ﴿**يتعارفون بينهم**﴾ أي يعرف بعضهم بعضاً كما كانوا في الدنيا ، وهو تعارف توبيخ وافتضاح ، يقول الواحد للآخر : أنتَ أغويتني وأضللتني ، وليس تعارف محبة ومودّة ﴿**قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين**﴾ أي لقد خسر حقاً هؤلاء الظالمون الذين كذبوا بالبعث والنشور ، وما كانوا موفَّقين للخير في هذه الحياة ﴿**وإمّا نُرينَّك بعض الذي نعدهم أو نتوفينَّكَ فإلينا مرجعهم**﴾ أي إن أريناك يا محمد بعض عذابهم في الدنيا لتقرَّ عينك منهم فذاك ، وإن توفيناك قبل ذلك فمرجعهم إلينا في الآخرة ، ولا بدَّ من الجزاء إن عاجلاً أو آجلاً ﴿**ثم اللهُ شهيدٌ على ما يفعلون**﴾ أي هو سبحانه شاهدٌ على أفعالهم وإجرامهم ومعاقبهم على ما اقترفوا ﴿**ولكل أمةٍ رسولٌ**﴾ أي ولكل أمة من الأمم رسولٌ أُرسل لهدايتهم ﴿**فإذا جاء رسولهم قُضي بينهم بالقسط**﴾ قال **مجاهد** : يعني يوم القيامة قُضِي بينهم بالعدل قال **ابن كثير** : فكلٌّ أمة تُعرض على الله بحضرة رسولها ، وكتابُ أعمالها من خير وشر شاهدٌ عليها ، وحفظتُهم من الملائكة شهود أيضاً[4] ﴿**وهم لا يُظْلمون**﴾ أي لا يُعذبون بغير ذنب ﴿**ويقولون متى**

(١) المختصر ١٩٥/٢ .(٢) القرطبي ٣٤٦/٨ .(٣) الطبري ١١/ ١٢٠ . (٤) المختصر ١٩٦/٢ .

كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ * وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟

هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ أي ويقول كفار مكة متى هذا العذاب الذي تعدنا به إن كنت صادقاً ؟ وهذا القول منهم على سبيل السخرية والاستهزاء **﴿قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً﴾** أي لا استطيع أن أدفع عن نفسي ضراً ، ولا أجلب إليها نفعاً ، وليس ذلك لي ولا لغيري **﴿إلا ما شاء الله﴾** أي إلا ما شاء الله أن أملكه وأقدر عليه ، فكيف أقدر أن أملك مااستعجلتم به من العذاب ! **﴿لكل أمةٍ أجلٌ﴾** أي لكل أمة وقتٌ معلوم لهلاكهم وعذابهم **﴿إذا جاءأجلهم فلا يستأخرون ساعةً ولا يستقدمون﴾** أي فإذا جاء أجل هلاكهم فلا يمكنهم أن يستأخروا عنه ساعة فيمهلون ويؤخرون ، ولا يستقدمون قبل ذلك لأن قضاء الله واقع في حينه **﴿قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً﴾** أي قل لأولئك المكذبين أخبروني إن جاءكم عذاب الله ليلاً أو نهاراً فما نفعكم فيه ؟ **﴿ماذا يستعجل منه المجرمون﴾** استفهام معناه التهويل والتعظيم أي ما أعظم ما يستعجلون به ؟ كما يقال لمن يطلب أمراً وخيماً : ماذا تجني على نفسك **﴿أثُمَّ إذا ما وقع آمنتم به﴾** في الكلام حذفٌ تقديره : أتؤخرون إلى أن تؤمنوا بها وإذا وقع العذاب وعاينتموه فما فائدة الإيمان وما نفعكم فيه ، إذا كان الإيمان لا ينفع حينذاك ؟ قال الطبري : المعنى أهنالك إذا وقع عذاب الله بكم أيها المشركون صدّقتم به في حالٍ لا ينفعكم فيه التصديق[1] **﴿الآن وقد كنتم به تستعجلون﴾** أي يقال لكم أيها المجرمون : الآن تؤمنون وقد كنتم قبله تهزءون وتسخرون وتستعجلون نزول العذاب ؟ **﴿ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد﴾** أي ذوقوا العذاب الدائم الذي لا زوال له ولا فناء **﴿هل تُجزون إلا بما كنتم تكسبون﴾** أي هل تُجزون إلا جزاء كفركم وتكذيبكم ؟ **﴿ويستنبئونك أحقٌ هو﴾** أي ويستخبرونك يا محمد فيقولون : أحقٌ ما وعدتنا به من العذاب والبعث ؟ **﴿قل إي وربي إنه لحقٌ﴾** أي قل نعم والله إنه كائن لا شك فيه **﴿وما أنتم بمعجزين﴾** أي لستم بمعجزين الله بهربٍ او امتناع من العذاب بل أنتم في قبضته وسلطانه[2] **﴿ولو أنَّ لكل نفسٍ ظلمت ما في الأرض﴾** أي لو أن لكل نفسٍ كافرةٍ ما في الدنيا جميعاً من خزائنها وأموالها ، ومنافعها قاطبة **﴿لافتدت به﴾** أي لدفعته فدية لها من عذاب الله ولكنْ هيهات أن يُقبل كما قال تعالى **﴿فلن يُقبل من أحدهم ملءُ الأرض ذهباً ولو افتدى به﴾** ثم قال تعالى مخبراً عن أسفهم وندمهم **﴿وأسرُّوا الندامة لمّا رأوا العذاب﴾** أي أخفى هؤلاء الظلمة الندم لما عاينوا العذاب قال **الإمام الجلال** : أي أخفاها رؤساؤهم عن

(١) الطبري ١١/١٢٢ . (٢) وقيل المعنى : لستم بفارين من العذاب بل هو مدرككم لا محالة ، من تفسير الطبري .

ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ

الضعفاء الذين أضلوهم مخافة التعيير[1] ﴿وقُضي بينهم بالقسط﴾ أي قُضي بين الخلائق بالعدل ﴿وهم لا يُظلمون﴾ أي لا يظلمون من أعمالهم شيئاً ، ولا يُعاقبون إلا بجريرتهم ﴿ألا إنَّ لله ما في السموات والأرض﴾ « ألاَ » كلمة تنبيه للسامع تزاد في أول الكلام أي انتبهوا لما أقول لكم فكل ما في السموات والأرض ملكٌ لله ، لا شيء فيها لأحدٍ سواه ، هو الخالق وهو المالك ﴿ألاَ إن وعد الله حقٌ﴾ أي إن وعده بالبعث والجزاء حقٌ كائن لا محالة ﴿ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون﴾ ولكنَّ أكثر الناس لقصور عقولهم ، واستيلاء الغفلة عليهم ، لا يعلمون ذلك فيقولون ما يقولون ﴿هو يحْيي ويُميت وإليه تُرْجعون﴾ أي هو سبحانه المحيي والمميتُ ، وإليه مرجعكم في الآخرة فيجازيكم بأعمالكم ﴿يا أيها الناسُ قد جاءتكم موعظةٌ من ربكم﴾ خطابٌ لجميع البشر أي قد جاءكم هذا القرآن العظيم الذي هو موعظةٌ لكم من خالقكم ﴿وشفاءٌ لما في الصدور﴾ أي يشفي ما فيها من الشك والجهل ﴿وهدى ورحمةٌ للمؤمنين﴾ أي وهداية من الضلال ورحمة لأهل الإيمان قال صاحب الكشاف : المعنى قد جاءكم كتابٌ جامعٌ لهذه الفوائد العظيمة من الموعظة ، والتنبيه على التوحيد ، ودواء الصدور من العقائد الفاسدة ، ودعاء إلى الحق ، ورحمة لمن آمن به منكم[2] ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾ قال ابن عباس : فضل الله القرآن ، ورحمته الإسلام[3] والمعنى : ليفرحوا بهذا الذي جاءهم من الله ، من القرآن والإسلام ، فإنه أولى ما يفرحون به ﴿هو خيرٌ مما يجمعون﴾ أي هو خيرٌ مما يجمعون من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية ، والنعيم الزائل ، فإن الدنيا بما فيها لا تساوي جناح بعوضة كما ورد به الحديث الشريف ﴿قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق﴾ خطابٌ لكفار العرب والمعنى : أخبروني أيها المشركون عما خلقه الله لكم من الرزق الحلال ﴿فجعلتم منه حراماً وحلالاً﴾ أي فحرَّمتم بعضه وحلَّلتم بعضه كالبحيرة ، والسائبة ، والميتة قال ابن عباس : نزلت إنكاراً على المشركين فيما كانوا يحلون ويحرمون من البحائر والسوائب ، والحرث والأنعام[4] ﴿قلءَآللّـهُ أذنَ لكم أم على الله تفترون﴾ أي قل لهم يا محمد أخبروني : أحصل إذنٌ من الله لكم بالتحليل والتحريم ، فأنتم فيه ممتثلون

(١) تفسير الجلالين ٢/ ١٩٢ وقال في البحر : وإخفاء الندامة هو من كونهم بُهتوا لرؤ يتهم ما لم يحسبوه ولا خطر ببالهم ، ومعاينتهم ما أوهى قواهم ، فلم يطيقوا عند ذلك بكاءً ولا صراخاً ، كما يعرض لمن يُقدّم للصلب لا يكاد ينبس بكلمة ، ويبقى مبهوتاً جامداً .

(٢) الكشاف ٢/ ٣٥٣.(٣) البحر ٥/ ١٧١.(٤) المختصر ٢/ ١٩٨.

وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ

لأمره ، أم هو مجرد افتراء وبهتان على ذي العزة والجلال ؟ ﴿وما ظنُّ الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة﴾ أي وما ظنُّ هؤلاء الذين يتخرصون على الله الكذب فيحلون ويحرمون من تلقاء أنفسهم ، أيحسبون أن الله يصفح عنهم ويغفر يوم القيامة ؟ كلاَّ بل سيصليهم سعيراً ، وهو وعيدٌ شديد للمفترين ﴿إنَّ الله لذو فضلٍ على الناس﴾ أي لذو إنعام عظيم على العباد حيث رحمهم بترك معاجلة العذاب ، وبالإنعام عليهم ببعثة الرسل وإنزال الكتب ﴿ولكنَّ أكثرهم لا يشكرون﴾ أي لا يشكرون النعم بل يجحدون ويكفرون ﴿وما تكونُ في شأن﴾ الخطابُ للرسول ﷺ أي ما تكون يا محمد في أمرٍ من الأمور ، ولا عملٍ من الأعمال ﴿وماتتلوا منه من قرآن﴾ أي وما تقرأ من كتاب الله شيئاً من القرآن ﴿ولا تعملون من عمل﴾ أي ولا تعملون أيها الناس من خير أو شر ﴿إلا كنّا عليكم شهوداً إذْ تُفيضون فيه﴾ أي إلا كنا شاهدين رقباء ، نحصي عليكم أعمالكم حين تندفعون وتخوضون فيها ﴿وما يعزُب عن ربك﴾ أي ما يغيب ولا يخفى على الله ﴿من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء﴾ أي من وزن هباءة أو نملة صغيرة في سائر الكائنات أو الموجودات ﴿ولا أصغرَ من ذلك ولا أكبرَ إلا في كتابٍ مبين﴾ أي ولا أصغر من الذرة ولا أكبر منها إلا وهو معلوم لدينا ومسجَّل في اللوح المحفوظ قال الطبري : والآية خبرٌ منه تعالى أنه لا يخفى عليه أصغر الأشياء وإن خفَّ في الوزن ، ولا أكبرها وإن عظم في الوزن ، فليكن عملكم أيها الناس فيما يرضي ربكم ، فإنّا محصوها عليكم ومجازوكم بها[1] ﴿ألا إن أولياء اللـه لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي انتبهوا أيها الناس واعلموا أن أحباب الله وأولياءه لا خوف عليهم في الآخرة من عذاب الله ، ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا ، ثم بيَّن تعالى هؤلاء الأولياء فقال ﴿الذين آمنواوكانوا يتقون﴾ أي الذين صدّقوا الله ورسوله ، وكانوا يتقون ربهم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، فالوليُّ هو المؤمن التقيُّ وفي الحديث (إنَّ لله عباداً ما هم بأنبياءَ ولا شهداءَ ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله ، قالوا أخبرنا من هم ؟ وما أعمالهم ؟ فلعلَّنا نحبُّهم ، قال : هم قومٌ تحابّوا في الله ، على غير أرحامٍ بيْنهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنورٌ ، وإنهم لعلى منابرَ من نور ، لا يخافون إذا خاف الناسُ ، ولا يحزنون إذا حزن الناس ثم قرأ ﴿ألا إنَّ أولياء الله . . ﴾الآية[2]) ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ أي لهم ما يسرهم في الدارين ، حيث تبشرهم الملائكة[3] عند الاحتضار برضوان الله ورحمته ، وفي الآخرة بجنان

(١) الطبري ١١/ ١٣٠ . (٢) الطبري ١١/ ١٣٢ . (٣) ذهب بعض المفسرين إلى أن البشارة في الدنيا هي « الرؤ ية الصالحة » التي يراها المؤمن أو تُرى له ، وقد ورد ذلك في حديث أخرجه الحاكم ، واختار الطبري أن البشارة تكون بالرؤ ية الصالحة وببشارة الملائكة عند الموت

ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

النعيم والفوز العظيم كقوله ﴿إن الذين قالوا ربُّنا اللهُ ثم استقاموا تتنزّل عليهم الملائكةُ ألاّ تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾ ﴿لا تبديل لكلمات الله﴾ أي لا إخلاف لوعده ﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾ أي هو الفوز الذي لا فوز وراءه ، والظفر بالمقصود الذي لا يُضاهى ﴿ولا يحزنك قولهم﴾ أي لا يحزنك ولا يؤلمك يا محمد تكذيبهم لك وقولهم : لستَ نبياً مرسلاً ، ثم ابتدأ تعالى فقال ﴿إن العزّة لله جميعاً﴾ أي القوة الكاملة ، والغلبة الشاملة ، لله وحده ، فهو ناصرك ومانعك ومعينك ، وهو المنفرد بالعزّة يمنحها أولياءه، ويمنعها أعداءه ﴿هو السميع العليم﴾ أي السميع لأقوالهم، العليم بأعمالهم ﴿ألا إنّ لله من في السموات ومن في الأرض﴾ أي الجميع له سبحانه عبيداً وملكاً وخلقاً ﴿وما يتّبع الذين يدعون من دون الله شركاء﴾ أي وما يتبع هؤلاء المشركون الذين يعبدون غير الله آلهة على الحقيقة ، بل يظنون أنها تشفع أو تنفع ، وهي لا تملك لهم ضراً ولا نفعاً ﴿إن يتبعون إلا الظنّ﴾ أي ما يتبعون إلا ظناً باطلاً ﴿وإن هم إلا يخْرصون﴾ أي يحْدسون ويكذبون ، يظنون الأوهام حقائق ﴿هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه﴾ تنبيهٌ على القدرة الكاملة والمعنى من دلائل قدرته الدالة على وحدانيته ، أن جعل لكم أيها الناس الليل راحةً لأبدانكم تستريحون فيه من التعب والنصب في طلب المعاش ﴿والنهار مبصراً﴾ أي وجعل النهار مضيئاً تبصرون فيه الأشياء لتهتدوا إلى حوائجكم ومكاسبكم ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾ أي لعلامات ودلالات على وحدانيَّة الله ، لقوم يسمعون سمع اعتبار ، ثم نبّه تعالى على ضلال اليهود والنصارى والمشركين فقال ﴿قالوا اتخذ الله ولداً﴾ أي نسب اليهود والنصارى لله ولداً[1] فقالوا : عزير ابن الله ، والمسيح ابن الله، كما قال كفار مكة : الملائكة بناتُ الله ﴿سبحانه هو الغني﴾ أي تنزَّه الله وتقدّس عما نسبوا إليه فإنه المستغني عن جميع الخلق ، فإن اتخاذ الولد إنما يكون للحاجة إليه ، والله تعالى غير محتاج إلى شيء ، فالولد منتفٍ عنه ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ أي الجميع خلقه وملكه ﴿إن عندكم من سلطان بهذا﴾ أي ما عندكم من حجة بهذا القول ﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ أي أتفترون على الله

(١) يا له من جهل وحمق ينسبون إلى العلي الأعلى ما ينزهون عنه رهبانهم ويزعمون أنهم مقدسون لا يتزوجون !!

وتكذبون بنسبه الشريك والولد ؟ وهو توبيخ وتقريع على جهلهم . ﴿قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾ أي كل من كذب على الله لا يفوز ولا ينجح ﴿متاعٌ في الدنيا﴾ أي متاعٌ قليل في الدنيا يتمتعون به مدة حياتهم ﴿ثم إلينا مرجعهم﴾ أي ثم معادهم ورجوعهم إلينا للجزاء والحساب ﴿ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾ أي ثم في الآخرة نذيقهم العذاب الموجع الأليم بسبب كفرهم وكذبهم على الله .

البَـلاَغَـة : ١ ـ ﴿من يؤ من به . . ومن لا يؤ من﴾ بينهما طباقُ السلب .

٢ ـ ﴿تسمعُ الصمّ . . تهدي العُمي﴾ الصُّمُ والعميُ مجازٌ عن الكافرين شبههم بالصُّم والعمي لتعاميهم عن الحق .

٣ ـ ﴿ضراً ولا نفعاً﴾ بينهما طباقٌ وكذلك بين ﴿بياتاً ونهاراً﴾ وبين ﴿يحيي ويُميت﴾ وبين ﴿يستقدمون . . ويستأخرون﴾ .

٤ ـ ﴿شفاءٌ لما في الصدور﴾ مجاز مرسل أطلق المحلَّ وأراد الحالَّ أي شفاءٌ للقلوب لأن الصدور محلٌّ القلوب .

٥ ـ ﴿حراماً وحلالاً﴾ بينهما طباق .

٦ ـ ﴿والنهارَ مبصراً﴾ قال في تلخيص البيان : هذه استعارة عجيبة ، سمّى النهار مبصراً لأن الناس يبصرون فيه ، فكأن ذلك صفة الشيء بما هو سبب له على طريق المبالغة كما قالوا : ليلٌ أعمى وليلةٌ عمياء إذا لم يبصر الناس فيها شيئاً لشدة إظلامها[1] .

٧ ـ ﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ استفهام توبيخ وتقريع .

فَـائِـدَة : أمر تعالى رسوله ﷺ بالحلف في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم في هذه السورة ﴿قل إي وربي إنه لحقٌ﴾ وفي سورة سبأ ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم﴾ وفي سورة التغابن ﴿زعم الذين كفروا أن لن يُبعثوا قل بلى وربي لتبعثنَّ﴾ ذكره ابن كثير .

تَـنْبِيـه : كلمة « أرأيتَ » تستعمل بمعنى الاستفهام عن الرؤية البصرية ، أو العلمية ، وهذا أصل وضعها ثم استعملت بمعنى « أخبرني » فيقولون : أرأيت ذلك الأمر أي أخبرني عنه ، والرؤية إما بصرية أو علمية والتقدير : أأبصرت حالته العجيبة ، أو أعرفت أمره العجيب ؟ فأخبرني عنها ، ولذا لم تستعمل في غير الأمر العجيب ، ﴿أرأيت الـذي يكذب بالدين﴾ ؟ ﴿أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلّى﴾ ؟ وهكذا .

* * *

قال الله تعالى : ﴿واتل عليهم نبأ نوح . . إلى . . ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون﴾ من آية (٧٢) إلى نهاية آية (٨٩) .

---

(١) تلخيص البيان للشريف الرضي ١٥٦ .

المناسَبَة : لما ذكر تعالى الدلائل الدالة على وحدانيته ، وذكر ما جرى بين الرسول ﷺ وكفار مكة ، ذكر هنا بعض قصص الأنبياء ، تسلية للرسول ﷺ ليتأسى بهم فيهون عليه ما يلقاه من الشدائد والمكاره ، وقد ذكر تعالى هنا ثلاث قصص : ١ ـ قصة نوح عليه السلام مع قومه ٢ ـ قصة موسى وهارون مع الطاغية فرعون ٣ ـ قصة يونس مع قومه ، وفي كل قصة عبرةٌ لمن اعتبر ، وذكرى لمن تدبر .

اللغَة : ﴿كبُر﴾ قال الواحدي : كَبِرَ يكْبَرُ كِبَراً في السنِّ ، وكبُر الأمرُ والشيءُ يكبُرُ كُبْراً وكُبَارةً إذا عظُم[1] ﴿فأجمعوا﴾ الإجماع : الإعداد والعزيمة على الأمر وأنشد الفراء :

يا ليتَ شعري والمُنَى لا ينفعُ ... هلْ أغدونْ يوماً وأمري مُجْمعُ[2]

﴿غُمّة﴾ مبهماً من قولهم غُمَّ علينا الهلال فهو مغموم إذا التبس واستتر قال طَرَفة :

لعمرك ما أمري عليَّ بِغُمَّةٍ ... نهاري ولا ليلي عليَّ بسرْمَد

﴿نطبع﴾ نختم ﴿تلفتنا﴾ تصرفنا وتلوينا واللفت : الصرف عن أمرٍ وأصله اللّيُّ يقال لفت عنقه إذا لواها ﴿الكبرياء﴾ العظمة والملك والسلطان ﴿عالٍ﴾ عاتٍ متكبر ﴿المسرفين﴾ المجاوزين الحد في الضلال والطغيان ﴿اطمس﴾ الطمسُ : المسخ قال الزجاج : طمسُ الشيء إذهابه عن صورته ومنه عينٌ مطموسة .

* وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ

التفسِير : ﴿واتْلُ عليهم نبأ نوح﴾ أي اقرأ يا محمد على المشركين من أهل مكة خبر أخيك نوح مع قومه المكذبين ﴿إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبُر عليكم﴾ أي حين قال لقومه الجاحدين المعاندين يا قوم إن كان عظُم وشقَّ عليكم ﴿مقامي وتذكيري بآيات الله﴾ أي طولُ مقامي ولبثي فيكم ، وتخويفي إياكم بآيات ربكم ، وعزمتم على قتلي وطردي ﴿فعلَى الله توكَّلت﴾ أي على الله وحده اعتمدت ، وبه وثقت فلا أبالي بكم ﴿فأجمعوا أمركم وشركاءكم﴾ أي فاعزموا أمركم وادعوا شركاءكم ، ودبّروا ما تريدون لمكيدتي ﴿ثم لا يكنْ أمركُم عليكم غُمَّةً﴾ أي لا يكن أمركم في شأني مستوراً بل مكشوفاً مشهوراً ، ﴿ثم اقضوا إليَّ ولا تُنْظرون﴾ أي أنْفذوا ما تريدونه في أمري ولا تؤخروني ساعة واحدة ، قال أبو السعود : وإنما خاطبهم بذلك إظهاراً لعدم المبالاة ، وثقةً بالله وبوعده من عصمته وكلاءته[3] ﴿فإن توليتم فما سألتكم من أجر﴾ أي فإن أعرضتم عن نصيحتي وتذكيري

(١) الرازي ١٧/ ١٣٦ . (٢) القرطبي ٨/ ٣٦٣ . (٣) أبو السعود ٢/ ٣٤١ .

فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ

فليس لأني طلبت منكم أجراً حتى تمتنعوا ، بل لشقاوتكم وضلالكم ﴿إن أجريَ إلاّ على اللهِ﴾ أي ما أطلب ثواباً أو جزاءً على تبليغ الرسالة إلا من الله ، وما نصحتكم إلا لوجه الله لا لغرضٍ من أغراض الدنيا ﴿وأُمرتُ أن أكون من المسلمين﴾ أي من الموحدين لله تعالى ﴿فكذَّبوهُ فنجّيناه ومنْ معه في الفُلْك﴾ أي فأصروا واستمروا على تكذيب نوح فنجيناه ومن معه من المؤمنين في السفينة ﴿وجعلناهم خلائف﴾ أي جعلنا من معه من المؤمنين سكان الأرض وخلفاً ممن غرق ﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا﴾ أي أغرقنا المكذبين بالطوفان ﴿فانظر كيف كان عاقبةُ المُنْذَرين﴾ أي انظر يا محمد كيف كان نهاية المكذبين لرسلهم ؟ والغرض : تسلية للرسول ﷺ والتحذير لكفار مكة أن يحل بهم ما حلَّ بالسابقين ﴿ثم بعثنا من بعده رسلاً إلى قومهم﴾ أي أرسلنا من بعد نوح رسلاً إلى قومهم يعني هوداً وصالحاً ولوطاً وإبراهيم وشعيباً ﴿فجاءوهم بالبينات﴾ أي بالمعجزات الواضحات ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل﴾ أي ما كانوا ليصدقوا بما جاءتهم به الرسل ، ولم يزجرهم عقاب السابقين ﴿كذلك نطبع على قلوب المعتدين﴾ أي كذلك نختم على قلوب المجاوزين الحدَّ في الكفر والتكذيب والعناد ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملائه﴾ أي بعثنا من بعد أولئك الرسل والأمم موسى وهارون إلى فرعون وأشراف قومه ﴿بآياتنا﴾ أي بالبراهين والمعجزات الباهرة ، وهي الآيات التسع المذكورة في سورة الأعراف ﴿فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين﴾ أي تكبروا عن الإيمان بها وكانوا مفسدين ، تعوّدوا الإجرام وارتكاب الذنوب العظام ﴿فلمّا جاءهم الحق من عندنا قالوا إنَّ هذا لسحرٌ مبين﴾ أي فلما وضح لهم الحق الذي جاءهم به موسى من اليد والعصا قالوا لفرط عتوهم وعنادهم : هذا سحرٌ ظاهرٌ بيِّن أراد به موسى أن يسحرنا ﴿قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي أتقولون عن هذا الحق إنه سحرٌ ؟ ثم أنكر عليهم أيضاً باستفهام آخر ﴿أسحرٌ هذا﴾ أي أسحرٌ هذا الذي جئتكم به ؟ ﴿ولا يفلح الساحرون﴾ أي والحال أنه لا يفوز ولا ينجح الساحرون ﴿قالوا أجئتنا لتلفتنا عمّا وجدنا عليه آباءنا﴾ أي أجئتنا لتصرفنا وتلوينا عن

عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ

دين الآباء والأجداد ؟ ﴿**وتكون لكما الكبرياءُ في الأرض**﴾ أي يكون لك ولأخيك هارون العظمة والملك والسلطان في أرض مصر ﴿**وما نحن لكما بمؤمنين**﴾ أي ولسنا بمصدقين لكما فيا جئتا به ﴿**وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم**﴾ أي ائتوني بكل ساحر ماهر ، عليمٍ بفنون السحر ﴿**فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون**﴾ في الكلام محذوف تقديره فأتوه بالسحرة فلما جاءوا قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون من حبالكم وعصيكم ﴿**فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحرُ**﴾ أي ما جئتم به الآن هو السحرُ لا ما اتهمتموني به ﴿**إن الله سيبطله**﴾ أي سيمحقه وسيذهب به ويظهر بطلانه للناس ﴿**إن الله لا يصلح عمل المفسدين**﴾ أي لا يصلح عمل من سعى بالفساد ﴿**ويحق الله الحق بكلماته**﴾ أي يثبت الله الحق ويقوّيه بحججه وبراهينه ﴿**ولو كره المجرمون**﴾ أي ولو كره ذلك الفجرة الكافرون ﴿**فما آمن لموسى إلا ذريةٌ من قومه**﴾ أي فما آمن مع موسى ولا دخل في دينه ، مع مشاهدة تلك الآيات الباهرة إلا نفرٌ قليلٌ من أولاد بني إسرائيل قال **مجاهد** : هم أولاد الذين أُرسل إليهم موسى من طول الزمان ومات آباؤ هم[1] ﴿**على خوفٍ من فرعون وملائهم أن يفتنهم**﴾ أي على تخوف وحذر من فرعون وملأه أن يعذبهم ويصرفهم عن دينهم ﴿**وإنّ فرعون لعالٍ في الأرض**﴾ أي عاتٍ متكبر مفسد في الأرض ﴿**وإنه لمن المسرفين**﴾ أي المتجاوزين الحدَّ بادعاء الربوبية ﴿**وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله**﴾ أي قال لقومه لما رأى تخوف المؤمنين من فرعون يا قوم إن كنتم صدقتم بالله وبآياته ﴿**فعليه توكلوا**﴾ أي على الله وحده اعتمدوا فإنه يكفيكم كل شرٍّ وضُرّ ﴿**إن كنتم مسلمين**﴾ أي إن كنتم مستسلمين لحكم الله منقادين لشرعه ﴿**فقالوا على الله توكلنا**﴾ أي أجابوا قائلين : على ربنا اعتمدنا وبه وثقنا ﴿**ربَّنا لا تجعلنا فتنةً للقوم الظالمين**﴾ أي لا تسلّطهم علينا حتى يعذبونا ويفتنونا بنا فيقولوا : لو كان هؤلاء على الحق لما أصيبوا ﴿**ونجّنا برحمتك من القوم الكافرين**﴾ أي خلّصنا وأنقذنا بفضلك وإنعامك من كيد فرعون وأنصاره الجاحدين ﴿**وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوّءا**

(١) اختار الإمام الجلال أن الطائفة التي آمنت بموسى هم من آل فرعون وما ذكرناه هو اختيار الطبري والجمهور وهو الأرجح .

وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

لقومكما بمصر بيوتاً﴾ أي اتخذا لهم بيوتاً للصلاة والعبادة ﴿واجعلوا بيوتكم قِبلة﴾ أي اجعلوها مصلّى [1] تصلون فيها عندالخوف قال ابن عباس : كانوا خائفين فأُمروا أن يصلّوا في بيوتهم[2] ﴿وأقيموا الصلاة﴾ أي أدوا الصلاة المفروضة في أوقاتها ، بشروطها وأركانها على الوجه الأكمل ﴿وبشّرِ المؤمنين﴾ أي بشّر يا موسى أتباعك المؤمنين بالنصر والغلبة على عدوهم ﴿وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينةً وأموالاً في الحياة الدنيا﴾أي قال موسى يا ربنا إنك أعطيت فرعون وكبراء قومه وأشرافهم ،زينةً من متاع الدنيا وأثاثها ، وأنواعاً كثيرة من المال ﴿ربَّنا ليُضلوا عن سبيلك﴾ اللام لامُ العاقبة[3] أي آتيتهم تلك الأموال الكثيرة لتكون عاقبة أمرهم إضلال الناس عن دينك ، ومنعهم عن طاعتك وتوحيدك ﴿ربَّنا اطمسْ على أموالهم﴾ دعاءٌ عليهم أي أهلكْ أموالهم يا ألله وبدِّدْها ﴿واشدُدْ على قلوبهم﴾ أي قسِّ قلوبهم واطبع عليها حتى لا تنشرح للإيمان قال ابن عباس : أي امنعهم الإيمان ﴿فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾ دعاءٌ عليهم بلفظ النفي أي اللهمَّ فلا يؤمنوا حتى يذوقوا العذاب المؤلم ويوقنوا به حيث لا ينفعهم ذلك ، وإنما دعا عليهم موسى لطغيانهم وشدة ضلالهم ، وقد علم بطريق الوحي أنهم لن يؤمنوا فدعا عليهم قال ابن عباس : كان موسى يدعو وهارون يؤمِّن فنسبت الدعوة إليهما[4] ﴿قال قد أُجيبتْ دعوتُكما﴾ أي قال تعالى قد استجبتُ دعوتكما على فرعون وأشراف قومه ﴿فاستقيما﴾ أي اثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة إلى الله وإلزام الحجة ﴿ولا تتبعانّ سبيل الذين لا يعلمون﴾ أي لا تسلكا سبيل الجهلة في الاستعجال أو عدم الاطمئنان بوعد الله تعالى ، قال الطبري : رُوي أنه مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة[5] ثم أغرق الله فرعون .

البَـلاَغَـة : ١ ـ ﴿فعلى اللهتوكلتُ﴾ تقديم ما حقه التأخير لإفاده الحصر أي على الله لا على غيره .

٢ ـ ﴿ويُحقُّ الحقَّ﴾ بينهما جناس الاشتقاق .

٣ ـ ﴿لا يكن أمركم عليكم غمة﴾ عبَّر عن الالتباس والستر بالغُمة بطريق الاستعارة أي لا يكن أمركم مغطّى تغطية حيرة ومبهما فيكون كالغمة العمياء .

٤ ـ ﴿واشدد على قلوبهم﴾ الشدُّ استعارةٌ عن تغليظ العقاب ، ومضاعفة العذاب .

---

(١) وقيل : المراد اجعلوا بيوتكم موجهة إلى جهة القبلة . (٢) الطبري ١١/ ١٥٤ .

(٣) هذه اللام كقوله تعالى ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً﴾ وفي الخبر (لدوا للموتِ وابنوا للخراب) أي لتكون العاقبة الموت والخراب . (٤) البحر ٥/ ١٨٧ . (٥) الطبري ١١/ ١٦١ .

تـنبيـه : قال ابن كثير : دعوة موسى على فرعون كانت غضباً لله ولدينه كما دعا نوح على قومه فقال ﴿ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ، إنك إن تذرهم يضلّوا عبادك﴾ ولهذا استجاب الله لموسى دعوته التي شاركه فيها أخوه هارون ، كما استجاب دعوة نوح عليه السلام .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر . . إلى . . وهو خير الحاكمين﴾ من آية (٩٠) إلى نهاية السورة الكريمة .

المناسبة : لمّا ذكر تعالى دعاء موسى على فرعون لطغيانه ، ذكر هنا ما حدث لفرعون وجنوده من الإغراق في البحر نتيجة البغي والعدوان ، وأن إيمانه لم ينفعه لأنه إيمان المضطر ، ثم ذكر قصة يونس وتوبة الله تعالى على قومه ، وختم السورة الكريمة ببيان حقيقة التوحيد ، وأن الإنسان لا ينجيه عند الله إلا الإيمان .

اللغة : ﴿بوأنا﴾ أنزلنا وأسكنّا ﴿الممترين﴾ الشاكّين ، امترى : شكّ وارتاب ﴿فلولا﴾ لولا للتحضيض بمعنى هلاّ ﴿الرجس﴾ العذاب أو السخط ﴿حنيفاً﴾ مائلاً عن الأديان الباطلة كلّها ﴿يمسسك﴾ يصبك ﴿كاشف﴾ دافع ومزيل يقال : كشف السوء أي أزاله ﴿بوكيل﴾ بحفيظ موكول إليَّ أمركم .

* وَجَاوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا

التفسير : ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر﴾ أي قطعنا وعدّينا ببني إسرائيل البحر « بحر السويس » حتى جاوزوه ﴿فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً﴾ أي لحقهم فرعونُ مع جنوده ظلماً وعدواناً وطلباً للاستعلاء بغير حق ﴿حتى إذا أدركه الغرق﴾ أي حتى إذا أحاط به الغرق وأيقن بالهلاك ﴿قال آمنتُ أنه لا إله إلا الذي آمنتْ به بنو إسرائيل﴾ أي قال عندئذٍ أقررتُ وصدقتُ بأنه لا إله إلا اللهُ ربُّ العالمين ، الذي آمنت وأقرت به بنو إسرائيل ﴿وأنا من المسلمين﴾ تأكيدٌ لدعوى الإيمان أي وأنا ممّن أسلم نفسه لله ، وأخلص في إيمانه قال ابن عباس : جعل جبريل عليه السلام في فم فرعون الطين مخافة أن تدركه الرحمة[1] ﴿ءالآنَ وقد عصيتَ قبلُ وكنت من المفسدين﴾ أي الآن تؤمن حين يئست من الحياة ، وقد عصيت الله قبل نزول نقمته بك ، وكنتَ من الغالين في الضلال والإضلال والصدِّ عن دين الله؟ ﴿فاليوم ننجّيك ببدنك﴾ أي فاليوم نخرجك من البحر بجسدك الذي لا روح فيه ﴿لتكون لمن خلفك آية﴾ أي لتكون عبرةً لمن بعدك من الناس ، ومن الجبابرة والفراعنة ، حتى لا يطغوا مثل طغيانك قال ابن عباس :

(١) الطبري ١١/١٦٣ والمراد بإدراك الرحمة النجاة من الغرق كما كان طلب المخذول ، قاله أبو السعود .

لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ

إن بعض بني إسرائيل شكّوا في موت فرعون ، فأمر الله البحر أن يلقيه بجسده سوياً بلا روح ليتحققوا موته وهلاكه[١] ﴿وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون﴾ أي معرضون عن تأمل آياتنا لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها ﴿ولقد بوأنا بني إسرائيل مُبوأ صدق﴾ أي أنزلنا وأسكنا بني إسرائيل بعد إهلاك أعدائهم منزلاً صالحاً مرضياً ﴿ورزقناهم من الطيبات﴾ أي اللذائذ الطيبة النافعة ﴿فما اختلفوا حتى جاءهم العلم إنَّ ربَّك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ أي فما اختلفوا في أمر الدين إلا من بعد ما جاءهم العلم وهو التوراة التي فيها حكم الله ، وهذا ذمٌ لهم لأن اختلافهم كان بسبب الدين ، والدينُ يجمع ولا يفرّق، ويوحّد ولا يشتت وقال الطبري : كانوا قبل أن يُبعث محمدﷺ مجمعين على نبوته ، والإقرار بمبعثه ، فلما جاءهم ما عرفوا كفر به بعضهم ، وآمن البعض ، فذلك اختلافهم[٢] ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك﴾ هذا على سبيل الفرض والتقدير : أي إن فرض أنك شككت فاسأل قال ابن عباس : لم يشك النبيﷺ ولم يسأل وقال الزمخشري : هذا على الفرض والتمثيل كأنه قيل : فإن وقع شكٌ مثلاً ، وخيَّل لك الشيطان خيالاً تقديراً فسل علماء أهل الكتاب ، وفرقٌ عظيم بين قوله ﴿وإنهم لفي شك منه مريب﴾ بإثبات الشك على سبيل التأكيد والتحقيق وبين قوله ﴿فإن كنت في شك﴾ بمعنى الفرض والتمثيل[٣] وقال بعضهم : الخطاب للنبيﷺ والمراد غيره ﴿فاسأل الّذين يقرءونَ الكتابَ من قبلك﴾ أي اسأل أهل الكتاب الذين يعرفون التوراة والإنجيل ، فإن ذلك محقَّق عندهم كما قصصنا عليك ، والغرضُ دفع الشك عن قصص القرآن ﴿لقد جاءكَ الحقُّ من ربك﴾ أي جاءك يا محمد البيانُ الحق ، والخبر الصادق ، الذي لا يعتريه شك ﴿فلا تكوننَّ من الممترين﴾ أي فلا تكن من الشاكين المرتابين ﴿ولا تكوننَّ من الذين كذَّبوا بآيات الله﴾ أي لا تكذّبْ بشيءٍ من آيات الله ﴿فتكونَ من الخاسرين﴾ أي فتصبح ممن خسر دنياه وآخرته ، قال البيضاوي : وهذا من باب التهييج والتثبيت وقطع أطماع المشركين عنه[٤] وقال القرطبي : الخطابُ في هاتين الآيتين للنبيﷺ والمراد غيره[٥] ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك﴾ أي وجبت عليهم كلمة العذاب بإرادة الله الأزلية ﴿لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية﴾ أي لا يصدقون ولا يؤ منون

(١) المختصر ٢/ ٢٠٦ . (٢) الطبري ١١/ ١٦٧ . (٣) الكشاف ٢/ ٣٧٠ . (٤) البيضاوي ٢٤٥ . (٥) القرطبي ٨/ ٣٨٣ .

﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾

أبداً ولو جاءتهم البراهين والمعجزات ﴿حتى يروا العذاب الأليم﴾ أي فحينئذٍ يؤمنون كما آمن فرعون ولكن لا ينفعهم الإيمان ﴿فلولا كانت قريةٌ آمنتْ فنفعها إيمانها﴾ أي فهلاّ كانت قرية واحدة من القرى التي أهلكناها ، تابتْ عن الكفر وأخلصت الإيمان عند معاينة العذاب فنفعها إيمانها في ذلك الوقت ﴿إلا قوم يونس﴾ أي غير قوم يونس ﴿لمّا آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا﴾ أي لما تابوا عن الكفر وآمنوا بالله رفعنا عنهم العذاب المخزي المهين في الحياة الدنيا ﴿ومتعناهم إلى حين﴾ أي أخرناهم إلى انتهاء آجالهم قال قتادة : روي أن يونس أنذرهم بالعذاب ثم خرج من بين أظهرهم ، فلما فقدوا نبيَّهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم ، قذف الله في قلوبهم التوبة ولبسوا المُسُوح، فلما عرف الله الصدق من قلوبهم ، والتوبة والندم على ما مضى منهم ، كشف الله عنهم العذاب[1] ﴿ولو شاء ربك لآمن مَنْ في الأرض كلُّهم جميعاً﴾ أي لو أراد الله لآمن الناس جميعاً ، ولكنْ لم يشأ ذلك لكونه مخالفاً للحكمة ، فإنه تعالى يريد من عباده إيمان الاختيار ، لا إيمان الإكراه والاضطرار ﴿أفأنتَ تكره الناسَ حتى يكونوا مؤمنين﴾ ؟ أي أفأنت يا محمد تُكره الناس على الإيمان ، وتضطرهم إلى الدخول في دينك ؟ ليس ذلك إليك ، والآية تسليةٌ له ﷺ وترويحٌ لقلبه مما كان يحرص عليه من إيمانهم قال ابن عباس : كان النبيُّ ﷺ حريصاً على إيمان جميع الناس ، فأخبره تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبقت له السعادة في الذّكر الأول ، ولا يضلُّ إلا من سبقت له الشقاوة في الذكر الأول[2] ﴿وما كان لنفسٍ أن تؤمن إلا بإذن الله﴾ أي ما كان لأحدٍ أن يؤمن إلا بإرادته تعالى وتوفيقه ﴿ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون﴾ أي ويجعل العذاب على الذين لا يتدبرون آيات الله ، ولا يستعملون عقولهم فيما ينفع ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكفار : انظروا نظر تفكر واعتبار ، ما الذي في السموات والأرض من الآيات الدالة على وحدانيته وكمال قدرته سبحانه ؟ ﴿وما تغني الآياتُ والنُّذر عن قوم لا يؤمنون﴾ أي وما تنفع الآيات والإنذارات قوماً سبق لهم من الله الشقاء ﴿فهل ينتظرون إلا مثلَ أيام الذين خلوا من قبلهم﴾ أي فهل ينتظر مشركو مكة إلا مثل أيام أسلافهم ، وما حلَّ بهم من العذاب والنكال ؟ ﴿قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾ أي قل لهم يا محمد : انتظروا عاقبة البغي

(١) الطبري ١١/ ١٧١ . (٢) القرطبي ٨/ ٣٨٥ .

﴿إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين ﴿١٠٤﴾ وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين ﴿١٠٥﴾ ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين ﴿١٠٦﴾ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم ﴿١٠٧﴾ قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل ﴿١٠٨﴾ واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ﴿١٠٩﴾﴾

والتكذيب إني من المنتظرين هلاككم ودماركم ﴿ثم ننجّي رسلنا والذينَ آمنوا كذلك﴾ أي ثم إذا نزل العذاب بالمكذبين نُنجّي الرسل والمؤمنين إنجاءً مثل ذلك الإنجاء ﴿حقاً علينا نُنْجي المؤمنين﴾ أي حقاً ثابتاً علينا من غير شك قال الربيع بن أنس : خوَّفهم عذابه ونقمته ، ثم أخبرهم أنه إذا وقع من ذلك أمرٌ أنجى الله رسله والذين آمنوا معه[١] ﴿قل يا أيها الناسُ إن كنتم في شكٍ من ديني﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك إن كنتم في شك من حقيقة ديني وصحته ﴿فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله﴾ أي فلا أعبد ما تعبدون من الأوثان والأصنام التي لا تنفع ولا تضر ﴿ولكنْ أعبدُ الله الذي يتوفاكم﴾ أي ولكني أعبد الله الذي يتوفاكم ، وبيده محياكم ومماتكم ، قال الطبري : وهذا تعريضٌ ولحنٌ من الكلام لطيف ، وكأنه يقول : لا ينبغي لكم أن تشكّوا في ديني ، وإنما ينبغي أن تشكّوا في عبادة الأصنام التي لا تعقل ولا تضر ولا تنفع ، فأما إلهي الذي أعبده فهو الذي يقبض الخلق وينفع ويضر[٢] ﴿وأُمرتُ أن أكون من المؤمنين﴾ أي وأنا مأمور بأن أكون مؤمناً موحّداً لله لا أشرك معه غيره ﴿وأن أقم وجهك للدين حنيفاً﴾ أي وأمرتُ بالاستقامة في الدين ، على الحنيفية السمحة ملةِ إبراهيم ﴿ولا تكوننَّ من المشركين﴾ أي ولا تكوننَّ ممن يشرك في عبادة ربه ﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك﴾ تأكيدٌ للنهي المذكور أي ولا تعبدْ غير الله ممّا لا ينفع ولا يضر كالآلهة والأصنام ﴿فإن فعلتَ فإنك إذاً من الظالمين﴾ أي فإن عبدتَ تلك الآلهة المزعومة كنت ممن ظلم نفسه لأنك عرضتها لعذاب الله ، والخطابُ هنا للرسول ﷺ والمراد غيره كما تقدم ﴿وإن يمسسك الله بضرٍ فلا كاشف له إلا هو﴾ أي وإن أراد الله إصابتك بضرٍّ فلا دافع له إلا هو وحده ﴿وإن يردك بخير فلا رادَّ لفضله﴾ أي وإن أراد إصابتك بنعمة أو رخاء فلا يمنعه عنك مانع ﴿يصيبُ به من يشاء من عباده﴾ أي يصيب بهذا الفضل والإحسان من شاء من العباد ﴿وهو الغفور الرحيم﴾ أي هو سبحانه الغفور لذنوب العباد ، الرحيم بأهل الرشاد ﴿قل يا أيها الناسُ قد جاءكم الحقُّ من ربكم﴾ أي جاءكم القرآن العظيم المشتمل على محاسن الأحكام ﴿فمن

(١) الطبري ١١/ ١٧٦ . (٢) الطبري ١١/ ١٧٦ .

اهتدى فإنمـا يهتدي لنفســه﴾ أي من اهتدى بالإيمان فمنفعة اهتدائه لها خاصة ﴿ومـن ضلَّ فإنما يضـلُّ عليها﴾ أي ومن ضلَّ بالكفر والإعراض فوبال الضلال مقصور عليها ﴿وما أنا عليكـم بوكيـل﴾ أي ولستُ بحفيظ أحفظ عليكم أعمالكم إنما أنا بشيرٌ ونذير ﴿واتّبـع ما يُوحـى إليـك﴾ أي اتّبعْ يا محمد في جميع شئونك ما يوحيه إليك ربك ﴿واصبـر حتـى يحكـم اللـه﴾ أي اصبر على ما يعتريك من مشاقّ التبليغ حتى يقضي الله بينك وبينهم ﴿وهو خيـر الحاكميـن﴾ أي هو سبحانه خير من يفصل في الحكومة ، والآية تسلية للنبي ﷺ ووعيدٌ للمشركين .

البَـلاَغَـة : ١ ـ ﴿آلآن وقد عصيتَ قبـلُ﴾ الاستفهام للتوبيخ والإنكار .

٢ ـ ﴿بوأنا . . مبوأ﴾ بينهما جناس الاشتقاق .

٣ ـ ﴿كلمـة ربك﴾ كناية عن القضاء والحكم الأزلي بالشقاوة .

٤ ـ ﴿ثـم ننجي رسلنا﴾ صيغة المضارع حكاية عن الماضي لتهويل أمرها باستحضار صورتها .

٥ ـ ﴿ما لا ينفعك ولا يضرك﴾ بينهما طباق .

٦ ـ ﴿وإن يمسسك الله بضر . . وإن يردك بخير﴾ بين الجملتين مقابلة لطيفة وهي من المحسنات البديعية .

٧ ـ ﴿فمن اهتدى . . ومن ضـلَّ﴾ بينهما طباقٌ .

٨ ـ ﴿يحكم الله . . الحاكميـن﴾ بينهما جناس الاشتقاق .

فَـائِـدَة : قال الإمام الفخر : آمن فرعون ثلاث مرات : أولها قوله ﴿آمنتُ﴾ وثانيها قوله ﴿لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل﴾ وثالثها قوله ﴿وأنا مـن المسلمين﴾ فما السبب في عدم قبول إيمانه ؟ والجواب : أنه إنما آمن عند نزول العذاب ، والإيمانُ في هذا الوقت غير مقبول ، لأنه يصير الحال حال الإلجاء فلا ينفع التوبة ولا الايمان قال تعالى ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا . .﴾[1]

تَـنْبِيـه : قال المفسرون : إنما نجّى الله بدن فرعـون بعـد الغـرق ، لأن قومـاً اعتقـدوا فيه الإلهية ، وزعموا أن مثله لا يموت ، فأراد الله أن يشاهده الخلق على ذلك الذل والمهانة ، ليتحققوا موته ، ويعرفوا أن الذي كان بالأمس في نهاية الجلالة والعظمة قد آل أمـره إلى الـذل والهـوان ، فيكون عبـرة للخلق ، وزجراً لأهل الطغيان .

«تم تفسير سورة يونس بعون الله وحسن توفيقه ، والحمد لله رب العالمين »

* * *

(١) الرازي ١٧/ ١٥٤ .